مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المجلد الحادي والعشرون

سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114

نخبة من علماء مجمع القرآن الكريم بالشارقة

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م

الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 21 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك :0-18-768-9948-978
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 21 : المجلد الحادي والعشرون، سورة هود من الآية 41 إلى الآية 114.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي :0-18-768-9948-978
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9725944 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ الثَّانِي عشَرَ

سُورَةُ هُودٍ

﴿۞وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ٤١﴾ [هود: 41]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ابتداءُ إهلاكِ المجرمين يُقارنُه إنجاءُ المؤمنين

بعد بيانِ مجيءِ علامات الطّوفان، وأمارات الإهلاك، والأمر بتحميل سفينة النَّجاةِ بمن بهم تستمرُّ الحياةُ، حسُن بعد ذلك ذكرُ الاستجابةِ، وأنَّها بأمر الله تعالى لا بأمر أحدٍ من خلقه، فالمناسبةُ هي بيانُ ترتُّبِ الأمر بالرُّكوبِ والاستجابةِ لأمر الواحد القهّار على الأمر بحملِ ما يستحقُّ أن يُحمل، ومن يستحقُّ أن يكون على متنها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَجۡرٜىٰهَا﴾: أصلُ (جري): يدلُّ على انسياحِ شَيءٍ، يُقالُ: جرى الماء يجري جريةً وجَرْيًا وجَرَيانًا[1]، وجرت السفينةُ جريًا، والجارية: السَّفينة، وهي صفةٌ غالبة[2]، وفي التَّنْزيل: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ١١﴾ [الحاقَّة: 11]؛ سُمّيت بذلك لجريها في البحر، ومنه قيل للأمَة: جاريةٌ، على التَّشبيه لجريها[3]، و﴿مَجۡرٜىٰهَا﴾، أي: مَسيرُها، وإجراؤها بمعنى المصدر الميمي ذي الأصل الرُّباعي من أجريتُه مَجرى وإجراء، أو بمعنى الوقت[4].

2) ﴿وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾: أصلُ (رسو): يدلُّ على ثبات الشَّيء بلزوم أسفله أو باطنه، ورَسَت السَّفينة: بلغ أسفلُها القعْرَ، وانتهى إلى قَرار الماء،

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جرى).
(2) الجوهري، الصِّحاح، وابن سيده، المُحكم والمحيط الأعظم: (جرى).
(3) الفيّومي، المصباح المنير: 1/98.
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 204، والنَّيسابوري، إيجاز البيان: 1/412، وابن جرير، جامع البيان: 12/413، وابن الهائم التِّبيان، ص: 234.

فثبَتَتْ[1]، ومعنى ﴿وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾، أي: رُسوُّها، وموقفها ومحبسها[2] وانتهاءُ سَيرِها، بمعنى المصدر الميمي ذي الأصل الرُّباعي من أرسيته إرساء.

المَعْنى الإجْماليُّ:

رحمةُ الله بالمؤمنين هي في إنجائِهم من رؤيةِ الأشرار ونقلِهم إلى دارِ الأبرار

شرعتِ الآية في ذكر قولِ نوحٍ ﷺ آمرًا أهله والمؤمنين بالرُّكوبِ في السَّفينةِ، مستعينًا باسم الله تعالى في حالِ جريها وإرسائها، معلِّلًا ذلك الأمر بأنَّ الله تعالى هو الرَّبُّ الذي يرعى عبادَه المؤمنين، بغفرانِ ذنوبِهم، وبرحمتهم بأن يُنجّيهم من البقاءِ في دارٍ، الأشرارُ فيها باقون، إلى دارٍ نقيَّةٍ من أعمالِهم، عامرةٍ بالطّاعة والإيمان، فهي رحمةٌ تسبقها مغفرةٌ، ومآلها نجاةٌ في الدّارين.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الواو في ﴿وَقَالَ﴾:

الدَّلالة على كمال الامتثال لأمر الكبير المتعال

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾ عَطْفٌ على جملة ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا﴾، أي: قلنا له ذلك، وقال نوحٌ عليه السلام لمن أُمر بحمله: اركبوا[3]، فالآية الكريمة معطوفة على مضمون الجملة السّابقة مع إضمارِ المعاني، والتقدير: قلنا له ذلك، فامتثلَ أمرنا، وقال لمن معه من المؤمنين: سلِّموا أمركم لمشيئة الله تعالى، وقولوا عند ركوب السَّفينة: باسم الله[4]، وهذا يدلُّ على كمال امتثال نوح عليه السلام لأمر الله وسرعة استجابته لربِّه ومولاه.

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 204، وابن جرير، جامع البيان: 12/415، وابن فارس، مقاييس اللّغة: 2/394، والزَّبيدي، تاج العروس: 19/459، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (رسو).
(2) الكجراتي، مجمع بحار الأنوار: 2/327.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/73.
(4) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/207.

النَّظم والسّياقُ يـعـــزِّزان أنَّ القائل هو نوحٌ عليه السلام

تعيينُ القائلِ في: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾:

اختُلف في تعيين الفاعل في فعل ﴿وَقَالَ﴾، هل هو لنوحٍ عليه السلام أو لله تعالى؟

فقيل: إنَّ الضَّمير المستكن في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ﴾ عائدٌ على نوحٍ عليه السلام، وهو المتبادر من سياق الآية، فلحاق الآيةِ يدُلُّ على أنَّه لنوح لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، وقيل: إنَّه عائد على الله جلَّ في علاه، والتَّقدير: وقال الله لنوحٍ ومن معه[1]: ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾، ويدلُّ عليه سياق الآية: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا﴾، ويكون التفاتًا بالخروج من التَّكلم إلى الغَيبة[2]، والأظهر والأسعد بسياق الآية الكريمة، وهو ما تقتضيه بلاغةُ النَّظم وفصاحة الألفاظ؛ القول الأول.

السَّفينة مركبُ الانتصار ومرتعُ الأبـــرار ومحــلُّ الفرار

الغرض من الاستعارة في (الرُّكوب):

الرُّكوبُ في الأصل العُلوُّ على الشَّيء وغلبته فيه، فيتعدَّى بنفسه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا﴾ [النَّحل: 8]، وقد يُطلق على الصَّيرورة والدُّخول، فيكون معنى ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾ صيروا فيها، وجعل ذلك ركوبًا؛ لأنَّها في الماء كالمركوب في الأرض، ففيه استعارة تصريحيَّة تبعيَّة من حيث تشبيه الصَّيرورة فيها بالرُّكوب[3]، ويلزم له كون الصَّيرورة فيها كالرُّكوب في الأنعام[4]، ولأجل هذا تعدّى الفعل بحرفِ ﴿فِي﴾ الدّال على المحلّيَّة، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ [العنكبوت: 65]؛ فإنَّهم في داخل البطن الأعلى، أو في الوسط، وليسوا على أعلاها، كما يكون الرّاكب على أعلى الدّابَّة، فَشُبِّهوا براكب الدّابَّة[5]، فالجامع بين الرُّكوبَيْن السَّيرُ،

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/36، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/155.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/356.
(3) الشِّهاب الخفاجي، حاشية الشِّهاب على تفسير البيضاوي: 5/165، والآلوسي، روح المعاني: 6/254.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/80.
(5) أطفيش، تيسير التَّفسير: 6/397.

غير أنَّ ركوبَ الدّابَّة يتعدَّى بنفسه، وركوب الفُلك يتعدَّى بحرف الجرِّ ﴿فِي﴾ للفرق بين الأصلِ وهو ركوب الدّابة، والفرعِ وهو الرُّكوب في السَّفينَة، ولا يتعارض هذا مع قوله تعالى: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ٢٢﴾ [المؤمنون: 22]؛ لأنَّ فيه التفاتًا إلى المَركوب لا الرّاكب؛ لأنَّ الرّاكبَ محمول على ظهر السَّفينَة.

سِرُّ الخطاب بضمير العُقلاء في: ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾:

إركابُ الحيواناتِ إركابُ تسييرٍ، وإركابُ البشرِ إركابُ تخييرٍ

خاطبتِ الآيةُ الكريمة المؤمنين من النّاس، أي: ذوي العقول، دون التَّعرُّضِ لغيرِهم من الكائنات المحمولة، وذلك لظهوره وعدم الاعتناء بشأنها كالاعتناءِ بذوي العقول؛ إذ المقصود من الأمر المذكور هو التَّسمية حين الرُّكوب، وهو لا يتصوَّر إلّا في العقلاء[1]، ويحتمل الكلام أن يكون ﵇ قال هذه المقالة بعد إدخال ما أُمر بحمله من الأزواج، كأنَّه قيل: فحَملَ الأزواج، وأدخلَها في الفلك، وقال للمؤمنين: اركبوا فيها[2].

والأوجَهُ من ذلك أنَّ لفظ ﴿ٱحۡمِلۡ﴾ يدخل فيه الحيوانات والبشر جميعًا، لكن على تفصيل: أمّا حمْلُ الحيوانات؛ فهذه وظيفة البشر بسوقها إلى السَّفينة، وأمّا حمل البشر؛ فبأمرهم ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾، ولذلك فإنَّ إركاب الحيوانات؛ هو إركابُ تسيير، وإركاب البشر؛ فهو إركاب تخيير.

سِرُّ تأنيث الضَّمير ﴿فِيهَا﴾:

الفُلك باعتبار الاسم العلم، والسفينة باعتبار وظيفتها في الحمل

ذكرتِ الآيات السابقة أنَّ اللّه تعالى أمر نوحًا ﵇ بصناعةِ الفلك: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾، وقال في الإخبارِ عن نوح ﵇ بأنَّه: ﴿وَيَصۡنَعُ ٱلۡفُلۡكَ﴾، والفُلك لفظٌ مذكَّرٌ لا مؤنَّث، ولم يُذكَرْ لفظُ السَّفينةِ، فيُسأل عن نكتةِ تأنيث الضَّمير العائد على الفُلكِ في قوله تعالى:

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/80.
(2) القنوجي، فتح البيان: 3/316.

﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾؛ إذ لم يقل: (اركبوا فيه)؟ ونكتتُهُ: أنَّ النَّظم فسَّرَ الفُلك بالسَّفينة، وأنّه فُلكٌ باعتبارِ عنوانها، وسفينةٌ باعتبار وظيفة الحَمْل، ولذلك ذكَّر الفُلك باعتبارِ الاسم، لكن لمّا جاء على اعتبار وظيفة الحَمْل أتى بضميرِ التأنيث، أي: في السَّفينة، كقوله تعالى: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣﴾ [القمر: 13].

سِرُّ تعدية الفعل ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾ بـ (في):

رعاية المحلّيّة والمكانيّة في السَّفينة والإشارة إلى هيئة صنعها

عُدّي فعلُ الأمر بالرُّكوب في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾ بحرف (في)؛ لاعتبار الصَّيرورة، وإلّا فالفعل يتعدَّى بنفسِه؛ لأنَّه ضُمِّنَ معنى صيروا، فهم أُمروا أن يكونوا في جوفِها لا على ظهرها[1]، لرعاية جانب المحلّيَّة والمكانيَّة في الفُلْكِ[2]، ولمّا كانت الظَّرفيَّة أغلب على السفينة؛ قال: ﴿فِيهَا﴾[3]، وهذا يُعطينا إلماحةً، وهي: أنَّ نوحًا عليه السلام صنع السَّفينة بوحيٍ من الله تعالى على نظامٍ متقنٍ، فهُمْ لم يركبوا على سطحها، بل بُنيت بما يتيح لهم السَّكنَ فيها، خُصوصًا وأنَّ تلك السَّفينة تحمل وُحوشًا وهوامّا وحيوانات بجانب البشر؛ لذلك كان لا بُدَّ من بنائها على هيئة طبقاتٍ وأدوار[4].

الباء في ﴿بِسۡمِ﴾ بين الحقيقة والمَجاز:

الباء إمّا للملابسة على الحقيقة، أو الاستعانة على المجاز

الباء في قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ تحتمل معنيين أساسيَّين:

الأول: أن تكون للملابسة، ويُعبِّر أهل العلم عنه بالإلصاق والمَصاحبة أيضًا، فهذه مترادفات في الدَّلالة على هذا المعنى[5]، وهي في موضع الحال من ضمير ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾، أي: اركبوا ملابسين لاسم الله، وهي ملابسة القول لقائلهِ، أي: قائلين: باسم الله، وقت

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/36.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/254.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/287.
(4) الشَّعراوي، تفسير الشَّعراوي: 11/6473.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/147.

إجرائها وإرسائها، أو مكانهما على أنَّ المجرى والمرسى للوقت، أو المكان، أو المصدر[1]، فبتسخيره وقُدرته مجراها حين تجري أو حين يجريها، ومُرساها حين يُرسيها، لا بحول البشر ولا قوَّتهم[2].

الآخر: أن تكون الباءُ للاستعانة، واسْتِعْمالُها في ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ لمعنى الاستعانة يحتمل الآتي:

أولًا: تحتمل أن تَكونَ من باب الاستعارة المكنيَّة التَّبعيَّة[3]؛ لأنَّ استعارَةَ الحُروف تبعيَّة[4]، وهي تجري في متَعَلَّقات معانيها أوَّلًا، ثُمَّ تَسْري فيها ثانيًا[5]، حيث شُبِّهَ الارتباطُ على وجه الاستعانة بالارتباط على وجه الإلصاق، بِجامع مُطْلَقِ الارتِباط في كُلٍّ، فسَرى التشبيهُ للجزئيّات، واستعيرَتِ الباء الموضوعة للإلصاق الجُزْئِيِّ للاستعانة الجُزئيَّة على طريق الاستعارة التَّبعيَّة[6].

والمعنى: وقال: اركبوا فيها مستعينين باسم الله في جريانها وإرسائها، فهو الذي يتولَّى ذلك بحوله وقوَّته، وحفظه وعنايته، وفي هذا بشارةٌ لهم بحفظه تعالى لها ولهم[7].

ثانيًا: تحتمل أن تكون من باب المَجازِ المُرسَلِ، علاقتُه: الإطلاق والتَّقييدُ؛ ووجْهُ ذلك أنَّ الباء لارْتِباطٍ مُقَيَّدٍ بالإلصاقِ، فأُطلِقَ عن القَيْدِ، واسْتُعْمِلَت في الارتِباط على وجْهِ الاسْتعانة[8].

بلاغةُ الاحتراس في: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾:

ذكرُ الاسم لبيانِ أنَّ المقصودَ هو التَّيمُّن لا اليمين

سبق آنفًا بيانُ أنَّ الباء في قولِه تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾؛ للاستعانة،

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/135، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/73.
(2) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 12/76.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 1/10.
(4) الشَّبْكي، عروس الأفراح: 2/172.
(5) السَّكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 380.
(6) الدّسوقي، حاشية على مختصر المعاني: 1/3.
(7) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 12/76.
(8) الدّسوقي، حاشية على مختصر المعاني: 1/3 - 4.

ففي الجملةِ إطنابٌ بزيادَةِ (اسم)، ومقتضى الظّاهرِ أن تكون: (باللّه)؛ إذِ الاستعانَةُ تكون باللّه تعالى لا باسْمِه، وفائدةُ ذكر (اسْم): دَفعُ اللَّبْسِ؛ إذْ لو قيل: (باللّه)؛ لاحتَمَلَ الكلامُ أنْ يكونَ قسمًا، فجيءَ بـ لفظِ (اسم) للتَّمْييزِ بين التَّيمُّنِ واليَمين[1]، ففيه احترِاسٌ؛ بقصد دفع إيهام القسم؛ ويَحْتَملُ أنْ لا إطنابَ فيها؛ إذِ الاستعانَةُ تكون تارةً باللّه تعالى، وتارةً باسمه، ولكلٍّ وجهه[2].

دلالةُ الإضافة في: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾:

استحضار معاني الألوهيَّة في المواقف العظيمة نجاةٌ وعبوديَّة

أُضيف لفظ ﴿بِسۡمِ﴾ إلى الاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ المقام مقامٌ عظيمٌ، والموقف موقفٌ جسيمٌ، فالطّوفان الذي سيغمر الأرض طوفانٌ هائلٌ مهولٌ، لا يتخيَّله الذِّهن، ولا يحيط به التَّصوُّر، فهُنا يستحضر المؤمن عظمة الآمر لهذا الطّوفان، والمسيِّر له، والحافظِ لتلك السَّفينةِ والثُّلةِ المؤمنة في لجَّة ذلك الموج العظيم، واستحضارُ معاني الألوهيَّة الدّالة على العظمة ضرورةٌ؛ لاحتياج المؤمن إلى تقرير كمال ألوهيَّته ﷻ في نفسه في كلِّ موقفٍ يحتاج فيه إلى مساندته وحوله وقوَّته.

سرُّ تقديم ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾:

اسمُ الله قبل كلِّ شيءٍ؛ لأنَّه أرسخُ من كلِّ شيءٍ

إذا كان تقدير الآية: (إجراؤها وإرساؤها باسم اللّه) الذي هو في الأصل جملة مكوَّنة من مبتدأ وخبر[3]، ففيها تقديم المعمولِ على العامل، ونكتةُ ذلك أنَّه أوقعُ؛ لأنَّه أهمُّ وأدلُّ على الاختصاص، وأدخل في التَّعظيم، وأوفق للوجود، فإنَّ اسمه ﷻ مُقدَّم، كيف لا؟

(1) الواحديُّ، التَّفسير البسيط: 1/443.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/1 - 10.

(3) السُّيوطي، نواهد الأبكار: 1/89، ويكون إعراب الآية على هذا التَّقدير: ﴿بِسۡمِ﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلّقان بمحذوف هو خبر مقدَّم، و﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾ لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور، و﴿مَجۡرٜىٰهَا﴾: (مجرى): مبتدأ مؤخَّر مرفوع وعلامة الرفع الضمَّة المقدَّرة على الألف. ينظر: محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 12/269.

والفعل لا يتمُّ، ولا يعتدُّ به شرعًا ما لم يصدَّر باسمه تعالى[1]، فكان هذا التَّقديم أحسنَ وقعًا، وأزيدَ وقوعًا في قلب السّامع من تقديم العامل، فَقُدِّمَ لكون اسمه تَعالى أهمَّ، فإجراؤها وإرساؤها باسم اللّه فقط، لا بهبوب الرِّياح في الأول، وإلقاء المرساة في الثّاني[2].

توجيه القراءات في: ﴿مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾:

حشدُ المعاني بالقراءات تنويعٌ بليغٌ وتفنُّنٌ بديع

قرأ الجمهور قولَه تعالى: ﴿مُجْرَىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ بضم الميمين[3]، وهُما مصدران، فأجرى السَّفينة إذا جعلها جاريةً، أي: سيَّرها بسرعة، وأرساها إذا جعلها راسيةً، أي: واقفة على الشّاطئ[4]، والمعنى: إجراؤها وإرساؤها بأمر اللّه[5].

وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وخَلَفٌ بفتح الميم في ﴿مَجْرٜىٰهَا﴾[6] على أنَّه مَفْعَلٌ للمصدر أو الزَّمان أو المكان[7]، منْ جَرَتِ السَّفينَةُ جَريًا ومجرًى، وقالوا: إنَّ معنى ذَلِك: بِسم اللّه حينَ تجري، وحجَّتهم قَولُهُ بَعْدها: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ فالإسنادُ إلى السَّفينَةِ في اللَّفْظِ والمعْنَى[8]، فالسفينة جاريةٌ راسية حقيقةً، واللّه هو الذي أجراها، وأرساها، وهذا من باب تكثير المعاني بين جريانها وإجرائها، ومكان جريها، ومكان إجرائها، وزمان جريها وزمان إجرائها.

وأمّا ﴿وَمُرْسَىٰهَآ﴾؛ فبضمِّ الميم للجميع؛ لأنَّه لا يُقال: (مَرساها) بفتح الميم؛ ووجْهُ العدول عن الفتح في مُرساها في كلام العرب -

(1) البيضاوي، أنوار التَّنزيل: 1/25.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 1/88.
(3) ابن الجزري، النَّشر: 2/288.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/73 - 74.
(5) السَّمرقندي، تفسير السَّمرقندي: 2/151.
(6) ابن الجزري، النَّشر: 2/288.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 12/73 - 74.
(8) ابن زنجلة، حُجَّة القراءات، ص: 340.

مع أنَّه في القياس مماثل (مجراها) - دَفْعُ اللَّبس لئلّا يَلْتَبِسَ باسم المَرسى الذي هو المكان المُعَدُّ لرُسوِّ السُّفن[1].

موقع جملة ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾:

التَّنبيهُ على استصحاب ذكر الله عند الرُّكوب، واستحضاره عند الانطلاق والحلول

قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ إمّا أن يكون مقتضبًا ممّا قبله، أو حالًا منها:

الأول: أن تكون الجملة مُقتضبة[2] منقطعة عمّا قبلها؛ لاختلافهما خبرًا وطَلَبًا، على أنَّ نوحًا ﵇ أمرهم بالرُّكوب في السَّفينة، ثم أخبرهم بأنَّ إجراءها وإرساءها بسم اللّه تعالى[3]، فلا مُناسبة بين الأمر بالرُّكوب، وبين الإخبار بأنَّ مَجرى السَّفينة ومُرْساها سيكون بذكر اسم اللّه؛ لاختلاف الإنشائية والخبريَّة[4]، فيكونان كلامَين له ﵊[5]، وهذا يدلُّ على أنَّه لمّا ركب السَّفينة؛ أخبر القوم بأنَّ السَّفينة ليست سببًا لحصول النَّجاة، بل الواجب ربطُ الهِمَّة وتعليقُ القلب بفضل اللّه تعالى، وأخبرهم أنَّه تعالى هو المُجري والمُرسي للسَّفينة، فإيّاكم أن تعوِّلوا على السَّفينة، بل يجب أن يكون تعويلكم على فضل اللّه، فإنَّه هو المُجري والمرسي لها، وفي ذلك إزالةٌ لما عسى أن يختلج في قلوبهم من خوف الغرق ونحوه[6].

الآخر: أن تكون الجملة في موضع الحال من ضمير ﴿ٱلۡفُلۡكَ﴾، أي: اركبوا فيها مُجراةً ومُرساةً باسم اللّه؛ فيكون الرُّكوب مقرونًا بهذا الذِّكر، وهي حالٌ مُقدَّرة؛ إذ لا إجراء ولا إرساء وقت الرُّكوب[7]،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 12/73 - 74.
(2) الاقتضاب: الانتقال مما افتتح به الكلام إلى المقصود من غير مناسبة، ينظر: التنوخي، الأقصى القريب في علم البيان، ص: 84، والصَّعيدي، بغية الإيضاح: 4/712، فهو: الإتيان بالشَّيء استئنافًا بغتة، أُطلق على الإتيان بالكلام بعد الآخر بلا ربط ومناسبة. يُنظر: المغربي، مواهب الفتاح: 2/710.
(3) القاسمي، محاسن التَّنزيل: 6/94.
(4) محيي الدّين زاده، حاشية زاده على البيضاوي: 4/644.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 4/209.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/348، والآلوسي، روح المعاني: 6/254.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 6/254.

وهذا المعنى يُشير إلى أنَّ الإنسان لا ينبغي أن يشرع في أمرٍ من الأمور إلّا ويكون في وقت الشُّروع فيه ذاكرًا لاسم اللّه تعالى بالأذكار المقدَّسة، حتَّى يكون ببركة ذلك الذِّكر سببًا لتمام ذلك المقصود[1].

بلاغةُ شبه كمال الاتصال:

الاستئناف البيانيُّ كاشفٌ عن رحمةِ الله مع تعليل الأمر

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ جملةٌ مُستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ كأنَّه قيل: هل نجاتهم من هذا الهول العظيم بركوبهم في الفلك الجسيم؟ هل هم مُستحقّون بذلك أو بمحضِ لُطفهِ تعالى وعفوهِ ورحمته؟ فأجيب بذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

أي: لولا مغفرته ورحمته إيّاكم لما أنجاكم من هذه الطّامة إيمانكم، وفيه دلالة على أنَّ نجاتهم لم تكن عن استحقاق؛ بسبب أنَّهم كانوا مؤمنين، بل بمحض رحمة اللّه تعالى وغفرانه، ومنعُ صلاحية كونها علَّةً لقوله تعالى: ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾؛ لعدم المناسبة؛ فَيُقدَّر ما يصحُّ به الكلام بأن يُقال: امتثلوا هذا الحكم لينجيكم من الهلاك بمغفرته ورحمته، أو يقال: ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾ ذاكرين اللّه تعالى، ولا تخافوا الغرق لما عسى فرط منكم من التَّقصير؛ لأنَّ اللّه تعالى شأنه غفورٌ للخطايا والذُّنوب رحيمٌ بعباده[3]. وفيها معنى التَّعليل للأمر بالرُّكوب المصاحب لذكر اللّه تعالى، أي: إنَّ ربي لعظيم المغفرة ولعظيم الرَّحمة لمن كان مُطيعًا له مُخلصًا في عبادته، وفي التَّعليل بالمغفرة والرَّحمة إشارةٌ إلى أنَّ اللّه وعد بنجاتهم، وذلك من غفرانه ورحمته[4].

دلالة التَّوكيد بأكثر من مؤكِّدين:

من غفَرَ؛ رَحِمَ، ومن رَحِمَ؛ نجَّى عبادَه من هولِ الأقدار

علَّل النَّظم الكريم نجاتهم بالإجراء والإرساء اعترافًا بأنَّه لا نجاة إلّا بعفوه، وأكَّد ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/348.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/84.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/254.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/74، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/207.

بحرف ﴿إِنَّ﴾ واسمية الجملة بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾[1] تأكيدًا للكلام وتقريرًا له في نفوس السّامعين، وزاد النَّظم الكريم في التَّأكيد تطمينًا لقلوب مَن مع نوحٍ عليه السلام، مُعرِّفًا لهم بأنَّ أحدًا لن يقدر اللّٰه حَقَّ قدره، وأنَّ العبد لا يسَعهُ إلّا الغُفران، فقال: ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2]؛ تحقيقًا للمؤمنين بأنَّ اللّٰه رحمهم بالإنجاء من الغرق[3]؛ لكون المقام مقامَ الخوف لهولِ أمر الطّوفان.

سرُّ وضع المظهر موضع المضمر:

التَّعرُّض لعنوان الرُّبوبيةِ لتربيَةِ مبادي المغفرة والرَّحمة في قلوب السّامعين

آثر النَّظم الكريم إظهار لفظ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فلم يقل: (إنَّه لغفورٌ رحيم)، وذلك للتَّعرُّض لعنوان الرُّبوبيةِ لتربيَةِ مبادي المغفرةِ والرَّحمة في قلوب السّامعين، اعترافًا للمولى بما أنعمَ من أفضال ربوبيَّته، فكانت النَّجاة والتَّمكين للمؤمنين، بعد هلاك الكافرين؛ وأُجري على اسم الجلالة صفة الرُّبوبيَّة استدلالًا على صِحَّةِ التَّوكُّل عليه في دفع الضُّر عنهم وجلب النَّفع والخير لهم؛ لأنَّه مالكهم ومُربّيهم بإنعامه يدفع عنهم الضُّرَّ، ويجلب لهم الخير.

دلالةُ ذكر المغفرة والرَّحمة:

بذكرِ الأضداد تبينُ المحامد وتشخص النِّعم

ذِكرُ المغفرةِ والرحمة بعد ذِكرِ الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين هو في الجملة شأن القرآن في بيان الأضداد و المتقابلات، وهو مسلكٌ قرآنيٌّ مطَّرد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٦٧﴾ [الأعراف: 167]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ٦﴾ [الرَّعد: 6]، ونحو ذلك من الآيات التي تقرن بين الرَّحمة والانتقام، وذِكرُ المغفرة

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/287.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/287.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/74.

والرَّحمة في وقت الإهلاك وإظهار القهر؛ لبيان فضل اللّه على عباده الذين نجّاهم، فهم في جميع الأحوال بحاجةٍ إلى إعانة اللّه وفضله وإحسانه، والإنسانُ لا ينفكُّ عادةً عن أنواع الزَّلات والخطايا، فإنَّ نجاتهم لا ببركة عملهم - كما قد يَظنُّون - وإنَّما بمحض فضلٍ من الخالق المنّان الرَّحيم الرَّحمن[1]، كما أنَّ وصف الرَّحمة أنسبُ؛ لأنَّه نَسَبَ نوحًا إلى عمل السَّفينة لينجو فيها هو وقومه[2]، فآية المغفرة والرَّحمة - في هذا المقام الخطير وقت الإهلاك والغرق - في غاية الإشعار بفضل اللّه ورحمته على عباده المؤمنين الذين نجّاهم[3].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المغفرةُ والرَّحمة:

الفرقُ بينَهما من أوجهٍ:

أوَّلًا: أنَّ أصلَ الغَفْرِ في اللُّغة: السَّتْرُ[4]، وأصلَ الرَّحْمَةِ: الرِّقَّةُ والعَطْفُ[5].

في المغفرة سَترٌ للذَّنب السّابق وفي الرَّحمة تحصيلٌ للمطلوب

ثانيًا: أنَّ أحدهما سبَبٌ في الآخَرِ، ومال ابنُ عرفة إلى أنَّ الرَّحمة سببٌ في المغفرة؛ لأنَّ الرِّقَّةَ والعطفَ توجِبُ عادةً سَتْرَ الزَّلَلِ[6]، وللّه المَثَلُ الأعلى، أمّا في فعل المخلوق؛ فإنَّ الاستغفار وطلب المغفرة هو الجالب للرَّحمة والسَّبب فيها، كما قال تعالى: ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٤٦﴾ [النَّمل: 46].

ثالثًا: أنَّ المغفرة والرَّحمةَ إذا جُمعا في محلٍّ واحدٍ؛ فالمغفرةُ لسَتْرِ ما مضى من الذُّنوبِ، والرَّحمةُ للسَّلامةِ منْها فيما يُستقبَلُ[7].

(1) وهبة الزُّحيلي، التَّفسير المنير: 12/69.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/356.
(3) وهبة الزُّحيلي، التَّفسير الوسيط: 2/1042.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رحم).
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/435 - 2/258.
(7) ابن عثيمين، شرح ثلاثة الأصول وأدلّتها، ص: 19.

رابِعًا: أنَّ المغفرةَ فيها زَوالُ المكروه من آثار الذُّنوب، والرَّحمةَ فيها تحصيلُ المطلوب[1].

المغفرة والعفو:

الفرقُ بينَهما من أوْجُهٍ:

الغفر سترٌ والعفو محوٌ

أوَّلًا: أنَّ أصلَ الغَفْرِ في لُغة العربِ: السَّتْرُ[2]، وأصلَ العفو: المَحْوُ وتركُ الشَّيء[3].

ثانيًا: أنَّ الغالبَ استعمالُ العفوِ في ترك الواجبات، واستعمالُ المغفرة في فعل المحرَّماتِ[4].

ثالثًا: أنَّ أحدَهُما أبلغُ منَ الآخر، وقد وقع خلافٌ في تعيين الأبلَغِ منهما على قولَيْن:

أحدُهما: أنَّ العفو أبلغُ منَ المغفرة؛ لأنَّ المغفرةَ تُنْبِئُ عَنِ السَّتْرِ، بخلاف العفو فإنَّه مشعرٌ بالمحو، والمحوُ أبلغُ من السَّتْرِ[5].

والآخرُ: أنَّ المغفرةَ أبلغُ منَ العفو؛ لأنَّ المغفرة متضمِّنَةٌ وقايةَ المغفورِ له شرَّ ذنبِه، وإقبالَ الغافِرِ عليه ورضاهُ عنه، بخلاف العفو؛ فإنَّهُ متضمِّنٌ لإسقاط صاحب الحقِّ حقَّهُ ومسامحتِه، فقد يعفو ولا يُقْبِلُ على من عفا عنه، ولا يرضى عنه، وبهذا يكون العفوُ تركًا محضًا، والمغفرةُ إحسانًا وفضلًا وجودًا[6].

والأوَّلُ أشهَرُ، والاشتقاقُ اللُّغويُّ يدلُّ عليه.

(1) ابن عثيمين، تفسير الفاتحة والبقرة: 3/66.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عفو)، وابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (عفا).
(4) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيَّة: 1/341.
(5) الصَّفّوري، نزهة المجالس ومنتخب النَّفائس: 1/88.
(6) ابن تيميَّة، مجموع الفتاوى: 14/140.

﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ
فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٢ قَالَ
سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ
ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ٤٣﴾

[هود: 42 - 43]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبلَهُما:

الاستجابةُ لأمر الله تعالى هي طريق النَّجاةِ الوحيدة

لمّا ذكر ﷻ في الآيات السّابقة أمرَه بركوبِ السفينة، وحَمْلَ ما يجب حَمْلُهُ؛ بَيَّن هنا آثار الاستجابة لأمر اللّه تعالى، وأنَّها طريق النَّجاةِ، فبيَّن حال السَّفينة، وهي تمخر بهم عُباب الماء بعد أن ذكر اللّه ﷻ أمْرَ نوحٍ لمن معه بركوب السَّفينة مُتَوكِّلين على اللّه تعالى، ثُمَّ ذكر ما دار بين نوحٍ وابنه من مُحاوراتٍ في تلك اللَّحظات الحاسمة المؤثِّرة، التي يبذل فيها كُلُّ أبٍ ما يستطيع بذله من جهود لِنَجاة ابنه وفلذة كبده(1).

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿مَعۡزِلٖ﴾: أصلُ (عزل): يدلُّ على تَنحيةٍ وإمالة(2)، وعزله يعْزِلُهُ؛ إذا نَحّاهُ في جانبٍ(3)، والمعْزِل: مَكانُ العُزْلَةِ، أي: الانفراد، والمعنى هُنا: كان في مكان عَزلَ فيه نفسَهُ عن أبيه وعن السَّفينة(4)، ومعنى ﴿مَعۡزِلٖ﴾: مكانٍ مُنقَطعٍ، يُقال: عزلتُ الشَّيءَ نحَّيتُه، ورأيته في مَعزلٍ، أي: في ناحيةٍ عن القوم مُعتزلًا(5).

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/208.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن سيده، المحكم: (عزل).
(3) ابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 162.
(4) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/23.
(5) الخليل، العين: (عزل).

2) ﴿سَـَٔاوِيٓ﴾: أصلُ (أوى): يدلُّ على تَجمُّعٍ[1]؛ وتأوَّتِ الطَّير؛ إذا انضمَّ بعضُها إلى بعض، فهنَّ أويٌّ[2]، وأويْتُ عن كذا، أي: تَرَكْتُ العَمَلَ، ورَجَعْتُ إلى مَأْوايَ[3]، والمَأْوى: مَكانُ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْوى إلَيْهِ لَيْلًا أوْ نَهارًا، والمعنى هنا: أرجِعُ، وألجأُ، وأنْضمُّ إلى جبل[4]، ومعنى ﴿سَـَٔاوِيٓ﴾: أرجِعُ، يُقال: أوى الإنسان إلى منزله يأوي أُويًّا؛ إذا رجع[5].

3) ﴿يَعۡصِمُنِي﴾: أصلُ (عصم) يَدُلُّ عَلَى إمْساكٍ ومَنْعٍ ومُلازَمَةٍ، ومنْ ذَلِكَ العِصْمَةُ: بمعنى الحفظِ والمنع[6]، يُقال: واعتصمتُ باللّه، أي: امتنعتُ به منَ الشَّرِّ[7]، وأعْصَمْتُ الرَّجل: هَيَّأت له ما يَعْتَصِم به[8]، والمعنى هُنا: يَمْنَعُني (منَ الماءِ)، فَلا أغْرَقُ[9]، ومعنى ﴿يَعۡصِمُنِي﴾: يمنعني، يُقال: عَصَمَ يَعْصِمُ عَصْمًا: منع ووقى[10].

4) ﴿وَحَالَ﴾: أصل الحَوْلِ تغيُّرُ الشَّيءِ وانفصاله عن غيره، وكُلُّ ما حَجَزَ بينَ شَيئَينِ؛ فقد حالَ بينَهما[11]، كأنَّما تَحوَّل إلى المكان الذي بينهما، أي: وقف فيه، فحال بينهما[12]، والمعنى هُنا: وفَصَلَ الموجُ بهديرِهِ وسُرعته بين الابن وأبيه[13]، ومعنى ﴿وَحَالَ﴾: حَجَزَ وفَصَلَ، يُقالُ: حال الشَّيءُ بين الشَّيئَيْنِ يحولُ حولًا وتحويلًا، أي: حَجَزَ[14].

5) ﴿ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾: أصل (غرق) يَدُلُّ عَلَى انتِهاءٍ في شَيْءٍ يَبْلُغُ أقْصاهُ[15]، ومعنى ﴿ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾: المهلكون بالغرق، أغرَقَهُ في الماءِ إغراقًا مثل غرَّقَهُ تغريقًا، فَهو مُغْرَقٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أوى).
(2) الخليل، العين: (أوى).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللغة: (أوى).
(4) الرّاغب، المفردات: (أوى)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/39، والماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/134.
(5) الخليل، العين: (أوى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، الجوهري، الصِّحاح: (عصم).
(7) ابن عبّاد، المحيط في اللُّغة: (عصم).
(8) الخليل، العين: (عصم).
(9) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/39، وابن جرير، جامع البيان: 15/331.
(10) الزَّبيدي، تاج العروس: (عصم).
(11) الزَّبيدي، تاج العروس: (حول).
(12) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حول).
(13) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/209.
(14) ابن منظور، لسان العرب: (حول).
(15) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غرق).

وغَريقٌ[1]، والغرقُ الرُّسوب في الماء وفي البلاء[2]، والمعنى هُنا: كانَ ممَّنْ أَهْلَكَهُ اللّه بالغَرَقِ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

مشهدُ الجبالِ المائية تُزاحم الجبال الصَّخريَّة بينهما جبالٌ عاطفيَّةٌ؛ مشهدٌ لا يتكرَّر

ترسم الآيتان مشهدًا من مشاهد التّاريخ البشريِّ بعنايةٍ بلاغيةٍ، وبسرٍّ بيانيٍّ لم يشهده البشر من قبلُ، فكأنَّهم يرونه بأمِّ أعينهم، ذلك أنَّ هذا المشهد يُترجم حالةَ إنقاذ البشريَّة، فهو مشهدٌ يخصُّ الجميع، ويتعلَّق بكلِّ نفسٍ تتنفَّس على أرض البسيطة، فالسَّفينة تسير بمن فيها في موج عظيم كالجبال في علوِّها وقسوتِها وعظمتها وجبروتها وقطعها للأنفاس، وفي هذه الحال العصيبةِ تتحرَّك العاطفة العجيبة، من أبٍ يرى ابنه يغرق في ظلماتِ الماءِ، فيناديه نداءَ الباكي المشفق على المصير الحتميِّ، لكنَّ الإجابة كسرت كلَّ توقُّع، وأتتْ على كلِّ شعور لتفجأه بجواب الكفرِ، بأنَّه سيعتصم بجبلٍ صخري من الجبل المائي، فكان التَّنبيه الذي لا استجابة له بأنَّه لا عاصم اليوم من أمر اللّه تعالى، لكن أنّى لهذا الجاحد أن يفقه رسالةَ الأبِ بعد طول زمانٍ من الدَّعوة، والتَّربيَةِ، والرِّعاية، فقد ران على قلبِه كسبُه، وجحوده، وكفرُه، وحينها فصل بينهما الموج ليُنهي حوارًا، فيكون عبرةً لكلِّ زمانٍ قادم، وكلِّ جيلٍ لاحق.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة (الواو) في ﴿وَهِىَ تَجْرِى﴾:

الإشــــارة إلى سرعة امتلاء الأرض من الماء وصيرورته فيها أمثال الجبال عَقِبَ ركوبهم من غير تراخٍ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾ تحتملُ ثلاثةَ أوجهٍ من المعنى:

الأول: أن تكون واو الحال، وتكون جملة ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ﴾ حالًا

(1) الزَّبيدي، تاج العروس: (غرق).

(2) الرّاغب، المفردات: (غرق).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/419.

إمّا من محذوف، دلَّ على هذا المحذوف قولُه تعالى: ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾، والتَّقدير: فَرَكبوها مُسَمّين، وهي تجري بهم، وهم فيها[1]، فالجملة حالٌ من الفعل المقدَّر (فركبوها)؛ لظهوره في قوة الملفوظ، وتقدير: (فركبوا) للدَّلالة على سرعة امتثال الأمر - لاسيَّما - إذا كان الأمر منه تعالى واجبًا.

وإمّا أن تكون حالًا من الضَّمير المُستتر في قوله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾، والتَّقدير: جريانُها استقرَّ باسم الله حالَ كونها جاريةً[2].

الثّاني: أن تكون الواو استئنافيَّةً، وجملة ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ﴾ مكوَّنة من مبتدأ وخبر، وهو إخبارٌ بما كان بعد الأمر بركوبها.

الثّالث: أن تكون الواو اعتراضيَّةً، وجملة ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾ معترضةً، دعا إلى اعتراضِها هنا ذكرُ ﴿مَجۡرٜىٰهَا﴾؛ إتمامًا للفائدة، ووصفًا لِعظَم اليوم، وعجيب صنع الله تعالى في تيسير نجاتهم[3]؛ وهذا أوجَهُ الأوجه، فمعنى الحال مضطربٌ فيها؛ إذ كيف ركبوا في حال كونها تجري في موجٍ كالجبال؟ وكذلك معنى الاستئناف، فلا يتَّجه لاسيَّما بعد ذكر نداءِ نوحٍ عليه السلام ابنَه، وأمّا الاعتراض؛ فلبيانِ هولِ الأمر، ولعطفِ نداءِ نوحٍ عليه السلام على قوله: ﴿ٱرۡكَبُواْ﴾، فيكون الاعتراضُ وجيهًا، ومتمِّمًا للفائدة المرجوَّة.

سِرُّ استعمال الضَّمير ﴿وَهِيَ﴾:

تقويةُ النَّظم وإيجازُ اللَّفظِ وتكثير المعنى من محاسنِ الكلام

اختار النَّظم الكريم - في قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ﴾ - الضَّمير البارز ﴿وَهِيَ﴾ الراجع إلى السَّفينة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾؛ إذ قد أنَّث الضَّمير دون تذكيره كما سبق بيانه، وذلك إيجازٌ للفظِ، وتنبيهٌ على خصوصِ جريانِها؛ فإنَّ الضَّمير يكون أقوى

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/396، والبيضاوي، أنوار التَّنزيل: 3/135.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/256.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/74.

في لفت الانتباه من الاسم الظّاهر؛ إذا كان معلومًا لدى المخاطَب، ففرقٌ بين قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾، وبين قولنا: (والسفينة تجري بهم)، من حيث قوَّةُ السَّبك، وتأثير اللَّفظ ووجازته.

دلالةُ تقديم المُسنَد إليه ﴿وَهِيَ﴾:

تَقْويةُ الحكم وتحقيق وقوعه

قُدِّم المسندُ إليه ﴿وَهِيَ﴾ على المسند الفعليِّ ﴿تَجۡرِي بِهِمۡ﴾؛ لغرضِ تقويةِ الحكم وتحقيقه[1]، وللفتِ الأنظارِ إلى عجيبِ ذلك المشهدِ، وإنَّما جاء التأكيد من الإسناد مرتين؛ مرَّةً بإسناد الخبر إلى المبتدأ، وأخرى بإسناد الفعل إلى الفاعل.

غرضُ استعمال المضارع ﴿تَجۡرِي﴾:

تصوير جريان السَّفينة كأنَّها حاضرةٌ في مرأى السّامعين

مشهد الطّوفان حدثٌ قديمٌ، لكنَّ القرآن قصَّه علينا، وكأنَّه يقع الآن، فجاء التَّعبير بصيغة المضارعِ في قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾ دون الماضي؛ لاستحضار الحالة، وتصوير الحدث، ونقل المشهد، وإشعار المخاطَبِ بتفاصيل الحدثِ، فوصف جريانها بالحالِ لا بالماضي، لتكون حاضرةً في مرأى السّامعين، وفي ذهن المخاطَبين، وفي مشاعر المستجيبين، إحياءً للقلوبِ، وإنعاشًا للصدورِ، وتحريكًا للعقول.

سرُّ استعمال ﴿فِي مَوۡجٖ﴾:

تشبيه المُحاطِ بالأمواجِ بما هو غارقٌ فيها للإيماء إلى معجزة النَّجاة

ظاهر النَّظم في قوله تعالى: ﴿فِي مَوۡجٖ﴾ يدلُّ على أنَّ السَّفينة تجري داخل الموج، ولكن المُراد أنَّ الأمواج لَمَّا أحاطت بالسَّفينة من الجوانب كلِّها شُبِّهت بالَّتي تجري في داخل الأمواج[2]؛ لأنَّ الماء لَمّا كان مهيَّأً للإغراق؛ كان السَّير على ظهره من الخوارق، وأشار إلى ذلك بالظَّرف، فقال: ﴿فِي مَوۡجٖ﴾[3]، فاستعمال حرف (الوعاء)

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/74.

(2) إسماعيل البروسوي، روح البيان: 4/130.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/287.

لتشبيه ما هو مُحاطٌ بالأمواجِ، بما هو فيها؛ لشدَّة اقترابِ الأمواجِ من ظهرها وجوانبِها العليا، كأنَّ حرف الظَّرفيَّة ينطق بالإغراق، والنَّظم ينطق بالنَّجاةِ، ونكتَتُهُ بيانُ أن لا نجاةَ في ذلك اليوم إلّا بقدرةِ الواحد الأحد.

الغرض من تنكير: ﴿مَوۡجٖ﴾:

بيانُ عِظَم ذلك الموج وشدَّة الطُّوفان

نُكِّر لفظُ ﴿مَوۡجٖ﴾ للدَّلالة على أنَّه موجٌ عظيمٌ هائلٌ في غاية الشِّدَّة، والموجُ ما ارتفع من الماء بسبب اشتداد عصف الرّياح، وقد شبَّهه الله تعالى في عظمته بالجبال[1]، فهذا التنكير يدلُّ على عِظَم الطُّوفان، ويُؤكِّده التَّشبيه.

نكتةُ إفرادِ: ﴿مَوۡجٖ﴾:

أفرد النَّظم لفظَ الموج، فقال: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾، ولم يقل: (في أمواجٍ كالجبال)، مع أنَّ دواعيَ الجمع ظاهرةٌ، من مثل التَّشبيه بالجبالِ، وهي؛ وجمعُ الأمواج أهيَبُ من إفرادِها، ووراء ذلك أمران:

الأوَّل: أنَّ إفرادَ الموجِ دالٌّ على ما يقتضيه المعنى، فإذا كانت السَّفينة تجري في موجٍ واحدٍ كالجبالِ، ويُحيط بها من كلِّ جانبٍ؛ فكيف ببقيَّة الأمواج في ضخامتها وعظمتها؟ فهي أمواجٌ لا موجٌ واحدٌ، فذِكرُ الموجِ الواحد للدَّلالةِ على ما وراءه من بقيَّة الأمواج؛ فأتى النَّظم بما يقتضيه الحال، وهو أقوى في التَّصوير واستحضار المشهد.

الآخر: أنَّ هذا الموجَ مشبَّهٌ لا بجبلٍ واحدٍ بل بسلسلةِ جبالٍ، ففهمنا من ذلك أنَّ الموجَ في أصله واحدٌ، وفي تضاريسه العليا أمواجٌ كالجبالِ، وبه يكون إفرادُ المشبَّه مومئًا إلى قاعدة الموج، وجمْعُ الجبال إيماءٌ إلى ظاهرِ الموجِ وأعلاه، وبه يحسُن التَّشبيه إيجازًا وكثرةً، وهذا من بديع تشبيه المفرد بالجمعِ في القرآن الكريم.

(1) ملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 3/118.

دلالةُ التَّشبيه في: ﴿فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾:

تصوير شِدَّة الهول والفزع والمنظر المهيب العجيب للطّوفان العظيم

الموج ما ارتفع من الماء؛ إذا اشتدَّت عليه الرّيح، وشبَّهه النَّظمُ الكريم بالجبال في عِظَمه وتراكُمه وارتفاعه على الماء[1]، وهذا يدلُّ على حصول رياحٍ عاصفةٍ شديدةٍ حينذاك، والمقصود: بيان شدَّة الهول والفزع[2]، وهذا التَّشبيه يرمي إلى تصوير الموج عاليًا ضخمًا، فتوحي كلمة (الجبال) به إلى النَّفس، مع أنَّ السَّفينة محوطةٌ بالعناية الإلهيَّة، فليست في خطر الغرق[3].

ومَن كابدَ ما يحدث في البحار العظيمة؛ عَرَفَ ما يحدُث فيها من ارتفاعِ الأمواج حينما تُهيِّجُها الرّياح الشَّديدة، وعَرَفَ أنَّ المبالغة في هذا التَّشبيه غير بعيدة، فإنَّ السَّفينة لتُرى كأنَّها تهبط في غورٍ عميقٍ كوادٍ سحيقٍ يُرى البحرُ من جانبيه كجبلَين عظيمَين يكادان يُطبِقان عليها، وبعد هُنيهةٍ يرى أنَّها قد اندفعت إلى أعلى الموج، كأنَّها في شاهقِ جبلٍ تريد أن تنقضَّ منه، والملّاحون يربطون أنفسهم بالحبال على ظهرها وجوانبها؛ لئلّا يجرفهم ما يفيض من الموج عليها[4].

وتشبيه الموجِ بالجبال في ضخامته هُنا إمّا لكثرة الرّياح التي تعلو الماء، وإمّا لدفع دفقات الماء الواردة من السُّيول والتقاء الأودية بالماء السّابق لها، فإنَّ حادث الطّوفان ما كان إلّا عن مثل زلازلَ تفجَّرت بها مياه الأرض، وأمطارٍ جمَّة تلتقي سيولُها مع مياه العيون، فتختلِطُ، وتجتمع، وتصبُّ في الماء الذي كان قبلها حتَّى عمَّ الماءُ جميعَ الأرض التي أراد الله إغراقَ أهلها[5].

(1) البغوي، معالم التَّنزيل: 2/450، والبقاعي، نظم الدُّرر: 9/287.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/350.
(3) ياسوف، جماليات المفردة القرآنية، ص: 129.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 12/37، ومحمَّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 12/78.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/74، ص:75.

توجيه ﴿وَهِىَ تَجۡرِى بِهِمۡ﴾:

ترتيبُ الجملِ على ظاهره ولا داعي للقول بالتَّقديم والتَّأخير

قوله تعالى: ﴿وَهِىَ تَجۡرِى بِهِمۡ﴾ له توجيهان من حيث ترتيبُه الزَّماني، فهل هو قبل نداء نوحٍ ابنه، أو بعده؟ ومعلومٌ أنَّ جملة ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ﴾ معطوفةٌ على أعْلَقِ الجُمل بها اتِّصالًا، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾[1].

التوجيه الأول: نداءُ نوح ﷺ ابنَه كان قبل جريان السَّفينة في موجٍ كالجبال؛ إذ يتعذَّر إيقافُها بعد جريها؛ لأنَّ الرّاكبين كُلَّهم كانوا مُستقرّين في جوف السَّفينة[2]، قال بعض المحقِّقين: إنَّ هذا النِّداء إنَّما كان قبل الرُّكوب في السَّفينة[3]، وهذا يتَّجه على القولِ بأنَّ الواو اعتراضيَّةٌ، دعا إلى اعتراضِها هنا ذِكرُ ﴿مَجۡرٜىٰهَا﴾ إتمامًا للفائدة، ووصفًا لعِظَم اليوم، وعجيب صُنْعِ الله تعالى في تيسير نجاتهم[4]، وعلى مقتضى هذا التَّوجيه؛ ففي الكلام تقديمٌ وتأخير؛ وهو خلاف الظّاهر.

التوجيه الآخر: ترتيبُ الجمل على ظاهرِه، حيثُ أمر المؤمنين بركوبِ السَّفينة، ثم جرتِ السَّفينةُ بهم في موجٍ كالجبالِ، وهو في تلك الحال أبصَر ابنه - وكان في معزلٍ - فناداه؛ ليُنقذه، ولا يُقال ما قد قيل بأنَّه يتعذَّر إيقافُ السَّفينةِ لإركابِه، بل الذي يتعذَّر هو إيقافُ العاطفةِ الأبويَّة لنداءِ الابن، لإنقاذه من الغرق الحتميِّ، بل ما الذي يمنع من إيقاف السَّفينةِ ثقةً بالله تعالى، وهو الذي قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِى مِنۡ أَهۡلِى وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾، فالذي يدعو الله ليُنجي ابنَه بعد الغرق؛ سيدعو الله لإيقاف السَّفينة قبل الغرق، وعلى هذا الوجه يتَّجه حمل الواو على الحاليَّة أو الاستئناف بل الاعتراضيَّة، وهو التَّوجيه الأوجَه، والأقربُ لصحَّة النَّظم، والسَّير على الظّاهر.

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 12/75.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 12/75.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/210، والآلوسي، روح المعاني: 6/256.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/74.

سرُّ التَّعبير في ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ﴾ ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ﴾:

بُعْدُ المنادى مكانًا وإيمانًا مع قربِ العاطفةِ الأبويَّة مدعاةٌ للنِّداءِ لا للقولِ

عبَّر القرآنُ عن خطاب نوحٍ ﷷ فيمن سيركبُ في السَّفينة بقولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا﴾، ولم يقل: (وناداهم أن اركبوا فيها)، وعند خطابِ الابن قال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ﴾، فاختلف التَّعبيران باختلافِ المفردة، فالأوَّل بالقول والآخر بالنِّداءِ، فيُسأل عن نكتةِ ذلك؟

والجواب: أنَّه لما خاطب الرّاكبين؛ وجَّه لهم الكلام بالقول، دون حاجةٍ للنِّداءِ، فهم قريبون من نوحٍ ﷷ، ولمّا خاطب ابنَهُ؛ فلأنَّه كان بعيدًا بمنأًى عنه، وبمكانٍ لا يصلح معه إلّا النِّداء، وهو إيماءٌ إلى تلك اللَّحظة الرَّهيبة الحاسمة التي أبصر فيها نوحٌ ﷷ ابنَه الكافرَ، وهو مُنعزلٌ عنه[1]، فنادى بأعلى صوتِه لينقذه من الغرقِ؛ وفيه من توصيف المشاعر الإنسانيَّة، وعاطفة الأبوَّة الفطريَّة، ما لا يُحيط به خيال، ولا يستوفي وصفَهُ مقال، فجمعَ النِّداءُ الدّلالةَ على بُعدِ مكان ابن نوحٍ ﷷ، وبُعد مكانته الإيمانيَّة، مع قُربِ العاطفةِ الأبويَّة التي أنتجَت هذا النِّداءَ.

دلالةُ الواو في ﴿وَكَانَ﴾:

الانـفراد عن المؤمنين كالانخراطِ في المشركين

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ﴾ للحالِ، أي: نادى نوحٌ ﷷ ابنَه في حال عزلتِه التي استقرَّ فيها، وفيها إيماءٌ إلى أنَّ هذه حاله التي تجعله مذمومًا، فإنَّ العزلةَ عن الإيمانِ؛ كالخلطةِ في الكفران، والانفرادَ عن المؤمنين، كالاشتراك في صفوف المشركين، وهذه جملةٌ دالَّةٌ على الضِّدّيَّة بين الابن المنعزلِ عن المؤمنين، والأب المنخرطِ فيهم، وكاشفةٌ عن البَوْن الشّاسع بين حالتَيْهما، وما أبدعَ النَّظْمَ القرآنيّ: ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ الدّالَّ على ذلك الانخراطِ!

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/208.

استقرارُ الكافرِ في كفره سببُ غرقِه وهلاكه

دلالةُ استعمالِ ﴿فِي﴾:

آثرَ النَّظمُ استعمالَ حرفِ الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي مَعۡزِلٖ﴾ دون الباءِ؛ لبيان أنَّ ابن نوح عليه السلام كان مستقرًّا في عزلةٍ حسيَّةٍ ومعنويَّةٍ، فهو معزولٌ عن أسباب النَّجاةِ الإيمانيَّة والماديَّة.

بُعدُ المكانِ الحسيِّ والمكانةِ الإيمانيَّة

دلالةُ استعمالِ اسم المكان ﴿مَعۡزِلٖ﴾:

المعزل: مكان العُزلة، أي: الانفراد، وهو مَفعِل، اسمٌ للمكان، من عزله عنه؛ إذا أبعده[1]، والمعنى هنا: كان ابن نوحٍ عليه السلام في مكانٍ عزل فيه نفسَه عن أبيه والمؤمنين، أو عن دينهم، إمّا لأنَّه كان لم يؤمن بنوح عليه السلام؛ فلم يصدق بوقوع الطّوفان، وإمّا لأنَّه ارتدَّ، فأنكر وقوع الطّوفان، فكفر بذلك لتكذيبه الرَّسول[2]، أو في بُعْدٍ عن السَّفينة في مكانٍ شاهقٍ خوفًا من الطّوفان، فلم ينفعه[3]؛ واللَّفظ يعمُّها[4].

نداءُ نوحٍ عليه السلام عاطفةٌ جيّاشةٌ وشفقةٌ عظيمة

الغرض من التعبير بالنِّداء: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾:

قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ بيانٌ لجملة ﴿وَنَادَىٰ﴾، ولم يقل: (ونادى نوح ابنه، وكان في معزل، اركب معنا) بحذف ﴿يَٰبُنَيَّ﴾؛ لأنَّها "إرشادٌ له ورفقٌ به"[5]، واستعمل (يا) لنداءِ البعيدِ لبيانِ بُعد الابن، وشفقة الأب عليه، وجاء المنادى بصيغة التَّصغير (بُنَيَّ) زيادةً في بيان الشَّفقة، ومضافًا إلى ياء المتكلم؛ للإشعار بالانتماءِ، فهو ابنُه لا ابن غيره.

إنقاذُ الغريقِ وإرشادُ الضّالِ رحمةٌ لا تضيع

غرضُ الأمر ﴿ٱرۡكَب﴾:

غرضُ الأمر في قوله تعالى: ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ هو الإنقاذُ، وترجمة الشَّفقة والرَّحمة الفطريَّة، وجاءَ التَّعبير عن الرُّكوبِ بالسَّفينةِ

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/135.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/75.

(3) ابن الملقن، تفسير غريب القرآن، ص: 169.

(4) الثَّعالبي، الجواهر الحسان: 3/284، وابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/173.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/75.

بقوله تعالى: ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾، دون أن يقول: (اركب في السفينة، أو فيها)؛ لتعيُّنها؛ لأنَّ غشيان الطّوفان لا تتأتّى معه مركوبةٌ سواها، وللإيذان بضيق المقام، حيث حالَ الجريضُ دون القَريضِ - كما يُقال - مع إغناء المعيَّة عن ذكرها[1].

الغرض من الكناية ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾:

الـدَّعــوةُ إلى الــوســيــلــةِ لتحقيق الغاية حـكـمـةٌ نـبـويَّةٌ ومنهجٌ حكيم

دعا نوح عليه السلام ابنَه إلى الإيمانِ بطريقِ الكناية، فقال له: ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾؛ فهي كناية عن دعوته إلى الإيمان بطريقة العرض والتَّحذير[2]، فدلَّ على أنَّه طلب منه الإيمان بدليل نهيه عن مُصاحبة الكافرين بعد ذلك، ونكتةُ ذلك أنَّ ابنَهُ كان كافرًا ورافضًا للدُّخولِ في دين اللّه تعالى، فآثر نوحٌ عليه السلام أن يدعوه إلى الإيمانِ بطريق الدَّعوة إلى النَّجاةِ، فاستعمل الوسيلة لخدمةِ الغاية، وهذا هو مقتضى الحكمة في الدَّعوة.

براعةُ التَّعبير بالمعيَّة في ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾:

معيَّة المؤمنين نـجـاةٌ والـعـزلـةُ عنهم غرقٌ

ذكر المعيَّة في قوله تعالى: ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾؛ لبيانِ أنَّها سببُ النَّجاة، فمعيَّة المؤمنين نجاةٌ، والعزلةُ عنهم غرقٌ، كما قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ [الكهف: 28]، وأسند المعيَّة إلى ضمير الجمع لا إلى ضميرِ المفرد، فلم يقل: (اركب معي)، مع ما فيه من تأكيد الشَّفقة الأبويَّة؛ لبيانِ أنَّ النَّجاةَ نجاةٌ إيمانيَّة، وأنَّ ركوبَه في السَّفينة هو باعتبارِ ما اجتمعوا عليه من الإيمانِ، لا باعتبارِ ما انفرد به من الأبوَّة، فالأبوَّة دفعت نوحًا عليه السلام ليُنادي، لكنَّ النَّجاة لا تكون إلّا باعتبار الإيمان.

دلالةُ عطفِ النَّهي على الأمر:

الـنُّـكـولُ عن سفينة النَّجاةِ نكولٌ عن مركبِ الإيمان

النَّهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ معطوفٌ على

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/256.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/76.

الأمرِ في قوله تعالى: ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾؛ لإعلامه بأنَّ إعراضه عن الرُّكوب يجعله في صفِّ الكُفّار؛ إذ لا يكون إعراضه عن الرُّكوب إلّا أثرًا لتكذيبه بوقوع الطّوفان[1]، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ لا تُتابعهم في الكفر، واركب معنا، ففيه تأكيدٌ على دعوته للإيمان المكنَّى عنها بقوله تعالى: ﴿ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾[2]، وليس هذا التَّوكيدُ هو المقصودَ بتوكيدِ اللَّفظ للَّفظ؛ إذ لا يأتي بالعطف، بل هو توكيد المعنى للمعنى، فمعنى الأمر بالرُّكوب، هو معنى النَّهي عن البقاءِ مع الكافرين، وهو من التَّوسط بين الكمالين، فهو عطفُ إنشاءٍ على إنشاءٍ.

سِرُّ التَّعبير بأداةِ ﴿مَّعَ﴾:

النَّهي عن الكون مع الكافرين خارج السَّفينة، والتَّلويح بنهيه عن الكون معهم في كفرهم

جاء التَّعبير بأداة ﴿مَّعَ﴾ دون (من) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ في البُعد عنّا، فتهلك معهم، ولم يقل: (ولا تكن من الكافرين) وهو منهم، فنهاه نوحٌ عليه السلام أن يكون معهم في كفرِهم خارجَ السَّفينة، ولو قال: (ولا تكن من الكافرين) لاضطرب المعنى، ذلك أنَّه عليه السلام كان كافرًا قبل هذا الخطابِ، فإذا نهاه أن يكون منهم، وهو منهم؛ لكان الكلام قلقًا، فأتى التَّعبيرُ بأداة ﴿مَّعَ﴾ لبيان أنَّ النَّهي إنَّما كان للبقاءِ على الكفرِ، فمعنى ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، أي: لا تبقَ كافرًا، وآمنْ، بدلَ أن تبقى كافرًا معهم، فتغرق.

غرض شبه كمال الاتصال:

الحوار يقتضي الفصل بين الأقوال

جملة ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ﴾ كلامٌ مُستأنف بيانيًّا؛ كأنَّه قيل: فما أجابه ابنُه حين سَمعَ ذلك النِّداء تخلُّصًا عن هذا الابتلاء؟ فأجيب بأنَّه قابله بإساءة الأدب لجهالتهِ عن انتفاء العاصم ما عدا الرَّبِّ، فقال: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ﴾ من الجبال الشّامخة لا يصل الماء

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/76.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/350.

إليه لارتفاعه يعصمني من الماء[1]، ففُصِلت جملة ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ﴾ لوقوعها في سياق المحاورة[2].

دلالةُ السّين في ﴿سَـَٔاوِىٓ﴾:

مـوجُ الإغـراقِ أسرعُ من إيواءِ الجبال

كان جواب ابن نوح عليه السلام لأبيه: بأنَّه سيأوي إلى جبلٍ يعصمه من الماءِ، فأتى النَّظم بحرف (السّين) للتَّعبير عن كلامه، وذلك للدَّلالة على القُرب في الفعل، أي: إنَّهُ سيجتهد بمجرَّد الانتهاء من قوله: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِى مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ ليعتصم به، لكنَّ أمرَ اللّه كان أقرب، فحال الموجُ بين الأب وابنه، فغشيه الموجُ، وأدركه الغرق، فكان أمر اللّه وقدَرُه أسبقَ من مسابقته التي دلَّ عليها التَّعبير بحرف (السّين) الدّالِّ على التَّوكيد والسُّرعة في التَّنفيذ.

دلالةُ التَّهكُّم في: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِى﴾:

مَـنْ جـمَـعَ إلى كـفـرِه وقـاحـةً؛ فقد تمادى فيه

دلَّ قولُه تعالى: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِى﴾ على أنَّ الابنَ كان مُتماديًا في الكُفرِ مُصِرًّا عليه مُكذِّبًا لأبيه فيما أخبر عنه[3]، بل من المستكبرين عن الإيمانِ في أحلكِ الظُّروفِ، فقال مجيبًا بتهكُّمٍ عجيبٍ: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِى مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾[4].

الجملةُ ﴿يَعۡصِمُنِى﴾ بين الصِّفة والاستئناف:

الأولـــى حـمـلُ (يَعْصِمُني) على الصِّفة لدلالةِ السّـيـاق وقـوَّة معناه

قولُه تعالى: ﴿يَعۡصِمُنِى مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ إمّا أنَّه صفةٌ لجبل، أو استئنافٌ بيانيٌّ، فكأنَّه استشعر أنَّ نوحًا عليه السلام يسأله: لماذا ستأوي إلى جبل؟ فقال: ﴿يَعۡصِمُنِى مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾[5]، فاختير الفصل لما زعم الابن أنَّ الجبل عاصم[6].

---

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/88.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 12/76.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/352.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/76.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/77.
(6) القونوي، حاشية القونوي: 10/88.

والصَّحيح أنَّ هذه الجملة أقربُ أن تكون صفةً لا استئنافًا بيانيًّا، فهو يُبرهن على قوَّة هذا الجبل الذي سيعتصم به، فوصفه بأنَّه عاصم، ويُقوّي أن يكون صفةً قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، ففَهِمَ نوحٌ عليه السلام أنَّ ابنه يبحث عن جبلٍ متَّصفٍ بالعصمة، فقال له: ﴿لَا عَاصِمَ﴾، أي: لا جبل عاصم.

دلالةُ ﴿مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾:

من قاسَ مياهَ النِّقم على مياهِ النِّعَم فقد وقع في النِّقم

ذكر الابنُ أنَّه سيعتصم بجبلٍ من الماءِ، ومعنى ﴿مِنَ﴾ الابتداء، أي: ابتداءً من وصولِ الماءِ إليه، والماء معرَّفٌ، وأراد به الابنُ الماءَ النّازلَ من السَّماء، والنّابعَ من الأرض، زعمًا منه أنَّ هذا الماء كسائر المياه والسُّيول المعتادة التي ربَّما يُتَّقى منها بالصُّعود إلى الرُّبى، وأنَّى له ذلك، وقد بلغ السَّيل الزُّبى، وجهلًا بأنَّ ذلك إنَّما كان لإهلاك الكفرة أنْ لا محيص من ذلك سوى الالتجاء إلى ملجَأِ المؤمنين[1].

غرضُ شبه كمال الاتصال: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ﴾:

جــوابٌ قـاطـعٌ بمضمونٍ حتميٍّ

أجاب نوحٌ عليه السلام ابنَه بقوله: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، أي: مأموره وهو الطّوفان، إلّا من رَحِمَ، فيه ذكر المهروب منه؛ وهو الماء المغرق[2]، وهذا الجوابُ مَبْنيٌّ على سؤالٍ قد ينشأ من جواب ابنه: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾، فكأنَّ سائلًا قال: فماذا كان جوابُ أبيه؟ فجاء الجواب: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ فهو استئنافٌ بيانيٌّ جاء بطريق المحاورة.

سِرُّ التعبير بنفي الجنس في ﴿لَا عَاصِمَ﴾:

أمْـرُ الـلـه إذا جاءَ؛ فلا عاصم مـنـه في عـالـم التَّصوُّرات

في قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ﴾ نفيُ جنس العاصم، فيندرج تحته العاصم من الغرق في ذلك اليوم اندراجًا أوَّليًّا[3]، وهذا النفي

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/210، وإسماعيل البروسوي، روح البيان: 4/131.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/77.
(3) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 13/97.

منتظم لنفي جميع أفراده ذاتًا وصفةً للمبالغة في نفي كون الجبل عاصمًا[1]، وفائدةُ هذه المبالغة تنبيهُ الابنِ على ضرورةِ الأوبة إلى الله تعالى، والدُّخول في سلك المؤمنين.

غَرَضُ الكِنايةِ في ﴿أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾:

أمرُ اللهِ قد يكونُ ماءً مغرِقًا أو شهابًا مُحرِقًا أو ريحًا محدِقًا

قال تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل: (لا عاصِمَ اليَوْمَ منَ الماء)؛ وذلك لأنَّ أمر الله تعالى جاء بجعْلِ العذابِ ماءً، وقد عبَّر عن الماء في محلِّ إضماره بأمر الله، أي: عذابه الذي أشير إليه أوَّلًا بقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ للآتي:

أولًا: تفخيمُ شأنه، وتهويلٌ لأمره، فإنَّ أمر الله سبحانه لا يُغالَب، وعذابه لا يُرَدُّ[2]؛ فليس الأمر أمرَ ماءٍ يُتَّقى بالأسباب العاديَّة، وإنَّما هو انتقام من أشرارِ العباد الذين أشركوا بالله، وظلموا أنفسهم، وظلموا النّاس بطغيانهم في البلاد، فهو يحفظ مَن رحِمَهُ الله، وقد اختصَّ بهذه الرَّحمة مَنْ حملَهم في السَّفينة[3].

ثانيًا: تنبيهٌ للابن على خطئِهِ في تسميته ماءً، وتوهُّمه أنَّه كسائر المياه التي يُهرب منها إلى بعض الأمكنة المرتفعة.

ثالثًا: تمهيد لحصر العِصمة في جنابه عزَّ جارُهُ بالاستثناء بعد ذلك؛ كأنَّه قيل: لا عاصم من أمر الله إلّا هو[4].

سِرُّ التَّقييدِ بـ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾:

الإشارة إلى أنَّه ليس كسائر الأيّام مُبالغةً في الإقناط وفي انتفاء أسباب النَّجاة

نصَّ النَّظمُ على ذكر ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾؛ للتَّنبيه على أنَّه ليس كسائر الأيام التي تقع فيها الوقائع، وتلمُّ فيها الملمّات المعتادة التي ربَّما يُتَخَلَّص منها بالالتجاء إلى بعض الأسباب العاديَّة[5]، وإنَّما قيَّده باليوم - مع أنَّه لا عاصم

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/257.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/257.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 12/38.
(4) البروسوي، روح البيان: 4/131.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/257.

في جميع الأزمان سوى الرَّحمن - مُبالغةً في الإقناط، وفي انتفاء الأسباب العادية للنَّجاة في هذا اليوم، فلا مفهوم لهذا بالاتفاق، ولهذه النكتة قال: ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل: ﴿مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ مع أنَّ السِّياق يقتضيه[1].

سرُّ الإضافةِ في ﴿أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾:

تعظيم شأن هذا الأمر؛ لأنَّه أمرُ العظيم جلَّ جلاله

أُضيف الأمر للفظ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾؛ لتهويل الأمر، وتعظيم شأنه، أي: الملك الأعظم المحيط أمره وقدرته وعلمه بكلِّ شيء، وأمرهُ هُنا هو حُكمه بالغرق على كلِّ ذي روحٍ لا يعيش في الماء[2].

دلالةُ الموصول في ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾:

العِصمةُ أثرٌ من آثارِ صفة الرَّحمة

مقتضى ظاهر النَّظم: (لا عاصم اليوم من أمر اللّه إلّا هو)، أي: لا أحد يعصم اليوم من أمر اللّه إلّا اللّه، والعدول إلى اختيار الموصول لزيادة التَّفخيم، وللتَّنبيه على أنَّ العِصمة من آثار صفة الرَّحمة[3].

نكتةُ أسلوب القَصْر:

كثرةُ الاحتمالاتِ وتنوع الدّلالات أمارة الإيجاز وبرهان الإعجاز

في قوله تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ قَصْرٌ حقيقيٌّ، وهو من قصر الصِّفة على الموصوف، وفيه ثلاثة أوجه:

الوجه الأوَّل: أنَّ ﴿عَاصِمَ﴾ اسمُ فاعلٍ على بابه؛ فعلى هذا يكون الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: استثناء مُتَّصل، و﴿مَن رَّحِمَۚ﴾ بمعنى الرّاحم، أي: لا عاصم إلّا اللّه، تفخيمًا لشأنه الجليل بالإبهام ثُمَّ التَّفسير، وبالإجمال ثُمَّ التَّفصيل، وإشعارًا بعلّيَّة رحمته في ذلك بموجب سَبْقِها على غضبه.

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/88.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/289.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/88.

الثّاني: استثناءٌ مُنقطع، أي: لكن مَن رَحِمهُ اللّه يعصمه.

الوجه الثّاني: أنَّ ﴿عَاصِمَ﴾ بمعنى معصوم، مثل: ماء دافق، أي: مدفوق، فعلى هذا يكون الاستثناء مُتَّصلًا، أي: إلّا مَن رحمهُ اللّه.

الوجه الثّالث: أنَّ ﴿عَاصِمَ﴾ بمعنى: ذي عصمة على النَّسب، مثل: حائض وطالق؛ فالاستثناء على هذا مُتَّصل أيضًا، ولا يجوز أن يكون خبرُ ﴿لَا﴾ على هذا ﴿ٱلْيَوْمَ﴾؛ لأنَّ ظرف الزَّمان لا يكون خبرًا عن الجُثَّة، بل الخبر ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، و﴿ٱلْيَوْمَ﴾ معمولٌ ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، ولا يجوز أن يكون ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ معمولَ ﴿عَاصِمَ﴾؛ إذ لو كان كذلك لنوِّن[1]. فالاحتمالات المُمكنة هُنا أربعة: لا عاصم إلّا راحمٌ، ولا معصوم إلّا مرحومٌ، ولا عاصم إلّا مرحومٌ، ولا معصوم إلّا راحمٌ، فالأوَّلان استثناء من الجنس، والآخران استثناء من غير الجنس، فيكون منقطعًا[2]، والغرض من التعبير بالقصر تمكينُ المعنى وإيجازه، والمبالغة في المعنى، واصطفى النظمُ الكريم طريقَ النفي والاستثناء لكونه أقوى الطُّرق في مواجهة المنكرين، وهو الأنسَبُ بالسِّياق الكاشف عن مقالة الابنِ العاقِّ وظنِّه أنَّ غير اللّه يعصمهُ ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى﴾.

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا﴾:

سُرعة فصلِ الماء بين المتحاورين؛ عــذابٌ لـلابـنِ ونجاةٌ للأب

معنى قوله تعالى: ﴿وَحَالَ﴾: فصلَ الموجُ بهديره وسُرعته بين الابن وأبيه، بحيث لم يبقَ أحدُهما يُشاهد الآخر، ولم يسمع صوته ولا يرى إشارته؛ لأنَّه بعد ما طافت السَّفينة ارتفع ارتفاعًا هائلًا، وصار لِشدَّة عُلوِّه كالسَّدِّ بينهما، وقد شبَّه اللّه الموجَ بالجبال لعظم ارتفاعه[3]، والتَّعبير بلفظة (حالَ) يُشعرُ بسرعة

(1) الدَّرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 4/357.

(2) البروسوي، روح البيان: 4/131، والدَّرويش، إعراب القرآن الكريم: 4/357، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/352.

(3) ملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 3/119.

فيضان الماء واشتداده، حتَّى لكأنَّ هذه السُّرعة لم تُمهلهما لِيُكملا حديثهما[1].

الغرض من تقديم شبه الجملة الظرفية:

حيلولة الموجِ بين الأب والابن مقصودةٌ لقطع الحوار وإيقاف الكلام

قال تعالى: ﴿وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ﴾، ولم يقل: (وحال الموج بينهما)؛ لبيان أنَّ حيلولة الموج بين الأب وابنه في آخر المحاورة مقصودةٌ أن تكون بينهما، وتقطع حديثهما، وهي تُشير إلى سرعة فيضان الماء حينَ المحاورة[2]، وكان الماء قد بدأ يرتفع أثناء الحديث حتَّى حال بين الولد ووالده، فكان من المغرقين الهالكين[3]، فكما فرَّق الضَّلال بين الابن وأبيه سابقًا، حتَّى ليأبى الولد، وهو بين يدي هذا البلاء المحيط به، أن يستجيب لأبيه، وأن يستمع له، فيخرج عن أمره، وهو يدعوه إلى ما فيه سلامته ونجاته، فكذلك يحول الموج بين مَن نجا ومَن هلك، ويوفَّى كلٌّ من الأب والابن جزاء ما كسب، فينجو الأب بإيمانه، ويهلك الابن الكافر بكفره[4].

دلالة استعمال الفاء في: ﴿فَكَانَ﴾:

وقـع الإغـراقُ بغير مُهلةٍ بعد حيلولة الماء بعجلةٍ

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ إنَّما يتفرَّع على حيلولة الموج بينه عليه السلام وبين ابنه، لا بينه وبين الجبل؛ لأنَّه بمعزلٍ عن كونه عاصمًا، وإن لم يحُلْ بينه وبين الملتجأ إليه موج، وأُجيب بأنَّ التَّفريع لا يُنافي ذلك؛ لأنَّ المُراد: فكان من غير مُهْلَةٍ أو هو بناء على ظَنِّهِ أنَّ الماء لا يصل إليه، وفي الآية دلالةٌ على غرق سائر الكفرة على أبلغ وجهٍ، فَكَأنَّ ذلك أمرٌ مُقرَّرُ الوقوع غيرُ مفتقرٍ إلى البيان[5].

---

(1) طنطاوي، التَّفسير الوسيط: 7/208.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/77.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 12/38.
(4) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1141.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/257.

دلالة التعبير بالفعل النّاقص ﴿فَكَانَ﴾:

بيان كونه من المغرقين في علم الله وبالماء بعد الطوفان

استعمال ﴿فَكَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ دون أن يقول: (فغرق)؛ للإيماءِ بأنَّه كان منهم في حكم اللّه تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ بعد أن اختار طريق الكفر، فهو كان حيًّا بينهم قبل الإغراق، مطمئنًّا إلى كُفرهم، ساعيًا بمعتقدِهم، فكان منهم قبل الإغراق، وكان منهم بعده.

ويَحتمل الفعل النّاقص ﴿فَكَانَ﴾ معنى: صار من المغرقين، ويحتمل كان في علم اللّه أنَّه يغرق، فالمعنى: فكان من المغرقين في علم اللّه بالفعل، وصار من المغرقين بالماء، وفي إيراد ﴿فَكَانَ﴾ دون (صار) مُبالغةٌ في كونه منهم[1].

دلالة استعمال حرف الجر ﴿مِنَ﴾:

الدّلالة على هلاك سائر الكفرة

حرف ﴿مِنَ﴾ للتبعيض في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾، أي: فكان مُغرَقًا من الغارقين، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه غرقَ مع الآخرين، وليس وحده، بل غرقَ معه كلُّ من كان على شاكلته في الكفر ممَّن توعَّده اللّه بالغرق[2]، ففيه دلالةٌ على هلاك سائر الكفرة على أبلغ وجه، وهو إيجازٌ بديع[3].

سرُّ اختيار ﴿مِنَ﴾:

التّنبيه على أنَّ حِفْظَ الأديان سببٌ لحفظ النّفوس والأبدان

جاءَ اختيارُ حرف ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾، ولم يقل: (مع المغرقين) إشارةً إلى أنَّ من له عقلٌ وهمَّة ينبغي أن يكون تحفُّظُه على صون نفسِه؛ لأنَّ حفظَ الأديان له حظٌّ من حفظ النُّفوس[4]، والمعيَّةُ ثابتةٌ له ابتداءً، فهو مع المغرقين قبل الغرق،

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السُّنة: 6/134، والبروسوي، روح البيان: 4/131، والقنوجي، فتح البيان: 6/186.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/77.

(3) البروسويُّ، روح البيان: 4/131.

(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/356.

ومنهم بعد الغرق، ولو قال: (فكان مع المغرقين) لظُنَّ أنَّه لم يكن كافرًا، وأصبح اليوم معهم، فاستعمال ﴿مِنَ﴾ يستلزم المعيَّة.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العصمة والحفظ:

في العصمة معنى المنع، وهي أشمل من الحفظ، وفي الحفظ معنى التَّفقُّد والتَّعهُّد والرِّعاية

العصمة تطلق على معانٍ عدَّة ترجعُ إلى المنع، قال في اللِّسان: "العصمة في كلام العرب: المنع، وعِصْمة اللّٰه عبدَه: أن يعصمه ممّا يوبِقُه، يُقال: عصمه يعصمه عَصْمًا: منعه ووقاه"[1]، ويُقال: عصمته من الطَّعام؛ أي: منعته عن تناوله، وعصمته من الكذب، أي: منعتُه منه، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِى مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾، أي: يمنعني من الغرق، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾ [يوسف: 32]، أي: امتنعَ امتناعًا شديدًا، وجاء في الحديث: «أُمِرْت أن أقاتلَ النّاسَ حتى يقولوا: لا إله إلّا اللّٰه، فمَن قالَها؛ فقد عصَمَ منِّي مالَه ونفسَه»[2] أي: منع منّي مالَه ونفسه، وسمُّيت العصمة عصمةً؛ لأنَّها تمنع من ارتِكاب المعصية[3].

فعلى هذا المعنى للعِصْمة يكون قول بعضِهم: العصمة للّٰه وحْده؛ غيرَ صحيح؛ لأنَّ العصمة إنَّما تكون من الجرائم والذُّنوب، ولا يصحُّ نِسْبتها إلى اللّٰه ﷻ، أمّا الحفظُ فمن معاني العصمة، ويزيد عليها أنَّ من معانيه ضبْطَ الشَّيء في النَّفس، ويُضادُّه النِّسيان والإضاعة[4]، ويُستعمل الحفظ في كلِّ تفقُّدٍ وتَعَهُّدٍ ورعاية[5].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عصم).

(2) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، برقم: (1312)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، برقم: (20).

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/184.

(4) العسكري، الفروق اللُّغوية، ص: 26.

(5) المناوي، التَّوقيف، ص: 142.

﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [هود: 44]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

بعد الانتهاءِ من ظُلمةِ الظّالمين، يأتي ذكرُ إشراقِ المؤمنين

لَمّا انتهى المشهد السّابق بإغراق ابن نوح مع الكافرين نظرًا لعِناده واختياره فريق الكفر، وانسدل السِّتار على المشهد بقوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾؛ حسُنَ الانتقالُ إلى إعلان انْتِهاءِ الطّوفانِ[1]، وذكر النِّهاية المشرقة لأهل الإيمان، والمصير المشؤوم للظّالمين المُغرَقين، ورُسوِّ السَّفينة بالمرحومين النّاجين على الجوديِّ، وعودة الحياة إلى طبيعتها بالأمر التَّكويني الصّادر عن ربِّ العالمين.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱبۡلَعِي﴾: أصل البلع: جذب الشَّيء إلى الجوف بقوَّة[2]؛ وحقيقة البَلْعِ اجْتيازُ الطَّعام والشَّرابِ إلى الحَلْقِ بدونِ اسْتِقْرارٍ في الفَم، يقالُ: بَلَعَ الطَّعام والماء والرّيق يبلَعُه، مثل: مَنَعَ يَمْنَعُ، وبَلِعَ يَبْلَعُ، مثْلُ: حَمِدَ ويَحْمَدُ، وبَلِعَ الطَّعام وابتَلَعه وتبلَّعه؛ إذا سرَطَه وجرَعَه من غير أن يمضغه، والبالوعَةُ[3] ثَقْبٌ في وسَطِ الدّارِ يَجْري فيها ماءُ المَطَر ونَحْوُه[4]، والمَبْلَعُ والبُلْعُم والبُلْعومُ، كلُّه: مَجْرى الطَّعام ومَوْضِعُ الابْتِلاعِ منَ الحَلْقِ[5]، والمعنى هُنا، أي: تَشَرَّبي ماءك[6].

2) ﴿أَقۡلِعِي﴾: أصل (قلع)، يَدُلُّ على انْتِزاعِ شَيْءٍ منْ شَيْءٍ[7]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/78.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بلع).
(3) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم: (بلع)، وابن القوطيّة، كتاب الأفعال، ص: 281.
(4) الجوهري، الصِّحاح، والزَّبيدي، تاج العروس: (بلع).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (بلع).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 15/334، والقنوجي، فتح البيان: 6/187.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قلع)، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 162.

والإقلاعُ الإمساكُ والكفُّ والإزالة[1]، وأقْلَعَتِ السَّماءُ؛ إذا انقطع مَطَرُها، وأقْلَعَتِ الحُمَّى، إذا: كَفَّتْ، وزالت عن صاحبها، يُقال: أقلعَ الرَّجلُ عن عمله؛ إذا كفَّ عَنهُ، وأقلعت السَّماء بعْدما مَطَرت؛ إذا أمْسَكت[2]، والإقلاعُ عن الأمْرِ: الكفُّ عَنْهُ[3]، والمعنى هنا، أي: أمسِكي عن إرسال المطر[4].

3) ﴿وَغِيضَ﴾: أصل (غيض) يدُلُّ على نُقْصانٍ في شَيْءٍ وقِلَّةٍ، وغيض: نَقَصَ، يُقالُ: غاضَ الشَّيْءُ، وغِضْتُهُ أنا، كما يُقالُ: نَقَص بِنَفْسِه، ونَقَصَهُ غَيْرُهُ[5]، ويُقال: غاض الماءُ يَغيضُ: خِلافُ فاضَ، وغيضَ؛ إذا نَقَصَهُ غَيْرُهُ[6]، ويَجوزُ"غُيضَ" بِضَمِّ الغَيْنِ، والمرادُ ذهابُ الماء في أعماق الأرض، وغَوْرُهُ، وغيبتُه في الأرْضِ عَلى جِهَةِ النَّشَفِ[7].

4) ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾: الاستواء والاستقرار والرّسوُّ، واسْتَوى عَلَى ظَهْرِ دابَّتِه، أي: اسْتَقَرَّ وثبت[8]، وأصلُ (سوي) يدُلُّ عَلَى استقامةٍ واعتِدالٍ بين شيْئَيْنِ[9]، والمُرادُ: رست السَّفينة، واستقرَّت على الجوديِّ[10].

5) ﴿ٱلْجُودِيِّ﴾: اسْمُ جَبَلٍ بَيْنَ العِراقِ وأرْمينيا[11].

6) ﴿بُعْدًا﴾: هَلاكًا وسُحْقًا لَهُمْ؛ مصدرٌ من الفعل (بَعِدَ)، يُقال: بَعِدَ يَبْعَدُ بُعَدًا[12]؛ وأصل البُعد الهلاك[13]، ويستعمله العربُ في الدُّعاء بالإهلاك والذَّمِّ، والأكثر أن يقالَ: (بَعِدَ) بكسر العين في البُعْدِ المَجازيِّ بمعنى الهلاك والموت، وبَعُدَ بضم العين في البُعد الحقيقيِّ[14].

---

(1) السَّمين الحلبي، عُمدة الحفّاظ: (قلع).
(2) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (قلع).
(3) الزَّبيدي، تاج العروس: (قلع).
(4) البروسوي، روح البيان: 4/135.
(5) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 204.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قلع).
(7) ابن سيده، المخصص: 3/38، والرّاغب، المفردات: (قلع).
(8) الرّازي، مختار الصِّحاح: (سوا).
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سوي).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 15/335.
(11) الحموي، معجم البُلدان: 2/259.
(12) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللغة: (بعد).
(13) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بعد).
(14) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (بعد).

المَعنى الإجْماليُّ:

إيـجـازُ قـصَّـة سفينةِ النَّجاةِ بـأوجـزِ عـبـارةٍ، وأرسـخِ ألـفـاظٍ، وأبلغِ نظمٍ

هذه آيةٌ من آياتِ إعجازِ القرآنِ المجيد، آيةٌ كاشفةٌ عن مسيرِ آيةِ النَّجاةِ الحاملةِ للأصول البشريَّة، تأتي بعد انتهاءِ الغرضِ الذي لأجلِه كان الطّوفان، من إغراق المجرمين، وإعادةِ إعمارِ الأرض بعد تطهيرِها من دنسِهم، فالتَّخلية قبل التَّحلية، ولا يبرأُ الجرحُ ما لم يُطهَّر من عِلله وآفاته، وهذه الآية تنهيدةُ الأرض بعد التَّخلُّص من فسادِها، فإنَّ فسادَ الأرض إذا طال؛ مَقتتِ الأرضُ ساكنيها، وها هو أمر الأرض: ﴿يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾، وأمر السَّماء: ﴿وَيَـٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾، والإخبارُ باستقرارِ الأمورِ، ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ بعد أن فاض، ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ بعد أن جاء، ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ لتكون علامةَ صدقٍ وأمارةَ حقٍّ، ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾؛ الذين تجاوزوا حدَّهم في الكفر والفجور والهزء بدينِ اللّه تعالى.

وقد قصَّتِ الآيةُ القِصَّةَ مُستوعبَةً بأخصر عبارة[1]، وفي هذه الآية من الإيجاز ما يعجز البيان عن استيفاء تحليله وشرحه، فقد أمر فيها ربُّنا، ونَهَى، وأخبرَ، ونادى، ونعَتَ، وسمّى، وأهْلَكَ، وأبْقى، وأسْعَدَ، وأشْقى، وقصَّ من الأنباء ما حقَّق به الغاية القصوى من البيان[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

الغرض من الوصْل بالواو في ﴿وَقِيلَ﴾:

الإعـلامُ بانتهاءِ الـطّـوفـان بعد تـحـقُّـق إغـراقِ الظّالمين

لمّا أفاد قولُه تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ وقوعَ الغرق الموعود به على وجه الإيجاز؛ انتقل الكلام إلى الحديث عن انتهاء الطوفان[3]، فقال: ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرۡضُ﴾ ولم يقل: (قيل يا أرض) مثلما قال بعدها في آخر القصة: ﴿قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ﴾ [هود: 48]؛ فلمّا تقدَّم الإخبار

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/265.
(2) ابن معصوم، أنوار الربيع، ص: 430.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/78.

عن نوح مع قومه مُرتَّبًا موصولًا وصْلَ جملةٍ بجملةٍ، مَعطوفًا عطْفَ لاحقٍ على سابق من الإرسال، وبالإيحاء إليه في شأنهم، وأمرِه أن يصنع الفُلك، والإخبار بالأمر لها، وبمجيء الأمر بإهلاكهم، وبالرُّكوب في الفلك والإخبار عنها، وبنداء نوحٍ ابنه، وبحَوْلِ الموج بينهما؛ وصَلَهُ بقوله: ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرۡضُ﴾، فوقعَ ذلك كُلُّه معطوفًا بالواو على أحسن نسقٍ وألطفِ وصلٍ بخلاف قوله: ﴿قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ﴾، فإنَّه وقع جوابًا لتعوُّذ نوحٍ بربِّه أن يسأل ما ليس له به علم، فتعيَّن الفصل لذلك، ولو وصل بالعطف لانقطع الكلام، ولم يكن للسُّؤال جوابٌ، فظهر ما بينهما من كمال الانقطاع، وما بين ذلك من كمال الاتِّصال[1]، وفي هذا الوصل إعلامٌ بأنَّه لمّا غرق أهلُ الأرض، ولم يبقَ ممَّن كفرَ باللّه ديّار؛ أمر تعالى الأرضَ أن تبلعَ ماءها الذي نبعَ منها، واجتمع عليها، وأمر السماء أن تُقلع عن المطر، فنضب الماء، وقُضي أمر اللّه بإنجاء من نجا، وإهلاك من هلك[2].

دلالةُ التَّعبير بصيغة المبني للمفعول:

الإيجازُ الدّالُّ على كثرة المعاني وتعدُّد الدّلالات

شرعتِ الآية بالفعل المبنيِّ لما لم يُسَمَّ فاعلُه: ﴿وَقِيلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾؛ لأمورٍ بيانيَّة عظيمة موجزها الآتي:

الأوَّل: أنَّ الفاعل الحقيقيَّ معلومٌ ظاهرٌ لا خلاف في تعيينِه، وعدم ذكره؛ لأنَّ المقام يصرِّح به، ويومئ إليه، والحال ينطق به؛ إذ لا يُسْمع الأرضَ غيرُه، ولا يأمر السَّماء، فتمتثل أمرَه سواه[3].

الثّاني: مثل هذا القول العظيم: ﴿يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ لا يَصْدُرُ إلّا منَ اللّه العظيم العليم الحكيم القادر المُقتدر؛

(1) ابن الجزري، كفاية الألعي في آية يا أرض ابلعي، ص: 161.
(2) القاسمي، محاسن التَّأويل: 6/97.
(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني للقرآن: 6/1141.

فقد تقرَّر في العقول: أنَّه لا حاكم في العالمين، ولا متصرِّف في العالم العلوي والعالم السُّفلي إلّا هو[1]، فبناء فعل ﴿وَقِيلَ﴾ للمفعول هُنا اختصارٌ لظهور فاعل القول وتَعَيُّنه؛ لأنَّ المقام مقام اختصار[2].

الثّالث: الإشارةُ إلى أنَّ الأرضَ والسَّماء تمتثل لأمرِ اللّه تعالى بأدنى إشارةٍ آمرةٍ بالامتثالِ، تعريضًا بمن أعرضَ، وكفر، وعاند رسول اللّه نوحًا عليه السلام ألفَ سنةٍ إلّا خمسين عامًا، فلا حاجة لاستحضارِ الهيبة وتأثيرِها في نفوس المخاطَبين، فهو أمرٌ تستجيب له الأرض والسَّماء بأن يُشار، فكيف إذا قيل؟!

الرابع: إفادة الإبهام ليذهب السّامع كُلَّ مذهب، ويطلبَ الصَّوابَ من مقصدٍ ومطلب، ويُعملَ العالم فِكره الصَّحيح ليظهرَ له وجه الصَّواب بالتَّرجيح، فيتحققَّ أنَّ القائل في هذا المقام هو في الحقيقة الملك المقتدر العلّام[3].

بلاغةُ التَّعبير بالنِّداء ﴿يَٰٓأَرۡضُ﴾:

تنزيلُ غير العاقل هنا منزلةَ العقلاء للتنويه بذكره والتّشريف لقدره

آثر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾؛ فلم يقل: (وقيل للأرض) كذا (وللسماء) وذلك للآتي:

الأوَّل: ظهور العناية بالإقبال على المنادى تنويهًا بذكره وتشريفًا لقدره، ولهذا نزَّله منزلة العاقل، فكان لامتثال أمره غيرَ غافل، كقوله تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ [الأنبياء: 69].

الثّاني: التَّنبيه على أنَّ القُدرة العظيمة صالحةٌ بأنْ تصيِّر هذه الأجرام الجسيمة إلى حال من يعقل، وتوصَل مثل هذه الجمادات الكثيفة إلى رتبة من يعقل، وإلّا فخطابُ مَن لا يعقل مُهمَل، والإقبال عليه بالأمرِ أمرٌ مُعضَل[4].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/353.
(2) البروسوي، روح البيان: 4/134، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/78.
(3) ابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 162.
(4) ابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 163.

الثّالث: التَّعريض بمن نودي مئات السِّنين من العقلاءِ، فلم يستجب، فكانت الجمادات أشرفَ وأكرمَ منه؛ فكان من إكرامها استعمالُ أدوات العقلاءِ ومعاملتها على أساس التَّكريم.

نكتةُ استعمال أداة نداء البعيد:

إظهار عظمة المُنادي الجليل والإيذان بشأن المُنادى الخاضع لمولاه

اختيار حرف النِّداء (يا) في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾، دونَ سائرِ أخَواتِها من أدوات النِّداء، هو لِكَوْنِها أمَّ باب النِّداء، وأكثر أدواته استعمالًا، وهي تدلُّ عَلى بُعْدِ المُنادى الَّذي يستدعيه مقامُ إظهار العظمة المُؤْذِنُ بالبُعدِ الشّاسع بين المنادِي والمنادَى، وبيان ضَعْفِهِ وخضوعه لمولاه وخالقه الجليل[1].

نكتة عدم استعمال: (أيَّتُها):

الاحــتراز من تَكَلُّف التَّنبيه لمن ليس من شأنه التَّنبُّه

لم يقل: (يا أيَّتُها الأرضُ) مع كثرته في نداء أسماء الأجناس؛ قصدًا إلى الاختصار والاحتراز عن تكلُّف التَّنبيه المُشعِرِ بالغفلة التي لا تُناسب ذلك المقام[2]، أي: تَكَلُّفُ التَّنبيه لمن ليس من شأنه التَّنبيه[3] حيث يُتوصَّل إلى ندائها بـ (أيِّ)؛ لعلَّها كانت غافلة، فتسمع آخر النِّداء؛ إذ لا يمكن الغفلة عن أيِّ حرف يصدر عن هذا المنادي[4].

دلالةُ إفراد (أرض) و(سماء) وتنكيرهما:

مقامُ إظهار العظمة والكبرياء للخالقِ تُناسبُه ألفاظُ التَّواضع والهوان لمخلوقاته

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ جيء بالإفراد في لفظتَي (أرض) و(سماء) دون الجمع لما في الجمع من صورة الاستكثار المتأبّي عنها مقامُ إظهارِ الكبرياء[5]، كذلك جيءَ بهما نكرتين دون تعريفهما بأل، لعدم انتظام ذلك إلّا بدخولِ

(1) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419.
(2) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419، والقاسمي، محاسن التَّأويل: 6/97.
(3) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/24.
(4) السّامرائي، على طريق التَّفسير البياني، ص: 164.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/263.

(أيَّتُها)، وهو غير مرادٍ - كما سبق بيانه - ولإعلام السّامعين أنَّها أرضٌ وسماءٌ للّه تعالى من أراضيه وسماواته.

سِرُّ اختيار نداءِ الأرض والسَّماء بهذين الاسمين:

الأصلُ جريانُ الأمورِ على اعتيادِها وارتيادِها

اختيرَ لفظُ الأرض والسَّماء على سائر أسمائهما كالمُقلة، والغبراء، وكالمظلة، والخَضراء؛ لكونهما أخصر، وأوْرَدَ في الاستعمال وأوفى بالمُطابقة، فإنَّ تقابلهما إنَّما اشتهر بهذين الاسمين[1]، ولبيانِ أنَّ الأمرَ اتَّجه إلى الأرضِ والسماءِ بهذا الاعتبارِ لا بأيِّ اعتبارٍ آخر، فالأصل جريانُ الأمور على ظواهرِها، ومضيُّها على معتادِها.

سِرُّ تقديم النِّداء على الأمر:

تنبيه المنادى مقدَّمٌ على أمره

قَدَّم النَّظم النِّداءَ عَلى الأمْرِ، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾، ولم يقل: (ابلعي ماءك يا أرض، وأقلعي يا سماء)؛ وذلك كانَ جَرْيًا عَلى مُقْتَضى اللّازِم فيمَن كانَ مَأْمورًا حَقيقَةً من تَقْديم التَّنْبيهِ أوَّلًا؛ ليَتَمَكَّنَ الأمرُ الواردُ عَقيبَهُ في نفس المُنادى كما في نداء الحي[2]، فهي تنزيلٌ للأرض والسَّماء منزلةَ الأحياءِ في التَّنبيه بالنِّداء فالأمرِ.

سِرُّ اختيارِ ﴿ٱبۡلَعِي﴾ دون مرادفاتها:

بلعُ الماءِ سرعةُ استجابةٍ تستلزمُ تطهيرَ الأرضِ من دنسِها

استعمل النَّظم الكريم - في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ - لفظة ﴿ٱبۡلَعِي﴾ دون مرادفاتها لاعتبارين اثنين:

الأوَّل: اعتبارٌ معنويٌّ: وهو أنَّه لا يقوم لفظٌ مرادفٌ آخرُ في معنى البلع، وهو ازدرادُ اللُّقمة ونحوها في الحلقوم ونحوه دفعة واحدةً من غير توقُّفٍ لمضغٍ ولا نحوه، فلمّا أمر اللّه تعالى بتفجير الأرض عيونًا نبع الماء من تلك العيون، فلمّا انتهى أمر الطُّوفان؛ أمر اللّه تعالى الأرض أن تبتلع ماءها، بحيث يرجع الماء غائرًا في تلك العيون

(1) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419، والآلوسي، روح المعاني: 6/263.
(2) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/26.

تبتلعه الأرض بأسرع وقتٍ لأمر الله تعالى وإذنه، وهذه السُّرعةُ مؤذنةٌ بتطهير الأرضِ من دنسِها، فإنَّ الماءَ إذا سارع إلى جوفِ الأرض؛ أخذ معه العوالق.

الآخر: اعتبار لفظيٌّ: فهو مراعاة حُسْنِ الجناس بين لفظة ﴿ٱبْلَعِي﴾ ولفظة ﴿أَقْلِعِي﴾ الواردة بعدها[1]، وهذا الاعتبارُ في حقيقته مردودٌ للأوَّل، فالمراعاة اللَّفظيَّة تأتي بعد المراعاة المعنويَّة؛ إذِ الفرع مردودٌ إلى أصله، ولو كانت المراعاة اللَّفظيَّة مقصودةً لذاتِها؛ لرأيناها حاضرةً في كلِّ تقابلٍ قرآنيٍّ.

الغرض من التعبير بالاستعارة المكنيَّة:

الاستعارةُ المكنيَّة في تشبيهِ الأرضِ والسَّماءِ بشخصٍ يُنادَى لبيانِ سرعة الامتثال وإرادة الاستجابة

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي﴾: شبَّه النَّظمُ الأرضَ والسَّماءَ بالعقلاء، حيث ناداها بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَرْضُ﴾، وبقوله تعالى: ﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾، ففي خطابِ الأرض تشخيصٌ وتشبيهٌ لها بالعقلاء الذين يُخاطَبون، فيعقِلون، فيُبادرون إلى تنفيذ الأمر عن قبولٍ وطواعيَّةٍ وخشيةٍ، فما هو إلّا أمرٌ وامتثال؛ أمرُ من قال للشَّيء: كن فيكون[2]، فالسَّماء والأرض مع عِظَم جِرمهما تابعتان لإرادته إيجادًا وإعدامًا وتغييرًا وتصريفًا؛ كأنَّهما عقلاء مميِّزون قد أحاطا علمًا يوجب الامتثال والإذعان لخالقهما[3]، قد عرفوا عظمته وجلالته وثوابه وعقابه وقدرته على كلِّ مقدور، وتبيَّنوا تَحَتُّمَ طاعته عليهم وانقيادهم له، وهم يهابونه، ويفزعون من التَّوقُّف دون الامتثال له، والنُّزول على مشيئته على الفور من غير ريث[4].

فخطاب الأرض والسَّماء بطريقة النِّداء استعارةٌ مكنيَّةٌ تبعيَّة[5]،

(1) ابن الجزري، كفاية الألعي، ص: 165.
(2) محمَّد الحجازي، التَّفسير الواضح: 2/125.
(3) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.
(4) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/397، والشِّهاب الخفاجي، حاشية الشهاب على البيضاوي: 5/170.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/78.

تشبيهًا لهما بالمأمور المنقاد، وأثبت لهما ما هو من خواص المشبَّه به، وهو النِّداء، والخطاب بالأمر ترشيح للمكنيَّة في المنادى، فخاطب في الأمر دون أن يقول: (ليبلع)؛ ترشيحًا لاستعارة النِّداء؛ إذ كونه مُخاطَبًا من صفات الحيِّ، كما أنَّ كونه مُنادًى من صفاته[1]، حيث نادى ربُّنا ﷻ الأَرْضَ والسَّماءَ بما يُنادى بِهِ الإِنْسانُ المُمَيِّزُ عَلى لَفْظِ التَّخْصيصِ والإِقْبالِ عَلَيْهِما بالخِطابِ من بَيْنِ سائِرِ المَخْلوقات، وهو قَوْلُهُ: ﴿يَـٰٓأَرۡضُ﴾ و﴿وَيَـٰسَمَآءُ﴾، ثُمَّ أمرهما بما يُؤْمَرُ به أهلُ التَّمييز والعقل من قوله تعالى: ﴿ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ و﴿أَقۡلِعِي﴾، تصويرًا لاقتداره العظيم، وإنَّ السَّموات والأرض، وهذه الأجرام العظام تابعةٌ لإرادته إيجادًا وإعدامًا، ولمشيئته فيها تغييرًا وتبديلًا، كأنَّهما عقلاء مُميِّزون، وقد عرفوه حقَّ معرفته، وأحاطوا علمًا بوجوب الانقياد لأمره، والإذعان لحُكمه، وتحتُّم بذلُ المجهود عليهم في تحصيل مُراده، وتصوَّروا مزيدَ اقتداره، فعظمت مهابتُه في نفوسهم، وضربتْ سُرادِقَها في أفنية ضمائرهم، فكما يلوِّح لهم إشارته كان المشار إليه مقدَّمًا، وكما يرد عليهم أمرُه؛ كان المأمورُ به متمَّمًا[2].

الغرض من التعبير بالاستعارة التَّمثيليَّة:

الاستعارة التَّمثيليَّة في بيان هيئة الأرض والسَّماء بعد النِّداءِ والأمرِ

في قولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ شُبِّهت الهيئة المنتزعة من كمال قدرة الله على رَدِّ ما انفجر من الأرض إلى بطنها، وجعْلِه مضمحلًّا بحيث لا يبقى له أثرٌ ولا رسمٌ، وقَطْعِ انصباب المطر من السماء؛ بالهيئة المنتزعة من أمرِ الآمر المطاع، وطاعة مأمورٍ مطيع لهذا الآمر، فذُكِرَ اللَّفظُ المركبُ الدّال على الهيئة المشبَّهة به ﴿يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾، وهو وجودُ

(1) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.

(2) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 418، والزَّمخشري، الكشّاف: 2/397، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/159.

نداءٍ ومنادًى وآمرٍ ومأمور، وأريد به الهيئةُ المشبَّهة، وهي بلعُ الأرضِ لمائها، وإقلاعُ السَّماءِ عن صبِّ الماءِ، ووجهُ الشبه: هو الهيئة الحاصلة من الانقياد والامتثال بلا توقُّفٍ ولا تلعثم[1]، وسرعة حصول هذين المُرادين ووجودهما على الفور من غير امتناع[2].

فالاستعارةُ في هذا التَّشبيه هي استعارةٌ تمثيليَّةٌ؛ بتمثيلِ حال الأرضِ والسَّماءِ بحال عاقلٍ يمتثل لأمرِ آمرٍ يُناديه، فيستجيب دون أدنى تأخُّرٍ أو تردُّدٍ.

بلاغة الاستعارة في: (البلع):

سرعـة الأرض في تنفيذ الأمـر الإلهي

في إجراء الاستعارةِ في لفظ (البلع) - من قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ - توجيهان[3]: الأول: أن يكون من باب تشبيه النَّشفِ بالبلع، والآخر: أن يكون من باب تشبيه غور الماء في الأرض بالبلع، وكلاهما على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، وهذا بيانهما:

الأول: شبَّهتِ الآيةُ النَّشفَ بالبلعِ، فهي استعارةٌ تصريحيَّة، فمادَّة البَلْع مُستعارة لِإدْخالِ شيءٍ في باطِنِ شَيْءٍ بِسُرْعَةٍ، والبلع حقيقته اجتياز الطَّعام والشَّراب إلى الحلق بدون استقرار في الفم، وهو هنا استعارة لإدخال الماءِ في باطن الأرض بسرعة، ومعنى بَلْعِ الأَرْضِ ماءها: دخوله في باطنها بسرعةٍ كسرعة ازدراد البالع، بحيث لم يكن جفاف الأرض بحرارة شمسٍ أو رياح، بل كان بعملٍ أرضيٍّ عاجل، كأن يكون ذلك بإحداث اللّٰه زلازلَ وخسفًا انشقَّت به طبقةُ الأرض في مواضع كثيرةٍ حتى غارت المياه التي كانت على سطح الأرض[4]، ففيه

---

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/90، والشهاب الخفاجي، حاشية الشِّهاب على البيضاوي: 5/170.
(2) عمر الأسبري، الرسالة الجودية في الآية النوحية، ص: 35.
(3) جاء في الكشاف: "جعل البلع مستعارًا لنشف الأرض الماء وهو أولى، فإنَّ النشف دالٌّ على جذبٍ من أجزاء الأرض لما عليها، كالبلع بالنسبة إلى الحيوان، ولأنَّ النَّشف فعل الأرض، والغور فعل الماء". يُنظر: الزمخشري، الكشاف: 2/397، والشِّهاب الخفاجي، حاشية الشهاب على البيضاوي: 5/170.
(4) ابن عطيَّة، المحرر الوجيز: 3/175.

دلالةٌ على أنَّه ليس كالنَّشَفِ المعتاد التَّدريجيِّ[1]، والاستعارةُ أبلغ من الحقيقةِ؛ لأنَّ النَّشف دالٌّ على الوضع المعتادِ، فهو نشفٌ غير معتادٍ، ولذلك نجد أنَّ هذه الاستعارة تُلامسُ الحقيقةَ.

الآخر: تشبيه غور الماء في الأرض بالبلعِ، ووجه الشَّبه الذَّهابُ إلى مَقَرٍّ خفيٍّ، فالبلع الذي هو إعمالُ القوَّة الجاذبة في المطعوم شُبِّه به غور الماءِ، وهو الذَّهاب في الأرض[2]، وتكون قرينة الاستعارة نسبة الفعل إلى المفعول[3]، وهي استعارة تصريحيَّة تبعيَّة[4]. والحاصل أنَّ في لفظ ﴿ٱبۡلَعِي﴾ - باعتبار جوهره - استعارةً لنشفِ الأرض أو لغَوْرِ الماء، وباعتبار صورته - أي: كونه صورةَ أَمْرٍ - استعارة أخرى لتكوين المُراد، وباعتبار كونه أَمْرَ خطاب ترشيحٌ للاستعارة المكنيَّة التي في المنادى، فإنَّ قرينتها النِّداء، وما زاد على قرينة المكنيَّة يكون ترشيحًا لها[5]، فتنوَّعت الاستعارات بين أن تكون في مجموع الكلام، أو تكون في المفردات، ولا تنافي بينهما[6].

نكتةُ استعمال صيغة ﴿ٱبۡلَعِي﴾:

البلع دالٌّ على فوريَّة الامتثال والابتلاع دالٌّ على التَّدرُّج فيه

اختار النَّظم لفظَ ﴿ٱبۡلَعِي﴾ دون (ابتلعي) في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾، فهو بلعٌ لا ابتلاعٌ؛ لسببين:

الأول: سببٌ دلاليٌّ وهو المعتبر، فإنَّ الابتلاعَ يدلُّ على كلفةٍ ومشقَّةٍ في العمل، ومن شأنه أن يأخذ وقتًا تدريجيًّا، فأتى النَّظم بالصِّيغة الدّالَّة على سرعةِ الاستجابة، وفوريَّة الامتثال، لبيان أن الذي وقع هو بلعٌ سريعٌ لا ابتلاعٌ تدريجيٌّ.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/211.
(2) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 418.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.
(4) محيي الدّين زاده، حاشية زاده على البيضاوي: 4/650، والبروسوي، روح البيان: 4/134.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/262.
(6) الأسمري، الرِّسالة الجودية، ص: 35.

الآخر: سببٌ لفظيٌّ وهو تابعٌ للسّابق، فلكون لفظِ (بلع) أخصرَ من ابتلع، ولمجانستِه للفظِ ﴿أَقۡلِعِي﴾ أوفر[1]؛ لأنَّ همزة الوصل إن اعتُبرت تساويًا في عدد الحروف وإلّا تقاربًا فيه؛ بخلاف ابتلعي[2].

دلالةُ الاستعارة المكنيَّة في: ﴿ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾:

تشبيه الماءِ بالغذاءِ لتقويةِ الأرضِ ورفدِها بغذائها

في جعل الماء مكان الغذاء استعارة مكنيَّة، حيث شبَّه الماء بالغذاء؛ لتقوى الأرض به في الإنبات للزُّروع والأشجار تقوّي الآكلِ بالطَّعام الذي يقوّي بدنه، فيَقْوى به على الإنبات وسائر المنافع[3]، وحذف المشبه به: وهو الآكل، وذَكَرَ صفة من صفاته: وهي البلع، فلفظة ﴿ٱبۡلَعِي﴾ قرينةٌ على الاستعارة؛ لكونها موضوعةً للاستعمال في الغذاء دون الماء[4]؛ لتخصيص البلع بما يُؤكل على المشهور عند اللُّغويين[5].

الغرض من تقديم بلع الماءِ على حبسه:

نـزولُ ماءِ السماء لتطهير بقايا الأوباش من الأرضِ وتنظيف الأرض من أيِّ علائق

قد يسأل سائلٌ عن سرِّ تقديم الأمر ببلع الماءِ على حبس الماءِ النّازلِ من السَّماء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾؟ وما يقتضيه ظاهر الأمر أنَّ منعَ إنزال الماءِ هو المقدَّم؛ لأنَّه الرّافد للأرض، فمنعُ الرّافدِ مقدَّمٌ في هذه الحال على بلعِ المرفود، وفي الإجابةِ عن هذا توجيهاتٌ عديدةٌ:

الأول: قُدِّم ذكرُ أمرِ الأرض على أمر السَّماء، وابتُدئ به لابتداء الطّوفان منها، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾؛ ونُزِّلت الأرضُ في القصَّة منزلة الأصل، والأصل بالتَّقديم أولى[6]، فقُدِّمت الأرضُ هاهُنا باعتبارِ الزَّمان

(1) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419.
(2) أبو السَّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/211.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/291.
(4) النيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/259.
(6) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419.

والرُّتبة، وذلك أنَّ الماء نبع أوَّلًا من الأرض، ولكون السَّفينة وأهلها على وجهها[1].

الثاني: قُدِّم ذكرُ الأمر بالبلع؛ لأنَّه السَّبب الأعظم لغيض الماء[2].

الثّالث: الماءُ النّابع من الأرض والنّازل من السَّماءِ في الأرض، فلمّا كان الماءُ مجتمعًا في الأرضِ كان البَدْءُ به أمثل.

الرّابع: المقصود حصولُ استقرارِ السَّفينة؛ فكان الأهم هو البدء بالأرض التي تستقرَّ فيها إذا بلغت ماءها، حتَّى تتمكَّن السَّفينة من الرُّسوِّ على اليابسة، ويخرج ركّابها لمباشرة الحياة[3].

الخامس: نزول الماءِ من السَّماءِ بعد ابتلاع ماءِ الأرض له وظيفةٌ تطهيريَّة، وهي أنَّ جثث الأوباش وعلائقهم قد يبقى لها أثرٌ في الأرض، فإنزال ماءِ السَّماءِ بعد ابتلاعِ ماءِ الأرض يكون تطهيرًا أخيرًا لظاهرِ الأرض من تلك الجثث، ويُعزِّزه قولُ الحقِّ سبحانه: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح: 26].

السادس: تصويرُ السماء بإنزال آخر مائها بعد بلع الأرض لكلِّ مائها، بمن أراد تنظيف بيته من آخر أوساخه، بصبِّ الماءِ على ظاهره صبًّا أخيرًا.

فائدةُ ذكرِ المفعولِ في: ﴿مَآءَكِ﴾:

بلعُ الماءِ دون غيره جوابٌ لمن يسأل عن ماهيَّة المبلوع

عيَّن النَّظم الكريم المبلوع ﴿مَآءَكِ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾؛ لئلّا يَعُمَّ فتبتلع كلَّ شيء على ظهرها[4]، من جبالٍ وتلالٍ وبحارٍ وساكنات الماء بأسرهِنَّ، نظرًا لمقام ورود الأمر الذي هو مقام عظمة وكبرياء[5]، فالغرض من ذكر المفعول هو إفهام السّامعين أنَّ اللّه ﷻ

(1) ابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 165.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/78.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/357.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/291.
(5) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419، والبقاعي، نظم الدُّرر: 9/291.

إنَّما أمر الأرض ببلعِ شيءٍ واحدٍ وهو الماء، فلم يذهب شيءٌ آخر في جوف الأرض، ففي ذكره جوابٌ عن سؤالٍ قد يُثيرُه الذِّهن، وهو: هل ابتلعت الأرضُ شيئًا سوى الماء؟ فذِكْرُ المفعول يقطع قول كلِّ سائلٍ، كما أنَّ ذكر المفعول فيه بيانُ أنَّ الأرض عوملت معاملة العقلاء في تعيين وظيفتها بدقَّةٍ، فهو ترشيحٌ للاستعارات المذكورة آنفًا.

سرُّ إضافة الماء إلى الأرض دون السَّماء:

بيانُ عظيم قدرةِ الله تعالى بفصلِ ماءِ الأرضِ عن غيرِه

جاء النَّظمُ بإضافة الماء إلى الأرض: ﴿مَآءَكِ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾، ولم يقل: (يا أرض ابلعي الماءَ)، كما قال: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾، فإنَّه لمّا كان ماءُ الطّوفان ماءين: ماءً نبع من الأرض، وماءً نزل من السَّماء، أمرَ الأرض ببلع الماء الذي نبع منها، كأنَّه قال: أدخلي الماء الذي خَرج منك فيك[1]؛ لأنَّ البلع هو الاستراط في المتصل، يُقال: بلعت ريقي، وأبلعته، وابتلعت ما في فمي، ولا يُقال: ابتلعت ما في القصعة والكأس[2]، فالأرضُ قد أخرجت ماءها، كما يُخرج الإنسان ريقه، ثم ابتلعته، ولم تأتِ على ماءٍ آخر، كان موجودًا قبل الطّوفان، كما أغنت إضافة الماء إلى الأرض عن إضافته إلى السَّماء؛ لأنَّ ما نزل من السَّماء صار في الأرض، ولو أضاف؛ لطال الكلام؛ لأنه سيكون: يا أرضُ ابلعي ماءك الخارجَ منك، وماءَ السَّماء الذي أُنزل عليك؛ فإضافة الماء إلى الأرض إيجاز.

سرُّ المجاز في: ﴿ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾:

تصويرُ الأرض بالحريصةِ على مائها كحرص المالك على ملكه

شُبِّه اتِّصال الماءِ بالأرض في قوله تعالى: ﴿ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ باتصال الملكِ بالمالك، فإنَّ إضافَةَ الماءِ إلى الأرْضِ هو من قبيل الاستعارة المكنيَّة في الهيئة الإضافيَّة الدّالة على الاختصاص المُلْكي، تَشْبيهًا لاِتِّصالِ الماءِ بالأرْضِ باتِّصالِ المِلْكِ بالمالِكِ، فشُبِّهتِ الأرضُ بمن

(1) السيواسي، عيون التَّفاسير: 2/203.
(2) الجرجاني، درج الدُّرر: 2/103.

من شأنه أن يملك، وحُذف المشبه به، ورُمز له بشيء من خصائصه، وهو الإضافة على تقدير لام الملك، واخْتيرَ ضَميرُ الخِطابِ دون أن يقول: (ليُبلع ماؤها)؛ لِأجْلِ التَّرْشيحِ[1] لهذه الاستعارة، من حيث إنَّ الخطاب يَدُلُّ على صُلوح الأرض للمالكيَّة[2]، فجعله ماءها لاتِّصاله بها اتِّصالَ الملك بالمالك[3]، وفيه توجيه الأرض للاحتفاظِ بمائها، كما يحتفظ المالك بملكه.

نكتةُ إفراد الماء في ﴿مَآءَكِ﴾:

الأرض مأمورةٌ ببلعِ مائها دون بقيَّة المياه

قيل هُنا: ﴿مَآءَكِ﴾ بالإفراد دون الجمع لما كان في الجمع من صورة الاستكثار المتأبّي عنها مقام إظهار الكبرياء والجبروت والعزة والاقتدار[4]، كما أنَّه لو جمع الماءَ؛ فقال مياهك؛ لدخل فيها كلُّ ماءٍ، ولاختلَّ ما سبقتِ الإشارةُ إليه من أنَّ الأرض مأمورةٌ ببلعِ الماء الخارج منها بعد فوران التَّنور.

بلاغةُ الإيجاز في سياق حديث الطُّوفان:

كمالُ انقيادِ الأرض والسَّماء قطعيٌّ، وتحقيقُ المطلوبِ حتميٌّ

لمّا قال ﷻ للأرض: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ وقال للسَّماءِ: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾؛ عُلِم أنَّ الأمر قد تحقَّق، فإنَّ أمر الله تعالى للأرض والسَّماء قطعيُّ الوقوعِ، فلم يقل: (قيلَ: يا أَرْضُ ابْلَعي، فبلعت، ويا سَماءُ أقْلِعي، فأقلعَتْ)[5]؛ لأنَّ مقام الكبرياء وكمال الانقياد يُغني عن ذكره الذي ربَّما أوهم إمكان المُخالفة[6]، وقوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ مغنٍ عن التعرُّض إلى كون السماء أقلعت، والأرض بلعت[7]، كما أنَّه إيجازٌ واختصارٌ واحترازٌ عن الحشو المُستغنى عنه، وهذا هو

(1) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/262.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/291.
(4) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.
(5) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 6/263.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/79.

السَّبب في ترك ذكر حصول المأمور به بعد الأمر، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المكلَّف العاقل أحرى به أن يستجيب لأمرِ الله تعالى؛ إذا ناداه فيما فيه حياته ونعيمه ورفعته وعزَّته.

التَّعبير بالإقلاع يـصـوِّر معنى الاحـتـبـاس والكفِّ عن إنزال الماءِ

غرضُ الاستعارة التَّصريحيَّة في ﴿أَقۡلِعِي﴾:

استُعملت مادَّة الإقلاع في قوله تعالى: ﴿وَيَسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ للتَّعبير عنِ احْتِباسِ المَطَرِ؛ لأنَّ الإقلاعَ في أصل الوضع اللُّغويِّ هو تَرْكُ الفاعِلِ الفِعْلَ، وذلك لِلشَّبَهِ بين الاحتباس والإقلاع في عدم ما كان[1]، فهو تشبيه الاحتباسِ وكفِّ السَّماء عن إنزال المطر بالإقلاع[2] على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، ثُمَّ أَمَرَ عَلى سَبيلِ الاسْتِعارَةِ، وخاطَبَ السَّماءَ آمرًا بقوله تعالى: ﴿أَقۡلِعِي﴾ لِمثْلِ ما تَقَدَّمَ في ﴿ٱبۡلَعِي﴾.

ففي ﴿أَقۡلِعِي﴾ استعارةٌ باعتبار جوهره، وكذا باعتبار صيغته أيضًا، وهي مبنيَّة على تشبيه تكوين المُراد بالأمر الجازم النّافذ، والخطاب فيه أيضًا ترشيحٌ لاستعارة النِّداء، والحاصل أنَّ الكلام فيه مثل ما مَرَّ في ﴿ٱبۡلَعِي﴾[3].

تـصـويـر مشهد بـلـع الـبـحـار وإقـلاع الـوابـل المدْرار

بديع الجناس بين ﴿ٱبۡلَعِي﴾ و﴿أَقۡلِعِي﴾:

في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ بين ﴿ٱبۡلَعِي﴾ و﴿أَقۡلِعِي﴾ جناسٌ لاحقٌ، اختلف في حرفين: وهما القاف والباء، وهما غير متقاربين، كقول الله تعالى: ﴿وَيۡلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ [الهمزة: 1] فهذا يُقال له: جناسٌ لاحقٌ[4]، ولا يخفى موقِعُه من قلب السّامع فيما يُحدِثه اللَّفظان من تناسقٍ لفظيٍّ وصوتيٍّ، وأثَرٍ معنويٍّ يُصوِّر ذلك المشهد العجيب والموقف الرَّهيب المهيب في بلع تلك البحار من المياه، وإقلاع ذلك الوابل الغزير المدْرار.

---

(1) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.

(2) القاسمي، محاسن التَّأويل: 6/97، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/263.

(4) الجناس اللّاحقُ اختلافٌ في حرفٍ واحدٍ مع تباعد المخرج، يُنظر: العلويّ، الطراز: 3/138.

دلالة الطِّباق بين (الأرض) و(السَّماء):

في قولهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ ورد الطِّباقُ اللَّفظيُّ بين لفظتَي (الأرض) و(السَّماء)، وقد توافقَ مع طباقٍ معنويٍّ، وهو قوله تعالى: ﴿ٱبۡلَعِي﴾ و﴿أَقۡلِعِي﴾؛ لأنَّ المعنى في بَلْعِ الأرض، إنَّما هو إدخاله في جوفها، وإقلاع السَّماء، وهو إخراجه عنها؛ وهذه مطابقة من جهة المعنى، ومن جهة أنَّ الإدخال والإخراج ضِدّان، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: 29]؛ لأنَّ الرَّحمة هي لين القلوب وتعطُّفُها، وهو ضِدُّ الشِّدَّة[1].

تصوير انتهاء الطّوفان على الأرض، وقطع إمداده من السَّماء، وزوال أثره

وقد تساوقَ الطِّباقان في إبراز تلك المُفارقة والمقابلة في نشف الماء من أسفل، وانقطاعه من علوٍّ؛ في صورةٍ تُظهر سرعةَ الاستجابة لأمر الواحد القهّار الذي يقول للشَّيء: كن فيكون، فقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ مُقابلةٌ[2] بديعةٌ بين ذِكر الأرض حالَ بلعِها للماء في جوفها وقد غار من سطحها، وذِكْرِ السَّماء عند إقلاع مائها وحبسه؛ فهي تصوِّر تلك الصّورة العجيبة، وذلك المشهد العظيم في انتهاء الطّوفان على الأرض، وانقطاع سببه من السَّماء، وتصوير تلك السُّرعة في امتثال أمر ربِّهما في الحال في إزالة آثاره؛ كلُّ هذا في جملةٍ مختصرةٍ حاسمةٍ معبِّرةٍ عن جوِّها أعمقَ تعبير.

بلاغة الاكتفاءِ في ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾:

بلْعُ الأرض يكون للماءِ وغيره، بخلاف إقلاع السَّماء فلن يكون إلّا للماءِ

لمّا تقدَّم ذكر الماء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾، اكتفى بذلك عن إعادة ذكرِه في قوله تعالى: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾، فلم يقل: (ويا سماء أقلعي عن إنزال الماء)، وذلك لما عُلِمَ أنَّ المعنى: أقلعي عن إنزال الماء[3]، كما أنَّ أمرَ الأرضِ ببلعِ الماءِ يختلف عن أمرِ

(1) العلويّ، الطراز: 3/138.
(2) أبو حيّان، النَّهر المادّ: 2/70.
(3) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/376.

السَّماءِ بالإقلاعِ عن إنزال الماءِ، وذلك أنَّ السَّماء لن تُقلع إلّا عن شيءٍ واحدٍ، وهو إنزال السَّماء المنهمر، أمّا الأرض، فإنَّها مأمورةٌ أن تبلعَ ماءَها فحسب، دون أمورٍ أخرى قد تبلعها مع الماء ممّا هو على ظاهرِ الأرضِ، فذكر المفعولِ في جانب الأرض، ليس كالتَّقييدِ في جانب السَّماء.

بلاغة التَّسهيم:

تجاوبُ الكلام أولِّه مع آخره

وقع في الآية تسهيم[1] بديع؛ لأنَّ أوّلَ الآية يدلُّ على آخرها[2]، فأوَّل الآية: ﴿يَـٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي﴾، فاقتضى آخرها: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾[3]، فبين الجملتين تكاملٌ في بيانِ إيقاف الطّوفان، والقولُ بالتَّسهيم مقبولٌ في بيانِ دلالةِ الجملةِ الأولى على الثّانية، لا في توقُّع نظمها، أو ذكر الجملةِ أصلًا، فقد يُدلُّ عليها بالتَّضمين والإيجاز، فشرطُ القولِ بالتَّسهيم هو أن يكون لا عن توقُّعِ المخاطَبِ كما هو في النَّثر، بل في كونِه تكاملًا بين جملتين تقتضي الأولى وجودَ الأخرى، وهذه خصيصةٌ من خصائص نظم القرآنِ.

الغرض من التعبير بالمجاز:

المجازُ في كلمةِ (سماءُ) إمّا على الحذفِ أو المجاز المرسل

قوله تعالى: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ أي: أمسكي عن إرسال المطر، يُقال: أقلع الرَّجل عن عمله؛ إذا كفَّ، وأقلعت السَّماء؛ إذا انقطع مطرها[4]، والمجاز هنا في قوله تعالى: ﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾ فإنَّ الحقيقة: (ويا مطر السَّماء أقلع)، على المجاز بحذفِ المضافِ، وإقامة المضاف إليه مكانه، أو مجاز مرسل والعلاقة محليَّة؛ لأنَّ السَّماءَ مَحَلُّ المطر، وذلك بما يسوقُه اللّه من غيمٍ حاملٍ للماءِ.

---

(1) التَّسهيم: أن يكون ما تقدّم من الكلام دليلًا على ما يتلوه. يُنظر: ابن أبي الإصبع، تحرير التَّحبير، ص: 263.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/265.

(3) أبو حيّان، النَّهر المادّ: 2/70، والسُّيوطي، الإتقان: 3/330.

(4) البروسوي، روح البيان: 4/134.

دلالة العَطْفِ في: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾:

خبران متغايران في المعنى قام الآخر على بيان الأوَّل وتوكيده

قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ عُطِفَ على ﴿وَقِيلَ﴾، والجامع عقليٌّ، ففي الآيةِ خبران: الأوَّل: أنَّه قيل: كيت وكيت، والآخر: أنَّه غيضَ الماء، فالأوَّل خبرٌ عمّا قيل، والآخر خبرٌ عمّا غيض، فهو عطفُ خبرٍ على خبرٍ، فهو توسُّطٌ بين الكمالين، وهو تابعٌ لأمر الأرض والسَّماء لاتِّصاله بقصَّة الماء وأخذه بحجزتها، ألا ترى أصل الكلام: (قيلَ: يا أَرْضُ ابْلَعي ماءَكِ، فبلعت ماءها، ويا سَماءُ أَقْلِعي عن إرسال الماء، فأقلعت عن إرساله، وغيضَ الماءُ النازل من السماء، فغاض)[1]، وهو مُغْنٍ عن التَّعرض إلى كون السَّماء أقلعت والأرض بلعت[2]، إذ هو بمنزلةِ نتيجة البلع والإقلاع[3]، وعلى هذا فذِكْرُ الغيض بيانٌ لكونِ الأمر قد تحقَّق، فأشبه ذكر الخبر الثّاني التَّوكيد والبيان، وجاء الفصل بين الجملتين؛ لأنَّهما خبران مستقلّان، أفاد كلٌّ منهما معنًى لم يُفِدْه الآخر.

وقيل: إنَّ في الآية لفًّا ونشرًا، فيكون قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ راجعٌ لقوله تعالى: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾[4]، وذلك لما فيه من معنى التَّوكيدِ.

سِرُّ العطف بالواو في: ﴿وَغِيضَ﴾:

بيـانُ امتثالِ الأرضِ والسَّماءِ بأحسن الإيجاز وأبلغه

مجيء (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ﴾ دون (الفاء) مع كونها أظهرَ في هذا الموضع، فلفائدة جليلة، وهي: أنَّه لو جاء بالفاء لم يكن فيه دليل على امتثال الأمر من كلٍّ من الأرض والسَّماء، وكان التَّقدير: فبلعت الأرض ماءها، وأقلعت السَّماء عن المطر، وغيض، فهذا من أحسن الإيجاز وأبلغه، وهو من إيجاز الحذف، وهو كقوله

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/264.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/79.
(3) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/358.

تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ [النّمل: 15]، أي: (آتينا داود وسليمان علمًا، فعملا به، وعلّماه، وعرفا حقَّ النِّعمة، وقالا: الحمد لله)[1].

نكتةُ اختيارِ ﴿وَغِيضَ﴾ مخفَّفًا:

دلَّ (غيضَ) على البلعِ مرَّةً واحدةً، وهو ما يُناسبُ (ابلعي)

اختير الفعل ﴿وَغِيضَ﴾ دون (نقص) لدلالةِ (نقص) على التَّدرُّج، والأرض قد أُمرت بالبلع دون الابتلاع، فدلَّت على أنَّ المطلوب هو بلعُ الماءِ مرَّةً واحدةً دون تدرُّج، و"الغَيْضَةُ: المكان الذي يقف فيه الماء، فيبتلعه"[2]، فالغيض هو بَلْعُ الماءِ مرَّةً واحدةً، وبه حصل التَّناسب بين لفظي البلع والغيض، ولو قال: (نقص)؛ لاضطرب الكلامُ، فكيف تؤمر الأرض بالبلع مرَّةً واحدةً، لا الابتلاع تدريجيًّا، ثم يُخبر أنَّها نقصت تدريجيًّا لا غاضت مرَّةً واحدة؟ كما اختير (غيضَ) المخفَّفة على (غُيِّضَ) المشدَّدة للاختصار[3]، ولموافقة ﴿وَقِيلَ﴾، ولحصولِ الأمر مرَّةً واحدةً لا تدريجيًّا.

دلالةُ بناء الفعل ﴿وَغِيضَ﴾ للمفعول:

اعتبارُ سَبَبِ الغَيْضِ، والإعلامِ بكون الماء مُسَخَّرًا بأمر الله تعالى

بُني الفعل ﴿وَغِيضَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾؛ لوجهين: أحدهما لفظيٌّ والآخر معنويٌّ:

أمّا اللَّفظيُّ؛ فلمناسبته الفعلَ قَبْلَهُ وزنًا ولفظًا؛ ليجريا على نسقٍ واحدٍ.

وأمّا المعنويُّ؛ فلأجل الإعلام بأنَّ الماء مُسَخَّرٌ بأمر الله تعالى، وتحت طاعته كسائر المخلوقات؛ ليس لواحدٍ منها تصريفٌ بنفسه في الحقيقة، فبُني للمفعول؛ ليُعلم أنَّ له من يغيضه، وهو الله ﷻ، فلو بُني للفاعل لم يكن ذلك منه حقيقةً ولا تصريحًا، بل بالإيماء والتَّأويل؛ والتَّصريح بالحقيقة أولى لاسيما في هذا المقام[4].

(1) الراغب، المفردات: (غيض).
(2) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/352، وابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 167.
(3) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25، وابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 168، 169.
(4) ابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 168.

بلاغةُ الترتيبِ في الآية:

اتبع النَّظم الكريم ذِكْرَ مقصودِ القصة بعد بيان مآل الطّوفان وزوال آثاره، فقال تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾، أي: أُنجز الموعود من إهلاك الكفرة وإنجاء المؤمنين(1)، وهو ترتيبٌ بديعٌ، فمشهدُ السَّفينة وقد رست على الجوديِّ لا يكون إلّا بعد أن يُقضى الأمر، فلمّا قال: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾؛ تطلَّع الذِّهن إلى معرفةِ مصير السَّفينةِ وأهلها بعد الطُّوفان وانقضائه، فهذا ترتيبٌ بحسبِ الوقوع.

الترتيب بحسب الوقوعِ بذكر المقصود وإنجاز الموعود والتَّطلُّع للمنشود

نكتةُ بناءِ الفعل للمفعولِ في ﴿وَقُضِيَ﴾:

جملة ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ تعدُّ تمهيدًا لذكر السَّفينة وأهلِها وما يتعلَّق بهم، وهو مجيء ﴿وَقُضِيَ﴾ على البناء للمفعول، فلم يقل: (انقضى الأمر)، أو (قضى اللّه الأمر) أو نحو ذلك؛ بحيث يوافق هو فعلَ ﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾ بعده، وإنَّما أتى بالفعل ﴿وَقُضِيَ﴾ مبنيًّا للمفعولِ للاختصار، ولمجيء أفعالٍ قبله على وتيرةٍ واحدةٍ مبنيَّةٍ للمفعول(2)، ولتعلُّقها بما قبلها من حيث القولُ، فالغيضُ، فالقضاء.

المقصودُ هو الاستواءُ على الجوديِّ؛ وما قبلَهُ فوسائل موصلةٌ لذلك

بديع الإرداف والتَّمثيل في ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾:

عبارة ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ اختيرت بإحكام بدل أن يُقالَ: (وهلَكَ من قضى اللّه إهلاكَهُمْ، ونجا من قضى اللّه نجاتهم)، وهو إرداف(3)، وإنَّما عدل عن التَّعبير، واخْتيرَ رَديفٌ له يؤدّي المقصودَ منه مع الإيجاز في العبارة، وهو التنبيهُ على أنَّ هلاك الهالك ونجاة الناجي كان بأمر آمرٍ أمْرُهُ تكْوين، إذا أراد شيئًا فَإنّما يقول له: كن فيكون، وكان بقضاء مَنْ لا رادَّ لقضائه، والأمرُ يستلزم آمرًا وقضاءه، وهذا

التَّنبيهُ على المعنى المرادِ إيماءً وإشارةً قد يكونُ أبلغَ من ذكره

(1) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.
(2) ابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 168.
(3) الإرداف: أن يُريد المتكلِّم معنًى فلا يُعَبِّر عنه بلفظه الموضوع له، ولا بلفظ الإشارة الدّال على المعاني الكثيرة، بل بلفظٍ هو ردف المعنى الخاصّ، وتابعه قريبٌ من لفظ المعنى قربَ الرَّديفِ من الرِّدف. ينظر: قُدامة بن جعفر، نقد الشِّعر، ص: 57، والعسكريّ، الصّناعتين، ص: 350.

يدلُّ على قدرة الآمر به؛ وطاعةُ المأمور تدلُّ على قدرة الآمر وقهره، وأنَّ الخوف من عقابه ورجاء ثوابه يحضّان على طاعة الآمر، ولا يحصل ذلك كلُّه من اللَّفظ الخاصِّ[1]، وجعلَهُ بعضُهم من قبيل التَّمثيل[2]؛ وهو التَّلويح عند الجمهور من علماء المعاني والبيان[3].

دلالة التَّعريف في لفظَي ﴿ٱلْمَآءُ﴾ و﴿ٱلْأَمْرُ﴾:

قال في الجملة السّابقة: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ دون أن يقول: (ماء طوفان السَّماء)، وكذا الأمر في قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ دون أن يقول: (أمر نوح مع قومه)، وهو إنجاز ما كان اللّه وعدَ نوحًا عليه السلام من إهلاك قومه، وذلك لقصد الاختصار بالاستغناء ذُكِرَ المضافُ إليه بحرف التَّعريف العهدي[4]، لِما دلَّت عليه القصَّة في بيان هلكتهم، في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ فأغنى عن نعت الأمر هُنا[5]. وكذلك لو قيل: (أمرهم) لم يفِ بالمقصود؛ فأتى بلفظ المعرَّف بالأداة الدّالة على العهد الذِّكري الذي ذُكِرَ في هذه القصَّة[6].

الاختصارُ بالعهد الذِّكري أفخمُ من الإطنابِ بذكرِ التَّفاصيل

كما أنَّ في قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ إشارةً إلى جميع القِصَّة؛ من بَعْثٍ للماء وذهابه، وإهلاكٍ للقوم الظّالمين، وإنجاءِ أهل السَّفينة المؤمنين[7]، وهي إشارةٌ جامعةٌ للمعاني السّابقةِ كلِّها، فيها من بديع الإيجازِ اللَّفظيِّ والجمعِ المعنويِّ، والتَّرهيب للمجرمين، والترغيب للمؤمنين، ما لا يُحيط به لفظٌ.

(1) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/362.
(2) وهو أن يُريد المتكلِّم معنى فلا يَدُلّ عليه بلفظه الموضوع له ولا بلفظ قريب من لفظه، وإنَّما يأتي بلفظ هو أبْعَدُ من لفظ الإرداف قليلًا، يصلح أن يكون مثالًا للفظ المعنى المراد، يُنظر: قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص: 58.
(3) ابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 58.
(4) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.
(5) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/376.
(6) ابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 170.
(7) الثَّعالبي، الجواهر الحسان: 3/285، وابن عطيَّة الأندلسي، المحرَّر الوجيز: 3/175.

غرض الكنايةِ في الأفعال المبنيَّة للمفعولِ:

لمّا أراد الحقُّ ﷻ أن يبيِّن معنى إرادةِ ردِّ ما انفجر من الأرض إلى بطنها، وقطع طوفان السَّماء، وغيض الماء النّازل من السَّماء، فغاض، وقضاء أمر نوح، وهو إنجاز ما وعده اللّه من إغراق قومه فَقُضي[1]، فاختصرها النَّظم الكريم المعجز في بناء الأفعال (قيل، وغيض، وقُضيَ) للمفعولِ، فلم يصرِّح بِمَن غاضَ الماءَ، ولا بِمَن قَضى الأمْرَ، ومن سَوّى السَّفينَةَ على الحقيقةِ، كَما لَمْ يُصَرِّحْ بِقائِلِ: ﴿يَٰٓأَرۡضُ﴾ ﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾ في صدر الآية، سُلوكًا في كلِّ واحد من ذلك سبيل الكناية؛ لأنَّ تلك الأمور العظام لا تتأتّى إلّا من ذي قدرةٍ لا يُكتنه، قهّارٍ لا يُغالَب، فلا مجال لذهاب الوهم إلى أن يكون غيره جلَّت عظمته قائلًا: ﴿يَٰٓأَرۡضُ﴾ ﴿وَيَٰسَمَآءُ﴾، ولا غائضًا ما غاض، ولا قاضيًا مثل ذلك الأمر الهائل، أو أن تكون تسوية السَّفينة وإقرارها بتسوية غيره وإقراره[2].

تركُ ذكرِ الفاعل لحتميَّة العلم به كنايةٌ بذكر اللّازم وإرادة الملزوم

والحاصل المتقرِّر عند أهل العلم أنَّ الفعل إذا تعيَّن لفاعل بعينه؛ استتبع ذلك أن يُترك ذكره، ويُبنى الفعلُ لمفعوله، أو يذكر ما هو أثرٌ لذلك الفعل على صيغة المبني للفاعل، ويُسند إلى ذلك المفعول، فيكون كنايةً عن تخصيص الصِّفة التي هي الفعل بموصوفها، وهذا أولى ممّا قيل في تقرير الكناية هُنا: إنَّ ترك ذكر الفاعل، وبناءَ الفعل للمفعول من لوازم العلم بالفاعل وتعيُّنه لفاعليَّة ذلك الفعل، فذُكِرَ اللّازمُ، وأريد الملزوم[3].

بلاغةُ العطفِ في: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾:

مرحلةُ استواءِ السَّفينةِ هي مرحلةٌ مقصودةٌ في استقرارِ الأمرِ بعد الطّوفان

بَيَّن ربُّنا ﷻ حال استقرار السَّفينة بقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾، وكان جبلًا مُنخفضًا، فكان استواء السَّفينة عليه دليلًا

(1) النَّسفي، مدارك التَّنزيل: 2/272، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/25.
(2) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/262.

على انقطاع مادَّة الماء[1]، ودلَّ العطفُ بذكرِ استواءِ السَّفينةِ بعد نداء الأرض والسماء وأمرهما، وغيض الماء، وقضاء الأمر، على تحقُّقِ المقصودِ، والغاية ممّا كان؛ فالاستواء مرحلةٌ مقصودةٌ، فما قبلها وسائل موصلة إلى الغايةِ، وهي الاستواء على الجوديِّ.

دلالة استعمال ﴿عَلَى﴾:

بيان تمكُّن السَّفينة واستقرارها لتسهيل نزول الرّاكبين

﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ بيانٌ لحكمة إرسائها على الجبل، وذلك أنَّ جانب الجبل أَمْكَنُ لاستقرار السَّفينة عند نزول الرّاكبين؛ لأنَّها تَخِفُّ عندما ينزل معظمهم، فإذا مالت؛ استندت إلى جانب الجبل[2]، فلا يخفى ما يفيده حرفُ الاستعلاء ﴿عَلَى﴾ من التَّمكُّن والاستقرار على الجبل.

سرُّ عُدول فعل ﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾ عن سابقيه:

رعاية المُقابلة للجريان المتأتّي منها في قوله: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ﴾

قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ ولم يقل: (سُوِّيَتْ) على الجودي؛ بمعنى أُقِرَّت على نحو: ﴿وَقِيلَ﴾ و﴿وَغِيضَ﴾ و﴿وَقُضِيَ﴾ مع كونه أنسبَ بأخواته المبنيَّة للمفعول، على اعتبار أنَّ بناء الفعل للفاعل مع السَّفينة المقابل للجريانِ في قوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ﴾، فناسب بناءُ الفعل للفاعل في ﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾ بناءَه للفاعل في ﴿تَجۡرِي﴾، مع قصد الاختصار في اللَّفظ[3].

سرُّ إضمار فاعل ﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾:

قَصْدُ الاختصار لتقدُّم الضَّمائر الدّالَّة على المقصود

أُضمر الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ دون أن يقول: (واستوت السفينة على الجودي)؛ لأنَّه لو صُرِّحَ بذلك لكان تطويلًا، فإنَّ الضَّمائر تقدَّمت عائدةً عليها جملةً بعد جملة، فقال تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ [هود: 37]، وقال: ﴿ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا

(1) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/26.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/79.
(3) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/26، والآلوسي، روح المعاني: 6/263.

﴿وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾ وقال: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي﴾ حتَّى قال: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾، أي: هي - يعني الفلك - والمقام مَقام اختصار، وليس هنا ما يوجب، أو يُحَسِّن إقامة الظّاهر مقامَ المضمر من لبسٍ وغيره(1).

نكتةُ اختيار لفظة ﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾:

الاستواء حدثٌ خاصٌّ لا يُقاس عليه استقرار عموم السُّفن في البحار

استُعمل لفظ ﴿وَٱسۡتَوَتۡ﴾ دون ما في معناها من مثل: (استقرَّت) أو (رست) المخصوص بالسُّفن في الاستعمال اللُّغويِّ، وذلك للخفَّة والاختصار؛ فالخِفَّةُ في اللَّفظ ظاهرةٌ، وكذلك الاختصار، فإنَّ (استوت) خمسة أحرفٍ، و(استقرَّت) سبعة، وكذلك فإنَّ (استقرت) تَدُلُّ على الاستقرار، و(استوت) تدلُّ على ذلك وزيادة، فإنَّها تدلُّ على الاستقرار والسَّلامة والاعتدال؛ قال الله تعالى: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزُّخرف: 13]، وأمّا عُدوله عن (رَسَتْ) مع الاختصار، وأنَّها مخصوصة بالسُّفن في لسان العرب؛ إذ يقولون: إذا وقفت السَّفن: (رست السَّفينة؛ إذا ثبتت - ترسو رسوًّا؛ إذا وقفت على المراسي)، والمراسي جمع (مرساة): وهي حَديدةٌ كبيرة ثقيلة تُرسى بها السُّفن، فتُدلَّى بالحبال الثِّخان حتَّى تَبْلُغَ قعر البحر، فتثبت، قال تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ﴾، أي: بسم الله جَريُها أو إجراؤها على وجه الماء، وثبوتُها أو إيقافُها عليه، فإذا عُلِمَ ذلك، فليُعلم أنَّه لو قال: (ورَست على الجودي)، لم يكن موافقًا للمعنى المُراد بالاستواء؛ لأنَّ الاستواء على الجَبَل، والرُّسوَّ على الماء(2).

بديعُ الإردافِ في: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾:

لفظُ الاستواءِ دالٌّ على التَّمكُّن الذي لا حركةَ بعده

وقع الإرداف في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾، فإنَّ حقيقة ذلك (وجَلَسَتْ على هذا المكان)، فَعَدَل عن لفظ المعنى الخاصِّ به إلى لفظٍ هو رِدْفُهُ، وإنَّما عَدَلَ عن لفظ الحقيقة لما في الاستواء

(1) ابن الجزريِّ، كفاية الألمعي، ص: 171.
(2) ابن الجوزي، كفاية الألمعي، ص: 170.

الذي هو لفظُ الإرداف من الإشعار بجلوس متمكِّنٍ لا زيغ فيه ولا ميل، وهذا لا يحصل من قولك: جلستُ أو قعدتُ أو غير ذلك من ألفاظ الحقيقة، إذ كان المُراد الإخبارَ ينفي الأسباب الموجبة خوف أهل السَّفينة من السَّفينة في حالتَي حركتها وسكونها، وذلك لا يحصل حتَّى يفهم السّامع أنَّها جلست جلوسًا مُتمكِّنًا لا ميلَ فيه يوجبُ الخوف، ولا يحصل إلّا بلفظ الاستواء دون غيره[1].

دلالةُ الاعتراض بأكثرَ من جملة:

ازدحامُ المعاني ببيان نزولِ النِّعم بعد دفعِ النِّقم

من أحسن ما يمثَّل به اعتراضُ أكثر من جملةٍ في القرآن الكريم قولُه تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ فإنَّها ثلاث جُمَلٍ معترضة، بين: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ﴾، وقوله ﷻ: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾، وفيه اعتراضٌ في اعتراض، فإنَّ قوله: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ مُعترِضٌ بَيْنَ: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ وبين ﴿وَٱسْتَوَتْ﴾؛ ولا مانع من وقوع الاعتراض في الاعتراض عند البيانيّين، بل على قواعد النُّحاة أيضًا، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾ [الواقعة: 76]، فهذا اعتراضٌ في اعتراضٍ نحويٍّ، والذي قَبْلَهُ اعتراضٌ في اعتراضٍ بيانيٍّ[2]، ونكتتُه: ازدحامُ المعاني، وبيانُ جلالِ النِّعم في دفع النِّقم مرَّةً واحدةً.

توجيه ذكرِ ﴿ٱلْجُودِيِّ﴾ بالعلَميَّة المطلقةِ:

الجوديُّ لنوحٍ، والطّور لموسى عليهما السلام بدايةُ عملٍ ومرتكزُ أملٍ

لم يُعيِّن النَّظم أنَّ الجوديَّ جبلٌ، فلم يقل: (واستوت على جبل الجوديِّ) ليُعلم أنَّه جبل؛ لأنَّ الجوديَّ علَمٌ لهذا الجبل المعروف، والألف واللّام ليست للتَّعريف، بل زائدةٌ تقع في الأعلام لغلبتها على من هي له كالبيت للكعبة، والمدينة لطَيبة، والنَّجم للثُّريا، والجودي لجبل الجزيرة، فلم يحتج إلى ذكر الجبل؛ لأنَّ هذه الأسماء في نفسها

(1) ابن أبي الإصبع، تحرير التَّحبير، ص: 207.
(2) السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: 1/618.

أعلام، فلو قيل: على جبل الجوديِّ؛ لكان من إضافة الشَّيء إلى نفسه، وهو تطويلٌ بلا فائدة، والمقام مقام اختصارٍ وإيجاز؛ فعُلم أنَّه جبل من حيث العلميَّة، ولذلك قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ﴾ [مريم: 52]، وقال: ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ﴾ [طه: 80]، يعني بذلك جبل الطّور المعروف، وهو الجبل الذي كلَّم اللّه عليه موسى عليه السلام، ولم يقل في شيءٍ من ذلك: (جبل الطور) إيجازًا واختصارًا للعِلم به[1]، وإجراءً له مُجرى ما كان للطُّور، فإنَّ الطّور جبلُ موسى عليه السلام الذي انطلق منه في تلقّي الرِّسالة والدعوةِ، وكذلك الجوديّ هو الجبل الذي انطلق منه نوحٌ عليه السلام ومن معه من المؤمنين للدَّعوة، فهما جبلان يجب أن يُعرفا باسمهم العَلَم؛ ليكونا منارًا للمؤمنين، أمّا الطّور؛ فهو بداية العمل، ومرتكز الأمل، وأمّا الجوديُّ؛ فهو بداية عملٍ جديدٍ، وانطلاقة للبشريَّة فريدة.

نكتةُ بناء فعل ﴿وَقِيلَ﴾ للمفعولِ:

تعميمُ أفرادِ الفاعلين، وشمولُ كُلِّ قائلٍ يصلح أن يقول: (بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظّالِمِين)

في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، يحتمل قائل: ﴿بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أن يكون اللّه سبحانه وتعالى، فيكون جريًا على طريقة قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾، والظاهر أنَّه من كلام اللّه تعالى؛ لأنَّ اللّه تعالى يقول بُعيد ذلك في قصة هود: ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ٦٠﴾ [هود: 60]، وفي قصة ثمود: ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ٦٨﴾ [هود: 68]، وفي قصة شعيب: ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ﴾ [هود: 95]، والقائل في ذلك كلِّه هو اللّه تعالى، والقرآن يفسِّر بعضُه بعضًا، فيجري القول على نسقٍ واحدٍ[2]، ويحتمل أن يكون القائلُ نوحًا عليه السلام ومن معه من المؤمنين؛ لأنَّ الغالب ممَّن يسلَم من الأمر الهائل بسبب اجتماع القوم الظَّلمة أنَّه يقول مثل هذا الكلام[3]؛ تحقيرًا للكفّار، وتشفّيًا منهم، واستراحةً من بلائهم، فالاحتمالان قائمان، والاحتمالان مقبولان.

---

(1) ابن الجزري، كفاية الألعي، ص: 172.

(2) ابن الجزريّ، كفاية الألعي، ص: 148.

(3) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/26.

ومن هنا فإنَّ فعلَ ﴿وَقِيلَ﴾ بُني للمفعول؛ لعدم الحاجة إلى معرفة قائله[1]، وللإشارة إلى أنَّ كلَّ من عَلم بشأنهم قال: ﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فيدخل في ذلك الملائكةُ، والإنس، والجنُّ، وكلُّ من له عقلٌ، أو ملأ قلبَه إيمانٌ، وفي هذا إعلامٌ بهوان المُهلَكين والرّاحة منهم[2]، وفيه أيضًا تعليمٌ من اللّه تعالى لعباده أن يدعوا على الظّالمين به[3]؛ فيكون جاريًا مجرى الدُّعاء عليهم[4].

فائدة استعمال المصدر ﴿بُعْدًا﴾:

بُـعْـدُ الظّالمين بُعدٌ لا يُرجى منه عـود؛ فهو دالٌّ على الاستمرار والثّبات

المصدرُ ﴿بُعْدًا﴾ هو من (بَعِدَ) بالكَسْرِ مُرادًا بِهِ البُعْدُ من حيثُ الهلاكُ، هلاكًا وخَسارًا لهم وبُعدًا من رحمة اللّه، فإنّهم قد هلكوا عن آخرهم، فلم يبقَ لهم بقيَّة[5]، فإنَّ حقيقتَهُ: بُعْدٌ بعيدٌ لا يرجى منه عوْدٌ ولا قربٌ، ثُمَّ اسْتُعيرَ للهلاك، وخُصَّ بدعاء السّوءِ، وعَبَّرَ بالمصدر لتعليقهِ باللّام الدّالَّةِ عَلى الاسْتِحقاقِ والاختصاص[6]، وقال: ﴿بُعْدًا لِّلْقَوْمِ﴾، ولم يأتِ بالفعل، فلم يقل: (ليبعُد القوم) طلبًا للتَّأكيد مع الاختصار، وهو تنزيل ﴿بُعْدًا﴾ منزلةَ ليبعدوا بُعدًا[7]، وللدَّلالة على الحدث المُطلق غير المقيَّد بزمن أو بفاعل، وللدَّلالة على الثُّبوت والاستمرار.

بديع التَّورية التّامّة والكناية في ﴿بُعْدًا﴾:

إرادةُ معنى الإبعاد والإهلاك في لفظٍ واحدٍ إيجازٌ بديعٌ

وقع المصدر ﴿بُعْدًا﴾ - في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ - موقعًا بديعًا من التَّورية التّامة؛ إذ يَصِحُّ في ﴿بُعْدًا﴾ كلٍّ من المعنيين: الإبعاد، والهلاك، ويشهد للأوَّل قولُه تعالى: ﴿إِنَّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/79.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/292.
(3) البروسوي، روح البيان: 4/134.
(4) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/26.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/280.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 9/292.
(7) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419، والنَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/26.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١﴾ [البقرة: 161]، أي: البُعداء يلعنهم الله تعالى، وتلعنهم الملائكة والمؤمنون[1]، ويَشْهَدُ للثّاني قولُه تعالى: ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ٩٥﴾ [هود: 95]، والدَّليل على جواز إرادة المَعْنَيَيْن وكونه من التَّورية التّامة: أنَّه لم يورِد ﴿بُعۡدٗا﴾ بالفتح، فإنَّه لو أراد الهلاك فقط؛ لكان بالفتح[2].

ويصح أن يكون استعمال ﴿بُعۡدٗا﴾ كنايةً عن التَّحقير بلازم كراهية الشَّيء، فلذلك يُقال: بَعُدَ أو نحوه لمن فُقِدَ؛ إذا كان مكروهًا كما هُنا[3].

معنى اللّام الدّاخلة على ﴿لِّلۡقَوۡمِ﴾:

إبعادُ الله للظالمين لا يكون إلّا عن استحقاقِهم لذلك

استعمال اللّام - في قوله تعالى: ﴿لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بَعْدَ قوله تعالى: ﴿بُعۡدٗا﴾ - دالٌّ على معنى أنَّ البُعْدَ حُقَّ لهم[4]، فهي دالَّة على استحقاق الهلاك[5] والإبعاد، لما اقترفوه من الكفر، وقرنه بالسُّخرية والاستخفاف بصنيع رسول الله فيهم.

معنى التَّعريف في: ﴿لِّلۡقَوۡمِ﴾:

إفادة العهد الذِّكري للفظ القوم المتكرِّر في القِصَّة فيما سبق من الآيات

التَّعريفُ في لفظِ ﴿لِّلۡقَوۡمِ﴾ - في قوله تعالى: ﴿لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ - للعهد الذِّكري[6]، أو للعِوض عن المضاف إليه، كأنَّه قال: (لقوم نوحٍ الظّالمين)، فذلك كقوله تعالى في آخر قصَّة عاد: ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ٦٠﴾ [هود: 60].

(1) أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير: 1/138.
(2) ابن الجزريِّ، كفاية الألمعي، ص: 195.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/79.
(4) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/263.
(6) أبو حيّان، النَّهر المادّ: 2/70.

تعيينُ المقصود ودفْعُ تخصيصِ العموم

فائدةُ ذكر: ﴿لِّلۡقَوۡمِ﴾:

المراد بالقوم في قوله تعالى: ﴿لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: المعهودين في هذه القِصَّة التي كان فيها من شِدَّة القيام فيما يحاولونه ما لا يعلمه أحد إلّا اللّه[1]، ولم يقل: (بُعْدًا للظالمين) مع أنَّه أخصر والمقام مقام إيجازٍ - كما تقرَّر - وفائدة ذلك الإيضاحُ، ورفعُ اللَّبس، والإعلامُ بأنَّهم قومُ نوحٍ الذي أُرسل إليهم، فكفروا به، لا عموم الظّالمين؛ فإنَّه لما تقدَّم أوَّلَ القصَّة وبعدَهُ قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ [هود: 25]، وقولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ﴾ [المؤمنون: 33]، وغيرها حيث كرَّر ذِكْرَ القوم في سبعة مواضع، فناسب أن يختم القصَّة عند ذكر ما آل إليه أمرهم بقوله تعالى: ﴿بُعۡدًا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ كي لا يُظنَّ بهذه المخالفةِ في إسقاطِ لفظِ (القوم) إرادة العموم، فيتوهَّم متوهِّمٌ أنَّ آلة التَّعريف في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ للجنس، وهو خلاف المقصود، فلا يحصل رفعُ التَّوهُّم إلّا بذكر القوم؛ فقد صار الإتيان بها يفيد معنًى لم يفده الكلام بدونها[2].

المناسباتُ اللَّفظيَّة وردُّ آخرِها على أوَّلِها تمتينٌ للسّياقِ وتقويةٌ للنَّظم

سرُّ التعبير بالظّالمين دون الكافرين:

خصَّ النَّظمُ وصفَ الظُّلم دون أوصافٍ أخرى في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعۡدًا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ للآتي:

أولًا: وضوحُ اتِّصافِهم بهذه الصفة أكثر من غيرِها، وقد تقدَّم قوله تعالى في هذه القِصَّة من هذه السّورة: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧﴾ [هود: 37].

ثانيًا: الإشْعارُ بعلّيَّتِه للهلاك، فالظُّلم مجلبةُ كلِّ قبيح.

ثالثًا: تَذْكيرُ نوحٍ عليه السلام ما سبق من قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/292.

(2) ابن أبي الأصبع، تحرير التحبير، ص: 198.

﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٣٧﴾ [هود: 37]، فإنَّ المراد بالظّالمين هاهنا قومُ نوحٍ الذين قدَّم ذكرهم ووصَفهم بالظُّلم، ونهاه عن المُخاطبة فيهم ليرتَدَّ عجُز الكلام على صدره، ويُعلم أنَّ المدعوَّ عليهم هم الذين تقدَّم ذِكرهم[1]، فكان ذِكْرُ الظّالمين هُنا أنسبَ لذلك[2].

رابعًا: تعريضٌ بجميع الظالمين، وتحذيرٌ لهم لكيلا يسلكوا مَهْيَعَ قوم نوحٍ الظالمين، فيحيق بهم العذاب، كما حاق بقوم نوح.

خامسًا أُطلِقَ الظُّلم ليتناول كلَّ نوعٍ حتَّى يدخل فيه ظُلمُهم أنفسَهم في فسقِهم، لزيادة التَّنبيه على فظاعة سوء اختيارهم في تكذيب الرُّسل؛ ليوافق قوله تعالى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٤٦﴾ [الذّاريات: 46]، ويتناول الظُّلم بمعنى الشِّرك والكفر[3]؛ ليوافق قوله تعالى: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦﴾ [نوح: 26]، فأطلق الظُّلم ليتناولَ ظُلمَ أنفسهم وظلمَهم غيرهم[4]، لزيادة التَّنبيه على فظاعة سوء اختيارهم في التَّكذيب من حيث إنَّ تكذيبهم للرُّسل ظلمٌ على أنفسهم؛ لأنَّ ضرَرَهُ يعود إليهم[5].

بلاغةُ التَّعريض بالظّالمين:

تنبيهُ الأمم اللّاحقة على ما وقع للأمم الغابرة رحمةٌ بهم ورأفةٌ بحالهم

في قوله تعالى: ﴿بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خُتِمَ الكلام بذكر الظالمين من قوم نوحٍ عليه السلام، على طريقِ التَّعريض تنبيهًا لسالكي مسلكهم أنَّ في تكذيب الرُّسل ظُلْمًا لأنفسهم لا غير، وإظهارًا لمكان السُّخط ولجهة استحقاقهم إيّاه؛ لأنَّه يُنبئُ عن الظُّلم المُطلق وعن علَّة قيامة الطّوفان[6]، وأنَّ قيامة الطّوفان وتلك الصّورة الهائلة ما

(1) ابن أبي الأصبع، تحرير التَّحبير، ص: 198.
(2) ابن الجزري، كفاية الألمعي، ص: 176.
(3) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419.
(4) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/26.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/263.
(6) النَّيسابوري، غرائب القرآن: 4/26.

كانت إلّا لظلمهم[1]، كما يُؤذِن بذلك الدُّعاء بالهلاك بعد هلاكهم، والوصف بالظُّلم مع تعليق الحُكم به[2].

بلاغةُ الاحتراس:

بيان أنَّ المُهلَكين هُم الظّالمون فقط

في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ احتراسٌ بديعٌ[3] حتى لا يتوهَّم واهِمٌ أنَّ الطّوفان أغرقَ كلَّ من في الأرض يومها، فجاء الدُّعاء على الظّالمين مُبيِّنًا أنَّ الذين أُغرقوا هم الظّالمون فقط، احتراسًا من ضعيف العقل أن يتوهَّم أنَّ العذاب شمل من يستحقُّ، ومن لا يستحقُّ، فتأكَّد بالدُّعاء كونُهم مُستحقّين[4] هلاكَهم بسببِ ظلمهم.

بلاغةُ الإيجازِ:

اقتصاص القصة بألفاظٍ قليلة مستوعبةً للمعاني الكثيرة

قصَّتِ الآيةُ القصَّةَ مُستوعبَةً بأخصر عبارة[5]، بحيث لم يُخلَّ منها بشيء وبألفاظ غير مطوَّلة؛ والإيجاز لذكر القصة باللَّفظ القصير مستوعبًا للمعاني الجمَّة[6]، فإنَّ أعظم ما فيها شرح قصَّةِ نوحٍ في الطُّوفان من أوَّله إلى آخره في هذه الألفاظ القلائل[7]. و في هذه الآية من الإيجاز ما يعجز البيان عن استيفاء تحليله وشرحه، فقد أمر فيها ربُّنا، ونَهى، وأخبرَ، ونادى، ونعَتَ، وسمّى، وأهْلَكَ وأبْقى، وأسْعَدَ، وأشْقى، وقصَّ من الأنباء ما حقَّق به الغاية القصْوى من البيان[8].

وهذه الآية الكريمة قد بلغت من مراتب الإعجاز أقاصيها، واستذلت مصاقع العرب، فسفعت بنواصيها، وجمعت من المحاسن

(1) السَّكاكي، مفتاح العلوم، ص: 419.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/263.
(3) أبو حيّان، النَّهر المادّ: 2/70.
(4) ابن أبي الإصبع، تحرير التَّحبير، ص: 198، وابن الجزريِّ، كفاية الألمعي، ص: 212.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/265.
(6) أبو حيّان، النَّهر المادّ: 2/70، والنّويري، نهاية الأرب: 7/176.
(7) الدَّميري شرح لامية العجم، ص: 44.
(8) ابن معصوم، أنوار الربيع، ص: 430.

ما يضيق عنه نطاق البيان، وكانت من سمهريِّ البلاغة مكان السِّنان[1]، قال بعضهم: هذه الآية أبلغ آية في القرآن، لاحتوائها على أحد وعشرين نوعًا من أنواع البديع، والحال أنَّ كلماتها تسعة عَشَرَ[2].

وفيما يلي ذِكْرُ بعض وجوه البديع على وجه العُموم بعد ذكر شيءٍ صالحٍ منها ممّا يتعلَّق بجُمَلها على وجه التَّفصيل فيما سبق.

وقد جاءت جُمل الآية معطوفًا بعضُها على بعضٍ بواو النَّسق على التَّرتيب الذي تقتضيه البلاغة؛ لأنَّه سبحانه بدأ بالأهمِّ؛ إذ كان المُراد إطلاقَ أهل السَّفينة من سجنها، ولا يتهيَّأ ذلك إلّا بانحسار الماء عن الأرض، فلذلك بدأ بالأرض، فأمرَها بالبلع، ولمّا عُلِمَ أنَّ الأرض إذا ابتلعت ما عليها من الماء، ولم تقطع مادَّة الماء تأذّى بذلك أهل السَّفينة عند خروجهم منها، وربَّما كان ما ينزل من السَّماء مُخلفًا لما تبتلعه الأرض، فلا يحصل الانحسار، فأمر سبحانه السَّماء بالإقلاع بعد أمره الأرض بالبلع، ثم أخبر بغيض الماء عندما ذهب ما على الأرض، وانقطعت مادَّة السَّماء، وذلك يقتضي أن يكون ثالث الجملتين المتقدِّمَتين، ثُمَّ قال تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾، أي: هلك مَن قُدِّر هلاكه، ونجا مَن قُضيت نجاته، وهذا كُنْهُ الآية، وحقيقة المعجزة، ولا بُدَّ وأن تكون معلومةً لأهل السَّفينة، ولا يمكن علمهم بها إلّا بعد خُروجهم منها، وخروجُهم منها موقوفٌ على ما تَقَدَّم، فلذلك اقتضت البلاغة أن تكون هذه الجملة رابعة الجمل، وكذلك استواء السَّفينة على الجوديِّ، أي: استقرارها على المكان الذي استقرَّت فيه استقرارًا لا حركة معه، لتبقى آثارها آيةً لمن يأتي بعد أهلها، وذلك يقتضي أن يكون بعدما ذكرنا، وقوله سبحانه: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، هذا دُعاءٌ أوجبه الاحتراس ممَّن يَظُنُّ أنَّ الهلاك ربُّما شَمَلَ من لا يستحقُّ، فدعا سبحانه على الهالكين، ووصفهم بالظُّلم احتراسًا من هذا الاحتمال، وذلك يقتضي أن تكون بعد كلِّ ما تقدَّم، فانظُر إلى حُسْن هذا النَّسق، وكيف وقع القولُ فيه وفقَ الفعل سواء[3].

فرتَّب النَّظم الكريم الأحداث بواو النَّسق، حسب الأهميَّة، وبمنطقيَّة وتكامل وتناسق

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/261.
(2) الصّاوي، حاشية الصّاوي على الجلالين: 2/137.
(3) ابن أبي الاصبع، تحرير التَّحبير، ص: 425.

عجيب، حيث عطف القضايا بعضَها على بعضٍ بحسن ترتيب[1]، فالجمل المتتالية التي جاء بعضُها معطوفًا على بعضٍ متلاحمةٌ تلاحمًا سليمًا مُستحسنًا، وكلُّ واحدةٍ منها قابلةٌ لأَنْ تستقلَّ بنفسها لو أُفْرِدَتْ.

بلاغة فنِّ التَّنظير بين هذه الآية وغيرها:

الآيــة ساميـةٌ ومــتــفــرِّدةٌ في ألـفـاظـهـا وأسلوبها مقارنةً بغيرها

فنُّ التَّنظير[2] في الآية يظهر في توصيف قصَّة الطوفان التي انطوت على الكثير من العقد والحلول والعبر، وهو نظرٌ إلى مكوِّنات القصَّة وخصائصها ومرتكزاتها، باعتبار مقارنتها بغيرها من القصص، حيث جاءت ساميةً عليها جميعًا باستقصاء جميع ما اتَّفق فيها وما سَنَحَ[3].

بديعُ الائتلافِ بين الألفاظِ والمعاني في الآيةِ الكريمة:

ائتلافُ الألفاظِ في الآيـة مباينٌ لائـتـلافـهـا في نظم النّاس

من مظاهر الإعجاز وما اشتملت عليه هذه الآية من الحسن والطَّلاوة والرَّونق والمائيَّة التي لا يَقْدِر البشر على الإتيان بمثلها، ولا يستطيع أفصح النّاس وأبلغ العلماء مضاهاتها؛ ائتلافُ[4] ألفاظها ومعانيها، فأمّا ائتلافُ اللَّفظ مع اللَّفظ؛ فلأنَّ كُلَّ لفظةٍ لا يصلحُ موضعَها غيرُها[5]، على أنَّ ألفاظها المُفردة كثيرة الاستعمال دائرة على الألسنة، فقوَّة التَّركيب وحُسْنُ السَّبك هو الذي ظهر فيه الإعجاز؛ وأفحمت فيه البلاغة من حيث لاقت اللَّفظة الأولى بالثّانية والثّالثة بالرّابعة، وكذلك سائرُ الألفاظ إلى آخر الآية، ويشهد لذلك

---

(1) النّويري، نهاية الأرب في فنون الأدب: 7/176.

(2) التَّنظير ويُسمَّى المفاضلة: أنْ يَنظُر الإنسان بين كلامين: إمّا متفقَي المعاني أو مختلفَي المعاني، ليظهر الأفضل منهما، فالمفاضلة بين الألفاظ والمعاني على اتِّفاقهما واختلافهما فمتى وجدا في أحد الكلامين دون الآخر، أو كانا أخصَّ به من الآخر، حُكم له بالفضل. يُنظر: ابن الأثير، المثل السّائر: 3/270.

(3) مُحيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/365.

(4) الائتلاف نوعان: ائتلاف اللَّفظ مع اللَّفظ، وهو أن تكون الألفاظ يلائم بعضها بعضًا، بأن يُقرن الغريب بمثله والمتداول بمثله رعايةً لحسن الجوار والمُناسبة، والنّوع الثّاني من هذه الملاءمة ائتلاف اللَّفظ مع المعنى، أن يحكي صوتُ الكلمة صوتًا يوجد فيما دلَّت عليه.

(5) النّويري، نهاية الأرب: 7/176، والسُّيوطي، الإتقان: 3/330.

أنَّك لو أخذت لفظةً منها من مكانها وأفردتها عن أخواتها لم تكن لابسةً من الحُسْنِ والرَّونق ما لبسته في موضعها من الآية، ولكلِّ كلمةٍ مع صاحبتها مقام[1].

وأمّا ائتلاف اللَّفظ مع المعنى؛ فإنَّ ألفاظ هذه الآية الشَّريفة تُسابق معانيَها، ومعانيها تُسابق ألفاظَها، حيث يوجد انسجام قويٌّ، وائتلافٌ محكَمٌ بين الألفاظ ودلالتها، وهذا يدلُّ على حُسن اختيار الألفاظ المعبِّرة عن المعنى المطلوب[2].

بديع التَّهذيب في الآية:

شروطِ الفصاحةِ ورونق العذوبةِ وحسنِ البيان

من مظاهر الإعجاز في هذه الآية الكريمة التَّهذيب؛ لأنَّ مُفرداتها موصوفة بصفات الحُسْنِ، فكلُّ لفظةٍ سهلةُ مخارجِ الحروف، عليها رونق الفصاحة، مع الخلوِّ من البشاعة وعقادة التَّركيب[3]، والسَّلامة من التَّنافر والغَرابة ومُخالفة القياس، وفي الانسجام تُحدَّد الكلمات بسهولة وعذوبة وجزالة، يقتضيها المقام ويتطلَّبُها مقتضى الحال[4].

بديع حسن البيان والوصف:

تجلِّي وصفِها في استعمال نعوت ألفاظها وصفات معانيها

حُسْنُ البيان من جهة أنَّ السّامع لا يتوقَّف في فهم معنى الكلام، ولا يُشكِل عليه شيء من هذا النِّظام[5]، حيث قصَّ النظم الكريم القِصَّةَ، ووصفها بأحسن وصف، حيث استعمل نعوتَ ألفاظها وصفاتِ معانيها[6].

بديع الانسجام:

انسجامُ الألفاظ، وتعانق الجمل، وتآخي النَّظم تجمِّلُ في اللِّسان، وتعظُمُ في الجنان

يتجلَّى الانسجام[7] في جُمل هذه الآية الكريمة مُنسجمةً، كالماء

(1) القلقشندي، صبح الأعشى: 2/281، وابن الأثير، المثل السّائر: 1/152.
(2) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/360.
(3) السُّيوطي، معترك الأقران: 1/319.
(4) محيي الدّين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/360.
(5) ابن أبي الإصبع، تحرير التَّحبير، ص: 613، والآلوسي، روح المعاني: 6/265.
(6) أبو حيّان، النَّهر المادّ: 2/70.
(7) الانسجام: هو سلامة الألفاظ، وسُهولة المعاني مع جزالتهما وتناسبهما. يُنظر: الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 335.

الجاري في السَّلاسة[1]، من سهولة سَبْكٍ وعذوبة ألفاظٍ، حتّى يكون للجملة الواحدة منها وقعٌ في النُّفوس عجيبٌ، وتأثيرٌ في القلوب يطيب، فالنّاظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية، هي نظمٌ للمعاني لطيف، وتأديةٌ لها مُلَخَّصةً مبيَّنةً، لا تعقيد يُعْثِرُ الفِكْرَ في طلب المُراد، ولا التواء يشيك الطَّريق إلى المُرتاد، فما من لفظةٍ فيها تسبق إلى أُذنك إلّا ومعناها أسبقُ إلى قلبك، وأمّا النّاظرُ فيها من جانب الفصاحة اللَّفظية؛ فألفاظُها عربيَّة مُستعملة جارية على قوانين اللُّغة، سليمة عن التَّنافر، بعيدة عن البشاعة، عذبة على العَذَبات، سلسلة على الأسلات، كُلٌّ منها كالماء في السلاسة، وكالعسل في الحلاوة، وكالنَّسيم في الرِّقة[2]، ولله تعالى درُّ التَّنزيل ماذا جَمعت آياته:

وعلى تفنُّنِ واصفيه بحُسنهِ *** يفنَى الزَّمانُ وفيه ما لم يوصَفِ

ومع ما ذُكر في شرح مزايا هذه الآية بالنِّسبة إلى ما فيها؛ قطرةٌ من حياض، وزهرةٌ من رياض[3].

(1) ابن معصوم، أنوار الرَّبيع، ص: 430.

(2) القزويني، الإيضاح، ص: 253.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/265، ومحمَّد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم: 12/83.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هود: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

النِّداء بحثٌ عن إنجاءٍ بَعْدَ بُعْدٍ وإبعادٍ

لمّا هدأ الطّوفان، وسكن الهول، بِبَلْعِ الأرض ماءها وإقلاعِ السَّماء عن هتّانها، واستوت السَّفينة على الجوديِّ، وهَلَكَ من هلك من أهل الكُفر والعصيان، ونجا من نجا من أهل الطّاعة والإيمان؛ تستيقظ في نفس نوحٍ عليه السلام لهفةُ الوالد المفجوع، فبعد أن خرج من السَّفينة هو وأهله ومَن معه تذكَّر ابنه وفِلْذَةَ كبده[1]، فنادى ربَّه عسى أن يكونَ من وراءِ ذلك النِّداءِ إنجاءٌ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعْدَكَ﴾: تدلُّ على ترجيةٍ بقولٍ، يقال: وعدتُه أعِدُه وعدًا، ووعدَهُ بالأمر؛ قال له: إنَّه يُجْريه له، أو ينيله إيّاه[2]، ويكون ذلك بخيرٍ وشرٍّ[3]، والمشهور أنَّ (وعدَ) تكون في الخَيْرِ، و(أوعَدَ) في (الشَّرِّ)[4]، ومما يتضمَّن الأمرين معًا قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [يونس: 55]، فهذا وعدٌ بالقيامة وجزاء للعباد إن خيرًا؛ فخيرٌ، وإن شرًّا؛ فشرٌّ[5]، والعِدَة: الوعد، والموعدة مصدر واسم للعِدَة؛ ومعنى ﴿وَعْدَكَ﴾ هنا: في تنجية أهل نوح عليه السلام[6].

(1) ملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 3/123.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: 3/1421.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وعد).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (وعد).
(5) الرّاغب، المفردات: (وعد).
(6) النَّسفي، مدارك التنزيل: 2/63.

2) ﴿أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾: الحَكَمُ: اللّه ﷻ، وهو أحكم الحاكمين، وهو الحكيم له الحكم[1]، وأصل المادَّة على منْعٍ لا بعلاج، وأوَّل ذلك الحكم، وهو المنع من الظُّلم[2]، ومعنى ﴿أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ هُنا: أعدل العادلين الذي لا يحكم إلّا عدلًا، ولا يخلق إلّا ما فيه حكمة[3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبيِّنُ الآيةُ الكريمةُ إشفاقَ نوحٍ ﷺ على ابنِه بعدما عاين هلاكَه، فنادى ربَّه بدعاءٍ يرجو به النَّفعَ لابنِه في الآخرةِ والنَّجاةَ منَ العقابِ، مُسْتَجْدِيًا رحمةَ اللّه، ومُتَشَفِّعًا بوعدِه بَأنْ يُنَجِّيَ أَهْلَه، مُؤمنًا بأنَّ وعدَ اللّه لا خُلْفَ له وأنَّه هو الحَكَمُ العَدْلُ[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطف في ﴿وَنَادَىٰ﴾:

بيانُ وقتِ نداءِ نوحٍ ﷺ

اختُلف في تعيين وقت نداءِ نوحٍ ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ﴾؛ فقيل: إنَّ هذه الجملة معطوفةٌ على قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ﴾، وذلك وقت إمكان النَّجاة قبل السَّير، وعُطِفَ عليه عطفَ تفصيلٍ أو تفسير[5]، ولكن موقع الآية يقتضي أنَّ نداء نوح ﷺ هذا كان بعد استواء السَّفينة على الجودي؛ دعاه إليه داعي الشَّفقة، فأراد به نفعَ ابنه في الآخرة بعد اليأس من نجاته في الدُّنيا؛ لأنَّ اللّه أعلَمَهُ أنَّه لا نجاة إلّا للذين يركبون السَّفينة، ولأنَّ نوحًا ﷺ لمّا دعا ابنه إلى ركوب السَّفينة، فأبى، وجرت السَّفينة قد علم أنَّه لا وسيلة إلى نجاته، فكيف يسألها من اللّه؟ فتعيَّن أنَّه

(1) الأزهري، تهذيب اللُّغة: 4/69.
(2) السَّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ، والزَّمخشري، أساس البلاغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حكم).
(3) السَّمرقندي، بحر العلوم: 2/153، والماتريدي، تأويلات أهل السُّنَّة: 10/17.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/83، وابن جرير، جامع البيان: 15/339.
(5) اطفيش، تيسير التَّفسير: 4/214.

سأل له المغفرةَ، ويدلُّ لذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ﴾ بعد ذلك.

ويجوز أن يكون دعاء نوح عليه السلام هذا وقع قبل غرق الناس، أي: نادى ربَّه أن يُنجي ابنه من الغرق[1]، وهو وجهٌ بعيدٌ لمنافاته ترتيبَ الكلام.

نكتةُ اختيارِ فعل ﴿وَنَادَىٰ﴾:

التَّأثُّروالإشفاق، والطَّمع في رحمة الخلّاق

في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ﴾، النِّداء هُنا نداءُ تعظيم دعاءٍ؛ فكأنَّه قيل: ودعا نوحٌ ربَّه: يا مالكي وخالقي ورازقي وعدْتَني بتنجية أهلي، وإنَّ ابني من أهلي، وإنَّ وعدَك الحقُّ لا خُلف فيه؛ فنجِّه إن كان ممّن وعدتني بنجاته؛ لأنَّ الدُّعاء يصدَّر بالنِّداء غالبًا[2]، والجمعُ بين لفظ النِّداءِ ومعنى الدُّعاءِ بديعٌ في هذا السّياقِ، وذلك أنَّه ليس كأيِّ دُعاءٍ، فهو دعاءٌ يتضمَّن الإصرار والشَّفقة والرَّحمة، وفيه مبالغةٌ في بيان شديد الاحتياجِ والالتجاءِ إلى الإنجاءِ، وطلب العفو والاستغفار والتَّجاوز.

معنى العطف بالفاء في ﴿فَقَالَ﴾:

الفاء فصيحةٌ أو تفصيليَّةٌ لبيانِ مضمونِ النِّداءِ بعد إجمالِه

جملة ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ بيانٌ للنِّداء، ومُقتضى الظّاهر ألّا تُعطف، كما لم يُعطف البيان في قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: 3-4]، وخولف ذلك هُنا[3]، ووجَّه بعض المفسرين اقترانه بالفاء: بأنَّ فعل ﴿وَنَادَىٰ﴾ مُستعمَلٌ في إرادة النِّداء، أي: مثل فعل ﴿قُمْتُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: 6]، أي: أردتم القيام، ويكون في ذلك إخراجٌ للكلام على خلاف مقتضى الظّاهر؛

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/83.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/84.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/161، والأنصاري، فتح الرَّحمن، ص: 265.

فإنَّ وجود الفاء في الجملة التي هي بيانٌ للنِّداء قرينةٌ على أنَّ فعل ﴿وَنَادَىٰ﴾ مُستعار لمعنى إرادة النِّداء، أي: أراد نداء ربِّه، فأعقب إرادته بإصدار النِّداء، وهذه إشارة إلى أنَّه أراد النِّداء، فتردَّد في الإقدام عليه لما عَلِمَ من قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾، فلم يَطُلْ تَرَدُّده لَمَّا غلبته الشَّفقة على ابنه، فأقدمَ على نداء ربِّه، ولذلك قدَّم الاعتذار بقوله: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾[1].

والأنسبُ والأقربُ لروح البلاغةِ أن تكون الفاء فصيحةً لتفصيل ما في النِّداء من الإجمال[2]، جاءت جوابًا عن سؤال مُقدَّر، كأنَّ قائلًا قال: ماذا قال في ندائه؟ فقال: إنَّ ابني من أهلي، وقد وعدتني أن تنجيني وأهلي[3].

فدلَّ سبحانه بالعطف بالفاء دون أن يأتي بالاستئناف المُفَسِّر للنِّداء؛ على أنَّ ما ذُكر هنا من نداء نوح عليه السلام بعضَ ندائه، وأنَّ هذا المذكور مُرَتَّبٌ مُعَقَّبٌ على شيءٍ منه سابقٍ عليه؛ أقربهُ أن يكون ما أرشده إليه سبحانه.

أو أن تكون الفاء تفصيلًا لمجمل ﴿وَنَادَىٰ﴾ مثل ما في: (توضَّأ، فغسل)[4]، والتفصيل بعد الإجمال يفيد المبالغة والاهتمام[5].

نكتةُ الذِّكر والحذف لـ ﴿فَقَالَ﴾:

اختلافُ النِّداءين من حيث المنادى والزَّمان في سياقٍ قصصيٍّ واحد

قال الله تعالى في آية سابقة: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾، فاستعمل فعل النِّداء وحده ﴿وَنَادَىٰ﴾، ولم يستعمل معه فعلَ القول، فلم يقل: (ونادى نوح ابنه فقال يا بني)، كما هنا حيث قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/84.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/212، والبروسوي، روح البيان: 4/138.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/218.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/293.
(5) السّامرائي، معاني النحو: 3/378.

﴿أَهۡلِي﴾، فاستعملَ فعلَ القول ﴿فَقَالَ﴾ إضافةً إلى الفعل ﴿وَنَادَىٰ﴾، وذلك لما يختصُّ بالمنادى والزَّمان:

أمّا المنادى؛ فأوجزَ النَّظم باعتبارِ أنَّ المنادى هو ابن نوحٍ عليه السلام، وأطنب حيث كان المنادى هو الله تعالى، لاسيَّما أنَّهما في سياقٍ قصصيٍّ واحد.

وأمّا الزَّمان؛ فإنَّ نوحًا عليه السلام عندما نادى ابنه كان في عجلة من أمره؛ لأنَّ الموج يكاد يُغرق كلَّ شيءٍ حتَّى الجبال، وهو يخشى على ابنه؛ إذا لم يبادر باللُّجوء إلى السَّفينة أنْ يُغرقه الموج، ولذلك حذف النَّظمُ كلمة (قال)؛ تناسبًا مع السُّرعة التي كانت تمثِّل حالة نوح عليه السلام في هذه اللَّحظات، أمّا هُنا؛ فقد غاض الماء، وانتهى الطّوفان، فلم يعد نوح عليه السلام في عجلةٍ من أمره، فصحَّ أنْ ترد ﴿فَقَالَ﴾.

فائدة الإضافة في ﴿رَّبَّهُۥ﴾:

الشَّرع مقدَّمٌ على كلِّ اعتبارٍ، ولو كان فيه خسارةُ المال والولد

في قوله تعالى: ﴿رَّبَّهُۥ﴾ أضيف الضَّمير العائد على نوحٍ عليه السلام تشريفًا لنوح، ودليل قُربِ قَلبه من ربِّهِ، مع التماسِ جلال الله بربوبيَّته الغامرة بالإنعام على كلِّ البشر، وخصوصًا أنبياءه وأصفياءه، والإشعار بأنَّه يُنادي ربَّه في هذه اللَّحظات العظيمة، وأنَّه عند تعارض مصلحة الشرع مع المصلحة الشَّخصيَّة، فالمقدَّم هو مصلحة الشَّرع؛ وحَسُنت الإضافة مع إضافة الابن إلى الضمير المتكلِّم في قوله تعالى: ﴿ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾.

دلالة حذف أداةِ النِّداء في ﴿رَبِّ﴾:

الإشعارُ بقربِ المنادي من المنادى والأنس به

نداء الرَّب سبحانه وتعالى قد كثر فيه حذف أداة النِّداء (يا) النداء في القرآن الكريم، وعلَّة ذلك: أنَّ في حذفها من نداء الرَّب معنى التَّعظيم له والتَّنزيه، وذلك أنَّ النِّداء فيه ضَرْبٌ من معنى الأمر؛ لأنَّك إذا قُلت: يا زيد، فمعناه: تعالَ يا زيد، أدعوك يا زيد، فحذفت

(يا) من نداء الرَّب؛ ليزول معنى الأمر، وينقص؛ لأنَّ أداة (يا) تُؤَكِّدُه، وتُظهر معناه، فكان في حذف أداة (يا) إشارةٌ إلى معنى التَّعظيم والإجلال والتَّنزيه للرَّب تعالى[1]، ولما في حذف هذه الأداة من الإشعارِ بالقرب، وأُنس المنادي بالمنادى.

غرضُ التَّوكيد بحرفِ ﴿إِنَّ﴾:

إظهارُ ما يجول في النَّفس من طلبِ الرَّحمة

أكَّد النَّظم الكريم الخبرَ ﴿ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ بحرف ﴿إِنَّ﴾ للاهتمام به[2]، ولبيانِ ما يجولُ في نفسِه من شديد الحرص على إنجائه، فالتَّأكيد هو بيانٌ لمعنًى نفسيٍّ، يطلبُ به الرَّحمة والمغفرة لابنه.

دلالةُ الجملةِ الخبريَّة ﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾:

نوح عليه السلام طلب المغفرة أخذًا بأقصى دواعي الشَّفقة والرَّحمة

طمع نوح عليه السلام أن يدخل ولده في عموم قوله تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ﴾، فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾، فنوحٌ عليه السلام لا يجهل أنَّ ابنه كافر، ولذلك سأل المغفرة له، وهو يعلم أنَّه كافر، ولكنَّه يَطمع لعلَّ اللّٰه أن يعفو عنه لأجل قرابته، فسؤاله له المغفرة بمنزلة الشَّفاعة له عند اللّٰه تعالى، وذلك أخذٌ بأقصى دواعي الشَّفقة والرَّحمة بابنه.

وقرينة ذلك كلِّه قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ المفيد أنَّه لا رادَّ لما حكم به وقضاه، وأنَّه لا دالَّة عليه لأحد من خلقه، ولكنَّه مقام تَضَرُّعٍ وسؤال ما ليس بمحال، وقد كان نوح عليه السلام غير منهيٍّ عن ذلك، ولم يكن تقرَّر في شرعه العلم بعدم المغفرة للكافرين، فكان حال نوح عليه السلام كحال النَّبيِّ ﷺ حين قال لأبي طالب: «لأستغفرنَّ لكَ ما لم أُنْهَ عنك»[3] قبل أن ينزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ

(1) الدُّرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 4/445.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/84.
(3) أخرجه البخاري ومسلم من حديث المسيِّب بن حزن المخزومي: يُنظر: البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجنائز، بابُ إذا قالَ المُشْرِكُ عِنْدَ المَوْتِ: لا إلَهَ إلّا الله، برقم: (1360)، ومسلم، صحيح مسلم، كتاب الايمان، بابُ (أَوَّلُ الإيمانِ قَوْلُ لا إلَهَ إلّا الله)، برقم: (39)، (24).

ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [التوبة: 113]، فهو خبر مستعمل في الاعتذار، وهو يسأل سؤالًا لا يدري قبوله، ولكنَّه اقتحمه، باعتباره أبًا مُشفقًا[1].

دلالة ﴿مِنۡ﴾:

العاطفة الفطريَّة المركوزة في قلب الوالد لا ينزعها الطّوفان

حرف ﴿مِنۡ﴾ أفاد معنى التبعيض في قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَهۡلِي﴾؛ لأنَّه كان ابنه من صلبه[2]، فنوح عليه السلام لا ينسى ابنه الغارق، مع أنَّه كان من المخالفين له، الخارجين على طاعته، المكذِّبين له، الكافرين باللّه، ولكنَّها عاطفة الأبوَّة المتأجِّجة، التي لا يُطفِئ وقدتها ما يكون من الأبناء من عقوق، وما يكون فيهم من انحراف واعوجاج، وإنَّ الابن ليكون على حالٍ من السّوء والسَّفه، حتَّى ليلفظه المجتمع كلُّه، ولكنَّ عاطفةً واحدةً تظلُّ ملتحمةً به، متَّسعةً لقبوله على ما هو عليه، أيًّا كان هذا الذي هو عليه من سوءٍ وسَفَهٍ، تلك هي عاطفة الأبوَّة المثَّلة في الأبوين معًا[3].

دلالة النِّداء بالرُّبوبيَّة في: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي﴾:

النِّداء بالرُّبوبيَّة لتجلّي مظاهر الإنعام والعناية والإكرام

عند نداء العبد للّه تعالى، يسند الفعل إلى اسم الرَّب دون سائر الأسماء الحسنى الأخرى، وكذلك في مناداة الرَّبِّ للعبد، يُقدَّم اسم الرَّبِّ على ما سواه، لما يحمله هذا الاسم الجليل من مظاهر الإنعام والإكرام والرِّعاية والعناية؛ فإنَّ الإنسان إذا احتاج شيئًا؛ طلبه من ربِّه، وهو مربّيه، والقائم على أمره.

دلالة الجملة الخبريَّة في ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾:

بيان ترجيح نوح لعموم الوعد السّابق بنجاة أهله

جملة ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ خبر مستعمل في لازم الفائدة، وهو أنَّه يعلم أنَّ وعد اللّه حقٌّ[4]، ولعلَّه عليه السلام، لَمَّا حملته الشَّفقة، وأنَّ اللّه وعدَهُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/85.
(2) البروسوي، روح البيان: 4/138.
(3) عبد الكريم الخطيب، التَّفسير القرآني: 6/1145.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/84.

بنجاة أهله، ظنَّ أنَّ الوعد لعمومهم؛ مَنْ آمن، ومَنْ لم يؤمن، فلذلك دعا ربَّه بذلك الدُّعاء، ومع هذا، ففوَّضَ الأمر لحكمة اللّه البالغة[1]، وإنَّما قال نوحٌ هذا؛ لأنَّ اللّه تعالى وعده بنجاة أهله[2].

دلالة كاف الخطاب في ﴿وَعۡدَكَ﴾:

مراعاة التأدُّب مع الله في الدُّعاء والبراءة من حظوظ النَّفس

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾ فيه ملمح التَّأدُّب مع اللّه، فقد قال نوح عليه السلام: ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾، ولم يقل: (ما وعدتني به الحقَّ)، حتَّى يخرج من حظوظ النَّفس، وأخرج وعده مخرج العموم، فكلُّ ما يعد به ربُّه هو الحقُّ، فدخل فيه ما وعده، والإضافة في الوعد للاستغراق أو للجنس.

دلالة تعريف ﴿ٱلۡحَقُّ﴾:

حَصْرُ الحقِّ في وعد الله الحقِّ الذي لا يتبدَّل

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ﴾: أي: وإنَّ كُلَّ وعدٍ تعِدُهُ؛ فهو الحقُّ الثّابت الذي لا شكَّ في إنجازه والوفاء به[3]، فجعل الحقَّ منحصرًا فيه، ولم يقل: (إنّ وعدك حقّ)، وذلك أنَّه متحقِّق لا ريب فيه، بل جعلَ وعدَه هو الحقَّ حَصرًا، وهو سيقع حتمًا لا يمكن أن يتخلَّف، أو يتغيَّر.

بلاغةُ التَّذييل في آخر الآية:

حكم الله في الأحوالِ كلِّها أحسنُ الحكم وأفضلُه

معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾، أي: أعلم الحكّام وأعدلهم، وخاطبه بذلك؛ ليؤكِّد أنَّ حُكمه على ولده في الحالين حُكْمٌ عادلٌ من أحكم الحاكمين وأعدل العادلين، ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٥٠﴾ [المائدة: 50].

فائدة استعمالِ (أفعل) في ﴿أَحۡكَمُ﴾:

حكمُ الله لا يعرِضُ له الخطأ ولا الحيفُ والظُّلم

معنى ﴿أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ أشدُّهم حُكمًا، واسم التَّفضيل يتعلق بماهيَّة الفعل، فيفيد أنَّ حكمه لا يجور، ولا يُبطله أحد[4]؛ لأنَّ

(1) السَّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 437.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/377.
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 2/100.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/85.

حكمه يصدر عن كمال العلم والحكمة؛ فلا يعرِضُ له الخطأ ولا الحيف والظُّلم[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الأهل والآل:

الآل خاصَّة الرَّجل وقرابته، والأهلُ أعمُّ

الآل: خاصَّة الرَّجل من جِهَةِ القرابة أو الصُّحْبة، فيقال: آل الرَّجل لأهله وأصحابه، أمّا الأهل؛ فيكون من جهة النَّسب، كأهل الرَّجل لقرابته الأدنين، ويكون للاختصاص، كأهل البصرة، وأهل العلم، ولا يقال: آل البصرة، وآل العلم[2]. ثمَّ إنَّ لفظ الآل مختصٌّ بأولي الخطر، كالأنبياء والملوك ونحوهم، فيُقال: آلُ الرَّجُلِ له نفسه، ومنه قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ١٣٠﴾ [الصّافات: 130]، وآله لأهله وأقاربه، كقول القائل: (اللهمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد)، وآله لمن تبعه كقوله تعالى: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر: 46]، وأمّا إن ذُكِرَ الرجل، ثم ذُكِرَ آلُه لم يدخل فيهم[3]. ولا يضاف (آل) إلى الأرذال، ولا المكان والزَّمان، ولا إلى الحَقِّ ﷻ، فلا يُقال: آل الحائِكِ، وآل مِصْرَ، وآل زَمانٍ، وآل اللّه تعالى؛ بخلاف الأهل في جميع ما ذُكِرَ[4].

الابن والولد:

إفادة الابن للاختصاص ومداومة الصُّحبة والولد للتَّوالد

الفرق بين الابن والولد؛ أنَّ الابن يُفيد الاختصاص ومداومة الصُّحْبَة؛ ولِهَذا يُقال: ابن الفلاة لمن يداوم سلوكها، وابن السُّرى لمن يكثر منه، وتقول: تبنَّيت ابْنًا؛ إذا جعلته خاصًّا بك، ويجوز أن يُقال: إنَّ قَوْلنا هو ابْن فلان يَقْتَضِي أنه مَنْسوب إِلَيْهِ؛ ولِهذا يُقال: النّاس بَنو آدم؛ لأنَّهم منسوبون إليه، وكذلك بنو إسرائيل، وقد يكنَّى

(1) المراغي، تفسير المراغي: 12/40.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 281.
(3) ابن قَيِّم الجوزية، جلاء الأفهام، ص: 226.
(4) التَّهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون: 1/72.

بالابن، كما يكنَّى بالأبِ كقولهم ابن عرس وابن تَمْرَة وابن آوى وبنات طبق وبنات نعش وبنات وردان، وقيل: أصل الابن التَّأليف والاتصال، فكان بين الأب والابن تأليف، والولد يَقْتَضي الولادَة، ولا يقتضيها الابْن، والابْن يَقْتَضي أبًا يقْتضي والدًا، ولا يمسي الإنْسان والدًا إلّا إذا صار لَهُ ولد، ولَيْسَ هو مثل الأب؛ لأنَّهم يقولونَ في التكنية: أبو فلان، وإن لم يلد فلانًا، ولا يقولون في هذا والد فلان، فبينهما عُمومٌ وخصوصٌ وجهيٌّ؛ فلا يلزم من تناول لفظ الابْن لَهُ تناول لفظ الولَد له أيضًا، ولا يُطلق الابن إلّا على الذَّكر، بخلاف الولد؛ فإنَّه يطلق على الذَّكر والأُنْثَى[1].

(1) العسكري، الفروق اللُّغوية، ص: 282، والكفوي، الكليّات، ص: 27.

﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٤٦﴾ [هود: 46]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

اللَّوذُ بالله تعالى يقتضي الجواب الحكيم، بتصحيح الرُّؤى وتصويب المفاهيم

لمّا قضى اللّه تعالى بإغراقِ قوم نوح، ونادى نوحٌ ربَّه في شأن ابنه، بما في قلبه من ألم وحرقة، شاكيًا إلى ربِّه ما يجدُ؛ ليسمع من ربِّه كلمةً يبرِّد بها صدره، ذكر اللّه تعالى في هذه الآية أنَّه عاد على نوح عليه السلام بفضله، فناجاه وواساه، ووقف به على الحدِّ الّذي يجب أن يلتزمه مع أمر ربّه، وعلمه، وحكمته[1]، فقال له: إنَّ ابنك هذا ليس من أهلك؛ لأنَّه ليس بعمل صالح، فكفر بفعله ذاك، وعليه فقد انقطعت الموالاة بينك وبينه، فلا تسألني عن شيء لا علم ثابتًا لك به، وإنّي أنهاك أن تكون من الجاهلين[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَهۡلِكَۖ﴾: الأَهْلُ؛ هُمُ القَرابةُ والعَشِيرَةُ، يُقالُ: وصَلَ أَهْلَهُ، أي: أقارِبَهُ. وأَهْلُ الرَّجُلِ: زَوْجَتُهُ وأخَصُّ النّاسِ به[3]، وأَهْلُ الشَّيْءِ: أَصْحابُهُ وما يَخْتَصُّ بِهِ، ويَخْتَلِفُ معناهُ بحَسَبِ ما يُضافُ إِلَيْهِ، فأَهْلُ البَيْتِ: سُكّانُهُ. وأَهْلُ الإِسْلامِ: مَنْ يَدِينُ بِهِ[4]. وجَمعُ الأَهْلِ: أَهْلُونَ وأهالٍ[5]. والمقصود بنفي أن يكون ابنُ نوحٍ عليه السلام من أهله، أي: ليس من أهل دينك؛ وذلك أنّ الشّريعة

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1147.
(2) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 1520.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أهل).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (أهل).
(5) ابن عباد، المحيط في اللّغة: (أهل).

رفعت حكم النّسب في كثير من الأحكام بين المسلم والكافر، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾[1].

2) ﴿غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾: أصلُ (صلح): يَدُلُّ على خِلافِ الفَسادِ[2]، والصَّلاحُ: الاسْتِقامَةُ والاعْتِدالُ، يُقالُ: صَلَحَ، يَصْلَحُ، ويَصْلُحُ، صَلاحًا، وصُلُوحًا، أي: اسْتَقامَ واعْتَدَلَ[3]. والصّالحُ: الَّذي يُؤَدِّي إلَى اللهِ ﷻ ما افْترض عليه، ويُؤَدِّي إلَى النّاس حُقوقَهم. ورجلٌ صالحٌ في نَفْسِه من قوم صُلَحاءَ وصالِحينَ[4]. والمُصْلحُ، المُقيم على الإيمان المُؤَدِّي فرائضه اعتقادًا وعَملًا، وقد أصْلَحه اللهُ، وأصْلَحَ الشَّيءَ بَعْدَ فَسادِهِ: أقامَهُ وعَدَّلَهُ[5]، والمقصود بنفي الصَّلاح في الآية: إمّا أن يكونَ وصفًا لسؤالِ نوحٍ عليه السلام، أي: سؤالك إنجاء ابنك عملٌ غير صالح، وإمّا أن يكون وصفًا لعمل ابن نوحٍ عليه السلام في البقاء على الكفر، وذلك بحسب اختلاف القراءات في الآية[6].

3) ﴿أَعِظُكَ﴾: أصلُ (وعظ): التَّخْويفُ. والعِظَةُ الاسمُ منْهُ؛ وهو تذكيرُك إيّاه الخيرَ ونحوه ممّا يرقُّ له قلبُهُ[7]، والواعِظُ: النّاصِحُ[8]. ويأتي الوَعْظُ بمعنى الأمْرِ بالطّاعَةِ والتَّوْصِيَةِ بها، فيُقال: وَعَظَهُ: إذا أمَرَهُ ووصّاهُ بالطّاعَةِ، واتَّعَظَ فُلانٌ، أي: قَبِلَ المَوعظَةَ وكَفَّ نَفْسَهُ عن الخَطَأ[9]. ومن أمثالهم المعروفة: لا تعظيني وتعظعظي، أي: اتّعظي أنت ودعي موعظتي[10]، وقال الجوهريّ: هو النّصح والتّذكير بالعواقب[11]، والمقصودُ بالوعظ في الآية: النّهي والتّحذير منَ الاستمرارِ بالمطالبةِ بإنجاءِ ابنه.

4) ﴿ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾: أصلُ (جهل) خِلافُ العِلْم، وهو: التَّقدُّمُ في الأُمور المُنْبَهِمَةِ بِغَير

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أهل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صلح).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (صلح).
(4) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (صلح).
(5) ابن سيده، المحكم: (صلح).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 15/348.
(7) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعظ).
(8) الزّبيديّ، تاج العروس: (وعظ).
(9) الأزهري، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (وعظ).
(10) الخليل بن أحمد، كتاب العين: (وعظ).
(11) شمس الدّين البعليّ، المطلع على ألفاظ المقنع، ص: 140.

عِلْم[1]. ويكون علَى ثلاثَةِ أضْرُبٍ؛ الأوَّل: هُو خُلُوُّ النَّفْسِ من العِلْم، والثَّاني: اعتقادُ الشَّيْء بخِلافِ ما هو عليه، والثّالث: فِعْلُ الشَّيء بخِلاف ما حَقّه أن يُفْعَلَ، سواءٌ اعتُقِد فِيهِ اعتِقادًا صَحِيحًا أم فاسِدًا، كتارِكِ الصَّلاةِ عَمدًا[2]. والتَّجاهل: أن يُرَى مِنْ نَفْسِهِ الجَهْلُ ولَيْسَ بِهِ، واسْتَجْهَلَه: عَدَّه جاهِلًا واسْتَخَفَّه أيضًا. والتَّجْهيل: أن تَنْسُبَهُ إلى الجَهْل[3]. والمرادُ بالجهل في الآية: ضدُّ العِلْم، وهو المُناسب لمقابلته بقوله: ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾[4].

۞ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

روابط الأنبياء، روابط دينٍ واقتداء

قال اللّه تعالى لنوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ في إجابته عن سؤاله: يا نوح إنَّ ابنكَ هذا ليس من أهلك الَّذين وعدتك بإنجائهم منَ الطُّوفان؛ لأنَّه صاحبُ عملٍ غيرِ صالحٍ، وهو الكفرُ باللّهِ تعالى، فخرج بذلك عن كونه من أهلك؛ لانقطاع الولاية بين المؤمن والكافر؛ ولأنَّ أساسَ نجاة أهلك الإيمان دونَ النَّسب، فلا تطلبْ منِّي شيئًا ليس لك به عِلْم صحيح، ولا تلتمسْ منّي التماسًا لا تعلَم أصوابٌ هو أم غير صواب؟! حتَّى تقف على كُنْهِهِ، إنِّي أنهاك أن تكون من فئةِ الجاهلين الَّذين يطلبون إبطال حكمته وحكمه، وتقديره في خلقه، رعايةً لأهوائهم[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّةُ الفصلِ في: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ﴾:

شأنُ المحاورات تركُ الوصلِ بإسقاطِ الواوات

في قولِهِ تبارك اسمه: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾، افتتح النَّظمُ الجليل الجملة بالفعل ﴿قَالَ﴾؛ للرّد بالجواب عن قول نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ في الآية السّابقة: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ [هود: 45]، فجاء الفعل

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيدي، تاج العروس: (جهل).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، والزبيدي، تاج العروس: (جهل).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم: (جهل).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/87.
(5) مجموعة من العلماء، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 4/202، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 12/77.

﴿قَالَ﴾ لربط الجواب بسؤاله في الآية الكريمة؛ فلذا لم يحتج إلى العطف، فإنّ للارتباط بين السّؤال وجوابه من القوّة ما لا يُحْوِج أن يَرْبِطَه بواو العطف، والجواب مفصَلٌ أساسيٌّ من مَفاصل الحوار بين نوح وربّه، في بناء هذه القصّة المَشوق، وإيراد السّؤال والجواب يتجلّى في إيراد القول ومَقوله، من كلّ طرف، لتتّضح معالم الحوار القصصيّ البليغ.

نكتةُ التَّنبيه بالنِّداءِ:

تنبيهُ المخاطب بحسبِ واقعِه وباعتبارِ حالته

افتُتح الخطاب بحرف النِّداء في قوله تعالى: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾، تنبيهًا للمُخاطَب إلى الاهتمام بمضمون الخطابِ. ولا يقدح في استعمال التَّنبيه مع القول الّذي يأتي منَ اللّه؛ لأنَّه بمنزلةِ تنبيهٍ بأن يُتلقّى بالقبول واليقظة، لا سيَّما أنَّ نوحًا ﷺ قد بلَغَ مبلغًا عاليًا في إرادةِ إنقاذ ابنه، فناسب معنى التَّنبيه بأسلوبِ النِّداء واقِعَه ﵇؛ وهذا شأنُ النظّم في الكلام المُعجِز أن يجري على سَنن أهل اللّغة؛ فإنَّهم إن أرادوا الإيقاظ إلى الاهتمام بالمنطوق ابتدؤوا الخطاب بالنِّداء أو ما شاكَلَه من أحرف التّنبيه.

فائدةُ جملة النّداء الاعتراضيّة:

النّداءُ بالاسم الصّريح، إظهارُ لطفٍ، وتصويبُ عطفٍ

جاء النّظم بالجملة الاعتراضيّة ﴿يَٰنُوحُ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾، بين فعل القول ومقوله؛ لإظهار اللُّطف بنوح ﵇، وأنّ الكلام ليس مسوقًا للتّعليم، كمن يُقبِلُ على مَن يهمّه أمره معلّمًا إيّاه بحنوٍّ ولطفٍ، ولو لم يأتِ أتى هذا الاعتراض بالنّداء لاحتمل أن يُفهم منَ الكلام التّقريع والغلظة، فبادر بالنّداء بالاسم الصّريح (نوح)، لإظهار أنّ الخطاب ليس للعقاب أو الغلظة، إنَّما للتَّعليم والعتاب، وعتابُ اللّه لأنبيائه يكون في غاية اللّطف؛ لأنّه تعالى هو العليم بما تُكنُّ صدورهم، وما تنطوي عليه قلوبهم، وهي أطهر القلوب وأزكاها، ناهيك عن غلبة عاطفة

الأبوّة الّتي هي غريزةٌ إيجابيّة لا مناصَ من مراعاتها، واعتبارها دافعًا للشّفقة، ودليلًا على العطف والحنوّ.

غرضُ حذفِ المسندِ إليه:

في قوله تبارك اسمه: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ﴾ جاء فعلُ القولِ بحذفِ المسند إليه وهو الفاعل؛ وذلك لأنّه معلومٌ منَ السّياق، فأخفي ذكرُ الفاعلِ لظهوره والعلم به، وغرضُ ذلك الإيجازُ في التّعبير، وتحقيقُ الأليق بالمقام، فإنَّ ذكرَ المعلوم بدون نكتةٍ بيانيَّة يَجِلُّ عنه النظم المعجز، وقد سبق ذكر المولى بلفظ الرّب مرّتين في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ﴾ [هود: 45]، وحيث إنَّ الجملة مرتبطةٌ بسابقتها ارتباط الجواب بالسّؤال، وهما طرفان متلازمان في حالتي الذّكر والحذف لا تنفكّ إحداهما عن الأخرى ذكرًا أو تقديرًا، وحينئذٍ يكون ذكر الفاعل المفهوم من السّياق من باب تحصيل الحاصل، فإضماره أبلغ.

عظمةُ الفاعل وحضورُه في الأذهان، تُغنيان عن ذكره في ألفاظِ البيان

غرضُ التّوكيد:

جاءت جملةُ: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ منفيّةً نفيًا مؤكّدًا وذلك بكونها اسميّة وتصديرها بـ (إنّ)، والتّأكيد هنا جاء ردًّا وتعقيبًا على ما سبق من قول نوح عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾، فأكّد نفيَ ما تقدّم منه إثباتُه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾، وذلك بتنزيله مَنزلة المُنكِر؛ إذ إنَّ مطالبته عليه السلام بإنجاءِ ابنه بعد إخباره بأنَّه لن يؤمنَ من قومه إلّا مَن قد آمنَ، يلزمُ عنه توكيدُ الخطاب، بتنبيهه على أنَّ ما يُطالَبُ به غير مقبولٍ، وهذا أدعى في دفعِ المطالبةِ، وأقوى في بيانِ التَّعليلِ.

تنزيلُ المُقرِّ منزلةَ المُنكِر دفعًا للمطالبةِ وتقويةً للتَّعليل

دلالةُ الإشارةِ بالإضمارِ:

إخفاءُ المَعيب تنزيهٌ للمخاطب، وتحقيرٌ للمتكلّم عنه

عبّر النّظم الكريم عن الابن في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ بالإضمار، وهو مقتضى الظّاهر

والحال، كما أنَّ فيه إشارةً إلى أنّه ليس ممَّن يُتشرّفُ بذكره، بل هو أهل أن يُطمس ذكره ويُغفل؛ لعداوته لأبيه وعقوقه إيّاه، مع رفض دعوته، والنّأي عن اتّباع هدايته، فأضمر النَّظمُ اسمه، وطوى ذكره، واكتفى بالإضمار تقليلًا لشأنه، فهو غيرُ مستحقٍّ لذلك الشّرف المنيف. وهو من حكمة السّياق، في دقّة الخطاب.

فائدةُ استعمالِ: ﴿لَيۡسَ﴾:

نفيُ الأمرِ في الحالِ بدليل الماضي يقطعُ الرَّجاءَ ويُبدِّدُ الأماني

في قوله عزّ ذكره: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾، جاء النّفي بكونه ليس من أهله بأداة ليس، وهي لنفي الحال وتنفي غيره بالقرينة(1)، وفي استعمالِ ليس في سياق توكيد ذلك دلالةٌ على أنَّ النَّفي شاملٌ لحالِ الولد منذ زمنٍ طويل، فهو لم يكن من أهلِه أصلًا؛ لأنَّه لم يكن مؤمنًا، أي لم يكن سابقًا في جميع أحوالِه مؤمنًا، وليس هو كذلك الآن، فكأنَّه قال: إذا ظننته سابقًا مَن أهلك فليس منهم، لا في حاله السّابقة، ولا الآن، وفائدةُ ذلك قطع الرَّجاء، ونسيان الأمل.

معنى نفي الأهليَّةِ:

الأهليَّة المنفيَّةُ هي أهليَّةُ الدِّين لا أهليَّة النّسب

دلّ نفي أن يكون ابنُ نوحٍ من أهلِه في قوله تبارك اسمه: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾، على أنّ أهليَّة الأنبياء ليست أهليّة الدّم واللّحم، ولكنّها أهليّة المنهج والاقتداء، وأنّ البُنُوّة بالنّسبة لهم، هي بنوّة اتِّباع، لا بنوّة نَسَب، وتفيد معنى أنّه ليس من الّذين وعدتك بإنجائهم، بل منَ المُسْتَثْنَينَ لكفرهم. وهذا يدلُّ على أنَّ الأهليَّة تُطلق على أهليَّة النَّسبِ باعتبارٍ، وعلى أهليَّة الدِّين باعتبارٍ آخر، كاستعمال لفظِ الأخ في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ﴾ [الأعراف: 65] جاء بمعنى النسب، وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: 10] جاء بمعنى الدِّين، فالأهليَّة المنفيَّة في الآيةِ هي أهليَّة الدِّين لا أهليَّة

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 386.

النسبِ، وهي الّتي تُؤهِّل صاحبَها لدخولِ الجنة، والنَّجاة منَ النّار، بخلافِ أهليَّة النَّسب والدَّم، فهي أهليَّة الارتباط بالقبيلةِ والعائلة.

فالمعنى أنّه نفى "أن يكون من أهل دينه واعتقاده، فليس ذلك إبطالًا لقولِ نوحٍ عليه السلام: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود: 45]، ولكنّه إعلام بأنّ قرابة الدّين بالنّسبة لأهل الإيمان هي القرابة، وهذا المعنى شائعٌ في الاستعمال"[1]. والمراد من نفي الأهليّة هنا نفيُ لازمها وهو النّجاة، وذلك يدلّ على أنّ مَن أُنجي من أهلِكَ إنّما أُنجوا "لصلاحهم، لا أنّهم من أهلِك، يعني: نفى أنّ ابنَه من أهلِه، ثمّ نفى عنه صفتَهم؛ ليدلّ على أنّ ذلك النّفي لأجل انتفاء هذه الصّفة فيه، فلو لم تكن هذه الصّورة معتَبَرَةً في اعتبار معنى الأهليّة، لم يصحّ: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾"[2]، وقد أقام الإسلام الرّوابط على تقوى الله، وصلاحِ الأعمال، لا على علوّ النّسب، ومفاخرات الجاهليّة، وفي ذلك يقول الشّاعر:

لَعَمْرُكَ ما الإنْسانُ إلّا بِدِينِهِ *** فَلا تَتْرُكِ التَّقْوى اتِّكالًا عَلَى النَّسَبْ

فَقَدْ رَفَعَ الإسْلامُ سَلْمانَ فارِسٍ *** وقَدْ وضَعَ الشِّرْكُ الشَّرِيفَ أبا لَهَبْ[3].

فائدةُ الاستئنافِ التَّحقيقي:

استحقاقُ النَّجاةِ، منوطٌ بالقُرُباتِ لا بالقرابات

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ مستأنفٌ استئنافًا تحقيقيًّا للتّعليل، علّل به عدمَ كونِ ابنه منهم[4]، فبيّن علّةَ الحكم عليه في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ دالًّا على التّلويح، بأنّ سبب النّجاة ليس إلّا الصّلاح، لا أواصر القرابة منك، فمَن لا صلاح له، لا نجاة له. وفيه "إيماءٌ إلى أنّ مَن نجا من أهلِه، إنّما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/85.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/93.
(3) البيتان للإمام عليّ بن أبي طالب، ينظر: ديوان الإمام عليّ، جمع وترتيب: عبد العزيز كرم، ص: 12.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/212.

نجا بالصّلاح لا بقرابتِهِ"[1]، فالجملة جاءت تعليلًا لمضمون الجملة السّابقة لما احتوته من الإخبار الغريب المؤكّد في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ فهي تعليلٌ لانتفاء كونه ليس من أهله مع أنّه ابنُه[2]، فكونه عَمَلًا غير صالح اقتضى أن يخرج من اعتباره من الأهل.

نُكتةُ إيثار النَّفي على الإثبات:

نفيُ الصَّلاح تلويحٌ بعلَّة مَن نجا به، وتعليلٌ لمن خسر بضدِّه

آثر النّظم الكريم في قوله عزّ ذكره: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ أن يصفه بكونه غيرَ صالحٍ، لا بوصفه فاسدًا، مع أنَّ الإثباتَ أوجزُ لفظًا؛ فأبدلَ وصفَ فاسد بقوله: ﴿غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ "تصريحًا بالمنافاةِ بين وصفيهما، الموجبةِ لانتفاء القرابةِ بينهما، ونفيًا لما أوجب النّجاة لمن نجا من أهله"[3]، و"تلويحًا بأنّ سببَ النّجاة ليس إلّا الصّلاح، لا قرابته منك بحسب الصّورة، فمن لا صلاح له لا نجاة له، وهذا سرّ إيثار ﴿غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ على (عمل فاسد)"[4]، وذلك ميزانٌ إلهيٌّ مُحكمٌ وعادلٌ؛ لأنّ الاحتكام إلى الأنساب والقرابات يضيِّع الحقوق، ويستهين النّاس فيه بالواجبات، وتكثر فيه المداهنة والمداراة، فلمّا انتفتْ صفة الصّلاح عن ابنه، لم تنفعه الأبوّة، كقوله تعالى: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾[5] [التحريم: 10].

توجيه القراءات القرآنيّة:

جمعتِ القراءتانِ بين التَّعليل والوصفِ

اختلف القرّاء في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾؛ فقرأ ابن كثير ونافع وأبو عَمْرو وابن عامر وعاصِم وحَمْزَة: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ﴾ مَرْفُوعٌ منوّن، و﴿غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ بِرَفْع الرّاء. وقرَأ الكسائيّ وحده: (إِنَّهُ عَمِلَ﴾ بِكَسْر الميم وفتح اللّام، و(غَيْرَ صالح)، بِنصب الرّاء[6].

(1) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 5/164.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/161.
(3) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 5/164.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/102.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/399.
(6) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 334، والدّاني، التّيسير، ص: 125.

فقراءة الجمهور بلفظ المصدر ﴿عَمَلٌ﴾، معناها أنَّ ابنَ نوح هو عَمَلٌ غيرُ صالح، كما يُجعل الشّيءُ الشّيءَ لكثرة ذلك منه، كقولهم: الشّعر زهير[1]، فجعله نفسَ العمل في قراءة الجماعة مبالغةً في ذمّه، فهذه القراءةُ محمولةٌ على التَّعليل، وأمّا قراءة الكسائيّ بالفعل الماضي (عَملَ) فتدلّ على أنّه قد عملَ عملًا غيرَ صالح، وباشر بالسّوء مباشرة وجبت البراءة منه[2]، وهي تدلُّ على الوصفِ.

نكتةُ الإخبارِ عن الذاتِ بالمصدرِ:

معاملةُ الذّات معاملةَ المصدرِ، مبالغةٌ في اتّصافها بذلك المعنى

عبّر النّظم البليغ، في قوله عزّ ذكره: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾، بجعل المصدر خبرًا عن اسم الذّات، فجعله نفسَ العمل مبالغةً في ذمّه[3]؛ لأنّ الذّوات لا فرق بينها في رتبة الوجود، وإنّما التّفاضل بينها كائنٌ بالأعمال والآثار، فبيّن أنّه ليس فيه من ذلك شيء صالح أصلًا[4]، و"أصله إنّه ذو عَمَلٍ غيرِ صالح، فجُعِل نفس العملِ مبالغةً"[5] في الفساد، وفي العربيّة يقولون للمبالغ في الصّيام: (رجلٌ صَوْمٌ)، وفي الزّور: (رجلٌ زُورٌ)، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾: بيّن انتفاء كونه من أهله، بأنّه غير صالح، تنبيهًا على أنّ أهله هم الصّلحاء، أهل دينه وشريعته، وإنّه لتماديه في الفساد والغيّ، كأنّ نفسه عمل غير صالح"[6].

غرضُ النّهي ودلالته:

تعليمُ الله تعالى عبادَه مع الملامة، دليلُ محبّةٍ وعلوِّ مقامٍ

جاء النّهي في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ تعليمًا وعتابًا لنوح عليه السلام، وهو عتاب مترتّب على كون ابنه ﴿عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾، وعَدَّ نوح عليه السلام إيّاه من أهله؛ فلذا صدّر بالفاء المفيدة لترتيب

---

(1) أبو عليّ الفارسيّ، الحجّة: 3/241.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/294.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/162.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/294.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/212.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/212.

ما قبلها على ما بعدها[1]، فالنّهي للعتاب بلطفٍ وترفّق، كما أنَّ في النّهي إيماءً لمحبَّة اللّه تعالى لنوح ﵇؛ تنزيهًا له أن يكون سؤاله ممّا يُردُّ.

فقوله تعالى: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ﴾ "أي: بنوع من أنواع السّؤال ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾، فلا تعلم أصوابٌ السّؤال فيه أم لا؟ لأنّ اللّائق بأمثالك من أولي القرب بناء أمورهم على التّحقيق وانتظار الإعلام منّا"[2]، فهو نهيٌ عتابيٌّ إرشاديٌّ يُشَمُّ منه تنبيهٌ على فعلِ خلافِ الأولى.

سرُّ استعمالِ مفردةِ السُّؤال:

سـؤالُ الدّاعين تشوبُه المسكنةُ والإلحاح وإظهارُ الضَّعفِ

عبّر النّظم عنِ الدّعاء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ بالسّؤالِ. والسُّؤالُ: استدعاءُ معرفة، أو ما يؤدّي إلى المعرفة، واستدعاء مال، أو ما يؤدّي إلى المال، ويعبّر عن الفقير إذا كان مستدعيًا لشيء بالسّائل، نحو: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ١٠﴾ [الضحى: 10][3]، "فإن قلت: لم سُمّيَ نداؤه سؤالًا ولا سؤال فيه؟ قلت: قد تضمّن دعاؤه معنى السّؤال وإن لم يُصرِّح به؛ لأنَّه إذا ذكر الموعد بنجاة أهله في وقت مشارفة ولده الغرق فقد استنجز"[4]. فكان نداء نوح ربَّه محض دعاء، وليس استفسارًا ولا استنكارًا، لكنَّه دعا بذلك لأنّ ابنَه لم يكن مجاهرًا بالكفر، والطّمعُ في رحمة اللّه مبرِّر لبسط الدّعاء إليه، دون ضمان النّتيجة. فأطلق السّؤال على الدّعاء؛ "لأنّه تضمّن ذكر الوعد بنجاة أهله، وما رتّبه عليه من طلب نجاة ولده"[5]، ولِما في السُّؤال من معنى المسكنةِ وشديد التَّضرُعِ والإقبالِ على المسؤولِ وكبيرِ الإلحاحِ.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3712.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/295.
(3) الرّاغب، المفردات: (سأل).
(4) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/400.
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/41.

توجيه القراءات القرآنيّة:

اخْتلف القرّاء في قوله تبارك اسمه: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ على ثلاثِ قراءاتٍ: الأولى: قَرَأ ابْن كثير: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلَنَّ﴾، مَفْتُوحَة اللّام مُشَدّدَة النُّون مَفْتُوحَةً من غيرِ ياء، والثّانية: قَرَأ نافع وأبو جعفر وابن عامر: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلَنِّ﴾ مَفْتُوحَة اللّام مُشَدَّدَة النُّون مكسورةً من غير ياء، والثّالثة: قَرَأ أَبُو عَمْرو ويعقوب وعاصِم وحَمْزَة والكسائيُّ: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ﴾ ساكِنة اللّام خَفِيفَة النُّون مكسورة[1].

النَّهي منَ الله مؤكَّد لذاته، والتَّصريح بالتَّأكيد تقوية للمضمون

فَمَنْ خَفَّف النونَ فهي نونُ الوقاية وحدَها، ومَنْ شدَّدها فهي نون التوكيد[2]. ومَن قرأ "بفتح اللّام وكسر النّون وتشديدها، على أنّ أصله: تسألنني، فحذفت نون الوقاية لاجتماع النُّونات، وكسرت المشّددة للياء، ثمَّ حذفت اكتفاء بالكسرة"[3]. والنَّهي الوارد منَ اللّه تعالى مُؤكَّدٌ لذاته، سواء دخلت عليه أدوات التَّوكيد أم لا، وقد تدخل أداة التَّوكيد تصريحًا بتأكيد المضمون.

نكتةُ استعمال أداةِ ﴿مَا﴾:

الإيماءُ إلى متاركةِ سُؤالٍ ما يُجهلُ ودعاءِ ما يُبهمُ

يُحتملُ في أداةِ ﴿مَا﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾، أن تكون اسمًا موصولًا، فتكون عبارةً عن المسؤول عنه، الّذي هو مفعولٌ للسّؤال، أو أن تكون دالّة على المصدر مفعولًا مطلقًا، بتقدير: (فَلا تَسْأَلْنِ سُؤالًا ليس لك به علم)، ونكتةُ استعمال ﴿مَا﴾ المشوبةِ بدلالةِ العموم والإبهام هو الإيماءُ إلى أنّ المسؤولَ عنه هو قضايا مشتبهة أو غيبيّة، وفي ذلك إرشاد إلى تسليم الأمر للّه تعالى، والاحتكام إلى أمره ونهيه. فجاء النّهي على وجه عامٍّ، يندرجُ فيه قول نوح ﷺ اندراجًا أوّليًّا، في قوله تعالى:

(1) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 335، وابن الجزري، النشر: 2/289.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/338.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/94.

﴿فَلَا تَسْـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾[1]. كما يحتمل أن ذلك النّهي عن السّؤال مرادٌ به الكناية عن السّؤال عمّا لا يكون ولا يصحّ، أي: فلا تسألنّي ما علمت أنّه لا يقع[2].

غرضُ تنكير: ﴿عِلۡمٌۖ﴾:

التّحقّق منهج العارفين، والتّثبّت مسلكُ المدقّقين

آثر النّظم الكريم التّعبير بصيغة التّنكير في لفظ العلم، في قوله عزّ ذكره: ﴿فَلَا تَسْـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾؛ لما في التّنكير من الدّلالة على التّقليل والعموم، فيكون نهي السّؤالِ عمّا يجهلُه السّائل ولو كان أدنى درجات العلم فما علا، والمعنى: "فلا تلتمس منّي ملتمَسًا أو التماسًا لا تعلم أصوابٌ هو أم غيرُ صوابٍ، حتّى تقفَ على كُنْهِه"[3]؛ "لأنَّ اللّائق بأمثالك من أولي القُرْبِ بناءُ أمورِهم على التّحقيق، وانتظار الإعلام منّا"[4]، والمقصود الغيبُ ومآلات الأمور. فإذا غاب أدنى العلم عن شيءِ ما، ولا يُدرى أيحقّ السّؤال عنه؟ فإنَّ التزامَ الصَّمتِ هو الأولى بالمقام.

غرضُ التَّوكيد:

تأكيدُ الخبرِ للعالم تنبيهٌ على خطرٍ محظور

آثر النَّظم الكريم تأكيد الجملة في قوله تبارك اسمه: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، تأكيدًا لمضمونها، وتقويةً للخبر، ليقع هذا الوعظ موقعه المكين، في نفس النّبيّ ﷺ. وقد نصّ على الوعظ له، حتّى لا يكون من الجاهلين، "منبّهًا له إلى أنّ هناك علمًا لا يعلمه نوح، ولا يحتمل وقْعَه على مدركاته.. فليعلم أنّ له علمًا، وأنّ للّه ﷻ علمًا فوق هذا العلم، لا تناله الأفهام، ولا تدركه العقول"[5].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/212.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/87.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/399.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/295.
(5) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1148.

سرُّ التعبير بـ ﴿أَعِظُكَ﴾:

تنبيهُ العقلِ وتحريكُ القلب قد قُرنا برباطِ الوعظ

اختارتِ الآيةُ مفردةَ (وعظ)، في تنبيه نوحٍ عليه السلام في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، بألّا يكونَ منَ الجاهلين، بطريقة السّؤال، أي: "إنيّ أعظك أن تكون من الجاهلين، موعظة على ترك التّثبّت قبل الإقدام"[1]، فلا ينبغي لذوي الدّعوة والتّعليم وهداية النّاس التّعجّل وتقديم مشاعر القرابة، وميل النّفس، على تعاليم الحقّ وشرعه، فسرُّ التعبير بالموعظةِ هو أنَّها خطابُ العقل والقلبِ، لا سيَّما أنَّ القلبَ قد مال إلى الولدِ الكافرِ، فاستُعمل ما يُنبِّه العقل ويحرِّك القلب، فهي مفردةٌ جامعةٌ بين معنيين، وبين وعاءين، بخلافِ ما لو قال: (أعلمك)، أو (أنذرك).

دلالة التّعبير بصيغة المضارع:

وعظُ المؤمنين يتجدَّدُ في كلِّ وقتٍ وحين

آثر النّظم الكريم في قوله تبارك اسمه: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، أن يعبّر بالفعل المضارع ﴿أَعِظُكَ﴾، دلالةً على أنَّ الموعظةَ يجب أن تكون حاضرةً متجدِّدةً في نفسِ نوحٍ عليه السلام بحيث يكون التّحذير من ذلك الفعل متجدّدًا، إيماء إلى خطره.

مفتاحُ بابِ الجاهلين الإصرارُ على رغباتِ النَّفسِ

في قوله تبارك اسمه: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، عبّر عن فعل الكون بصيغة المضارع ﴿تَكُونَ﴾؛ للدّلالة على أنّ وعظَ اللّه تعالى ألّا يكون نوحٌ عليه السلام من الجاهلين، جاء للنّهي عن الدّوام والرّسوخ فيه، كأنَّه قال: إنّي أعظك أن تكون فيما بعدُ من الجاهلين إن أصررت على سؤالِك بتجديد السُّؤالِ إلى أن تكون منهم. وهذا يدلُّ على التَّسامحِ فيما وقع رحمةً منَ اللّه تعالى وعفوًا منه، والتَّحذير منَ الإصرار في السُّؤالِ أو التَّكرار فيه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/87.

نكتةُ استعمالِ لفظِ الجهل:

التّحذيرُ منَ الوقوعِ في الجهلِ لا الإخبارُ عنِ الوقوعِ فيه

قوله تعالى: ﴿أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، جاء فيه ذكر صفة الجهل في سياق موعظة الله تعالى لنوح ﷺ، وقد يدلّ ظاهر النّصّ على أنَّ الجهل ممتدٌّ للنّبيِّ الكريم، وليس الأمر كذلك، وإنّما قد وعظ الله تعالى نبيَّه بذلك حتّى لا يكون "في عداد الذين يعملون بالظّنّ؛ لأنّهم لا سبيل لهم إلى الوقوف على حقائق الأمور من قِبَلنا، فتسأل مثل ما يسألون"(1)، وبهذا فإنّ السّياق لم يصف نوحًا ﷺ بالجهل، بل هو وعظ كراهيةَ الوقوعِ في الجهل. كما أنّه لمّا سبق أنّ ذكر العلم، بقوله: ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾، ناسب أن يقابله بنقيضه وهو الجهل(2).

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأهل والآل:

(الأهل) أعمّ من (الآل)، إذ (الآل) خاصّة الرّجل من القرابة أو الصّحبة

أَهْلُ الرَّجُلِ زَوْجُهُ. وأَهْلُ الرَّجُلِ أَخَصُّ النّاسِ بِهِ، وأَهْلُ البَيْتِ: سُكّانُهُ. وأَهْلُ الإسْلامِ: مَنْ يَدِينُ بِهِ(3)، وأهل الرّجل في الأصل: من يجمعه وإيّاهم مسكن واحد، ثمّ تجوّز به فقيل: أهل الرّجل لمن يجمعه وإيّاهم نسب(4)، أمّا الآل فهو مقلوب منَ الأهل، إلّا أنّه خُصّ بالإضافة إلى الأعلام النّاطقين دون النّكرات، والأزمنة والأمكنة، يقال: آل فلان، ولا يقال: آل رجل، ولا آل زمان كذا، أو موضع كذا، ولا يقال: آل الخيّاط، بل يضاف إلى الأشرف الأفضل، يقال: آل الله، وآل السّلطان. والأهل يضاف إلى الكلّ، يقال: أهل الله وأهل الخيّاط، كما يقال: أهل زمن كذا وبلد كذا. فيستعمل (الآل) فيمن يختصّ بالإنسان اختصاصًا ذاتيًّا، إمّا بقرابة قريبة، وإمّا بموالاة، قال الله ﷻ: ﴿وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ﴾ [آل عمران: 33]، وقال: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/295.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/87.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أهل).
(4) الرّاغب، المفردات: (أهل).

ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ [غافر: 46][1]. فالفرق بينهما أنّ "الأَهْل يكون من جِهَة النّسَب والاختصاص، فَمن جِهَة النّسَب قَوْلك: أهل الرّجل لِقَرابَتِهِ الأدنين، ومن جِهَة الِاخْتِصاص قَوْلك أهل البَصرَة وأهل العلم. والآل خاصَّة الرجل من جِهَة القَرابَة أو الصُّحْبَة، تَقول: آل الرّجل لأهله وأصحابه، ولا تَقول آل البَصرَة، وآل العلم، وقالُوا آل فِرْعَوْن أتباعه، وكَذَلِكَ آل لوط... وقالَ بَعضهم الآل عيدان الخَيْمَة وأعمدتها، وآل الرّجل مشبّهون بذلك؛ لأنّهم مُعْتَمده"[2]، وفي الآية الكريمة عبّر بـ (الأهل) فقال: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾؛ لأنّ المقصود بهم أهل الدِّين والاعتقاد[3]، فنفى كون ابنه من ملّته ودينه، ولم يرد أن ينفي كونه ليس منه نسبًا.

الموعظة والنّصيحة:

النّصح عامّ، والوعظ أخصّ منه، لأنّه نصح وتخويف بالعواقب

(نَصَحَ) أَصْله يَدُلُّ عَلَى مُلاءَمَةٍ بَيْنَ شَيْئَيْنِ وإِصْلاحٍ لَهُما. أَصْلُ ذَلِكَ النّاصِحُ: الخَيّاطُ. ومِنْهُ النُّصْحُ والنَّصِيحَةُ: خِلافُ الغِشِّ[4]. والنُّصْحُ: تَحَرِّي فِعْلٍ أو قَوْلٍ، فيه صلاحُ صاحبه. قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف: 79]، وهو من قولهم: نَصَحْتُ له الوُدَّ: أي: أَخْلَصْتُهُ، وناصِحُ العَسَلِ: خالِصُهُ[5]. أمّا الوعظُ فأصله التَّخْوِيفُ. وهُو التَّذْكِيرُ بالخَيْرِ وما يَرِقُّ لَهُ قَلْبُهُ[6]. وهو: النُّصْحُ والتّذكيرُ بالعواقب. يقال: (السّعيدُ من وُعِظَ بغيره، والشّقيُّ من اتّعظ به غيرُه)[7]. وقد عبّر في الآية الكريمة بلفظ الوعظ؛ لأنّه تحذير من الله تعالى إلى نوح عليه السلام من عواقب الجهل.

(1) الرّاغب، المفردات: (آل).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 281.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/85.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصح).
(5) الرّاغب، المفردات: (نصح).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعظ).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (وعظ).

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٤٧﴾ [هود: 47]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد الإرشادِ والعتابِ يتحقَّقُ الاستغفارُ والمتاب

لَمّا واسى اللّه تعالى نوحًا عليه السلام معلمًا إيّاه ألّا يسأل عمّا ليس من مقدور البشر، أتبع ذلك ببيان جواب نوح عليه السلام، واستجابته لتعليم ربّه، فلمّا "انجلى للسّامع ما هو فيه ﷺ من علوِّ المقام، وعظيم الشّأن الموجب للعتاب، على كثير من الصّواب، فتشوّف للجواب، استأنف بيانه بقوله: ﴿قَالَ﴾"[1]، وفي هذا المضمار، قال نوح: ربّ إنّي ألتجئُ إليك، وأحتمي بك، وأعوذ بك من أن أسألك شيئًا بعد الآن، لا أعلم الحقّ فيه، وإن لم تغفر لي - بفضلك ومنّك - ذنبَ هذا السّؤال، وتشملني برحمتك، أكن في عداد الخاسرين"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَعُوذُ بِكَ﴾: أصلُ (عوذ): يَدُلُّ على الالتِجاءِ إلى غَيْرِه والاعتِصامِ بِهِ، ثُمَّ يُحْمَلُ عليه كُلُّ شَيْءٍ لَصِقَ بِشَيءٍ أَوْ لازَمَهُ. تَقُولُ أَعُوذُ بِاللّهِ - جَلَّ ثَناؤُهُ - أَيْ: أَلْجَأُ إِلَيْهِ - تبارك وتعالى -، عَوْذًا أَوْ عِياذًا. وفُلانٌ عِياذٌ لَكَ، أَيْ مَلْجَأٌ[3]، والعُوذَةُ والمَعاذَةُ: الَّتي يُعَوَّذُ بِها الإنسانُ مِنْ فَزَعٍ أَوْ جُنُونٍ[4]. وضِدُّ العَوْذِ: اللَّوْذُ، وهو طَلَبُ الخَيْرِ، والمَعاذُ: المَلْجَأُ والحِصْنُ[5]، وفي الحديث أنّه تزوّج امرأة، فلما دخلت عليه، قالت: أعوذ باللّه منك، فقال: لقد عذت بمعاذ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/295 - 296.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/295 - 296.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عوذ).
(4) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (عوذ).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (عوذ).

فالحقي بأهلك"[1]، والمقصود بالاستعاذةِ في الآية الالتجاء إلى تعالى والاحتماء به أن يقع فيما يحرُمُ عليه.

2) ﴿أَنْ أَسْـَٔلَكَ﴾: أصْلُ (سأل): الاسْتِدْعاءُ والطَّلَبُ، يُقالُ سَألَ يَسْألُ سُؤالًا ومَسْألَةً. ورَجُلٌ سُؤَلَةٌ: كَثِيرُ السُّؤالِ[2]. ويُقالُ: سَألْتُهُ عَنْ عِلْمٍ سُؤالًا ومَسْألَةً، أي: طَلَبْتُ مَعْرِفَتَهُ. وسَألْتُهُ الصَّدَقَةَ، أي: طَلَبْتُ منهُ أنْ يَتَصَدَّقَ عَلَيَّ. والسُّؤالُ: طَلَبَ أحَدٌ منْ آخَرَ بَذْلَ شَيْءٍ أوْ إخْبارًا بِخَبَرٍ، فإذا كانَ طَلَبَ بَذْلٍ عُدِّيَ فِعْلُ السُّؤالِ بِنَفْسِه، وإذا كانَ طَلَبَ إخْبارٍ، عُدِّيَ الفِعْلُ بِحَرْفِ (عَنْ) أو ما يَنُوبُ مَنابَهُ[3]، قال الأخفش: يُقال: خرجنا نسأل عن فلان وبفلان. وقد تخفّف همزته، فيقال: سال يسال.. ورجل سُؤَلَة: كثير السّؤال. وتساءلوا، أي سأل بعضهم بعضًا. وأسألته سُؤْلته ومسألته، أي قضيت حاجته[4]، والسُّؤالُ في الآية هو الطَّلَب.

3) ﴿وَتَرْحَمْنِيٓ﴾: أصلُ (رحم): يَدُلُّ عَلَى الرِّقَّةِ والعَطْفِ والرَّأْفَةِ، يُقالُ منْ ذلك: رَحِمَهُ يَرْحَمُهُ، إذا رَقَّ له وتعطَّفَ عليه. والرَّحِمُ: عَلاقَةُ القَرابَةِ، ثُمَّ سُمِّيَتْ رَحِمُ الأُنْثَى رَحِمًا منْ هذا؛ لأنَّ منها ما يَكُونُ ما يُرْحَمُ ويُرَقُّ له منْ ولَدٍ[5]، "وتراحم القوم: رحم بعضهم بعضًا. والرَّحَمُوتُ من الرّحمة، يقال: (رَهَبُوتٌ خيرٌ منْ رحمُوت)، أي: لأن ترهب خير من أن ترحم، ورجل مرحوم ومرحم، شدّد للمبالغة"[6]، وإذا وُصِف به الباري فليس يراد به إلّا الإحسان المجرَّد دون الرّقَّة، وعلى هذا رُوِي أنَّ الرَّحْمَةَ منَ الله إنعامٌ وإفضالٌ، ومن الآدميِّين رِقَّةٌ وتَعطُّفٌ[7]. والمقصود بالرَّحمَة في الآية: ما به رِفْقٌ وإحسانٌ إليه.

4) ﴿ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾: أصلُ (خسر): يَدُلُّ عَلَى النَّقْصِ. فَمِنْ ذلكَ الخُسْرُ والخُسْرانُ، والفِعل: خَسِرَ يَخْسَرُ. والخاسِرُ: الَّذي وُضِعَ في تجارته. وكِلْتُهُ ووزَنْتُه فأخْسَرْتُهُ، أي:

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عوذ).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سأل).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/194.
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (سأل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (رحم).
(7) الرّاغب، المفردات: (رحم).

نقصتُه، وصَفَق صَفْقَةً خاسِرَةً، أي: غير مُرْبحةٍ[1]. والتَّخْسِيرُ: الإهلاك[2]، وقيل: الإبْعادُ من الخَير[3]. والمُرادُ بالخَسارَةِ في الآية: ما يَبْدُو على الجاني منَ الاضطِرابِ وسُوءِ الحالَةِ وخَيبَةِ الرَّجاءِ، فَتُفِيدُ أنَّه من الهالِكِينَ في الدُّنْيا، أو فيها وفي الآخِرَةِ[4].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

سيّئاتُ الأبرارِ حسناتُ المقرّبين، وعلى قدرِ المقامِ حسابُ المذنبين

بعد التَّنبيه الإلهيّ الرَّقيق العتاب، أدرك نوح خطأ موقفه، فقال مناجيًا ربَّه: ربِّ إنِّي ألتجئ إليك وأستعيذ بك وبجلالك، أن أسألَك بعد الآن ما لا عِلمَ لي بصحَّته، وأستعين بك يا ربَّ العالمين أن يقع منِّي في المستقبل سؤالك فيما ليس لي به عِلم، فإنْ لم تغفِرْ لي ما وقع منِّي منَ السُّؤالِ عمّا لا أعلمُ، وترحمْني بقبولِ توبتي؛ أكنْ منَ الخاسرينَ ذاتًا وعملًا. وليس معنى ذلك أنَّ نوحًا عليه السلام وقع في ذنب يحتاج إلى الغُفران، وإنَّما هو لإحساسه بجلال اللّه تعالى، وقدرِه وعظم سموِّ أوامره ونواهيه، فقد ظنَّ أنَّه ارتكب في جنب اللّه ما حسبه خطيئةً، وما هو من ذلك في شيءٍ[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ الفصلِ: ﴿قَالَ﴾:

بيانٌ كاشفٌ عن تبرؤِ نوحٍ عليه السلام ممّا قال

افتتح النّظمُ الجليل الجملة بالفعل ﴿قَالَ﴾ مفصولًا في قوله تبارك اسمه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾ لحكاية جواب نوح عليه السلام بعد أن عاتبه اللّه جل جلاله في قوله: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾، فأجاب "بما يدلّ على التّنصّل ممّا سأل،

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خسر).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خسر).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (خسر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/173.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/437، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/48، والشّوكانيّ، فتح القدير: 2/571، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3713.

فاستعاذ أن يسأل ما ليس له به علم"[1]، استجابةً لذلك النّهي، كما أنّ تصدير الجملة بفعل القول بيانٌ لقولِه الذي يُسألُ عنه، فكأنَّ سائلًا قد سأل: فماذا قال ﷺ؟ فكان الجواب ما ورد في الآية.

نكتةُ حذفِ حرفِ النّداء:

شـدَّةُ القـربِ تختصرُ الألفاظَ وتُخرجُ أنفاس القلوب

في قوله عزّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾ جاء النّداء محذوف الأداة فلم يقل: (يا ربّ)، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ [الفرقان: 30]، وقولِه تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾ [الزخرف: 88]، وذلك أنَّ النِّداء في الآيةِ جاء في معرض الحوار، بينما جاء في الآيتين في سياق الدُّعاءِ، وإنَّ العبد يستشعر بقربه من ربّه أثناء الطّلب والثّناء، وإنّ مقام الشّهود ينفي البُعد ويقتضي القرب، فيسقط التّكلّف. فالنّداء جاء بأسلوب الأدب الرّفيع، فليس فيه تنبيهٌ، بل التماس القبول والإقبال.

سرُّ الدّعاء بالرُّبوبيَّة:

مقامُ الخطابِ بذكرِ الإحسانِ، تكونُ الرُّبوبيَّةُ فيه هي العنوان

آثر ﷺ أن يدعو اللّه تعالى، مخاطبًا إيّاه بلفظ الرّبوبيّة، دون لفظ الجلالة (اللّه)، في قوله عزّ ذكره: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾، ابتداءً منه بالتّصريح بسبق الإنعام، وإعلانًا منه بأنّك قد سبقت لنا منك الحسنى، فقال "مبادراً على ما يقتضيه له من كمال الصّفات: ﴿رَبِّ﴾ أي: أيّها المحسن إليّ"[2]. وهذا من الأدب الرّفيع، والافتتاح البليغ في الدّعاء، بين يديّ الجليل، ونلمح في هذا السّياق الرّقيق البديع، سموّ المشاعر، وعمق التّعلّق باللّه، فقد نسي نوح ﷺ حديثَ ابنه في حديث نفسه، فاستعاذ بفضله، واستجار بلطفه، فوجد السّلامة من ربّه، فأمره أن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/88.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/296.

يهبط بسلام منه وبركات، ومن تواضع للّه رفعه[1]، والمقامُ هو مقامُ التجاءٍ إلى المنعم الخالقِ ﷻ، بأسلوب الخطابِ المباشر، فلا يحسُن معه لفظ الجلالةِ الذي يغلب استعماله في الغيبةِ.

دلالةُ ذكرِ الاستعاذة:

التّجرُّد من الحول والقوّة من سمات التّوحيد الخالص

جاءَ في قوله تعالى: ﴿أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ﴾ ذكرُ تجرّدِ نوحٍ عليه السلام من حوله وقوّته، إعلانًا منه بأنّ النّجاة غيرُ مقتدَرٍ عليها، وأنّ قوّته لا تقدر على النّجاة، بلا عون من اللّه المنجي ﷻ، فبعد "التّنبيه الرّقيق العاتِب، أدرك نوحٌ خطأ موقفه فقال مناجيًا ربّه: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ﴾ أي: إنّي ألجأ إليك سبحانك أن تُعينني ألّا أسألك ما ليس لي به علم، وأستعينك يا ربّ العالمين، أن يقع منّي في المستقبل سؤالٌ لك، فيما ليس لي به علم، وما هو من تقديرك وتدبيرك، في أنّ الحقّ أولى من الآباء والأبناء"[2].

سرُّ ذكرِ المصدرِ تَكرارًا لا الاكتفاء بالإشارة:

عهدُ نوحٍ بترك ما بدر منه يعمّ كلَّ مخالفة صدرَت عنه

جاء المستعاذُ منه في قول نوح عليه السلام في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ﴾ بالمصدر دون الإشارة، فلم يقل: (إنّي أعوذ بك من ذلك)؛ "مبالغةً في التّوبة وإظهارًا للرّغبة والنّشاطِ فيها، وتبركًا بذكر ما لقّنه اللّه تعالى"[3]. كما أنّ في ذلك تعميمًا لكلّ سؤال لا يصحّ البِدارُ به، فلم يحصر الاستعاذة بما عُوتب عليه، بل جعلها شاملةً لكلِّ سؤالٍ في المستقبل ليس له به علم، ولم يقل: (سأفعل ما أمرتني به)؛ لأنّ التّوفيق للعمل، والتّوفيق للتّرك، كلاهما مهمّ.

بلاغةُ الكنايةِ:

الإنابةُ إلى الله تعالى طريقُ الإجابةِ ومسلكُ الإجادة

عبّر نوح عليه السلام في قوله ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/139.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3713.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/213.

﴿لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ عن تركه الفعل بالاستعاذة والتّضرّع، دليلًا على تهويله ما وقع منه، وهذه كنايةٌ عن بليغِ إنابتِه إلى مولاه، واعترافٌ بأنَّ سؤال ما لا ينبغي، مخالفٌ لمقتضى الحكمة، والتّبرّؤ منه عودةٌ للوعي، وكلّما علا العبد في مدارج القرب للّه كان هلعه من فعل ما يوجب العتاب أزيدَ، فينخلع قلبه، فلا يجد غير الضّراعة والإنابة لمولاه، ويعلم مَن كان بذلك المقام، أنّ العصمة عن ذلكم، لن تكون إلّا بالاعتصام بالجناب المتين الرّفيع.

سرُّ التّعبيرِ بالاستعاذة:

لوذُ نوحٍ بجناب الله دليلٌ على خشيته من مولاه

آثر النَّظم الكريم في قوله تبارك اسمه: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ التّعبير بالاستعاذة دون التّوبة فلم يقل: (إنّي أتوب إليك أن أسألك)؛ لأنّ الاستعاذة أبلغ من التّوبة؛ لأنّه يرى أنَّ عِظَم ما بدر منه يقتضي الاستعاذة بالعظيم، لا مجرّد إعلان التّوبة؛ "لما فيهِ منَ الدلالةِ على كون ذلك أمرًا هائلًا محذورًا لا محيصَ منه إلّا بالعوذ باللّه تعالى، وأن قدرتَه قاصرةٌ عن النّجاة من المكاره إلّا بذلك"[1]. والاستعاذةُ في هذا المقام أبلغُ من التَّوبة؛ لأنَّها عبارةٌ عن طلبِ الحمايةِ من الوقوع في المعصيةِ، فإذا تحقَّق ذلك كانتِ التَّوبة تحصيلَ حاصلٍ إن وقع ما يطلبُها.

بلاغةُ استعمالِ أسلوب الشّرط في الدُّعاء:

إذا حُجبت رحمةُ الله ومغفرتُه، فالخسرانُ محقّقٌ لمن بدت زلّته

علّق النّظم الكريم في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ الخسرانَ بعدم المغفرةِ والرّحمةِ، بأسلوب الشّرط، تأكيدًا على تحقّق الشّرط، فإذا وُجد الشّرط كان الجواب محقّقًا، وفي ذلك تأكيد من نوح عليه السلام على لوذه باللّه تعالى واستسلامه لأوامره ونواهيه، وأنّه لا حول له، "أي: إن كنت سبحانك لا تغفر لي

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/213.

هذا الخطأ برحمة منك، أكنْ من الّذين خسروا، وليس معنى ذلك أنّ نوحًا وقع في ذنب يحتاج إلى الغفران، إنّما هو لإحساسه بجلال اللّه وقدره، وعظم سموّ أوامره ونواهيه، فقد ظنّ أنّه ارتكب ذنبًا، وما هو بذلك، أو أنّه ارتكب في جنب اللّه ما حسبه خطيئةً، وما هو من ذلك في شيء، وهذا ما عبّر عنه أهل العرفان من علماء التّصوّف بقولهم: (حسنات الأبرار سيئات المقرّبين)[1].

التّضرّع بالشّرط أبلغ في الإخبار، بقطع الرّجاء عن سوى الله الغفّار

لم يقل نوح عليه السلام: (اغفر لي وارحمني) بأسلوبِ الدُّعاءِ المباشرِ؛ إذ إنَّ "طلب المغفرة والرّحمة بهذه الطّريقة الكنائيّة أبلغُ وآكدُ من قوله: (اللّهمّ اغفر لي وارحمني)؛ لما فيه من: قَطعِ الرّجاء من غيره تعالى، وإخبارِ أنّه لا يملك أحدٌ ذلك غيرُه، بخلاف ما صرّح فيه بالطّلب"[2]، وهو يقول: "وإلّا تغفر لي ذنب ما دعوت به على غير علم منّي، وترحمني برحمتك الّتي وسعت كلّ شيء، فتقْبَلَ توبتي، أكنْ منَ الخاسرين في أعمالي، فلا أربح فيها"[3].

نكتةُ تقديم المغفرة على الرّحمة:

التّخلية قبل التّحلية أصلٌ في الرّحمة بعد المغفرة

قدَّمتِ الآيةُ طلبَ المغفرة على طلبِ الرّحمة في قوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي﴾؛ لأنّ الغفران تخلية، والرّحمة تحلية، والتّخلية مقدّمة على التّحلية، وذلك تأهيلًا لنفسه لاستحقاق الرّحمة، فتكون صفحته بيضاء بلا تلك الشّائبة الّتي ظنّها شائبة، بحنوّه على ابنه، فتكون الرّحمة مستحقّة لنقائه بعد مغفرة اللّه له، فـ "طلب المغفرة ابتداءً؛ لأنّ التّخلية مقدّمة على التّحلية، ثمّ أعقبها بطلب الرّحمة؛ لأنّه إذا كان بمحلّ الرّضى من اللّه، كان أهلًا للرّحمة"[4].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3713.
(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 5/166.
(3) الشّوكاني، فتح القدير: 2/571.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/88.

بلاغةُ الكنايةِ في جواب الشّرط:

جاء الشّرط في فاصلةِ الآية: ﴿أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، كنايةً عن شدّةِ خوف نوح عليه السلام؛ إذ نسب "النّقص والذّنب إلى نفسه، تأدّبًا مع ربّه فقال: ﴿وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي﴾، أي: ما فَرَط من سؤالي ﴿وَتَرۡحَمۡنِيٓ﴾ بفضلك"[1]، فإحساس نوح بجلال اللّه تعالى، وسموّ أوامره ونواهيه، جعله يظنّ أنّه ارتكب ذنبًا، وما هو بذلك، وهذا الاجتهاد المنبعث من الشّفقة والرّحمة، لم يعصم منه الأنبياء؛ لأنّه ليس منقصة، بل هو في غيرهم منقبة.

الخوفُ من الله تعالى عنوانُ فلاحٍ ورأسُ نجاحٍ

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

أعوذ وألوذ:

العوذُ أَصْلُه الِالتِجاءُ إِلَى الشَّيْءِ[2]، فهو التجاء إلى الغير وتّعلّق به، يقال: عاذَ فلان بفلان، ومنه قوله تعالى: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٦٧﴾ [البقرة: 67]، وقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 79]، أي: نلتجئَ إليه ونستنصر به أن نفعل ذلك، فإنّ ذلك سوء نتحاشى من تعاطيه[3]. أمّا اللّوذُ فأصلهُ يَدُلُّ عَلَى إطاقَةِ الإنْسانِ بِالشَّيْءِ مُسْتَعِيذًا بِهِ ومُتَسَتِّرًا. وذَلِكَ إذا عاذَ بِهِ مِنْ خَوْفٍ أوْ طَمَعٍ، قالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗاۚ﴾ [النّور: 63]، وكانَ المُنافِقُونَ إذا أرادَ الواحِدُ مِنْهُمْ مُفارَقَةَ مَجْلِسِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ، لاذَ بِغَيْرِهِ مُتَسَتِّرًا ثُمَّ نَهَضَ[4]، أي: يستترون فيلتجئون بغيرهم فيمضون واحدًا بعد واحدٍ[5]. فيلاحظ أنّ العوذ لا يشترط فيه الخوف، بل التّجرّد من الحول والقوّة، والالتجاء

العوذ التجاءٌ للتّجرّد من الأغيار، واللّوذ تسترٌ للاحتماء بالعزيز الجبّار

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/163.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عوذ).
(3) الرّاغب، المفردات: (عوذ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لوذ).
(5) الرّاغب، المفردات: (لوذ).

إلى ركن شديد، كالتجاء العباد إلى اللّٰه تعالى، أمّا اللّوذ فهو تستّر من شيء يُخافُ منه. وفي الآية الكريمة عبّر بالعوذ؛ لأنّه لا يتستّر، بل يلجأ إلى اللّٰه تعالى متجرّدًا من حوله وقوّته.

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود: 48]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد الاستطراد بالمعاتبة، عودٌ إلى استكمال الصّراع والمغالبة

بعد الاستطراد بذكر سؤالِ نوحٍ عليه السلام ربَّه تعالى عن ابنه، وما جرى فيه من عتاب واستغفار وتوبة، رجع النّظم الكريم إلى استكمال قصّة الطّوفان، فقال المولى: "الّذي بيده ملكوت كلّ شيء، ومدبّر أمر العالم كلّه لنوح، بعد أن انتهى الطّوفان، وأقلعتِ السّماء عن المطر، وابتلعت الأرض ماءَها وصارت السّكنى على الأرض والعمل عليها سهلًا ممكنًا: ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾"[1]، فالمناسبةُ هي ابتداءُ أمرٍ جديدٍ بتكليفٍ جديدٍ في الحياةِ على الأرضِ، بعد انتهاءِ عهدِ الظُّلم والمعصيةِ والفسق.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱهْبِطْ﴾: أصلُ (هبط): يدلُّ على الانحدار على سَبيلِ القَهْرِ[2]. والهُبُوطُ: نقيضُ الصُّعُود، يُقال: هَبَطَ يهْبِطُ ويَهْبُطُ هُبُوطًا إذا انْهَبطَ في هَبُوط منْ صَعُود. وهَبَطَ هُبُوطًا: نَزَلَ[3]. ويدلّ الهُبُوطُ على الانتقالِ مُطلقًا، والخُروجِ منَ البَلَدِ. والدُّخولِ فيها، فهو منَ الأضداد[4]، "وقد هبطنا أرض كذا وكذا: أي نزلناها، ويقال للقوم إذا كانوا في سفال: قد هبطوا يهبطون، وهو نقيض ارتفعوا"[5]. والمقصود بالهُبُوطِ في الآية: النُّزولُ، والمُرادُ: النُّزُولُ منَ السَّفينَةِ؛ لِأنَّها كانَتْ أعلى منَ الأرضِ[6].

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/42.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (هبط).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (هبط).
(4) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (هبط).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (هبط).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/89.

2) ﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾: أصل البَرْك صدرُ البَعِير، ويقال له: بركة، وبَرَكَ البعير: ألقى بركه، واعتُبر منه معنى اللُّزوم والثَّبات، فقيل: ابْتَرَكُوا في الحرب، أي: ثبتوا ولازموا مَوضِع الحرب، وابْتَرَكَتِ الدّابة: وقفت وقوفًا كالبروك، وسُمِّي محبس الماء بِرْكَة. والبَرَكَةُ: ثبوتُ الخَيْرِ الإلهيِّ في الشَّيءِ. قال تعالى: ﴿لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: 96]؛ وسُمِّي بذلك لثبُوتِ الخَير فيه ثبوت الماء في البركة. والمُبارَك: ما فيه ذلكَ الخير؛ ولمّا كان الخَير الإلهيّ يَصدرُ منْ حيثُ لا يُحسّ، وعلى وجْهٍ لا يُحصَى ولا يُحصر، قيل لكلِّ ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة: هو مُبارَكٌ، وفيه بركة[1]. والمقصود بالبَرَكاتِ في الآية: الخَيراتُ النّاميَةُ، وهي منْ كلماتِ التَّحِيَّةِ مُستَعمَلَةٌ في الدُّعاءِ[2].

3) ﴿أُمَمٍ﴾: أصلُ الأُمَّةِ: كلُّ جماعةٍ يجمعُهم أمرٌ ما، سواء كان ذلكَ الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا[3]، وهي جَماعَةٌ من النّاسِ أُرْسِلَ إلَيْهِم رَسُولٌ، سواءٌ آمَنُوا أو كَفَرُوا[4]. ومن مَعانِيها: الشِّرْعَةُ والدِّينُ، يُقالُ: فُلانٌ لا أُمَّةَ له، أيْ: لا دِينَ لَهُ[5]، وكذلك كُلُّ مَن كان على دِينِ حقٍّ مُخالِفٍ لِسائِرِ الأديانِ فهو أمَّة، ويُقال لِكُلِّ جيلٍ منَ النّاسِ والحَيوانِ: أُمَّةٌ[6]، والأمّة: الجماعة، قال الأخفش: هو في اللّفظ واحد، وفي المعنى جمع. وكلّ جنس من الحيوان أمّة. وفي الحديث: «لوْلا أنَّ الكِلابَ أُمَّةٌ منَ الأُمَمِ لأَمَرْتُ بِقَتْلِها»"[7]، والجَمْعُ: أُمَمٌ. والمرادُ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ﴾: الأممُ المؤمنةُ المتناسلةُ ممّن معه إلى يوم القيامة، وفي قوله تعالى: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾: هؤلاء الصنف الآخر[8].

4) ﴿سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾: أَصْلُ المَتْعِ: بُلُوغُ الغايَةِ مِنَ الشَّيْءِ، يُقالُ: مَتَعَ النَّهارُ يَمْتَعُ مَتْعًا، أي: بَلَغَ غايَةَ ارْتِفاعِهِ، والماتِعُ: الجَيِّدُ البالِغُ الجَوْدَةِ[9]. والمَتاع في الأَصْل: كلّ شَيْء ينتفع بِهِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (برك).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/90.
(3) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (أمّ).
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/319.
(5) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (أمم).
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (أمم).
(7) الجوهريّ، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة: (أمّ)، والحديث أخرجه ابن حبّان، الحديث رقم: (5656)، والدّارميّ، الحديث رقم: (2008)، الحديث رقم: (503)، وأحمد، المسند، الحديث رقم: (20548)، والتّرمذي، الحديث رقم: (1489)، والنّسائيّ في السّنن الكبرى، الحديث رقم: (4773).
(8) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/215.
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (متع).

ويُتبلَّغ بِهِ ويتزوَّد والفَناءُ يَأْتي عليهِ في الدُّنيا[1]. والتَّمْتِيعُ: الإمْهالُ، وأيضًا: التَّعْميرُ، ومنْهُ قوْلُه تَعالَى: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الشّعراء: 205]، أي: أطَلْنا أعْمارَهُم[2]. والمقصود بـ التَّمتُّع في الآية: الانتفاع بالملائم، وبالنِّعمة مُدَّة تنقضي.

5) ﴿يَمَسُّهُم﴾: أصلُ (مسّ): يَدُلُّ على جَسِّ الشَّيءِ بِاليَدِ[3]، يُقالُ: مَسِسْتُ الشَّيءَ أَمَسُّه مَسًّا لَمَسْتَه بيَدِكَ، وهُو مجازٌ في إصابةِ الشَّيءِ وحُلُولِه، فَمنهُ مَسُّ الشَّيْطانِ، أي: حُلُولُ ضُرِّ الجِنَّةِ بالعَقْلِ، ومَسُّ سَقَر: ما يُصِيبُ منْ نارِها، ومَسَّهُ الفَقْرُ والضُّرُّ: إذا حَلَّ به، وأكْثَرُ ما يُطلَقُ في إصابَةِ الشَّرِّ، قالَ تعالى: ﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزّمر: 8]، ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ [يُونُس: 12][4]، "ومن المجاز: مسّه الكبر والمرض، ومسّه العذاب، ومسّه بالسّوط، ومسّ المرأة: جامعها، وماسّها: أتاها. وبينهما رحم ماسّة[5]، والمسُّ في الآية: مجازٌ في الإصابةِ بجامعِ الاتِّصالِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

قِيل لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا نوح اهبط من الجوديّ الَّذي استوت عليه السَّفينة، ممتَّعًا بسلامٍ وتحيّة منّا وبركات في المعايش والأرزاق، تفيضُ عليكَ، وعلى من معك، وعلى ذُرِّياتٍ يتناسلونَ منهم، ويتفرَّقون في الأرض، فيكونون أُممًا مُستقلًا بعضها من بعض، وأُمم من ذرّيتهم ليسوا على سنَّتهم من الإيمان والعَمل الصّالح، سنمتّعهم في الدُّنيا، فيستنفدون فيها طيّباتهم، ثمَّ يصيبهم في

سفينةُ النَّجاةِ هي مرحلةٌ بين زمانين قُصدَ منها نجاةُ المؤمنين ووعيد الكافرين

(1) ابن منظور، لسان العرب: (متع).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (متع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مسس).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مسس)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/316.
(5) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: 2/213.

الآخرة أو فيهما معًا، عذابٌ شديدُ الإيلام. والسَّلام الَّذي هبط به نوح ومن آمن معه، دخل فيه كلُّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ من ذرِّياتهم، إلى يوم القيامة، وأنّ المتاع العاجل، والعذاب الآجل، دخل فيهما كلُّ كافرٍ وكافرةٍ، من ذُرِّياتهم إلى يوم القيامة[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

مكافأةُ الأوّابين سلامٌ من ربِّ العالمين

الجملة في قوله تبارك اسمه: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾، مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ ولذلك فصلت عن سابقتها، فكأنَّ سائلًا قد سأل: ماذا أجيب عن ذلك؟ فقيل: ﴿قِيلَ﴾[2]، فهي جواب منتظرٌ عمّا يقتضيه سَوق القصّة والمحاورة بينهم، فجاء الوصل مراعاةً لسياقِ المحاورة "بين نوح عليه السلام وربّه، فإنّ نوحًا عليه السلام، لمّا أجاب بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ﴾، خاطبه ربّه إتمامًا للمحاورة بما يُسكّن جأشَه"[3]؛ فكانت هذه الجملةُ كالمكافأةِ له عليه السلام.

علّة بناء الفعل للمفعول:

الأحكامُ الخاصَّةُ تختلفُ في بنائِها عن الأحكامِ العامَّةِ في سياقٍ واحد

آثر النّظم الكريم في قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ التّعبيرَ بالفعل المبنيّ للمفعول؛ للدّلالة على "العظمة والجلال الّذي تكون الأمور العظيمة لأجله بأدنى إشارة"[4]، فمنشأُ التّعظيم أنّ الأمر الجليل بالهبوط، وإقلاع السّماء، وبلع الأرض، لمّا يعبّر عنه بفعلٍ خالٍ من الفاعلِ، والفاعلُ معلومٌ، دلّ ذلك على أنّ هذه الأفعال العظيمة، يسيرةٌ عند الملك الجليل، وهذا يدلّ على التّعظيم والجلال، كما أنّ علّة البناء للمفعول هنا، مقابل بنائه

---

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/42 - 43، والزّحيليّ، التّفسير الوسيط: 2/1046.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/296.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 12/88.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/296.

للفاعل في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾؛ لأنّه حكم شرعيّ إرشاديٌّ خاصٌّ بنوحٍ عليه السلام، وأمّا الأمر بالهبوط من السّفينة، وغيره من تلك الأوامر، فسيقت للتّعظيم، لا سيَّما أنَّ الارتباطَ بأمورٍ تخصُّ النّاسَ، كما أنّ في ذلك البناء نسجًا على المنظوم السّابق، "ليجيء على وتيرة حكاية أجزاء القصّة المتقدّمة من قوله: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾، ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فحصل بذلك البناء قضاء حقّ الإشارة إلى جزء القصّة، كما حصل بالفصل قضاء حقّ الإشارة، إلى أنّ ذلك القول جزء المحاورة"[1].

بلاغةُ الكنايةِ:

البشارةُ نتيجةُ المصابرةِ، والدّعاء بالرّحمة والمغفرة

قوله جلَّ شأنه: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ كنايةٌ عن البشارة بالنّزول في أرض وفيرة الخير بأمنٍ وسلام تطمينًا لنوح عليه السلام ومن معه، وإشعارٌ بالرَّحمةِ والمغفرةِ، وهذا ما يدفعُ الخوفَ والقلق الّذي كان يتغشّى نوحًا عليه السلام، إثر دعائه وسؤاله، وما تبعه من عتاب اللّه تعالى له، فجاء قوله تعالى: ﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾، إجابة لطلبه الرّحمةَ والمغفرة، وإعلامًا له بالقبول والرّضى.

فائدةُ أسلوبِ النّداء:

تخصيصُ النّداء، مكرمةٌ أثيرةٌ، ومكانةٌ رفيعةٌ

دلّ نداء نوح عليه السلام في قوله عزّ ذكره: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ على مكانته الرّفيعة عند ربّه، فناداه باسمه تنويهًا به بين الملأ[2]، فافتتاح الخطاب بندائه وباستعمالِ أداة النِّداءِ (يا) وباسمه يفيد تخصيصه بمضمون الخطاب، وهو: ﴿ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾، ومن المعلوم أنّ معه جمعًا من المؤمنين، وأنّهم سيشتركون معه بهذا السّلام والبركات، لكنَّ تخصيصَه وحدَه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/88.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/89.

بالنِّداءِ إشعارٌ بمكانتِه، وأنَّ له الحظوة العظيمة عند مولاه، وهو ما يدفع أيَّ شعورٍ أن يكون قد أتى شيئًا غيرَ مقبولٍ في سؤالِ اللّه تعالى.

نكتةُ إفرادِ المُخاطَبِ:

تعليمُ الأمَّةِ الاقتداءَ منهجٌ يقودُ إلى الارتقاء

جاء الأمرُ بالهبوطِ في قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ بخطابِ المفرد، موجّهًا الأمر إلى نوح ﵇ دون الّذين معه، فلم يقل: (وقال اهبطوا منها جميعًا)، وهم مأمورون بذلك كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿۞وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ٤١﴾ [هود: 41]؛ وذلك أنّ الآمرَ بالرّكوب هو نوح ﵇، فخاطب به الّذين معه، وفي الثّانية خطابٌ منَ اللّه تعالى لنوح ﵇، على وجه الخصوص؛ فخصّه به تكريمًا له، وإظهارًا لفضله ومكانته، وأنّ ذلك الإكرام بالنّزول بسلام وبركات، إنّما كان بفضل دعوته وصبره على قومه، والأمر بعد ذلك يعمّ الجميع، فإنَّ النَّبيَّ إمامٌ لأمَّته، فلا يشترك معها في الخطابِ، بل يُؤمر وهو يبلِّغ؛ لإيجاد القدوة المُطاعةِ، وهذا من بديع فوائد النِّكات البيانيَّة في تفصيل الاقتداءِ بخير البريَّة.

معنى الباءِ ودلالتُها:

الهبوط مصحوبٌ بالسّلام، مقترنٌ بالأمان

دلَّ حرفُ الباء في قوله جلّ شأنه: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ﴾، على المصاحبة والملابسة، أي: اهبط مصحوبًا بسلام منّا، والسّلام بمعنى التّحيّة، فمصاحبته مجازيّة[1]، ويحتمل فيها الدّلالة على الحال، ويكون التّقدير: بمعنى مصاحبة السّلام، فالجارّ والمجرور ﴿بِسَلَٰمٖ﴾ متعلّق بمحذوف يعربُ حالًا من فاعل (اهبط)، أي: متلبّسًا بسلام، أو مصحوبًا بسلامة وأمن وبركات[2]، والمعنى واحدٌ، وإن اختلف توجيههُ صناعيًّا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/89.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/163 - 164.

بلاغةُ التَّعريضِ بالتَّقييد:

الهبوط ابتداءُ عصرٍ جديد، وتوليةُ زمانٍ عنيد

قيّد النّظمُ الجليل الهبوطَ بأنّه ﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾، للدّلالة على عهد جديد، وفصل من الحياة خالٍ من منغصّات المستهزئين، فجعل هبوطه مصاحبًا للسّلام من اللّه تعالى، والبركات النّازلةِ عليه، إيماءً إلى أنّه كان في ضيافة اللّه تعالى، وقد قال تعالى عن السّفينة: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ [القمر: 13 - 14]، كما أنّ البشارة بالسّلام من اللّه تعالى، بشارة بالغفران، والسّلامة من الآفات الدّنيويّة، والمقصود به "الأمن والاطمئنان، فلم يَعُدْ هناك من الكافرين، ما ينغِّص على نوح ﷺ أمرَه، ولن يجد من يكدِّر عليه بالقول: ﴿جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: 32]، ولن يجد مَنْ يتّهمه بالافتراء"[1]، فهو تعريضٌ بالزَّمانِ السّابقِ بأنَّه كان خاليًا من السَّلام، وتصريحٌ بالكرامةِ لما بقِيَ في الأيّام القادمةِ.

نكتةُ تعيينِ جهةِ التَّقييد:

السَّلام في الدُّنيا نادرٌ عزيزٌ، فإنْ وُجِدَ فهو منحةٌ يأتي من بعد محنة

أدخل النّظم الجليل (منْ)، في قوله تبارك اسمه: ﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾، الدّالّة على الابتداء للدّلالة على مصدر السّلام، فقوله: ﴿مِّنَّا﴾ "تأكيد لتوجيه السّلام إليه؛ لأنّ (من) ابتدائيّة، فالمعنى: بسلام ناشئ من عندنا، كقوله: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨﴾ [يس: 58]، وذلك كثير في كلامهم. وهذا التّأكيد يراد به زيادة الصّلة والإكرام، فهو أشدّ مبالغة من الّذي لا تذكر معه (من)"[2]؛ ولذا لم يذكر جهة السّلام، في مثل قوله جلّ شأنه: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ٤٦﴾ [الحجر: 48]، وقوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ٣٤﴾ [ق: 34]، للحاجة لذكر جهة السّلام، في آية هود للمبالغة في الإكرام، حيث كان يحمل معه نواة البشريّة، وعدم الحاجة إلى ذكر

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراويّ: 11/6487.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/89.

الجهة في (الحجر) و(ق) لوضوحِ الأمرِ وصراحته فيما يكون في الجنَّة من سلام خاصٍّ، بخلافِ الدُّنيا فالسَّلام لم يكن موجودًا، فتقييدُه بالجهة أفاد توكيدًا وبيانًا مشابهًا للتَّوكيدِ. كما أنّ في هذا السّلام من اللّه تعالى، طمأنةً إلى دوام النّعمة، وانتفاء الهلاك، لتعلّق السّلام باللّه تعالى "ومَن سلّمنا عليه فلا هلاك يلحقُه"[1].

دلالةُ الجمع بين السّلام والبركات:

من مقتضيات الحياة السّعيدة، وفرة الخيرات، وسلامة الذّات

جَمَع النّظم الكريم بين السّلام والبركات، في قوله تعالى: ﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾؛ لأنّ السّلامة من الأذى والنّصَب والخوف والعَنَت الّذي لاقوْه في السّفينة وقبلها من قومهم، لا يكفي في إقامة الحياة والمجتمع الفتيّ الجديد، والشّروع في تكوين بيئة جديدة، فلا بدّ من رزقٍ وفير، للنّهوض بتكاليف التّجديد، فكان إتباع السّلامة بالبركة من الضّرورات اللّازمة. كما أنّ في ذلك إشارةً إلى قبول توبة نوح، وتقبّله في الصّالحين، "ولما كان الدّاعون بلفظ التّحيّة إنّما يَسألون اللّه بدعاء بعضهم لبعض، فصدور هذا الدّعاء من لدنه، قائم مقام إجابة الدّعاء، فهو إفاضة بركات على نوح السّلام ومن معه، فحصل بذلك تكريمهم وتأمينهم والإنعام عليهم"[2].

سرّ تقديم السّلام على البركات:

إزالة العاهات والمنغصّات، مقدّمٌ على سعة الرّزق والبركات

قدّم النّظم الجليل في قوله جلّ شأنه: ﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾ السّلامة على البركة؛ وذلك أنّ نوحًا عليه السلام عندما خرج من "السّفينة عَلِم أنّه ليس في الأرض ما يُنتفع به من النّبات والحيوان، فكان كالخائف في أنّه كيفَ يعيشُ؟ وكيفَ يدفع جميع الحاجات عن نفسه من المأكول والمشروب؟ فأزال اللّه تعالى ذلك الخوف عنه بالبشارة، وبحصول السّلامة من العاهات، وسعةِ الرّزق والمهمّات"[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/296.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/90.

(3) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 5/167.

نكتةُ اختلافِ قيودِ الألفاظ:

قيّد النّظم الكريم السّلامَ بأنّه من اللّه تعالى، وجعل البركة بقيد ﴿عَلَيۡكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ﴾؛ وذلك لأنّ السّلام واحدٌ شاملٌ لكلّ شيء، فوحّده ونسبه للّه تعالى تنويهًا بعظمة إحسانه؛ إذ بلا سلام لا معنى للبركات، أمّا البركات فمعلوم أنّها من اللّه تعالى، وهي بركات مهما كانت، فإنّها زائلة بزوال العمر والدّنيا، وهي نازلةٌ على نوحٍ ومن معه في الدُّنيا.

إذا تحقَّق السّلام من الله تعالى نزلتِ البركات في الحياة

غرضُ تنكيرِ ﴿أُمَمٖ﴾:

جاء لفظُ ﴿أُمَمٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ نكرةً؛ للدّلالة على التّكثير والشُّيوعِ، حيث "جعل سبحانه منهم أممًا مع أنّهم عشرات أو على الأكثر مئات، ذلك لأنّهم آباءٌ لجماعاتٍ مؤمنة طاهرة، أي: ستكون منهم ذرّية طاهرة، ﴿وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، أي: سيكون ممّن معك أممٌ صالحةٌ وأخرى ظالمةٌ"[1]. والغرض من ذلك تبشير نوح عليه السلام ومن معه بأنّ ذرّيتهم باقية محفوظة، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ٤١﴾ [يس: 41]، كما أنّ في ذلك تخفيفًا عليهم؛ إذ رأوا هلاك النّاس، فشعروا بخلوِّ الأرض من البشريّة؛ فطمأنهم بأنّه سيكون بعدهم أممٌ كثيرة.

طمأنةُ المخاطَبين بما يُحبُّون تبشيرٌ يدفع التّنفير

معنى حرفِ (من) ودلالتُه:

دلّ حرف الجرّ (منْ) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ على "ابتداء الغاية أي: ناشئة من الّذين معك، وهم الأمم المؤمنون إلى آخر الدّهر"[2]، فالأمم لم تكن حاصلةً يوم النّجاة والهبوط، بل إنّ ابتداء نشأتها كائنٌ من الّذين نجوا. وأجاز بعض أئمّة التّفسير أن تكون (من) بيانيّة، والمعنى: أي وعلى أُمَمٍ هم الّذين معك[3].

منشأُ أمم الأرضِ من بعد نوحٍ عليه السلام

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3713.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/164.
(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 6/196.

التَّعريضُ بمن خالفَ منهجَ أصحابِ السَّفينةِ فأتى بالمعاصي الدَّفينة

نوعُ الواو وبلاغتُها:

افتتح النّظم الكريم قوله جلّ شأنه: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ بالواو الدّالّة على الاستئناف البيانيّ؛ لأنّها تبيينٌ لما أفاده التّنكير، في قوله: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ من الاحتراز عن أمم آخرين، وأصلُها الواوُ العاطِفةُ، وبَعْضُهُمْ يُرْجِعُها إلَى الواوِ الزّائِدَة، ويَجُوزُ أنْ تَكُونَ الواوُ لِلتَّقْسِيم، والمَقْصُودُ: تَحْذِيرُ قَوْمِ نُوحٍ من اتِّباعِ سَبِيلِ الَّذِينَ أُغْرِقُوا، والمَقْصُودُ مِنْ حِكايَةِ ذَلِكَ في القُرْآنِ التَّعْرِيضُ بالمُشْرِكِينَ منَ العَرَب، فَإنَّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّة نُوحٍ ولَمْ يَتَّبِعُوا سَبِيلَ جَدِّهِمْ، فَأُشْعِرُوا بِأنَّهُمْ مِنَ الأُمَمِ الَّتِي أنْبَأ اللَّهُ نُوحًا بِأنَّهُ سَيُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ عَذابٌ ألِيمٌ[1]، فالاستئناف لبيان حصر البركة والسّلام بالّذين كانوا مع نوح ﵇ مؤمنين صالحين، ففي "قطع الجملة الثّانية بالابتداء عن سَنَنِ الجملة الأولى الدّلالة على أنّ التّمتّع الجسمانيّ والاشتغال به يخرج الإنسان عن حكم الصّالحين من عباده، وأنّ التّبتل إلى اللّه يدخله في زمرة الأنبياء والصّالحين"[2]، فسيق ذلك لذمّ ذلك السَّنَن وبيان أنّهم خرجوا عمّا ذُكر من السّلام والبركات.

ذريّةُ المحمولين في السَّفينةِ مؤمنٌ وكافرٌ

غرضُ حذفِ المسندِ:

الخبر في قوله عزّ ذكره: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إمّا أن يكون ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾، وإمّا أن يكون محذوفًا للإيجاز، تقديره: (ومنهم أُمَمٌ سَنُمَتّعُهُمْ)، ويكون ﴿سَنُمَتِّعُهُمْ﴾ صفةً، ووجهُ الحذفِ دلالةُ ما سبق عليه ﴿مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾، وهو بيان لاختلاف الأمم النّابتة بعد نوح في الإيمان والكفر، أي: أممٌ معك وأممٌ ليسوا معك. وهذا التّقدير يدلّ على التّبعيض، أي "أنّ بعضَ مَنْ يتشعّب منهم ليسوا على صفتهم، يعني ليس جميعُ من تشعّب منهم مسلمًا ومباركًا عليه، بل منهم أممٌ ممتّعون في الدّنيا معذّبون في الآخرة"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/91.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/99 - 100.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/215.

بلاغةُ الاحتراسِ في التّكرار اللّفظيّ:

مدحُ الاجتماعِ في أمَّةٍ باعتبارِ المعيَّة والذَّمُّ باعتبارِ المتع الدُّنيويَّة

تكرّر في قوله جلّ شأنه: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ لفظُ ﴿أُمَمٖ﴾ والتّكرار للتّنويع، وبيان الاختلاف، فهو للتّقسيم والتّعديد، "فالمراد من هذه الآية تقسيم ذريّة أولاد نوح إلى فريقٍ مؤمن، وفريق كافر، لا تقسيم من كان معه في السّفينة، إذ كانوا كلّهم مؤمنين"[1]، فهم أممٌ متحزِّبةٌ، وجماعاتٌ متفرِّقةٌ، فيشمل الأممَ الصّالحة والأقوام الطّالحة، أمثال قوم هود، وصالح، ولوط، وشعيب[2]، فلفظُ الأمم لا يُراد منه المدحُ المحض أو الذَّمُّ المحض، بل بيان أنَّ النّاس ستختلف على جماعاتٍ كبيرةٍ، يشملها ناسٌ كثيرون، منها أممٌ يغلب عليها الفلاحُ، ومنها أممٌ يلفُّها الشَّقاء، وعليه جاء اختيارُ لفظٍ لا يختصُّ بنوعِ مدحٍ أو ذمٍّ، بل بوصف النّاس في عموم الالتقاءِ، والمدحُ كان بقيدٍ زائدٍ على أصل اللفظ، وهو المعيَّة، والتَّمتيع، فمن التزم معيَّةَ الصّالحين كان معهم، ومن آثر متعَ الحياةِ الدُّنيا فهو منغمسٌ فيها، فاختيارُ لفظِ ﴿أُمَمٖ﴾ يُفهم منه الاحتراس عن فهم المدحِ أو الذَّمِّ لمجرَّد كونهم أممًا، وهذا من بديعِ البيان القرآني في اختيارِ مفرداته.

بلاغةُ المجازِ بحذف المضافِ:

الهدى والضّلال في ذريّات الأمم يتنقَّل بينها بمحضِ اختيارِها

حُذِفَ المضافُ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾، فيدخل في السّلام المذكور كلُّ مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، ويدخل في التَّمتيعِ والعذاب كلُّ كافرٍ كنودٍ إلى يوم القيامة، والتّقدير: وعلى ذريّة أمم ممّن معك، وذريّة أمم سنمتّعهم. فأراد اللّه سبحانه بالأمم الّذين كانوا معه مَن صار مؤمنًا من ذرّيتهم، وأراد بقوله بالأمم الّذين يمتّعهم مَن صار كافرًا من ذرّيتهم إلى

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 6/196.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 12/43

يوم القيامة[1]، فجعل سبحانه منهم أممًا؛ لأنّهم آباء لجماعات مؤمنة، ستكون منهم ذرّية طاهرة، أي سيكون ممّن معك أمم صالحة، وأخرى ظالمة[2].

خفَّةُ تَكرارِ حرفِ الميم:

تكرار الصّوت الواحد بلا ثِقَل أو نشازٍ إشارةٌ إعجازٍ

تكرّر في قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾، حرف الميم عشر مرّاتٍ، وفي الآيةِ ثماني عشرةَ مرَّة بالتَّجاورِ والتَّتابع والفكِّ والإدغام، وهذا يصعب إتيانُه مع خلوٍّ من نشازٍ أو ثِقَلٍ في عموم الكلام العربيِّ، لكنَّه هنا جاء على أبدعِ ما يقع فيه الصَّوت من الأذن، واللفظ من اللِّسان، فجاء خفيفًا سائغًا للسّامعين مع إعجاز وتفرّد.

بلاغةُ بديعِ فنِّ الاحتباك:

اكتفاء الجملتين بدلالة المذكور في إحداهما على المقدَّر في الأخرى

في قوله جلّ شأنه: ﴿بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٞ سَنُمَتِّعُهُمۡ﴾ احتباكٌ[3]، فقد "ذَكَرَ البركاتِ والسّلامَ أوّلًا دليلًا على نفيهما ثانيًا، والمتاع ثانيًا، دليلًا على حذفه أوّلًا"[4]، وتقدير الكلام: بسلام وبركات على أمم ممّن معك سنمتّعهم في الدُّنيا متاعًا قليلًا، وأمم لا سلام ولا بركات عليهم وإنَّما هو التَّمتيع.

دلالة العطف بـ حرف التَّراخي:

تجليّات طول الزَّمان في الوعد والوعيد سنَّةٌ لا تتبدَّل

آثر النّظم الكريم أن يستعمل حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ اقتضاءً للواقع، فإنّ مجيء الأمم المذكورة الّتي سيصيبها العذاب في الدُّنيا أو الآخرة، أو في كليهما إنّما يكون بعد تراخي الزّمن وطوله، فـ ﴿ثُمَّ﴾ مستعملة للتّرتيب والتّراخي.

---

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 6/197.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3713.

(3) الاحتباك: هو "القول المركّب من أجزاء فيه متناسبة، نسبة الأوّل منها إلى الثّالث كنسبة الثّاني إلى الرّابع، أوْ ما كانت النّسبة فيه كنحو ذلك، فاجتزئ من كلّ متناسبين بأحدهما، لقطع الدّلالة ممّا ذكر على ما ترك". يُنظر: السّجلماسيّ، المنزع البديع، ص: 195.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/297.

سرُّ التّعبير بصيغةِ المضارع:

مسُّ العذابِ متجدِّدٌ على الدَّوام لا يتحوَّل ولا يتبدَّل

عبّر النّظم الكريم في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عن مسِّ العذاب للأمم الممتَّعة بالفعل المضارع؛ للدّلالة على أنّ العذاب عند وقوعِه لن يكون عذابًا منقطعًا بل هو مستمرّ ودائم فيهم، وهو ما يُرشِّح أن يكون المقصودُ بالعذابِ عذابَ الآخرةِ، أو أن يُحمل على عذابِ الدُّنيا ويكون وجودُه باستمرارِ وجودِهم، كما أنّ فيه دلالةً على استجلاب الصّورة لتصوير المشهد.

دلالة تقييد العذاب:

ورودُ العذابِ من الله ترهيبٌ، وكفرُ العبيد عجيبٌ

قيّد النّظم الجليل العذاب في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بكونه حاصلًا من الله تعالى، للدّلالة على تعظيم العذاب؛ فكون العذاب صادرًا من الله تعالى، فإنّه عذابٌ مكتسبٌ أشدّ الصّفات، وعبر عن العذاب بضمير التّعظيم (نا)، إيغالًا في تعظيم العذاب وتشديدًا على مستحقيه.

علّة تقديم شبه الجملة:

تقديم كون العذاب من الله تعالى أبلغ في بيان شدّته

قدّم النّظم شبه الجملة ﴿مِّنَّا﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على الفاعل، وأصل الكلام: (يمسّهم عذاب أليم منّا)؛ وذلك أنّ تعظيم العذاب، بكونه صادرًا من الله تعالى أشدّ في بيان عظمته من تنكيره ووصفه بكونه أليمًا، فالتّقديم لتهويل المذكور قبل ذكره، كما أنّ فيه مراعاةً للفاصلة القرآنيّة حفاظًا على النّسق الصّوتي.

دلالةُ تنكيرِ: ﴿عَذَابٌ﴾:

تنكيرُ العذابِ تهويلٌ له، وتأكيدٌ على فظاعته

آثر النّظمُ الكريمُ التّعبيرَ عن العذاب بصيغة التّنكير، في قوله جلّ شأنه: ﴿ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، تعظيمًا لشأنه، وتهويلًا لشدّته، فهو عذابٌ غيرُ معروفٍ ولا معهود للسّامع، فجاء التّنكير إخبارًا عن حقيقة كونه ليس معلومًا؛ ليذهب السّمعُ في تخيّل العذاب

الكائن من اللّه تعالى مذاهبَ شتّى، في تصوّر شدّته وفظاعته وهوله، فالتَّنكيرُ للنَّوع، إذ هو نوعٌ غيبيٌّ لم يعهد النّاس مثله في الدنيا، وهذا إذا قصرناه على عذابِ الآخرةِ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الهبوطُ والنُّزول:

الهـبـوط نـزول إثْــره إقـامـة، ويكون بلا إرادةٍ عـــادةً، خـلافًـا للنّزول

الهبوط وإن كان على سبيل القهر، فإنّه يمتاز عن النّزول بأنّه: "نزُول يعقبه إقامَة؛ ومن ثَمَّ قيل: هبطنا مَكان كَذا، أي نزلنا، ومنْه قَوله تعالى: ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرًا﴾ [البقرة: 61]، وقوله تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعًاۖ﴾، ومَعْناهُ: انزلوا الأرْض للإقامة فيها، ولا يُقال: هَبَط الأرْض إلّا إذا اسْتَقرَّ فِيها، ويُقال: نزُول وإن لم يسْتَقرّ"[1]، فجاء التّعبير في الآية الكريمة بالهبوط؛ لأنّهم بعد نزولهم أقاموا ولبثوا في المكان.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 296.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: 49]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من سردِ القصَّةِ إلى طلبِ الاعتبارِ ممّا جاء فيها

لمّا أخبرتِ الآياتُ السّابقة عن قصّة نوح ﷺ على الوجه الأكمل، وبيّنَت اجتهادَه "في إبلاغ الإنذار من غير مراعاة إقبال ولا إدبار، وكانت مع ذلك دالّة على علم تامّ، واطّلاع على دقائق لا سبيل إليها إلّا من جهة الملك العلّام، فهي على إزالة اللّبس عن أمره ﷺ أوضحُ من الشّمس، قال تعالى منبّهًا على ذلك: ﴿تِلْكَ﴾، أي هذه الأنباء البديعة الشّأن، الغريبة الأمر، البعيدة عن طوق المعارض"[1]، إنّما هي من وحي اللّه تعالى، فهو انتقالٌ من قصَّة نوحٍ ﷺ إلى الإشارةِ إلى حكمةِ إنزالِها وذكرِها، وهو الصَّبر على كفّار مكَّة كما صبر نوحٌ على قومه، فإنَّ العاقبة للتَّقوى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنۢبَآءِ﴾: أصلُ (نبأ): الإتْيانُ مِنْ مكانٍ إلى مَكانٍ، يُقالُ لِلَّذِي يَنْبأُ مِنْ أرضٍ إلى أرْضٍ: نابِئٌ. وسَيْلٌ نابِئٌ: أتَى مِنْ بَلَدٍ إلى بَلَدٍ، ورَجُلٌ نابِئٌ مِثْلُهُ. ومنْهُ النَّبأُ: الخَبَرُ؛ لأَنَّهُ يأتِي من مَكانٍ إلى مَكانٍ[2]، والأَنْباءُ: جَمْعُ نَبَأٍ، وأنباءُ الغَيْبِ: الأخبارُ المُغَيَّبَةُ عَنِ النّاسِ أو عَنْ فَرِيقٍ مِنْهُمْ[3]. والنَّبْأَةُ: الصَّوْتُ؛ لِأَنَّ الصَّوْتَ يَجِيءُ مِنْ مَكانٍ إلى مَكانٍ، ومَنْ هَمَزَ لفظَ النَّبِيِّ ﷺ فَلأنَّهُ أنْبأَ عَنِ اللّهِ تعالى[4]، قال سيبويه: ليس أحد من العرب إلّا ويقول: (تنبّأ مسيلمة)، بالهمز،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/305.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (نبأ).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/92.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (نبأ).

غير أنّهم تركوا الهمز في لفظِ النّبيّ، كما تركوه في الذّريّة والبريّة والخابية، إلّا أهل مكّة، فإنّهم يهمزون هذه الأحرف[1]، والمقصود بالأنباء في الآية: جَمْعُ نَبأٍ، وهو الخَبَرُ الَّذي له أهميَّةٌ.

2) ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾: أصلُ (غيب): يَدُلُّ على تَستُّرِ الشَّيءِ عَنِ العُيُونِ، ثُمَّ يُقاسُ. منْ ذلك الغَيْبُ: ما غابَ، ممّا لا يَعْلَمُهُ إلّا اللّهُ[2]، وكلُّ مكانٍ لا يُدْرَى ما فِيهِ فَهُو غيْبٌ، وكذلكَ المَوْضِعُ الَّذي لا يُدْرَى ما وراءَه، وجمعُهُ غيوبٌ[3]، ويُقالُ للشَّيءِ: غَيْبٌ وغائِبٌ باعتباره بالنّاس لا باللّه تعالى، فإنَّه لا يغيب عنه شيءٌ، كما يَعزُبُ عنه مثقال ذرَّة في السَّماوات ولا في الأرض[4]. والغَيْبُ ضِدُّ الحُضُورِ وضِدُّ المُشاهَدَةِ، والمقصودُ بالغَيبِ في الآية: ما خَفِيَ وغابَ عن عِلْمِ النّاسِ واسْتأثَرَ اللّهُ بِعِلْمِه.

3) ﴿نُوحِيهَآ﴾: أصلُ (وحى): يَدُلُّ على إلقاءِ عِلْمٍ في إخْفاءٍ أو غَيْرِهِ إلى غيرِكَ. والوحْيُ: الإشارةُ السَّريعة، ولتضمُّن السُّرعة، قيل: أَمْرٌ وحْيٌ؛ وذلك يكون بالكلام على سبيل الرَّمز والتَّعريض، وقد يكون بصوتٍ مُجرَّدٍ عن التَّركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة[5]، وكُلُّ ما أَلْقَيْتَهُ إلى غَيْرِكَ حَتَّى عَلِمَهُ، فهو وحْيٌ كيفَ كانَ، "والوحي أيضًا: الإشارة، والكتابة، والرّسالة، والإلهام، والكلام الخفيّ، وكلّ ما ألقيته إلى غيرك. يقال: وحيت إليه الكلام وأوحيت، وهو أن تكلّمه بكلام تخفيه"[6]، والوحْيُ: الإعلامُ منَ اللّهِ بواسِطَةِ المَلَكِ. وأوْحى إليه: بَعَثه، وأوْحى إليه: أَلْهَمَه[7] والمقصود بالوحْيِ في الآية: إفادَةُ المَقصُودِ بِطَرِيقٍ غَيْرِ الكلام[8].

4) ﴿ٱلۡعَٰقِبَةَ﴾: أصلُ (عقب): يَدُلُّ على تَأْخِيرِ شَيءٍ وإتيانه بعدَ غيرِه، وكُلُّ شَيْءٍ يَعْقُبُ شَيئًا فهو عَقِيبُهُ[9]، قال الرّاغبُ: والعَقِبُ: مُؤخَّر الرِّجْل، والعاقِبَةُ والعُقْبَى يَخْتَصّانِ

(1) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نبأ). الزَّبيديّ، تاج العروس: (نبأ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غيب).
(3) الأزهري، تهذيب اللّغة: (غيب).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (غيب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وحي).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (وحي).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (وحي).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/31.
(9) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).

بِالثَّوابِ، نَحْوُ: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف: 128]، وبالإضافةِ قَدْ يُستَعمَلُ في العُقُوبَةِ، نحو: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ [الرّوم: 10][1]. وسُمِّيَت بِذلك؛ لأنَّها تَتْلو الذَّنْبَ، من تَعَقَّبَهُ: إذا تَبِعَهُ، وتَعَقَّبْتُ الرَّجلَ، أي: أَخَذْتَه بِذَنْبٍ كان منْهُ. والجمع: عُقوباتٌ[2]. والمقصودُ بالعاقِبَةِ في الآية: الحالَةُ الَّتي تَعْقُبُ حالَةً أُخْرَى، وحقِيقَتُها نهايةُ أَمْرٍ مِنَ الأُمُورِ وآخِرُهُ.

5) ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾: أَصْلُ الوِقايَةِ: هو دَفْعُ شَيْءٍ عن شَيْءٍ بِغَيْرِهِ، يُقال: وقَى نَفْسَهُ من العَدُوِّ بِسِلاحِهِ، أيْ: دَفَعَهُ بِهِ، وفُلانٌ ما له من واقٍ، أيْ: من دافِعٍ. والوِقايَةُ: ما يَقِي الشَّيْءَ، واتَّقِ اللّهَ: تَوقَّهُ، أي: اجْعَلْ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ كالوِقايَةِ. قالَ النّبيّ ﷺ: «اتَّقُوا النّارَ ولَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»[3]، وكَأَنَّهُ أرادَ: اجْعَلُوها وِقايَةً بَيْنَكُمْ وبَيْنَها[4]، والتَّقْوَى: اتِّخاذُ الوِقايَةِ والحِمايَةِ من الشَّيْءِ، والتَّوقِّي: الحَذَرُ. وتأْتي الوِقايَةُ بمعنى الحِفْظِ من الأذَى والضَّرَرِ[5]. والمقصود بالمتَّقين في الآية: الَّذين يتحرّزون من المهالك في الدُّنيا[6].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

قصصُ الرُّسُلِ السّابقين نبراسُ هدايةٍ لا مُجرَّد حكايةٍ

قال اللّه تعالى بعد قِصَّة نوح، وبيان العبرة فيها: تلك القِصَّةُ الّتي قَصَصْناها عليك - يا مُحمَّدُ ﷺ - عن نوحٍ وقومه، هي من أخبارِ الغَيبِ السّابقةِ، نوحيها إليك لتَعلَمَها، ما كنتَ تعلمُها، ولا

---

(1) الرّاغب، المفردات: (عقب).

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقب).

(3) رواه أحمد في مسنده، عن عدي بن حاتم ﷺ، رقم الحديث: (18253).

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (وقي).

(5) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وقي)، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 340.

(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (وقي)، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/432، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 106.

يعلَمُها أيُّ أحدٍ من قومك، من قبلِ هذا القرآنِ، فاصبر على تكذيب قومكَ وأذاهم لكَ، واجتهد في تبليغ رسالتك، وجدّ في إيضاح الرِّسالة القرآنيَّة، واصبر على الشَّدائد، كما صبر نوح ﷺ على أذى الكفّار، واعلم أنَّ العاقبة والنَّصر والنَّجاة لكَ، كما كانت لنوح في هذه القِصَّة، وأنَّ النّصر يكون من بعدكَ لأهل التَّقوى الَّذين يطيعون اللّه، ويتجنَّبون المعاصي. ونحن نوحيها إليك لتكون لك هداية وأسوة، فيما لقيه غيرك من الأنبياء، وتكون لقومك مثالًا وتحذيرًا، لئلا يصيبهم إذا كذّبوك مثل ما أصاب هؤلاء وغيرهم من الأمم المعذّبة(1).

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ استعمالِ إشارةِ البعيدِ:

الإشارة بالبُعد للنّبأ العظيم تناسبُ شأنه وأهميّته

آثر النّظم الكريم التّعبير باسم الإشارة الدّالّ على البعد، في قوله تبارك اسمه: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾، تفخيمًا لشأنها "أي هذه الأنباء البديعة الشّأن، الغريبة الأمر، البعيدة عن طوق المعارض، العليّة الرّتب عن يد المتناول"(2)، فالإشارة إلى الأنباء الواردة في قصّة نوح ﷺ الّتي يوحِيها اللّه إلى رسوله الأكرم؛ فلكونها أنباءً عظيمة خطيرة الشّأن، أشار إليها باسم الإشارة الدّالّ على البعد(3)، أو أنّ المراد بالبعدِ البعدُ الزّمني؛ فأشار بالبعيد؛ لأنّ بين قصّة نوح ﷺ، وبينَ النّبيّ ﷺ مُددًا لا تُحصى(4).

توجيه المتشابه اللَّفظيّ:

تأنيث اسم الإشارةِ باعتبارِ القصَّة والتَّذكير باعتبارِ النَّبأ

آثر النّظم الكريم في قوله عزّ ذكره: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/441، 442، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/49، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 383، والزّحيلي، التّفسير المنير: 2/1047.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/305.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3714.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/165.

﴿نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾، التّعبير باسم الإشارة ﴿تِلۡكَ﴾، بينما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ﴾ [آل عمران: 44]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ﴾ [يوسف: 102] فآثر استعمال ﴿ذَٰلِكَ﴾، ووجهه: أنَّه استعمل ﴿تِلۡكَ﴾ إشارةً إلى القصّة، فكان التّأنيث باعتبار التّأنيث في لفظ القصّة[1]، ولذلك قال: ﴿نُوحِيهَآ﴾، بينما أشار في قصّة يوسف عليه السلام إلى النّبأ الواحد، وهو نبأ يوسف وإخوته.

نوعُ حرفِ ﴿مِنۡ﴾ ودلالتُه:

أنباءُ الغيبِ في القرآنِ إشاراتُ الوحيِ إلى الأذهانِ

أدخل النّظم الجليل حرف الجرّ ﴿مِنۡ﴾، في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾، وهي تحتمل أن تكون بيانيّةً، أي أنّ هذه الأنباء من جنس أنباء الغيب، أي ليست من قبيل سائرِ الأنباءِ، بل هي نسيجُ وحدِها، منفردةٌ عمّا عداها، فهي لبيان جنس الأنباء[2]، وعليه فتكون الإشارةُ إلى قصَّة نوحٍ المذكورةِ، وتحتمل الدّلالة على التّبعيض، أي أنّ هذه بعضُ أنباء الغيب، وليست كلّها؛ فإنَّ اللّه تعالى قد قصَّ على محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم بعضَ تلك الأنباء.

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ النَّبأ:

أنباءُ السّابقين جاءت للاعتبارِ لا لمجرَّدِ الإخبارِ

آثر النّظم الكريم في قوله جلّ شأنه: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾، استعمالَ لفظِ النّبأ دون الخبر؛ لأنّ النّبأ هو العظيم من الأخبار الّذي يحقّق فائدة العلم[3]، وهو الخبر ذو الشّأنِ، وقصّة نوح عليه السلام فيها من الغرائب والعجائب العظيمة، فوصفُها بالأنباء أدقُّ في البيان، وللإيماءِ إلى ضرورة الاعتبارِ بهذه الأنباءِ، فهي ليست مجرَّد خبرٍ يُروى، أو حدثٍ يُطوى.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/215.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/215.
(3) الرّاغب، المفردات: (نبأ).

سرُّ التَّعريفِ بالإضافة:

أنباءُ القرآنِ وحيٌ مخصوصٌ ودرسٌ مقصود

آثر النّظم الكريم في قوله جلّ شأنه: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾، إضافة الأنباء إلى الغيب، فآثر التّعبير بقوله: ﴿أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾، دون أن يقول: (تلك من الأنباء نوحيها إليك) بتعريفِها بأل؛ وذلك للدّلالة على أنّها أنباء مخصوصة بالغيب الّذي لم يُعْلَم من قبل. فالأنباءُ كانت غيبًا ثمّ انكشفت بالوحي الموحى به، والغيب ما لا تدركه الحواسّ، ولا يُعْلَم ببداهة العقل، فأنباءُ الغيبِ هي "الأخبار المغيّبة عن النّاس أو عن فريق منهم، فهذه الأنباء مغيّبة بالنّسبة إلى العرب كلِّهم، لعدم علمهم بأكثر من مجملاتها، وهي أنّه قد كان في الزّمن الغابر نبيّ يقال له: نوح عليه السلام أصاب قومه طوفان، وما عدا ذلك فهو غيب"(1).

سرُّ استعمال: ﴿نُوحِيهَآ﴾:

إيماءُ الإيحاءِ إلى ضرورةِ الاعتبارِ في الدَّعوةِ والاتِّعاظ باليقينيّات

في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾، آثر النّظم الكريم استعمال لفظ ﴿نُوحِيهَآ﴾، دون غيره من الألفاظِ نحو (ننزلها)؛ وذلك للتّذكير بأنّها إيحاءٌ من اللّه، يجب الإيمان به، والاعتقاد بصدقه، وأنّ العلم به ليس موضع اجتهاد أو انتقاض، وأنَّ المرادَ بالإيحاء هنا هو تخصيصُ خطابِ النَّبيِّ ﷺ بها، فهو إيحاءٌ منه تعالى للنَّبيِّ بقصدِ العملِ بها على وجْه الخُصوصِ، كما أنَّ في استعمال لفظ الإيحاء دون الإنزال زيادة عنايةٍ واهتمام، إذ الإيحاء هو إيماءٌ خفيٌّ، فالآيةُ تُشير إلى ضرورةِ استنباط المعاني للاعتبارِ الخاص بها في الدَّعوةِ إلى اللّه تعالى، ومعنى أنباء الغيب المذكورة هنا، أي: "من جنسها، بمعنى أنّها ليست من قبيل سائرِ الأنباءِ، بل هي نسيجُ وحدِها، منفردةٌ عمّا عداها أو بعضِها"(2).

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/92.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/215.

نكتة التّعبير بالمضارع:

آثر النّظم الكريم في قوله عزّ ذكره: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾، التّعبيرَ بالفعل المضارع، إشارةً إلى أنّ الإيحاءَ مستمرٌ في تأثيرِه وأثره في نفوس المؤمنين، وأنّه "لا يزال يُجدّد له أمثالها"(1)، فهو إخبار عن تجدّد الحكاية للأحوال الماضية، الّتي انصرمت أحداثها في الزّمان الغابر، كما أنّ التّعبير بالفعل المضارع هنا يفيد التّصوير، باستحضار الصّورة لبيان حالة الأنباء، بأنّها جاءت بصورة الوحي(2).

إيحاءُ الأنباءِ متجدّدٌ في نفوسِ المؤمنين بالصّبرِ واليقين

غرضُ تقييدِ الفعل:

في قوله تبارك اسمه: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ﴾، دلّ تقييدُ إيحاءِ هذه الأنباء الغيبيّة بأنّه كائنٌ إلى النّبيِّ ﷺ على اختصاصه بهذا الوحي، وهذا يدلُّ على أنّ هذه التّفاصيل المذكورة لم تُذكر سابقًا، كما أنَّ حرفَ (إلى) دالٌّ على انتهاءِ الغايةِ؛ إذِ المقصودُ بها هو رسولُ اللّه ﷺ، وهي إشارةٌ إلى مبدأ الإيحاءِ وأنَّه من اللّه تعالى، فهو تنبيهٌ على البدايةِ، وتصريحٌ بالغايةِ، مع ذكرِ الوسيلة التي بينهما، وفيه مدحُ جبريل عليه الصّلاةُ؛ إذ أدَّى أمانةَ الوحي بأن أوصلها إيصالًا خالصًا من الزِّيادةِ والنُّقصان.

ذكرُ الغايةِ تنبيهٌ على البدايةِ وإشارةٌ إلى قيمةِ الهدايةِ

دلالة نفي العلم:

جاء الخبر في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾، دليلًا على صحّة الوحي، فنفيُ علمها من قبل، ثمّ الإخبار بها الآن أسلوبٌ من الحِجاج، إثباتًا لكون النّبيّ ﷺ إنّما أخبر بها وهي ليست من عنده، بل من عند علّام الغيوب، كما يتضمّن ذلك إبطالًا للأساطير الّتي زيّفت الحقائق، وروّجت للأباطيلِ في

نفيُ علم الغيبِ للنّبيِّ حُجّةٌ على أنّ علمَه بالوحي

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/305.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/215.

قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ﴾، كما أنّ فيه جانبًا من التّحدّي، بالإتيان بمثل القرآن أو بعضه، بإيراد أنباء الغيب الّتي لم تكن معلومة من قبل.

نكتةُ إيثارِ نفي الفعل الماضي:

توكيدُ المعاني عند ذكرِها مقدَّمٌ على مجرَّدِ ذكرِها

آثر النّظم الكريم في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ﴾ النّفيَ بإدخال ﴿مَا﴾ النّافية على الفعل الماضي، دون أن يقول: (لم تكُنْ)؛ وذلك أنَّ نفيَ الماضي بلفظ ﴿مَا﴾، آكدُ من نفي الزّمن الماضي بإدخال (لم) على المضارع، ولو قال: (لم تكن) بالمضارعِ؛ فإنَّ دلالة نفي الكون المستمرّ، ليس لها فائدة في هذا السّياق، فليس الغرض بيانَ تجدّد وجوده في انتفاء المعرفة، بل المراد هو مطلق نفي عدم العلم بتلك الأنباء الغائبة في غياهب التّاريخ، فالنّفي بالماضي، هو نفي من الأصل؛ فلذا كان آكد.

نكتةُ التَّوكيدِ بضميرِ الفصل:

الإيماءُ إلى دحضِ تُهم العابثين تعريضًا بمن أرادَ رميَ سيِّد المرسلين

صرّح بليغ المنظوم بالضّمير المستتر في قوله تعالى: ﴿تَعۡلَمُهَآ﴾، فقال عزّ ذكره: ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾، ولم يقل: (ما كنت تعلمها ولا قومك)، مع جواز العطف على الضّمير المتّصل، لوجود الضّمير الفاصل (ها) في ﴿تَعۡلَمُهَآ﴾، ووجود فاصل آخر وهو ﴿وَلَا﴾؛ وإنّما أظهره وصرّح به للتّأكيد، فجاء بالضّمير المنفصل العائدِ على النّبيّ ﷺ، تأكيدًا لكون النّبيّ ﷺ من الّذين لا يعلمون هذا الغيب قبل البعثة، للقَطْع بكونه إنّما عَلِمه الآن عن طريق الوحي، والمعنى "أنّ قومك الّذين أنت منهم على كثرتهم، ووفور عددهم، إذا لم يكن ذلك شأنَهم، ولا سمعوه ولا عرفوه، فكيف برجلٍ منهم، كما تقول: لم يعرفْ هذا عبدُ اللّه ولا أهل بلده"[1].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/166.

وفيه إيماءٌ إلى تكذيبِ من يتَّهم النَّبيَّ ﷺ بأنَّه تعلَّم القرآنَ من بشرٍ أعانوه عليه، فكان ذكرُ الضَّميرِ إيماءً تعريضيًّا بليغًا، أي: أنت على وجه الخصوصِ لم تكن تعلم ذلك.

بلاغةُ العطفِ انتقالًا:

التَّرقي من القليلِ إلى الكثير، أو التَّدلي من الأعلى إلى الأدنى

في قوله عزّ ذكره: ﴿أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ﴾، ترقٍّ من القليل إلى الكثير باعتبار القلّة والكثرة، كقوله تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: 120]، أو تدلٍّ من الأعلى إلى الأدنى باعتبارِ الرُّتبةِ، والمعنى: إنّ قومك على كثرتهم لم يعرفوه، فكيف برجل منهم[1]، والفائدة في قوله تعالى: ﴿وَلَا قَوۡمُكَ﴾، أنّ قومك مع كثرتهم ليسوا على علم بالقصص والأخبار، وأنت أحدُهم، فلم يمكن تعلّمُك منهم، ولم يثبت أنّك خالطت غيرَهم، فثبت أنّ ما علمتَه لم يكن إلّا بالوحي[2].

احتمالُ الجمل الخبرَ أو الغيب:

الإخبار يؤكّد صدق المخبِر، والحال يصوّر الكيفيّة

يتضمّن قوله جلّ شأنه: ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ﴾ ثلاث جمل تحتمل كونها جملًا خبريّة أو حاليّة، وهي قوله تعالى: ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾، وقوله: ﴿نُوحِيهَآ﴾، وقوله: ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ﴾، فقوله: ﴿نُوحِيهَآ﴾ خبرٌ ثانٍ أي: مُوحاةٌ إليك، أو حال منْ أنباء الغيب، أي: مُوحاةً إليك، ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ﴾، خبرٌ آخرُ أي مجهولةٌ عندك وعند قومك، أو حالٌ من الهاء، في ﴿نُوحِيهَآ﴾، أو الكافِ في ﴿إِلَيۡكَۖ﴾، أي: جاهلًا أنت وقومُك بها[3]. فعلى تقدير الخبر: (تلك من أنباء الغيب موحاةٌ إليك، مجهولةٌ عندك وعند قومك)، فيكون الإخبار بكونها وحيًا، وأنّها مجهولة لديهم، أخبارًا تساق للعلم بذلك، تأكيدًا لصحّة

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/101.

(2) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 5/168.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/100، وينظر: أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/215.

الوحي، وعلى تقدير الحال: (تلك من أنباء الغيب أشير إليها في حالة كونها متّصفةً بحالة الوحي وحالة جهل المتلقّي بها)، والغرض من الحال: تصوير الهيئة الّتي جاءت بها تلك الأنباء.

معنى حرفِ ﴿مِن﴾ ودلالته:

نفيُ العلم بأنباءِ القصصِ ممتدٌّ من لحظة الإيحاءِ امتدادًا مطلقًا

أدخل النّظم البليغ حرفَ ﴿مِن﴾ على الظّرف الدّالّ على الزّمن (قبل) في قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾، فلمّا "كان زمانُ خفاء ذلك عنهم - وإن كان عامًّا لهم - بعضَ الزّمان الماضي، أدخل الجارّ فقال: ﴿مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾، أي من إيحائي إليك، حتّى يطرق الوهم حينئذٍ أنّك تعلمتها من أحد منهم"[1]، فأشار بذلك إلى أنّ العلم بتفاصيل قصّة نوح، جاء بعد الوحي بها، تصريحًا بانتفاء علمه، وقطعًا لسبيل الطّعن عن مبتغِي الطّعنِ، بسماعه إيّاها من أهل الكتاب، والمعنى: نفيُ العلم ابتداءً من قبل نزول القرآنِ رجوعًا إلى سابقِ الزّمانِ، فهو نفيٌ ممتدٌّ منذ لحظة نزول القرآن بأنباء هذه القصّة إلى ما قبل النزول امتدادًا مطلقًا.

دلالةُ اسم الإشارة:

انتفاء العلم بالغيب عن كلِّ أحدٍ شاملٌ للزّمان كلِّه

يدلّ اسم الإشارة في قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ﴾ على الإشارة إلى القرآن، ويصحّ أن يكون إشارة إلى الوقت، باعتبار ما في هذه القصّة من الزّيادة على ما ذكر في أمثالها ممّا تقدّم نزوله عليها، أو أنّها إشارة إلى النّبأ في قوله: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾، فيكون تذكير اسم الإشارة ﴿هَٰذَاۖ﴾، بعد تأنيثه ﴿تِلۡكَ﴾ شبيهًا بالالتفات[2]. وسواء أكانت الإشارة إلى الوحي بالقرآن، أو إلى زمان الوحي، فالمؤدّى واحد، وهو انتفاء علم النّبيّ ﷺ ومن معه عن العلم بمضمون الخبر.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/305.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/93.

الصّبر على المعاندين، للعلم بما حلّ بأمثالهم من السّابقين

معنى الفاءِ ودلالتُها:

أدخل النّظم الجليل حرفَ الفاء، في قوله عزّ ذكره: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، لما فيها من دلالةٍ على التَّفريعِ والتّرتيب، ووجهُ تفريعِ أمرِ الرّسُولِ بِالصّبرِ على هذِهِ القِصّةِ أنّ فِيها قِياس حالِهِ مع قومِهِ على حالِ نُوح عليه السلام مع قومِهِ، فكما صبر نُوح عليه السلام فكانتِ العاقِبةُ لهُ كذلِك تكُونُ العاقِبةُ لك على قومك[1]، وهي "لترتيب ما بعدها على ما قبلها؛ إذ ترتّب على القصص الحقّ وما فيه من معاندة الكافرين، ونزول آية اللّه فيهم بالإغراق؛ الأمرُ بالصّبر حتّى يرى آية اللّه في المشركين من قريش، وإنّها آتيةٌ لا محالة، وإن كانت المجاهدة حتّى صارت كلمة اللّه هي العليا"[2].

الصّبر سبيلُ الأنقياء، ومنهجُ الأنبياء، ومآلُ الأتقياء

غرضُ الأمرِ ونكتتُه:

جاء الأمر في قوله تبارك اسمه: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾؛ للنّبيّ صلى الله عليه وسلم بالصّبر إرشادًا وتسليةً وإشارة إلى المشابهة بين الرّسول الأوّل نوح عليه السلام، والرّسول الخاتم صلى الله عليه وسلم؛ إذ كما صبر الأوّل، يجب أن يصبر الآخِرُ، وإشارة إلى أنّ كلّ شيء بالصّبر يهون، وأنّ به يسلس الحرون، أي "﴿فَٱصۡبِرۡۖ﴾ على ذلك ولا تفتر عن الإنذار، فستكون لك العاقبة كما كانت لنوح لأجل تقواه"[3]، وقد قال الشّعر الحكيم في هذا المضمار:

الصَّبْرُ مفْتاحُ ما يُرَجَّى *** وكُلُّ أمْرٍ بِهِ يَهُونُ

فاصْبِرْ وإنْ طالَتِ البَلايا *** فَرُبَّما أسْلَسَ الحَرُونُ

ورُبَّما نِيلَ باصْطِبارٍ *** ما قِيلَ هَيْهاتَ لا يَكُونُ[4].

الاكتفاء بالمعاني الجامعةِ منهجُ القرآنِ في التّنبيهِ على غيرِها

توجيهُ تخصيصِ المتقين بالذِّكر:

اقتصر النّظم الكريم في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/93.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3714.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/306.
(4) الخادمي، بريقة محموديّة: 3/79.

﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ بذكر التّقوى، وجعل العاقبة لهم دون الصّبر، فلم يقل: (إنَّ العاقِبَةَ لِلّصابِرِين) أو (المحسنين) أو (المؤمنين)؛ لدخول الصّبر في عموم مفهوم التّقوى، ولأنَّ التقوى سبيل المحسنين، ولأنَّ الإيمانَ شرطُ التقوى؛ فهذا من الإيجاز البليغ، فاكتفى بذكرِ المعاني الجامعة للدّلالةِ على غيرِها، فمن كان تقيًّا كان صبورًا نقيًّا.

غرضُ التَّوكيدِ:

ما يراه البشرُ ظاهرًا قاصرٌ عن باطنِ الحقيقةِ فحسُن معه التَّوكيدُ

جاء الخبر في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، مؤكّدًا بكونه جملة اسميّة وبالحرف ﴿إِنَّ﴾ تأكيدًا على تحقّق مضمونها، وهي بشارة لا يتوقّعها من قصُر نظره، وغاب عنه المشهد الشّامل، وقد كان النّبيّ ﷺ يمثّل هو وأصحابه الصّبر والتّقوى في أقصى تجلّياتهما، ممّا يسلّيه ويُطمئنُ أصحابه إلى الفرج القادم مهما ادلهمّت الخطوب. وفي ذلك إشارة إلى "أنّ التّقوى هي السّبب في حسن العاقبة، والنّصر المبين لمن خاف واتّقى"[1]، وكأنّه يقول له: ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾؛ لأنّك قد عرفت الآن نتيجة صبر نوح عليه السلام الّذي استمرّ ألف سنة إلّا خمسين عامًا، ويأتي بعدها قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾"[2]؛ للتّأكيد على أنّ المصابرة كانت نتاج التّقوى والخشية من اللّه، وقد صبر نوح على الأذى الشّديد، والزّمن المديد، خشية للّه، ورجاء نصره وحماه.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الوحي والتّنزيل:

الوحي إعلام بخفاء متعدّد الكيفيّات، والتّنزيل علَمٌ على ما نزل به جبريل عليه السلام

الوحي أصلُه يَدُلُّ عَلَى إِلْقاءِ عِلْمٍ في خَفاءٍ[3]، ويقال للكلمة الإلهيّة الّتي تُلقى إلى أنبيائه وأوليائه: وحي، وذلك أضرب حسبما دلّ عليه

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3714.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16492.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وحي).

قوله تعالى: ﴿۞وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ٥١﴾ [الشّورى: 51]، وذلك إمّا برسول مشاهد تُرى ذاتُه ويُسمع كلامُه، كتبليغ جبريل عليه السلام للنّبيّ صلى الله عليه وسلم، في صورة معيّنة، وإمّا بسماع كلام من غير معاينة، كسماع موسى عليه السلام كلام اللّه، وإمّا بإلقاء في الرّوع وبالإلهام، نحو: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ﴾ [القصص: 7]، وإمّا بتسخيرٍ، نحو قوله: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ [النّحل: 68]، وقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ﴾ [الأنبياء: 25]. فهذا الوحي هو عامّ في جميع أنواعه[1]، أمّا التّنزيل فهو وصف عن كونه نزل من اللّه تعالى بواسطة، كقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣﴾ [الشّعراء: 193] النّزول: الهبوط من علوّ إلى سُفل[2].

(1) الرّاغب، المفردات: (وحي).
(2) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (نزل).

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [هود: 50 - 51]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

سردُ الدَّليلِ بعد الدَّليل، طريقةُ القرآنِ في تثبيتِ الحقِّ المبين

لمّا ذُكر في النّظم الكريم من قصّة نوح عليه السلام، "ما هو كفيل بغرض السّورة، وختم بأنّ العاقبة دائمًا للمتّقين، أُتْبِع بالدّليل على ذلك من قصص الأنبياء، مع الوفاء بما سيقت له قصّة نوح على جميعهم السّلام، من الحثّ على المجاهرة بالإنذار"(1)، وقد رتّب السّياق الحكيم القصّتين، بحسب السّبق الزّمني، فجاء بقصّة نوح الّتي استنبتت بها البشريّة بعد الطّوفان، ثمّ أورد قصّة هود سمّيت هذه السّورة بها، وهي هنا قصّةٌ مركزيّة في الصّراع بين الرّسل وأقوامهم، والّذي جسّدته قصص الأنبياء بوضوح وجلاء، "ولم يرِدْ ذِكرٌ لقوم عاد في الكتب القديمة سوى القرآن الكريم"(2).

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿أَخَاهُمْ﴾: أصلُ (أخ): أخو، وهو: المشارِكُ آخر في الوِلادَةِ من الطَّرفين، أو منْ أحدِهما أو منَ الرَّضاع. ويُستَعارُ في كلِّ مُشارِكٍ لغيره في القَبيلة، أو في الدِّين، أو في صَنعةٍ، أو في مُعاملةٍ أو في مَودَّةٍ، وفي غَير ذَلك منَ المناسبات. والأخوّةُ إذا كانت غير الولادةِ كانت للمشاكلة والاجتماع في الفعل، نحو: هذا الثَّوبُ أخو هذا، ونحوه قولُه تعالى: ﴿كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: 27]، أيّ: مُشاكلوهم(3). وقد يكونُ الأخُ: الصَّديقَ والصّاحبَ؛ ومنه قَوْلُهم:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/306.
(2) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/223.
(3) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أخو).

(ورُبَّ أخٍ لم تَلِدْهُ أُمُّك)[1]، "والنّسبة إلى الأخ: أَخَوِيّ، بفتح الهمزة، وإلى الأُخت: أُخَوِي، بضمّها، ومع الأخ: إِخْوة، في القليل وفي الكثير: إِخْوان"[2]. والمراد بالأخ في الآية: المشارِكُ في نَسَبِ القَبيلَةِ.

2) ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾: أصلُ (عبد): يَدُلُّ على لِينٍ وذُلٍّ[3]، ومنه قولهم: طريقٌ مُعبَّدٌ، أي: سَهْلٌ مُذلَّلٌ؛ لكثرة وطء الأقدام له[4]. والعُبُودِيَّةُ: إظهار التّذلّل، والعِبادَةُ أبلغُ منها؛ لأنَّها غاية التّذلّل، ولا يستحقّها إلّا من له غاية الإفضال، وهو اللّه تعالى، "والعِبادَة والخضوع والتّذلل والاستكانة، قرائب فِي المعاني.. والعِبادَة لا تُستحقّ إلّا بالنّعمة، لِأنّ العِبادَة تنفرد بِأعْلَى أجناس النّعم؛ لِأنّ أقلَّ القَليل من العِبادَة، يكبُر عَن أن يسْتَحقّهُ إلّا من كانَ لَهُ أعلَى جنس من النّعمة، إلّا اللّه سُبْحانَهُ، فَلذَلِك لا يسْتَحق العِبادَة إلّا اللّه"[5]. والمراد بالعبادة في الآية: الخضوع المطلق للّه ﷻ وحده.

3) ﴿مُفۡتَرُونَ﴾: أصلُ الفَرْي: القَطْعُ والشَّقُّ، والإفْراءُ للإفساد، والافْتِراءُ فيهما، وفي الإفساد أكثر[6]. والفِرْيَةُ: الكَذِبُ، فَرَى كَذِبًا فَرْيًا، وافْتَراهُ: اخْتَلَقَه، وفي التَّنْزِيلِ العَزِيزِ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ [هود: 35]؛ أي اخْتَلَقَهُ[7]، والافتراء: "العَظِيم من الكَذِب. يُقال لمن عمل عملًا، فَبالغ فِيهِ إنَّه لَيَفْرِي الفَرْيَ، يَعْنِي لَيقطعُ الأمرَ العجيبَ"[8]، "ومعنى افترى: افتعل واختلق ما لا يَصحّ أن يكون؛ وما لا يَصحّ أن يكون أعمّ ممّا لا يجوز أن يُقال، وما لا يجوز أن يُفعل"[9]. وأمّا المراد بالافتراء في الآية: فهو نوعٌ من الكذبِ، وهو ابتكارُ الأخبارِ الكاذبةِ، ويُرادفُ الاختلاقَ.

4) ﴿أَجۡرًاۖ﴾: أصلُ (أجر): الجَزاءُ على العَمَلِ[10]. ومنه سُمِّيَ الثَّوابُ أَجْرًا؛ لأنَّ اللّه

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (أخو).
(2) نشوان الحميري، شمس العلوم: (أخّ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبد).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (عبد).
(5) ابن سيده، المخصّص: (العبادة).
(6) الرّاغب، المفردات: (فري).
(7) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (فري).
(8) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 103.
(9) الكفويّ، الكليات، ص: 154.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجر).

يَجْزِي العَبْدَ عليه. والأَجْرُ: العِوضُ، مَصْدَرُ أَجَرَهُ وآجَرَهُ يَأْجُرُهُ ويَأْجِرُهُ، والأجير: فعيل بمعنى فاعل أو مفاعل، والاستئجارُ: طلب الشَّيء بالأجرة[1]، وكان الخليل يقول: الأجر جزاء العمل، والفعل أجر، يأجر أجرًا، والمفعول مأجور. والأجير: المستأجر. والإجارة ما أعطيت من أجر في عمل[2]، والمقصودُ بالأجر في الآية: العِوضُ والجَزاءُ على العَمَلِ.

5) ﴿فَطَرَنِيٓ﴾: أصلُ (فطر): يَدُلُّ على فَتْحِ شَيءٍ وإبرازِهِ[3]، يقال: فَطَرَ البِئْرَ، يَفطُرها، فَطْرًا، أي: شَقَّها وحَفَرَها. قال ابن عبّاس رضي اللّه تعالى عنهما: كنت لا أدري ما فاطر السّماوات حتّى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا (فطرتها) أي ابتدأتها[4]، والفَطْرُ: الخَلْقُ والإنشاء، يُقالُ: فطَرَ اللّه الخَلْقَ، أي: خَلَقَهُم وأنشأهُم، وهو إيجاده الشَّيء وإبداعه على هيئة مترشّحة لفعل من الأفعال، فقوله: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الرّوم: 30]، إشارةٌ منه تعالى إلى ما فَطَرَ؛ أي: أبدع وركَّز (ركز) في النّاس من معرفته تعالى[5]، وتأتي الفِطْرَةُ بمعنى الغَرِيزَة، والطَّبيعة. والمقصود بقوله: ﴿فَطَرَنِيٓ﴾ في الآية: خلقني وابتدأ وجودي.

المَعْنى الإجْماليُّ:

عـبـادةُ اللـهِ وحـدَه هي أوَّلُ الواجباتِ، وهي خـالـص دعـوةِ المُرسَلينَ في كلِّ الدَّعوات

يُخبِرُ تعالى أنَّه أرسَلَ إلى عادٍ أخاهم هودًا عليه السلام، فقال لهم: يا قَوْمي، اعبُدوا اللّه وحدَه، ليس لكم من إلهٍ يستحِقُّ العبادةَ غيرُه جل جلاله، فأخلِصوا له العبادةَ، فما أنتم إلّا كاذِبونَ في إشراكِكم باللّه، ويا قوم لا أسألُكم على ما أدعوكم إليه – من إخلاصِ العِبادةِ للّه، وتَرك

(1) الرّاغب، المفردات: (أجر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أجر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فطر).
(4) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (فطر).
(5) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، الحفّاظ: (فطر).

عبادةِ الأوثانِ - أجرًا، ما أجري على دَعوتي لكم إلّا على اللّهِ الّذي خلَقَني، أفلا تعقِلونَ أنّي أدعوكم لمصلَحتِكم في الدُّنيا والآخرةِ، من غيرِ أُجرةٍ؟! فلو كنتُ أبتغي بدعوتِكم إلى اللّهِ، غيرَ النَّصيحةِ لكم، لطلبتُ منكم أجرًا على ذلك(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نوعُ العطفِ ونكتتُه:

صراعُ الحقِّ مع أهل المكر، باقٍ على مدى الدَّهر

قوله عزّ ذكره: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ﴾، معطوفٌ على قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [هود: 25] أي: (ولقد أرسلنا إلى عاد هودًا)(2)، وهو من عطفِ القصَّة على القصَّة، ونكتته بيان الصّراع بين الحقّ والباطل؛ لإيضاح معالم الكفران، ونتائج الجحود والطّغيان، وما اكتنفها من صُدود ونكران، وأنّ الكفرَ دائم، وأنّ إرسال الرّسالات من اللّه تعالى إلى عباده دائمٌ غير منقطع، وهذه أمثلةٌ ناطقةٌ بحقيقةِ الأمرِ، وبقاءِ المكرِ، على مدى الدَّهر.

فائدةُ حَذفِ عاملِ النَّصْبِ:

وظيفةُ الرُّسل يجبُ أن تكونَ حاضرةً في الأذهانِ منطوقًا بها في اللِّسان

قوله تبارك اسمه: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، جاء قوله: ﴿أَخَاهُمْ﴾ منصوبًا بعامل محذوف دلّ عليه المعطوف عليه في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [هود: 25]، أي: ولقد أرسلنا إلى عادٍ أخاهم(3)، فعطَفَ حرفُ الواو المجرورَ على المجرورِ، والمنصوبَ على المنصوبِ، كما يعطف المرفوع والمنصوب على المرفوع والمنصوب، نحو: (ضرب زيد عمرًا، وبكر خالدًا)(4)، وفائدةُ الحذفِ: تنبيهُ المخاطَب على ضرورةِ استحضارِ معنى الإرسالِ، وأنَّه ممّا يجبُ أن يكون حاضرًا في الأذهان، معمولًا بمقتضاه في الأبدان.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/443، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/329.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/306.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/216.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/166.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَخَاهُمۡ﴾:

حكمةُ الدَّعوةِ تقتضي إرسالَ المعروفِ المألوف

عبَّرتِ الآيةُ بلفظِ ﴿أَخَاهُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ﴾؛ للدّلالة على أنّ له علاقة أخوّة في النّسب، فهو كان منهم ومن نسبهم، وهذا كقولنا: (يا أخا العرب)، بمعنى: يا عربيّ، وإنّما جعل الرّسول منهم لأنّهم أفهمُ لكلامه، وأوثق به ممّن يجهلون حاله، وأرغبُ في اقتفائه[1]، ويفيد ذلك التّلميح إلى أنّ الوصف بالأخوّة، مانعٌ من إرادة الأذى لهم، أو ابتغاء الضّرر بهم، وأنّه أدْعى لقبول الدّعوة، فإنّ الدّاعي إذا لم يكن معروفَ النّسب، فإنّه داعٍ للإعراض عن دعوته.

بلاغةُ الاستئنافِ البياني:

قولُ الأنبياءِ بلاغٌ مقطوعٌ بصدقه، ودعوةٌ راسخةٌ بثباتِها

جاءَ قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ مفصولًا عمّا قبله؛ وذلك أنّه لمّا ذكر أنّه أرسله إلى قومه، كان ذلك "مظنّةً للسّؤال عمّا قال لهم ودعاهم إليه، أُجيب عنه بطريق الاستئنافِ، فقيل: ﴿قَالَ﴾"[2] وهذا على طريقةِ المحاورات في استعمالِ الاستئنافِ البيانيِّ، وجاء التّعبير بذلك الفعل في صيغة الماضي، لتأكيد أنّ منهج الأنبياء بلاغٌ بلسان الصّدق المعبّر لقومه عن مراد الله تعالى.

دلالة أسلوب النّداء:

النّداءُ تنبيهٌ على أهميّة الكلام وتحفيزٌ لقلوبِ الأقوام

حكى النّظم الجليل افتتاح هودٍ ﷺ دعوته بالنّداء، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ فخاطبهم بالنّداء؛ "لاسترعاء أسماعهم إشارةً إلى أهميّة ما سيلقى إليهم"[3]، فإنّ أسلوب النّداء بعبارة ﴿يَٰقَوۡمِ﴾، يدلّ على التّنبيه للفت العقول والقلوب، إلى المحتوى المراد من النّداء.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/216، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/94.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/216.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/94.

دلالة الإضافة:

أُضيف لفظُ (قوم) إلى ضمير المتكلِّم المحذوفِ تخفيفًا في قوله عزّ ذكره: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ طلبًا للتّأثير في نفوسهم، بأن يلينوا له، وينصاعوا لقوله؛ لأنّ معنى الإضافة هنا الانتسابُ إليه، فهم منه وهو منهم، كأنّه يقول: يا قومي "الذين هم أعزّ النّاس لديّ"[1]، ولا يغشّ المرءُ من كان عزيزًا عليه، بل المعتاد أن يبذل له غاية النّصح، ويترفّق بهم غاية التّرفُّق، وتلك جبلّة غريزيّة في البشر، لا ينفكُّون عنها، مهما كانت الظّروف، أو اكتنفتهم الصّروف.

خطابُ الانتماءِ يـورِّث التّأثير، ويُـنـادي على الظَّهير

غرضُ الأمر ودلالتُه:

جاء الأمر بالعبادة في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، دلالةً على أنّ شأن العبادة هو مرتكز التّوحيد في كلّ الدّعوات، فلمّا كانوا يشركون باللّه تعالى غيره في العبادة، أمرهم بتخصيص العبادة للّه وحده، "وفائدة هذا الأمر الإيذان بأنّ العبادة المقرونة بالإشراك، ليست عبادةً في الحقيقة، فخصّوه بالعبادة إن كنتم تعبدونه"[2]، وإنّما صرّح باسمه تعالى؛ لأنّه ساق ذلك الكلام تعريفًا للنّاس بإلههم الحقّ ﷻ، أي: اعبدوا اللّه الذي له الجلال والإكرام وحدَه[3].

الغاية الكبرى من الدّعوات، عبادةُ الله في كلِّ الحالات

بلاغةُ الاستئنافِ:

جاءت الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ﴾ مستأنفةً؛ لتعليل الأمر بعبادة اللّه تعالى وحده[4] الوارد في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، ولنفي معبوديّة غير اللّه تعالى، استقصادًا للتّشنيع بعبادة شريك سواه، فهو "استئناف يجري

دعوى الأمـرِ في القرآنِ مشفوعةٌ بتعليلِ البيان

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/306.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/103.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/306.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/306.

مَجرى البيان، للعبادة المأمورِ بها، والتّعليلُ للأمر بها، كأنّه قيل: (خُصّوه بالعبادة ولا تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا؛ إذ ليس لكم من إله سواه)"[1].

دلالةُ حرفِ ﴿مِّنْ﴾ وغرضُه:

أيُّ صفاتٍ مستحقّةٍ للعزيز الجبّار فهي منفيَّةٌ عن الأغيار

أدخل النّظم المعجزُ حرفَ ﴿مِّنْ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾؛ للدّلالة على الاستغراق في النّفي، "أي: ما لكم أيّ إله غيره، فكلمة ﴿مِّنْ﴾ لاستغراق النّفي وشموله؛ لأنّ الألوهيّة تقتضي الانفراد بالخلق والتّدبير، وأن يكون المعبود واحدًا في ذاته وصفاته، ليس كمثله شيء، وقد كانوا يعرفون ذلك، فكيف يكون غيره"[2]، وغرضُ الاستغراقِ استغراقُ جميعِ ما يتصوّره الإنسانُ من الآلهةِ، ذاتًا أو اتّصافًا، مَهما كانت هذه الصِّفات في نظر الإنسان فهي منفيَّةٌ عن أيِّ إلهٍ سوى اللّه تعالى.

فائدةُ القصْرِ بالنَّفي والاستثناءِ:

النّـفيُ يُـقـوِّي الحصرَ والاستثناء يُؤكِّد المضمونَ

جاء النّظم الكريم بأسلوب الحصر، في قوله تبارك اسمه: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾، لتأكيد مضمون الجملة، والدّلالة على التّوبيخ والإنكار، بوصفهم الشّنيع ذلك؛ لتعلّقه بافتراء العبادة لغير اللّه تعالى، "وكلمة ﴿إِنْ﴾ نافية، ثمّ جاء بعدها الإثبات بكلمة ﴿إِلَّا﴾، أي أنتم مقْصورون على الافتراء والكذب المقصود بعبادتكم أوثانًا لا تضرُّ، ولا تنفع ولا تتكلّم ولا تتحرّك"[3]، وإيثارُ أسلوب النَّفي والاستثناء؛ لأنّ النّفي بـ ﴿إِنْ﴾ أقوى في النّفي من (ما)، وجاء النّفي كذلك تأكيدًا لقوّة الحصر؛ لأنّهم افتروا في أخطر شأن، وهو شأن الألوهيّة، فالإله المعبود واحدٌ "في ذاته وصفاته، ليس كمثله شيء، وقد كانوا يعرفون ذلك، فكيف يكون غيره؟ ولكنّهم

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/216.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3716.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3716.

فعلوا غيرَ المعقول، وغيرَ ما يوجبه العقل السّليم، ولذا قال: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ﴾"[1].

بلاغةُ استعمال مفردةِ الافتراء:

الافـــتراءُ أشـدُّ من الكـذب؛ لما فيه من الاتّهام المبيَّت والمكر الخفيّ

جاء وصفُ عادٍ بالافتراء في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُفۡتَرُونَ﴾، ليخبرهم هودٌ عليه السلام أنّهم يعلمون أنّهم يكذبون، أي: أنتم "متعمّدون الكذب على اللّه في إشراككم به سبحانه؛ لأنّ ما على التّوحيد من أدلّة العقلِ غيرُ خافٍ على عاقلٍ، فكيف مع تنبيه النّقل؟! وذلك مكذِّب لِمن أشرك، أي: فاحذروا عقوبة المفتري"[2]، فوصفهم بالافتراء، كان نتيجة احتدام الصّراع بينهم وبين نبيّهم، حيث تفاقم شرّهم، وأعلنوا كفرهم الصّراح، وفسقهم البواح، وإيثارُ الوصفِ بالافتراءِ هو لبيانِ أنَّهم ليسوا مجرَّدَ كَذَبَة، بل مفترون مصرُّون معاندون على ما هم عليه من الإثم المبين، فالافتراء أشدُّ من الكذب، إذ يلزم منه الاتّهام المبيَّت، والمكر الخفيّ.

دلالةُ تَكرار النِّداءِ:

تـكـرار الـنّـداء بالاستعطاف، تـأكـيـدٌ عـلى تمحيض النّصح

كرّر النّظم الجليل في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾ النّداء تأكيدًا للاستعطاف[3]، والجملة لا تخلو من حالين:

الأولى: إذا قيلت في وقت غير وقت سابقتها، فهي جملة ابتدائيّة.

الأخرى: إذا قيلت متّصلة مع سابقتها في وقت واحد، فهي تهويلٌ للأمر، وتنبيهٌ للسّامع، واستجلاب للاهتمام[4].

دلالة نفي السُّؤالِ:

تجريد الفكرة والـدّعـوة من الأغراض المادّية، أصلٌ في قبولها

دلّ النّفي في قوله عزّ ذكره: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3716.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 9/306 - 307.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/307.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/95.

على براءته من غائلة الطّمع في دعوته، سدًّا لذريعة الظّنّ السَّيِّئ، وهو شعار كلّ الأنبياء، في مختلف العصور، إشارةً إلى أنّ الأنبياء، تعلّقهم بالخالق لا بالمخلوقين، وأنّهم دعاة لا جُباة، فنفى "أن يكون له في ذلك غرض غير نصحهم"[1].

دلالةُ الإضافةِ:

ديدن الأنبياء حُبُّ الهدى للنّاس والحرص على أقوامهم

في قوله جلّ شأنه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾، كرّر البيان القرآنيّ حكاية خطاب هود عليه السلام لقومه، بإضافتهم لنفسه؛ طمعًا منه لتليين نفوسهم ليقبلوا عليه ويشعروا بأنّه منهم، وأنّه يبتغي نصحهم محبّة بهم.

نكتةُ استعمال لفظ (الأجر):

إذا حضر أجرُ الله تعالى انطفأ أجـرُ الـنّـاس وتوارى

آثر النّظم الكريم استعمال لفظ الأجر دون المال في قوله جلّ شأنه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ﴾؛ لأنّ الأجر موضوعٌ لما يعطى بمقابل شيءٍ من جهدٍ، وهو ما يعود من ثواب العمل[2]، والمال لا يُشترط فيه ذلك، كما أنَّ هودًا عليه السلام موعودٌ بالأجرِ العظيم من مولاه العظيم، فكيف ينظرُ إلى ما في أيديهم من متاعٍ فانٍ؟! فلمّا بلّغهم دعوته، نفى أنّه يطلب على ذلك ما يبتغيه سائر النّاس، تجريدًا لدعوته من عوارض الدّنيا. أمّا إيثار لفظ (المال)، في قصّة نوح عليه السلام، فإنّه قد وقع بعدها ﴿خَزَآئِنُ﴾ [هود: 31] ولَفظ المال بالخزائن أليق[3].

نكتةُ تنكير: ﴿أَجۡرًاۖ﴾:

ما عند الله للأبرار خيرٌ من أجورِ هذه الدّار

نكَّر النّظم الكريم في قوله جلّ شأنه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾ لفظَ الأجر، لما في التّنكير في هذا السِّياقِ من معنى العموم؛ فالنّبيّ صلى الله عليه وسلم لم يطلب منهم أجرًا مهما قلَّ أو كثُر؛ لأنَّ أجره عظيمٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/307.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 64.
(3) الكرماني، أسرار التّكرار في القرآن، ص: 144.

عند اللّه تعالى، فمهما قدَّم قومُه من مغرياتٍ فهو يرفضُها، وهذا ديدن الأنبياء والصّالحين، في تجرّد دعوتهم لنفع النّاس وهدايتهم، فجاء بالتّنكير ليعمّ كلّ أجرٍ، صغيرًا كان أو كبيرًا.

سرُّ استعمال: ﴿فَطَرَنِيٓۚ﴾:

فاطرُ السَّماواتِ بلا مثال، جديرٌ أن يُطلب منه العطاء والنّوال

آثر النّظم الكريم في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ﴾ بيان الخلق بالفعل (فطر) دون (خلق)؛ للدّلالة على أنّ الّذي خلق الموجودات بلا مثال سابق، إنّما هو الّذي بعثني، وهو الّذي أبتغي الأجر منه، وفي ذلك تعريضٌ بآلهتهم، الّتي لم تخلقهم ولم تنفعهم فنبّه بذلك على "الرّدّ عليهم في عبادتهم الأصنام، واعتقادهم أنّها تفعل، وكونه تعالى هو الفاطر للموجودات، يستحقّ إفراده بالعبادة"[1]، وفي ذلك تأكيد على أنّه فاطر الموجودات، على غير مثال سابق، فهو يستحقّ أن يُعبد دون سواه. فقوله: ﴿ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ﴾" أي: ابتدأ خلقي، ولم يشاركه فيَّ أحدٌ، فهو الغنيُّ المطلق لا أوجِّه رغبتي إلى غيره، كما يجب على كلّ أحدٍ لكونه فطرة"[2]، كما أنّه يُشير إلى الفطرة التي فطر اللّه النّاس عليها، "أي: خلقني على الفطرة السّليمة المستقيمة غير الملتوية"[3].

توجيه المتشابه اللفظيّ:

هودٌ عليه السلام أعرضَ عن مطالبِ الدُّنيا، ونوحٌ عليه السلام تفانى في نُصحِ العبادِ

جاء التَّعبير حكايةً عن قول هودٍ عليه السلام: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ﴾، وحكايةً عن قولِ نوحٍ عليه السلام: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ﴾ [يونس: 72]، فيُسأل عن الفرق بينهما؟

والجواب عن ذلك: أنّ لفظ ﴿أَجۡرِيَ﴾، يوحي بأنّه مقابل منفعة، وما يقدّمه هود عليه السلام لهم غالٍ جدًا، ولا يُقدَّر بثمن؛ لأنّ فيه سعادة

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/166.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/307.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3717.

الدّنيا، وفوز الآخرة، وإذا كانت الأجور تقدّم للمنافع المؤقّتة، فالتّعبير في قصّة هود، جاء بإيراد الاسم الموصولِ للتّفخيم، وعبّر في الصّلة بفعل الفطرة، لكونه أقدم النّعم من اللّه تعالى، المستوجبةِ للشّكر، الّذي يتحقّق بالجرَيان على موجب أمرِه، والإعراض عن المطالب الدّنيويّةِ الّتي من جُمْلتِها الأجرُ[1]. أمّا في قصّة نوح عليه السلام، فعبّر بلفظ؛ لأنّه ذكر بعده ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾ [هود: 29]، فذكر لفظ الجلالة، إيماءً إلى سبب امتناعه عن طرد المؤمنين، وهو خوفه من اللّه تعالى.

بلاغة الإيجاز بالحذف:

حذفُ الموصوفِ تعريضٌ بغير اللّه تعالى من الأوثان

في قوله عزّ ذكره: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ﴾ إيجاز بالحذف، والمحذوف هو الموصوف الّذي وقع الموصول وصلته صفةً له، والتّقدير: (إنْ أجْرِيَ إلّا عَلَى اللّه الّذِي فَطَرَني)، وفي هذا الحذف دلالةٌ على التّعظيم؛ لأنّه لا يلتبس بأنّ المراد هو اللّه تعالى، ففي الحذف مع الفهم اعتمادٌ على شدّة الحضور في الأذهان، بحيث لا يختلف أحدٌ أو يكابر في أنّ اللّه تعالى هو الفاطر، وفي هذا الحذفِ تعريضٌ بالآلهةِ الّتي لم تخلق شيئًا.

نكتةُ التّعبيرِ بالاسم الموصول:

لا مكابرةَ في أنّ فاطرَ الكونِ هو اللّه تعالى وحدَه دون سِواه

آثر النّظم الكريم في قوله عزّ ذكره: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ﴾ التّعبير بالاسم الموصول إبرازًا لعظمته تعالى وجلاله، والموصول هنا مع جملة الصّلة ﴿فَطَرَنِيٓۚ﴾ في محلّ صفة، فوصف اللّه تعالى بالصّفة الّتي لا يدافع أحدٌ في اختصاصها باللّه تعالى، فهو المتفرّد بكونه فاطر السّماوات والأرض وسائر المخلوقات، وعلى رأسها الإنسان، بحيث لا يتوهّم أحد نسبة ذلك إلى الشّركاء، كما أنّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/216.

التّعبير بالموصول دون الاسم العلم يؤكّد أنّه "لا يسألهم على الإرشاد أجرًا بأنّه يعلم أنّ الّذي خلقَه يسوقُ إليه رزقَه؛ لأنّ إظهارَ المتكلّم علمَه بالأسبابِ، يُكسِب كلامَه على المسبّبات قوّة وتحقيقًا"(1).

معنى الاستفهام وغرضه:

دعـوةُ العقلِ طردُ الجهل

اتَّجه الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ إلى معنى الإنكارِ على القوم الذين يعبدون من دون اللّه تعالى أصنامًا، فهو يُنكر عليهم "عدم تعقّلهم، أي: تأمّلهم في دلالةِ حالِه على صدقِهِ فيما يبلّغ، ونصحِه لهم فيما يأمرُهم"(2)، أي: أتغفُلون عن هذه القضيّةِ الّتي لا يُغفل عنها لوضوحها؟ وتكونون ممّن يجهل كلّ شيء؛ فإنّ هذا ممّا لا ينبغي أن يجهله أحدٌ من العقلاء(3). وغرضُ الاستفهام تحريكُ العقولِ، وزحزحة الأفئدة، وإثارة القلوب، فإنَّ العقل إذا غابَ غاب معه العلم، وحضر الجهل، "كأنّه قيل: أفلا تعقلون نصيحةَ مَن لا يطلب عليها أجرًا إلّا من اللّه تعالى، وهو ثواب الآخرة؟ ولا شيء أنفى للتّهمة من ذلك"(4)، فالاستفهام بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، ينسجم مع ما ذكره من انتفاء ابتغائه الأجر، فإنّ من هذا ديدنه، لا يكون إلّا ناصحًا أمينًا.

معنى الفاءِ ودلالتُها:

إذا حضَرَ العقلُ تبدَّدتِ الأوهامُ

عبّر النّظم الجليل في قوله جلّ شأنه: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾، عن دعوته عليه السلام إلى التّعقّل والتّدبّر، وجاء بالفاء التّفريعيّة الدّالّة على ترتيب ما بعدها على ما قبلها، والمعنى: أنّ حالهم أوجبت تنبيههم إلى أنّ ما هم فيه، يجب أن يتدبّروه؛ لأنّه غير معقول في ذاته؛ إذ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/95.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/95.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/216.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/166.

كيف يعبدون ما لا ينفع ولا يضرّ، وهو حجر لا ينطق ولا يعقِلُ[1]، فدلّت الفاء التّفريعيّة على ربط جملة آخر الآية، بما سبقها، ربطَ المقدّمة بالنّتيجة.

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

اختلفت الآيتان فاصلةً واتّحدتا في صدرِها مراعاة للسّياق

اختلفت الفاصلة القرآنيَّة بين قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: 50]، وقوله تعالى: ﴿۞وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦٥﴾ [الأعراف: 65]؛ فيُسأل: لِمَ خُصّتْ كلُّ آيةٍ بما فيها بعد قوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ﴾؟

والجواب: أنَّ آيةَ الأعراف يسبقها قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا عَمِينَ ٦٤﴾ [الأعراف: 64]؛ فلمّا كانت هذه نهاية قوم نوح وكانت عادٌ خلفاء من بعدِهم، وكانت التّقوى وسيلةَ النّجاة من الهلاك، ناسبه قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦٥﴾ [الأعراف: 65]. أمّا آية هود فسبقها قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ فلمّا كانت تلك إشارةً إلى ما كان من إغراق اللّه من أشركوا به وإنجاء مَن آمنوا ولم يشركوا، وكان إشراك عادٍ بعد هذا وتكذيبُهم لما جاءهم به هود عليه السلام افتراءً، ناسبه قوله: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾.

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الكذبُ مخالفةُ الحقيقةِ، والافتراء مخالفتُها عن قصدٍ وتبييتٍ

الافتراء والكذب:

الكذب: هو عدم مطابقة الخبر للواقع، أو لاعتقادِ المخبر لهما،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3717.

على خلافٍ في ذلك، والافتراء: أخصّ منه؛ لأنّه كذب المرء في حقّ غيره، بما لا يرتضيه، بخلاف الكذب فإنّه قد يكون في حقّ المتكلّم نفسه، ولذا يُقال لمن قال: (فعلت كذا ولم أفعل كذا) غير صادقٍ: هو كاذب، ولا يُقال: هو مفترٍ، وكذا من مدح أحدًا بما ليس فيه، يُقال: إنّه كاذب في وصفه، ولا يُقال: هو مفترٍ؛ لأنّ في ذلك ممّا يرتضيه المقول فيه غالبًا، وقال سبحانه حكاية عن الكفار: ﴿ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ﴾ [هود: 18]، لزعمهم أنّه أتاهم بما لا يرتضيه اللّٰه سبحانه مع نسبته إليه. وأيضًا قد يحسن الكذب على بعض الوجوه، كالكذب في الحرب، وإصلاح ذات البين، ووعد الزّوجة، كما وردت به الرّواية، بخلاف الافتراء[1]، فعبّر عنهم بكونهم مفترين؛ لأنّهم كذبوا على اللّٰه تعالى بما لا يرتضيه، بأن جعلوا له شركاء في العبادة.

الفَطْر والخلق:

الفطر إيجاد على هيئة مقرّرة، والخلق هو الإيجاد على غير مثال سابق

الفَطْر من (فطر) وهو أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى فَتْحِ شَيْءٍ وإِبْرازِه[2]. والفَطْر: الشّقُّ طولًا، قال تعالى: ﴿هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣﴾ [الملك: 3]، أي: اختلال ووهي فيه، وفَطَرَ اللّٰه الخلق، وهو إيجاده الشّيء وإبداعه على هيئة مترشّحة لفعل من الأفعال، فقوله تعالى: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الرّوم: 30]، إشارة منه تعالى إلى ما أبدع وركز في النّاس من معرفته تعالى، وفِطْرَةُ اللّٰه: هي ما ركز فيه من قوّته على معرفة الإيمان[3]، وفطر اللّٰه الخلق: خلقهم وبدأهم، والفطرة في قوله تعالى: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الرّوم: 30]، هي الحالة والهيئة الّتي فُطِروا عليها من الإيمان به وحده[4]. فيدلّ الفَطر على الخلق، بمعنى أوّليّة الإيجاد، والخلق على هيئة مقرّرة سابقة عن

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 449 - 450.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فطر).
(3) الرّاغب، المفردات: (فطر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فطر).

وجوده. أمّا الخَلْقُ فأصله: التّقدير المستقيم، ويُستعمل في إبداع الشّيء من غير أصل ولا احتذاء[1]، فالفطر يدلّ على أوّليّة الخلق، والخلق هو الإيجاد على غير مثال سابق. وفي الآية الكريمة، عبّر بـ الفَطْر، فقال: ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، إشارةً إلى أنّه مستقيم على وفق ما خلقه الله تعالى له.

(1) الرّاغب، المفردات: (خلق).

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ٥٢﴾ [هود: 52]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد التّرهيب يحسُن التّرغيب، عدلًا من الله تعالى وفضلًا

مناسبة الآية لما قبلها أنّ هودًا عليه السلام، لمّا دعا قومه مشيرًا إلى ترهيبهم مستدلًّا على الصّدق بنفي الغرض، رغّبهم في إدامة الخوف ممّا مضى بقوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾، ومَن هم أعزّ النّاس عليّ"(1)، "اطلبوا من خالقكم أن يغفر لكم ما سلف من ذنوبكم، ثمّ ارجعوا إليه. إنّكم إن فعلتم ذلك، يُرْسِلِ المطر عليكم متتابعًا، فتكثر خيراتكم، ويزدكم قوّة إلى قوّتكم الّتي تغترُّون بها، ولا تعرضوا عمّا أدعوكم إليه، مصمّمين على الإجرام الّذي يرديكم في الهلاك"(2).

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾: الغَفْرُ في الأَصْلِ: التَّغْطِيَةُ والسَّتْرُ، ويُرادُ بها التَّجاوُزُ عَنِ الذَّنْبِ وعَدَمُ المُؤاخَذَةِ بِهِ، يُقالُ: غَفَرَ اللّهُ ذَنْبَهُ غَفْرًا ومَغْفِرَةً وغُفْرانًا، أي: سَتَرَها وتَجاوزَ عنْها(3). والاسْتِغْفارُ: طَلَبُ ذلك بالمقال، والغُفْرانُ والمَغْفِرَةُ منَ اللّه هو أن يَصُونَ العَبدَ من أن يمسَّه العذاب(4). والمراد من الاسْتِغْفار في الآية: طَلَبُ المَغْفِرَةِ لِلذَّنْبِ، أي: طَلَبُ عَدَمِ المُؤاخَذَةِ بِما مَضَى منهم منَ الشِّرْكِ(5)، فهو توبةٌ وإيمانٌ واستغفارٌ عمّا كان.

2) ﴿مِّدۡرَارٗا﴾: أصلُ (درّ): يَدُلُّ على تولُّدِ شَيْءٍ عَنْ شَيْءٍ، فالدَّرُّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/307.
(2) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 316.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(4) الرّاغب، المفردات: (غفر).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/95.

دَرُّ اللَّبَنِ، والدَّرَّةُ دَرَّةُ السَّحابِ: صَبُّهُ، ويُقالُ: سَحابٌ مدْرارٌ. والمدرارُ: الكثيرُ الدَّرِّ، وهو من أبنية المبالغة. ومنْ ذلكَ قولُهُم: لِلّهِ دَرُّهُ، أي: عَمَلُهُ، وكأنَّهُ شُبِّهَ بالدَّرِّ الَّذي يَكُونُ من ذَواتِ الدَّرِّ. ومن البابِ: دَرَّتْ حَلُوبَةُ المُسلمينَ، أي: فَيْئُهُم وخراجُهُم، ولِهذِهِ السُّوقِ دِرَّةٌ، أي نَفاقٌ، كأنَّها قَدْ دَرَّتْ. وهُو خِلافُ الغِرارِ، "قَوْله: يدرّ لَبنها، أي: تمتلئ ثدياها منْهُ، بِفَتْح الياء وكسر الدّال، ويكون أيْضًا بِمَعْنى سالَتْ يُقال درّت السَّماء، إذا أمْطرت، وسماء مدرار: غزيرة المَطَر"[1]. والمقصود بقوله: ﴿مِّدۡرَارٗا﴾ في الآية: صِيغَةُ مُبالَغَةٍ من الدُّرُورِ، وهو الصَّبُّ، أي: غَزِيرًا.

3) ﴿وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ﴾: أصْلُ (ولي): يَدُلُّ على قُرْبٍ، منْ ذلك الولْيُ: القُرْبُ، يُقالُ: تَباعَدَ بَعْدَ ولْيٍ، أي: قُرْبٍ. وجَلَسَ ممّا يَلِينِي، أي: يُقارِبُنِي[2]. والولايَةُ: تولِّي الأمرِ، فإذا عُدِّي (تولَّى) بنفسِه اقتَضَى معنَى الولايَةِ، وحُصُولِهِ في أقْرَبِ المواضِع، وإذا عُدِّي بـ (عَنْ) لفظًا أو تقديرًا اقتَضى معنَى الإعراضِ وتَرْكِ قُربه. فمنَ الأوَّل قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [المائدة: 51]، ومنَ الثّاني قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٣﴾ [آل عمران: 63][3]. والمرادُ بالتَّولي في الآيةِ: الإعْراضُ والإدبارُ: وهو مُستعارٌ هنا للمُكابرةِ والعِنادِ[4].

4) ﴿مُجۡرِمِينَ﴾: أصْلُ الكَلِمَةِ من الجَرْم، وهو: القَطْعُ[5]، وقِيل أصْلُه: الكَسْبُ، وفُلانٌ جَرِيمَةُ أهْلِهِ، أي: كاسِبُهُم، ومنه سُمِّيَ الذَّنْبُ جُرْمًا؛ لأنَّهُ كَسْبٌ لِصاحِبِهِ[6]. والإجْرامُ: ارْتِكابُ الجُرْم وهُو الإثْمُ العَظِيمُ، وأعْظمُ بالإجرام الكفْر[7]، يُقال: أجْرَمَ الرَّجُلُ: إذا ارْتَكَبَ ذَنْبًا أو جَنَى جنايةً[8]. والمُجْرِمُ في اصطلاحِ القُرآنِ هو الكافِرُ، كقولِهِ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩﴾ [المطففين: 29]، وهو المراد هنا.

(1) القاضي عِياض، مشارق الأنوار: 1/255.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/102.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جرم).
(6) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جرم).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/210.
(8) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (جرم).

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

من أطاعَ المعبودَ نالَ المطلوبَ وحقَّق المرغوب

قال الحقُّ ﷻ حكايةً عن هود عليه السلام أنَّه خاطبَ قومَه: ويا قَوْمي، اطلُبوا من رَبِّكم سَترَ ذُنوبِكم الماضيةِ، والتَّجاوُزَ عن المؤاخَذةِ بها، ثمَّ توبوا إليه فيما تستقبلونَه، وذلك بالتَّوبةِ النَّصوحِ، والرُّجوعِ إلى عبادتِه وحدَه وطاعتِه؛ فإنَّكم إن فعلتُم ذلك يُرسِلِ المطرَ عليكم، فتُخصِب الأرضُ، ويكثُر خَيرُها، ويَزِدْكم اللّهُ - إن استغفَرتُم وتُبتُم - شِدَّةً مُضافةً إلى شِدَّتِكم، وأموالًا وأولادًا، ولا تُعرِضوا عمّا أدعوكم إليه من توحيدِ اللّهِ وعبادتِه، وتُصِرُّوا على الكُفرِ والعِصيانِ[1]، ومن التزم بالمطلوب، نال من الله المرغوب، فقد بيَّنت هذه الآية الكريمة أمرين مهمَّين: الأوَّل: أنّ غايةَ ما يُرادُ من السَّعاداتِ الدُّنيويّة: كثرةُ النِّعم، وكمالُ القُوَّةِ للاستمتاعِ بها. والثّاني: نلحظ كثيرًا ما يُقرن الاستغفارُ بذكر التَّوبةِ؛ ليكون الاستغفارُ حينئذٍ عبارةً عن طلبِ المغفرةِ باللِّسانِ، والتَّوبةُ عبارةً عن الإقلاعِ عن الذُّنوبِ بالقُلوبِ والجوارحِ[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة العطفِ بالواو:

رُسُلُ الله تعالى يتحرَّكون بعنايةٍ بالغةٍ ورعايةٍ عاليةٍ

عُطف قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ على قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، فأعيد الخطاب بـ (يا قوم) تأكيدًا لما في الخطاب به أوّل مرّة من الاستعطاف وبيان أنّه منهم إظهارًا لحرصه عليهم، وكونه يبتغي لهم الخير؛ لأنّهم قومه، فالعطف بالواو بين الجمل المفتتحة بالنّداء ينبّه على اتّصال بعضها ببعض، وأنّ أحدها لا يغني عن الآخر[3].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/445، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/51، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 383.

(2) ابن رجب، جامع العلوم والحكم: 2/407.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/54.

دلالةُ تَكرارِ النّداء:

الـنّـداء أدعـى لإيقاظ السّامع، والانـتـبـاه إلى الخطاب النّافع

بدأ هود ﵇ خطاب قومه كما حكاه عنه قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، بالنّداء تنبيهًا لهم، وتهيئةً لمسامعهم، وإيقاظًا لهم على أهميّة ما سيقوله لهم، فالنّداء يدلّ على أهميّة مضمون الخطاب الّذي سيأتي بعده، حتّى يأخذ السّامع أُهبته عند سماعه مضمون الخطاب. والمعنى: "ويا قوم استغفروا ربّكم من ذنوبكم، ثمّ توبوا إليه توبةً نصوحًا، إنّكم إن فعلتم ذلك، يرسل المطر عليكم كثيرًا، فأنتم في حاجة إليه، ويزدكم قوّةً إلى قوّتكم، وعزًّا زيادة على عزّكم"[1]، وهو ما يُبرهن على شديدِ عنايته بقومه بتَكرارِ هذا النِّداء، فإنَّ النِّداءَ إذا تكرَّر نبَّه وأيقظ، ودلَّ على عنايةِ هؤلاءِ الرُّسلِ الكرام بأقوامهم، وأنَّهم ما بلغوا رفعًا للتَّكليفِ، ودفعًا للاعتذار.

نكتة الإضافة:

نـسـبـة الـقـوم إلى الـنّـفـس، تأكيدٌ لتمحيض النّصح

كرّر النّظم الجليل حكاية عن هود ﵇، خطابه لقومه بإضافتهم إلى نفسه في قوله عزّ ذكره: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾، بيانًا لكونهم أعزّ النّاس عليه[2]، وذلك لبيان إصراره وطمعه بتليين قلوبهم، وتأكيد صدقه وحرصه على هدايتهم، فإنّ النّاس أكثر ثقة بمن يعلمون من ثقتهم بمن لا يعلمون، فتكرار قوله (يا قوم)، هو التعطّف وتليين القلوب، رغبةً في صلاحهم، وشفقةً عليهم من سوء العقبى، والأيلولة إلى الهلاك، إذا استمرّوا على هذا العناد والفساد.

بلاغةُ المجازِ المرسل في لفظ الاستغفار:

الاستغفارُ مآلُ الإيـمـان وتـركُ الأوثان

عبّر النّظم الكريم على طريقة الإيجاز البليغ بالاستغفار كنايةً عن الإيمان في قوله جلّ شأنه: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا

(1) حجازي، التّفسير الواضح: 2/129.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/308.

﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾، فقوله: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ أمرٌ بالاستغفار والمرادُ الإيمانُ وتركُ عقيدة الشّرك على سبيل المجاز وعلاقته المسبّبيَّة، وهو في طلب الغفران، بقول: (أستغفر الله) حقيقة؛ "لأنّ الاستغفار من الله يستلزم الاعتراف بوجوده، ويستلزم اعتراف المستغفِر بذنبٍ في جانبه، ولم يكن لهم ذنب قبل مجيء هود ﷺ إليهم، غيرَ ذنب الإشراك؛ إذ لم يكن له شرع من قبل، وأمّا ذنب الإشراك فهو متقرّر من الشّرائع السّابقة جميعها، فكان معلومًا بالضّرورة؛ فكان الأمر بالاستغفار جامعًا لجميع هذه المعاني تصريحًا وتكنيةً"(1).

فذكرُ الأمر بالاستغفار بيانُ المطلوب بالمآل، فكأنّه قال: آمنوا وانبذوا الشِّرك، واستغفروا الله تعالى بعد ذلك على ماضيكم، وتوبوا إليه توبةً نصوحًا، فطوى ذكر شرط الاستغفار المقبول وهو الإيمان، تنبيهًا على أنَّ القومَ يعلمون باطلَهم ويُصرُّون عليه، فكان هذا داعية ذكر الاستغفار.

فائدةُ الإضافة:

الدّعوة إلى الله بالتّذكير بإنعامه أدعى للإقناع بفضله وإكرامه

أضاف هود ﷺ لفظ الرّبوبيّة إلى ضمير قومه، حال مخاطبتهم، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾؛ وذلك "للإشارةِ إلى ما يبعثهم على عبادته، وهو أنّه الذي خلقهم وربّاهُم، ودبّر أمورهم بحكمته وإرادته"(2)، ففي الإضافةِ تثوير العقلِ للفهم، وتحريك القلب للاستجابةِ، وهمز الفؤاد لليقظة، فالخالق المربِّي الرّازق هو صاحبُ الإنعام، وذو الإكرام سبحانه، فهي دعوةٌ لاستغفار الحقيقِ بالحقِّ، لا الوهم الحقيق بالنَّبذ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/95 - 96.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3717.

لا يُتصوَّرُ تحقيقُ التّوبةِ النَّصوح قبل الاستغفار اللَّحوح

معنى حرفِ التراخي ودلالتُه:

آثر النّظم الكريم عطفَ الأمر بالتّوبة على الأمر بالاستغفار في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ بحرف العطف (ثمّ)، إشارةً إلى أنَّ رتبةَ التّوبة أعلى من رتبةِ الاستغفار، أي: تسنّموا "عالي هذه الرّتبة بأن تطلبوا ستر اللّه لذنوبكم، ثمّ ترجعوا إلى طاعته بالنّدم والإقلاع والاستمرار"[1]، فهي للتّرتيب الرّتبي؛ لأنّ الدّوام على الإقلاع عن الذّنوب، أعلى منزلة من طلب العفو عمّا سلف[2]. وهذا التَّراخي الرُّتبي يُلاحظُ فيه التَّراخي الزَّماني؛ إذ لا يُتصوَّر تحقيق التَّوبة النَّصوح قبل الاستغفار اللَّحوح.

التَّدرّج بطريقِ التَّرقِّي من الأخفِّ إلى الأثقل

نكتةُ تقديم الاستغفارِ:

في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، قدّم الاستغفار على التّوبة؛ لأنّ الاستغفار نوعٌ من الدّعاء؛ فهو طلب المغفرة، أمّا التّوبة فهي الإقلاع والدّوام على التّرك، وعدم العودة، فالتّوبة أعلى شأنًا، فبدأ بالأقلّ رتبة، ثمّ ترقّى إلى الأعلى؛ ليأتي ترتيب التّكليف من الأخفّ على النّفوس إلى الأثقل عليها؛ لأنّ التّوبة تقتضي التّغيير في السّلوك والفعل، وليس مجرّد صيغة من الألفاظ لطلب العفو، والاستغفارُ مقدِّمة التَّوبة، فلا يُتصوَّر بدونِها.

تعقيب الاستغفار بالتّوبة دليلٌ على بشاعة الأفعال وشناعة الأعمال

فائدةُ توالي الأوامر:

في قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، جمع النّظم الكريم الأمرَ بالاستغفارِ والتّوبة في هذه الآية؛ لأنّهما مرتكزان مهمّان في منهج الإقبال على اللّه، ويلخّصان دعوة هود عليه السلام لقومه، كما أنّ الجمع بينهما يدلّ على تأكيد الطّلب بذلك، إشارة إلى الأعمال بعد الإيمان، أي "اطلبوا مغفرة اللّه بالإيمان، ثمّ توسّلوا إليها بالتّوبة،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/308.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/96.

وأيضاً التّبرّي عن الغير، إنّما يكون بعد الإيمان منهم بالله، والرّغبة فيما عنده"[1]، كما أنّ الجمع بين طلب المغفرة وبين الإقلاع عنها، والنّدم بيان لأوّل الأعمال الّتي عليهم القيام بها إثر إيمانهم، تهويلًا لفحش ما كانوا يقومون به، وأنّهم بحاجةٍ إلى توبةٍ بعد طول استغفار، وهو إشعارٌ لهم بجَسامةِ أفعالِهم، وشناعةِ أعمالهم.

دلالةُ جوابِ الأمرِ وفائدتُه:

دفـعُ أوهـامِ الافـتـقـارِ عـنـد تـحـقيقِ الاستغفار

جعل النّظم الجليل جوابَ الأمر: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ قولَه تعالى: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ وهو الجزاءُ الذي ينتظرهم، إذا تحقّق منهم الاستغفار، فجعل نتيجة الاستغفار ما يسرّهم من زيادة الخير والقوّة، وقد قصد هود ﵇ من ذلك "استمالتَهم إلى الإيمان، وترغيبَهم فيه بكثرة المطر، وزيادة القوّة؛ لأنّهم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات، حُرّاصًا عليها أشدّ الحرص، فكانوا أحوج شيء إلى الماء"[2]، كما أنَّ القومَ كان عندهم هاجس الخوفِ من الفقر إن آمنوا، ولا سيَّما أنهم اتَّهموا نوحًا ﵇ بأنَّه قد اتَّبعه الأرذلون، فكان هذا عدةً كريمةً بأن يُغنيهم الله تعالى من واسع فضلِه، وأن يُديم عليهم ما كان لهم.

بلاغةُ اجتماعِ الاستعارةِ والمجازِ المرسل:

المبـالـغـةُ في الـرِّزقِ الوفيرِ والـتَّـعـريـضُ بمصدرِ العذابِ الكبير

في لفظِ ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ استعارةٌ فقد شبَّه السَّماءَ بالضِّرع التي تدرُّ اللّبن، فحذف المشبَّه به وذَكَرَ لازمًا من لوازمه وهو ﴿مِّدۡرَارٗا﴾ على سبيل الاستعارةِ المكنيَّة الأصلية.

كما أنَّ فيه مجازًا مرسلًا، وعلاقته المحليّة؛ إذ أطلق السَّماءَ والمراد السَّحاب، وعبّر عنه بالمكان الّذي نزل منه، من قبيل إطلاق

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/102.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/166.

المحلّ، وإرادة الحالّ فيه، فمعنى السّماء: السّحاب أو المطر، تسميّةً للشّيء باسم مصدره[1]، ونكتةُ ذلك المبالغة في بيانِ كثرةِ الرِّزقِ النّازلِ من السَّماء في تصوير إرسال السَّماء لا المطر الذي في السَّماء فحسب، وأمارته ﴿مِّدۡرَارٗا﴾.

كما أنَّ فيه تعريضًا بأنَّ هذه السَّماء سيأتيكم منها العذاب بدل الرِّزق إن عاندتم في كفرِكم، وبقيتم على حالكم.

نكتةُ تقديم الجارّ والمجرور:

جزيل الإنعام على الاستغفار، بتخصيص إرسال الماء المدرار

قيّد النّظم البليغ إرسال السّماء بأنّ ماءها نازلٌ عليهم فقال عزّ ذكره: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾، وهذا يصف حقيقةً واقعةً لأنّ الماء ينزل من علوّ السّماء، فالتّصريح بدلالة العلوّ لا يُراد منه الإخبار بالمعلوم، يُراد به بيان الإنعام بأنّ هذا الإرسال عليهم ليس عذابًا، بل هو نعيمٌ لأجلهم، فهو مختصّ بهم؛ ولذا قدّمه على الحال، فلم يقل: (يرسل السماء مدرارًا عليكم).

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّة:

سعة الإنعام بنزول المطر، منحة الجليل للتّائبين من البشر

عبّر النّظم المعجِز بصيغة المبالغة ﴿مِّدۡرَارٗا﴾ من الدّرّ، في قوله تعالى: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ وهي على وزن (مفْعال)، للمبالغة في الإنعام وكثرة الماء الّتي من لوازمها وفرة الخير، وجودة الحياة ونماؤها، وهو من الألفاظ القرآنيّة الفريدةِ؛ فإرسالُ السّماء بماء الغيث المنهمر، فيه معنى السّموّ والاتّساع والغزارة، أي: هاطلة بمطر غزير متتابع[2]، وفي لفظِ ﴿مِّدۡرَارٗا﴾ تشبيه نزول الماء الكثير بدرِّ اللَّبن، على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة.

وجهُ الوعدِ بإنزالِ الماءِ:

خصّ النّظم الجليل الإنعام على عادٍ بالغيث في قوله تعالى:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/96.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/308.

الوعدُ بالإنعام على قدر ما تستوعبه الأفهام

﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾؛ لأنّ الوعد بجعل السّماء عليهم مدرارًا، منسجم مع طبيعة البيئة في حضرموت، والأحقاف، وفي اليمن الخصيب، فهي بحاجة إلى الماء الغزير، لتخضرّ وتُنبِت الزّرع والثّمر، وهي قوّة اقتصاديّة، "ولقائل أن يقول: وما صلة الاستغفار بهذه المسألة الكونيّة؟ ونقول: إنّ للكون مالكًا لكلٍّ ما فيه؛ جماده ونباته وحيوانه؛ وهو سبحانه قادر، ولا يقدر كائن أن يعصي له أمرًا؛ وهو القادر أن يُخرج الأشياء عن طبيعتها؛ فإذا جاءت غيمة، وتحسب أنّها ممطرة؛ قد يأمرها الحقّ سبحانه فلا تُمطِر"[1].

نكتةُ تقديم إرسال الغيث:

الأسبابُ مقدِّماتُ النّتائج وجوامع الحوائج

جاء تقديمُ قوله تعالى: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ على قوله تعالى: ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾، وهو من بابِ تقديم السّببِ على النّتيجة، باعتبار أنّ الخصبَ سببٌ في المال، والمال سببٌ للقوّة، ولهذا قدّم هذا على ذاك، وهذا على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ [الأنبياء: 30].

غرضُ النّهي:

شكر النّعمة سبيلُ الإلهام، والتولّي طريقُ الإجرام

في قوله عزّ ذكره: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ عطف النّهي عن التّولّي على قوله تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ والنّهي عن التّولّي عن الإيمان مع الإجرام يفصح عن ضرورة اتِّباع الإنعام بالخصب العميم، والتّمكين العظيم، بشكر المُنعم الكريم، والإيمان به ﷻ، فنهى عن استعمال تلك النّعم في الفساد والطّغيان، لتفادي سوء المنقلب، فنهاهم عن الفساد والإجرام بالقوّة التي أنعم عليهم بها، وهي إن لم تُشكَر كانت سببًا للإجرام، أي: لا تتولّوا حال كونكم بهذه القوّة فتكونوا قومًا مجرمين[2].

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6498.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3717 - 3718.

دقّةُ الاستعمالِ الصَّرفي:

التّولّي عن الحقّ كلفةٌ تخالف الفطرة

في قوله عزّ ذكره: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ عبّر عن التّولّي بصيغة الافتعال، للدّلالة على أنّ التّولّي ليس من طبيعة النّفس البشريّة، إلّا بتكلّف وتعنّت، أي: لا "تكلّفوا أنفسكم غيرَ ما جُبلت عليه، من سلامة الانقياد، فتبالغُوا في الإعراض"(1).

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

الجملةُ المتناسبة مع سياقِها استعمالٌ أنيقٌ وانتقاءٌ دقيق

اختلف التَّعبير بالمعطوفِ في قوله تعالى: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾ [نوح: 11 - 12]، فيُسأل عن سرِّ ما خُصّ به كلُّ موضع بما فيه بعد قوله: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾؟

والجواب: أنَّ آية هود بدأت بقوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾؛ فلما كان اللّه تعالى قد قال لنوح عليه السلام: ﴿ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾، وكان من البركة زيادة القوّة قوّةً، ناسبَه في قصَّة هودٍ قوله: ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾، أمّا آية نوح فسبقها قوله في أوّل السّورة: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١﴾ [نوح: 1]؛ فلمّا كان العذاب الأليم سببًا لإهلاك المال والحرث والنّسل، ناسبه أن يكون الاستغفار سببًا لما يجلبها، بقوله: ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢﴾ [نوح: 12]، كما أنَّ الجملتين تُعدّان من البيان القرآني، فكلُّ جملةٍ منهما تُفسِّر الأخرى، فذكر في كلِّ موضعٍ ما يُناسبه.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/308.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاستغفار والتّوبة:

التّوبة إقلاع عن الذّنوب وندم عليها، والاستغفار طلب محوها

اسْتَغْفَرَ اللّهَ ذنبَه: طَلَبَ منْهُ غَفْرَه[1]، فالاستغفار طلب المغفرة. أمّا التَّوْبَةُ: فهي الرُّجُوعُ منَ الذَّنْبِ[2]. وهي في الشّرع: ترك الذّنب لقبحه، والنّدم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربع، فقد كملت شرائط التّوبة[3]. فالاستغفار نوع من الدّعاء؛ فهو طلب المغفرة، أمّا التّوبة فهي الإقلاع والدّوام على التّرك، وعدم العودة، فالتّوبة أعلى شأنًا، فلذا قدّم ذكر الاستغفار في قوله جلّ شأنه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، فبدأ بالأقلّ كُلفة وجهدًا؛ لأنّ التّوبة تقتضي الإقلاع عن الفعل والتّغيير في السّلوك، فهي ليست كالاستغفار الواقع بصيغة لفظيّة لطلب العفو.

(1) ابن منظور، اللّسان: (غفر).
(2) الجوهري، الصّحاح: (توب).
(3) الرّاغب، المفردات: (توب).

﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ٥٣﴾ [هود: 53]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

بيانُ موقفِ الجاحدين بعد ذكر أسباب الهداية وسبل الرعاية

بعد ما أفصح هود عليه السلام وأبان عن دعوته، ومحّض لهم النّصح على غاية البيان، ما كان جوابهم إلّا أن ردّوا عليه بعد أن أظهر لهم من المعجزات ما مثله آمن عليه البشر: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾[1]، فأجابوا هذه الدّعوة الرّشيدة بالرّفض القاطع؛ فطالبُوا بعد الرّفض أن يأتيهم بالبيّنة، وهذا شديدُ الغرابة؛ كالقاضي الذي يرفض الدّعوى ثمّ يطالب بالدّليل[2]، فالمناسبة بين الآية وما سبقها هو بيان موقف الجاحدين، بعد إرخاء عنان الهداية، وتوفير سبل الرعاية، وتقديم النُّصح تلو النُّصح، لكن مَن ألجم عقلَه عن الحقِّ، لُجِم بلجام الرقِّ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِبَيِّنَةٖ﴾: أصلُ الكلمةِ من البَيْن، وهو انْكِشافُ الشَّيءِ[3]. والبَيِّنَةُ: الأمرُ الواضح، ومنه قوله: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ [الأنعام: 57]، أي: أنا على أمرٍ واضحٍ ظاهرٍ. والبَيِّنَة: الحُجَّة، ومنه: (البَيِّنَةُ على المدَّعي)؛ لأنَّ بها ينكشف الحقّ ويتَّضح. والبَيِّنَةُ: الدَّلالة الواضحة عقليَّة كانت أو حسيَّة[4]. والبيان: التَّوضيحُ والكَشْفُ، يُقالُ: بانَ الشَّيْءُ وأبانَ إذا اتَّضَحَ وانْكَشَفَ. وفُلانٌ أبْيَنُ منْ فُلانٍ؛ أيْ أوْضَحُ كَلامًا منْهُ[5]، وّ"اسْتَبانَ الشّيءُ: أي تبيَّن. واستبانَه: أي: بيَّنه، يتعدّى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/308.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3718.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(4) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بين).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).

ولا يتعدّى، وعلى الوجهين يقرأ قول الله تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٥٥﴾ [الأنعام: 55]، بنصب السّبيل ورفعه"[1]، والمقصود بالبيِّنة في الآية: الحُجَّة الواضحة[2].

2) ﴿بِتَارِكِيٓ﴾: أصلُ التَّركِ: الكفُّ والإعراضُ، يُقالُ: ترَكْتُ الشَّيْءَ: إذا كَفَفْتُ وأعرَضْتُ عنه، ويَأْتي بمعنَى التَّخلِّي عن الشيء[3]. ويُطلَقُ على الإسقاطِ، يُقالُ: تَرَكَ حَقَّهُ، أي: أسقَطَهُ، وهو أيضًا: الجَعْلُ، يُقالُ: تَرَكَهُ يَفعَلُ كذا، أي: جَعَلَهُ يَفْعَلُهُ[4]. ومن معانيه: المفارَقةُ، والهَجْرُ، والإهمالُ، والرَّفْضُ، قال ساعدة بن جُؤَيّة:

شابَ الغُرابُ ولا فُؤادُك تارِكٌ *** ذِكْرَ الغَضُوبِ ولا عِتابُكَ يَعْتِبُ[5]

أراد طال عليك الأمر حتّى كان ما لا يكون أبدًا، وهو شيب الغراب[6]، والمقصود بالتَّرك في الآية: التَّخلِيَةُ عَنِ الشَّيْءِ.

۞ المَعْنى الإجْماليِّ:

عنوانُ الخسارة الإصـرارُ على عبادةِ الأوثان، ورفضُ كلِّ حجَّةٍ وبيان

بعد أن ذكر الله تعالى تبليغ هود عليه السلام قومَه دعوةَ ربِّه، ذكر في هذه الآية ردَّ قومه لتلك الدَّعوة في جحودهم للبيّنة، ثمّ إنذاره لهم؛ إذ قالوا: يا هود، ما جئتنا بحُجّة واضحة تدلُّ على صحَّة دعواك، أنَّك مُرسل من عند الله، وقد قالوا ذلك عنادًا منهم، وجحودًا للحقِّ، وما نحن بتاركي عبادة آلهتنا، بسبب قولك الَّذي لا بيِّنة عليه، وما نحن بمصدقين ما جئت به[7].

(1) نشوان الحميري، شمس العلوم: (اسْتَبانَ).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/51.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ترك).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (ترك).
(5) الخليل، العين: (ترك).
(6) ابن سيده، المحكم: (ترك).
(7) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/49.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّةُ فصلِ مطلع الآية:

الأقوالُ المتبادلةُ في الحوارِ، هي الرّابطُ بين أجزاء الكلام

جاءت الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾، مجرّدةً من العاطف؛ لأنّها ردّ على جواب القوم لقول هود؛ إذ قال لهم: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، فكان الجواب: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ﴾، وهو وارد في سياق الحوار بين الطّرفين، فلا يحتاج للرّبط بالواو العاطفة؛ لأنّ الرّابط واقع بالمحاورة، وردّ الكلام فيما بينهم.

غرضُ النّداء:

الجاحدون عنوانهم الرَّفضُ والإنكار

افتتاح خطابِ عادٍ لنبيِّهم بالنّداء كما في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾، يختلف عن غرضِ نداءِ هود عليه السلام لهم، ذلك أنَّهم أرادوا بالنِّداءِ الزَّجر والرَّدع، فغرضُ ندائهم الاعتراض والإنكار عليه بسببِ ما دعاهم إليه، ويفترق غرضُ النّداء بحسب سياقِه ومقصدِ قائله.

دلالةُ استعمالِ أداةِ النّداء:

نداءُ القريبِ بأداة البعيد كنايةٌ عن انزعاج المتكلِّم

آثر في الخطاب استعمال حرف النّداء (يا)، في قوله تبارك اسمه: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾، وهو أسُّ باب النّداء، لصلاح استعماله للقريب والبعيد، ولمّا كان هود عليه السلام قريبًا منهم، بقرينة المخاطبة والمحاورة، فإنّ حرف النّداء يحتمل أنّه أُريد به معناه الحقيقيّ، بنداء القريب للتّنبيه والاهتمام بمضمون المُقال، كما يحتمل أنّه أريد به نداء البعيد، فيكون المعنى مجازيًّا؛ حيث أنزلوا القريب منزلة البعيد، تنبيهًا على أنّه غافل غفلة من لا يسمع النّداء إلّا بارتفاعِ الصَّوت، وهو كنايةٌ عن انزعاجِهم.

دلالةُ النِّداءِ بالاسم العلم:

النّداءُ بالاسم المجرَّدِ غلظة واستخفاف

حكى النّظم الجليل طريقتهم بخطاب هود عليه السلام، في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ مكتفين باسمه وحسب، دون

صفته كنبيّ أو رسول، إشارةً إلى الاستخفاف به ودعوته، فأظهروا له الغلظة والجفاء[1].

دلالة النّفي:

نفيُ الاقتناع بالبيّنة، يُنزَّل منزلةَ عدم المجيء بها

دلّ النّفي في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾، على انتفاء الوصف لا انتفاء المجيء، وذلك للإشارة إلى أنّ حجّته غير مقنعة، وكأنّ مشكلتهم في البيّنة لا في حاملها، ولكنّ تلاحق صدودهم يشي بغير ذلك، وحكاية القرآن لقولهم جاء على سبيل الاستغراب من كذبهم الوقح، وبيان "فَرْط عنادِهم وعدم اعتدادِهم بما جاءهم من البيّنات الفائتةِ للحصر"[2]. وقد نصّ القرآن على ورود الآيات لهم، في قوله: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ [هود: 59]. "فأوضحوا لكلّ ذي لبّ أنّهم مكابرون لقويم العقل، وصريح النّقل، فهم مفترون، وإنّما نفوا أنّ ما جاءهم به آيات؛ لأنّهم مضوا في طغيانهم بأنّهم رفضوا الاعتراف بأيّ آية، إذا لم تأتِ على وفق أهوائهم ومقترحاتهم، وهذا "دليل على أنّهم تركوا اتّباعه عنادًا، لا أنّهم يعتقدون أنّه لم يأتِ ببيّنة"[3]، وهذا دَيْدَنُ المعاندين، كما كان العرب يقولون للنّبي ﷺ بعد أن أتاهم من الآيات على يده، ما يفوت الحصر: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ﴾ [يونس: 20]"[4].

نكتةُ استعمال ﴿مَا﴾ النّافية:

نفي الآية المُقنِعة، دليلُ البصائر المقنَّعة

آثر النّظم الكريم: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾، النّفي بإدخال ﴿مَا﴾ النّافية، على الفعل الماضي، دون أن يقول: (لم تأتنا)؛ لأنّ نفي الماضي بلفظ ﴿مَا﴾، آكد من نفي الزّمن الماضي بإدخال (لم) على المضارع. ولو قال: (لم تأتِنا) بالمضارع، فإنّ دلالة نفي الكون

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/308.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/217.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/309.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/308.

المستمرّ، ليس لها فائدة في هذا السّياق، فليس الغرض بيان تجدّد وجوده في انتفاء المعرفة، بل المراد هو انتفاء المجيء بها من الأصل، فالنّفي بالماضي، هو نفي من الأصل؛ فلذا كان آكد.

معنى الباءِ ودلالتُها:

نفيُ المجيء ببيّنة تسويغُ العقلِ ومراودةُ القلب

تعلَّق شبهُ الجملة من الجار والمجرور ﴿بِبَيِّنَةٍ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ بالفعل: ﴿جِئۡتَنَا﴾، وهي للإلصاق والتّعليل[1]، أي: ما جئت متلبّسًا ببرهان يدلّنا على صدقك ويعيننا على الإيمان بك، فحكى ادّعاءهم أنّه لم يأتِهم ببيّنة، تعبيرًا عن المضيّ في عنادهم غير معترفين بما جاءهم من معجزات قاطعة[2]، وهذا محض افتراء منهم، لتسويغ كفرهم به.

دلالة التّعبير بالجملة الاسميّة:

كفر عاد محضُ عناد

آثر النّظم الكريم في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ﴾ التّعبير بالجملة الاسميّة دون الفعليّة، فلم يقل: (لا نترك آلِهتِنا عَنْ قَوْلِكَ)؛ لأنّ الجملة الاسميّة آكدُ من الجملة الفعليّة، ويدلّ ذلك على أنّهم معاندون على ما هم عليه، غير زائلين عنه. والمعنى: ما يصح منّا - وصفتنا أنّا ثابتون على ما نحن عليه - أن نصدّقك، وصفتك أنّك لم تأتِ بحجّة بيّنة[3].

دلالةُ النّفي بحرفِ ﴿مَا﴾:

إصرارٌ لا يزول، واستكبارٌ لا يحول

حكى النّظم الكريم أسلوبهم في النّفي القاطع، في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ﴾، فأدخل حرف النّفي ﴿وَمَا﴾ الّتي هي بمعنى ليس، وأكّدوا النّفي بإدخال (الباء) في الخبر للإغراق في النّفي[4]، فدلّ هذا الأسلوب على القطع بعدم

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 12/48.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3718.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/106.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/309.

الإيمان، مهما كان، في قول هود ﷺ من برهان، فهم "ينفون إجابته نفيًا لازمًا قاطعًا لا يتردّدون فيه"[1]. والمعنى ما يصحّ من أمثالنا أن يصدّقوا مثلك مبالغة في نفي تصديقهم[2].

معنى الباءِ ودلالتُها:

تأكيدُ انتفاء التّرك إعلانُ بقاءِ الشِّرك

حكى النّظم الكريم تأكيد بقائهم على دينهم، في قوله تبارك اسمه: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾، فأكّدوا نفي تركهم آلهتهم بالباء؛ للإعلام بأنّهم مُصرُّون على ما هم عليه غيرُ زائلين عنه، أي: ما يصح منّا أن نصدّقك ونحن متّصفون، بأنّنا ثابتون على ما نحن عليه[3].

فائدةُ الإضافةِ:

التّمسُّكُ بموروثِ الآباءِ، هو البرهانُ الظّاهر للأبناءِ

في قوله عزّ ذكره: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا﴾ أضاف الآلهة إلى ضمير المتكلِّم، دون أن يقول: (وما نحن بتاركي الآلهة)، للدّلالة على قوّة الاعتزاز بهذه الآلهة، كأنّهم منها[4] وهي منهم، وفيه إشارة إلى أنّهم لم يتركوها لكونها آلهتهم وورثوها عن آبائهم، وأنّهم يمتازون بها عن سائر الأقوام، كما حكى التّاريخ عن اتّخاذ كلّ قوم آلهة تخصّهم، وهذا شأنُ الأمم الضّالةِ أنّها تتّبع ما وجدت عليه آباءها، وفي حقيقةِ الأمر هم يتّبعون ما تُمليه شهواتُهم، وتفرضُه عصبيّاتُهم، ويكون في مصالحِهم الدُّنيويَّة.

معنى حرف ﴿عَن﴾ ودلالتُه:

الإخبارُ بالانصرافِ عن الدّعوةِ قطعٌ للأملِ في الإيمانِ

استعمل النّظمُ الجليل حرفَ ﴿عَن﴾ في قوله جلّ شأنه حكايةً عن قوم هودٍ ﷺ: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ﴾، للدّلالة على علّة

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3718.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/105.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/106.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3718.

انتفاء تركهم آلهتهم، فجاء بالحرف ﴿عَن﴾ للدّلالة على المجاوزة، أي: لا نترك آلهتنا مجاوزين لها، ولا صادرين عن قولك لنتركها[1].
والمعنى: نفيهم أن يكون كلامُه علّةً لتركهم آلهتهم، فالتّركيب: ﴿عَن قَوۡلِكَ﴾، فيه معنيان: الأوّل بمعنى: (وما نحن بصادرين عن قولك)، والآخر: التّعليل، بمعنى: (وما نحن بِتارِكِي آلِهَتِنا لقولك)[2]، وهذا إعلان منهم على ثبوتهم على إيمانهم وعبادتهم.

دلالةُ التّعبير بشبه الجملة:

مــن أفـحـش الضّلال العمى عــن البـيّـنـة، بسببِ الاستكبارِ على الدَّعوة

حكى النّظم الجليل تقييدَ إيمانهم المنفيّ، بشبه الجملة ﴿لَكَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾، فلم ينفوا إيمانهم على وجه الإطلاق، بأن يقولوا: (وما نحن بمؤمنين)، فيكون المعنى انتفاء إيمانهم كلّيّة، بل جعلوا عدمَ إيقاعهم الإيمان متعلّقًا به، أي: ما نحن بمؤمنين إيمانًا كائنًا لك، فأثبتوا لأنفسهم إيمانًا، وهو ما وجدوا عليه آباءهم، فدلّ على أنّهم نفوا الإيمان به وأثبتوا لأنفسهم إيمانًا غير ما دعاهم إليه، أي: وما نحن لك خاصّة[3] بمؤمنين. وهذا يشير إلى أنّهم ساقوا كفرهم مساق القضيّة الشّخصيّة، ولم ينظروا إلى الأدلّة أو يستمعوا بآذان قلوبهم إلى حججه وبيّناته.

نكتة تقديم الجارّ والمجرور:

تـمـامُ الحسدِ يـظـهـرُ في تـشـخـيـص القضايا وتعيين البلايا

قدّم النّظم الكريم: ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ شبه الجملة ﴿لَكَ﴾ على المسند ﴿بِمُؤۡمِنِينَ﴾ وأصل الكلام أن يقال: (وما نحن بمؤمنين لك)، فقدّم الجارّ والمجرور؛ "للإشارة إلى اختصاص الكفر به وعدم التّسليم"[4]، فجعلوا كفرهم مختصًّا به، إيغالًا منهم في إظهار رفضهم لدعوته. كما أنّ جعل المسند مؤخّرًا في رأس الفاصلة،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/309.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/98.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/309.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3718.

يحافظ على النّسق الصّوتي الذي يُضفي تنبيهًا وتهييجًا للسّمع، لمواصلة الاستماع إلى المنظوم البليغ.

بلاغة التّرقّي:

عناد الجاحدين لا يَنفع معه دليل، ولا يُجدي معه تعليل

ذكر النّظم الكريم أنّ هؤلاء المعاندين، قد ترقّوا في بيان رفضهم، فالتّرقّي جاء بالانتقال في الإعراض من السّيّئ إلى الأسوأ، على نحو ما ذكرته الجمل الثّلاث: ﴿مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ﴾، ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾، فهي أقوال ثلاثة رافضة: أوّلها: ادّعاؤهم أنّه لم يأتِهم بدليل يدلّ على صحّة رسالته، وذلك عناد منهم لعدم اعترافهم بما جاءهم من معجزات، وثانيها: أنّهم ينفون إجابته نفيًا قاطعًا لا رجعة فيه، قائلين: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ﴾، وثالثها: أنّهم لا يؤمنون بالحقّ إذ جاء، ولذا حكى الله تعالى عنهم: ﴿وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾[1].

الفروقُ المُعْجَميَّة:

البيّنة والآية:

الآيـة عـلامـةٌ ثابتة، والبيِّنةُ دليل واضحٌ

الآية: العلامة الظّاهرة[2]، أمّا البيّنة فمن بانَ الشَّيْءُ وأبانَ إذا اتَّضَحَ وانْكَشَفَ[3]. وهي: الدّلالة الواضحة، عقليّة كانت أو محسوسة، والبَيان: الكشف عن الشّيء[4]. وفي الآية الكريمة نفوا المجيء ببيّنة؛ للدّلالة على نفي البرهان والحجّة، فالبيّنة "الحجّة الواضحة في الفصل بين الحقّ والباطل، والبيان: فصل المعنى من غيره، حتّى يظهر للنّفس محرّرًا ممّا سواه"[5].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3718.
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: (الآيات).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(4) الرّاغب، المفردات: (بين).
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/309.

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥﴾ [هود: 54 - 55]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

العلاقة بين التّنكّر لهود ورميه بالجنون، وبين تبرّئه من شركهم ومكرهم

لمّا ذكر النَّظم الكريم تبليغَ هود عليه السلام قومَه دعوةَ ربِّه، وبيَّن ما ردّوا عليه بجحودهم مجيئه ببيِّنة، ورفضهم اتِّباعه والإيمان به؛ أتبعه هنا باتِّهامهم له بأنَّه قد اعتراه بعض آلهتهم بسوء، فاتَّهموا عقله[1]، فترقّوا في حجاجهم من سيّئ إلى أسوأ[2]، ونكران البيِّنة ورسولها، من قلَّة التَّمييز، وسوء التَّقدير[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱعۡتَرَىٰكَ﴾: أصلُ (عرو) يَدُلُّ على ثَباتٍ ومُلازمَةٍ وغِشْيانٍ، يُقال: عَراهُ أمْرٌ؛ إذا غَشيَهُ وأصابَهُ؛ وعَراهُ الأمْرُ يَعْروه: غَشيَهُ وأصابَهُ[4]، وعَراهُ الهَمُّ واعْتَراهُ. والعُرَواءُ: قِرَّةٌ تأخُذُ المَحْمومَ (الرِّعْدَة)[5]، ومنَ البابِ العُرْوَةُ: ما يَتعلَّق بِهِ من عُراهُ. أي: ناحيته، والجَمْعُ عُرًى، وعَرَّيْتُ الشَّيءَ: اتَّخَذْتُ لَهُ عُرْوَةً[6]؛ وقد أوردت المعاجم الفعلين (عرا) و (اعترى) متعدّيَين بمعنى: أصاب وألمَّ، أمّا (اعْتور)؛ فقد ذكرته المعاجم بمعنى (تداول)، وهو يدلُّ على الإصابة المتكرِّرة، فكأنَّ المريض يقوم من مرض،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3718.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/50 - 49.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/309.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزَّبيديُّ، تاج العروس: (عروى، عرو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النِّهاية: (عروى، عرا).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن فارس، والرّاغب، المفردات: (عروى، عرى).

ليقع في مرض آخر[1]، والمقصود من الاعتراء في الآية: النُّزولُ والإصابَةُ، أي: أصابَكَ بِسوءٍ[2].

2) ﴿بِسُوٓءٍ﴾: أَصْلُ السّوءِ: القُبْحُ، وضِدُّه: الحُسْنُ[3]. والسّوءُ: الشَّرُّ والفَسادُ، يُقالُ: عَملَ سوءًا، أي: شَرًّا وفَسادًا[4]. والسّوءُ أيضًا: الحُزْنُ والغَمُّ، ويأتي بمعنى الضَّرَرِ والأذى، كقولِهم: بَلَغَهُ السّوءُ، أي: الضُّرُّ، وكُلُّ ما يُكْرَهُ فهو سوءٌ[5]، والإساءَةُ: فِعْلُ الشَّرِّ وما يُكْرَهُ، ومن مَعانيه أيضًا: المُنْكَرُ والفُجورُ والبَلاءُ والعَذابُ، والشَّتْمُ والشِّدَّةُ والقَتْلُ[6]. والمرادُ بالسّوءِ في الآية: الضُّرُّ، منْ ساءَهُ سَوْءًا.

3) ﴿وَٱشْهَدُوٓاْ﴾: أَصْلُ شَهِدَ: يدلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإعْلامٍ[7]، يُقالُ: شَهِدَ الشَيءَ: إذا حَضَرَهُ وعايَنَهُ، وتُطْلَقُ بـ معنى الإخْبارِ والإعْلام، يُقالُ: شَهِدَ بِالأَمْرِ: إذا أَخْبَرَ بِهِ، وأَعْلَمَ غَيْرَهُ بِهِ[8]، والشُّهودُ والشَّهادَةُ: الحضور مع المشاهدة، إمّا بالبَصَر، وإمّا بالبَصيرة، وقد يُقال للحُضور مُفردًا، قال الله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [السّجدة: 6]، لكن الشُّهود بالحضور المجرَّد أولَى، والشَّهادة مع المشاهدة أولى، والشَّهيدُ: الشّاهِدُ، وهو المُؤَيِّدُ والمُصَدِّقُ لِدَعْوى مُدَّعٍ[9]، وشهد الرجل يشهد شهادة، فهو شاهد وشهيد، والأشهاد: جمع شَهْد، مثل صَحْب وأصحاب، والرَّجل شاهد وشهيد، وقد جمعوا شهيدًا على شهداء، ويقال: فلانة شاهدي، مثل الذّكر سَواء"[10]، والشَّهادة المقصودُ بها في الآية: الإخبار والإعلام.

4) ﴿بَرِيٓءٌ﴾: أَصْلُ (برأ): يَدُلُّ على التَّباعُد مِنَ الشَّيْءِ ومُزايَلَته، ومِنْ ذلكَ البُرْءُ: وهو السَّلامَةُ مِنَ السُّقْم، يُقالُ: بَرِئْتُ، وبَرَأْتُ[11]، وتُطْلَقُ البَراءَةُ على السَّلامَةِ من العَيْبِ،

(1) أحمد مختار عمر، معجم الصّواب اللّغويّ: (عور).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/98.
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سوأ).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (سوأ).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (سوأ).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سوأ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(8) نشوان الحميري، شمس العلوم: (شهد).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/152.
(10) ابن دريد، جمهرة اللُّغة: (شهد).
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برأ).

ومنه البُرْءُ، وهو: الشِّفاءُ والسَّلامَةُ من المَرَضِ[1]. البَراءَةُ: التَّخَلُّصُ من الشَّيْءِ، والخُروجُ منه والمفارَقَةُ له، يُقال: بَرِئَ من الدَّيْنِ، يَبْرَأ بَراءَةً: إذا تَخَلَّصَ منْهُ[2]. والبَراءَةُ أيضًا: التَّخَلّي والتَّرْكُ، كقولك: بَرِئتُ من الشَّيْءِ، أي: تَخَلَّيْتُ عنه، وتَرَكْتُهُ[3]، والمقصود من البراءة في الآية: التَّخَلّي والتَّرْكُ.

5) ﴿فَكِيدُونِى﴾: أصلُ (كَيَدَ): يَدُلُّ عَلَى مُعالَجَةٍ لِشَيْءٍ بِشِدَّةٍ، وكُلُّ شَيْءٍ تُعالِجُهُ؛ فأنْتَ تَكيدُهُ[4]. هذا هو الأصْلُ في البابِ، ثُمَّ يُسَمّونَ المَكْرَ كَيْدًا، قال اللّه تعالَى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًاۖ﴾ [الطور: 42]. ويَقولونَ: هو يَكيدُ بِنَفْسِهِ، أي: يَجودُ بها، كأنَّهُ يُعالِجُها لتَخْرُجَ، والكَيْدُ: صِياحُ الغُرابِ بِجَهْدٍ[5]، والكَيْدُ: أنْ يُخْرِجَ الزَّنْدُ النّارَ بِبُطْءٍ وشِدَّةٍ، والمقصودُ بالكَيْدِ في الآية: إخفاءُ عَمَلٍ يَضُرُّ المَكيدَ.

6) ﴿لَا تُنظِرُونِ﴾: أصلُ الإنْظارِ: تَأمُّل الشَّيْءِ ومُعايَنَتُهُ، ثُمَّ يُسْتعارُ، ويُتَّسَعُ فيه، فَيُقالُ: نَظَرْتُ إلى الشَّيءِ أنْظُرُ إليه؛ إذا عايَنْتَهُ، ويَقولونَ: نَظَرْتُهُ، أي: انْتَظَرْتُهُ، وسُمّيَ الإمْهالُ إنْظارًا؛ لأنَّهُ يَنْظُرُ إلى الوقْتِ الَّذي يَأْتي فيه[6]، وضِدُّهُ: التَّعْجيلُ، ويأتي الإنْظارُ بِمَعْنَى: التَّأْخيرِ والتَّأْجيلِ[7]، والاسْتِنْظارُ: طَلَبُ الإنْظارِ، واسْتَنْظَرَ المُشْتَري فُلانًا: سَأَلَهُ الإنْظارَ، والتَّنَظُّرُ: تَوقُّعُ الشَّيْءِ[8]. والمقصود بالإنظار في الآية: الإمهال والتَّأجيل، أي: لا تؤجِّلون[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لقد بالَغ القومُ في الردِّ على هودٍ عليه السلام فقالوا: ما نجدُ من قول نقوله فيك، إلّا أنَّ بعض آلهتنا أصابك بجنون أو خَبَل - وهو العَتَهُ والبَلَهُ - لإنكارك لها وصدِّك إيّانا عنها، قال لهم: إنّي أُشهِدُ اللّه على ما أقولُ، واشهَدوا أنَّني بريءٌ ممّا تُشرِكونَ من دونِ اللّه من الأندادِ والأصنام، وها أنذا في مواجهتكم، فانضمّوا إلى آلهتكم، وحاربوني بما شِئتم

(1) ابن عباد، المحيط في اللغة: (برأ).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (برأ).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (برأ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (كيد).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (كيد).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نظر).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/19.
(8) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (نظر).
(9) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (نظر)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/298.

من ألوان المحاربة والأذى، بدون تريُّث أو إمهال، فإنّي لن أكفَّ عن الجهر بدعوتي، ولن أتراجَع عن احتقار الباطل الذي أنتم عليه، وهذا من أعظم الآيات، أن يواجه بهذا الكلام رَجُلٌ واحدٌ أمَّةً عِطاشًا إلى إراقة دمه، يرمونه عن قوسٍ واحدة، وذلك لثقته بربِّه، وأنَّه يعصمه منهم، فلا تنشب فيه مخالبهم(1).

الـثَّـبـاتُ على الموقف مع كَثْرَةِ الـعـداوات، من كمال الثِّقة بالله في المُلمّات

وترشد الآية الكريمةُ إلى أنَّ مَن طبع اللّه على قلبه يجعلُ أصدقَ الخلقِ الذي جاء بأحق الحق وهو نبيُّ اللّه هود ﷺ بهذه المرتبة، التي يستحيي العاقلُ من حكايتها عنهم، لولا أنَّ اللّه حكاها عنهم، وإلى أنَّ خطابَ النبيِّ هود ﷺ لقومه بهذا الأُسلوب الذي بلغ الغاية في التَّحدّي والتحقير لهم ولآلهتهم، والإساءةِ لكبريائهم وجبروتهم وحميَّتهم وعصبيتهم فيه برهانٌ واضحٌ على ثقته ﷺ بتأْييد ربِّه وعنايته به ونصره له، وعصمته من المكاره، وهو دليلٌ قاطعٌ على أنَّه مرسل من اللّه، حيث أعجزهم عن الإضرار به والقضاء على دينه(2).

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف البيانيّ في: ﴿إِن نَّقُولُ﴾:

تـعـلـيـق عـدم الاتِّباع بنسبة ما جاء به هود إلى العَتَهِ والجنون

الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾، استئنافيَّة استئنافًا بيانيًّا، وفائدتها أنَّها مقرِّرة لقولهم السّابق: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣﴾ [هود: 53]، "فإنَّ اعتقادهم بكونه ﷺ، كما قالوا - وحاشاه عن ذلك - يوجب عدمَ الاعتدادِ بقوله، وعدَّه من قبيل الخُرافاتِ، فضلًا عن التَّصديق والعملِ بمقتضاه، يعنون إنّا لا نعُدُّ كلامك إلّا من قبيلِ ما

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/446، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/403، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/97، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/226.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 228، ومجمع البحوث الإسلامية، التفسير الوسيط: 4/208.

لا يحتمل الصِّدقَ والكذِبَ من الهذَيانات الصّادرةِ عن المجانين، فكيف نصدِّقه، ونؤمن به، ونعمل بموجبه؟"[1].

دلالةُ النَّفي في ﴿إِن نَّقُولُ﴾:

تمسُّكهم بعقيدتهم الفاسدة قادهم إلى النَّفي المؤكَّد

استعمل النَّظم الجليل في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾، أداة النَّفي ﴿إِن﴾ دون (ما)؛ لأنَّ الموقف محتاج إلى أقوى المؤكِّدات، و ﴿إِن﴾ أقوى من (ما)، وقد كثر استعمالها في الحصر مع ﴿إِلَّا﴾ لما فيها من قوَّة في النَّفي، وقد احتاجوا إلى النَّفي القوي؛ لأنَّ ما جاءهم به من الحُجج ووضوح الدَّعوة وسلامتها اضطرَّهم إلى سوق كلامهم مؤكَّدًا.

معنى الفعل المضارع ﴿نَّقُولُ﴾:

إجماع القول وإشاعة التُّهمة، منهج المكذِّبين في الإفك والاختلاق

في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾، ذكر النَّظم الكريم أنَّهم عبَّروا بالفعل المضارع بصيغة الجمع، فالجمع للدِّلالة على أنَّ قولهم ذلك صادر عن رأيهم جميعًا، وأنَّهم بجملتهم ناصبوه العداء، والفعل المضارع للدَّلالة على أنَّ قولهم ذلك قد قيل مرارًا، ودأبوا على إسماعه له، بحيث أشاعوه بينهم، فصار يتجدَّد كلَّ زمان، وهذا يدلُّ على فحشهم في الحوار وجسارتهم على الافتراء.

وجهُ الاستثناء المفرَّغ في الآية:

الإجماع على قول واحد، بيانٌ مشترك لموقفهم الزّائغ المعاند

دخل حرف النَّفي ﴿إِن﴾ على فعل القول، فنفت جميع القول إلّا قولًا واحدًا، وهو قولهم: ﴿ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾، والتَّقدير ما نقول قولًا إلّا هذه المقالة، "أي: ما نقول إلّا أنَّه أصابك ﴿بَعْضُ ءَالِهَتِنَا﴾ الَّتي تعيبها، وتسفِّه رأينا في عبادتها، ﴿بِسُوٓءٍ﴾ بجنون حتّى نشأ عنه ما تقوله لنا، وتكرِّره علينا من التَّنفير عنها، والاستثناء مفرَّغ"[2]، وفي هذه الحالة تعرب ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، ويُعرب الواقع

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/217.
(2) القنوجيّ، فتح البيان: 6/201.

بعدها بحسب موقعه من الجملة، وكأنَّ ﴿إِلَّا﴾ غير موجودة، فجملة اعتراك معمول لـ ﴿نَّقُولُ﴾، فأظهر قوم هودٍ مقالتهم كتصريح ختاميٍّ يبيّنون به موقفهم الَّذي تبنَّوه فيه، وهو نسبته للجنون.

سرُّ التقديم في ﴿ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا﴾:

إلصاق الفعل بضمير المفعول أدلُّ على إيقاع الفعل به

قدَّم النَّظم في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا﴾ المفعول به على الفاعل للاهتمام، لكونه هو الغاية من الإخبار، كما أنَّ تأخير الفاعل فيه تفخيم اعتبارًا بمراد المتكلِّم لا بواقع الأمر، فهم أخَّروا ذكر آلهتهم تشويقًا لبيان من قام بالفعل، كما أنَّ في ذلك اتِّباعًا لبنية التَّركيب العربيِّ، بترجيح إيصال الضَّمير بالفعل ما أمكن طلبًا للاختصار، فإنَّما وضع الضَّمير استعاضةً به عن الاسم الظّاهر للإيجاز، كما أنَّ اتِّصال الفعل بالمفعول، يشير إلى قوَّة التَّحقُّق وتأكيد بلوغه له.

دلالةُ التَّعبير بلفظ ﴿بَعۡضُ﴾:

الاغتناء بذكر البعض، للتَّدليل على قوَّة آلهتهم المزعومة

حكى النَّظم الجليل طريقتهم بتفخيم شأن آلهتهم في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾ فجعلوا مناطَ الحكم قائمًا ببعض الآلهة، تهديدًا لهود، وتنبيهًا على أنَّه جُنَّ بفعل بعض الآلهة، وفي ذلك إيماء له ولغيره بأنَّه لو تصدّى له جميعُ الآلهة؛ لمحقوه محقًا، ولدكّوه دكًّا كما زعموا[1].

معنى الجارِّ والمجرور ﴿بِسُوٓءٖۗ﴾:

بزعمهم السّوء ملابِسٌ لهود، بحيث لا ينفكُّ عنه، ولا يَعْدُوه

دلَّت باء الجرِّ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾ على الملابسة، أي: "أصابك السُّوء، ولا شكَّ أنَّهم يعنون أنَّ آلهتهم أصابته بمسٍّ من قبل أن يقوم بدعوة رفض عبادتها لسبب آخر"[2]، والمعنى: أنَّك شَتَمْتَ آلهتنا، فجعلتكَ مجنونًا،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/98.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/98.

وأفسدت عقلك[1]، والغريب أن جعلوا من لا عقل له يتصرَّف في صاحب العقل، وذلك أمر يجانب المنطق، وينأى عن الصّواب.

غرض التَّنكير في لفظ ﴿بِسُوٓءٖ﴾:

تنكير السّوء يدلُّ على أنَّه من بعض الآلهة، وسوء من لا يقدر لا يضرُّ

عبَّر النَّظم الجليل في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾، بصيغة التَّنكير في لفظ ﴿بِسُوٓءٖۗ﴾، لِما في التَّنكير من التَّعميم، فهم لم يبالغوا في ذلك، لكونهم نسبوا إصابته بالجنون إلى بعض آلِهَتِهِم وحسب[2]، بل خاطبوا نبيَّهم مؤكدين: "إنَّ هذا القول قد أصابك، ورماك بَعۡضُ آلِهَتِنا بِسوءٍ من جنون وخفَّة عقل وخبط واختلال، وقد كنتَ تسيءُ الأدب معهم، وتذْكُرهم وتهجوهم بما لا يليق بشأنهم، لذلك أصابوك، واستخفّوا عقلك"[3].

الغرض من الخبر في الاتِّهام بالجنون:

النِّسبة إلى الجنون، تقوِّض مصداقيَّة الرِّسالة من الأساس

قوله جلَّ شأنه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ﴾، دلَّ الخبرُ على إرادتهم نفي مقام الرِّسالة عن الرَّسول، بالتُّهمة المنسوبة إليه، ومنه يكون الطَّعن في رسالته؛ إذ لا يُقبَلُ وعظٌ، ولا يرتضى نصحٌ من مجنون، فنسبوا "ما صدر منه من دعائهم إلى الله، وإفراده بالألوهيَّة إلى الخَبَل والجنون، وأنَّ ذلك ممّا اعتراه به بعض آلهتهم، لكونه سبَّها، وحرَّض على تركها، ودعا إلى ترك عبادتها، فجعلتْه يتكلَّم بما يتكلَّم به المجانين، كما قالت قريش: ﴿مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ١٤﴾ [الدخان: 14]"[4].

دلالة الفعل ﴿قَالَ﴾ ومقوله في الآية:

مقابلة تهويلهم شأن آلهتهم بإعلان هود براءته منها تحطيمًا لقداستها

ذكر النَّظم الجليل - في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ - ردَّ هودٍ عليه السلام على قومه؛ لمّا رمَوْه

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/507.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/217.
(3) النخجواني، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: 1/356.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/167.

بالجنون، بأنَّ آلهتهم قد مسَّته، بجوابه لهم على طريق الحكاية[1]، فلمّا "كان الطَّبع البشريُّ قاضيًا بأنَّ الإنسان يخشى ممَّن مسَّه بسوء، وهو يتوهَّم أنَّه قادر على ضرره، فلا يواجِهُه بما يكره، وكان قولهم مُحرِّكًا للسّامع إلى الاستعلام عن جوابه لهم؛ استأنف سبحانه الإخبار عنه، بقوله: ﴿قَالَ﴾، نافيًا لما قالوا، مبيِّنًا أنَّ آلهتهم لا شيء"[2].

علَّة التعبير بعدم التّسوية في فِعْلَي الشّهادة:

إشـهـاد الله تعالى يعلو على كلِّ إشهاد، وإن تساوى صيغةً مع غيره

قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ﴾، عدل النَّظم الكريم عن التَّسوية بين صيغة الشَّهادتين، فلم يقل: (إنّي أشهد الله، وأشهدكم)؛ لأنَّ شهادة الله تعظيم، وشهادتهم تهوين وتحقير؛ لأنَّهم ليسوا أهلًا للشَّهادة، وإنَّما قال: اشهدوا؛ أي: اعلموا: أنّي بريء ممّا تشركون[3]. وشتّان ما بين الشَّهادتين، فلا يستويان في القصد ولا في الصيغة، فـ "إشهاد الله على البراءة من الشِّرك، إشهادٌ صحيح ثابت، في معنى تثبيت التَّوحيد، وشدِّ معاقده، وأمّا إشهادهم، فما هو إلّا تهاون بدينهم ودلالة على قلَّة المبالاة بهم فحسب، فعدل به عن لفظ الأوَّل لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر بالشَّهادة"[4].

دلالة العطف بين الخبر والإنشاء في الآية:

عطف الإنشاء على الخبر، غايته الإيضاح والبيان

وصل النَّظم الجليل في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، بين الجملتين؛ لأنَّهما من متكلِّم واحد، في سياق واحد، لغرض واحد، ولو فصل بينهما؛ لاختلَّ المعنى، لكون الأولى جملة خبريَّةً، وهي قوله: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ﴾،

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/49.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/310.

(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 12/49.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/403 - 404.

والثّانية إنشائيَّة، وهي: ﴿وَٱشۡهَدُوٓاْ﴾، فعطف الإشهادين بالبراءة؛ للدَّلالة على أنَّه أشهد الجميع بالبراءة من آلهتهم، ولو فصل بينهما، بأن قال: (أُشهِدُ اللّه، اشهدوا)؛ لكان إشهاد اللّه تعالى بلا مشهود عليه، فيختلُّ الكلام، ويتضاحل المعنى؛ فكان الوصل واجبًا، فعطف الإشهادين، لإعلان البراءة منهم، ومن شركائهم، وهو إعلان فيه من الجرأة، ما يدلُّ على صدق ما أتى به، حيث لا يطيقه إلّا من اعتمد على ربِّه بالكلّيَّة؛ ليقينه بأنَّ اللّه يقيه، على قاعدة: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ﴾ [آل عمران: 160].

معنى فعل الأمر في: ﴿وَٱشۡهَدُوٓاْ﴾:

الخطاب بالأمر دون الخبر، يهوِّن من دينهم، ويسفِّه تهديدهم

عبَّر عن طلبه الشَّهادة منهم بفعل الأمر، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، للتَّهوين من تهديداتهم، ومن غضب الآلهة المزعومة عليه، هذا الإشهاد لهم بالمجاهرة بالبراءة من الشِّرك والشُّركاء، من أكبر المعجزات لهم، حيث بقوا عاجزين عن المَساس به، وهم يريدون، ولا يقدرون، فعبَّر بصيغة الأمر، استهانةً بدينهم، وهو مراده في هذا المقام، كما أنَّه عدل إلى صيغة الأمر عن صيغة الخبر، للتَّمييز بين خطاب اللّه تعالى، وخطابه لهم، فعبَّر عن خطاب اللّه تعالى بصيغة الخبر؛ لأنَّها أجلُّ وأشرف وأوفر للمخاطَب من صيغة الأمر[1].

دلالة الحرف (ما) بين المصدريّة والموصوليّة:

البراءة من الشرك كائنة من الشِّرك فعلًا، ومن الآلهة ذاتًا

يحتمل في ﴿مِّمَّا﴾ في قوله جل شأنه: ﴿بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، أن تكون مصدريَّة، أو موصولة، فيكون التَّقدير على اعتبار أنَّها مصدريَّة: "إنّي بريء من شرككم، فكلمة ﴿مِّمَّا﴾ وما بعدها من الفعل مصدر"[2]، والموصولة بمعنى الذي، على تقدير: (بريءٌ من

(1) صافي، الجدول: 6/294.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3719.

إشراككم آلهة من دونه)، أو: (بريءٌ من الذين تشركون)[1]، والنَّصُّ يحتملهما، أي: إنَّه تبرَّأ من الشِّرك أن يفعله فعلًا، ومن الآلهة ذاتًا.

بلاغة الحذف في: ﴿مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾:

الحذف إيجاز بالملفوظ، وإطلاق للمضمون، يتجلّى به المعنى

حذف النَّظم الكريم متعلّقَ فعلِ الإشراك، فأطلق الشِّرك في قوله جل شأنه: ﴿وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، ولم يقل: (ممّا تُشْرِكونَ بِهِ)، فجمع نصُّ الآية بين معنى الشِّرك والمُشْرَك به، فعمَّم، ولم يخصِّص، وهو توسُّع في المعنى بليغ ومفيد، فكان الحذف للإطلاقِ والإيجاز، وحذْفُ المتعلِّق يعطي مجالًا لاتِّساع الدِّلالة على براءة هود ممّا أشركه قومه لله في الاعتقاد والعبادة؛ لأنَّ في ذلك مخالفةً لأوامر الله، ومجانفة للمنهج الَّذي جاء به الرَّسول بأمر من الله، بتوجيه من جلاله الأعلى.

دلالة الجارِّ والمجرور ﴿مِن دُونِهِۦۖ﴾:

كلُّ مَن أشرك بالله تعالى، فهو دونٌ، لا يصلح إلهًا

جاء الجارُّ والمجرور في صدر الآية في قوله جل شأنه: ﴿مِن دُونِهِۦۖ﴾، نعتًا متعلِّقًا بمفعول محذوف للفعل ﴿تُشۡرِكُونَ﴾، والتَّقدير: (تشركون آلهة من دونه)، وساغ وقوع شبه الجملة في صدر الآية، لقوَّة الارتباط برأس الآية قبله، فهو ارتباط تركيبيٌّ نحويٌّ، متحقِّق بتعلُّق شبه الجملة بالفعل قبلها، والمعنى: "من إشراككم من دون الله، من غير أن ينزِّل به سلطانًا"[2]، وهذا السّياق يشبه قوله تعالى: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ﴾ [الأعراف: 71]، وقوله تعالى: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ [يوسف: 40]، وقوله تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ [النّجم: 23] وهو جواب "أجاب به عن مقالتهم الحمقاءِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/168.
(2) القنّوجيّ، فتح البيان: 6/201.

المبنيَّةِ على اعتقاد كونِ آلهتِهم ممّا يضُرُّ أو ينفع، وأنَّها بمعزل من ذلك"[1]، وأمّا كلُّ ما يُنسب إلى الألوهيَّة من غير اللّه، فقد عبَّر عنه بلفظ (دون) لدونيَّته حقيقة ومجازًا، وجاء لفظ (دون) للدِّلالة على انحطاط رتبة أولئك الشُّركاء.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَكِيدُونِي﴾:

طلبُ كيد الآلهة بعد البراءة منها، يظهر عجزها وتهافتها

افتتح النَّظم الكريم قوله جلَّ شأنه: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾، بـ (الفاء) الدّالَّة على التَّفريع، لتفريع الأمر، على زعمهم في قدرة الآلهة على إلحاق الضَّرر، ببذل الوسع مع آلهتهم، لمزاولة الكيد والإسراع به، أي: فكيدوني زمانًا أعجل أوقات ما تفعلون[2]، "وهذا من أعظم المعجزات، فإنَّه ﷺ كان رجلًا مفرَدًا بين الجمِّ الغفير، والجمعِ الكثير، من عُتاة عادٍ الغلاظِ الشِّدادِ، وقد خاطبهم بما خاطبهم، وحقَّرهم، وحقَّرَ آلهتَهم، وهيَّجهم على مباشرة مبادئ المضادَّة والمضارَّة، وحثَّهم على التَّصدّي لأسباب المُعازَّة والمعارَّة، فلم يقدروا على مباشرة شيءٍ ممّا كلفوه، وظهر عجزُهم عن ذلك ظهورًا بيّنًا"[3]، فلمّا أعلن براءته ممّا يعبدون؛ أتبعه بأمرهم بالاحتشاد والتَّعاون، في إيصال الكيد إليه دون إمهال[4]، فرتَّب حثَّهم على الكيد به على براءته من آلهتهم، إيغالًا منه في إظهار عجز هذه الآلهة الَّتي زعموا أنَّها أصابته بسوء.

سرُّ إيثار التَّعبير بلفظ (الكيد):

الكيد أشدُّ من المكر؛ لأنَّه مكرٌ وخبثٌ وإضرارٌ بالمكيد به

آثر النَّظم الكريم في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ التَّعبير بلفظ الكيد؛ لما في الكيد من دلالة على الإضرار، فهو مكر مع خُبث، فالكَيْدُ: المَضرَّة، والمَكْرُ: إخفاءُ الكَيْدِ وإيصالُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/218.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/218، وينظر: الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/112.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/218.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/108.

المَضَرَّة، وكادَه: أرادَه بِسوءٍ، وبه فُسِّرَ قولُه تَعالَى: ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء: 57][1]، فيلاحظ أن لا خفاء في الكيد، بل هو مكر خبيث، الغرضُ منه إيصال الضَّرر إلى المكيد به، والمعنى "فكيدوني مجتمعين غير متفرِّقين، ودبِّروا لي ما هو إيذاء وكيد وتدبير خبيث لي"[2]، "وهو لم يَقُلْ: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾، إلّا إذا كان قد آوى إلى ركن شديد، وإنَّه ينطق بالكلمة عن إيمان، بأنَّ الحقَّ سبحانه سيهبه قدرةً على نفاذ الكلمة"[3].

نكتةُ إثبات ياء المتكلِّم في: ﴿فَكِيدُونِي﴾:

أثبت النَّظم الكريم ياء المتكلِّم في قوله جلَّ شأنه: ﴿مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي﴾، حيث يتحدَّث السّياق عن أمر كلّيٍّ وجامع، وقد ذكر السّياق لفظة ﴿جَمِيعًا﴾ في قوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾، وهذا يعني: أن يأتي الكيد من أطراف كثيرة مجتمعة معًا، أي: كيد من هذا، وكيد من ذاك، ولذلك أُثبتت الياء؛ لأنَّ سياق الكيد سياقٌ كلّيٌّ جمعيٌّ، ولا خلاف في إثبات الياء فيها وصلًا ووقفًا، أمّا في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥﴾ [الأعراف: 195]، وقوله: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ٣٩﴾ [المرسلات: 39]، فلم تثبت الياء في رسم المصاحف؛ لأنَّه لم يذكر قيد ﴿جَمِيعًا﴾ كما هو في سورة هود، أمّا في القراءة؛ ففي موضع الأعراف وجهان: إثبات الياء وصلًا لكلٍّ من أبي عمرو وأبي جعفر والدّاجوني عن هشام، وإثباتها في الحالين لكلٍّ من يعقوب والحُلْواني عن هشام[4]، وفي موضع المرسلات، أثبتها يعقوبُ وحده وصلًا ووقفًا[5].

أثبت الياء لمناسبة كثرة الجمع، والتَّعبير عن التَّكتُّل والتَّكاتف السَّلبيّ

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: 9/124.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3719.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6508.
(4) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/275.
(5) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/397.

إعـلان تـحـدّي هــودٍ لـقـومـه مـع استـنـاده إلى حماية الله وعونه

دلالة فعل الأمر ﴿فَكِيدُونِي﴾:

فعل الأمر في قوله جلَّ شأنه: ﴿مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾، مستعمل في الإباحة، بالنِّسبة للأصنام، وبالنِّسبة لقومه، فهو ليس أمرًا على الوجوب، بل كان يعرض لهم عرضًا، أباح لهم أن يفعلوا ما يريدون لإضراره، فطلبه إليهم يدلُّ على الاستنكار والتحدّي لفعلهم، ورفضِه لتهديدهم، وتأكيده أنه لا يخافهم، ولا يخشى مكرهم، وأنَّهم لن يستطيعوا إيذاءَه إلّا بإذن اللّه، كقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ ٣٩﴾ [المرسلات: 39].

تحدّي هود قوّةَ الآلـهـة، دليـلٌ عـلـى عـجـزهـا وتهافتها

بلاغة الكناية في الآية الكريمة:

عبَّر النَّظم الكريم عن تحدّيه قومَه بقوله جلَّ شأنه: ﴿مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾، فهو كناية عن التَّعجيز والتَّحدّي، لنفي قدرة آلهتهم عن إلحاق الضَّرر به، "فإنَّهم لمّا سمّوها آلهة، وأثبتوا لها الضَّرر؛ نفى هو بقوله: ﴿أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، كونَهم آلهةً رأسًا، ثمَّ نفى الضَّرر، بقوله: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾، على أبلغ وجه، كما قال: لا أخاف فسادكم ومضرَّتكم، فكيف بالجماد الذي هو أوهن من بيت العنكبوت؟"[1]، فكان هذا أظهر في الإعجاز؛ لأنَّه أباح لهم أن يكيدوه، فلم يقدروا، مع أنَّ الجماعة إذا اجتمعوا على الواحد؛ يغلبونه من غير كيد، فكان أحرى أن يغلبوه مع الكيد[2]، ولكنَّه عبَّر عن "عدم الخوف منهم ومن آلهتهم؛ إذ وكَّل أمر حفظه وخذلانهم، إلى ربِّه وربِّهم، ومالك أمره وأمرهم، المتصرِّف في كلِّ ما دبَّ على وجه الأرض، والمسخَّر له، وهو سبحانه مطَّلع على أمور العباد، مجازٍ لهم بالثَّواب والعقاب، كافٍ لمن اعتصم به، وهو لا يسلِّط أهل الباطل من أعدائه، على أهل الحقِّ من رسله، ولا يفوته ظالم"[3].

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/112.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/360.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/50.

نكتة استعمال لفظ ﴿جَمِيعٗا﴾:

قوّة التّحدّي تنبع من قوّة الثّقة بالاعتماد على مكوّن الأسباب

استعمل النَّظم الجليل في قوله جلَّ شأنه: ﴿مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا﴾ لفظ ﴿جَمِيعٗا﴾، فدعاهم إلى الاحتشاد، وبذل الجهد منهم جميعًا، لإيصال الكيد إليه دون إمهال، وهو غاية التَّحدّي والمواجهة؛ تأكيدًا لثقته وقوَّة اعتماده على ربِّ العباد، فدعاهم "أن يجتمعوا على الكيد في إهلاكه من غير إنظار حتّى إذا اجتهدوا فيه، ورأوا أنَّهم عجزوا عن آخرهم، وهم الأقوياء الأشدّاء أن يضرّوه، لم تبقَ لهم شبهةٌ، بأنَّ آلهتهم التي هي جماد لا تضرُّ ولا تنفع، لا تتمكَّن من إضراره انتقامًا منه، وهذا من جملة معجزاته؛ فإنَّ مواجهة الواحد، الجمَّ الغفيرَ من الجبابرة الفُتّاك العِطاش إلى إراقة دمه بهذا الكلام ليس إلّا لثقتِه باللّه، وتثبُّطَهم عن إضراره ليس إلّا بعصمته إيّاه؛ ولذلك عقَّبه بقوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ﴾ تقريرًا له"[1].

معنى ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾:

طول مدّة الإعداد والكيد، إيغالٌ منه في التّحدّي بلا قيد

آثر النَّظمُ الكريم استعمال حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾، في قوله جل شأنه: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾، الدالّ على التّراخي الرُّتبي؛ لإفادته حثَّهم بأن يكيدوا غايةَ الكيد وأبعدَهُ، وأن يدبِّروا أبعد التَّدبير[2]؛ استغراقًا لجهودهم، فإنَّ طول زمان الكيد مظنَّةُ إتقانه واستفراغ الجهود فيه، "أي: لا تمهلوني، بل عاجلوني، واصنعوا ما بدا لكم، واحتالوا في هلاكي، وفي هذا من إظهار عدم المبالاة بهم وبأصنامهم الَّتي يعبدونها ما يصكُّ مسامعهم، ويوضِّح عجزهم، وعدم قدرتهم على شيء، وهذا من معجزاته الباهرة"[3].

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/138.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3719.

(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 6/201.

نكتة حذف ياء المتكلّم في: ﴿لَا تُنظِرُونِ﴾:

أورد النَّظم البليغ اللَّفظ ﴿لَا تُنظِرُونِ﴾، في قوله جل شأنه: ﴿مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾، بغير ياء المتكلِّم في رسم المصاحف[1]؛ لأنَّ الإنظار المنهيَّ بـ (لا) مطلوب في وقت جزئيٍّ، أو أقلَّ من جزئيٍّ، أو معدوم، فحُذفت الياء؛ لبيان قلَّة وقت الإنظار أو عدمه، بينما رسمت الياء، في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦﴾ [الحجر: 36]، مثبتة في الرَّسم؛ لأنَّ الإنظار المطلوب، هو إنظار ممتدٌّ إلى يوم يبعثون، وسياقه هو سياقٌ كلّيٌّ.

حذف الضَّمير لاختصار زمان الإنظار، ممّا يظهر عدم مبالاته بالأخطار

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

(بريء) و(براء):

أهلُ الحجاز يقولون: (أنا بَراءٌ منْكَ)، وغيرُهم يقول: (أنا بَريءٌ منْكَ)، وجاء قوله تعالى: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦﴾ [الزّخرف: 26] على لغة أهل الحجاز، وجاء في مواضع أخرى: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ﴾ [الأنعام: 78] على لغة غيرهم، فمَنْ قال: أنا بَراءٌ لم يُثَنِّ، ولم يُؤَنِّث، ويقولون: نَحْنُ البراءُ والخلاءُ منْ هَذا، ومَنْ قال: بَريءٌ، قالَ: بريئانِ وبريئونَ، وبُرَآءُ على وزن بُرَعاءَ، وبُراءٌ بِلا أجْرٍ نَحْو بُراعٍ، وبِراءٌ مثْلُ بِراعٍ[2]، ولفظ ﴿بَرَآءٞ﴾ مصدر، ومن ثم فهو لا يصرف على التَّثنيَة والجمع، بل يلزم حالة الإفراد، على أحوال التَّصريف كلِّها بنفس الصّيغة ﴿بَرَآءٞ﴾، دون تغيير، تثنيَةً وجمعًا وتأنيثًا وتذكيرًا، وأمّا ﴿بَرِيٓءٞ﴾؛ فهي صفة مشبَّهة باسم الفاعل، مثل سميع وشهيد، بمعنى: سامع وشاهد، وقوله تعالى: ﴿أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، يدلُّ على الإخبار عن نقاوة ذمَّته، وبراءة ساحته، من كلِّ لون من ألوان الشِّرك باللّه، بعبادة وتقديس ما لم ينزِّل به سلطانًا، وأمّا لفظ ﴿بَرَآءٞ﴾؛ فدلالته

(بريء) تدلُّ على البراءة من كلِّ لونٍ من الشِّرك بالله، و(براء) تفيد المبالغة

(1) وإن كان يثبتها وقفًا ووصلًا يعقوب. يُنظر: ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/293.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برأ).

المبالغة في التبرُّؤ من الشِّرك، وكلّ ما يفضي إليه، من اعتقاد أو قول أو فعل، "و رجلٌ بَريءٌ، ورجال براءٌ، على فعالٍ وفعيلٍ، كظرافٍ وظريفٍ، وقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ﴾ [الزّخرف: 26]، أي: بريءٌ"[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: 24]، وقوله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة: 54][2].

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (برأ).
(2) المصدر السّابق نفسه: (برأ).

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ٥٦﴾ [هود: 56]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مواجهة الكفران بالتَّوكُّل على ربِّ الأربـاب الآخذ بالنواصي

لمّا ذكروا من شأن آلهتهم ما ذكروا، وما تبعه من هود عليه السلام بإظهار براءته وعدم اكتراثه بآلهتهم، أتبعه ببيان سبب ذلك، فكأنَّه قيل: هَب أنَّك لا تأبه لآلهتنا، فما حملك على الاجتراء على مخالفتنا، ونحن على ما تعرف من كثرتنا وقوَّتنا؟ فقال: جسرتُ على ذلك؛ إذ ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَوَكَّلْتُ﴾: أصْلُ (وكل): يَدُلُّ على اعتماد غَيرك في أمْرِكَ، مِنْ ذلك الوُكَلَةُ، والوكَلُ: الرَّجُلُ الضَّعيفُ[2]. والتَّوكُّلُ: إظهار العجز والاعتماد على غيرك، والاسم التُّكْلانُ[3]، ويُقال على وجهين، يُقالُ: تَوكَّلْتُ لفلان، بمعنى: تولَّيتُ له، ويُقالُ: وكَّلْتُهُ، فَتوكَّل لي، وتَوكَّلتُ عليه، بمعنى: اعتمدته، قال عز وجل: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٥١﴾ [التَّوبة: 51][4]، وواكَلَ فُلانٌ؛ إذا ضَيَّعَ أمْرَهُ مُتَّكِلًا على غَيْرِهِ، وسُمِّيَ الوكيلَ؛ لأنَّهُ يوكَلُ إليه الأمْرُ، والمواكَلَةُ: إذا اتَّكَلْتَ عليه، واتَّكل عليكَ[5]. والمقصودُ بالتَّوكُّل في الآية: التَّفْويضُ، وهو مُبالَغةٌ في وكَلَ.

2) ﴿دَآبَّةٍ﴾: أصْلُ (دبّ): حَرَكَةٌ على الأرْضِ أخَفُّ مِنَ المَشْيِ، تَقولُ: دَبَّ دَبيبًا، وكلُّ شيءٍ ممّا خَلَقَ اللهُ يُسَمَّى دابَّة، والاسمُ العامُّ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/311.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وكل).
(3) الجوهري، الصّحاح: (وكل).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (وكل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وكل).

الدّابَّةُ لِما يُرْكَبُ، وتصغيرها دويبَّة[1]، ويُقالُ: ناقَةٌ دَبوبٌ؛ إذا كانَتْ لا تَمْشي مِنْ كَثْرَةِ اللَّحْمِ إلّا دَبيبًا[2]، ودَبَّ النَّمْل يَدِبُّ دَبيبًا، أي: مَشَى على هينتيه، ودبَّ القَوْمِ إلَى العَدوِّ دبيبًا، أي: مَشَوا على هينتهم لم يسرعوا[3]، والدَّبيبُ: الزَّحف على الوجْه[4]، والمقصود بـ﴿دَآبَّةٍ﴾ في الآية: ما دَبَّ على وجْهِ الأَرْضِ، أي: مَشَى.

3) ﴿ءَاخِذُۢ﴾: أصلُ الأخذ: حَوْزُ الشَّيْءِ وجَبْيُهُ وجَمْعُهُ، تَقول: أَخَذَ المالَ، أي: جَمَعَهُ، وحازَهُ لِنَفْسِه، فهو آخِذٌ، والمالُ مَأْخوذٌ، وضِدُّه: العَطاءُ والتَّسْليمُ، ومن معانيه: القَبولُ، كَقَولِهم: أَخَذَ بِالشَّيْءِ: إذا قَبِلَهُ[5]، ومِنْهُ: المَنْعُ، كَقَوْلِهم: أَخَذَ على يَدِهِ: إذا مَنَعَهُ، ومن مَعانيه أيضًا: الشُّروعُ والقَبْضُ والإمْساكُ والمُجازاةُ، و"(أخذه) يأخذه أخذًا: تناوله، والإخذ، بالكسر، الاسم، وإذا أمرت قلت: خُذْ، وأصله أُؤْخذ، إلّا أنَّهم استثقلوا الهمزتين، فحذفوهما تخفيفًا، وقال ابن سيده: فلما اجتمعت همزتان، وكثر استعمال الكلمة؛ حذفت الهمزة الأصليَّة، فزال السّاكن، فاستغني عن الهمزة الزّائدة، وقد جاء على الأصل: فقيل: أُؤْخذ"[6]، والمراد بالأخذ في الآية: الإمْساكُ، والأَخْذُ بالنّاصيَةِ هنا تَمثيلٌ للتَّمكُّنِ.

4) ﴿بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾: أصلُ (نصا): يَدُلُّ على عُلوٍّ، ومنه النّاصيَةُ: سُمّيَتْ لِارْتِفاعِ مَنْبَتِها[7]. قالَ الأزهريُّ: النّاصيَةُ: مَنْبَتُ الشَّعَرِ في مقدَّم الرَّأْسِ، لا الشَّعَرُ الَّذي تُسَمّيه العامَّة النّاصيَة، وسُمّي الشَّعَر ناصيَةً؛ لنَباتِه من ذَلِك المَوْضِع[8]، وقيل: النّاصيَةُ: قُصاصُ الشَّعَرِ، نَصَوْتُ فلانًا: قَبَضْت على ناصيَتِه، والمُناصاةُ: الأَخْذُ بالنَّواصي[9]. والمقصودُ بالنّاصيةِ في الآيةِ: ما انسدَلَ على الجَبهَةِ مِنْ شَعَرِ الرَّأْسِ.

5) ﴿صِرَٰطٖ﴾: أصلُ (صرط): الطَّريقُ الواضِحُ المُسْتَقيمُ، وسُمّي صِراطًا؛ لأَنَّ النّاسَ يَسلُكونَهُ بِسُرعَةٍ لِكونِهِ واسِعًا مُستقيمًا، والجَمْعُ: صُرُطٌ، أو مِنْ سَرِطتُ الشَّيْءَ:

(1) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (دبَّ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دبَّ).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (دب).
(4) الأزهري، تهذيب اللّغة: (دب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).
(6) الزَّبيديّ تاج العروس: (أخذ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصا).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (نصو).
(9) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نصا - نصو).

إذا ابْتَلَعْتَهُ؛ لِأَنَّهُ - أي: الطَّريق - يَبْتَلِعُ المارَّةَ لِكَثْرَةِ سُلوكِهِم[1].
والمقصود بالصِّراط في الآية: الطَّريقُ البَيِّنُ، مُستَعارٌ للفِعْلِ الجاري على مُقْتَضَى العَدْلِ والحِكْمَةِ[2].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

مهما بلغ الطُّغاة من عُتوٍّ وبأْسٍ، فإنَّهم كالدّوابِّ الَّتي يأخذ ربّي بناصيتها

قالَ هود عليه السلام للطُّغاة، منْ قَومه بعِزَّة وثِقَةٍ: إنّي وكَّلْتُ أمرَ حِفْظي وخِذْلانِكُم إلى اللّه مُعتَمدًا عليه وحْدَهُ؛ إذ هو مالكُ أمْري وأُمورِكُم، والمُتَصرِّفُ فيها وفي غيرها، فلا يصيبُني شيءٌ إلّا بأمرِه تعالى، وهو القادرُ على كلِّ شَيءٍ، ما منْ شيءٍ يدِبُّ على الأرضِ إلّا وهو في قبضةِ اللّه، وتحت قَهرِه وسُلطانِه، يُصرِّفُه كيف يشاءُ، ويمنَعُه ممّا يشاءُ، فلا تَصِلونَ إلى إلحاقِ الضَّررِ بي، إنَّ ربّي على طَريقِ الحَقِّ والعَدلِ، لا يَظلِمُ أحدًا، ولا تخرجُ أقوالُه وأفعالُه عن الصَّوابِ والحِكمةِ في شَرعِه وقضائِه[3].

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّ من توكَّل على اللّه لا يبالي بهولِ ما نالَه، وإلى تقرير مبدأ أنَّ كلَّ شيء في الكون خاضعٌ لتدبير اللّه تعالى، لا يخرجُ أيُّ مخلوق عمّا أراده له أو به، وأنَّ أفعالَ اللّه جميلةٌ لا تخرج عن الصراط المستقيم التي يُحمَد، ويُثنى عليه بها، وأنَّ قولَه - جلَّ في علاه - صدقٌ وعدل، وحكمةٌ، وحَمْد في قضائه وقدره، وفي شرعه وأمره، وفي جزائه وثوابه وعقابه، وأنَّ وعده تعالى حقٌّ[4].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (سرط - صرط).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/101.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/450، وابن القيّم، إعلام الموّقعين: 1/125، و126، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/98، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 384.
(4) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، 1/373، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 384، والجزائري، أيسر التفاسير: 2/554.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف التَّعليليّ في ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ﴾:

علَّة التَّحدّي قائمة على المبادرة إلى التَّوكُّل على الله تعالى

الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْۚ﴾ مستأنفة استئنافًا تعليليًّا، فهي تعليل لمضمون الجملة: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾، بغرض التَّعجيز لهم والاحتقار لشأنهم، أي: إنّي جسرتُ على ذلك؛ لأنّي متوكِّل على اللّه تعالى معتمدٌ عليه، وهو الملك الّذي يُرهَب عقابه[1]، ومن يلجأ إليه؛ لا يُغْبَنُ، ومن يسأله؛ لا يخيب، وهو ربُّ الكائنات، وربُّ جميع الموجودات، والقائم على كلِّ شيء، بحكمته وإرادته ولطفه، لا رادَّ لحكمه، ولا مبدِّل لكلماته، ومن توكَّل عليه؛ فقد هدي إلى صراط مستقيم.

غرضُ التَّوكيد بـ (إنَّ) في ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ﴾:

تعجُّبهم من تحدّيه وجرأته، مجابهة منه لتأكيد توكُّله على الله

جاءتِ الجملة المستأنفة في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْۚ﴾، مؤكَّدة بأداة التَّأكيد (إنَّ)؛ للدِّلالة على أنَّ توكُّله على اللّه تعالى، كان على وجه الكمال، وأنَّه بحيث لا يُشَكُّ فيه، وأنَّه مسلِّم أمره للّه تعالى، فأكَّد لهم هذه المقولة؛ لأنَّهم أعظموا جرأته وقوَّة تحدّيه، فواجه إنكارهم بتأكيد توكُّله على اللّه تعالى.

بلاغةُ الفعل الماضي ﴿تَوَكَّلْتُ﴾:

إظهار الإيمان والقطع به، أبلغ في سياق التَّحدّي

عبَّر النَّظمُ الجليل في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْۚ﴾ عن توكُّله عليه السلام بالفعل الماضي؛ لأنَّه أدلُّ على الإنشاء المناسب للمقام[2]، والدَّلالة على تحقُّق توكُّله، وأنَّه مقطوع به قد وقع وتحقَّق، فهو غير قابل للنَّقض، وقد "وصفه بما يوجب التَّوكُّل عليه، من اشتمال ربوبيَّته عليه وعليهم، ومن كون كلِّ دابَّة في قبضته وملكه، وتحت قهره وسلطانه، والأخذ بالنّاصية تمثيل لذلك"[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/311.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/218.
(3) النّسفيّ، مدارك التَّنزيل وحقائق التّأويل: 2/8.

معنى ﴿عَلَى﴾ في قوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾:

اعتماد الأنبياء على الله، متَّصفٌ بالرسوخِ لا يتزعزع

عبَّر النَّظم الجليل بحرف الاستعلاء، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾، وهو استعلاء مجازيٌّ، مستعارٌ للتَّمكُّن المعنويِّ؛ للدَّلالة على أنَّ توكُّله متَّصف بالرُّسوخ، وأنَّه بلغ فيه بحيث لا يتغيَّر، "يعني: أنَّكم وإن بذلتم في مُضارَّتي مجهودَكم، لا تقدرون على شيء ممّا تريدون بي، فإنّي متوكِّلٌ على الله تعالى"[1]، والله مهيمنٌ على كلِّ شيء، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السَّماء، ومن توكَّل عليه؛ فهو في حماه، ولو اجتمعت الموجودات كلُّها، ما قدرت على أذاه.

دلالة التَّعبير بـ ﴿ٱللَّهِ رَبِّي﴾:

صفات القهر واللُّطف الإلهيَّة، هي موئل الدُّعاة مع أقوامهم في المشاكسات

في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾، أورد النَّظم الكريم لفظَي الرُّبوبيَّة والألوهيَّة، فذكر الرُّبوبيَّة للدِّلالة على عموم ربوبيَّته للمؤمن والكافر، وبسطها على المؤالف والمخالف، ثمَّ أجرى صفة الرُّبوبيَّة على اسم الجلالة، فقال عزَّ ذكره: ﴿عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾؛ "استدلالًا على صحَّة التَّوكُّل عليه، في دفع ضرِّهم عنه؛ لأنَّه مالكُهم جميعًا يدفع ظلم بعضِهم بعضًا"[2]، ولحاجة هود عليه السلام إلى صفات القهر في الألوهيَّة، وحاجته مع أعدائه لصفات اللُّطف والعطاء في الرُّبوبيَّة.

المناسبة بين صدر الآية وعجزها:

ختام الخطاب، تثبيتٌ وتأكيد على مضمونه المبلور للرُّبوبيَّة

جاءت الجملة في ختام الآية، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾، مناسبة لمضمون الخطاب في سياقها، ففيها تذكيرٌ وزجرٌ لهم؛ لأنَّهم كانوا قادحين في ربوبيَّة الحقِّ سبحانه، فأراد أن يرجعهم إلى الحقيقة، كما أنَّها منطبقة على قولهم: ﴿مَا

---

(1) النّسفيّ، مدارك التَّنزيل وحقائق التّأويل: 4/218.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/100.

﴿جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ﴾ [هود: 53]، لما فيها من ردٍّ لهذا القول؛ "لأنَّ من كان على صراط مستقيم؛ لم يكن شيء أبينَ من أمره، وعلى جوابه في توكُّله وما في حيِّزه أتم انطباق"(1).

دلالة الاستئناف:

الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ استئنافيَّة، للتَّدليل على الجملة السّابقة، في قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ﴾، والبرهنة عليها، فمضمون الجملة يدلُّ على البرهان على هيمنة قدرته، وتصرُّفه في مخلوقاته وفق إرادته(2)، فلمّا "ذكر توكُّله على اللّه وثقته بحفظه وكِلاءته من كيدهم، وصفه بما يوجب التَّوكُّل عليه من اشتمال ربوبيَّته عليه وعليهم، من كون كلِّ دابَّة في قبضته وملكته، وتحت قهره وسلطانه، والأخذ بنواصيها، تمثيل لذلك"(3).

التَّوكُّل على الله المتصرِّف في المخلوقات منهج العقلاء الأثبات

وجهُ النَّفي و﴿مِن﴾ الاستغراقيّة:

في قوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾، تشير ﴿مِن﴾ إلى الشُّمول والتَّعميم، مبالغة في إظهار هيمنته ﷻ فالنَّفي بهذا الأسلوب يفيد عموم ما يدِبُّ في الكون، ويؤوَّل المعنى إلى أنَّ اللّه تعالى الَّذي لم يعجزه الكون بكلِّ دوابِّه، هو من توكَّلتُ عليه لمواجهة كيدكم الواهن الضَّعيف، والمعنى: "فإنّي متوكِّلٌ على اللّه القادر القويِّ، وهو مالكي ومالك كلِّ شيء؛ إذ ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾ نسمة تدبُّ على الأرض، إلّا هو، أي: ربِّي تعالى ﴿ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾"(4).

لا شيء يخرج عن ملك الله تعالى وسلطانه، ومن احتمى به؛ فهو في أمانه

بلاغة الاستعارة التَّمثيليّة في الأخذ بالنّاصية:

استعار النَّظم البليغ في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾، الآخذ بالنّاصية تعبيرًا عن سلطة اللّه تعالى على

تحكُّم الله في خلقه، كتحكُّم صاحب الدّابَّة الماسك بناصيتها فيها

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/312.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/218.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/404.
(4) حقّي، روح البيان: 4/149.

مخلوقاته، وهي استعارة تمثيليَّة، والنّاصية هي "شَعَر مقدِّم الرّأس، ومَن أُخِذَ بناصيته، فقد انقاد لآخذه لا يستطيع ميلًا"[1]. فشبَّه الخلقَ وهم في قبضةِ اللّه وملكِه، بمَن يقود دابَّة ماسكًا بناصيتها، فهي منقادة لتصريفه وإرادته، فاللّه تعالى "مالكٌ لها، قادرٌ عليها، يُصرِّفها كيف يشاء غيرَ مستعْصيةٍ عليه؛ فإنَّ الأخذَ بالناصية تمثيلٌ لذلك"[2]، هذا وقد كانت العرب في موروثها تجزُّ ناصية الأسير، الممنون عليه بفكِّ الأسر علامة على أنَّه قد قُدر عليه، وقبض على ناصيته[3].

غرضُ تخصيص (النّاصية) بالذِّكر:

الأخذ بالنّاصية يشير إلى التَّحكُّم والتَّسلُّط ونفاذ الأمر

خصَّ النَّظم الجليل - في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ - ذِكْرَ الناصيَةِ وهي مقدَّم الرَّأس؛ لأنَّ العرب تكنّي بها عن الذِّلَّة والخضوع، وعن الغلبة والتَّسلُّط، وإذا وصفوا إنسانًا بالذِّلَّة والخضوع، قالوا: ما ناصية فلان إلّا بيد فلان، أي: إنَّهُ مطيع له، يصرِّفه كيف يشاء[4]، وبالنِّسبة للّه، فإنَّ أخْذه بناصيتها، بمعنى أنَّه: "مالكٌ لها، قادرٌ عليها، يُصرِّفها كيف يشاء غير مستعصية عليه"[5]. واستحضار من هود عليه السلام، في سياق التَّوكُّل على اللّه بعد تحدّيهم يهوِّن عليه عواصف الصِّراع مع الباطل، ويشدُّ من أزره إزاءهم؛ فالتَّعبير تمثيل لقوَّته تعالى وسلطانه وسيطرته على خلقِه، لا يتمكَّن أحد من البعد عن قبضته[6].

سرُّ التَّعليلِ بعد ذكر التَّوكُّل:

علَّة توكُّل العباد على الله تعالى، ثقتهم بحمايته الشّاملة

الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، استئنافيَّة للتَّعليل، فهي تبيينٌ لعلَّة قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/311.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/218.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/168.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/168 - 169.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/218.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير التَّفاسير: 7/3719.

﴿رَبِّي وَرَبِّكُمۚ﴾، فالاستئناف تعليليٌّ؛ "لما يدلُّ عليه التَّوكُّل، من عدم قدرتهم على إضراره، أي: هو على طريق الحقِّ والعدل في ملكه، فلا يسلِّطكم عليَّ؛ إذ لا يضيع عنده معتصم به، ولا يفوته ظلم"(1).

دلالة الاقتصار في ﴿رَبِّي﴾:

حكى النَّظم الجليل اقتصار هود ﵇ إضافة لفظ الرَّبِّ إلى ضميره، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، إمّا بطريق الاكتفاءِ لظهور المرادِ؛ إذ من المعلوم أنَّ ربَّه وربَّهم واحدٌ، أو أنَّ فائدةَ كونِه تعالى مالكًا لهم، أيضًا راجعةٌ إليه ﵇ حين يكفيه المولى بأسهم(2). كما أنَّه يتضمَّن الإشارة، إلى أنَّ "اللُّطف والإعانة مخصوصة به، دونهم"(3).

الاكتفاء بالمذكور مرَّة عن تكراره من الإيجاز البليغ

بلاغة الاستعارة التَّصريحيَّة في ﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾:

استعار النَّظم الجليل الطَّريق المستقيم، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾؛ للدَّلالة على كمال العدل، للدِّين الموصل إلى الله تعالى بالطَّريق المستقيم الَّذي يوصل النّاس إلى غاياتهم، فقوله: ﴿صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ "مستعار للفعل الجاري على مقتضى العدل والحكمة؛ لأنَّ العدل يشبَّه بالاستقامة(4)، وحذف المشبَّه، وصرَّح بالمشبَّه به، فالاستعارة تصريحيَّة، والجامع بين المشبَّه والمشبَّه به العدل والإيصال والاستقامة.

الدِّين القويم يوصل إلى الهدف إيصالَ الطَّريق إلى الغاية

دلالة التَّعبير بـ ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ﴾:

عبَّر النَّظم الجليل في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، بجعل شبه الجملة مسندًا، وقد تضمَّن حرفَ الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾، وهو استعلاءٌ مجازيٌّ، كقوله جلَّ شأنه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى

المنهج الموصِلُ إلى الله تعالى، هو الرُّسوُّ على الاستقامة

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/109.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/218.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/109.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 12/101.

﴿مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 5]، والغرضُ من ذلك الدَّلالة على التَّمكُّن المعنويِّ، للمبدأ الرّاسخ الَّذي لا يتغيَّر(1)، وهو أنَّ الذي يوصل العباد إلى الله تعالى هو سلوكُهم الطَّريقَ المستقيم، ولا خيار غير ذلك.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

(توكّلت) و(استعنت):

التَّوكُّل: إظهار العجز والاعتماد على غيرك، والاسم التُّكْلانُ(2)، وتَوكَّلْتُ عليه بمعنى: اعتمدت عليه قال ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٥١﴾ [التّوبة: 51](3)، والفعل في قوله تعالى: ﴿تَوَكَّلۡتُ﴾ إخبار عن كونه متوكِّلًا على الله تعالى، أي: معتمدًا عليه، أمّا الاستعانة؛ فهي من العون: وهو الظَّهير عَلَى الأمر(4)، وتعني: طلب العَوْنِ، قال: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: 45](5)، فالاستعانةُ تدلُّ على الطَّلب، أمّا التَّوكُّل؛ فهو اعتماد قلبيٌّ وتجرُّدٌ من الحول، فقوله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أظهر عجزه، وأعلن اعتماده على الله تعالى، ولم يذكر الاستعانة؛ لأنَّه لم يطلب العون، بل أعلن العجز، فأوكل الأمر كلَّه لله تعالى.

التَّـوكُّـل: عـمـل قـلـبـيٌّ بإظهار العجز والتَّـفـويـض، والاستـعـانـة: طلب العون

(توكَّلت) و(فوّضت):

التَّوكُّل والتفويض كلمتان متقاربتان في المعنى، لكنَّهما ليستا مترادفتين، والفرق الدقيق بينهما: أنَّ التوكُّلَ هو اعتمادُ القلب على الله وإسنادُ الأمور إليه، والثقةُ بحكمته ورحمته وقدرته، وهو اعتمادُ القلبِ على الله في حصولِ ما ينفعُ العبدَ في دينه ودنياه، ودفعِ ما يضرُّه في دينه ودنياه، مع الأخذ بالأسباب المشروعة، وهو عبادةٌ

المتوكِّلُ يعمل بـالأسـبـاب، ويـتـوجَّـه إلى الـلـه، والمفوِّض يخرجُ من مراد نفسه إلى ما يـخـتـارُه الـلـه ويرضاه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 12/101
(2) الجوهريّ، الصّحاح: (وكل).
(3) الرّاغب، المفردات: (وكل).
(4) ابن منظور، اللّسان: (عون).
(5) الرّاغب، المفردات: (عون).

قلبية ومن صميم الإيمان، ومن أسباب الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة[1]. أمّا التفويضُ؛ فهو تركُ الأمر للّه تعالى والرضا بما قسمه، وقدَّره، وعدم الحزن على ما فات، أو القلق على ما سيأتي، فهو خروجُ العبد من مراد نفسه إلى ما يختاره اللّه، ويرضاه، وحقيقته التسليم، والانقياد للّه تعالى[2].

وخلاصةُ التفرقة: أنَّ المتوكِّلَ يعمل بالأسباب، ويتوجَّه إلى اللّه بالدُّعاء والاستعانة، وصاحبَ التفويضِ يكتفي بعلم اللّه وحُكمه، ولا يطلب منه تغيير القضاءِ أو تعجيل الفرج.

(أخذ) و(اتّخذ):

الأخــذ: تنـاول وقهر، والاتِّخاذ: جَعْل، وكلاهما مفيد للدِّلالة في بابه

الأَخْذُ: حوز الشَّيء وتحصيله، وذلك تارةً بالتَّناول نحو: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ [يوسف: 79]، وتارةً بالقهر نحو قوله تعالى: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ [البقرة: 255]. أمّا الاتِّخاذ؛ فهو على وزن (افتِعال) من الفعل (اتخذ)، ويُعدّى إلى مفعولين ويجري مجرى الجعل، نحو قوله تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ﴾ [المائدة: 51][3]، فصيغة الافتعال دالَّة على المبالغة في الأخذ، وهذه المبالغة والقوَّة موجودة في الفعل، بحيث إنَّه صار متعدّيًا إلى مفعولين، وفي الآية الكريمة عبَّر بـ (الآخذ) من (أخذ)؛ للدَّلالة على التَّناول الَّذي يدلُّ على القهر، وملك الأمر والتَّحكم به، وفيما يلي تلخيص وحصر لمعاني (الأخذ) في التركيب في القرآني: أنَّ الأخذ يعبِّر عن حوز في الأثناء بغلظ، أي: قبض بقوة، وقد جاء أكثر (أخذ) بمعنى: القبض الحقيقي أو المجازي (55 مرة)، وجاء نحو (78 مرة) الأخذ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (وكل). وينظر: ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 8/177، وابن قيم الجوزية، مدارج السالكين: 3/523.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فوض)، وابن قيم الجوزية، مدارج السالكين: 2/127.

(3) الرّاغب، المفردات: (أخذ).

فيها بمعنى إنزال عقوبة إهلاك، وهذا قبض؛ لأنَّه جَوْح واجتلاف، ومنها (18 مرة) في أخذ الميثاق، وهو تقييد من باب القبض، وجاءت صيغة المؤاخذة للمحاسبة والمعاقبة تسع مرات، وهي نيلٌ بالعقوبة من باب القبض، وأخيرًا جاء على صيغة افتعل (اتخذ) وما تصرَّف منها نيِّفًا ومئة مرة، وأصل معناها أخذ لنفسه، فهي قبض أيضًا[1].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (أخذ).

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ٥٧﴾ [هود: 57]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيان العلاقة بين استيفاء تبليغ الدَّعوة، وتحميل القوم مسؤوليَّة اختيارهم

لمّا استوفى هود عليه السلام تشييدَ أمر دعوته، ووجَّه سهام الهدم إلى ظنونهم وافترائهم؛ أخذ يحذِّرهم[1]، بتحميلهم تبعةَ كفرهم وإعراضهم عن دعوته، قائلًا: لقد أبلغتكم رسالة ربّي إليكم، وليس عليّ غير البلاغ، وقد لزمتكم الحجَّة[2]، فإن آمنتم بالإله الذي آمنت به، والَّذي أدعوكم إليه، فقد اهتديتم، ورشدتم، وإن تتولّوا؛ فلا متعلِّق لكم بي[3].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَوَلَّوْاْ﴾: أصْلُ (ولي): يَدُلُّ على قُرْبٍ، مِنْ ذلك الوَلْيُ: القُرْبُ، يقال: تَباعَدَ بعد ولْيٍ، أي: قُرْبٍ، وجَلَسَ ممّا يَليني، أي: يُقارِبُني[4]، والولايَةُ: تَولّي الأمرِ، فإذا عُدّي (تولَّى) بنفسِه؛ اقتَضَى معَنى الولايَةِ، وحُصولِها في أقْرَبِ المواضِع، وإذا عُدّي بـ (عَنْ) لفظًا أو تقديرًا؛ اقتَضَى معنَى الإعراضِ وتَرْكِ قُربِ الشيءِ؛ فمنَ الأوَّل قوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ﴾ [المائدة: 51]، ومنَ الثّاني قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ٦٣﴾ [آل عمران: 63][5]. والفعل في الآية الثانية: ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ فعلٌ مضارعٌ، أصله: تتولوا، بتاءين، فحُذفَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/312.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/50.
(3) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 6/157.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/102.

حرفُ المضارعة وهو التاء الأولى؛ تخفيفًا لثقل تَكرار التّاء، والمرادُ بالتَّولي في الآيةِ: الإعْراضُ والإدبارُ[1].

2) ﴿أَبۡلَغۡتُكُم﴾: أصْلُ البُلوغِ لُحوقُ الشَّيْءِ، والوُصولُ إليه أو الـمُشارَفَةُ عليه[2]، يُقالُ: بَلَغْتُ المَكانَ بُلوغًا، أي: وصَلْتُ إليه، وكذلك إذا شارَفْتَ عليه، فالإبلاغُ: الإيصالُ، وكذلكَ التَّبليغُ، والاسْمُ منه البلاغُ[3]. ويُقالُ: بَلَّغْتُ القومَ بَلاغًا، اسْمٌ يَقومُ مَقامَ التَّبْليغِ[4]. وتقولُ: له في هذا الأمر بلاغٌ وبُلغةٌ وتَبَلُّغ، أي: كِفايَة، وشيءٌ بالغ، أي: جَيِّدٌ، والمبالغةُ: أن تبلغ من العَمَل جهدَك[5]. والمقصود من الإبلاغ في الآية: جَعْلُ الشَّيءِ بالغًا، وهو هنا استِعارةٌ لإعلام هود عليه السلام شرع اللّه لقومه.

3) ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ﴾: أصلُ (خلف) منَ الإخْلافِ، وهو: مجيءُ شيءٍ بعد شيءٍ يَقومُ مَقامَهُ[6]، فالخَلَفُ: المُتَأَخِّرُ، سواء كان تَأَخُّرُه في الزَّمَنِ، أم في الرُّتبَةِ، يُقال: فُلانٌ خَلَفٌ لِأبيهِ، أيْ: جاءَ بَعْدَهُ[7]. واسْتَخْلَفَ فُلانًا منْ فُلانٍ: جَعلَهُ مَكانَهُ، وخَلَفَ فُلانٌ فُلانًا؛ إذا كانَ خَليفَتَه، والخَليفةُ: الَّذي يُسْتَخْلَفُ ممَّنْ قَبْلَهُ، والجمع خَلائِف، جاؤوا بِهِ على الأصل مثْلَ كريمةٍ وكرائِمَ، وهو الخَليفُ والجَمْعُ خُلَفاء[8]. والمقصود بالخَلَفِ في الآية: العِوضُ عَنْ شَيءٍ فائِتٍ، والسّينُ والتّاءُ فيه لِلتَّأْكيدِ، أي: بقوم يَخْلُفونكم.

4) ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ﴾: أصلُ الضَّرَرِ: النُّقْصانُ يَدْخُلُ في الشَّيءِ، يُقالُ: دَخَلَ عليه ضَرَرٌ في ماله[9]، وضِدُّهُ: النَّفْعُ والسَّعَةُ، والضَّرَرُ: المَكروهُ والأذى، وضَرَّ فُلانًا ضُرًّا وضَرَرًا؛ إذا ألْحَقَ به مَكروهًا أو أذًى[10]، وكلُّ ما كانَ من سوء حالٍ وفَقْرٍ، في بدنٍ، فهو ضُرٌّ، وما كانَ ضِدًّا للنَّفع؛ فهو ضَرٌّ[11]، والضُّرُّ المقصود في الآية النُّقصان، أي: ولا يدخل مُلْكَهُ بإهلاككم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بلغ).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بلغ).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بلغ).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (بلغ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(7) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(8) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (خلف).
(9) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (ضرَّ - ضرر).
(10) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (ضر).
(11) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضر).

نَقْصٌ[1]، واللّه غنيٌّ عن عباده، لا تنفعه طاعة من أطاعه، ولا تضرُّهُ معصية من عصاه.

5) ﴿حَفِيظٌ﴾: أصلُ (حفظ): يَدُلُّ على مُراعاةِ الشَّيْءِ، يقال: حَفِظْتُ الشَّيْءَ حِفْظًا[2]، ويأتي الحِفْظُ بمعنى: الرِّعايَةِ والعِنايَةِ، وضِدُّهُ التَّضْييعُ والتَّفْريطُ، والحِفْظُ أيْضًا: التَّعاهُدُ وقِلَّةُ الغَفْلَةِ، وضِدُّهُ النِّسْيانُ، يقال: حَفِظَ الكلامَ، أي: تَعاهَدَهُ، ولَمْ يَنْسَهُ[3]. والحَفيظُ: الموكَّلُ بالشَّيْءِ يَحْفَظُهُ، وكذلك الحافِظُ، والحَفيظُ أيضًا: الرَّقيبُ، قالَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الشّورى: 6] والحَفَظَةُ: الجَماعَةُ؛ منه[4]، والمقصود بالحفيظ في الآية: الذي يضع المَحْفوظ، بِحَيْثُ لا يَنالُهُ أحَدٌ غيرُ حافِظِهِ، وهو هنا كنايةٌ عَنِ القُدْرَةِ والقَهْرِ[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بلاغُ هودٍ رسالةَ ربِّـه، وإصرارُ قومه على الكفر والعصيان واستعجالِ العذاب

أبلغَ هود رسالتَه في بيانٍ ورِفْقٍ، ولم يكن رِفقه ضعفًا في جنب اللّه، ولكنَّهم أصرّوا على الكُفر والعِصيان، واستعجلوا العذاب الَّذي كان يُذكِّرهم به أثناء تبليغ رسالة ربِّه، عندئذٍ ذكَّرهم بعاقبة أمرهم، فقال تعالى مُخبرًا عنه: فإن تُعرضوا عمّا أدعوكم إليه من عِبادةِ اللّه وحدَه، فقد قامت عليكم الحُجَّةُ، بإبلاغي إيّاكم رسالة اللّه، ولم تبقَ عليَّ تَبِعَةٌ من شأنِكم، ويَستبدِلُ ربّي قومًا غيرَكم يُطيعونَه، ويعبُدونَه وحدَه، بعد أن يُهلِكَكم، ولا تضُرّونَ اللّه شيئًا بكُفرِكم، إنَّ ربّي ذو حِفظٍ لكُلِّ شَيءٍ، حافِظٌ لأقوالِ عبادِه وأفعالِهم، ويجزيهم عليها، ويحفَظُني من أن تنالوني بسوءٍ[6].

(1) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 8/221.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حفظ).
(3) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (حفظ).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والزَّبيديُّ، تاج العروس: (حفظ).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/103.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 12/451، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/53، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/330، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3720.

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أمانةِ الرسول الكريم هودٍ عليه السلام وتبليغه رسالةَ ربِّه لقومه غايةَ البيان، وبراءةِ ذمَّتِه في هذه المهمة النَّبيلة، وأنَّ المقصودَ من بَعث الرُّسلِ هو عبادةُ اللّه وحده، فإن لم يؤمن المُرسَلُ إليهم وحصلَ منهم العنادُ والكفر، فيَخْلفهم اللّه بقومٍ آخرين يعبدونه، ولا يشركون به شيئًا.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾:

تفريع التّولّي على التّحدّي والإشهاد، يبرز المعنى المستفاد

الفاء في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ﴾، تدلُّ على التَّفريع والتَّفصيل الوارد على لسان هود، ففرَّعت الجملة الشَّرطيَّة على الجملة، في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾، وما بين الجملتين من قوله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾، اعتراضٌ أوجبه قصدُ المبادرة بإبطال باطلهم؛ لأنَّ مضمون هذه الجملة تفصيلٌ لمضمون الجملة الَّتي ذكر فيها الإشهاد[1].

دلالة الجملة الشَّرطيَّة في الآية الكريمة:

التّولّي عن الحقّ نتائجه أليمة، وعواقبه وخيمة

جُعِل التَّولّي شرطًا في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ﴾، وذلك يجعل ما علَّق به من الجواب المسبَّب عنه واقعًا على وجه التَّأكيد؛ فإنَّ الجملة الشَّرطيَّة يتعلَّق فيها الجواب بالشَّرط، تعلُّقًا قطعيًّا، فإذا وقع الشَّرط، فإنَّ الجواب متحقِّق على وجه القطع، فأخبرهم أنَّهم إن تولَّوا عن دعوته؛ فإنَّ جزاءهم محقَّق لا محالة.

غرضُ حذف التّاء في ﴿تَوَلَّوْاْ﴾:

تقليل المبنى في الألفاظ، يدلُّ على تقليل المعنى المسوق

حذف النَّظم الكريم التّاء من الفعل في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَإِن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/101.

﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ وأصله: (تتولّوا) اختصارًا، والحذف في المبنى يدلُّ على التَّقليل في المعنى، وكأنَّه أشار إلى أنَّهم إن تولّوا، ولو أدنى تولية[1]، فإنَّ جواب الشَّرط سيتحقَّق بتلك التَّولية.

معنى (الفاء) في قوله: ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم﴾:

تحقُّق التَّبليغ، علَّة لوقوع اللَّوم، بالجزاء المبهم المهول

الفاء في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾، تدلُّ على التَّعليل، وهي ليست رابطة لجواب الشَّرط؛ لأنَّ الإبلاغ ليس جوابًا للتَّولّي، ولا مسبِّبًا له، فتكون الجملة المصدَّرة بالفاء مسوقة للتَّعليل، والتَّقدير: فإنَّ اللَّوم عليكم وحسب؛ وعلَّة ذلك أنّي فعلتُ ما عليَّ، فقد أبلغتكم ما أرسلت به[2].

دلالة حذف جواب الشَّرط في الآية الكريمة:

الجزاء المجهول، أبلغ في التَّهديد، وأوضح في البيان عن الحال

حذف النَّظم الجليل جواب الشَّرط في هذه الآية من قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾، فلم يبيِّن ما جزاء التولّي؛ وذلك ليذهب بهم الظَّنُّ في توقُّعه مذهبه، وإبقاء الجزاء مجهولًا؛ فيه من التَّهويل البليغ ما يناسب مقام التَّهديد، ولا يصحُّ أن يكون قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾ جوابًا؛ لأنَّ التَّبليغ ليس متعلِّقًا بتولّيهم، ولا معقودًا به، بل هو دليل جواب الشَّرط، والتَّقدير: فإن تتولَّوا؛ فعليكم تبعة أعمالكم، فجملة: ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم﴾، تعليلٌ لجواب الشَّرط المقدَّر، أي: (إن تتولّوا لا أبالي؛ لأنَّني قد أبلغتكم)، وذلك كقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ﴾ [العنكبوت: 5]، فالجواب محذوف؛ لأنَّ الجوابَ يجب أن يكون مسبَّبًا عن الشَّرط، وأجل اللّه آتٍ، سواء وجد الرَّجاء أم لم يوجد، وعليه فإنَّ جواب الشَّرط محذوفٌ، وتقديره: (فليبادر بالعمل، فإنَّ أجلَ اللّه لآتٍ)[3].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/312.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/312.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 6/296.

بلاغة التَّعبير باللَّفظ المذكور على المحذوف:

الإيفاء بالتَّبليغ يحصر اللَّوم عليهم بتولّيهم عن الهدى

جعل النَّظم الجليل جواب الشَّرط محذوفًا، وجعل الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾، دليلًا على الجواب المحذوف الذي تقديره: (فعليكم تبعة ذلك)، ومضمون الجملة ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾، من الإبلاغ هو دليل الجواب؛ لأنَّ الإبلاغ سابق للتَّولّي، فلا يكون جوابه، والجواب هو لازم ذلك الإبلاغ، وهو كون تبعة اللَّوم واقعةً عليهم، "فكأنَّه قيل: فإنْ تتولَّوا؛ استؤصلتم بالعذاب، ويدلُّ على ذلك الجملة الخبريَّة، وهي قوله: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾"[1]، فالمراد من دليل جواب الشَّرط، نزع التَّبعة عنه ﷺ، فالرَّسولُ مبلِّغٌ يهدي بالدِّلالة، وليس مسؤولًا عمَّن اختار الضَّلالة، أي: "فعليكم اللَّوم دوني؛ لأنّي فعلت ما عليَّ"[2].

دلالة ﴿مَّآ﴾ في ﴿مَّآ أُرۡسِلۡتُ﴾:

ألفاظ العموم في ذكر التَّبليغ، دليل الإيفاء بكلِّ المُبَلَّغ به

عبَّر النَّظم الكريم بـ ﴿مَّآ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه قد أوفى الرِّسالة، بتبليغ كلِّ ما أرسل به، أي: أبلغتكم كلَّ شيء[3]، وذلك لما في ﴿مَّآ﴾ من دلالة على العموم، فهي تشمل كلَّ ما أُمر بأن يبلِّغه لهم، وقال لهم: "فإن تتولَّوا بأن تعرضوا، فقد أبلغتكم رسالة ربّي الذي ربّاني، وخلقني، ولم يبقَ بعد الرِّسالة إلّا أن ينزل بكم ما أنذركم به، وهو عذاب محيط مدمِّر"[4].

علَّة التَّعبير بالمبني للمجهول في ﴿أُرۡسِلۡتُ﴾:

يُكْتَفى بحضور المراد في الأذهان، عن ذكره بالألفاظ

قوله جلَّ شأنه: ﴿أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾، عبَّر فيه النَّظم البليغ بالفعل الماضي المبنيِّ للمجهول، إيجازًا في التَّعبير؛ إذ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/169.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/312.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/312.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3720.

لا مرسل غيرُ اللّٰه تعالى، وأنَّ الإرسال قد سبق، وهو حاصل ومقطوع به[1]، وأنَّ التَّبليغ بتلك الرِّسالة قد مضى، فوقع عليكم الاحتجاج، كما أنَّ في عدم ذكر المعروف؛ فيه تهويلٌ لشأنه، بتأكيد كونه حاضرًا، وإن لم نذكره بلفظه.

سرُّ التقديم في قوله: ﴿بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾:

سيـــاق الاحـتـجـاج، وإيـقـاع التَّبعة على الكافرين، يجعل الرِّسالة أولى بالتَّقديم

قدَّم النَّظم الجليل، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾، شبه الجملة الأولى: ﴿بِهِۦٓ﴾ على شبه الجملة الثانية: ﴿إِلَيۡكُمۡۚ﴾، فبدأ بما تضمَّن ضمير الرِّسالة، وأخر ضمير المرسَل إليهم؛ لأنَّه سبق ذكر الفعل ﴿أُرۡسِلۡتُ﴾، وهو أنسب لإتباعه بالمرسَل به دون المرسَل إليه، كما أنَّ الرِّسالة هي الَّتي تحقِّق الاحتجاج والتَّبرُّؤ منهم، فكان تقديمه أولى.

دلالة الجمع في خطاب هود لقومه:

الخطاب بصيغة الجمع، يشمل تعميم خطاب القوم جميعًا

في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾، جاءت الضَّمائر بصيغة الجمع؛ لأنَّه خطاب هود عليه السلام لقومه، وهو ظاهر؛ لأنَّ الضَّمائر أُجريت على وتيرة واحدة[2]، كما أنَّ فيه دلالةً على تعميم الخطاب للمخاطَبين، وأنَّه لم يخصَّ به فئة منهم.

بلاغة أسلوب الالتفات في الآية الكريمة:

الـخـطـابُ بـالإخـبـار عن التَّبليغ أوقع في إقامة الحجَّة

قوله جلَّ شأنه: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ﴾، إذا جُعِلَ الفعل ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾ ماضيًا؛ فإنَّه سيكون خطابًا للغائبين، ثمَّ يكون الفعل ﴿أَبۡلَغۡتُكُم﴾ رجوعًا من الغَيبة إلى الخطاب على سبيل الالتفات، أي: فقد أبلغتكم[3]، فعدل من الغَيبة إلى الخطاب، لمواجهتهم بالحجَّة وجهًا لوجه، تأكيدًا لتبليغه لهم، وهناك التفات

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/313.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/101.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/169.

من الخطاب إلى المتكلِّم الحاضر في قوله: ﴿مَآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ﴾، وكلُّها من الالتفات البديع من حالة الغَيبة إلى الخطاب، إلى الحضور إلى الخطاب كرَّة أخرى، وهو تلوين في استعمال الصّيغ الصَّرفيَّة المختلفة من أجل التَّعبير عن الحوار المكرَّس بين أطراف هذه القصَّة الماتعة؛ لاستيعاب مناطاتها، والإحاطة بدوافعها، وآليات الخطاب فيها، والمآلات المنتظرة في نهايتها.

دلالةُ جملة الاستئناف في ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي﴾:

ليس بعد الإعراض عن الهداية إلّا الإهلاك والعذاب في النِّهاية

الجملة في قوله جل شأنه: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ استئنافيَّة، استُؤنِفت لبيان الوعيد لهم، أي: ويهلككم اللّه، ويجيء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم[1]، وذلك على قانون الاستعمال أو الاستبدال؛ إذ هلاك الكافرين، واستخلاف غير المذكورين، لا ينقص من ملك اللّه فتيلًا ولا قطميرًا، فالاستئناف وعيد لهم بالإهلاك.

وجهُ الإضافة في لفظ ﴿رَبِّي﴾:

إهلاك المعاندين إحسان للرَّسول المبلِّغ، لا للكفّار المهلَكين

في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ اقتصر على ذكر كونه ربَّه، ولم يقل: (ربي وربُّكم)؛ لأنَّه في سياق الوعيد بالإهلاك، فلا يناسب أن يذكر كونه ربَّهم، واقتصر بذكر ﴿رَبِّي﴾، إشارةً إلى اللُّطف به، وإهلاك شانئيه، أي: فيهلككم، ويستخلف ربّي المحسنُ إليَّ، بإقامتي فيما يرضيه قومًا غيركم[2].

دلالةُ لفظ (القوم) في ﴿قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾:

الاستبدال بقوم لهم شأن من أشدِّ النِّكاية بالمستبدَلين

آثر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بأن المستخلَفين قوم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم قوم لهم شأن وقوَّة؛ فإنَّ لفظ القوم يدلُّ على الجماعة الَّذين يقومون قومة واحدة؛

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/404.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/313.

إذا ناداهم المنادي، واستنجد بهم بعضهم، فلم يقل: (يستبدل غيركم)، بلا ذكر القوم؛ لأنَّ التَّصريحَ بكون من يأتي بعدهم لهم شوكة وقوَّة، أشدُّ إيلامًا لهم.

سرُّ تنكير لفظ القوم في ﴿قَوْمًا﴾:

الاستخلاف منَّةٌ من الله تعالى يضعها حيث يشاء

جاء التَّعبير بصيغة التَّنكير، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾، والتَّعبير بصيغة التَّنكير، تفخيم لشأن هؤلاء القوم الَّذين سيخلفونهم؛ دلالة على أنَّ المخاطَبين مذمومون، وأنَّهم خالون من صفات التَّفضيل، ففيه إشارة إلى ذمِّهم والتَّهوين منهم، أي: "ويستبدلُ قومًا غيركم أطوع منكم، يوحِّدونه، ويعبدونهُ"[1].

غرضُ الوصفِ بالغيريَّة بلفظِ ﴿غَيْرَكُمْ﴾:

ضياع الأوطان بالاستبدال، من ألوان التَّنكيل والاستئصال

وصف النَّظم الكريم القوم المستخلَفين، بأنَّهم غيرُ المخاطَبين في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم قوم آخرون لا علاقة نسبيَّة بينهم، كما أنَّهم سيكونون من أهل الطاعة للّه مخالفين لهم في الدِّين، وهذا أشدُّ وقعًا عليهم من مجرَّد الاستئصال، بأن يجعل ذكرهم ممحيًّا، ومكانهم بغيرهم ممتلئًا، والذين يأتون بديلًا عنهم، سوف يستخلفهم اللّه لعمارة الأرض، وخلافة اللّه فيها، والاستبدال عقوبة، تقابل نعمة الاستعمال، والكافرون يُستبدَلون، ولا يُستعمَلون، بعكس المؤمنين الصّالحين.

دلالة نفي المضارع في: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ﴾:

انتفاء الإضرار المستحيل بالله، مستغرق الزّمان من أوَّله إلى منتهاه

آثر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارع المنفي بـ ﴿وَلَا﴾ في الآية المباركة، من قوله: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾؛ للدَّلالة على تجدُّد النَّفي واستمراره، فانتفاء ضررِهم متجدِّد في كلِّ زمانٍ، فلا يأتي زمان يكون لهم فيه ضررٌ على اللّه تعالى؛ إذ هو الغنيُّ عن عباده، وهو يقول لهم: "ولن تضرّوا اللّه شيئًا من الضَّرر بسبب إصراركم

---

(1) ابن عادل، اللّباب: 10/509.

على كفركم، وإنَّما أنتم الَّذين تضرُّون أنفسكم، بتعريضها للدَّمار في الدُّنيا، وللعذاب الدّائم في الآخرة"[1]، ويبقى اللّه منزَّهًا عن الضَّرر، مهما تطاول البشر؛ لأنَّه تعالى من ورائهم محيط، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ١٨﴾ [الأنعام: 18].

نكتة تنكير لفظ ﴿شَيْـًٔاۚ﴾:

لا يلحق الله تعالى ضررٌ، ولا يطاوله بشر

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ﴾، جاء التَّعبير فيه عن الشَّيء، في الآية الكريمة بصيغة التَّنكير؛ ليدلَّ على التَّقليل والتَّهوين، وليكون شاملًا كلَّ شيء قليلًا، أو كثيرًا، ومهما كان نوعه[2]، فليس في وسعهم أن يفعلوا أقلَّ شيء، يقال له: إنَّه إضرار، إذا أراد اللّه تعالى أن يُذهب بهم، ويأتي بغيرهم، أي: "ولا تَضُرّونَهُ بتولّيكم وإعراضكم شَيْئًا من ضرر قطُّ؛ لأنَّه لا يجوز عليه المضارُّ والمنافع، وإنَّما تضرُّون أنفسكم"[3].

دلالة الجملة في فاصلة الآية الكريمة:

لا يأمننَّ العاصي، فالرَّبُّ قد جعل كلَّ شيء محفوظًا

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾، جاء ذلك في رأس الآية، تعليلًا للحكم السّابق، في قوله: ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ﴾، وجاء التَّعليل مؤكَّدًا؛ "لأنَّ العاصي فاعل بعصيانه فعلَ من يظنُّ أنَّ اللّه غافل عنه"[4]، وذلك للدَّلالة على هيمنة اللّه ورقابته، وأنَّ حفظه محيط بكلِّ شيء، ولا يخفى عليه معصية العاصين، ومعناه: "إنَّ ربّي قائم على كلِّ شيء بالحفظ والرَّقابة والهيمنة، وقد اقتضت سنَّته سبحانه أن يحفظ رسله وأولياءه، وأن يخذل أعداءه"[5].

علَّة تقديم ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ﴾ على ﴿حَفِيظٞ﴾:

الاهتمام بالشُّمول والإحاطة، أبلغ دلالة بصيغة التَّقديم

قدَّم النَّظم الكريم شبه الجملة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ﴾، على المسند، في

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 7/227.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 12/52 بترقيم الشّاملة آليًّا.
(3) إسماعيل، حقّي، روح البيان: 4/149.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/313.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/227.

قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾، ولم يقل على الأصل: (إنّ ربّي حفيظٌ على كلّ شيء)؛ لأنَّ الأهمَّ في السّياق هنا بيان استعلائه وقدرته[1]، فالإحاطة والشُّمول هما المرادان من الإخبار، ثمَّ جاء بيان على أيِّ صفة اشتملت وأحاطت هذه الإحاطة والشُّمول، وهي الحفظ والقدرة والعلم.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(يستخلف) و(يستبدل):

الاستخلاف: يقتضي الإهلاك، والاستبدال: لا يقتضيه

الاستبدال هو قيامُ الشَّيْءِ مَقامَ الشَّيْءِ الذّاهِبِ، يقال: هَذا بَدَلُ الشَّيْءِ وبَديلُهُ[2]، وهو جعل شيء مكان آخر[3]. أمّا الاستخلافُ؛ فهو أن يَجيءَ شَيْءٌ بعد شَيْءٍ يَقومُ مَقامَهُ[4]. "والخِلافةُ النّيابة عن الآخر، إمّا لغيبة المنوب عنه، وإمّا لموته، وإمّا لعجزه، وإمّا لتشريف المستخلف، وعلى هذا الوجه الأخير، استخلف اللّه أولياءه في الأرض، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: 39]"[5]. فالفرق بينهما: أنَّ الاستبدال لا يقتضي الإهلاك، فيكون الإبدال بالآخر وهو على قيد الحياة، كقوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمّد: 38]، أمّا الاستخلاف؛ فيقتضي الإهلاك للقوم العاصين، فلمّا كان هود عليه السلام، قد هدَّدهم؛ كان التَّهديد بإذهابهم واستئصالهم، والمجيءِ بقوم غيرهم، أوقعَ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/313.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بدل).
(3) الرّاغب، المفردات: (بدل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خلف).
(5) الرّاغب، المفردات: (خلف).

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ۝٥٨﴾ [هود: 58]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرَّبط بين الاستبدال والاستخلاف، ورحمة الله بالنَّجاة من الهلاك

بعد التَّهديد والوعيد بيَّن تعالى أنَّهم لم يرجعوا، ولم يرعووا، فأنزل بهم العذاب[1]، فبعد أن "ذكر - عزَّ اسمُه - إصرارَ قوم هود على العناد والعتوِّ، وتكذيب هود فيما جاء به من الآيات؛ ذكر هنا عاقبة أمره وأمرهم، وأنَّه تعالى أصابه برحمة من لدنه، وأنزل بهم العذاب الغليظ، كفاء كفرهم بآياته وعصيان رسله"[2].

❁ شرح المفردات:

1) ﴿أَمۡرُنَا﴾: أَصْلُ: (أمر): ضِدُّ النَّهي، ومنه قولُكَ: افْعَلْ كذا، يقال: لي عليكَ أَمْرَةٌ مُطاعةٌ، أي: لي عليكَ أَنْ آمُرَكَ مَرَّةً واحِدَةً، فَتُطيعَني، قالَ الكِسائيُّ: إنَّهُ لأمورٌ بالمعروفِ، ونَهِيٌّ عَنِ المُنْكَرِ، مِنْ قَوْمٍ أُمُرٍ، والأمر: المجازاةُ والعِقابُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النَّحل: 1]، قالَ الزَّجّاج: أَمْرُ اللّه ما وعَدَهم بِهِ من المُجازاةِ على كُفْرِهم من أصناف العذاب[3]، وأمرتُ فلانًا أمرَهُ، أي: أمرته بما ينبغي له من الخير، قال بشر بن سلوة[4]:

ولَقَدْ أَمَرْتُ أخاكِ عَمْرًا أَمْرَهُ *** فَعَصى وضَيَّعَهُ بِذاتِ العُجْرُمِ

والمقصود بالأمر في الآية: اسمٌ مُبهمٌ بمعْنَى الشَّيءِ والشَّأنِ، والمرادُ منه العَذاب[5].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/314.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/51.
(3) الزّجاج، معاني القرآن: 3/189، والزّبيديّ، تاج العروس: (أمر).
(4) البيت لبشر بن سلوة، ذكره ياقوت الحمويّ، معجم البلدان في (عجرم)، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: 1/33.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/103.

2) ﴿نَجَّيْنَا﴾: أصلُ الإنجاءِ: الخلاصُ منَ الشَّيْءِ، نَجا يَنْجو نَجْوًا ونَجاءً، مَمْدودٌ، ونَجاةً، مقصور، وأنْجَيْتُ غَيْري، ونجَّيْته، واستَنْجى منْهُ حاجَتَهُ: تخلَّصها، وانْتَجى مَتاعَه: تَخلَّصه وسَلبَه، ومعنى نجَوْت الشَّيءَ: خَلَّصته، وألْقَيْته، والنَّجاةُ: الخَلاصُ منْ ضُرٍّ واقِعٍ[1]، والنَّجْوةُ والنَّجاةُ: ما ارتفع منَ الأرض، فَلَمْ يَعْلُه السَّيلُ فَظَنَنْتُهُ نَجاءَك، والجَمْعُ نِجاءٌ[2]. والمقصود بالإنْجاء في الآية: هو جَعْلُ هودٍ عليه السلام ومن آمن به ناجين.

3) ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾: أصلُ (رحم): يدلُّ على الرِّقَّةِ والعَطْفِ والرَّأْفَة، يقال منْ ذلك: رَحِمَهُ يَرْحَمُهُ؛ إذا رَقَّ له، وتَعطَّفَ عليه، والرَّحِمُ: عَلاقَةُ القرابة، ثُمَّ سُمّيَتْ رَحِمُ الأُنْثَى رَحِمًا من هذا؛ لأَنَّ منها ما يَكونُ ما يُرْحَمُ، ويُرَقُّ له منْ ولَدٍ[3]. والرَّحْمَةُ: اسْمُ مَصْدَرٍ لِصِفَةِ الرّاحِم، وهيَ من صفات الإنسان، فهي رِقَّةٌ في النَّفْسِ تَبْعَثُ على سَوْقِ الخَيْرِ لِمَنْ تَتَعَدَّى إليه[4]. وإذا وُصِف بها الباري؛ فليس يراد بها إلّا الإحسان المجرَّد دون الرِّقَّة، وعلى هذا روي أنَّ الرَّحمة من الله إنعامٌ وإفضالٌ، ومن الآدميِّين رِقَّةٌ، وتَعطُّفٌ[5]. والمراد بالرَّحمة في الآية: فَضْلُ الله عليهم[6].

4) ﴿عَذَابٍ﴾: أصْلُ الكَلِمَةِ من العَذْب، وهو: المَنْعُ، يُقالُ: عذَّبْتُ عَنْهُ الماءَ، أيْ: مَنَعْتُهُ عَنْهُ، وسُمِّيَ العَذابُ عَذابًا؛ لأنَّه يَمْنَعُ الشَّخْصَ من الرُّجوعِ للجريمة[7]، والعَذابُ: الضَّرْبُ بِعَذْبَةِ السَّوْطِ، أي: طَرَفِها[8]، والعَذابُ أيضًا: الإيلامُ والإيجاعُ الشَّديدُ، وقد قيل: إنَّ أصْلَهُ الإعْذابُ، مَصْدَرُ أعْذَبَ؛ إذا أزالَ العُذوبَةَ؛ لأنَّ العَذابَ يُزيلُ حلاوةَ العَيْشِ، فَصيغَ منْهُ اسمُ مَصْدَرٍ بِحَذْفِ الهَمْزَةِ[9]، والعذاب: ما يصيب النَّفس من ألمٍ، ومنه عذاب النّار ونحوها، قال الله تعالى: ﴿صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ [فصّلت: 17][10]، والمُرادُ بالعذاب في الآية: الإيلامُ والإيجاعُ الشَّديد.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/130.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نجو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رحم).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/24.
(5) الرّاغب، المفردات: (رحم).
(6) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/102.
(7) النّووي، تهذيب الأسماء واللّغات: 4/10.
(8) الرّاغب، المفردات: (عذب).
(9) الخليل، العين: (عذب)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/258.
(10) نشوان الحميريُّ، شمس العلوم: (العذاب).

5) ﴿غَلِيظٍ﴾: غَلُظَ، يَغْلُظُ، غِلَظًا: إذا صارَ غَليظًا[1]، وأصلُ الغِلْظَةِ: الشِّدَّةُ والقَسْوَةُ، وضدُّها: الرِّقَّة في الخُلُقِ والطَّبْعِ، والفعل والمَنْطِقِ والعَيْشِ ونحوِ ذلك، وعَذابٌ غَليظٌ، أي: شَديدُ الألَم، وغَلُظَ الرَّجُلُ: إذا اشْتَدَّ، فهو غَليظٌ، وفيهِ غِلْظَةٌ، أيْ: شِدَّةٌ واستِطالَةٌ، فهو غَيْرُ لَيِّنٍ ولا سَلِسٍ[2]. وبَيْنَهُما غِلْظَةٌ ومُغالَظَةٌ، أي: عَداوةٌ، والتَّغْليظُ: التَّكْبيرُ والتَّعْظيمُ، يُقال: غَلُظَ الشَّيْءُ، أيْ: عَظُمَ وكَبُرَ، ويأتي بمعنى التَّشديدِ والتَّوكيدِ، ومنه: عَهْدٌ غليظٌ، أي: مُؤَكَّدٌ مُشَدَّدٌ[3]. والمقصودُ بالغِلْظَةِ في الآية: العذابُ الخَشِنُ ضِدُّ الرَّقيقِ، وهو مُستعارٌ للشَّديدِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

رحمة الله إكرام لهود والمؤمنين، ونجاة من العذاب المهين

بَيَّنَ الحقُّ تعالى نُزولَ العِقاب بالكافرين، ونَجاة المؤمنين برحمةٍ كريمةٍ منه، وحسبُها شرفًا أنَّها من ربِّ العالمين، ولما جاء أمرنا بإهلاك عادٍ، نجّينا هودًا، والَّذين آمنوا معه، من عذاب الرّيح العاتية الَّتي أهلكتهم، وذلك بسبب رحمتنا لهم بتوفيقهم للإيمان[4]، و قد كانت النَّجاة عظيمة؛ لأنَّها نجاة من عذابٍ شديدٍ، لا رِفق فيه؛ لأنَّه لا رفق مع ظالم؛ لأنَّ الرِّفق بالظّالم جورٌ على المظلوم[5].

وترشدُ الآيةُ الكريمةُ إلى إنعام اللّه بنجاة هودٍ عليه السلام والمؤمنين معه بنجاتين: نجاةٍ في الدنيا من عذاب الريح العقيم التي لا تأتي بخير، شديدة البَرْد التي تجفِّفُ ما هو غضٌّ طريٌّ، والتي دمَّرت كلَّ شيءٍ بأمر ربِّها، ونجاةٍ من عذاب النار يوم القيامة، وهي أعظم؛ وترشدُ إلى سُنَّة اللّه في الأوَّلين، وهي أنَّه يبعث الرسل مبشِّرين ومنذرين،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (غلظ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (غلظ).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (غلظ).
(4) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 317.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3720.

فَإنِ استجابَ المرسَلُ إليهم؛ سَعِدوا، وإن لم يستجيبوا؛ يُمْهلهم حتى تقوم الحُجَّة عليهم، ثم يهلكهم، وينجّي المؤمنين[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة (الواو) على الاستئناف في ﴿وَلَمَّا﴾:

بعد الجدال المقيت، والصِّراع المميت، نجّى الله هودًا والمؤمنين

قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾، افتتح النَّظم الكريم في هذه الآية الجملة بالواو الاستئنافيَّة[2]، فبعد ذكر التَّهديد باستخلاف غيرهم، استأنف لبيان أنَّ هودًا عليه السلام، قد نجا من كيدهم، وأنَّهم لم ينفُذوا إليه بسبب العذاب الذي حاق بهم.

سرُّ التَّعبير في ﴿وَلَمَّا﴾ بالواو:

سَبْقُ ذكر الوعيد، يناسبه ذكر الفاء الدّالَّة على السَّبب

ابتدأ قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا﴾ بالواو، وكذلك في قصَّة شعيب عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ [هود: 94]، أمّا في قصة صالح ولوط عليهما السلام، فافتتح بالفاء: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا﴾ [هود: 66]، و﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢﴾ [هود: 82]؛ وذلك لأنَّ الأمر في قصَّة صالح ولوط، وقع بعد الوعيد، فجيء بالفاء الَّتي تقتضي التَّسبيب، كما تقول: وعدتُه فلمّا جاء الميعاد، بخلاف قصَّة هود وشعيب عليهما السلام فإنَّه لم يتقدَّم ذلك فيهما، فعطف بالواو[3].

فائدة الشَّرط المفتتح بـ الأداة (لمّا):

نجاة الصّالحين، معجزة تتيح لهم التَّمكين

قوله جل شأنه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾، علَّق النَّظم الكريم نجاة هود عليه السلام ومن معه، بزمان مجيء الأمر بنزول العذاب في هذه الآية البليغة، وذلك باستعمال

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/366، وابن الجوزي، زاد المسير: 2/381، والجزائري، أيسر التفاسير: 2/555.

(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 6/297.

(3) ابن جزي، التّسهيل لعلوم التنزيل: 1/373.

الظَّرف ﴿وَلَمَّا﴾، وهو ظرف بمعنى حين متضمِّنٌ معنى الشَّرط[1]، وذلك يدلُّ على أنَّ هودًا ﷺ والذين معه، قد لبثوا في قومهم، وأنَّ العذاب لمّا نزل بساحة القوم، كانوا في ديارهم مع قومهم، فتكون النَّجاة معجزة؛ ولذا أتمَّ الكلام بقوله: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾.

بلاغة التَّشبيه التَّمثيليّ في الآية:

تصوير العذاب وتشخيصه من فصيح الإبانة عن المشهد

عبَّر النَّظم البليغ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا﴾ عن نزول العذاب بالمجيء تفخيمًا له وتهويلًا[2]، والمعنى: "وحين جاء أمرنا بتحقيق وعيدنا في قوم هود، وبتنفيذ ما أردناه من إهلاكهم وتدميرهم نَجَّيْنا هودًا والَّذينَ آمَنوا مَعَهُ"[3] حيث جعله ذاتًا يأتي بنفسه، وكأنَّه مشخِّص له قدرة الحضور بنفسه، مستقلٌّ بحركته، قد جاء ليفتك بهؤلاء القوم الذين طغوا، وعتوا، فهي صورة مكتملة من التشبيه التمثيليِّ.

لطيفةُ الكناية في الآية الكريمة:

يتجلّى مجيء أمر الله في نزول العذاب الَّذي لا مناص منه

جاء التَّعبير في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ كناية عن العذاب، أو عن القضاء بهلاكهم[4]. فقوله: ﴿أَمْرُنَا﴾ يدلُّ على وجود الآمر والأمر والمنفِّذ، وهم ملائكةُ العذاب، قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: 6]، وهذا الوصفُ لهم في الدُّنيا والآخرة، ومجيء الأمر بهلاك قوم هود، من أوامر الدُّنيا، فعبَّر عن نزول العذاب بالأمر، للدَّلالة على أنَّه أمر مقضيٌّ به، قد قصده اللّه تعالى قصدًا، وليس هو مجرَّد عوارض طبيعيَّة، كما ظنّوا أوَّل الأمر، فجاءَ الأمر العلويُّ بإهلاكهم، وصبِّ العذاب عليهم صبًّا، حين حلَّ أوانه المقدَّر، في أزل

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 6/297.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/219.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 7/228.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/170.

اللّه العليم بكلِّ شيء، والمدبِّر بحكمته لكلِّ شيء؛ وقد أنجى المؤمنين من عذاب الدُّنيا الذي أوقعه بقومهم، كرمًا منه تعالى وفضلًا، وتلك عقوبة الدُّنيا المقدَّمة، ولعذاب الآخرة أشدُّ وأدوم[1].

دلالة نون التَّعظيم في ﴿أَمۡرُنَا﴾ و﴿نَجَّيۡنَا﴾:

الأمر الَّذي نزل بقوم هودٍ، كان بالغَ العظمةِ

قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا﴾، أسند النَّظمُ الجليل الأمر والمجيء إلى نون التَّعظيم؛ للدَّلالة على أنَّ الأمر الَّذي نزل، كان بالغ العظمة، وأنَّ التَّنجية منه بالغة العِظَم، أي: "تنجيةً عظيمة بما لنا من العظمة"[2]، وذلك تهويل لشأنه وردع لسامعي تلك القصص، وقد بيَّن سبحانه أنَّ النَّجاة كانت عظيمة؛ لأنَّها نجاة من عذاب شديد، كما بيَّن سبحانه أنَّ العذاب غليظ، أي: شديد لا رفق فيه؛ لتجلية عظمة اللّه في تدبير الأمور جليلها ودقيقها[3].

علَّة وضع الاسم الظَّاهر في ﴿نَجَّيۡنَا هُودٗا﴾:

التَّصريح بالاسم في معرض النَّجاة، أبلغ في التَّكريم

عبَّر النَّظم الكريم بالاسم الظّاهر لنبيِّ اللّه هود ﷺ من قوله جلَّ شأنه: ﴿نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾، فوضع الاسم الظَّاهر موضع الضَّمير؛ إذ لم يقل: (ونجيناه والَّذين آمنوا منه)، بل جاء بالاسم الظّاهر له؛ لأنَّه أكثر بلاغة في سياق التَّنجية لما فيه من المدح بإظهار الاسم في موطن التَّشريف، فنصَّ على أنَّ النَّجاة كانت تكريمًا له بالأصالة ولمن معه بالتَّبع.

دلالة الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ وصلته:

الإيمان سبيل العباد، للنَّجاة في الدُّنيا، ويوم يقوم الأشهاد

آثر النَّظم الكريم في قوله جل شأنه: ﴿نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ الإتيانَ بالاسم الموصول: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾، الدالِّ على العموم والشمول، فالموصولُ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ يشمل كلَّ من آمن برسالة هود ﷺ من قومه، فاللّه تعالى نجّاهم من العذابِ الشديد الذي حلَّ

(1) ملا حويش، بيان المعاني: 3/131. (بتصرّف).
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/314.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3720.

بقومهم؛ لما في صلة الموصول، وهي: ﴿ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ من دلالة على تحقُّق إيمان النّاجين مع هود، وأنَّ سبب النَّجاة إنَّما هو الإيمان، فنجَّى اللّه تعالى هودًا وجميعَ المؤمنين معه من عذاب اللّه.

غرضُ المعيَّة مع هود في ﴿ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾:

معيَّة الصّالحين نجاة، ومصاحبتهم حصانة في الحياة

قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾، فيه إفادة أنَّ نجاة الذين آمنوا كانت مواكبة لنجاة هود، بعطف هذه على تلك، أي: هم معه في الإيمان والنَّجاة من قومهم ومن العذاب[1]، وذلك يفيد أنَّ معيَّة الصّالحين نجاة، كما دلَّت على أنَّ إيمانهم كان معلَنًا، وأنَّهم صحبوه، ولقوا معه ما لقي في سبيل الدَّعوة.

معنى الباء في عبارة ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾:

لا سبب يؤهِّل المؤمنين للنَّجاة، سوى ما يرد من الله من رحمات

قوله جلَّ شأنه: ﴿نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾، أدخل فيه النَّظم البليغ الباء الدّالَّة على السَّببيَّة على الرَّحمة الواردة في سياق النَّجاة؛ للدَّلالة على أنَّ سبب النَّجاة هو الرَّحمة، فكانت رحمة اللّه تعالى بهم سببًا في نجاتهم[2]، ورحمة اللّه عليهم، فضله الغامر، ولولاه لطالهم العذاب، فاقتُلعوا من جذورهم، واستؤصلت شأفتهم، ولم تبقَ لهم باقية، كما وقع للكفرة، "فيما نزل بهم من ذلك العذاب الغليظ، وهو الرّيح العقيم التي لا تذر من شيء أتت عليه، إلّا جعلته كالرَّميم، كما فصَّل ذلك في سورة القمر بقوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠﴾ [القمر: 19 - 20]"[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/314.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/104.
(3) المراغي، تفسير المراغيّ: 12/51.

دلالةُ تعليق النَّجاة بالرَّحمة في الآية:

التَّجاة محض إنعام ورحمة من الله تعالى لعباده المخلصين

قيَّد النَّظم الجليلُ النَّجاةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ بكونها كائنةً برحمة اللّه تعالى، للدَّلالة على أنَّه لا نجاة في الدُّنيا ولا في الآخرة إلّا برحمة اللّه، ولا نجاة بالأعمال، ولو للرَّسول المفضال، إلّا أن يتغمَّده اللّه برحمته، "والظاهر تعلُّق ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ بقوله: ﴿نَجَّيۡنَا﴾، أي: نجيناهم بمجرَّد رحمة من اللّه لحقتهم، لا بأعمالهم الصالحة، أو كنَّى بالرحمة عن أعمالهم الصالحة؛ إذ توفيقُهم لها إنَّما هو بسبب رحمته تعالى إيّاهم"[1]، فلمّا "كان سبحانه بحيث لا يجب عليه لأحدٍ شيءٌ؛ لأنَّه لا يَقْدِر أحدٌ أنْ يَقْدِرَه حقَّ قدره، وإن اجتهد في طاعته، فإنَّ طاعته نعمةٌ منه عليه، أشار إلى ذلك بقوله: ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾"[2].

فائدة التَّعبير بشبه الجملة: ﴿مِّنَّا﴾:

كون الرَّحمة من الله تعالى تعظيمٌ لها، وتفخيم لشأنها

في قوله جل شأنه: ﴿نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ قيَّد النَّظم الكريم نجاتَهم بأنَّها كائنة برحمة من اللّه تعالى، وليس برحمة مطلقة، تفخيمًا لشأنها وتعظيمًا لها، أي: "نجَّيناهم بمجرَّد رحمة وفضل، لا بأعمالهم؛ لأنَّه لا ينجو أحدٌ وإن اجتهدَ في الأعمالِ والعملِ الصّالح، إلّا برحمة اللّه تعالى"[3]، وفائدة ذلك التَّنبيه على أنَّ النَّجاة، إنَّما كانت برحمة من اللّه تعالى، وأنَّ هذه الرَّحمة عظيمة، لكونها صادرة منه تعالى دون سواه، كما أنَّ التَّعبير بنون التَّعظيم، يخلع عليها مزيدًا من التَّعظيم والتَّفخيم لشأن هذه الرَّحمة، فيبيِّن سبحانه "نزول العقاب بالكافرين، ونجاة المؤمنين برحمة كريمة منه، وحسبها شرفًا أنَّها من ربِّ العالمين، وبيَّن سبحانه أنَّ النَّجاة كانت عظيمةً؛ لأنَّها نجاة من عذاب شديد"[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/170.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/314.
(3) إسماعيل، حقّي، روح البيان: 4/150.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3720.

بلاغةُ الإطناب في تكرار الإنجاء في الآية:

عِظَمُ العذاب أو تنوّعه مسوِّغٌ لتكراره، لفتًا لشدَّته وإبهاره

كرَّر النَّظم الجليل لفظ التَّنجية في قوله جل شأنه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾، للإطناب للدَّلالة على أنَّ العذاب كان شديدًا، عظيم الأهوال، "ولمّا بيَّن إنجاءهم من قومهم؛ بيَّن إنجاءهم ممّا أهلكهم به، فقال مكرِّرًا ذكرَ التَّنجية، دلالة على أنَّ عذابهم كان في غاية الفظاعة"[1]. ويحتمل أن يريدَ بالتنجية الثانية عذابَ الآخرة، وأنَّ النجاة الأولى المتقدِّمةَ المظهرَ فيها اسمُ نبيِّ اللّه هودٍ عليه السلام هي الريحُ التي لا بركةَ فيها، ولا تأتي بخير، التي ما تَدَعُ شيئًا مرَّت عليه إلا صيَّرته كالشيء البالي، والتي كانت تحملُهم، وتهدمُ مساكنَهم، وتنسفُها، فيكون المقصودُ على هذا التنوُّعِ في العذاب تعديدَ النِّعمة في الإنجاء مرَّتين[2].

دلالة وصف العذاب بـ ﴿غَلِيظٖ﴾:

وصف الأمر بالغلظة يشعر بالثِّقل في النَّفس، ويصوِّر فظاعته

وصف النَّظم الجليل العذاب في قوله جل شأنه: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾ بكونه غليظًا؛ وذلك لبيان فظاعة ما أُهلك به من لم يؤمن بنبيِّ اللّه هودٍ، وهو إرسالُ اللّه عليهم ريحًا شديدةَ البرودة عاليةَ الصوتِ في أيام مشؤومات عليهم؛ ليذيقهم عذاب الذلِّ والهوان في الحياة الدُّنيا، كما حكى اللّه عنهم: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [فصلت: 16]، وحُكيَ أنَّ الرّيح كانت تدخلُ في مناخرهم وأفواههم، وتخرج من أدبارهم فتقطِّعهم تقطيعًا، أي: قِطۡعَة قِطۡعَة[3]، وذلك يدلُّ على هول هذا الهلاك النازل بهم وسوء المصير.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/314.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/366، وابن الجوزي، زاد المسير: 2/381، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/182.

(3) السمعاني، تفسير السمعاني: 2/437.

بلاغة الاستعارة في: ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾:

تصوير العذاب المعنويِّ بشيء حسِّيٍّ، تهويل لشأنه وتنبيه على أهمّيّته

في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾، وصَفَ العذاب بالغلظة، وحقيقة الغِلظة أنَّها وصف مادّي، يدلُّ على عظم الجثّة، فاستعير للعذاب، لما فيه من ثقلٍ على النَّفس وطول مكث[1].

إيثار التَّعبير بالتَّنكير في ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾:

تنكير العذاب الموصوف، تهويل لشأنه وفظاعته

آثر النَّظم الكريمُ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾، التَّعبير بالتَّنكير دون التَّعريف، فلم يقل: (ونجّيناهم من العذاب الغليظ)؛ تهويلًا لشأنه وتعظيمًا له، لما في التَّنكير من دلالة على التَّكثير والتَّفخيم، ومفاد النَّجاة من ذلك العذاب الغليظ، تجلية قدرة اللّه الأجلِّ؛ "لأنَّ اللّه نجّى (هودًا) ومن معه، من هذا البلاء في الدُّنيا، ومن العذاب في الآخرة، وذلك بما ساق إليهم من رحمته، فهداهم إلى الإيمان، وصرفهم عن الكفر، وعزلهم عن القوم الكافرين، في الدُّنيا، والآخرة، على حين هلك الظالمون مَهْلَكَيْن.. مهلكًا في الدُّنيا، ومهلكًا في الآخرة"[2].

التَّشابه اللَّفظيُّ بين آيتي هود والأعراف:

كُرِّرت التَّنجية في هودٍ فجاءت بالتَّفعيل وأُفردت في الأعراف فجاءت بالهمزة

التَّشابه اللَّفظي بين قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَقَطَعۡنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ٧٢﴾ [الأعراف: 72]، جاء لفظ التَّنجية بصيغة التَّفعيل في سورة هود، فتعدَّى بالتَّضعيف، أمّا في سورة الأعراف؛ فجاء متعدّيًا بالهمزة، وذلك لأنَّه ذكر التَّنجية في سورة هود مرَّتين فكرَّرها، دلَّ ذلك على التَّكثير، فكان التَّعبير عنها بصيغة التَّفعيل أبلغَ وأدلَّ، وفي سورة الأعراف ذُكِرَتِ التَّنجِيةُ مرَّةً واحدةً، فجاءت متعدِّية بالهمزة دون التَّضعيف.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/315.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/315.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(غليظ) و(شديد):

الغليظ: الخشن خلاف الرَّقيق، والشَّديد: القويُّ الصُّلب خلاف اللّين

الغليظ من الغِلظَةِ ضدِّ الرِّقَّة، وأصله أن يُستعملَ في الأجسام، لكن قد يستعار للمعاني كالكبير والكثير، قال تعالى: ﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾ [التّوبة: 123]، أي: خشونة[1]. وأمر غليظٌ: شَديد صَعْب[2]، ورجلٌ فيه غِلظة، أي: فيه فظاظةٌ، وأغْلَظَ له في القول[3]. أمّا الشَّديد؛ فمن (شَدَّ)، وأصله يَدُلُّ عَلَى قوَّةٍ في الشَّيْءِ[4]، والشَّدُّ: العَقْد القويُّ، يقال: شَدَدْتُ الشَّيء: قوَّيت عقدَه[5]، الشِّدَّةُ: الصَّلابةُ، وهيَ نَقيضُ اللّينِ تَكونُ في الجَواهِرِ والأعراض، وشَدَّدَه: قوّاه، والتَّشْديدُ: خِلافُ التَّخْفيفِ[6]، فالشَّديدُ نقيضُ اللّين والخفيف، والغليظُ نقيضُ الرَّقيق، ووصف العذاب بأنَّه غليظ في قوله: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾؛ لأنَّ لفظ الغليظ، يعني: الخشن والصَّعب، وللمفسِّرين في تفسيرها قولان: الأوَّل أنَّه الموصوف بأنَّه الدّائم غير المنقطع، والثّاني أنَّه الموصوف بأنَّ المعذَّب به، يتلقّى عذابًا أشدَّ ممّا قبلَه، فيتجدَّد له الألم باطِّراد، قال الزُّحيليُّ: "﴿عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾، قويٌّ متِّصل، وشديد غير منقطع"[7]، قال ابن كثير: "﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ١٧﴾ [إبراهيم: 17]، أي: وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ، أي: مؤلم صعبٌ شديد، أغلظ من الذي قبله وأدهى وأمرُّ"[8]، وقيل: ﴿عَذَابٍ غَلِيظٖ﴾، أي: قويٌّ شديدٌ لا يعلم وصفه وشدَّته إلّا اللّه

(1) الرّاغب، المفردات: (غلظ).
(2) ابن منظور، اللّسان: (غلظ).
(3) الجوهري، الصحاح: (غلظ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شدّ).
(5) الرّاغب، المفردات: (شدّ).
(6) ابن منظور، اللّسان: (شدد).
(7) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 13/225.
(8) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/417.

تعالى[1]، والفرق بين الغليظ والشَّديد: أنَّ الشَّديد يراد به القويُّ والصُّلب، وأنَّ الغليظ يراد به الخشن[2]، والمقصودُ بالغِلْظَةِ في الآية: بيان أنَّ العذاب خشنٌ لا رقَّة فيه، وهو وصف آخر، يكشف قسوة العذاب وعظمته إضافة لوصفه بالشَّديد في مواضع أخرى.

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المنّان، ص: 423.

(2) نعيم محمّد عبد الغني، مقال: العذاب الغليظ، جريدة الشّرق، الدّوحة، قطر، 24 يونيو 2016م.

﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ٥٩﴾ [هود: 59]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيان العلاقة بين الوعيد بالعذاب وأثر الجحود والعصيان والعناد

لمّا ذكر ما حلَّ بهم من غلظة العذاب، وتمَّت قصَّتهم على الوجه البديع والأسلوب البليغ؛ أتبعه عاطفًا على ذلك[1]، تنويهًا بسبب ما نزل بهم من البلاء، فقال: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾، أي: قد أحللنا بهم نقمتنا؛ لأنَّهم جحدوا بآيات ربِّهم وحججه، وعصوا رسله[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَحَدُواْ﴾: أصلُ (جحد): يَدُلُّ على قِلَّةِ الخَيْرِ، يقال: عامٌ جَحِدٌ، أي: قَليلُ المَطَرِ، ورجل جَحِد: فقيرٌ قَليلُ الخَيْرِ[3]، ويُقال: جَحِد عَيْشُهم جَحَدًا؛ إذا ضاقَ واشتدَّ، فالجَحْدُ منْ كُلِّ شَيءٍ القِلَّةُ، ومنْ هذا البابِ الجُحودُ، وهو ضِدُّ الإقْرارِ كالإنكار والمعرفة[4]، ولا يَكونُ إلّا مع عِلْمِ الجاحِدِ به أنَّهُ صَحيحٌ، قالَ اللّه تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النمل: 14][5]، والمرادُ بالجَحْدِ في الآية: الإنكارُ الشَّديدُ، مثل إنكارِ الواقِعاتِ والمُشاهَداتِ[6].

2) ﴿وَعَصَوۡاْ﴾: أصلُ (عصو): يَدُلُّ على الفُرقَةِ، ومنه العِصيانُ: الخُروجُ عن الطّاعَةِ، يُقال: عَصاهُ، يَعصيهِ، مَعْصيَةَ وعِصْيانًا؛

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/315.
(2) المراغيّ، تفسير المراغي: 12/51.
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جحد).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عباد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جحد).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جحد).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/105.

إذا خَرَجَ من طاعَتِه، فهو عاصٍ وعَصيٌّ، والجَمْعُ عصاةٌ وعاصونَ، والعاصي: الفَصيلُ؛ إذا عَصى أُمَّهُ في اتِّباعِها[1]، ويأْتي بمعنى المُخالَفَة، فيُقال: عَصَى أميرَهُ: إذا خالَفَ أَمْرَهُ، وضِدُّه: الطّاعَةُ والإجابَةُ، ومن معانيه: الشَّدُّ والجَمْعُ، يُقال: عَصَوْتُ الجُرْحَ: إذا شددته، وهو على خلاف الباب، ومِن معاني العِصيانِ أيضًا: الإثْمُ، والتَّمَرُّدُ[2]. والمقصود بالعصيان في الآية: الخُروجُ عن الطّاعَةِ بِتَرْكِ أَمْرٍ، أو فِعْلِ نَهْيٍ، من الأقْوالِ والأعْمالِ الظّاهِرَةِ أو الباطِنَةِ.

3) ﴿جَبَّارٍ﴾: أصلُ (جبر): يدلُّ على جِنْسٍ منَ العَظَمَةِ والعُلوِّ والاستِقامَةِ، فالجَبّارُ: الَّذي طالَ، وفاتَ اليَدَ، يقال: فَرَسٌ جَبّارٌ، ونَخْلَةٌ جَبّارَةٌ[3]، والجَبْرُ: هو أن تُجبر إنسانًا على ما لا يُريد، وتُكرهه جَبَرِيَّةً على كذا[4]، والجَبّارُ: الله ﷻ، القاهرُ خلْقَهُ على ما أرادَ[5]، والجَبّارُ: العاتي على رَبِّه، القتّالُ لرَعيَّته، والجَبّارُ من النّاس: العظيم في نفسه الَّذي لا يقبلُ موعِظة أحدٍ[6]، ورجلٌ جبّار؛ إذا كانَ طَويلًا عَظيمًا قويًّا، تشبيهًا بالجبّار من النَّخيل، وذو كِبْرٍ لا يَقْبَلُ مَوْعِظَةً[7]، والمراد بالجبّار في الآية: المُتَعاظِمُ الشَّديدُ التَّكَبُّرِ.

4) ﴿عَنِيدٍ﴾: أصلُ (عند): يَدُلُّ على مُجاوزَةٍ وتَرْكِ طَريقِ الاستِقامَة، قالَ الخليلُ: عَنَدَ الرَّجُلُ، وهو عانِدٌ، يَعْنُدُ عُنودًا؛ إذا عَتا، وطَغَى، وجاوزَ قَدْرَهُ[8]. يُقالُ: عَنَدَ فُلانٌ عَنِ الأمْرِ؛ إذا حادَ عنه، ورَجُلٌ عَنودٌ؛ إذا كانَ وحْدَهُ لا يُخالِطُ النّاسَ[9]، ومنهُ العَنيدُ، الجائِرُ عَنِ القَصْدِ الباغي الَّذي يَرُدُّ الحَقَّ مَعَ العِلْمِ بِهِ، وتَعانَدَ الخَصْمانِ: تَجادَلا[10]. والمرادُ بالعنيد في الآية: القَويُّ الجائر، أي: المُكابر والمُدافع للحَقِّ، وهو يَعْلَمُ أنَّهُ مُبْطِلٌ.

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عصو - عصوى).
(2) ابن سيده، المحكم، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عصو).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جبر).
(4) الخليل، العين: (جبر).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جبر).
(6) الخليل، العين، الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (جبر).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جبر).
(8) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عند).
(9) الخليل، العين: (عند).
(10) ابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (عند).

المَعنى الإجْماليُّ:

أشارَ اللّٰه تعالى إلى العِبرة من قبيلة عاد التي كانت أقوى قبائل العرب في زمانها، فقال: وتلك عادٌ - الذين أوقعَ اللّٰه بهم ما أوقعَ - كذَّبوا بالمُعجزاتِ التي أيَّد اللّٰه بها الرُّسُلَ، وأنكَروا ما أنزل اللّٰه عليهم منَ الحُجَجِ والبراهين، وعَصَوا رُسُلَ اللّٰه بعصيانِهم لرَسولِهم هودٍ عليه وعليهم السَّلامُ، واتَّبَعوا كلَّ مُتكَبِّرٍ من كُبَرائِهم ورؤسائِهم، متسَلِّطٍ على الخلقِ، طاغيةٍ معاندٍ، لا يقبَلُ الحَقَّ[1].

الاعتبار بقوم عاد، وآفاتهم من الجحود والعِصيان والانسياق لكلِّ جبّار عنيد

وترشِدُ الآيةُ الكريمةُ إلى أنَّ مَن عصى رسولًا واحدًا لزمَه عصيانُ جميعهم؛ فإنَّهم متَّفقون على الإيمان باللّٰه، وعلى توحيده، وترشدُ إلى التنديد بالكِبْرِ والعناد؛ إذ هما من شر الصِّفات الخُلُقية في الإنسان، وأنَّ اتِّباعَ الطُّغاةِ والظلم والكفر والفساد لا يقودُ إلّا إلى الدَّمار والخَسار[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف بـ (الواو) في ﴿وَتِلۡكَ﴾:

استئناف الخطاب للإشارة إلى العظة من قصَّة قوم عاد

الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾، استئنافيَّةٌ مفتتحة بالواو الاستئنافيَّة[3]، فلمّا ذكر قصَّة عاد؛ استأنف بخطاب النَّبيِّ ﷺ بالإشارة إلى قبورهم وآثارهم الباقية للنَّظر والاعتبار[4]، وليس إيراد القصص في القرآن إلّا للعظة والاعتبار.

سرُّ الإشارة بـ اللَّفظ ﴿وَتِلۡكَ﴾:

الإشارة إلى عادٍ المُهْلَكَة؛ للاعتبار بمآلها وسوء عقباها

في قوله: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ استعمل النَّظم الجليل في هذه الآية الكريمة اسمَ الإشارة الدّالَّ على المفرد المؤنَّث

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/451، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/54، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 384.

(2) ابن جُزَيّ، التسهيل لعلوم التنزيل: 1/400، والجزائري، أيسر التفاسير: 2/556.

(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 6/298.

(4) النّيسابوريُّ، غرائب القرآن: 4/33.

﴿وَتِلْكَ﴾؛ للدَّلالة على القبيلة أو القصَّة[1]. وفائدة الإشارة هنا لبيان أنَّ قصَّتهم ما زالت حاضرةً في الذِّهن، بسبب ما أجري عليه من الحديث، وشيّق التَّصوير، وماتع العبارة، حتّى صار كأنَّه حاضر في الحسِّ والمشاهدة، وهو من التَّصوير الفنِّي في القرآن الكريم، وقد أجاد الطَّيبيُّ؛ إذ قال: "وقلت: كأنَّه آذنَ بتصوير تلك القبيلة في الذِّهن، ثمَّ أشار إليها، وجعلها خبرًا للمبتدأ لمزيد الإبهام، فيحسن التَّفسير بقوله: ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ كلَّ الحسنِ لمزيد الإجمال والتَّفصيل"[2]. وقد جاءت الإشارة إلى عاد، لقوَّتها وطاغوتها، وما لاقت بسبب تمرُّدها، لِما في ذلك من عبرة[3].

وجهُ إيثار اسم الإشارة (تِلْكَ):

إبعادُ الله تعالى لقوم ما، تصريحٌ بتحقيرهم وسوء مصيرهم

قوله جل شأنه: ﴿وَتِلْكَ عَادٌۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، آثر النَّظم الجليل فيها التَّعبير باسم الإشارة الدّالِّ على البُعد، تحقيرًا لهم، وتنزيلًا لهم منزلة البعيد، لعدمهم، وإذا أريد باسم الإشارة قبورهم؛ فهي للبعيد المحسوس[4]، وبالإشارة "فصل بين عاد (المكان)، وعاد (المكين)، وهم قوم عاد؛ لذلك قال سبحانه: ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، فهم قد ذهبوا، وبقيت آثارهم"[5].

موقع جملة ﴿جَحَدُواْ﴾ في الآية:

بعد الإجمال بالإشارة، بيان تفصيل ملمح الذَّمِّ

الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾، مستأنفة سيقت للإخبار عنهم بذلك، وليسَتْ حالًا ممّا قبلها[6]، وهي بيانٌ وتفسيرٌ للجملة الاسميَّة ﴿وَتِلْكَ عَادٌۖ﴾، "كأنَّه آذنَ بتصوير تلك

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/219.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/115.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3721.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/110.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6519.
(6) السّمين الحلبي، الدّرُّ المصون: 6/345.

القبيلة في الذِّهن، ثمَّ أشار إليها، وجعلها خبرًا للمبتدأ، لمزيد الإبهام، فيحسن التَّفسير بقوله: ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾، كلَّ الحُسنِ لمزيد الإجمال والتَّفصيل"(1).

سرُّ إيثار التَّعبير بلفظ الجحود:

جحود الآيات كفرٌ بها، بعد العلم بيقينها وصدقها

دلَّ التَّعبير بالفعل ﴿جَحَدُواْ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ على أنَّهم كفروا بالآيات مع المعرفة بإيقان؛ لأنَّ الجُحود يدلُّ على نفي ما في القلب إثباته(2)، أي: "كفروا بها بعدما استيقنوها"(3)، وهذا أبلغُ من مجرَّد الكفر، فهو كفر عن دراية وعلم بالحقِّ، ثمَّ عدول عنه إلى الباطل، فيتضمَّن ذلك الإصرار والكفر عن علم، فلا إعذارَ لهم ولا إمهال.

بلاغة التَّعبير بالماضي ﴿جَحَدُواْ﴾:

جحود قوم عاد تحقَّق واقعًا، ولا يكون جحود إلّا مع يقين وجود

عبَّر بالفعل الماضي في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ للدَّلالة على أنَّ جحودهم تلك الآيات أمرٌ مقطوع به، وأنَّه قد تأكَّد حدوثه، فهو حدثٌ انقضى، فاستحقُّوا ما وقع جزاءً عليه، والجحود كفر ونكران، بعد معرفة واستيقان، ولذلك كان الإخبار عن واقع معيش، مرَّت به هاته الأقوام، في تلك الأحداث الحوالك التي بدأت دعوة للهداية والانسلاك، وانتهت بالكفر والمنابذة والهلاك، وذلك حكم اللّه على كلِّ من كفر، وقانونه على كلِّ منْ طغى وبطر.

دلالة التَّعبير بالجمع ﴿جَحَدُواْ﴾:

الإجماع على الكفر دليل على انطماس البصيرة

قوله جلَّ شأنه: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾، عبَّر النَّظم الكريم بالفعل الماضي المسند إلى واو الجماعة؛ للدَّلالة على أنَّ كفرَهم كان جماعيًّا، ولذلك كانت العقوبة جماعيَّة، وعصيانهم الجماعيُّ للرَّسول المبعوث إليهم، يصعِّب من مهمَّة الرَّسول، ويحجب

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/115.

(2) الرّاغب، المفردات: (جحد).

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/219.

عنهم رؤية الحقِّ، واستبانة الهدى، وهو أمر شهدته المجتمعات الكافرة في جميع العصور، وكان الكفر الجماعيُّ سببًا في دمار كيانها، وهلاك أهلها.

علَّةُ تعدِّي الفعل ﴿جَحَدُواْ﴾ بالباء:

الكفر بالآيات مع اليقين بها، مُفْصِحٌ عن استحواذ الكفر عليهم

قوله جلَّ شأنه: ﴿وَتِلْكَ عَادٌۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾، تعدَّى فيه الفعلُ ﴿جَحَدُواْ﴾ بحرف الجرِّ الباء، مع أنَّه متعدٍّ بنفسه، لتأكيد التَّعدية، فأُنزل (جحد) منزلة الفعل (كفروا)[1]، وقد دأب النَّظم الكريم على استعماله متعدّيًا بالباء كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾ [النّمل: 14]، وقوله: ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١﴾ [الأعراف: 51]. ولمّا كان الجحود أبلغَ من النَّفي والكفر؛ لأنَّه الكفر مع اليقين دلَّ ذلك على شدَّة ملابسة الكفر لهم إزاء هذه الآيات، فكان التَّعبير بالباء لذلك.

نكتةُ إضافة الآيات في ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾:

إضافة الآيات للخالق المنعم، إشارة إلى جدارتها بالدّلالة

أضاف النَّظم الجليل لفظ الآياتِ إلى الرَّبِّ، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَتِلۡكَ عَادٌۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ مصدر تلك الآيات، هو اللَّطيف بهم، والمحسن إليهم، وأنَّها منزلة منه، وفيها إشارة إلى أنَّها مراعية لعقولهم ومداركهم، لما في لفظ الرَّبِّ من إلطاف وإحسان، وأنَّها جديرة بأن تكون دالَّة على ما يراد منها، ويدلُّ على تفخيم شأنها وكونها آيات نزلت بعناية اللَّطيف الخبير.

سرُّ الإضافة في ﴿رَبِّهِمۡ﴾:

ربوبيَّة الله تعالى، لا ينِدُّ عنها مؤمن ولا كافر

قوله جلَّ شأنه: ﴿وَتِلۡكَ عَادٌۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾، أضاف فيه النَّظم الكريم، لفظ الرُّبوبيَّة إلى الضَّمير الدّال على قوم هود ﵇؛ إذ ربوبيَّته لا تنفكُّ حتّى عن العصاة والكفرة والمناوئين، فإنَّ اللّٰه تعالى هو ربُّ النّاس جميعًا ورازقهم والمقيم على شأنهم، من غير

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/110.

نظر إلى معتقدهم رحمة منه وتفضُّلًا، وهو المعنى الوارد في قول إبراهيم عليه السلام لربِّه سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [البقرة: 126]، فكان جواب الله غير مميَّز بين كافر ومؤمن، في عطاء الرُّبوبيَّة، حيث قال تعالى له: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦﴾ [البقرة: 126]، "فردَّ الله سبحانه عليه قائلًا: إنَّه سيرزق المؤمنين وغير المؤمنين من النّاس؛ لأنَّه سبحانه لا يخلق خلقًا لا يرزقه؛ ولكنَّه تعالى جعل ذلك الرِّزق لمن كفر، متاعًا قليلًا، مدَّة وجودهم في الدُّنيا"[1].

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿وَعَصَوۡاْ﴾:

الرَّاسخون في المعاصي يكون العذاب لهم جزاء وفاقًا

عبَّر النَّظم الجليل عن عصيانهم بالفعل الماضي، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾؛ للدَّلالة على رسوخهم في المعاصي، وأنَّهم قد دأبوا على فعل ذلك، وتأكَّد تحقيقهم له، بحيث إنَّه صار حدثًا ماضيًا مقطوعًا به، وأسند العصيان إليهم، معبِّرًا عنهم بـ واسطة (واو الجماعة)، لتسويغ استحقاقهم للعذاب الهون في الدُّنيا والآخرة.

فائدةُ جمعِ لفظ الرُّسل في قوله: ﴿رُسُلَهُۥ﴾:

مَنْ عصى رسولًا واحدًا، فقد عصى الجميع؛ لأنَّ دعوتهم واحدة

أورد النَّظم الكريم لفظ الرُّسل جمعًا، في قوله جل شأنه: ﴿وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾، مع أنَّه لم يرسِلْ إليهم غيرَ هودٍ عليه السلام، تفظيعًا لكفرِهم وعنادِهم، وبيانًا أنَّ عصيانهم لرسولهم، هو عصيانٌ لجميع الرُّسلِ السّابقين واللّاحقين[2]، وقد قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة: 136]، فهم "وإن كانوا قد عصوا رسولًا واحدًا،

---

(1) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 133.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/219.

فإنَّ عصيان واحد منهم عصيان للجميع؛ لأنَّه ما كان إلّا لنفي الرِّسالة نفسها، بدعوى أنَّ الرَّسول لا يكون بشرًا"[1]، والمعنى: أنَّهم ﴿وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾، أي: عصوا جنسهم، بعصيان رسوله إليهم وإنكار رسالته، فإنَّ عصيان الواحد عصيان للجنس كلِّه؛ إذ هو مبنيٌّ على رفض الرِّسالة نفسها، بادِّعاء أنَّ الرَّسول لا يكون بشرًا "[2].

نكتةُ الإضافةِ في: ﴿رُسُلَهُۥ﴾:

تكريم الرُّسلِ وتشريفهم لنسبتهم لله تعالى، والتَّشنيع بمكذِّبيهم

جاء لفظ الرُّسل مضافًا إلى الضَّمير العائد للّه تعالى، في قوله جل شأنه: ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾، إشارةً إلى أنَّ الرُّسل مرسلين من اللّه ﷻ، وفي ذلك تكريمٌ لهم وتشريف، وأنَّ الرَّسول مبعوثٌ من اللّه تعالى ليطاع، لا ليعصى، وطاعة الرَّسول من طاعة اللّه، قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النّساء: 80]، وفي ذلك بيان لشناعة تكذيب هؤلاء الكرام ﵈، فإنَّ صفتهم بالرِّسالة صادرة من اللّه تعالى، فيكون إنكارُها إنكارًا للّه تعالى، لا للرُّسل خاصَّة.

معنى العطفِ في قوله: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾:

اتِّباع الطُّغاة والعزوف عن الصّالحين، منهج الضّالّين المعاندين

قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾، معطوف على قوله تعالى: ﴿وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾؛ لبيان أنَّ قوم عادٍ لم يكتفوا بمعصية اللّه تعالى، وعدم اتِّباع دينه، بل زادوا ذلك بأن اتَّبعوا المعاندين الطُّغاة، والمعنى: عصَوا مَنْ دعاهم إلى الهدى، وأطاعوا من حداهم إلى الرَّدى.

دلالة الماضي ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾:

تحقُّق اتِّباعهم أهلَ التَّجبُّر والعناد، وضلالهم جميعًا

في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾، عبَّر النَّظم الكريم عن ضلالهم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾ بالاتِّباع، وجاء ذلك بصيغة الفعل الماضي للدَّلالة على أنَّ اتِّباعهم

---

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/52.

(2) محمّد رشيد رضا، تفسير المنار: 12/99.

قد تحقَّق ومضى الزَّمان عليه، تعبيرًا عن اعوجاج مسلكهم، وضلال سبيلهم، وقد أسند إلى واو الجماعة؛ للدَّلالة على أنَّ ذلك الاتِّباع كان منهجًا لجميعهم، وأنَّهم ضلّوا جماعة، كما ضلّوا فرادى.

اتِّباع المضلِّين صورة مماثلة لاتِّباع جاهل بمسالك الطَّريق

بلاغةُ الصُّورة التَّمثيليَّة في الآية:

دلَّ التَّعبير بالاتِّباع، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾، على صورة تمثيليَّة، فالاتِّباع هو العمل على وفق ما يملي المتَّبع، وهذا يشابه ما يفعل الهادي لسالك الطَّريق، فالامتثال للأوامر يشبه الاتِّباع للسّائر، فهي صورة تشبيهٍ تمثيليٍّ مكتملة[1].

دَأْبُ الضّالّين الكفرة، اتِّباع المفسدين الفجرة

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿كُلِّ﴾:

عبَّر النَّظم الكريم بلفظ ﴿كُلِّ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾، عن شدَّة ضلالهم، فإنَّ ﴿كُلِّ﴾ يدلُّ على العموم على الحقيقة، فيكون دالًّا على الاستغراق، فإنَّهم اتَّبعوا كلَّ جبّار عرفوه، أو يدلُّ على العموم على الأغلب والأكثر، "فإن أريد كلُّ جبّار عنيد من قومهم فالعموم حقيقيٌّ، وإن أريد جنس الجبابرة؛ فـ ﴿كُلِّ﴾ مستعملة في الكثرة"[2]. وأضاف ﴿كُلِّ﴾ إلى ﴿جَبَّارٍ﴾ وليس إلى ﴿أَمۡرَ﴾، فلم يقل: (اتَّبعوا كلَّ أمرِ جبّار عنيد)؛ لأنَّ المراد أنَّهم اتَّبعوا الأوامر التي تصدر من الجبابرة، وتخالف الشَّرع، وليس كلَّ أمر من أوامرهم، فلم يتابعوه في كلِّ أمره[3]، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّهم انتقَوا الضَّلال، واختاروه اختيارًا، وفيه كذلك تأكيدٌ لدأبهم على اتِّباع الضَّلال والنُّفور من الإيمان بإله واحد، تعبيرًا عن فساد طويَّتهم وسوء مقصدهم.

ظهور طغيان المتَّبَعين، إفصاحٌ عن ضلال التّابعين

سرُّ الجمع بين الوصفين ﴿جَبَّارٍ﴾ و ﴿عَنِيدٖ﴾:

جمع النَّظم البليغ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/105.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/106.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/361.

بين صفتي الجبّار والعنيد، والجبّار: قاهرٌ بليغ القهر، يجبر غيره على ما يريد، والعنيد: طاغٍ وباغٍ لا يقبل الحقَّ بوجهٍ، وفائدة الجمع بين الصِّفتين، تأكيدُ كونهم في الغاية من التَّجبُّر والظُّلم والطُّغيان، والغرض من ذلك هو شدَّة الذَّمِّ للَّذين اتَّبعوهم، فهو مبالغة في بيان فساد قلوبهم، فإنَّ المتَّبَعين ظاهرو الطُّغيان والعدوان، مع ذلك اتَّبعوهم، وكان في وسعهم إضمار خلاف ما يأمرونهم به، ولكنَّهم خافوا، فاتّبعوهم لفسادهم، وهذا مستفاد من قول البقاعيِّ رحمه الله: "وهذا يدلُّ على أنَّه لا عذر في أصل الدِّين بوجه، فإنَّ الضَّمائر لا يعلمها إلّا الله، فيمكن لكلّ أحد مخالفة الجبّار فيه"[1].

نكتةُ ترتيب الجمل المبدوءة بالأفعال:

ترتيب الجمل حسب الوجود الخارجيِّ من بديع الاستعمال

رتَّب النَّظمُ الكريم الجمل الفعليَّة الثَّلاث الواردة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾، ففيه ثلاث جمل، كلُّ واحدة مبدوءة بفعل مختلف، وهي على التَّوالي: ﴿جَحَدُواْ﴾.. ﴿وَعَصَوۡاْ﴾... ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾، وترتيبها جاء حسب المراحل فبعضها يفضي إلى بعض، ويكمِّل دلالته، ويُفصح عن مرماه، فقوله: ﴿جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾، هو المرحلة الأولى، وهي مرحلة الجحود؛ فلا يقع عصيان، ولا اتِّباع الطُّغاة إلّا بعد تحقيق الجحود والكفر، والثّانية: ﴿وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ﴾: وهي مرحلة عصيان الرَّسول، والثّالثة: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾: وهي مرحلة تحدّي الدَّعوة واتِّباع غير الرَّسول[2].

دلالة التَّعبير بالمبالغة ﴿عَنِيدٖ﴾:

العناد صفة للتَّعبير عن العتوِّ والتَّجبُّر ومجانفة الحقِّ

عبَّر النَّظم الجليل في قوله جل شأنه: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾، بصيغة المبالغة ﴿عَنِيدٖ﴾، التي على وزن (فعيل)، دون

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/315.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 12/54 بترقيم الشاملة آليًّا.

اسم الفاعل (معاند)؛ للمبالغة في صفة العناد والعتوِّ، الَّتي يتَّصف بها أولئك الضّالّون من الجبابرة، وهم رؤساؤهم ودعاتهم إلى تكذيب الرُّسل؛ لأنَّهم الذين يجبرون النّاس على الأمور، ويعاندون ربَّهم، ومعنى اتِّباع أمرهم: طاعتهم "[1]، فهو أبلغ من اسم الفاعل (معاند).

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(جحد) و(أنكر):

الجــحــود: ضـدُّ الإقـرارِ، والإنـكـار: ما لَمْ يقبله القلب، ولم يعترف به اللِّسان

الفرق بين الجحود والنُّكر: أنَّ الجحود ضِدُّ الإقْرار، ولا يَكونُ إلّا مَعَ عِلْم الجاحِدِ بِهِ، أنَّهُ صَحيحٌ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النّمل: 14][2]، فهو نفي ما في القلب إثباته[3]، أمّا الإنكار؛ فهو من: نَكِرَ الشَّيْءَ، وأنْكَرَهُ: لَمْ يَقْبَلْهُ قَلْبُهُ، ولَمْ يَعْتَرِفْ بِهِ لِسانُهُ[4]. وهو ضِدُّ العِرْفانِ، وأصلُه أن يَرِدَ على القَلْبِ ما لا يتصوَّره، وذلك ضَرْبٌ من الجَهْلِ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هود: 70]، وقد يُستعمَلُ ذلك فيما يُنْكَرُ باللِّسانِ، وسَبَبُ الإنْكارِ باللِّسانِ هو الإنْكارُ بالقلبِ[5]، لذلك جاء في التَّعبير في الآية بالجحود، تعبيرًا عن أنَّهم قد عرفوا أنَّها حقٌّ، فمعنى أنَّهم جحدوا بها: أنَّهم "كفروا بها بعد ما استيقنوها"[6]، والجحد أخصُّ من الإنكار؛ لأنَّ الجحد إنكار الشَّيءِ الظّاهر، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝٥١﴾ [الأعراف: 51]، وقد يكون الإنكار مرتبطًا دلاليًّا بالنِّعمة؛ لأنَّها قد تكون خافية، ومنه قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝٨٣﴾ [النّحل: 83]، ويجوز أن

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 12/54 بترقيم الشاملة آليًّا.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جحد).
(3) الرّاغب، المفردات: (جحد).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نكر).
(5) الرّاغب، المفردات: (نكر).
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/219.

يكون الجحد هو إنكار الشَّيء مع العلم به، ويدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ﴾ [النّمل: 14]، والجحد يكون مع اليقين، بينما الإنكار يكون مع العلم وغير العلم... وقال المبرِّد: لا يكون الجحود إلّا بما يعلمه الجاحد، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ٣٣﴾ [الأنعام: 33][1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 46.

﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ٦٠﴾ [هود: 60]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

علاقة عذاب قوم عادٍ واستئصالهم بإتْباعِهِمُ اللّعنة في الدُّنيا والآخرة

لمّا ذكر النَّظم الكريم عقابهم، وبيَّن أنَّهم اتَّبعوا الكفرة الجبّارين، والطُّغاة الآثمين؛ أتْبع ذلك ببيان أنَّ العذاب عنهم لم ينقطع، بل اتّبعتهم اللَّعنة في الدُّنيا غيرَ منفكَّة عنهم، وكذلك في الآخرة سوف يلاقون تلك اللَّعنة، فيجازَوْن بالطَّرد الثّابت لهم من رحمة اللّه تعالى؛ لأنَّهم "جحدوا نعمة خالقهم عليهم، ولم يشكروها بالإيمان به وحده، فأصبحوا جديرين بطردهم من رحمة اللّه، وإنزال الهلاك الشَّديد بهم"[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأُتۡبِعُواْ﴾: أصلُ (تبع): التُّلُوُّ والقَفْوُ، يقال: تَبِعتُ فُلانًا؛ إذا تَلوتُهُ واتَّبَعْتُه، وأتْبَعْتُه؛ إذا لَحِقتُهُ[2]، كأنَّما لَحِق أو التصق به وتَطَلَّبه مُتَّبِعًا له[3]، وتَبِعتُ الرَّجُلَ؛ إذا مشيتَ مَعَه، واتَّبعته؛ إذا مشيتَ خَلفَه لتلحقه[4]. قال أبو عُبيد: ويُقال: أَتْبَعْتَ القَومَ؛ إذا كانوا قد سبقوك، فلحِقتهم، قالَ: واتَّبعتُهم؛ إذا مرّوا بكَ، فمضيت مَعَهم، وتبِعتهم تَبَعًا مثله[5]، وأتبع فلانٌ فلانًا؛ إذا تبعه يُريد بِهِ شرًّا، كما أتبع فِرْعَوْنُ موسَى، وأمّا التَّتبُّع؛ فأنْ يتتبَّع في مُهْلَة شَيئًا بعد شَيْءٍ[6]، والمراد بالإتْباع في الآية: لَحِقَتْ بهم، وتوالَتْ عليهم.

(1) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 318.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (تبع).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة: (تبع).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (تبع).
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (تبع).

2) ﴿لَعْنَةً﴾: أصلُ (لعن): يَدُلُّ على الطَّرْدِ والإبْعادِ، يُقال: لَعَنَهُ اللّٰه، أيْ: أبْعَدَهُ، وطَرَدَهُ عن الخَيْرِ[1]، واللَّعينُ: المُبْعَدُ المَنْبوذُ، واللِّعانُ: الدُّعاءُ باللَّعْنِ، وأمّا الذي يَصدُرُ من الخَلْقِ؛ فهو بمعنى السَّبِّ والشَّتْم، فيُقال: لَعَنَهُ لَعْنًا، أيْ: سَبَّهُ[2]، ويأتي اللَّعْنُ بمعنى التَّعْذيبِ والإهْلاكِ، واللَّعْنَةُ: العَذابُ[3]. ومن مَعانيه أيضًا: المَسْخُ[4]، قال الشَّمّاخ:

ذَعَرْتُ بِهِ القَطا ونَفَيْتُ عَنْهُ *** مَقامَ الذِّئْبِ كالرَّجُلِ اللَّعينِ[5]

والملاعنة واللِّعان: المباهلة، والملعنة: قارعة الطَّريق، ومنزل النّاس، وفي الحديث: «اتَّقوا المَلاعِنَ»[6]، يعني عند الحدث، ورجل لُعَنَة: يلعن النّاس كثيرًا، ولُعْنَة، بالتَّسكين: يلعنه النّاس[7]، والمقصود باللَّعنَةِ في الآية: الطَّردُ بإهانةٍ وتَحقير.

3) ﴿بُعْدًا﴾: أصلُ البُعْدِ: خِلافُ القُرْبِ، يُقال: بَعُد يَبْعُدُ بُعْدًا، ضِدَّ قَرُبَ يَقرُب قُربًا، وليس لهما حدٌّ محدود[8]، وتقول العرب: بُعدًا وسُحْقًا، مصروفًا عن وجهه، ووجهه: أبعده اللّٰه وأسحقه[9]، وبعُد يبعُد بُعْدًا، من قولهم: (أبعده اللّٰه)، فإذا أمرت؛ قلت: ابعد. قال الشّاعر[10]:

صبا ما صبا حَتَّى عَلا الشَّيْبُ رَأْسَهُ *** فَلَمّا عَلاهُ قالَ لِلْباطِلِ ابْعدِ

والَّذي عَبَّرَ بِهِ الأقدمون أنَّ البُعْد بمعنَى الهلاكِ، ويُقال: إنَّ الذي بمعنَى الهلاكِ إنَّما هو البَعَد، ومَنْ جَوَّزَ الاشتراكَ فيهما أشار إلى أفصحيَّة الضَّمِّ في خِلافِ القُرْب، وأفصحيَّة الكسرِ في معنَى الهلاكِ[11]. والمقصود بالبُعْدِ في الآية: الإبعادُ والطرد عن رحمة اللّٰه بطريق العقوبة.

---

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (لعن).

(2) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (لعن).

(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (لعن).

(4) ابن منظور، لسان العرب: (لعن).

(5) البيت للشّمّاخ بن ضرار، من قصيدة يمدح بها عرابة بن أوس، ينظر: ديوان الشّمّاخ، ص: 320، و346، وابن منظور، لسان العرب: (لعن)، وابن دريد، جمهرة اللّغة: (علن)، وابن الأنباري، الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي، ص: 220، والبغدادي، الخزانة: 4/347، وابن يعيش، شرح المفصّل: 3/13.

(6) الحديث من لفظ التّرمذيّ عن معاذ بن جبل، قال: قالَ رَسولُ الله ﷺ: «اتَّقوا المَلاعِنَ الثَّلاثَةَ: البَرازَ في المَوارِدِ، وقارِعَةِ الطَّريق، والظِّلِّ»، حسن لغيره، وله شاهد من حديث معاذ بن جبل عند أبي داود، السنن، الحديث رقم: (26)، وابن ماجه، السنن، الحديث رقم: (328)، والحاكم، المستدرك: 1/167، والبيهقي، السنن: 1/97، وغيرهم.

(7) ابن منظور، لسان العرب: (لعن).

(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، والزَّبيديّ، تاج العروس: (بعد).

(9) الخليل بن أحمد، كتاب العين: (بعد).

(10) البيت منسوب لدريد بن الصّمّة، ذكره الخرائطيّ في اعتلال القلوب: 2/321، وابن دريد في جمهرة اللّغة: (بعد).

(11) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (بعد).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

يخبر اللّه تعالى في هذه الآيةِ أنَّ قومَ عادٍ لم يتركوا وراءهم في هذه الدُّنيا خيرًا يُذكرون به، ولم يخلِّفوا أثرًا طيِّبًا ينتفعُ به النّاس بعدَهم، وإنَّما الَّذي تركوه هو ما يشهد عليهم بالبغي والضَّلال والفساد في الأرض، حيث سوءُ سمعتهم في الدُّنيا وفي الآخرة؛ إذ لحِقت بهم لعنةٌ في هذه الدنيا، فكان كلُّ من عَلِم بحالهم ومن أدركَ آثارَهم، وكلُّ من بلَّغه الرسلُ من بعدهم خبرَهم يلعنونهم، وتلحقُهم هذه اللعنةُ أيضًا يوم القيامة حينما يلعنُ الأشهادُ الظالمين أمثالَهم، وما رَكِبوا في دنياهم من ضلالٍ، إذ فوَّتوا على أنفسهم مقامَ أهل الإيمان، هذا المقامُ الكريمُ وما ساقه إليهم إيمانُهم من نَعيم ورِضوانٍ، فيجدون لذَّة إلى لذَّتهم، بينما هؤلاء البؤساء تتابعت عليهم لعنتان من اللّه، لعنةٌ لازمة لهم في الدنيا ولعنةٌ دائمة في الآخرة[1].

إظهار تتابعِ غضب الله على قوم عادٍ، ولعنتِه لهم وطردِهم من رحمته

وترشدُ الآية الكريمةُ إلى أنَّ مَن أرادَ سلامةَ الدّارين والظَّفَر بقرّة العين، فليتمسَّكْ بالإيمان باللّه، وبكلِّ ما أتى به الرسول الأمين عن رب العالمين، وليتَّبِعْ منهجَ الرَّشاد والسداد، وليتجنَّبْ كلَّ ما يحول بينه وبين اللّه، ويُغْفِلُه عن ذكر اللّه، وترشدُ إلى التخويف من الإبعاد عن اللّه وما يقرِّب إليه[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ بناء فعل ﴿وَأُتۡبِعُواْ﴾ للمفعول:

حلولُ الإبعاد والطردِ لهم عن رحمة الله بأيسر وجه تعظيم لحال اللعنةِ

آثر النَّظم الكريم في هذه الآية: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ﴾ التَّعبيرَ بالفعل المبنيِّ للمجهول إيجازًا بالاستغناء عن الإخبار بما هو معلوم؛ إذ إنَّ من المعلوم أنَّ وقوع اللَّعنة على قوم عادٍ وتتابعها هو من اللّه تعالى، فالبناءُ للمجهول يدلُّ على أنَّ إهلاكهم وقع بأيسر

(1) الراغي، تفسير المراغي: 12/52، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1160.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 2/539.

وجه؛ تعظيمًا لشأن لعنة اللّه تعالى[1]، فإنَّ عدم تعظيمها بذكر لفظ الجلالة يدلُّ على كفاية التَّعظيم، ولأنَّ المقصود من السّياق هو بيانُ حلول الإبعاد والطردِ عن رحمة اللّه بطريق العقوبة لهؤلاء القوم وملازمتها لهم في الدنيا والآخرة.

نكتة جعل اللَّعنة نائبَ فاعلٍ:

التَّصريح بمصدريَّة اللَّعن تعظيم له، باعتبار مآلاته الوخيمة

جاء التَّركيب في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ﴾، بجعل اللَّعنة نائب فاعل دون أن يجعلها فاعلًا مع جواز ذلك، فلم يقل: (واتَّبعتهم لعنةٌ)؛ ليؤكِّد أنَّ اللَّعنة بفعل اللّه العليِّ القدير، وهذا أبلغ في تفخيم شأن اللَّعنة، بأنَّها كائنة من فعل اللّه تعالى، واللَّعنة أسوأ ما يسلَّط على الإنسان في الدُّنيا والآخرة؛ لأنَّ مناط الحفظ والإنعام، متَّصل مددًا وانتفاعًا بما يغمر الإنسان من رحمة ومايناله من خير، وما يحيط به من ألطاف، فإذا طالته اللَّعنة؛ خرج من رحمة اللّه، ففقد ذلك كلَّه، فأصبح من الخاسرين في الدُّنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

سرُّ إيثار التَّعبير بـ ﴿وَأُتۡبِعُواْ﴾ و ﴿لَعۡنَةٗ﴾:

لزوم اللَّعنة لهم وتتابعها عليهم أبلغُ من نزولها مرَّة وانتهائها

آثر النَّظم الجليل التَّعبيرَ بقوله جلَّ شأنه: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ﴾، دون أن يقول: (ولُعنوا)، بل عبَّر بأنَّها متابعة لهم، أي: "جُعلت اللَّعنةُ لازمةً لهم، وعبَّر عن ذلك بالتَّبعيَّة للمبالغة، فكأنَّها لا تفارقهم، وإن ذهبوا كلَّ مذهبٍ، بل تدور معهم حيثما داروا، ولوقوعه في صحبة اتِّباعهم رؤساءهم، يعني: أنَّهم لمّا اتَّبعوهم؛ أُتبعوا ذلك جزاءً لصنيعهم جزاءً وفاقًا"[2]، ومفاد قوله: "وأتبعوا، أي: اتَّبع سُقّاطُهُمَ أمر رؤسائِهم وكبرائهم، والمعنى: أنَّهم أطاعوهم فيما أمروهم به"[3].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/316.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/220.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/171.

التأكيد على تعجيل العقاب في الدُّنيا، وعدم السلامة من اللَّعنةِ في أيِّ مكان مع رحابة الحياة

فائدةُ التقديم ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾:

قدَّم النَّظمُ الكريم شبهَ الجملة ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾، على المفعول به، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ﴾، فلم يقل: (وأتبعوا لعنةً في هذه الدُّنيا)؛ اهتمامًا بذكر زمان العقاب على العقاب، للدَّلالة على تعجيل العقاب في الدُّنيا، وفيه دلالةٌ بلاغية مهمَّة، وهي إبرازُ المكان الذي يُتْبَع فيه المخاطَبون باللعنة، وهو الدُّنيا، بحيثُ إنَّ اللعنةَ تلازمهم في حياتهم الدُّنيا، فلا يسلمون منها في أيِّ مكان منها، حتى مع رحابة الدُّنيا التي يظنّون أنَّها ملاذُهم ومكانُ راحتهم.

والعقاب العاجل في الدُّنيا، هو الذي يؤثِّر في الجيل الذي رآه رأي العين، وأبصر فداحته وبشاعته، وأيضًا تفهمه عقول المخاطَبين بالقصَّة، في زمان نزول الوحي على النَّبيِّ الخاتم ﷺ، ممَّن يؤثرون الحياة الدُّنيا، والذين يقولون سفهًا وجهلًا وسوء تقدير: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٣٧﴾ [المؤمنون: 37].

الإشارة إلى القريب تهوين لشأن الدُّنيا، واستصغار لها

دلالة اسم الإشارة في ﴿هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾:

آثر النَّظم الكريمُ، في قوله جل شأنه: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾، الإشارة إلى الدُّنيا دون ذكرها مجَرَّدة عن الإشارة؛ وذلك للتَّهوين والحطِّ من شأنها، فحقَّر الدُّنيا في هذه العبارة باسم الإشارة، بدلالة لفظ الدُّنيا الدّالِّ على الدُّنوِّ[1].

لكلِّ دار لعنتها، وعدم التَّصريح بالثّانية، إيجازٌ للاكتفاءِ بذكر الأولى

بلاغةُ الحذف في: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾:

حذف النَّظم الجليل في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾، فعل الإتّباع ومفعوله، والتَّقدير: (وأُتبعوا يومَ القيامة لعنةً)، فحُذف الفعل والمفعول في جانب حلول اللعنة على قوم هودٍ في الآخرة؛ لدلالة السّياق عليهما، "وللإيذان بكون كلٍّ من اللَّعنتين نوعًا

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/316.

برأسه لم تُجمعا في قَرْنٍ واحد، بأن يقال: (وأتبعوا في هذه الدُّنيا، ويومَ القيامة لعنةً)، كما في قوله تعالى: ﴿۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الأعراف: 156]، إيذانًا باختلاف نوعَي الحسنتين"[1].

دلالةُ افتتاح جملة كفرهِم بـ ﴿أَلَآ﴾:

الافتتاح بالتَّنبيه، يشير إلى خطورة المضمون وحساسيَّته

في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾ افتتح النَّظم الكريم جملةَ بيانِ كفرهم بحرف التَّنبيه (ألا)؛ تنبيهًا وتأكيدًا لمضمون الجملة، وكأنَّ الله تعالى - بهذا الأسلوب - يؤكِّد كفرَهم، أي: اعلموا، وتيقَّنوا أنَّ عادًا كفروا بربِّهم، ويريدُ أن يلْفت انتباه المخاطَب إلى خطورة ما فعلوا، وهذه الأداةُ لا تُذكَر إلّا بين يدَي كلامٍ يعظُم موقعُه، ويجلُّ خطبُه، فافتتح الخبر بها لتأكيد كفرهم[2].

علَّة التعدية في: ﴿كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾:

تغليظ الكفر بإيقاعه على المحسن لهم، مخالفٌ لما يجب أن يكون

عدل النَّظم الكريم في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾، عن تعدية فعل الكفر بحرف الجرِّ إلى تعديته بنفسه، فلم يقل: (كفروا بربِّهم)؛ فلم يجعل الفعلَ لازمًا، بل عدّاه إلى المفعول به بنفسه؛ تعظيمًا لطغيانهم، فجعل الفعلَ متسلِّطًا مباشرة على المفعول به ﴿رَبَّهُمۡۗ﴾؛ إيماء إلى أنَّهم "غطّوا جميع أنوار الظّاهر الَّذي لا يصحُّ أصلًا خفاؤُهُ؛ لأنَّه لا نعمة على مخلوق إلّا منه، فكان كفرهم أغلظَ الكفر[3].

نكتةُ تكرار ﴿أَلَآ﴾:

تكرار التَّنبيه، دليلٌ على خطورة المضمون وأهميَّته

في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾، كرَّر النَّظم الكريم أداة التَّنبيه؛ تنبيهًا على عظم الأمر، وفداحة الخطب، وهذه الأداة تقال عند الأمور الجليلة[4]، فلمّا كان

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/220.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/316.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/316.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/317.

تواطؤ القوم على الكفر من عظائم الأمور، وما لحقه من الطَّرد واللَّعن لقوم بعامَّتهم؛ نبَّه على خطورة ذلك، بتكرار أداة التَّنبيه، تأكيدًا للتَّنبيه وتنويهًا بخطورة المضمون، و"تهويلًا لأمرهم، وتفظيعًا له، وبعثًا على الاعتبار بهم والحذر من مثل حالهم"[1].

دلالة الدُّعاء عليهم في ﴿بُعۡدٗا لِّعَادٖ﴾:

دعـاءُ الله على الهالك بالهلاك؛ لمخالفته أمره، والتأكيد على استحقاقه ذلك

قوله جلَّ شأنه: ﴿بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾، دعاءٌ عليهم من اللّه تعالى بالهلاك، ومجيء الدُّعاء على القوم بعد هلاكهم إشارة إلى أنَّهم كانوا مستحقِّين للهلاك[2]، وذلك للدَّلالة على أنَّهم كانوا على منهج بيِّنِ الضَّلال، يستوجب أن يدعى عليهم، حتَّى بعد أن أُهلِكوا، وفي ذلك يقول الزَّمخشريُّ: "فإن قلت: بُعدًا دعاء بالهلاك، فما معنى الدُّعاء به عليهم بعد هلاكهم؟ قلت: معناه الدَّلالة على أنَّهم كانوا مستأهلين له"[3]. وفيه سؤالان: كيف يدعو اللّه تعالى؟ ومن سيستجيب إذا كان اللّه هو الدّاعي؟ وذلك لبيان أنَّهم يُدعى عليهم لمخالفتهم اللّه تعالى، والآخر كيف يدعو عليهم مع كونهم هالكين؟ وذلك لبيان أنَّهم هلكوا استحقاقًا، وليس ظلمًا.

معنى اللّام في ﴿بُعۡدٗا لِّعَادٖ﴾:

الدعاء بالبعد استحقاق متعين للظالم الهالك

أدخل النَّظم الكريم اللّام على (عادٍ)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾، للدَّلالة على أنَّهم كانوا مستوجبين لما نزل بهم من الإبعادِ عن رحمة اللّه تعالى وثوابه، إلى ناره وعقابه، وأنَّه وقع عليهم على وجه الاستحقاق والتخصيص، وفيه مزيد بيان؛ فكأنَّه قيل: لمِن هذا البُعد؟ فقيل: لعادٍ[4].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/171.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/317.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/405.
(4) إسماعيل حقّي، روح البيان: 4/152.

العاقل من اعتبر بغيره، والأحمق من كان هو ذاته عبرة لغيره

علَّة تكرار (عاد) في الآية:

كرَّر النَّظم الجليل لفظ (عاد) في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدًا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾؛ للمبالغة في تشنيع ما آلوا إليه، من صَغار ودَمار، فأعاد اللَّفظَ ذاته للمبالغة في تفظيع حالِهم، كما أنَّ فيه حثًّا على الاعتبار بقصَّتهم[1].

تكرارُ الاسم، يزيد البيان إيضاحًا، ويفصح عن المقصود بالإخبار

دلالة عطف البيان في ختام الآية:

قوله جلَّ شأنه: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدًا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾، كرَّر النَّظم الجليل خلاله ذكر (عادٍ)، لسببين: أوَّلهما لبيان أنَّها الأولى القديمة التي هي قوم هود، لا عاد إرم، والآخر: لبيان أنَّ الدُّعاءَ عليهم إنَّما كان بسبب صراعهم مع هود، ولهذا خصَّه بالذِّكر، فقوله تعالى: ﴿قَوۡمِ هُودٖ﴾ بيان لعاد، وفائدة ذكره الإيماءُ إلى أنَّ له أثرًا في الذَّمِّ بإعراضهم عن طاعة رسولهم، فيكونُ تعريضًا بالمشركين من العرب، وليس ذكره للاحتراز عن عادٍ أخرى، وهم إرمُ - كما جوَّزه صاحبُ الكشاف[2] - لأنَّه لا يُعرف في العرب عادٌ غير قوم هود، وهم إرم، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧﴾ [الفجر: 6 - 7].

ويحتملُ أنَّ (قوم هود) وصف لـ (عاد) باعتبار ما في لفظ قوم من معنى الوصفيَّة[3]؛ لأنَّهما عادان: الأولى والآخرة، وفيه إيماء إلى أنَّ استحقاقهم للإبعاد، كان بسبب ما جرى له ﷺ معهم من الإنكار[4]، كما أنَّ فيه زيادة في التَّأكيد، للمبالغة في التَّنصيص، أو فيتحقَّق أنَّ الدُّعاء على عاد الذين هم قوم هود هذه، فلا تلتبس بغيرها[5].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/220.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/406. وهو قول حكاه الزمخشري، تبع فيه الثعلبيَّ في كتابه عرائس المجالس، وضعَّفه الطيبي في حاشيته على الكشاف. ينظر: الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 8/117.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/107.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/317، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/107.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/171.

الإتيانُ بالصِّفة والموصوف على الأصل، والاكتفاء في الثّانيةِ بالصِّفة عن الموصوف

التَّشابه اللَّفظيُّ بين آيتي هود (60)، و(99):

ورد التَّشابهُ بين قوله تعالى: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ٩٩﴾ [هود: 99]، فقال في الأولى: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾، وفي الثّانية: ﴿فِي هَٰذِهِۦ﴾ من غير ذكر الدُّنيا، فللسّائل "أن يسأل عن حذف (الدُّنيا) من الآية الثّانية وإثباتها في الأولى؟ وهل كان يجوز في الاختيار عكس ذلك؟ والجواب: أنَّ الأولى أتى فيها بالموصوف والصِّفة جميعًا، وهو الأصل الأوَّل، ثمَّ الاكتفاء بالصِّفة عن الموصوف بعده لقيام الدّلالة على الموصوف، فيجوز لذلك حذفه، وإقامة الصِّفة مقامه، ولمّا جاءت الآيتان في سورة واحدة وُفّيت الأولى ما هو بها أولى من الإجراء على الأصل، والإتيان بالموصوف والوصف، فقال تعالى: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾، واكتفى في الثّانية لمّا قامت الدِّلالة على الموصوف بالصِّفة وحدها، فقال: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ﴾"[1]. فحذف الدُّنيا من الموضع الثّاني لكونهما في سورة واحدة؛ اكتفاءً بما في الموضع الأوَّل[2]، ولذا فإنَّ قوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ٤٢﴾ [القصص: 42]، جاء على الأصل، لكونه واردًا في سورة أخرى، ولم يسبق ما يمكن أن يعتمد بالإحالة عليه.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

(اللَّعن) و(السَّب):

اللَّعنة طرد من الخير بغضب، والسَّبُّ هو الشَّتمُ المسيءُ باللَّفظ لغيرك

اللَّعنة من (لَعَنَ)، وأصلها يَدُلُّ عَلَى إبْعادٍ وإطْرادٍ، ولَعَنَ اللهُ الشَّيْطانَ: أبْعَدَهُ عَنِ الخَيْرِ والجَنَّة[3]. ويكون الطَّرد والإبعاد فيها على سبيل السُّخط، وذلك من الله تعالى في الآخرة عقوبة، وفي

(1) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/759.

(2) زكريا الأنصاريّ، فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: 1/268.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لعن).

الدُّنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه، ومن الإنسان دعاء على غيره، قال تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ [هود: 18][1]. فلعنة النّاس بينهم هي دعاء أمّا السَّبُّ؛ فأصْلُه القَطْعُ، ثُمَّ اشْتُقَّ منْهُ الشَّتْمُ، ومنْه السَّبُّ: الخِمارُ؛ لِأَنَّهُ مَقْطوعٌ منْ منْسَجِهِ، والسَّبُّ: الشَّتْمُ، ولا قَطيعَةَ أَقْطَعُ منَ الشَّتْم[2]. وهو: الشَّتم الوجيع، قال: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ﴾ [الأنعام: 108][3]، والشَّتم: ذكر مساوئ الإنسان على وجه الازدراء مواجهة[4])، وقال المناويُّ: الشَّتْمُ: وصفُ الآخرِ بما فيه نقصٌ وإزراء[5]، والسَّبُّ هو الإطناب في الشَّتم والإطالة فيهِ، واشتقاقه من السَّبِّ، وهي الشُّقة الطَّويلة، ويقال لَها: سبيبٌ أيْضًا[6]، والفرق بين السَّبِّ واللَّعن: أنَّ اللَّعن هو الدُّعاء على الرَّجل بالبُعدِ، وأمّا الشَّتمُ والسَّبُّ؛ فهو تقبيحُ الإنسان وتعييبُه وإزراؤُه، غير أنَّ اللَّعن أبلغُ في القُبح من السَّبِّ المطلق[7]، والمراد في الآية طردهم عن ساحة الخير، وإبعادهم سخطًا عليهم، فكان التَّعبير باللَّعن لا بالسَّبِّ.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (لعن).

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سبّ).

(3) الرّاغب، المفردات: (سبب).

(4) الجرجانيّ، التعريفات، ص: 163.

(5) المناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 202.

(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 52.

(7) العسكريّ، الفروق اللغويّة،: 1/52، والعزّ بن عبد السّلام، قواعد الأحكام: 1/23، وعلويّ بن عبدالقادر السّقّاف، موقع موسوعة الدّرر السّنيّة على الشّابكة.

﴿۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ٦١﴾ [هود: 61]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التوارد التاريخي والمكاني بين قصَّة هود وقصَّة صالحٍ عليهما السلام

بعد أن وفّى النَّظمُ الجليل قصَّة عاد قوم هود عليه السلام، وتكاملت فصولٌ من رواياتها في هذه السورة، "أتبعها قصَّة مَن كانوا عقبَهم في الزَّمن، ومثلهم في سكنى أرض العرب، وعبادة الأوثان، والمناسبة في الأمر المعذَّب به؛ لأنَّ الموصِل للصَّيحة إلى الأسماع هو الرّيح"[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنشَأَكُم﴾: أصل (نشأ) يَدُلُّ على ارْتِفاعٍ في شَيْءٍ وسُموٍّ، ونَشَأَ السَّحابُ: ارْتَفَعَ، وأنْشأهُ اللّه: رَفَعَهُ، ومنْهُ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ [المزّمل: 6]، أي: العبادة التي تنشأ في جوف الليل، ومن هذا الأصل عُبِّر بها عن بدْءِ الشَّيء لأوَّل أمره من عَدَمٍ، كما قالوا: أنشأ دارًا: بناها، أو من أثناء كانت موجودة، ولكن لم يكن له وجود مُتعَيّن فيها ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [هود: 61]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأنعام: 98][2]. والمقصود بالإنشاء في الآية: الخَلْقُ، والإيجاد منْ عَدَمٍ.

2) ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ﴾: أصلُ (عمر): يَدُلُّ عَلَى بَقاءٍ وامْتِدادِ زَمانٍ، ومنه: العُمْرُ وهو الحَياةُ، وهو العَمْرُ أيضًا، ويُقالُ: عَمرَ النّاسُ: طالَتْ أعْمارُهُم، وعَمَّرَهُمُ اللّه - جَلَّ ثَناؤُهُ - تَعْميرًا، ومنَ البابِ عِمارَةُ الأرْضِ[3]، يُقالُ: وعَمَرَ النّاس الأرض يَعْمُرونَها عِمارةً، وهي

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/317 - 318.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نشأ).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمر).

عامرةٌ مَعمورةٌ، ومنها العُمْران، واستَعمرَ اللّه النّاسَ ليَعْمُروها[1]، والمقصودُ بالاستِعمار في الآيةِ: الإعْمارُ، أي: جعلكُمْ عامريها، فالسّينُ والتّاءُ للمُبالَغَةِ.

3) ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾: الغَفْرُ في الأصلِ: التَّغْطيَةُ والسَّتْرُ، ويُرادُ به التَّجاوُزُ عَنِ الذَّنْبِ وعَدَمُ المُؤاخَذَةِ بِهِ، يُقالُ: غَفرَ اللّه ذَنْبَهُ غَفْرًا ومَغْفِرَةً وغُفْرانًا، أي: سَتَرَها وتَجاوزَ عنْها[2]. والغُفْرةُ: ما يُغطّى بِهِ الشَّيءُ[3]، والاسْتِغْفارُ: طَلَبُ ذلك بالمقال والفِعال، والغُفْرانُ والمَغْفِرَةُ منَ اللّه هو أن يَصون العَبدَ من أن يمسَّه العذاب[4]. والمراد من الاستِغْفار في الآية: طَلَب الغفْرِ، أي: السِّتْر لِلذُّنوبِ والتَّجاوز عنها.

4) ﴿قَرِيبٌ﴾: أصلُ (قرب): يَدُلُّ عَلَى خِلافِ البُعْدِ، يقال: قَرُبْتُ منه أقْرُبُ، وقَرَّبْتُهُ أُقَرِّبُهُ قُرْبًا وقُرْبانًا، ويُستعمل ذلك في المكان، نحو: ﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: 35]. وفي الزَّمان، نحو: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾ [الأنبياء: 1]. وفي النِّسبة، نحو: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلۡقِسۡمَةَ أُوْلُواْ ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النِّساء: 8]. وفي الحظوة، نحو: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢٨﴾ [المطففين: 28]. وفي الرِّعاية، نحو: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ [البقرة: 186]، وفي القُدرَة، نحو: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦﴾ [ق: 16][5]. والمقصودُ بالقُرْبِ في الآيةِ: قربُ اللّه العامُّ من كلِّ أحد بعلمه، ومراقبته، ومشاهدته له، وقربُ اللّه الخاصُّ من عابديه وسائليه ومجيبيه، وهو قربٌ يقتضي المحبَّةَ، والنُّصرةَ، والتأييدَ، والإجابةَ، والقبولَ، والإثابةَ والإحاطةَ والرِّعايةَ والرَّأفَةَ والإكْرامَ[6].

5) ﴿مُّجِيبٞ﴾: أصْلُ (جوب): قَطْعُ وسَطِ الشَّيْءِ منْ جَوْفِهِ، يُقالُ: جابَ يَجوبُ جَوْبًا، أيْ: قَطَعَ، كَأنَّ المُجيبَ تَجَوَّبَ لِلشَّيءِ، أي: قَطَعَهُ منْ جَوْفِهِ[7]. وأصْلٌ آخَرُ، وهو مُراجَعَةُ الكَلام وردُّهُ، تَقولُ: أجابَهُ إذا أرْجَعَ لَهُ القَوْلَ[8]، والمُجاوبَةُ والتَّجاوُبُ: التَّحاوُرُ، وتأتي

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عمر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (غفر).
(4) الرّاغب، المفردات: (غفر).
(5) الرّاغب، المفردات: (غفر).
(6) البيهقي، الأسماء والصفات: 1/111، والشوكاني، فتح القدير: 5/75.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والزَّبيديُّ، تاج العروس: (جوب).
(8) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جوب).

الإجابَةُ والاسْتِجابَةُ بمعْنَى: القَبولِ وإعطاءِ المَسْؤولِ عنه، والمُجيبُ: مُعْطي السُّؤالِ، وأجابَ اللّه، واسْتَجابَ دُعاءَهُ، أي: قَبِلَهُ[1]، والمقصود بالمُجيب في الآية: الذي يقابل الدعاء والسؤال بالعطاء والقبولِ ﷻ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

دعوةُ نبي الله صالح قومَه إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له

يُخبِرُ اللّه تعالى أنَّه أرسلَ إلى قبيلة ثمودَ أخاهم - في النَّسب - صالحًا، فقال لهم: يا قوم اعبُدوا اللّه وحدَه، ليس لكم من إله يستحِقُّ العبادة غيره ﷻ، فأخلِصوا له العبادة، هو الذي ابتدأ خَلْقَكم من الأرض بخَلق أبيكم آدَمَ منها، وجعلكم تسكنونها وتَعمُرونَها، وتستغِلّون خيراتِها، فاطلُبوا من اللّه سَترَ ذُنوبِكم الماضيةِ، والتَّجاوُزَ عن مؤاخَذتِكم بها، ثمَّ توبوا إلى اللّه توبةً نَصوحًا، فيما تستَقبِلونَه، بالرُّجوعِ إلى عبادتِه وحدَه وطاعتِه؛ إنَّ ربي قريبٌ لِمَن أخلصَ، ورَغِبَ إليه في التَّوبةِ، مُجيبٌ له إذا دعاه[3].

وترشدُ الآية الكريمةُ إلى وحدة الوسيلة والغاية عند كافَّة الرسل عليهم السلام فالوسيلةُ عبادةُ اللّه وحده، والغايةُ رضا اللّه والجنة، وإلى تقديم الاستغفار على التوبة؛ لأنَّ المرءَ لا يقلعُ عن ذنبه حتى يعترفَ به، وإلى أنَّ قربَ اللّه الخاصَّ من عابديه وسائليه ومجيبيه، هو قربٌ يقتضي من اللّه المحبةَ، والنصرةَ، والتأييدَ، والإجابةَ، والقبولَ، والإثابةَ والإحاطةَ والرِّعايةَ والرَّأفةَ والإكْرامَ لعباده[4].

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (جوب).
(2) البيهقي، الأسماء والصفات: 1/173.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/453، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/58، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/331، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 384.
(4) البيهقي، الأسماء والصفات: 1/111، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 384، والجزائري، أيسر التفاسير: 2/558.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة (الواو) على العطف في ﴿وَإِلَىٰ﴾:

الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ﴾، معطوفة على إرسال نوح وهود عليهما السلام المذكورَيْن سابقًا، والمعنى: أنَّ الله تعالى قد أرسل نوحًا، ومن بعدِه أرسل هودًا، وإن لم يتعاقبا، ومن بعدهما أرسل صالحًا عليه السلام إلى قومه ثمود[1].

تتابع إرسال الرسل تصديق من الله لعهده ببيان هَدْيه للنّاس

نكتة تعليق ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾:

شِبه الجملة من الجارِّ والمجرور ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ﴾، متعلّق بالفعل المعطوف عليه (أرسلنا)، في قوله تعالى في القصَّة الأولى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [هود: 25]، والتَّعليق بين شبه الجملة، وبين الفعل المتقدِّم ذِكرُه، مع طول الفاصل بينهما، له أثر بالغ في ربط النَّصِّ كلِّه، فكلُّ قصصه منضويةٌ لغاية واحدة، فهي مترابطة فيما بينها ترابطَ الموضوع الواحد، وهذا يدلُّ على قوَّة السَّبك اللَّفظيِّ في سياق السّورة، وجودة التَّماسك المعنويِّ.

التَّعليق على الفعل مع طول الفاصل، مفيد في ترابط أجزاء النَّص

غرض ذكرِ كلِّ نبيٍّ باسمه:

دأب النَّظم الجليل على ذكر أسماء الأنبياء عليهم السلام في قصصهم، كما في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ﴾، بذكر اسم النبيِّ صالح عليه السلام، الذي ينتهي نسبه إلى نوح عليه السلام، فهو موصول به بنسب ممدود، وبالاشتراك في وصف النُّبوَّة، وهو مرسل إلى ثمود، وقد سُمّيت باسم جدِّها ثمود، وقيل: سمّيت بذلك لقلَّة مائها؛ لأنَّ الثَّمد هو الماء القليل[2]. والغرضُ من ذكر كلِّ نبيٍّ باسمه بيانُ أنَّ تجربة كلِّ نبيٍّ تختلف عن سابقتها، وأنَّ حيثيّات الأحداث تلتقي في

مضمون الرِّسالة واحد، بالرغم من اختلاف حيثيّات كلِّ قصَّة عن الأخرى

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3723.

(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط للقرآن الكريم: 7/232.

الكلّيّات، وتختلف في الجزئيّات، كما قال رَسولُ اللّه ﷺ: «الأَنْبياءُ أبْناءُ عَلّات»[1]، أي: إنَّ الأنبياءَ مثلُ أولادِ عَلّاتٍ، وهمُ الإخوةُ لِأبٍ واحدٍ من أُمَّهاتٍ مُختلفةٍ، لأنَّهم مُتَّفِقون فيما يَتعلَّقُ بالاعتقاديّات المُسمّاةِ بأُصولِ الدّياناتِ، كالتَّوحيدِ، والإيمانِ، مُختلِفون فيما يَتعلَّقُ بالعمَليّاتِ، وهي الفِقهيّاتُ، كما أنَّ أولادَ العَلّاتِ أبوهمْ واحدٌ وإنْ كانت أُمَّهاتُهم شَتَّى.

علّة استعمال لفظ ﴿أَخَاهُمۡ﴾:

قوله جلَّ شأنه: ﴿۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾، آثر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بلفظ الأخوَّة؛ لما في ذلك من تحريك العاطفة، وتحفيز المشاعر لقبول الحقِّ، والتَّفاعل معه، فكونه أخاهم في القبيلة والنَّسب أدعى لقبول الدَّعوة، فإنَّ الإنسان مجبول لنصح قومه، وابتغاء الخير لهم، فجعل المرسَل منهم، وأخًا لهم، إنَّما هو دليل على الرَّحمة بهم، وعلى أخذ أسباب التَّأثير، ومظانِّ الاستجابة.

اللُّطف بالمدعوّين بإرسال رجلٍ من أصلهم وفرعهم

دلالة فصل جملة القول عمّا قبلها:

الجملة في قوله جل شأنه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ استئنافيَّة، فبعد أن أخبر بإرسال صالح عليه السلام إليهم، كان ذلك مظِنَّةً لأن يسأل سائل، ويقول: ماذا قال لهم؟ فأجيب بأنَّه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾[2]. فالجملة جاءت مفصولة بلا عاطف؛ لأنَّ العاطف ينتظم الجمل، حتّى يصيِّرها كالجملة الواحدة، فاجتنب العاطف لإرادة استقلال كلِّ واحدة منها في معناها ودلالتها.

الإخبار بالإرسال، يقتضي الاستئناف والابتداء بما قاله المرسَل

نكتة النِّداء في قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾:

ذكر النَّظم الكريم أنَّ صالحًا عليه السلام، شرع بخطاب قومه، في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، بأسلوب النِّداء؛ تنبيهًا

الخطاب بالنِّداء استجلاب للانتباه إلى مضمون الخطاب

---

(1) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (2365).

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/220.

لهم وحثًّا لهم على الاستماع الواعي لما يقول؛ فإنَّ تصدير الخطاب بالنِّداء يدلُّ على الاهتمام بمضمون الخطاب، وأنَّه يجدر أن يستمع له بانتباه ويقظة لأهميَّته وخطورته، فافتتاح "دعوته بنداء قومه لاسترعاء أسماعهم، إشارة إلى أهميَّة ما سيلقي إليهم"(1).

سرُّ الإضافة في ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

تلطُّف الدّاعي ومودَّته، دليل على الإخلاص في النُّصح

أضاف النَّظم الجليل حكايةً عن صالح عليه السلام، لفظ القوم إلى نفسه، في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ لما في ذلك من تلطُّف بهم، أي: "يا مَن يعزُّ عليَّ أن يحصل لهم سوء"(2)، إظهارًا للودِّ والتَّعاطف، والخطاب بعنوان القوميَّة للذين يجمعهم عِرْقٌ وثقافةٌ ومكانٌ واحدٌ أدعى لاجتماع قلوبهم على ما يقال لهم.

دلالة الشُّمول في لفظ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

التَّوحيد والعبادةُ واجبتان على كلِّ أفراد المجتمع

دأب النَّظم الجليل في حكاية دعوة الأنبياء لقومهم بكونهم يخاطبونهم بلفظ (القوم)، كما في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، وهو نداء وإن كان للرِّجال، فإنَّه يتضمَّن الدَّعوة للنِّساء بالتَّبع والغلَبة، كما قال اللّه عن بِلْقيس بأنَّها كانت كافرةً، ونشأت بين قوم كافرين، واستمرَّت على دينهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٤٣﴾ [النمل: 43]، ولأنَّ دعوة المبلِّغ عن اللّه، إنَّما هي للمجتمع برُمَّته.

معنى الأمر في ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾:

دعوة الأنبياء قومَهم للعبادة، أمانةٌ منوطة بهم لتحقيق البلاغ

جاء فعل الأمر في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ للدَّلالة على إيجاب العبادة للّه تعالى على وجه الانفراد، وهم وإن لم يؤمنوا به، فإنَّهم قد بلغهم التَّبليغ، فلمّا لم يقبلوه، وأعرضوا عنه، ونزل بهم العذاب، دلَّ ذلك على أنَّ دعوته كانت واجبة، وإن لم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/94.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/318.

يعترفوا بكونه نبيًّا مرسلًا إليهم، فإنَّ اعترافهم لا يشكِّل فارقًا، في كونه مرسلًا من اللّه تعالى، تجب طاعته وتنفيذ أوامره.

غرضُ إيراد لفظ الجلالة في الآية:

العبادة وسيلة الوصل بالله، وهي علّة الخلق، ومأمور الرَّبِّ

حكى النَّظم الكريم عن صالح عليه السلام التَّعبيرَ بلفظ الألوهيَّة، في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، دون أن يقول: (اعۡبُدوا رَبَّكُم)؛ لأنَّ إيراد لفظ الجلالة (اللّه) لتحديد أنَّ العبادة منحصرة في اللّه دون سواه، وكذلك إشارة إلى أنَّ شأن العبادة عظيم، لا يليق إلّا بالجليل، أي: اعبدوا الملك الأعظم وحده؛ لأنَّ عبادتكم له مع غيره ليست بشيء[1].

دلالة فصل قوله: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾:

علّة الأمر بالعبادة انحصار الإلهيَّة في الله تعالى

الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾، جملة استئنافيَّة، للاستئناف التَّعليليِّ، جاءت لنفي وجود إله آخر يستحقُّ العبادة غير اللّه، فلمّا أمرهم بقوله: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ بيَّن أن لا إله غير اللّه، فهي تقرير واقع، لا مناص منه، فلا معبود إلّا هو، وكلُّ ما يدَّعيه أهلُ الأباطيل، هو من الفساد والتَّضليل.

براعةُ التَّعبير بـ ﴿مِّنۡ﴾ في ﴿مِّنۡ إِلَٰهٍ﴾:

لا ألوهيَّة لإله غير الله الحقِّ، وألوهيَّتُه على جهة الاستغراق

أدخل النَّظم المعجِزُ حرفَ الجرِّ الزّائد ﴿مِّنۡ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾؛ للدَّلالة على الاستغراق في النَّفي، "أيْ: ما لكم أيُّ إلهٍ غيره، فكلمة ﴿مِّنۡ﴾ لاستغراق النَّفي وشموله؛ لأنَّ الألوهيَّة تقتضي الانفراد بالخلق والتَّدبير، وأن يكون المعبود واحدًا في ذاته وصفاته، ليس كمثله شيء، وقد كانوا يعرفون ذلك، فكيف يكون غيره؟"[2].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/318.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3716.

فائدة جملة ﴿هُوَ أَنشَأَكُم﴾:

بـدء الخلـق علّة استحقاق العبادة على وجه الانفراد

الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، جملة واقعة موقع التَّعليل للأمر بعبادة الله، في دعوة صالح عليه السلام قومَه أن يعبدوا الله وحده، "ونفى إلهيَّة غيره، وكأنَّهم كانوا مثل مشركي قريش، لا يدعون لأصنامهم خلقًا ولا رزقًا؛ فلذلك كانت الحجَّة عليهم ناهضة واضحة"[1]، فكفرهم لم يكن بكونه ربَّهم، بل باستحقاق العبادة وحده، فكانوا مشركين لا نافين وجود الخالق بالإجمال.

دلالة الضَّمير المنفصل ﴿هُوَ﴾:

تعريف المعرَّف بصفات فاصلة، لا يشترك معه فيها أحد

قوله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، عبَّر النَّظم الجليل عن الله تعالى بالضَّمير ﴿هُوَ﴾، في قوله جلَّ شأنه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، وأسند إليه فعل الإنشاء والاستعمار، على سبيل الإخبار الابتدائيِّ، فلم يقل: (إنَّه هو الَّذي أنشأكم)؛ لأنَّه لا أحد ينكر ولا ينازع، في كون الله تعالى هو الموجِدُ، فالإيجاد من عدم، هو خصوصيَّة للإله الخالق، لا يدَّعيه أحد من الخلائق.

علَّة التَّذكير بـ ﴿أَنشَأَكُم﴾:

التَّذكير بالنِّعمة التي هي مظهر الإنعام، من أبلغ البيان للأنام

يشير النَّظم في قوله جلَّ شأنه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾، إلى تعلُّق قوم ثمود بالأرض عمارةً وزراعة وإنشاء للقصور والمزارع، وقد ذكر عنهم المولى أنَّهم قَطعوا الصَّخرَ بالوادي واتخذوا منه بيوتًا، بقوله: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩﴾ [الفجر: 9]، فكانت لهم منافع من الأرض تناسب ذكر نعمة إنشائهم منها[2].

سرُّ إيثار التَّعبير بلفظ ﴿أَنشَأَكُم﴾:

البادئ بالخلق أوَّل مـرَّة، هو المستحقُّ للعبادة والمبرَّة

آثر النَّظم الجليل في قوله جلَّ شأنه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ التَّعبيرَ بلفظ الإنشاء دون غيره من مرادفاته، كالخلق والجعل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/107.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتَّنوير: 12/108.

وغيرها؛ للدَّلالة على الإنشاء ابتداء من غير واسطة شيء، استدلالًا على استحقاق العبادة، فمن كان له التَّفضل بالوجود، فهو المعبود؛ لأنَّ معنى الإنشاء هو: الابتداء بالإيجاد من غير استعانة بشيء من الأسباب، "﴿أَنشَأَكُم﴾ أي: ابتدأ خلقكم ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ بخلق آدم عليه السلام منها بغير واسطة، وبخلقكم من المنيِّ من الدَّم، وهو من الغذاء، وهو من النَّبات، وهو من الأرض"[1]، "والوجود من العدم قسمان: قسم أوجدته باستعانة بموجود، وقسم أوجدته من عدم محض، وهذا الأخير هو الإنشاء، ولا يقدر عليه إلّا اللّه تعالى"، لذلك فلا أحد ينازع اللّه في الإنشاء، مهما كانت قوَّته وجبروته، وقد قال تعالى: ﴿۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ٥١﴾ [الكهف: 51][2].

دلالةُ عطف الجمل في الآية:

الإنعام بالاستعمار في الأرض، مناسب للإخبار بالإنشاء منها

الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾، معطوفة على الجملة في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، استكمالًا للاستدلال على مطلق الإفضال، وبيان المزيد من العلل الموجبة للأمر بعبادته وحده، "فكانت لهم منافع من الأرض تناسب نعمةَ إنشائهم من الأرض؛ فلأجل منافعهم في الأرض قُيِّدت نعمةُ الخلق، بأنَّها من الأرض الَّتي أُنشئوا منها، ولذلك عطف عليه ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾"[3].

بلاغة قصرِ الإنشاء والاستعمار:

تأكيد مضمون الجملة بنسبة الخلق لله وحده دون سواه

عبَّر النَّظم في قوله جلَّ شأنه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾، بأسلوب القصر في جعل الخبر عن الضَّمير ﴿هُوَ﴾، جملة فعليَّة، في كلٍّ من الجملتين المعطوفتين، في قوله

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/318.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6528. بتصرّف.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/108.

تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾، ولم يجعله جملة اسميَّة، للتَّعبير بقصر الإنشاء من الأرض، واستعمارها بالعمار على اللّه تعالى، دون أحد سواه، أي: لم ينشئكم من الأرض إلّا هو، ولم يستعمرْكم فيها غيره[1]، والقصر هنا قصر صفة على موصوف، فقَصَرَ الإنشاء والاستعمار على اللّه تعالى قصرًا حقيقيًّا؛ لاختصاص اللّه تعالى بذلك، وهو قصر إفراد لظنِّهم أنَّ لآلهتهم شراكة في الإنشاء والاستعمار، والمعنى: هو كوَّنكم منها لا غيره، ولم يستعمركم فيها غيره[2].

دلالة التَّعبير بصيغة ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ﴾:

تكليف الله الإنسان بتعمير الأرض، وإقامة المدنيَّة، من أدواره الحيويَّة

عبَّر النَّظم بصيغة الاستفعال، في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾؛ للدَّلالة على التَّكليف، فاللّه تعالى كلَّف عباده أن يَعمُروا الأرض، فهو ﷻ جعلهم يسخِّرون ما في الأرض بما أقدرهم على ذلك[3]، والمعنى: "عمَّركم فيها، واستبقاكم من العُمر، أو أقدركم على عمارتها، وأمركم بها"[4]، كما يحتمل أنَّه يدلُّ على الطَّلب، أي: طلب منكم العُمران، فالسّين والتّاء تدلّان على المبالغة في الفعل المطلوب القيام به.

علَّة تقديم الإنشاء على الإعمار:

الإنشاء أسبق في الوجود من الإعمار، ولا إعمار بلا إنشاء

قدَّم النَّظم الجليل في قوله جلَّ شأنه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾، ذكر الإنشاء من الأرض على ذكر الإعمار فيها؛ لأنَّ الإنشاء أسبق، فكان التَّقديم باعتبار الموجود في الواقع، فلا يكون إعمار بلا إنشاء، وعمليَّة الإنشاء عمليَّة وجود، بينما العُمران هو عمليَّة تكميليَّةٌ وتحسينيَّة لما هو موجود،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/108.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/407، والبيضاويُّ، أنوار التّنزيل: 3/139.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3723.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/139.

وكلاهما ضروريٌّ لانتظام الكون، واكتمال تأهيله لتأديَة المهامِّ الَّتي من أجلها وجد.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾:

سابِقُ الإنعام، يحفِّز للاستغفار والتَّوبة على الدَّوام

افتتح النَّظم قوله جلَّ شأنه: ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، بالفاء الاستئنافيَّة الدّالَّة على التَّسبيب، فجعل أصول النِّعم، علَّة للاستغفار والتَّوبة إلى الغفّار، (فإنَّ ما فُصِّل من فنون الإحسانِ داعٍ إلى الاستغفار عمّا وقعَ منهُم من التَّفريطِ، والتَّوبةِ عمّا كانوا يباشرونه من القبائح)[1].

علَّة تقديم الاستغفار على التَّوبة:

البدء بالاستغفار تمهيد للتَّوبة، كتمهيد القول للعمل

قوله جلَّ شأنه: ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ قدَّم فيه الاستغفار على التَّوبة؛ لأنَّ الاستغفار يقع بالقول، وهو نوع من الدُّعاء؛ فهو طلبٌ أن تُستَرَ الذُّنوب وتُمحى، ولا علاقة للاستغفار بالالتزام بعدم العود إلى الذُّنوب، أمّا التَّوبة؛ فهي النَّدمُ، والإقلاع عن الذَّنب، والدَّوام على التَّرك، وعدم العودة، فهي التزام بالإقلاع عن الذُّنوب، وندم وعهد على عدم العود إليها، فالتَّوبة أعلى شأنًا، فبدأ بالأقلِّ رتبة، ثمَّ ترقّى إلى الأعلى؛ ليأتي ترتيب التَّكليف من الأخفِّ على النُّفوس، إلى الأثقل عليها؛ لأنَّ التَّوبة تقتضي الالتزام بترك ما اعتاد عليه، وهي ليست مجرَّد صيغة من الألفاظ لطلب العفو؛ والاستغفار فيه تخليةٌ للنفس من أدران ذنوبها، والتوبة أوبةٌ صادقة مع الله في طرق الاستقامة، فهي تحلية بعد سابق تخلية.

معنى العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾:

مرتبة التَّوبة أعلى من مرتبة الاستغفار؛ إذ لا معنى لاستغفار بلا توبة

عبَّر في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ المفيد للتَّرتيب والتَّراخي، "للدَّلالة على بُعد حالهم في الانتقال من الاستغفار إلى الرُّجوع إلى الله تعالى؛ لأنَّ الاستغفار طلب محو

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/221.

الذُّنوب أو سترها، وتلك أوّل خطوة في ترك الكفر والشِّرك، وتعلوها مرتبة الاتِّصال بالله لقبول التَّوبة"[1]. فعطف التَّوبة بـ ﴿ثُمَّ﴾؛ لأنَّ الاستغفار طلب ودعاء لا يحوجان الإنسان إلى تأمُّل، وأمّا التَّوبة؛ فهي فعل لا يُقدِم عليه الإنسان إلّا بعد تأمُّل وتدبُّر؛ فكان العطف بالحرف ﴿ثُمَّ﴾ أبلغ هنا[2].

دلالة الاستئناف البيانيّ بـ ﴿إِنَّ﴾:

الله تعالى قريبٌ من عباده، يقبل من أتاه، ويجيب من دعاه

الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾، استئناف بيانيٌّ، سيق كجواب لسؤال نشأ عن الجملة السّابقة: ﴿فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾، كأنَّه قيل: وهل يقبل الله توبتَنا؟ فقال: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ يسمع نداءكم، ويقبل طلبكم؛ لأنَّ الجملة جواب عن استعظامهم غفرانَ ذنوبهم، لبشاعتها وعظمها، فكان الجواب، بفتح نافذة الأمل لهم.

قصدُ التَّعبير بـ ﴿قَرِيبٌ﴾:

قرب المولى مبطِلٌ لزعم المشركين، وحـجَّـتـهـم بالشِّرك المهين

آثر النَّظم الكريم في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾، التَّعبير بصفة القرب، للإشارة إلى أنَّه لا حاجة إلى الشُّفعاء من الآلهة المعبودة، لتقرِّبهم إلى الله زلفى، فهو أقرب إليهم منها، فهو "إدناء إلى التَّوبة، وتقريب لها، أي: إنَّ الله تعالى في عليائه، قريب إلى النُّفوس التّائبة، محبٌّ للدُّعاء والرُّجوع إليه، وذلك ردٌّ على أوهامهم الَّتي يقولون فيها: إنَّهم شفعاؤنا عند الله، وقولهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزّمر: 3]، فصالح يقول لهم: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾، فلا حاجة إلى شفاعة الشّافعين، إن كان يتصوَّر أن يكون في هذه الحجارة شفاعة"[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3723.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/361.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3723 - 3724.

نكتة تقديم ﴿قَرِيبٌ﴾ على ﴿مُّجِيبٌ﴾:

قدَّم النَّظم الجليل في قوله جل شأنه: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾، القربَ على الإجابة، على نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ﴾ [البقرة: 186]، ونكتة ذلك التَّقديم: أنَّه بدأ بذكر العلَّة الباعثة على الاستغفار والتَّوبة، وهي القرب من اللّه تعالى، وهي صفة القرب في قوله: ﴿قَرِيبٌ﴾، وأُخِّرت العلَّة الغائبة، وهي الإجابة في قوله: ﴿مُّجِيبٌ﴾، وهذا من البيان الدَّقيق[1].

قُدِّم القربُ الباعثُ على الإجابة النّاتجة عن القرب

نكتة الجمع بين (القَريب)، و(المُجيب):

جمع النَّظم الجليل في قوله جل شأنه: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾، بين القرب والإجابة، وذلك أنَّ مفهوم لفظ ﴿قَرِيبٌ﴾: يدلُّ على أنَّ اللّه يسمعُ استغفاركم، فهو أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝٥٠﴾ [سبأ: 50]، ومفهوم لفظ ﴿مُّجِيبٌ﴾: أنَّه يلبّي لكم طلباتكم، ويقابل الدعاء والسؤال، بالعطاء والقبول، ولا فائدة من القرب ولا الاستغفار، ما لم تكن إجابة من الغفّار، قال تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾ [الأعراف: 56].

صفة قربه تعالى متضمِّنةٌ سماعَ الدعاء، وصفة إجابته متضمِّنةٌ حسن العطاء

مراعاة الفواصل في آخر الآية الكريمة:

راعى النَّظم الجليل في آخر الآية، في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾، أن تأتي الفاصلة متوافقة متلائمة، مع فاصلة الآية الموالية لها، والَّتي تنتهي بقوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، فتتلاءم البنية الصَّوتيَّة بينهما: ﴿مُّجِيبٌ﴾... ﴿مُرِيبٍ﴾، وهكذا دواليك في كلِّ الفواصل المتماثلة، وهذا يلقي على السَّمع الوتيرة الصَّوتية المنسجمة الَّتي تحدث الانتباه، وتستجلب السَّمع لمضمون الكلام، فالصَّوت المتناغم ليس عنصرًا شكليًّا، ولا ترفيًّا.

التزام مراعاة وحدة الفواصل ينبِّه على مضمون الخطاب وتناسقه وانسجامه

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/221.

تشابهت الآيتان في المطلع، واختلفتا في الختام، وفق مضمون القصَّتين

التَّشابه اللَّفظيُّ بين آيتي هود (61) و(90):

ورد التَّشابهُ بين قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠﴾ [هود: 90]. فما وجه الاختلاف في ذكر الوصف في رأس الفاصلة بكلٍّ من: ﴿قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾، و﴿رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠﴾؟ ذُكرَ في تعليل ذلك أنَّه لموافقة الفواصل والحرف الأخير في الآية في السّياقين[1]، ويضاف إلى ذلك أنَّ في سياق الآية في قصَّة صالح عليه السلام، جاء ذكر القرب والإجابة بعد ذكر الاستغفار، في صدر الدَّعوة: ﴿۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ﴾، فكان تعليلًا للاستغفار والتَّوبة وحسب، أمّا السّياق في قصَّة شعيب عليه السلام؛ فهو مختلف، فإنَّ عبارة ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠﴾ [هود: 90]، قد جاء بعد عرض طويل للدَّعوة والتَّرغيب والمجادلة: ﴿۞وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبٗاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٖ مُّحِيطٖ ٨٤﴾ ... ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠﴾ [هود: 84 - 90]، فكان ذكر صفةِ الرحمة الواسعة، وصفةِ الودِّ بعد ذكر العديد من الحجج والبراهين؛ لأنَّ تلك الحجج والإطناب في الدَّعوة، مسبَّب عن رحمة اللّه تعالى ومحبَّته لعباده.

۞ الفُروق المُعْجَميَّة:

التَّوبة: إقلاع عن الذُّنوب وندم عليها، والاستغفار: طلب محوها

(الاستغفار) و(التَّوبة):

اسْتَغْفَر اللّه ذنبَه: طَلَبَ منْهُ غَفْرَه[2]، فالاستغفار طلب المغفرة.

(1) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 146.
(2) ابن منظور، اللّسان: (غفر).

أمّا التَّوْبةُ: فهي الرُّجوعُ منَ الذَّنْبِ[1]. وهي في الشَّرع: ترك الذَّنْب لقبحه، والنَّدم على ما فَرَطَ منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربع؛ فقد كملت شرائط التَّوبة[2]. فالاستغفار نوع من الدُّعاء؛ فهو طلب المغفرة، ويقال: استغفر اللّه لذنبه ومن ذنبه، بمعنى، غفر له ذنبه مغفرة وغفرًا وغفرانًا؛ واغتفر ذنبه مثله، فهو غفور[3]، واستغفره من ذنبه، ولذنبه، واستغفره إيّاه، على حذف الحرف: طلب منه غفره قولًا وفعلًا[4]، أمّا التَّوبة؛ فهي الإقلاع والدَّوام على التَّرك، وعدم العودة، وقال أبو منصور: أصل (تاب): عاد إلى اللّه، ورجع، وأناب (وتاب اللّه عليه)، أي: عاد بالمغفرة، أو وفَّقه للتَّوبة، أو رجع به من التَّشديد إلى التَّخفيف، أو رجع عليه بفضله وقبوله، وكلُّها معانٍ صحيحةٌ واردة، وهو - أي: اللّه تعالى - (توّاب)، يتوب على عباده بفضله؛ إذا تاب إليه من ذنبه[5]. والفعل (تاب) بمعنى: وفَّق إلى التَّوبة، يتعدّى بـ (على)، كما في قوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التّوبة/102]، أمّا بمعنى (أقلع عن الذَّنب)؛ فيتعدّى بـ (عن)، و (من)، فنقول: (تاب عن الذَّنب)، و(تاب من الذَّنب)، ولكن أجاز اللُّغويون نيابة حروف الجرِّ بعضها عن بعض[6]، والتَّوبة شرعًا: النَّدم على ما مضى من الذَّنب، والإقلاع في الحال، والعزم على ألّا يعود في المستقبل، تعظيمًا للّه تعالى، وحذرًا من أليم عقابه وسخطه[7]، وعليه فالتَّوبة أعلى شأنًا، فلذا قدَّم ذكر الاستغفار في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾، فبدأ بالأقلِّ كُلفةً وجهدًا؛ لأنَّ التَّوبة تقتضي الإقلاع عن الفعل والتَّغيير في السُّلوك، فهي ليست كالاستغفار الواقع بصيغة لفظيَّة لطلب العفو.

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (توب).
(2) الرّاغب، المفردات: (توب).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (غفر).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (توب).
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس: (توب).
(6) أحمد مختار عمر، معجم الصّواب اللّغويّ: (توب).
(7) سعدي أبو حبيب، القاموس الفقهيّ لغة واصطلاحًا: (تاب - توبًا).

﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٦٢﴾

[هود: 62]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد عرض سياق دعــوة صالـح لقومه، يسرد ما ردَّ به القوم على نبيِّهم

بعد أن حكى النَّظم دعوة صالح ﷺ لهم، ذكر ما ردّوا به عليه[1]، فلمّا "دعاهم إلى الحقِّ، ونصب لهم عليه من الأدلَّة ما هم به معترفون، وذكَّرهم نِعَمَه مومئًا إلى التَّحذير من نِقَمه، وسهَّل لهم طريق الوصول إليه، ما كان جوابهم إلّا أن سلخوه من طور البشريَّة لمحض التَّقليد، فلذلك استأنف الإخبار عن جوابهم بقوله: ﴿قَالُواْ﴾"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَرۡجُوّٗا﴾: أَصْلُ (رجا): يَدُلُّ على الأمل، يقال: رجا حُصولَ الشَّيْءِ، يرجو رجاءً ورَجاوةً، أيْ: أمَّلَ وُقوعَهُ، وضِدُّه: اليَأْسُ والقُنوطُ[3]. ويأْتي الرَّجاءُ بمعنى الطَّمَعِ في الشَّيْءِ، فيقال: رجا الخَيْرَ، أي: طَمِعَ فيه[4]، والمقصود بالرَّجاء في الآية: تَرَقُّبُ الانْتِفاعِ بِما تقدَّمَ له سبب ما، أي: إنَّه ترقُّبٌ للخير[5].

2) ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ﴾: أَصْلُ (نهي): يَدُلُّ على غاية وبلوغ، ومنه أنهَيْتُ إليه الخَبَرَ: بَلَّغْتُهُ إيّاهُ، ونهايةُ كُلِّ شَيءٍ: غايَتُهُ، ومنه نَهَيْتُهُ عنه، وذلك لأمرٍ يفعلُهُ، فإذا نَهَيْتَهُ، فانتهى عنكَ، فتلك غايَةُ ما كانَ وآخِرُهُ[6]. والإنْهاءُ: الإيصالُ والإبلاغُ[7]، والنِّهايَة: غايَةُ كُلِّ شَيءٍ

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/54.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/319.
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (رجا - رجو).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (رجو).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (رجو)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/110.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نهي).
(7) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نهي).

وآخِرُهُ[1]، والنَّهي: الكَفُّ عَنِ الشَّيءِ والمَنْعُ منه، تقولُ: نَهاهُ؛ إذا كَفَّهُ، ومَنَعَهُ عَنْ شَيءٍ ما، ومنه النُّهْيَةُ: وهي العَقْلُ؛ لِأَنَّهُ يَمْنَعُ صاحِبَهُ من القَبيحِ[2]. والمقصود بالنَّهي في الآية: طَلَبُ تَرْكِ الفِعْلِ بالقَوْلِ ممَّن هو دونه.

3) ﴿مُرِيبٍ﴾: أَصْلُ (ريب): يَدُلُّ على شَكٍّ، أو شَكٍّ وخَوْفٍ، فالرَّيْبُ: الشَّكُّ، قالَ اللّه جَلَّ ثَناؤُهُ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: 1 - 2]، أي: لا شَكَّ، والرَّيْبُ: ما رابَك من أَمْرٍ تخوَّفتَ عاقبتَهُ[3]، تَقولُ: رابَني هَذا الأَمْرُ؛ إذا أَدْخَلَ عليكَ شَكًّا وخَوْفًا، وأرابَ الأمرُ، أي: صارَ ذا رَيْبٍ، وأرابَ الرَّجُلُ: صارَ مُريبًا ذا ريبَةٍ، وارتَبتُ بهِ، أي: ظَنَنْتُ به، ورَيْبُ الدَّهْرِ: صُروفُهُ وحَوادِثُهُ[4]. والمقصود بالمُريبِ في الآية: موقع في الرّيبَة، مُبالغَة في الشَّك، وهو اسم فاعِلٍ منْ أرابَ؛ إذا أوقَعَ في الرَّيْبِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

شهادةُ قوم صالح له بأنّه محمودُ الخصال، حتَّى إذا أُرسِلَ إليهم؛ فناصبوه العداء

فلمّا أمرَهم نبيُّهم صالحٌ عليه السلام، ورغَّبهم في الإخلاص للّه وحده؛ ردّوا عليه دعوتَه، وقابلوه أشنعَ المقابلة، قال قومُ صالحٍ عليه السلام له: يا صالِحُ قد كنّا نرجو فيك الخَيْرَ؛ لِعلْمك وعَقْلِك وصِدْقِك، ونُؤمِّلُ أن تكونَ فينا سيِّدًا مطاعًا، قبل هذا القَوْلِ الَّذي تدَّعي فيه النبوَّةَ، وتَدعونا إلى تَركِ عِبادةِ غيرِ اللّه، أتنهانا أن نَعْبُدَ الأصنامَ الَّتي كان يعبُدُها أسلافُنا، وإنَّنا لفي شكٍّ كبيرٍ من صِحَّةِ ما تدعونا إليه من توحيدِ اللّه وعبادته وحده، شَكًّا يوجِب تُهمَتَك[5].

(1) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نهي).
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نهي).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ريب).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نهي).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/454، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/332، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 385.

وترشدُ الآيةُ الكريمة إلى أنَّ المصلحَ في قومه يكون مشهودًا له بالخير ومكارم الأخلاقِ وحميد الصفاتِ؛ ما دام موافقًا لهم في أهوائهم وموروثاتهم السّابقة، فإذا خالفَهم بدعوتِه لهم إلى الهَدْي السَّديد والرأيِ الرَّشيد؛ نعتوه بأعظم القبائح، وأقذعِ الأقوال.

وترشدُ إلى الفرقِ الواضحِ في الأسلوب بين القوم ونبيِّهم، فالقومُ ثمودُ قابلوا صالحًا ﵇ بما يفيدُ التوبيخَ والاتِّهامَ، ويدلُّ على التصميم على الكفر، والنَّبيُّ صالحٌ يتلطَّفُ بهم، ويحاولُ إقناعَهم بصحَّةِ دعوتِه إلى توحيد اللّه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الفصل والتَّجريد في مطلع الآية:

فصل الجمل في القصَّة، اكتفاء بروابط المحاورة، من فنون القصص القرآنيِّ

الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾، خبريَّة مجرَّدة من العاطف؛ لأنَّها جواب القوم لنصيحة صالح النَّفيسة، وفصلت الجملة؛ لأنَّها وردت على أسلوب حكاية المحاورة في القصص، فلا تحتاج إلى رابط؛ لكون الحوار الحاضر كافيًا في ربط أبعاض الكلام ببعضه، فهذه الجملة تحكي جواب قومه وردَّهم عليه، وهو جزء من البناء القصصيِّ المتوخّى، لعرض القصص القرآنيِّ في جماليَّة وتألُّق، تؤهِّله لعرض الأحداث في روعة وشائقيَّة.

نكتةُ الإسناد في ﴿قَالُواْ﴾:

الجماعة تدلُّ على القوَّة، حتّى عند أهل الباطل والضَّلال

قوله جل شأنه: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾، أسند النَّظم الجليلُ فيه فعل القول إلى واو الجماعة في: ﴿قَالُواْ﴾؛ للدَّلالة على اجتماع قوم ثمودَ على الباطل، وتصدّيهم للحقِّ بالاستهزاء والإنكار وسوء القرار، وأنَّهم كانوا في ذلك جماعة متآلفين متوافقين على الكفر.

(1) الزحيلي، التفسير الوسيط: 2/1048.

غرضُ نداء القوم صالحًا باسمه المجرَّد:

أورد النَّظم الجليل خطابَ صالح عليه السلام، بلا أوصافِ التَّقدير والتَّوقير، في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ﴾، دون صفته كنبيٍّ أو رسول، فنادَوه باسمه المجرَّد، وهو جفاء منهم[1]، مع إغفالهم صفةَ النُّبوَّة أو الرِّسالة؛ إشارة إلى الاستخفاف به وبدعوته، وبغرض التَّوبيخ والملامة، ممّا يؤكِّده قولهم: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾، كما فعلت عاد مع هود من قبلُ، بأسلوب مغاير، سبق بسطه في قصَّة هود عليه السلام، وممّا يدلُّ على أنَّ نداء قوم صالح إيّاه، كان بغرض التَّوبيخ، قولُهم: ﴿قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾، فهذا تعريض بخيبة أملهم ورجائهم فيه، فهو توبيخ وتعنيف[2].

لا يـترك الكافر فرصة للجحود والجفاء إلّا وأوقع نفسه فيها

معنى حرف التَّحقيق ﴿قَدۡ﴾:

أدخل النَّظم الجليل في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾، حرف التَّحقيق ﴿قَدۡ﴾ على فعل الكَون؛ لتأكيد الخبر، ليكون إخبارُهم بكونهم راضين عنه قبل البعثة، وأنَّهم كانوا يرونه حسن السِّيرة، مرجوًّا على وجه التَّأكيد، أبلغ في إيقاع التَّوبيخ واللَّوم.

إظهار تأكيد رضاهم عنه قبل بعثته، لا تنويهٌ بخصاله، بلْ مبالغةٌ في التَّوبيخ

دلالة تقديم ﴿فِينَا﴾ على ﴿مَرۡجُوّٗا﴾:

قدَّم النَّظمُ الكريم شِبهَ الجملة ﴿فِينَا﴾، على المسند ﴿مَرۡجُوّٗا﴾ من قوله جلَّ شأنه: ﴿قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا﴾؛ للدَّلالة على أنَّ كونه مرجوًّا إنَّما هو بين بني قومه وحسب، ولو قالوا: (كنت مرجوًّا) بالإطلاق؛ لدلَّ على أنَّ الرَّجاء به شامل لقومه وغيرهم، وهذا يعني: شهرته خارج قومه، وهم أرادوا أن ينصّوا على أنَّ الرَّجاء فيه كائن منهم حصْرًا، إظهارًا للمنَّة عليه والرِّضا عنه؛ ليتحقَّق التَّوبيخ الذي سيكيلونه له.

أعرف النّاس بالرَّسول قومه، ولا يعرف فضل المرء مَن يجهلُه

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/319.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/109.

سرُّ الوصف بكونه ﴿مَرۡجُوّٗا﴾:

في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾ بيَّن النَّظم الكريم أنَّ صالحًا كان معروفًا - قبل الرِّسالة - بالكمال الإنسانيِّ، كما كان محمَّد ﷺ معروفًا بأنَّه الصّادق الأمين.. وحيث إنَّه قد كان مرجوًّا خيرُه، غير مذموم، فما ينبغي أن يَفعل ما يُخْرِج عن دائرة هواهم، ومقتضيات مرادهم، وذلك منتهى الرَّجاء فيه؛ كي يردِّد مقالاتهم، ويعبد ما يعبدون[1]، أي: إنَّهم قالوا له بلسان المعترف المقرِّ بما له من تميُّز فيهم، كانوا يدَّخرونه لخدمة مآربهم، ما مفاده: "كانت تلوح فيك مخايلُ الخير، وأماراتُ الرُّشد، فكنّا نرجوك لننتفعَ بِك، وتكون مشاورًا في الأمور، ومسترشَدًا في التَّدابير، فلمّا نطقت بهذا القول؛ انقطع رجاؤنا عنك، وعلمنا أن لا خيرَ فيك"[2].

حُسْنُ سيرة المرء، ورضيُّ سمعته، مظنَّة الانتفاع من خيره ومشورته

فائدةُ التَّعبير بقوله: ﴿قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾:

في قوله جلَّ شأنه: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾، عبَّر النَّظم بالظَّرف الزَّماني (قبل)، وأضافه إلى اسم الإشارة الدّالِّ على الدَّعوة، أي: "﴿قَبۡلَ هَٰذَآۖ﴾ الَّذي باشرتَه من الدَّعوة إلى التَّوحيد، وترْكِ عبادة الآلِهَةِ، أو قبل هذا الوقتِ، فكأنَّهم لم يكونوا إلى الآن على يأس من ذلك، ولو بعد الدعوةِ إلى الحقِّ، فالآن قد انصرَم عنك رجاؤُنا"[3]. ففصلوا بين زمانين؛ أحدهما: ما قبل الجهر بالدَّعوة عندما كان مرجوًّا فيهم، والآخر بعدها عندما ناصبوه العداء، وخاطبوه بهذا الأسلوب الفجِّ، ولم يقولوا: (من قبل هذا)، فحذفوا حرف الجرِّ لاستغراق الزَّمان، أي: كنت مرجوًّا طولَ الزَّمان قبل أن تدعونا إلى ما دعوتنا إليه، فأمّا بعد هذا؛ فانسلخت من هذا العِداد[4].

صلاح السّيرة، ليس شفيعًا معتبرًا عند المعاندين

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3724.

(2) الزّمخشري، الكشاف: 2/407.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/221.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/319.

دلالة الموقع البياني لجملة التَّساؤل:

قوله جلَّ شأنه: ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾، الجملة في بيان لقولهم: ﴿قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا﴾، باعتبار دلالتها على التَّعنيف والتَّوبيخ[1]، فإنَّ تذكيره بكونه كان حسن السّيرة فيهم، وأنَّهم كانوا يرجون منه الخير في سياق العتاب والتَّوبيخ، يظهر أنَّهم قد غيَّروا مكانته عندهم، فلم يبقَ مرجوًّا، والسَّبب أنَّه دعاهم لترك عبادة الأصنام الَّتي ورثوها من آبائهم، فجاءت الجملة ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾، لبيان علَّة توبيخهم، وإيضاح السَّبب الدّافع له.

عـلَّة توبيخ الرَّسول دعوته قـومـه إلى التَّوحيد ونبذ الضَّلالة

غرضُ الاستفهام في قوله: ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ﴾:

عبَّر النَّظم الكريم بالاستفهام في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾؛ للدَّلالة على الإنكار والتَّوبيخ، فدلَّت الجملة على استنكار القوم هذا النَّهي منه[2]، ودعوته لهم لعبادة غير آلهتهم، بحجَّة أنَّها إرث عن الآباء، فهم يستنكرون دعوته، ويثيرون العجب بالاستفهام لإنكار الواقع، وهو أنَّه ينهاهم أن يعبدوا ما يعبد آباؤهم[3]، وهذا داخل في مفهوم انقلاب الموازين، ذلك أنَّ من يدعو إلى الإصلاح، وينصح القوم بالتَّغيير الإيجابيِّ، وتصحيح المفاهيم المغلوطة، ونبذ العادات السَّلبيَّة الموروثة عن الآباء والأجداد، دون فهم واعٍ، ولا نفعٍ يستفاد، من شأنه أن تزداد قيمته، وترتفع مكانته، لا أن يوبَّخ ويلام.

ضـلال القـوم في مشاكسة النّاصح لهم بما ينفعهم

وجهُ التَّعبير بلفظ ﴿مَا﴾ الموصولة:

في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾، استعمل اسم الموصول ﴿مَا﴾ الدّالَّ على غير العاقل؛ ليشير إلى ما عبد آباؤهم

إصرار المشركين على عبادة آلهتهم الموروثة مع علمهم ببطلانها وعجزها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/110.
(2) القنّوجيّ، فتح البيان: 6/205.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3724.

من الأصنام، فهو تأكيد لكون الأصنام معبودة آبائهم، وأنَّهم بحيث يقرُّون بذلك، ويتمسَّكون به، فعبَّروا عن أصنامهم بالموصول ﴿مَا﴾، "لما في الصِّلة من الدَّلالة على استحقاق تلك الأصنام أن يعبدوها في زعمهم، اقتداء بآبائهم؛ لأنَّهم أُسوة لهم، وذلك ممّا يزيد الإنكار اتِّجاهًا في اعتقادهم"[1]، فهُم يحكون تمسُّكهم بموروثاتهم في العبادة مهما كانت صفتها أو قيمتها، ويشير إلى عمى التقليد والاعتداد بما كان عليه الأسلاف، حتى لوكان أيَّ شيء، سواء كان صنمًا أم حجرًا أم غير ذلك.

براعةُ التَّعبير بالمضارع ﴿يَعۡبُدُ﴾:

تصويرُ الحال واستحضار صورة مكانة آبائهم؛ مما يزيد تمسكهم بما يعبدون

قوله جلَّ شأنه: ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾، عبَّر فيه النَّظم الجليلُ عن عبادتهم بالفعل المضارع، مع أنَّ عبادتهم منقطعة ماضية، فعدل إلى الفعل المضارع حكايةً للحال الماضية[2]، ممّا كان عليه الاعتقاد الوثنيُّ الباطل، في الحاضرة والبادية، ولم يقولوا: (ما عبدَ آباؤنا)، بل عبَّروا "بصيغة المضارع تصويرًا للحال، كأنَّ آباءهم موجودون فلا يمكنهم مخالفتهم؛ إجلالًا لهم، فأجلّوا من يرونه سببًا قريبًا في وجودهم، ولم يهابوا من أوجدهم وآباءهم أوَّلًا من الأرض"[3].

دلالة الإسناد في: ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ﴾:

نسبة ما يكون من الله إلى العباد سوء أدب مع ربِّ العباد

قوله جلَّ شأنه: ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾، حكاية عن قوم صالح عليه السلام؛ إذ أوقعوا فيه التَّوبيخ عليه، بإسناد النَّهي إليه، فوجَّهوا النَّهي إليه، والنّاهي هو الله تعالى، فقولهم: ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ﴾، خروجٌ بالسُّؤال عن وجهته، ذلك أنَّ استنكار النَّهي موجَّهٌ إلى صالح عليه السلام، والرَّسول مبلِّغ عن الله تعالى، فالذي نهى على الحقيقة هو الله

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/110.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/221.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/320.

ﷻ لذلك كان قولُهم سوءَ أدب مع الله، قبل أن يكون سوء أدب مع نبيِّه صالحٍ عليه السلام.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ﴾:

الانتقالُ من رجائهم مواطأةَ صالحٍ لهم إلى الطَّعن في رسالته

عطف الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، على الجملة في قوله تعالى: ﴿يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾؛ لكونهما من مقولهم الَّذي قالوه، "فبعد أن ذكروا يأسهم من صلاحِ حالِه، ذكروا أنَّهم يشكّون في صدق أنَّه مرسل إليهم، وزادوا ذلك تأكيدًا بحرف التَّأكيد[1].

دلالة تأكيد الخبر في شكِّهم في دعوته:

تأكيد الشَّك في صدق الرِّسالة تأييسٌ للرَّسول من إيمانهم

في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، جاء الخبر في غاية التَّأكيد، حيث ورد ﴿وَإِنَّنَا﴾ على الأصل بتشديد نون (إنَّ)، وضمير (نا) المسند إلى جماعتهم من الرؤساء والرِّعاع، وهو تأكيد متعنِّتٌ منهم، لبيان ريبهم اللَّئيم، وشكِّهم الأثيم في صدق دعوته، لذلك كان التَّشديد وتوالي النّونات مناسبًا لذلك، وأُلحِقَ ذلك باللّام المزحلَقة الدّالة على التّوكيد، فقالوا مقولتهم على وجه التَّأكيد[2]، بل زادوا التَّأكيد بأن جعلوا أنفسهم محاطين بالشَّكِّ، وغرضهم من ذلك تأكيد تأييس صالح عليه السلام من انتظار استجابتهم له.

نكتةُ الظَّرفية المجازيَّة في: ﴿لَفِي شَكٍّ﴾:

تحوُّل الشَّك إلى ظرف وبيئةٍ محيطة بهم، يؤكِّد قوَّة شكِّهم

أدخل حرفَ الجرِّ (في) الدّالَّ على الظَّرفيَّة المجازيَّة، في قوله جل شأنه: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾؛ لأنَّ الشَّك لا يكون ظرفًا، وإنَّما عبَّروا بذلك لتأكيد شكِّهم، فهو قد أحاط بهم إحاطة الظَّرف بمظروفه[3]، وقد رتَّبوا شكَّهم في دعوته، على نبذه آلهتهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/110.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/320.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/320.

المزعومة وطعنه في عبادتهم الموهومة، و"قالوا: يا صالح، لقد كنّا نرجو الخير فيك قبل هذه الدَّعوة، كنّا نرى فيك حكمةً وأصالة رأي، فما بالك الآن؟ أتنهانا عن عبادة ما كان يعبُد آباؤنا؟ نحن في شكٍّ من دعوتك هذه إلى عبادة الله وحده، شكٍّ يجعلُنا نرتابُ فيك، وفيما تقول"[1].

بلاغةُ التَّعبير بالشَّكِّ في ﴿لَفِي شَكٍّ﴾:

إظهارُ أنفسهم بمظهر النّاقد الَّذي لم يؤمن عن دراية، لا عن محض الرَّفض

في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، عبَّر النَّظم الكريم عن تردُّدهم في أمره، فالشَّكُّ هو التَّوقُّف بين النَّفي والإثبات حين لم يترجَّح في اعتقادهم صحَّة قوله، "فهم يشكّون فيما يدعو إليه من التَّوحيد، وهجر عبادة الأوثان؛ لأنَّها أحجار لا تضرُّ ولا تنفع، وإنَّ هذا الشَّكَّ يوقعهم في الرّيب، أي: إنَّ شكَّهم في صدق ما يدعوهم إليه، يوقعهم في حال الرَّيب، فلا يؤمنون بقوله، ويكونون في حال من الاضطراب"[2]. وثمَّت ملمحٌ بلاغي دقيقٌ في قولهم ذلك، فهم لم يعبِّروا عن القطع بكونهم كافرين به، بل أظهروا أنَّهم يشكُّون فيما جاءهم به، وهذا لإظهار أنَّهم قد تفكَّروا في شأنه ودعوته، ولكن لم يظهر لهم صدقه، وبهذا يكون عدم تصديقهم له ليس كفرًا لدعوة ظاهرة الصِّدق، بل هو رفض لدعوة ناقصة الأدلَّة لا يقوم على البرهنة عليها دليل يُعتدُّ به، فالغرضُ الأساس من ذكر الشَّكِّ إظهار أنفسهم بمظهر النّاقد الَّذي لم يؤمن عن دراية، لا عن محض الرَّفض.

دلالة الموصول (ما) وصلته ﴿تَدْعُونَآ﴾:

شكُّهم الأثيم في كلِّ ما جاءهم به رسولهم الكريم فسادٌ في فطرتهم

في قوله جلَّ شأنه: ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، عُبِّر عن المدعوِّ إليه بالاسم الموصول (ما)؛ للدَّلالة على عموم ما دعاهم إليه، "من

(1) إبراهيم القطّان، تيسير التّفسير: 2/226.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3724.

التَّوحيد، وتركِ عبادةِ الأوثانِ وغيرِ ذلك من الاستغفار والتَّوبة"[1]، وهذا يفصح عن خراب طويَّتهم، وفساد فطرتهم؛ إذ لم يستحسنوا شيئًا ممّا دعاهم إليه، بل جعلوا كلَّ شيء دعاهم إليه مشكوكًا فيه، وهم في ريبهم يتردَّدون.

غرضُ وصف الشَّكِّ بأنَّه ﴿مُرِيبٍ﴾:

الشَّكُّ المريب يفصح عن ارتيابٍ وقلقٍ يترجَّح معه الإنكار

في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، وصف (الشَّكِّ) بأنَّه ﴿مُرِيبٍ﴾، يدلُّ على معنيين: أحدهما متعدٍّ من (أرابه)، أي: أوقعه في الرّيبة، أي: قلقِ النَّفسِ وانتفاءِ الطُّمأنينة، والثّاني: لازمٌ من (أرابَ الرّجلُ)، أي: صار ذا ريبة[2]، ولكلٍّ وجهة في المعنى هو مولّيها، فقولهم: ﴿مُرِيبٍ﴾، يعني: أنَّه ترجَّح في اعتقادهم بطلان قوله وفساده، وذلك مبالغة في تزييف كلامه، وتسفيه دعوته، فلم يكن شكُّهم كأيِّ شكٍّ، بل هو شكٌّ مؤكَّد، كقولهم: جدَّ جدُّه[3].

نكتةُ التَّنكير في لفظي ﴿شَكٍّ﴾ و ﴿مُرِيبٍ﴾:

عدم تعيين الشَّكِّ والارتياب فيه مبالغةٌ في بيان شدَّة الوصف

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بصيغة التَّنكير، في لفظي ﴿شَكٍّ﴾ و ﴿مُرِيبٍ﴾ من قوله جلَّ شأنه: ﴿لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾؛ تفخيمًا لشأن الشَّك والرِّيبة[4]، فإنَّ التَّنكير يدلُّ على عدم التَّعيين، فهو مريب ريبة غير معروفة، وهذا يدلُّ على الغموض والجهالة، وذلك أدعى للمبالغة في شدَّة هذا الوصف.

التَّشابه اللَّفظيُّ بين آيتي هود (62) وإبراهيم (9):

ورود الخطاب بقوله: (تدعونا إليه) للمفرد، وبقوله: (تدعوننا إليه) للجمع

وردَ التَّشابهُ اللَّفظيُّ بين قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾، وقولِه تعالى: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓاْ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/221.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/176.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/111.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/221.

أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرۡنَا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٩﴾ [إبراهيم: 9]، فاختلف التَّعبير بين الآيتين ففي سورة هود: ﴿وَإِنَّنَا﴾... ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَآ﴾، وفي سورة إبراهيم: ﴿وَإِنَّا﴾.. ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَنَآ﴾؛ وذلك أنَّ التَّعبير بالفعل في كلتا الآيتين جاء على الأصل، فالخطاب في سورة هود للمفرد؛ لأنَّه خطاب لهود عليه السلام فقالوا: ﴿تَدۡعُونَآ﴾، أمّا الخطاب في سورة إبراهيم؛ فهو لجماعة الرُّسل عليهم السلام، فقالوا: ﴿تَدۡعُونَنَآ﴾، أمّا التَّعبير بـ ﴿وَإِنَّا﴾ و ﴿وَإِنَّنَا﴾؛ فإنَّ الأصل فيه هو ﴿وَإِنَّنَا﴾، وقد جاء تعبيرهم على الأصل في سورة هود؛ دلالة على قوَّة تأكيد إنكارهم، فأبقَوا النّوناتِ الثّلاثَ تثقيلًا للتأكيد؛ أمّا في سورة إبراهيم؛ فجاء محذوفَ النّون ﴿وَإِنَّا﴾؛ لأنَّه قد وقع بعده: ﴿تَدۡعُونَنَآ﴾ بنونين؛ لأنَّهُ خطاب جمع للرُّسل، فحذف في السياق منْ (إنّنا) النّون استثقالًا للْجمع بَين النّونات في الموضعين من السورة نفسها في صدر الجملة ونهايتها[1].

الفروقُ المُعْجَميَّة:

(الرّيبة) و(الشّكّ):

الرَّيب قلق النَّفس، وانتفاء الطُّمأنينة، وهو أخصُّ من الشَّكِّ

الرَّيب: شكٌّ مع تهمة[2]. وأصل الرَّيب القلق واضطراب النَّفس، ولمّا كان الشَّكُّ يلزمه اضطراب النَّفس وقلقها؛ غلب عليه الرَّيب، فصار حقيقة عرفيَّة، يقال: رابَه الشَّيء؛ إذا شكَّكَه، أي: أوجب الشَّكَّ في حاله[3]. وفي الآية الكريمة ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ﴾، عبَّر قوم صالحٍ عن قلقهم واضطرابهم بشأنه، بأن جمعوا بين الشَّك والوصف، بكونه شكًّا مريبًا، ولو اقتصروا على الشَّكِّ؛ لكان المدلول الشَّكَّ وحسبُ، ولكنّهم قرنوه بكونه شكًّا مريبًا، مبالغةً

(1) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 146.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 99.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/222.

منهم في إظهار كونهم شاكّين فيه، فـ"الرَّيب: حالة فكريَّة تميل نحو الاتِّهام وظنِّ السّوء، والشَّكُّ: حالة من الحيرة والاضطراب، يجعل اليقين يتذبذب، ويتأرجح بين الأمرين، من غير مرجِّح لأحدهما، والشَّكُّ: حالة فطريَّة، تنشأ عند غياب الأمارة المرجِّحة، وعند الجهل بالحقيقة، والرَّيب: حالة مرضيَّة تؤدِّي إلى توهُّم الحقيقة، وترجُّح التُّهمة بغير دليل، وفي إطار هذه الدِّلالات جاء كلٌّ من اللَّفظين يعبِّر عن معناه الَّذي يؤكِّد أنَّ هذا اللَّفظ في موضعه، له معنى، لا يؤدّيه مرادفُه"[1].

(1) سامي عبد الفتاح هلال، التّرادف في القرآن الكريم بين المثبتين والنّافين، (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة الأزهر، ص: 54.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ ٦٣﴾ [هود: 63]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانـتـقـالُ من تفكير العاطفة لـلآبـاءِ، إلى التَّفكير القائم عـلى الـحـقِّ والعقلِ السَّديد

لَمّا نهاهُم صالحٌ ﵇ عنْ عبادةِ ما كانَ يعبدُ آباؤهُمْ، وأمرهم بأنْ يكونَ التّوحيدُ شعارَهُمْ، لاموه على ذلكَ وأظهروا لهُ منْ قبيحِ تعريضِهمْ بدعواهُ تلك، "ولّما أبرزوا لهُ أمرَهمْ في قالبِ الشّكّ على سبيلِ الجزم، قابلَهُمْ بمثلهِ على سبيلِ الفرضِ إنصافًا لهمْ لئلّا يلائمَ الخطابُ حالَ المخاطبينَ"(1)، فإنّ دعوتهُ إنّما تنطلقُ من أنّها مؤيَّدةٌ بالبيّنةِ والحجّةِ والبرهانِ المقترنِ بالرّحمةِ، وأنّه إن لم يفعلْ ذلكَ باتّباعكُم أو الكفّ عمّا يدعوكُم إليهِ فقدْ عصَى الحقّ سبحانهُ ولنْ يزدادَ آنئذٍ إلّا خسارًا، فالمناسبة بين الآيتين مُفادها الانتقال من منهجِ التَّفكير القائم على التَّعصب لعبادةِ الآباءِ، إلى منهجِ التَّفكير القائم على الحقِّ والعقلِ السَّديدِ للوصولِ إلى الهداية الرَّبانيَّة، وفي هذه المناسبة تلطُّفٌ في الخطابِ، واستنزالٌ للمخاطَبين، وهو ما يدلُّ على الحكمة والبصيرةِ في الدَّعوة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَيِّنَةٖ﴾: أصلُ الكلمةِ من البَيْن، وهو بُعْدُ الشَّيءِ وانْكِشافُهُ. فالبَيْنُ الفِراقُ؛ يُقالُ بانَ يَبِينُ بَيْنًا وبَيْنُونَةً. والبَيُونُ البِئْرُ البَعيدَةُ القَعْرِ(2). والبَيِّنَةُ: الأمرُ الواضح، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ [الأنعام: 57]، أي: أنا على أمرٍ واضحٍ ظاهرٍ. والبَيِّنَة: الحُجَّة،

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/321.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).

ومنه: (البَيِّنةُ على المدَّعي)؛ لأنَّ بها ينكشف الحقّ ويتَّضح. والبَيِّنةُ: الدّلالة الواضحة عقليَّة كانت أو حسيَّة[1]. والبيان: التَّوضيحُ والكَشْفُ، يُقالُ: بانَ الشَّيْءُ وأبانَ إذا اتَّضَحَ وانْكَشَفَ. وفُلانٌ أبْيَنُ منْ فُلانٍ؛ أيْ أوْضَحُ كَلامًا منْهُ[2]. والمقصود بالبيِّنة في الآية: الحُجَّة الواضحة[3].

2) ﴿رَحۡمَةً﴾: أصلُ (رحم): يدُلُّ على الرِّقّةِ والعطفِ والرّأفةِ، يُقالُ من ذلك: رحِمهُ يرحمُهُ، إذا رقّ له وتعطّف عليهِ. والرّحِمُ: علاقةُ القرابةِ، ثُمّ سُمِّيت رحِمُ الأُنثى رحِمًا من هذا؛ لأنّ منها ما يكونُ يُرحمُ ويُرقُّ له من ولد[4]. والرّحمةُ: اسمُ مصدر لِصِفةِ الرّاحِم وهي من صِفاتِ الإنسانِ فهي رِقّة في النّفسِ تبعثُ على سوقِ الخيرِ لِمن تتعدّى إليهِ[5]. وإذا وُصِف به الباري ﷻ فليس يُراد به إلّا الإحسانُ المُجرّدُ دون الرِّقّة، وعلى هذا رُوي أنّ الرّحمة من اللّه إنعام وإفضال، ومن الآدميِّين رِقّة وتعطُّف[6]. والرّحمةُ أيضًا: القرآن[7]، والمغفرةُ[8]، والنُّبوة[9]، والمراد بالرّحمة في الآية: النُّبوّة والحِكمة[10].

3) ﴿يَنصُرُنِي﴾: أصلُ (نصر): يدُلُّ على إتيانِ خير وإيتائِه. يُقالُ: نصر اللّهُ المُسلِمين: آتاهُمُ الظّفر على عدُوِّهِم، ينصُرُهُم نصرًا. وانتصر: انتقم، وهُو منهُ. والنّصرُ: عونُ المظلوم[11]. والنّصِيرُ فعِيل بِمعنى فاعِل أو مفعُول؛ لأنّ كُلّ واحِد من المتناصِرين ناصِر ومنصُور. والاستِنصارُ: استِمدادُ النّصر. والتّناصُر: التّعاونُ على النّصر[12]. وأمّا الإتيانُ فالعربُ تقُولُ: نصرتُ بلد كذا، إذا أتيتهُ؛ ولِذلِك يُسمّى المطرُ نصرًا. والنّصرُ: العطاءُ[13].

(1) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بين).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/51.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رحم).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/24.
(6) الرّاغب، المفردات: (رحم).
(7) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 1/358، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/75.
(8) ابن منظور، لسان العرب: (رحم).
(9) الشهاب، عناية القاضي: 5/90، والمراغي، تفسير المراغي: 15/173.
(10) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/102.
(11) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(12) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نصر).
(13) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).

والمقصود بالنّصر في الآية: إعانةُ المُقاوِمِ لِضِدّ أو عدُوّ[1]. والمراد في الآية: من يُعينني أو يمنعُني من عذابه إن عصيتُه.

4) ﴿تَخْسِيرٍ﴾: أصل (خسر): يَدُلُّ عَلَى النَّقْصِ. فَمِنْ ذَلِكَ الخُسْرُ والخُسْرانُ، والفِعل: خَسِرَ يَخْسَرُ خُسْرانًا. والخاسِرُ: الَّذي غُبِنَ في تجارته، ومصدرُه: الخَسارَةُ والخُسْرُ. كِلْتُهُ ووزَنْتُهُ فأخْسَرْتُهُ، أي: نقصته، وصَفق صَفْقَةً خاسِرَةً، أي: غيرَ مُرْبِحَة[2]. والتَّخْسِيرُ: الإهلاك[3]، وقيل: الإبْعادُ من الخَير[4]. والمقصود بالتَّخسير في الآية: مَصْدَرُ خَسِرَ، إذا جعله خاسرًا[5].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

جوابُ الحكمةِ في الــرَّدِّ على الطّاعنين هو هديُ الصّالحين ونجاةُ المؤمنين

تبيِّن الآيةُ موقفَ صالحٍ عليه السلام في الرَّدِّ على قومه فيما قالوه: يا قوم أخبِروني عن حالي معكم إنْ كنتُ على برهانٍ وبصيرةٍ من ربي مالِك أمري، وآتاني من قِبَلِه رحمةً خاصَّة من عنده جعلني بها نبيًّا مُرسَلًا إليكم؛ فمَنِ الَّذي يدفَعُ عنِّي عذابَ اللّهِ تعالى لِو استجبتُ لكم وعصيتُه، أي لا أحدَ يدفع ذلك عنِّي في هذه الحال، فلا أبالي إذًا بقطع رجائكم فيَّ، ولا بما أنتم فيه من شكٍّ وريبٍ في أمري، فلن تَزيدوني غيرَ الخَسارةِ والضَّرَرِ والتَّضليلِ، والإبعادِ من الخَيرِ.

فالآيةُ الكريمةُ تُصوِّر تصويرًا بليغًا ما كان عليهِ صالح عليه السلام من إيمانٍ عميقٍ باللّه تعالى، ومن ثباتٍ على دعوته، ومن حرصٍ على طاعته سبحانه[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/56.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خسر).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خسر).
(4) الزَّبيدي، تاج العروس: (خسر).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/212.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 12/455، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/332، والمراغي، تفسير المراغي: 12/54 - 55، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/234.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

المحاوراتُ تقومُ على الأجوبةِ المتقابلةِ، لا على عطفِ الجوابِ على الجواب

لَمّا رفضَ قومُ صالحٍ دعوتَهُ، وارتابوا منهُ في الآية السّابقةِ بقولهِمْ: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٦٢﴾ [هود: 62] كانتْ هذهِ الآيةِ جوابًا لمقالتهِمْ تلكَ على طريقةِ المحاوراتِ[1] والمقاولات؛ لذلكَ فصلَ ولمْ يَعْطِفْ، وهي طريقةٌ عربيةٌ وأسلوبٌ ذائعٌ في القرآنِ الكريم، وهي استئنافٌ بيانيٌّ مؤسَّسٌ على سؤالٍ مُقَدَّرٍ في ردّهِ على تكذيبهِم وتعريضهِم بهِ، فبعدَ أنْ أظهَروا ما في نفوسهِمْ منْ مقالتهِمُ الحمقاءِ وريبتِهِمُ الشّنعاءِ[2]؛ جاءَ الرَّدُّ بفعلِ القولِ عاريًا عنْ حرفِ العطفِ مجرَّدًا منهُ.

بلاغةُ البدءِ بالنِّداءِ بأداة البعيدِ:

تنبيهُ المخاطَبين وتحريكُ مشاعرِهِم لِفَهْمِ مضمونِ الخطابِ

ابتدأ صالحٌ ﷺ قولَهُ بالنّداءِ في قولهِ تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ قصدًا إلى طلب إقبالِ أذهانهِم ليعوا كلامَهُ، وتنبيهًا إلى أنّ الآتي من القولِ من الأمورِ المهمّةِ ذاتِ الشّأنِ والحُظوةِ والاعتبارِ[3]، واخْتيرت أداةُ نداء البعيد لتنبيه القوم على خطورةِ مضمون الخطاب، فإنَّ نداءَ المخاطَب من شأنه تحريكُ همَّتِه، وإثارةُ مشاعره للانتباه، واستعمالُ أداة البعيد يدلُّ على أنَّهم كانوا في بُعدٍ شعوريٍّ وعقليٍّ عن فهم المراد.

نكتةُ اختيارِ لفظِ (قَوْم):

استنزالٌ لطائرِ النُّفورِ وجلبٌ لمشاعرِ القرابة

اختارَ صالحٌ ﷺ لفظَ (قَوْم) في ندائهِم قَصْدًا إلى التّخفيفِ من غُلَواءِ نُفورهِم وشِدَّةِ إعراضهِم مذكِّرًا بأنّهُ منهُم؛ فقدْ كانَ مَرجُوًّا عندهُم، وأنّهُ لا يبتغي من دعوتهِ إلّا الخيرَ والصّلاحَ لهُم[4].وفيه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/111.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 10/127.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/111.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/50.

تحريكٌ للعلاقةِ النَّسَبيَّة وصلةِ القرابة، ودلالةٌ على التَّحبُّبِ والتَّودُّدِ والحَدَبِ والحنانِ[1]، وهذا شأنُ منْ يدعو بدعوةِ اللّهِ وطريقِ عبادته؛ فقدْ خاطبَ الحقُّ سبحانهُ خيرَ الخلقِ بقولِه: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: 159].

نكتةُ الإضافة لياء المتكلِّم المحذوف:

الانتماءُ برهانُ النَّصيحةِ

في إضافة لفظ (قَوْم) إلى ضمير المتكلِّم المحذوف، مزيدُ تأكيدٍ لهذه المعاني المذكورة، مع بيانِ أنَّه حريصٌ عليهم حرصَ الإنسانِ المنتمي إلى قومه، كأنَّه يقول لهم: أنتم قومي فكيف أَخْذُلُكم وأغْدِرُ بكم وأُضَلِلُكم عنِ الصَّواب؟!

بلاغةُ الاستفهام في الآيةِ:

التّنبيهُ توطئةً وتدرّجًا لإغراءِ الفكرِ والنّظرِ وصولًا إلى الحقيقةِ

ابتدأ صالحٌ عليه السلام كلامَهُ بعدَ النّداءِ بالاستفهام ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ تنبيهًا وتحذيرًا لهمْ، وتقريرًا لما جاءَ به، ولسانُ حالهِ أنْ قدْ رأيتُمْ وعَلِمتُمُ الحالَ الّتي أنا عليها[2]، ووطّأ كلامَهُ بطريقِ الاستفهام قصدًا منهُ إلى أنْ يثيرَ أفكارَهُمْ وأنظارَهُمْ وأنْ يتفكّروا وصولًا إلى الحقيقةِ بطريقِ التّدرّجِ والتّسلسلِ؛ فإنَّ التّدرّجَ حليفُ النّجاحِ والطّفرةَ حَليفةُ الفشلِ.

دلالةُ الاستفهام:

التّعريض بمن لم ينفعه تأمُّلُه ولم يوصِلْه إلى صدقِ دعوتِه

دلَّ الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ على معنى طلبِ الإخبارِ، أيْ: أخبروني[3]، وهو تقريرٌ مستعملٌ لمَنْ يكونُ على حالٍ يجحدُ معهُ الخبرَ[4] الأكيدَ المؤيَّدَ بالدّلائلِ والبراهينِ كما هو حالُ صالحٍ عليه السلام في كونهِ على بَيّنةٍ وبرهانٍ منْ ربّهِ، أي: إنْ كنتُ على برهانٍ واضحٍ وكنتُ مرسَلًا منهُ تعالى برحمةِ الهدى والنّبوّةِ، ولمْ يظهرْ لكمْ ذلكَ،

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/58.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3725.

(3) السّمرقندي، بحر العلوم: 2/158، والسخاوي، تفسير القرآن العظيم: 1/386.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/51.

فلستُ أُلزِمكُمْ بأنْ تُذعِنوا وتصدّقوا بما تكرهونَ منْ أمرِ دعوتي إيّاكم، وفي ذلكَ تعريضٌ بهمْ؛ فإنّهم لو تأمّلوا تأمُّلًا خاليًا منَ الكراهيةِ والعنادِ، لَظَهرَ لهمْ صدقُ دعوتِه جليًّا واضحًا[1].

بلاغةُ حذفِ المفعولِ الثّاني:

الإشـــــارةُ إلى المعـاني الكثيرة بالألفاظِ القليلة

حُذِفَ المفعولُ الثّاني للفعلِ ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾، وهو على معنى: هل أعصيه معَ ما أنا عليهِ من البيِّنةِ والبرهانِ؟! وهو مُسْتَدَلٌّ عليهِ منْ قولِه تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥ﴾، ثمَّ في الكلام محذوفٌ بعدَ تقديرِ المفعولِ الثّاني واكتمالِ الجملةِ على تقديرِ: أرأيتُمْ كذا وكذا! أيَضرُّني ما أنتمْ عليهِ من الشّكّ؟ أو أيُمكِنُني طاعتُكُمْ وأنْ أوافقكُمْ لما تريدونَ[2]، وفي الحذفِ دلالةٌ على المعنى من النَّظم، وهو أمارةُ الإيجاز، وبلاغةُ المجازِ.

بلاغةُ استعمالِ المجازِ:

العلمُ بالشّيءِ سببٌ للإخبارِ عنهُ

التّعبيرُ بالفعلِ ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ منْ بابِ المجازِ، ومعناهُ: طلبُ الإخبارِ عنْ حالتِهمُ العجيبةِ؛ فيكونُ وجهُ المجازِ أنَّ العلمَ بالشّيءِ سببٌ للإخبارِ عنهُ، والإبصارِ بهِ وصحتهُما؛ لذا عبّرَ عنْ ذلكَ بالصّيغةِ الدّالةِ على الطّلبِ[3]، أي: أخبروني بالحالِ إن كنت على بيّنةٍ من ربِّكم!

بلاغةُ اختيارِ ﴿إِن﴾ دونَ (إذا):

مقتضى الحكمةِ خطابُ المخالِفِ بلُطفِ العبارةِ استـنـزالًا له واسـتـدراجًـا لفكرِه

اختارَ النَّظمُ أسلوبَ الشّرطِ بأداةِ ﴿إِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ مُؤْثِرًا إيّاها على (إذا)، والفرقُ بينهُما أنَّ ما اختارهُ مُؤذِنٌ بعدمِ تحقُّقِ الوقوعِ والتيقُّنِ منه، فيما تستعملُ (إذا) لما قُطِعَ بحصولِه وكثُرَ وقوعُهُ[4]، وهو اختيارٌ دقيقٌ؛ فإنَّ منْ أرادَ الإقناعَ تنزّلَ معَ خصمِه فيما يدّعيهِ، فإنّهمْ لَمّا ادَّعَوا صوابَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/50 - 51.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/176.
(3) الدرّة، تفسير القرآن الكريم: 4/421.
(4) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/75.

منهجهمْ خاطبهُمْ خطابَ الظّنِّ لا القطعِ موافقةً لِهَواهُمْ، وتَلطُّفًا بهمْ رجاءَ اقتناعهِمْ، وتَرْكِ ما همْ عليهِ من الضّلالِ، واستنزالًا لطائرِ عنادهِمْ.

وتعبيرُه ﵇ بالأداةِ ﴿إِن﴾ معَ يقينهِ بأنّهُ على المحجّةِ البيضاءِ، وأنَّ أمرهُ محقَّقُ الوقوعِ؛ وأنّهُ جازمٌ فيهِ؛ فَلِأنّهُ ساقَ خطابَهُ على زعمِ الجاحدينَ[1]؛ فذهبَ معهُمْ في اعتقادهِمُ الزّائفِ افتراضًا، ورعايةً لحسنِ المحاورةِ، وإبعادًا لهمْ عنِ المكابرةِ؛ لإقامةِ الحُجّةِ عليهِمْ، ولسانُ حالهِ يقولُ: ها أنا تابعتكُمْ وعصيتُ ربّي، فمنْ يمنعُ عنّي عذابَ اللّهِ[2]؟

كما أنَّ التَّعبيرَ بالأداةِ ﴿إِن﴾ مقابلةٌ لهمْ بخطابِهمُ الدّالِّ على الشّكِّ منْ ثلاثةِ أوجهٍ: الأوّلُ: ﴿قَدْ﴾ الدّالةِ على التّوقّعِ دونَ التّحقيقِ، والثّاني: التّعبيرُ بالرّجاءِ في قولهِ تعالى: ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾، والثّالثُ: التّعبيرُ بالرّيبِ وهو أخصّ من الشّكِّ[3]، فمنْ كانَ هذا خطابهُ فَحَرِيٌّ أنْ يقابَلَ بمثلِ ما جاءَ به.

سرُّ التَّعبيرِ بحرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾:

تمكُّنُ أهلِ الحقِّ إيماءٌ إلى زعزعةِ أهلِ الباطلِ في الحُجَّة والبرهان

عبّرَ النَّظمُ الكريمُ عن حالةِ صالحٍ ﵇ المستبصِرةِ بحرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾، وفي هذا التّعبيرِ ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ كنايةٌ عن شدّةِ التّمكُّنِ من الهدى والبيانِ والاستقرارِ فيه؛ فالمهتدونَ متمكِّنونَ تمكّنَ المستعلي على الشّيءِ المستشرفِ على منْ دونه[4]، كما أنَّ فيه إشعارًا برسوخِ إيمانِه القائم على الحُجَّة والبيِّنة لا الاتِّباع والتَّقليد، فهو إيماءٌ إلى أنَّ قومَه ليسوا متمكِّنين من حُجَجهم، ولا قائمين على أدلَّةٍ مقنِعةٍ لهم أو لغيرِهم.

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 10/128.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/408، وأبو السعود، إرشاد العقل السّليم: 4/221.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/361 - 362.
(4) الشربيني، السراج المنير: 3/180، وفاضل السامرائي، معاني النحو: 3/48.

غرضُ تنكيرِ ﴿بَيِّنَةٍ﴾:

جاء لفظُ ﴿بَيِّنَةٍ﴾ نكرةً ومعناها البيانُ والبصيرةُ والبرهانُ[1]؛ تعريضًا بقوم صالح عليه السلام، فإنّ المرءَ إذا كانَ على أدنى بينةٍ وأقلِّ برهانٍ، فلا يَحسنُ أن يتّخذَ طريقَ الضّلالِ طريقًا، بلْ مآلُهُ هدايةُ ربِّ العالمينَ إلى طريقهِ القويم، ولو جاء بها معرفةً فقال: (إن كنت على البيِّنة) لالتفتَ الكلامُ إلى بيِّنةٍ بعينِها، ممّا يُوحي بأنَّهم طلبوا بيِّنةً وهو أجابهم عنها، وهذا غير مراد، بل المراد بينةٌ تُثْبِتُ صدقَه عليه السلام بقَطْعِ النَّظر عن أيِّ اعتبارٍ آخر.

الاحتراسُ عن إرادةِ بيِّنةٍ بعينِها وتوجيهُ القصدِ إلى الحِجاجِ الخَطابيِّ

معنى الحرف ﴿مِّن﴾:

أفاد الحرف ﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ معنى ابتداءِ الغايةِ، أي: بيِّنة نازلةٌ أو كائنةٌ من عند اللّه تعالى، منتهيةٌ إليَّ، ففي ذكر معنى الابتداء حجَّة على أنَّه عليه السلام مرسَلٌ من ربِّه تعالى، وأنَّه قوّاه بالبينة لتكون شاهدَ صدقٍ على كونه رسولًا حقًّا.

مجيءُ البيِّنة من عند الله تعالى دليلُ صدقِ الرَّسول

فائدةُ اختيارِ لفظِ الرُّبوبيّةِ:

في اختيارِ لفظةِ الرّبوبيّةِ وإيثارِها على الألوهيّةِ في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ فائدةٌ وهي إظهارُ الامتنانِ منهُ تعالى على عبادِه، فهو المحسِنُ إليهِم الرّفيقُ بهم، وهو مالكُهُم ومتولّي أُمورِهم[2]، كما أنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ رعايةَ العبادِ في إبانةِ الحقِّ لهم، وإقامة الحجَّة عليهم من مقتضيات ربوبيّته سبحانه وتعالى، فهو الذي خلقهم، وهو الذي يُرشدهم إلى الحقِّ.

إبانةُ الحقِّ وإقامةُ الحجَّة من مقتضيات الرُّبوبيَّة امتنانًا وإرشادًا

نكتةُ الإضافةِ إلى ضميرِ المتكلِّم:

أُضيفَ لفظُ الرّبِّ إلى ضميرِ المتكلّم في قولِه تعالى: ﴿رَّبِّي﴾ لتشريفِ نبيِّ اللّه صالح عليه السلام وتكريمه، فهو الخالق المدبر الرازق

شرفُ الإرسالِ منَّةُ الرَّبِّ على الخلقِ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/140.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 9/321، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/221.

المرشد والهادي إلى سواء السَّبيلِ، وهو الذي أنعم على عبادِه بالبيّناتِ والهدى، فأرسل رسولَه لإقامةِ الحجَّة على قومه، فهي البيِّنة من الرَّبِّ ﷻ لا منه ﵇، فنكتةُ الإضافة تكمُنُ في إقامة الحجة على أنَّ الإرسال من لوازم ومقتضيات الرّعاية والعناية الربّانيَّة.

بلاغةُ ترتيبِ الجملِ في الآيةِ:

البَدْءُ بالعدلِ وهو إقناعٌ ثمّ أردفهُ بالفضل وهو إكرامٌ

في قولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةً﴾ جملتانِ استهلّهُما بكونِه على بينةٍ، وثنّاهما بإتيانِ الرّحمةِ منهُ تعالى ولم يعكسْ؛ وذلك للآتي:

الأول: هذا التّرتيبُ مؤسَّسٌ على الإقناعِ العقليّ للمخاطَبينَ؛ فبدأهُ بالعدلِ وهو إقناعٌ، ثمَّ أردفهُ بذكرِ فضلِ الحقِّ سبحانهُ على عبادِه بمحضِ إرادتهِ وسبقِ علمه واقتضاءِ حكمتِه.

الثّاني: الجملةُ الأولى أسبقُ زمنًا وطبيعةً من الثّانيةِ؛ فإنَّ كونهُ على بينةٍ أسبقُ منْ إيتائِه الرّحمةَ الّتي فسّرها الكثيرُ من المفسّرينَ[1] بالنّبوّةِ والرّسالةِ وما انضافَ إليها منْ لوازمها كالوحي؛ لأنَّ النّبوةَ لا تكونُ عنْ جهلٍ بلْ تكونُ عنْ بينةٍ وبرهانٍ سابقَيْنِ لها.

الثّالث: تقديمُ البيّنةِ على الرّحمةِ منْ بابِ التّرتيبِ بينَ الخصوصِ والعموم؛ فالبيّنةُ أخصّ من الرّحمةِ؛ فإنَّ البينّةَ على صدقِ دعوتهِ داخلةٌ في جملةِ الرّحمةِ به؛ فمنْ أوتيَ البيّنةَ فهو في رحمةِ اللّهِ[2]، ومنْ لم يؤتَ أصابهُ العنتُ واللأواءُ.

معنى الحرفِ (منْ):

إيتاءُ الرّحمةِ ابتداءً منه تعالى دليلٌ على تشريفِ المقصودِ بها

حرف (منْ) في قولِه تعالى: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةً﴾ ابتدائيٌّ؛ فمعنى ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ﴾، أي: آتاني من جهتِه رحمةً[3]، وهي المفسَّرةُ

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/184، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/25، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 385.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/51.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 2/576.

بالنّبوةِ والرّسالةِ والتّفضيل، وفي ذكر ابتداءِ إنزالِ الرَّحمة إضمارٌ لغايتِها وهي كونها نازلةً على نبيٍّ اللّه صالح ﷺ، فهو المقصود دون غيرِه، فهي تلوِّح بمعنى الاختصاص والاعتناءِ به دون سِواه، وقد دلَّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿وَءَاتَىٰنِي﴾.

بلاغةُ تقديم الجارِّ والمجرورِ:

إيتاءُ النّبوةِ شرفٌ خاصٌّ بالنَّبيِّ ورحمةٌ عامَّةٌ للخلقِ

في تقديم الجارّ والمجرورِ على الاسم في قولهِ تعالى: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةً﴾ دلالةٌ بلاغيَّةٌ؛ فإنّهُ لمّا كانت الرّحمةُ هيَ النّبوةُ والرّسالةُ الّتي اصطفيتُ بها - والكلامُ لصالح ﷺ - رحمةً للجميع(1)؛ فإنَّ إيتاءها خلقَهُ أوْ واحدًا منهمْ مقصورٌ عليهِ سبحانهُ لا غيرهُ؛ فالتّقديمُ يفيدُ الاختصاصَ والقصرَ، وفي ذلك بالغ التَّشريف والتَّكريم، وعظيم التَّبجيلِ والتعظيم، كما أنَّ في هذا التَّقديم سببًا سياقيًّا، فإنَّ الكلامَ في الآية في سياقِ قدرتهِ تعالى وعظمتهِ لا في سياقِ رحمتهِ؛ فتقدّمَ المتعلّقُ وتأخّرتِ الرّحمةُ(2).

كما أنَّه كان الأحسن أن يقع ضمير الجلالةِ عقب فعل ﴿وَءَاتَىٰنِي﴾؛ ليكون تقييدُ الإيتاء بأنه من اللّه مُشيرًا إلى إيتاء خاص ذي عناية بالمؤتى؛ إذ لولا ذلك لكان كونه من اللّه تحصيلا لما أفيد من إسناد الإيتاء إليه، فتعين أن يكون المراد إيتاء خاصا، ولو أوقع منه عقب رحمة لتوهم السامع أن ذلك عوض عن الإضافة، أي عن أن يقال: وآتاني رحمته، كقوله: ﴿وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةً مِّنَّاۚ﴾ [مريم: 21]، أي: ورحمتنا لهم، أي: لنعظهم ونرحمهم(3).

سرُّ التَّعبير بلفظِ ﴿رَحۡمَةً﴾ وغرضُ تنكيرِها:

اشتمالُ الرَّحمةِ النّبوةَ والرّسالةَ والهدايةَ والإسلامَ؛ فهي لفظٌ واحدٌ شاملٌ لمعانٍ كثيرةٍ

جاءَ لفظُ الرّحمةِ منكّرًا في قولهِ تعالى: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةً﴾، ومعنى الرّحمةِ: النّبوةُ، ويَحْتَملُ الرّسالةَ، ويَحتملُ الهدايةَ، ويَحتملُ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3725.
(2) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/58.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/111 - 112.

الإيمانَ والإسلامَ، ويَحتملُ تلكَ المعاني جميعًا، وكلّها داخلٌ في معنى الرّحمةِ؛ فلمّا كانَ ذلكَ كذلكَ أوردها بصيغةِ التّنكيرِ لتشملَ المعاني المذكورة جميعًا[1] لما تعطيهِ النّكرةُ من معنى العموم، ومعنى الإفضالِ، فهذه رحمةٌ فكيف بالرَّحمةِ الاستغراقيَّة، وهذا كشفٌ عن عظيم الشُّكر والحمد الذي ملأ قلب صالحٍ عليه السلام.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ:

سياقُ آيةِ نوحٍ في الرّحمةِ فقدَّمَها، وسياقُ آيةِ صالحٍ في اللهِ تعالى فقدّمَ المتعلّقَ

في قوله تعالى في قصّةِ نوحٍ عليه السلام: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ [هود: 28] تأخَّر ذكرُ الجارِّ والمجرور، بينما تقدَّم في قوله تعالى في قصّةِ صالحٍ عليه السلام: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾، فيُسألُ عن الفرقِ بينَ الآيتين؟

والجوابُ عنْ ذلكَ: أنّهُ - وإنْ كانت الآيتانِ قولينِ متساويين لنوحٍ وصالحٍ عليهما السلام لأُمَّتيهما - قدَّم وأخَّر جريًا على سياقِ كلِّ آيةٍ؛ فإنَّ آيةَ نوحٍ: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ﴾ [هود: 28] جوابُ كلامٍ مشتملٍ على أفعالٍ متعدّيةٍ لمفعولينِ لمْ يفصلْ بينهُما بالجارِّ والمجرورِ وهيَ قولهُ: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا﴾ [هود: 27] و﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ﴾ [هود: 27] و﴿بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ٢٧﴾ [هود: 27]، فكذلكَ لم يفصلْ بينَ فعلِ الإيتاء والرّحمة بالجارّ والمجرورِ[2].

أمّا موضعُ آيةِ صالحٍ عليه السلام فقد تقدّمهُ قولهُ تعالى: ﴿قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا﴾ فقد حيلَ بينَ كانَ وخبرِها - الّذي هو بمنزلةِ المفعولِ[3] - بالجارِّ والمجرورِ[4] فكذلكَ فعلَ في قولهِ: ﴿وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ﴾ فتناسبا من هذهِ الجهةِ.

ولمّا كانَ سياقُ قصّةِ نوحٍ عليه السلام جاريًا في الرّحمةِ ومتعلّقاتِها بقولهِ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ

---

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/58.

(2) الإسكافي، درّة التنزيل: 2/756، والأنصاريّ، فتح الرحمن: 1/263.

(3) الخليل، الجمل في النحو، ص: 73.

(4) الكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص: 144.

﴿فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾ [هود: 28] منْ نحوِ ﴿فَعُمِّيَتۡ﴾ [هود: 28]، ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾ [هود: 28]، ﴿وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾ [هود: 28]، وكلّها تعودُ على الرّحمةِ؛ قدّمَ الرّحمةَ على الجارِّ والمجرورِ، أمّا آيةُ صالحٍ عليه السلام فسياقُها في اللّهِ تعالى ﴿رَّبِّي﴾، ﴿ٱللَّهِ﴾، ﴿مِنۡهُ﴾، (الضّميرُ في عصيتهُ) فاقتضى السّياقُ تقديمَ ﴿مِنۡهُ﴾ على الرّحمةِ، والهاءُ يعودُ عليهِ سبحانهُ[1].

معنى الفاءِ في الآيةِ:

من تـركَ اللهَ تـركـه جميعُ النّاس ومن لاذَ به استغنى عن جميعِ النّاس

الفاءُ في قولهِ تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي﴾ للعطفِ والتَّرتيبِ وهو أشهرُ معانيها[2]؛ فهي "لترتيب إنكارِ النُّصرةِ على ما سبقَ منْ إيتاءِ النبوةِ وكَوْنِه على بينةٍ منْ ربهِ على تقديرِ العصيانِ حسبما يعربُ عنهُ قولهُ تعالى: ﴿إِنۡ عَصَيۡتُهُۥ﴾"[3]، على افتراض أن يوافقهم لما يريدون من صدهم عن دعوة التوحيد، أو أن يتوانى ويتنازل عن أمر اللّه تعالى بالتَّبليغ، فيترك أمرَ اللّه تعالى رغبةً في إرضائهم.

بلاغةُ الإيجازِ في ربطِ الشَّرطِ بجوابهِ:

براعةُ الحِجاجِ اجتماعُ قوَّةِ الإقناعِ وإعطاءِ البدائلِ وإلزامِ الخصمِ بالتَّسليمِ

قولهُ تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي﴾ جوابٌ، وشرطهُ قولهُ تعالى: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾، ومعانيه - وإنْ كانَ ذا لفظٍ قليلٍ - وفيرةٌ، وهذا شأنُ الإيجازِ؛ اللّفظُ القليلُ ذو المعاني الكثيرةِ، ففيهِ معنى الإلزامِ والجدلِ على وجهِ التّفصيلِ فإنْ كانَ إنكاركُمْ دعوتي ونبوّتي فلا ضيرَ؛ فإنّي على يقينٍ وبيّنةٍ بما جئتُ بهِ؛ فلا أعدلُ عنْ يقيني إلى شكّكُم وريبكُمْ، وإنْ كنتمْ ترونَ ذلكَ فلا تتوقّعوا منّي ذلكَ معَ علمكمْ أنَّ يقيني يخوّفني منْ عذابِ اللّهِ إنْ عصيتهُ؛ فلا أحدَ ينصرُني ويتولاني عندَ ذلكَ[4]، فانظرْ إلى هذهِ المعاني الجمّةِ

(1) فاضل السامرائي، لمسات بيانية، ص: 515.
(2) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 213.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/221.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/112.

الواردةِ كيفَ جمعَها في لفظٍ موجزٍ هو قولهُ: ﴿فَمَن يَنصُرُنِى﴾ وهو جوابُ الشّرطِ.

غرضُ الاستفهامِ البلاغيُّ:

الاستفهامُ المشمولُ بمعنى النّفي أبينُ في العمومِ وأرسخُ في الإنكارِ

(فمَنْ) في قولهِ تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنِى﴾ استفهامٌ دالّ على الإنكارِ[1] والجحدِ في أنَّ النّصرَ محجوبٌ عنهُ إنْ تخلّى عنْ دعوته، وفي ذلكَ ذَمٌّ ولومٌ وقدحٌ للمخاطبينَ لفداحةِ ما يريدونَ منهُ ﷺ، والمعنى: أنّي لا أجدُ نصيرًا وظهيرًا منْ أحدٍ إنْ عصيتهُ سبحانهُ في تبليغِ الرّسالةِ، وقعدتْ همّتي عن ذلكَ؛ فيكونُ استفهامًا على معنى النّفي[2]، وهو أبلغ في نفي عموم النّاصرين له من دون اللّه تعالى، وفيه إقامة الحجَّة بعد إبانةِ المحجَّة.

بلاغةُ التّضمينِ:

ضُمِّنَ الفعلُ (ينصرني) معنى الإنجاءِ والمنعِ على تقديرِ مجازٍ بالحذفِ

جاء التَّعبيرُ بالفعلِ ﴿يَنصُرُنِى﴾ معدًّى بحرف ﴿فَمَن﴾ لتضمينه معنى الإنجاءِ؛ أي: مَن يخلصني وينجيني من عذابِ اللّهِ وعقابِه[3]؛ لأنّ عصيانهُ موجبٌ لعذابِه، أو معنى المنع؛ أي: مَن يمنعُني منَ اللّهِ، أي: من عذابِه وعقابِه إنْ عصيتهُ في تبليغِ رسالتهِ، وفترتُ عن بلاغِ أوامرِه وأحكامِه[4]، وكلا التَّضمينين فيه مجازٌ بالحذفِ وتقديره: (فمن ينصرني من عذاب اللّه إن عصيته).

سرُّ اختيارِ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

الرّبوبيّةُ في موضعِ الإنعامِ والإحسانِ، والألوهيّةُ في موضعِ تربيةِ المهابةِ

اختار النَّظم الكريمُ لفظَ الرّبوبيّةِ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾، ثمّ أتبعهُ في السّياقِ نفسهِ بلفظِ الألوهيّةِ: ﴿فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾، فَهُما وإن كانا في سياقٍ واحدٍ إلّا أنّ موضعَ الرّبوبيّةِ جاءَ في الإنعامِ على عبدِه بالبيناتِ، وهو شأنُ المحسنِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/112.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/59، والشوكاني، فتح القدير: 2/576.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/112.
(4) الفراء، معاني القرآن: 2/204، والقِنَّوجي، فتح البيان: 6/206.

المربّي، أمّا لفظُ الألوهيّةِ فجاءَ بالاسم الأعظم[1]؛ لأنَّه في مقام التّخويفِ والتّرهيبِ، ومقتضى الألوهيَّة زرع المهابة في قلوب العبادِ، فجاء النَّظم باللَّفظِ الأنسبِ لكلِّ معنًى.

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ:

إن فُرِّط في جانب الأمانةِ العُظمى فإنَّ عذابَ الله لا يُمنع وعقابه لا يُدفع

في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ إيجازٌ بالحذفِ؛ فإنّ المعنى: فمَن يمنعُني من عذابِه أو عقابِه إن عصيتهُ فلا يكونُ لفظُ الجلالةِ مدخولًا لحرفِ الجرّ؛ لأنّهُ سبحانهُ ليسَ محلًّا للحوادثِ؛ فهو على حذفِ مضافٍ مقدّرٍ[2] وإقامةِ المضافِ إليهِ مقامهُ، وهو جائزٌ شائعٌ كثيرٌ في العربيةِ[3].

بلاغةُ إظهارِ لفظِ الجلالةِ دونَ إضمارِه:

دفعُ توهمِ الطَّمعِ فيما لا طمعَ فيه

لَمّا تقدّمَ لفظُ الرّبِّ مظهَرًا في قولِه تعالى: ﴿مِّن رَّبِّي﴾ فكان مقتضى الظّاهرِ أن يُضمرهُ عندَ ذكرهِ كرةً أخرى بقولِه: (منه)، لكنّ النَّظم أظهر لفظ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّ المقامَ يقتضِي التّهويلَ والتّخويفَ، وإظهارَ المهابةِ فعبّرَ بالاسم الأعظم[4]، فوجب التَّفريق بين أمرين، أحدهما: إرسال اللّه نبيَّه ﷺ وهذا مقتضى الرُّبوبيَّة، والآخر: ما تقتضيه مخالفة الأمر الإلهيّ من المعصيةِ، فذلك ما تقتضيه الألوهيَّة، فكأنَّه يُخاطب قومَه بقولِه: إن الذي خلقني وربّاني ورزقني فأرسلني إليكم، لا مطمع ولا منجى من عقابِه إن عصيته فأخللتُ بالأمانة؛ فهي على غرارِ قوله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ [غافر: 3].

نكتةُ استعمالِ ﴿إِنۡ﴾ دونَ (إذا):

ما يحسُن في مواضعِ الإقناعِ لا يحسنُ في مواضعِ الإمتاعِ

آثر النَّظم في قولِه تعالى: ﴿إِنۡ عَصَيۡتُهُۥ﴾ استعمالَ ﴿إِنۡ﴾ الدّالةِ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/321.

(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 10/128.

(3) حذف المضاف كثير شائع في العربية، وذكر ابن جني شيوعه في القرآن الكريم فأوصل مواضعه إلى ثلاثمائةِ موضع، يُنظر: الخصائص: 2/454.

(4) البقاعي، نظم الدّرر: 9/321.

على عدم تحقُّقِ الوقوعِ، دونَ (إذا) الدّالةِ على تحقُّقِ الوقوعِ، وذلك أنَّ وقوعَ المعصيةِ من قبل صالح عليه السلام هو عبارةٌ عن افتراضٍ يفترضه بين القوم؛ للتَّنزُّل معهم إلى فهم العلاقةِ مع اللّه تعالى، في أداء الأمانة وتبليغ الرِّسالة، فكان الأنسب في ذلك استعمال ﴿إِنۡ﴾، فإنَّ ما يحسُنُ في مواضعِ إقناعِ الخصم، لا يحسُن في سياقِ إمتاعِ المؤمنِ.

بلاغةُ الحذفِ:

يعمدُ المؤمنُ الحصيفُ إلى اختيارِ ألفاظِه وانتقاءِ كلماته

ما يقتضيه ظاهرُ قولهِ تعالى: ﴿إِنۡ عَصَيۡتُهُۥ﴾ ترتُّب المعصية على طاعةٍ مقابلةٍ لها، والتقدير: إن أطعتكم فيما تريدون فعصيته فيما كلَّفني به، فهو مجازٌ بالحذفِ؛ لكنّهُ حذفَ الطّاعةَ المفترضة تنزيهًا لنفسهِ وتبعيدًا لها منْ ذلكَ الفعلِ الشّائنِ، ذَيَّل ذلكَ مؤكّدًا أنّه إنْ فعلَ ذلكَ فلنْ يزدادَ إلّا خسارًا.

بلاغةُ حذفِ الجوابِ:

مضامينُ النَّفسِ تُظهرها إشاراتُ الكلامِ

يقتضي قولُه تعالى: ﴿إِنۡ عَصَيۡتُهُۥ﴾ جوابًا، وهو هنا محذوفٌ لدلالةِ الكلامِ السّابقِ عليه، وهو قولُهُ تعالى: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾؛ فهو محذوفٌ بعد ذكر الشّرطِ، مقدّمٌ في اللّفظِ؛ فكأنّ صالحًا عليه السلام أرادَ إلهابَ نفسهِ وتهييجَها بأنْ قدّمَ منعَ النّصرةِ عنهُ على عصيانه، ومَنْ كانَ هذا حالُهُ فلا يحصلُ منهُ عصيانٌ أبدًا.

معنى الفاءِ:

نتيجةُ طاعةِ أهلِ الأهواءِ خسارةٌ حتميَّةٌ ورداءةٌ معميَّة

دلَّتِ الفاءُ في قولهِ تعالى: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾ على مجموعةٍ من المعاني الاصطلاحيَّة، التي قد تلتقي في المعنى العام، وهذا إيرادها:

الأوّل: السّببيةُ، وهو منْ معانيها المشتهرةِ في لسانِ العربِ لا سيّما في عطفِ الجملِ والصّفاتِ[1]، والمعنى أنَّ نهيكُمْ عنْ دعوتي لعبادتهِ

(1) أبو حيّان، ارتشاف الضرب: 4/1986.

سبحانهُ وتوحيدهِ تسبّبَ عنهُ أنّكمْ ما زدتموني غيرَ تخسيرٍ[1]، وذلك في حالِ تحقُّق المعصية.

الثاني: التّرتيبُ منْ غيرِ مهلةٍ، وهو معنًى شائعٌ فيها[2]؛ فقدْ رتّبَ زيادةَ الخسارةِ على المعصيةِ على تقديرِ حصولِها افتراضًا، معَ كونهِ ﷺ على بيّنةٍ منْ ربّه، وأنّهَ قدْ أوتيَ النّبوةَ على وجهِ القطعِ والتّحقيقِ[3].

الثّالث: التّفريعُ أو (الفاء الفصيحة)؛ فقد فرّعَ هذهِ الجملةَ على ما سبقَها منْ جملةِ الاستفهام الإنكاريّ على تقديرِ: إن كانَ ذلكَ هو مطلبكُمْ فما دعوتكُمْ لي إلّا تطلعٌ منكم في خيبتي وخسراني[4]، وهذا هو معنى الفاء الفصيحة، فيكون التَّفريع فيه تقدير محذوف شرطي، وهو شرط الفاء الفصيحة عند جمهور البيانيِّين.

بلاغةُ القصرِ:

طمعُ الكفّار إنّما يكون في المتخاذلين الضُّعفاء لا المناصرين الأقوياء

دلَّ النّفيُ في قولهِ تعالى: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ على قطعِ طمعهِم في تركهِ ﷺ لما هو عليه من البيّناتِ والهدى، وموافقتهم لما هم عليهِ من الإعراضِ والكفرِ والضّلالِ[5]؛ فهو بمنزلةِ الإخبارِ القاطعِ بعدمِ متابعتِهم لما يريدون، جاء على طريقِ النَّفي المتبوعِ بالاستثناءِ لاشتمالِه على الدَّعوى والدَّليل، فقام النّفي بدفع أي زيادةٍ تكون له إلّا شيئًا واحدًا وهو التَّخسير، وهذا أبلغ من الإخبار بعدم طاعته لهم.

سرُّ استعمالِ مفردةِ ﴿تَزِيدُونَنِي﴾:

التَّهكُّمُ بالمخاطَبِ الجاهلِ إشارةً بعدَ الإقناعِ عبارةً مطلبُ حكيمٍ وكلامُ عليمٍ

لعلّ سائلًا يسألُ عن معنى الزّيادةِ في قولِه تعالى: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي﴾: أهيَ زيادةُ شيءٍ على شيءٍ موجودٍ أصلًا أو هيَ إحداثُ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/321.
(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 5/12.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/222.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/112.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 9/321.

أمرٍ ليسَ موجودًا في الأساسِ؟ والجوابُ عنْ ذلكَ أنَّ الزّيادةَ هنا هي حصولُ حالٍ لمْ يكنْ موجودًا، ووجودُه زيادةٌ على حالِ الإنسانِ؛ كأنَّه قال: فإنْ اتّبعتكُمْ وعصيتُ اللّه لمْ أزددْ إلّا خسرانًا[1]؛ خسرانَ الأعمالِ الصّالحةِ الّتي حصّلتها فيما مضى من عهدٍ؛ فتكونُ طاعتهُمْ خسارةً على خسارةٍ كقولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝٦٥﴾ [الزمر: 65].

وفي استعمال هذه المفردة ﴿تَزِيدُونَنِي﴾ تهكُّمٌ بهم، إذ مقتضى الزِّيادةِ في الظّاهر خيرٌ يعمُّ صاحبَه، فلمّا أتى بهذه المفردة منفيَّةً؛ ظنَّ السّامعون أنَّه سيقول لهم: فما تزيدونني خيرًا، لكن أتى بذكر الخسارةِ ليعلم السّامعون أنَّ كلامَهم يُحيط به التَّباب والخسار من كلِّ جانبٍ.

نكتةُ التّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿تَزِيدُونَنِي﴾:

أفصحُ الصِّيغ ما كانت معاضدةً لمعاني المفردات

عُبِّرَ بصيغة الفعل المضارعِ: ﴿تَزِيدُونَنِي﴾ الدّالِ على التّجددِ والاستقبالِ؛ لتقويةِ معنى التَّهكُّمِ في القوم، أي: إن كان هناك تجدُّدٌ في الزيادة فهو خسارةٌ تتلوها خسارة، وفيه إشارةٌ إلى إمكانِ جريانِ الحكم في كلّ زمانٍ، فإنَّ أمثالَ قومٍ صالحٍ لا تعدمُ أنْ تجدهُمْ في كلّ زمانٍ في صدّهمْ عن الدّعوةِ إلى اللّهِ تعالى؛ ولأنَّ زيادتهُمْ المفترضةَ أمرٌ مستقبليّ.

نكتةُ استعمالِ ﴿غَيْرَ﴾ وموقعها الإعرابيّ:

استُعملَتْ (غَيْرَ) لما فيها من الاستثناءِ المشوبِ بالنَّفي

لفظةُ ﴿غَيْرَ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ دالةٌ على الاستثناءِ في المعنى، وهيَ مفعولٌ ثانٍ لفعلِ الزّيادةِ، أيْ: فما تزيدونني إلّا تخسيرًا[2]، واستعمالُ ﴿غَيْرَ﴾ أقوى في الدّلالةِ منْ (إلّا) لأنهّا استثناءٌ مشوبٌ بالنّفي.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/112.

(2) العكبري، التبيان: 2/704.

بلاغةُ اختيارِ مفردةِ ﴿تَخۡسِيرٖ﴾ مادةً وصيغةً:

المؤمن حصيفٌ نبيهٌ أن يقع في دركات الباطلِ الموصل

تحتملُ لفظةُ ﴿تَخۡسِيرٖ﴾ أنْ تكونَ بمعنى التّكذيبِ، والمعنى فما يزيدني عملكُمْ وصدّكمْ عنْ دعوتي إلّا التّكذيب؛ فإنَّ التّكذيبَ موصلٌ لخسارتهِمْ وسببٌ لها[1]، وهذا المعنى من مضاعفات الخسارةِ، فإنَّ معصيةَ اللّه تعالى في بعضِ ما يطلبون، لن تحقِّق رضاهم، ولن تُؤتي ثمار الهداية، بل ستزيدهم طمعًا لينتقل من كونه عاصيًا إلى المعصية العظمى وهي ترك الأمانة، فهم يريدون أن يُجْعَلَ خاسرًا بأن يبطلَ اللّهُ عمله، ويتعرض لسخطهِ وغضبهِ تعالى[2]، وهو ما يُنبئُ عن فهم صالحٍ عليه السلام لمطالبِ قومه، وأنَّهم إنَّما يطلبون منه ما يقودُه إلى مرادِهم بطريق التَّدرُّج في خطوات الباطلِ.

وتحتملُ لفظةُ ﴿تَخۡسِيرٖ﴾ أنْ تكونَ دالةً على النّسبةِ؛ فالعربُ تقولُ: فسّقتهُ إذا نسبتَه إلى الفسقِ، وهو أن تنسبَ المفعولَ إلى أصلِ الفعلِ وتُسمّيَه به[3]، وفجّرتُهُ إذا نسبتَهُ إلى الفجورِ، وكذلكَ خسّرتهُ إذا نسبتهُ إلى الخسرانِ[4]، وتحتملُ النّسبةُ أن تكونَ منهُ عليه السلام لهم، أو منهُم لهُ عليه السلام[5]، أي: فما تزيدونني غير أن أتّهمكم بالخسارةِ، أو فما تزيدونني إلّا باتّهامي بأني خاسر.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البيّنةُ والبرهانُ والحجّةُ:

البـيّـنـةُ دليـلٌ واضحٌ، والبرهانُ شهـادةٌ بصحّةِ البيّنة، والحجّةُ استقامةُ المقصد

البيّنةُ من البيانِ بمعنى الظّهورِ والانكشافِ والوضوحِ[6]، وهو الحالُ الّتي يكونُ عليها الأنبياءُ ومنهمْ نبيّ اللّهِ صالحٌ عليه السلام لتكليفهِ

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/158.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/221.
(3) الأستراباذيّ، شرح شافية ابن الحاجب: 1/94.
(4) الثعلبي، الكشف والبيان: 14/393، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 18/368.
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 2/70.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بين).

بالنّبوّةِ المعبّرِ عنها بالرّحمةِ؛ فإنّهُ قائدُ قومهِ إلى طريقِ اللّهِ وطريقِ الحقّ، فالوضوحُ منْ شرائطِ النّبوّةِ؛ لذلكَ عابَ الحقُّ سبحانهُ في آياتهِ رؤوسَ الكفرِ المضلّينَ كقولهِ في فرعونَ: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨﴾ [هود: 98].

أمّا البرهانُ فهو القولُ الّذي يشهدُ بصحّةِ الأمرِ المَدْعُوِّ إليهِ وهو حجّةٌ قاطعةٌ للعلم بالشّيءِ[1]، وهذا لا يكونُ إلّا تاليًا للنّبوّةِ.

أمّا الحجّةُ فهيَ "الاستقامةُ في النّظرِ والمضي فيهِ على سَنَنٍ مستقيم... مشتقةٌ منْ معنى الاستقامةِ في القصدِ؛ حجّ يحجُّ إذا استقامَ في قصدهِ"[2] فالحجّةُ والبرهانُ إنْ كانا متقاربينِ معَ البيّنةِ فإنّ البيّنةَ أسبقُ وضعًا لمنْ يُصطفى بالنّبوّةِ، وهو أنْ يكونَ على بيّنةٍ ثمَّ يأتي بالبراهينِ والحججِ إنْ احتيجَ إلى ذلكَ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية: 97.

(2) العسكري، الفروق اللغوية: 233 - 234.

﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤﴾ [هود: 64]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد تقرير الحقائقِ يأتي تقريرُ الأدلة والبراهين

لَمّا ذكرتِ الآية السّابقة البيِّنة، وأنَّ صالِحًا عليه السلام ادَّعى أنَّه مرسَلٌ من اللّه تعالى، وأنَّه لن يحيد عن طريق الحقِّ والفوز، أراد أن يذكر لقومه ما يكون علامةً على صدقِه فيما زعم، فجاءَ بالنّاقةِ شاهدًا على كونهِمْ والأَوْثانِ سَواءً في عدم اهتدائهِمْ، وقدْ أوردَ في الآيةِ السّابقةِ قولهُ: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ وهو أسلوبٌ إنشائيّ مثيرٌ للذّهنِ باعثٌ على التّفكّرِ للإجابةِ عن ذاك الاستفهام أوْ تقريرِه، ثمَّ جاءَ بخبرِ النّاقة وما كانَ منْ معجزته فجعلَ الاستفهامَ توطئةً لخبرِ النّاقةِ ظنًّا منهُ أنَّ ذلكَ أقومُ في قَبولِهِمُ الحَقَّ ودعوةَ الهدى، فالمناسبةُ بين الآيات تكمُن في الانتقال من تقرير النبوّة إلى تقرير دليل النُّبوّة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَايَةٗۖ﴾: أصلُ الآية: العلامَة الثّابتة الدّالّةُ على أمْرٍ منْ شَأْنِه أنْ يَخْفَى، وهي في القرآن على وجهين: الأوَّل: العِبرة، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ﴾ [المؤمنون: 50]، أي: عِبرة يُعتبر بها، والثّاني: العلامة، قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الروم: 22]، أي: ومن العلامات على ربوبيته. والوجهان مُتقاربان يَصلح استعمالُ أحدِهما في موضع الآخر[1].

والآيَة مفرد آيات، وآياتُ اللّهِ: دلائله وعَجائِبُه[2]، والمقصود بـ (آيةً) في الآية: المعجزة الدّالة على صِدْق النُّبوَّة[3].

(1) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 92.
(2) الزبيدي، تاج العروس: (أيي).
(3) المراغي، تفسير المراغي: 12/55.

2) ﴿فَذَرُوهَا﴾: أصلُ (وذر): القَذْفُ والتّرْكُ[1]، يُقالُ: فُلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يَقذفه لِقلَّةِ اعتِدادِهِ به. وأصله الحسيّ مأخوذٌ من الوذرة، وهي قِطعةُ لحمٍ صغيرةٍ سُمِّيت بذلك لِقلَّة الاعتداد بها، والجمع وُذَر[2]. والعَرَبُ قد أماتتِ المَصْدرَ من (يَذر) والفِعْلَ الماضِي، واسْتَعْمَلَتْه في الحاضِر والأمْر، فإذا أرادُوا المَصْدر قالُوا: ذَرْه تركًا[3]. ومعنى ﴿فَذَرُوهَا﴾: اتركوها.

المَعْنى الإجْماليّ:

لكلِّ نبيٍّ مُعجزةٌ دالَّةٌ على صِدْقه فيما يبلِّغه عن ربِّه

تُبيِّن الآيةُ قولَ صالح عليه السلام لقومه بعد ظهور آية النّاقة: يا قوم هذه ناقةُ اللّهِ جعلَها لكم حُجَّةً وعلامةً تدُلُّ على صِدقي فيما أدعوكم إليه، فاترُكوها تأكُلْ في أرضِ اللّه؛ فليس عليكم رِزقُها، ولا تَنالوا النّاقةَ بشَيءٍ من الأذى؛ فإنَّكم لو فعلتُم ذلك عرَّضْتُم أنفسَكم لعذاب اللّه العاجِل القَريب[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ عطفِ ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾ على ما سبقَ:

استقلالُ الجملِ بمعنًى لا يُلغي وصلَ إحداها بالأخرى

عطفُ قولِه تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ على ما سبقَ مُؤْذِنٌ بأنَّ العطفَ منْ مقولِ صالحٍ عليه السلام لا منْ حكايةِ اللّهِ تعالى؛ فإنَّ اتّحادَ المنادى يوجبُ عدمَ العطفِ[5]، فضلًا عن أنّ العطفَ يقتضي المغايرةَ.

وفي العطفِ إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ نداءٍ متّصلٌ بالآخرِ، وأنّ بعضَها آخذٌ برقابِ بعضٍ لا يستغني أحدُها عن الآخرِ لكنّهُ ليسَ منْ قبيلِ الوصلِ[6]، فهما نداءان استقلَّ كلُّ واحدٍ منهما بمعنًى، وارتبطَ كلٌّ منهما بالآخرِ ارتباطَ الدَّليل بالدَّعوى.

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وذر).
(2) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وذر).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (وذر).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/455، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/103.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/53.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/54.

بلاغةُ تَكْرارِ النِّداء:

شـدَّةُ العَماية وغلبةُ الغَواية تُحوِجان إلى الإيقاظِ والمراجعةِ

استهلّ صالحٌ عليه السلام خطابهُ بقولهِ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾، وغايةُ خطابِ النّداءِ طلبُ إقبالِ ذهنِ المنادى[1] كيّ يعيَ الكلامَ الملقى إليهِ لأهميتهِ، ولمّا كانَ النّداءُ متكرِّرًا هنا كانَ الغرضُ منهُ توكيدَهُ لما لهُ منْ أهميةٍ بالغةٍ، ووجه هذه الأهميَّة أنَّ القومَ احتاجوا إلى نداءٍ آخر يُحرِّك أذهانَهم، ويوقظ قلوبَهم، ويُسمع آذانهم البعيدة، فوجودُ النِّداء وتَكراره دليلٌ على بعد القوم عن الحقِّ، وشدَّةِ التصاقِهم بالباطلِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة:

المشاهدةُ أبلغُ من الأخبارِ المجرَّدةِ وأرسخ في تحقيق المقصود

جاءَ التّعبيرُ باسم الإشارةِ في قولهِ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ لما تعطيهِ من معنى التّنبيهِ والإشارةِ، أيّ: انتبهوا إلى الآيةِ المعجزةِ، وها أنا أشيرُ إليها[2]، والإشارةُ دالّةٌ على الحضورِ والمعاينة، وهيَ أبلغُ في إيصالِ المعنى المقصودِ، من مجرَّدِ ذكره غيابًا، مع ما فيه تصوير المشهدِ، فهذا يقتضي أنْ تكونَ النّاقةُ حاضرةً معاينةً، والإشارةُ إليها إظهارٌ لمعجزتهِ ليروها بأعينِهمْ عسى أنْ تلينَ قناةُ عنادِهمْ، كما أنَّ فيه إقامةَ الحجَّة في فهم المقصودِ دون وجودِ احتمال بخلاف المطلوبِ.

دلالةُ التّعريفِ بالإضافةِ:

في النّاقة خصوصيةٌ مباينةٌ لغيرها من النّوق بما جعلَها آيةً من الله تعالى

أُضيف لفظُ النّاقة إلى لفظِ الجلالةِ في قولهِ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ دون أن يقول: (هذه النّاقةُ لكم آية)، وذلك لوُجوه:

الأول: الإشارةُ إلى خصوصيةٍ في تلكَ النّاقةِ لا توجَدُ في سواها من النّوقِ، فقد جعلها معجزةً لنبوّته[3] عليه السلام، فهي لا تشبهُ ما شاهدوهُ من النّوقِ في عظمها وصفاتِها، وهي مباينةٌ لغيرِها في تلكَ الصّفاتِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/50.
(2) المنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 3/487.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السّنّة: 6/150، والقاسمي، محاسن التأويل: 6/113.

خلقًا وخلقةً، فالإضافة فيها معنى (من)، أي: ناقةٌ من اللّه لكم، فاللّه جعلها لكم آيةً منه، ففيه إقامةُ الحجَّة عليهم، مع تكريم المخاطَبين بأن جعل اللّه لهم آيةً منه.

الثّاني: في تعريفِها بإضافتِها إلى اسمِه تعالى وتركُ تعريفِها بأل تشريفٌ لها[1]؛ فإنَّ الحقَّ سبحانَهُ أمرَ بالإحسانِ إليها، وتعظيم حرمتِها كما يقالُ: في الكعبةِ بيتُ اللّهِ[2].

الثالث: الإشارةُ إلى خرقِها للعادةِ، ففي إضافتِها إلى اسم الحقِّ سبحانَهُ دلالةٌ على أنه خالقُها بقدرتِهِ تعالى الخارقةِ إذ ليستْ على مثالٍ لانتفاءِ ما يكونُ الشّأنُ أنْ تضافَ إليهِ منْ دواعي وجودِ أمثالِها[3]؛ فهيَ كقولِهِ في عيسى عليه السلام: كلمةُ اللّهِ في أنّهُ مباينٌ لسواهُ من الخلقِ لكونِهِ من غيرِ أبٍ.

نكتةُ تقديم ﴿لَكُمۡ﴾ على ﴿ءَايَةٗ﴾:

المقدّمُ حالٌ للاختصاصِ والمؤخّرُ حالٌ للإعجازِ وهو من بديعِ اجتماعِ الأحوالِ

قُدِّم الجار والمجرور ﴿لَكُمۡ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ﴾ على ﴿ءَايَةٗ﴾، وهو في الأصلِ صفةٌ لـ ﴿ءَايَةٗ﴾؛ فهي في الأصل: هذه ناقة اللّه آيةً كائنةً لكم، فلمّا تقدمتِ الصفة على الموصوفِ أُعربت حالًا، و﴿ءَايَةٗ﴾ نفسُها حالٌ[4]، فاجتمعَ للنّاقةِ حالانِ، حالٌ في كونِها خاصةً لكم لأنّكم تشاهدونَها عِيانًا[5]، وهو ما أفادَ الاختصاصَ، وحالٌ أنّها معجزةٌ بما أفادهُ معنى ﴿ءَايَةٗ﴾ أي: مُعجزةً؛ فأفادَ وظيفةَ النّاقةِ وغايةَ إيجادِها، وهذا منْ بديعِ اجتماعِ الأحوالِ في الشّيءِ الواحدِ.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/222.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/218.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/218.
(4) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/348.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 9/322.

سرُّ التّعبيرِ بآيةٍ:

تقابل الألفاظِ الدّالّةِ على المعاني المتضادّة تناسقٌ لفظيٌّ وتناسبٌ دلاليٌّ

لّما جعل قومُ صالح عليه السلام الشّكَّ والرّيبَ شعارًا لهم في قولهِم: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ٦٢﴾ [هود: 62] ناسب أن يُجيبهم عليه السلام بما يدفع شكَّهم بقوله: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ﴾، والآيةُ هنا المعجزةُ؛ فعبَّر بالآيةِ لإزالةِ شكّهم[1] قطعًا لأعذارهِم، وإقامةً للحجّةِ عليهِم؛ فَحَسُنَتِ المقابلةُ بين الشَّكِّ والآية؛ لما يحمله لفظُ الشَّكِّ من الاضطراب والقلق، وما يحمله لفظُ الآية من البرهان والحجَّة القاطعة، وبالتَّقابل الدلالي حسُن الانتقاءُ وجَمُل.

معنى الفاءِ:

الفاءُ فصيحةٌ دالّةٌ على شرطٍ محذوفٍ

صدّرَ قولهُ تعالى: ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ﴾ بالفاءِ الفصيحةِ[2] الدّالةِ على شرطٍ مقدّرٍ ممّا قبلَها، والتَّقدير: إذا كانت آيةً بيّنةً ومعجزةً ظاهرةً لنبيّه؛ فاتْرُكوها تأكلْ في أرضِ اللّهِ[3].

غرضُ الأمرِ ﴿فَذَرُوهَا﴾:

تحذيرُ الأعداءِ من وقوعِ العذابِ عدالةٌ ورحمة

غرضُ الأمرِ في قولهِ تعالى: ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ﴾ طلبُ تركِ النّاقةِ تأكل في أرضِ اللّه تعالى، وهو أمرٌ تحذيريٌّ ملزِمٌ لهم؛ لما تعلَّق به من النَّهي وما فُرِّع عنهما من التَّحذير من مسِّ السُّوءِ لهم، إن منعوها من الرّعي، أو آذوها فيصيبهم العذابُ.

توجيهُ تخصيصِ الأكلِ بالذِّكر:

ذكرُ الأكلِ منفردًا من بابِ الاكتفاءِ لتضمُّنهِ الشّربَ وهو مجازٌ عن التّغذّي مطلَقًا

لّما أرشد نبيُّ اللّهِ صالحٌ عليه السلام قومَهُ في التّلطُّفِ معَ النّاقةِ؛ خاطبهُمْ بقولهِ: ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ﴾ مقتصرًا على ذكرِ الأكلِ دون الشُّربِ، معَ أنّها تأكل وتشرب، أيْ: ذروها تأكل وتشرب، أوْ أنْ يكونَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/113.
(2) هيَ الفاء التي تُفصحُ عن محذوفٍ يقدِّرُه المخاطَبُ من السِّياقِ، وجمهورُ البيانيين يشترطونَ تضمينَ المقدَّرِ شرطًا. يُنظر: الدرّة، فتح الكبير المتعال: 1/58.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3726.

الأكلُ مجازًا عن التّناولِ والتّغذّي مطلقًا[1]، أيِ: ذروها ترعَ النّباتَ وتَشربِ الماءَ؛ فالأكلُ متضمّنٌ الشّربَ؛ كما أُشير في قولِه تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ١٥٥﴾ [الشعراء: 155]، وقولِه تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ٢٨﴾ [القمر: 28]، فوجه تخصيصِ الأكلِ بالذّكر في هذا السِّياق يظهر في أنَّ السِّياق بُنِيَ على الإجمالِ دون التَّفصيل، فاكتفى بذكرِ الأكل لدلالته على الشُّرب، ولأنَّ الغرضَ هو بيانُ أنَّ المطلوب عدمُ مسِّ النّاقة بسوءٍ. كما أنَّ هذه الآية عيَّنت أدنى المطلوب وهو عدم مسِّها بسوءٍ، بخلاف آية الشعراء والقمر فقد حدَّدتا أنَّ المطلوبَ هو أن يكون للنّاقة شِرْبٌ لا يقربوه، فحسُن في كلِّ سورةٍ ما يُناسبها. كما أنَّ هذه السُّورة وسورة الأعراف ذُكِر فيها إضافة الناقة إلى لفظ الجلالة، وفي كلا السُّورتين ورد ذكر الأكل دون الشرب، بخلاف آيتي الشعراء والقمر فجاء ذكر الناقة نكرةً غير مضافة، فهناك تَنَوُّعٌ يدور بين الإجمال والتَّفصيل في السور، فآثَرَ هنا ذِكْرَ الأكلِ بيانًا للإجمال، ولما بُنِيت سورتا الشعراء والقمر على ذكر التفاصيل ناسب ذلك تعيين أنَّ القسمة في المشرب.

نكتةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيّةِ:

آيةُ الله تنطلق دون تحديدٍ أو تقييد وهي بذلك أولى من السّائبة

في قولِه تعالى: ﴿تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ﴾ استعملَ حرفَ الظّرفيةِ ﴿فِى﴾ لبيان أنَّ عليهم أن يتركوها تأكل في اتِّساعٍ من الأرض فلا تُقيَّد بقيد، أو مكانٍ، أو مرعًى دون آخر، بينما لو استعمل حرف (من) لدلَّ على التَّبعيض، الدّال على التَّعيينِ والتَّحديد. وفيها إشارةٌ لاذعةٌ للمشركين الذين يُسيِّبون السّائبةَ بقصدِ تقديس الأوهام والخرافات وحماقات الآباء والأجداد، وإشارة إلى أنَّ تسييبَ السّائبة ليس لأحدٍ أن يفعله إلّا الله ﷻ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/288.

بديعُ التَّعريفِ بإضافة ﴿أَرۡضِ﴾ للفظِ الجلالةِ:

يرعى الطُّغاة في أرض الله، من حيث يمنعون من يريده الله فيها

في إضافةِ ﴿أَرۡضِ﴾ إلى الاسم الجليلِ في قولهِ تعالى: ﴿تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ﴾ فوائد منها:

الأولى: تربيةٌ لاستحقاقِها لذلكَ الأمرِ، وأنّهُ سببٌ للأمرِ بتركِها وشأنها[1] وعدم التّعرضِ لها، أو مسّها بسوءٍ.

الثّانية: في الإضافةِ إلى اسمهِ تعالى أنَّ المرادَ بها الأرضُ الّتي أباحَها الحقُّ سبحانهُ للأنعام، والّتي ينبتُ فيها الشّجرُ والكلأُ دونَ ما يقومُ النّاسُ بزراعتهِ والاعتناءِ بهِ وحمايتهِ[2].

الثالثة: إظهارُ منّةِ اللّهِ عليهِمْ، فللنّاقةِ حقّ في أن ترعى نباتَ الأرضِ؛ فالأرضُ أرضُ اللّهِ، والنّاقةُ منْ مخلوقاتهِ، ولها الحقُّ في الانتفاعِ بأرضهِ[3]، ثمّ إنّ الإضافةَ تقتضي الملكَ؛ فاللّهُ تعالى صاحبُ الحقِّ المطلقِ في الأمرِ والنّهيِ، وقتما يشاءُ فكلّ شيءٍ بإرادتهِ، لكنَّ هؤلاء الطغاة يُريدون التَّصرف في أرض اللّه تعالى كما يشاؤون، ويمنعون منها من يشاؤون!

بلاغةُ عطفِ النَّهي على الأمرِ:

مباغتةُ الخَصْم في مَنْعِ ما يجولُ في صدرِه من القبائحِ

لمّا كان الخصمُ لا يتمنى ظهورَ خصمهِ عليهِ بالحجّةِ البالغةِ، ويسعى إلى إفشالِ حجّةِ خصمهِ وإبطالها ما استطاعَ إلى ذلكَ سبيلًا، كان هذا سببًا وجيهًا لأنْ يعطفَ قولهُ تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ على قولهِ تعالى: ﴿فَذَرُوهَا﴾ من باب الاحتياطِ درءًا لإقدامهِم على قتْلِ النّاقة[4].

نكتةُ استعمالِ مفردةِ ﴿تَمَسُّوهَا﴾:

التَّنبيهُ على الأعلى بالأدنى مبالغةً في النّهيّ

نُهي عن (المسّ) في قولهِ تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ دونَ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/222.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/447.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/218.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 18/369.

(اللّمسِ) لأنَّ المسَّ هو مقدمةُ الإصابةِ بالشرّ الشامل لأنواع الأذى، أي: لا تتعرضوا لها بشيء مما يسوؤها أصلاً ولا تطرُدوها ولا تريبوها إكرامًا لآية الله تعالى[1]؛ فإنَّ المسَّ موطِئٌ للإصابةِ بما هو أكبرُ منهُ وأعظمُ من اللّمسِ، فإذا نهاهُمْ عن الأدنى فهو نهيٌ عن الأعلى منْ بابِ أوْلى.

معنى الباءِ:

الباءُ للملابسةِ بقصدِ السّوءِ

دخولُ الباءِ على مفردةِ السّوءِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ دالٌّ على الملابسةِ، والجارّ والمجرورُ في موضع الحالِ من فاعلِ المسّ، أي: لا تمسّوها بقصدِ السّوءِ[2]، أي: حالَ كونكُم ملابسينَ هذا الفعلَ مصرِّينَ عليه.

غرضُ تنكيرِ ﴿بِسُوٓءٖ﴾:

اشتمالُ لفظِ السُّوءِ أنواعَ الأذى والضَّرر

لّمَا نهاهُم عن أن يمسّوها بسوءٍ أوردَ هذا السّوءَ منكّرًا، ولم يبينْ ما هو، ولذلك فوائد:

الأولى: احتمالُ أن يكونَ سوءًا معروفًا لديهم فنهاهُم عنهُ[3].

الثّانية: ليكونَ شاملًا لأنواعِ الأذى والضّررِ المتوقّعِ منهمْ منْ ضربٍ وطردٍ ومكروهٍ ونحو ذلكَ، فضلًا عنْ أنْ يرتكبوا أكبرَ منهُ منْ عقرٍ وقتلٍ[4].

الثّالثة: في تنكيرِ لفظِ السّوءِ في سياقِ النّهي يتبادرُ إلى الأذهانِ أنَّ الوعيدَ بالعذابِ يترتّبُ على أيِّ نوعٍ منْ أنواعِ الإيذاءِ مهما كانَ صغيرًا؛ في نفسِها أوْ أكلِها أوْ شربِها، فكيفَ وقدْ جاؤوا بأفظعَ منْ ذلكَ بعَقْرِها[5].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/242.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/219.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السّنّة: 6/151.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/222، والحداد، تفسير الحداد: 3/162.
(5) رضا، تفسير المنار: 8/448.

معنى الفاءِ:

مسُّ النّاقةِ بسوءٍ يتسبَّبُ بعذابٍ قريبٍ

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ﴾ عقِبَ قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ﴾ دالَّةٌ على السّببيةِ؛ كأنَّه قال: فإنّكم إنْ مسستموها بسوءٍ في ذاتِه أو فيما يؤولُ إليهِ وقعَ بسببِه عليكُم عذابٌ لا تفلتونَ منهُ فيهلككُم(1).

بلاغةُ المجازِ في إسنادِ الأخذِ للعذابِ:

كنايةٌ عن القهرِ والغلبةِ والإحاطةِ والشّمولِ

أُسندَ الأخذُ للعذابِ في قولِه تعالى: ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾، والأصلُ في الأخذِ أنْ تتناولَ شيئًا باليد، ويستعملُ مجازًا في ملكِ الأشياءِ لزومًا، ويستعملُ في القهرِ والغلبةِ، وبما يوحيهُ الأخذُ من الإحاطةِ والشّمولِ(2) فهو عذابٌ محيطٌ بهم من جميعِ جهاتِهم، فالاستعمالُ المجازيُّ كنايةٌ عن شدَّة العذابِ المحيطِ بهم بما لا مفلتَ منه ولا مهربَ.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة في لفظِ الأخذِ:

الإيذانُ بسرعةِ الإصابةِ وشدّتها وخفائِها

قولهُ تعالى: ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾ من بابِ الاستعارة(3) في فعلِ الأخذِ؛ فقدْ شُبّهتِ الإصابةُ بالأخذِ، وصرّحَ بالأخذِ منْ بابِ الاستعارةِ التّصريحيةِ التّبعيةِ، والغرضُ منها بيانُ سرعةِ الإصابةِ وخفائِها وشدّتها فإنَّ أخذهُ سبحانهُ أليمٌ شديدٌ(4).

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّة في لفظِ العذابِ:

تشخيصُ العذابِ على هيئةِ رجلٍ يأخذُ المعذَّبينَ

ونُزِّلَ لفظُ المسندِ إليهِ ﴿عَذَابٞ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾ منزلةَ العاقلِ؛ فقد شبّهتِ الآيةُ العذابَ بشخصٍ

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3726.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/227.

(3) أن يكون للّفظ أصلٌ في الوضع اللّغويّ معروفٌ، تدلّ الشّواهد على أنّه اختصّ به حين وضع، ثمّ يستعمله الشّاعر أو غير الشّاعر في غير ذلك الأصل" كقولنا: (رأيتُ أسدًا في المدرسةِ) فالأصل (رأيتُ رجلاً شجاعاً كالأسدِ في المدرسةِ) ثمّ صارت الجملة إلى ما ترى، يُنظر: الجرجانيّ، أسرار البلاغة، ص: 30.

(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/235.

عاقلٍ أُسندَ إليهِ أخذُ المعذبينَ، ثمَّ حذفَ المشبّهَ بهِ، وذكرَ لازمًا منْ لوازمهِ وهو الأخذُ على سبيلِ الاستعارةِ المَكنيَّةِ الأصليةِ[1]، والغرضُ منها تشخيصُ العذابِ في هيئةِ رجلٍ زيادةً في التّهديدِ والوعيدِ.

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿عَذَابٌ﴾:

تعظيمُ العذابِ وتهويلُ شأنه

وأُورِدَت مفردةُ ﴿عَذَابٌ﴾ نكرةً للدّلالةِ على التّعظيم والتّهويل[2] جزاءً وفاقًا لما ارتكبوهُ منْ عظيم فعلتهمْ بعَقْرِ النّاقةِ وقَتْلِها، ولكي تذهبَ فيهِ النّفسُ كلَّ مذهبٍ؛ فإنَّ النَّكرةَ أوسع معنًى من المعرفةِ وأكثر انطلاقًا واتِّساعًا.

فائدةُ وصفِ العذابِ بالقُربِ:

قربُ العذابِ إيذانٌ بالزَّوالِ العاجلِ

ووُصِفَ العذابُ في قولِه تعالى: ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾ بالقريبِ دونَ مقارباته من الأوصافِ كالشّدّةِ والألم ونحوِها، وذلك للتَّناسبِ معَ زمنِ وقوعِ المعصيةِ وهي إهلاكُ النّاقةِ[3]؛ فإنَّ العذابَ لم يطُل، ولما فيهِ من الوعيدِ والتَّخويف لقوم صالحٍ ﷺ؛ للدّلالةِ على أنّهُ واقعٌ بهمْ لا محالةَ يأتيهمْ في أقربِ وقتٍ وأقصرِ زمانٍ[4].

توجيهُ المتشابهِ اللفظيّ:

القريبُ والأليمُ والعظيمُ أوصافٌ للعذابِ مرادةٌ اختيرَ لكلٍّ سياقِ الأنسبُ له

وُصفَ العذابُ في قصة صالحٍ ﷺ والناقةِ بثلاثةِ أوصافٍ وهي القريبُ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ﴾، والأليم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٣﴾ [الأعراف: 73]، والعظيم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥٦﴾ [الشعراء: 156]، فختمَ كلَّ آيةٍ من الآياتِ الثّلاثِ بغيرِ ما ختمَ به الأخرى، فيُسألُ عن الفرقِ بينَ تلك الأوصاف؟

---

(1) الاستعارة المكنية "أن يذكر لفظ المشبّه مرادًا به حقيقته، ويدلّ على أنّ القصد تشبيهه بغيره بذكر شيء من لوازم ذلك الغير"، يُنظر: السبكي، عروس الأفراح: 2/197. وذلك كقول الشاعر: وإذا المنيّة أنشبت أظفارها.

(2) وهو شائع عند البيانيين، يُنظر: القزويني، الإيضاح: 2/36.

(3) السمعاني، تفسير القرآن: 2/440، وابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/185.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3726.

والجوابُ: أنّ العذابَ القريبَ مناسبٌ لما بعدهُ من قولهِ تعالى: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ فقدّرَ المدّةَ التّي بينهُم وبينَ إهلاكِهِم، وهيَ مدّةٌ قريبةٌ[1]، أمّا العذابُ الأليمُ فهو تحذيرٌ على طريقِ العموم؛ فهو عذابٌ يؤلمُكُمْ وينالُ منكُمْ، وهو لا ينافي القَريبَ، وأمّا الوصفُ بالعظيم فقدَ توعّدهمْ بعذابِ الاستئصالِ، وهو يومٌ عظيمٌ عليهمْ؛ فجاءَ بهذهِ الألفاظِ المختلفةِ المعاني لاختلافِ مواضعِها المقتضيةِ لهذا التّباينِ والاختلافِ[2]، مع استحضارِ أنَّ العذاب كان أليمًا عظيمًا قريبًا، ولا تعارُضَ بينها، وإنَّما اختار الوصفَ الأليقَ بالسِّياق الوارد فيه، وهنا مَكْمَنُ براعةِ اختيارِ النَّظم القرآنيِّ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الوذر والترك:

الوذْرُ هو التّقطّعُ ومفارقةُ الشّيءِ وانفصالُهُ، والتّركُ الانصرافُ عن الشّيءِ

أمرَ صالحٌ عليه السلام قومَه في قولِه تعالى: ﴿فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ﴾ بعدمِ التّعرضِ للنّاقةِ؛ فجاءَ بالفعلِ ﴿فَذَرُوهَا﴾ وهو من الوذْرِ ومعناهُ: التّقطّعُ ومفارقةُ الشّيءِ وانفصالهُ والتّخلّي عنهُ[3]، ففي هذا الفعلِ تركٌ بالكلّيةِ، وهو مناسبٌ لشدّةِ التّحذيرِ من التّعرضِ لها، ولمْ يُستعملِ الفعلُ (اتركوها)؛ لأنَّ "التّركَ عندَ العربِ تخليفُ الشّيءِ في المكانِ الذي هو فيهِ والانصرافُ عنه، ولهذا يسمّونَ بيضةَ النّعامةِ إذا خرجَ فرخُها تريكةً؛ لأنَّ النّعامةَ تنصرفُ عنها"[4]، وهذا المعنى لا يناسبُ ما كانتْ عليهِ النّاقةُ منْ حركةٍ وانتقالٍ أكلًا وشربًا وحلبًا.

المسّ واللّمس:

المسّ مطلقُ الإصابةِ، واللّمسُ أخصُّ لما فيهِ من الإدراكِ والمعاني النّفسيةِ

عبّرَ النظم القرآنيّ عن إصابةِ قوم صالحٍ عليه السلام النّاقةَ بالأذى بقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ فجاءَ بفعلِ المسِّ، وهو "مطلقُ

(1) ابن الزبير، ملاك التأويل: 1/200.
(2) الإسكافي، درّة التنزيل: 2/615 - 616.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: 2/709.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 124.

الإصابةِ ويكونُ بينَ الحيوانِ وغيرهِ، واللّمسُ أخصُّ منهُ لما فيهِ من الإدراكِ"[1]، ولّما أرادَ الحقُّ سبحانهُ أنْ يحذّرهمَ أشدّ التّحذيرِ ذكرَ لهمْ المسَّ، وهو مبتدأُ الأذى؛ فاللّمسُ داخلٌ فيهِ من بابِ أولى؛ لأنّهُ بمعنى الإصابةِ على وجهِ الإطلاقِ؛ فهو أليقُ بسياقِ ما نهاهمْ عنهُ، ثمَّ إنَّ اللّمسَ أخصّ من المسِّ لما فيهِ من الإدراكِ وتحقّقِ المعاني النّفسانيةِ، وهو ما لا يتوافرُ في الحيوانِ؛ فهذا سببٌ ثانٍ لجودةِ التّعبيرِ بالمسِّ وبلاغتهِ في هذا الموضعِ.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/322.

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥﴾ [هود: 65]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ الزَّمانِ بين التَّحذيرِ من إيذاءِ النّاقةِ وعقرِها

لَمّا أنذرهم صالح عليه السلام من إيذاء الناقة المعجزة، وخوَّفهم مَغَبّة ذلك أنَّه سيَحِلُّ بهم عذابٌ قريب، فما اكْتَرَثوا لذلك وعقروها؛ فجاءتهم الآية التالية بفاء التعقيب بالعقوبة القارعة النازلة بهم بعد ثلاثة أيام، وهو زمن جِدُّ قريب، ففحوى كلام صالح عليه السلام في الآيةِ السّابقةِ تحذيرُ قومه منْ أنْ يتعرّضوا للنّاقةِ ولو مسًّا فكأنّه كانَ عالمًا متوقِّعًا بما سيقترفونهُ؛ فقد حذّرهمْ تحذيرًا شديدًا من أنْ يُقدِموا على قتلِها ومعَ ذلكَ فقدْ حصلَ منهمْ الجرمُ المشهودُ؛ فعقروها وذبحوها سعيًا منهمْ لإبطالِ حجّته[1]، فعندَها لنْ يحولَ بينهمْ وبينَ عذابِ اللّهِ إلّا أيامٌ معدودةٌ يتمتّعون بها، ثمَّ يعاجلُهم عذابُ الصّيحةِ والاستئصالِ، فالمناسبةُ بين الآيتينِ بيانُ المسافةِ الزَّمانيَّة بين الأمرِ بتركِ النّاقةِ ومخالفةِ أمرِ اللّه بعقرِها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَعَقَرُوهَا﴾: أصلُ العَقْرِ: الجَرْحُ أو ما يُشْبِهُ الجَرْحَ من الهَزْمِ في الشَّيْءِ[2]. والعَقْر عند العرَب كَشْف عرقوب البَعِير، ثم جُعِل النَّحر عقرًا؛ لأنَّ العقر سبب لنحره، وناحِر البعير يَعْقِره ثم ينحره[3]. والعَقِيرة: السّاقُ المَقْطُوعَة، يُقال: عَقَرتُ الفَرَسَ بالسَّيف: إذا ضَربتَ قوائمَهُ[4]. والعَقّارُ: الَّذِي يَعْنُفُ بِالإبلِ لا يَرْفُقُ بها في

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 18/369.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عقر).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (عقر).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عقر).

أقتابِها. ومنَ البابِ: العاقِرُ منَ النِّساءِ، وهي الَّتي لا تَحْمل؛ وذلك أنَّها كالمَعْقُورَة[1]. والمقصود بالعَقْرِ في الآية: ضَرْبُ النّاقةِ بالسَّيْفِ على عَراقِيبِها لِتَسْقُطَ إلى الأرضِ جاثِيةً فيتمكَّنُ النّاحرُ من نَحْرِها.

2) ﴿تَمَتَّعُواْ﴾: أصْلُ المَتْعِ: بُلُوغُ الغايَةِ منَ الشَّيْءِ، يُقالُ: مَتَعَ النَّهارُ يَمْتَعُ مَتْعًا أيْ بَلَغَ غايَةَ ارْتِفاعِه[2]، والماتِعُ: الجَيِّدُ البالِغُ الجَوْدَة[3]. والمتعةُ: المَنْفَعَةُ، والاسْتِمْتاعُ: الانْتِفاعُ[4]، تَقُولُ: تَمتَّعْتُ بِكَذا واسْتَمْتَعْتُ بِهِ إذا انْتَفَعْتَ بِهِ، والإمْتاعُ: النَّفْعُ، والمَتاعُ: كلّ شَيْءٍ يَنتفَع بِهِ ويُتبلَّغ بِهِ ويتزوَّد؛ والفَناء يَأْتِي عليه في الدُّنيا، والجَمْعُ أَمْتِعَةٌ[5]. والمقصود بالتَّمتُّع في الآية: الانْتِفاعُ القَصِيرُ زَمَنُهُ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَـنْ خـالـفَ وعـيـدَ الـلـه تـعالى استحقَّ مضمونَه

يبيِّن اللّه تعالى في الآية أنَّ قومَ صالحٍ قد قتَلوا النّاقة عقِب ذلك الإنذارِ غير مُصدِّقين له ولا مُبالينَ بالوعيدِ، فقال لهم صالحٌ: استمتِعوا بحياتِكم في بلَدِكم ثلاثةَ أيّام؛ فإنَّ العَذابَ نازِلٌ بكم بعدَها، وهذا الأجلُ الذي أُجِّلتم وعْدٌ من اللّه وعَدَكُم حين انقضائه بالهلاك ونزول العذاب، لم يَكذبكم فيه مَن أعلمكم ذلك[6].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ العطفِ بالفاءِ:

العقرُ صادرٌ عن التّكذيبِ المفهوم من السِّياقِ

معنى العطفِ في قولِه تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أيْ: فعقرتْ ثمودُ النّاقةَ، وهيَ جملةٌ معطوفةٌ على محذوفٍ مقدّرٍ لدلالةِ الظّاهرِ عليه، أي: فكذّبوهُ فعقروها[7]؛ فإنّ العقرَ مرتَّبٌ على التّكذيبِ مسبَّبٌ عنهُ.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقر).

(2) الرّاغب، المفردات: (متع).

(3) ابن عباد، المحيط في اللغة: (متع).

(4) محمد الأصبهاني، المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث: 3/148.

(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (متع).

(6) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/103، والمراغي، تفسير المراغي: 12/56، والقطان، تيسير التفسير: 2/227.

(7) ابن جرير، جامع البيان: 15/372.

العقرُ دالٌّ على مطلقِ الإيذاءِ بخلافِ النَّحرِ فله سياقُه الشرعِيُّ

نكتةُ اختيارِ العقرِ دون النَّحر:

جاءَ التَّعبيرُ بالعَقْرِ وهو إحداثُ الجرحِ أوْ قطعُ عضوٍ مؤثّرٍ في النّفسِ، دون النّحر الذي استُعمل في الذّبحِ الشَّرعيِّ، في مثل قولهِ تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر: 2]؛ فناسبَ أن يُعبِّر بما يدلُّ على الإيذاءِ الذي أُريدَ به القتلُ؛ فلمْ يعبّرْ عنْ فعلِ قوم ثمودَ معَ النّاقةِ بالنّحرِ؛ لأنّهمْ كفروا بما جاءَ بهِ صالحٌ ﵇؛ فكان التَّعبير بالعقرِ دالًّا على القتلِ النّاشئَ عن الكفرِ، لا القتل النّاشئَ عن العمل الشَّرعيِّ.

اجتماعُ المجرمين رضًا بصنيع أحدِهم هو إجرامٌ مسندٌ لهم

دلالةُ إسنادِ فعلِ العقرِ إلى الجمعِ:

أُسنِدَ فعلُ العقرِ للجمعِ ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ معَ أنّ فاعلَهُ واحدٌ؛ لأنّهُ لَمّا كانَ الفعلُ عن تَمالُؤ منهم ورِضًا من كبرائِهم[1] ورد جمعًا، يدلّ عليهِ قولهُ تعالى: ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ۝٢٩﴾ [القمر: 29]، فاجتماعُ الجميعِ على مناداةِ واحدٍ منهم لينوبَ عنهم في الفعلةِ الشَّنعاءِ، دليلُ صدورِ الفعلِ عنهم جميعًا، وهكذا العبرةُ في الأعمالِ الإجراميَّة التي يتولّاها كبيرُ المجرمين، هي مسندةٌ للجميعِ دونَ استثناءٍ، ولذلك يستحقُّون عليها العذاب.

عقرُ النّاقةِ سببُ الوعيدِ

معنى الفاءِ:

الفاءُ في قولهِ تعالى: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُواْ﴾ دالّةٌ على التّعقيبِ والتسبيبِ؛ فإنّهم لَمّا عقروا النّاقةَ، وبلغ الخبرُ صالحًا[2]، توعّدهُم ﵇ بالعذابِ إثرَ فعلهِم ذاكَ، فكان قولُه: ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ مسبَّبًا عنهُ.

التَّعريضُ بالمجرمين تنزيلًا لهم منزلةَ البهائم

دلالةُ اختيارِ الفعل ﴿تَمَتَّعُواْ﴾:

اختيرَ الفعلُ ﴿تَمَتَّعُواْ﴾ دونَ مرادفاتهِ من نحوِ (اقعدوا) أو (عيشوا) أو (احيَوْا) أو (امكثوا)، ومعنى التّمتّعِ "التّلذّذِ بالمدركاتِ الحسانِ من المناظرِ والأصواتِ وغيرها ممّا يدركُ بالحواسِّ"[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/225.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 9/323.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 9/323.

وفيهِ تعريضٌ بهمْ فكأنّهُ قالَ لهمْ: تمتّعوا فستجدونَ بعدَ هذا النّعيم عذابًا كبيرًا حتّى ينسيكم ما كنتم فيهِ، ففيه تنزيلٌ لهم منزلةَ البهائم؛ فإنَّ البهائم هي التي تأكلُ وتتمتَّع ولا تُدرِك مصيرَها الذي ستصيرُ إليه.

غرضُ الأمرِ:

تهديدُ المتمتِّعين بقربِ زوالِ متعِهم

غرضُ الأمرِ بالتّمتّعِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُواْ﴾ التّهديدُ والوعيدُ جزاءَ عصيانهمْ، ومخالفةِ أوامرِهِ بقتلهِمْ ناقةَ اللّهِ؛ فإنَّ التّمتّعَ ليسَ مطلوبًا لذاتهِ إنّما هو مقدمةٌ للعذابِ.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ:

العذابُ القريبُ مناسبٌ لتعيينِ زمانِهِ والنَّدمُ مناسبٌ لذكرِ عظيمِ العذابِ

عقّبَ ﷻ فعلَ العقرِ في سورة هودٍ بأن قالَ: ﴿تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ﴾، بينما عقّبَ فعلَ العقرِ في سورة الشّعراءِ بقوله: ﴿فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ١٥٧﴾ [الشعراء: 157]، فيُسألُ عن الفرقِ بينَ ما عقّبَ في كلٍّ من الموضعين؟

والجوابُ عنْ ذلكَ: أنَّ آيةَ سورة هودٍ ذُكرَ فيها توعدهُمْ بالعذابِ القريبِ، وكانَ العقرُ سببًا لوجودِهِ؛ فناسبهُ بيانُ زمنه، أمّا آيةُ الشّعراءِ فتقدّمها قولهُ تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥٦﴾ [الشعراء: 156] فعقْرُهُمُ النّاقةَ موجبٌ لوقوعِ العذابِ العظيمِ؛ فكانَ ذلكَ سببًا لندمهِمْ؛ فناسبَ ما عقّبَ بهِ فعلَ العقرِ في الموضعينِ.

توجيهُ تخصيصِ ﴿فِى دَارِكُمۡ﴾ بالذِّكرِ:

الإيماءُ إلى تمتّعِ ثمودَ مكانًا وزمانًا

خصّصَ فعلَ التّمتّعِ بقولهِ تعالى: ﴿فِى دَارِكُمۡ﴾ بالذِّكرِ، وهي الكائنةُ في الأرضِ والبلدِ، ولمْ يقلْ: في أرضكُمْ، باستعمالِ كلمة (الأرض) الدّالةِ على السّعةِ؛ لأنّهُ أرادَ أنْ يكونَ تمتّعُهُمْ مقيّدًا مكانًا وزمانًا؛ فهو تمتّعٌ مشروطٌ يؤولُ إلى عاقبةٍ شديدةٍ وعذابٍ أليمٍ، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ غالبَ تمتُّعِهم كانَ في ديارِهم.

ويَحتملُ أن يكونَ معنى ﴿دَارِكُمۡ﴾ داركُم هذهِ، وهي بلدةُ الحِجْرِ، وهي المدينةُ الّتي يسكنونَ فيها سمّيت كذلكَ؛ لأنّها تجمعُ أهلَها كالدّارِ الّتي يجتمعُ فيها الأهلُ[1]، وفي هذا التّقييدِ ملمحٌ بليغٌ وهو أنّهُ أرادَ أنْ تكونَ بلادهُمْ هذهِ آيةً لغيرِهمْ بعدَ أنْ ينزلَ عليهمُ العذابُ الذي يستحقونهُ، ولا يحصلُ ذلكَ إنْ تفرّقوا في أرضهِ الواسعةِ.

دلالةُ استعمال حرف الظَّرفيَّة:

الإشارةُ إلى عدم هروبِهم وبقائهم في الدّارِ

استعملَ النَّظمُ حرفَ الظَّرفيَّةِ في قولهِ تعالى: ﴿فِي دَارِكُمۡ﴾ دون الباءِ؛ للإشارةِ إلى المكثِ في الدّارِ، وأنَّه تمتُّعٌ لا يعدو أن يكون في تلك الدّار، فلم يُسافروا أو يغادروا دارَهم، فدلَّ ذلك على أنَّهم بقوا في دارِهم، ولم يستطيعوا المهربَ أو المغادرةَ، أو أنَّهم بقوا كذلك عنادًا وتحدِّيًا.

سرُّ اختيارِ مفردةِ ﴿دَارِكُمۡ﴾:

مزيدُ حسرةٍ على تركِ متعهم في دارِهم التي تصرَّفوا فيها

اختارَ مفردةَ ﴿دَارِكُمۡ﴾ دونَ مسكنكُمْ أوْ بيتكُمْ، إشارةً إلى أنَّ الدّارَ هي ما يُتصرَّفُ به وقد سُمّيت البلاد ديارًا لأنه يُدار بها، أيْ: يُتصرّفُ فيها[2]، فهم قد داروا في بلدِهم وتصرّفوا وتمكَّنوا وعصوا وتمنّعوا عن الطّاعةِ، ففي هذا الاختيارِ مزيد حسرةٍ عليهم، وهي تُناسب الأمرَ بالتَّمتّعِ، فلمّا أمرهم بالتَّمتع، قيَّده بالدّار؛ ليكون تمتُّعًا أخيرًا لا يعودون إلى مثله.

نكتةُ إفرادِ ﴿دَارِكُمۡ﴾ دونَ جمعِها:

دلَّتِ الدّارُ على البلدِ والمسكنِ باعتبارِهما مكانَ المتعةِ

اختارَ ﷺ لفظةَ الدّارِ في قولهِ تعالى: ﴿فِي دَارِكُمۡ﴾ مفردةً دونَ جمعِها على (دياركم)؛ لأنّهُ أرادها على معنى بلدكُمْ، أو لتنزيلِ بلدهم منزلةَ الدّارِ الواحدة، أو للإشارةِ إلى أنَّ الدّار بمعنى المسكن، والدّار بمعنى البلد كلاهما مرادٌ في هذا اللَّفظِ، ونكتةُ ذلك الإيماءُ

(1) الطباطبائي، الميزان: 10/313.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/408.

إلى حالِ ثمود وأنَّهم في أعلى درجات الانتماء إلى متعهم في بلدِهم ودورِهم، فلمّا كان الأمرُ كذلك كان الأمرُ بالتَّمتُّع الأخير في الدّارِ، وهذا من بديعِ بيانِ الغفلةِ عن الآخرةِ.

دلالةُ اختيارِ أيّامٍ دون ليالٍ:

التَّنبيهُ على مبدأِ العذابِ ونهايته

اختارَ النَّظمُ لفظةَ اليوم دونَ اللّيلة في قولِه تعالى: ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖ﴾؛ لأنَّ الوعيدَ جاءَ في بدايةِ النّهارِ، فابتدأ اليومُ من الصّباحِ، واللّيلُ تابعٌ للنّهارِ في هذهِ الحالةِ، وعليهِ فيبدأُ الوعدُ من نهارِ اليوم الأولِ إلى نهايةِ الليلةِ الأولى، وهكذا في اليوم الثّاني فالثّالثِ، فما أنْ تنتهيَ اللّيلةُ الثّالثةُ حتى قال تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾، فعبّرَ بالإصّباحِ؛ لأنَّ العذابَ نزلَ بهمْ آخرًا من اللّيلةِ الثّالثةِ، ومعَ بدايةِ الإصباحِ كما قالَ تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ٨٣﴾ [الحجر: 83]، وفيه إشارةٌ إلى وقتِ عقرِ النّاقة، فجاءهم العذابُ جزاءً وفاقًا.

بلاغةُ تقديم المكان على الزمان:

التَّنبيه على مكانِ المُتَعِ السّابقةِ قبل ذكر الوقت المتبقي

في قوله تعالى: ﴿فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖ﴾ ذُكر المكانُ وهو الدّار قبل الزَّمان، فلم يقل: (فتمتَّعوا ثلاثة أيّامٍ في دارِكم)، ونكتةُ ذلك أنَّ ذكرَ الدّار تنبيهٌ على مكانِ المعصيةِ السّابق، وذكر الزَّمان تنبيهٌ على وقتِ المعصيةِ المتبقّي، فجاء على الأصلِ، من ذكر الماضي، قبل الزمن القادم.

دلالةُ توقيتِ العذابِ:

وطأةُ العذابِ النّفسيِّ في انتظارِ العذابِ الحسيِّ

في توقيتِ مهلةِ وقوعِ العذابِ عليهمْ بمدةِ ﴿ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖ﴾ دلالةٌ لطيفة؛ إذ أرادَ أنْ يجعلَهمْ في تلكَ المدّةِ واقعين تحتَ وطأةِ العذابِ النّفسيِّ، وهو أشدُّ عليهِمْ من الألم الحسّيِّ؛ فكلّ لحظةٍ تمرُّ عليهمْ يشعرونَ بالألم من اقترابِ الوعيدِ وهو العذابُ[1]، ولم يجعلها أقلَّ

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 11/6539.

من ذلك؛ لأنَّ الأيّام الثلاثة مناسبةٌ لإيقاعِ الفكرِ في زوايا الخوفِ والهلع، ولم يجعلها أكثر؛ كي لا ينهض الفكرُ في الهروبِ ممّا سيلحقُهم، فأتى بثلاثةِ أيّامٍ لتحبسَ أنفاسَهم، وتقطع أبهرَ قلوبِهم.

دلالةُ استعمالِ اسم الإشارةِ للبعيدِ:

المشارُ إليهِ ذو منزلةٍ عظيمةٍ ورتبةٍ عليَّة

في قولهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ استعملَ ﷻ اسمَ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ للبعيدِ للدّلالةِ على علوّ الوعدِ، وبعدِ منزلتهِ ورتبتهِ صدقًا وغضبًا[1] بما يشعرهُم بالخوفِ منهُ.

دلالةُ اختيارِ مفردةِ ﴿وَعۡدٌ﴾ دونَ مرادفاتها:

المبالغةُ في التّهكّم بالموعودين

لاستعمال لفظةِ ﴿وَعۡدٌ﴾ سرٌّ؛ فإنَّ منْ شأنِ الوعدِ أنْ يقعَ على البشاراتِ، فيما يقعُ الوعيدُ على التّهديدِ والإنذاراتِ كقولهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ١٤﴾ [إبراهيم: 14]، لكنّهُ لَمّا أرادَ أن يبالغَ في التّهكّم[2] بهمْ والسّخريةِ منهمْ وبما سينالهُمْ عدلَ عن الوعيدِ إلى الوعدِ.

سرُّ الوصفِ بقولِه: ﴿غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾:

تحقُّق وقوعِ العذابِ وتأكيده

جاء قولُه تعالى: ﴿وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ دون أن يقول: (وعدٌ مصدوق) مع إيجازِه اللَّفظيِّ؛ لبيانِ أنَّ القومَ كانوا يُسابقون إلى التَّكذيبِ، فأخبرَهم أنَّ هذا الوعدَ غيرُ مكذوبٍ، أي: لن يُكذِّب به أحدٌ عند وقوعه، وذلك لإيقانِ الوقوعِ، ولتأكيدِ النُّزولِ، وهو يستلزم التَّصديق، بخلافِ العكس؛ ولما فيه من معانٍ بلاغيَّةٍ ستُذكر في الفائدة التّالية.

توجيهُ ﴿مَكۡذُوبٖ﴾ بينَ اسم المفعولِ والمصدرِ:

محمولٌ على الاتِّساعِ أو الاستعارة المكنيَّة أو المصدرِ

وقوله تعالى: ﴿وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ نفيٌ للكذبِ عن الوعدِ، وصيغتهُ اسمُ مفعولٍ، وهو على تقديرِ: غيرُ مكذوبٍ فيهِ؛ فاتّسعَ في

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/323.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/289.

الظّرفِ وحذفَ الحرفَ، وأجري مجرى المفعولِ بهِ على التّوسعِ؛ كما يقالُ: يومٌ مشهودٌ، أيّ: فيهِ منْ قولهِ: ويومٌ شهدناهُ، أيّ: شهدنا فيهِ[1].

ويحتمل أن يكون استعارةً مكنيَّةً؛ بتشبيهِ الوعدِ بمخاطبٍ، ثمَّ وُصِفَ بغيرِ المكذوبِ على سبيلِ التّخييلِ[2].

ويحتملُ أنْ يكونَ على تقديرِ: غيرِ كذبٍ؛ فيكونُ مصدرًا كالمجلودِ والمعقولِ[3]، والتّعبيرُ بالمصدرِ فيهِ دلالةٌ على المبالغةِ في نفي الكذبِ، وذلكَ أبلغُ لتخويفِهمْ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العقر والنّحر:

العقرُ هو إحداثُ الجرحِ أوْ قطعُ عضوٍ مؤثّرٍ في النّفسِ، وعقرَ الفرسَ: ضربَ قوائمهُ بالسّيفِ[4]، أمّا النّحرُ فهو الذّبحُ على ما جاءَ في هدي الأنبياءِ والرّسلِ من التّسميةِ والتّوجيهِ نحو القبلةِ وقطعِ الأوداجِ وغيرِ ذلكَ ممّا هو في شرعِ اللّهِ، فثمّةَ فرقٌ بينَ العقرِ والنّحرِ؛ فلمْ يعبّرْ عنْ فعلِ قومِ ثمودَ معَ النّاقةِ بالنّحرِ؛ لأنّهمْ كفروا بما جاءَ بهِ صالحٌ عليه السلام؛ فأرادوا قتلَ النّاقةِ فلا يحسنُ التّعبيرُ عنْ فعلهِمْ ذاكَ بالنّحرِ، وهو ما شَرَعَهُ اللّهُ تعالى لعبادهِ من النّسكِ والأضحيةِ في مثلِ قولهِ تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢﴾ [الكوثر: 2].

العقرُ إحداثُ الجرحِ المؤثّرِ والنّحرُ علمٌ على الذّبحِ لأجلِ النُّسُكِ

الدار والمسكن والبيت:

الدّارُ الموضعُ الذي يعيش فيه النّاسُ، وهو لما اشتملَ على البناءِ ولما خلا منهُ، والأصلُ فيها إحاطتهُ منْ حواليهِ؛ لدورانِها على أهلِها وإحاطتِهمْ بها[5]، ويجوزُ أنْ تكونَ المدينةُ دارًا بجامعِ الإحاطةِ. أمّا

البيتُ مأوى الإنسانِ في ليلهِ والمسكنُ مقترنٌ بالرّاحةِ والدّارُ يشملُ المعانيَ جميعًا

(1) الزمخشري، الكشّاف: 2/408.
(2) زادة، حاشية الشيخ زادة: 4/463.
(3) الزمخشري، الكشّاف: 2/408.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/240.
(5) الخليل، العين: (دور)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (دور).

السّكنُ فمن السّكونِ وذهابِ الحركةِ والاضطراب، فالدّارُ سكنٌ لهمْ؛ فيستعملُ في موضعِ الاستيطانِ[1]، ولمّا كانَ مفارقًا للحركةِ اقترنَ بالرّاحةِ من التّعبِ والجهدِ؛ فهو قرينُ اللّيلِ غالبًا[2]. أمّا البيتُ فهو من الفعلِ (باتَ يبيتُ)، وأصلهُ: مأوى الإنسانِ في ليلهِ؛ لأنّهُ يقالُ: باتَ أقامَ باللّيلِ، كما يقالُ: ظلّ بالنّهارِ، ثمَّ قدْ يقالُ للمسكنِ: بيتٌ منْ غيرِ اعتبارِ الليلِ فيهِ"[3].

فالمسكنُ والبيتُ مقترنانِ عامةً بالليلِ، أمّا الدّارُ فهو أوسعُ وأشملُ؛ فيكون مأوى الإنسانِ ليلًا ونهارًا وفي جميعِ الأوقاتِ؛ لذلكَ اختارهُ في الآيةِ بقولهِ تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾؛ لأنّهُ أرادَ أنْ يكونَ الوصفُ شاملًا الليلَ والنّهارَ؛ فقدْ أنزلَ عليهمُ العذابَ ليلًا فأصبحوا في ديارِهِمْ جاثمينَ هلكى[4].

(1) الرّاغب، المفردات: (سكن).
(2) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سكن).
(3) الرّاغب، المفردات: (بيت).
(4) الماوردي، النكت والعيون: 2/480.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ٦٦﴾ [هود: 66]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ما بعدَ الوعدِ المصدوقِ إلّا نزول العذابِ المحتوم

ارتباطُ مضمونِ هذهِ الآيةِ بما قبلَها ارتباطٌ وثيقٌ حيث أخبرتِ الآية السابقة عن مدَّة الزمان المتبقي، وذكرت هذه وقت وقوع العذاب النازل، فالمناسبة بين الآيتين هو الانتقال من ذكرِ زمن بدء الإمهال، إلى ذكر زمن وقوع العذاب.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَجَّيۡنَا﴾: أصلُ النَّجاء: الانفصالُ منَ الشَّيء، ومنه: نَجا فلانٌ من فلانٍ وأنْجَيْتُه ونَجَّيْتُه، قال تعالى: ﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النّمل: 53][1]، والنَّجاةُ الخَلاصُ ممّا فِيهِ المَخافَة، ونَظِيرُها السَّلامَة، والتَّنْجِيَةُ: الإنْجاءُ وهُو جَعْلُ الغَيْرِ ناجِيًا[2]. والنَّجْوةُ: المكان المُرتفِع المنفصِل بارتفاعه عمّا حوله، وقيل: سُمِّي نجوةً لكونه ناجِيًا من السَّيْل، ونَجَّيْتُه: تركتُه بنَجْوةٍ، وعلى هذا: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: 92][3]. والمقصود في الآية: الخلاصُ منْ ضُرٍّ واقِعٍ.

2) ﴿خِزۡيِ﴾: أَصْلُ الخِزْيِ: ذُلٌّ يُستَحْيا منْهُ؛ ولذلكَ يُسْتَعْمل في كلٍّ منهما، أي: الذُّلّ والاسْتِحْياء[4]، وقيل أصلُه: الإبعاد، فقولُهُم: أَخْزاهُ اللّهُ، أي أَبْعَدَهُ ومَقَتَهُ[5]. والخِزْيُ: الفَضِيحةُ، وقَدْ خَزِيَ

(1) الرّاغب، المفردات: (نجو).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (نجو)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/130.
(3) الرّاغب، المفردات: (نجو).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (خزي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خزي).

يَخْزَى خِزْيًا إذا افْتَضَح وتَحيَّر فَضِيحَةً[1]، والخِزْيُ أيضًا: السُّوء[2]، والهَوانُ[3]. والمقصود بالخِزْيِ في الآية: الذُّلّ، وهُو ذُلُّ العَذابِ[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

عـــذابُ الـلـه يُصيبُ الظّالمين ويتجاوزُ المؤمنين

يقول الحقُّ ﷻ: فلمّا جاء عذابُنا بهلاكِ ثمودَ نجَّينا صالحًا والمؤمنينَ معه برَحمةٍ وفَضلٍ منّا عليهم، ونجَّيناهم من هوانِ ذلك اليوم وذُلِّ عذابِه الَّذي أصاب الكافرينَ. إنَّ رَبَّك - يا مُحمَّدُ ﷺ - الَّذي فَعَل هذا قادرٌ على فِعل مثله بِقومكَ إذا أصرُّوا على الجُحود، فإنَّه هو القويُّ المقتدر الَّذي لا يُعجزه إنجازُ وعده، ومن أمارات قوَّته وعزَّته أن أهلك الأُمم الطّاغية، ونجَّى الرُّسل وأتباعهم[5].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ بالفاءِ:

الـفـاءُ فصيحةٌ دالَّـــةٌ عـلى الـتّـعـقـيـبِ والـتّـعـجـيـلِ ومـنـاسـبـةِ اتّـصـالِـهـا بما قبلَها

نسقَ بالفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾؛ لأنَّ الموضعَ غيرُ متراخٍ عمّا قبلَهُ؛ فاقتضى الفاءَ الدّالّةَ على التّعقيبِ والتّعجيلِ واتّصالِها بما قبلها منْ غيرِ مهلةٍ[6]، فلمّا انتهتِ الأيامُ الثّلاثةُ عاجَلَهُمْ بالعذابِ فاستأصلَ شَأْفَتَهُمْ.

والتّعبيرُ بالفاءِ مناسبٌ لسياقِ الفاءاتِ المتعاقبةِ التي وقَعَتْ مَواقعَها منْ شأنِ الإنذارِ، فالوعيدِ على مخالفتِهِم فحصولِ المخالفةِ فإمهالِهِمْ موعدَ العذابِ فالإخبارِ بوقوعِه وحصولِه؛ فناسبَ ذلك كلَّه التّعقيبُ بالفاءِ على ما قبلَهُ[7].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (خزي).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (خزى).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (خزي).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/114.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/457، والخازن، لباب التأويل: 2/492، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/104.
(6) الإسكافي، درّة التنزيل: 2/792.
(7) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/104.

والفاءُ هنا هيَ الفاءُ الفصيحةُ الّتي تُفصِحُ عنْ جوابِ شرطٍ مقدَّرٍ: إذا علمتَ ما أخبرهُمْ صالحٌ ﷺ، وأردتَ أنْ تعرفَ حالَ المؤمنينَ وحالَ مكذبيهمْ عندَ نزولِ العذابِ فهو كذا وكذا[1].

معنى (لمّا) ودلالتُها:

دلَّتْ (لمّا) على الحينِ رابطةٌ بين حدثَيْن

(لَمّا) في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ ظرفيةٌ زمانيةٌ دالَّةٌ على معنى الحينِ؛ ولذا تسمّى (لَمّا) الحينية[2]، وهيَ أداةُ وجودٍ لوجودٍ، مدخولُها جملةٌ فعليةٌ ماضويةٌ، وفي استعمالِها هنا مزيدُ ربطٍ بينَ هذهِ الجملةِ وما قبلَها، وهو ارتكابهُمُ الجُرْمَ المشهودَ، وانتهاءُ مُهلتِهِمْ ووقوعُ العذابِ.

بلاغةُ إسنادِ المجيءِ إلى الأمرِ:

تمثيلٌ لظهورِ الأمرِ وبيانُ آثارِ قهرِهِ تعالى

أُسندَ المجيءُ إلى الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ إسنادًا مجازيًّا، الغرضُ منهُ تمثيلٌ لظهورِ اقتدارِه، وبيانُ آثارِ قهرِهِ تعالى وموجِبِ عذابِه، فكأنَّ العذابَ قد حضرَ بنفسِه، وفي ذلكَ حصولُ آثارِ الهيبةِ ما لا يحصلُ في التّعبيرِ بالأمرِ على وجهِ الحقيقةِ.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّة:

تشخيصُ الأمرِ وتصويرُهُ زيادةً في البيانِ للمخاطَبينَ

وأوردَ ﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾ على طريقِ الاستعارةِ المكْنيَّة؛ فقدْ شبّهَ الأمرَ بشخصٍ، وحذفَ المشبّهَ بهِ، وأبقى لازمًا منْ لوازمهِ وهو المجيءُ، وفائدتُه إظهارُ الأمرِ في صورةِ شخصٍ يجيءُ ويذهبُ زيادةً في البيانِ للمخاطبينَ على وجهِ العمومِ، وزيادةً في وعيدِ المنكرينَ على وجهِ الخصوصِ.

دلالةُ إضافةِ الأمرِ إلى ضميرِ العظمةِ:

ترهيبُ المجرمين وطمأنةُ المؤمنين

أُضيفَ الأمرُ إلى الضّميرِ (نا) الدّالِّ على العظمةِ والجبروتِ ﴿أَمْرُنَا﴾، أي: أمرنا بنزولِه، وفيه ما لا يخفَى من التّهويلِ[3] تخويفًا

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 13/152.
(2) بدر الدين بن مالك، شرح ابن الناظم، ص: 494.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/289.

لأعدائِنا وطمأنةً لأوليائِنا، أي: هو الأمر الذي لا يَحيد، ولا يَخيب، ولا يَتراخى زمانه، ولا يتقدَّم أوانه.

ذكـــرُ الـبـاقـي الـشّـاكـر مقدَّمٌ على ذكرِ الفاني الكافرِ

براعةُ ذكرِ البَدْءِ بإنجاءِ المؤمنين:

وفي قولهِ تعالى: ﴿نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ ذكرَ نجاةَ قوم صالحٍ ﷺ، وكانَ مقتضى الظّاهرِ أنْ يذكرَ وقوعَ العذابِ على الّذينَ كفروا بدعوتهِ وقتلوا ناقته، لكنّهُ عدلَ عنْ ذكرِ العذابِ إلى النّجاةِ رحمةً بعبادةِ المؤمنينَ؛ ولأنَّ "الإخبارَ بتنجيةِ الأولياءِ، لا سيّما عندَ الإنباءِ بحلولِ العذابِ أهمُّ؛ ذَكرَها أولًا، ثمَّ أخبرَ بهلاكِ الأعداءِ"[1]، كما أنَّ ذكرَ الباقي الشّاكرِ مقدَّمٌ على ذكر الفاني الكافر.

تكريمُ المؤمنين وتـشـريـفُـهـم رعـايـةٌ إلـهـيَّـةٌ وعنايةٌ قرآنيَّة

فائدةُ الإطنابِ في العطفِ:

لم يكتفِ النَّظمُ الكريم بذِكْرِ صالحٍ ﷺ، بل عطف عليه المؤمنين ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ واتَّبعوه بعد كفرِ قومه وعنادِهم وإصرارهم على المعصية، وفيه إطنابٌ وفائدتُه تشريف ذكرِ المؤمنين بإنجائهم من عذابِ ثمود؛ فإنَّ ذكرَ المؤمنين فيه تسليةٌ لكلِّ مؤمنٍ يتَّبع أولياءَ اللّه تعالى في هذه الحياة الدُّنيا، ويلتمس رعايته وفضلَه وعنايته وتشريفَه وتكريمه.

التّنبيهُ على علّةِ الـقـبـولِ إيـمـاءٌ للتَّرغيبِ به

غرضُ التّعبيرِ بالاسم الموصولِ:

وفي قولهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ عطفَ الاسمَ الموصولَ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ على ﴿صَٰلِحٗا﴾ ولمْ يعبِّرْ بالاسم الظّاهرِ (المؤمنيَن) وهو أوجزُ لفظًا من الموصولِ؛ وذلك للإيماءِ إلى علّةِ بناءِ الخبرِ على الصّلةِ، وعلّةِ ترتّبِ الحكم، والمعنى أنَّ إيمانَهُمْ علّةٌ وسببٌ لنجاتهمْ من العذابِ، وفيه إيماءٌ للتَّرغيبِ به عند المخاطبين.

التّابع والمتبوعُ في طريقِ الإيمانِ واحدٌ فهو ليس إيمانًا طبقيًّا

نكتةُ ذكرِ المعيَّة:

أردفَ فعلَ الإيمانِ بظرفِ المعيّةِ في قولهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/223.

﴿مَعَهُۥ﴾، ونكتةُ ذلكَ دفعُ إيهام أنْ يكونَ الإيمانُ بصالحٍ عليه السلام فإنّهُ مُحتملٌ[1]، فلمّا قالَ ﴿مَعَهُۥ﴾ تعيّنَ أنْ يكونَ الإيمانُ باللّهِ منْ صالحٍ ومن الذين آمنوا باللّه معه، ففيه تنبيهٌ على أنَّ إيمانَ المؤمنين ليس إيمانًا طبقيًّا، أو إيمانًا خرافيًّا، بل هو إيمانٌ يكون فيه المتبوعُ والتّابع في طريقٍ واحدٍ.

معنى الباءِ ودلالتها:

في قولهِ تعالى: ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ ذكرَ الباءَ في هذا الموضعِ لدلالتِها على السَّببيةِ، أي: أنّ نَجاتَهم من القوم الظّالمينَ كانت بسببِ رحمةٍ منّا[2].

غرضُ تنكيرِ ﴿بِرَحۡمَةٖ﴾:

رحـمـةُ اللـه عظيـمةٌ ومنّـةٌ جليلة

أوردَ النَّظمُ مفردةَ ﴿بِرَحۡمَةٖ﴾ على صيغةِ التّنكيرِ؛ لإفادةِ التّفخيم والتّعظيم[3]، أي: نجّيناهُم برحمةٍ عظيمةٍ منّا لا يَسعُها خاطِرٌ، ولا يحيطُ بها عالمٌ، ولبيان أنَّ هذه الرَّحمة عزيزةٌ، فهي خاصَّة بمن اصطفاهم اللّه تعالى لخدمةِ دينِه.

معنى ﴿مِّنَّا﴾ ودلالتُها في الآيةِ:

رحـمـةُ اللـه لا تكونُ إلّا بتوفيقِه ومنِّه

ومعنى (من) في قولهِ تعالى: ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ وقدْ باشرتْ ضميرَ الجمعِ يظهر في أنها بالنسبةِ إلى صالحٍ النّبوة، وبالنسبة إلى المؤمنينَ الإيمان كما مرَّ، أوِ المعنى: متلبّسون برحمةٍ ورأفةٍ منّا"[4]، أي: وهبناهُم الإيمانَ والنّبوّةَ وتلبّسوا بها مصاحبين لها، وكونها من اللّه تعالى فيه تشريفٌ لجنابِ المؤمنين، فهي رحمةٌ لا تكون إلا بتوفيقِ اللّه تعالى وعظيم كرمه.

---

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم، ص: 311.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/223.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/289.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/223.

المقصودُ عطفُ المنَّة على المنَّة لا عطفُ الإنجاءِ على الإنجاءِ

بلاغةُ حذفِ فعلِ الإنجاءِ:

وقولُه تعالى: ﴿وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ﴾ متعلّقٌ معطوفٌ على متعلقِ فعلِ الإنجاءِ المحذوفِ على تقديرِ: "نجّينا صالحًا ﵇ ومَنْ معهُ مِنْ عذابِ الاستئصالِ ومن الخزيِ على هذهِ الكيفيةِ؛ فإنَّ العذابَ على كيفياتٍ بَعْضُها أخْزَى مِنْ بَعْضٍ، فالمَقْصُودُ مِنَ العَطْفِ عَطْفُ منّةٍ على منّةٍ لا عطف إنجاءٍ على إنجاءٍ، ولِذَلِكَ عَطَفَ المُتَعَلِّقَ ولَمْ يَعْطِفِ الفِعْلَ، كَما عَطَفَ في قِصَّةِ عادٍ: ﴿نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٥٨﴾ [هود: 58] لِأنَّ ذَلِكَ إنْجاءٌ مِنْ عَذابٍ مُغايِرٍ لِلْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ"[1].

المؤمنون ناجون من العذابِ كلِّه في الدُّنيا والآخرة

معنى ﴿وَمِنۡ﴾ ودلالتها:

دلَّ حرفُ ﴿وَمِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ﴾ على ابتداءِ الغاية، أي: نجيناهم ابتداءً من خزي ذلك اليوم، بعد إنجائهم من عذاب الدُّنيا النّازل في ثمود، فهما إنجاءان؛ إنجاءٌ من عذابِ الدُّنيا الذي أصابَ ثمود، ويلزم عنه إنجاءٌ من عذابِ الآخرةِ، فاللّه تعالى يكرم المؤمنين بالإنجاءين من ابتدائهما إلى انتهائهما، فالبدايةُ دالَّةٌ على النِّهاية، فإذا كان اللّه تعالى قد أنجاهم من ابتداءِ العذابِ، فإنَّه منجيهم إنجاءً كاملًا، وفيه طمأنةٌ عظيمةٌ للمؤمنين.

ذُلُّ الكافرين وهوانُهم على رؤوسِ الأشهادِ

دلالةُ التَّعبيرِ بمفردةِ ﴿خِزۡيِ﴾:

أصابَ العذابُ قومَ صالحٍ ﵇ في ذلكِ اليوم المعبَّرِ عنهُ بقولهِ تعالى: ﴿وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ﴾، والخزي هو المذلَّةُ والهوان، ويكون مشهودًا لدى النّاس، فإمّا أن يُراد العذاب النّازل في ثمود، وإما أن يراد عذاب القيامةِ، إذ لا مشاهد أعظم منها[2]؛ ففيه تنبيهٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/114.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/223.

على أنَّ الخزيَ سيكون لمن كفر بصالح عليه السلام، وعاند وفجر، فهؤلاء سيفضحهُم اللّهُ تعالى على رؤوسِ الأشهادِ.

بلاغةُ التوكيدِ في الفاصلةِ:

قوَّةُ الله تعالى وعزَّتُه سببُ العذابِ والإنجاءِ

جاء في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ مجموعةٌ من المؤكّداتِ اهتمامًا[1] بما خُتِمَت به الآيةُ من صفتي القوّةِ والعزّةِ؛ فأكَّدَ الجملةَ بـ ﴿إِنَّ﴾ الدّاخلةِ على الجملةِ الاسميّةِ، ثمّ أوردَ خبرَ ﴿إِنَّ﴾ اسمًا؛ لأنّهُ أدلُّ على الثُّبوتِ، وزادهُ توسيطَ ضميرِ الفصلِ[2] ﴿هُوَ﴾ الذي يفيدُ توكيدَ القصرِ؛ فقوَّة اللّه وعزَّته سببُ عذابِ الكافرين وسرُّ إنجاءِ المؤمنين.

سرُّ إيثارِ لفظِ الرُّبوبيّةِ:

رعايةُ الله للمؤمنين تكون بعد الإنجاءِ والنَّصر

آثرَ النَّظمُ عنوانَ الرُّبوبيّةِ ﴿رَبَّكَ﴾ على الألوهيَّةِ (اللّه) "والوجهُ فيهِ أنّهُ ذكرَ صفةَ الرّبوبيّةِ ليدلَّ بهِ على خروجهِمْ منْ زيِّ العبوديّةِ وكفرهِمْ بالرّبوبيّةِ وكفرانهِمْ نعمَ ربّهِمْ"[3] فهو منْ بابِ التّبكيتِ عليهِمْ والتّقريعِ لحالهِمْ، ولبيانِ أنَّ من شأنِ الرَّبِّ سبحانه وتعالى أن يُنجِّي المؤمنين ويرعاهم، بعد تعذيب الكافرين وإنهائهم.

فائدةُ إضافةِ لفظِ الرَّبِّ إلى ضميرِ المخاطبِ:

تشريفُ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ووعدٌ برعايتِه ووعيدٌ بتعذيب أعدائه

أضافَ النَّظمُ الرَّبَّ إلى الضّميرِ الدّالّ على الخطابِ التفاتًا من الغيبةِ إلى الخطابِ في قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾؛ لأنّهُ أرادَ بالمخاطبِ الرّسولَ صلى الله عليه وسلم، وذلك لِثلاث فوائِدَ:

الأولى: فيهِ تشريفٌ للمضافِ إليهِ وهو الرّسولُ صلى الله عليه وسلم وترضيةٌ وتسليةٌ لهُ، ونحن نخبركُ يا أكرمَ الرّسلِ عندنا بما جرى منْ حوادثَ قبلكَ[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/114.

(2) ضمير رفع منفصل يقع بين معرفتين أو ما قاربهما يرفع توهم كون الخبر معرفة ويفصل بينهما ويسميه الكوفيون العماد أي يعتمد عليه فإذا قيل: (محمدٌ الصادقُ) توهم السامع أن يكون (الصادقُ) نعتاً فلما قيل: (محمدٌ هو الصادقُ) تبين أنّه الخبر.

(3) الطباطبائي، الميزان: 10/314.

(4) ملا حويش، بيان المعاني: 3/134.

الثّانية: كما كان للذين قبلك من العنايةِ والرِّعايةِ يكون لك ولمن تبعك من المؤمنين؛ فهي وعدٌ للمؤمنين بالنُّصرةِ والإنجاءِ من خزي الدُّنيا والآخرة.

الثّالثة: التّحذيرِ والتّنبيه على عظيم قدرتِه على التّنكيلِ بأمثالهم من المشركينَ؛ فإنَّ ربّكَ الذي يرعاكَ أيّها الرّسولُ قادرٌ على أنْ يرسلَ العذابَ على قومكَ - كما فعلَ بقوم صالحٍ - إنْ هم أصَرّوا على كُفرانهِمْ وجحودهِمْ لأنّهُ لا يعجزهُ شيءٌ[1].

دلالةُ اقترانِ صفةِ ﴿ٱلۡقَوِيُّ﴾ بصفةِ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾:

جعلُ الشّيءِ الواحدِ بلاءً لإنسانٍ وراحةً لآخرَ

اقترنت صفةُ القوّةِ بصفةِ العزّةِ في قولهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ لتناسبهما؛ فإنّهما من الصّفاتِ الدّالةِ على الغلبةِ والقهرِ والانتقام[2].

وحسُنَ اقترانُ لفظةِ القويّ بالعزيزِ؛ لأنّهُ تعالى أوصلَ العذابَ إلى الكافرِ، وحفظَ أهلَ الإيمانِ، وهو تمييزٌ لا يصحُ إلّا من القويّ القادرِ الّذي يقهرُ طبائعَ الأشياءِ؛ فيجعلُ الشّيءَ الواحدَ بلاءً وعذابًا لإنسانٍ، وراحةً وريحانًا لإنسانٍ آخرَ[3].

غرضُ تقديم ﴿ٱلۡقَوِيُّ﴾ على ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾:

قوّةُ الله تعالى مقترنةٌ بالعزّةِ العليّةِ والكرامةِ الجليّة

خُتمَت الآيةُ بصفتينِ من صفاتهِ تعالى وهما ﴿ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾، وجاء تقديمُ صفةِ القوي على العزيز، باعتبارِ أنَّ صفةَ العزيز كالعلَّةِ والسَّببِ لصفةِ القوي، فهو قويٌّ لأنَّه عزيزٌ، فإنَّ قوَّة اللّه تعالى ليست قوَّة بطشٍ وجبروتٍ خالية من العزَّة، فكم من قويٍّ لا عزَّةَ عنده إلّا بقهر النّاس وإجبارهم على الباطل، أمّا قوَّة اللّه تعالى فهي قوَّة العزيزِ الذي لا يُغالب، والقاهر الذي لا يُتحدَّى سبحانه في علاه.

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/104.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/178.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 18/370.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإنجاء والإنقاذ:

الإنقاذُ يدلّ على استخلاصِ الشّيءِ[1]، وهو التّخليصُ من الورطةِ[2]، أمّا الإنجاءُ فهو التّخليصُ لكنّهُ مختصٌّ بالتّخليصِ من المهلكةِ، وزادَ بعضُهمْ كونَه التخليصَ قبلَ وقوعِ المهلكة[3]، فاستعمالُهُ الإنجاءَ في قصّةِ ثمودَ قومِ صالحٍ ﵇ أدقُّ وأشملُ؛ لأنّهُ تعالى خلّصهُمْ ممّا سيحيقُ بعدوّهمْ منْ عذابِ الصّيحةِ الّذي استأصلَهمْ جزاءَ كفرهِمْ.

الإنـقـاذُ إنجـاءٌ عـامٌّ والإنـجـاءُ استخلاصٌ من المهلكةِ

الخزي والذل:

الذّلّ ضدَّ العزِّ وهو من المهانةِ والاستخفافِ[4]، أمّا الخِزْيُ فأكبرُ منهُ وأعظمُ؛ لأنّهُ الذّلُّ معَ الافتضاحِ على الملأِ ممّا يُستحيا منهُ[5]، فالفرقُ بينَ الذُّلِّ والخِزْيِ أنَّ الخِزْيَ يَقترنُ بسوءِ الذّكرِ[6] بعدَ حصولِ الذّلِّ والمهانةِ، وهو أشَدُّ؛ لذلكَ لَمّا كانَ جُرْمُ قومِ صالحٍ ﵇ على الغايةِ منَ السّوءِ بأن عَقَروا النّاقةَ الّتي كانتْ مصدرَ رزقٍ لهمْ، وهيَ آيةٌ منْ آياتهِ تعالى كانَ عِقابُهمْ أقسى وأعظمَ، فهو ذلٌّ مقترنٌ بالفضيحةِ على رؤوسِ الأشهادِ.

الذُّلُّ مهانةٌ والخِزْيُ ذلٌّ مقترنٌ بالافتضاحِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقذ).
(2) الرّاغب، المفردات: (نقذ).
(3) العسكري، الفروق اللغوية: 77.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 243.
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 215.
(6) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/104.

﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ٦٨﴾ [هود: 67 - 68]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قَبلَهما:

بيـانُ عـاقـبـةِ الـكـافـريـن بعد إنجاءِ المؤمنين

بعدَ أنْ جاءَ أمرُ اللهِ بإنجاءِ أوليائهِ المؤمنينَ منْ قوم صالحٍ عليه السلام، بيّنَ بعدهُ هنا إيقاعَهُ العذابَ بأعدائهِ الظّالمينَ[1]، حتّى إنّهمْ لشدّةِ ما وقعَ عليهِمْ من العذابِ؛ أَلْفَيْتَ حالَهُم كأنّهمْ لمْ يَحْيَوا ويتنعّموا في سالفِ عهدِهِمْ قطّ؛ فَبُعدًا لهمْ وطردًا فهذا هو استحقاقهُمْ، فالمناسبةُ بين الآيتين بيان عاقبة الكافرين بعد ذكر إنجاءِ المؤمنين، في تحقيقِ الوعدِ والوعيدِ.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾: أصلُ (صيح): تَشقيقُ الصَّوتِ، منْ قَولِهِمْ: انْصاحَ الخشبُ، أو الثَّوب، إذا انشقَّ، فسُمعَ منه صَوتٌ، وصَيَّحَ الثَّوبُ إذا انشقَّ[2]، والصِّياحُ صوتُ كُلِّ شَيْءٍ إذا اشْتَدَّ[3]. والصَّيْحَةُ: العذابُ، يُقالُ: صِيحَ في آلِ فُلانٍ إذا هَلَكُوا. والصَّيحةُ: الغارةُ إذا فُوجِئَ الحيُّ بها[4]. ولمّا كانت الصَّيْحَةُ قد تُفزع عبَّر بها عَنِ الفَزَعِ في قوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣﴾ [الحِجر: 73]، والصّائِحَةُ: صَيْحَةُ المناحة[5]. والمراد بالصَّيْحَةِ في الآية: صاعِقَةُ العَذابِ.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/325.
(2) الرّاغب، المفردات: (صيح).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صيح).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (صيح).
(5) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صيح).

2) ﴿جَٰثِمِينَ﴾: أصلُ (جثم): يَدُلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيْءِ[1]. يُقال: جثَم الإنسانُ والطائرُ والنَّعامةُ والخِشْف والأرْنبُ واليَرْبوعُ يَجْثِم ويَجْثُم جَثْماً وجثُوماً، فَهُو جاثِم: لَزِم مَكانَهُ فَلَمْ يبرحْه، أي تَلَبَّد بالأرض، وقِيلَ: هُو أن يَقَعَ على صَدْرِهِ[2]. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٧٨﴾ [الأعراف: 78]، أي: أصابَهُم العَذاب فماتوا جاثمين، أي: بارِكين[3]، والجُثْمان: شخص الإنسان قاعدًا، ورجل جُثَمَة وجَثّامَة كناية عن النّؤوم والكسلان[4]. والمقصود بالجاثم في الآية: المُكِبُّ على صَدْرِهِ في الأرْضِ مع قَبْضِ ساقَيْهِ كما يَجْثُو الأرْنَبُ.

3) ﴿يَغۡنَوۡاْ﴾: أصلُ (غني): يَدُلُّ على الكِفايَةِ. الغِنَى في المالِ، يُقالُ: غَنِيَ يَغْنَى غِنًى. والغَناءُ بِفَتْحِ الغَيْنِ مَعَ المَدِّ: الاستِغناءُ والكِفايَةُ، يُقالُ: لا يُغْنِي فُلانٌ غَناءَ فُلانٍ، أي: لا يَكْفِي كِفايَتَهُ[5]. وغَنِيَ القَوْمُ في دارِهِم: أقامُوا، كَأَنَّهُمُ اسْتَغْنَوا بِها[6]. والغُنْيَةُ: اسمٌ من الاِسْتِغْناء عَن الشَّيْءِ[7]. والمغاني: المنازِلُ الَّتِي يَقْطُنُها أهلُها، واحِدُها مغنًى[8]. والغانِيَةُ: المُسْتَغْنِيَةُ بزوجها عن الزِّينة، وقيل: المُسْتَغْنِيَةُ بِحُسْنها عن التَّزيُّن[9]. والمراد بقوله (يَغْنَوا) في الآية: الإقامة، أي: كأن لم يقيموا فيها ولم ينزلوا فيها. وفيه إبانةٌ عن سوءِ حالِ المكذِّب نبيًّا من أنبياء الله في أنَّه بمنزلة من لم يستمتع بالدُّنيا[10].

4) ﴿بُعۡدٗا﴾: أصلُ البُعْد: خِلافُ القُرْبِ، يُقال: بَعُد يَبْعُدُ بُعْدًا، ضِدّ قَرُبَ يَقرُب قُرْبًا، وليس لهما حدٌّ محدود[11]. والَّذي عَبَّرَ بِهِ الأقدمون أنَّ البُعْد بمعنَى الهلاكِ كَما في (الصّحاح) وغيره، ويُقال: إنَّ الَّذي بمعنَى الهلاكِ إنَّما هو بَعِدَ يبْعَدُ بَعَدًا. ومَنْ جَوَّزَ الاشتراكَ فيهما أشار إلى أفصحِيَّة الضَّمِّ في خِلافِ القُرْب، وأفصحيَّة الكسرِ في معنَى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جثم).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (جثم).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (جثم).
(4) الرّاغب، المفردات: (جثم).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (غني).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (غني).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (غني).
(10) الواحدي، التفسير البسيط: 9/240.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزَّبيدي، تاج العروس: (بعد).

الهلاكِ[1]. أمّا المقصود بالبُعْد في الآية: فهو كِناية عَنِ التَّحقِيرِ بلازِم كراهيةِ الشَّيءِ؛ فلذلكَ يُقالُ: بَعُدَ أو نحوُهُ لِمَنْ فُقِدَ، إذا كانَ مَكرُوهًا، كما هُنا[2].

المَعْنى الإجْماليّ:

نزولُ العذابِ بكفرِ العبادِ وعنادِهم

بعد أن تمادوا في ظلمهم وغيِّهم أخذَتِ الصَّيحةُ القويَّةُ ثَمودَ الظّالمِينَ، فأصبحوا في ديارِهم موتى ساقطِينَ على وُجوهِهم، كأنَّهم في سرعةِ زَوالِهم وفنائِهم لم يَعيشوا فيها، ألا إنَّ ثَمودَ كفروا بربِّهم وجَحَدوا بآياته وحُجَجِه، ألا بُعْدًا لثمودَ وطردًا لهم من رَحمةِ اللّهِ[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطفِ بالواو:

بين الإنذارِ وأخذِ العذابِ مهلةٌ متوسِّطةٌ يسيرة

في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ عطفَ الجملةَ على ما سبقَ بالواوِ لما بينَ أخذِهمْ بالعذابِ وإنذارِهمْ منْ وقتٍ وقّته لهمْ، وهيَ الأيامُ الثّلاثةُ، فحسُنَ عطفهُ بالواوِ لا بالفاءِ ولا ثُمَّ لما بينهما من المهلةِ والوقتِ المتوسِّط القليل، فهو ليس بالوقت الطويل فيُعبَّر عنه بأداة التَّراخي، ولا بالسَّريع فيُؤتى بالفاءِ، وحسنَ الوصلُ لما بينَ إنجاءِ المؤمنينَ وأخذِ الظّالمينَ من تعالُقٍ وتتابعٍ وتكاملٍ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالأخذِ:

التَّنبيهُ على شدَّةِ الصَّيحةِ وقوَّةِ التَّعذيب

في لفظِ الأخذِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ إسنادٌ مجازيّ؛ وذلك أنَّ الآخذَ الحقيقيّ هو اللّهُ تعالى، ونكتة التَّعبيرِ بالأخذِ أنَّ معنى الأخذِ الاستيلاءُ على الشّيءِ بقوةٍ وعنفٍ؛ فلا يستطيعُ المأخوذُ الإفلاتَ منهُ وإنْ حاولَ؛ لأنَّ في الأخذِ من الشّدّةِ ما لا يستطيعُ منه فكاكًا[4].

(1) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (بعد).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/79.
(3) جماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 229.
(4) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 16/10077.

إجراءُ الاستعارةِ في لفظِ ﴿وَأَخَذَ﴾:

الفعل (وأخذ) استعارةٌ تصريحيَّة تبعيَّةٌ

في التَّعبيرِ بالأخذِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ استعارةٌ، حيث شبَّه الإصابةَ ووقوعَ الصَّيحة بالأخذِ، ثم حذف المشبَّه وصرَّح بالمشبه به واشتقَّ منه فعلَ أخذ الماضي على سبيلِ الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة.

نكتةُ تذكيرِ ﴿وَأَخَذَ﴾:

لَمّا كانت الصّيحةُ بتأويل الصّياحِ الكثير والخزي العظيم ناسبَ ذلك تذكير الفعل

أوردَ النَّظمُ الفعلَ مذكّرًا في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ معَ أنّ الفاعل ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ مؤنثٌ، وتوجيه ذلك: أنّهُ لّما كانَ الفاعلُ بمعنى المصدرِ (الصّياح) أو الصّوتِ أوردهُ مجرّدًا منْ علامةِ التّأنيث[1]، للجمعِ بين المعنى الأصلي للمصدرِ، ولفظ الصيحة، وهو أوعبُ دلالةً، فلَمّا كانَ الجرمُ الّذي ارتكبهُ قومُ ثمودَ عظيمًا بعقرهِمُ النّاقةَ بعدَ تحذيرهِمْ فلا يصِحُّ أنْ يفهمَ أنَّ الصّيحةَ جاءتْ لتعبّرَ عنْ صيحةٍ واحدةٍ، بل لتكرّرها فتكونُ صياحًا كثيرًا مناسبةً لجرمهِمْ فَحَسُنَ التّذكيرُ[2]، أو أن نجعل ﴿ٱلصَّيْحَةُ﴾ بمعنى العذابِ والخِزي، فقويَ تذكير الفعلِ على اللَّفظ.

نكتةُ العدولِ من المضمَرِ إلى المظهَر:

تسجيلُ علَّةِ العذابِ

وعَدَلَ عن المضمَرِ إلى المظهَرِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾: "تسجيلًا عليهم بالظّلم، وإشعارًا بعلّيَّتِه لنزولِ العذابِ بهِم"[3]؛ لما في الإظهارِ من استحضارِ المعاني ما لا يكونُ مع المضمَر.

نكتةُ تقديمِ المفعولِ به:

إذا نَزَلَ العذابُ تسلَّط على الظّالمين

قُدِّم المفعولُ به في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾، وذلك لأمورٍ: الأوَّل: دلالي، وهو العناية بالمفعولِ به، لبيانِ أنَّ الأخذَ

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 1/125، وابن الأنباريّ، المذكر والمؤنث: 2/212.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 11/6544.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/223.

تسلَّط على الظّالمين. والثّاني: لفظي، وهو الفصلُ بين الفعل المذكر والفاعل المؤنث. والثّالث: سياقي، وهو أنَّ سياقَ الكلامِ هنا على الظّالمينَ وعاقبتهِمْ؛ فكانَ من المناسبِ تقديمُ ذكرِ الظّالمين، على ذكرِ العذابِ.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيِّ:

تذكيرُ الأخذِ في ثمود نظرًا لمعنًى مذكَّر وتأنيثه في قوم شعيب لتوالي اللّفظ المؤنث

استعملَ فعلَ الأخذِ في قصّةِ ثمودَ ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ مجرّدًا منْ علامةِ التّأنيث، فيما أوردهُ مؤنثًا في الآيةِ الأخرى منْ قصّةِ شعيبٍ عليه السلام ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [هود: 94]، فما الوجهُ في تذكيرِ ما ذكّرَ وتأنيثِ ما أنّثَ؟

الجوابُ عنْ ذلكَ: أنَّ الصّيحةَ في قصّةِ ثمودَ دالَّةٌ على الصّوتِ فَحَسُنَ التّذكيرُ، أمّا تأنيثُ الصّيحةِ في قصّةِ شعيبٍ؛ فلأنّ الحقّ سبحانهُ أخبرَ عنْ عذابِ قومِ شعيبٍ بثلاثةِ ألفاظٍ تصوّرِ أطوارَ عذابِهِمْ، وهيَ الرّجفةُ؛ رجفتْ بهِمْ فانزعجوا منها، وخرجوا إلى البَراحِ فلمّا نالتهُمْ حرارةُ الشّمسِ مالوا إلى سحابةٍ سكنوا عندَها فعبّرَ عنها بالظّلّةِ، فأخذتهُمْ الصّيحةُ، وأنتَ ترى أنَّ (الرّجفة) و(الظّلّة) و(الصّيحة) ألفاظٌ مؤنثةٌ فناسبَ التّأنيثُ التّأنيثَ وازدادَ حُسنًا[1].

كما أن الصيحة في قصة صالح في معنى العذاب والخِزي، إذ كانت منتظمة بقوله ﷻ: ﴿وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾، فصارتِ الصَّيحةُ عبارةً عن ذلك الخزي، وعن العذاب المذكور في الآية، فقوِيَ التذكير، بخلاف الآية الأخرى[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالاسم الموصولِ:

عـذابُـهـم بالصّيحةِ مترتّبٌ على ظُلمِهم وإشراكِهم

عبّرَ النَّظمُ عن قومِ ثمودَ بالاسمِ الموصولِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾، دون الاسمِ الظّاهرِ؛ فإنّ الاسمَ الموصولَ

(1) الإسكافي، درّة التنزيل: 2/764، والكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص: 146.
(2) السّهيلي، نتائج الفكر في النحو، ص: 131.

يومئُ إلى علّةِ ترتّبِ الحكم؛ فالأخذُ بالصّيحةِ مترتّبٌ على ظلمهِم وهو الإشراكُ باللّهِ ومحاربةُ أنبيائه[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالظّلم دونَ الكفرِ أو التّكذيبِ:

التَّعريضُ بمشركي مكّةَ بقصدِ التّحذيرِ

عبَّر النَّظم بالظّلم دونَ الكفرِ أو التّكذيبِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾، وذلك باعتبارِ أنَّ الظُّلمَ حاوٍ لمعنى الكفر والتَّكذيب، فهُما داخلان في مفهومه سياقًا، كما أنّهُ أرادَ أنْ يكونَ كلامهُ هذا تعريضًا بمشركي مكّةَ، بأنْ يحذروا منْ أنْ يُصيبَهُمْ ما أصابَ قومَ ثمودَ لأنَّهم ظالمونَ مثلُهمْ[2].

فائدةُ التّعبيرِ بالصّيحةِ:

من لم يستمع لصيحاتِ الحقِّ أُسمعَ صيحةَ العذابِ

اختيرت لفظةُ ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾؛ باعتبارِها العذاب الذي جاءَ به الملَكُ الموكّلُ؛ لأنّهمْ لمْ يرقّوا لصياحِ نبيِّهمْ ودعوته، ولا لصياحِ فصيلِ النّاقةِ، ولا لانتْ قلوبُهمْ لصياحِ النّاقةِ حينَما عقروها؛ فكانَ عذابُهمْ بالصّيحةِ منْ جنسِ عملهِمْ ومرتكبِهمْ[3].

نكتةُ المجازِ بالحذفِ:

التّنبيه على سرعةِ إيقاعِ العذابِ

وفي قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ مجازٌ بالحذفِ، والتَّقديرُ: عذابُ الصيحةِ، فإنَّ للصَّيحةِ عذابًا، وبه يتَّجه تذكيرُ فعل الأخذ، وعبَّر بالمضافِ إليه دون المضافِ لبيانِ سرعةِ إيقاعِ العذابِ بهم[4]، وذلك أنَّ الصيحة تتميَّز بسرعة وقوعِها.

معنى الفاءِ ودلالتُها:

الكفرُ هو سببُ حالِ المُعذَّبين على التَّحقيق

عقّبَ النَّظمُ أخذَهُم بالصّيحةِ في قولِه تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/114.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/114.
(3) ملا حويش، بيان المعاني: 3/134.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السّنّة: 6/152.

﴿دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ فصدَّرَها بالفاءِ "والغالبُ في الجملةِ المعطوفةِ بالفاءِ أن يكونَ معناها متسبّبًا عن معنى الأولِ"(1)؛ فإنّ إصباحَهُم على هذهِ الحالةِ مسبَّبٌ عن أخذهِم بالصّيحةِ عذابًا لهم؛ فالفاءُ دالةٌ على السّببيَّةِ، أي: فأصبحوا على هذه الحالِ بسبب الصَّيحة، وما كانت الصَّيحة إلّا بسبب كفرِهم وتكذيبِهم على التَّحقيق، فيكون إصباحُهم على هذه الحالِ بسبب كفرهم وتكذيبِهم على التحقيق.

دلالةُ اختيارِ لفظِ الإصباحِ:

نزولُ العذابِ في الصَّباحِ خلافُ المُنتظرِ من العملِ والحركةِ

اختيرَ لفظُ الإصباحِ في قولهِ تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ دونَ غيرهِ من الألفاظِ المرادفةِ تخويفًا وتأسيفًا؛ فإنَّ الصّباحَ يمثلُ استهلالَ يومٍ جديدٍ بما يحملهُ منْ معنى الهمّةِ والنّشاطِ والفرحِ بعدَ الرّاحةِ والهدوءِ؛ ليكونَ المرءُ قادرًا على ما يبتغيهِ من الحركاتِ وما يشتهيهِ من التّصرفات(2)، فَيَفْجَؤُهُمُ العذابُ على خلافِ ما يظنّونَ؛ فيكونُ أكثرَ وقعًا عليهِمْ، وأشدَّ أثرًا، فتُحيطُهُمُ الحسرةُ والنّدامةُ، فتوقيتُ الصباحِ فيه مزيدُ عذابٍ.

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الظّرفيّة:

البقاءُ في الدِّيارِ الموعودةِ بالعذابِ أمارةُ العنادِ وشديدِ الكفرِ

استعملَ النَّظمُ حرفَ الظّرفيةِ (في) في قولهِ تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾، فإنّهُ أمرهُمْ بأن يتمتّعوا في ديارهِمْ، ثمَّ نزلَ العذابُ عليهِمْ؛ ففي ذلكَ إشارةٌ إلى شدّةِ عنادهِمْ وعظيم كفرهِمْ بتمتّعهمْ وشعورهِمْ بالأمنِ حتّى أنّهمْ كانوا ﴿يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ۝٨٣﴾ [الحجر: 82 - 83]، أيْ: آمنينَ من العذابِ في ديارهِمْ؛ فدلَّ حرفُ الظّرفيةِ على بقائهِمْ على ما همْ عليهِ عنادًا ومكابرةً وتحدّيًا للوعدِ، وفي ذلكَ كشفٌ عنْ أمرٍ غيبيٍّ.

(1) ابن مالك، شرح التسهيل: 3/352.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 9/326 - 327.

نكتةُ جمعِ ﴿دِيَٰرِهِمۡ﴾ دونَ إفرادِها:

عذابُ الله النّازلُ لا ينجو منه مَنْ تُوعِّد به

ورد لفظُ الدّارِ مجموعًا في قولِه تعالى: ﴿فِي دِيَٰرِهِمۡ﴾ ولم يُفرِده، وذلك ليشملَ الدّارَ الخاصَّة بالإنسانِ، والدّارَ العامَّةَ التي هي بمعنى القُرى والبلاد، فيدخل فيه كلُّ من أصبح كذلك في دارِه خاصَّةً، أو في قريته وبلدِه عامَّةً، فلم ينجُ أحدٌ منهم من عذابِ الصَّيحة، ويبيِّنه قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ٨﴾ [الحاقة: 8].

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ:

شأنُ الزّلزلةِ الاختصاصُ بجزءٍ من الأرضِ وشأنُ الصّيحةِ الانتشارُ

جُمِعَ لفظُ الدّيارِ في قصّةِ صالحٍ عليه السلام في قولِه تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾، وأُفردَت في قصّةِ شعيبٍ عليه السلام في قولِه تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩١﴾ [الأعراف: 91]، فما توجيه ذلكَ؟

والجوابُ: أنَّ الرّجفةَ هيَ الزّلزلةُ، وتكونُ مختصَّةً بجزءٍ من الأرضِ فأفردَ بقولِه تعالى: ﴿دَارِهِمۡ﴾ [الأعراف: 91]، أمّا الصّيحةُ فتكونُ من السّماءِ، ويكونُ منْ شأنِها الانتشارُ لتعُمَّ الأماكنَ المتنائية، والدّيارَ البعيدةَ؛ فعبّرَ بقولِه: ﴿دِيَٰرِهِمۡ﴾ جمعًا(1).

نكتةُ تقديمِ ﴿فِي دِيَٰرِهِمۡ﴾ على ﴿جَٰثِمِينَ﴾:

تصويرُ شدّةِ العذابِ وسرعتِهِ

قُدِّمَ قولُه تعالى: ﴿فِي دِيَٰرِهِمۡ﴾ على ﴿جَٰثِمِينَ﴾ للتَّشويقِ بذكرِ الدِّيارِ، ثم بذكرِ حالِهم فيها، وللاهتمام بذكرِ أنَّهم في الدِّيارِ لم يتحرَّكوا منها ولم يُغادِروها، وغرضُه تصويرُ شدّةِ العذابِ وسرعتِه حتّى إنّه عاجلَهُمْ بهِ فلمْ يستطيعوا حراكًا؛ فأصبحوا في ديارِهِمْ لاصقينَ على الأرضِ غيرَ قادرينَ على الحركةِ والهربِ(2).

سرُّ التّعبيرِ بالجثوم:

سُكون المهلَكينَ عندَ الهلاكِ حتَّى كأنَّهمْ ما كانُوا أحياءً

وعبّرَ بالجثوم في قولِه تعالى: ﴿جَٰثِمِينَ﴾ دونَ مرادفاتِه، ومعناهُ

(1) الكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص: 146.
(2) إسماعيل حقي، روح البيان: 9/169.

السّكونُ؛ ومنه: مبيتُ الطّيرِ في أوكارِها جثومٌ؛ فأطلقتِ العربُ هذا اللفظَ على ما لا حركةَ لهُ من الموتِ؛ فكانَ هذا وصفًا لهؤلاءِ المهلكين بسكونِهِمْ عندَ الهلاكِ؛ فكانَ حالهُمْ كأنّهمْ لمْ تكنْ بهمْ حياةٌ قطّ(1).

بلاغةُ التّشبيهِ:

تشبيهُ حالِ الاستئصالِ بحالِ منْ لَمْ تسبِقْ لهُ حياةٌ

في قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ﴾ شبّهَتِ الآيةُ حالةَ إيقاعِ العذابِ بهِمْ واستئصالَهَمْ وعفاءَ آثارِهِمْ بحالِ من لم تكنْ لهُ حياةٌ أصلًا، والغَناءُ بمعنى الإقامةِ المقترنةِ بالعيشِ الرّغيدِ والنِّعمِ الوفيرةِ، فمحا العذابُ هذهِ كلَّها؛ فلمْ يبقَ شيءٌ أوْ بقيَ منهُ النّزْرُ اليسيرُ(2).

بلاغةُ التّعبيرِ بقولهِ تعالى: ﴿لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ﴾:

ذهابُ الذِّكرَى مرتهنٌ بذهابِ الطُّهرِ

وعبّرَ بقولهِ تعالى: ﴿لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ﴾ دونَ سواه من التّراكيبِ منْ مثلِ: لمْ يسكنوا أوْ لم يُقيموا؛ لأنَّ آثارهُمْ مُحيتْ بالكلّيّةِ، والسّاكنُ والمقيمُ أثرُه باقٍ، فكأنَّ هؤلاءِ لمْ يكونوا فيها لانْمحاءِ ذِكرِهمْ بعدَ هلاكِهمْ، كما في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ٨﴾ [الحاقة: 8]، أمّا الأبرارُ فإنّ ذِكراهُمْ - وإنْ ماتتْ أبدانهُمْ - باقيةٌ خالدةٌ، كأنّهمْ أحياءٌ يذكرهُمُ الذّاكرونَ بعدَ موتِهِمْ(3).

فائدةُ اجتماعِ أداةِ التّنبيهِ وحرفِ التّوكيدِ:

التّنبيهُ على استحقاقِ ثمودَ العذابَ وتنبيهِ المخاطَبِ لذلك

صُدِّرَتِ الجملةُ في قولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾ بألا الاستفتاحيةِ، ثمَّ تلتْها (إنّ) المؤكّدةِ، لأمرين:

الأول: التَّنبيهُ على ما استحقّوه من العذابِ لمَنْ يغفلُ فيسألُ عنْ ذلكَ؛ فإنّ ﴿أَلَآ﴾ تُقالُ عندَ الأمورِ المهمّةِ الهائلةِ، وهيَ لنفيِ الغفلةِ، وفيها إثباتُ المعنى بعدَ نفيِه، وهو آكدُ منْ إثباتهِ مجردًا من النّفيِ(4).

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 18/371.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/14.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السّنّة: 6/152.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 9/326 - 327.

الآخر: تنبيه السّامعِ؛ فلا تأخذهُ الغفلةُ عن الأمرِ المهمِّ الصّادرِ عن المتكّلم؛ وليكونَ استقبالُه للكلام استقبالَ المستفيدِ[1].

بلاغةُ التَّعريضِ:

انتماءُ النَّبيِّ للقبيلةِ لا يُغني عنها شيئًا

آثرَ النَّظمُ ذكرَ اسم ﴿ثَمُودَاْ﴾ الدّالّ على القبيلةِ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّ القبيلةَ لا تنفعُ أهلَها إنْ أعرضوا عنْ ذكرِ اللّهِ والإيمانِ به؛ فكذّبوا وكفروا، ففيه تعريضٌ بقريشٍ وأضرابِها منْ أنّ الانتماءَ للقبيلة أو العشيرةِ لا يغني عنْ أفرادِها شيئًا، وإنّما الفيصلُ الإيمانُ باللّه، فإنّهُ ﷺ حينَ أنزلَ اللّهُ ﷻ عليه قولَه: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ [الشعراء: 214]، قالَ: «يا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ - أوْ كَلِمَةً نَحْوها - اشْتَرُوا أنْفُسَكُمْ، لا أُغْنِي عَنْكُمْ منَ اللّهِ شَيْئًا، يا بَنِي عَبْدِ مَنافٍ لا أُغْنِي عَنْكُمْ منَ اللّهِ شَيْئًا، يا عَبّاسُ بْنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ لا أُغْنِي عَنْكَ منَ اللّهِ شَيْئًا، ويا صَفيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللّهِ لا أُغْنِي عَنْكِ منَ اللّهِ شَيْئًا، ويا فاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي ما شِئْتِ منْ مالي، لا أُغْنِي عَنْكِ منَ اللّهِ شَيْئًا»[2].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

وردتْ كلمةُ ﴿ثَمُودَاْ﴾ في الآيةِ على قراءتين، فقرأ يعقوبُ وحمزةُ وحفصٌ بغيرِ تنوينٍ، وقرأ الباقونَ بالتّنوين[3]، فمنْ لمْ يُنوِّنْ ذهبَ إلى امتناعهِ من الصّرفِ، فجعلهُ اسمًا للقبيلةِ لِعِلَّتَي التّأنيث والعَلَمية، ومَنْ نَوَّنَ جعلهُ اسمًا عَربيًّا بمعنى الحيِّ[4] أو القوم لانتفاءِ المانعِ من الصّرفِ.

نكتةُ التّعبيرِ بالكفرِ:

الغالبُ في صنيعِ ثمودَ الكفرُ بالله تعالى

عُبِّرَ بالكفرِ دونَ الظّلم في قولِه تعالى: ﴿كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾؛ لأنَّ الكفرَ هو التّغطيةُ والسّترُ فكأنّهمْ أوقعوا التّغطيةَ والسّترَ على ربّهمْ

(1) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 11/6646.

(2) رواه البخاري، الصحيح الجامع، الحديث رقم: (2753)، واللفظ له، ومسلم، الصحيح، الحديث رقم: (206)، (351).

(3) ابن الجزري، النّشر: 2/289 - 290.

(4) الزمخشري، الكشّاف: 2/409.

وخالقهمْ ورازقهِمْ، وهو المحسنُ إليهمْ بالخلقِ والرّزقِ، وهو الظاهرُ بأفعالهِ الأخرى، وفي ذلكَ بيانٌ لعظيم كفرهِمْ وغلظتهِ[1]، ففيه بيانُ أنَّ الغالبَ عليهم هو الكفرُ، وأنَّ الظُّلم مرتبطٌ به.

نكتةُ حذفِ الباءِ:

من كفرَ الله تعالى فقد بالغَ في كفرِه وتمادى في غيِّه

وفي قولِه تعالى: ﴿كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾ حُذفتِ الباء فلم يَقلْ: (كفروا بربّهمْ)؛ وثمةَ فرقٌ جوهريّ بينَ أنْ يكفرَ الإنسانُ بربّه، وأنْ يكفرَ ربَّهُ، فما تعدّى بحرفِ الباءِ اعترافٌ بوجودِ اللّهِ معَ عدم الإيمانِ بهِ، وهيَ مرتبةٌ في الذّنبِ قبيحةٌ، أمّا ما اتّصلَ فيهِ الفعلُ بمفعولهِ منْ غيرِ الحرفِ فمرتبةٌ شنيعةٌ وخَصلةٌ ذميمةٌ؛ فإنَّ ﴿كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾ بمعنى ستروا وجودَهُ ونَفَوْه؛ فلا وجودَ لهُ عندهمْ أصلًا فلا ذنبَ يعدلُ هذا الوصفَ[2].

فائدةُ التّصريحِ بلفظِ الكفر:

التَّعريضُ بالأممِ الكافرةِ المبلَّغة إقامةً للحجَّةِ

لعلَّ سائلًا يسألُ ما فائدةُ التّصريحِ بكُفرهِمْ وقدْ تبيّنَ ممّا مضى من أفعالهِمْ ومرتكباتهِمُ السَّيّئةِ ما يغني عن الوصفِ؟ والجوابُ عنْ ذلكَ أنّهُ صرّحَ بكفرهِمْ معَ كونهِ معلومًا منْ أحوالهِمْ تقبيحًا لهمْ، وتعليلًا لاستحقاقِهمُ العذابَ والدعاءَ عليهِمْ هلاكًا وتبعيدًا[3]، وتعريضًا بمن بعدَهم من الأمم، فإنَّ الأممَ الكافرةَ اللّاحقةَ إذا عَرفت مصيرَ السّابقة أُقيمت عليها الحُجَّة، وبَلَغها الإنذارُ.

فائدةُ تَكرارِ أداةِ التّنبيهِ:

الإعلامُ بتأبيدِ هلاكِهِم واستحقاقِهمِ عذابَ الاستئصالِ

كرّرَ النَّظمُ أداةَ التّنبيهِ في قولهِ تعالى: ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ﴾ تأكيدًا لما نالهُم من عذاب، وفيه إعلامٌ بأنّ هلاكَهُم قائمٌ على وجهِ التّأبيدِ[4]، وقد جاءت أداةُ التَّنبيه قبل الدُّعاءِ على ثمود بالطّردِ والإبعادِ منْ رحمةِ اللّهِ؛ لجحودهِمْ باللّهِ، وفي الدّعاءِ عليهمْ بعدَ هلاكهِمْ دلالةٌ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/326.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 11/6546.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/223.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 9/326.

على أنّهمْ مستحقّونَ لعذابِ الاستئصالِ بموجبِ كفرهِمْ وتكذيبهِمْ نبيَّ اللّهِ، وعقرهِمْ ناقةَ اللّهِ[1].

نكتةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمار:

جاءَ لفظُ ﴿ثَمُودَاْ﴾ في فاصلةِ الآيةِ مُظهَرًا لا مُضمَرًا، وحقّه الإضمارُ، زيادةً في بيانِ غضبِ اللّه تعالى على ثمود باعتبارِها قد تمالأت على معصيتِه، واجتمعت على الكفر، وسارعت في عقر النّاقة، فكان ذكر اسم هذه القبيلة المجتمعة على الباطلِ ابتداءً وانتهاءً دليلَ غضبِ اللّه تعالى عليهم، وشديد لعنِهم وطردِهم من رحمته، فضلًا عن بيانِ استحقاقِهم ما نزل بهم منَ العقوبةِ واللَّعنِ.

بيانُ شديدِ غضبِ اللّه تعالى على الأقوام الذين يجتمعون على الكفرِ

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصيحة والصاعقة:

الصّيحةُ من الصّياحِ وهو تَشقيقُ الصَّوتِ، منْ قَولِهِمْ: انْصاحَ الخشبُ، أو الثّوب، إذا انشقَّ، فسُمِعَ منه صَوتٌ، وصَيَّحَ الثّوبُ إذا انشقَّ - كما مَرَّ -، والصّيحةُ في الآيةِ "صيحةٌ عظيمةٌ دونها كلّ صوت صاعقةٍ، وكُلُّ شيءٍ في الأرضِ"[2]؛ وقد قُيّدت بأنّ دونَها صوتَ كلِّ صاعقةٍ، ومعنى ذلكَ أنَّ الصّاعقةَ أقلّ وقعًا منْ جهةِ كونِها للعذابِ من الصّيحةِ، الّتي هي "الصّوتُ الشّديدُ منْ صوتِ الرّعدِ، يسقطُ منهُ قطعةٌ منْ نارٍ"[3]، وجعَلَ الفخرُ الرّازيّ أنّ الصّاعقةَ تصاحبُ الصّيحةَ العظيمةَ ومعها البرقُ الشّديدُ المحرقُ[4] فهي تبعٌ للصّيحةِ؛ فثبتَ أنَّ الصّيحةَ أعظمُ وأبلغُ من الصّاعقةِ، وأنّها تباينها منْ جهةِ الثانيةِ مشتملةً على النّارِ، ثمَّ إنَّ الصّاعقةَ قدْ تكونُ محددةً بموضعٍ معينٍ، بينما تشملُ الصّيحةُ الدّيارَ جميعًا بمنْ فيها.

الصّاعقةُ مشتملةٌ على قطعةٍ من النّارِ والصّيحةُ أشدّ وقعًا وأعظم انتشارًا

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 13/143.
(2) ملا حويش، بيان المعاني: 3/134.
(3) الخليل، العين: (صعق).
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 18/371.

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ٦٩﴾ [هود: 69]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

البقاءُ في هذه الحياةِ للأتقى لا للأقوى

لَمّا انتهتْ قصّةُ ثمودَ وما كانَ منْ أمرِ كفرهِمْ، وإنزالِ الصّيحةِ عليهِمْ أتبعَها ﷺ بقصّةٍ أخرى من القصصِ الأربعِ المذكورةِ في هذهِ السّورةِ، وهيَ قصّةُ قومِ لوطٍ عليه السلام، وهيَ أفظعُ منها وأروعُ، وقدِ ابتدأها بما كانَ منْ شأنِ إبراهيمَ عليه السلام والبشرى الّتي بشّرهُ اللّهُ بها[1]، فمناسبةُ هذه القصَّة للسّابقة، تظهَرُ في أنَّ السّابقة فيها عذابُ ثمود واستئصالُهم، وهذه فيها تبشير إبراهيم عليه السلام بالولدِ وتنمية ذريَّته، ليعلم النّاس أنَّ البقاءَ ليس للأقوى بل للأتقى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلْبُشْرَىٰ﴾: أصلُ البِشْرِ - بالكسر -: الطَّلاقةُ والبشاشة وبَسْط الوجه، قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ١٠١﴾ [الصافات: 101][2]. واستبشر الرَّجُل: إذا وجد ما يُبشِّره من الفرَح. ويُقال للخَبَر السّارِّ: البِشارة والبُشْرَى، والجمع: بُشَر[3]. والبَشير: المُبَشِّر. وأصلُ البَشَرة بالفتح: انتشارٌ واسعٌ على ظاهر الشَّيء: كانتشار جِلد البَدن على ظاهره، وانتشار الشَّعر على الجلد[4]. وعليه فالمقصود بالبُشْرى في الآية: الخبر السّارُّ الّذي تنبسط به بشرة الوجه فيتهلّل وتَبرق أساريرُه[5].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/328.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بشر).
(3) الرّاغب، المفردات: (بشر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بشر).
(5) المراغي، تفسير المراغي: 11/129.

2) ﴿لَبِثَ﴾: أصلُ (لبث): يَدُلُّ على تَمَكُّثٍ، وانتظارٍ، واستبطاءٍ. قِيلَ: اللَّبْثُ الاِسْمُ، واللُّبْثُ - بِالضَّمِّ - المَصْدَرُ[1]. يُقالُ: لَبِثَ بِالمَكانِ: أقام به مُلازِمًا له. وألْبِثْ عن فلانٍ: أي انْتَظِرْهُ حَتّى يُبْدِيَ انْتِظارُكَ إيّاه خَطَأَ رَأْيِه[2]. واسْتَلْبَثَهُ، إذا اسْتَبْطَأَهُ، وهُو استَفْعَلَ من اللَّبْثِ، وهُو الإبطاءُ والتَّأَخُّرُ[3]. والمقصود باللَّبْثِ في الآية: الإبطاء، أي: فما أبطأ في إكرام الضُّيوف.

3) ﴿حَنِيذٍ﴾: أصل (حنذ): هو إنْضاجُ الشَّيْءِ. يُقالُ شِواءٌ حَنِيذٌ، أيْ مُنْضَجٌ؛ وذلك أنْ تُحْمَى الحِجارَةُ وتُوضَعَ عليه حَتَّى يَنْضَجَ. ويُقالُ حَنَذْتُ الفَرَسَ، إذا اسْتَحْضَرْتَهُ شَوْطًا أو شَوْطَيْنِ، ثُمَّ ظاهَرْتَ عليه الجِلالَ حتَّى يَعْرَقَ. وهذا فَرَسٌ مَحْنُوذٌ وحَنِيذٌ[4]. والحَنيذُ المقصود في الآية: اشتواء اللَّحم بالحِجارة المسخَّنَة.

۞ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

الضِّيافةُ من مكارم الأخلاق، وهي خُلُق النَّبيين والصّالحين

يُخبرُ اللّهُ تعالى أنّ الملائكة قد جاءَتْ إبراهيمَ يُبَشِّرونَه هو وزوجَه سارَةَ بإسحاقَ، ويعقوبَ من بَعدِه، قالوا: سلامًا، فقال ردًّا على تحيَّتِهم: سلامٌ، فذهبَ سريعًا، وجاءَهم بِعِجلٍ مَشويٍّ ليأكلوا منه؛ ظَنًّا منه أنَّهم رجال[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو التي صُدِّرَتْ بها الآية:

عطفُ القصَّة على القصَّة لاستكمال المعنى الكليِّ في السُّورة

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ من باب عطفِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (لبث).
(2) ابن عباد، المحيط في اللغة: (لبث).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (لبث).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (حنذ).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/467، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/141، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/332، 333.

القصَّةِ على القصةِ[1]، والمقصودُ عطفُ هذه القصَّة بأكملِها على القصَّة السّابقة، وليس المقصود بالقصَّةِ القصَّةَ بمعنى الأحداث المتسلسلة، بل الجمل والمعاني التي يحتويها مقطع قرآنيٌّ متكاملٌ، وقد جعل بعضُهم الواو استئنافيَّةً[2]، ومن حيث المعنى فهي قريبةٌ من عطفِ القصَّة على القصَّة، إذِ الاستئنافُ هو البَدْء بحدثٍ جديدٍ بينه وبين السّابق نوع ارتباطٍ، وهذا هو المقصودُ بعطفِ القصةِ على القصَّة.

نكتةُ التَّوكيدِ:

تأكيدُ مضمون الجملةِ من مجيءِ الرُّسُلِ

في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ أكّد الجملةَ بالقسم المحذوفِ على تقديرِ واللّهِ أو باللّهِ[3]، ثمّ جاءَ بحرفِ التّحقيقِ (قدْ) للاهتمام[4]، ونكتةُ التّوكيدِ جاءتْ درءًا لما قد يكونُ من المخاطَبِ منْ غفلةٍ أو استبعادٍ في إنكارِ نزولِ الملائكةِ على هيئةِ بشرٍ على الأنبياءِ بالتّبشيرِ؛ فنزّلهُمْ منزلةَ المُنكِرِ لوقوعِ مثلِ ذلكَ.

وقد يكون الحرف (قد) للتوقع؛ فإنَّ السّامعَ لقصص الأنبياءِ يتوقّعُ سماعَ القصّةِ بعد القصّةِ فجاءَ بـ (قد) الّتي تفيدُ التّوقّعَ، واللّام دخلت لتأكيد الخبر[5].

سرُّ اختيارِ لفظِ المجيءِ دون الإتيانِ:

تأكيدُ زيارة الملائكةِ لإبراهيم عليه السلام

عبَّر النَّظمُ بالمجيءِ دون الإتيان في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾، لتأكيد مجيءِ الرُّسُل مجيئًا محسوسًا حقيقيًّا، فإنَّ المجيءَ أعمُّ وأشملُ من الإتيانِ، ويكون في المعاني والمحسوساتِ، وهو أقوى من الإتيان في الحصول، فإنَّ المجيءَ يكون في الذّاتِ[6]، ولذلك كان آكَدَ في الدلالة من الإتيان في هذا السِّياقِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/116.
(2) صافي، الجدول في إعرابِ القرآن: 12/310.
(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 4/161.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/115.
(5) زادة، حاشية على البيضاوي: 4/664.
(6) الراغب، المفردات: (جاء).

سرُّ اختيارِ لفظِ المجيءِ دونَ الإرسالِ:

الإرسالُ كان إلى قوم لوطٍ لا إبراهيم عليه السلام

أُسنِدَ المجيءُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ إلى الرُّسُلِ، ولمۡ يُستعملۡ لفظُ الإرسالِ، فلم يقل: (ولقد أُرسِلت رسلنا بالبشرى إلى إبراهيم)؛ لأنهم لم يكونوا مرسَلين إليه عليه السلام بل إلى قوم لوطٍ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾، وإنما جاؤوه لداعية البُشرى[1].

نكتةُ تأنيثِ الفعلِ:

الإيماءُ إلى لفظِ الملائكةِ

جاءَ الفعلُ ﴿جَآءَتۡ﴾ متصلا بتاء المؤنّثِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ﴾؛ لأنّهُ أرادَ بالرّسلِ الملائكةَ عليهم السلام[2]، ولفظُ الملائكة مؤنَّث، والرُّسُل مذكَّر، فآثر في صياغةِ الفعل المؤنَّث المفهوم معنًى على المذّكر المذكور لفظًا، جمعًا بين اللَّفظين، وبيانًا للمقصودِ بالرُّسُلِ.

فائدةُ التَّعبيرِ بالرُّسُلِ دونَ الملائكةِ:

لفتُ الأنظارِ إلى المعنى الوظيفيِّ للملائكةِ

في التّعبيرِ بـ ﴿رُسُلُنَآ﴾ بدلًا من الملائكةِ معَ أنّهمۡ ملائكةٌ لفتٌ وتنبيهٌ إلى المعنى اللّغويّ؛ فَهُم وسائطُ بينَ الحقِّ سبحانهُ والخلقِ يوصلونَ إليهمۡ آثارَ صنعِهِ ودلائلَ عظمتِهِ[3]، فالتَّسميةُ هنا باعتبارِ الوظيفةِ التي جاء بها الرُّسُل الكرامُ.

دلالةُ إضافةِ لفظِ الرُّسلِ إلى ضميرِ الجمعِ:

عظمةُ الملائكةِ من عظمةِ اللهِ تعالى

أضافَ لفظَ الرّسلِ إلى الضّميرِ الدّالّ على الجمعِ (نا) في قولِه: ﴿رُسُلُنَآ﴾ للدّلالةِ على التّعظيمِ والتّفخيمِ المكتسبِ من (نا) العظمةِ؛ فإنّ عظمةَ الرّسلِ من عظمةِ اللّهِ تعالى، وهم جبرائيلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ[4] عليهم السلام.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/224.
(2) البغوي، معالم التنزيل: 2/456.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 10/133.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 9/329.

مصاحبةُ الملائكةِ للبشرى

معنى الباءِ:

حرف الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ محمولٌ على معنى المصاحبةِ[1]؛ فإنّ مجيئَهم كانَ لأجلِ البشرى مصاحبينَ لها مصاحبةَ الرّسالةِ للمرسلِ بها[2].

استعارةٌ مكنيَّةٌ أصليَّةٌ بغرضِ تشخيصِ المعاني

بلاغة استعمال حرف الباءِ:

في التّعبيرِ بمجيءِ الرّسلِ بالبشرى في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ استعارةٌ حسنةٌ جميلةٌ تتوفّرُ على ملمح بلاغيّ؛ إذْ شبّهت البشرى وهيَ من الأحوالِ المعنويةِ بأمرٍ ماديّ كأنّهُ يُحمَلُ ويُجاءُ بِه، فهي استعارةٌ مكنيَّةٌ أصليَّةٌ، وفيها تصويرُ الملائكةِ قادمينَ صوبَ إبراهيمَ عليه السلام حاملينَ البشرى.

بيانُ البشرى وتبيينُ النَّوايا

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ:

وتقعُ جملةُ: ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ﴾ من السّابقِ موقعَ البيانِ لقولِه (البشرى) فهنا مَظِنَّةُ سؤالِ سائلٍ: فماذا قالوا؛ فإنَّ قولَهمْ ذاكَ هو مبدأُ البشرى، أمّا الجملُ المعترضةُ بينها فهيَ حكايةُ ما كانَ من أحوالِهمْ، وانتهى إليها في تبشيرِهِ بإسحاقَ إلى نهايةِ الآيةِ[3].

جوابُ إبراهيمَ عليه السلام أبلغُ لفظًا وأحسنُ ردًّا

براعةُ الاختلافِ بين نصبِ اللَّفظِ ورفعِه:

انتصبَ ﴿سَلَٰمٗاۖ﴾ في قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ﴾؛ لوقوعِ القولِ عليه، أمّا ارتفاعُ ﴿سَلَٰمٞۖ﴾ فهو حكايةٌ لقولِهمْ، وهو مبتدأ حُذف خبرُه، أوْ خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ تقديرُهُ: سلامٌ عليكم، أو، أمري سلامٌ[4]، وفي رفعِ السّلام بلاغةٌ لا تتحقّقُ في نصبِهِ لتناسي معنى الفعلِ فيهِ؛ فيكونُ دالًّا على الثّباتِ والدّيمومةِ، فيما يدلُّ النّصبُ

(1) وهو من معانيها المشتهرة كقولهم دخل علينا بثياب السفر، يُنظر: ابن الخباز، توجيه اللمع، ص: 232.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/116.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/116.

(4) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/352.

على الحدوثِ وتجديدِ ما لم يكنْ لوجودِ الفعلِ، وفي مخالفةِ النظْم القرآني بينَ السّلامين غرضٌ مهمٌ، وهو أنّهُ ردّ السّلامَ بعبارةٍ أفضلَ منْ عبارتهمْ[1] أخذًا بأدبِ اللهِ تعالى في التّحيةِ، كما في قولهِ تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ﴾ [النساء: 86].

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ ردَّ السّلام واجبٌ، وبدأهُ سنّةٌ؛ فإنَّ التّعبيرَ بالمرفوعِ هو سبيلُ الواجباتِ، والتّعبيرُ بالمنصوبِ سبيلُ المندوباتِ؛ لثباتِ الجملةِ الاسميةِ قبالةَ الجملةِ الفعليةِ[2].

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿سَلَٰمٞۖ﴾:

الـدّلالــةُ على تـمـام الـسَّـلام وكمالِه

في قولهِ تعالى: ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ﴾ أوردَ لفظةَ ﴿سَلَٰمٞۖ﴾ نكرةً؛ لأنّها على معنى الدّعاءِ[3]؛ فجازَ تنكيرُ المبتدأ على تقديرِ: سلامٌ عليكُم، والتّنكيرُ هنا يدلّ على التّمامِ والكمالِ، أي: سلامٌ كاملٌ تامّ عليكم بينما يفيدُ التّعريفُ (السلامُ عليكم) الماهيةَ[4].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

السلامُ والسِّلم مـتـلازِمـان لا ينفكُّ أحدُهما عن الآخرِ

قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٞۖ﴾ على قراءتينِ؛ الأولى: بسينٍ ثمَّ لام فألفٍ فميم، وهيَ قراءةُ الجمهورِ، والثّانيةُ بسينٍ مكسورةٍ معَ حذفِ الألفِ (سِلمٌ)، وهيَ قراءةُ حمزةَ والكسائيّ[5]، فحجّةُ القراءةِ الأولى أنّها ردٌّ على سلامهمْ؛ فالسّلامُ يُرَدُّ بمثله، والحجّةُ لمَنْ حذفَ الألفَ (سِلْم) أنّهُ جعله من المسالمةِ والصّلحِ، أيْ: قالوا نحنُ سِلمٌ[6]؛ لأنّه نَكِرَهُم فأرادوا طمأنتهُ وأنّهم مسالمونَ لا محاربونَ، والمعنيان متكاملان، فكونهم مسلّمينَ لا يتعارض مع كونهم جاؤوا مسالمين، بل هو جمالٌ يعلوه بهاء، فإنَّ من يُسلِّم يحملُ سلمًا، ومن يُخبر بكونه سلمًا، فيلزم عنه أنَّه يُلقي السَّلام.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/116.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/151.
(3) ابن الصائغ، اللمحة في شرح الملحة: 1/298.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 18/372، وابن عادل، اللباب: 10/521.
(5) ابن الجزري، النّشر: 2/290.
(6) ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع، ص: 189.

معنى الفاءِ ودلالتها:

مسارعةُ الخليلِ في إكرامِ الضّيفِ وتعجيلِ القرَى

الفاءُ في قولهِ: ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ دالَّةٌ على التّعقيبِ المفيدِ الإسراعَ في إكرامِ الضّيفِ وتقديمِ ما يليقُ بهِ؛ لظنِّ إبراهيمَ عليه السلام أنّهمْ منَ البشرِ فأسرعَ في قِراهمْ[1] وفي هذا ما فيه من الدلالة على سجايا الكرم وأفعالِ الكرام، وقد أخذ العربُ هذه الخَصْلةَ الحميدةَ عن الخليل إبراهيم عليه السلام؛ فكانوا أكرمَ النّاس، وأفجعهم من البخل مع الضّيوف.

غرضُ النّفي:

انتفاءُ اللُّبثِ مبالغةٌ في تعجيلِ الضِّيافة

في نفي اللُّبثِ ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ معَ الأضيافِ فائدةٌ، وهو الإخبارُ عن صنيعِ إبراهيم عليه السلام في كونه لم يتأخرْ معَ أضيافهِ مؤانسةً وحديثًا وسؤالًا عنْ أحوالهمْ، بلْ بادر بالاشتغالِ بقِراهم وإكرامهم وإزاحةِ حاجتهمْ، ألا ترى أنّ إبراهيم عليه السلام لو لم يفعلْ ذلكَ وسألهم عنْ أحوالهمْ وعلمَ أنّهمْ من الملائكةِ لما اشتغلَ بما ذُكرَ[2].

وفي قولهِ تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ أدخلَ أداةَ النفيِ ﴿فَمَا﴾ على الفعلِ ﴿لَبِثَ﴾، وغرضُ هذا النّفيّ المبالغةُ في الاستعجالِ لإكرامِ ضيفهِ، والمعنى: فما أبطأَ ولا تأخرَ بلْ عجّلَ بأنْ جاءَ بعجلٍ حَنيذٍ[3].

سرُّ التّعبيرِ بمفردةِ: ﴿لَبِثَ﴾:

مسارعةُ إبراهيم بالمبادرةِ دليلُ تأصُّلِ خُلُقِ الكرم

عبّرَ النَّظمُ بالفعلِ ﴿لَبِثَ﴾ مؤثرًا إياهُ على أفعالٍ مرادفةٍ له، فإنّ معنى (ما لبثَ) أي: ما أقامَ[4] حتّى ذهبَ وجاءَ بعجلٍ حنيذٍ؛ لأنّ اللُّبثَ في المكانِ أصلًا يعقبهُ انتقالٌ وتحوّلٌ عنهُ؛ فيصيرُ المعنى ما أبطأ[5] حتّى بادرَ بقِراهُم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/117.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السّنّة: 6/154.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/117.
(4) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/61.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/117.

بلاغةُ استعمالِ ﴿أَن﴾:

الـدّلالـة على المسارعةِ دون إبطاءٍ

في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ﴾ استُعملَت ﴿أَن﴾ معَ الفعلِ لأثرِها في المغزى؛ فإنَّ قولهُ: ﴿أَن جَآءَ﴾ على معنى الفاعليةِ بأن تَنْسَبِكَ ﴿أَن﴾ معَ الفعلِ، فالتّقديرُ حينئذٍ: ما تأخَّرَ مجيئُه بعجلٍ حنيذٍ[1]، فدلّت ﴿أَن﴾ على المسارعةِ، وهو ما يُوحي به النَّصُّ جملةً.

فائدةُ التّعبيرِ بوصفِ ﴿حَنِيذٖ﴾:

شَـيُّ اللَّحم مقدَّمٌ في إكرام الضِّيفانِ

اختارَ إبراهيمُ عليه السلام أنْ يكونَ طعامُ ضيوفهِ عِجْلًا مشويًّا؛ لأنَّ الحَنيذَ معناهُ المشويُّ الّذي يَقطرُ دَسَمًا، وهو على هذهِ الطّريقةِ أسرعُ طبخًا وأعونُ على التّعجيلِ في إحضارِ الطّعامِ للضّيفِ وإكرامِهم[2]. كما أنَّ في الآيةِ كشفًا عن طرائقِ الطَّهي في زمانِهم، وهي دالَّةٌ على أنَّ شَيَّ اللّحمِ هو المقدَّمُ في إكرامِ الضِّيفانِ.

۞ الفروقُ المُعْجَميَّةُ:

اللُّبث والمُكْث:

اللُّبثُ يدلّ على التّأخّرِ والمكثُ على التّوقّفِ والانتظارِ

اللّبثُ في لسانِ العربِ يدلّ على المكثِ والتّأخّرِ والاستبطاءِ[3]، ولَمّا كانَ مِنْ سجايا إبراهيمَ عليه السلام إكرامُ الضّيفِ فإنَّ الحقَّ تبارك وتعالى نفى عنهُ هذا الاستبطاءَ والتّأخّرَ في إكرامِ أضيافهِ "فما لبثَ أنْ جاءَ بعجلٍ حنيذٍ، أيْ: ذهبَ سريعًا فأتاهُمْ بالضّيافةِ"[4]. أمّا المكثُ فهو التّوقّفُ والانتظارُ والثّباتُ عليهِ، ويسمّى الّذي لا يتعجّلُ الأمورَ مَكيثًا[5]؛ فاللُّبث أنسبُ لسياقِ قصّةِ أضيافِ إبراهيمَ فإنّهُ نفى عنهُ ما هو أطولُ وقتًا وهو المكثُ الدّالّ على التّأخّرِ والاستبطاءِ.

---

(1) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/353.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/117.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لبث).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/287.
(5) الرّاغب، المفردات: (مكث)، والأزهري، تهذيب اللغة: (مكث).

المشويُّ الذي ينضجُ على النّارِ والحنيذُ الذي ينضج على الحجار

الحنيذ والمشوي:

الَحنيذُ هو المشويُّ على الحجارةِ المسخّنةِ من "حَنَذْتُ اللَّحْمَ أَحْنِذُهُ حَنْذًا، وهو أن تشويهُ على الحجارةِ حتَّى يَنْضَجَ، واللَّحمُ حنيذٌ ومحنوذٌ"[1]، وذكروا أنَّ طريقةَ الحَنْذِ أنْ يُحفرَ لهُ في الأرضِ، ثمَّ يغطّى حتّى ينضَجَ، وهيَ طريقةُ أهلِ الباديةِ[2]. وهذهِ الطّريقةُ تتوفّرُ على السّرعةِ والمبالغةِ في إنضاجِ اللّحم لا سيّما أنّه قدّمَ لهمْ عِجلًا، ولحمهُ أقسى منْ لحم الضّأنِ؛ فالحنيذُ هو المشويّ بسرعةٍ ومبالغةٍ في الإنضاجِ وهو أنظفُ وألذّ طعمًا من المشويّ بالنّارِ[3] وفيه مزيدُ إكرام للضّيفِ، أمّا المشويُّ فهو الّذي ينضَجُ على النّارِ والحطبِ مطلَقًا.

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة: (حنذ).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (حنذ).
(3) محمد رشد رضا، تفسير المنار: 12/106.

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ٧٠ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾

[هود: 70 - 71]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهما:

الإحجامُ بعد تقديم الطَّعام يحسُنُ تفسيرُه عند الكرام

السابقةُ ما كانَ منْ سجايا إبراهيمَ عليه السلام: من إكرام الضّيفِ؛ إذ قدّمَ إليهمُ العِجلَ الحنيذَ احتفاءً بهمْ، فناسب ذلك ذكْرُ موقفِ إبراهيم عليه السلام من مقابلةِ صنيعه، فلمّا وضعَ الطّعامَ أمامهُمْ لمْ يفعلوا فعلَ الأضيافِ، ويلمّوا بهِ، فها هيَ أيديهمْ لا تمتدُّ إليهِ، وهذا ما رابَ إبراهيمَ فأنكرَ فعلهُمْ، وأضمرَ الخوفَ في قلبهِ إيجاسًا؛ لما رأى منْ أحوالِهمْ[1]؛ فإنّ من شأنهم أنّهم إذا نزلَ بهم ضيفٌ ولم يأكلْ خافوا منهُ وظنّوا أنّه يضمرُ شرًّا، فلمّا كانَ منهم ذلكَ سرّوا عنه وبادروهُ بنفي الخوفِ عنه طمأنةً لهُ، فالمناسبة هي بيان موقف الضيفان بعد موقف إكرام إبراهيم لهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَوۡجَسَ﴾: أصل (وجس): كَلِمَةٌ تَدُلُّ على إحْساسٍ بِشَيءٍ وتَسَمُّعٍ لَهُ. توجَّسْتَ الشيءَ والصوتَ إذا سَمِعْتَهُ وأنت خائفٌ[2]. فالوجْسُ: فَزْعَةٌ في القَلْبِ، أوْجَسَ القَلْبُ فَزَعاً، وفي السَّمْعِ أيضاً؛ وهو الصَّوْتُ الخَفِيُّ[3].

وممّا شَذَّ عَنْ هذا؛ وهو منَ الكلام المُشكِلِ، قَوْلُهم: لا أَفْعَلُهُ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/330.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (وجس).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (وجس).

سَجِيسَ الأَوْجَسِ: أي: لا أفعله الدهْرَ. وما ذُقْتُ عِنْدَهُ أَوْجَسَ: أيْ شَيْئًا منَ الطَّعام[1]. والمقصودُ بالوجْس في الآية: فزعة في القَلْب، أي: أضْمَرَ واسْتَشْعَرَ الخوفَ منهم[2].

2) ﴿فَضَحِكَتْ﴾: أَصْلُ الضَّحِكِ: انبساطُ الوجْهِ وتكشُّر الأسنان منْ سُرورِ النَّفسِ. واستُعير الضَّحِكُ للسُّخرية، فقيل: ضَحِكْتُ منه، ورجلٌ ضُحَكَةٌ: يَضْحَكُ على النّاس، وضُحْكَةٌ: لمن يُضْحَكُ منه[3]. والضَّحْكَة: المرَّة الواحِدَةُ[4]. والضَّحِكُ المقصود منه في الآية: كَيْفِيَّةٌ في الفَم تَتَمَدَّد منها الشَّفَتانِ ورُبَّما أَسْفَرَتا عنِ الأسنانِ، وهي كَيْفِيَّةٌ تَعْرِضُ عند السُّرُورِ والتَّعَجُّبِ منَ الحُسْنِ[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

استحبابُ مُبادرةِ الضَّيفِ بالأكلِ، وبِشارةُ مَن وُلِدَ له ولَدٌ، وتهنئته

لمّا رأى إبراهيمُ أيديَهم لا تمتدُّ إلى الطَّعام الَّذي قُدِّم إليهم؛ نَكِر ذلك منهم ووجده على غير ما يعهد من الضّيوف، فالعادة قد جَرَتْ أنَّ الضَّيف إذا لم يَطعم مما قُدِّم إليه؛ ظُنَّ أنَّه لم يَجِئْ بخيرٍ وأنَّه يحدِّث نفسَه بشرٍّ، فأحسَّ في نفْسِه خوفًا وفزعًا، حين شعر أنَّهم ليسوا بشرًا ورُبَّما كانوا من ملائكة العذاب، فقالت الملائكةُ لَمّا رأت ما بإبراهيمَ من الخَوفِ: لا تَخَفْ؛ إنّا ملائكةُ رَبِّك أُرسِلْنا إلى قوم لُوطٍ لإهلاكِهم، وامرأةُ إبراهيمَ سارَّةُ كانت قائمةً من وراءِ السِّترِ تَسمعُ الكلامَ، فضَحِكَت تعجُّبًا ممّا سَمِعَت، فبَشَّرْناها على ألسِنةِ الملائكةِ بأنَّها ستلِدُ من زوجِها إبراهيمَ ولدًا يُسمَّى إسحاقَ، وسيعيشُ ولَدُها، وسيكونُ لها بعد إسحاقَ حفيدٌ منه، وهو يعقوبُ، عليه السلام[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وجس).
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 11/472.
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ضحك).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ضحك).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/282.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 12/472، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 386، والمراغي، تفسير المراغي: 12/59.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ بالفاء:

في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ﴾ الفاءُ للعطفِ، وقدْ عطفتْ هذهِ الجملةَ على جملةٍ محذوفةٍ مقدَّرة، على معنى: فَقرَّبَ العجلَ الحنيذَ إليهمْ فلم يمدّوا أيديهُمْ؛ فخاطبهُمْ بأنْ يأكلوا منه[1]، فلمّا رأى أنّ أيديهُمْ لمْ تتحرّكْ منْ مكانِها كنايةً عنْ رفضِهمْ ضيافتهُ؛ نَكِرَهمْ.

العطفُ على محذوفٍ والتّقديرُ: فقرَّبه إليهمْ

معنى ﴿فَلَمَّا﴾ وأثرُها في بيانِ المعنى:

﴿فَلَمَّا﴾ اسم شرطٍ دالٌّ على الزَّمن، معَ إفادته تعليقَ الجوابِ على الشّرطِ؛ فإنّه حينَما "رأى إبراهيمُ أنّ أيديَهُم لا تصلُ إلى الطّعام توجّسَ من ذلكَ شرًّا ونَكِرهُم"[2]؛ فقدْ ترتّبَ الجواب ترتّبَ المعلولِ على العلّة؛ فإنّ انتفاءَ امتدادِ أيديهم علّةٌ لنُكرانهم، ومعنى هذا التَّرتُّب أنَّ إبراهيم عليه السلام لم يُنكر امتناعَهم عن تناول الطَّعام لمجرَّد شعورٍ وإحساس، بل لدليلٍ معتادٍ بين النّاس، ففيه أنَّ إنكارَ أمرٍ صادرٍ عن غريبٍ لا يكون إلا بدليل.

سرعةُ البديهةِ في اتّخاذِ الموقفِ المطلوبِ نهجُ العقلاءِ ومسلكُ الحكماء

نوعُ الرُّؤيةِ:

نوعُ ﴿رَءَآ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ بصريَّةٌ، وفيها دلالةٌ على تخلّقه عليه السلام بأخلاقِ الضّيافة؛ فإنّها توجبُ النّظرَ إلى الضّيفِ ليُعلمَ هلْ يأكلُ أو لا؟ ولكنّ الرّؤيةَ يجبُ أنْ تكونَ مقيّدةً لا مطلقةً؛ مقيّدةً بالتلفّتِ والمسارقةِ منْ غيرِ تعيينِ النّظرِ إلى الضّيفِ درءًا لإحراجهِ فيمتنعُ عنْ الأكلِ أوْ يقصّرُ فيه[3] حياءً، فكانَ فعلُ إبراهيمَ عليه السلام على الغايةِ منْ سجايا الضّيافةِ لمّا وجّهَ نظرهُ نحو أيديهمْ.

النّظرُ إلى الضّيفانِ بعد تقديمِ الطَّعام من كمالِ المروءةِ وحسنِ الإكرام

(1) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/398.
(2) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 11/6557.
(3) الآلوسي، المعاني: 6/292.

توجيهُ تخصيصِ الأيدي بالذِّكرِ:

رقَّـــةُ الأدبِ وعظيمُ الحياءِ في التَّعاملِ مع الأضيافِ

في قولهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ﴾ خُصِّصَتْ رؤيتُهُ ﷺ أيديَ أضيافهِ بالذّكرِ، والمتوقّعُ أنْ يكونَ نظرهُ نحو وجوههِمْ كعادةِ منْ يقابلُ ضيفَهُ ويحتفي به؛ وإنّما فعلَ ذلكَ تأدّبًا معهُمْ، وإظهارًا لحسنِ ضيافتهِ كيْ لا يضعهُمْ موضعَ الحرجِ والاستحياءِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بنفي وصولِ الأيدي إلى العجلِ:

اجتماعُ الكناية، وتصويرِ المشهد، وتعليمِ الأدبِ في عبارةٍ واحدةٍ

جاءَ التَّعبيرُ عن عدمِ الأكلِ، بنفي وُصولِ الأيدي إلى العجلِ في قولهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ﴾ بدلَ نفي الأكلِ، والمعنى أنّهمْ لمْ يمدُّوا أيديَهُمْ إلى أكلِهِ؛ فلمْ ينفِ وصولَهُمْ الذي ينشأُ عنْ مدِّ الأيادي؛ فكانَ انتفاءُ وصولِ الأيدي إلى العجلِ الحنيذِ كنايةً عنْ امتناعِهم عن الأكل، والكنايةُ - وإن طالت لفظًا - أبلغُ معنًى، فكنَّى عن معنى عدمِ الأكلِ، وعن أدبِ التَّعامل مع الضِّيفان، مع تصويرِ المشهدِ كاملًا، وهذه المعاني الثَّلاثة وغيرها لمن أراد طلبَ المزيد مستوحاةٌ من هذا التَّعبير بخلافِ قولنا: (فلما رآهم لا يأكلون).

موقعُ ﴿نَكِرَهُمۡ﴾ في الجملةِ:

الإنكارُ النَّفسيُّ سلوكٌ مطلوبٌ في موقعِهِ الأليقِ

جملةُ ﴿نَكِرَهُمۡ﴾ لا محلَّ لها، تقعُ جوابًا للشرط غير الجازم في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ﴾[1]، وهو إنكارٌ منه ﷺ ناشئٌ بموجبِ فعلهم المذكورِ في امتناعِ الأكلِ، وأمّا إنكارهُ المتعلّقُ بأنفسهم فلا تعلّقَ لهُ بالأكلِ، وإنّما لأنّهم يخالفونَ ما هو معهودٌ من أجناسِ الأناسي[2].

(نَكِرَ) و(أنْكَر):

نَـكِـرَ دالٌّ على شدّةِ الإنكارِ مع خوفٍ وتوجُّسٍ

قولهُ تعالى: ﴿نَكِرَهُمۡ﴾ فعلٌ ماضٍ، والنّونُ والكافُ والرّاءِ تدلُّ

---

(1) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/398.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/224.

على خلافِ المعرفةِ الّتي إنْ حصلتْ سكنَ إليها القلبُ[1]، وهناك فرقٌ بين صيغةِ (نَكِرَ) و(أَنْكَرَ) من ثلاثةِ وجوهٍ:

الأول: صيغةُ الفعلِ هذا دالَّةٌ على الإنكارِ الشّديدِ والانفعالِ ممّا رأى منهمْ؛ فإنَّ نَكِرَ أبلغُ منْ أنكرَ[2].

الثّاني: مدلولُ الفعلِ الثّلاثيِّ المجرَّدِ ﴿نَكِرَهُمۡ﴾ انتفاءُ معرفتِه بأضيافِه وما كان منهم فحسبُ، أمّا (أنكرهُمْ) فمعناهُ دالٌّ على أنّهُ وجدهُمْ على صفةِ المنكَرِ[3]، وهو معنًى واردٌ في معاني صيغِ العربيَّةِ كإيجادِ الفعلِ على صفةِ الفاعلِ نحو: أبخلتُهُ أي: وجدتهُ بخيلًا، أوْ على صفةِ المفعولِ نحو: أحمدتُهُ أيْ: ألفيتهُ محمودًا[4]، وهذا المعنى غيرُ مرادٍ في الآيةِ؛ فإنَّ أضيافَ إبراهيمَ بصفتهِمُ الملائكيَّةِ أنأى عن صفةِ المنكرِ فاعلًا أوْ مفعولًا.

الثّالث: في استعمالِ هذا الفعلِ ﴿نَكِرَهُمۡ﴾ ملمحٌ سياقيٌّ فبينَ هذا الفعلِ والفعلِ (أنكرَ) علاقةٌ تصريفيَّةٌ اشتقاقيَّةٌ، إلّا أنَّ الفرقَ في الاستعمالِ أنَّ (أنكرَ) يقربُ من الإنكارِ المَحْضِ، أمّا الفعلُ المجردُ (نَكِرَ) فمستعملٌ فيما إذا شابَ الإنكارَ خوفٌ وتوجُّسٌ[5] وهو الكائنُ في سياقِ الآيةِ.

بلاغةُ عطفِ الإيجاسِ على النَّكارةِ:

حبسُ الإيجاسِ في النفسِ بعد النَّكارةِ أدبٌ جمٌّ وذوقٌ رفيع

لَمّا كانَ منْ معنى الإنكارِ كرهُهُم وارتيابُهُ منْ أنَّ أيديَهُمْ لا تمتدّ إلى طعامِه؛ عطفَ عليهِ ما يؤكّدهُ ويقوّيهُ وهو قولهُ تعالى: ﴿وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ﴾، أيْ: شعرَ أنَّ في نفسهِ شيئًا من الخوفِ، وخشيَ منْ أنَ يُضمروا لهُ شرًّا بأن حسبهُمْ قُطّاعًا[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نكر).
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 9/330، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد: 3/492.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 2/483.
(4) أبو حيّان، ارتشاف الضرب: 1/173.
(5) الشهري، الشاهد الشعري في تفسير القرآن الكريم، ص: 120.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/118.

وفي عطفِ جملةِ الإيجاسِ وهو الخطورُ القلبيُّ على جملةِ الإنكارِ فائدةٌ جليلةٌ وحكمةٌ بليغةٌ؛ فإنّه لا يُستحبُّ ممّنْ كَرِهَ منْ ضيفه شيئًا أنْ يُظهرهُ لهُ، بلْ يوجِسهُ في نفسهِ، ويُخفيهِ في صدرهِ؛ حتى لا يُشعرهم بشيء؛ إكرامًا للضّيفِ، وإنّما عرفوا دخائلهُ عليه السلام؛ لأنّهمْ ليسوا من البشرِ[1].

معنى الحرف (من):

الملائكةُ مبتدأُ خوفِ إبراهيمَ عليه السلام

معنى (من) في قولِه تعالى: ﴿وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ﴾ ابتداء الغايةِ[2]، ومدخولِها (هم) كنايةٌ عن أضيافهِ؛ فإنّ الخيفةَ صدرت عنه عليه السلام بسببِ الملائكةِ، وعليه فالإيجاس بدأ سببُه من جهتهم بوصْفهم سببَ الإيجاس.

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ:

قصرُ الخوفِ على أن يكونَ من جهةِ الملائكةِ لبيانِ شدّته

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿مِنۡهُمۡ﴾ على المفعولِ به (خِيفة)، وهو في الأصلِ صفةٌ لـ﴿خِيفَةٗۚ﴾[3]، لتخصيصِ الخوفِ في كونه من جهتهم على وجهِ الخصوصِ للمبالغةِ، ولأنّه أرادَ أن يخبرَ أنّه عليه السلام قد أوجسَ منهم شيئًا وهو الخيفةُ، فتقديمُ الجارِّ فيه ترقّبُ النّفسِ ليتمكّنَ عندَ ذكرهِ أفضلَ تمكّنٍ، ولو قيل: أوجسَ خيفةً منهم[4]؛ لاحتملَ المعنى أن تكونَ الخيفةُ من جهتهِم، ومن جهةِ غيرِهِم، والمراد أن يكونَ المعنى مختصًّا بخوفِ إبراهيمَ منهم.

نكتةُ التّعبيرِ بقولِه: ﴿خِيفَةٗۚ﴾ مادةً وصيغةً:

صيغةُ (خيفة) أشدُّ مبالغةً من الخوفِ

لفظُ ﴿خِيفَةٗۚ﴾ مشتقّ من الخوفِ، وهو بمعناهُ، وإنّما جاءَ بها على وزنِ (فِعْلَة) الدّالةِ على الهيئةِ والحالةِ الّتي يكونُ عليها الإنسانُ من الخوفِ، وهي تمييزٌ محوَّلٌ من المفعولِ[5]، واختيارُها بالذّكرِ منْ بابِ

---

(1) الطريفي، التفسير والبيان لأحكام القرآن: 3/1609.
(2) وهو الأصل في معانيها، المبرد، المقتضب: 1/44.
(3) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/398.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/225.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3730.

المبالغةِ؛ فإنّهُ تفرَّسَ بهمْ معَ جهالتهِ لهمْ، وانتفاءِ معرفتهِ بهم[1]؛ فصيّرهُ على حالةٍ معيَّنةٍ من الخوفِ، رسمها التّعبيرُ الحكيمُ بصيغةِ ﴿خِيفَةً﴾ وليسَ خوفًا كما عُهِدَ في غيرِها من الآياتِ.

عِظَمُ الخيفةِ دليلٌ على توقُّعِ الشَّرِّ

فائدةُ تنكيرِ: ﴿خِيفَةً﴾:

لتنكيرِ ﴿خِيفَةً﴾ فائدةٌ في التّعبيرِ الحكيم، وهي دلالتُها على التّعظيم بموجبِ ما رأى من أحوالِهم وما شاهدَ من جَلالهِم[2]، في انتفاءِ امتدادِ أيديهم؛ فإنّها من أماراتِ العداوةِ وعلاماتِ الشّرّ.

يحسُن في ميدانِ التَّحدِّي من الإخفاءِ ما لا يحسُن في سواه

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ:

جاءَ تقييدُ الخيفةِ بالنفسِ في قصةِ موسى عليه السلام فقال تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةً﴾ [طه: 67]، وليس الأمر كذلك في قصّةِ إبراهيمَ عليه السلام حيث قال: ﴿وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةً﴾؛ فيُسألُ عنْ سرّ ذلكَ؟

والجوابُ: أنَّ موسى عليه السلام عندَما أوجسَ خيفةً أخفاها في نفسِهِ؛ فإنّهُ في ميدانِ المواجهةِ معَ أعدائهِ منْ فرعونَ وسَحَرَتهِ؛ فليسَ حَريًّا بهِ إظهارُ خوفهِ فيضعفُ وهو في موقفِ تَحَدٍّ وإعجازٍ، فلمّا أضمرَ خيفتَهُ، ولمْ تبدُ على وجههِ كانَ ذلكَ مُعينًا على انتصارهِ على عدوّهِ.

أمّا إبراهيمُ عليه السلام فإنّهُ حاولَ إضمارَ خوفهِ لكنّهُ ظهرَ عليهِ؛ فهو ليسَ في ميدانِ التّحدّي لتقومَ الملائكةُ بتطمينهِ، وفي تقديم منهمْ تخصيصُ الخوفِ من الملائكةِ فجاءَ الأمانُ منهم[3].

الاستئنافُ البيانيُّ غذاءُ العقلِ لتقديرِ المحذوفِ

علّةُ الفصلِ:

جاءَ فصلُ جملةِ ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنّهُ جعلَها كالجوابِ فإنّه لَمّا أوجسَ منهم خيفةً رأوا ذلكَ على وجههِ[4]؛ ليكونَ هذا الظّهورُ

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/292.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 9/330.

(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/65.

(4) الفراء، معاني القرآن: 2/22.

بمنزلةِ أن قالَ لهم: إنّي خفتُ منكُم، فكانتْ إجابتهُم تطمينَهُ؛ ففصلَ على الطّريقةِ الّتي تُحكى بها المحاوراتُ[1]، فهي استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنّها جوابٌ لكلامٍ مقدَّرٍ محذوفٍ تدلُّ عليهِ جملةُ الإيجاسِ وهي قولهُ: ﴿وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ﴾ على تقديرِ أنّهُ أخبرهُمْ بما يشعرُ بِهِ منْ خوفٍ ووجلٍ[2].

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ:

الإعلامُ بالخفيِّ إكـرامٌ للتَّقيِّ وإجلالٌ للنَّقيِّ

الجملةُ في قولهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾ استئنافٌ بيانيّ ناشئٌ عنْ سؤالٍ تقديرهُ: فماذا منْ شأنِكمْ، أوْ ما الّذي جاءَ بكُم؟ فكاشَفوهُ بأنّهمْ من الملائكةِ، وأنّهمْ مرسلونَ لخَطْبٍ جليلٍ؛ فهذه هي علّةُ مجيئِهمْ، وإعلامُهمْ إبراهيمَ منْ بابِ إكرامهِ[3] عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ.

نكتةُ التّعبيرِ بالفعلِ المبنيّ للمفعول:

الإرسالُ في شأنِ العذابِ يحسُن معهُ عدم التَّصريح بلفظِ الجلالةِ

أوردَ النَّظمُ فعلَ الإرسالِ ﴿أُرۡسِلۡنَآ﴾ مَبنيًّا للمفعولِ للعلم بهِ من المخاطَبِ وهو إبراهيمُ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ؛ ولأنّه "ممّن لا يُردّ أمرهُ"[4] وهو الحقُّ سبحانهُ، ولأنَّ الإرسالَ كان بشأنِ العذابِ، فَحَسُنَ بناءُ الفعل للمفعول.

فائدةُ حذفِ مُتعلّقِ فعلِ الإرسالِ:

تهويلُ العذابِ وتفخيمُ شأنه

يقتضي قولُهُ تعالى: ﴿أُرۡسِلۡنَآ﴾ وجودَ متعلِّقٍ تقديرُهُ: أُرسِلنا بالعذابِ إلى قومِ لوطٍ، لكنّهُ حُذِفَ باعتبارِ العلم به لدى المخاطَبِ - وهو إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ -، ولتهويلِ شأنِه، وتفخيمِ أمرِه؛ فإنَّ للحذفِ شأنًا في بيانِ المعاني لا يكون للذِّكرِ.

معنى إضافةِ قومٍ إلى لوطٍ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ:

الأقوامُ المفرَّقون والأنسابُ المشتتةُ يجمعُهم اسمُ نبيٍّ

الإضافةُ في قولهِ تعالى: ﴿قَوۡمِ لُوطٖ﴾ دالَّةٌ على التّعريفِ؛ فقدْ عبّرَ عنْ هؤلاءِ الأقوامِ الموعَدينَ بالعذابِ بقومِ لوطٍ؛ فأضافَ القومَ إلى

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/118

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/118.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/118.

(4) البقاعي، نظم الدّرر: 9/330.

الاسم العلم وهو نبيُّ اللّهِ لوطٌ ﷺ؛ لأنّهُ لَمّا لمْ يكنْ لأولئكَ الأقوام اسمٌ يجمعهُمْ أوْ نسبٌ ينتسبونَ إليهِ إذ كانوا أخلاطًا وفصائلَ بحسبِ قراهُمْ[1] - أضافهَم إلى لفظةِ لوطٍ تعريفًا وتمييزًا، وهذا شأنُ من يمارس هذه الفاحشة، فمحالٌ أن يرضى بها قومٌ أصيلون، ينتسبون إلى نسبٍ شريفٍ، أو عِرْقٍ نبيلٍ، بل هم شتاتٌ ممزَّعون من قبائلَ متعددةٍ، رَمَتْ بهم أصلابُ آبائهم في ضِياعِ الضَّياع.

معنى الواوِ ونوعها:

خدمةُ الضُّيوفِ بالحِشْمةِ ممّا لا تُنكره محاسنُ الأخلاق

الواوُ في قولهِ تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ﴾ للحالِ والجملةُ حاليَّةٌ[2]، أي: في تلكَ الحالِ الّتي عليها امرأتهُ؛ فإنّ (سارّة) زوجهُ كانتْ حاضرةً تقريهم وتقدّمُ الطّعامَ إليهم؛ فعادتهُم كعادةِ العربِ إذ ذاكَ أن تقومَ ربّةُ المنزلِ على خدمةِ أضيافِ البيتِ[3]؛ فهو عندهُم من مكارمِ الأخلاقِ وسجايا الكرم.

نكتةُ التَّعبيرِ بامرأةٍ دونَ زوجةٍ:

وامرأتـهُ سـارّة كـاملـةُ المـروءةِ قائمةٌ

في قولهِ تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ﴾ استُعملَت مفردةُ (امرأة) دونَ (زوجة) أوْ نحوِها من المترادفاتِ؛ لما يعطيه هذا اللفظُ منْ معنى الكمالِ؛ فإذا مُدِحَتْ إحداهُنَّ بصفاتِ الكمالِ؛ قيلَ لها: امرأةٌ[4]، وهيَ هنا سارّة زوجُ إبراهيمَ الّتي وُصفتْ بأنّها كاملةُ المروءةِ[5] كِنايةً عن مدحِها، ولم يقل: زوجه باعتبارِ أنَّها لم تُنجب منه بعد.

سرّ التَّعبيرِ بالقيام:

الاســتـعـداد والمبادرةُ لخدمةِ الضِّيفانِ مكرُمةٌ ونُبلٌ

التّعبيرُ بقولهِ تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ﴾ فيهِ دلالةٌ على الحضورِ لأجلِ خدمتهِمْ، وهذا دأبُ النّساءِ في ذلكَ العصرِ، فلا يحتجبنَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/118.
(2) العكبري، التبيان: 2/706، وفي تعيين صاحب الحال خلاف لكنه ليس ذا أهمية فيما نحن بصدده.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/118.
(4) الكبيسي، الكلمة وأخواتها في القرآن الكريم: 1/434.
(5) البقاعي، نظم الدّرر: 9/330.

لا سيّما العجائزُ؛ فقدْ كانتْ قائمةً مستعدَّةً لتقديم الخدمةِ، فهي مستعدّة في أيِّ وقتٍ للمسارعةِ بإحضارِ المطلوبِ، لا تلوي على شيءٍ.

دلالةُ ذكرِ الضَّحكِ:

التَّعجُّبُ من خوفِ إبراهيمَ في مقابلِ عدم ذلك من النمروذ

لَمّا كانَ منْ شأنِ إبراهيمَ الخوفُ بإظهارِ الإنكارِ وإضمارِ الإيجاس، وكانَ منْ شأنِ الملائكةِ تطمينُهُ بقولهِمْ: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ﴾ كانَ ذلكَ أدعى إلى أن تضحكَ امرأتُه تعجّبًا منْ حالهِ؛ فإنّهُ لمْ يخَفْ ولمْ يرتعدْ من النمروذِ الجبّارِ حينَ قذفهُ في النّارِ، فكيفَ يخافُ من أضيافهِ في حشمهِ وخدمهِ[1]؟! أو أنَّها ضحكتْ من زوالِ الخيفةِ، وهو الأظهرُ[2].

معنى الفاءِ:

البُشرى مكافأةُ الطَّمأنينة وزوال الخيفة

الفاء في قولهِ تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا﴾ دالةٌ على السّببيةِ؛ فلمّا ضحكت بسببِ زوالِ الخيفة، بُشِرت بالولدِ، فهي كالمكافأةِ لها، أو أن تكون تعقيبيَّة، أي: بمجرَّد ما أن ضحكت بُشِّرت.

وجهُ تخصيصِ زوجِ إبراهيمَ عليه السلام بالبُشرى:

المرأةُ أعجلُ فرحًا بالولدِ وخُصّت بالبشارةِ لعدمه مطلقًا

في قولهِ تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا﴾ جعلَ الحقُّ سبحانهُ البشارةَ مخصَّصةً بـ (سارة) زوجِ إبراهيمَ عليه السلام؛ لأنَّ المرأةَ أعجلُ بالفرحِ بالمولودِ، وكانَ إبراهيمُ قدْ تلقّى أولى البُشريَيْن، وأُتبِعَ بالأمنِ والتّطمين. وخصّتْ - من جهةٍ ثانيةٍ - بالبشارةِ؛ إذْ لمْ يكنْ لها ولدٌ، وكانَ لإبراهيمَ ولدٌ وهو إسماعيلُ[3].

معنى الباءِ:

بشارةٌ عن قربِ المبشّرِ بهِ من زوجِ إبراهيمَ

والباءُ في قولهِ تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ﴾ دالَّةٌ على الإلصاقِ والقربِ[4]، وفيها معنى القربِ بأنَّها ستَلِدهُ؛ فالمرأةُ ألصقُ الناسِ بوليدِها وأقربُ منه.

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 2/161.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 6/115.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/182، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/225.
(4) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/66.

براعةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿وَمِن وَرَآءِ﴾:

الإخبارُ بغيبِ المستقبَلِ حتّى يريا ولدَ الولدِ

وقولُهُ تعالى: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ عبَّرَ عن هِبَتِهِ تعالى لهم بيعقوبَ بعدَ إسحاقَ بلفظِ ﴿وَرَآءِ﴾، ولمْ يقلْ: ويعقوبَ، أوْ ولدِهِ يعقوبَ، وفائدةُ ذلكَ التّطاولُ في الزّمنِ والتمادي فيهِ؛ فإنَّ المعنى أنّه سيعيشُ إسحاقُ ثمَّ يأتي بعدهُ يعقوبُ بزمنٍ ليسَ قصيرًا فيكونُ "حفيدًا لها من ابنِها إسحاقَ، وفي هذهِ الآيةِ بشارةٌ أخرى بطولِ عمرِهما حتّى يريا ولدهُما يكبرُ ويتزوّجُ ويأتيهُ ولدٌ"[(1)].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الوصول والبلوغ:

الوصولُ الانتهاءُ إلى المطلوبِ والبلوغُ الوصولُ لأعلى المطلوبِ

الوصولُ من (وصلَ) والواوُ والصّادُ واللام "يدلُّ على ضمِّ شيءٍ إلى شيءٍ حتَّى يعلقهُ، ووصلتهُ بهِ وصلًا"[(2)]، ومعناهُ أيضًا أن يتّحدَ شيءٌ بشيءٍ آخرَ[(3)]، وفعلُ الوصولِ يستعملُ في الأعيانِ وفي المعاني، وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ﴾ كِنايةٌ عن انتفاءِ الأكلِ منهم[(4)]، وأنّهمْ لمْ يبادروا أصلًا إلى ما قَدَّمَ لهمْ عليه السلام منْ طعامٍ.

أمّا البلوغُ فهو الوصولُ وأنْ تشارفَ عليهِ[(5)]؛ فالفرقُ بينَ الوصولِ والبلوغِ أنَّ الأوّلَ فيهِ معنى الاتّحادِ والتّلبُّسِ، أمّا الثّاني فإنَّ المشارفةَ مُؤْذِنةٌ بالوصولِ فحسب، والوقوفُ عندَ الحدِّ لا يتجاوزهُ، فالوصولُ أكثرُ عمقًا منْ هذا الجانبِ، ومَقْصِدُ النَّظْمِ العزيزِ أنْ يصفَ امتناعَهمْ عن الأكلِ بأبلغِ صورةٍ، فعبّرَ بالفعلِ الأكثرِ تلبُّسًا وهو الوصولُ.

القيام والوقوف:

الوقوفُ مُكْثٌ حسّيٌّ والقيامُ يتجاوزه إلى المعنويِّ

الوقوفُ من الواوِ والقافِ والفاءِ، والأصلُ فيهِ الدلالةُ على المكثِ

(1) ملا حويش، بيان المعاني: 3/137.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وصل).
(3) الراغب، المفردات: (وصل).
(4) الهروي، كتاب الغريبين في القرآن والحديث: 1/2006.
(5) الجوهري، الصحاح: (بلغ).

في شيءٍ والإمساكِ عنهُ، وموقفُ الإنسانِ ما يقفُ فيه[1]، وغالبُ معاني الوقفِ حسّيَّةٌ عينيَّةٌ، أمّا القيامُ فهو منْ (قامَ يقومُ)، ويكونُ بمعنى الوقوفِ، ويجاوزهُ إلى الدّلالاتِ المعنويةِ كقولهِمْ قامَ بأمرِ كذا[2]، أي اعتنى بهِ؛ ولذلكَ جعلهُ ابنُ فارسٍ على هذينِ المعنيينِ الكليينِ: الانتصابِ والعزيمةِ[3]، فيدلّ الانتصابُ على الحالةِ الحسّيةِ، وتدلُّ العزيمةُ على الحالةِ المعنويةِ، وهذا المعنى ألصقُ بحالةِ امرأةِ إبراهيمَ ﷺ في قولهِ تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ﴾؛ فإنَّ قيامَها لمْ يكنْ قيامًا حسّيًّا؛ لأنّهُ بمعنى سماعِها محاورةَ إبراهيمَ معَ أضيافهِ الملائكةِ، أوْ بمعنى الصّلاةِ، أوْ قيامها بخدمةِ القومِ[4]، وهذهِ المعاني جميعًا ليستْ بمعنى القيامِ المرادفِ للوقوفِ بمعناهُ المحْضِ، وفي ذلكَ تتبينُ دقّةُ استعمالِ القيامِ دونَ غيرهِ من المفرداتِ القريبةِ من معناهُ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقف).
(2) الجوهري، الصحاح: (قوم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(4) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/188.

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: 72 - 73]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهُما:

بيانُ الموقفِ العَجيبِ منَ البِشارةِ العَجيبَةِ

لمّا بشَّرتِ الملائكةُ سارَّةَ امرأةَ إبراهيمَ عليه السلام بإنجابِ إسحاقَ، ومن ورائه يعقوبَ عليهما السلام ناسبَ ذلك بيانُ موقفِها من هذه البِشارةِ الخارقةِ للسُّنَّةِ الإلهيَّةِ؛ فالمناسبةُ بين الآيتين: بيانُ الموقفِ العَجيبِ من البِشارةِ العَجيبة، تَسْجيلًا للمنَّةِ الإلهيَّةِ على العائلةِ الإبراهيميَّة، وأنَّ ميلادَ العائِلَةِ بأكمَلِها كان معجزةً خارقةً للسُّنَّةِ الإلهيَّة، فحَريٌّ بالمنتسبين لها الشُّكرُ لا الكُفرُ، والاتِّباعُ لا الابتِداعُ، والمتابَعةُ لا المعانَدَةُ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾: الويلُ: حُلولُ الشَّرِّ، والويلةُ: الفَضيحةُ والبَليَّةُ، وإذا قال: وا ويلتاه، فإنَّما معناهُ: وا فَضيحَتاه، وتقول: ويَّلْتُ فلانًا؛ إذا أكثرْتَ له من ذِكْرِ الويلِ، وهما يَتَوايَلانِ، وتقول: ويلًا له وائلًا، كقولك: شُغْلٌ شاغلٌ، وشِعْرٌ شاعرٌ من غير اشتِقاقِ فِعلٍ، وتقول: ولْوَلَتِ المرأةُ؛ إذا قالت: وا ويلَها؛ لأنَّ ذلك يَتَحوَّلُ إلى حكايةِ الصَّوْتِ[1]، وأصلُ (الويل) في اللُّغَة: الهَلاكُ والعَذابُ، و"في النُّدْبَةِ: ويْلاهُ، وويَّلَهُ، وويَّلَ لهُ: أكْثَرَ لهُ من ذِكْرِ الويْلِ"[2].

وعَن أبي طالبِ النَّحويِّ: أنَّ (ويْلَهُ) كانَ أصْلُها (ويْ) وُصِلَت بـ (لَهُ)، ومعنى: ويْ: حُزْنٌ، أُخْرِجَ مُخْرَجَ النُّدْبَةِ[3].

(1) الخليل، العين: (ويل).
(2) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (ويل).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (ويل).

و"يا ويْلَتا معْناهُ: يا ويْلَتي، فقَلَبَ الياءَ ألفًا، فوكذلكَ يا أبَتا، معناهُ: يا أبَتِي"[1].

2) ﴿بَعْلِي﴾: البَعْلُ: الزَّوجُ، يقال: بَعَلَ يَبْعَلُ بَعْلًا وبُعُولةً، فهو بَعْلٌ مستبعلٌ، وامرأةٌ مُسْتَبْعَلٌ؛ إذا كانت تحظَى عند زوجِها، والرَّجل يتعرَّسُ لامرأتِه يطلبُ الحُظْوةَ عندَها: والمرأةُ تتبعَّلُ لزوجِها؛ إذا كانت مطيعةً لَهُ، والبَعْلُ: أرضٌ مرتفعةٌ لا يُصيبُها مطرٌ إلّا مرَّةً في السَّنةِ[2]، و"أصلهُ من القيام بالأمرِ، ومن ثمَّ قيلَ للنَّخلةِ الَّتي تَسْتغني بماءِ الماءِ عن سَقي العيونِ: بعلٌ، وقدِ استَبْعَلَ النَّخلُ: صار بَعْلًا، وهوفي القرآنِ على وجهَينِ:

أحدُهما: الزَّوجُ، قال: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾، والزَّوجةُ: بَعْلَةٌ، ولا يُقال: هو بعلُها حتَّى يَدْخُلَ بها، وهو زوجُها على كلِّ حالٍ، وكذلك القولُ فيها، والشّاهدُ قولُهم: باعَلَها؛ أي: جامعَها، وفي الحديثِ: (أيّامُ أكْلٍ وشرْبٍ وبعالٍ)؛ أي: جِماعٍ. والآخرُ: بمعنى الرَّبِّ، قال: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾؛ أي: رَبًّا غيرَ اللّه"[3]. "سُمِّي باسمِهِ أي: البعل كلُّ مستعلٍ على غيرِهِ، فسمَّى العَرَبُ معبودَهم الَّذين يتقرَّبونَ بهِ إلى اللّه بَعْلًا لاعتقادِهم ذلك فيه"[4].

3) ﴿شَيْخًا﴾: "يقالُ لمن طعنَ في السِّنِّ: الشَّيْخُ، وقد يُعبَّرُ بهِ فيما بيننا عمَّن يَكثرُ علمُهُ، لما كان من شَأْنِ الشَّيْخِ أن تَكْثُرَ تجارِبُهُ ومعارِفُه، ويقال: شَيْخٌ بَيِّنُ الشَّيْخُوخَةِ، والشَّيَخِ، والتَّشْييخِ، قال اللّه تعالى: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: 72]، ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: 23]"[5].

4) ﴿عَجِيبٌ﴾: "العَجَبُ والتَّعَجُّبُ: حالةٌ تعرضُ للإنسانِ عند الجَهْلِ بسبَبِ الشَّيء؛ ولهذا قيلَ: لا يصِحُّ على اللّه التَّعَجُّبُ؛ إذ هو ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ لا تخفى عليه خافيةٌ، يقال: عَجِبْتُ عَجَبًا، ويقال للشَّيء الذي يُتَعَجَّبُ منه: عَجَبٌ، ولِما لم يُعْهَدْ مثلُهُ: عَجِيبٌ"[6]، و"العُجْبُ والعَجَبُ: إنكارُ ما يَرِدُ عَلَيْكَ لقلَّةِ اعْتِيادِهِ"[7]، "والعَجَبُ من اللّه: الرِّضا"[8].

5) ﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾: البِرْكَةُ: ما وليَ الأرضَ من جلدِ البطنِ وما يليهِ من الصَّدرِ من كلِّ

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (ويل).
(2) الخليل، العين: (بعل).
(3) العسكريّ، الوجوه والنظائر: (البعل).
(4) الراغب، المفردات: (بعل).
(5) الراغب، المفردات: (شيخ).
(6) الراغب، المفردات: (عجب).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (عجب).
(8) الفِيروزاباديّ، القاموس المحيط: (عجب).

دابَّةٍ، اشتُقَّ من مَبْرَكِ البعيرِ؛ لأنَّه يُبرَكُ عليه، والبِرْكةُ والبِرْكُ: شِبهُ حَوْضٍ يُحفَرُ في الأرضِ، ولا يُجعَلُ له أعضادٌ فوقَ صعيدِ الأرضِ، والبَرَكةُ: الزِّيادةُ والنَّماءُ، والتَّبْريكُ: الدُّعاءُ بالبَرَكةِ، والمباركةُ: مصدرُ بُورِكَ فيه، وتبارَكَ اللّه: تمجيدٌ وتجليلٌ[1].

فأصلُ البَرْكِ صدْرُ البَعيرِ، وإن استُعْمِلَ في غيرِه، ويقالُ لهُ: بِرْكةٌ، وبَرَكَ البعيرُ: ألقى بَرْكَهُ، واعتُبِرَ منهُ معنى اللُّزوم، فقيل: ابْتَرَكُوا في الحَرْبِ، أي: ثَبُتوا، ولازموا مَوضِعَ الحَرْبِ، وبَراكاءُ الحرْبِ، وبَرُوكاؤُها للمكانِ الَّذي يلزمُهُ الأبطالُ، وابْتَرَكَتِ الدّابَّةُ: وقفَتْ وقوفًا كالبُروكِ، وسُمِّي مَحْبِسُ الماءِ: بِرْكَةً، والبَرَكَةُ: ثُبوتُ الخَيرِ الإلهيِّ في الشَّيءِ[2].

فمعنى البركةِ: ثبوتُ الخيرِ الإلهيِّ في الشَّيءِ، وقولهُ ﷻ: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ﴾ [الأنبياء: 50] تنبيهٌ على ما يَفِيضُ من الحياةِ الإلهيَّةِ، ولمّا كان الخيرُ الإلهيُّ يَصْدُرُ من حيثُ لا يُحَسُّ، وعلى وجهٍ لا يُحْصى، ولا يُحْصَرُ، قيل لكلِّ ما يُشاهَدُ منهُ زيادةٌ غيرُ محسوسةٍ: هو مُبارَكٌ، وفيه بَركةٌ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليّ:

عنايةُ اللهِ بأصفيائِهِ تامَّةٌ ورحمتُه بأوليائه كاملةٌ

ذكرتِ الآيةُ موقفَ سارَّةَ امرأةِ إبراهيمَ عليه السلام عند سماعِ بُشرى أن تُرزقَ الولدَ في هذه السِّنِّ، بإبداءِ تعجُّبِها بقولِها: يا ويلتا، وقد أفصحَتِ الآيةُ عن سببِ العَجَبِ، وهو وجودُ مانعَينِ من الحَمْلِ؛ أحدُهما: كونُها عجوزًا، والآخرُ: كونُ زوجِها شيخًا. ومثلُ هذه الحالةِ لا يكونُ معها إنجابٌ.

فكان ردُّ الملائكةِ: ﴿أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾، فإنَّ أمرَهُ لا عجبَ

(1) الخليل، العين: (برك).

(2) الراغب، المفردات: (برك).

(3) الفِيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: 2/208.

فيهِ، لنفوذِ مشيئتهِ التّامَّةِ في كلِّ شيءٍ، فلا يُستغرَبُ على قدرتهِ شيءٌ، وخصوصًا فيما يُدَبِّرُهُ، ويمضيهِ لأهلِ هذا البيت المبارك، ثم ذكرَتِ الملائكةُ دليلَ عنايةِ اللّه لهذا البيت ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾، أي: لا تزالُ رحمتُهُ وإحسانُهُ وبركاتُهُ، وهي: الزِّيادةُ من خيرهِ وإحسانه، وحلولُ الخيرِ الإلهيِّ على العبدِ ﴿عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ أي: حميدُ الصِّفات، مجيدٌ، والمجدُ: هو عظمةُ الصِّفاتِ وسعتُها، فله صفاتُ الكمالِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ الفَصْلِ:

الاستئنافُ البيانيُّ من شأنِهِ إشراكُ المتلقِّي في الحوارِ القرآنيِّ لفهمِ المعنى

وقعتْ جملةُ ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ منَ الكلامِ السّابقِ موقعَ الاستئنافِ البيانيِّ؛ إذ الكلامُ السّابقُ من شأنِهِ أنْ يُثيرَ في النَّفسِ المخاطَبةِ سؤالًا، مضمونُهُ: وماذا كان ردُّ فِعلِها إزاءَ هذه البِشارةِ العظيمةِ والعَجيبةِ؟

فتأتي جملةُ ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ جوابًا لهذا السُّؤالِ المقدَّرِ في الذِّهن، وهكذا هي بلاغةُ الذِّكرِ الحكيم: تَمنح الذِّهْنَ المتلقِّي فرصةَ المشاركةِ الفاعلةِ في التَّواصلِ مع النَّصِّ، بحيث يكون السِّياقُ كالحوارِ الَّذي يَنهضُ فيهِ الذِّكرُ الحكيمُ بدورِ طَرفٍ، وينهض الذِّهنُ المتلقِّي فيهِ بدورِ الطَّرفِ الآخرِ، فتَظَلُّ لُغةُ القرآنِ الكريم حيَّةً متفاعِلةً متناغيةً مع المتلقِّي والمستمع في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

غرضُ النِّداءِ:

بيانُ شدَّةِ الأخبارِ غيرِ المتوقَّعةِ على النُّفوس، يُذهبُ الإنكارَ عليها من النُّفوس

لم تقصدِ امرأةُ الخليلِ عليه السلام بقولها: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ "الدُّعاءَ على نفسِها بالويل؛ ولكنَّها كلمةٌ تَخِفُّ على أفواهِ النِّساء؛ إذا طرأ عليهنَّ ما يَعجَبْنَ منهُ، وهي قد عجِبَتْ من ولادَتِها، وهي عجوزٌ وكونُ بعلِها شيخًا، لخروجهِ عن العادةِ"[2].

(1) السعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 386.

(2) الماورديّ، النكت والعيون: 2/486.

و"معنى ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ في هذا الموضع العبارةُ عمّا دَهَم النَّفسَ من العَجَب في وِلادة عجوز، وأصلُ هذا الدُّعاءِ بالويل ونحوهِ في التَّفجُّع لِشدَّةٍ أو مكروهٍ يَهُمُّ النَّفسَ، ثمَّ استُعمل بعدُ في عجبٍ يَدْهَمُ النَّفسَ، وقال قومٌ: إنَّما قالت: يا ويلَتا؛ لما مرَّ بفكرها من ألم الولادةِ وشدَّتها، ثمَّ رَجَعَتْ بفكرِها إلى التَّعجُّبِ، ونَطَقَتْ بقولِها: أألِدُ وأنا عَجُوزٌ؟ الآية"[1].

فهذه الجملةُ - بما فيها من نداءٍ ومنادى - من صيغ التَّعجُّبِ الَّتي تفرضُ نفسَها على المتعجِّب عند تلقِّيه الأمرَ العجيبَ، وكأنَّ المتعجِّبَ ينادي الويلَ نفسَهُ أن أدركني، فقد لاقَيْتُ ما لا قِبَلَ لي بِهِ، ولا قوَّةَ لي عليهِ.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّبعيَّةِ:

بيانُ الحالةِ النَّفسيَّةِ الَّتي مرَّت بها امرأةُ الخليلِ عليه السلام

قولهُ تعالى: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ "اسْتِعارَةٌ تَبَعِيَّةٌ بِتَنْزِيلِ الوَيْلَةِ مَنْزِلَةَ مَنْ يَعْقِلُ حَتَّى تُنادَى، كَأنَّها تَقُولُ: يا ويْلَتِي احْضُرْ هُنا، فَهَذا مَوْضِعُكَ"[2]، وتكمُنُ بلاغةُ الاستعارةِ في نداءِ الويلِ، وهو لا يكون إلّا في شرٍّ أو أمرٍ عجيبٍ، فلمّا نادتِ الويلَ بتنزيلِهِ منزلةَ مَن يَعْقِلُ؛ عُلِمَ أنَّ الأمرَ عظيمُ العجبِ، وهو ما يعكسُ الحالةَ النَّفسيَّةَ الَّتي مرَّت بها امرأةُ الخليلِ عليه السلام من استحضارِ الولادةِ، وهي أمرٌ خارقٌ في مثل حالِها، وكيف سيكون مصيرُ مَنْ يُولَدُ، وكيف سينمو، ويترعرعُ، وما إلى ذلك من خواطرِ النِّساءِ، وهذا سرُّ نداءِ الويلِ المضافِ إلى ياءِ المتكلِّم الَّتي انقلبت ألفًا.

سرُّ اختيارِ مفردةِ ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ مادَّةً وصيغةً:

تعجُّبُ المؤمنين من أمرِ الله عند غيرِهم جَزَعٌ وفَزَعٌ

لفظُ الويل "أصلهُ للدُّعاء بالويلِ ونحوهِ في جزعِ التَّفَجُّعِ لشدَّةٍ مكروهٍ يَدْهَمُ النَّفسَ، ثمَّ استُعملَ في التَّعجُّبِ"[3]، وأصلُ نداءِ

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/190.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/120.
(3) القاسمي، محاسن التأويل: 6/115.

﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾ هو يا ويلَتِي، "فَأُبْدِلَ من الياء والكسرةِ الألفُ؛ لأنَّ الفتحَ والألفَ أخفُّ من الياءِ والكسرةِ"[1]، وقد آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ الويلِ دونَ العجبِ، فلم تَقُلْ: يا عجبي، ذلك أنَّ الويلَ يتردَّدُ بين الجزَعِ والتَّعجُّبِ، فأتى بالمفردةِ الَّتي تدلُّ على تعجُّبِها صراحةً، وأنَّه لو كان ذلك الخبرُ لغيرِها؛ لوقعَ الجزعُ، فسِرُّ اختيارِ هذه المفردةِ بيانُ أنَّ من شأنِ مثل هذه الأخبارِ أن تجزَعَ لها النِّساءُ، لكنَّ امرأةَ الخليلِ ﷺ كان منها العجَبُ، وهذا دليلُ بركةِ هذا البيتِ وإيمانِ أهلِه.

علَّةُ فصلِ جملةِ ﴿ءَأَلِدُ﴾ عن السّابقةِ:

توكيدُ المعاني بين الجملِ وتقويةُ الدّلالات

جملةُ ﴿ءَأَلِدُ﴾ استفهاميَّةٌ تعجُّبيَّةٌ، وقَعَتْ بعد جملةِ ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾، وهي إنشائيَّةٌ ندائيَّةٌ، فتَحقَّقَ بينهما كمالُ الاتِّصال لاتِّحادِهما في الإنشائيَّةِ، وكأنَّهما قد تَوالَدَتا، وتناسلَتا من نَفْسٍ واحدة، فلا مكانَ بينهما لواصلٍ، ولا حاجةَ بهما إلى رابطٍ أجنبيٍّ دخيلٍ، إذ قامتِ الجملةُ الثّانيةُ مقامَ التَّأكيدِ لمعنى التَّعجُّبِ الواردِ في الأولى.

غرضُ الاستفهام:

الولادةُ في حالِ امرأةِ الخليلِ أمرٌ خارقٌ للعادةِ، فهو مدعاةٌ للتَّعجُّبِ

الاستفهامُ في جملةِ ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ﴾ يفوحُ بالتَّعجُّبِ المعلَّلِ بجملةِ الحال ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٞ﴾ والمدعوم تعليلُهُ بجملة الحالِ المعطوفةِ عليها ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾، و"لم يكُنْ ذلك منها تكذيبًا، ولكن استغرابًا له"[2].

سرُّ دخولِ الاستفهامِ على الفعلِ:

تمحُّضُ العَجَبِ من الولادَةِ مع اقترانِها بأحوالٍ تستَحيلُ معها الولادَةُ

دخلَتْ همْزَةُ الاستِفْهامِ على الفعل (ألِدُ) في جملةِ ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ﴾، ولم يأتِ النَّظْمُ بذكرِ الفاعِلِ مبتدأً بتقدير: أأنا ألدُ؟ فكانت الجملةُ فعليَّةً لا اسميَّةً، وهو ما يقتضيه الظّاهرُ بدليل ما بعدَهُ ﴿وَأَنَا۠

(1) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/63.

(2) الماورديّ، النكت والعيون: 2/486.

﴿عَجُوزٌ﴾؛ أي: أأنا ألدُ في هذه الحالِ؟ لكنَّ النَّظمَ آثرَ ما جاءَ عليهِ؛ ليتمَكَّنَ التَّعجُّبُ من فعلِ الولادةِ؛ أي: كيفَ تكونُ ولادةٌ في هذه السِّنِّ، ثمَّ إنَّها لم تلدْ، وهي شابَّة قابلَةٌ للولادَةِ؛ لأنَّها عاقِرٌ، وهذا مانعٌ، ثم إنَّها تقدَّمَتْ في السِّنِّ حتَّى بَلَغَت سِنَّ اليَأْسِ، وهذا بذاتِه عائقٌ آخرُ، ثم إنَّ زوجَها شيخٌ، وهذا عائقٌ ثالِثٌ، فهي قد تعجَّبت من أن تلِدَ في هذهِ الحالِ! فما تمالَكت نفسَها إزاء هذا الوضع حتى قاربتْ على إنكارِ الولادَةِ، لكنَّها تداركتْ ببيانِ أنَّ غرضَها إنكارُ الولادةِ منها هي، وأنَّ حالها وحالَ زوجها لا يلائمُهما، ولا تسمحُ لمثلها بولادةٍ، وهذا "نَظَرًا إلَى أحْوالِ العادَةِ، لا لِأَجْلِ أنَّها اسْتَنْكَرَت قُدْرَةَ اللَّه تعالى عَلَى ذَلِكَ"[1].

براعةُ اجتماعِ الحالِ:

بيوتُ الأنبياءِ مَنبَعُ الآدابِ ومحاسنِ الأخلاقِ

اجتمعَ حالانِ مانعانِ من الإنجابِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾، وهما: سنُّ المرأةِ المانعُ من الإنجاب، وسنُّ الزَّوجِ كذلك، فلمّا اجتمعَ هذانِ الحالانِ؛ كان ذلك بيانًا لأمرين، هما: سببُ التَّعجُّبِ، وعِلَّةُ السُّؤالِ. ولُطْفُ ذكْرِ هذينِ الحالين يكمُنُ في أدبِ هذه المرأةِ العظيمةِ في خِصالِها وأخلاقِها وخطابِها، فهي لم تَكتَفِ بقولِها: ﴿ءَأَلِدُ﴾؛ لأنَّ الاكتفاءَ بالسُّؤالِ قد يُفهَمُ منهُ الإنكارُ، بل رفْضُ الخَبرِ جملةً، فذكرَتْ ما يجولُ في خاطرِها من بيانِ سَببِ سؤالِها، وانتظرتِ الجوابَ بعدَ ذلك.

نكتةُ ذكرِ اسم الإشارةِ:

تصويرُ المجلسِ وبيانُ رضا الزَّوجِ عن حِوارِ زوجِهِ

لسائلٍ أن يسألَ عن سِرِّ عدم اكتفاءِ امرأةِ الخليلِ بأن تقولَ: (وبعلي شيخٌ)؛ لتكونَ على وِفاقِ الجملةِ السّابقة ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ فذُكر اسمُ الإشارةِ في قولِه تعالى: ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾، و"جُمْلَةُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/375.

﴿وَهَٰذَا بَعْلِي﴾ مُرَكَّبَةٌ منْ مُبْتَدَأٍ وخَبَرٍ؛ لِأَنَّ المَعْنَى: هَذا المُشارُ إِلَيْهِ هُو بَعْلِي؛ أَيْ: كَيْفَ يَكُونُ لَهُ ولَدٌ، وهُو كَما تَرَى؟"[1]، ونكتةُ ذلك تصويرُ مشهدِ الحوارِ، فالخليلُ عليه السلام حاضرٌ في المجلسِ، وهو يسمعُ ويرى، فلم يَمْنَعْ زوجَهُ من توجيه السُّؤالِ والتَّعجُّبِ ممّا بُشِّرا به، بل تركها على سجيَّتِها تتكلَّمُ، وتسأَلُ، وهذا من بديع التَّعاملِ الرّاقي في بيوتِ الأنبياءِ، فإنَّ الإشارةَ إليه بهذا للقريبِ دليلٌ على قُربِه مكانًا منها، وعلى سماعِه لكلامها، ولو أتَتْ على ذكرِه بالإخبارِ، فقالت: (وبعلي شيخٌ)؛ لما تُصوِّرَ وجودُهُ عليه السلام في المجلسِ.

نكتةُ التَّقابُلِ بين لفظَي عجوزٍ وشيخٍ:

الكشفُ عن التَّقارُبِ في العمرِ بين الزَّوجينِ المباركَينِ

قابلتِ الآيةُ بين ذكْرِ وصْفِ امرأةِ الخليلِ بالعَجوزِ، ووصفِ الخليلِ بالشَّيخِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾، فالعجوزُ هي المرأةُ الطّاعنةُ في السِّنِّ، وهي من أوصافِ النِّساءِ، فلا يُقال: رجلٌ عجوزٌ بل شيخٌ، ولذلك ضُعِّفَ أن يُقال: عجوزةٌ بتاءِ التَّأنيثِ؛ لأنَّ هذهِ اللَّفظةَ خاصَّةٌ بالنِّساءِ، كما يُقال: امرأةٌ حاملٌ، لا حاملةٌ، كما أنَّه اختُصَّ الرِّجالُ بوصفِ شيخٍ، وإن وُصِفَتِ المرأةُ بذلك، فلا يُرادُ منها معنى الطَّعنِ في السِّنِّ، بل معنًى آخر، ولهذا التَّقابلِ نكتةٌ: وهي بيانُ التَّقاربِ في السِّنِّ بينهما، فهي كبيرةٌ طاعنةٌ والخليلُ كذلك، وهي إلماحةٌ تاريخيَّةٌ لبيانِ تقارُبِهما في العمرِ، وفيها ردٌّ على من يظُنُّ أنَّ وجودَ الفارقِ في العمرِ هو الأفضلُ في الزَّواجِ، فهذا الخليل الذي لم يُنجِب من امرأتِهِ، قد كَبِر معها، وطعنا في السِّنِّ، وهما يُمثِّلان حالةً أنموذجيَّةً من الزَّواجِ النّاجحِ، بل إنَّ الآيةَ لتدلُّ بطَرفٍ خفيٍّ بأنَّ التَّقارُبَ في السِّنِّ من بواعثِ الاتِّفاقِ والتَّقارُبِ في الحياةِ الزَّوجيَّة، لاسيَّما؛ إذا كان هناك قصورٌ في عدمِ إنجابِ الأبناءِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/121.

سرُّ إيثارِ لفظ ﴿بَعۡلِي﴾ على (زوجي):

البَعْلُ: الزَّوجُ[1]، والسَّيِّدُ، "سُمِّي الزَّوجُ بعلًا لِتطاولهِ على الزَّوجةِ، كتطاول السَّيِّدِ على المَسُوْدِ"[2]، وقد عبَّر عن الزَّوجِ في قولهِ تعالى: ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾ بالبعلِ؛ للإشارةِ إلى أنَّه زوجٌ قائمٌ على شؤونِ الحياةِ الزَّوجيَّة، وأنَّه قيِّمٌ عليها لا يُحْوِجُها إلى أحدٍ في أيِّ شأنٍ من شؤون الحياةِ، فـ "تسميَةُ الزَّوجِ بعلًا فيها دقَّةٌ شديدةٌ؛ لأنَّ البَعْلَ هو الَّذي يقومُ بأمرِ المبعولِ، ولا يُحْوِجُهُ لأحدٍ، كذلك الزَّوجُ يقوم بأمر زوجتهِ، فيما لا يستطيعُ أبوها ولا أخوها أن يقوما به، وهو الإحساسُ بالأنوثةِ والإخصابِ، وهو أهمُّ ما تطلبهُ المرأةُ... فالبعلُ هو الزَّوجُ الَّذي يقومُ على أمرِ زوجتِهِ، فلا يحوجُها إلى غيره في أيِّ شيءٍ منَ الأشياءِ"[3].

المرأةُ الصّالحةُ تنتقي من أوصافِ زوجِها ما يَنْشُر فضائلَهُ

لَطيفَةٌ في عَمَلِ اسم الإشارةِ:

الحالُ في قوله تعالى: ﴿شَيۡخًاۖ﴾ "نَصْبُها منْ غامضِ النَّحْوِ، وذَلِكَ إذا قُلْتَ: هَذا زَيْدٌ قائِمًا، فإِن كُنْتَ تَقْصِدُ أن تُخْبِرَ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ زَيْدًا أنَّهُ زَيْدٌ؛ لَمْ يَجُزْ أن تَقُولَ: هذا زيدٌ قائِمًا؛ لأنَّهُ يَكُونُ زَيْدًا ما دامَ قائِمًا، فإذا زالَ عَنِ القِيامِ؛ فَلَيْسَ بزَيْدٍ.

وإنما تَقُولُ لِلَّذِي يَعْرِفُ زَيْدًا: هَذا زَيْدٌ قائمًا، فَيَعْمَلُ في الحالِ التَّنْبِيهُ، والمَعْنَى: انْتَبِهْ لِزَيْدٍ في حالِ قيامهِ، أو: أُشيرُ إلى زَيْدٍ في حالِ قِيامهِ؛ لأنَّ هَذا إشارةٌ إلى مَنْ حَضَرَ، والنَّصْبُ الوجْهُ"[4].

التَّنبيهُ على المعروفِ من دواعي التَّعجُّبِ المعروف

وهي حالٌ من مُشارٍ إليهِ لا يُستغنى عنها؛ لأنَّها مقصودُ الإخبارِ، فهي حالٌ لازمةٌ[5]، و"المَقْصُودُ تَعْرِيفُ هَذِهِ الحالَةِ المَخْصُوصَةِ،

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/191.
(2) الماورديّ، النكت والعيون: 2/486.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 11/6562.
(4) الزجّاج، معاني القرآن: 3/63 - 64.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/191.

وهِيَ الشَّيْخُوخَةُ"[1]، فكأنَّ السَّيِّدةَ سارَّةَ عليها السلام تقول للملائكةِ الكرام: انتبهوا لحالِ زوجي فهذهِ حالُهُ، تريدُ أن تُقوِّيَ بذلك تعجُّبَها لحصول الولادةِ مع افتقادِ أسبابِها من جميعِ الجوانب.

بلاغةُ الكِنايةِ في لفظِ: ﴿شَيۡخًاۖ﴾:

المرأةُ الصّالحةُ تُغلِّفُ مَعانيها الجارِحَةَ، ولا تجرحُ زوجَها بِعَجْزِه

إنَّ إمكانَ الولادَةِ مع الطَّعنِ في السِّنِّ بالنِّسبةِ للزَّوجِ هو الآخرُ من دواعي عَجَبِ السَّيِّدةِ سارَّةَ امرأةِ إبراهيمَ عليه السلام وكان بإمكانِها التَّعبيرُ عن تلك السِّنِّ بوصفٍ آخرَ؛ لكنَّها اصطفتْ هذا الوصفَ ﴿شَيۡخًاۖ﴾؛ لتغليف أحدِ أهمِّ موانعِ الولادةِ في كنايةٍ مهذَّبةٍ راقيةٍ عن عدَمِ إطاقَةِ زوجِها الإنجابَ، وقد قيل: بأنَّها قد "عرَّضتْ بقولها: ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾ عن ترْكِ غشيانه لها"[2].

فالسيِّدةُ سارَّةُ أوصلت رسالتَها بأدبٍ جمٍّ، وكرَّمتْ زوجَها، باصطفائِها وصْفَ ﴿شَيۡخًاۖ﴾، على حين هضمتْ نفسَها هي؛ إذ تواضعتْ بوصفِ نفسِها بقولِها: ﴿عَجُوزٞ﴾ الَّذي تتحاشاهُ النِّساء عمومًا، ومن إشاراتِ وصف ﴿شَيۡخًاۖ﴾: الوقارُ، والهَيْبَةُ، والعلمُ، والحلمُ، والسِّيادةُ، والحكمةُ، وغيرها من شمائِلَ تُمدَحُ.

بلاغةُ التَّقديم بين الجمل:

في مواضعِ الاشتراكِ في العجزِ يُبتدَأُ بذكرِ عجزِ الذّاتِ قبلَ ذِكْرِ عَجْزِ الزَّوجِ

لسائلٍ أن يسألَ عن نكتةِ تقديم جملةِ ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٞ﴾ على جملة ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي﴾ دونَ العكسِ، والجوابُ أنَّ هذا ما يقتضيه الظّاهرُ والحالُ، أمّا الظّاهرُ؛ فإنَّ المرأةَ تعجَّبت من أن تلدَ، وهذا تعجُّبٌ صادرٌ عنها بسببِ عجزِها وعجْزِ زوجِها عن الإنجابِ، فكان المناسبُ أن تتكلَّمَ عن نفسِها ابتداءً، وأمّا الحالُ؛ فقد "قَدَّمَتِ السيِّدةُ سارةُ بيانَ حالِها ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٞ﴾ على بيانِ حالِه عليه السلام ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾؛ لأنَّ مُبايَنَةَ حالِها لما ذُكِرَ من الولادةِ أكثرُ؛ إذ رُبَّما يُولَدُ للشُّيُوخِ من

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/375.

(2) الماورديّ، النكت والعيون: 2/486.

الشَّوابِّ، أمّا العَجائِزُ؛ فداؤُهنَّ عَقامٌ، ولأنَّ البِشارةَ مُتوجِّهةٌ إليها صَريحًا، ولأنَّ العكْسَ في البيانِ ربَّما يُوهِمُ من أوَّلِ الأمرِ نِسبةَ المانعِ من الولادةِ إلى جانبِ إبراهيمَ عليه السلام وفيه ما لا يَخفَى من المحذورِ، واقتِصارُها الاستبعادَ على ولادتِها من غيرِ تَعرُّضٍ لحالِ النّافلةِ[1]؛ لأنَّها المستبعَدُ، وأمّا وِلادةُ ولَدِها؛ فلا يتعلَّقُ بها استِبعادٌ"[2].

وفيه فائدةٌ أنَّ المرأةَ إذا كانت تشترِكُ مع زوجِها في قصورٍ ما؛ فتبدأ بنفسِها قبل ذِكْرِ قصورِ زوجِها، فهذا ما يقتضيه الأدبُ، وتفرِضُه محاسنُ الأخلاقِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملِ الاسميَّةِ:

تكافؤُ الزَّوجينِ في الإمكاناتِ يديمُ الودَّ

جاءتِ الجملتانِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ﴾ بصيغةِ الاسميَّةِ؛ تقويةً لاستحالةِ الولادَةِ بحسبِ العادةِ لدى البَشَرِ، فأفادتِ استقرارَ وضعِهما على العجزِ عن الإنجابِ بسببِ الطَّعنِ في السِّنِّ وافتقادِ أسبابِ الإنجابِ، فإنَّ الاسميَّةَ تُوحي بثباتِ مضمونِ الخبرِ، وذلك أيضًا فاعلٌ في تأكيدِ موانعِ الإنجابِ، ومع كونِ هذه الاسميَّةِ حالًا؛ فإنَّ هذا يزيدُ من ثباتِها، فهي حالٌ ثابتةٌ مستقرَّةٌ، ولمّا كانت الجملتانِ اسميَّتين؛ فقد دلَّتا على تقاربِ الحالين ثباتًا واستقرارًا للزَّوجين، وهذا دليلٌ على ثباتِهما على معاني الودِّ والائتلافِ مع عدمِ إنجابِهما، ومعرفتِهما لذلك.

علَّةُ الفصلِ بين الجملِ:

قد يجتمعُ توجيهُ كمالِ الاتِّصالِ وكمالِ الانقطاعِ في الموضعِ الواحدِ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ﴾ وهو جملةٌ خبريَّةٌ عن الجملةِ السّابقةِ الإنشائيَّةِ، إمّا بحملِها على الاستئنافِ النَّحوي، فلمّا اختلفت طبيعةُ الجملتين؛ وجبَ الفصلُ لكمالِ الانقطاعِ بين الأسلوبين بهذا الاعتبارِ.

(1) المقصود بالنافلة هنا يعقوب عليه السلام لأنَّه المذكور في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢﴾ [الأنبياء: 72].

(2) الدّرر السَّنية، موسوعة التفسير على الرابط: https://dorar.net/tafseer/11/14.

وإمّا في جعلها تأكيدًا للجملةِ السّابقةِ، فهي "مُؤَكِّدَةٌ لِصِيغَةِ التَّعَجُّبِ في الجملة الأولى ﴿ءَأَلِدُ﴾، فَلِذَلِكَ فُصِلَتْ عنها لِكَمالِ الاتّصالِ، وكَأَنَّها كانَتْ مُتَرَدِّدَةً في أَنَّهُمْ مَلائِكَةٌ، فَلَمْ تَطْمَئِنَّ لِتَحْقِيقِ بُشْراهُمْ"[1].

فهي محمولةٌ على كمالِ الاتّصالِ؛ إذا نظرنا في المعاني المترابطةِ، حيث كانتِ الثّانيةُ تأكيدًا لما جاءَ في الأولى، وإمّا أن تُحْمَلَ على كمالِ الانقطاعِ؛ لاختلافِ الجملتين خبرًا وإنشاءً، والأولى أن تكون الثّانيةُ تأكيدًا للأولى، بل بيانًا للأولى، فإنَّ غرضَ الاستفهام في: ﴿ءَأَلِدُ﴾ محمولٌ على التَّعجُّبِ بدليل هذه الجملةِ، وهذا التَّوجيهُ أقربُ لقانونِ المعنى والدَّلالةِ منه إلى مسلكِ اللَّفظِ والصِّناعةِ.

غَرَضُ التَّوكيدِ:

طَرْقُ بابِ العقلِ لقبولِ خبرِ البُشرى

أكَّدَتِ السَّيِّدةُ سارَّةُ زوجُ إبراهيمَ عليه السلام عَجَبَ خبرِ ولادتها: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾، وهذا الخبرُ لا يحتاجُ إلى توكيد؛ لأنَّه غيرُ موجَّهٍ إلى شاكٍّ ولا منكرٍ، فالمخاطَبُ ملائكةُ الرَّحمنِ عز وجل الذين نزلوا بهذه البشارةِ أصلًا، فلا داعيَ للتَّأكيدِ.

غيرَ أنَّ الذُّهولَ الَّذي لفَّ السَّيِّدةَ اقتضاها أنْ تُؤكِّدَ الخبرَ؛ وفاءً بِحِسِّها هي، ومراعاةً لانفعالها هي، وكأنَّها تخاطِبُ نفسَها، وتقولُ: أنتِ عجوزٌ، وزوجُكِ شيخٌ، فأنَّى لكِ مثلُ هذا؟ وكيف تَلَقَّيْنَ به النّاسَ؟ فغرضُ التَّوكيدِ هو فتحُ بابِ العقلِ لقبولِ خبرِ البُشْرى، فهو أقربُ أن يكونَ إلى الكلامِ النَّفسيِّ منه إلى خطابِ الآخرِ.

بلاغةُ استعمالِ اسمِ الإشارةِ للقريبِ المذكَّرِ:

المُشارُ إليه تبشيرٌ قريبُ السَّماعِ مؤكَّدٌ محقَّقٌ

استُعملَ اسمُ الإشارةِ في : ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ لبيانِ سرعةِ الحوارِ الحاصل بين تبشيرِ الملائكةِ عليهم السلام وتعجُّبِها عليها السلام فهي تشيرُ إلى مسموعٍ قريبٍ، وتشيرُ إلى أمْرٍ مؤكَّدٍ مُحقَّقٍ؛ أي: إنَّ هذا التَّبشيرَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/121.

الَّذي بشَّرتموني به شيءٌ عجيبٌ، فدلَّ اسمُ الإشارةِ على قُربِ السَّماعِ، وتواصلِ الحوارِ، وأنَّ المشارَ إليهِ تبشيرٌ؛ أي: "إنَّ هذا الَّذي بشَّرتموني بهِ من حصولِ الولدِ لي في تلك السِّنِّ المتقدِّمةِ لَشَيْءٌ عَجِيبٌ في مجرى العادةِ عند النِّساءِ"[1].

نكتةُ الإطنابِ بذكرِ ﴿لَشَيۡءٌ﴾:

مفاجأةُ التَّبشيرِ بالأمرِ المحبوبِ المستحيلِ وقوعُهُ عظيمُ الأثرِ ثقيلُ الحِمْلِ

لم يكتفِ النَّظمُ الكريمُ بالإخبارِ عن المتعجَّبِ منهُ بأن يُقالَ: (إنَّ هذا لعجيبٌ)، بل آثرَ الإطنابَ، فأخبرَ عنهُ بلفظِ (شيء)؛ ليقعَ العجَبُ صِفةً لذاتٍ؛ تجسيدًا لهذا المعنى، وتثبيتًا لمعناهُ، وتأكيدًا لحصولِه في النَّفسِ راسخًا متمكِّنًا، فهو شيءٌ، لا مجرَّدُ كلامٍ يُقال، أو ألفاظٍ تُسرَدُ.

وقد ترجمَ ذلك يقينُها بحصولِ التَّبشيرِ العجيبِ، فهي في أكملِ سعادةٍ، وذلك أنَّ "الإنسانَ إذا كان عظيمَ الرَّغبةِ في شيءٍ، وفاتَهُ الوقتُ الَّذي يغلُب على ظنِّه حصولُ ذلك المرادِ فيه، فإذا بُشِّر بعد ذلك بحصولِه ازدادَ فرحُهُ وسرُورُهُ، ويصير ذلك الفرحُ القويُّ كالمُدهش له، وربَّما يجعلهُ هذا الفرحُ يُعيدُ السُّؤالَ لِيَسْمَعَ تلك البشارةَ مرَّةً أخرى؛ طلبًا للالتذاذِ بسماعِها"[2].

سرُّ إيثارِ صفةِ ﴿عَجِيبٌ﴾ على مرادفاتِها:

عُمومُ اللَّفظِ في اشتمالِهِ على صفاتٍ أخرى ولترجمتِهِ ما يجولُ في النَّفسِ

العجيبُ هو ما لا يُعرفُ مثلُه، ولا يُتَوقَّعُ حصولُهُ، وصيغتهُ فعيلٌ بمعنى مُفعِلٍ؛ أي: مُعجِبٌ، صيغةُ مبالغةٍ من العَجَبِ الثّائرِ في نفسِ المتكلِّم، ولمّا كان هذا الشَّيءُ مجهولًا وغريبًا وغيرَ معهودٍ؛ وصفتْهُ السَّيِّدةُ بالعَجيبِ؛ ولأنَّها صارتْ بين أمرين: الأوَّل: ثِقَتُها في صِدْقِ خبرِ البِشارةِ بالإنجابِ، وإيمانُها بحتميَّةِ تحقُّقِهِ، والثّاني: أثرُ هذا الخبرِ عليها.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/241.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/56.

وسرُّ إيثارِ هذا الوصفِ دونَ غيرِهِ كالغريبِ، والبعيدِ؛ لأنَّه أعمُّ من بقيَّةِ الصِّفات، فليس البعيدُ بالضَّرورةِ أن يكونَ مُتعجِّبًا منهُ، وكذلك الغريبُ، فجيءَ بعجيبٍ لاشتمالِهِ على هذه المعاني الَّتي ثبتَتْ باللَّفظِ وبالسِّياقِ، ولأنَّ هذا اللَّفظَ هو الذي يُعبِّر عمّا يجولُ في نفسِ امرأةِ الخليلِ عليه السلام.

عِلَّةُ الفصلِ بين الجملِ:

الاستئنافُ البيانيُّ ارتباطٌ دلاليٌّ ورابطٌ ذهنيٌّ

وقعتْ جملةُ ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ﴾ ممّا قبلَها موقعَ جوابٍ تُثيرهُ الجملةُ السّابقةُ في ذِهنِ المتلقِّي، فحْواه: ماذا كان جوابُ الملائكةِ الكرام على تعجُّبِها؟ فجاءَ الرَّدُّ: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ﴾، على طريقةِ الاستئنافِ البيانيِّ، فالنَّظمُ يُعطي حيويَّةً، ويستثيرُ ذهنَ المتلقِّي، ويُشركهُ في عمليَّةِ التَّواصل، ويمنحُ المتلقِّي فرصةَ الحوارِ الافتراضيِّ حين يجيبُ عن سؤالِهِ الَّذي نبتَ في ذهنِهِ.

غرضُ الاستفهام:

ألطافُ الله الَّتي تنالُ المقرَّبين لا تنالُ غيرَهم ممَّن لم يقترب من منازلِ رحمتِهِ

يَحمِلُ الاستفهامُ في: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ معنى التَّعجُّبِ من تعجُّبِ امرأةِ الخليلِ عليه السلام وفيه رائحةُ الإنكارِ، "وإنَّما أنكرت عليها الملائكةُ تعجُّبَها؛ لِأنَّها كانت في بيت الآياتِ ومهبطِ المعجزات والأمورِ الخارقة للعادات، فكان عليها أن تتوقَّرَ، ولا يزدهيها[1] ما يزدهي سائرَ النِّساءِ النّاشئاتِ في غير بيوتِ النُّبوَّةِ، وأنْ تُسَبِّحَ اللّه عزّ وجلّ وتُمجِّدَهُ مكان التَّعجُّبِ، وإلى ذلك أشارتِ الملائكةُ - صلواتُ اللّه عليهم - في قولهم: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ إلى أنَّ هذه وأمثالَها ممّا يُكرمُكم بِهِ ربُّ العزَّة، ويخُصُّكم بالإنعام بِهِ - يا أهلَ بيتِ النُّبوَّةِ - فليست بمكانِ عَجَبٍ"[2].

(1) قوله: (ولا يزدهيها) في الصحاح: "زهاه وازدهاه: استخفَّه وتهاون به". يُنظر: حاشية الكشاف: 2/411.

(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/411.

وفي الاستفهام غرضٌ فرعيٌّ آخرُ، وهو "تطمينٌ لها، وتوكيدٌ لهذه البشرى الَّتي بُشِّرَتْ بها، وأنَّها رحمةٌ من اللّه ﷻ وبركةٌ على أهلِ هذا البيتِ الَّذين اختصَّهم اللّه برحمتِهِ وبركاته، وإذا كانوا كذلك؛ فإنَّ ما يتلقَّوْنه من اللّه ﷻ من فضلٍ لا يكون موضعَ عَجَبٍ، وإنْ جاء على غيرِ ما يَعهَدُ النّاسُ؛ فإنَّ للّه ﷻ في أوليائِهِ ألطافًا، لا ينالها غيرُهم ممَّن لم ينزلوا منازلَ رحمتِهِ ورضوانِهِ"[1].

نكتةُ إيثارِ المضارعِ على الماضي:

تصويرُ آثارِ الانفعالِ المستمرَّةِ في الحوارِ مع ملائكةِ الرَّحمنِ

آثرَ النَّظمُ استعمالَ صيغةِ المضارعِ ﴿أَتَعۡجَبِينَ﴾ على أن يُقالَ: (أعجِبْتِ؟) وقد تحقَّقَ العجبُ ووقع، وذلك لتصوير مشهدِ التَّعجُّب الواقعِ من امرأةِ الخليلِ عليه السلام فإنَّ تعجُّبَها وقعَ، وتحقَّق منها، لكنَّ آثارَه لم تنتهِ بعدُ، فهي متعجِّبةٌ ممّا بُشِّرتْ به، وبقيت آثارُ الانفعالِ حاضرةً في موقفِها وحوارِها، وفيه دلالةٌ على سُرعةِ جوابِ الملائكة عليهم الصَّلاةُ والسَّلام على تعجُّبِها، فهي ما زالت في حالةِ التَّعجُّب والذُّهولِ إلى أنْ أتاها هذا الإنكارُ من ملائكةِ التَّبشيرِ الحميدِ، فقطعوا بسؤالِهم تعجُّبَها، وأمروها بالطُّمأنينةِ والسَّكينةِ واستقبالِ أمرِ اللّه بالرِّضا والسُّرورِ.

معنى حرف ﴿مِنۡ﴾:

يدورُ معنى (من) بين السَّببيَّة والابتداءِ

يحتملُ حرفُ (من) في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ أن يكون سببيًّا؛ أي: أتعجبينَ بسببِ أمرِ اللّه وقضائه، وبهِ يظهرُ معنى الإنكارِ؛ أي: لا تعجبي فإنَّ الأمرَ صادرٌ عن اللّه تعالى وما يصدرُ عن اللّه؛ فلا يُتعجَّبُ منهُ.

ويحتمل أن يكونَ للابتداءِ المجازيِّ؛ أي: أتعجبينَ من مجيءِ أمرِ اللّه تعالى فإنَّ أمرَ اللّه إذا جاءَ؛ تحقَّقَ وثبتَ.

(1) الخطيب، التفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1172.

دلالةُ الإضافةِ:

أمرُ الله نازلٌ منهُ سبحانه وسيكونُ له شأنٌ في قادم الأيّام

الأمرُ في قولِه تعالى: ﴿أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ واحدُ الأمورِ لا الأوامرِ، فهي بمعنى القضاءِ بوقوعِ الشَّيء، وعُبِّر بلفظِ الأمر للإيماءِ إلى أنَّ اللّٰه قد أمرَ سبحانه به، وأصبح أمرًا متحقِّقًا ثابتًا، والإضافةُ إلى لفظِ الجلالةِ بمعنى (من)؛ أي: أمرٌ منَ اللّٰه تعالى ففيه إشارةٌ إلى أنَّه نازلٌ منهُ سبحانه وأنَّ لهذا الأمرِ شأنًا في قادِم الأيّام.

نكتةُ ذِكرِ لفظِ الجلالةِ دونَ الرَّبِّ:

المقامُ مقامُ إيمانٍ وإذعانٍ وهو المناسبُ لِلَفْظِ الألوهيَّةِ

آثرتِ الآيةُ ذِكْرَ لفظِ الجلالةِ دونَ لَفْظِ الرَّبِّ في: ﴿أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾، فلم يَقُلْ: (أتعجبين من أمرِ ربِّك) مع أنَّ أمرَ الخَلْقِ مرتبطٌ بالرُّبوبيَّةِ، فيُسألُ عن نكتةِ الاختيارِ؟ والَّذي يظهرُ أنَّ ذِكْرَ لفظِ الجلالةِ لما فيهِ من توريثِ المهابةِ المُزيلةِ للتَّعَجُّبِ، فإنَّ المقامَ هو مقامُ تسليمٍ وإذعانٍ لأمرِ اللّٰه تعالى وهو ما يتناسَبُ مع الألوهيَّةِ، فكان ذكرُ لفظِ الجلالةِ هو الأوفقُ بالسِّياقِ.

براعةُ موقعِ الجملِ من السّابقِ:

وقعتِ الجملةُ من السّابقةِ موقعَ الخبرِ المتضمِّنِ دعاءً بغرضِ التَّعليلِ

لقولِه تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ من السّابقِ احتمالات:

الأوَّل: الاستئنافُ المفيدُ للتَّعليلِ؛ إذ "علَّلَ به إنكارَ التَّعجُّبِ، كأنَّهُ قيلَ: إيّاكِ والتَّعجُّبَ، فإنَّ أمثالَ هذهِ الرَّحمةِ والبركةِ متكاثرةٌ من اللّٰه ﷻ عليكم"[1]، ففي هذهِ الجملةِ "ما يُزيلُ ذلك التّعجُّب، وتقديرُهُ: إنّ رحمة اللّٰه عليكم مُتكاثِرة وبركاتِه لديكُم مُتوالِية مُتعاقِبة، وهِي النُّبُوّةُ والمُعجِزاتُ القاهِرةُ والتّوفِيقُ لِلخيراتِ العظِيمة، فإذا رأيتِ أنّ اللّٰه خرق العاداتِ في تخصِيصِكُم بِهذِهِ الكراماتِ العالِيةِ الرّفِيعة وفي إظهارِ خوارِقِ العاداتِ وإحداثِ البَيِّناتِ والمُعجِزاتِ، فَكَيْفَ يَلِيقُ بِهِ التَّعَجُّبُ"[2].

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/411.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/375.

الثّاني: الدُّعاءُ، "وكونهُ دعاءً إنَّما يقتضي أنّه أَمْرٌ يُتَرَجَّى، ولم يَتحصَّلْ بعدُ"[1].

الثّالثُ: الإخبارُ، "وكونه إخبارًا أشرفَ؛ لأنَّ ذلك يقتضي حصولَ الرَّحمةِ والبركةِ لهم"[2].

ويحتملُ المقامُ أن تكونَ الجملةُ للتَّعليلِ، والدُّعاءِ، والإخبارِ، أمّا الإخبارُ؛ فهو أصلُ الأمرِ، وأمّا الدُّعاءُ؛ فهو مضمَّنٌ في الخَبَرِ، وأمّا التَّعليلُ؛ فهو بيانُ عِلَّةِ حصولِ هذا الأمرِ لهذه العائلةِ العدليَّةِ العليَّةِ.

بلاغةُ الحذفِ:

رحمةُ اللهِ أصلُ كلِّ خيرٍ ومَنْبَعُ كلِّ بركةٍ

أصلُ قولِهِ تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ﴾: (هذه رحمةُ اللّه)، أو: (رحمةُ اللّه تتنزَّلُ عليكم أهلَ البَيتِ)، فحُذِفَ المسندُ إليهِ في التَّقديرِ الأوَّلِ، وحُذِفَ المسندُ في التَّقديرِ الثّاني؛ وذلك يُوفِّرُ عنايةَ التالي والمستمعِ للذِّكرِ الحكيمِ، ويلفتُهما إلى عظمةِ رحمةِ اللّه ﷻ الَّتي هي غايةُ غاياتِ المخلوقِ بعد رضوانِ اللّه ﷻ عنه وعليه.

فائدةُ تقديمِ الرَّحمةِ على البَرَكةِ:

قُدِّمَتِ الرَّحمةُ لبيانِ أنَّها أعمُّ من البَرَكةِ

الرَّحمةُ أشملُ من البركةِ، فكلُّ بركةٍ رحمةٌ، وليست كلُّ رحمةٍ بركةً، فاللّه ﷻ يرحمُ الكافرَ في الدُّنيا، ولكن لا يباركُ لهُ، أمّا رحمتُهُ بالمؤمنِ؛ ففيها ومنها تنبثقُ البركةُ، فقُدِّمتِ الرَّحمةُ في قولِهِ تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾؛ لبيانِ شمولِها هذا البيتَ المباركَ، والرَّحمةُ سابقةٌ، فهي أصلُ كلِّ خيرٍ، ثمَّ عُطِفَ عليها الأخصُّ لبيانِ أنّها رحمةٌ متكاثرةٌ في الزَّمنِ القادمِ، وأنَّها ليست مجرَّدَ رحمةٍ نزلتْ، بل هي باقيةٌ في هذا البيتِ التَّليدِ بأشكالٍ وأنواعٍ متعدِّدةٍ.

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/191.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/191.

نكتةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ:

عندما تأخذُ الجمْلَةُ حظَّها من المعنى فلها حكمُ الانفرادِ عن السّابق

تقدَّم قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾، فكانَ مقتضى الظّاهرِ أن يقولَ: (رحمتُهُ وبركاتُه) في قولِه تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ﴾ إضمارًا لتقدُّم ذكرِ لفظِ الجلالة؛ لكنَّ النَّظمَ تركَ الظّاهرَ، وأخذَ بمقتضى الحالِ، ونكتةُ ذلك: أنَّ النَّظْمَ ذكَرَ كلَّ جملةٍ منفردةً عن الأخرى، فالأولى جاءتْ للإنكارِ على التَّعجُّبِ من أمرِ اللّه، والأخرى جاءت للتَّعليلِ والدُّعاءِ والإخبارِ - كما سبق - فهو شروعٌ في معنًى جديد مستأنفٍ من جهةٍ، ومرتبطٍ بالأولى من جهةٍ ثانية، فأخذَتْ كلُّ جملةٍ حظَّها من المعاني، بانفرادٍ عن الأخرى، مع شديدِ ارتباطِها بها؛ ولذلك حسُنَ إظهارُ لفظِ الجلالةِ، وأمرٌ آخرُ: وهو أنَّ الجملةَ جرَت مجرى الأمثالِ السّائرةِ، فكان إظهارُ لفظِ الجلالةِ هو الأنسبُ.

دلالةُ إفرادِ الرَّحمةِ وجمْعِ البَرَكَةِ:

رحمةٌ واسعةٌ وشاملةٌ، والبركاتُ متنوِّعةٌ ومتعدِّدةٌ

أُفردَتِ الرَّحمةُ، وجُمعت البركةُ في قولِه تعالى: ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾؛ لبيانِ أنَّ رحمةَ اللّه عامَّةٌ وشاملةٌ لكلِّ شيءٍ، فيدخُل فيها كلُّ رحمةٍ، ويتَّسقُ مع سبْقِها واستيعابها واتّساعها لكلِّ رحمة، فهي رحمةٌ واسعةٌ سابقةٌ، وأمّا ﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾ ﷻ فإنَّها تتنوَّعُ، وتحُلُّ في كلِّ شيءٍ، فالصِّحَّةُ نوعٌ من البركةِ، والعُمُرُ نوعٌ من البركةِ، والسَّمعُ نوعٌ من البركةِ، والبصرُ نوعٌ من البركةِ، والبدَنُ نوعٌ من البركةِ، وفي العقلِ، وفي الرُّوح، وفي الأهل، وفي المال... إلى آخرِ أنواعِ البركاتِ الَّتي تحُلُّ في نعم اللّه ﷻ وهي لا تُحصى كما ورد بذلك قولُ اللّه: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: 34].

بلاغةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ:

رحمةُ اللّه تنزلُ على الصّالحين نورًا وهدًى إلى يوم الدِّين

فِعْلُ الرَّحمةِ يتعدَّى بنفسِه، فنقولُ: رحِمَ اللّه فلانًا، ويتعدَّى بالباءِ، فنقولُ: رحمةُ اللّه ﷻ أحاطتْ بنا، ويتعدَّى بعلى فنقولُ: رحمةُ اللّه ﷻ نزلَتْ عليه، وقد آثرَ النَّظمُ الحكيمُ في قولِه تعالى:

﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ التَّعدية بحرف الاستعلاءِ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾؛ لأنَّ الرَّحمةَ وأسبابَها إنَّما تتنزَّلُ من أعلى، ففي ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ معنى التَّنزيل من عُلُوٍّ، والمعنى: رحمةُ اللّه ﷻ تتنزَّلُ عليكم أهلَ بيت النُّبوَّة، وهو ما يتَّسقُ مع المذكورِ سابقًا في توجيهِ نكتةِ إضافةِ لفظِ الأمرِ إلى لفظِ الجلالةِ.

توجيهُ الإعرابِ بين النِّداءِ والاختصاصِ:

التَّنويهُ بشأنِ أهلِ بيتِ النُّبُوَّةِ، والتَّلطُّفُ بخطابِهم

نُصِب ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ "على النِّداء، أو على الاختصاص؛ لأنَّ أَهْلَ البَيْتِ مَدْحٌ لهم؛ إذ المرادُ: أهلُ بيتِ خليلِ الرَّحمن"[1]، وعلى النِّداءِ فأصلُ قولِهِ تعالى: ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾: (رحمةُ اللّه وبركاتُه عليكم يا أهلَ البيتِ)، فحُذِفَت أداةُ النِّداء لِقُربِ آلِ البيتِ من الملائكة في لحظاتِ هذا الحوارِ، و﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ وهم هنا في الدُّنيا يتلقَّوْنَ من السَّماءِ، ويستقبلونَ رسُلَ اللّه ﷻ الكرامَ، فكان حذْفُ أداةِ النِّداء مناسبًا ووافيًا بحقِّ المكانِ والمكانةِ بهذين القُرْبَينِ الكريمين.

ولغرضِ "التَّنْويهِ بِهِمْ"[2]، والإشارةِ إلى أنَّ أهلَ بيتِ النُّبوَّة من ساحات الهدى والرَّحمة والبركات والطُّهر والكرامات بمكانٍ، فقد بيَّنتِ الجملةُ بهذا الحذفِ اليسير "خصوصيَّتهم بإسقاطِ أداة النِّداء مدْحَةً لهم، فقال: ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾؛ أي: قد تَمَرَّنْتُم على مشاهدةِ العَجائبِ لكثرةِ ما تَرَوْنَ من آثارِهِ بمثل ذلك"[3]، "وأَنْتُمْ أَهْلٌ لِتِلْكَ الرَّحْمَةِ والبَرَكَةِ، فَلا عَجَبَ في وُقُوعِها عِنْدَكُمْ"[4].

دلالةُ تركيبِ ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾:

تشريفُ من التَصقَ بهِ هذا الإطلاقُ إلى يوم الدِّين

أُطْلِقَ ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ على إبراهيمَ ﵇ وزوجِه، وهذا الإطلاقُ أصبحَ علمًا على هذا البيتِ الكريم، ولم يرِد في الذِّكر الحكيم إلّا في أهلِ

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/411.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/122.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 9/332.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/122.

بيتِ الخليلِ إبراهيمَ ﷺ وأهلِ بيت رسولنا محمَّدٍ ﷺ وذلك يدلُّ على خصوصيَّةِ أهلِ هذين البيتينِ في عطاءاتِ الرَّحمةِ الإلهيَّة، والبركات الصمدانيَّة، وهي دلالةُ تشريفٍ وتكريم، حيث إذا ذُكِر أهلُ البيتِ؛ لم ينصرفِ الذِّهنُ إلّا لهذين البيتينِ، فـ «اللهمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وأَزْواجِه وذُرِّيَّتِه، كَما صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إبْراهِيمَ، وبارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وأَزْواجِهِ وذُرِّيَّتِه، كَما بارَكْتَ عَلَى آلِ إبْراهِيمَ، إنَّكَ حَميدٌ مَجِيدٌ»[1].

معنى التَّعريفِ:

تعريفُ ﴿ٱلۡبَيۡتِۚ﴾ بـ (الـ)، وهو "تَعْرِيفُ حُضُورٍ، وهُو البَيْتُ الحاضِرُ بَينهم الَّذِي جرى فِيهِ هَذا التَّحاوُرُ؛ أيْ: بَيْتُ إبْراهِيمَ ﷺ والمَعْنَى: أهْلُ هَذا البَيْتِ"[2]، أو على جعْلِ (الـ) عوضًا عن مضافٍ إليه محذوفٍ، على تقدير: أهل بيتِ إبراهيمَ ﷺ.

بلاغةُ الالتفاتِ من خطابِ الواحدِ إلى خطابِ الجمعِ:

تعميمُ الرَّحمةِ والبركةِ بجميعِ أهلِ البيتِ

التفتَ خطابُ الملائكةِ ﷺ "من صيغةِ الواحدة: ﴿أَتَعۡجَبِينَ﴾ إلى خطابِ الجماعةِ في جمْعِ المذكَّر: ﴿عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ﴾؛ لِتَعميمِ حُكمِهِ لإبراهيمَ ﷺ أيضًا؛ لِيَكونَ جَوابُهم لها جَوابًا له أيضا إنْ خَطَرَ ببالِهِ مثلُ ما خطَر ببالِها"[3]، كما أنَّ فيه بشارةً بامتدادِ البرَكةِ في ذرِّيَّتِهما من أهلِ هذا البيت.

بلاغةُ التَّذييلِ:

المطلوبُ من العبادِ تحميدُ الله وتمجيدُهُ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ تذييلٌ بديعٌ حيثُ أفادَ أمرين:

الأوَّلُ: "بيانُ أنَّ مقتضى حالها أن تَحمَدَ مستوجبَ الحمدِ المحسنَ إليها بما أحسنَ، وتمجِّدُهُ إذ شرَّفها بما شرَّفَ"[4].

---

(1) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (80)، كِتابُ الدَّعَواتِ، بابُ هَلْ يُصَلَّى عَلَى غَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ: 8/77.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/122.

(3) الدّرر السَّنية، موسوعة التفسير على الرابط: https://dorar.net/tafseer/11/14.

(4) القاسمي، محاسن التأويل: 6/116.

الآخر: الإشارةُ "إلى أنَّهُ ﷻ يَحْمَدُ لعبادِه الصّالحين ما يتقرَّبون به إليه من طاعاتٍ وقرباتٍ، فيجزيهم على ذلك الجزاءَ الأوفى، ويرفعُهم إلى منازلِ العزَّةِ والمجادة والشَّرف، وإبراهيمُ عليه السلام ممن أعطى اللّه كيانَهُ كلَّهُ، فأسلمَ له وجودَهُ ظاهرًا وباطنًا، فاستحقَّ أن يُحْمَدَ ويُمَجَّدَ، وهذا ما يشيرُ إليه قولُه ﷻ بعد ذلك: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾"[1].

بلاغةُ اجتماعِ وصْفَي ﴿حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾:

كِنايةٌ عن رضا اللّه تعالى عن أهلِ بيتِ الخليلِ عليه السلام

اجتمعَ وصفُ الحميدِ والمجيدِ في فاصلةِ هذه الآيةِ، ولهذا الاجتماعِ بلاغةٌ، فالحميدُ "هُو المَحْمُودُ، وهُو الَّذِي تُحْمَدُ أَفْعالُهُ، والمَجِيدُ: الماجِدُ، وهُو ذُو الشَّرَفِ والكَرَم، ومِنْ مَحامِدِ الأَفْعالِ إيصالُ العَبْدِ المُطِيعِ إلَى مُرادِهِ ومَطْلُوبِه، ومِنْ أَنْواعِ الفَضْلِ والكَرَمِ ألّا يُمْنَعَ الطّالِبُ عَنْ مَطْلُوبِه، فَإذا كانَ مِنَ المَعْلُومِ أَنَّهُ ﷻ قادِرٌ عَلَى الكُلِّ، وأَنَّهُ ﴿حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾، فَكَيْفَ يَبْقَى هَذا التَّعَجُّبُ في نَفْسِ الأَمْرِ؟ فَثَبَتَ أَنَّ المَقْصُودَ مِنْ ذِكْرِ هذه الكلماتِ إزالةُ التَّعجُّبِ"[2].

وأفعالُ الحميدِ "تقتضي أن يُحمَدَ، و﴿مَّجِيدٌ﴾ أي: متَّصفٌ بأوصافِ العُلُوِّ، ومَجَدَ الشَّيءُ؛ إذا حَسُنَتْ أوصافُه"[3]، ومن كان بهذه الصِّفاتِ "ليس بعيدًا منه أن يُعطيَ الولدَ للآباءِ بعد الكِبَرِ"[4]، فهو ﷻ "كريمٌ كثيرُ الإحسانِ إليهم"[5]، "وكلمةُ ﴿حَمِيدٌ﴾ هنا بمعنى حامدٍ ومحمودٍ؛ لأنَّهُ ﷻ حامدٌ لمن يطيعهُ طاعةً نابعةً من الإيمان، واللّه ﷻ "محمودٌ ممَّن أنعمَ عليهم نعمَهُ السّابغة، واللّه ﷻ هو المجيدُ الَّذي يعطي قبل أن يُسألَ"[6].

---

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 6/172.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/376.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/192.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/242.
(5) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 2/411.
(6) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 11/6567.

"وفي اخْتِيارِ وصْفِ الحَميدِ منْ بَيْنِ الأسْماءِ الحُسْنَى كِنايَةٌ عَنْ رِضا اللّه تعالى عَلَى إبْراهِيمَ عليه السلام وأهلهِ"(1).

إبـقـاءُ وصفَـي (حَـميدٌ مَجيدٌ) في دعاءِ التَّشهُّدِ دلـيـلُ عـظمـةِ الدُّعاء بهما

قد "وصَفَ اللّه عز وجل كِتابَهُ بالمجيد، كَما وصَفَ نَفْسَهُ بِهِ؛ لِسَعَةِ هِدايَةِ كِتابِه، وسَعَةِ كَرَمِه وفَضْلِه عَلَى عِبادِه، ومنْ هَذِهِ الآيَةِ أخَذَ النَّبِيُّ ﷺ دُعاءَ الصَّلاةِ الَّذي أمَرَ بِهِ أُمَّتَهُ عَقِبَ التَّشَهُّدِ الأخيرِ من الصَّلاةِ"(2)، "حيثُ يقولُ الدّاعي: كما صلَّيتَ، وباركتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ، إنَّك حميدٌ مَجيدٌ"(3).

ويأتي ذلك منهُ ﷺ وفاءً لأبيهِ إبراهيمَ الخليلِ وأهلِ بيتهِ الكرام، كما أنَّ فيه دليلًا على عظَمةِ الدُّعاء بهذين الوصفين ﴿حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾؛ وإلّا فما كان لهُما أن يكونا كالخَتْم على تمام الصَّلاةِ، وهي بصددِ ارتفاعٍ إلى اللّه سبحانه وتعالى.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البَعْلُ والزَّوجُ:

"الرَّجلُ لا يكونُ بعلًا للمرأةِ حتَّى يَدْخُلَ بها، وذلك أنَّ البِعالَ: النِّكاحُ والملاعَبةُ، ومنهُ قولُهُ ﷺ: «أيّامُ أكْلٍ وشُرْبٍ وبِعالٍ»، وأصلُ الكلمةِ: القيامُ بالأمر، ومنه يقال للنَّخْلِ إذا شرب بِعُرُوقِه، ولم يَحْتَجْ إلى سَقْيٍ: بَعْلٌ، كأنَّهُ يقومُ بِمصالحِ نفسِهِ"(4).

الشَّيخُ والكَهْلُ:

"الشَّيْخُ مَنِ اسْتَبانَتْ فيه السِّنُّ، أو من خَمْسينَ أو إحْدَى وخَمْسينَ إلى آخِرِ عُمُرِهِ أو إلى الثَّمانينَ"(5)، و"شأنُ الشَّيخ أن تكثُرَ تجاربُهُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/122.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/108.
(3) القشيري، لطائف الإشارات: 2/147.
(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 104.
(5) الفيومي، القاموس المحيط: (شيخ).

ومعارفُه"[1]، "والكَهْلُ: من وخَطَهُ الشَّيْبُ، قال: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: 46]، واكْتَهَلَ النَّباتُ: إذا شارفَ اليبوسةَ مشارفةَ الكَهْلِ الشَّيبَ"[2]، و"الكَهْلُ منَ الرِّجالِ: مَنْ زادَ عَلَى ثَلاثِينَ سَنَةً إلى الأربعين، وقِيلَ: هُو منْ ثَلاثٍ وثَلاثِينَ إلى تَمام الخَمْسِينَ"[3].

البرَكةُ والزِّيادةُ:

"البرَكةُ: هي الزِّيادةُ والنَّماءُ من حيثُ لا يوجدُ بالحِسِّ ظاهرًا، فإذا عُهِدَ من الشَّيءِ هذا المعنى خافيًا عن الحِسِّ؛ قيل: هذهِ بَركةٌ، وقيل: اشتقاقُها من البُروكِ، وهو اللُّزومُ والثُّبوت؛ لثبوتها في الشَّيء، ويُوصَفُ بها كلُّ شيءٍ لزمَهُ، وثبتَ فيه خيرٌ إلهيٌّ.

وليس لضدِّها اسمٌ معروفٌ؛ فلذلكَ يُقالُ فيه: قليلُ البرَكةِ، ولا يُسنَدُ فِعلُ البرَكةِ إلّا إلى الله ﷻ فلا يقالُ: بارَكَ زيدٌ في الشَّيءِ، وإنَّما يُقالُ: باركَ اللهُ فيهِ، فإذًا كلُّ بَركةٍ زيادةٌ، وليس كلُّ زيادةٍ بَركةً"[4].

---

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/360.

(2) الراغب، المفردات: (كهل).

(3) ابن منظور، لسان العرب: (كهل).

(4) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 96.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾ [هود: 74 - 76]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

شَفَقَةُ المؤمنِ على النّاسِ مُستَودَعُ الخيراتِ ومنبَعُ البركاتِ

"لَمّا كان أكثَرُ مُجادَلةِ إبراهيمَ عليه السلام لِما عِندَهُ من الشَّفَقةِ على عبادِ اللّه؛ لِما له من هذه الصِّفاتِ الجليلةِ؛ أعلَمَهُ اللّه أنَّ الأمرَ قد حُسِم بقَولِه حكايةً على لسانِ الرُّسُلِ، أو وحيًا من اللّه تعالى إليه مباشرة: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾"[1]، فالمناسبةُ بين الآياتِ بيانُ شفقةِ إبراهيمَ الخليلِ عليه السلام بالنّاس، وأنَّها أصلُ المَكْرُماتِ، وفي هذه المناسبةِ فائدةٌ عظيمةٌ، وهي أنَّ اللّه يجازي عبادَهُ بما يرجونَهُ لخلقِ اللّه، بل هو أكرمُ وأعظمُ عطاءً ومنَّةً.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلرَّوْعُ﴾: "الرَّوْعُ والرُّواعُ والتَّرَوُّعُ: الفَزَعُ، راعَني الأمرُ يَرُوعُني رَوْعًا ورُووعًا، وكُلُّ شَيْءٍ يَروعُك منْهُ جَمالٌ وكَثرةٌ، تَقُولُ: راعَني، فَهُو رائِعٌ، والرَّوْعةُ: الفَزْعةُ، وفي حَديثِ الدُّعاءِ: «اللهمَّ آمنْ رَوعاتي» هِيَ جَمْعُ رَوْعةٍ، وهِيَ المَرَّةُ الواحِدَةُ مِنَ الرَّوْعِ الفَزَعِ"[2]، و"الرُّوعُ بالضَّمِّ: القلبُ والعقلُ"[3]، "أو مَوْضِعُ الفَزَعِ منهُ"[4]، و"الرَّوعُ: ما أُلقِيَ في القلبِ من الفَزَعِ"[5].

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/233.
(2) ابن منظور، لسان العرب: 8/135.
(3) أبو البقاء، الكليات، ص: 480.
(4) الفيروزابادي، القاموس المحيط، ص: 724.
(5) الجمل، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن: 2/231.

والمقصودُ في الآيةِ: ما كان للخليلِ عليه السلام من الخوفِ الَّذي أصابهُ بسببِ امتناعِ الأضيافِ من تَناولِ الطَّعام.

2) ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾: "الجَدْلُ: شِدَّةُ الفَتلِ، وجَدَلْتُ الحَبْلَ أجْدِلُهُ جَدْلًا؛ إذا شَدَدْتُ فَتْلَهُ، وفَتَلْتُهُ فَتْلًا مُحْكَمًا"[1]، و"الجِدالُ: المفاوضةُ على سبيلِ المنازعةِ والمغالبةِ، وجدلْتُ البناءَ: أحكمتُهُ، ودِرْعٌ مَجْدُولَةٌ، والأجْدَلُ: الصَّقرُ المُحكَمُ البِنيَةِ، والمِجْدَلُ: القصْرُ المحكمُ البناءِ، ومنهُ: الجِدالُ، فكأنَّ المتجادلَيْنِ يَفْتِلُ كلُّ واحدٍ الآخرَ عن رَأيِه، وقيل: الأصلُ في الجِدالِ: الصِّراعُ وإسقاطُ الإنسانِ صاحبَهُ على الجَدالَةِ، وهي الأرضُ الصُّلبةُ"[2].

والمقصودُ في الآيةِ: هو مجادلَةُ الخليلِ عليه السلام الرُّسلَ في شأنِ عذابِ قومِ لوطٍ، رجاءَ ترْكِ المعاجَلةِ؛ لعلَّ اللّٰه يهديهم، ويُصلِحُ حالَهم.

3) ﴿أَوَّٰهٌ﴾: آهِ: حكايةُ المُتأوِّهِ في صوتِه، وقد يفعلُهُ الإنسانُ مِنَ التَّوجُّعِ، وأهَّ فلانٌ أهَّةً وآهةً[3]؛ إذا توجَّعَ، فقال: آهِ، أو قال: هاهِ عند التَّوجُّعِ، فأخْرَجَ نفَسَهُ بهذا الصَّوتِ؛ ليتفرَّجَ عَنْهُ ما بِهِ، والأوّاهُ: الدَّعّاءُ للخير[4]، و"رَجُلٌ أوّاهٌ: كَثيرُ الحُزنِ، وقِيلَ: هُوَ الدَّعّاءُ إلى الخَيْرِ، وقِيلَ: الفَقيهُ، وقِيلَ: المؤمنُ، بِلُغَةِ الحَبَشَةِ، وقِيلَ: الرَّحيمُ الرَّقيقُ، وفي التَّنْزيلِ العَزيزِ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾، وقِيلَ: الأوّاهُ هُنا: المُتأوِّهُ شَفَقًا وفَرَقًا، وقِيلَ: المُتَضَرِّعُ يَقينًا؛ أي: إيقانًا بالإجابَةِ ولُزُومًا لِلطّاعَةِ... وفي الحَديثِ: (اللهمَّ اجْعَلني مُخْبِتًا أوّاهًا مُنِيبًا)، الأوّاهُ: المُتأوِّهُ المُتَضرِّعُ"[5]، والأوّاهُ هنا "هو المبتهلُ إلى اللّٰه، المتخشِّعُ في ابتهالِهِ، الرَّحيمُ الَّذي يُكثِرُ من التَّأوُّهِ خوفًا وإشفاقًا مِنَ الذُّنوبِ"[6].

4) ﴿مُّنِيبٌ﴾: "نابَ فلانٌ إلى اللّٰه تعالى وأنابَ إليه إنابةً، فَهُو مُنِيبٌ؛ أي: أقْبَلَ، وتابَ، ورجَعَ إلى الطّاعَةِ، وقِيلَ: نابَ: لَزِمَ الطّاعَةَ، وأنابَ: تابَ ورجَعَ، وفي حَديثِ الدُّعاءِ: «وإليك أنَبْتُ». الإنابَةُ: الرُّجوعُ إلى اللّٰه بالتَّوبةِ، وفي التَّنْزيلِ العَزِيزِ: ﴿۞مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾

(1) ابن منظور، لسان العرب: (جدل).
(2) الراغب، المفردات، ص: 189.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أنَّ).
(4) الخليل، العين: (أوه).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (أوه).
(6) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/65.

[الروم: 31] أي: راجِعِينَ إلى ما أمَرَ بِهِ، غَيْرَ خارِجِينَ عَنْ شيءٍ مِنْ أمْرِه، وقَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: 54] أي: تُوبوا إليهِ، وارْجِعُوا"[1].

5) ﴿أَعۡرِضۡ﴾: "العَرْضُ: خلافُ الطُّولِ، وأصلهُ أن يقالَ في الأجسام، ثمَّ يستعملَ في غيرها كما قال ﷻ: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: 51]. والعُرْضُ خُصَّ بالجانبِ، وأعْرَضَ الشَّيءُ: بدا عُرْضُهُ... أعْرَضَ عنِّي: ولَّى مُبديًا عُرْضَهُ، قال ﷻ: ﴿ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ﴾ [السجدة: 22]"[2]، وكذا "أعْرَضَ عَنِ الشَّيْءِ؛ إذا ولّاه ظَهْرَهُ"[3]، و"أعْرَضَ عَنْهُ: صدَّ"[4]، والمرادُ في الآيةِ، هو تَرْكُ مجادلةِ الرُّسُلِ الكرام في شأنِ عذابِ قوم لوطٍ.

6) ﴿مَرۡدُودٖ﴾: "الرَّدُّ: صَرْفُ الشَّيءِ بذاته، أو بحالةٍ من أحواله، يقال: رَدَدْتُهُ، فارْتَدَّ، قال تعالى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأنعام: 147]، فمِنَ الرَّدِّ بالذّاتِ قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: 28]... ومِنَ الرَّدِّ إلى حالةٍ كان عليها قوله تعالى: ﴿يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ [آل عمران: 149]، وقولُهُ: ﴿وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ﴾ [يونس: 107]؛ أي: لا دافِعَ ولا مانِعَ لهُ، وعلى ذلك: ﴿عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ [هود: 76]"[5].

❁ المَعنى الإجماليُّ:

تُبيِّنُ الآيةُ حالَ إبراهيمَ عليه السلام بعد ذهابِ رَوعِهِ من امتناعِ الرُّسلِ عن تناولِ الطَّعام، "فلمّا اطمأنَّ قلبُهُ بعد الخوفِ، ومُلِئَ سرورًا بسببِ البُشْرى بدلَ الغَمِّ، فرَغَ للمجادلةِ"[6]، شفقةً من نزولِ العذابِ بقوم لوطٍ عليه السلام وذلك أنَّ " إبراهيمَ لحليمٌ، فلا يُحبُّ أن يُعاجِلَ

اللـه تعالى يحبُّ المؤمنين ويكرِّمُهم، ومع ذلك لا يَقْبَلُ شفاعتَهم في الكافرين

(1) ابن منظور، لسان العرب: (ناب).
(2) الراغب، المفردات: (عرض).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (عرض).
(4) أبو البقاء، الكليات، ص: 624.
(5) الراغب، المفردات: (رد).
(6) الزمخشري، الكشّاف: 2/412.

بالعقوبةِ، كثيرُ التَّأوُّهِ والتألُّم من عذابِ النّاس، منيبٌ إلى اللّه ﷻ وراجعٌ إليهِ"[1]، فناداه اللّه تعالى أو نادته الملائكة أن يا إبراهيم انصرف عن الجدالِ لـ "إنّه قد نفذ فِيهِم القضاء، وحقّت عليهم الكلمة بِالهلاكِ، وحلولِ البأسِ الّذِي لا يردّ عنِ القوم المجرِمينَ"[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاءِ ودلالتُها:

بيانُ مسارعةِ الأحداثِ، وأنَّ الأمرَ جَلَلٌ لا يحتملُ الانتِظارَ

دخلتِ "الفاءُ في جملة ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ﴾؛ لربْطِ بعضِ أحوالِ إبراهيمَ عليه السلام ببعضٍ غِبَّ[3] انفصالِها بما ليس بأجنبيٍّ من كلِّ وجهٍ، بل له مدخلٌ تامٌّ في السِّباقِ والسِّياقِ"[4].

وقد آثرَ النَّظمُ الكريمُ العطفَ بالفاءِ في جملةِ: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ﴾؛ لأنَّها تُفصِحُ عن أنَّ الوقتَ الَّذي قضاهُ الخليلُ إبراهيمُ عليه السلام في معالجة الرَّوْعِ كان خاطِفًا سريعًا سرعةَ الفاءِ مع لمّا، فما هي إلّا لحظاتٌ حتَّى وقفَ عليه السلام على حقيقةِ أضيافِهِ، ورجعَ إلى حالةِ طُمأنينتِهِ، وتجاوزَ لحظاتِ السَّعادةِ بِبُشْرى الإنجاب، ثمَّ عاد سريعًا إلى القضيَّة الكبرى لتنزُّلِ الملائكةِ الكرام في عذابِ قوم لوطٍ.

فحَقُّ العطفِ إذًا أن يكونَ بالفاءِ في جُملةِ ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ﴾، ولا تلائمُ الواوُ هذا السِّياقَ؛ لأنَّها هادئةٌ تُؤذِن بشيءٍ من الفُتورِ، وربَّما حلَّت محلَّ (ثمَّ)، فتؤذِنُ بالتَّراخي، فهي إذًا البديلُ المسموحُ لـ (ثمّ) مع (لمّا)، فتُناسبُ المقاماتِ المتراخيةَ، أمّا (الفاءُ)؛ فتُؤْذِن بِطَيِّ الوقتِ، وتتآزرُ مع (لمّا) في وصلِ الجزاءِ بالشَّرطِ[5].

---

(1) حجازي، التفسير الواضح: 2/136.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/336.

(3) غبّ: إثر.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/226.

(5) أحمد محمّد سعيد، الأثر البلاغيّ للفاء والواو الداخلتين على لمّا الحينيّة، مجلّة جامعة الإمام، 1443هـ.

سرُّ إيثارِ ﴿فَلَمَّا﴾ دونَ (حين):

المسرّاتُ الشَّخصيَّةُ لا تمنعُ من العنايةِ بأحوالِ الآخرين

(لمّا) تُفيدُ تقليصَ الزَّمنِ بين جزائِها وشرطِها، ومعناها في الآيةِ: أنَّ جدالَ الخليلِ عليه السلام ملائكةَ الرَّحمنِ بشأنِ إيقافِ هلاكِ قومِ لوطٍ جاء سريعًا، فبمجرَّدِ ذهابِ الرَّوعِ ومجيءِ البُشرى، أقبلَ يُجادِلُ في دفعِ عذاب قوم لوطٍ عليه السلام فلم يمنعْهُ رَوْعُهُ بامتناعِ ضيوفِهِ عن تناولِ الطَّعامِ من العِجْلِ السَّمينِ الحنيذِ، ولا بُشراهُ بإنجابِ الولدِ - مع عظمتِها - عن محاولةِ الذَّودِ عن قومِ لوطٍ عليه السلام لعلَّهم يتوبون من الفاحشة، فكان مضمونُ جزاءِ الشَّرطِ المحذوفِ ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾ فوريًّا بعد ذهابِ الرَّوعِ وتلقّي البُشرى.

أمّا كلمةُ (حين)؛ فلا تفي بترجمَةِ هذهِ السُّرعةِ الخاطفةِ، وطيِّ الزَّمنِ بينَ الحَدَثَيْنِ، ولو قيل: (فحين ذهبَ عن إبراهيمَ الرَّوعُ يُجادِلُنا في قوم لوطٍ)؛ تجدُ الفتورَ بَيِّنًا، لا يلائِمُ معالجةَ ظرْفِ إهلاكِ قريةٍ بأكملِها، وهي قريةُ نبيِّ اللّه تعالى لوطٍ عليه السلام فتوتُّرُ اللّحظةِ وشدَّةُ المصيبةِ لا يَحتملانِ فُتورَ (حين)، ولا يناسبُهما إلّا أداةُ الشَّرطِ (لمّا)، والفاءُ الَّتي آزرتْها، ووفَّتْ بِحقِّ هذا المقام.

بلاغةُ التَّعبيرِ المجازيِّ:

تجسيدُ الرَّوعِ لبيانِ شدَّتِهِ على إبراهيمَ عليه السلام

لفظُ الذَّهابِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ﴾ إمّا أنْ يُحملَ على المجازِ العقليِّ، أو الاستعارةِ؛ إذِ الذَّهابُ من صفاتِ الأحياءِ، وقد جاءَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ﴾ سُلوكًا مثبَتًا للرَّوعِ، وكأنَّ له إرادةً، فيذهبُ برغبتِهِ، وفي هذا مجازٌ عقليٌّ بإسنادِ فعلِ الذَّهابِ إلى غيرِ فاعلِهِ، ونكتةُ هذا الإسنادِ المجازيِّ تجسيدُ الرَّوعِ لبيانِ شدَّةِ أثرِهِ على إبراهيمَ عليه السلام.

وتوجيهُ الاستعارة: أنَّ الرَّوْعَ لا يذهبُ وإنَّما يتلاشى، فلم يَقُلْ: (فلمّا زال الرَّوعُ)، فشبَّهَ زوالَ الرَّوعِ وتلاشيَهُ بالذَّهابِ، وصرَّحَ

بالذَّهابِ على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ؛ لبيانِ زوالِه بالكلِّيَّةِ، دون أن يبقى له أثرٌ، وهذهِ الصُّورُ البيانيَّةُ المتكاثِفةُ الظِّلالِ تُضْفي على المعاني خيالًا طريفًا، وتعكِس شدَّةَ الرَّوعِ الذي مَلَكَ على إبراهيمَ الخليلِ ﵇ كيانَهُ، والتَّوجُّسَ الَّذي لفَّهُ من هؤلاء الضِّيوفِ الَّذين أسرعَ في إكرامهم، وبالغَ في الإكرام، ثمَّ توقَّفوا عن الطَّعام في منظرٍ يثيرُ الفزعَ؛ إذ امتناعُ الأضيافِ عن تناولِ طعام مُضيفِهم كانت، ولا زالت أمارةَ شرٍّ ونذيرَ عداوةٍ، أو خصومةٍ على الأقلِّ، فكلُّ ذلك يُثبِت أنَّ إبراهيمَ ﵇ سرعانَ ما استجمعَ نفسَهُ، وتجاوزَ اللَّحظةَ، حتَّى إنَّه لم يتوقَّفْ طويلًا عند البِشارةِ الكُبرى، وعند فرْحةِ زوجتِه السَّيِّدةِ سارةَ بهذهِ البُشرى الجديدةِ بإنجابِ إسحاقَ، ومن وراءِ إسحاقَ يعقوبُ، وأنَّ كلَّ ذلك سيكونُ في حياتِهم، وفي ذلك بِشارَةٌ بطولِ العُمُرِ حتَّى يَروا الابنَ ثمَّ زوجَهُ، ثمَّ حفيدَهُم منه.

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور على الفاعِلِ:

العنايةُ بإبراهيمَ ﵇ والتَّشويقُ لمعرفةِ ما ذهبَ عنهُ

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ على الفاعل ﴿ٱلرَّوۡعُ﴾؛ لأنَّ الغرضَ كلَّهُ يتعلَّقُ بالمقدَّم ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ ﵇ لا بالمؤخَّر، فهو المعنيُّ ببيانِ الهدوءِ وذهابِ الرَّوعِ عنهُ، وهو المقصودُ بالمجادلة الآتيةِ في جوابِ ﴿فَلَمَّا﴾، كما يتَّفق أنَّ مع تأخيرِ ﴿ٱلرَّوۡعُ﴾ "تبقى النَّفسُ منتظرةً إلى ورودِه، فيتمكَّنُ فيها عندَ ورودِه إليها فضلَ تمكُّنٍ"[1].

بالإضافةِ إلى أنَّ استعمالَ حرفِ ﴿عَنۡ﴾ يُوحي بأنَّ الرَّوْعَ كان شديدًا على إبراهيمَ ﵇ حتَّى لَكأنَّهُ شخصٌ مسلَّطٌ على إبراهيمَ ﵇ يهزُّهُ ويُؤذيه، وأنَّ تلاشيَهُ وفتورَهُ وانتهاءَهُ كان بمنزلةِ ذهابٍ عنهُ، وتركٍ لَهُ، وكأنَّ إبراهيمَ ﵇ تخلَّصَ منهُ، فكأنَّه نشِطَ من عِقالٍ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 4/226.

سرُّ استعمالِ لفظِ ﴿ٱلرَّوۡعُ﴾:

بلوغُ الخوفِ مبلغًا كاملًا إلى حدِّ الامتلاءِ النَّفسيِّ

في اصطفاء مفردةِ ﴿ٱلرَّوۡعُ﴾ دلالةٌ على أنَّه كان مُريعًا مُرْعِبًا، فالرَّوعُ هو القلبُ، وسُمِّيَ بِهِ الخوفُ لبلوغِهِ أعلى الدَّرجاتِ، وعليهِ فمعنى تعريفِهِ بـ (أل) يشيرُ إلى أنَّه كان رَوْعًا كاملَ التَّرويع، فهو ﴿ٱلرَّوۡعُ﴾ الحقيقُ بهذه الصِّيغَةِ؛ لذلك كان تلاشيه وفُتُورُهُ عن إبراهيمَ عليه السلام ذهابًا كاملًا بلا أثرٍ، كما سبقَ بيانُ ذلك في بلاغةِ التَّعبيرِ المجازيِّ في مفردة ﴿ذَهَبَ﴾.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنيَّةِ:

تصويرُ المعاني لتهويلِ مشهدِ الرَّوعِ

الرَّوعُ لا يذهبُ بذاته، فهو معنًى لا ذاتٌ حيَّةٌ تتحرَّكُ تحرُّكًا إراديًّا، ففي قولِهِ تعالى: ﴿ٱلرَّوۡعُ﴾ استعارةٌ بتشبيهِ الرَّوعِ برجلٍ ذاهبٍ، ثم حذفَ المشبَّهَ به، وهو الرَّجلُ، وذكرَ المشبَّهَ مع ذكرِ لازمٍ من لوازم المشبَّهِ به، وهو الذَّهابُ، على سبيل الاستعارةِ المكنيَّةِ الأصليَّةِ، والاستعارةُ أبلغُ من الحقيقةِ؛ إذ تشخيصُ المعنى فيه تهويلٌ تصويريٌّ فوق التَّهويلِ الدِّلاليِّ.

براعةُ عطفِ الجملِ:

التَّخليةُ قبلَ التَّحليةِ والمسرّاتُ عاقبةُ الملمّاتِ

ذكر النَّظمُ الكريمُ ذهابَ الرَّوعِ من إبراهيمَ عليه السلام ثمَّ عطفَ عليهِ مجيءَ البشرى، وهذا من بابِ التَّخليةِ قبل التَّحليةِ؛ إذ اقتضى لطفُ اللّه تعالى بعبدِهِ الخليلِ أن يُكافِئَهُ بعدَ ذلكَ الرَّوعِ الَّذي أصابَهُ، ببُشْرى الولدِ، ومن هذا من لطيفِ الإشارةِ إلى عنايةِ اللّه بعبادهِ المقرَّبين، أنَّه لا يتركُهم في المُلمّاتِ حتَّى يكافِئَهم بالمسرّاتِ.

بلاغةُ المجازِ:

اجتماعُ مجازٍ عقليٍّ واستعارتين دليلُ الكمالِ البيانيِّ تصويرًا وتجسيدًا

في قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ تعبيران مجازيّان، أمّا الأوَّلُ؛ ففي لفظِ ﴿وَجَآءَتۡهُ﴾، فالبشرى لم تجئْ إبراهيمَ عليه السلام من تلقاءِ نفسِها، وبإرادةٍ منها، وبقدرةٍ على تنفيذ الإرادة، فالَّذي بشَّرهم الملائكةُ الكرامُ، فكان الظّاهرُ أن يقالَ: وجاءتْه الملائكةُ بالبشرى،

غير أنَّ ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ لِعظمتِها وضخامتها وعُلُوِّ قيمتِها عُبِّرَ عنها بإسنادِ المجيءِ إليها، على سبيلِ المجازِ العقليِّ، أو الاستعارة؛ حيث شبَّهَ الإخبارَ عن الشَّيءِ بمجيئِهِ، وصرَّحَ بالمشبَّهِ بهِ على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة.

وأمّا الآخرُ؛ ففي لفظِ ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾، إذ شبَّهَ البُشرى بامرأةٍ جاءت بعد ذهابِ الرَّوعِ، وحذفَ المشبَّهَ بهِ، وذكرَ لازمًا من لوازم المشبَّهِ، وهو المجيءُ، على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ الأصليَّة.

بلاغةُ اختيارِ المفردةِ:

تهلُّلُ البَشَرةِ دليلُ سعادةِ القلبِ والعقلِ والرُّوحِ

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بالبُشرى دونَ الخبرِ؛ وذلك لأنَّ "البِشارةَ هي الخبرُ السّارُّ، فهي أخصُّ من الخبرِ، وسُمِّيت بذلك؛ لأنَّ آثارَها تظهرُ على بشَرَةِ الوجْهِ؛ أي: جِلْدِهِ"[1]، وهو الَّذي تنْضَحُ عليه آثارُ الأخبارِ السَّعيدةِ، فتكونُ أظهرَ ما تكونُ في البشَرَةِ انفراجًا وتهلُّلًا، ففيها كنايةٌ عمّا يستقرُّ في القلبِ والعقلِ والكيانِ من أسبابِ السَّعادةِ.

معنى التَّعريفِ:

بُشْرى إبراهيمَ عليه السلام استثنائيَّةٌ في تاريخِ البشريَّةِ

التَّعريفُ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ عَهديٌّ ذِكريٌّ، حيثُ أُشيرَ إليها في قولِهِ تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾، وفي هذا التَّعريفِ بيانٌ لكمالِ هذهِ البُشرى، فإنَّ مجيءَ خبرِ الإنجابِ إلى إبراهيمَ عليه السلام في هذهِ السِّنِّ، وجبْرَ خاطرِ السيِّدةِ سارَّة ليس بـ ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ الاعتياديَّةِ الَّتي يعتادانِها في حياتِهما، بل إنَّها البُشرى الجديرةُ بهذهِ التَّسميةِ، وبهذا التَّعريفِ الَّتي لا يُوصَفُ سواها؛ إذا قيسَ بها بأنَّه بُشرى.

علَّةُ فصلِ الجملةِ عن السّابقِ:

حِلمُ إبراهيمَ ورأفتُهُ هي الباعثُ على المجادَلةِ

اختُلِفَ في قولِهِ تعالى: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾ في كونِهِ استئنافًا

---

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/239.

أو حالًا، وهذهِ الأوجهُ الصناعيَّةُ تلتقي في دلالةٍ متقاربَةٍ، وهي أنَّ حالَ إبراهيمَ عليه السلام هي الرَّأفةُ والرَّحمةُ بقوم لوطٍ عليه السلام فإذا جعلناهُ استئنافًا بيانيًّا، فكأنَّ سائلًا قد سألَ: وماذا قالَ الخليلُ حينئذٍ، فهذا من شبهِ كمالِ الاتِّصالِ، وإذا جعلناهُ حالًا؛ فهو بيانٌ لحالِهِ، فتكونُ جملةُ الحالِ مبيِّنةً لشأنِهِ في الخبرِ السّابقِ، فغرضُ مجادلَتِهِ عليه السلام رحمةُ قومِ لوطٍ عليه السلام لدفْعِ العذابِ عنهم.

دلالةُ استعمالِ مفردةِ المجادلةِ دونَ المحاورَةِ:

كِـنــايــةٌ عن رحـمـةِ الخليلِ بـالـعـاصـيـنَ وحِلمِهِ بالنّاس جميعًا

مادَّةُ الجدالِ مأخوذةٌ من جَدْلِ الحبْلِ، وجدْلُهُ يحتاجُ إلى إحكامِ وقوَّةِ فتْلٍ؛ ليتحمَّلَ الشَّدَّ بهِ، ففي استعمالِها في قولِهِ تعالى: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾ دلالةٌ على قوَّةِ إحكام إبراهيم عليه السلام الكلامَ، وقوَّةِ منطقِهِ، والحِرصِ على بلوغِ الغايةِ من هذا الجدالِ بدفْعِ العذابِ، فـ "المُجادَلَةُ هُنا: دُعاءٌ ومُناجاةٌ سَألَ بها إبْراهِيمُ عليه السلام رَبَّهُ العَفْوَ عَنْ قَوْمِ لُوطٍ خَشْيَةَ إهْلاكِ المُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ"[1]، و"تَأْخِيرِ العَذابِ عَنْهُمْ؛ إذ كانَ يَمِيلُ إلَى أنْ تَلْحَقَهُمْ رَحْمَةُ اللَّه بِتَأْخِيرِ العَذابِ عَنْهُمْ رجاءَ أنَّهم أقْدَمُوا عَلَى الإيمانِ والتَّوْبَةِ عَنِ المَعاصِي، وأنَّ أمْرَ اللَّه ورَدَ بِإيصالِ العَذابِ، ومُطْلَقُ الأمْرِ لا يُوجِبُ الفَوْرَ، بَلْ يَقْبَلُ التَّراخِيَ، فَقالَ للملائكة: اصْبِرُوا مُدَّةً أُخْرَى، ولَعَلَّ إبْراهِيمَ عليه السلام سَألَ عَنْ لَفْظِ ذَلِكَ الأمْرِ، وكانَ ذَلِكَ الأمْرُ مَشْرُوطًا بِشَرْطٍ، فاخْتَلَفُوا في أنَّ ذَلِكَ الشَّرْطَ هَلْ حَصَلَ في ذَلِكَ القَوْمِ أمْ لا، فَحَصَلَتِ المُجادَلَةُ بِسَبَبِهِ، وبِالجُمْلَةِ نَرَى العُلَماءَ في زَمانِنا يُجادِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عِنْدَ التَّمَسُّكِ بِالنُّصُوصِ، وذَلِكَ لا يُوجِبُ القدْحَ في واحدٍ منها، فكذا هاهنا"[2].

وعليهِ فالتَّعبيرُ عن الدُّعاء بتأخيرِ العذابِ عن قوم لوطٍ رجاءَ الإيمانِ بالجدال، هو كنايةٌ عن رحمةِ إبراهيمَ عليه السلام وحِلمُهُ الَّذي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/123.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/376، 377.

أشادَ اللّه تعالى بهِ في الآيةِ التّاليةِ، وأنَّه يتَّخِذُ أقوى الوسائِلِ دفاعًا عن النّاسِ لعلَّهم يتوبون لينجوا منَ الهلاكِ.

بلاغةُ استعمالِ صيغةِ المضارعِ ﴿يُجَٰدِلُنَا﴾:

عظيمُ النَّفسِ يتَّخِذُ من التَّدابيرِ في مصلحةِ النّاسِ أقواها

اختُلِفَ في جوابِ ﴿فَلَمَّا﴾، فقيلَ: أخذَ وأقبلَ يجادلُنا، وعليهِ فمقتضى الظّاهرِ ما جاءَ عليهِ النَّظْمُ؛ لأنَّ التَّعبيرَ بالماضي قد تحقَّق في جوابِ ﴿فَلَمَّا﴾ المقدَّرِ، "والمعنى: فلمّا ذهبَ عن إبراهيمَ الرَّوعُ، وجاءَتْهُ البُشْرى أخَذَ يُجادِلُنا في قوم لوطٍ، وأقبلَ يجادِلُنا، ولم يُذْكَرْ في الكلام أخَذَ وأقبلَ؛ لأنَّ في كلِّ كلامٍ يُخاطَبُ به المخاطَبُ معنى أخَذَ وأقْبَلَ؛ إذا أرَدْتَ حكايةَ الحالِ"[1].

وعلى هذا حُذِفَ الجوابُ، وبُنِيَ النَّظمُ الكريمُ على ذِكْرِ الفِعْلِ المُضارعِ مباشرةً، ونكتَةُ ذلكَ استحضارُ الحوارِ حيًّا كأنَّهُ يحدُثُ الآنَ، وتظلُّ هذه الحيويَّةُ، وذلك الاستحضارُ باقِيَيْن ببقاءِ القرآنِ الكريم يُخاطِبُ كلَّ جيلٍ وكلَّ قبيلٍ، فيعيشونَ هذا التّاريخَ، كأنَّهُ واقعٌ مشهودٌ، ويبقى "تصويرُ هذه الحالةِ في الذِّهن تصويرًا حاضرًا، حتَّى تزدادَ منهُ العِبرةُ والعِظةُ"[2].

إنَّه يجادِلُ، ويَجِدُّ في الجدالِ، ويُساعدُ بالدِّفاعِ دونَ توانٍ، وينوِّعُ في أسبابِ الدِّفاعِ[3]، ويستنفِذُ الطّاقةَ، ويعتذِرُ عنهم لعلَّ اللّه تعالى يخفِّفُ عنهم، أو يمنحُهم فرصةً، ويؤجِّل نزولَ العقابِ، وعندَ نزوله يكونُ لكلِّ حادثةٍ حديثٌ، وإلى ذلكَ تتَّسقُ المؤازرةُ، وتُناسِبُ صعوبةَ اللَّحظةِ وعمقَ الشُّعورِ لديهِ ﵇ بما يقعُ على كاهلهِ بموجبِ طبيعةِ

(1) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/64.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/243.

(3) فيتدرَّج في سؤال الملائكة عن العدد الذي يمنع العذاب العامّ، ويوقف الاستئصال نزولًا حتى عدد خمسة من المؤمنين، "قال حُذيفةُ: كانت مُجادلتُهُ إيّاهُم أنّهُ قال لهُم: إن كان فِيهِم خمسُون يعنِي نفسًا أتُهلِكُونهُم؟ قالُوا: لا، قال: أرأيتُم فأربعُون؟ قالُوا: لا، قال: فثلاثُون؟ قالُوا: لا. حتّى انتهى إلى عشرة أو خمسة، شكّ سُليمانُ"، يُنظر: ابن أبي الدنيا، العقوبات، ص: 103.

تكوينهِ من الجِدالِ عن قريةٍ ستُهْلَكُ عن بَكرةِ أبيها؛ لعلَّهم ينتهونَ، فينجوا من الهلاكِ الأبديِّ والعذابِ الخالدِ.

وعلى افتراضِ أنْ جاء النَّظم: (جادلنا)؛ "لَمّا كان لهذا الأمر ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ هذا الوقعُ الصّادعُ على نفسِ إبراهيمَ، لأفلتَ من يدهِ ما كان مُمسكًا بهِ من المجادلةِ؛ لأنَّهُ كانَ قد جادَلَ فِعلًا، وانتهى الأمرُ، أمّا في هذه الحالةِ؛ فهو لا يزالُ يَسألُ ربَّهُ العفو والرَّحمةَ لهؤلاءِ القوم، ولا تزالُ الكلماتُ على شَفَتَيهِ، فإذا سَمِعَ أمْرَ اللّه تعالى بالإعراضِ عن هذا، أمْسك لسانَهُ"[1].

نكتةُ حذْفِ المضافِ في الفعلِ:

تكريمُ اللهِ للملائكةِ الكرامِ، ومكانةُ الخليلِ عندَ اللهِ ﷻ

لم يجادِلْ إبراهيمُ عليه السلام ربَّهُ ﷻ، وما ينبغي له أن يفعلَ، وإنَّما كان يجادلُ ملائكةَ اللّه ﷻ ومَن يجادلُ الملائكةَ الكرامَ في أمرٍ كلَّفَهُمُ اللّه تعالى بهِ يكونُ كأنَّه جادلَ اللّه ﷻ لأنَّ ملائكتَهُ ﷻ نزلوا بأمرهِ لينفِّذوهُ، فـ "﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾ أي: يجادلُ رسلَنا في حالهِم وشأنِهم، ففيهِ مجازٌ في الإسنادِ"[2]، فلم يَقُلْ: (يُجادِلُ رسلَنا) ونكتةُ ذلك في أمرين:

الأوَّلُ: تكريمُ رسلِ اللّه تعالى في إضافتهم إلى اللّه ربِّ العالمين[3]، فأضافَ "سبحانَهُ المجادلةَ إلى نفسِهِ مع أنَّها كانت مع الملائكةِ؛ لأنَّ نزولَهم لإهلاكِ قوم لوطٍ إنَّما كانَ بأمرهِ تعالى فمجادلةُ إبراهيمَ عليه السلام لهم هي مجادلةٌ في تنفيذِ أمرهِ تعالى وهذهِ المجادلةُ الَّتي كانت بين إبراهيمَ وبين الملائكةِ الَّذين أُرسلوا لإهلاكِ قوم لوطٍ، قد حكاها سبحانه في سورةِ العنكبوتِ في قولهِ: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ﴾ أي: القريةِ الَّتي يسكنُها

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 6/1174.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/299.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 6/1175.

قومُ لوط ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ۝٣١ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [الآيتان: 31 - 32].

وهذا التَّفسيرُ للمجادلةِ الَّتي دارت بين إبراهيمَ والملائكةِ في عقابِ قوم لوطٍ هو الصَّحيحُ؛ لأنَّ خيرَ تفسيرٍ للقرآنِ هو ما كان بالقرآنِ"[1]، وما قيل: بأنَّ "المرادَ منهُ السُّؤالُ عن حالِ العذابِ هل هو واقعٌ بهم لا محالة، أم هو على سبيلِ الإخافةِ ليرجعوا إلى الإيمانِ؟"[2]، فلا دليلَ عليه.

الآخرُ: في إقامةِ ضميرِ العظمةِ مقامَ المفعولِ كنايةٌ عن مكانةِ الخليلِ عليه السلام في أن يجادلَ الله في أمرِ العبادِ، وفي ذلكَ من تكريم الله ﷻ لخليله عليه السلام ومن رِفعةِ شأنه ما فيه، كما يوحي بصدقِ إبراهيمَ عليه السلام في الدَّفعِ عن القوم؛ لعلَّهم يتوبونَ، ولِهذا الصِّدقِ والقوَّةِ في المجادلة وصفَهُ اللهُ تعالى - كما سبق - بأوصافٍ ثلاثةٍ قلَّما تجتمع بهذا الكمالِ في النّاس ﴿لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾، تلكَ أوصافُ الرِّجالِ الَّذين هم في طبقةِ إبراهيمَ عليه السلام من أولي العزم من الرُّسلِ.

بلاغةُ حذفِ المضافِ في الاسم:

"وقَوْلُهُ: ﴿فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ عَلَى تَقْدِيرِ مُضافٍ؛ أيْ: في عِقابِ قَوْمِ لُوطٍ، وهَذا مِنْ تَعْلِيقِ الحُكْمِ بِاسْمِ الذّاتِ، والمُرادُ حالٌ مِنْ أحْوالِها يُعَيِّنُهُ المَقامُ، كقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: 3] أيْ: أكْلُها"[3]، وتظهر بلاغةُ الحذفِ في كونِ المخاطَب يعلمُ حالَ قوم لوطٍ، ويعلمُ أنَّ مجيءَ الرُّسلِ كان لغايةِ تأديبِهم وإنزالِ العقوبةِ فيهم، والنَّظمُ القرآنيُّ مبنيٌّ على الإيجازِ، فإذا تحقَّقَ المقصودُ من الكلام بأقلِّ حروفٍ؛ صيرَ إليه، هذا ما يقتضيهِ توجيهُ الحذفِ.

إذا تحقَّقَ مقصودُ الكلام لدى المخاطَبِ؛ فالحذفُ مسلكٌ بيانيٌّ قويمٌ

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/243.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/301.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/123.

المجادلةُ كانت في عموم أحوالِ قوم لوطٍ ويدخلُ العقابُ دخولًا أوّليًّا

دلالةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّةِ:

استعمل النَّظمُ حرفَ الظَّرفيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوۡمِ لُوطٍ﴾، وذلك للإشارةِ إلى أنَّ الخليلَ عليه السلام يجادلُ في عموم قوم لوطٍ لا في خصوصِ العقابِ؛ أي: إنَّهُ يُجادل في حالهِم السّابقةِ قبل الفاحشةِ، وفي أحوالِ بعضهم ممَّن لم يُبالِغ فيها، وفي حالِهم إن آمنوا، واهتدَوا، وفي حال ممتلكاتِهم وصغارِهم ووِلْدانِهم، وما إلى ذلك من متعلِّقاتِ القوم، فهي مجادلةٌ عامَّةٌ لا خاصَّةٌ في شأنِ العقابِ، فكانَ حذفُ المضافِ بغرضِ التَّعميم، ويَدْخُلُ المحذوفُ دخولًا أوَّليًّا في شأنِهم.

من أعظم البلاءِ اجتماعُ الجميعِ على الفحشِ البذيءِ

دلالةُ استعمالِ مفردةِ ﴿قَوۡمِ﴾:

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ هنا بكلمةِ ﴿قَوۡمِ﴾ للتَّعبيرِ عن السَّوادِ الأعظم من أهلِ قريةِ نبيِّ اللّه تعالى لوطٍ عليه السلام الَّذين أجمعوا على استحلالِ الفاحشةِ، ومارسوها، لا فرقَ في ذلك بين خواصِّهم وعوامِّهم، وقدِ استعمَلتِ الآيةُ لفظَ ﴿قَوۡمِ﴾ لأمورٍ: الأوّل: الدَّلالةُ على انتسابِ لوطٍ عليه السلام إليهم من حيثُ الدَّعوةُ، فهو المكلَّفُ بهم، والثّاني: بيانُ رأفةِ إبراهيمَ عليه السلام ورحمتِهِ بغيرِ قومِه، فقد تعدَّتْ رحمتُهُ قومَهُ إلى غيرِهم، والثّالث: الإشارةُ إلى أنَّهم كانوا قومًا متكاملين من جميع نواحي الحياةِ الاجتماعيَّةِ والاقتصاديَّةِ والسِّياسيَّة والقَبَليَّةِ؛ أي: إنَّهم لم يكونوا مجرَّدَ مجموعةٍ من الأوباشِ الَّتي تمارسُ الفاحشةَ، بل كانوا قومًا قائمين عليها، وهذا من أعظم البَلاءِ الَّذي تُبتلى به الأممُ، اجتماعُ الجميعِ على الفُحْشِ البذيءِ.

الاستئنافُ البيانيُّ لبيانِ سببِ الجدالِ

علّةُ الفصلِ:

جاء قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ﴾ مفصولًا عمّا قبلَهُ، استئنافًا بيانيًّا، فكأنَّ سائلًا قد سألَ: لماذا هذا الجدالُ في قوم لوطٍ؟ فكان ذِكْرُ الصِّفاتِ الحَميدةِ مغنيًا عن الجوابِ، فهي

"بيانٌ للدَّواعي الَّتي حملتْ إبراهيمَ ﵇ على مجادَلةِ الملائكة في شأنِ إهلاكِ قوم لوطٍ"[1]، "فالمقصودُ بتَعدادِ صفاتِه الجميلة المذكورة بيانُ ما حَملَهُ ﵇ عَلَى ما صَدَرَ عنْهُ من المجادلة"[2]، فهذهِ "الصِّفاتُ دالَّةٌ على رقَّةِ القلبِ والرَّأفةِ والرَّحمة، فبيَّن أنَّ ذلك ممّا حملَهُ على المجادلةِ فيهم رجاءَ أن يُرْفَعَ عنْهم العذابُ، ويُمْهَلُوا لعلَّهم يحدثون التَّوبةَ والإنابةَ، كما حملَهُ على الاستغفارِ لأبيه"[3]. فالجملةُ تعليلٌ؛ أي: لأنَّه حليمٌ أوّاهٌ منيبٌ يُجادلُ عنِ قوم لوطٍ، وذلكَ في غايةِ الثَّناءِ على أخلاقِ الخليلِ إبراهيمَ ﵇.

غرضُ التَّوكيدِ:

صاحبُ صِفاتِ الحِلمِ والتَّأوُّهِ والإنابةِ محبوبٌ عندَ الله تعالى ممدوحٌ عند الخَلقِ

ساقَ اللَّه تعالى تلك الصِّفاتِ مؤكَّدةً بجملةٍ من المؤكِّداتِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾، منها: ﴿إِنَّ﴾، وصِيَغُ المبالغة الَّتي صِيغتْ فيها هذه الصِّفاتُ، فصِفةُ ﴿لَحَلِيمٌ﴾ على وزنِ (فعيل)، وصفةُ ﴿أَوَّٰهٌ﴾ على وزنِ (فعّال)، وصفةُ ﴿مُّنِيبٌ﴾ على وزنِ (مُفْعِل)، ولامُ التَّوكيدِ الدّاخلةُ على الخبرِ الأوَّلِ ﴿لَحَلِيمٌ﴾. وقد جاءَ كلُّ ذلك مناسبًا لكمالِ تلك الصِّفاتِ كمالًا بشَريًّا في الخليلِ ﵇ بقطعِ النَّظرِ عن وجود شَكِّ شاكٍّ أو إنكارِ منكرٍ، فإنَّ غرضَ التَّوكيدِ هو بيانُ حالِ إبراهيمَ ﵇ من قوم لوطٍ، فقد يعترِضُ بعضُ الجهلَةِ، فيقولون: وهل لهذهِ المجادَلةِ داعٍ مع قومٍ هذا حالهُم؟ فيأتي التَّوكيدُ دافعًا لهذا الاعتراضِ ببيانِ تلكَ الصِّفاتِ الحميدةِ الَّتي تنطقُ بكلِّ رحمةٍ ورأفةٍ بعبادِ اللَّه.

بلاغةُ اجتماعِ الأوصافِ وترتيبِها:

سببُ الجدالِ اتِّصافُ الخليل بالأخلاقِ الكريمةِ والخِلالِ الحميدةِ

في ذكْرِ هذهِ الأوصافِ مجتمعةً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾ "إشارَةٌ بِالثَّناءِ عَلَى إبراهِيمَ إلَى أنَّ جِدالَهُ مَحْمُودٌ"[4]،

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/243.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/227.
(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/412.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/347.

وهي "مَدْحٌ عَظِيمٌ منَ اللّه تعالى لِإبْراهِيمَ عليه السلام"(1)، فقد عَدَّدَ اللّه تعالى فيها ثلاثَ صفاتٍ تَجْمَعُ أبرزَ محامدِ إبراهيمَ الخليلِ عليه السلام فهي تجمعُ بين حِلمهِ بغيرِه، والحليمُ هو "الصَّبورُ على الأذى، الصَّفوحُ عن الجناية، المقابلُ لها بالإحسان"(2)، وهُو الَّذِي لا يَتَعَجَّلُ بِمُكافَأةِ غَيْرِه، بَلْ يَتَأنَّى فِيه، فَيُؤَخِّرُ، ويَعْفُو، ومَنْ هَذا حالُهُ؛ فَإنَّهُ يُحِبُّ مِنْ غَيْرِهِ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ، وهَذا كالدَّلالَةِ عَلَى أنَّ جِدالَهُ كانَ في أمْرٍ مُتَعَلِّقٍ بِالحِلْم وتَأْخِيرِ العِقاب، ثُمَّ ضَمَّ إلَى ذَلِكَ ما لَهُ تَعَلُّقٌ بِالحِلْم، وهُو قَوْلُهُ: ﴿أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ﴾؛ لِأنَّ مَنْ يَسْتَعْمِلُ الحِلْمَ في غَيْرِهِ يَتَأوَّهُ إذا شاهَدَ وُصُولَ الشَّدائِدِ إلَى الغَيْرِ؛ فَلَمّا رَأى مَجِيءَ المَلائِكَةِ لِأجْلِ إهْلاكِ قَوْمِ لُوطٍ؛ عَظُمَ حُزْنُهُ بِسَبَبِ ذَلِك، وأخَذَ يَتَأوَّهُ عَلَيْهِ؛ فَلِذَلِكَ وصَفَهُ اللّه تعالى بِهَذِهِ الصِّفَةِ، ووصَفَهُ أيْضًا بِأنَّهُ ﴿مُّنِيبٞ﴾؛ لِأنَّ مَنْ ظَهَرَتْ فِيهِ هَذِهِ الشَّفَقَةُ العَظِيمَةُ عَلَى الغَيْرِ، فَإنَّهُ يُنِيبُ ويَتُوبُ، ويَرْجِعُ إلَى اللّه تعالى في إزالَةِ ذَلِكَ العَذابِ عَنْهُمْ"(3).

بلاغةُ النِّداءِ:

رِفعةُ الخليلِ في ندائِهِ باسمِهِ وفي التَّمهيدِ في إخبارِهِ

في جملةِ النِّداء في قولِهِ تعالى: ﴿يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ بلاغةٌ عاليةٌ نوجزها في الآتي:

أوَّلًا: بلاغةُ الحذفِ، حيث حُذِفَ مَقُولُ القولِ، وقد "دَلَّ عَلَيْهِ المَقامُ، وهُو مِنْ بَدِيعِ الإيجازِ، وهُو وحْيٌ مِنَ اللّه تعالى إلَى إبْراهِيمَ عليه السلام أوْ جَوابُ المَلائِكَةِ إبْراهِيمَ عليه السلام فَإذا كانَ مِنْ كَلامِ اللّه تعالى فَقَوْلُهُ: ﴿أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ إظْهارٌ في مَقامِ الإضْمارِ؛ لِإدْخالِ الرَّوْعِ في ضَمِيرِ السّامِعِ"(4)، ونكتةُ الإيجازِ احتمالُ الكلامِ للتَّقديرين؛ أي: تقديرُ أن يكونَ الكلامُ صادرًا عن اللّه تعالى أو عن ملائكتِه، وقد

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/377.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/243.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/377.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/124.

جاء النِّداء ﴿يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ "على تقدير القولِ ليرتبِطَ بما قبلَه؛ أي: قالتِ الملائكةُ، أو قلنا: يا إبْراهِيمُ"[1].

ثانيًا: استعمالُ أداةِ نداءِ البعيدِ ﴿يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾، ونكتةُ ذلكَ رفْعُ شأنِ إبراهيمَ الخليلِ عليه السلام ولم يَكْتَفِ النَّظمُ الكريمُ في ترضيةِ الخليلِ عليه السلام بهذا، بل أُلحِقَ النِّداءُ والأمرُ ببيانِ العلَّةِ، وأنَّه قد جاءَ رُسُلُ ربِّكَ، وما دامَ الرُّسلُ الكرامُ قد نزلوا بالعذابِ، فلا مناصَ من تنفيذِهِ في العُصاةِ، ولا رادَّ لَهُ عَنْهم.

ثالثًا: النِّداءُ بالاسم الصَّريحِ ﴿يَـٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ تكريمٌ لهُ عليه السلام وتقريبٌ لهُ[2]، وبخاصَّةٍ إذا كان المنادِي هو اللّه تعالى فيا لَهَذا الشَّرفِ حينَ ينادي اللّه تعالى عبدًا من عبادِهِ باسمهِ! ليُخفِّفَ عنه ما وراءَ الأمرِ ﴿أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾، قبل أن يوردَ عليهِ خبرَ القومِ الأكيدَ، فيقطعَ عليه بهذا الخصوصِ آمالَهُ.

رابعًا: التَّمهيدُ للنِّداءِ، حيثُ مهَّدَ النِّداءُ للأمرِ القاهرِ بالنِّداءِ المشرِّفِ للخليلِ عليه السلام ويُلحَقُ بالتَّعليلِ المقنعِ المريحِ لقلبِهِ، فيُحيطُ الأمرُ القاطعُ عليهِ رجاءَهُ إيقافَ العقوبةِ من حولِه بما يُطَيِّبُ خاطرَه.

خامسًا: تعليمُ النّاسِ حُسْنَ الكلامِ، فبهذا يُعلِّمُنا الذِّكرُ الحكيمُ مَنْهجَ إلقاءِ التَّكاليفِ على النّاسِ، بأن يكونَ الأسلوبُ راقيًا؛ بحيثُ ينزلُ على القلوبِ بردًا وسلامًا مهما كان ثقيلًا.

غرضُ الأمرِ:

تـركُ الـجـدال وحُسْنُ الامتثال من شِيَمِ الرِّجال

نزلَ الأمرُ بالإعراضِ عن الجدالِ في قولِه تعالى: ﴿أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ في شأنِ قومِ لوطٍ على سبيلِ الحقيقةِ؛ أي: توقَّفْ - يا إبراهيمُ - وطِب نفسًا، ولا تنشغلْ بهم، ولا تكترِثْ لأمرِ هؤلاءِ الفُسّاقِ، فبِسُوءِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/301.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3733.

أَدَبهم وجُرْأتِهم على ارتكابِ الفاحشةِ يُعاقبونَ، وغرضُ الأمرِ: إلزامُ إبراهيمَ ﷺ بتركِ الجدالِ، وحسنِ الامتثالِ، فكأنَّهُ قال: "أعْرِضْ عَنْ هذا الجدالِ، وإن كانتِ الرَّحمةُ دَيْدَنَكَ، فلا فائدةَ فيهِ، إنَّهُ قَدْ جاءَ أمْرُ رَبِّكَ، وهو قضاؤُهُ وحُكمُهُ الَّذي لا يصدرُ إلّا عن صوابٍ وحِكمةٍ، والعذابُ نازلٌ بالقوم لا محالةَ، لا مَردَّ لهُ بِجدالٍ ولا دُعاءٍ ولا غيرِ ذلك"[1]، ولمّا علِمَ الخليلُ غرضَ الأمرِ، وعلِمَ أنَّ للّه مرادًا قاطعًا فيهم، "قدَّمَهُ على مرادِهِ، ولم يَنْطِقْ بعدَهُ ببنْتِ شَفَةٍ"[2].

مَن هانَ حُكْمُ اللهِ تعالى عندَهُ؛ هانَ عندَ اللهِ وعندَ أصفيائِهِ

سرُّ الأمرِ بالإعراضِ دونَ النَّهي عن الجدالِ:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مادَّةِ الإعراضِ في قوله تعالى: ﴿أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ دون أن يكون النَّهي عن المجادلةِ مباشرًا؛ وذلك لما فيها من كنايةٍ عن تولِّي الشَّخصِ وإعطائهِ الشَّيءَ عُرْضَهُ، وفي ذلك دليلٌ على عدم انشغالهِ بهِ، وترْكِ الاكتراثِ لهُ، وعدم الاهتمام بشأنِهِ، فهي مادَّةٌ لغويَّةٌ مصوِّرةٌ، ومعبِّرةٌ عن المقصودِ أتمَّ تعبيرٍ.

لذلك كان في استقبال الشَّيءِ، وجعْلِهِ قُبالةَ الشَّخصِ دليلٌ كنائيٌّ على الاهتمامِ بهِ، والاحترامِ لهُ؛ ولذلك كان الرَّسولُ ﷺ «إذا اسْتَقْبَلَهُ الرَّجُلُ، فَصافَحَهُ، لا يَنْزِعُ يَدَهُ عَنْ يَدِهِ حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُوَ الَّذي يَنْزِعُ، ولا يَصْرِفُ وجْهَهُ، حَتَّى يَكُونَ الرَّجُلُ هُو الَّذِي يَصْرِفُهُ، ولَمْ يُرَ مُقَدِّمًا رُكْبَتَيْهِ بَيْنَ يَدَيْ جَلِيسٍ لَهُ»[3].

وقد آثرَ النَّظمُ نهيَ الخليلِ ﷺ عن الجدالِ بقولِهِ: ﴿أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ دون النَّهي عن الجدالِ مباشرةً، فلم يقل: (لا تجادلْ عنهم)، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ [النساء: 107]، وذلك لسِرٍّ بديعٍ، وهو أنَّ المجادلَةَ عنهم لن تُؤثِّرَ فيما نزل

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/412.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 9/334.
(3) ابن المبارك، الزهد والرقائق: 1/132.

فيهم من حكم اللّه القاطعِ القاضي بتعذيبهم، بخلافِ نهي النَّبيِّ ﷺ عن المجادلةِ في المنافقين، فلم يُجادلْ ﷺ في عقوبةٍ ماحقةٍ، فكلمةُ (أعرِضْ)، تعني: انصرِفْ بالكلِّيَّةِ، ولا تُعِرْهم أدنى اهتمام، وقِفْ عندَ حُكم اللّه ﷻ فيهم، وفي ذلك كنايةٌ عن هوان القوم على اللّه تعالى وكذلكَ أصحابُ الفواحشِ يَهونونَ عليه ﷻ فيلقي بهم في النّارِ، ولا يبالي، ولهذا يقولُ النَّبيُّ ﷺ «إنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيامَة، لا يَزِنُ عِنْدَ اللّه جَناحَ بَعُوضَةٍ، اقرَؤُوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ١٠٥﴾ [الكهف: 105]»[1].

بلاغةُ استعمالِ اسم الإشارةِ:

بيانُ قربِ زمانِ الأمرِ بالإعراضِ من زمانِ الجدالِ وأنّهما في وقتٍ واحدٍ

اسمُ الإشارةِ في جملةِ ﴿أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ يطوي تفاصيلَ ما سبقَ من "الجِدالِ في أمْرِ قَوْمِ لُوطٍ والِاسْتِرْحامِ لَهُمْ"[2]، ويصُبُّ عليها أمرَ الإعراضِ، وفي ذلك الطَّيِّ - بالإضافة إلى الإيجاز - صرفُ أسبابِ الهَمِّ والغمِّ عن خليلِ الرَّحمنِ عليه السلام لِتأسُّفِه وحزنِه من هلاك قوم لوطٍ، بطبيعةِ حلمِه ورقَّةِ قلبِه الَّتي امتدحَهُ بها القرآنُ الكريمُ حيثُ يقولُ: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٞ مُّنِيبٞ﴾، وقد عادَ اسمُ الإشارةِ إلى معنًى معقولٍ لا محسوسٍ؛ وذلك لبيانِ قربِ الجدالِ من الأمرِ بالإعراضِ عنهُ، ولتشخيصِ المشهدِ الَّذي حصلَ في ذلك الجدالِ، فالجدالُ والأمرُ بالإعراضِ كانا في وقتٍ واحدٍ، وهذا من بديعِ الكشفِ عن الوقائعِ التّاريخيَّةِ.

بلاغةُ ذكرِ ضميرِ الشَّأنِ:

ضميرُ الشَّأنِ دعوةٌ لاستجماعِ المعاني والتَّهيئةِ قبل إلقاءِ الخَبَرِ

لضميرِ الشَّأنِ شأنٌ في النَّظم القرآنيِّ، فذِكْرُه يُفصِحُ عن دلالةٍ مقصودةٍ، فلو قيلَ في النَّظم: (أعرِضْ عن هذا قد جاءَ أمرُ ربِّكَ) في جملةِ: ﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ بدونِ ذكرِ: ﴿إِنَّهُۥ﴾؛ لصحَّ المعنى،

---

(1) البخاري، الجامع الصّحيح: 6/93، 65 - كِتابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ، بابٌ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾ [الكهف: 105] الآيَةَ، الحديث رقم: (4729).

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/109.

غير أنَّ لضميرِ الشَّأنِ غرضًا، وهو التَّهيئةُ لاستقبال ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ المؤكِّدة؛ فالكلامُ لا يتهيَّأُ لها بدونه، كما أنَّه يثيرُ نفسَ إبراهيمَ عليه السلام نحو ما يُفَسَّرُ بِهِ هذا الضَّميرُ الَّذي لم يسبِقْ لهُ مرجعٌ في الكلام، فهو استِجماعٌ للمعنى كلِّهِ في ضميرٍ واحدٍ، بحيثُ يكونُ لهُ أهمِّيَّةُ الانتباهِ لما سيُلقى من الخطاب، والمعنى: "أنَّ الحالَ والشَّأْنَ فِيهِمْ قَدْ قُضِيَ بِمَجِيءِ ﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾ الَّذي قَدَّرَهُ لَهُمْ ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ بِجدالٍ ولا شَفاعَةٍ، فَهُوَ واقِعٌ ما لَهُ مِنْ دافِعٍ"[1].

علَّةُ فصلِ الكلامِ عن السّابق:

تعليلُ عدمِ استجابةِ الدُّعاءِ فإنَّ العذابَ إذا حلَّ؛ لم يُدفَع

جاءَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ مفصولًا؛ لأنَّه جاء استئنافًا بيانيًّا، بغرض التَّعليلِ، فكأنَّ إبراهيمَ عليه السلام قد بدرَ منهُ سؤالٌ، لماذا أُعْرِضَ عن الجدالِ، فكان الجوابُ على ذلك: لأنَّه قد جاءَ أمرُ ربِّك، والمقصودُ بقولِهِ تعالى: "﴿أَمْرُ رَبِّكَ﴾ هو قضاؤُهُ وحُكمُهُ الَّذي لا يَصْدُرُ إلّا عن صوابٍ وحِكمةٍ"[2]، وفي ترتُّبِ هذهِ الجملةِ على دعاءِ إبراهيمَ عليه السلام بدفعِ العقابِ فائدةٌ، وهي: "أنَّ الدُّعاءَ إنَّما هو أن يُوفِّقَ اللّه الدّاعيَ إلى طلبِ المقدورِ، فأمّا الدُّعاءُ في طلبِ غيرِ المقدورِ؛ فغيرُ مُجْدٍ ولا نافعٍ"[3]، فإنَّ اللّه يُمهِلُ، فإذا جاءَ أمرُهُ، لم ينفعِ الدُّعاءُ حينئِذٍ.

نكتةُ التَّوكيد:

إزالةُ أيِّ محاولةٍ للجدالِ في مطالبةِ رفْعِ العقوبةِ

جاءَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ مؤكَّدًا بأكثرَ من أداةِ توكيدٍ، ونكتةُ ذلك: إزالةُ أيِّ محاولةٍ مَهما قلَّت، أو صغُرَت في نفسِ إبراهيمَ عليه السلام فإنَّ الأمرَ حتميٌّ قطعيٌّ لا مجادلةَ فيهِ ولا محاورةَ، فنكتةُ التَّوكيدِ إزالةُ أيِّ عوائقَ نفسيَّةٍ ليكتملَ التَّسليمُ، وتهدأ النَّفسُ.

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/109.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/412.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/193.

بلاغةُ الاستعارةِ:

إسنادُ المجيءِ
إلى المعاني لا
الأعيانِ لتقريرِ
المجيءِ وحتميَّتِهِ

إسنادُ المجيءِ للأمرِ في قولِهِ تعالى: ﴿جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ إسنادٌ مجازيٌّ؛ حيث إنَّ الأمرَ لا يجيءُ، وفي استعمال لفظ الأمرِ استعارةٌ، حيث شَّبهَ الأمرَ بشخصٍ يجيءُ، وحذفَ المشبَّهَ بهِ، وذكرَ المشبَّهَ على سبيل الاستعارةِ المكنيَّةِ الأصليَّةِ؛ إذ إنَّ الفعلَ "﴿جَآءَ﴾ يُسنَدُ إليه الجواهرُ والأعيانُ، وما يُرادُ تجسيدُهُ من المعاني"[1]، و(الأمر) معنًى ليس جوهرًا ولا عينًا، فإسنادُ المجيءِ إليه إذًا يُضفي عليه صفةَ التَّجسيدِ، فكأنَّهُ قد صارَ جسمًا محسوسًا يَجيءُ بنفسِهِ، وفي ذلك تقريرٌ للأمرِ، وتَثْبيتٌ لِمَجيئِهِ، بحيثُ لا يُناقَشُ، ولا يُجادَلُ فيه، وذلك يناسبُ نهيَ إبراهيمَ عليه السلام بالإعراضِ عن الجدالِ، حيثُ صوَّرَ حتميَّةَ الأمرِ الرَّبّانيِّ.

معنى التَّعريفِ بالإضافةِ:

حكمُ الأمرِ نازلٌ
من ربِّ العالمين
بشأنِ الشّاذِّين

عُرِّفَ الأمرُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ بالإضافةِ، وهي بمعنى (من)؛ أي: جاء أمرٌ من ربِّك، فأفادتِ الإضافةُ أنَّ المجيءَ فيه معنى النُّزولِ؛ أي: إنَّ حُكْمَ اللهِ قد نزلَ بمعاقبةِ أولئكَ الشّاذِّين عن الفطرةِ، المنتكسين خَلْقًا وخُلُقًا.

بلاغةُ اختيارِ الرُّبوبيَّةِ والألوهيَّةِ في سياقٍ واحدٍ:

أُوثِرَتِ الرُّبوبيَّةُ؛
لأنَّ استئصالَ
المفسدين رعايةٌ
لبقيَّةِ الخلقِ
وأُوثِرَتِ الأُلوهيَّةُ
للإشارةِ إلى
دعوةِ المبشَّرِ بهم
للتَّوحيدِ

جاءتْ إضافةُ لفظِ الأمرِ إلى لفظِ الجلالةِ في شأنِ البشرى في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾، بينما في شأنِ العذابِ، فقد أُضيفَ الأمرُ إلى لفظِ الرُّبوبيَّةِ، والتَّبشيرُ بالولدِ والإخبارُ عن العذابِ كلاهما من مقتضيات توحيدِ الرُّبوبيَّةِ، فيُسألُ عن سرِّ ذلكَ؟

وقد سبقَ بيانُ أنَّ ذكرَ لفظ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ لما فيه من توريثِ المهابةِ المُزيلةِ للتَّعجُّبِ، فإنَّ

(1) القيعي، الأصلان في علوم القرآن، ص: 387.

المقامَ هو مقامُ تسليم وإذعانٍ لأمرِ اللّٰه تعالى وهو ما يتناسبُ مع الألوهيَّةِ، ولمّا كانَ غايةُ التَّبشيرِ بالولدِ؛ فيهِ إقامةٌ لأحكام الشَّرع والدَّعوةُ للتَّوحيدِ، فهو تبشيرٌ لا بالولدِ فحسبُ، بل بالأنبياءِ الدّاعين إلى دينِ التَّوحيدِ، فكانَ ذلك أنسبَ من ذكرِ الرُّبوبيَّة.

أمّا آيةُ مجيءِ العذابِ؛ فأُوثِرَ ذِكرُ الرُّبوبيَّةِ لما في نزولِ العذابِ من رعايةٍ لبقيَّةِ الخلقِ، فإنَّ الفِطْرةَ إذا فسدَتْ، وبطلَ صلاحُها؛ كان استئصالُها الأصلحَ لبقيَّة النّاسِ، وهذا ما يتَّفق مع الرُّبوبيَّةِ.

دلالةُ إضافةِ لفظِ الرَّبِّ إلى ضميرِ المخاطَبِ:

تشريفُ المخاطَبِ وتكريمُهُ

دلَّت إضافةُ لفظِ الرَّبِّ إلى ضمير المخاطَبِ في قولهِ تعالى: ﴿رَبِّكَۖ﴾ على تشريفِ المخاطَبِ وتكريمه، فخطابُ العبدِ تكريمٌ، وإضافةُ لفظِ الرُّبوبيَّةِ بالغيبةِ تشريفٌ، وفيه تمامُ الرِّعايةِ وكمالُ العنايةِ بالمخاطَبِ.

دلالةُ العطفِ على السّابق:

عطْفُ الخبرِ على الخبرِ؛ لتأكيدِ تحقُّقِهِ وبيانِ تفاصيلِه

عُطِفَت جملةُ ﴿وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ على قوله: ﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾؛ لبيانِ أنَّ مجيءَ أمرِ اللّٰه تعالى هو حكمُهُ وقضاؤهُ، فلا يُرادُ بهِ نزولُ العذابِ الفعليِّ، وإنَّما "يرادُ بالمجيءِ المُشارَفة، فلا يتكرَّرُ مع قولهِ سبحانه: ﴿وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾"[1]، فيكونُ المرادُ بالجملةِ العاطفةِ هو الإخبارُ بإتيانِ العذابِ دون ردٍّ له، فالجملةُ الأولى إخبارٌ بحكم اللّٰه وقضائه، والثّانيةُ إخبارٌ بإتيانِ العذاب فعلًا غيرَ مردودٍ، فهو إخبارٌ بالوعيدِ، فهما خبرانِ اثنانِ، لا تكرارَ فيهما.

غرضُ التَّوكيدِ:

أُكِّد الخبرُ في قولهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ زيادةً في تهدئةِ نفسِ إبراهيمَ ﵇ بعد تهدئتهِ في الخبرِ السّابق.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/301.

دلالةُ إسنادِ المجيءِ إلى أمرِ الله، والإتيانِ إلى العذاب:

يُلاحَظُ الاختلافُ في التَّعبير عند الاختلافِ في المعاني

أُسنِدَ المجيءُ إلى أمرِ الله، والإتيانُ إلى العذابِ؛ وذلك لبيانِ المغايرةِ بين مجيءِ أمرِ الله تعالى وبين إتيانِ العذابِ، وبذلك التَّبايُنِ تَمايَزَ ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ بنزول العذابِ عن العذاب نفسِه، وإذا كان "الإتيانُ مجيئًا بسهولةٍ"[1]؛ فإنَّ إثباتَهُ للعذابِ يُوحي بهوانِهم على الله ﷻ وتَعلُّقِ العذابِ بهم، ويتَّسِقُ مع قولِ الله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: 30].

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ اسم الفاعلِ:

زيادةٌ في تقريرِ ثبوتِ إتيانِ العذابِ

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ باسم الفاعلِ الدّالِّ على الثُّبوتِ في قولِه تعالى: ﴿ءَاتِيهِمۡ﴾؛ لتقريرِ إتيانِ العذابِ، "أي: إتيانًا ثابتًا"[2]، وأنَّ إتيانَهُ أمرٌ مقضيٌّ به، وقضاءٌ نافذٌ لا محيصَ عنهُ، مع الدِّلالةِ على المستقبلِ، فإنَّ هذه الصِّيغةَ دالَّةٌ على وقوعِ الإتيانِ في المستقبلِ.

غرضُ التَّنكيرِ:

تهويلُ العذابِ وتفخيمُهُ

تنكيرُ لفظِ ﴿عَذَابٌ﴾ في قولِه تعالى: ﴿عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ للتَّعظيم والتَّفخيم، فهو يوحي بخطورتِهِ، وأنَّه من الهولِ والفظاعةِ بحيثُ لا يُقادَرُ قدرُهُ، وهذا الـ ﴿عَذَابٌ﴾ هو أمرُ اللّه تعالى وقضاؤهُ الَّذي قضاهُ على قوم لوطٍ عليه السلام ويَتَمَثَّلُ هذا العذابُ في "الخسْفِ والحصْبِ بالحجارةِ"[3].

نكتةُ وصفِ العذابِ في سياقِ المجادلةِ:

اختيارُ الأوصافِ المناسبةِ للسِّياقِ أقربُ للإفهامِ وآكدُ للأفهامِ

جاءَ القَيْدُ بالوصفِ ﴿غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ تأكيدًا لوقوعِ العذابِ بقوم لوطٍ عليه السلام فهو قيدٌ يقطعُ على الخليلِ عليه السلام رجاءَهُ منْحَهُم الفرصة

(1) الراغب، المفردات: (أتى).

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 9/334.

(3) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 2/292.

ليتوبوا، فلمّا جادلَ الخليلُ ﷺ حَسُنَ بيانُ الأمرِ. وتأكيدُ وقوعِ العذابِ بعدم ردِّهِ، وهو الأنسبُ في سياقِ المجادلَةِ؛ أي: لا تعُد لمجادلتِكَ فيهم مرَّةً أخرى.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجِدالُ والحِجاجُ:

الفَرْقُ بينَ الحِجاجِ والجِدالِ: "أنَّ المطلوبَ بالحجاجِ هو ظهورُ الحُجَّةِ، والمطلوبُ بالجدالِ: الرُّجوعُ عن المذهَبِ، فإنَّ أصلَهُ منَ الجَدْلِ، وهو شدَّةُ الفَتْلِ... ويؤيِّدهُ قولُهُ تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود: 32]. وذلك أنَّ دأْبَ الأنبياءِ ﷺ كان ردْعَ القوم عن المذاهبِ الباطلةِ، وإدخالَهُم في دينِ اللّه ببذلِ القوَّةِ والاجتهادِ في إيرادِ الأدلَّةِ والحُججِ"[1].

الجِدالُ والمِراءُ:

"قيل: هما بمعنًى، غير أنَّ المراءَ مذمومٌ؛ لأنَّهُ مخاصمةٌ في الحقِّ بعد ظهورِه، وليس كذلك الجدالُ"[2] قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾.

الإنابةُ والرُّجوعُ:

"أنَّ الإنابةَ: الرُّجوعُ إلى الطّاعةِ، فلا يقالُ لمن رجَعَ إلى معصيةٍ: إنَّه أنابَ، والمُنيبُ اسمُ مدحٍ كالمؤمنِ والمتَّقي"[3].

---

(1) العسكريّ، معجم الفروق اللغوية، ص: 158.
(2) العسكريّ، معجم الفروق اللغوية، ص: 159.
(3) العسكريّ، معجم الفروق اللغوية، ص: 75.

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧﴾ [هود: 77]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تهيئةُ القصَّةِ للقصَّةِ مسلكٌ بديعٌ للانتقالِ بين قصصِ القرآنِ

لمّا ذكرَ في الآياتِ السّابقةِ قصَّةَ إبراهيمَ عليه السلام مع الملائكةِ الكرام، وكان فيها التَّصريحُ بأمرين: أنَّهم أُرسلوا إلى قوم لوطٍ، والتَّبشيرِ بالولدِ، فكان الرّابطَ بين القصَّتين أنَّهما في زمانٍ متقاربٍ، وعلاقةُ لوطٍ بإبراهيمَ عليهما الصَّلاة والسَّلام والتَّوطئةُ لهذه القصَّةِ في الآياتِ السّابقةِ، وتشابهُ مطْلعِ القصَّتين، حيثُ لم يَعرفْ إبراهيمُ ولوطٌ عليهما السلام أنَّ الأضيافَ ملائكةٌ ابتداءً، بل بعدَ الخوفِ والضِّيق، فكان ذِكْرُ هذهِ القصَّةِ مناسبًا أشدَّ المناسبةِ بعد القصَّةِ السّابقةِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سِيٓءَ﴾: "السُّوءُ نعتٌ لكلِّ شيءٍ رديءٍ، ساء يَسُوءُ، لازمٌ ومجاوزٌ، وساء الشَّيءُ: قَبُحَ، فهو سَيِّئٌ، والسُّوء: اسمٌ جامعٌ للآفاتِ والدّاء.. السَّيِّئُ والسَّيِّئةُ: عملانِ قبيحانِ، يصيرُ السَّيِّئُ نعتًا للذَّكَرِ من الأعمال، والسَّيِّئةُ للأنثى"[1]، وهو "كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ من الأمورِ الدُّنيويَّةِ، والأخرويَّةِ، ومن الأحوالِ النَّفسيَّةِ، والبدنيَّةِ، والخارجةِ، من فواتِ مالٍ، وجاهٍ، وفقْدِ حميمٍ، وقولُه: ﴿بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: 22]؛ أي: من غيرِ آفةٍ به... ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ [هود: 77]: حلَّ بهم ما يسوؤهم"[2].

2) ﴿وَضَاقَ﴾: "الضّادُ والياءُ والقافُ كَلِمَةٌ واحِدَةٌ تَدُلُّ عَلَى

(1) الخليل، العين: (سوأ).
(2) الراغب، المفردات: (سوأ).

خِلافِ السَّعَةِ، وذَلِكَ هُو الضِّيقُ"[1]، "ويُقالُ: الضَّيِّقُ أيضًا، والضَّيِّقَةُ تُستعملُ في الفَقْرِ والبُخلِ والغَمِّ ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [هود: 77]؛ أي: عجَزَ عنهم، وقال: ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ [هود: 12]، ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِى﴾ [الشعراء: 13]، ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: 125]، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ [التوبة: 25]، ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾"[2].

3) ﴿ذَرْعًا﴾: "الذَّرْعُ مَصْدَرُ ذَرَعَ البَعِيرُ بِيَدَيْهِ في سَيْرِهِ؛ إذا سارَ عَلَى قَدْرِ خَطْوِهِ، مَأْخُوذٌ مِنَ الذِّراعِ، ثُمَّ وُضِعَ مَوْضِعَ الطّاقَةِ، فَقِيلَ: ضاقَ بِهِ ذَرْعًا"[3]، "والذَّرْعُ: الطّاقَةُ، وضاقَ بالأَمْرِ ذَرْعُهُ وذِراعُهُ؛ أي: ضعُفَت طاقتُهُ، ولَمْ يَجِدْ مِنَ المَكْرُوهِ فِيهِ مَخْلَصًا، ولَمْ يُطِقْهُ، ولَمْ يَقْوَ عَلَيْهِ، وأصلُ الذَّرْعِ إنَّما هُو بَسْطُ اليَدِ، فكأَنَّكَ تُرِيدُ مَدَدْتُ يَدِيَ إليه، فَلَمْ تَنَلْهُ... وضاقَ بِهِ ذَرْعًا: مِثْلُ ضاقَ بِهِ ذِراعًا، ونصَبَ ذرعًا؛ لأنَّه خَرَجَ مفسِّرًا مُحَوَّلًا؛ لأنَّه كانَ في الأصل ضاقَ ذَرْعِي بِهِ، فَلَمّا حُوِّلَ الفِعْلُ؛ خَرَجَ قَوْلُهُ ذَرْعًا مُفَسِّرًا، ومِثْلُهُ طِبْتَ بِهِ نَفْسًا، وقَرَرْتَ بِهِ عَينًا، والذَّرْعُ يُوضَعُ مَوْضِعَ الطّاقَةِ... ويُقالُ: ما لِي بِهِ ذَرْعٌ ولا ذِراعٌ، أي: ما لِي بِهِ طاقَةٌ"[4].

4) ﴿عَصِيبٌ﴾: "العَصَبُ: أطنابُ المفاصلِ التي تُلائِمُ بينَها وتَشُدُّها، وليس بالعَقَبِ، ولحمٌ عَصِبٌ: صُلْبٌ كثيرُ العَصَبِ، والعَصَبُ: الطَّيُّ الشَّدِيدُ، ورجلٌ مُعَصَّبٌ الخَلْقِ كأنَّما لُوِيَ لَيًّا"[5]، و"عَنِ الفرّاءِ قالَ: يَوْمٌ عَصِيبٌ، ويَوْمٌ عَصَبْصَبٌ؛ أي: شَدِيدٌ"، "وقِيلَ: هُو الشَّدِيدُ الحرِّ، ولَيْلَةٌ عَصِيبٌ، كَذَلِكَ، ولَمْ يَقُولُوا: عَصَبْصَبَةٌ... وقيل هُو مُشْتَقٌّ مِن قَوْلِكَ: عَصَبْتُ الشَّيءَ؛ إذا شَدَدْتَهُ، ولَيْسَ ذَلِكَ بِمَعْرُوفٍ... وقيل هُو مأخوذٌ مِنْ قَوْلِكَ: عَصَبَ القومَ أَمْرٌ يَعْصِبُهم عَصْبًا؛ إذا ضَمَّهُم، واشْتَدَّ عَلَيْهِم... يومٌ عَصَبْصَبٌ باردٌ ذُو سَحابٍ كَثِيرٍ، لا يَظْهَرُ فِيهِ مِنَ السَّماءِ شيءٌ، وعَصَبَ (عَصِبَ) الفَمُ يَعْصِبُ عَصْبًا وعُصُوبًا: اتَّسَخَت أسنانُه مِنْ غُبارٍ، أو شِدَّةِ عَطَشٍ، أو خَوْفٍ، وقِيلَ: يَبِسَ رِيقُهُ، وفُوهُ عاصِبٌ، وعَصَبَ الرِّيقُ بِفِيهِ، بالفَتْحِ، يَعْصِبُ عَصْبًا، وعَصِبَ: جَفَّ، ويَبِسَ عَلَيْهِ"[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضيق).
(2) الراغب، المفردات: (ضيق).
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/174.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ذرع).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (عصب).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (عصب).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

أخبرتِ الآيةُ عن مجيءِ الملائكةِ الكرام لوطًا ﷺ دونَ إخبارِه بحقيقةِ أمرِهم، فظنَّهم أضيافًا، وهنا وقعَ الضِّيقُ، واشتدَّ الكَرْبُ؛ لما سيُلاقيهِ من قومِهِ من مراودتِهِ عن ضيفِهِ، فالآيةُ تُبيِّنُ حالةً فريدةً من أحوالِ الأنبياءِ مع أقوامِهم، وفيها أنَّ قومَهُ استحلُّوا الفاحشةَ، بل جعلوها منهجَ حياةٍ في التَّعامُلِ مع الرِّجالِ رضًا وجَبرًا، وقد وصفَ اليومَ بأنَّه عصيبٌ؛ أي: شديدٌ لما فيه من هولِ الأمرِ، وشدَّةِ الوقْعِ، ومرارةِ الموقفِ.

الشُّعورُ بآثارِ المنكرِ الصّادرِ عن المجتمعِ يأتي من عظيمِ الإيمانِ وكبيرِ الإحسانِ

"وفي اسم ﴿لُوطَا﴾ وجهانِ: أحدُهما: أنَّه اسمٌ أعجميٌّ، وهو قولُ الأكثرين. الثّاني: أنَّه اسمٌ عربيٌّ مأخوذٌ من قولِهم: لُطْتُ الحَوْضَ؛ إذا ملسْتَهُ بالطِّينِ"(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ العطفِ:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطَا﴾، من عطفِ القصَّةِ على القصَّةِ، وهو ما تقضي بهِ البلاغةُ، وفي هذه العبارةِ إيجازٌ بالحذْفِ تقديرُهُ: "فَفارَقُوا إبْراهِيمَ، وذَهَبُوا إلَى لُوطٍ ﷺ فَلَمّا جاؤوا لُوطًا، فَحَذَفَ ما دَلَّ عَلَيْهِ المَقامُ إيجازًا قُرْآنيًّا بَدِيعًا"(2)، فعطفتِ الآيةُ قصَّةَ لوطٍ ﷺ على القصَّةِ السّابقةِ، لما بينَهما من ترابطٍ، والعطفُ يقتضي الاشتراكَ بين المعطوفَيْنِ، وتحتملُ الواوُ أن تكونَ استئنافيَّةً، على ابتداءِ معنًى كليٍّ مرتبطٍ بالسّابقِ.

عطفُ القصَّةِ على القصَّةِ إبانةٌ للتَّرابطِ الكليِّ والاشتراكِ بينَ المعطوفَين

معنى ﴿وَلَمَّا﴾:

﴿وَلَمَّا﴾ أداةُ ربْطٍ بين شرطٍ وجزاءٍ، تُفيدُ اتِّصالَ جوابِها بشرْطِها زمنًا، فهي حينيَّةٌ رابطةٌ، وكلُّ اتِّصالٍ يكون بحسْبِهِ، كالزَّمنِ بين

(ولما) رابطةٌ بين مجيءِ الملائكةِ ووقوعِ المساءةِ

(1) الماوردي، النكت والعيون: 2/490.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/124.

مجيءِ الرُّسل ووقوع المساءةِ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمۡ﴾، فيُقدَّرُ بحسبِ العُرفِ والعادةِ وما يُتصوَّرُ، لكنَّ استعمالَها في هذا السِّياقِ دليلٌ على سرعةِ وقوعِ الجوابِ.

دلالةُ تأنيثِ فعلِ المجيءِ:

التَّأنيثُ فيه إشارةٌ إلى لفظِ الملائكةِ لتعيين المقصودِ بالرُّسُلِ

أُنِّثَ الفِعْلُ ﴿جَآءَتۡ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ نظرًا إلى معنى (الجماعة) وهي مؤنَّثٌ، والمعنى: ولما جاءتْ جماعةُ رسلِنا، وفي تأنيثِ الفعلِ إشارةٌ إلى معنى التَّأنيثِ في لفظ (الملائكة) الَّذين هم رسلُ اللّه تعالى إلى الأنبياءِ، فالنَّظمُ يُوحي بتفسيرِ معنى الرُّسُلِ، كأنَّه قيلَ: (ولمّا جاءت ملائكتُنا)، ولو ذُكِّرَ الفعلُ ﴿جَآءَتۡ﴾؛ لذهبَ الوهمُ إلى رُسلٍ آخرين من البشرِ، ولا مانعَ من ذلكَ؛ لأنَّ رُسلَ اللّه تعالى في ذلك الزَّمانِ كانوا يتعاصرونَ وكلٌّ في بلدِه.

نكتةُ تعريفِ الرُّسلِ بالإضافةِ لضميرِ العظمةِ:

إضافةُ الرُّسُلِ إلى ضميرِ العظمةِ يُكسِبُهمُ التَّعريفَ والتَّشريفَ

المقصودُ بالرُّسُلِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ "الرُّسُلُ الَّذِينَ بَشَّرُوا إِبْراهِيمَ بالولَدِ عَلَيْهِ السَّلَامُ"[1]، فكأنَّه قال: جاءتْ رسلُنا لوطًا الَّذين أرسلناهم إلى إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فتحقَّقَ بذلك التَّعريفُ العهديّ، ولم يقل: (جاءتِ الرُّسلُ)؛ لإكسابِ الرُّسلِ تعظيمًا وإجلالًا ومهابةً، لاسيَّما أنَّهم أتَوا بعذابِ قوم لوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فتحقَّقَ بهذه الإضافةِ التَّعريفُ والتَّشريفُ، بالإضافةِ لبيانِ أنَّ ما جاؤوا به هو أمرُ اللّه تعالى الصّادرُ عن عظمتِهِ، فهم مجرَّدُ رسلٍ للّه تعالى ولضميرِ العظمةِ في نفوسِ الخلقِ من الإجلالِ ما يجعلُ الرُّسلَ في الحصانةِ والأمانِ، ويجعلُهم من الثِّقَةِ في نظرِ النّاس بمكانٍ.

علَّةُ الفَصْلِ:

مَساءةُ لوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ من مجيءِ الرُّسلِ دليلُ نُبلٍ وإشفاقٍ

جملةُ ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ جوابُ شرطٍ غيرِ جازم، فهي لا محلَّ لها من الإعرابِ، ولذلك فُصِلت، ومن فوائدِ فَصْلِها تعيينُ أنَّها جوابُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/377.

﴿وَلَمَّا﴾، ولو قالَ: (وسيءَ بهم)؛ لكانت معطوفةً على جوابٍ مقدَّرٍ، وهذا غيرُ مرادٍ، وكذلك بيانُ أنَّ وقوعَ المساءةِ هو أوَّلُ حدثٍ بعد مجيءِ الرُّسُلِ، فإنَّ لوطًا عليه السلام لمّا رآهم سِيءَ هو بسببِ قومه، أي: أصابَهُ سوءٌ عند رؤيةِ الملائكةِ بسببِ أخلاقِ قومهِ الرَّذيلةِ، وهذا على خلافِ أخلاقِهِ الحميدةِ، من حُبِّ استقبالِ الضِّيفانِ وإكرامهم، ففيهِ بيانٌ أنَّ المؤمنَ يحرصُ على أضيافِهِ كحرصِهِ على أهلِهِ.

نكتةُ بناءِ فعلِ ﴿سِيٓءَ﴾ للمفعول:

ظنونُ المؤمنِ الصّادِرَةُ عن علمٍ وتجربَةٍ واقعٌ مُحقَّقٌ وأمرٌ ثَبْتٌ

بُنِيَ الفعلُ ﴿سِيٓءَ﴾ للمفعولِ، ونائبُ الفاعلِ محذوفٌ، تقديرهُ: هو عائدٌ على لوطٍ عليه السلام وأصلُه: (سُوِئَ)، نُقلت حركةُ الواوِ إلى السِّين بعد ذهابِ حركتِها، ثم قُلِبَتِ الواوُ ياءً[1]، ليتَّسقَ مع المعنى من حيثُ إنَّه يُفيد عمومَ جهاتِ المساءةِ، فإنَّه لمّا رأى الملائكةَ على هيئةِ بشرٍ؛ ساءتْ ظنونُهُ بقومهِ ممّا سيقعُ منهم تجاه الملائكةِ، والمقصودُ هو بيانُ أنَّ المساءةَ قد تحقَّقتْ بقطعِ النَّظرِ عن الفاعلِ، إذِ الفاعلُ الَّذي أوقعَ المساءةَ هو الظَّنُّ النّاشئُ عن معرفتِهِ بقومهِ، وهو ما يُرشِّحه السِّياقُ بلحاقِهِ؛ أي: ساءَتِ الظُّنونُ لِلُوطٍ عند رؤيةِ الملائكةِ بسببِ قومه، أو مجيءِ الملائكةِ على هيئةِ بشرٍ؛ أي: ساء مجيءُ الملائكةِ لوطًا بسببِ قومه.

معنى حرفِ الباءِ:

الأفعالُ القبيحة سببُ مساءةِ النُّفوسِ المليحة

الباءُ في قولِهِ تعالى: ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ للسَّببيَّةِ، والجارُّ والمجرورُ متعلِّقٌ بفعل ﴿سِيٓءَ﴾؛ أي: سيءَ لوطٌ بهم؛ أي: بسببِ أخلاقِ قومهِ القبيحةِ أصابَ لوطًا عليه السلام سوءٌ وخوفٌ، وذلك عند رؤيةِ الملائكةِ، فلمّا جاءتِ الملائكةُ الكرامُ لوطًا عليه السلام "ساء ظنُّهُ بقومه، وضاقَ ذرعًا بأضيافهِ"[2]، "بسببِ خوفهِ عليهم أن يَجْرِيَ عليهم من قومهِ ما لا

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 2/546.

(2) الماورديّ، النكت والعيون: 2/487.

يجوزُ في دين اللّه سبحانه فذلك الحزنُ كان لِحَقِّ اللّه تعالى لا لنصيبٍ له، أو حظٍّ لِنفسِه، ولذلك حُمِدَ عليه؛ لأنَّ مُقاساةَ الحزنِ لِحَقِّ اللّه ﷻ محمودةٌ"[1].

فائدةُ العطْفِ:

المؤمنُ يُفكِّرُ بالحلولِ بعد نزولِ البلايا، ولا ينعزلُ في الزَّوايا

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ على قولِه تعالى: ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ لبيانِ حالتين مرَّ بهما لوطٌ عليه السلام وكلتا الحالتين داخليَّةٌ نفسيَّةٌ، فالأولى هي ما أصاب لوطًا عليه السلام من المساءةِ بسببِ معرفتِهِ بقومِهِ، وأنَّهم سيرتكبونَ حماقةً جسيمةً في حقِّ ضيفِهِ، والأخرى هي الضِّيقُ الشَّديدُ بسبب ما يجولُ في فكرِهِ من كيفيَّةِ التَّخلُّصِ من هذه المصيبةِ، ففائدةُ العَطْفِ بيانُ ترتُّبِ الضِّيقِ على المساءةِ، فهو لم يتركِ الأمرَ بدون تفكيرٍ لإنقاذِ ضيفِه من شرٍّ قادم، بل سارعَ في ذلك لكنَّهُ بلغَ إلى درجةِ الضِّيقِ لعدم امتلاكِه الطّاقةَ والقدرةَ على صُنعِ شيءٍ.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّةِ:

بيانُ ضعفِ لوطٍ عليه السلام على دفْعِ مكروهٍ هو أعتى من قُدْرتِهِ وقوَّتِهِ

في استعمالِ التَّركيبِ ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ استعارةٌ تمثيليَّةٌ بديعةٌ، وهو كنايةٌ كذلك، فالذَّرْعُ: "مصدر مأخوذ من الذِّراعِ، ولمّا كان الذِّراعُ موضعَ قوّةِ الإنسانِ، قيل في الأمرِ الّذي لا طاقة له به: ضاق بهذا الأمرِ ذراعُ فلان، وذرعُ فلان؛ أي: حيلتُهُ بذراعِه، وتوسّعوا في هذا حتّى قلبوهُ فقالوا: فلان رحبُ الذِّراعِ؛ إذا وصفوهُ باتِّساعِ القدرةِ"[2]، "فإذا أُسنِد إلى الآدميِّ؛ فهُو تقديرُ المسافةِ، وإذا أُسنِدَ إلى البعيرِ؛ فهُو مدُّ ذراعيهِ في السّيرِ على قدرِ سعةِ خُطوتِه، فيجُوزُ أن يكُون (ضاق ذرعًا) تمثِيلًا بِحالِ الإنسانِ الّذِي يُرِيدُ مدّ ذِراعِهِ، فلا يستطِيعُ مدّها، كما يُرِيدُ، فيكُونُ ذرعُهُ أضيق من مُعتادِهِ.

---

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/148.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/193.

ويجُوزُ أن يكُون تمثِيلًا بِحالِ البعِيرِ المُثقلِ بِالحِملِ أكثر من طاقتِهِ، فلا يستطِيعُ مدّ ذِراعيهِ، كما اعتادهُ، وأيًّا ما كان؛ فهُو استِعارة تمثِيليّة لِحالِ من لم يجِد حِيلةً في أمر يُرِيدُ عملهُ؟ بِحالِ الّذِي لم يستطِع مدّ ذِراعِهِ كما يشاءُ"(1)، فـ "وجهُ التّمثِيلِ أنّ القصِير الذِّراعِ لا ينالُ ما ينالُهُ الطّوِيلُ الذِّراعِ، ولا يُطِيقُ طاقتهُ، فضُرب مثلًا للّذِي سقطت قوّتُهُ، دون بلوغِ الأمرِ والاقتدارِ عليهِ"(2)، وهذا التّركِيبُ كذلك "كِناية عن شِدّةِ الانقباضِ للعجزِ عن مدافعةِ المكروهِ والاحتيالِ فيهِ"(3).

دلالةُ حذفِ الفاعلِ:

اجتماعُ المساءةِ والضِّيقِ في شخصٍ واحدٍ وفي زمنٍ مُتّحِدٍ

لَقَد تنوَّعَ بناءُ الفعلين المتعاطفين: ﴿سِيٓءَ﴾ و﴿وَضَاقَ﴾، فالأوّلُ مَبنيٌّ للمفعول، والآخَر مبنيٌّ للفاعلِ المحذوفِ، والفاعلُ في الفعلين واحدٌ: وهو لوطٌ عليه السلام ولم يُذْكَرِ الفاعلُ لمعرفته، ولبيانِ ما أصابَهُ من مساءةٍ وضيقٍ، ولتصويرِ مَشْهَدِهِ في تلكَ الحالِ العسيرةِ والموقفِ الحَرِجِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالتَّمييزِ المحوَّلِ عَنِ الفاعلِ:

إظهارُ تمامِ عنايةِ لوطٍ عليه السلام بالملائكة

أصلُ التَّعبيرِ في قولِه تعالى: ﴿وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾: "(ضاق ذرعُهُ بِسببِهِم)؛ أي: بِسببِ مجِيئِهِم، فحوّل الإسناد إلى المُضافِ إليهِ، وجعل المُسند إليهِ تمييزًا؛ لِأنّ إسناد الضِّيقِ إلى صاحِبِ الذّرعِ أنسبُ بِالمعنى المجازِيِّ، وهُو أشبهُ بِتجرِيدِ الِاستِعارةِ التّمثِيلِيّةِ"(4)، فالتّمييزُ محوّل عن الفاعلِ، وسرُّ ذلك هو العنايةُ بالملائكةِ، إذ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ العائدِ على الملائكةِ دليل على الحالةِ الّتي ضاق بها لوط عليه السلام بسبب الملائكة، ولو قال: (وضاق ذرعُه بهم)؛ لانصرفتِ العنايةُ إلى نفسِه، والتّأفُّفِ من الضِّيفانِ، فإنّ المؤمن إن جاءهُ ضيوف اتّسع

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/124.

(2) القاسمي، محاسن التأويل: 6/119.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/142.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/124.

لهم، ووسّع، لكنّ المشهد انعكس في هذه الحالةِ، بسببِ قومِه، فضاق بالملائكةِ؛ لأنّهُ يبغي كامل العنايةِ بِهم ذرعًا.

بلاغةُ ترتيبِ الجُملِ:

جاءتِ الجُملُ على مُقْتضى الظّاهرِ والحالِ ترتيبًا وجوديًّا

الجُملُ في قولِه تعالى: ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ جاءت مرتّبةً ترتيبًا بليغًا، و"من بدِيعِ ترتِيبِ هذِهِ الجُملِ أنّها جاءت على ترتِيبِ حُصُولِها في الوُجُودِ، فإنّ أوّل ما يسبِقُ إلى نفسِ الكارِهِ لِلأمرِ أن يُساء بِهِ، ويتطلّب المُخلّص منهُ، فإذا علِم أنّهُ لا مُخلِّص منهُ؛ ضاق بِهِ ذرعًا، ثُمّ يُصدِرُ تعبِيرًا عنِ المعانِي وترتِيبًا عنهُ كلامًا يُرِيحُ بِهِ نفسهُ.

وتصلُحُ هذِهِ الآيةُ لِأن تكُون مثالًا لِإنشاءِ المُنشِئِ إنشاءهُ على حسبِ ترتِيبِ الحُصُولِ فِي نفسِ الأمرِ، هذا أصلُ الإنشاءِ ما لم تكُن فِي الكلامِ دواعِي التّقدِيمِ والتّأخِيرِ ودواعِي الحذف والزِّيادة"[1].

بلاغةُ تعريفِ المسندِ إليهِ باسم الإشارةِ:

اسـمُ الإشـارةِ فيه تنفيسٌ عن الكـربِ والـهـمِّ الــذي أحــاطَ بلوطٍ عليه السلام

أفادَ اسمُ الإشارةِ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ ضَمَّ الأحداثِ الّتي حصَلَتْ عند مجيءِ الملائكةِ واستِجْماعِها في الزَّمنِ، ثمَّ الإشارةُ إليهِ بهذا لتشخيصِهِ وتجسيدِهِ، بغرضِ إظهارِ ما فيهِ من الشُّعورِ بالبلاءِ، إذ إنَّه سيُدافِعُ قومَهُ عن ضيفِهِ[2]، وفي اسم الإشارةِ تنفيسٌ عنِ الكربِ والهمِّ والغمِّ الَّذي أحاطَ بلوطٍ عليه السلام فهذا القولُ "قالَهُ عليه السلام في نَفْسِه، كَما يُناجِي المَرْءُ نَفْسَهُ؛ إذا اشْتَدَّ عَلَيْهِ أمْرٌ"[3]؛ بسببِ الفضيحةِ الَّتي سيجلبُها قومُهُ لَهُ[4]، وبسببِ المعصيةِ الَّتي سترتَكَبُ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/125.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/336.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/125.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 2/487.

دلالةُ ذِكْرِ لفظِ اليوم:

دلَّ ذِكْرُ اليوم في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ على أنَّ مجيءَ الرُّسلِ كانَ في النَّهارِ[1]، وهو المناسِبُ لشدَّةِ المساءةِ والضِّيق، فلو كانَ ليلًا؛ لقلَّت مشقَّةُ التَّصرُّفِ في السَّترِ والخفاءِ.

سرُّ إيثارِ الألفاظِ على مرادفاتِها:

جَمَعَ لفظُ عصيبٍ بين الشِّدَّةِ والضِّيق بصيغةِ مبالغةٍ متَّفِقَةٍ مع السِّياقِ

"أَصْلُ هَذِهِ المادَّةِ ﴿عَصِيبٌ﴾ يُفِيدُ الشِّدّة والضّغط، وأراد: أنّهُ سيكُونُ عصيبًا لِما يعلمُ من عادةِ قومِه السّيِّئة"[2]، وقد اقتضى النّظمُ الكريمُ وصف اليوم بالعصيبِ؛ لأنّ هذه الصِّفة تجمعُ معنى الشِّدّة والضِّيقِ والضّغط، فعصابةُ الشّيءِ تدورُ حوله، وتلفُّه، وتُحيطُ به، فهو "يعصِبُ النّاس بالشّرِّ"[3]، فهي تؤازِرُ بمادّتِها اللُّغويّةِ المصوِّرةِ السِّياق، وقد جاء الوصفُ على صيغةِ المبالغة؛ لبيانِ شِدّةِ هولِه، فيتّفِقُ مع سياقِ الآيةِ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العصيبُ والشَّديدُ:

الشَّديدُ المترابطُ بصلابةٍ، والعصيبُ الشَّديدُ الضّاغط

الشِّدَّةُ في الأصلِ هيَ مُبالغَةٌ في وصفِ الشَّيْءِ في صلابةٍ، ولَيْسَ هُو من قبيلِ القُدْرَةِ، ولِهَذا لا يُقالُ للّه: شَديدٌ، والقُوَّةُ من قبيلِ القُدْرَةِ[4]، أمّا العصيبُ؛ فهو وصفٌ للشَّيْءِ بالشِّدَّةِ والضَّغطِ، من العصَبِ الَّذي هو "أطنابُ المفاصلِ التي تُلائِمُ بينها"[5]، فهما متقاربانِ من حيثُ الدِّلالةُ، ويَظهرُ الفرْقُ بينهما بأنَّ الشَّديدَ المترابطُ بصلابةٍ، ولهذا قالَ سبحانه: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: 28]، أمّا العَصيبُ؛ فهو الشَّديدُ الضّاغِطُ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/125.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/125.

(3) الماوردي، النكت والعيون: 2/488.

(4) العسكري، الفروق اللغوية: 1/107.

(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (عصب).

﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾ [هود: 78 - 80]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

تَكميلُ ما ابتدَأتْهُ القِصَّةُ وتتميمُ بيانِ ما حدَثَ

لمّا قصَّتِ الآيةُ السّابقةُ خبرَ وصولِ الملائكةِ إلى بيتِ لوطٍ عليه السلام وما اعتراهُ من غمٍّ وهمٍّ خوفًا على هؤلاءِ الضّيوفِ من فجور أهلِ قريتِهِ، ولم يكنْ عليه السلام يعلمُ بعدُ أنَّهم رسلُ اللّه عز وجل انتقل السِّياقُ إلى بيانِ وقوعِ المحذورِ الَّذي كان يَحْذرُهُ لوطٌ عليه السلام فقد هَرْوَلَ قومُهُ إلى بيتهِ مستبشرينَ بالظَّفرِ بهؤلاءِ الشَّبابِ الضُّيوفِ، إلى أن أفصحَ الملائكةُ عن أنفسِهم، وبشَّروهُ بنجاتِهِ وأهلِهِ، وهلاكِ قومِهِ وامرأتِهِ، فالمناسبةُ بين الآياتِ مناسبةُ تتميمٍ وتكميلٍ للحدثِ، وبيانِ صِدْقِ ما توقَّعَهُ عليه السلام.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُهۡرَعُونَ﴾: "وهي الرِّعدَةُ؛ إذا ذهبَتْ عقولُهم منَ الخوفِ والفَزَعِ إهراعًا"[1]، و"هَرِعَ وأَهْرَعَ: ساقَهُ سوقًا بِعُنْفٍ وتخويفٍ، قالَ اللّه تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ [هود: 78]، وهَرَعَ بِرُمْحِهِ فتَهَرَّعَ؛ إذا أشْرَعَهُ سَريعًا، والهَرِعُ: السَّريعُ المشي والبكاءِ"[2].

"وأُهْرِعَ الرَّجُلُ، عَلَى ما لَمْ يُسَمَّ فاعِلُهُ: خَفَّ، وأُرْعِدَ مِنْ سُرْعةٍ أو خوْفٍ أو حِرْصٍ أو غَضَبٍ أو حُمَّى، وفي التَّنْزيلِ: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ

(1) ابن السكيت، كتاب الألفاظ: (هرع).
(2) الراغب، المفردات: (هرع).

﴿يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ [هود: 78]، قالَ أبو عُبَيْدَةَ: يُسْتَحَثُّون إليه، كأنَّهُ يَحُثُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وتَهَرَّعَ إليه: عَجِلَ"(1)، و"المَهْروعُ: المَجْنونُ يُصْرَعُ، والمَصْروعُ من الجَهْدِ... وأهْرَعَ: أسْرَعَ"(2).

2) ﴿تُخۡزُونِ﴾: "خَزِيَ الرَّجُلُ: لَحِقَهُ انكِسارٌ، إمّا من نَفْسِهِ، وإمّا من غيرِهِ، فالَّذي يَلْحَقُهُ من نفسهِ هو الحياءُ المُفْرِطُ، ومصدره الخَزايَةُ، ورجلٌ خَزْيانُ، وامرأةٌ خَزْيَى، وجمعُهُ: خَزايا، وفي الحديث: «اللهمَّ احشُرْنا غيرَ خزايا ولا نادمينَ». والَّذي يلحقهُ من غيرِهِ يقال: هو ضَرْبٌ من الاستخفافِ، ومصدرهُ الخِزْيُ... وقال: ﴿وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓ﴾ [هود: 78]. ومتى كانَ من الإنسان نفسِه يقالُ لهُ: الهونُ والذُّلُّ، ويكونُ محمودًا، ومتى كان من غيرِهِ؛ يقالُ له: الهُونُ، والهوانُ، والذُّلُّ، ويكونُ مذمومًا"(3).

و"أَخْزَيْتُهُ؛ أي: فَضَحْتُهُ، ومنْهُ قَوْلُهُ تعالى حِكايَةً عَنْ لُوطٍ لِقَوْمِهِ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓ﴾؛ أي: لا تَفْضَحُونِ، وقالَ في قَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾: الخِزْيُ الفَضِيحةُ، وقَدْ خَزِيَ يَخْزَى خِزْيًا؛ إذا افْتَضَحَ، وتَحَيَّرَ فَضِيحَةً"(4).

3) ﴿قُوَّةً﴾: "القوَّةُ أصلُها التَّعاونُ، ومنه قُوى الحَبْلِ؛ لأنَّ كلَّ واحدةٍ منها تُعِينُ الأخرى، وكلُّ طاقةٍ من الحبْلِ قوَّةٌ، واستعمالُها في صفاتِ اللّه تعالى بمعنى أنَّ أحدًا لا يغلبُهُ، وليس معناهُ التَّعاونَ، كما أنَّ أصْلَ التَّوبةِ في اللُّغةِ الرُّجوعُ، تابَ يتوبُ؛ إذا رجعَ، وكذلكَ تائِبونَ، وقولنا: إنَّ اللّه تَوّابٌ ليس يُعْنَى بِهِ الرُّجوعَ... والقوَّةُ في القرآنِ على خمسةِ أوجهٍ: الأوَّلُ: العُدَّةُ، قال: ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ [هود: 52]... الثاني: الجِدُّ، قال اللّه: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [البقرة: 63]... الثالثُ: البَطْشُ، قال اللّه: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ [فصلت: 15]... الرّابعُ: السِّلاحُ، وهو راجعٌ إلى معنى، العُدَّةِ قال اللّه: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: 60]... الخامس: الشِّدَّةُ، قال اللّه: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ [القصص: 76]"(5).

4) ﴿ءَاوِيٓ﴾: "المَأْوى مصدرُ أوى يَأْوِي أُوِيًّا ومَأْوًى، تقول: أوى إلى كذا: انضمَّ إليهِ، يأوي أويًّا ومأوى، وآواهُ غيرُهُ يُؤْوِيهِ إيواءً، قال ﷻ: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ [الكهف: 10]،

(1) ابن منظور، لسان العرب: (هرع).
(2) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (هرع).
(3) الراغب، المفردات: (خزي).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (خزي).
(5) العسكري، الوجوه والنظائر: (القوة).

وقال: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ﴾ [هود: 43]، وقال تعالى: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ﴾ [يوسف: 69]، وقال: ﴿وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ﴾ [الأحزاب: 51]"[1].

5) ﴿رُكۡنٖ﴾: "رَكِنَ إِلَى الشَّيءِ ورَكَنَ يَرْكَنُ ويَرْكُنُ رَكْنًا ورُكونًا فِيهما ورَكانَةً ورَكانِيَةً؛ أي: مالَ إليْه، وسَكَنَ... وفي التَّنْزِيلِ العَزِيز: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [هود: 113]... ورُكْنُ الشَّيْءِ: جانِبُهُ الأقوى، والرُّكْنُ: النّاحِيَةُ القَوِيَّةُ وما تَقَوَّى بِهِ منْ مَلِكٍ وجُنْدٍ وغَيْرِه، وبذَلِكَ فُسِّرَ قَوْلُه ﷻ: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ﴾ [الذاريات: 39]، ودَلِيلُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ [الذاريات: 40]؛ أي: أخذْناهُ ورُكْنَه الَّذي تولَّى بِهِ، والجَمْعُ: أَرْكانٌ وأَرْكُنٌ... ورُكْنُ الإنسانِ: قُوَّتُه وشِدَّتُهُ... ورُكْنُ الرَّجُلِ: قَوْمُهُ وعَدَدُه ومادَّتُهُ، وفي التَّنْزِيلِ العَزِيز: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾... ويُقالُ لِلرَّجُلِ الكَثِيرِ العَدَدِ: إِنَّهُ ليأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ، وفُلانٌ رُكْنٌ منْ أركان قَوْمِه؛ أي: شَرِيفٌ منْ أشرافهم، وهُو يأْوِي إلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ؛ أي: عِزٍّ ومَنَعةٍ، وفي الحَدِيث أنّه قالَ: «رَحِمَ اللّه لُوطًا إن كان لَيأْوِي إلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ» أي: إلَى اللّه ﷻ الَّذي هُو أشَدُّ الأركانِ وأقواها، وإنَّما تَرَحَّمَ عَلَيْهِ لِسَهْوِهِ حِينَ ضاقَ صَدْرُهُ منْ قَوْمِه حَتَّى قالَ: ﴿أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾، أراد عِزَّ العَشِيرَةِ الَّذِينَ يَسْتَنِدُ إِلَيْهِمْ، كَما يَسْتَنِدُ إِلَى الرُّكْنِ منَ الحائِطِ"[2].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

يجني الفُسّاقُ على أنفسِهم بأيديهم، ويمكرون بأنفسِهم من حيثُ لا يشعرون

"بعد أن علِمَ قومُ لوطٍ ﵇ بوجودِ هؤلاءِ الضِّيوفِ عند نبيِّهم، جاؤوا إليهِ مسرعين يسوقُ بعضُهم بعضًا إلى بيتِه من شدَّةِ الفرحِ، ومن قبلِ هذا المجيءِ كان هؤلاءِ القومُ الفَجَرَةُ، يرْتَكِبونَ السَّيِّئاتِ الكثيرةَ الّتي من أقبحِها إتيانُهم الرِّجالَ شهوةً من دونِ النِّساءِ.

(1) الراغب، المفردات: (أوى).

(2) ابن منظور، لسان العرب: (ركن).

وعندما رأى تدافُعَهم نحو بيتِه لارتكاب الفاحشةِ الّتي ما سبقَهم بها من أحدٍ من العالمين، قال لهم: يا قَوْمِ هؤلاءِ نساؤكم اللّائي بمنزلةِ بناتي، ارجعوا إليهنَّ، فاقضوا شهوتَكم معهنَّ، فهنَّ أطهرُ لكم نفسيًّا وحِسِّيًّا من التَّلوُّثِ برِجْسِ الفاحشةِ، واتَّقوا اللّه، ولا تجعلوني مَخْزِيًّا مفضوحًا أمامَ ضيوفي بسَبَبِ اعتدائِكُم عليهم، فَرَدَّ قومُ لوطٍ بسفاهَةٍ ووقاحة: لقد عَلِمْتَ علمًا لا شكَّ معَهُ، أنَّنا لا رغبةَ لنا في النِّساءِ، فقالَ لوطٌ عليه السلام بعدَ أن رأى من قومِه الاستمرارَ في غيِّهم، ولم يَقْدِرْ على دَفْعِهم على سبيلِ التَّفَجُّعِ والتَّحَسُّر: لو أنَّ معي قوَّةً أَدْفَعُكم بها لبطَشْتُ بكم"[1]. فطمأنَهُ الملائكةُ بأنَّهم رسلُ اللّه تعالى وأنَّ القومَ الفاسقين لن يضرُّوهُ شيئًا، وأنَّ قومَهُ هالكونَ صُبْحًا، وأمروهُ أن يَخْرُجَ بأهْلِه ليلًا لينجوا، وألّا يلتفتَ منهم أحدٌ إلّا امرأتَهُ، فإنَّها هالِكَةٌ مع الهالكين.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواوِ ودلالتُها:

الواوُ تَحْتَمِلُ العطفَ وهو الظّاهِرُ، وتحتمِلُ الاستئنافَ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ تحتَملُ أن تكونَ عاطفةً أو استئنافيَّةً، فحَمْلُها على العَطْفِ هو الظّاهِرُ؛ لأنَّه من عطْفِ الأحداثِ المتواليةِ بعضِها على بعضٍ في القصَّةِ الواحدةِ، وتحتملُ الاستئنافَ، فيكونُ النَّظمُ الكريمُ آخِذًا في نَقْلِ مشهدٍ جديدٍ بعد مشهدِ مجيءِ الملائكةِ لوطًا عليه السلام فينتقلُ السِّياقُ إلى ذكْرِ مشهَدِ إقبالِ الفُسّاقِ إلى بيتِ لُوطٍ عليه السلام وقد علموا أنَّ ضيوفًا من الرِّجالِ قد نزلوا به، طلبًا للشَّهوةِ ورغبةً في المتعةِ.

بلاغةُ الإسنادِ المجازيِّ:

من غابَ عن الخطيئةِ وهو راضٍ عنها؛ فهو شريكٌ في الإثْمِ

في قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ أُسنِدَ المجيءُ إلى القوم، ولم يأتِ القومُ جميعًا لوطًا عليه السلام بل "جاءَهُ بَعْضُ قَوْمِه، وإنَّما

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/247، وما بعدها.

أُسْنِدَ المَجِيءُ إِلَى القَوْمِ؛ لِأَنَّ مِثْلَ ذَلِكَ المَجِيءِ دأبُهم، وقد تَمالؤوا عَلَى مِثْلِهِ، فَإِذا جاءَ بَعْضُهُمْ، فَسَيَعْقُبُهُ مَجِيءُ بَعْضٍ آخَرَ فِي وقْتٍ آخَرَ، وهَذا مِنْ إِسْنادِ الفِعْلِ إِلَى القَبِيلَةِ؛ إِذا فعلَهُ بَعْضُها"[1].

ثمَّ إنَّ تَعْميمَ الفعلِ في ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾ يدلُّ على أنَّهم جميعًا متورِّطون في الفاحشةِ، وأنَّ من جاءَ، ومَن لم يَجِئْ في الرِّضا سواءٌ، وفي الإثم والجُرم سيّانِ، وبهذا الرِّضا عَمَّتِ العقوبةُ، ونالوا جميعًا الجزاءَ الوِفاقَ، وفي الحديث الصَّحيح: «إذا عُمِلَتِ الخَطِيئَةُ في الأَرْضِ، فَمَنْ شَهِدَها، وأَنْكَرَها؛ فَهُو كَمَنْ غابَ عَنْها، ومَنْ غابَ عَنْها، ورَضِيَها كَمَنْ شَهِدَها»[2].

طَوتِ الآيةُ ذِكْرَ غَرَضِهم لاشتهارِهم بِهِ

وقَدْ "طَوى القُرْآنُ ذِكْرَ الغَرَض الَّذي جاؤوا لِأَجْلِهِ مَعَ الإشارَةِ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾، فَقَدْ صارَتْ لَهُمْ دَأْبًا لا يَسْعَوْنَ إِلّا لِأَجْلِهِ"[3].

نكتةُ تَكرارِ الضَّمائرِ:

الخَونَةُ هُم من يتولَّى زمامَ المبادرةِ في الإبلاغِ عنِ الطّاهرينَ

الضَّمائرُ عواملُ رَبْطٍ للجملِ والتَّراكيبِ بربْطِها بمراجِعِها، ففي قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ﴾، وقوله: ﴿قَوۡمُهُۥ﴾، وقوله: ﴿إِلَيۡهِ﴾ تعودُ الضَّمائرُ إلى نَبيِّ اللّه تعالى لوطٍ عليه السلام وكذا الضَّميرُ في ﴿يُهۡرَعُونَ﴾ يربطُ الفعلَ بالقوم، وبهذا تتواثقُ روابطُ الكَلِم، ويشتدُّ وثاقُ التَّراكيبِ.

وسرُّ ذكرِ الضَّميرِ في قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ﴾ مع إمكانِ الاستغناءِ عنْهُ من حيثُ المعنى الإجماليُّ، فلو قيلَ: (فجاء قومُهُ يُهرعونَ إليه)؛ لصحَّ الكلامُ، لكنَّ ذِكْرَ الضَّميرِ له سِرٌّ، وهو الكشْفُ عن أنَّ مجيئَهُم كان مقصودًا به بيتُهُ عليه السلام فهم قد أتَوا عالمين بوجودِ الضِّيفان، وهذا يُنْبِئُ عن وجودِ خَونَةٍ تناقلوا الأخبارَ، حتَّى وصلَتْ إلى مجموعةٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/126.
(2) المعجم الكبير للطبراني: 17/139 الحديث رقم: (345).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/126.

بعينِها، فجاؤوه مسرعين، ولو لم يُذْكَرِ الضَّميرُ في ﴿وَجَآءَهُۥ﴾ لما تبيَّنَ هذا الملحظُ، ويُقوِّي هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾.

بلاغةُ استعمالِ لفظِ ﴿يُهۡرَعُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

السُّلوكُ الشّاذُّ دليلُ الاضطرابِ النَّفسيِّ وأمارةُ الانفعالِ الحسِّيِّ

جاء لفظُ ﴿يُهۡرَعُونَ﴾ بِضَمِّ الياءِ وفَتْحِ الرّاءِ عَلَى صِيغَةِ المَبْنِيِّ لِلْمَفْعُولِ، وهو مَشْيٌ شبيهٌ بِمَشْيِ المَدْفُوعِ، وهُو بَيْنَ الخَبَبِ والجَمْزِ، فَهُو لا يَكُونُ إلّا مَبْنِيًّا لِلْمَفْعُولِ؛ لِأنَّ أصْلَهُ مَشْيُ الأسِيرِ الَّذِي يُسْرَعُ بِهِ، وهَذا البِناءُ يَقْتَضِي أنَّ الهَرَعَ هُو دَفْعُ الماشِي حِينَ مَشْيِهِ إلّا أنَّ ذَلِكَ تُنُوسِيَ، وبَقِيَ أهْرَعَ بِمَعْنَى سارَ سَيْرًا كَسَيْرِ المَدْفُوعِ، ولِذَلِكَ قالَ جَمْعٌ مِنْ أهْلِ اللُّغَةِ: إنَّهُ مِنَ الأفْعالِ الَّتِي التَزَمُوا فِيها صِيغَةَ المَفْعُولِ؛ لِأنَّها في الأصْلِ مُسْنَدَةٌ إلَى فاعِلٍ غَيْرِ مَعْلُومٍ، وفَسَّرَهُ في الصِّحاحِ والقامُوسِ بِأنَّهُ الِارْتِعادُ مِنْ غَضَبٍ أوْ خَوْفٍ، وعَلَى الوَجْهَيْنِ، فَجُمْلَةُ ﴿يُهۡرَعُونَ﴾ حالٌ[1].

وتظهرُ بلاغةُ هذا الاستعمالِ في كونِ الفاعلِ في حكم المحذوفِ لفظًا، المعلوم دلالةً، والمادَّةُ تدلُّ على سَيْرٍ غيرِ قويمٍ، وفي الغالب أنَّ المؤثِّرَ في هذا السَّيرِ هو الاضطرابُ الدّاخليُّ الَّذي يعيشُه القومُ، فهم بمجرَّدِ وصولِ الخبرِ اتَّجهوا صَوْبَ لوطٍ عليه السلام يطلبونَ الغنيمةَ الباردةَ.

نكتةُ ذِكْرِ الضَّميرِ المفردِ لا الجمْعِ:

الصّالحونَ غايةُ كلِّ باطشٍ فاحشٍ

قُيِّدَ الفعلُ ﴿يُهۡرَعُونَ﴾ بالجارِّ والمجرورِ ﴿إِلَيۡهِ﴾ لا إلى الضَّيفِ وهم جمعٌ، حيثُ يُقوِّي ذلك أنَّ لوطًا عليه السلام هو مقصودُ قومِه بالمجيءِ، وإلّا لكانَ القيدُ بجمْعِ الضَّميرِ (إليهم) لا ﴿إِلَيۡهِ﴾، وذلك يتَّسِقُ تمامَ الاتِّساقِ مع ذكْرِ ضميرِه عليه السلام في ﴿وَجَآءَهُۥ﴾، وكان يصحُّ ذِكرُ المجيءِ بدونِ الضَّميرِ، فيُقالُ: وجاءَ قومُهُ - كما سبقَ التَّنبيهُ - وبهذا يتناغمُ أوَّلُ الجملةِ مع آخرِها في أداءِ المعنى المقصودِ، ثَمَّ تأتي القرائنُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/12.

التّاليةُ صارفةً نِيَّتَهم السُّوءَ عنه إلى أضيافِه، فهم يقصدونَ الأذى له على وجهِ الخصوص، والَّذي يوحي بهِ السِّياقُ أنَّ قومَه أرادوا به سوءًا خاصًّا؛ إذ يشقُّ عليهم نهيَهم عن المُنكرِ الَّذي يُمارسونَهُ، فأرادوا الانتقامَ منهُ، كي لا يُعاوِدَ الكرَّةَ بعدَ الأخرى، ما علموا أنَّهم انتقموا من أنفسِهم.

معنى الواوِ وموقعُ الجملةِ:

الرِّجالُ معادنُ فمن شبَّ على شــيءٍ؛ شـابَ عليهِ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَمِن قَبۡلُ﴾ حاليَّةٌ، وجملة ﴿كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ اعتراضيَّةٌ أو حاليَّةٌ، الغرضُ منها التَّذكيرُ بحالِ ماضيهم المخجِلِ؛ إذ السِّياقُ يطَّرِدُ بدونها، فلو قيل: (وجاءه قومُه، قال: يا قومي هؤلاءِ بَناتي). بإسقاطِ جملة: ﴿وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾؛ لكنَّها جملةُ اعتراضٍ تُذَكِّرُ بتاريخِهم المُنْحَطِّ في تلك الفاحشةِ، وتُهيِّئُ لجملة: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾.

معنى حرفِ (من):

الــتَّـــذكـــيرُ بالبداياتِ تلويحٌ بالنِّهاياتِ

حرفُ ﴿وَمِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمِن قَبۡلُ﴾ للابتداءِ، وهو يستدعي البدايةَ المشؤومةَ، التي مارسَ فيها القومُ فَحْشاءَهُم، ففيها إشارةٌ إلى النِّهايةِ الأليمةِ التي عاينوها، وكابدوها، هي نهايةُ الطَّمسِ، والخَسفِ، والقَذْفِ بالحِجارَةِ، فهذا الحرفُ يمهِّدُ لذكرِ النِّهايةِ، إذ التَّذكيرُ بالبداياتِ تلويحٌ بالنِّهاياتِ.

دلالةُ تقديم الجارِّ والمجرور:

من رحمةِ الله سبحانه بعبادهِ أنَّه يأخذُ المجرمَ إذا أصــرَّ على فُحْشِهِ

دلَّ تقديمُ القيدِ ﴿وَمِن قَبۡلُ﴾ على الفعلِ ومتعلَّقاتِه: ﴿كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾، على أنَّ زمنَ عملِ السَّيِّئاتِ غيرُ مقيَّدٍ بزمنٍ محدَّدٍ، وليس من عنايةِ القرآنِ في مثل هذه الأحداثِ تعيينُ الأزمانِ؛ إذِ العبرةُ كامنةٌ في عَمَلِهِمُ السَّيِّئاتِ، لا في تعيين زمانِ بداياتِها، وتعيينُ البداياتِ التّاريخيَّةِ هو شأنُ أهلِ التَّنظيرِ، كما أنَّ هذا القيدَ يَلفِتُ إلى تأصُّلِ رذيلةِ المقدَّم - وهو الفِسقُ - فيهم، وتَمَكُّنِه منهم

منذُ قديم، "أيْ: لَمْ يَزَلْ هَذا منْ سَجِيَّتِهِمْ حَتَّى أُخِذُوا، وهُمْ عَلَى ذَلِكَ الحالِ"[1].

وقد قيل: إنَّ المقصودَ بالقيدِ ﴿وَمِن قَبۡلُ﴾ هو قبلَ مجيءِ الرُّسلِ، وقيل: ﴿وَمِن قَبۡلُ﴾ أي: قبلَ "بَعْثِ لوطٍ رسولًا إليهم كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ، والمرادُ من ذِكْرِ عملِهم السَّيِّئاتِ من قبلُ بيانُ أنَّهم اعتادوا المنكرَ، فلم يستحيوا، فلذلك أسرعوا لطلبِ الفاحشةِ من ضيوفهِ مظهرين غيرَ مكترثين، فالجملةُ معترضةٌ لتأكيدِ ما قبلَها"[2]. والقولانِ صحيحانِ؛ إذ الفاحشةُ كانت فيهم قَبْلَ بعثةِ لوطٍ عليه السلام ويدخلُ القولُ الآخرُ فيه.

سرُّ استعمالِ ﴿كَانُواْ﴾ مع استمرارِهم على ذلك الفعلِ:

التَّأصُّلُ في عملِ (السَّيِّئاتِ) من دواعي نزولِ العقوبةِ

ذُكِر الفعلُ ﴿كَانُواْ﴾ ليُقرِّرَ أنَّهم متأصِّلونَ في الرَّذيلةِ، وأن حُبَّ الفاحشةِ قد تَمكَّن منهم، وأنَّ عملَ السَّيِّئات تجذَّرَ في أخلاقهم، و﴿كَانُواْ﴾ ولا يزالُ بدليل أنَّهم أتَوا يطلبونَ الأضيافَ بسوءٍ في فَرَحٍ ومَرَحٍ وسُرعةٍ وخِفَّةٍ، فـ "من قبلِ ذلك الوقتِ كانوا يعملون الفواحشَ ويكثُرونها، فضرُّوا بها، ومَرَنُوا عليها، وقلَّ عندهم استقباحُها، فلذلكَ جاؤوا ﴿يُهۡرَعُونَ﴾ مجاهرين، لا يكُفُّهُم حياءٌ"[3].

نكتةُ استعمالِ مفردةِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

العملُ لا تُعرَفُ نتائِجُه مقدَّمًا، ونتائجُ الفعلِ والصُّنعِ يمكنُ أن تُعرَفَ مقدَّمًا

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مفردةِ (عمل) في قولهِ تعالى: ﴿كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ دون مفردة (فعل) و(صنع)، وذلك لما في (العمل) من تأثيرٍ واضحٍ في المعمولِ، ولما فيهِ من إبهامِ النَّتيجةِ بالنِّسبةِ للعاملِ، أمّا (الفعل)؛ فيكونُ قبلها مقدورًا[4]، سواءٌ كان عن سببٍ أم لا، و(الصُّنع) فيه ترتيبٌ وإحكامٌ، فيقتضي العلمَ بما

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/337.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/302.
(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/413.
(4) العسكريّ، معجم الفروق اللغويّة، ص: 321، 377.

يكونُ أمّا العملُ؛ فليسَ فيهِ هذا ولا ذاك، بل يتميَّزُ بالتَّأثيرِ المفقودِ فيهما، وقومُ لوطٍ ﷺ كانوا يَفسُقونَ، ويؤثِّرون بهمجيَّةٍ لا نظام لها ولا شرعيَّةَ توصِلُ إلى نتيجةٍ طيِّبةٍ.

سرُّ اختيارِ مفردةِ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾:

من شأنِ الفاحشةِ أن تُنادِيَ على أخواتِها

جاءت مفردةُ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ جمعًا دونَ لفظِ (الفواحش)، وقد أفادت أنَّ هؤلاءِ القومَ مَوبوؤون بكلِّ سَيِّئَةٍ، ومن السَّيِّئاتِ الفواحشُ، وليست كلُّ سيئةٍ فاحشةً، فالسَّيِّئاتُ أعمُّ وأشملُ وأكثرُ تنوُّعًا؛ لذلك وصمَهُم الذِّكر الحكيمُ بعملِ السَّيِّئات عمومًا، وأنَّ فيهم أنواعَ السَّيِّئات الَّتي تخطرُ على البالِ، منها الفاحشةُ المعهودةُ، فليس الأمرُ مخصوصًا بها؛ إذ شأْنُ الفاحشةِ أن تُنادِيَ على أخواتِها.

وقد "عبَّرَ القرآنُ عن هذا المنكرِ الَّذي يَتعاطَونَهُ بالوصفِ المناسبِ لهُ، دون أن يُذْكَرَ اسمُهُ، تقزُّزًا لَهُ، وصيانةً للأفواهِ أن تتلفَّظَ بهِ، وللأسماعِ أن يقعَ عليها، ومن جهةٍ أخرى، فقد جاء القرآنُ بوصفه جمعًا، هكذا: "السَّيِّئات" للدَّلالةِ على أنَّه منكرٌ غليظٌ مركَّبٌ، وأنَّه ليس سَيِّئَةً، بل هو سَيِّئاتٌ، وليس مُنكرًا، بل هو منكراتٌ"[1].

معنى التَّعريفِ في لفظِ: ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾:

(السَّـيِّـئـات) عامَّةٌ، ويدخلُ فيها الفواحشُ

(أل) في كلمةِ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ إمّا أن تكونَ للعهد؛ أي: السَّيِّئاتُ الَّتي علمها المخاطَبُ، وهي الفاحشةُ القذرةُ الَّتي عُرِفَت بهم، وعُرِفوا بها، وقد يُرادُ بتعريفِ ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ جِنْسُها؛ أي: كلُّ أنواعِ السُّوءِ، وحمْلُها على العمومِ الجنسيِّ أولى لدخولِ الفواحشِ فيها، ففي تعريفِها مع اختيارِ مادَّتِها إزْراءٌ عليهم، وتحقيرٌ لهم، وتعليلٌ وافٍ موجزٌ لأسبابِ هلاكِهم هذا الهلاكَ الفظيعَ الذي حلَّ بِهم.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ جملةٌ

---

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 6/1178.

"مُسْتَأْنَفَةٌ بَيانِيًّا ناشِئًا عَنْ جُمْلَةِ ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ﴾، إِذْ قَدْ عَلِمَ السّامِعُ غَرَضَهُمْ مِنْ مَجِيئِهِمْ، فَهُو بِحَيْثُ يَسْأَلُ عَمّا تَلَقّاهُمْ بِهِ"[1]؛ إذ يُثير ذِهْنَ المخاطَبِ سؤالٌ إزاءَ هذا الموقفِ المحرجِ العصيب: وما موقفُ لوطٍ عليه السلام من مجيئهم؟

من الكياسةِ وأسبابِ النَّجاةِ التَّعاملُ مع المعتدين بلباقةٍ

فيأتي الجوابُ: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾، فهو لا يَمْلِكُ لهم إلّا القولَ، وأنَّه لا حيلةَ له في دفْعِهم وردِّهم عن الإيقاعِ بالأضيافِ سوى التَّلطُّفِ في إقناعِهم، يَفتحُ بذلك انفراجةً لهذه الأزمةِ العظيمةِ الَّتي يواجهها، لكن هيهاتَ، وقد حُقَّ عليهم الهلاكُ أن يثوبوا إلى رشْدِهم.

غرَضُ استعمالِ أسلوبِ النِّداءِ:

من لا يُخجِلُهُ الكلامُ الطَّيِّبُ، يَلزَمُهُ العذابُ المُهْلِكُ

في قولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ "افْتِتاحُ الكَلامِ بِالنِّداءِ وبِأَنَّهُمْ قَوْمُهُ تَرْقِيقٌ لِنُفُوسِهِمْ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ يَعْلَمُ تَصَلُّبَهُمْ في عادَتِهِمُ الفَظِيعَةِ، كَما دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُمْ: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ﴾ [هود: 79]"[2]، فمن شأنِ هذا النِّداءِ أن يخجِّلَ المنادَى إن لم يرقِّقْ قلبَهُ، ويُحَنِّنْهُ، لكن تبلُّدُ المشاعرِ لدى القومِ الفاسقين بلغَ بهم في الانحطاطِ إلى أن يجيبوهُ بقولهم: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ﴾.

إنَّ لوطًا عليه السلام يَتلطَّفُ بقومه، ويلينُ لهم المقالَ؛ إذ الوقتُ ليس للعنفِ، ولا يستطيعهُ، فالضُّيوفُ داخلَ بيتِه، وربَّما يسمعونَ الجلبةَ والضَّجيجَ، ولوطٌ عليه السلام إزاء هذا الحَرَجِ لا يملكُ سوى الملاطفَةِ، وتقديم الحلولِ، فلجأ إلى النِّداء بأداةِ البُعْدِ (يا) تطييبًا لخاطرِ هؤلاءِ الرُّعاعِ الغَوغائيِّينَ، لعلَّهم يرجعونَ، لكن دونَ جدوى.

فائدةُ نسبةِ القوم إلى ضميرِ المتكلِّم:

في إضافةِ لفظِ (قوم) إلى ضميرِ المتكلِّم في قولِه تعالى: ﴿قَالَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/126.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/126.

قد يسمِّي الرَّجلُ القومَ أهلَهُ، وليس منهم؛ لحقِّ الجوارِ والمعايشةِ

﴿يَٰقَوۡمِ﴾ نوعُ تَحْنِينٍ لقلوبهم، وتقريبٍ لهم، فكأنَّه يقولُ: أنتم قومي، وقومُ الرَّجلِ لا يَخذُلونَهُ، ولا يُخْزونَهُ في ضيوفِه، وإلى مَن ألجأُ احتماءً منكم، والمفتَرَضُ أنَّكم حُماتي وقومي وعُزوتي؟ "سَمّاهُمْ قَوْمَهُ بِمَعْنَى: أَهْلِ جِوارِهِ ووطَنِهِ الجَدِيدِ، وإنَّما هُو غَرِيبٌ جاءَ مَعَ عَمِّهِ مِنْ أوْرِ الكَلْدانِيِّينَ في العِراقِ"[1].

دلالةُ استعمالِ اسم الإشارةِ:

تقديمُ بدائلِ الإصلاحِ خيرٌ من مناورةِ الفُجّارِ

قولهُ تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ يُوجِّهُ القومَ نحو البديلِ المسموحِ المشروعِ، البديلِ الطّاهرِ الذي تقتضيه النُّفوسُ القويمةُ والفِطرةُ المستقيمةُ، وهذا يُعلِّمُنا أن نَفْتَحَ أبوابَ الحلالِ لمن ندعوهم إلى إغلاقِ أبوابِ الحرام؛ لأنَّه أدعى للاستجابة، وهكذا فعلَ لوطٌ عليه السلام.

ويشيرُ عليه السلام إلى هذا البديلِ المشروعِ بالإشارةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ ليميِّزهنَّ أمامَ الأعينِ، و"لتنزيلهنَّ منزلةَ الحاضر"[2]، علَّهم يَرَوْنَ فيهنَّ البديلَ الأنسبَ والبيئةَ الأطهرَ، لكنَّ الطَّبعَ الخبيثَ غلبَهم، وعذابُ اللّه سبحانه حُقَّ عليهم، فأنَّى لهم النَّجاةُ؟

فائدةُ ذِكرِ النِّساءِ باسم البَناتِ:

المُصلحونَ يُعاملون نِساءَ أقوامهم كبناتِهم

يُوحي استعمالُ مفردةِ البناتِ في جملة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾ بالحنانِ بالنِّسبة للآباءِ، وبهذا يشيرُ لوطٌ عليه السلام للقوم الهارِعين أنَّه يُقدِّمُ لهم أغلى ما يمتلكُ ليأتوهُنَّ حلالًا، وينصرفوا عن الحرام، سواءٌ أرادَ بناتِهِ الصُّلبيّاتِ، فيزوِّجُهم بهنَّ، أو أرادَ نساءَ القوم وزوجاتِهم.

كما أنَّ لِلفظِ (بَنَاتِ) إغراءً جاذبًا بخلاف مفردةِ النِّساءِ؛ إذ البَنَاتُ ما زِلنَ يتمتَّعْنَ بالحيويَّةِ والجمالِ، ويمتَلِكْنَ الرِّقَّةَ والبراءةَ والحياءَ، وهذا يُغْري الرِّجالَ، ويَجْذِبُهم إليهِنَّ، أمّا النِّساءُ؛ فربَّما أثقلَتْهُنَّ أعباءُ الحياةِ، فيؤثِّرُ ذلك في حيويَّتِهنَّ وجمالِهنَّ، وربَّما

---

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/112.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/303.

ذهبَ ببعضِ رِقّتِهِنَّ وحيائِهِنَّ؛ لذلك آثرَ لوطٌ عليه السلام في مقام الإغراءِ بالبديلِ الأطيبِ الـ (بَنَاتِ) ولعلَّ هؤلاءِ الفسّاقَ ينشغلونَ عن إرادة الفاحشةِ بالأضيافِ بهنَّ.

مُشْكِلُ استعمالِ لفظِ البناتِ:

التَّزويجُ إنَّما يكونُ بعد تحقُّقِ شروطِهِ الشَّرعيَّةِ فهي دعوةٌ ضمنيَّةٌ للانكفافِ عنِ الحرام

استُشْكِل عَرْضُ لوطٍ عليه السلام بناتِهِ على أولئكَ المُهْرِعين ليتزوجُوهُنَّ معَ القولِ بأنَّهم أكثرُ منهنَّ؛ إذ لا يُسوَّغُ القَولُ بِحِلِّ تزوُّجِ الجماعةِ بأقلَّ منْهُم في زمانٍ واحدٍ.

وقد أُجيبَ عن ذلك بثلاثةِ أجوبةٍ: "أحدُها: أنَّه كان في شريعةِ لوطٍ يجوزُ تزويجُ الكافرِ بالمؤمنَةِ، وكان هذا في صدر الإسلام جائزًا حتَّى نُسِخَ، قالَهُ الحَسَنُ.

الثّاني: أنَّه يزوِّجُهم على شَرْطِ الإيمانِ، كَما هو مشروطٌ بعقْدِ النِّكاحِ.

الثّالث: أنَّه قالَ ذلكَ ترغيبًا في الحلالِ، وتنبيهًا على المباحِ ودفعًا للبادرَةِ من غيرِ بذْلِ نكاحِهِنَّ ولا بخطبتِهِنَّ"(1).

قالَ الزَّمخشريُّ: "ويجوزُ أن يكونَ عرْضُ البناتِ عليهم مبالغةً في تواضعِهِ لهم، وإظهارًا لشِدَّةِ امتعاضِهِ ممّا أوردُوا عليهِ، طمعًا في أن يستحيوا منْهُ، ويَرِقُّوا لَهُ - إذا سَمِعُوا ذلك - فيتركوا لهُ ضيوفَهُ مع ظهورِ الأمرِ واستقرارِ العلم عندَهُ، وعندهُم أن لا مناكحةَ بينَهُ وبينَهم، ومن ثمَّ قالُوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ مستشهدينَ بعلمِهِ ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ لأنَّك لا ترى مناكَحَتَنا"(2).

والـ"ظاهرُ أنَّه عليه السلام كان واثقًا بأنَّ قومَهُ لا يُؤْثِرُونَهُنَّ بوجهٍ ما، مهما أطرى وأطنبَ، وشوَّقَ، ورغَّب، فكان إظهارُهُ وقايةَ ضيفانِهِ وفداءَهُم بِهِنَّ، مع وُثوقِهِ المذكورِ وجزْمِهِ مبالغةً في الاعتناءِ بحمايتِهم، وقيامًا

(1) الماوردي، النكت والعيون: 2/488.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/414.

بالواجب في مثلِ هذا الخَطْبِ الفادِحِ الفاضِحِ الَّذي يدومُ عارُه وشنارُهُ، من الدِّفاع عنهم بأقصى ما يمكنُ لكيلا يُنسبَ إلى قصورٍ، ولِيعلمَ أن لا غايةَ وراء هذا لمن لا رُكْنَ لَهُ من عشيرةٍ أو قبيلةٍ، فذلكَ غايةُ الغاياتِ في حيطَتِهم ووقايَتِهم"[1].

بلاغةُ الحَذْفِ:

شأنُ التَّلويحِ بالمطلوبِ ليسَ كالتَّصريحِ بهِ

عَرَضَ لوطٌ عليه السلام بناتِه على القوم قائلًا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾؛ أي: فتزَوَّجُوهم، ولا يُتصوَّرُ خلافُ ذلك؛ لأنَّه يختمُ كلامَهُ بذِكرِ الطُّهرِ، والطُّهْرُ لا يكونُ إلّا مع الزَّواجِ، وسرُّ حذْفِ قوله: (فانكحوهن)؛ إذ تقديرُ الكلام: (هَؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أطْهَرُ لَكُمْ فانكحوهنَّ)؛ فلأنَّه معلومٌ لدى الجميعِ من سياقِ الآيةِ، ثمَّ لأنَّ المقامَ أضيقُ من ذكْرِ شيءٍ مفهوم، فالمجرمونَ يتَهجَّمونَ، ويتسوَّرونَ أسوارَ البيتِ، والتَّصريحُ بـ (انكحوهنَّ) فيه قهرٌ للوطٍ عليه السلام إذ شأنُ التَّلويحِ ليس كالتَّصريحِ، فهو لوَّحَ لهم بالنِّكاحِ، لكن لم يُطاوِعْهُ لسانُهُ بذلكَ.

بلاغةُ التَّشبيهِ:

تَشبيهُ نساءِ القَوْمِ بالبناتِ من بابِ التَّحبيبِ والتَّرغيبِ

قد أضافَ لوطٌ عليه السلام البناتِ إليه على تقديرِ: (هنَّ مثلُ بناتي)؛ أي: هؤلاءِ نساؤهُنَّ كبناتي، وذلك أنَّ السِّياقَ يدلُّ على كثرةِ الهارعين إليه، فلا يُتصوَّرُ أن يكونَ عندَهُ بناتٌ على الحقيقةِ يكفينَ الهارِعينَ، فعليهِ تكونُ الإشارةُ إلى نساءِ قوم لوطٍ، وتنزيلُهن منزلةَ بناتهِ تحبيبًا وترغيبًا، أو باعتبارِ عمرِه فهو كأبيهنَّ، "وكلُّ نَبيٍّ أبو أمَّتِه وهم أولادُهُ"[2]، وعن "سعيدِ بن جُبيرٍ: كانَ في بعضِ القرآنِ: النَّبيُّ أوْلَى بالمُؤمنينَ منْ أنفُسِهِمْ وأزواجُهُ أمَّهاتُهم، وهو أبٌ لهم"[3].

---

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 6/119.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 2/488.
(3) الماوردي، النكت والعيون: 2/488.

والإضافةُ للإغراءِ بالبناتِ، وهو قد بلغَ من السِّنِّ أن ينزِّلهنَّ منزلةَ بناتِه، ثمَّ إنَّهُ عندَهم رجلُ دينٍ مستقيمٌ إن لم يكن نبيًّا، ومن لوازم ذلك أنَّ ما يضافُ إليه يتَّسِمُ بالطُّهْرِ، ولذلك قال ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ ترغيبًا لهم وتحبيبًا.

"قال مُجاهِد: لم يكُنّ بناتِه، ولكِن كُنّ من أمّتِه، وكُلُّ نبيّ أبُو أمّتِه... قال ابنُ جُريج: أمرهُم أن يتزوّجُوا النِّساء، ولم يعرِض عليهِم سِفاحًا"[1]. فـ "المُرادُ نِساءُ أُمّتِه؛ لِأنّهُنّ في أنفُسِهِنّ بنات، ولهُنّ إضافة إليهِ بالمُتابعةِ وقبُولِ الدّعوةِ، قال أهلُ النّحوِ: يكفِي في حُسنِ الإضافةِ أدنى سبب؛ لِأنّهُ كان نبيًّا لهُم، فكان كالأبِ لهُم، قال تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ [الأحزاب: 6]، وهُو أب لهُم، يقولُ الرّازيُّ: وهذا القولُ عِندِي هُو المُختارُ، ويدُلُّ عليهِ وُجُوه: الأوّلُ: أنّ إقدام الإنسانِ على عرضِ بناتهِ على الأوباشِ والفجّارِ أمر مُستبعد لا يليقُ بِأهلِ المُرُوءةِ، فكيف بِأكابِرِ الأنبِياءِ؟"[2].

بلاغةُ التَّغليبِ:

ذِكْرُ البَناتِ تغليبٌ لهنَّ على النِّساءِ بقصْدِ التَّحبيبِ والتَّقريبِ

لا شَكَّ أنَّ نساءَ القوم أغلبُ وأكثرُ من بنتَيْهِ عليه السلام لكنَّهُ أطلقَ على نساءِ القريةِ ﴿بَنَاتِي﴾ من باب التَّغليبِ إغراءً للقوم، والقومُ تُطلَقُ غالبًا على الرِّجالِ دونَ النِّساءِ بدليل قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ [الحجرات: 11]، فغَلَّبَ صفةَ بناتِهِ الصُّلْبيّاتِ على نساءِ القريةِ جمعاواتٍ ترغيبًا للقوم الفاسقين في العودةِ إلى أزواجِهنَّ، وجازَ لهُ إطلاقُ ﴿بَنَاتِي﴾ عليهنَّ لبلوغِهِ في السِّنِّ مستوى آبائِهنَّ.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/337.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/379.

صيغةُ التَّفضيل مسلوبةُ المفاضلة استُعملَت للمُبالغة بالطُّهرِ

نكتةُ مجيءِ اسم التفضيل مع انتفاءِ المفاضلَةِ:

في وصف لوطٍ لبناته عليه السلام بأنَّهنَّ ﴿أَطۡهَرُ﴾ إقرارٌ بِطُهْرِ فاحشةِ القوم الفاسقين، وذلكَ غيرُ مُرادٍ قطعًا، لكنَّه عليه السلام عبَّرَ بأفعلِ التَّفضيلِ ﴿أَطۡهَرُ﴾ جريًا على رغبَتِهم الآثمةِ وفاحشتِهم الذَّميمةِ الَّتي يعشقونها، ويتعلَّقون بها، ففي أفعلِ التَّفضيلِ ﴿أَطۡهَرُ﴾ تدرُّجٌ بهم منَ النَّجاسةِ إلى الطَّهارة، ومن القُبْحِ إلى الحُسْنِ، وكأنَّهُ يقول لهم: إن كان ما تفعلونَهُ حبيبًا لكم طاهرًا عندكم، فبناتي أطْهَرُ.

قال القُرطُبيُّ: "لَيْسَ ألِفُ ﴿أَطۡهَرُ﴾ لِلتَّفْضِيلِ حَتَّى يُتَوهَّمَ أنَّ في نِكاحِ الرِّجالِ طَهارَةً، بَلْ هُو كقولك: اللّه أكْبَرُ، وأعْلَى، وأجَلُّ، وإنْ لم يكن تفضيلٌ، ولَمْ يُكابِرِ اللّه تعالى أحَدٌ حَتَّى يَكُونَ اللّه تعالى أكْبَرَ منْهُ، وقَدْ قالَ أبُو سُفْيانَ بْنُ حَرْبٍ يَوْمَ أُحُد: اعْلُ هُبَلُ اعْلُ هُبَلُ، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ لِعُمَرَ: «قُلِ: اللّه أعْلَى وأجَلُّ». وهُبَلُ لَمْ يَكُنْ قَطُّ عاليًا، ولا جَليلًا"[1].

و"في قوله عليه السلام: ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ مِنَ التَّشويقِ على مرأى من ضيفانهِ ومسمَعٍ ما فيهِ من زيادةِ الكرم والإكرام ورعايةِ الذِّمام، وبالجملةِ فهو ترغيبٌ بِمُحالِ الوقوعِ باطنًا، وإعذارٌ لنُزَلائهِ ظاهرًا"[2]، "كقولكَ: الميتةُ أطيبُ من المغصوبِ وأحلُّ منهُ، ويرادُ منَ الطَّهارةِ على الأوَّلِ الطَّهارةُ الحسِّيَّةُ: وهي الطَّهارةُ عمّا في اللِّواطةِ من الأذى والخُبْثِ، وعلى الثاني الطَّهارةُ المعنويَّةُ: وهو التَّنَزُّهُ عن الفُحْشِ والإثْم، وصيغةُ أفعلَ في ذلك مجازٌ"[3]، فـ "اسْمُ التَّفْضِيلِ مَسْلُوبُ المُفاضَلةِ قُصِدَ بِهِ قُوَّةُ الطَّهارَةِ"[4]، و"المبالغةُ في الطُّهْرِ"[5].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/76.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 6/119.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/303.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/127.
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/249.

بلاغةُ ذكرِ قيدِ ﴿لَكُمۡۖ﴾:

لا شَكَّ أنَّ نكاحَ النِّساءِ أطهرُ للقوم ولغيرِهم، لكنَّهُ عليه السلام وهو بمعرضِ إغرائِهم على تَرْكِ الرَّذيلةِ يُكثِّفُ عناصِرَ الجذْبِ نحو الحَلالِ المشْروعِ، فبعدَ أن أغراهم بالأطْهَرِ تمَّمَ لهم الإغراءَ بِذكْرِ قَيْدِ ﴿لَكُمۡۖ﴾ في جملةِ ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ ظاهرُهُ التَّخصيصُ، وكأنَّ طُهْرَ الزَّوجاتِ أطْهَرُ لهؤلاءِ بِخاصَّةٍ، فساقَ النَّظمُ كلَّ ذلك الحشْدِ من الخصائِصِ التَّركيبيَّةِ المؤثِّرةِ لبيانِ حرصِ لوطٍ عليه السلام على ثَنْيِهم عن الفاحِشَةِ، ويجذبُ قلوبَهُم نحو الزَّوجاتِ، ولكن دونَ جَدوى.

مِــن تـمـكُّـنِ الفجورُ من قلبِهِ لم يُغرِهِ خطابُ الأكرمين

موقعُ جملةِ ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ من السّابق:

فُصِلَتْ جملةُ ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ عن جملةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾، إمّا على جعلِها استئنافًا بيانيًّا، على افتراضِ وجودِ سؤالٍ: لماذا نَنْكِحُهنَّ؟ فيأتي الجوابُ؛ لأنَّهنَّ أطهرُ لكم، فانكحوهُنَّ، "فجُمْلَةُ ﴿هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾ تَعْليلٌ لِلْعَرَضِ"[1]، ويصحُّ أن تكونَ حاليَّةً، والعاملُ فيها معنى الإشارةِ؛ أي: انكحوهُنَّ فحالُهُنَّ الطُّهرُ.

تعليلُ النِّكاحِ بـالـطُّـهـرِ لا الفُحشِ

معنى حرفِ الفاءِ:

أفادتِ الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ التَّفريعَ؛ أي: تفريعَ الأمرِ بالتَّقوى على الأمرِ بنكاحِ البَناتِ، وتحتملُ أن تكونَ فصيحةً؛ أي: إن كنتُم تريدونَ النَّجاةَ؛ فاتَّقوا اللّه.

تقوى الله أصلُ الـنَّـجاةِ والـفـوزِ عندَه تعالى

غرَضُ الأمرِ:

غرضُ الأمرِ في خطابِ لوطٍ عليه السلام قومَهُ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ التَّوجيهُ والنُّصحِ والإرشادُ؛ لأنَّه وإن كان أمرًا مطلوبًا به الامتثالُ والتَّنفيذُ غير أنَّه غيرُ صادرٍ من الأقوى الأقهرِ، وليس أمرًا على سبيلِ الإلزامِ والقهرِ للمأمورِ، ولو كان لوطٌ عليه السلام يَمْلِكُ القوَّةَ الظّاهرةَ الَّتي تُرغِمُهم

يَجْتَمِعُ النُّصْحُ والإرشـــادُ مع التَّهديدِ والوعيدِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/127.

على تنفيذ فعلِ التَّقوى؛ لكان أمرًا حقيقيًّا؛ لأنَّه صادرٌ حينئذٍ من الأعلى إلى الأدنى.

وبالإضافةِ إلى التَّوجيهِ والنُّصحِ والإرشادِ، ففيهِ معنى التَّهديدِ والوعيدِ، "فذِكْرُ اللّه ﷻ تخويفٌ لهم، وتهديدٌ بقوَّةِ اللّه ﷻ إن لم يَتَّقُوهُ، ويستقيموا على طريقِ المؤمنين"[1].

نكتةُ إيثارِ ذِكْرِ لَفْظِ الجلالةِ:

مقامُ التَّرهيبِ والتَّشريعِ يتناسَبُ مع لَفْظِ الجَلالةِ

المقامُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ مقامُ تخويفٍ وتحذيرٍ وحَمْلٍ على الفِعْلِ رهبةً؛ لذلكَ ذكَّرهُم لوطٌ عليه السلام باسم الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ دونَ لفظِ الرَّحمةِ (الرحمن) أو (الرحيم)، وفرقٌ بين مقام الإغراءِ باسم (الرحمن) وبين مقام التَّخويفِ باسم الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾، وكذلك فالمقامُ مقامُ أمرٍ ونهيٍ وبيانِ التَّشريعِ، وهذا يلائمُهُ عنوانُ الألوهيَّةِ، والمقامُ هنا جللٌ لا يَحْتَمِلُ التَّرغيبَ؛ لأنَّهم فاسقون يتهجَّمونَ على ضيفِهِ عليه السلام ويقصدونهم بسوءٍ.

فائدةُ عَطْفِ النَّهيِ على الأمْرِ:

النَّهيُ بعدَ الأمْرِ بيانٌ وتعيينٌ للمطلوبِ

نهى لوطٌ عليه السلام قومَه بقولِه: ﴿وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾ بعد أن أمرَهم بقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ لتقويةِ دفاعه عن ضيفِه، وتأكيدِ ردِّه إيّاهم بجملةٍ فيها استعطافٌ لهم، وجاءت جملةُ النَّهي ﴿وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾ معطوفةً على جملة ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ للتوسُّطِ بين الكمالين، فقد اتَّحدتا في الإنشائيَّةِ: الأولى أمرٌ والثانيةُ نهيٌ، وغرضهما واحدٌ، وهو محاولةُ ثني القوم الفاسقين عن جريمتِهم، والأولى: تتعلَّق بحقِّ اللّه تعالى عليهم، والأخرى: تتعلَّق بحقِّ لوطٍ عليه السلام عليهم، فهُم قومُهُ، والضَّيفُ ضيفُهُ، فلا هم امتثلوا لحقِّ اللّه ﷻ ولا هم احترموا حقَّ الضَّيفِ، فبئسَ القومُ الفاسِقونَ!

---

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 6/1179.

نكتةُ استعمالِ مُفردةِ ﴿تُخۡزُونِ﴾:

الخِزْيُ أخصُّ من الإهانةِ فهو استخفافٌ وعارٌ يلحَقُ بأهلِ الصَّلاحِ

آثرَ النَّظمُ استعمالَ مفردةِ ﴿تُخۡزُونِ﴾ دون (تهينون)؛ لِما فيها من استخفافٍ يُلحِقُ بالنَّفسِ الانكسارَ والهوانَ، فلا يليقُ أن يُلْحَقَ برَجُلٍ وقورٍ مثلِ لوطٍ ﷺ ذلك، فهو يُحاولُ أن يُخْفِيَ عن الأضيافِ نِيَّةَ القوم، ولكنَّ ضجيجَ القوم وضَوضائِيَّتَهُم وضعَهُ ﷺ موضِعَ المتحيِّرِ، ولا يدري ما يفعلُ، ولِلْفعلِ ﴿تُخۡزُونِ﴾ معانٍ "أحدُها: لا تُذِلُّوني بعارِ الفَضيحَةِ، ويكونُ الخِزْيُ بمعنى الذُّلِّ، الثّاني: لا تُهْلِكُوني بعواقبِ فَسادِكم، ويكونُ الخِزْيُ بمعنى الهَلاكِ. الثّالث: أنَّ معنى الخِزْيِ ها هنا الاستحياءُ، يقالُ: خَزِيَ الرَّجُلُ؛ إذا استحى"[1].

فالخِزْيُ أخصُّ من الإهانَةِ؛ لأنَّهُ استخفافٌ يُلحِقُ بالإنسانِ الذُّلَّ والانكسارَ أمامَ مَن يقدِّرونَهُ ويحترمونَهُ، أمّا الإهانةُ فَتَشْمَلُ ذلك، وتَزيدُ ما يُلحِقُهُ في نفسِه مستورًا عن النّاس.

معنى حرفِ الظَّرفيَّةِ ودلالتُه:

توقيرُ المُضيفِ أمامَ ضَيفِهِ خصيصةُ المتَّقين

استُعْمِلَ حَرْفُ الظَّرفيَّةِ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾ للظَّرْفِيَّةِ المَجازِيَّةِ؛ حَيْثُ جَعَلَ الضَّيْفَ كالظَّرْفِ؛ أيْ: لا تَجْعَلُوني مَخْزِيًّا عِنْدَ ضَيْفِي؛ إذْ يَلْحَقُهُمْ أذًى في ضِيافَتِي؛ لِأنَّ الضِّيافَةَ جِوارٌ عِنْدَ رَبِّ المَنْزِلِ، فَإذا لَحِقَتِ الضَّيْفَ إهانَةٌ؛ كانَتْ عارًا عَلَى رَبِّ المَنْزِلِ"[2].

إطلاقُ الضَّيفِ وإرادةُ الأضيافِ:

و"الضَّيفُ هاهنا قائِمٌ مَقامَ الأضْيافِ، كَما قامَ الطِّفْلُ مَقامَ الأطْفال"[3]، وذِكْرُ الضَّيفِ لإفادةِ العمومِ والاستغراقِ والإشعارِ بالمعنى الَّذي يستصحبهُ الضَّيفُ من الإكرام، ولو قال: أضيافي، لَتَمَحَّضَ في أشخاصِهم.

(1) الماوردي، النكت والعيون: 2/489.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/128.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/379.

الاستفهامُ إمّا أن يُحمَلَ على التَّمنِّي أو الإنكارِ أو التَّعجُّبِ

غرضُ الاستفهام:

الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾ محمولٌ على التَّمنِّي أو الإنكارِ والتَّوبيخِ أو التَّعجُّبِ، أمّا التَّمني؛ فحيثُ تمنَّى لوطٌ عليه السلام أن لو كان في قومِه "رَجُلٌ رَشيدٌ ليدفَعَ عن أضيافِه، وقال ذلك تعجُّبًا من اجتماعِهم على المُنْكَرِ"[1]، والرَّجُل الرَّشيدُ "يهتدي إلى الحقِّ الصَّريحِ، ويَرْعَوي عن الباطلِ القبيحِ"[2]، "فِيهِ خَيْرٌ، يَقْبَلُ ما آمُرُهُ بِهِ، ويَترِكُ ما أنهاهُ"[3].

أو أن يُحمَلَ الاستفهامُ على الإنكارِ والتَّوبيخ؛ "لِأَنَّ إهانَةَ الضَّيْفِ مَسَبَّةٌ لا يَفْعَلُها إلّا أَهْلُ السَّفاهَةِ"[4].

أو أن يكونَ "الاستفهامُ للتَّعجُّبِ، وحَمْلُهُ على الحقيقةِ لا يُناسِبُ المقامَ"[5].

الرَّشيدُ المطلوبُ لإيجادِ المفارقةِ واحدٌ

نكتةُ استعمالِ حرفِ (من) دون (في):

"قَوْلُهُ: ﴿مِنكُمۡ﴾ بِمَعْنَى: (بَعْضُكُمْ)، أَنْكَرَ عَلَيْهِمْ تَمالُؤَهُمْ عَلَى الباطِلِ وانعدامَ رَجُلٍ رَشِيدٍ مِنْ بَيْنِهِمْ، وهَذا إغْراءٌ لَهُمْ عَلَى التَّعَقُّلِ؛ لِيَظْهَرَ فِيهِمْ مَنْ يَتَفَطَّنُ إلَى فَسادِ ما هُمْ فِيهِ فَيَنْهاهُمْ، فَإنَّ ظُهُورَ الرَّشِيدِ فِي الفِئَةِ الضّالَّةِ يَفْتَحُ بابَ الرَّشادِ لَهُمْ، وبِالعَكْسِ تَمالُؤُهُمْ عَلَى الباطِلِ يَزِيدُهُمْ ضراوةً بِهِ"[6].
وجاء بحرفِ التَّبعيضِ دون الظَّرفيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾؛ لبيانِ أنَّ المطلوبَ واحدٌ لا أكثرُ، ففيهِ همْزٌ لمشاعرِهم لو كانوا من أهلِ الشُّعورِ!

(1) الماوردي، النكت والعيون: 2/489.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/228.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/337.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/129.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 6/304.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/129.

غرضُ التَّنكيرِ وسرُّ الوصفِ:

الرَّشيدُ يحقّقُ توازنَ المجتمع وإن كانَ واحدًا

قوله: ﴿رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ "يعني: أنصارًا، وقال ابن عباس: أرادَ الولدَ"[1]، "رَشِيدٌ بِمَعْنَى: مُرْشِدٍ؛ أَيْ: يَقُولُ الحَقَّ، وَيَرُدُّ هَؤُلَاءِ الأَوْبَاشَ عَنْ أَضْيافي. أو بِمَعْنَى: مُرْشَدٍ، والمَعْنَى: أَلَيْسَ فِيكُمْ رَجُلٌ أَرْشَدَهُ اللّه تعالى إِلَى الصَّلاحِ، وأَسْعَدَهُ بِالسَّدادِ والرَّشادِ حَتَّى يَمْنَعَ عَنْ هَذا العَمَلِ القَبِيحِ، والأَوَّلُ أَوْلَى"[2]، أو المعنى: "رجلٌ واحدٌ يهتدي إلى سبيلِ الحقِّ وفِعْلِ الجَميلِ، والكفِّ عن السُّوءِ"[3].

فغَرَضُ التَّنكيرِ هو تعظيمُ هذا الرَّجلِ وإبهامُهُ، بقطْعِ النَّظرِ عن أصْلِهِ أو انتمائِهِ، وخصَّهَ بصفَةِ رشيدٍ؛ لأنَّ المطلوبَ في هذا الموقفِ الرُّشْدُ، فقد يكون تقيًّا لكنَّه ضعيفٌ، بخلافِ الرَّشيدِ، فهو صاحِبُ حكمةٍ وقوَّةٍ.

عِلَّةُ الفَصْلِ:

"فُصِلَتْ جُمْلَةُ ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ عَنِ الَّتِي قَبْلَهَا لِوُقُوعِها مَوْقِعَ المُحاوِرَةِ مَعَ لُوطٍ عليه السلام"[4]؛ أي: فُصِلَت للاستئناف البيانيِّ؛ لأنَّها بمنْزِلَةِ جوابِ سؤالٍ عن ردِّهم على عرْضِ لوطٍ عليه السلام عليهم؟ فيأتي الجوابُ: ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ﴾.

غرضُ التَّوكيدِ:

استعمالُ الخبرِ في لازمِ الفائدةِ لبيانِ إصرارِ الفُجّارِ

لا يوجدُ كلامٌ - فيه من المسكنَةِ والملاطفَةِ والانكسارِ ليُقالَ لفاسقٍ مُتسلِّطٍ - أشقُّ على نفوسِ الرِّجالِ من قولهِ عليه السلام لقومه: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ﴾، ولا أخسَّ من ردِّهم عليه بصفاقةٍ حين قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾.

و"في تصديرِ كلامهم باللّامِ المؤذنةِ بأنَّ ما بعدَها جوابُ القَسمِ؛

---

(1) الماوردي، النكت والعيون: 2/490.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/380.

(3) الزمخشري، الكشّاف: 2/414.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/129.

أي: والله لقد علمتَ إشارةٌ إلى أنَّه كان واثقًا وجازمًا بعدم رغبتِهم فيهنَّ"[1]. والقسمُ توكيدٌ، فالقومُ مُصِرُّونَ على تنفيذِ جريمتِهم النَّكراءِ، "فَأُكِّدَ بِتَنْزِيلِهِ مَنْزِلَةَ مَنْ يُنْكِرُ أَنَّهُ يَعْلَمُ؛ لِأَنَّ حالَهُ في عَرْضِهِ بَناتِهِ عَلَيْهِمْ كَحالِ مَنْ لا يَعْلَمُ خُلُقَهُمْ، وكَذَلِكَ التَّوْكِيدُ في ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾، وكِلا الخَبَرَيْنِ مُسْتَعْمَلٌ في لازِمِ فائِدَةِ الخَبَرِ؛ أيْ: نَحْنُ نَعْلَمُ أنَّكَ قَدْ عَلِمْتَ ما لَنا رَغْبَةٌ في بَناتِكَ، وإنَّكَ تَعْلَمُ مُرادَنا"[2].

دلالةُ استعمالِ لفظِ العلم مادَّةً وصيغةً:

التَّذكيرُ بعلْمِهم لبيانِ إصرارِهم على طَلبِهم

دلَّ استعمالُ (عَلِم) في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ بالفعلِ الماضي على وجودِ العِلم سابقًا، وهم يذكِّرونَهُ بإصرارِهم المتكرِّرِ، كأنَّهم قالوا: لا تَعُدْ لِنَهْيِنا عن أمرٍ لا مناصَ منهُ عندنا، وهذا في غايةِ الوقاحةِ والكِبْرِ والغَطْرَسَةِ في مخالفةِ الفطرةِ والدِّين والأخلاقِ والعنادِ عليها.

معنى ﴿مَا﴾ في الآيةِ:

"﴿مَا﴾ الأُولَى ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا﴾ نافِيَةٌ مُعَلِّقَةٌ لِفِعْلِ العِلْمِ عَنِ العَمَلِ، فجاءت ﴿مَا﴾ لنفي رغبةِ قوم لوطٍ عليه السلام في طريق الطُّهرِ والسُّلوكِ القويم في الحياةِ، فيما يتعلَّقُ بجانبِ الوطْءِ.

دلالةُ الإضافةِ:

تمامُ الاستغناءِ عن أمرِ الله كمالٌ في استنزالِ عقوبتِهِ

أضافَ الفُسّاقُ البناتِ إلى لوطٍ عليه السلام في مقابلةِ إضافتهِ هو إيّاهنَّ إليهِ حينَ قال: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي﴾، فقالوا: ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ﴾، وفي ذلكَ من التَّهكُّمِ والصَّفاقةِ ما فيهِ، وهو كنايةٌ عن سوءِ أدبِهم مع نبيٍّ يدعوهم إلى الطُّهرِ والفضيلةِ، فلسانُ حالِهم يقول: بناتُك لكَ، ولا حاجةَ لنا بهنَّ.

---

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 6/120.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/129.

طبائعُ الصّالحين تُنافِرُ طبائعَ الفاسقين

بلاغةُ الكنايةِ:

يريدُ القومُ في قولهم: ﴿مِنۡ حَقّٖ﴾ "أنَّكَ دَعَوْتَنا إلَى نِكاحِهِنَّ بِشَرْطِ الإيمانِ، ونَحْنُ لا نُجِيبُكَ إلَى ذَلِكَ، فَلا يَكُونُ لَنا فِيهِنَّ حَقٌّ"(1)، أو "المرادُ بالحقِّ هنا الرَّغبةُ والشَّهوةُ"(2)، وذلك الرَّدُّ "يدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّهم قد بلغوا النِّهايةَ في الخُبْثِ والوقاحةِ وتبلُّدِ الشُّعورِ"(3)، ففيهِ كِنايةٌ بليغةٌ عن زُهدِهم التامِّ وعدم تعلُّقِهم البتَّةَ بجنسِ النِّساء، و"الحَقُّ... أُطْلِقَ هُنا كِنايَةً عَنْ عَدَمِ التَّعَلُّقِ بِالشَّيْءِ وعَنِ التَّجافِي عَنْهُ، وهُوَ إطْلاقٌ لَمْ أرَ مِثْلَهُ، وقد تحيَّرَ المُفَسِّرُونَ في تَقْرِيرِهِ، والمَعْنَى: ما لَنا في بَناتِكَ رَغْبَةٌ"(4).

"وقيل: لما اتَّخذوا إتْيانَ الذُّكْرانِ مَذْهبًا ودينًا لتواطُئِهم عليه؛ كان عندَهُم أنَّه هو الحقُّ، وأنَّ نكاحَ الإناثِ منَ الباطِلِ، فلذلك قالوا: ما لَنا في بناتِكَ من حقٍّ قَطُّ؛ لأنَّ نِكاحَ الإناثِ أمرٌ خارِجٌ من مذهَبِنا الَّذي نحنُ عليهِ، ويجوزُ أن يقولوهُ على وجهِ الخَلاعَةِ"(5).

المسلِمُ نافِذُ الرُّؤيَةِ، يَعلمُ أخلاقَ النّاسِ علَى طَبيعَتِها

بلاغةُ عَطْفِ الجملِ:

عَطَف القومُ جملةَ ﴿وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ﴾، وهي مُقَرِّرَةٌ لمضمونِ الجملةِ الأولى ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ﴾؛ لأنَّ كلتيهما تُقرِّرانِ عِلمَهُ بشيءٍ، فالأولى تقرِّرُ علمَهُ بتمامِ زُهْدِهم في النِّساءِ، والثّانيةُ تقرِّرُ عِلْمَهُ بتمامِ رغبَتِهم في الفَحْشاءِ، والأُولى تَقرِّرُ علمَهُ السّابقَ، والثّانيةُ تقرِّرُ علمَهُ الحاليَّ، وبذلك يقطَعونَ عَليهِ طريقَ المحاولَةِ، ويؤكِّدونَ لَهُ إصرارَهُم عَلى المُضيِّ في وجهتِهم المقيتةِ.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/380.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/249.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/250.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/130.
(5) الزمخشري، الكشّاف: 2/411.

غَرَضُ التَّوكيدِ:

الفاجِرُ لا يَرْعَوي عن أن يجاهِرَ بفُجورِه

التَّوكيدُ في قولهِ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ يهدفُ إلى تَثبيطِ عزيمتِه ﷺ وثنْيِه عن نُصْحِهم، إذِ النُّصْحُ ثقيلٌ عليهم، ولا يودُّون أن يَسمَعوهُ أصلًا، فَأكَّدوا بإنَّ، واسميَّةِ الجملةِ، ولامِ التَّوكيدِ، وصيغةِ المضارعةِ الَّتي تُفيدُ حضورَ عِلمِه ﷺ بفضائِحِهم الماضيةِ، وكمالَ علمهِ بما يريدونَ الآنَ.

معنى ﴿مَا﴾ ودلالتُها:

(مـا) بمعنى الموصوليَّةِ كنايةٌ عن طلبِ الفعلِ الشَّنيعِ

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ "مفعولٌ لـ﴿لَتَعۡلَمُ﴾، وهو بمعنى تعرِفُ، وهي موصولةٌ، والعائدُ محذوفٌ؛ أي: الَّذي نريدُه، وقيل: إنَّها مصدريَّةٌ، فلا حذْفَ؛ أي: إرادتُنا، وجُوِّزَ أن تكونَ استفهاميَّةً وقعتْ مفعولًا لـ ﴿نُرِيدُ﴾ وهي حينئذٍ معلَّقةٌ ﴿لَتَعۡلَمُ﴾"(1).

وفي حَمْلِها على الاسم الموصولِ، فهي كِنايةٌ عن فِعلتِهم الشَّنيعةِ؛ أي: إنَّك تعلمُ جيِّدًا رغبتَنا في "نكاحِ الذُّكورِ"(2)، وأنَّنا "لَيْسَ لَنا غَرَضٌ إلّا في الذُّكورِ، وأنْتَ تَعْلَمُ ذَلِكَ، فَأيُّ حاجَةٍ في تَكْرارِ القَوْلِ عَلَيْنا في ذَلِكَ؟"(3).

نكتَةُ استعمالِ المضارعِ:

الـفُـسّـاقُ لا يَـفـتُرونَ عن فِـسْـقِـهِـم، فـالـصّالـحـونَ أوْلَى بالدِّفاعِ عن حَقِّهِم

في قولهِ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ مضارعانِ هما فعلُ: ﴿لَتَعۡلَمُ﴾، وفعلُ: ﴿نُرِيدُ﴾، فهو يعلم علمًا مستمرًّا متجدِّدًا برغبتِهم فيما يريدونَهُ، وهم يريدونَ الفاحِشَةَ بعِنادٍ وإصرارٍ متجدِّدٍ، فهم يَسْعَونَ إليه الآنَ، ويجدِّدونَ الهِمَّةَ والطَّلبَ والرَّغبةَ فيهِ، فالفعلُ المضارِعُ يُصَوِّرُ حالةَ العِنادِ على أخذِ ما يُريدونَهُ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/304.
(2) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 1/375.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/338.

غرَضُ استعمالِ ﴿لَوۡ﴾:

استُعْملَت (لو) في تمنّي وجودِ قوّةٍ مانِعَةٍ من إقدامِهم على الفُحْشِ

﴿لَوۡ﴾ حرفُ امتناعٍ لامتناعٍ؛ أي: إنَّ كفَّهُ عليه السلام إيّاهم ممتنعٌ لامتناعِ العُزوةِ والرُّكنِ الشَّديدِ منَ البَشَرِ، وإلّا ففي ظَهْرِه القُوَّةُ القاهرةُ والجبروتُ المُهلِكُ الَّذي أهلكَهم فعلًا.

فـ ﴿لَوۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً﴾ تُقَرِّرُ غيابَ النَّصيرِ من الأهلِ وعدمِ العُزوةِ الَّتي تَنصرهُ، وتردُّ فُحشَ هؤلاءِ بكفِّهم عن الفاحِشَةِ، وما أقساها تلك اللَّحظاتُ من لحظاتٍ يشعرُ فيها الرِّجالُ بالعَجْزِ أمامَ الأوباشِ الفاسقين، فـ "لَوْ مُسْتَعْمَلَةٌ في التَّمَنِّي، وهَذا أقْصَى ما أمْكَنَهُ في تَغْيِيرِ هَذا المُنْكَرِ"[1]، وقد قالَ ما قال: "على جهةِ التَّفَجُّعِ والاستكانةِ"[2]، فلمّا "شاهَدَ سَفاهَةَ القَوْمِ وإقْدامَهُمْ عَلَى سُوءِ الأدَبِ؛ تَمَنَّى حُصُولَ قُوَّةٍ قَوِيَّةٍ عَلَى الدَّفْعِ"[3].

بلاغةُ حذْفِ جوابِ ﴿لَوۡ﴾:

ما كتَمَهُ عليه السلام من الحَسْرَةِ أكبرُ من الكلامِ الظّاهرِ

جَوابُ ﴿لَوۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً﴾ مَحْذُوفٌ، وقد دلَّ عليه الكلامُ، والتَّقْديرُ: لَمَنَعْتُكُمْ ولَبالَغْتُ في دَفْعِكُمْ، و"لَكُنْتُ نَكَّلْتُ بِكُمْ، وفَعَلْتُ بِكُمُ الأفاعيلَ منَ العَذابِ، والنِّقْمَةِ، وإحْلالِ البَأْسِ بِكُمْ بِنَفْسِي وعَشِيرَتِي"[4]، ونظيرُ ذلكَ "قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾ [الرّعد: 31] يعني: لو أنَّ لي بكم قوَّةً؛ لفعلْتُ بِكُم وصنعْتُ"[5].

و"حذْفُ مثلِ هذا أبلغُ؛ لأنَّه يدعُ السّامعين ينتهي إلى أبعدِ تخيُّلاته، والمعنى: لفعلْتُ كذا وكذا"[6]، فالحذْفُ يدلُّ على ما كتَمَهُ عليه السلام وأنَّ في نفسِه من الحسْرَةِ على واقعِ قومِه ما يتمنَّى معهُ اتِّخاذَ التَّدابيرِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/130.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/195.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/381.

(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/338.

(5) الزمخشري، الكشّاف: 2/415.

(6) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 3/195.

المانعَةِ بالقوَّةِ، وهذا دليلٌ على أنَّ قومَهُ بلغوا مبلغًا من الجَسارةِ على الباطِلِ، ما لا قِبَلَ لأحدٍ بهِ.

فائدةُ التَّقديم والتَّأخير:

القـوَّةُ أداةٌ موصِلةٌ للغاياتِ الحميدةِ

جاء ترتيبُ الجملةِ في قولهِ تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ على تقديم قيْدَيْنِ هما: ﴿لِي﴾ و﴿بِكُمْ﴾، على المسندِ إليهِ ﴿قُوَّةً﴾.

وتقديمُ هذين القيدَين يكشِفُ عن العنايةِ بدلالتِهما، فقدَّمَ أوَّلًا القيدَ ﴿لِي﴾ لِتعلُّقِ نفسِه بما يعنيهِ، وما ينصرهُ، ويكونُ (له) عليهم، ثُمَّ أُلحقَ بالقيدِ ﴿بِكُمْ﴾ أي: بِرَدِّكم وكفِّكُم عن جريمتِكم؛ لأنَّه المطلبُ المهمُّ.

ثم يجيءُ المسندُ إليهِ ﴿قُوَّةً﴾، وتأتي القوَّةُ بمنزلةِ الخاتمِ الَّذي يَقهرُهم، فلم يُقدِّم القوَّةَ، باعتبارِها أداةً موصِلَةً لِثَني قومِهِ عَنِ الباطِلِ، لا غايةً مطلوبةً لذاتِها، وقد أتى كلُّ ذلك منه عليه السلام على سبيل التَّمنِّي العاجِز، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلّا باللّه العليِّ العظيم.

معنى حرفِ الباءِ:

حَمْلُ الحروفِ على معانيها الظَّاهرةِ أليقُ بالبلاغةِ من القولِ بالتَّناوبِ

ذهبَ ابنُ عاشورٍ - رحمه اللّه - إلى القولِ بالتَّناوبِ، وجعلَ الباءَ في قولِهِ تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ في معنى الاستعلاءِ، فقال: "الباءُ في ﴿بِكُمْ﴾ لِلاسْتِعْلاءِ؛ أيْ: عَلَيْكُمْ، يُقالُ: ما لِي بِهِ قُوَّةٌ، وما لِي بِهِ طاقَةٌ، ومِنهُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ﴾ [البَقَرَة: 249]. ويَقُولُونَ: ما لِي بِهَذا الأمْرِ يَدانِ؛ أيْ: قُدْرَةٌ أوْ حِيلَةٌ عَلَيْهِ، والمَعْنَى: لَيْتَ لِي قُوَّةً أدْفَعُكُمْ بِها، ويُرِيدُ بِذَلِكَ قُوَّةَ أنْصارٍ؛ لِأنَّهُ كانَ غَرِيبًا بَيْنَهُمْ"[1].

والقولُ بالتَّناوبِ خلافُ مذهبِ المحقِّقين، و﴿بِكُمْ﴾ متعلِّقةٌ بمحذوفِ حالٍ من ﴿قُوَّةً﴾؛ لأنَّه صِفةٌ متقدِّمةٌ، فتُعرَبُ حالًا، ولو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/130.

حَمَلْناها على معنى السَّببيَّةِ؛ لاستقامَ المعنى؛ أي: إنَّ لوطًا عليه السلام يتمنَّى أن يمتَلِكَ قوَّةً بسببِ أفعالِهم الشَّنيعةِ، وهو يُخاطِبُهم بذلك، وفيه معنى اللَّوم؛ أي: ما تمنَّيتُ ذلك إلّا بسببِ ما بَلَغْتُمُوهُ من الفُحْشِ، وهذا أليقُ بالسِّياقِ؛ إذ إنَّ تَمنِّيه لامتلاكِ القوَّةِ لم يكن إلّا بسببِ ما أرادوا اقترافَهُ من الفاحشَةِ في حقِّ ضيفِه.

وقولُ لوطٍ عليه السلام ذلك "يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كانَ في غايَةِ القَلَقِ والحُزْنِ بِسَبَبِ إقْدامِ أُولَئِكَ الأَوْباشِ عَلَى ما يُوجِبُ الفَضِيحَةَ في حَقِّ أضْيافِه، فَلَمّا رَأتِ المَلائِكَةُ تِلْكَ الحالَةَ؛ بَشَّرُوهُ بِأنْواعٍ مِنَ البِشاراتِ: أحَدُها: أنَّهُمْ رُسُلُ اللّه. وثانِيها: أنَّ الكُفّارَ لا يَصِلُونَ إلَى ما هَمُّوا بِهِ. وثالِثُها: أنَّهُ تعالى يُهْلِكُهُمْ. ورابِعُها: أنَّهُ تعالى يُنَجِّيهِ مَعَ أهْلِهِ مِنْ ذَلِكَ العَذابِ. وخامِسُها: أنَّ رُكْنَكَ شَدِيدٌ، وإنَّ ناصِرَكَ هُوَ اللّه تعالى فَحَصَلَ لَهُ هَذِهِ البِشاراتُ"[1].

دلالةُ العطفِ بحرف ﴿أَوۡ﴾:

حِرْصُ الدّاعي على تحقيقِ الغاياتِ بقَطْعِ النَّظَرِ عن نوعِ الوسيلةِ الشَّرعيَّة

قولُهُ تعالى: ﴿أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ هو الأمنيةُ الثانيةُ لنبيِّ اللّه لوطٍ عليه السلام إذ لم تتحقَّقِ الأولى، وهي القدرةُ على كَبْحِ جماحِ قومه، فيتَمَنَّى أن لو كانَ لَهُ مكانٌ قويٌّ حصينٌ يتحصَّنُ فيه منهم، ويأوي إليه، يقول: "أعْتَصِمُ بِما فِيهِ مَنَعَةٌ؛ أيْ: بِمَكانٍ أوْ ذِي سُلْطانٍ يَمْنَعُنِي مِنْكُمْ"[2].

وفي تعيينِ المعطوفِ عليهِ بحرف ﴿أَوۡ﴾ أقوالٌ، وهي الآتية:

الأوَّل: يجوزُ أن يكونَ معطوفًا على المعنى، تقديره: أو أنِّي آوي.

الثّاني: يجوز أن يكونَ معطوفًا على ﴿قُوَّةً﴾؛ لأنَّهُ منصوبٌ في الأصلِ بإضمار (أن)، فلمّا حُذِفَتْ (أن)؛ رُفِعَ الفعلُ، كقوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ﴾ [الروم: 24].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/381.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/130.

الثّالث: يجوز أن يكونَ عَطْفُ هذه الجملةِ الفعليَّةِ على مثْلِها إن قدَّرْتَ أنَّ "أنَّ" مرفوعةٌ بفعل مُقَدَّرٍ بعد (لو) عند المبرِّدِ، والتقديرُ: لو يستقرُّ أو يَثْبُتُ استقرارُ القوَّةِ أو آوي، ويكون هذان الفعلانِ ماضيَي المعنى؛ لأنَّها تَقلِبُ المضارعَ إلى المضيِّ، وأمّا على رأي سيبويهِ في كونِ "أنَّ" في محلِّ الابتداءِ، فيكون هذا مستأنفًا.

الرّابع: قيل: ﴿أَوْ﴾ بمعنى: بل، وهذا عندَ الكوفيِّين[1].

ودلالةُ استعمالِ ﴿أَوْ﴾ هو بيانُ شديدِ تمسُّك لوطٍ عليه السلام بمطلبٍ يُعينهُ على بلوغِ المرام في تخليصِ ضيفهِ من الوقوعِ في البلاءِ، فـ(أو) معناها التَّنويعُ، فهو متعلِّقٌ بأيِّ سبيلٍ يوصلُهُ إلى المقصودِ.

دلالةُ تعديةِ فعلِ الإيواءِ بحرفِ (إلى):

رحمةُ نبيِّ الله لوطٍ عليه السلام غلبَت لسانَهُ أن يدعو على قومِهِ

جاء استعمالُ حرفِ انتهاءِ الغاية ﴿إِلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾؛ لبيانِ أنَّ مطلبَ الإيواءِ الذي تمنّاه لوطٌ عليه السلام فيه معنى الالتجاءِ من الحالِ الَّتي وصلَ إليها، في معاناةِ قَومه ومكابدَتِهم لتركِ ما هم فيهِ من الغيِّ والانهماكِ وراءَ الشَّهواتِ، فهو يبحثُ عن منقذٍ جديرٍ بإنقاذِهِ، وفي ذلك تلويحٌ وإيماءٌ بدعائهِ ضمنًا أن ينقذَهُ اللّه منهم، لكنَّ رحمتَهُ غلبَت على لسانِه، فقبضتْهُ عن أن ينطقَ بإنزالِ العذابِ، وهو يعلمُ أنَّ الرُّكنَ الشَّديدَ حاضرٌ، لكنَّهُ يخشى أن يُصيبَهُم بمكروهٍ، ففيه من عظيم الرَّحمةِ ما يحتاجُهُ دعاةُ الإسلامِ في كلِّ زمانٍ أن يمتثلوهُ مع العُصاةِ المخالفين، وألّا يُبادِروا إلى استعداءِ النّاسِ، ولو كانوا عتاةَ الكفرِ، فاللّه أمرَ نبيَّنا صلى الله عليه وسلم أن يهتديَ بأولئك النَّبيِّين.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة:

تشبيهُ العزيزِ بالرُّكنِ دليلُ عزَّتِهِ ونُدرةِ وجودِهِ بين النّاسِ

في قوله تعالى: ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ استعارةٌ، والمعنى: "لو أويتُ إلى قويٍّ أستندُ إليه، وأتمَنَّعُ بهِ، فيحميني منكم، فَشَبَّهَ القويَّ

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/364.

العزيزَ بالرُّكنِ من الجَبَلِ في شدَّتِهِ ومَنَعتِهِ"[1]، وحذفَ المشبَّهَ، وعبَّر في موضعِهِ بالمشبَّهِ بهِ، فهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ أصليَّةٌ، غرضُها المبالغَةُ في القوَّةِ الرّادعَةِ المُتَمَنّاة.

غَرَضُ التَّنكيرِ في استعمالِ مفردةِ ﴿رُكۡنٖ﴾:

وظيفةُ الرُّكنِ في النُّصرةِ أهمُّ من أيِّ اعتبارٍ آخرَ

الرُّكنُ في أصلِ معناهُ اللُّغويِّ: "النّاحيةُ مِنَ البيتِ أو الجبلِ، ويُقال: رُكُنٌ بضمِّ الكاف، وقد قُرِئَ بهِ، ويُجْمَعُ على أركانٍ، وأرادَ ﷺ به القويَّ، شبَّهَهُ بـ ﴿رُكۡنٖ﴾ الجبلِ في شِدَّتِهِ ومَنَعتِهِ؛ أي: أو أنضمُّ إلى قويٍّ أتمنَّعُ بهِ عنكم، وأنتصرُ بهِ عَليكم".

وتنكيرُ ﴿رُكۡنٖ﴾ للتَّفخيم والتَّعظيم، وهو يوحي بفقدانِ لوطٍ عليه السلام كلَّ حمايةٍ من البشرِ، ويكشِفُ عن أمنيتِهِ في أن يجِدَ ركنًا ركينًا يَرْكَنُ إليه، ويستَنِدُ عليه، ويتقوَّى بهِ في الملمّاتِ بِقَطعِ النَّظرِ عن أيِّ اعتبارٍ، وعبَّرَ بالـ ﴿رُكۡنٖ﴾؛ لأنَّهُ أقوى موضعٍ في البناءِ؛ لما فيهِ من زاويةٍ يلتقي عندها الجدارانِ، يسندُ كلٌّ منهما الآخرَ، ويشدُّ بعضُهما بعضًا من خلالِه.

سرُّ اختيارِ صِفَةِ ﴿شَدِيدٖ﴾ دونَ مرادِفاتِها:

اتِّخاذُ المسلم عُزوتَهُ رُكنًا يتحصَّنُ بهِ لا يُنافي كَمالَ الإيمانِ

وُصِفَ الرُّكنُ بالشَّديدِ، وهو ما يزيدُ قوَّتَهُ قوَّةً، وذلك يعكسُ شدَّةَ المرارةِ الَّتي يتجرَّعُها لوطٌ عليه السلام في هذه اللَّحظاتِ، إنَّها عباراتٌ مُليِّنةٌ لأصلدِ القلوبِ، وهو يريدُ من تمنِّيهِ في وجودِ الرُّكنِ الشَّديدِ "منعةً عاجلةً يمنعُ بها قومَهُ ممّا هم عليه مِنَ الفواحِشِ، من قرابةٍ أو عشيرةٍ أو أتباعٍ مؤمنين، وما جَهِلَ قطُّ لوطٌ عليه السلام أنَّه يأوي من ربِّهِ تعالى إلى أمنعِ قوَّةٍ، وأشدِّ ﴿رُكۡنٖ﴾. ولا جناحَ على لُوطٍ عليه السلام في طلبِ قوَّةٍ مِنَ النّاسِ، فقد قالَ تعالى: ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [البقرة: 251]، فهذا الَّذي طلبَ لوطٌ عليه السلام.

(1) الزمخشري، الكشّاف: 2/415.

وقد طلبَ رسولُ اللّه ﷺ من الأنصارِ والمهاجرين مَنْعَهُ حتَّى يُبَلِّغَ كلامَ ربِّهِ تعالى فكيف يُنْكِرُ على لوطٍ عليه السلام أمرًا هو فعلَهُ عليه السلام؟ تاللّه! ما أنكر ذلك رسولُ اللّه ﷺ وإنّما أخبرَ أنَّ لوطًا «كان يأوي إلى ركنٍ شديدٍ».

يعني: مَن نصرَ اللّه له بالملائكةِ، ولم يكن لِلوطٍ عِلْمٌ بذلِك، ومَن اعتقدَ أنَّ لوطًا كان يعتقدُ أنَّه ليس له منَ اللّه ركنٌ شَديدٌ، فقدْ كفرَ، إذ نَسبَ إلى نبيٍّ منَ الأنبياءِ هذا الكفرَ، وهذا أيضا ظنٌّ سخيفٌ؛ إذ من المُمتنِع أن يظنَّ بربٍّ أراهُ المعجزاتِ، وهو - دائبًا - يدعو إليه؛ هذا الظَّنَّ"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الهَرَعُ والهَرولةُ:

الهَـرَعُ مرتبِطٌ باضطرابٍ داخليٍّ بخلافِ الهرولةِ فهي سيرٌ حثيثٌ

"الهَرْوَلَةُ: بَيْنَ العَدْوِ والمَشْي، وقِيلَ: الهَرْوَلَةُ بَعْدَ العَنَقِ، وقِيلَ: الهَرْوَلَةُ الإسراعُ... وفي الحَدِيث: «مَن أتاني يَمْشي أتَيْتُه هَرْولَةً»، وهُو كِنايَةٌ عَنْ سُرْعَةِ إجابةِ اللّه ﷻ وقَبُولِ تَوْبَةِ العَبْدِ ولُطْفه ورَحْمَتِه... وقِيلَ: الهَرْوَلَةُ فَوْقَ المَشْيِ ودُونَ الخَبَبِ، والخَبَبُ دُونَ العَدْوِ"[2].

وأُهْرِعَ الرَّجُلُ: خَفَّ وأُرْعِدَ منْ سُرْعةٍ أو خَوْفٍ أو حِرْصٍ أو غَضَبٍ أو حُمَّى، وفي التَّنْزيلِ: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ [هود: 78]، قالَ أبو عُبَيْدَةَ: يُسْتَحَثُّون إليه، كأنه يَحُثُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا. وتَهَرَّعَ إليه: عَجِلَ"[3]، و"المَهْرُوعُ: المَجْنونُ يُصْرَعُ، والمَصْروعُ من الجَهْدِ... وأَهْرَعَ: أَسْرَعَ"[4].

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 6/120.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (هرول).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (هرع).
(4) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (هرع).

العَملُ والفِعلُ:

الفِعلُ أعمُّ من العَملِ ففِعلُ الحيِّ سُلوكُهُ المعتادُ

"العَملُ: إيجادُ الأثرِ في الشَّيءِ، يقال: فلانٌ يعملُ الطِّينَ خزفًا، ويعملُ الخوصَ زَنبيلًا، والأديمَ سِقاءً، ولا يقالُ: يفعَلُ ذلك، فالفعلُ: عبارةٌ عمّا وُجِدَ في حالٍ كان قبلَها مقدورًا سواءٌ كان عن سببٍ أو لا"[1]، وقال اللّه تعالى ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الصافات: 96]؛ أي: خلقَكم، وخلقَ ما تؤثِرونَ فيهِ بِنَحْتِكم إيّاه أو صَوْغِكُم لَهُ، وأصلُ العملِ في اللُّغةِ الدَّؤوبُ، ومنه سُمِّيَتِ الراحِلةُ يَعْمَلَةً "[2].

العملُ والصُّنعُ:

الصُّنعُ أخصُّ من العملِ؛ إذ يختصُّ بالإتقانِ والإحكام

"الصُّنعُ: ترتيبُ العملِ وإحكامُهُ على ما تقدَّم عِلمٌ بِهِ، وبما يوصِّلُ إلى المرادِ منهُ، ولِذلكَ قيلَ لِلنَّجّارِ: صانِعٌ، ولا يقالُ لِلتّاجِرِ: صانِعٌ؛ لأنَّ النَّجّارَ قد سَبَقَ عِلمُهُ بما يُريدُ عملَهُ من سريرٍ أو بابٍ وبالأسبابِ الَّتي تُوصِّلُ إلى المرادِ من ذَلِكَ، والتّاجِرُ لا يعلم إذا اتَّجَرَ أنَّه يَصِلُ إلى ما يريدُه من الرِّبحِ أو لا، فالعملُ لا يقتضي العِلمَ بما يعملُ له"[3].

السَّيِّئاتُ والفواحِشُ:

السَّيِّئاتُ أعمُّ من الفواحِشِ فَهي تُطلَقُ على الصَّغائِرِ والكبائِرِ

"السَّيِّئَةُ: الفِعْلَةُ القَبيحَةُ، وهيَ ضِدُّ الحَسَنَةِ، قالَ: ﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ [البقرة: 81]... وقال ﷺ: «يا أنسُ أتبعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُها»"[4]، و"الفاحِشَةُ: ما عظُمَ قُبحُهُ من الأفعالِ والأقوالِ... وفَحُشَ فلانٌ: صارَ فاحِشًا... والمُتَفَحِّشُ: الَّذي يأتي بالفُحْشِ"[5].

فالسَّيِّئاتُ أعمُّ من الفواحشِ لاسيَّما في الاستعمالِ العُرفيِّ، وتُطْلَقُ على الصَّغائِرِ والكبائِرِ، بخلافِ الفواحشِ، فهي تُطلَقُ على الكبائرِ المرتبطةِ بالأخلاقِ الخَسيسةِ.

---

(1) العسكريّ، معجم الفروق اللغويّة، ص: 408.
(2) العسكريّ، معجم الفروق اللغويّة، ص: 377.
(3) العسكريّ، معجم الفروق اللغويّة، ص: 321.
(4) الراغب، المفردات: (ساء).
(5) الراغب، المفردات: (فحش).

القدرةُ والقوَّةُ:

القوَّةُ قدرةٌ كامنةٌ، والقُدرةُ قوَّةٌ تنفيذيَّةٌ

"القدرةُ: كَوْنُ الحيِّ بحيثُ إن شاءَ فعلَ، وإن شاءَ تركَ، والقوَّةُ: هي المعنى الَّذي يتمكَّنُ بِها الحيُّ من مُزاولَةِ الأفعال الشّاقَّةِ"[1]. فالقوَّةُ هي الطّاقةُ والإرادةُ الَّتي يمتلكُها الحيُّ، والقدرةُ الجانبُ التَّنفيذيُّ على إيجادِ القوَّةِ واقعًا.

الخِزْيُ والإهانةُ:

الإهانةُ إذا انتشرَتْ بين النّاسِ أصبحَتْ خِزيًا

الإهانَةُ أعمُّ من الخِزي، فإنَّ "الإنسانَ قد تهونُ عليهِ نفسُه، ويُقبِلُ على العملِ السَّيِّئَ ما لم يرَهُ أحدٌ، أمّا أن يراه النّاسُ؛ ففي هذا فضْحٌ لهُ، فـ الخِزْيُ والفضيحةُ تكونُ بين جمهرةِ النّاسِ، والهوانُ والإهانةُ أن يكونَ العملُ السَّيِّئُ بينَهُ وبينَ نفسِه"[2].

(1) العسكريّ، معجم الفروق اللغوية، ص: 421.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 11/6579.

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١﴾ [هود: 81]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ عاقبةِ الأضدادِ نجاةُ الأتقياءِ وهلاكُ الأشقياءِ

"لمّا ضاق بـ لوط عليه السلام الأمرُ؛ كشَفَ اللّه سبحانه وتعالى عنه الضُّرَّ، فعرَّفَ إليه الملائكةَ، وقالوا: لا عليكَ، فإنَّهم لا يصِلونَ إليكَ بسوءٍ، وإنّا رُسُلُ رَبِّكَ جِئْنا لإهلاكِهم، فاخرُجْ أنت وقومُكَ من بينِهم، واعلمْ أنَّ مَن شارَكَهم في عَمَلِهم بنوعٍ، فَلَهُ من العذابِ حِصَّةٌ، ومن جُملتِهم امرأتُكَ الَّتي كانت تَدلُّ القومَ على المَلَكِ لِفِعْلَةِ الفاحِشَةِ، وإنَّ العقوبةَ لاحِقةٌ بها، مُدرِكةٌ لها"(1)، فالمناسبةُ بينَ الآيةِ والكلامِ السّابقِ بيانُ عاقبةِ الأضدادِ: نجاةُ الأتقياءِ وهلاكُ الأشقياءِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَسۡرِ﴾: "السُّرَى: سَيرُ اللَّيلِ، يُقالُ: سَرَى وأَسْرَى، قال تعالى: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ﴾ [هود: 81]، وقالَ تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ [الإسراء: 1]، وقيلَ: إنَّ (أسرى) ليست من لفظةِ سرى يسري، وإنَّما هي من السَّراةِ، وهي أرضٌ واسِعَةٌ، وأصلُهُ من الواوِ... وسَراةُ كلِّ شيءٍ: أعلاهُ، ومنهُ: سَراةُ النَّهارِ؛ أي: ارتفاعُهُ، وقوله تعالى: ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ [مريم: 24] أي: نهرًا يَسري، وقيل: بل ذلك من السَّروِ؛ أي: الرِّفعة"(2).

2) ﴿بِقِطۡعٖ﴾: "القَطْعُ: فَصلُ الشَّيءِ مُدرَكًا بالبَصَرِ كالأجْسامِ، أو مُدرَكًا بالبَصيرةِ كالأشياءِ المعقولةِ، فَمن ذلك قَطْعُ الأعضاءِ،

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 2/149.
(2) الراغب، المفردات: (سرو).

نحوُ قوله: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ [الأعراف: 124]، ...

وقِطْعٌ منَ اللَّيْل: قطعةٌ منهُ، قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [هود: 81]"[1]، "والقِطْعُ: ظُلْمَةُ آخرِ اللَّيلِ، ومنْهُ قَوْلُهُ تعالَى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾؛ قالَ الأخفشُ: بِسَوادٍ منَ اللَّيْل"[2].

3) ﴿يَلْتَفِتْ﴾: "لَفتَ وجهَهُ عَنِ القَوْمِ: صَرَفَهُ، والتَفَتَ التِفاتًا، والتَّلَفُّتُ أكثرُ منْهُ، وتَلَفَّتَ إلى الشَّيْءِ، والتَفَتَ إليهِ: صَرَفَ وجْهَهُ إليهِ، قالَ اللّه تَعالَى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾، أُمِرَ بتَرْكِ الالتِفاتِ؛ لِئَلّا يَرَى عظيمَ ما يَنْزِلُ بِهِمْ منَ العَذابِ، وفي الحَديثِ في صِفَتِهِ ﷺ: «فإذا التَفَتَ، التَفَتَ جَميعًا»، أرادَ أنَّهُ لا يُسارِقُ النَّظَرَ، وقيلَ: أرادَ لا يَلْوي عُنُقَهُ يَمْنَةً ويَسْرةً؛ إذا نَظَرَ إلى الشَّيءِ، وإنَّما يَفْعَلُ ذَلِكَ الطّائِشُ الخَفيفُ، ولَكِنْ كانَ يُقْبِلُ جَميعًا، ويُدْبِرُ جَميعًا"[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الجَسارةُ على الزَّلَّةِ وخيمَةُ العاقِبَةِ، ولا يَنْفَعُ الأشقياءَ الاتِّصالُ بالأنبياءِ

"قالتِ الملائكةُ: يا لوطُ، إنّا رسلُ ربِّكَ، جِئْنا لِنَجاتِكَ من شَرِّهِم وإهلاكِهِم، ومعنى هذا أنَّهم لم يَصِلوا إليكَ بسوءٍ في نفسِك ولا فينا... فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ، واخرُجْ من هذهِ القَريةِ الظّالمِ أهلُها بطائفةٍ مع اللَّيل تكفي لتجاوزِ حدودِها والبُعْدِ عَنها... ولا يَلْتَفِت منكم أحدٌ إليها أبدًا؛ خوفًا من أن يرى العذابَ فَيصيبَهُ، وامضوا حيثُ تُؤمَرونَ.

فَأَسْرِ بأهلِكَ جميعًا إلّا امرأتَك... وكانَتِ امرأةً كافِرَةً لها ضِلْعٌ مَعَ قَومِ لوطٍ الكَفَرةِ، إنَّه مصيبُها ما أصابَهم، إنَّ مَوعِدَهم الصُّبحُ؛ إذ سَيَبْتَدِئُ عذابُهم من طلوعِ الفَجْرِ، ويَنْتَهي عِندَ شروقِ

(1) الراغب، المفردات: (قطع).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (قطع).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (لفت).

الشَّمسِ... أليسَ الصُّبحُ بِقَريبٍ؟ وقَد كانوا يتعجَّلونَ العذابَ كُفرًا واستِهزاءً بلوطٍ"(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ مَطْلَعِ الآيةِ:

المؤمنُ دائمًا يأوي إلى رُكنٍ شَديدٍ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ﴾ عمّا قبلَه للاستئناف البيانيِّ؛ إذ إنَّ توتُّرَ الموقفِ مُثيرٌ، يستدعي إلى الأذهانِ المتلقِّيةِ أسئلةً متكاثرةً تدورُ حولَ ما جرى بعد ذلك؟ وكيف سَتُحَلُّ هذهِ الأزمةُ؟ وقد بلغَ المشهدُ ذروةَ الحَبْكَةِ الأليمةِ، فها هو لوطٌ عليه السلام قد استَنْفدَ أسبابَهُ، وبدا عجزُهُ، وها هم الغوغائيُّون يتسوَّرونَ جُدُرَ بيتِهِ، كما في بعض الرِّواياتِ، وها هم الضَّيفُ الكريم هادِئونَ يرقبون الموقِفَ.

وحينئِذٍ يأتي فرجُ اللّه تعالى ويكشفُ الملائكةُ الكرامُ عن أنفسِهِم، ويبشِّرونَهُ بأنَّهُ يأوي إلى ﴿رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾ حاضرٍ عاجلٍ غيرِ آجلٍ، هو ركنُ رَبِّهِ ﷻ ويوجِّهونَهُ إلى الخروجِ ليلًا برفقةِ أهلهِ إلّا امرأتَهُ الهالكةَ مع الهالكين، وألّا يلتفِتَ أحدٌ منهم حتَّى لا يُصرَعَ من هَولِ المنظَرِ الَّذي سيَحِلُّ بهؤلاءِ الفاسقين.

فـ "إِذْ قَدْ كانُوا في صُورَةِ البَشَرِ، وكانُوا حاضِري المُجادَلَةِ حَكَى كَلامَهُمْ بِمِثْلِ ما تُحْكَى بِهِ المُحاوراتُ، فَجاءَ قَوْلُهُمْ بِدُونِ حَرْفِ العَطْفِ عَلَى نَحْوِ ما حُكِيَ قَوْلُ: لُوطٍ عليه السلام وقَوْلُ قَوْمِهِ"(2).

غرضُ النِّداءِ:

عندَ استِحْكامِ الكَرْبِ على الصّالحين يأتي الفرجُ من ربِّ العالمين

النِّداءُ في قولِهِ تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ﴾ هو نداءُ الإغاثةِ، نداءُ الرُّكنِ الشَّديدِ الَّذي تمنّاهُ لُوطٌ لتوِّه، النِّداءُ هنا يمثِّلُ جوابَ المضطرِّ الَّذي لا يتأخَّرُ، ولا يتخلَّفُ بكرم اللّه ﷻ ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: 62].

(1) حجازي، التفسير الواضح: 2/138.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/131.

النِّداءُ هنا هو الملاذُ الآمنُ الذي أنقذ لوطًا ﵇ من ورطتِه، وأداةُ البعيدِ (يا) من دواعي الطُّمأنينَةِ الَّتي يقتَضيها حالُ لوطٍ ﵇ فبِرُغم قربِهم منهُ ووجودِهم معَهُ آثروا بثَّ الأمنِ في أرجاءِ نفسِه بهذِه الأداة.

"لَمّا بَلَغَ بِلُوطٍ ﵇ تَوقُّعُ أذَى ضَيْفِهِ مَبْلَغَ الجَزَعِ ونفادِ الحِيلَة؛ جاءَهُ نَصْرُ اللّه عَلَى سُنَّةِ اللّه تعالى مَعَ رُسُلِه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ [يوسف: 110]"[1].

وقد "دلُّوا بحرفِ النِّداء الموضوعِ للبُعدِ على أنَّه كانَ قد خرجَ عَنِ الدّار، وأجافَ بابها، وأنَّ الصِّياح كان شديدًا"[2].

دلالةُ إخبارِ الملائكةِ بأنَّهم رُسُلُ الله تعالى:

عند مجيءِ البشاراتِ تنقَلِبُ الموازين وتنعكسُ النِّذاراتُ

"ابْتَدَأَ المَلائِكَةُ خِطابَهُمْ لُوطًا ﵇ بِالتَّعْرِيفِ بِأنْفُسِهِمْ لِتَعْجِيلِ الطُّمَأْنِينَةِ إلَى نَفْسِه؛ لِأنَّهُ إذا عَلِمَ أنَّهُمْ مَلائِكَةٌ؛ عَلِمَ أنَّهُمْ ما نَزَلُوا إلّا لِإظْهارِ الحَقِّ، قالَ تَعالَى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: 8]"[3]، "فخفِّضْ عليك من هذا الضِّيق الذي نراهُ بك، فإنّا ما أُرسِلْنا إلّا لإهلاكِهم"[4]، "أرْسَلَنا لِتَنْجِيَتِكَ مِنْ شَرِّهِمْ وإهْلاكِهِمْ"[5].

فيفيدُ هذا الخبرُ ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ فائدةً جديدةً وعزيزةً عليه ﵇ فائدةً كان لا يعرفُها، فائدةً جاءتْهُ نجدَةً، وقلَبَتِ الموازينَ، فالخائفُ صار آمنًا، والآمنون طُمسَتْ أعينُهم، فَهاموا على وجوهِهم لا يهتدونَ إلى دورِهم طريقًا تمهيدًا للخَسْفِ بهم؛ ليتَتابَعَ عليهمُ العذابُ، ولا يأتيهمُ الموتُ مرَّةً واحدةً، فيا لهُ من خبرٍ جميلٍ! ويا لهُ من خبرٍ عظيمٍ! وقد دلَّ الخبرُ على عدم علمه ﵇ بأنَّهم ملائكةٌ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/131.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 9/343.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/131.
(4) البقاعي، نظم الدّرر: 9/333.
(5) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/113.

فحسُنَ التَّعريفُ بأنفسِهم لدفْعِ خوفهِ عليهم، وللتَّوطئَةِ لإخبارهِ بنفي وصول قومهِ إليهم.

دلالةُ إضافةِ لفظِ الرَّبِّ إلى ضمير الخطابِ:

عنوانُ الرُّبوبيَّةِ عنايةٌ حكيمةٌ وتربيةٌ فريدةٌ موصلةٌ للمقصودِ

لفظُ الرُّبوبيَّةِ حبيبٌ إلى المسلم، يبشِّرُه بخيرٍ ينزلُ إليه من الرَّحمنِ الرَّحيم ﷻ ويُذَكِّرُهُ بنعمائِهِ الَّتي توالتْ عليه منذُ أوجدَهُ اللّه تعالى.

ففي إضافةِ اسم الرَّبِّ ﷻ إلى ضمير المخاطَبِ لوطٍ ﵇ في جملة ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ اتِّساقٌ مع السِّياق ووفاءٌ بحقِّ المقام، فالخبرُ ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ خبرُ نجاةٍ وإكرامٍ عظيمٍ يناسبهُ لفظُ الـ (رب)، والمقامُ العصيبُ على لوطٍ ﵇ يقتضي البشاراتِ المتتابعةَ؛ لانتزاع الفَزَعِ المَتثاقِلِ على نفسِهِ ويكافئُهُ، فكان هذا الخبرُ المؤكَّدُ، المبشِّرُ، والمُطَمْئِنُ لنفسِه ورُوحه وقلبهِ ﵇ متَّسِقًا مع العناية الرَّبّانيَّة التي يحتاجُ إليها لوطٌ ﵇.

علَّةُ الفصْلِ:

بيانُ الجملةِ للسّابقة سببٌ لتركِ العطفِ

هذه الجملةُ ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ خبرٌ آخرُ سيقَ إليهِ ﵇ بإثْرِ الخَبرِ السّابقِ ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾، وفُصِل عنه؛ لأنَّهما في غِنًى عن واصلٍ يصِلُهما؛ إذ إنَّ كونَهم رُسلَ ربِّه ﷻ يعني: أنَّ الكفّارَ لن يصلوا إليه، فمجيءُ الخبرِ التالي ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ بيانٌ؛ ليترسَّخَ فيه ﵇ ويزولَ عنه القلقُ بالكلِّيَّة.

وقصدَ الملائكةُ الكرامُ بقولِهم: "﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ أي: إلى إضرارِكَ بإضرارِنا"[1]، فهي "جملةٌ موضِّحةٌ لِلَّتي قبلَها؛ لأنَّهم إذا كانوا رُسُلَ اللّه لم يصلوا إليه، ولم يقدِروا على ضررِه"[2]، و"مُبَيِّنَةٌ لِإِجْمالِ جُمْلَةِ ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾، فَلِذَلِكَ فُصِلَتْ، فَلَمْ تُعْطَفْ؛ لِأَنَّها بِمَنْزِلَةِ عَطْفِ البَيانِ"[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/132.
(2) الزمخشري، الكشّاف: 2/415.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/132.

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظِ (الوصول) دونَ (الإيذاءِ):

التَّنبيهُ بالأدنى على الأعلى فعدَمُ الوصولِ يَلْزَمُ عنه عدَمُ الإيذاءِ

عبَّر النَّظمُ الكريم بالوصولِ في قولهِ تعالى: ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾ دونَ أن يقولَ: (لن يؤذوك، أو يَضُرُّوكَ)؛ لأنَّهُ مرحلةٌ سابقةٌ على الإيذاء، ولن يقعَ الإيذاءُ إلّا بعد الوصولِ، وإذا كان الوصولُ ممنوعًا أصلًا؛ كان الإيذاءُ ممنوعًا من بابٍ أولى، فهو تنبيهٌ بالأدنى على الأعلى، ففيهِ كِنايَةٌ عن تمام الحِفْظِ وتَمام النَّجاةِ من شَرِّ الفاسقين وفجورهم.

سرُّ نفي وصولِ القَوم إلى لوطٍ عليه السلام دون ضيفه:

إذا جاءتِ الوعودُ الصّادِقَة؛ اضمحلَّتِ الظُّنونُ المتوهَّمَة

قَولهم: ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ﴾؛ أي: "بِسُوءٍ في نَفْسِكَ ولا فِينا"[1]، وتقييدُ نفْي الوصولِ بقوله: ﴿إِلَيۡهِ﴾ دونَ أن يُقالَ: (إليهم) وهم المقصودونَ بالوصولِ يَلْفِتُ انتباهَ المخاطَبِ، وكأنَّ فيهِ مخالفةً لِما يقتضيه ظاهِرُ الحالِ؛ لأنَّه عليه السلام يَخشى وصولَ القومِ الفاسقين إلى الضَّيفِ الكريم لا وصولَهُم إليهِ هو، ولكنَّ الملائكةَ يبشِّرونَهُ بنفي وصولِ القوم إليه هو.

والَّذي يَظهرُ أنَّ الملائكةَ لمّا نَفَوْا وصولَ قومهِ عليه السلام إليه، كان غرضُهم التَّنبيهَ على أنَّ وصولَهم إليهم هو أبعدُ، كما أنَّ في نفي وصولِهم إليه إيماءً إلى نفي حزْنِهِ وغمِّه، فبَيْنَ الفِعْلِ ﴿يَصِلُوٓاْ﴾ والقَيدِ ﴿إِلَيۡكَۖ﴾ تَناغُمٌ كَبيرٌ.

معنى حرف الفاءِ:

الفاءُ تفريعيَّةٌ على الوعدِ الإلهيِّ المحتوم

جاءتِ الفاءُ في قولهِ تعالى: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾؛ "لترتيبِ الأمْرِ بالإسراءِ على الإخبارِ برسالتهم المؤذِنَة بورودِ الأمْرِ والنَّهي من جنابهِ ﷻ إليهِ عليه السلام"[2]، فهي تفْريعيَّةٌ للإسراء بأهلهِ على الوعْدِ بعدم وصولِ القوم إليهِ، "فَلَمّا رَأى ابْتِداءَ سَلامَتِهِ مِنْهُمْ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/113.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/305.

بِانْصِرافِهِمْ؛ حَسُنَ أنْ يُبَيِّنَ لَهُ وجْهَ سَلامَتِهِ في المُسْتَقْبَلِ مِنْهُمْ بِاسْتِئْصالِهِمْ وبِنَجاتِهِ، فَذَلِكَ مَوْقِعُ فاءِ التَّفْرِيعِ"(1).

دلالةُ استعمالِ الفِعْلِ ﴿فَأَسْرِ﴾:

الأخذُ بالأسبابِ المتاحةِ من تَمام الحكمَةِ

معنى ﴿فَأَسْرِ﴾: "فَسِرْ بأهلِكَ ليلًا، والسُّرَى: سَيرُ اللَّيل"(2)، وهذا الفعلُ يعطي دلالتين متوازيَتَيْن: الأولى: اُخرُجْ من القريَةِ بعيدًا، الثانية: لِيكُنِ الخروجُ ليلًا؛ وذلك لأنَّ الخروجَ ليلًا يَضْمَنُ لَهُ ولأهلِهِ السَّلامةَ وعدمَ الإعاقةِ في الخروجِ؛ إذ لا يتعرَّفُ مَن بَقِيَ من القوم مبصرًا بعد طَمْسِ أعينِ المتهجِّمينَ عِنْدَ بيتِ لوطٍ عليه السلام فـ "تَعْيِينُ اللَّيْلِ لِلْخُرُوجِ كَيْلا يُلاقِيَ مُمانَعَةً مِنْ قَوْمِهِ أوْ مِنْ زَوْجِهِ، فَيَشُقُّ عَلَيْهِ دِفاعُهُمْ"(3).

وليس لفعلٍ من مرادفات ﴿فَأَسْرِ﴾ من خصائصِ التَّعبيرِ وإشاراتِهِ المعنويَّةِ كلُّ ذلك، فكان اصطفاؤهُ لهذا المقام في نهايةِ الاتِّساقِ والتَّناسُبِ.

تَوجيهُ القراءاتِ القُرآنيَّةِ:

وقد "قرأ نافِع وابنُ كثِير ﴿فَٱسْرِ﴾ موصُولةً، والباقُون بِقطعِ الألِفِ، وهُما لُغتانِ، يُقالُ: سريتُ بِاللّيلِ وأسريتُ... فمن قرأ بِقطعِ الألِفِ؛ فحُجّتُهُ قولُهُ ﷻ: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: 1]، ومن وصل؛ فحُجّتُهُ قولُهُ سبحانه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ٤﴾ [الفجر: 4]، والسُّرَى: السَّيْرُ في اللَّيْلِ"(4).

معاني حرفِ الباءِ ودلالاتُه:

المؤمنُ بأهلِ دينِهِ ألصقُ، وبملابَسَتِهِم أمْتَعُ

لمعنى الباءِ في قولِه تعالى: ﴿بِأَهۡلِكَ﴾ أربعةُ معانٍ عند المفسِّرين:

الأوَّلُ: الإلصاقُ، حيثُ أفادَ حرفُ الباءِ في قوله تعالى: ﴿بِأَهۡلِكَ﴾

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/132.

(2) الماوردي، النكت والعيون: 2/490.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/132.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/381.

الإلصاقَ، فهو يُفيدُ شِدَّةَ الارتباطِ بين لوطٍ ﷺ وبينَ أهلِه، و"المرادُ بالأهلِ: المؤمنونَ، وإن لم يكونوا من أهلِ بيتِه، لا أهلُ بيتِه، وإن لم يكونوا مؤمنينَ، كما في قولِه تعالى لنوحٍ ﷺ: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ [هود: 46]"[1]، فهكذا قالَ اللّه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾ [الحجرات: 10]. فتخرجُ زوجتُه الهالكةُ، وكأنَّهم لشدَّةِ ارتباطِهم ببعضِهم البعض ملتصقونَ به، وفي ذلك كنايةٌ عن نجاةِ أهلِه ﷺ فلا يبقى لديهِ أيُّ خوفٍ يَخصُّهُ أو يخصُّهم.

والثّاني: الباءُ نابت منابَ (مع)، فالمعنى: "فاخْرُجْ مِنْ هَذِهِ القَرْيَةِ أوِ القُرَى مَصْحُوبًا بِأَهْلِكَ"[2]، ولن تنهضَ (مع) - لو عُبِّر بها في غيرِ القرآنِ الكريم - فقيلَ: فَأسرِ مع أهلِكَ، وهي تفيدُ معَ المصاحبةِ أيضًا، فصارتْ ثريَّةَ الدِّلالاتِ والإشاراتِ، وهكذا يصطفي الذِّكرُ الحكيمُ من مفرداتِ اللُّغةِ أدقَّها وأنسبَها للمقامِ والسِّياقِ والغَرضِ.

والثّالث: التَّعديةُ، والرّابعُ: الباءُ "للملابسَةِ؛ أي: سِرْ ملابَسًا بأهلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ"[3]، ومعنى الإلصاقِ والملابسةِ قويٌّ وظاهرٌ فيها.

معنى حرفِ الباءِ:

الـلَّـيـلُ لـذوي الحاجاتِ أسْتَرُ

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِقِطۡعٖ﴾ تفيدُ الظَّرفيَّةَ؛ أي: في قطعةٍ منَ اللَّيل، أو: "بِطائِفَةٍ مِنَ اللَّيْلِ تَكْفِي لِتَجاوُزِ حُدُودِ هَؤُلاءِ القَوْمِ"[4]، والباءُ تؤازرُ في ظرفيَّتِها وقتَ اللَّيل، وكأنَّهم يَحثُّونَهُ على اتِّخاذِ السِّرِّيَّةِ بجميعِ أسبابِها سِربالًا يَتَسربَلونَ به، فلا يَلحَقُهم أحدٌ، فينجون، ولا يعوقُهم أحدٌ، فيؤخِّرُهم إلى وقتِ حلولِ العذابِ.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 6/307.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/113.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/305.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/113.

فقد نصحوهُ بمعيَّةِ أهلِهِ والارتباطِ بهم، وتخيُّرِ قطعةٍ مظلمةٍ من عُمْقِ اللَّيل البهيم، وفي ذلك أخْذٌ بأسبابِ البشَرِ قَدْرَ الطّاقةِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ دونَ (فِي اللّيْل):

الوقتُ الَّذي خرجَ فيه لوطٌ عليه السلام مقصودٌ معلومٌ لديهِ

سَبَقَتِ الإشارةُ إلى توجيهِ الملائكةِ لوطًا عليه السلام إلى تحرِّي السَّتْرِ؛ لعدم تمكين أحد من إعاقتِهم عند خروجهم من القريةِ، وقد ناسب ذلك أن يَدُلُّوهُ على جزءِ اللَّيل البهيم، فعبَّروا عن ذلكَ بكلمةِ ﴿بِقِطۡعٖ﴾، وكأنَّها القطعةُ المنحوتَةُ من ظُلمةِ اللَّيل، فكان تحديدُهم بـ ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ مناسبًا أتمَّ المناسبةِ لتحقيق الغرضِ، دون أن يقولوا: (من الليلِ)، فالعداوةُ الآنَ قدِ استفْحَلَتْ منَ القَومِ الذين يتربَّصونَ بهِ وبأهلِه، وهذه القطعةُ منَ اللَّيلِ قطعةٌ مقصودةٌ عَلِمَهَا لوطٌ عليه السلام فأسرى بأهلِه، والَّذي يظهرُ أنَّ لوطًا عليه السلام "أسرى بأهله من أوَّلِ اللَّيل حتَّى جاوزَ البلَدَ المقتلِعَ، ووقعت نجاتُه بسحرٍ، فتجتَمِعُ هذه الآيةُ مع قوله: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ [القمر: 34]"[1].

ولو جاءت: (فأسْرِ بأهْلِكَ في اللَّيلِ)؛ لكانَ الكلامُ عامًّا غيرَ مقصودٍ بهِ زمانٌ معيَّنٌ، فلمّا حدَّد القطْعَ من اللَّيلِ؛ عُلِمَ أنَّ المرادَ شيءٌ مقصودٌ، وهذا المقصودُ اختَلَفَ فيه المفسِّرون.

"قالَ نافِعُ بْنُ الأزْرَقِ لِعَبْدِ اللّه بْنِ عَبّاسٍ رضي الله عنهما: أخْبِرْني عَنْ قَوْلِ اللّه: ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾، قال: هو آخِرُ اللَّيلِ سَحَرُ، وقالَ قَتادَةُ: بَعْدَ طائفَةٍ منَ اللَّيْلِ، وقالَ آخَرُونَ: هُو نِصْفُ اللَّيْلِ، فَإنَّهُ في ذَلِكَ الوقْتِ قُطِعَ بِنِصْفَيْنِ"[2]. وقال الفخرُ الرّازيّ: "اخْرُجُوا لَيْلًا؛ لِتَسْبِقُوا نُزُولَ العَذابِ الَّذِي مَوْعِدُهُ الصُّبْحُ"[3]. وقال ابن كثير: "وأمَرُوهُ أنْ يَسْرِيَ بِأهْلِهِ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، وأنْ يتَّبِعَ أدْبارَهُمْ؛ أيْ: يَكُونُ ساقَةً لِأهْلِهِ"[4].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/196.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/381.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/381.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/338.

على المؤمنِ تَرْكُ تعلُّقِهِ بأماكِنِ السُّوءِ؛ خَشيةَ لُحُوقِهِ شيءٌ من عقابِ أهلِها

غَرَضُ النَّهي:

"الِالتِفاتُ: نظرُ الإنسانِ إلى ما وراءهُ، والظّاهِرُ أنّ المُراد أنّهُ كان لهُم في البلدةِ أموال وأقمشة وأصدقاءُ، فالملائِكةُ أمرُوهُم بأن يخرُجُوا، ويترُكُوا تلك الأشياء، ولا يلتفتُوا إليها ألبتّة، وكان المُرادُ منهُ قطع القلبِ عن تلك الأشياء، ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾: النَّهْيُ عَنِ التَّخَلُّفِ"[1]، كأنَّه قيل: "إذا سَمِعْتَ ما نَزلَ بِهِمْ، ولا تَهُولَنَّكم تِلْكَ الأَصْواتُ المُزْعِجَةُ، ولَكِنِ اسْتَمِرُّوا ذاهِبِينَ، كَما أَنْتُمْ"[2].

وفي النَّهي عنِ التِفاتِ أحدٍ من أهْلِهِ تَنْبيهٌ إلى واحدٍ من أهَمِّ أسبابِ نَجاتِهِ وأهلِهِ، وذلك لئلّا تَتضرَّرَ الأبصارُ من هولِ ما يكون، و"لِئَلّا يَرَى العَذابَ، فَيُصِيبَهُ"[3]. فمُقتضى ذلك النَّهي ألّا "يَنْظُرَ وراءَهُ منكم أحَدٌ، ولا يَتَخَلَّفَ منكم أحَدٌ، ولا يَشْتَغِلَ منكم أحدٌ بما يُخَلِّفُهُ من مالٍ أو مَتاعٍ"[4]، ففي النَّهي عنِ الالتفاتِ "التّقصِّي في تحقيقِ معنى الهِجرةِ غضبًا لِحُرُماتِ اللّه بِحيثُ يقطعُ التّعلّق بالوطنِ ولو تعلُّق الرُّؤية"[5].

توكيدُ مَضامينِ الخِطابِ أدعى لِلْفَهْمِ والاستِجابَةِ

فائِدَةُ ذِكْرِ الجارِّ والمَجْرورِ وتَقْديمِهِما ﴿مِنكُمۡ﴾:

لم يقلْ سبحانه: (ولا يلتَفِتْ أحدٌ) مع استقامةِ المعنى، فذَكَرَ ﴿مِنكُمۡ﴾ وقدَّمَها على الفعلِ ﴿يَلۡتَفِتۡ﴾، فيُسألُ عن فائدَةِ ذلك؟ ومنَ المقطوعِ بِهِ أنَّ الملائِكةَ الكرامَ حَريصونَ على اختصاصِ لوطٍ وأهْلِهِ بالنَّجاةِ دونَ بقيَّةِ أهلِ القريَةِ، كما أنَّهم مأمورونَ بإهلاكِ أهلِ القَريَةِ الَّذين تواطَؤوا على الفاحِشَةِ جميعًا، والَّذي يُحقِّقُ هذا المعنى وذاك تقييدُ عدمِ الالتفاتِ والنَّجاةُ بالقيدِ ﴿مِنكُمۡ﴾ أي: منكم أنْتُم بخاصَّةٍ،

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/381.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/338.

(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/113.

(4) الماوردي، النكت والعيون: 2/491.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/132.

أمّا بقيَّةُ القوم؛ فَهالِكون، وناظِرون الهلاكَ إمعانًا في معاناةِ العَذاب؛ ولذلك أيضا قَدَّمَ النَّظمُ الكريمُ ﴿مِنكُمْ﴾ على الفاعلِ ﴿أَحَدٌ﴾.

سرُّ استعمالِ ﴿أَحَدٌ﴾:

تأكيدُ خصوصيَّةِ الخطابِ لكلِّ فردٍ بعدَ عمومهِ

آثرَ النَّظمُ استعمالَ لفظِ ﴿أَحَدٌ﴾ دون (واحد)؛ وذلك لأنَّ "الواحِدَ يَدْخُلُ في الأحَدِ، والأحَدُ لا يَدْخُلُ فيهِ، وإذا قُلْتَ: فُلانٌ لا يُقاوِمُهُ واحِدٌ؛ جازَ أنْ يُقالَ: لَكِنَّهُ يُقاوِمُهُ اثْنانِ بِخِلافِ الأحَدِ، فَإنَّكَ لَوْ قُلْتَ: فُلانٌ لا يُقاوِمُهُ أحَدٌ؛ لا يَجُوزُ أنْ يُقالَ: لَكِنَّهُ يُقاوِمُهُ اثْنانِ، والواحِدُ يُسْتَعْمَلُ في الإثْباتِ، والأحَدُ في النَّفْيِ، تَقُولُ في الإثْباتِ: رَأيْتُ رَجُلًا واحِدًا، وتَقُولُ في النَّفْيِ: ما رَأيْتُ أحَدًا، فَيُفِيدُ العُمُومَ"[1]، و"الأحَدُ: يَستوعِبُ جِنسَهُ، والواحِدُ: لا يَستوعِبُهُ"[2].

وفائدةُ هذا التَّعبير: أن يتَّجِهَ الخطابُ لكلِّ واحدٍ منهم على وجهِ الخصوصِ، فكأنَّ الخطابَ موجَّهٌ لكلِّ فردٍ منهم منفردًا، وهذا آكدُ في النَّهي عن الالتفاتِ، ممّا يُصوِّرُ حَجْمَ العقوبَةِ النّازِلَة.

توجيهُ القراءاتِ وأثرُهُ في بيانِ معنى الاستثناءِ:

من تعلَّقَ بقومٍ فهو منهم، ونالَ جزاءَهم

"قولُهُ: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ يجوزُ فيهِ النَّصبُ والرَّفعُ، فمن قرأ: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ بالنَّصبِ، فَعَلَى معنى: فأسرِ بأهلِكَ ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾، ومن قرأ بالرَّفع، حَمَلَهُ عَلَى مَعْنَى: ولا يلتفِتْ منكم أحدٌ ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتُكَۖ﴾"[3]. وعن "قتادة أنَّها خرجَتْ مع لوطٍ من القريَةِ، فَسَمِعَتِ الصَّوتَ، فالتَفَتَتْ، فأرسلَ اللّه عليهم حَجَرًا، فَأهْلَكَها"[4]. فالخُلاصَةُ أنَّها امرأةٌ منبوذَةٌ، إمّا بعدم خروجِها معهم وبقائِها في القوم، فَتَهْلَكُ، أو بخروجِها ثُمَّ التِفاتِها إلى الوراءِ، فيدرِكُها الهلاكُ أيضًا، فهي هالِكَةٌ على كلِّ حالٍ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 32/360.
(2) تفسير العزّ بن عبد السلام: 3/507.
(3) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/69.
(4) الماوردي، النكت والعيون: 2/491.

"وفي قولِهِ تعالى: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ امرأةَ لوطٍ لا تملِكُ من أمرِها ألّا تلتفتَ، بل هي مقهورةٌ على الالتفاتِ والخروجِ عن هذا النَّهيِ، وذلك لمّا أرادَ اللهُ لها من هلاكٍ"[1].

نكتةُ اختيارِ لَفْظِ ﴿ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾:

مِن محاسِنِ الأخلاقِ صَبرُ الأولياءِ على ابتلاءِ النِّساءِ

من المقرَّرِ أنَّ النَّظمَ الكريمَ يعبِّرُ عَن قرينةِ الرَّجلِ - في حالِ تَوافُقِ الحياةِ الزَّوجيَّةِ وانسجامِها بينهما - بوصفِ (الزَّوجةِ)، أمّا في حالِ التَّخالُفِ بينهما في الدِّين، أو الودِّ، أو عدمِ الإنجابِ، أو غيرِها من المنغِّصاتِ، فَيُعَبِّرُ عنها بَوصْفِ (المرأة).

والعداوةُ هنا بين لُوطٍ عليه السلام وامرأتِهِ بيِّنةٌ وشديدَةٌ، فَليس بينهما مجرَّدُ اختلافٍ في الدِّين، أو الخُلُق، بل إنَّ امرأتَهُ هي الَّتي سرَّبَتْ خَبَرَ الأضيافِ إلى قومِهِ قائلةً: "استضافَ لوطٌ قومًا، لمْ أرَ أحْسَنَ وجوهًا منْهُمْ، ولا أطْيَبَ رائِحةً، ولا أنظفَ ثيابًا"[2]، كما جاءَ في بعضِ الآثارِ.

ولذلك عبَّرَ القرآنُ الكريمُ عنها بلفظِ ﴿ٱمۡرَأَتَ﴾ أيضًا في قولِهِ تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: 10].

بلاغةُ الاستِئنافِ البَيانيِّ:

مَنْ أحبَّ قَوْمًا؛ حُشِرَ مَعَهُمْ

معنى "﴿مَآ أَصَابَهُمۡۚ﴾ أي: من العَذابِ، وهو إمطارُ الأحجارِ، وإن لم يُصِبْها الخَسْفُ"[3]، ومن المتوقَّعِ أن يطرأَ سؤالٌ على ذِهْنِ لوطٍ عليه السلام بعدَ قولِ الملائكةِ: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ يقول: ولماذا؟ أو: ما مصيرُها؟ فيأتي الجوابُ: ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ﴾، وذلك أنَّها "كانت مع القومِ بمشاعرِها وعواطفِها"[4].

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 6/1182.
(2) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/67.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/230.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 6/1182.

ولذلك قُطِعَت جملةُ ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ﴾ عن جملةِ ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ للاستئناف البَيانيِّ، أو ما يسمِّيه البلاغيُّونَ شِبْهَ كمالِ الاتِّصال؛ إذ بينَ الجُمْلَتَين تناسُبٌ معنويٌّ واتِّصالٌ بوجهٍ من الوجوهِ؛ إذ تكونُ الثّانيةُ جوابًا عن سؤالٍ تثيرُهُ الأُولى، كما هنا.

فائدة الإبهام في ﴿مَآ﴾:

أفادتْ أداةُ ﴿مَآ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ﴾ تهويلَ الهلاكِ الَّذي ينزلُ بالقوم وتفظيعَهُ؛ أي: إنَّهُ سيكونُ مَهولًا فظيعًا لا يُطاقُ، وهي اسمٌ موصولٌ معناها (الذي)، غيرَ أنَّه أُوثِرَ ﴿مَآ﴾ على (الذي) لإيحائِها المرعبِ في مثلِ هذا السِّياقِ وذلك المقام.

للمَوقفِ المَهولِ أدواتُهُ المُفْصِحَةُ عَنْهُ

دلالةُ استعمالِ فِعلِ ﴿أَصَابَهُمۡۚ﴾:

"مُقْتَضَى الظّاهِرِ أَنْ يُقالَ: ما يُصِيبُهُمْ، فاستعمالُ فِعلِ المُضيِّ لِتَقْرِيبِ زَمَنِ الماضِي منَ الحالِ، نَحْوُ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ [المائدة: 6] الآيَةَ، أَوْ فِي مَعْنَى الاسْتِقْبالِ تَنْبِيهًا عَلَى تَحَقُّقِ وُقُوعِهِ، نَحْوُ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النّحل: 1]"[(1)].

أمْــرُ الـلـهِ إذا صـــدَرَ؛ فـلَـهُ حُـكْـمُ الـوقـوعِ الوجوديِّ

فعلى الرُّغم من أنَّ حدثَ الإصابةِ لم يقعْ بعدُ، وهم يُلقون إلى لوطٍ عليه السلام هذا النَّبأ المستقطعَ يُعبِّرُ النَّظمُ الكريمُ بالماضي ﴿أَصَابَهُمۡۚ﴾، وذلك لأنَّ كلَّ آتٍ بالنِّسبةِ لله تعالى فهو آتٍ، إن خيرًا وإن شرًّا، فإصابةُ القوم بتلكَ المصيبةِ واقعٌ بهم لا محالةَ، بل واقعٌ قريبًا جدًّا: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾، فكيفَ إذا كانَ الآتي مصيبةً عظيمةً؛ إذ في مادَّةِ الفِعْلِ ﴿أَصَابَهُمۡۚ﴾ دلالةُ المصيبةِ الشَّديدةِ، والدّاهيَةِ الَّتي تَحُلُّ بهِم.

بلاغةُ الاستئنافِ:

تُستأنفُ الجملُ لـبـيـانِ مـا فـيـهـا مـن الـتَّـهـويـلِ والتَّعليلِ

"جُمْلَةُ ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ﴾ مُسْتَأْنَفَةٌ ابْتِدائِيَّةٌ قُطِعَتْ عَنِ الَّتِي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/133.

قَبْلَها اهْتِمامًا وتَهْويلًا"[1]، فهذا خَبَرٌ جديدٌ يُسَدِيهِ الملائِكةُ الكِرامُ إلى لوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ في جملة أخبارٍ تتلاحَقُ وتتوالى عليه بالبِشارَة، فإهلاكُ امرأتِهِ بِشارَةٌ، ولا رَيبَ أنَّهُ قد عانى منها طويلًا، وصَبَرَ عليها كثيرًا، حتَّى جاءها من اللّه تعالى ما تَستَحِقُّ.

وجاء هذا الخبرُ مفصولًا عمّا قبلَهُ؛ لأنَّه "تعليلٌ للأمْرِ بالإسراءِ والنَّهيِ عنِ الالتفاتِ المُشعِرِ بالحثِّ على الإسراع"[2]، "وحِكْمَتُهُ أنَّهُمْ يَكُونُونَ مُجْتَمِعِينَ فِيهِ فِي مَساكِنِهِمْ، فَلا يَلْتَفِتْ أَحَدٌ مِنْهُمْ"[3].

دلالةُ التَّعريفِ بالإضافةِ:

إبـهـامُ طـريـقِ مـعـرفةِ الموعدِ اقتضتْ تعريفَهُ بالإضافةِ

لسائلٍ أن يسألَ عن سببِ تعريفِ الموعدِ بالإضافةِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ﴾؟ والجوابُ: أنَّ "المَوْعِدَ: وقْتُ الوعْدِ، والوعْدُ أعَمُّ مِنَ الوعِيدِ، فَيُطْلَقُ عَلَى تَعْيِينِ الشَّرِّ في المُسْتَقْبَلِ، والمُرادُ بالمَوْعِدِ هُنا مَوْعِدُ العَذابِ الَّذي علِمَه لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ إمّا بوحْيٍ سابِقٍ، وإمّا بِقَرِينَةِ الحالِ، وإمّا بإخْبارٍ مِنَ المَلائكَةِ في ذَلِكَ المَقامِ طَوتْهُ الآيَةُ هُنا إيجازًا، وبِهَذِهِ الاعْتِباراتِ صَحَّ تَعْرِيفُ الوعْدِ بِالإضافَةِ إلَى ضَميرِهِمْ"[4].

سرُّ إيثارِ الصُّبحِ على الفَجْرِ:

معاينةُ العذابِ لـونٌ من ألـوانِهِ ووقـتٌ لحلولِ أوانِهِ

عُيِّنَ الصُّبحُ موعِدًا لهلاكِ القوم؛ "لأنَّه وقتُ الدَّعةِ والرّاحةِ، فَيكونُ حلولُ العذابِ حينئذٍ أفظعَ، ولأنَّهُ أنْسبُ بكون ذلك عِبْرةً للنّاظرينَ"[5]، "ويجوزُ أن يكونَ قد جَعَلَ الصُّبْحَ ميقاتًا لهلاكِهم؛ لأنَّ النُّفوسَ فيه أودعُ والنّاسُ فيه أجمعُ"[6]، والصُّبحُ هو وقتُ بدايةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/132.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/230.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/113.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/133.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/230.
(6) الماوردي، النكت والعيون: 2/492.

انطلاقِ النّاس لأعمالِهم، فأن يأتيَهم العذابُ في هذه السّاعةِ ممّا يزيدُ من عذابِهم، بخلافِ ما لو أتاهم، وهُم نائمونَ.

علَّةُ الفصلِ:

قُطِع هذا السُّؤالُ عمّا قَبْلَهُ لكمالِ الانقطاعِ؛ إذ هو إنشاءٌ، والسّابِقُ ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ﴾ خبرٌ، ولا يتعاطفان.

غرضُ الاستفهامِ:

قربُ ذهابِ الفاسدين اقترابُ راحةِ المؤمنين

الاستفهامُ في قولِه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ إمّا أن يُحمَلَ على تقريرِه ﷺ بِقُرْبِ الموعد، أو "ليتعجَّل في السَّيْر؛ فإنّ قُرْبَ الصُّبْحِ داعٍ إلى الإسراع في الإسراء، للتَّباعُدِ عن موقع العذابِ"[1]، وإمّا على الاستعجالِ، قال البقاعيُّ: "كأنَّ لوطًا ﷺ أبطأ في جمْعِ أهلِهِ وما يصلحُهم، فكان فعلُهُ فِعلَ من يستبعدُ الصُّبْحَ، فأنكروا ذلك بقولِهم: ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ أي: فأسرِعِ الخروجَ بمن أُمِرْتَ بهم"[2].

وفي الاستفهامِ إشارةٌ أخرى لِلُوطٍ ﷺ بقربِ هلاكِ قومه واستتبابِ الأمرِ لهُ، كما أنَّ في الاستفهامِ تطمينًا لنفسِهِ؛ أي: قد حانَ وقتُ الخلاصِ من أهلِ الفسادِ.

دلالةُ ذكْرِ الباءِ:

الباءُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ "لتأكيدِ الإثباتِ"[3]، و"ما هو كائنٌ فقريبٌ، والبعيدُ ما لا يكونُ، وإنَّ مَن أقدمَ على محظورٍ، ثُمّ حُوسِب عليهِ - ولو بعدَ دهورٍ خاليةٍ وأعوامٍ غيرِ محصورةٍ ماضيةٍ - تصوَّرَ له الحالُ كأنَّه وقتُ مباشرتِهِ لتلكَ الزَّلَّةِ"[4].

---

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 6/121.

(2) البقاعي، نظم الدّرر: 9/345.

(3) بهجت، الإعراب المفصل لكتاب الله المرتّل: 5/221.

(4) القشيري، لطائف الإشارات: 2/150.

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

السُّرَى والمشي:

السُّرى يختصُّ بمشي اللَّيلِ

السُّرَى: سَيْرُ اللَّيلِ بخاصَّةٍ، يقال: سَرَى وأَسْرَى، قال تعالى: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ﴾"[1]، والمشيُ: "المضيُّ، قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ﴾ [البقرة: 20] والمرور، قال اللّٰه: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ﴾ [طه: 128] والسَّير، قال اللّٰه: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: 15]؛ أي: سيروا".

المرأةُ والزَّوجةُ:

يُطلِقُ النَّظمُ القرآنيُّ الكريم اسمَ (المرأة) على كلِّ زوجةٍ لا يتوفَّر بينها وبين زوجِها الوئامُ الكاملُ، بأن تكونَ على غيرِ دينِه، أو تكونَ ناشِزًا، أو تكونَ عاقِرًا لا تلِدُ لَهُ، أو إلى آخِرِ تلك المنغِّصاتِ الَّتي سببُها الزَّوجةُ.

بينما يُطلِقُ النَّظمُ الكريمُ اسمَ (الزوجة) على كلِّ من توافرَت فيها أسبابُ السَّعادةِ لزوجِها، بأن تكونَ على دينِه، ويكونَ بينهما الوئامُ والانسجامُ، وأن تلِدَ له، وما إلى ذلك؛ بحيثُ يصحُّ أن يوصفَ على كلٍّ منهما بأنَّه زوجٌ للآخرِ، فـ "المرأةُ زَوجُ الرَّجلِ، والرَّجُلُ زَوْجُ المرأةِ، ولا يُقال للمرأةِ: زوجةٌ إلّا قَليلًا... والزَّوجةُ: الحَليلَةُ، قالَ اللّٰه تعالى: ﴿لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ﴾" [النساء: 57][2].

(1) الراغب، المفردات: (سرو).

(2) العسكريّ، الوجوه والنظائر: (الزوج).

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝٨٣﴾ [هود: 82 - 83]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

التَّناسُبُ بَيْنَ عِقابِ مُنْتَكِسي الفِطْرَةِ وجَزائِهِمْ بِنَكْسِ الأرْضِ وقَلْبِها عَلَيْهِم

بعدَ أنْ أخبَرَت الملائكةُ لوطًا عليه السلام بأنهم رُسلُ ربِّه إلَيه، وأنَّهم مكلَّفون بإعْلامه بما سَيَحيقُ بقَومِهِ من الهلاكِ والإبادة، وأنَّ هذا المَوعد هو الصُّبح وأنَّه قريب، قال اللّه تعالى بعدَ ذلك: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝٨٢ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ مُبَيِّنًا مَجيءَ هذا العذاب ووُقوعَهُ سريعًا بعدَ إخبارِهِمْ بوُقوعِهِ، وكأنَّ إخبارَهُم إيّاه كان في اللَّيل قريبًا من وقْت الصُّبحِ، وكان العِقابُ مُلائمًا لِجُرْمِهم، فَلمّا قَلَبوا فِطرَتَهم بإتْيانِهمُ الذُّكْران بَدَلَ زَوْجاتِهم من النِّساء، قَلَبَ اللّهُ الأرضَ عليهم، فكان قَلْبًا بِقَلْبٍ، ونَكْسًا بِنَكْسٍ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَٰلِيَهَا﴾: أصْلُ (علو): يَدُلُّ على السُّمُوِّ والارْتِفاع، لا يَشِذُّ عَنْهُ شَيْءٌ[1]. فالعُلُوُّ ضدُّ السُّفْل، والعُلْويُّ والسُّفْليُّ: المَنْسوبُ إلَيْهما[2]، والعلْوُ: أصلُ البناء، ومنه العَلاءُ والعُلُوُّ، فالعَلاءُ: الرِّفْعَةُ، والعُلُوُّ: العَظَمَةُ والتَّجبُّر[3]. والمَقْصود بـ العُلُوِّ في الآية: خِلافُ السُّفْلِ؛ والارْتِفاعُ.

2) ﴿سَافِلَهَا﴾: أصْلُ (سفل) ما كانَ خِلافَ العُلُوِّ، فالسُّفْلُ نَقيضُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علو).
(2) الرّاغب، المفردات: (علو).
(3) الخليل، العين: (علو).

العِلْوِ في البِناء وغَيْرِه[1]. وسَفُلَ فهو سافِلٌ، قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: 74] أي: قَلَبناها فصارَ عالي الأرضِ أو القُرى سافِلًا، وسافِلُها عاليًا فذَهبَتْ كلُّ مَعالِمِها، وقد قُوبِل بـ (فَوْق) في قوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: 10]. والسُّفُولُ: ضِدُّ العُلُوِّ[2]. والسَّفالُ: نَقيضُ العَلاءِ، وإنَّ أَمْرَهُمْ لَفي سَفالٍ[3]، وسُفالَةُ الرِّيحِ: حيثُ تمرُّ الرِّيح، والعَلاوةُ ضِدُّه، والسَّفِلَةُ منَ النّاس: النَّذْلُ، نحو الدّونِ[4]. والمَقصودُ بالسُّفْلِ في الآية: نَقيضُ العُلْو.

3) ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾: أصْلُ (مطر): يَدُلُّ على الغَيْثِ النّازِلِ منَ السَّماءِ، يُقالُ: مَطَرَتْهُمُ السَّماءُ - بدُونِ هَمْزَةٍ - بِمَعْنَى نَزَلَ عليهم المَطَرُ، كما يُقالُ: غاثَتْهُم ووبَلَتْهُم، ويُقالُ: مكانٌ مَمْطُورٌ، أي: أصابهُ المَطَرُ، ولا يُقالُ: مُمْطِرٌ، ويُقالُ أُمْطِرُوا - بالهَمْزَةِ - بمَعْنَى نَزَلَ عليهم منَ الجَوِّ ما يُشْبِهُ المطَرَ، وليس هو بمَطَرٍ، فلا يُقالُ: هُم مُمْطِرُونَ، ولكنْ يُقالُ: هُم مُمْطَرُونَ[5]. وتَمَطَّرَ الرَّجُلُ: تَعَرَّضَ للمَطَرِ، ومنْهُ المُسْتَمْطِرُ: طالِبُ الخَيْرِ[6]. والمقصود بالإمطار في الآية: إنزالُ المَطَرِ، وسُمِّيَ ما أصابَهُم منَ الطِّينِ المُتَحَجِّرِ مَطَرًا؛ لأنَّه نَزَلَ عليهم منَ الجَوِّ.

4) ﴿سِجِّيلٍ﴾: أصْلُ (سجل): يَدُلُّ على انْصِبابِ شَيءٍ بعد امتلائه، منْ ذلك السَّجْلُ، وهو: الدَّلْوُ العَظيمَةُ، يُقالُ: سَجَلْتُ الماءَ فانْسَجَلَ، وذلكَ إذا صَبَبْتَهُ، ومنه: سَجَلَه بالشَّيءِ: رَماهُ به منْ فَوْقٍ[7]. والسِّجّيلُ: الصُّلْبُ الشَّديدُ، وهو أيضًا: حَجَرٌ وطينٌ مُختلطٌ[8]. والسِّجّيلُ أيضًا: وادٍ في جَهَنَّمَ، يُقالُ: سِجّيلٌ بِاللّام، وسَجّينٌ بِالنّونِ[9]. وقد سَلَّمَ الأزهريُّ وغيره بتعريب الكلمة، وجَوَّزَ الزَّجّاج رجوع الكلمة إلى السَّجْل: الصَّبّ، كأنَّها مُرْسَلَةٌ عليهِم[10]. والمقصودُ بالسِّجّيلِ في الآية: طينٌ مُتحَجِّرٌ منْ وادٍ في جَهَنَّم.

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سفل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سفل).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سفل).
(4) الرّاغب، المفردات: (سفل).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 237/8.
(6) ابن عبّاد، المحيط في اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مطر).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سجل).
(8) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سجل).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 134/12.
(10) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سجل).

5) ﴿مَّنضُودٍ﴾: أصْلُ (نضد): يَدُلُّ على ضَمِّ شَيءٍ إلى شَيءٍ في اتِّساقٍ وجَمْعٍ، مُنْتَصِبًا أو عَرِيضًا، ونَضَدْتُ الشَّيءَ بعضَهُ إلى بعضٍ مُتَّسِقًا أو منْ فَوْقُ، الواحِدُ نَضَدٌ، والنَّضَدُ: المَنْضُودُ منَ الثِّيابِ، وأَنْضادُ الجِبالِ: ما تراصَفَ من حجارِتِها بَعْضُها فَوق بعضٍ، الواحِدُ نَضَدٌ[1]. والنَّضَدُ منَ السَّحابِ كالصَّبيرِ، يكونُ بعضُه إلى بعضٍ، والجَمْعُ أنضادٌ، وأنضادُ القَوْمِ: جَماعاتُهُم وعَددُهُم، والنَّضَدُ: الشَّرَفُ[2]. والمقصود بالمَنضودِ في الآية: الموضُوع بعضُه على بعض، والمعنى هُنا أنَّها مُتتابعةٌ مُتتاليةٌ في النُّزولِ ليس بينها فَتْرَةٌ[3].

6) ﴿مُّسَوَّمَةً﴾: أصْلُ (وسم): يَدُلُّ على أثَرٍ ومَعْلَمٍ، ووسَمْتُ الشَّيءَ وسْمًا: أثَّرْتُ فيه بِسِمَةٍ[4]، والسِّيمى ياؤُها في الأصل واوٌ، وهِيَ العَلامَةُ يُعرَفُ بها الخيرُ والشَّرُّ، قالَ اللّٰهُ تعالى: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [البقرة: 273][5]. والوَسْميُّ: أوَّلُ المطَرِ؛ لأنَّهُ يَسِمُ الأرضَ بالنَّبات، وسُمِّيَ مَوسِمُ الحجِّ موْسِمًا؛ لأنَّهُ مَعْلَمٌ يَجتمعُ إليه النّاسُ، والسّومَةُ، بالضَّمِّ، العَلامَةُ تُجعَلُ على الشّاةِ وفي الحَرْبِ أيضًا، تقولُ منهُ: تَسَوَّمَ. والوسامَةُ: الجَمالُ[6]. والمقصود بـ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ في الآية: الَّتي لها سِيمى، وهي العَلامَةُ.

7) ﴿بِبَعِيدٍ﴾: أصْلُ البُعْدِ: خِلافُ القُرْبِ، يُقال: بَعُدَ يَبْعُدُ بُعْدًا، ضِدّ قَرُبَ يَقرُبُ قُربًا، وليس لهما حدٌّ مَحْدودٌ[7]، ويكونُ ذلكَ في المحسُوسِ وهو الأكثر، والمعقول نحو: ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾ [سبأ: 8]، وبَعِدَ بالكسر يبعَد بالفتح: هَلَكَ، قال تعالى: ﴿كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ [هود: 95][8]. والمقصودُ بالبُعْدِ المنفيِّ في الآية: البُعدُ المكانيُّ، لِقُرْبِ قُرى الهالكين من قرى المُنْذَرين، أو البُعدُ المعنويُّ، فما حلَّ بقوم لوطٍ يُمكن أنْ يحلَّ بمَن تشبَّهوا بهم.

المعنى الإجماليّ:

يقولُ الحقُّ تعالى: لمّا جاء الصُّبحُ المَوْعود، وقَع أمرُنا الذي قَضَينا فيه بِهَلاك هذه

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نضد).
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نضد).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/135.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (وسم).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (وسم).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (وسم).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، والزَّبيديّ، تاج العروس: (بعد).
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (بعد).

القَرية، فجَعَلْنا عاليَها سافِلَها، فقلَبْناها رأسًا على عَقِب، فذهَبَتْ كلُّ معالمها، وأمطَرْنا عليهم قَبْل القَلْب، أو في أثنائِه حِجارةً من طينٍ، شديدِ القُوَّة، قد ضُمَّ بعضُه إلى بعضٍ، مُعلَّمةً عندَ اللّه بعلامةٍ مَعروفةٍ لا تُشاكِلُ حِجارةَ الأرضِ، وما هذه الحِجارةُ - التي أُمطِرَتْ على قوم لوطٍ - ببَعيدةٍ من الظّالمين الفاعلينَ مثلَ فِعلِهم؛ فلْيَحذروا أنْ يُصيبَهم ما أصابَهم[1].

في عِقابِ الله عِبْرَةٌ لِلظّالِمينَ في كُلِّ زَمانٍ وإنِ اختَلَفَ العَذابُ بِاخْتِلافِ الأحْوالِ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالَةُ العَطْفِ:

لا يزالُ الكلامُ مَوصولًا بما قَبْلَه، لَيس مَفصولًا عنهُ، فهو إخبارٌ عَن وقوعِ العذاب، بَعْد إخبارِ الملائكَةِ لوطًا ﵇ بوقوعه، أيْ: هو عَطْفُ إخْبارٍ على إخْبارٍ[2].

عَطْفُ إخبارِهِ تَعالى عَلى إخْبارِ المَلائِكَةِ

سِرُّ اخْتيارِ الفاءِ في: ﴿فَلَمَّا﴾:

دلّ اخْتيارُ الفاءِ لِلعَطْفِ دونَ الواوِ؛ على سُرْعة وقوعِ الهَلاكِ بهِمْ، عَقِب إخْبارِهم لوطًا ﵇ بوقوعِهِ بزَمنٍ قريبٍ، بما يُفهَم منهُ أنَّ هذا الإخْبارَ قد وقَع في آخرِ اللَّيل، ومن أسْرارِ التَّعبير بالفاء كذلك أنَّ وقوعَ الهلاكِ كانَ مُحدَّدَ الزَّمنِ، وهو وقوعُهُ في الصُّبح، "فكان المَقامُ مُقْتَضيًا تَرَقُّب السّامع لِما حلّ بهِم عندَ ذلكَ المَوْعِد، فكانَ المَوقعُ للفاءِ لِتَفْريعِ ما حلّ بِهِم على الوعيدِ بِهِ"[3].

سُرْعَةُ وُقوعِ الهَلاكِ عَقِبَ إخْبارِ المَلائِكَةِ بِهِ وتَرَقُّبُ وُقوعِهِ

سِرُّ التَّعْبيرِ بـ ﴿فَلَمَّا﴾:

عبّر بـ ﴿فَلَمَّا﴾ في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ﴾ لدلالَتِها على الظَّرْفيَّة الحينيَّةِ، أيْ: حينَ جاءَ بأْسُنا. كما أنَّها شَرطيَّةٌ أيضًا، لكنَّها لا تجْزم.

أفادَتْ (لَمّا) الظَّرْفَ والشَّرْطَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/531، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/342، والخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1182.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/159.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/154.

فائِدَةُ التَّعْبيرِ بِالجُمْلَةِ الشَّرْطِيَّةِ:

سُنَنُ الله ماضيَةٌ في الظّالِمِين

أفادَ التَّعبير بالجمْلةِ الشَّرطيَّة التي فِعْلُها: ﴿جَآءَ أَمۡرُنَا﴾، وجوابُها: ﴿جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾أثَرَ تَحقُّق إرادَةِ اللّهِ تعالى فيهِمْ، وأنَّها سُنَنٌ كَوْنيَّة لا تَتخلَّف؛ حيثُ رَبَطَت بين النَّتائجِ والأسباب.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿جَآءَ﴾:

تَشديدُ العَذابِ الّذي وقَعَ بِقَوْمِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لِيَكونَ رادِعًا لِغَيْرِهِمْ

أوثِرَ التَّعبيرُ بـ ﴿جَآءَ﴾ على (أتى) في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ للدّلالَة على شِدَّة الأمْرِ، وشدَّةِ ما تَرَتَّب عليهِ من عِقابٍ؛ لأنَّ لفْظَ المَجيءِ يَدلُّ على الشِّدَّة بخِلافِ الإتيانِ الذي هو مَجيءٌ ولكنْ بسهولةٍ[1]، فضْلًا عَن أنّ المَجيءَ يأْتي في أكْثَرَ أحوالِهِ مَع المَحْسوساتِ، والإتيانَ في أغْلبِ أحوالِه مع غَيْرِها، وعلى هذا حينَ يأْتي التَّعبير بالمَجيءِ، فإنَّه يدلُّ على أنَّ المُعَبَّر عنهُ بِهِ هو أمْرٌ شديدٌ صعْبٌ، أو هو أصْعب ممّا يكونُ التَّعبير فيهِ بـ الإتْيان[2]؛ لذا عبّرَ عنهُ بالمَجيءِ لأنّه باتَ مَحْسوسًا مُشاهَدًا لا يُمارى فيهِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالماضي ﴿جَآءَ﴾:

في الإخْبارِ رَدْعٌ لِمَنْ يَتَمَثَّلُ فِعْلَ الكافِرِينَ

عبّر بصيغَةِ الماضي ﴿جَآءَ﴾ دونَ المُضارِعِ للدّلالَة على تَحقُّق وقوعِ هذا العَذابِ الذي أخْبَرَت بِهِ المَلائكَةُ لوطًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، ليَكونَ في هذا الإخْبارِ ردْعٌ لَمَن يُشارِكُهم فِعلَهمْ ويَتَشبَّه بهِمْ.

سِرُّ التَّعْبيرِ عَنِ العَذابِ بِالأمْرِ:

صُدورُ الأمْرِ التَّكْليفيِّ الإلَهيِّ لِلْمَلائِكَةِ لإيقاعِ عَذابِ الاسْتِئْصالِ بِقَوْمِ لوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ

عبَّر عَن العَذاب بالأمْر، فقال: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾؛ لِكونِ العذاب قد وقَع بأمْرِ اللّهِ وتكليفِهِ للملائكَةِ بأنْ يَقْلبوا القَرْية، أوْ مَجموعَ القُرى فيَجْعلوا عاليَها سافِلَها.

وهذا التَّفسير الَّذي يَرى أنّ الأمْرَ على أصْلِ مَعْناهُ، وهو التَّكْليفُ، أوْلى من القَول بأنّ الأمْرَ هو العذابُ؛ لأنَّ تفسيرَهُ بالعَذابِ يُخْرجه

---

(1) الرّاغب، المفردات: (جاء).

(2) السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة في نصوص من التّنزيل، ص: 97.

عَن كَوْنِه مَصدرًا، كما يُخرجهُ عَن أصْلِ معْناهُ الحقيقيِّ المشْهورِ الشّائِع[1]، وأيضًا فإنَّ تفْسيرَه بالعذابِ يَحْتاج إلى إضْمارٍ، والتَّقديرُ: ولمّا جاءَ وقْتُ عذابِنا جَعَلْنا عاليَها سافِلَها[2] وما لا يُحْتاج فيهِ إلى إضْمارٍ من أوْجُه التَّفْسيرِ، مُقَدَّم على ما يُحْتاج فيهِ إلى الإضْمارِ.

نُكْتَةُ إسْنادِ المَجيءِ إلى الأَمْرِ:

إسْنادُ الفِعْلِ لِمَنْ لَمْ يَقَعْ منْهُ مَجازٌ

في إسنادِ المَجيءِ إلى الأمْرِ على كِلا مَعْنَيَيْه تَجَوُّزٌ ظاهِر، إمّا على الإسْنادِ الحُكْميِّ أو العَقليِّ، بِعَلاقَةِ السَّبَبيَّة أو على سَبيل الاسْتعارَةِ بأنْ شَبَّه الأمْرَ بِشَيءٍ من شَأنِه أنْ يَجيءَ؛ فحَذَف المُشَبَّه بِهِ وأبْقى على شيءٍ من لوازِمه، وأسْنَدَه إلى المُشَبَّه على سبيلِ المَكْنيَّة.

دلالَةُ الإضافَةِ في: ﴿أَمْرُنَا﴾:

الإضافَةُ لِلتَّفْخيمِ والتَّهْويلِ

في إضافَةِ الأمْرِ إلى نونِ العَظَمَة في ﴿أَمْرُنَا﴾ دلالَةٌ على تفْخيم[3] الأمْرِ وتهْويلِه، وهو كذلك؛ إذْ بِهِ قُلِبتِ الأرْضُ بالمُهْلَكين بِجَعلِ عاليها سافِلَها.

سِرُّ التَّعْبيرِ بـ ﴿أَمْرُنَا﴾:

أمْرُ العَظيمِ جَسيمٌ

السِّرُّ في التَّعْبير بالإضافَةِ هُنا هو ما تَحْمِلهُ الإضافَةُ من دلالَةٍ على التَّفْخيم، "فإنَّ أمْرَ العَظيم جَسيمٌ"[4] فهو سُبحانه "المسَبِّبُ لِتَفْخيم الأمْرِ وتهْويلِ الخَطْبِ"[5].

سِرُّ التَّعْبيرِ بالجَعْلِ:

جَعْلُ عالي قُرى لوطٍ سافِلَها أمْرٌ غَيْرُ مُتَكَرِّرٍ

عبَّر بالجَعل دونَ (القَلْب) في قولِه: ﴿جَعَلْنَا﴾، فلَمْ يَقُل: (قَلَبنا) لما يَحمِلُه لَفظُ الجَعْل من مَعنى التَّصْيير، الَّذي يُفيدُ هُنا تَحويلَ الشَّيءِ من حالَةٍ مُعْتادَةٍ إلى حالَةٍ غَيْرِ مُعتادَةٍ، أو من طَبيعَتِها إلى

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/308، وشيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 4/679.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/382.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/159.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/159.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/230.

طَبيعَةٍ أُخرى، فكانَ التَّعْبيرُ بالجَعْل هُنا أدلَّ على مُطْلَقِ القُدْرةِ التي غَيَّرَتْ من طَبيعَةِ الأرضِ، حينَ جَعَلَتْ عاليَها سافِلَها، ولربَّما كانَت هذه هي الحالَة الوحيدَة الَّتي حَصَل فيها هذا اللَّوْن من العِقاب؛ إذْ لَم يَذْكر القُرآنُ سِواها، ولَو أنَّه عبَّر بالقَلْبِ لربَّما تُوُهِّمَ أنَّه أمْرٌ يَتكرَّر، فلا تَكونُ لهُ من الغرابَة ما أفادَهُ لفْظُ الجَعْل.

وجْهُ نونِ العَظَمَةِ في: ﴿جَعَلْنَا﴾:

جَعْلُ العَظيم عَظيمٌ

دلَّت نونُ العَظَمةِ في لفْظِ ﴿جَعَلْنَا﴾ على نَفْس ما دلَّت عَليه في لفْظِ ﴿أَمْرُنَا﴾ وهو التَّفْخيم[1] والتَّعْظيم؛ لأنَّ جَعْلَ العَظيم عَظيمٌ، كما كانَ أمْرُه كذلِكَ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالماضي ﴿جَعَلْنَا﴾:

سُرْعَةُ وُقوعِ الجَزاءِ عَقِبَ الأمْرِ بِهِ أوْ مُزامنته

عبَّرَ بالماضي في قولِه: ﴿جَعَلْنَا﴾ دونَ المُضارِع؛ لِكَونهِ جوابًا للشَّرْط المُضمَّن في: ﴿فَلَمَّا﴾، فهيَ دالَّةٌ على الظَّرف والشَّرْطِ في آنٍ، وفِعْلا الشَّرط والجَوابِ لها لا يَكونان من غَيْرِ الماضي، الَّذي من فوائدِه الدّلاليَّة هُنا الدّلالَةُ على سُرعة وقوعِ الجَزاء، وهو قَلْبُ الأرضِ وجَعْلُ عاليها سافلَها، فبمُجرَّد مَجيءِ الأمْرِ الإلَهيِّ وقَع الجزاءُ مباشَرةً أوْ مُزامَنةً؛ لأنَّ ﴿فَلَمَّا﴾ تدلُّ على "وقوعِ أمْرٍ لوقوع غَيرِه، بحيثُ يَكون وقوعُ الثّاني مَع الأوَّل مَعيَّةَ المُسَبّبِ مَع السَّبَب المُقْتَضي، فيَلْزَم من ذلك اتِّحادُ زمانِهما"[2].

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿عَٰلِيَهَا﴾، و﴿سَافِلَهَا﴾:

العِقابُ قَلْبٌ لا خَسْفٌ

المُراد بالعلوِّ هُنا العلوُّ المادّيُّ، كما أنّ المرادَ بالسّفْل أيضًا هو السّفْل المادّيّ، ولا أدَلَّ من هاتَيْن الكلمَتَيْن على تَصْوير مَشْهدِ العقاب الإلَهيِّ لهُم؛ بأنْ جعلَ أعْلى الأرضِ التي يَعيشون فوقَها أسْفلَها، وأسْفلَها أعْلاها.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/230.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/160.

وفي التَّعبير بهما دلالَةٌ على كَون المرادِ بهما حقيقةَ القَلْبِ؛ بأنْ صار ما هو أعْلى أسْفلَ والعَكس، ويَضعف معَهُ ما احتَمَلَهُ صاحبُ المنار من كَون المرادِ بِه الخسْفَ، لا القلْبَ[1] ولَو كان المرادُ به الخسْفَ لصرّحَ بِه، كما صرّحَ به في عِقاب قارونَ فقال: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: 81].

سِرُّ اخْتيارِ ﴿عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾:

عَـذابٌ حِسّيٌّ بِالقَلْبِ، وعَذابٌ مَعْنَويٌّ بِالتَّهْوِيلِ والإهانَةِ

سِرُّ التَّعبير بقولِه: ﴿عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ على هذا التَّرتيب في العَذابِ دونَ العَكس بِأنْ يُجْعَلَ سافِلُها عالِيَها، مَع كَونه مُستلزمًا لهُ، وذلك "لتَهويلِ الأمْرِ وتَفْظيعِ الخطبِ؛ لأنَّ جعْلَ عاليها الَّذي هو مَقارُّهم ومساكنُهم سافلَها، أشدُّ عليهم، وأشَقُّ من جعْلِ سافِلها عاليَها، وإنْ كان مُستلزِمًا لهُ"[2] وكذلك فإنَّ اقْتِصارَه على ذِكْر جعْلِ العالي سافلًا دونَ العَكْس؛ أدْخَلُ في الإهانَةِ[3].

دلالَةُ الإضافَةِ في: ﴿عَٰلِيَهَا﴾ و ﴿سَافِلَهَا﴾:

الإضافَـةُ لِأدْنى مُلابَسَةٍ

الإضافَة في كلٍّ من: ﴿عَٰلِيَهَا﴾ و ﴿سَافِلَهَا﴾ لأدْنى ملابَسةٍ، كالإضافَةِ في قولِه: ﴿عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ٤٦﴾ [النازعات: 46]، والضَّميران يَعودان على القَرْية.

دلالَةُ العَطْفِ: ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾:

الواوُ لإفادَةِ الجَمْعِ بَيْنَ العِقابَيْنِ

دلَّ العَطفُ بالواوِ هُنا على الجَمْع بَيْن الهلاكَيْن: القَلْب، والإمْطارِ، وفي إرْداف العِقاب بآخرَ مُتنوّعٍ، دليلُ شدَّة غضَبِ اللّهِ عليهم؛ لشَناعةِ ما ارْتَكَبوه من جُرْم.

سِرُّ اخْتيارِ الواوِ في: ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾:

العِقابانِ مُتَزامِنانِ لا مُتَعاقِبانِ

عبّرَ بالواوِ دونَ الفاء في قولِه تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ للدّلالةِ على

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/113.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/230.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/134.

التَّزامُن بَيْن العِقابَين، وأنَّهما لَم يَكونا بالتَّعاقُب، بما تؤدّيه الواوُ من دلالةِ الجَمْع بينهما.

سرّ التَّعْبير بـ: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾:

يُعَبِّرُ القُرْآنُ بِلَفْظِ (المَطَر) في حالِ العِقابِ والعَذابِ

التَّعبير بـ ﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾ أدلُّ على النِّقمة والعَذابِ، فهو يدلُّ على ذلك خُصوصًا[1] وليسَ كذلك التَّعبير بـ (أرسلنا) فإنَّه قد يَدلُّ على العذاب، وقد يدلُّ على غَيْره من مَواطِنِ التَّشريف بإرْسالِ الرُّسل.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ الماضي ﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾:

جَوابُ (لمّا) كَفِعْلِها لا يَكونُ إلّا فِعْلًا ماضيًا

عبّرَ بالفِعل الماضي ﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾ دونَ المُضارع؛ لكَونه مَعطوفًا على جواب ﴿فَلَمَّا﴾ وداخِلًا في مَعنى الجزاءِ، فهو جُزءٌ منهُ، وقد مَضى أنَّ جواب (لمّا) لا يَكون إلّا فِعلًا ماضيًا، فما عُطِفَ عليهِ لَفْظًا وكان داخلًا في مَعناهُ يُحتِّم أنْ يَكونَ مثلَه فِعلًا ماضيًا.

دلالَةُ نونِ العَظَمَةِ في: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾:

تَفْخيمُ شَأْنِ الإمْطارِ وتَهْويلُهُ

دلَّ التَّعبير بنونِ العَظَمة في قولِه تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾ على تَفْخيم ذلك الإمْطار وتَهْويله، تمامًا كما دلَّت على ذلك في قوله: ﴿أَمۡرُنَا﴾ وقوله: ﴿جَعَلۡنَا﴾.

وجْهُ تَعْدِيَةِ الفِعْلِ ﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾ بـ (عَلى):

تَعْدِيَةُ الفِعْل ﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾ بـ (عَلى) في قوله: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا﴾ أيضًا كما تَعدّى بها في قولِه: ﴿فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: 32] دونَ أنْ يَقول: (أمطرناها)؛ لأنَّ (على) تُفيدُ الاسْتِعلاء، والإمْطارُ هو العذابُ النّازِلُ عَليهم من السّماء، فأصْلُ اشْتقاقِه "من المَطَر، والمطرُ اسمٌ للماءِ النّازل من السَّحاب"[2] فساعَد حرْفُ الجرِّ (على) عَلى زيادَةِ تَصْويرِ ذلك الاسْتِعلاءِ المَدلولِ عليه بشَيْئَين هما:

---

(1) صنَّفه ابنُ عاشور ضمن عادات القرآن. وقال: ما سمّى الله مطرًا في القرآن إلّا عذابًا. يُنظر: التّحرير والتّنوير: 1/124.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/237.

الفِعل (أمطر)، إذ الإمطار لا يَكونُ إلّا من السَّماء، وأيضًا بحَرفِ الجرِّ (على) الدالِّ عَلى الاسْتِعلاءِ.

دلالَةُ الإضْمارِ في: ﴿عَلَيۡهَا﴾:

إضْمارُ ذِكْرِ القَرْيَةِ إهْمالًا وتَحْقيرًا

لوحِظَ في قولِه تعالى: ﴿جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا﴾ العُدولُ عَن إظْهارِ كلِمَة القَرْيَة أوِ القُرى - مع أنّ هناك من يرى بأنَّ قَوْمَ لوطٍ كانوا يَعيشونَ في عدَّة قُرى هي الَّتي أُطلِق عليها: (المؤْتَفكات)[1] - إلى التَّعبير عنها بالمُضْمر إخفاءً لها؛ لكَونها لا تَسْتحق أنْ يُصرَّح بها؛ لأنَّها إنْ صُرِّح بها فلا بُدَّ من إتْباعِ ذلك التَّصريحِ بالتَّعريفِ بخبثِها، كما قال تعالى: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمًا وَعِلۡمًا وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعۡمَلُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمَ سَوۡءٖ فَٰسِقِينَ ٧٤﴾ [الأنبياء: 74] فإنَّه لمّا ذَكرها أتْبَعها بالمَوصولِ الدّالِّ مَع صِلَته على الفِعْلة الخَبيثةِ الَّتي كان يَفعلُها أهلُها، فغَنيٌّ عَن البيانِ أنَّ "المُرادَ من القَرية أهلُها"[2].

سِرُّ اخْتيارِ الحِجارَةِ في العَذابِ:

دلالـةُ كَلِمَةِ الحِجارَةِ عَلى القَسْوةِ

الظّاهر أنَّ سِرَّ اختيارِ الحِجارةِ في العَذاب في قولِه: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ﴾ لِما تَحمِلُه من دلالةٍ على القَسْوة، وهي المُشارُ إليها في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ﴾ [البقرة: 74]. فضلًا عَن ارْتِباطِها بمَواضِع العِقابِ بوصفِها أداةً من أدواتِه، قال تعالى: ﴿تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ٤﴾ [الفيل: 4].

سِرُّ التَّعْبيرِ بـ: ﴿حِجَارَةٗ﴾:

اسْتِخْدامُ جَمْعِ الكَثْرَةِ (حِجارَة) لِلدّلالَةِ عَلى كَثْرَةِ الحِجارَةِ

عبَّرَ في الجَمْع بـ ﴿حِجَارَةٗ﴾ دونَ (أحْجار)؛ لِلدّلالةِ على كَثْرة الحِجارة، ولا يُناسِبُ الكَثْرة (أحْجار)؛ لأنَّ أفْعال من جُموعِ القِلَّة. وكَثْرة الحِجارَةِ تُناسِبُ شِدَّةَ العِقابِ واسْتِمْرارَه لِوقت أطْولَ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/230.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/112.

دلالَةُ التَّنْكيرِ في: ﴿حِجَارَةٗ﴾:

تَنْكيرُ (حِجارَة) تَفْخيمًا وتَهْويلًا

التَّنكير في قولِه: ﴿حِجَارَةٗ﴾ للتَّفْخيم والتَّهويلِ من أَمْرِها، فهي حِجارَة مُهْلِكةٌ قاتِلَةٌ، كما وقَع الإخْبارُ عنها في قصَّة هلاكِ أصْحاب الفيل في قولِه سبحانه: ﴿تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ٤ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ٥﴾ [الفيل: 4 - 5]. فهي لَيْست حِجارَة عاديَّةً وإنّما هي من سِجّيلٍ.

إيثارُ لَفْظِ ﴿سِجِّيلٖ﴾ في وصْفِ الحِجارَة:

كَلِمَةُ (سجّيل) عَرَبيَّةُ الأصْلِ ودالَّةٌ عَلى شِدَّةِ قَسْوةِ الحِجارَةِ

في وصْف الحِجارة هُنا بكَونها ﴿مِّن سِجِّيلٖ﴾، ولَمْ يَقُل: (من طين) كما في قولِه تعالى: ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ٣٣﴾ [الذاريات: 33]؛ دلالَةٌ على شِدّة قَسْوتها، فكَلِمة الحَجَرِ لِذاتِها دالَّةٌ على القَسْوة، ثمَّ يأتي هذا الوصْفُ ﴿مِّن سِجِّيلٖ﴾ لِيَدلَّ على مُنْتَهى القسْوة، فالسِّجِّيلُ هي الحِجارة الصُّلْبة الشَّديدةُ[1] وهو أنْسَب ما قيل في مَعناها.

ونستطيع التوفيق بيْن قولِه هُنا: ﴿حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ﴾ وفي الذّاريات: ﴿حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ٣٣﴾ [الذاريات: 33] بأنّ هذا الطّين قد تحجّر فصار صُلبًا[2].

دلالَةُ تَقْديم الجارِّ والمَجْرورِ ﴿عَلَيۡهَا﴾:

تَـقْـديـمُ شِـبْـهِ الجُمْلَةِ لِلدّلالَةِ عَـلى الاهْـتِـمـامِ والاخْتِصاصِ

تَقديم الجارِّ والمَجرور ﴿عَلَيۡهَا﴾ في قولِه: ﴿عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ﴾ دالٌّ عَلى الاهتمام والاختصاصِ فالحِجارة مُرْسَلَةٌ على قَرْيَة لوطٍ عليه السلام أو قُراهُ دونَ غَيْرِهم، "وفيه وعيدٌ لأَهْلِ مكَّةَ"[3] ومَن على شاكِلَتِهم في الكُفْر والجُحود.

بَلاغَةُ التَّشْبيهِ البَليغ:

يَأتي الحَمْلُ في جُمْلَةِ: ﴿حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ﴾ على التَّشبيه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/383، والسّامرّائيّ، على طريق التّفسير البيانيّ: 3/311.
(2) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 3/198، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/309.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/416.

تَشبيهُ السِّجّيل بِوادٍ في جَهَنَّمَ يَزيدُها مُبالَغةً في الأذى

البَليغِ حالَ تفسير (السِّجِّيل) بأنَّه وادٍ في جهنَّم، وهو أحَدُ الأقوال في تَفْسيرِه، فيَصيرُ المَعنى ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ﴾ كأنَّها ﴿مِّن سِجِّيلٖ﴾ جهنَّمَ[1]. لكنَّه لا يَتَأتّى على تفسير السِّجِّيل بِوجْه آخَرَ، كتَفسيرِه بأنَّه شَديدُ التَّصلُّبِ.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿مِّن﴾:

(مِن) إمّا لِلتَّبْعيضِ أوْ لِلبَيانِ

على تفسير (السِّجّيل) بأنَّه وادٍ في جهنَّم، فإنَّ ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن سِجِّيلٖ﴾ تَكونُ لِلتَّبْعيضِ[2]، وعلى غيْرِه فإنَّها يُمكن أنْ تكونَ للتَّبْعيض أو للبَيانِ. والجارُّ والمَجْرور مُتعلّقانِ بِمَحْذوفٍ صِفَة لـ﴿حِجَارَةٗ﴾[3].

دلالَةُ وصْفِ ﴿سِجِّيلٖ﴾ بـ ﴿مَّنضُودٖ﴾:

وصْفُ السِّجّيل بـ(مَنْضُودٍ) مُفْضٍ إلى وصْفِ الحِجارَةِ بِه

تقدّم أنّ شِبْهَ الجُملةِ ﴿مِّن سِجِّيلٖ﴾ هو صِفَةٌ لـ ﴿حِجَارَةٗ﴾ ثُمّ وُصِف ﴿سِجِّيلٖ﴾ بأنَّه ﴿مَّنضُودٖ﴾، أيْ: مُتتابِع بَعْضُه إثْرَ بَعْضٍ بَعد أنْ نُضِّدَ في السماء، والمَعنى: إنَّ هذهِ الحِجارة شَديدةُ التَّصلُّبِ الّتي أمْطَرْناهُم بها هي مَنْضودَةٌ في السّماء نَضْدًا مُعَدًّا للعذاب بحيْثُ يُرسَل بعضُها إثْرَ بعضٍ كقِطارِ الأمطار[4]. فدلَّ الوصْف بـ ﴿مَّنضُودٖ﴾ على الكَثْرة والتَّتابعِ[5] بلا إمْهال، وهذا الوصْف وإنْ كان قد أُجْرِيَ على ﴿سِجِّيلٖ﴾ لكنَّه يُفْضي إلى وصْف الحِجارة؛ لأنَّها منْهُ[6].

سِرُّ التَّعْبيرِ بـ: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾:

السِّيمَةُ أبْلَغُ مِن العَلامَةِ؛ لأنّها العَلامَةُ المُمَيِّزَةُ

عبَّر بقَوله: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ دونَ (مُعَلَّمة) مع أنّ السّيمَةَ تَعني

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/134.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/134.

(3) عبد اللّطيف الخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 6/143.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/230، وابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 3/198، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/252.

(5) السّامرّائيّ، على طريق التّفسير البيانيّ: 4/312.

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/134.

العلامة، لكنَّها العلامَةُ المُمَيَّزة كأمْثالِ الخواتيم[1]. أو أنْ يَكون المُراد بـ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أيْ: كُتِب عليها اسْم مَن رُميَ بها[2] وهذا المَعنى غيْر مَوجودٍ في كلمة (مُعَلَّمة) فيَكون مُرجِّحا كذلك لإيثار التَّعبير بـ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ دونَها.

دلالَةُ الكِنايَةِ في: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾:

الكِنايَةُ دالَّةٌ عَلى أنها مُعَدَّةٌ مُهَيَّأةٌ لِلتَّوْسيم وأنَّها بِتَقْديرِ الله

قَولُه: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ مَكْنيٌّ بهِ عن المُعَدَّةِ المُهَيَّئَةِ؛ لأنّ الإعداد من لَوازِم التَّسويم بِقَرينة قوله: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾؛ لأنَّ تَسْويمَها عند اللّه هو تَقديرُه إيّاها لَهُم[3].

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾:

حَقيقَةُ التَّسْويم هيَ العَلاماتِ الَّتي يُعَلَّمُ بِها الفُرْسانُ والأفْراسُ في الحَرْبِ

ذَكَر الشَّريف الرَّضيُّ أنّ "هذه استعارَةٌ؛ لأنّ حقيقةَ التَّسْويم هي العلاماتُ الّتي يُعلَّم بها الفرْسان والأفْراسُ فى الحرب، للتَّمْييز بيْن الشّعارات، والتّفْريق بيْن الجَماعات... والمَعنى أنّه سبحانه لمّا جَعَل تلك الحِجارة حَرْبًا لهُم وأعْوانًا عليهم وصَفَها بوصْف رجال الحرب وخُيولِهم، فكأنَّها مُرْسَلَةٌ من عندِ اللّه، أيْ من عندِ ملائكة اللّه الّذين تَولَّوا الرَّمْيَ بها، إرْسالَ الخيولِ المُسوَّمةِ على أعْدائِها، وإنْ لَم يَكُن هناك تَسْويم على الحقيقة. وقد قال بعضُهم: إنّ تلك الحِجارة كانت على الحقيقة مُعلَّمةً بعلاماتٍ تَدلُّ على أنَّها أُعِدَّت للعذاب، وأُفْرِدت للعِقابِ. وذلك أمْلأُ للقلوب، وأعظم فى الصُّدورِ"[4].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالظَّرْفيَّة ﴿عِندَ﴾:

قَصْديَّةُ التَّعْبيرِ بِالظَّرْفِ وحَمْلِهِ عَلى الحَقيقَةِ

دلّ التَّعبير بالظَّرفِ ﴿عِندَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ على قَصْديّة الظَّرف، وأنَّ هذه الحِجارة قد سوِّمَت "في خزائنه الّتي لا يَتَصرّف فيها غيرُه ﷻ"[5].

---

(1) الفِيروزاباديّ، القاموس المحيط: (سوم)، والسّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 434.

(2) شيخ زاده، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 4/679.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/134.

(4) الشّريف الرّضيّ، إيجاز البيان: 2/163.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/230.

التَّعْبيرُ بالرَّبِّ مُضافًا إلى ضَميرِ الخطابِ يُشيرُ إلى كَثْرَةِ الإحْسانِ إلى المُخاطَبِ

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالرُّبوبيَّة: ﴿رَبِّكَۖ﴾:

قولُه: ﴿عِندَ رَبِّكَۖ﴾ تعبيرٌ بالربوبيّة دون الألوهيّة، فالخِطاب لهُ ﷺ، "وعبّرَ بالرَّبِّ إشارةً إلى كَثْرة إحسانه إليه، وأنَّه إنّما أَمَرَهُ ﷺ بالإنْذارِ رحمةً لِأُمَّته الّتي جَعَلها خيْرَ الأُمَم، وسيجْعَلها أكثَرَ الأُمَم، ولا يُهْلِكُها كما أهْلَكَهم"[1].

التَّشْريفُ وإعْلاءُ المَكانَةِ

دلالَةُ كافِ الخِطابِ: ﴿رَبِّكَۖ﴾:

كافُ الخِطاب هيَ للنَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّه المَقْصودُ هُنا بإنْعام الرُّبوبيّة، ونِسْبةُ الرُّبوبيّة إلَيه ﷺ تَشْريفٌ لهُ، وإعْلاءٌ لِمَكانته.

مَعْنى الواوِ في: ﴿وَمَا هِيَ﴾:

قد تَكونُ الواو هُنا عاطِفةً، عَطَفَت وصْفًا على وصْفٍ، وقد تَكونُ حاليّةً على معنى: والحالُ أنّها لَيْست بِبَعيدةٍ عن الظّالمين. ويُمكن أنْ تَكونَ مُعْتَرِضَةً كذلك أفادَتْ مزيدًا من التّعْريف بِها.

(وما) آكَدُ في النَّفْي مِنْ غَيْرِها

دلالَةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿وَمَا﴾ النافية:

في قوْلِه تَعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾: ﴿وَمَا﴾ نافيَةٌ غيْرُ عامِلَة، أو هيَ العامِلةُ عمَلَ لَيس[2] الّتي تُسمّى: (ما) الحِجازيَّة، وهيَ تَحْتاج إلى اسْم وخَبَرٍ، واسْمُها هو الضَّميرُ المُنْفصل ﴿هِيَ﴾، وقولُه: ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مُتعَلّق بـ ﴿بِبَعِيدٖ﴾ خَبَر ﴿وَمَا﴾. وهيَ كَـ (لَيس) في نَفْي الحالِ عندَ الإطْلاق، لكنَّها آكَدُ من ليس في الدّلالة على النَّفْي؛ إذْ تدلُّ على قوَّة النَّفْي من حيثُ: نَفْيُها لِلجُملة الاسْميّة الدّالَّة على الثُّبوتِ، ودُخولُ ﴿مِنَ﴾ الزّائدة الدّالَّة على الاسْتِغراق والتَّوْكيد عَليها، واقْترانُ خَبَرِها بالباء الزّائدة الدّالَّة على التَّوْكيد[3].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/346.
(2) عبد اللّطيف الخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 6/144.
(3) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 1/252 - 254.

نُكْتَةُ التَّعْبِيرِ بِالإِضْمارِ في: ﴿وَمَا هِيَ﴾:

الـضَّـمـيرُ إمّـا لِلقُرى مَقْصودًا بِـهِ اسْتِهْجانُ الـتَّـصْـريـحِ، أوْ لِـلـحِـجـارَةِ مَـقْـصـودًا بِـهِ الزَّجْرُ والتَّخْويفُ

عَوْدُ الضَّميرِ هُنا هو الذي يُحدِّد دلالَتَهُ، وفيه احْتِمالانِ:

الأوَّل: أنْ يَعودَ إلى ما عادتْ إليه الضَّمائر المَجرورةُ قبْلَه، أيْ: إلى المَدينة أو القَرْية، فيَكونُ المَعنى وما تلك القَرية ببَعيدة من المُشركين، أيْ: العَرَب، فمَن شاء فلْيَذهب إليها ليَنْظر إلى مَصيرَها، فالمراد هُنا البُعْد المَكانيُّ[1] وعليه ففي إضْمارِها وعدَم إظهارِها اسْتِهجانٌ وامْتِهانٌ لها، كما لَم يُصرِّحْ بها فيما مَضى مُؤْثِرًا الإضْمارَ على الإظهارِ في ﴿عَٰلِيَهَا﴾ - ﴿سَافِلَهَا﴾ - ﴿عَلَيۡهَا﴾؛ لِكَوْنها لَيستْ أهْلًا لِلتَّصريح بها؛ لأنَّها كانتْ قَرْيةَ خَبائثَ ومَعاصٍ.

الثّاني: أنْ يَعودَ الضَّميرُ إلى الحِجارة، على مَعنى: وما تلك الحِجارة بِبَعيدةٍ عن أيِّ ظالمٍ يَفْعل مثْلَ ما فعلوا. فهو يَحْمل إذًا مَعاني التَّخويفِ والتَّهديد والزَّجْر.

وهناك احْتِمالٌ ثالِث: أنْ يَصْلحَ الضَّمير لِكِلَيْهما في آنٍ، على طريقةِ التَّوْجيه[2].

دلالَةُ تَقْديم الجارِّ والمَجْرور: ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

قَـدَّمَ الـظّـالِمينَ إبْـــرازًا لَـهُـمْ لِـكَـوْنِـهِـمُ الـمَـقْـصـوديـنَ بِالعُقوبَةِ

عبَّر بقَولِه: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾ بتَقديم الجارِّ والمَجرور، دونَ القَوْل: (وما هِيَ بِبَعيدٍ منَ الظّالمين)، مع كَوْن الجارِّ والمَجرور مُتَعَلّقَيْن به؛ أيْ: بـ ﴿بِبَعِيدٖ﴾ فكان أدْعى لِتَقديمه، وذلك "للاهْتِمام

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/135.

(2) ألْمَح إليه ابن عاشور في التّحرير والتّنوير: 12/135. واستبْعَدَه قائلًا: "وهذا من الكلام الموجَّه مع صحّة المَعْنَيَين وهو بَعيد". والتَّوْجيه: هو إيراد الكلام مُحتملًا لوجهَين مُختلفَين احتمالًا على السَّواء فيهما، ومن أمثلته كما في البرهان للزّركشيّ قوله تعالى حكايةً عن أخت موسى عليه السلام: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰٓ أَهۡلِ بَيۡتٖ يَكۡفُلُونَهُۥ لَكُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ١٢﴾ [القصص: 12] فإنّ الضّمير في قوله: (له) يَصلح أنْ يكون لموسى عليه السلام، كما يَصلح أنْ يكون لفرعون، وبذلك تخلَّصت أخت موسى عليه السلام حين قيل لها: إنّك عرفته، بقولها: ناصحون للمَلِك. ومثله جواب ابن الجوزيّ لَمن سأله مَن الأفضل عندَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أبو بكر أم عليّ؟ فقال: مَن كانت ابنته تحته أ.هـ. فيصحّ عَود الضّميرَين إلى كلّ منهما. يُنظر: الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 2/315.

به ولرِعايَة الفَواصِل"[1]؛ ولأنّ في إبْرازِ اسْم الظّالمين تَخْويفًا لهُم وتَهْديدًا، لِكَوْنهم هم المَقْصودين في الخِطاب، ثُمّ إنّ العُقوبة المَذكورة إنّما هيَ لهُم[2].

عِلَّةُ اخْتيارِ وصْفِ الظّالِمِينَ:

وصْفُ الظُّلْم أعَمُّ منَ الكُفْرِ وغَيْرِه

الّذي يَظهَر في سِرِّ اخْتِيار وصْف الظّالمين دونَ غيْرِه كـ (الكافرين) ونَحْوِه هو العُمومُ في مَعنى الظُّلم، فهو أعَمُّ من غيْرِه، فالظُّلم يَشمل كلَّ ألْوان التَّقصيرِ والعِصْيان، وعلَيه فوصْف ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يَشمل في عمومِه الكافرين والمُجرِمين والعاصين ممَّن يَعملون عمَلَ قَوْم لوطٍ عليه السلام، ولهذا أُوثِرَ على غيْرِه ممّا تَكونُ له دلالَة خاصَّةٌ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالاسْميَّةِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

التَّعْبيرُ بِجمْعِ السَّلامَةِ آكَدُ منَ التَّعبيرِ بِالفِعْلِ

عبَّر بالاسْم فقال: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ولَم يُعبّرْ بالفِعل (الذين ظلموا)؛ لأنّ التَّعبير به آكَدُ، لِما في الاسْم من مَعنى الثَّبات في مُمارَسة الوصْف، وهو هُنا الظُّلم، ويُرَسِّخه صَوْغُه على هَيْئَةِ اسْم الفاعِل الدّالِّ على الدّوام. أمّا الفِعل فَمَرْهونٌ بِزَمنٍ لا يَخرُج عنه إلّا بِضَرْبٍ من التَّأويلِ والتَّعليل.

دلالَةُ (أل) في: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

(أل) الاسْتِغْراقيَّةُ الدّالَّةُ علَى العُموم

تدُلُّ (أل) في قولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على العُموم؛ لأنَّها (أل) الاسْتِغراقيَّة، الّتي تُفيد اسْتِغراقَ الجِنْس. والمَعنى عليها: "وما هيَ من كلِّ ظالمٍ بِبعيد"[3] ويُؤيِّد كَونَها لِلعُموم هذا التَّهديدُ المَفهوم من قولِه تعالى في مَوضع آخَر: ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾ [هود: 89]

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/163.
(2) السّامرّائيّ، على طريق التّفسير البيانيّ: 3/313.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/416.

إيثارُ النَّفْي دونَ الإثْباتِ:

تأكيدُ المَطْلوبِ بالنَّفْي، وزيادَةُ الباءِ في الخَبَرِ

إيثارُ النَّفْي على الإثْباتِ في قوله تَعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ وتجنُّب قول: (وهيَ من الظّالمين قَريبٌ) يدلّ على تأكيد عدَم بُعدهم عنها، ولذا زادَ الباءَ في الخَبَر ﴿بِبَعِيدٍ﴾ تأكيدًا لهذا المَعْنى[1].

نُكْتَةُ تَجْريدِ ﴿بِبَعِيدٍ﴾ منْ تاءِ التَّأْنيثِ:

جُمْلَةُ أسْبابٍ تُعَلِّلُ عَدَمَ إلْحاقِ تاءِ التَّأْنيثِ بِلَفْظِ: (بِبَعيد)

إنّما قال: ﴿بِبَعِيدٍ﴾ ولَم يَقُل: (بَعيدة) مع أنّها وصْفٌ للحِجارة أو للقَرْية في قَوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾؛ لواحِد من الأسباب الآتيَة، فكلٌّ منها يَصلح علَيه التَّخريجُ:

أولًا: لأنّ (فَعيلًا) إذا كان بمَعنى (فاعِل) وجَرى على مؤنَّث غيْرِ حَقيقيٍّ، فإنَّه يَجوز تَذْكيرُه للتَّخفيف، ومثلُه قَوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [الأعراف: 56][2].

ثانيًا: ويُمكن حَمْل لفْظ ﴿بِبَعِيدٍ﴾ على أنَّه صِفَة لمَوصوف مَحْذوفٍ والتَّقْدير: (بشَيْءٍ بَعيد).

كما يحْتَمل أنْ يُراد (بِمَكان بَعيدٍ)؛ لأنَّها وإنْ كانت في السّماء وهي مكان بَعيد، إلّا أنَّها إذا هَوتْ منها فهيَ أسْرَع شيْءٍ لُحوقًا بالمَرْميِّ، فكأنَّها بمكان قَريب منه[3].

ثالثًا: ويَجوز أنْ يَكونَ التَّذكيرُ فيه لكَوْنه على زِنَةِ المَصْدرِ، كالزَّفير والصَّهيلِ، والمَصادر يَستوي في الوصْف بها المُذكَّر والمؤنَّثُ[4].

رابعًا: ويَجوز تَأويلُ الحِجارة بالحَجَر المُرادِ به الجِنْسُ[5]، أو تأويلُ القَرية بالقُرى، بِناءً على التَّفسيرَين السّابقِ ذِكْرُهما

(1) السّامرّائيّ، على طريق التّفسير البيانيّ: 4/313.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/135.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/416، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/192.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/231.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/310.

للضَّمير المُنفَصل في قَوله: ﴿وَمَا هِيَ﴾ والدّاعي إلى هذا التَّأويل رِعايَة الفَواصلِ[1].

دلالَةُ خِتام قِصَّةِ لوطٍ:

تَهديدُ ظالِمي مَكَّةَ وكُلِّ ظالِمٍ بِمثْلِ عِقابِ قَوْمِ لوطٍ عليه السلام

في خِتام القِصَّةِ بقَوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ تهديدٌ لأَهْلِ مكَّةَ ولكلِّ ظالم[2] على وجْه البَسيطةِ وفي أيِّ زَمَنٍ، بأنَّ العِقاب الَّذي حلَّ بقَوم لوطٍ لَيس بِبَعيد عنهم، ويُمكنُ أنْ يَتَكرَّر هذا العِقابُ ويَطالَهم.

المَتشابهُ اللفظي:

قال تعالى في سورَة هود: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

وقال تعالى في سورَة الحِجْر: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الحِجْر: 73 - 75].

وقال تعالى في سورَة الذّاريات: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الذّاريات: 33 - 34].

أسْرارُ اخْتِلافِ التَّعْبيرِ في مَشْهَدِ عَذابِ قَوْمِ لوطٍ:

الزَّجْرُ في سورَةِ الحِجْر أعْظَمُ مِنْهُ في سورَةِ هود

أوَّلًا: قَوله في هود: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾، وفي الحِجْر: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: 74] والسَّبب في ذلك: أنَّ الزَّجر في سورَة الحِجْر كان أعْظَمَ من الزَّجر في سورَةِ هود عليه السلام، لِطَلَبِهم أنْ يأْتيَ بجَميع الملائكة، ولذا أعادَ الضَّميرَ على المُعَذَّبينَ لا على مُدُنِهم - كما هو التَّعبيرُ في سورَة هود عليه السلام - ولأنَّ هذا أشدّ مصارحة، فقال: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: 74]، أيْ أهْلَ المَدائنِ الَّتي قُلِبَت المَدائنُ لأجْلِهم[3].

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/164.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/416.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/77.

ويحْتَمل أنْ يَكونَ قَوله: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ [الحجر: 74] في آية الحِجْر مَرْدودًا إلى قَوله: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٥٨﴾ [الحِجْر: 58][1].

وكذلك أيضًا في الذّاريات حيْثُ قال: ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الذاريات: 33]، أيّ على المُعَذَّبينَ؛ لأنَّه قد سَبقَها قَوله: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٣٢﴾ [الذّاريات: 32] فلَم يَرِد ذِكْرٌ للقُرى، فعادَ الضَّميرُ على القَوم المُجرِمين[2].

مُناسَبَةُ السّياقِ لِلأوْصافِ المَذْكورَةِ في سُورِها

ثانيًا: قَوله في هود: ﴿مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ﴾، وعدَمُ ذِكر وصْف مَنْضود في الحِجْر فاكْتَفى بقَوله: ﴿مِّن سِجِّيلٍ ٧٤﴾ [الحجر: 74]، والّذي يَظهر أنَّ الزّيادة بوصْف ﴿مَّنضُودٖ﴾ في سورة هود دونَ سورَتَي الحِجْر والذّاريات، لِمُناسبتِها لِتَقَدُّم وصْف هذا العَذابِ بقَوله: ﴿وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦﴾ [هود: 76]، أيّ غيْر مَدْفوعٍ[3]، فناسَبَ بَعد ذلك بأنْ يوصَفَ بأنّه ﴿مَّنضُودٖ﴾، أيّ مُتَراكِم مُتَتابِع، بيانًا وتأكيدًا لِكَوْنه غيْرَ مَرْدودٍ.

ثالثًا: قَوله في الذّاريات: ﴿حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ٣٣﴾ [الذاريات: 33] وفي سورَتَي هود والحِجْر: ﴿مِّن سِجِّيلٖ﴾، ولا تَعارُض فأصْل السِّجّيل هو الطّينُ الّذي تَحَجّر بَعد ذلك وصار صُلْبًا.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

(مُسوَّمة) و(مُعَلَّمَة):

كُلُّ سِمَةٍ عَلامَةٌ، ولَيْسَتْ كُلُّ عَلامَةٍ سِمَةً

هُناك تقارُب دلاليٌّ بيْن كلٍّ من السِّمة والعلامةِ لاشْتِراكِهما في أصْل المَعنى، وهو أنَّ كُلًّا منهما يَعني تَمْييزَ الشَّيءِ بما يَدلُّ عليه، غيْرَ أنَّ "السِّمة ضَرْبٌ من العلاماتِ مَخْصوص، وهو ما يَكون بالنّار في جسد حَيَوان... وأصْلُها التَّأْثير في الشَّيْء ومنهُ الوَسْميُّ - وهو مطرُ الرَّبيعِ الأوَّل - لأنّه يَسِمُ الأرضَ بِالنَّباتِ، نُسب إلى الوسْم،

(1) الكرمانيّ، البرهان في متشابه القرآن، ص: 156.
(2) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/262.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/407.

والوسْمُ أثَرُ كيَّةٍ، تَقول: مَوْسومٌ، أيْ قد وُسِمَ بِسِمةٍ يُعرفُ بِها، إمّا كيَّةٌ، وإمّا قَطعٌ في أُذنٍ، أو قَرْمةٌ تَكونُ عَلامَةً لَهُ. وفي التَّنْزيلِ العَزيز: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ١٦﴾ [القلم: 16][1].

وعلى هذا تَكون السِّمةُ أخَصَّ من العلامة؛ لأنَّه لا بُدَّ لها من تأثير حِسّيٍّ على الجسد المُعَلَّم، أمّا العلامة فهيَ أعَمُّ، أيْ أنَّ بَيْنهما عُمومًا وخصوصًا مُطلَقًا، فكلُّ سِمةٍ علامةٌ، ولَيستْ كلُّ علامةٍ سِمةً. ومن هُنا ناسَبَ شدَّة العِقاب - جَرّاء شَنيعِ الفِعل الذي قاموا به - لفْظ ﴿مُّسَوَّمَةً﴾.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 71، وابن منظور، لسان العرب: (وسم).

﴿۞وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤﴾ [هود: 84]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مُعاناةُ الأنْبياءِ مَعَ أقْوامِهِمْ، وعِقابُ الاسْتِئْصالِ جَزاءُ عِنادِهِمْ

لمّا ذَكر اللّه تعالى قصَّةَ لوطٍ ﷺ مع قَومه، وكيف عانى معهم غيْرَ وانٍ لرَغبةٍ ولا رَهْبة، حتّى انتهت القِصَّة بذِكْر ما حلّ بهم من عذاب استئصال، أُتبِعت قصَّتُه بأقرَبِ القصص الشَّهيرة إليها في الزَّمَن[1]، المُشاكِلَة لها في الجهْد الَّذي قام به كِلا النَّبيَّين الكريمَين، وفي الإعراض للنُّصح من قومهما، وفي عذاب الاستئصال الَّذي حلّ بكلٍّ منهما، فقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَدۡيَنَ﴾: اسمٌ أعْجَميٌّ، كجَعْفَر، وإنِ اشْتَقَقْتَه من العَربيَّة فالياءُ زائِدَةٌ، وقد يَكونُ مَفْعَلاً وهو أظهَرُ. ومَدْيَنُ - كما قيل - أُمَّةٌ سُمِّيَتْ بِاسْم جَدِّها مَدْيَن بن إبراهيمَ الخليلِ ﷺ، من زَوجهِ الثّالثة الَّتي تزوَّجها في آخر عُمُرِه، والنِّسبةُ إليها مَدْيَنيٌّ. ومَواطنُهم بَيْنَ الحِجازِ وخَليج العَقَبَةِ بقُربِ ساحِلِ البَحرِ الأَحْمر، وقاعدةُ بلادِهم (وجّ) على البحرِ الأحمرِ وتنتهي أرضُهُم منَ الشَّمالِ إلى حُدُودِ مَعانٍ من بلادِ الشّام، وإلى نَحْوِ تَبوكَ منَ الحِجازِ، وتُسمَّى بلادُهم: (الأَيْكَة)[2]، وقيل: الأيْكة قَومٌ آخَرون غيْر أهْلِ مَدْيَن، أُرْسلَ إليهم شُعيبٌ ﷺ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/350.

(2) الحمويّ، معجم البلدان: 5/77، والزَّبيديّ، تاج العروس: (مدن)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/239.

(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 24/528.

2) ﴿أَخَاهُمْ﴾: أصْلُ (أخ): أخَو، وهو: المُشارِكُ آخَرَ في الوِلادَةِ منَ الطَّرَفَيْنِ، أوْ منْ أحَدِهما أوْ منَ الرَّضاعِ. ويُستَعارُ في كلِّ مُشارِكٍ لِغَيْرِهِ في القَبيلَةِ، أوْ في الدِّينِ، أوْ في صَنْعَةٍ، أوْ في مُعامَلَةٍ أوْ في مَودَّةٍ، وفي غَيْرِ ذلك منَ المُناسَباتِ. والأُخُوَّةُ إذا كانَتْ في غَيْرِ الوِلادَةِ كانَتْ لِلمُشاكَلَةِ والاجْتِماعِ في الفِعْلِ، نَحْو: هذا الثَّوبُ أخو هذا، وقَوْلُه تعالى: ﴿كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ﴾ [الإسراء: 27]، أيْ: مُشاكِلوهُمْ[1]. والمُرادُ بِالأخِ في الآيةِ: المُشارِكُ في نَسَبِ القَبيلَةِ.

3) ﴿شُعَيۡبٗاۚ﴾: شُعَيْبٌ ﷺ هو رَسُولٌ لأهلِ مَدْيَنَ، وهو منْ أنْفُسِهم، اسمُهُ في العَرَبيَّة شُعَيْبٌ ﷺ واسمُهُ - على ما قيلَ -: شُعَيْبُ يَثْرونُ بْنُ صَيْفُونَ بن عُنُقا بنِ ثابِتِ بن مَدْيَنَ بنِ إبراهيمَ، وقيلَ: هو شُعَيْبُ بْنُ ميكيلَ منْ ولَدِ مَدْيَنَ، وقيلَ: لَم يَكُنْ شُعَيْبٌ منْ ولَدِ إبراهيمَ، وإنَّما هو ولَدُ بعضِ مَنْ آمَنَ بإبراهيمَ وهاجَرَ معه إلى الشّامِ، ولكنَّهُ ابنُ بِنْتِ لُوطٍ ﷺ، فَجَدَّةُ شُعَيبٍ ابْنَةُ لُوطٍ، وكانَ ضَريرَ البَصَرِ، وقيلَ: هو مَعْنى قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ﴾ [هود: 91]، أيْ ضَريرَ البَصَرِ. قالَ الصّاغانيُّ: وهو اسْمٌ عَرَبيٌّ يُمكنُ أنْ يَكونَ تَصْغيرَ شَعْب أو أشْعَب، كَما قالوا في تَصْغيرِ أسْود سُوَيْد، وهو تَصْغيرُ التَّرْخيم[2].

4) ﴿وَلَا تَنقُصُواْ﴾: أصْلُ (نقص): كلِمَةٌ واحِدَةٌ، هي النَّقْصُ: خِلافُ الزّيادَةِ، ونَقَصَ الشَّيْءُ، ونَقَصْتُهُ أنا، وهو مَنْقُوصٌ، والنَّقْصُ أيضًا: الخُسْرانُ في الحَظِّ، والنُّقْصانُ المَصْدَرُ، والنَّقيصَةُ: العَيْبُ؛ يُقالُ: ما بِهِ نَقيصَةٌ، أيْ: شَيْءٌ يَنْقُصُ. ومَرجِعُ البابِ كُلِّه إلى هذا[3]. والمَقْصودُ بِالنَّقْصِ في الآيَةِ: إزالَةُ بَعْضِ الشَّيْءِ.

5) ﴿ٱلۡمِكۡيَالَ﴾: أصْلُ الكَيْلِ: ضَبْطُ الشَّيْءِ وإمْساكُهُ[4]؛ وسُمّيَ المِكْيالُ بِذلِكَ؛ لأنَّهُ يَضْبِطُ الحَبَّ ونَحْوَهُ. والكَيْلُ: تَحْديدُ قَدْرِ الشَّيْءِ وقياسُهُ، والجَمْعُ: أكْيالٌ، والمِكْيالُ: آلَةُ الكَيْلِ تَكونُ منْ خَشَبٍ أوْ حَديدٍ أوْ غَيْرِهِ كالصّاعِ ونَحْوِهِ[5]، يُقالُ: كالَ الطَّعامَ يَكيلُ كَيْلاً إذا حَدَّدَ مِقْدارَهُ. ويأتي الكَيْلُ بِمَعْنى: الإعْطاءِ، وكِلْتُ فُلانًا: أعْطَيْتُهُ، واكْتَلْتُ عَلَيْهِ: أخَذْتُ

---

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (أخ).
(2) ابن الأثير، الكامل في التّاريخ: 1/138، والزَّبيديّ، تاج العروس: (شعب)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/240.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نقص).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (كيل).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (كيل).

منْهُ، والاسْمُ: الكِيلَةُ، والكَيّالُ: صاحِبُ حِرْفَةِ الكَيْلِ[1]. والمَقْصودُ بالمِكْيالِ في الآيَةِ: ما يُكالُ بِهِ بالكَيْلِ[2].

6) ﴿وَٱلۡمِيزَانَۚ﴾: أصْلُ الميزانِ موْزانٌ، فانْقَلَبَتِ الواوُ ياءً لِكَسْرَةِ ما قَبْلَها، ويَأْتي في اللُّغَةِ بِمَعْنى العَدْلِ والكِتابِ والمِقْدارِ، والجَمْعُ: مَوازينُ. والميزانُ: الآلَةُ الَّتي تُوزَنُ بها الأشْياءُ، يُقالُ: وزَنْتُ الشَّيْءَ، أزِنُهُ، وزْنًا، أيْ: قَدَّرْتُهُ بواسِطَةِ الميزانِ. والوزْنُ: ثِقَلُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ مِثْلِهِ كَأوْزانِ الدَّراهِمِ[3]. والمَقْصودُ بالميزانِ في الآيَةِ: اسْمُ آلَةِ الوزْنِ.

7) ﴿مُّحِيطٖ﴾: أصْلُ (حيط): يَدُلُّ عَلى شَيْءٍ يُطيفُ بالشَّيْءِ[4]. ومنْهُ الحائِطُ: الجِدارُ الَّذي يَحوطُ بالمَكانِ، والإحاطَةُ تُقالُ عَلى وجْهَيْنِ: أحَدهما: في الأجْسامِ، نَحْو: أحَطْتُ بِمَكانِ كَذا، أوْ تُسْتَعْمَلُ في الحِفْظِ، نَحْو: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾ [فُصّلت: 54]، وتُسْتَعْمَلُ في المَنْعِ، نَحْو: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ﴾ [يوسف: 66][5]. والإحاطَةُ بالشَّيْءِ: الكَوْنُ حَوْلَهُ كالحائِطِ، ويُكَنّى بها عَنِ التَّمَكُّنِ منَ الشَّيْءِ بِحَيْثُ لا يَفوتُ منْهُ[6]. والثّاني: في العِلْمِ، نَحو قوله: ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطّلاق: 12][7]. والمَقْصودُ بالإحاطَةِ في الآيَةِ: الاشْتِمالُ عَلى الشَّيْءِ وجَعْلِه في حَوْزَةِ المُحيطِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبِرُ اللّهُ تعالى أنَّه أرسلَ إلى مَدْينَ أخاهم في النَّسَبِ شُعَيبًا، فقال مُبتدِئًا بما لا يجوز الابتداءُ بغيْرِه وهو الدَّعوة إلى التَّوحيد: يا قَوم اعبُدوا اللّهَ وحدَه، ليس لكم من إلهٍ يستحِقُّ العبادةَ غيْرُه

التَّدَرُّجُ منْ أساليبِ الحِكْمَةِ في تَهْيِئَةِ النُّفوسِ بِقَبولِ الإرْشادِ والكَمالِ

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (كيل).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/127.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (وزن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حوط).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (حيط).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/171.
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (حيط).

ﷻ، فأخلِصوا له العِبادةَ، ثُمَّ ثَنّى بالنَّهْيِ عن أقْبَحِ الصِّفات وأذَمِّ الخِلالِ والأخلاقِ الَّتي تَخَلَّقوا بها وهي التَّطْفيف في الكَيْلِ والوزْن فقال: ولا تنقُصوا النّاسَ حُقوقَهم في مَكاييلِهم ومَوازينِهم، إنّي أراكُم في سَعةٍ من الرِّزقِ، وكثرَةِ نِعَم، وخَيرٍ في معيشتِكم، فاشكُروا اللّه على ذلك، وإنِّي أخافُ علَيكم - بسبَبِ شِركِكم، وبَخسِكم حقوقَ النّاسِ - أنْ يَنزِلَ بكم عذابُ يومٍ يُحيطُ بِكُم، فلا يُفلِتُ منه أحَدٌ(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ﴾:

الواو هُنا عاطِفَةٌ، عَطْف جُمْلَةٍ على جُملة، أو قِصَّةٍ على قِصَّة، أيْ: على قولِه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾ [هود: 61] أيْ: وأرْسَلنا ﴿۞وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾.

دلالَةُ تَقْديمِ المَجْرورِ عَلى المَفْعولِ:

تَقْديمُ المَجْرور عَلى المَفْعول لِيَعودَ الضَّميرُ عَلَيْهِ

الجارُّ والمَجرور ﴿۞وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ﴾ مُتعلّقان بمَحْذوفٍ تقديرُه (أرْسَلنا)، وتَقديمُ المَجرور في قولِه: ﴿۞وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾ مُتَّسِقٌ مع ما مضى في القِصَّتَين السّابِقَتَين في قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ﴾ [هود: 50] وقولِه: ﴿۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾ [هود: 61]. وسَببُ تَقديمه في جميعها "لِيَعود الضَّمير علَيه"(2).

لكنَّ ابن عاشور قد أخَذ من هذا التَّقديم دليلًا على ترجيح كَون العَطْفِ هُنا من باب عَطْف المُفردات لا من عطْف الجُمَل(3).

والقَول بأنَّه من باب عَطْف الجُمل وأنّ مُتعلّقَ الجارِّ والمَجرور

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/539، والواحديّ، التّفسير البسيط: 11/520، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/85، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/342، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 387.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/278.

(3) ذكره ابن عاشور في التّحرير والتّنوير: 12/94، عند تفسيره لقولِه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ﴾ [هود: 50].

مَحْذوفٌ تَقديره (أَرْسلنا) أَرْجَحُ؛ حتّى لا يَطولَ الفَصْل بيْن المَعْطوفات بالجُمَل الكثيرةِ[1] لَو قُلنا إنَّه من عطْف المفردات، أيْ عطْف المَجرورِ على المَجرور، أيْ: عَطْف ﴿مَدۡيَنَ﴾ على ﴿ثَمُودَ﴾ [هود: 61]، والمَنصوبِ على المَنصوب أيْ: عطْف ﴿شُعَيۡبٗاۚ﴾ على ﴿صَٰلِحٗاۚ﴾ [هود: 61].

وفي تَقديم شِبْهِ الجُملة تشْويقٌ لِما يأتي بَعدَه من ذِكر شُعَيْب ﷺ، أمّا تقديمُ ذِكر القَوم قبْلَ نبيِّهم فلأنّ مدارَ السّورة قائمٌ على بيانِ أحوال الأَقْوام السّابقةِ مع أنبيائهم لمّا تَعجّلوا العذاب، كقوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ﴾ [هود: 50] وقوله: ﴿۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾ [هود: 61].

سِرُّ تقدير الفعل النّاصب، وحذفه:

حذفُ الناصِب إيجازًا لِلعِلْم بِهِ

قُدّرَ الفِعْل (أرسلنا) الناصِب لقَوله: ﴿أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾ للإيجاز، للعِلْم بِهِ ممّا سَبَق، أيْ في قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ [هود: 25] ثُمَّ تَقْديره في قوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ﴾ [هود: 50] وقوله: ﴿۞وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾ [هود: 61][2] ومَعروف أنَّ عَطْف النَّسَق يَكون على نيَّة تَكرارِ العامل[3].

سِرُّ التَّعْبيرِ بالأُخوَّة في: ﴿أَخَاهُمۡ﴾:

النَّصُّ عَلى كَوْنِ شُعَيْبٍ ﷺ مِنْ أهْلِ مَدْيَنَ خِلافًا لِمَنْ زَعَمَ غيْرَ هذا

عبَّر بالأخوَّة في قوله: ﴿أَخَاهُمۡ﴾ أيْ: أخاهُم في النَّسَب[4]؛ لكَوْنه منهم، أيْ: من قبيلة مَدْين. وهذا ما يَترجَّح لكَوْنه الظّاهر من لفْظِ ﴿أَخَاهُمۡ﴾ ومن ندائه لهم بـ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾. وكان شُعَيْب ﷺ قد أُرْسِل أيضًا إلى أصحابِ الأَيْكة، ولَم يَكُن بَيْنَه وبَيْنهم نَسَبٌ، ولهذا لمّا تَعرّض لِذِكْرهم في سورة الشُّعراء في قوله: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧﴾ [الشعراء: 176 - 177] لَم يَقُل:

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/278، والخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 6/92.

(2) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 5/358.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3738.

(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/313.

(أخوهُم)[1] كما قيلَتْ في أَهْلِ مَدْين، وعلى كلِّ الأحوال فإنّ في ذِكر الأخوَّةِ ما يُشير إلى حِرْصه عليهم، وعلى إيمانهم لأنّه واحدٌ منهم، وهذا أدْعى إلى إجابَتِهم إيّاهُ.

الأُخوَّةُ مَدْعاةٌ إلى تَمْحيضِ النُّصْحِ وعَدَمِ الارْتِيابِ

دلالَةُ الإضافَةِ في: ﴿أَخَاهُمْ﴾:

الإضافةُ هُنا للتَّعريف، وكأنَّه يُذَكِّرُهم بأنَّ شُعيْبًا أخوهم الَّذي يَعرفونه فلا يَنْفِروا منه، بل عليهم أنْ يُعينوهُ وأنْ يَكونوا له عَضُدًا في دَعْوته، إضافةً إلى أنّ في إضافتِه إليْهِم ما يُشعِر بِحِرْصه عليهم.

دلالة حَذْفِ المُضافِ عَلى الإيجازِ والمَجَازِ

دلالَةُ الحَذْفِ:

في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ هُناك مُضافٌ مَحْذوف، تقديره: أصحابُ مَدْين، أوْ أهْلُ مَدْين[2]، كما قال سبحانه في مَوْضع آخَر: ﴿وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ﴾ [الحج: 44] وقَوله: ﴿فَلَبِثۡتَ سِنِينَ فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ [طه: 40]؛ لأنَّهم ذَكَروا أنَّ ﴿مَدۡيَنَ﴾ هو اسْمٌ لِمَدينةٍ نُسِبتْ إلى عَلَمٍ اسْمُه مَدْيَن، وهم من نَسْله، ولذا قد يُقدَّر: أَوْلاد مَدْين[3] والتَّقدير بأصحاب أو أهْل أوْلى لِوُروده كذلك مُصرَّحًا به في القُرآن. وعلى هذا ففيه إيجازٌ ومَجاز بالحَذْف، كما في قوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: 82] أي: اسألْ أهْلَها[4].

التَّصْريحُ بِاسْمِ شُعَيْبٍ عليه السلام مَدْحٌ وتَشْريفٌ

سِرُّ التَّصْريحِ بِاسْمِ النَّبيِّ ﴿شُعَيۡبٗاۚ﴾:

السِّرُّ في التَّصريحِ بِاسْمِ شُعَيْب عليه السلام: الاتِّساقُ مع ما مَضى في نُظَرائه في السورة في قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ [هود: 25] وقوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ﴾ [هود: 50] وقوله: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾ [هود: 61]، وفي التَّصريح بالأَسْماء في جميعِها فَضلًا عن

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 24/528.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/384.
(3) الشّهاب الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/123.
(4) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/679.

التَّعريف بها، بيانٌ لِشَرَف أصحابها وفَضْلهم في قيامهم بِواجِبهم تُجاهَ الرِّسالة والدَّعوة، فالتَّصريحُ هُنا للتَّشريف.

وعليه فهو عَطْفُ بَيان لـ ﴿أَخَاهُمۡ﴾ مَقصودٌ به المَدْحُ وليس الإيضاح؛ لِكَوْنه مَعروفًا لا مُبْهَمًا، كما في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ [المائدة: 97] فقوله: ﴿ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ﴾ [المائدة: 97] "عَطْف بَيان على جِهَة المَدح، لا على جِهةِ التَّوضيحِ"[1]، ويَجوز إعرابُه بَدَلًا من ﴿أَخَاهُمۡ﴾.

سِرُّ تَقْديم ﴿أَخَاهُمۡ﴾ عَلى ﴿شُعَيۡبٗاۚ﴾:

التَّقْديمُ لِغَرَضِ التَّأْنيس والتَّأْليف

قدّمَ ﴿أَخَاهُمۡ﴾ على ﴿شُعَيۡبٗاۚ﴾ تَأْنيسًا لهم وتأْليفًا، أيْ: هو أخوهم ومنهم، فَلَن يَدلَّهم إلّا على ما يَنْفعهم، لا ما يَضُرُّهم.

سِرُّ الفَصْلِ في: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾:

بَلاغَةُ شِبْهِ كَمالِ الاتِّصالِ

يَعودُ سَبَب الفَصْل في قوله: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ إلى كَوْنه اسْتِئنافًا بَيانيًّا، قُصِدَ به الجوابُ عن سؤالٍ مُقدَّر "نشَأ عن صَدْر الكلام، فكأنَّه قيل: فماذا قال لهُم؟ فقيل: قال كما قال مَنْ قبلَهُ من الرُّسلِ عليهم السلام: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾"[2].

سِرُّ حَذْفِ الفاءِ في: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾:

لَمّا فَصَلَ مُسْتَأْنِفًا اسْتَغْنى عَنِ الفاءِ

مرَّ في الفِقرة السّابقة أنّ سرَّ الفَصْل وعدم العطف أو الاستئناف بالفاء هو كَوْنه اسْتئنافًا بيانيًّا، وأمّا في آية العَنكبوت: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [العنكبوت: 36] فليس كذلك؛ لأنّه في مَقام الإخبار، فعطفَ فيه جُمْلة القَولِ على جُمْلة مُقدَّرَة، أيْ: أرْسلناه فعَقَّبَ إرْسالَهُ بأنْ ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [العنكبوت: 36][3].

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/681.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/231.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/247.

دلالَةُ التَّعبيرِ بِالقَوْلِ:

دَلَّ التَّعبيرُ بالقَوْلِ عَلى وُجودِ حِوارٍ بَيْنَهُ عليه السلام وبَيْنَ قَوْمِهِ

التَّعبير بالقَوْل في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ يدلُّ على أنَّه أقام بَيْنَه وبَيْنَهم حوارًا؛ لأجْلِ إقناعِهم بالتَّوحيد الَّذي أُرْسِل لأجْلِه، ثُمَّ لِدَعْوتهم إلى نَبْذ ما ألِفوه واعتادوه من التَّطْفيف في الكَيْل والميزانِ.

بَلاغَةُ النِّداءِ في: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

لَمْ يَتَوانَ شُعَيْبٌ عليه السلام في حَثِّ قَوْمِهِ عَلى الإيمانِ

في التَّعبير بأداةِ النِّداء دلالةٌ على أنَّه كان يَطْلُبهم في كلِّ مَكان كانوا فيه مَهْما كان بَعيدًا، حِرْصًا منه على إيمانِهم ونَبْذِ ما قَبُحَ من عاداتهم.

سِرُّ اخْتيارِ التَّعبيرِ بالقَوْمِ:

النِّداءُ بِالقَوْمِ إشْفاقًا واسْتِعْطافًا

التَّعبير بالقَوم في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ دونَ غيْرِه كأنْ يَقول: (يا أيُّها النّاس) ونَحْوه، إنّما هو لإبْداء حِرْصه وشَفَقته عليهم، ولِتأْليف قلوبِهم واسْتِمالَتِها نَحْو سَماعِ دَعْوته، الَّتي ما قصدَ منها إلّا إنْقاذهم من ويْلات الكُفْر وسوءِ الأخلاق والعاداتِ.

سِرُّ اخْتِلافِ أُسْلوبِ النِّداءِ:

النِّداءُ بـ (يا قوم) أخَصُّ

الفَرْق بَيْن النِّداء هُنا بـ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ عن النِّداء بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [مثلًا: البقرة: 21] أنّ النِّداء بها أخَصُّ؛ لأنَّ القَومَ أخَصُّ من النّاس، وهو أوْفق لَمقام الدَّعوة هُنا؛ لكَوْنها دَعْوة خاصَّةً بهم دون غيرهم، ولأنَّ نداءَهم بـ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ أجْذَبُ لِما فيه من دلالةٍ على الإشْفاق والحِرْص المُؤَكّدِ على مَصْلحتهم.

دلالَةُ الأمْرِ في: ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾:

الأمْرُ بِالعِبادَةِ لِلْوُجوبِ

الأمْرُ هُنا يَدلّ على الوجوب، فهُم مَأْمورون وُجوبًا بِعبادَة ربِّهم الَّذي خلقهم ورزقهم، وما لهُم غيْرُه من إلَهٍ.

سِرُّ التَّعبيرِ بِالعِبادَةِ عَنِ التَّوْحيدِ:

العِبادَةُ مِن لَوازِمِ التَّوْحيدِ وعِلَّةٌ لَهُ

عبَّرَ بالعِبادة عن التَّوْحيد فقال: ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾؛ لأنَّ العبادة من لَوازِم التَّوْحيدِ، والأمْرُ بها كالأمْرِ به، من حيْثُ كَوْنُها مُتَوقِّفَةً عليه،

وأثَرًا من آثارِه، فلا عبادة لله بمَعْزِل عن تَوْحيدِه. أو كما عبَّرَ الرّازيُّ بأنّ التّوْحيد علّةٌ للأمْرِ بالعبادة، ومن ثَمَّ وجَبَت عبادةُ الله، لأجْلِ العِلْم بأنّه لا إلَهَ إلّا اللهُ[1] أيْ أنّ العبادة تَسْتلزِم التّوْحيدَ[2].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالأُلوهيَّةِ ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾:

العِبادَةُ والتَّكاليفُ هيَ مِنْ خَصائِصِ الأُلوهيَّةِ

عبَّر بالأُلوهيَّةِ ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ دونَ الرُّبوبيَّة (اعْبدوا ربَّكم) لكَوْن العبادة وسائرِ التَّكاليفِ هيَ من خصائص الأُلوهيَّة، لا الرُّبوبيَّةِ الَّتي من خصائصِها الخَلْقُ والرِّعايَة والإنعامُ، فضلًا عن أنّ التّعبير بلَفْظ الأُلوهيّة أدْعى لِلمَهابَة وهو الأَلْيَقُ بالمَقام هُنا.

دلالَةُ تَرْكِ العَطْفِ في: ﴿مَا لَكُم﴾:

كَمالُ الاتِّصالِ بَيْنَ الجُمْلَتَيْنِ

بَيْنَ جُملة ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وجملَةِ ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ كَمالُ اتِّصالٍ؛ لأنّ الثّانية عِلَّةٌ للأولى[3] كما أنَّها مُبَيِّنَةٌ ومُنَبِّهَة على اختصاص الله تعالى بالعبادة ورَفْضِ ما سِواهُ، فكانت بذلك في غايةِ الاتِّصال[4].

ويُمْكِن أنْ يَكون الفَصل لشِبْهِ كَمالِ الاتِّصال جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: لماذا نَعْبد اللهَ؟

بَلاغَةُ التَّعْبيرِ عَنِ التَّوْحيدِ في الدّعْوة:

تَوْحيدُ العِبارَةِ عَلى لِسانِ الأنْبياءِ مَعَ تَباعُدِ الأزْمانِ دَليلٌ عَلى صِدْقِهِمْ وأنَّهُمْ جَميعًا رُسُلُ الله

تَكرَّرت على لِسان عدد من الأنبياء في سورَتَي الأعْراف وهود هذه العِبارَة: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ فهُمْ جميعًا أُرْسِلوا بِدَعْوة التّوْحيد، وتَوْحيد العِبارَة مع تباعُد الأزْمان دليلٌ على صِدْقهم وأنهم جميعًا رُسلُ اللهِ، وأنّ مَقْصِدهم واحدٌ. "فلَقَد اتَّفَقت - كما تَرى - كلمَتُهم واتَّحدتْ إلى الله وحْدَه دَعْوتُهم، وهذا وحْدَه قَطْعيُّ الدلالة على صِدْق كلٍّ منهم، لِما عُلِم قَطْعًا من تباعُد

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/295.
(2) الشّهاب الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/123.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 14/295، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/231.
(4) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 5/355، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/278.

عُصورهم، وتَنائي ديارِهم وأنَّ بَعضَهم لَم يُلِمّ بِالعُلوم، ولا عَرَف أخبارَ النّاس إلّا من الحَيِّ القَيّوم"[1].

دلالَةُ حرف الجرّ في: ﴿مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ﴾:

لا إلَـهَ مَـعَ الله أبَدًا

﴿مِّنۡ﴾ دالَّة على الاسْتِغراق، أيْ تَنْفي أنْ يَكون مع اللّه أيُّ إلَهٍ، نَفْيًا عامًّا مُسْتغرقًا. فهذه دلالَةُ (من) عندما تَدْخل على النَّكِرة[2].

سِرُّ التَّعْبيرِ بـ ﴿إِلَٰهٍ﴾:

التَّعْبيرُ بـ (إله) دونَ (ربّ) أوْفَقُ لِلسّياقِ

سِرُّ التَّعبير بـ ﴿إِلَٰهٍ﴾ دون (ربّ) في قوله تعالى: ﴿مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ﴾، لكَوْنه الأوْفَقَ لِسياق الأمْرِ بالعبادة قَبْلَه ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أو لكَوْنهم قد أنْكروا الأُلوهيَّة، ولَم يُنْكِروا الرُّبوبيَّة. وقد جاءَتْ لَفْظة ﴿إِلَٰهٍ﴾ مُنَكّرة للتّعظيم والتّفْخيم.

بَلاغَةُ القَصْرِ:

في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۖ﴾ نَفَت الآية وجودَ آلِهَةٍ سِوى اللّه تعالى بأُسْلوب القَصْر بالاسْتِثْناء بَعد النَّفْي، حيْث قَصَرَت الآيةُ الأُلوهيَّةَ على اللّه وحْده، وهو قَصْرُ صِفَة على مَوْصوفٍ وهو قَصْر حقيقيٌّ.

دلالَةُ تَعَدُّدِ القِراءاتِ في: ﴿غَيۡرُهُۥٓۖ﴾:

تَوْجيهُ قِـراءَتَي الرَّفْعِ والجَرِّ في كَلِمَةِ (غيْره)

يُقرَأ لَفْظ ﴿غَيۡرُهُۥٓۖ﴾ بالرَّفع والخَفْض، والحُجَّة لِمَن قَرَأهُ بالرَّفْع: أنّه جَعَله حرفَ استِثْناء، فأعْربه بما يُعْرَب به الاسْمُ بَعد (إلّا) كقوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ويَجوز الرَّفع في ﴿غَيۡرُهُۥٓۖ﴾ على الوصْف من محلّ لفظ ﴿إِلَٰهٍ﴾ قَبْل دخولِ ﴿مِّنۡ﴾ عليه وهو الرفع على الابتداء كقوله تعالى: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾. والحُجَّةُ لِمَن خَفَض: أنّه جَعَله وصْفًا للفظ ﴿إِلَٰهٍ﴾، ولَم يَجْعله استِثْناءً[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/350.
(2) المراديّ، الجنى الداني، ص: 317.
(3) ابن خالويه، الحجّة في القراءات السّبع، ص: 157.

أُسلوب القُرْآنِ في عَرْضِ أُصولِ دَعْوةِ شُعَيْبٍ عليه السلام:

قامتْ دعْوة شُعَيْب ﷺ على الإصلاح، وركَّزت على جُملة أُمورٍ أجْملَتْها هذه الآيَةُ في ثلاثة، هي:

الأوَّل: إصلاح الاعتقاد، وهو من إصلاحِ العُقول والفِكْرِ، وفيه بَدْءٌ بالأمْرِ بالتَّوْحيد؛ لأنّه أصْلُ الإصلاح. ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾.

الثّاني: النَّهْي عن ظُلْم النّاس من خلال أمْر كان فيهم فاشيًا ولذا خصَّهُ بالنَّهْي، وهو تَطْفيف الكَيْل والميزانِ، وهو شَيْءٌ من صلاح العَمَل. ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾.

الثّالث: النَّهْي عن عُموم الإفساد في الأرض وقد أصلَحها اللّه وهي دَعْوة عامَّةٌ إلى صلاح جميع الأعمال والتَّصرفات. ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾[1].

إصْلاحُ الاعْتِقادِ والنَّهْيُ عَنِ الظُّلْمِ والفسادِ أُسُسٌ قامَتْ عَلَيْها دَعْوةُ شُعَيْبٍ عليه السلام

سِرُّ بَدْءِ شعيب عليه السلام بأمْرِ التَّوْحيد:

قد بَدَأ ﷺ دَعْوته لقَومه بالأمْرِ بالتّوحيد في قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾؛ لأنَّه الأساسُ الّذي يُبْنَى عليه ما بَعدَه من الأوامر والنّواهي. وهو أصْلُ انْتفاء الظُّلْم والفساد في المعامَلات.

الأمْرُ بِالتَّوْحيدِ أساسٌ يُبْنى عَلَيْهِ فَلا يُقدَّم عَلَيْهِ سِواهُ

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ﴾:

الواو للعَطْف؛ إذ عَطَفَتْ جُملة: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾ على جمْلة: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وهما جملتان إنشائيَّتان، فَحَسُنَ الوصْلُ بينهما بالواو؛ جَمْعًا للواجبات مع المَنْهيّاتِ.

دلالَةُ النَّهْي في: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾ ركّزَت دَعْوة شُعيْب على النّهي عن تَطْفيف الكَيل والميزان، والأمْرِ بالعَدْل فيه

التَّصْريحُ بالنَّهْي نَعْيٌ عَلى المَنهيِّ وتَعْييرٌ لَهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/136.

في كلِّ مَوْضع ذَكَرَها القرآنُ، وهو دالٌّ على فُشُوِّ هذا الخُلُقِ السَّيِّئِ فيهِم، الأمْرُ الّذي جَعَلَ القرآنَ يَخُصُّ ذِكْرَه في دعْوة شُعيب عليه السلام في جميع مواضِع ذِكْرِه. "وفي التّصريح بالنَّهي نَعْيٌ على المَنْهيِّ وتَعْيير له"(1).

سِرُّ البَدْءِ بِالنَّهْي قَبْلَ الأمْرِ بِالوفاءِ:

التَّخْليَةُ مُقَدَّمَةٌ عَلى التَّحْليَةِ، ودَرْءُ المَفاسِدِ مُقَدَّمٌ عَلى جَلْبِ المَصالِحِ

في سبيل دعْوة قوْم شُعيب إلى إصلاحِ قبيحِ ما ألِفوه من عادة التَّطْفيف في الكَيل والميزان، سَلَك شُعيب فيما أبانَهُ النَّصُّ الكريم سَبيلَيْن:

الأوّل: النَّهي عن التّطفيف والنّقْص فقال: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾.

والثّاني: الأمْرُ بالعَدل فيهما ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾.

والتّرْتيب بَيْنهما مؤسَّسٌ على ما تقرّر من كَوْن التَّخْلية مُقدَّمةً على التَّحْليَة، وأنَّ دَرْء المفاسِدِ مُقدَّم على جَلْب المَصالح، وأنّه لا يَقوم بِناءٌ على أساسٍ مُتهالِك، فالإزالة ثُمّ البناء.

سِرُّ تَوسُّطِ النَّهْي: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ﴾:

التَّطْفيفُ في الكَيْلِ والميزانِ أبْرَزُ صِفاتِ قَوْمِ شُعَيْبٍ عليه السلام الخَبيثَةِ

وُسِّطَ النَّهْيُ عن نَقْص الكَيل والميزان، بَيْن الأمْر بإصلاح الاعتقاد: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، والنّهْي عن الإفساد في الأرض نَهْيًا عامًّا بقوله: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾؛ لكَوْن التّطْفيف في الكَيل والميزان كان أبْرَز صفاتهم الخَبيثة، وأكثرَها فُشُوًّا، ولكَوْنها طريقًا إلى الإفساد العامِّ، ولذا قال بعدَ ذلك في خاتِمة الآية التّالية: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ ناهيًا نهْيًا عامًّا عن مُطلَق الإفساد في الأرض.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/195.

سِرُّ اخْتيارِ التّعْبيرِ بِالفِعْلِ ﴿وَلَا تَنقُصُواْ﴾:

النَّـهْـيُ عَـنِ النَّقْصِ نَهْيٌ عَمّا فَـوْقَـهُ مِـنْ بابٍ أوْلى

في اختيار التّعبير عن النّهْي بالفِعل ﴿وَلَا تَنقُصُواْ﴾ دون غيْره، دلالة على النّهي عما هو أعلى منْهُ؛ لأنّه إذا نَهى عن كلّ ما يُسَمّى نَقْصًا وإنْ كان قليلًا، فقد نَهى عن البَخْس والغِشّ والتّطْفيف بكامل صورِه.

سرّ التقديم والتأخير، ودلالته في سورتي: هود، والأعْراف:

الـخِـطـابُ في سـورَةِ الأعْـرافِ كـانَ مـوجَّـهًـا لِـلمؤْمنينَ وفي سـورَةِ هـود لِلكافِرينَ

بَدَأ البيانُ الإلهي بالنّهْي عن نَقْص الكَيل والميزانِ هُنا في سورة هود، فقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾، في حينِ كان البَدء بالأمْر بإيفاء الكَيل والميزانِ في سورة الأعْراف؛ إذ قال: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الأعراف: 85]؛ لأنّ الخِطاب في سورة الأعراف كان موجّهًا لِمَن آمَن من قَومه، بدليل قوله في آخر الآية: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٨٥﴾ [الأعراف: 85] وإذا كان الأمر كذلك، فليس بعد حصول الإيمان إلّا العمَل الصّالح، ومن ثَمّ وجّه إليهم الأوامر والتكليفاتِ بالعمل بما شَرَع اللّه، وأمّا في سورة هود، فقد كان الخِطاب لغير المؤمنين، ومن ثَمّ فلمّا دعاهم إلى التّوْحيد نهاهم مع هذه الدّعْوة عن سيِّئِ الطِّباع، وفاسد الخِلال الّتي كانوا مُتخلِّقين بها.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالمكْيالِ:

المـكْـيـالُ (آلَـةُ الـكَـيْـلِ) أهَـمُّ وسائِلِ المُطَفِّفينَ لِـلـوصـولِ إلى غايَتِهِمْ

المكيال هو آلةُ الكَيل، وفي النّهْي عن النّقْص فيه هنا: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾، دليل على أنّهم كانوا يَعْمدون إلى الآلَة نفسها لتُساعدهم على ذلك النّقْص؛ كأنْ يَقْصدوا عند البَيْع إلى مكيال صغير أو بهِ خُروقٌ تُساعد على تَفَلُّت بعضِ المَكيل منه، ونحو ذلك من الحِيَل الّتي لا يَجْهلها أمثالُهم. أمّا في سورة الأعراف، فإنّ الخِطاب لمّا كان موجّهًا إلى المؤمنين ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الأعراف:

85]؛ كان العَبَث بآلَةِ الكَيل غيْرَ مُتصوَّر منهم، ولذا دعاهم إلى إيفاء الكَيل، لِيُبالِغوا في الحِرْص على ألّا يَحدثَ نَقصٌ فيه عن غيْرِ قَصْد.

لَـفْـظُ (الـمـيـزان) يُـسْـتَـخْـدَمُ في الـدّلالَـةِ عَـلى مُطْلَقِ العَدْلِ

نُكْتَةُ الاتِّفاقِ عَلى لَفْظِ الميزانِ في دَعْوةِ شُعَيْبٍ:

الغاية من الاتِّفاق على تَداولِ لَفْظ الميزان في دعْوة شُعيب تَبْدو أماراتُه في كونهم يَظلِمون النّاس ويَبخَسونهم أشياءَهم كَيلًا ووزْنًا، هذا ما نصَّ عليه في دعْوة شُعيبٍ ﵇، ومَن يَظلم النّاس في أمَسِّ ما يَحتاجون إليه وهو الطّعام؛ فإنّه لا يُبالي فيما هو أعظم من ذلك، فيكون من باب التَّنْبيه بالأدْنى على الأعْلى، كما في قَوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: 75] فإن مَن لا يؤتَمَن على الدّينار لا يؤتَمَن على ما هو أكبر منه وهو القِنطارُ.

ولمّا كان لفْظ ﴿وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾ يُصْطفىُ في الدّلالَةِ على مُطلَق العَدْل، من حيْث إنَّ الميزان آلَةُ العَدْل. كما في قَوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الحديد: 25] وقوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧﴾ [الأنبياء: 47]؛ إذ المرادُ بالموازين هُنا العَدْل، لكَوْنه آلَتَه الّتي تُحَقِّقُه[1]. فلمّا كان الأمْرُ كذلك، اتَّفقت الآياتُ على لفْظ ﴿وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾ في دعْوة شُعيب ﵇، لمواجهة الظُّلْم المُسْتَشري في قومه.

فُشُوُّ المَعْصيَةِ مِــنْ دَواعِــي تَـخْـصـيـصِـهـا بِالنَّهْيِ في دَعْوةِ الأَنْبياءِ

سِرُّ اخْتِصاصِ النَّهْيِ بِأمْرِ الكَيْلِ والميزانِ:

السِّرُّ في اختصاص النَّهْي بالكَيل والميزان دون غيْرهما من المفاسد؛ لِفُشُوِّهما في قوْم شُعيب، كما يدلّ على ذلك تَكرار ذِكْرهما في كل مَوْضع تُذْكَر فيه دَعْوتُه ﵇ لقومه، ولأنّ التَّنْبيه عليهما تَنْبيه على ما هو أعلى منهما بِطَريق الأوْلى، كما في قَوله تعالى: ﴿فَلَا

(1) الرّاغب، المفردات: (وزن)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/187.

﴿تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: 23]؛ لأنّ مَن يَغُشُّ النّاس في مُقَوِّمات حياتهم الضَّروريَّة، فإنّه لا يُبالي فيما هو أعلى قيمة ماديّة، وهو لا يَمَسُّ حياتَهم الضَّروريَّة.

دلالَةُ الواوِ في قوله تَعالى: ﴿وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾:

الواو هُنا هي العاطِفَةُ، فقد عَطَفَت ﴿وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾ على ﴿ٱلۡمِكۡيَالَ﴾ للنَّهْي عنهما جميعًا، ليَتَحقَّق بالنّهْي عنهما العَدْل كَمًّا وكَيْفًا "فالكَيل للعَدْل في الكَمّيَّة، والوزْن للعدْل في الكَيْفيّة"[1].

الكَيْلُ لِلعَدْلِ في الكَمّيَّةِ، والوزْنُ لِلعَدْلِ في الكَيْفيَّةِ

دلالَةُ الفَصْلِ في: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾:

قَوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ تَعْليلٌ لِلنّهْي عن نَقْص المِكْيال والميزان[2] وهو مُسوِّغُ الفَصْل.

الجُمْلَةُ تَعْليلٌ لِلنَّهْيِ عَنْ نَقْصِ المِكْيالِ والميزانِ

دلالَةُ تَتابُعِ المؤَكّداتِ في: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾:

دلَّتْ (إنّ) التّوْكيديَّة الدّاخِلة على ضَمير التَّكلُّم على أنّ ما سَيَرِد بَعدها من حُكْم، قد تَحقَّقَه شُعيبٌ ﷺ بنَفْسِه، لا أنّه سَمِعه من غيْرِه، وذلكم مَظِنَّة العدالة، ودقّةِ الحُكْم، وأُكِّدَت الجُملة كذلك بالاسميَّة وإعادة ذِكْر المُسْنَد إليه الفاعل في قَوله: ﴿أَرَىٰكُم﴾، وفي تَتابُع هذه المؤَكِّدات من النَّبيِّ لِقَومه ما يَستَدْعي جَلْبَهم والتَّلطُّفَ بهم.

مِنْ شَرائِطِ العَدْلِ التَّحَقُّقُ مِنَ الحُكْمِ

عِلَّةُ إيثارِ لَفْظِ (أرى):

التَّعبير بالرّؤية هنا دون غيرها في قوله تعالى: ﴿أَرَىٰكُم﴾، تَنزيلًا لها مَنزِلةَ الشّهادة، وهي لا تَتَحقَّق إلّا بالرّؤية، أيْ "أنّها في مَعنى الشّهادة عليْهم بنِعْمَة اللّه عليْهم فَحقّ عليهم شُكْرُها"[3].

تَنْزيلُ الرُّؤْيَةِ مَنْزِلَةَ الشَّهادَةِ

بَلاغَةُ الخِطابِ في: ﴿أَرَىٰكُم﴾:

دلّ التّعبير بالرّؤية في خِطابهم ﴿أَرَىٰكُم﴾، على أنّ كَوْنَهم

كانَ غِنى قَوْمِ شُعَيْبٍ واضِحًا ظاهِرًا لِلجَميعِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/351.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/137، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/351.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/137.

بخَير، أيْ: بغِنى ونِعمةٍ، أمْرٌ واضِح للجميع بحيْث لا يَخْفى على أيِّ أحَد، وليس أمْرًا مَسْتورًا كحال مَن يُخْفي ما عنده من الخَير[1].

دلالَةُ الباءِ في: ﴿بِخَيۡرٍ﴾:

التَّلَبُّسُ بِالنَّعيم مَظِنَّةُ الوفاءِ

الباء في قوله: بخير لِلمُلابَسَة. أيْ: أراكم مُلْتَبِسينَ بخَير من اللّه ورِزْق تَنْعمون فيه؛ فأدُّوا شُكْرَه. اعْترافًا بالفَضْل، وتمثُّلًا لخَلَّةِ الوفاء.

سِرُّ التَّعْبيرِ بـ (خير):

شَــأْنُ إسْـبـاغِ النِّعَمِ أنْ تُقابَلَ بـالـشُّـكْـرانِ لا النُّكْرانِ

لفْظ ﴿بِخَيۡرٍ﴾ هُنا مراد به المال، وخَصَّه بعضُهم بالمال الكثير طَيِّبِ المكان والمَصدر[2]. وقد عبّرَ عن المال بالخَير في بعض آيات القرآن، منها التّعبير بالخَير في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا﴾ [البقرة: 180]، وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات: 8] فالُمراد بالخَير في الآيَتَين المالُ. وعبِّر عن المال بالخَير؛ لكَوْنه نِعمة من اللّه، ومن شأن النّعَم أنْ تُقابَل بالشُّكْر، وهذا سِرُّ التّعبير عن المال هُنا بالخَير، لِيَسْتشعروا نعمة اللّه عليهم، فيُقابِلوها بالشُّكر، بَدَلَ النُّكران الّذي يؤدّي إلى الخسران.

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾:

ارْتِـــقـــاءٌ في تَـعْـليلِ النَّـهْـي عَـنِ النَّقْصِ في المِكْيالِ والميزانِ

الواو هُنا عاطِفَةٌ؛ إذ عَطَفَت هذه الجُمْلة على جمْلة: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٍ﴾ وهو ارْتِقاء في تعليل[3] نَهْيهم عن النّقْص في المكيال والميزان، أيْ لا تفعلوا ذلك لأنّي ﴿أَرَىٰكُم بِخَيۡرٍ﴾ ولأنّي ﴿أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾.

دلالَةُ تَتابُعِ المؤَكِّداتِ في: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ﴾:

تَـأْكـيـدُ خَـوْفِـهِ عَلَيهِمْ إثْرَ تأْكيدِ حَثِّهِمْ عَلى شُكْرِ النِّعْمَةِ

التّأكيد هُنا مَعْطوفٌ على التّأكيد السّابق، وفي إعادته دلالةٌ على

(1) السّامرّائيّ، على طريق التّفسير البيانيّ: 4/318.

(2) الرّاغب، المفردات: (خير).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/137.

اسْتقلاليَّته عن سابقه، ولذا لَم يَقُل: (وأخاف) وإنّما أكَّده بـ (إنّ) وبالجملة الاسميّة وبإعادة ذِكْر المُسْنَد إليه؛ لِيظْهرَ لهم مدى خوْفِه عليهم وحِرْصه على نَجاتهم من الفقْر والنّقْص في الدّنيا ومن العذاب الشّديد في الآخرَة[1].

دلالَةُ ياءِ المُتَكَلِّم في: ﴿وَإِنِّيٓ﴾:

تدُلّ ياء المُتكلِّم هُنا على كَوْنه ﷺ شديدَ الاهتمام بهم، كثيرَ الحِرْص عليهم والشّفقةِ بهم، بدافِعٍ من ذاته فضلًا عن كَوْنه مُرسلًا إليهم؛ لأنّهم قومُه وأنّه واحدٌ منهم.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالفِعْلِ ﴿أَخَافُ﴾:

التَّعْبيرُ بالخَوْفِ أنْسَبُ لِأنَّ الخَشْيَةَ إنَّما تَليقُ بِاللهِ وحْدَهُ

وآثَر التّعبير بالخوْف دون الخشْيَة في قَوله: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾؛ لأنّ التّعبير بالخشْية لا يَكون إلّا مَصْحوبًا بتعظيم المَخْشيِّ، وهذا لا يَليق إلّا باللّه ﷻ، من ثَمَّ اعتادَ القرآن على إطلاقِهِ إذا كان الأمْرُ مُتعلِّقًا بربِّ العزَّة والجلال، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ [الرعد: 21] وقولِه: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28].

دلالَةُ تَقْديم الجارِّ والمَجْرورِ ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾:

تَقْديمُ الجارِّ والمَجْرورِ للاهْتِمامِ

دلّ تقديم الجارّ والمَجرور ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ على قَوله: ﴿عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ على إظهار الاهتمام بهم بالخَوْف عليهم من هَوْلِ ﴿عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ بهم من كلِّ جِهَةٍ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالعَذابِ دونَ العِقابِ:

العَذابُ يَدُلُّ عَلى إيصالِ الإيلامِ بالمُعَذَّبِ

عبَّر بالعذاب دون العِقاب؛ لتأكيد وُقوع الألَم بهم، إذ ليس كلُّ ما يَكون عِقابًا يَكون عَذابًا، فالعِقاب عبارَةٌ عمّا يَسْتَحقُّهُ عَقِيبَ فِعْلِه[2] فقد يُعاقَبُ المَرْءُ بعَدَم بُلوغ مراتب الكمال الّتي يطْمَحُ إليها، وليس

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/352.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 239.

في هذا عذاب، أمّا العذاب فإنّما يَكون بإيصال الألَم إلى المُعذَّب، فهو يَعني "الإيجاع الشَّديدَ"[1].

دلالَةُ التَّنْكيرِ في ﴿عَذَابٌ﴾:

التَّنْكيرُ لِلتَّفْخيم والتَّهْويلِ

دلّ التّنكيرُ في قولِه: ﴿عَذَابٌ﴾ على تَفخيمه وتهْويلِه، فهو عذابٌ أكْبر من أنْ يُعَرّف لِما يُصاحبُه من أهْوال.

بَلاغَةُ الإجْمالِ في: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾:

الإجْمالُ سَبَبُهُ الاخْتِلافُ في تَعْيينِ المَوْصوفِ

يَظْهر الإجْمال في التّعبير بوصْف ﴿مُّحِيطٍ﴾ من حيْث كَوْنه وصْفًا لـ﴿يَوْمٍ﴾ وهو الأظْهر، أو وصْفًا لعذاب على رَأْيِ مَن يَرى أنَّ الجرَّ فيه للجِوارِ أو على مَعنى ﴿مُّحِيطٍ﴾ عذابُه[2] ومن هذا الإجمال تَتولَّد المعاني الكثيرة.

كما يَظْهر الإجْمال أيضًا في كَون هذا اليوم المُحيط يحْتَملُ أنْ يَكون في الدّنيا، أي: بعذاب الاستِئصال، ويحْتَملُ أنْ يَكون في الآخرَة، "فَلِصُلوحِيَّتِهِ لِلأمْرَيْن أجْمَلَه بقوله: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾"[3].

لكنّ الأرْجَح أنّه وصف لـ ﴿يَوْمٍ﴾ وفي الكشّاف: "فإن قلتَ: وصْفُ العذاب بالإحاطة أبْلَغُ، أمْ وصْف اليوم بها؟ قلتُ: بَل وصْفُ اليوم بها؛ لأنّ اليومَ زمانٌ يَشْتمل على الحوادث، فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للمُعذَّب ما اشْتملَ عليه منه، كما إذا أحاطَ بنَعيمه"[4].

سِرُّ التَّعْبيرِ بـ: ﴿يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾:

التَّخْويفُ والرَّدْعُ سَبَبُ إيثارِ هذا التَّعْبيرِ

عبَّر بقولِه تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ دون يوم القيامة؛ لأنّ وصْف الإحاطة هُنا مَقْصودٌ، لزيادة التّخويف والرّدْع، وقد لا يَدلّ التّعبير بـ (يوم القيامة) على مَعنى الإحاطةِ.

(1) الرّاغب، المفردات: (عذب).
(2) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/371.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/137.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/417.

بَلاغَةُ المَجازِ في: ﴿مُّحِيطٖ﴾:

إحاطَةُ العَذابِ تَجْمَعُ لِلمُعَذَّبِ ما اشْتَمَلَ عَلَيْهِ اليَوْمُ مِنَ الحَوادِثِ

في قولِه: ﴿عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ محيط مَجاز عَقْليٌّ، حيْث أَسْنَدَ الوصْف ﴿مُّحِيطٖ﴾ إلى ﴿يَوۡمٖ﴾ أيْ: محيط العذاب في هذا اليوم، والقَرينة هي إضافة العذاب إليه[1] وقد مَضى ما في وصْفِ اليَوْم بالمُحيط من بَلاغة في كلام صاحِبِ الكَشّاف.

مُتَشابِه النَّظْم في هذا المَشْهَدِ:

بَيْن قولِه تعالى في سورَة هود: ﴿۞وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾ الآية، وقولِه تعالى في سورَة العَنْكبوت: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٣٦﴾ [العنكبوت: 36].

أوَّلًا: الاتِّفاقُ في التَّعْبيرِ بَيْنَ السّورَتَيْنِ:

اتَّفَقت السّورَتان في مُسْتَهلِّ الآية؛ فكِلاهما ابْتُدِئَتا بقوله سبحانه: ﴿۞وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ﴾ عَقِب قصَّة لوط عليه السلام في كِلْتَيْهما لِتَقارُب الزَّمَن بَيْنَهما[2].

ثانيًا: الاخْتِلافُ في التَّعْبيرِ بَيْنَ السّورَتَيْنِ:

سِرُّ إلْحاق الفاء بـ (قال) في آية العنكبوت دون آية هود؛ إذ قال في هود: ﴿۞وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾، وقال في العنكبوت: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [العنكبوت: 36].

وسَبَب إدْخال الفاء في آية العنكبوت هو أنَّه لمّا كان مَقْصودُ السورَة الأمْرَ بالمَعْروف والنَّهْي عن المُنْكر من غيْر فَتْرة، عبّر بالفاء هكذا: ﴿فَقَالَ﴾ [العنكبوت: 36] أيْ فَتَسَبب عن إرسالِه وتَعَقَّبَه أنْ قال:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/137.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/350.

﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [العنكبوت: 36](1) وأمّا سورَة هود فلمّا كان مَقْصودُها الأَعْظم "وصْفَ الكتابِ بالإحْكام والتّفْصيل، في حالَتَي البِشارَة والنَّذارة المُقْتَضي لِوضْع كلّ شَيْءٍ في أتَمّ مَحالِّه"(2) فقد اسْتَوْفت الآياتُ هذا المَقْصد دونَما زيادَةٍ.

وفائدة زيادة ﴿وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ [العنكبوت: 36] في سورة العنكبوت أنّه لَمّا كان السّياق لإقامَةِ الأدلَّةِ على البَعْث الّذي هو من مَقاصد السّورَة قال: ﴿وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ [العنكبوت: 36] أيْ حُسْن الجَزاء فيه لِتَفْعلوا ما يَليقُ بذلك(3).

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخَشْيَةُ والخَوْفُ:

الخَشيَةُ إنَّما تَكونُ مِنْ عِظَمِ المَخْشيِّ منه، والخَوْفُ يَكونُ مِنْ ضَعْفِ الخائِفِ

لا شكَّ أنّ بَيْن الكلمتَيْن تَقارُبًا دلاليًّا فَهُما من باب واحِدٍ، ومن شدَّة التّقارُب بَيْنهما ظُنَّ أنَّ بَيْنهما تَرادُفًا، وقد فُرِّق بَيْنهما بما يَلي:

قيلَ: إنّ الخشْية أعلى من الخوْفِ وهيَ أشدُّ أحوال الخوف، فإنّها مَأخوذة من قولهم: شجرة خشَيَّةٌ، أيْ يابِسة، وهو فَوات بالكلّيَّة، والخوْف من قولهم: ناقة خَوْفاءُ، أيْ بها داءٌ، وهو نقْص وليس بفَواتٍ، ولذلك خُصَّت الخشْيَةُ باللّه في قوله تعالى: ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ [الرعد: 21].

وفُرِّق بيْنهما أيضًا بأنّ الخشْية تَكون من عِظَم المُخْتَشَى، وإنْ كان الخاشي قويًّا، والخوف يَكون من ضَعْف الخائف، وإنْ كان المَخوفُ أمْرًا يَسيرًا(4).

ويدلّ لذلك أنّ الخاء والشّين والياء في تَقاليبِها تدُلّ على العظَمَة،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/436.
(2) البقاعيّ، مصاعد النّظر: 2/175.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/436.
(4) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 428.

نَحْو: شَيْخ، للسّيّد الكبير، وخيش لِما غَلظ من اللّباس ولِذا ورَدَت الخشْية غالبًا في حقِّ اللّه تعالى نحْو قوله تعالى: ﴿مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: 74] وقولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28].

قال السّيوطيّ: وأمّا قوله تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ٢١﴾ [الرعد: 21] ففيه نُكْتة لَطيفةٌ، فإنّه في وصْف الملائكة، ولمّا ذَكَر قوَّتهم وشدَّةَ خَلْقِهم عبّرَ عنهم بالخوْف، لِبَيان أنّهم وإنْ كانوا غِلاظًا شِدادًا، فهُم بَيْن يَديْه تعالى ضُعفاء، ثُمّ أرْدَفه بالفَوْقيَّة الدّالَّة على العظَمَة، فجَمَع بيْن الأمْرَيْن، ولمّا كان ضَعْف البَشَرِ مَعلومًا، لَم يحْتَجْ إلى التّنْبيهِ عليه[1].

العَذابُ والعِقابُ:

كُلُّ عِقابٍ عَذابٌ، ولَيْسَ كُلُّ عَذابٍ عِقابًا

يُفرَّق بيْن العِقاب والعذاب، بأنَّ العِقاب يُنبِئُ عَن اسْتِحْقاقٍ، وسُمّيَ بذلك؛ لِأنّ الفاعِل يسْتَحقّهُ عَقيبَ فِعْله، أمّا العذاب فيَجوز أنْ يَكون مُسْتَحقًّا وغيْر مُستَحَقّ[2].

ومَعنى هذا أنّ بيْن العِقاب والعذاب - من حيْث اللُّغَةُ - عُمومًا وخصوصًا مُطْلَقا، فكُلّ عِقاب عذابٌ، وليس كلّ عذابٍ عِقابًا.

أمّا عن عذاب اللّه في الآخِرَة، فلا فَرْقَ بيْنه وبيْن العِقاب؛ لأنّ اللّه تعالى لا يُعذِّب إلّا عن اسْتِحقاقٍ.

(1) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن، 2/363.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 239.

﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٨٥﴾ [هود: 85]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مِنْ ضُروبِ التَّأْكيدِ الأمْرُ بِالشَّيْءِ بَعْدَ النَّهْيِ عَنْ ضِدِّهِ

إنّه لمّا قال سبحانه حكايةً عن كلام شُعيب عليه السلام في دَعْوته لقوْمه: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾ وكان عدَمُ النّقص قد يُفهَم منه التّقريب، أتْبَعَه بما يَنْفي هذا الاحْتِمال، وللتَّنْبيه على أنّه لا يَكْفي الكفُّ عن تَعَمُّد التّطْفيف، بلْ يَلْزَم السّعْيُ في الإيفاء ولَو بزيادةٍ لا يتَأتّى بدونِها، وأيضًا لأنّ التّصريح بالأمْرِ بالشَّيْء بَعد النّهْي عن ضدِّه أوْكَدُ، قال مُسْتَعطفًا لهُم بالتَّذكير بأنّه منهم يَسوؤه ما يَسوؤهُم، وبأنّهم لِما أعطاهُم اللّه من القوَّة جَديرونَ بأنْ يُعرِضوا عن تَعاطي سَفْسافِ الأخْلاقِ ورَذائِلها: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿أَوۡفُواْ﴾: أصْلُ (وفى): كلِمَةٌ تَدُلُّ على إكمالٍ وإتْمام، منه الوفاءُ: إتْمامُ العَهْدِ وإكمالُ الشَّرْط، ووفَى: أوْفَى، فهو وفيٌّ. ويقولونَ: أوْفَيْتُك الشَّيءَ، إذا قَضَيتَهُ إيّاهُ وافيًا. وتَوفَّيتُ الشَّيءَ واسْتَوفَيْتُهُ؛ إذا أخَذْتَه كُلَّهُ حتّى لَم تَتْرُكْ منه شيئًا. ومنه يُقالُ للمَيِّت: توَفّاهُ اللّهُ[2]. والمرادُ مِنَ التَّوْفِيَةِ في الآية: جَعْلُ الشَّيءِ وافِيًا، أي: تامًّا لا نَقيصَةَ فيه ولا غَبْنَ.

2) ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾: أصْلُ (قسط): يَدُلُّ على مَعْنَيَيْنِ مُتَضادَّيْنِ والبِناءُ واحِدٌ، فالقِسْطُ: العَدْلُ، يُقالُ: أقْسَطَ - بزيادة همزة الإزالة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/353.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفى).

في أوَّلِه - الرَّجُلُ يُقْسِطُ فهو مُقسِطٌ، أي: عَدَلَ[1]. وأما القَسْطُ - بفَتْحِ القافِ - فهو: الجَورُ والظُّلْمُ، وقَسَطَ إذا جارَ وظَلَمَ فهو قاسِطٌ، والقُسوطُ: العُدولُ عَنِ الحَقِّ. يُقالُ قَسَطَ، إذا جارَ، يَقْسِطُ قَسْطًا[2]. ويأْتِي القِسْطُ بمعْنَى: الحِصَّةِ والنَّصيبِ، وجَمْعُهُ: أقْساطٌ، تَقولُ: تَقَسَّطُوا الشَّيْءَ بَيْنَهُم، أي: تَقاسَموهُ[3] والقِسْطاسُ: الميزانُ[4]، والقُسوطُ: المَيْلُ عن الحَقِّ[5]. والمقصودُ بالقِسْطِ في الآيةِ: العَدْلُ، وهو التَّسْوِيَةُ بيْنَ شَيئَيْنِ في صِفَةٍ، والجَزاءُ بما يُساوي المُجْزَى عليه[6].

3) ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ﴾: البَخْسُ: مَصْدَرُ بَخَسَ، ومَعْناهُ: نَقْصُ الشَّيءِ على سَبيلِ الظُّلْمِ، يُقالُ: بَخَسَ الكَيْلَ والميزانَ، يَبْخَسُهُ، بَخْسًا، إذا: نَقَصَهُ. وثَمَنٌ بَخْسٌ، أي: ناقِصٌ.

قال أبو بكرِ ابن العَرَبيِّ: "البَخْسُ في لسانِ العَربِ هو النَّقْصُ بالتَّعييبِ والتَّزْهيدِ أو المخادَعةُ عَنِ القيمَةِ أو الاحتيالُ في التَّزَيُّدِ في الكَيْلِ والنُّقصانِ منه"[7]. والبَخْسُ والباخِسُ: الشَّيءُ الطَّفيفُ النّاقِصُ[8]. ومن معانيه: المَكْسُ، والأرضُ تَنْبُتُ من غيرِ سَقْيٍ[9]. والجَمْعُ: بُخوسٌ. والمقصودُ بالبَخْسِ بالبَخْسِ في الآيةِ: إنْقاصُ شيءٍ من صفةٍ أو مقدارٍ هو حَقيقٌ بكمالٍ في نَوعِه[10].

4) ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾: العَيْثُ: مصدرُ عاثَ يَعيثُ عَيْثًا وعُيوثًا وعَيَثانًا: أفْسَدَ وأخَذ بغيرِ رِفْقٍ، والعَيْثُ أيضًا: الإسراعُ في الفَسادِ[11]، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٦٠﴾ [البقرة: 60]، والأعْثَى: لونٌ إلى السَّوادِ، وقيلَ للأحمَقِ الثَّقيلِ: أعْثَى[12]. والمراد بالعُثُوِّ في الآية: أشدُّ أنواعِ الفَسادِ[13].

(1) الخليل، العين، وابن الأنباريّ، الأضداد، ص: 58، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(2) ابن الأنباريّ، الأضداد، ص: 58، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(5) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/92.
(7) ابن العربيّ، أحكام القرآن: 2/318.
(8) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (بخس).
(9) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (بخس).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8ب/242.
(11) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عيث).
(12) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (عثى).
(13) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/276.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

عاقِبَةُ تَطْفيفِ الكَيْلِ والميزانِ وخيمَةٌ ومُنْذِرَةٌ بِعِقابٍ أليمٍ

يقولُ الحقُّ ﷻ حكايةً عن شُعيب عليه السلام: ويا قوم أتمُّوا للنّاسِ حُقوقَهم في الكَيلِ والوزنِ لهم بالعَدلِ، من غيرِ نَقص، ولا تنْقصوا النّاس من حقوقهم شيئًا بالتَّطفيف والغِشِّ والخِداع، ولا تَسيروا في الأرض بمَعْصيةِ اللّهِ، والإضرارِ بالخَلقِ وغيْرِه من المَعاصي[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلّةُ الأمْرِ بالإيفاءِ بَعْدَ النَّهْيِ عَن النقص:

تَكْرارُ الكَلامِ عَنِ الشَّيْءِ الواحِدِ بِأُسْلوبَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ دَليلٌ عَلى الاهْتِمامِ بِالمَطْلوبِ وتَأْكيدِهِ

ممّا يلْفِتُ النّظر ويَسْترعيه هُنا، هو قولُه تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾، وقد قال لهم سَلَفًا ناهيًا: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾، وعلّة هذا أنّ تَكرار الكلام عن الشّيء الواحد بأُسْلوبين مختلفَين كالنَّهي عنه ثُمّ الأمْرِ بضِدِّه، دليلٌ على الاهتمام بالمطلوب أمْرًا أو نهيًا؛ تَرْغيبًا في الوفاء بحقِّه وترْهيبًا من التّهاون بشَأْنه، ويَكون الثّاني منهما مؤكِّدًا للأوَّل، "والشّيءُ يؤكَّد بنَفْي ضدِّه، كقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾ [طه: 79]"[2].

قال الزّمخشريّ سائلًا ومُجيبًا: فإن قلْت: النَّهْيُ عن النُّقصان أمْرٌ بالإيفاء، فما فائدة قوله: ﴿أَوۡفُواْ﴾؟

قلْت: نهوا أولًا عن عَيْن القبيح الّذي كانوا عليه من نقْص المِكْيال والميزان؛ لأنّ في التّصريح بالقبيح نَعيًا على المَنْهيِّ وتَعْييرًا له، ثُمّ ورَد الأمْرُ بالإيفاء الّذي هو حَسَنٌ في العقول مُصرَّحًا بلَفْظه، لِزيادة ترغيبٍ فيه وبَعْثٍ عليه[3] ولبيان أنّ المراد بالنَّهْي عن النّقْص ليس فقط التّقريب، بل السَّعْي في الإيفاء ولَو بزيادةٍ لا يتأتّى بِدونِها[4].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/540، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/86، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 387.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/137، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/196.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/417.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/352.

دلالَةُ الأمْرِ في: ﴿أَوۡفُواْ﴾:

الأمْر هُنا دالٌّ على وجوب الإيفاء، فهو ليس أمْرًا مندوبًا إليه، بل واجب يتَحتَّم القيام به على وجْهٍ يُحقِّق - في قَدْرِه الواجب - القِسْط والعَدلَ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالوفاءِ:

كَلِمَةُ (وفاء) جامعَةٌ لِمَعْنَيَي الإتْمام والإكْمالِ

كلمة وفاء وإنْ كانت تدلّ "عَلَى إكْمالٍ وإتْمام"[1] كما تَقول اللُّغة، غيْر أنَّها هُنا هي مَطْلَبُ ما لا يتَأتّى المَقامُ دونَهُ؛ لأنّه نَهَى سلَفًا عن النَقْص في المكْيال والميزان، وذلك ضرْب من خيانة الأمانة، فالخيانة "نُقْصانُ الوفاءِ"[2] وإذا كان هذا مَعناها أو جُزءا منه، فلا يُناسِب هُنا إلّا الأمْر بالإيفاء وليس غيْرَهُ.

ولذا نَرى القرآنَ الكريم يؤْثِره في مواضِعَ مُشابِهَةٍ، كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة: 1] وقولِه: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ﴾ [الإسراء: 34] لِما في عدم الوفاء فيهما من مَعنى الخيانة.

دلالَةُ لَفْظِ القِسْطِ:

إيـفـاءُ الـكَـيْـلِ والـوزْنِ يَتَحقَّقُ بِـالـعَـدْلِ، والزِّيادَةُ فَضْلٌ

جيءَ بالأمْرِ بإيفاء المكْيال والميزانِ، مُقيَّدًا بالقِسْط في قوله: ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾، أيْ: لِيَكن الإيفاء على وجْه العدْل والتَّسْويَة، من غيْر زيادة ولا نُقصانٍ، أمْرًا بما هو الواجب؛ لأنّ ما جاوز العدْل فضْلٌ وأمْرٌ مَندوب إليه، وفيه تَوقيفٌ على أنّ الموفِّي عليه أنْ يَنْويَ الوفاء بالقِسْط، لأنّ الإيفاء وجْهُ حُسْنِه أنّه قِسْط وعَدلٌ، فهذه ثلاث فوائدَ[3].

سِرُّ التَّعْبيرِ بالقِسْطِ:

الـقِـسْـطُ مِـنْ أسْـماءِ المـيـزانِ وهـو أخَــصُّ في الـدّلالَـةِ عَـلى العَدْلِ الظّاهِرِ

بيْنَ القِسط والعَدل تقارُب دلاليٌّ شديد، ومعاجم اللُّغة تُعرِّف

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خون).
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/417.

كلًّا منهما بالآخَر، غيْر أنّ لفْظ القِسط هُنا أنْسَب؛ لأنّه يُطلق على الميزان من حيْث إنّه "يُصوِّر لَك العدْل في الوزْن حَتّى تَراهُ ظاهرًا"[1]، وقد قال تعالى: ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ١٨٢﴾ [الشعراء: 182] والقِسْطاس هو الميزانُ؛ لأنّه آلَةٌ للعَدل[2] وقال: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ٩﴾ [الرحمن: 9] وهكذا دائمًا في كلِّ الآيات المُعبَّر فيها بالوزن، فإنّه يظْهرُ التّلازم بَيْنه وبيْن القِسط، ولَم يذْكرْ أبدًا العَدل بديلًا عن القِسط.

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ﴾:

الواو عاطِفَة لِجُملة: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ﴾ على جُملة: ﴿أَوْفُواْ﴾ وكِلْتاهُما إنشائيَّتان طَلَبيَّتان، الأولى بالأمْرِ والثّانية بالنّهْي، والجَمع بيْن الإيفاء وعدَم البَخْس إحاطةٌ بصورِ العدل، وصِدْق المعاملة، وتَجنُّب الظُّلْم.

سِرُّ اخْتيارِ التَّعْبيرِ بِالبَخْسِ:

البَخْسُ مَخْصوصٌ بالنَّقْص لِأجْلِ الظُّلْم

آثَرَ التّعبير بالبَخْس في قوله تَعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ﴾ دون غيْره كالنّقْص مثلًا؛ لأنّه أدلّ على المَقصود وهو النّهْي عن النّقْص حالَ كَوْنه ظُلْمًا وهَضْمًا لِلحُقوق، وهو مَعنى البَخْسِ[3]، وليس المراد النّهْيَ عن مُطلَق النّقْص، فإنّه قد لا يَكون على سبيل الظّلْم.

دلالَةُ النَّهْيِ في: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ﴾:

التَّرَقّي في الطَّلَبِ والنَّهْيِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ﴾ بَعد الأمْرِ بإيفاء الكَيل والميزانِ من باب التَّرقّي في الطّلَب، فبَعد أنْ نهاهُم نهيًا خاصًّا عن النّقْص في الكَيل والوزن لِمَن يَتَعاملون معهم بهما، نهاهُم هُنا نهيًا عامًّا عن جميع النّاس وعن ظُلْمهم وهَضْمهم حقَّهم في كلِّ الأشياء سَواء كانت ممّا تُكالُ وتوزَن أوْ غيْر ذلك[4].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 234.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/187.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/417، والرّاغب، المفردات: (بخس).
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/196.

وسَواء كان البَخْس من جِهَة البائع بالبخْس عن طَريق الكَيل والوزن أو الغِشِّ والخِداع ونَحْوه، أو كان من جِهَة المُشْتري بأنْ يَهْضم البائعَ حقَّه ولا يَقدُر بضاعَتَه قَدْرَها، فبما أنّ الكلام في سياق البَيع والشّراء، فإنّ دخولَه في هذا العُموم يَكون من باب أَوْلى.

دلالَةُ تَعَدّي الفِعْلِ ﴿تَبۡخَسُواْ﴾ إلى مفعولين:

الفِعل ﴿تَبۡخَسُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ مُتَعَدٍّ إلى مَفْعولَيْن حيْث عمل فيهما النَّصْب: الأوّل هو لفْظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ والثّاني هو الأشْياء في ﴿أَشۡيَآءَهُمۡ﴾. وتَعْديَتُه إلى مَفْعولَيْن باعتباره ضِدَّ (أعطى) فهو من باب (كسا)[1]، أيْ: من حيْث إنّ (كسا) تَنْصِب مَفْعولَيْن، ليس أصْلهُما المُبتدَأ والخَبَر، على عكس (ظنّ) التي تنصب مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

دلّ لفْظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ هُنا على العُموم، فإنّه بَعد أنْ نَهاهُم نهيًا خاصًّا عن نقْص المِكْيال والميزان عَمَّن يَتَعاملون معهم بهما؛ فإنّه قد نهاهُم هُنا نهيًا عامًّا عن بخْس كلِّ النّاس ما بيْن أيديهم من جميع الأشياء، سَواء كانت ممّا تُكالُ وتوزَن أَوْ غيْر ذلك[2].

سِرُّ التَّعْبيرِ بـ ﴿أَشۡيَآءَهُمۡ﴾:

التَّعْبيرُ بِلَفْظِ (أشياء) للدّلالَةِ عَلى العُموم

أشْياء جَمْعُ شَيْءٍ، والشّيء هو ما صحَّ أنْ يُعْلَمَ ويُخْبَر عنه[3]، فصيغَة اللَّفظ نفسُها دالّة على العموم، من حيْث كَوْنُها تُطلَق على كلِّ ما هو خاضِع لِلعِلْم والإخْبارِ عنهُ.

دلالَةُ الإضافَةِ في: ﴿أَشۡيَآءَهُمۡ﴾:

دلالَـةُ الإضافَةِ عَلى إبْرازِ المُلْكيَّةِ لِلمَظْلومينَ لِلتَّشْهيرِ بِظالِميهِمْ

دلّت الإضافَةُ في قولِه تعالى: ﴿أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ على الملكيَّة والحقِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/138.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/196.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 1/87.

لِلمَهْضومين المظلومين، فهي بمَعنى اللّام، أيْ: الأشياء الّتي تَكون لهم، أيْ: لِلنّاس ومن حقِّهم، فلا تَبْخسوهم فيها، والقَصْد التَّشهيرُ بالظّالِمين إذ لا حقَّ لهم فيما يَمْلكه الآخَرون.

فَنُّ التَّكْرارِ:

قابَلَ الإضْرارَ عَلى الذَّنْبِ المُبالَغةُ في التَّأكيدِ

وقَع التَّكرار في قولِه تعالى ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾. "من ثلاثة أوْجُه؛ لأنَّه قال: ولا تنْقصوا المكْيال والميزان، وهذا عَيْنُ الأوَّلِ، وليس فيهِ إلّا التّعبير بتَبْخسوا النّاس أشياءَهم. والفائدة فيه، أنَّ القَوْم لمّا كانوا مُصِرّينَ على ذلك العَمل القبيحِ احْتيجَ في المَنْع منه إلى المُبالَغَة في التّأكيد، والتّكريرُ يُفيد شدَّة الاهتمام بالشّيء وقد نُهوا أوَّلًا عن القبيح الّذي كانوا عليه من نقْص المكْيال والميزان، ثُمّ ورَدَ الأمْر بالإيفاء مُصَرَّحًا بِلفْظه، لِيَكون أهْيَجَ عليه وأدْعى إلى التّرغيب فيه"[1].

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾:

في العَطْفِ جَمْعٌ لِلنَّهْيِ الخاصِّ بِالعامِّ

الواو هُنا عاطِفَة، عَطَفَت جملة: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على جملة: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ﴾. لِيَجمع النَّهْيَيْن: الخاصَّ بِعَدم إيفاء الكَيل، والعامَّ بالإفسادِ في الأرض.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِ: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾:

العُثُوّ يَعْني الفَسادَ الكَبيرَ الشَّديدَ

العُثُوُّ يَعني كَثْرَةَ الفسادِ[2] وأشدَّه[3] وفي نَهْيهم عن الإفساد في الأرض بهذا التّعبير دلالةٌ على أنَّهم كانوا يُمارِسون أعْتى ألْوان الفساد وأشدَّه.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بالظَّرْفيّةِ ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

دلّت الظَّرْفيَّة المُسْتفادةُ من حرْفِ ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا

(1) صافي، الجدول: 12/333.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 213.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/520.

﴿تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ على تَمَكُّنهم من الفساد في الأرض، تَمكُّنَ الظَّرْف من المَظْروفِ واحْتواءَه.

دلالَةُ (أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

(أل) في (الأرْضِ) لِلْعَهْدِ لا لِاسْتِغْراقِ الجِنْسِ

(أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ هيَ العَهْديَّة، أيْ: في الأرض الّتي يَعيشون فَوْقَها، فلا يُتَصوَّر أنْ تَكون الجِنْسيَّةَ الاسْتغراقيَّة، وهي مثْل (أل) في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [يوسف: 55] وقولِه: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [القصص: 4] فالمراد بالأرض في الآيَتَيْن مصْرُ، لا غَيْرها.

فائدَةُ التَّعْبيرِ بـ: ﴿مُفۡسِدِينَ﴾:

إخْراجُ ما ظاهِرُهُ الفَسادُ وجَوْهَرُهُ الإصْلاحُ مِنْ عُمومِ النَّهْي

فائدة النَّصِّ على قوله: ﴿مُفۡسِدِينَ﴾ مع سبْق الدّلالة عليه بالنَّهْي عن العُثُوِّ في قوله: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾ إخراجُ ما يُقصَد به الإصلاحُ ممّا ظاهِرُه الفسادُ، كما فَعَلَ الخَضِر ﷺ من: قَتْلِ الغُلام، وخَرْقِ السَّفينة. ومِثْلُه ما يُدفَع به أخَفُّ الضَّرَرَيْن[1]؛ أو ما يَكون ممّا ظاهِرُه الإفسادُ وهو في الواقِع لا بُدّ منه لِتحْقيق مَصلحة عامَّة، كتَوسيع طريق عامٍّ على حِساب بَعض الأراضي الخاصَّة لِبعض الأفْراد، حيْث لا سبيل إلى تحقيق ذلك إلّا بهذا العَمل، فإنّه في الظاهر فسادٌ لكنّه في الواقِع إصلاحٌ.

وقيل: فائدَتُه تَعليلُ النّهْي، كأنّه قيل: لا تُفسِدوا في الأرض فإنّه مُفسِد لِدينِكم وآخرَتِكم[2].

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالاسْميَّةِ ﴿مُفۡسِدِينَ﴾:

التَّعْبيرُ بِالاسْمِ آكَدُ وأثْبَتُ مِنَ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ

عبَّر بالاسْميَّة ﴿مُفۡسِدِينَ﴾ دون الفِعليَّة (ولا تفسدوا)؛ لأنّ التّعبير به آكَدُ، فهو يدلّ على الثُّبوت، لا على مُجرَّد وُقوع الحَدَث في زَمَن، ولأنّ العُثُوَّ هو الفسادُ الكَثير والشَّديد، فإنّه لا يَقوم به إلّا

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/117.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/312.

مُفْسِد دَأبَ على الفساد وليس مَن وقَع منه الفسادُ مَرّةً أو مَرّتَيْن ثُمّ ولَّى.

بَلاغَةُ التَّرَقّي في النَّهْي:

التَّرَقّي بَلاغَةٌ في الخِطابِ وأُسْلوبُ نَجاحٍ في الدَّعْوَة

إنّ من سُنَن النَّجاح في الدّعْوة التَّرقّي فيها من القليل إلى الكثير، ومن الأدنى إلى الأعلى، ومن العامّ إلى الأعَمِّ... وهَلُمَّ جَرًّا. وهذا ما سَلَكَه نَبيُّ الله شُعيب عليه السلام كما تَدلُّنا عليه الآياتُ مَحلّ الدّراسة والتّفسير، وتفصيل ذلك أنَّه:

أوَّلًا: نهاهُم عن القبيح الّذي كانوا يَتَعاطونه، وهو نقْص المكيال والميزان، فقال: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾ وفي التّصْريح بالنّهْي نَعْيٌ على المَنْهيِّ وتَعْييرٌ له.

وثانيًا: ثُمّ ارْتَقى في الخِطاب فأمرهم بإيفائِهما مُصرّحًا بلَفْظِهما، ترْغيبًا في الإيفاء، وبَعْثًا عليه، فقال: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾، وجيءَ بالقسْط لِيَكون الإيفاءُ على جِهَة العدل والتَّسْويَة وهو الواجب؛ لأنّ ما جاوزَ العدل فَضْل وأمْرٌ مَنْدوب إليه، وليس من الواجب المأمورِ به، إلّا إذا كانت زيادةً طَفيفَة لا يَتَحقَّق العدل إلّا بها.

ثالِثًا: ثُمّ ارْتَقى مَرَّةً أُخْرى من النَّهْي الخاصِّ عن النقْص في المكيال والميزان، إلى النّهْي العامِّ عن نقْص النّاس أشياءَهم، فقال: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ وهو عامٌّ في النّاس، وفيما بأيْديهم من الأشياء سَواء كانت ممّا تُكالُ وتوزَنُ، أو غيْر ذلك.

رابِعًا: ثُمّ ارْتَقى ثالِثًا من العامِّ وهو النّهْي عن بخْس النّاس أشياءهم إلى الأعَمِّ وهو النّهْي عن الفساد في الأرض، فقال: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ وهو أعَمُّ من أنْ يَكونَ نَقصًا أو غيره، فَبَدَأهم أوَّلًا بالمَعصيَة الشّنيعة التي كانوا عليها بَعد الأمْرِ بعبادة

اللّه، ثُمّ ارْتقى إلى عامٍّ، ثُمّ إلى أعَمّ منه وذلك مُبالَغة في النُّصح لهم ولُطْفٌ في اسْتِدراجِهم إلى طاعة اللّه(1) كما أنّه من أساليب الحِكْمة في تَهْيئة النّفوس بِقَبول الإرْشاد والكمالِ(2).

بَلاغَةُ التَّأْكيدِ في: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾:

شَناعَةُ الفِعْلِ تَسْتَحِقُّ التَّوْكيدَ

التّأكيد في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ مَأخوذٌ من قوله: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾ ومَعناه كثْرةُ الفساد، ثُمّ تأكيدُه بقولِه: ﴿مُفۡسِدِينَ﴾ على اعتبار أنّ أصْلَ النّهْي عن الفساد، بل شديدِ الفساد قد حَصَل بقَوله: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾.

بَلاغَةُ الإطْنابِ في: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾:

بالَغَ في تَقْبيحِ الفَسادِ لِتَجَنُّبِ الغَفْلَةِ عَنْهُ أوِ النِّسْيانِ

في الجُملة إطْنابٌ بالحال المؤَكّدَة مُبالَغةً في تقبيح الفساد، وفي التّصْريح بِذِكْر الأرض ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مبالَغةٌ في تقبيح الفساد، وقولُه ﴿مُفۡسِدِينَ﴾ حالٌ مؤكّدة ووجْهُ فَصاحة هذا الأسلوب أنّ المُتكلِّمَ قد تشتَدُّ عنايتُه بأنْ يَجعل الأمْرَ أو النّهْي لا يَحوم حَوْله لَبسٌ أو شكّ، ومن مظاهر هذه العناية التّوْكيد، فقوله: ﴿مُفۡسِدِينَ﴾ يَكْسو النّهْيَ عن الفساد قوّةً، ويَجعلُه بَعيدًا من أنْ يُغفَلَ عنه أو يُنْسى.

وجْهُ الحاليَّةِ في إعْرابِ: ﴿مُفۡسِدِينَ﴾:

اخْتِلافُ اللَّفْظَيْنِ حَسَّنَ الحالَ المؤَكّدَةَ

قوله تعالى: ﴿مُفۡسِدِينَ﴾ حالٌ من فاعِلِ ﴿تَعۡثَوۡاْ﴾، وهي حالٌ مؤكِّدةٌ؛ لأنَّ معناها قد فُهِم من عاملها، وحَسَّنَ ذلك اختلافُ اللَّفظَين، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ٢٥﴾ [التوبة: 25](3).

بَيانُ وجْهِ التَّشابُهِ والاخْتِلافِ:

قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ﴾ [الأعراف: 85]، وقال

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/195.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/138.

(3) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 1/389، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/520.

في سورة هود: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾:

الآيتانِ نَهيٌ عامٌّ عَنْ بَخسِ النّاسِ أشياءَهُمْ

التّشابُه يَكْمن في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾، وهو في كِلْتَيْهما نَهْي عامٌّ عن بخْس أيِّ أحد من النّاس في أيِّ شَيْء من أشيائهم، جاء عقِبَ الأمْرِ الخاصِّ بالوفاء بالكَيل والميزان.

في آيَةِ الأعْرافِ بَدَأ بالتَّوْحيدِ، فالأمْرُ بِالشَّرائِعِ، ثُمّ ما يُصَدِّقُهُ منَ الأعْمالِ

التّعبير بالفاء في آية الأعراف ﴿فَأَوۡفُواْ﴾ [الأعراف: 85] دون آية هود ﴿أَوۡفُواْ﴾ والسِّرُّ في إلْحاق الفاء بالأمْرِ بالوفاء هُنا، هو أنّه قد سَبَقَتْها جملة ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ﴾ [الأعراف: 85] والبَيِّنَة هي دليل الصِّدق أي المُعجزةُ الدّالَّة على صِدْق شُعيب ﷺ، فلمّا كان ذلك كذلك، رتّبَ عليها الأمْر بالوفاء بواسطة الفاء، وكان قد أمَرَهم بالتّوْحيد بادئَ ذي بَدْءٍ، لِما فيه من صلاحِ القلْب، فشَرَع يأمُرُهم بالشّرائع من الأعمال بَعد الإيمان(1) لأنّ ترْتيبَ الأمْرِ بالشّرائع، يأتي عقِب الأمْر بالتّوْحيد لِتَرْسيخه أوّلًا، ثُمّ يأتي ما يُصَدِّقه وهو الأعمال، وأمّا في مَوضِع هود، فإنّه لَم يَسْبقْه ذِكْر لِلبَيّنة، وإنّما سَبَقه أيضًا أمْرٌ بالتّوْحيد ثُمّ نَهْي عن نقْص المكيال والميزان.

الكَيلُ: آلَتُهُ، وهو المِكْيالُ، وزِيادَةُ لَفْظِ القِسْطِ لِدَفْعِ التَّوهُّمِ

اختلاف التّعبير بالكَيل والوزن في آية الأعراف، ثُمّ التّعبير بالمكيال والميزان في آية هود؛ وذلك أنّه قال في الأعراف: ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الأعراف: 85] وفي هود قال: ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ وبزيادة قَيْد القسْط. والجواب أنّه يُمكن حَمْل ما في سورة الأعراف على ما في سورة هود فيَكون المَقصود بالكَيل المكيالَ. قال الزّمخشريّ: "فإن قُلْت: كيف قيل ﴿ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الأعراف: 85] – أي في الأعراف – وهَلّا قيل: المكيال والميزان، كما في سورة هود ﷺ؟ قُلْت: أُريدَ بالكَيل: آلةُ الكَيل وهو المِكْيالِ، أو سُمّيَ ما يُكال به

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/241.

بالكَيل، كما قيل: العَيْش، لِما يُعاش به. أو أنّه أُريدَ: فأوْفوا الكَيل ووزْنَ الميزان"[1].

وأمّا عن زيادة قَيْد القسْط في سورة هود، فقد جيءَ به لِتَقييد إيفاء المكيال والميزانِ، بالقسْط، أيْ: لِيَكن الإيفاء على وجْه العدل والتّسْويَة، من غيْر زيادة ولا نُقصان؛ لأنّه قد سبَقَه قولُه: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۖ﴾ فلَرُبّما ظُنَّ من النّهْي أنَّ القصْد به التّقريبُ وليس القسْط فيه، بمَعنى أنّه يُمكن التّجاوز عن قليل النّقْص، فجاء قيْد القِسْط، لِيُزيلَ هذا الظَّنَّ وذلك التّوهُّم، ولِيَكون نَصًّا في الإيفاء بالقسْط؛ لأنّه لا يُجْزئُ فيه إلّا أنْ يَكونَ كذلك.

عِنايَةُ سورَةِ الأعْراف مُتَّجِهَةٌ إلى إصْلاحِ الأرْضِ، وعِنايَةُ سورَةِ هود مُتَّجِهَةٌ إلى إصْلاحِ الإنْسانِ

قال في الأعْراف: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ﴾ [الأعراف: 85]، وقال في هود: ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾؛ فأمّا ما في آيَة الأعْراف فإنّه مُتَّسِق مع ما سَبَق في نَفْس السّورة ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 56] لِلتَّأْكيد على أنّ ما يَجري من إفساد في الأرض هو عُدوان على إصلاحها، وقد خلقها اللّه صالحَةً، لكنّ النّاس هُم مَن أفْسدوها، ثُمّ بَعد إفسادها يَبْعث اللّهُ الرُّسل لإصلاحها ليُجدِّدوا حياتَها، كما قال شُعيب عليه السلام مُصرِّحا بهذا: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ﴾ فيتنَزَّلُ قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 56] مَنْزِلةَ الدّعْوة إلى اتِّباع الرُّسل، ومنهم شُعيب عليه السلام، لكَوْنهم ما بُعِثوا إلّا لِلإصلاح، ومن جُملةِ ذلك الإصلاحِ إصلاحُ ما أفْسده النّاس في الأرض بسوء الاعتقاد، وقُبح الفِعال، وسَيِّئِ الأخلاق، فيَبدو من ذلك أنَّ سورة الأعراف كانت مَعْنيَّةً بمسألة إصلاح الأرض بَعد أنْ عَمَّها الفسادُ، والتّفْصيلِ فيه، ولِذا خُصَّت بالنَّصِّ عليه.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/127.

وأمّا سورة هود فَقَد طَوتْه وجَعَلتْه ضِمْن النّهْي العامِّ عن الإفساد في الأرض في قوله: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ دون النَّصِّ على بَعديَّة إصلاحِها، لِكَونه مُقرَّرًا مَعروفًا، ولأنّ سورة هود جَعَلَت هَمَّها إصلاحَ الإنسان، فرَكَّزتْ على خُلُقِ الإفساد فيه كما يَدلّ عليه قوله: ﴿مُفۡسِدِينَ﴾ لأنّه إذا صَلحَ الإنسانُ؛ فإنّ بصلاحِه تَصلُح الأرض، فتَكْتمل بذلك الصورَةُ، لِيَكون اهتمام سورة الأعراف مُتَّجِهًا إلى إصلاح الأرض، واهتمام سورة هود مُتَّجِهًا إلى إصلاح الإنسان.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الوفاءُ والتَّمامُ:

الوفاء كَلِمَةٌ جامعَةٌ لِمَعْنَيَي التَّمام والكَمال

التّمام من وصْف الأجزاء، فهو اسْمٌ للجُزء والبَعْض الذي يتمُّ بِهِ المَوْصوف بأنَّه تامٌّ؛ فيُقال: هذا تَمامُ حَقِّك للبَعْض الذي يتمُّ بِهِ الحَقّ[1] أمّا الوفاءُ فيُناسِبُه الكمالُ لا التّمام؛ والكَمال تَمامٌ وزيادةٌ أيْ هو جامعٌ لِكِلَيْهما؛ إذِ الكَمال اسْمٌ لاجْتِماع أبْعاضِ المَوْصوفِ بِهِ ولِهذا قالَ أصْحابُ: النَّظْم القافيَةُ تَمامُ البَيْت، ولا يُقال: كَمال البَيْت، ويَقولونَ: البَيْت بِكَمالِهِ، أيْ باجْتِماعِه، والبَيْت بِتَمامِه، أيْ بقافيَتِه[2].

وفي مَعْنى الوفاء قال ابنُ فارس: (وفى) كلمة تدُلّ على إكْمالٍ وإتْمام، منه الوفاء: إتْمامُ العَهْدِ وإكْمالُ الشَّرْط. ويَقولونَ: أوْفَيْتُكَ الشَّيْءَ، إذا قَضَيْتَهُ إيّاهُ وافيًا[3].

والمَعْنى المِحْوريُّ لِلوفاء: نُمُوٌّ أو زيادَةٌ يَبْلُغ بها الشَّيْءُ - أوْ يَتَأَكَّدُ - تَمام قِوامِهِ... ووفاءُ الكَيْل امْتِلاءٌ لِلتَّمام[4] أيْ بُلوغه حَدَّ الكَمالِ. ولِهذا كان اصْطِفاء الوفاء أنْسَبَ لِسياقِ الخِطابِ الموجِبِ إيفاءَ الكَيْل، والميزانِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 263.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 263، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 269.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفى).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وفى).

القِسْطُ والعَدْلُ:

الـقِـسْـطُ هـو العَدْلُ الظّاهِرُ، ومنَ العَدْلِ ما يَخْفى

لا شكّ أنّ بيْن كلٍّ من القسْط والعدل تَقارُبًا دلاليًّا واشْتراكًا في أصْل المَعنى. وذلك أنّ القسْط هو العدْلُ الظّاهِر، ومنْه سُمّيَ كلٌّ من المكْيال والميزانِ: (قِسْطًا)؛ لأنَّهُ يُصَوَّرُ لَك من خِلالهما العدْلُ في الوزْن والكَيْلِ حَتّى تَراهُ ظاهِرًا. فالقسْط هو النَّصيبُ الَّذي بُيّنَت وُجوهُه. ويُقال: تَقَسَّطَ القَوْمُ الشَّيْءَ، أيْ: تَقاسَموا بِالقِسْطِ. وأمّا العدْلُ، فقد لا يَكون ظاهِرًا، فمنَ العدْل ما يَخْفى[1]، ولأنّ المكيال والميزانَ مَظِنَّة الإظهارِ لِيُعلَم صِدقُ كَمّيَّتِه، وتَمامُ إيفائه، اخْتيرَ لَفْظُ القِسْط دونَ العَدْلِ.

العُثُوُّ والفَسادُ:

الـعُـثُـوُّ أكْـثَرُ الفَسادِ وأشَدُّهُ

العُثُوّ والفساد من باب واحِد، بَيْدَ أنَّ العُثوّ يَعْني الفساد التّامَّ وأكْثَرَ الفَسادِ وأشَدِّه[2]. وأصلُه من قَوْلك: ضَبُعٌ عَثْواءُ؛ إذا كَثُرَ الشَّعْرُ على وجْهها، وكذلِكَ الرَّجُل. ويُقال: عاثَ يَعيثُ. وهي لُغَة، ويُقال أيْضًا: عَثا يَعْثو وهو أفْصَحُ اللُّغَتَيْن ومنْه قَوْله ﷻ: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾[3] ولِتَنَوُّعِ الفَسادِ الَّذي كانوا يُمارِسونَهُ، وشِدَّتِه، وامْتِدادِه اخْتيرَ لَفْظُ ﴿تَعۡثَوۡاْ﴾ لِيُناسِبَ ذلك.

---

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 234.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/385، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/520.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 213.

﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ٨٦﴾ [هود: 86]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الكَثيرُ مَعَ الحَرامِ قَليلٌ، والقَليلُ مَعَ الحَلالِ كَثيرٌ

لمّا ذَكَر اللّه تعالى في الآية السّابقة حكايةً لأمْرِ شُعيب عليه السلام قومَه بإيفاء الكَيل والميزان، ثُمّ أعقَبَه نَهْيَه إيّاهم عن بخْس النّاس أشياءهم وعن العُتُوِّ في الأرض فسادًا، كان مُنتظَرًا من قَومه أنْ يَقِفوا أمامَ أنْفُسِهم لِيُراجعوا مَواقفهم فيما دعاهُم إليه شُعيب عليه السلام، لكنَّهم لَم يَفعلوا، وظلَّ نَظرُهم بَعد الشِّرك مَقْصورًا على الأموال، وكان نَهْيُه عمّا نَهى عنه موجِبًا لِمَحْقِها في زَعْمِهم، فكأنَّهم قالوا، أو ربّما قالوا بالفِعل: إنّا إذا اتَّبَعناك فيما قلْتَ فَنِيَتْ أموالُنا، أو قَلَّت فتَضَعْضَعَت أحوالُنا، فلا يَبقى لنا شَيْءٌ؟ فقال: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ﴾ أيْ فَضْل المَلِك الأعلى المُسْتَجمع لِصِفات الكمال، وبَرَكَتُه في أموالكم وجَميع أحوالِكم وإبْقاؤُه عَليكم خيْرٌ لَكُم[1] ممّا تَظنّون.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَقِيَّتُ﴾: أصْلُ (بقي): ثَباتُ الشَّيْءِ على حالِهِ الأولى. بَقِيَ الشَّيءُ يَبْقى بقاءً، وهو ضِدُّ الفَناءِ[2]، والباقي ضَرْبان: باقٍ بنَفسِه لا إلى مُدَّةٍ وهو الباري تعالى، ولا يَصحُّ عليه الفَناء، وباقٍ بغَيْرِه وهو ما عَداه ويَصحُّ عليه الفَناء[3]. والبَقيَّةُ: ما يَفْضَلُ منْ شَيْءٍ بَعْدَ انْقِضاءِ مُعظَمِه، واستُعمل كثيرًا في الأنفَعِ والأصْلَحِ؛ لأنَّ العادَةَ قد

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/354.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (بقي).
(3) الرّاغب، المفردات: (بقي).

جَرَتْ بأنَّ النّاس يُنفقون أرْدَأ ما عندهم ويَسْتَبْقُون الأَجْودَ. وبَقِيَّةُ النّاسِ: سادَتُهُم وأهْلُ الفَضْلِ منْهُم[1]. و﴿بَقِيَّتُ ٱللَّـهِ﴾: ما يُبْقيه اللّهُ لعبادِهِ من أجْرٍ. والمَقْصودُ بـ البَقيَّةِ في الآيةِ: ما يدلُّ على دَوامٍ، وهو الحَلالُ في مُقابِل الحَرام.

2) ﴿بِحَفِيظٍ﴾: أصْلُ (حفظ): يَدُلُّ على مُراعاةِ الشَّيْءِ. يُقالُ: حَفِظْتُ الشَّيْءَ حِفْظًا[2]، ويَأْتي الحِفْظُ بـ مَعْنى: الرِّعايَةِ والعِنايَةِ، وضِدُّهُ التَّضْييعُ والتَّفْريطُ، تَقولُ: حَفِظَ المالَ حِفظًا: إذا رَعاهُ ومَنعَهُ مِنَ الضَّياعِ، والحِفْظُ أيْضًا: التَّعاهُدُ وقِلَّةُ الغَفْلَةِ، وضِدُّهُ النِّسْيانُ، يُقالُ: حَفِظَ الكلامَ، أي: تَعاهَدَهُ ولَمْ يَنْسَهُ[3]. والحَفيْظُ: المُوَكَّلُ بالشَّيْءِ يَحْفَظُهُ، وكذلك الحافِظُ. والحَفيظُ أيضًا: الرَّقيبُ، قالَ تعالى: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الشورى: 6] والحَفَظَةُ: الجَماعَةُ؛ منه[4]. والمَقصودُ بالحِفْظِ في الآيةِ: الرِّعايَةُ والعِنايَةُ، ومَنْعُ الغَيْرِ من الوقوعِ في الخَطَأ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإيمـانُ يُطَهِّرُ النَّفْسَ منْ رَذيلَةِ الطَّمَعِ ويُحَلّيها بِفَضيلَةِ السَّخاءِ والكَرَم

قال شُعَيبٌ ﷺ لِقومه: ما يُبقيه اللّهُ لكم بَعد أنْ تُوفوا النّاسَ حُقوقَهم خيْرٌ لكم من الحرام الّذي تَجمَعونَه بظُلْم النّاسِ، شَريطةَ أنْ تكونوا مؤمنينَ بما جِئْتُكم به، وما أنا بِرَقيبٍ عليكم عندَ كَيْلِكم ووزْنِكم، ولَيس عليَّ حِفْظُ أعْمالِكم، ولا مَنْعُكم بالقوَّةِ إذا لَم تَسْتَجيبوا لِنُصْحي، وإنَّما عليَّ إبلاغُكم رِسالةَ اللّهِ تعالى[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/183.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حفظ).

(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حفظ).

(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (حفظ).

(5) ابن جرير، جامع البيان: 12/541 - 544، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/86، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/144.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ الفَصْلِ:

شِبْهُ كَمالِ الاتِّصالِ في الآيَةِ

هذه الآية فُصِلَت عمّا قَبْلَها، على طريقة الاسْتِئناف البَيانيِّ؛ لأنّها بمثابَةِ جوابٍ عن سؤال عمّا إذا أطاعوهُ فانتهوا عن التَّطْفيف وعن ظُلْم النّاس، وسُدَّ - في زعمهم - باب رزقهم الّذي كان يُدِرُّ عليهم الأموالَ وإنْ كانت حرامًا، فكأنّهم قالوا بناءً على ذلك: "إنّا إذا اتَّبَعناك فيما قُلْت، فَنِيَتْ أموالُنا أو قلَّتْ، فتَضَعْضَعَتْ أحوالُنا، فلا يَبْقى لنا شَيْءٌ؟ فقال: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَۚ﴾، أيْ: ما يُبقيه الله تعالى لكم من الحَلال هو خَيْرٌ لَكُمْ ممّا تَجْمعون بالبخْس والظُّلم والتَّطْفيف، وخَيْرِيَّتُه بأنّه بَرَكة في الدّنيا، "ولأنّ النّاس إذا عَرفوا إنسانًا بالصِّدق والأمانةِ والبُعد عن الخيانَةِ اعْتمدوا عليه، ورَجَعوا في كلِّ المعاملات إليه، فيُفْتَح عليه باب الرِّزق، وإذا عَرَفوه بالخيانَة والمَكْر انْصرفوا عنه، ولَم يُخالِطوه البتَّة فتَضيقُ أبواب الرِّزق عليه"[1] كما أنّها نجاة في الآخِرَة من عذاب يوْم مُحيطٍ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِلَفْظِ ﴿بَقِيَّتُ﴾:

لَـفْـظُ الـبَـقـيَّـةِ كَـلِـمَـةٌ جامِعَةٌ لِكُلِّ شَيْءٍ نَفيسٍ مُـبـارَكٍ بـاقٍ وُجودًا وأثَرًا

عبَّر بِلَفْظ البقيَّة دون غيْره؛ لدلالته على الدَّوام[2]، أيْ: دوام الوجود الحِسّيِّ واسْتِمرار الأثَرِ المَعنويِّ فـ "كلُّ ما في القرآن من التَّركيب - أيْ ممّا فيه لَفْظ بقيّة - فهو بمَعْنى دوام وجودِ الشَّيْءِ أيْ عَدَم فَنائه: إمّا في ذاته، وإمّا لأنّه كان ضِمْن جَمْع من شَيْء، فذَهَبَ بَعضُ الشَّيء أو أكْثرُه، وبَقِيَ هو"[3] وإذا كانت الكلِمةُ دالَّة على مَعْنى الدّوام، فإنّها "مُؤْذِنة بِضدِّه وهو الزّوال، فأفادَت أنّ ما

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/386.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بقي).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بقو - بقي).

يَقْترفونه مَتاع زائلٌ، وما يَدعوهم إليه حظٌّ باقٍ غيرُ زائل، وبقاؤه دُنيَويٌّ وأُخْرويٌّ... على أنّ لفْظ (البقيّة) يحْتَمل مَعنى آخَر من الفضل في كلام العَرَب، وهو مَعنى الخيْر والبَرَكة؛ لأنّه لا يَبقى إلّا ما يَحتَفِظ به أصحابُه، وهو النّفائس، ولذلك أُطلِقَت (البقيّة) على الشّيْء النّفيس المبارَك كما في قوله تعالى: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ [البقرة: 248] وفيه أيضًا مَعنى الإبْقاء عليهم... ولعلّ كلامَ شُعيب عليه السلام قد اشتَمَلَ على جميعِها فحَكاهُ القرآن بهذه الكَلِمة الجامعة"(1).

سِرُّ كِتابَةِ التّاءِ مبسوطةً لا مربوطةً في ﴿بَقِيَّتُ﴾:

يُشيرُ بَسْطُ التّاءِ إلى الأثَرِ الظّاهِرِ الباقي في أمْوالِهِم مِنَ الرِّبحِ المَحْسوسِ

اجْتَهَد بعضُ عُلماء الرَّسْم في تعليل بَسْطِ التّاء في مَواضِعَ وقَبْضِها في مَواضِعَ أُخْرى بأنّ مَرْجعه إلى أنّ هذه الكلمة: ﴿وَبَقِيَّةٌ﴾ [البقرة: 248] - ﴿بَقِيَّتُ﴾ ومثيلاتِها كـ﴿نِعْمَةَ﴾ [البقرة: 211]، و﴿نِعْمَتَ﴾ [البقرة: 231] - ﴿رَحْمَةِ﴾ [آل عمران: 107]، و﴿رَحْمَتَ﴾ [البقرة: 218] - و﴿فِطْرَتَ﴾ [الروم: 30] وغيرها، هي أسماء من جهَة، وقد يُلازِمها الفِعل من جهَة أُخْرى، ومن ثَمّ "صارت تُعْتَبر اعتبارين، أحَدُهما: من حيْث هي أسماءٌ وصِفات، فهذا تُقبَض فيه التّاءُ. والثّاني: من حيْث يَكون مُقتضاها فِعْلًا وأثَرًا ظاهرًا في الوجود، فهذا تُمَدُّ فيه التّاء"(2)، وعليه، فقد بُسِطتِ التّاء هُنا في ﴿بَقِيَّتُ﴾ لأنّه بمَعنى ما يَبقى في أموالهم من الرِّبح المَحْسوس(3) لكنْ يَبْقى مثْلُ هذا التّعليل مَحْضَ اجْتهادٍ من قائِله.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في ﴿بَقِيَّتُ﴾:

المُرادُ بِلَفْظِ (بَقيَّت) غَيْرُ وجْهِ الحَقيقَةِ

قوله سبحانه: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ "استعارةٌ؛ لأنّ حقيقة البقيَّةِ تَرِكَةُ شَيءٍ من شَيْءٍ قد مَضى، ولا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/139، 140.
(2) المَرّاكشيّ، عنوان الدّليل، ص: 109.
(3) المَرّاكشيّ، عنوان الدّليل، ص: 112.

يجوز إطلاقُه على اللّه سبحانه. فإذًا يَجب أنْ يَكون المرادُ غيْرَ هذه الحقيقة. وقد قيل في مَعنى ذلك وُجوهٌ: أحَدُها بقيّة اللّهِ من نِعمته خيْر لكم. وقد قيل: بَقيّةُ اللّهِ طاعةُ اللّهِ، وذلك لأنّها تُبْقي رِضاهُ وثوابَه أبدًا ما بَقيَتْ، وقيل: بقيّةُ اللّهِ أيْ عَفْو اللّهِ عنكُم ورحمته بِكُم بَعد استحْقاقِكم العذاب، كما يَقول العَرَب المُتحاربون بَعضُهم لبَعضٍ، إذا اسْتحرَّ فيهم القتْلُ، وأعْضَلَهم الخَطْبُ: البَقيّة! البَقيّة! أيْ نَسألكم البَقيّة علينا والمُكافأةَ لنا"[1].

دلالَةُ الإضافَةِ ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ﴾:

إضافَةُ تَشريفٍ وتَيَمُّنٍ

دلَّت إضافة ﴿بَقِيَّتُ﴾ إلى لَفْظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ على تَشْريف شأْنها والتَّيَمُّنِ بها، لِكَون ما أبقاه اللّه لهم هو الحَلال الجَديرَ بهذه الإضافة، وهي إضافَةٌ على مَعنى اللّام؛ لأنّ البَقيَّة من فَضْلِه أو ممّا أمَرَ به[2].

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِقوله: ﴿خَيۡرٌ﴾:

الحَلالُ خَيْرٌ كُلُّه

دلَّت كلمة ﴿خَيۡرٌ﴾ هُنا على مَعْنى التّفضيل، أيْ ما أبْقاهُ اللّه لكم من الحَلال، هو أفْضَل لكم ممّا كنتم تغْرقونَ فيه من الحَرام، ممّا تكون الزّيادة فيه بالنَّقْص والظُّلْم[3] فالخيْر بِمَعْنى أصْل الفعْل أو من قَبيل قَوْلِهم: الصَّيْف أحَرّ من الشّتاء[4].

دلالَةُ تَأْخيرِ الجارِّ والمَجْرورِ ﴿لَّكُمۡ﴾:

الخَيْرِيَّةُ لَيسَتْ مقتصرَةً عَلَى قومه

أخّر الجارّ والمجرورَ فقال: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٌ لَّكُمۡ﴾ ولَم يَقُل: (بقيّت اللّه لكم خيْر)؛ لأنّ الاهتمام هو بِبَيان أنّ ما يُبقيه اللّه هو الخيْر سَواء لَهُم أو لِغيْرِهم، ولو قال: (بقيّت اللّه لكم خير) لرُبّما فُهِمَ أنّه خيْرٌ لهُم دون غيْرِهم، وهو خِلاف المقصودِ.

(1) الشّريف الرّضيّ، تلخيص البيان في مجازات القرآن: 2/164.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/140، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/171.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/355.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/171.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَۚ﴾:

قليلٌ منْ حَلالٍ خَيْرٌ منْ جَبَلِ ذَهَبٍ حَرامٍ

ممّا أثارَ تَساؤلًا، وجودُ شَرْط الإيمان في تَحقُّق خيْريَّة ما أبقاهُ اللّهُ، مع كَوْنه خيْرًا مُطلَقًا؛ لأنّ المَقصودَ به الحَلالُ، والحَلال خيْرٌ لِلمؤمن ولِلكافر أيضًا. وتَوْجيه ذلك فيما يأْتي:

الأوّل: أنْ تَكون جملة الشَّرْط ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَۚ﴾ دالّةً على أنّ قيْدَ الإيمان به سبحانه لازِمٌ في تَحْقيق الخيريَّة، من حيْث إنّهم إنْ كانوا مؤمنين مُقِرّين بالثّواب والعِقاب، عَرفوا أنّ السَّعْيَ في تَحْصيل الثّواب، وفي الحَذَر من العِقاب خيْرٌ لهم من السَّعْي في تَحْصيل المال الحرام[1].

الثّاني: أوْ أنّ المراد بالخيريَّة في الشَّرْط أنّ خَيريَّتَها وفائدتها مع الإيمان أظْهَرُ، وهو حُصول الثّواب مع النّجاةِ من العِقاب، لكنّها مع فَقْدِ الإيمانِ أخْفى؛ لانْغِماسِ صاحِبها في عذاب الكُفْر الّذي هو أشدُّ العذاب.

الثّالث: أو أنْ يَكون المراد بالإيمان مَعْناه اللُّغَويَّ وهو التَّصديق. والمَعْنى: (إنْ كنتم مُصدِّقين) لي فيما أقول لكُم وأنْصحُ[2] فيكون مثْلَ الإيمانِ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [يوسف: 17].

دلالَةُ حَذْفِ جَوابِ الشَّرْطِ:

حَــذْفُ جَــوابِ الشَّرْطِ لِتَقَدُّم ما يَدُلُّ عَلَيْهِ

حذفَ جَواب الشَّرْط، لِتَقدُّم ما يَدلّ عليه[3]، وهو قوله: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾، أي: إنْ كنتم مؤمنين فَبَقيَّة اللّهِ خيْرٌ لكم. أو أنّه حَذَفَه لِتَذْهَب النَّفْسُ في تقديرِه كلَّ مَذْهَب.

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/386.
(2) الرّازيّ، أنموذج جليل، ص: 205.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/196.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالإيمانِ في: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾:

الإيمانُ قَيْدٌ في التَّمَتُّعِ بِخَيْرِيَّةِ الحَلالِ لِكَوْنِه مُفيدًا في الحالِ والمآلِ

عبَّر بالإيمان دون التّصديق في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ لِلنَّصِّ على أنّ الإيمان شَرْط في حُصول خيريَّة ما يُبْقيه اللّهُ.

وأيضًا كَي لا يُفهَم من لفْظ التّصديق معناهُ المُقابِلُ لِلتّكذيب، فيَظنّوا أنّ المَقْصود "إنْ كنتم مُصدِّقين لي في مَقالَتي لكُم"[1] وهو أحدُ المعاني المَذكورة في تَوْجيه المَعنى.

وجْهُ التَّعْبيرِ بِاسْمِ الفاعِلِ ﴿مُّؤۡمِنِينَ﴾:

التَّعْبيرُ بِاسْمِ الفاعِلِ مُعَبِّرٌ عَنْ تَحْقيقِ الوصْفِ بِالإيمانِ

أوثِرَ التّعبير بِاسْم الفاعل ﴿مُّؤۡمِنِينَ﴾ دون التّعبير بالفِعل كأنْ يُقال: (إن آمنتم) لِكَون المقصود تَحقيقَ الوصْفِ بالإيمان بصِفَة ثابتة راسخة، حتّى يَستحِقّ المُتحقّق به اسْمَ (مؤمن)، ومن فوائد التّعبير به هُنا الاهتمامُ والحِرْص على إيمانهم في زَمَن الخِطاب؛ "اسْتِعجالًا بإيمانهم لِئَلّا يَفْجَأهُم العذاب فيَفوتُ التَّدارُكُ"[2].

بَلاغَةُ الختْم: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾:

فاصِلَةُ الآيَةِ اسْتِقْصاءٌ في التَّرْغيبِ وحُسْنِ الجِدالِ

خَتَمَ الآية بهذه الجملة الّتي قصدَ منها "اسْتِنْزال طائرِهم لِئلّا يَشْمَئِزّوا من الأمْر. وهذا استِقْصاءٌ في التَّرْغيبِ وحُسْنِ الجدال"[3].

دلالَةُ النَّفْي في: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾:

الإغْراقُ في النَّفْيِ والمُبالَغَةُ فيهِ

دلّ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ على الإغْراقِ في النّفْي والمبالَغة فيه؛ إذ المَعنى: لسْتُ عليكم ﴿بِحَفِيظٖ﴾ أعلَمُ جميع أعمالِكم وأحوالِكُم، وأقْدِر على كَفِّكُم عمّا يَكون منها فسادًا[4] وفيه تَحذيرٌ لهُم من مخالَفتِه بَعد أنْ أدّى ما عليه من بلاغ، على مَعنى: وما أنا عليكم بحفيظ أحْفَظُ لكم أعمالَكم وأُحاسبكم عليها، وأُجازيكم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/232.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/141.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/141.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/355.

بها الجزاءَ الّذي تَستحقّونه، وإنّما أنا ناصح ومُبَلِّغٌ ما أمَرَني رَبّي بِتَبْليغه، وهو وحْده سبحانه الّذي سَيَتَولّى مُجازاتكُم[1].

دلالَةُ تَقديم الجارِّ والمَجْرورِ ﴿عَلَيۡكُم﴾:

قَدَّم جُملةَ النَّفْي الجارّ والمَجرورِ ﴿عَلَيۡكُم﴾ لِدَفعِ ما قد يَتوهَّمونه من قَصْدِه لِلاسْتِعلاء عليهم، فقال نافيًا له: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم﴾[2] وأيضًا فإنّ في تَقديمِه دلالةً على الاهْتِمام[3].

التَّقديمُ لِلاهْتِمام ولِدَفْعِ تَوهُّم قَصْدِ الاسْتِعْلاءِ عَلَيْهِمْ

دلالَةُ الباءِ في: ﴿بِحَفِيظٖ﴾:

الباء زائدَةٌ لِلتّأكيد، كالّتي في قوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾ [الزمر: 36]. وتُفيد المبالَغة في نَفْي كَونه ﷺ حفيظًا عليهم.

بالَغ في نَفْي كَوْنِهِ ﷺ حَفيظًا عَلَيْهِمْ

نُكْتَةُ اخْتيارِ التَّعبيرِ بـ: ﴿بِحَفِيظٖ﴾:

اخْتارَ التّعبيرَ بـ ﴿حَفِيظٖ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ دون غيْرِه كَكَلِمة (مُراقِب)؛ لِكَونه هو التّعبيرَ الأنْسَبَ هُنا، فهُم لِكَثْرة أعمالهم السّيّئة، لا يَكفي في إحصائها علَيهم مُراقِب، بلْ حفيظٌ يَظلُّ طوالَ الوقت يُراقِبها ويَحْرُسها ويُحْصيها عليهم، وهذه قُدْرَة تَفوقُ طاقة البَشَر.

على أنّ في مَعنى كلمة ﴿بِحَفِيظٖ﴾ مُرجِّحًا آخَر لاخْتيارِها، وهو ما فيها من سَعَة المَعنى بما يَمنع غيْرَها أنْ تَقومَ مَقامَها، إذ هي تَحْتمل أيضًا مَعنى المنع من القبائح، أي: لا أستطيع أنْ أحفظَكم وأمْنَعَكم عن القبائح[4] فصارَت الكلمة بذلك جامعةً بيْن مَعنى الإحصاءِ والمَنْع.

كَلِمَةُ (حفيظ) جامِعَةٌ بَيْنَ مَعْنى الإحْصاءِ والمَنْعِ

عِلَّةُ اخْتيارِ صيغَةِ ﴿بِحَفِيظٖ﴾:

وجْهُ اختيار التّعبير بصيغة ﴿بِحَفِيظٖ﴾ دون التّعبير بصيغة (حافظ) إلى كَوْن ﴿بِحَفِيظٖ﴾ أبْلَغَ، فهو على وزْنِ (فَعيل) وفعيل من

صيغَةُ (حفيظ) أبْلَغُ مِنْ صيغَةِ (حافظ)

(1) طنطاوي، التّفسير الوسيط: 7/259.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/355.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/421.
(4) الجمل، حاشية على تفسير الجلالين: 3/465.

صيَغِ المُبالَغة، فهو وإنْ كان بمَعنى (حافظ) إلّا أنّه دالٌّ على المُبالَغة في الحِفْظ. وكأنّه ﷺ بهذا التّعبير يَرُدّهم إلى الله تعالى؛ لأنّه وحْدَه الحفيظ الّذي يَسْتطيع مُراقبةَ أعمالِهم وحَصْرَها وإحصاءَها، ويُبَرِّئ نَفْسَه من عمَلٍ لا يُمكِن لِبَشر كائنًا مَن كان أنْ يَقومَ به.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ٨٧﴾ [هود: 87]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

من السُّنَنِ صَبْرُ الأنبياءِ على الأذى والجَهْلِ

لمّا أيْقَن قوْم شُعيب عليه السلام من صَلابَته في الدّعْوة إلى التّوْحيد ونَبْذِ الشّرك، والدّعْوة إلى تَرْك الظّلْم والبَخْس والتّطْفيف والإفساد، ثمّ الأمْر بِضِدٍّ ما يفعلون، عَمَدوا معه إلى الإغْلاظِ في القوْل، والاسْتهزاء بما يَقول ويَفْعلُ، والسُّخْريَة من صَلاته ومن دينه، ومن محاولته تَقْييد حُرّيَّتِهم في المعاملات الماليّة وضَبْطَها بالحلال وعَدَم أكْلِ حُقوق النّاس، واعْتَمدوا في الاحْتجاج عليه بأصْلَين:

الأوّل: كَوْنهم في عبادتهم قائمين على ما عَهِدوا عليه آباءَهم، وهذه قاعدةٌ صُلْبَة عندَ العشائر والقبائلِ.

والثّاني: أنّ هذه الأموال هُمْ يَمْلِكونها، ولأنّهم يَمْلكونها، فطبيعيٌّ أنْ يَمْلكوا حُرّيَّة التَّصرُّف فيها، وليس لِشُعيب ولا غيْرِه أنْ يُقيّد حَرَكة تعامُلِهم فيها بقَيْد، مَهْما كان هذا القيْد شَريفًا في مَظْهرِه وجَوْهرِه. وفي هذا جاء قولهم مَحْكيًّا مُصَدَّرًا بِفِعل القَول: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾: أصْلُ الصَّلاة: الثَّناءُ والدُّعاءُ بالخَيْر، يُقال: صَلَّيتُ عليه، أيْ: أثْنَيتُ أو دَعوتُ لَهُ[1]. وتَوسَّع بعضُهم - وهو بَعيد - فقال: مَأْخوذَةٌ من الصَّلا، وهو: العَظْمُ الَّذي علَيه الألْيَتانِ؛ لأنَّ المُصَلّي يُحرِّكُ صَلويْهِ في الرُّكوعِ والسُّجود[2]. وقالَ الزَّجّاج: الأصْلُ

(1) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (صلا).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلا).

في الصَّلاةِ اللُّزومُ[1]. والصَّلاةُ الَّتي هي العِبادَة المَخْصوصَة، أَصْلُها: الدُّعاءُ، وسُمِّيَتْ هذه العِبادَة بها كَتَسْمِيَةِ الشَّيْءِ بِاسْمِ بَعضِ ما يَتَضَمَّنه. والصَّلاةُ منَ العِبادات الَّتي لَمْ تَنْفكّ شريعَةٌ منْها، وإنِ اخْتَلَفَتْ صورُها بَحسبِ شَرْعٍ فَشَرْعٍ؛ ولذلك قالَ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النّساء: 103]. وأمّا الصَّلاةُ المَقصُودَةُ في الآيةِ: فهيَ التَّوجُّهُ إلى اللّهِ بالخُضوعِ والتَّسْبيحِ والدُّعاءِ في أَوْقاتٍ مُعَيَّنَةٍ في الشَّريعَةِ الَّتي يَدينُ بها شُعَيْبٌ عليه السلام، أي المُرادُ حَقيقَتُها الشّرْعيَّة، لا اللُّغَويَّة.

2) ﴿تَأْمُرُكَ﴾: أَصْلُ (الأمْر): ضِدُّ النَّهْي. ومنه قولُكَ: افْعَلْ كذا. يُقالُ: لي عَلَيْكَ أَمْرَةٌ مُطاعَةٌ، أَيْ: لي عَلَيْكَ أَنْ آمُرَكَ مَرَّةً واحِدَةً فَتُطيعني. قالَ الكِسائيُّ: إنَّهُ لأمورٌ بالمَعْروفِ ونَهِي عَنِ المُنْكرِ، منْ قَوْمٍ أُمُرٍ. ومنْ هذا البابِ الإمرَةُ والإمارَةُ، وصاحِبُها أميرٌ ومُؤَمَّرٌ[2]. والمَقْصودُ بالأمْرِ في الآيَةِ: أمْرٌ يُقال باعْتِبارِ طَلَبِ الفِعْل.

3) ﴿نَّتْرُكَ﴾: أَصْلُ التَّرْك: الكَفُّ والإعْراضُ، يُقالُ: تَرَكْتُ الشَّيْءَ: إذا كَفَفْتَ وأعرَضْتَ عنْه، ويَأْتي بمَعْنى التَّخَلّي عَنِ الشّيْءِ[3]. ويُطلَقُ على الإسْقاطِ، يُقالُ: تَرَكَ حَقَّهُ، أيْ: أَسْقَطَهُ، وهو أيضًا: الجَعْلُ، يُقالُ: تَرَكَهُ يَفْعَلُ كَذا، أيْ: جَعَلَهُ يَفْعَلهُ[4]. ومنْ مَعانيه: المُفارَقَةُ، والهَجْرُ، والإهْمالُ، والرَّفْضُ. والمَقْصودُ بالتَّرْكِ في الآيَةِ: التَّخْلِيَةُ عَنِ الشَّيْءِ.

4) ﴿ٱلْحَلِيمُ﴾: أَصْلُ الحِلْم - بِكَسْرِ الحاءِ -: التَّأنّي والصَّبْرُ، يُقال: حَلُمَ، يَحْلُمُ، حِلْمًا، فهو حَليمٌ، أَيْ: تَأنّى وصَبَرَ ولَمْ يَتَعَجَّلْ. ويَأتي الحِلْمُ بمَعنى السُّكونِ وضَبْطِ النَّفْسِ[5]، فيُقال: تَحَلَّمَ فُلانٌ، أَيْ: تَكَلَّفَ ضَبْطَ النَّفْسِ. والحَليمُ: الَّذي لا يَسْتَخِفُّهُ عِصْيانُ العُصاة ولا يَستفِزُّه الغَضَبُ عَلَيْهِم، ولكنَّهُ جَعَلَ لكلِّ شَيْءٍ مِقْدارًا[6]. والحَليمُ أيضًا: في صِفَةِ اللّهِ تعالى مَعْناهُ الصَّبورُ[7]. ومن مَعانيهِ أيضًا: العَقْلُ، والعِلْمُ[8]. وضِدُّهُ: العَجَلَةُ، والجَهْلُ،

(1) الزّجّاج، معاني القرآن: 1/232.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمر).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ترك).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (ترك).
(5) الرّاغب، المفردات: (حلم).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (حلم).
(7) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حلم).
(8) ابن سيده، المخصّص: 1/251، والزّبيدي، تاج العروس: (حلم).

والسَّفَهُ. وجَمْعُ حِلْم: أحْلامٌ وحُلومٌ[1]. والمُرادُ بالحِلْم في الآيَة: ضَبْطُ النَّفْسِ والطَّبْعِ عَنْ هَيَجانِ الغَضَبِ.

5) ﴿ٱلرَّشِيدُ﴾: أصْلُ (رشد): يَدُلُّ عَلى اسْتِقامَةِ الطَّريق[2]. والرُّشْدُ: الصَّلاحُ[3]، يُقال: رَشَدَ فُلانٌ، يَرْشُدُ، فهو راشِدٌ، أيْ: صَلُحَ. ويأْتي بِمَعنى إصابَةِ الحَقِّ، يُقال: رَشَدَ فُلانٌ في قوله، أيْ: أصابَ الحَقَّ[4]. والرُّشْدُ: الهُدى والاسْتِقامَةُ، وأرْشَدَهُ اللّهُ إلى الطَّريقِ ورَشَّدَهُ، أيْ: هَداهُ[5]. وكُلُّ ما يُحْمَدُ ويُمْدَحُ مِنَ الأفْعالِ فهو رُشْدٌ، وهو خِلافُ الضَّلالِ والسَّفَهِ وقِلَّةِ العَقْلِ. والرَّشيدُ: هو الَّذي حَسُنَ تَقْديرُهُ فيما قَدَّرَ، أوِ الَّذي تَنْساقُ تَدْبيراتُه إلى غاياتِها على سَبيلِ السَّدادِ مِنْ غَيْرِ إشارَةِ مُشيرٍ ولا تَسْديدِ مُسَدِّدٍ[6]. والمَقْصودُ بالرَّشيدِ في الآيَةِ: الحَسَنُ التَّدْبيرِ في المال[7].

۞ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

التَّمَسُّكُ بالتَّقاليدِ والطَّمَعُ المادِّيُّ مِنْ طَبائِعِ أهْلِ الكُفْرِ والجَهْلِ

قال قومُ شُعَيبٍ مُستهزئينَ بنبيِّهم مُغلظينَ له في القوْل، على تلك الدَّعْوة الكَريمةِ الَّتي يَدعوهم إليها نبيٌّ كَريم، بِلسان عفٍّ، وبأُسْلوبٍ يَفيضُ رِقَّة وحنانًا ومَودَّةً. قالوا: يا شُعيبُ، لا مُوجِب لِنَهْيك لنا، إلَّا أنَّك تُصلّي للّه، وتتَعبَّد له، أفإنْ كنتَ كذلك، أفَيوجِب لنا أنْ نَترك ما يَعبدُ آباؤنا، لِقَولٍ ليس عليه دليلٌ إلّا أنّهُ مُوافق لك، فكيف نَتَّبعك، ونَترُك عبادة آبائنا الأقدمينَ أولي العُقول والألْباب؟! أوتأمُرُك صلاتُك أنْ نترُكَ فِعلَ ما نُريدُ في أموالنا من التَّطْفيفِ في الكَيلِ والميزانِ؟، إنَّك - يا شُعَيبُ - لَأنْتَ الحليمُ الرَّشيدُ في أمْرِك لنا

(1) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والفِيروزاباديّ، القاموس المحيط، والزّبيدي، تاج العروس: (حلم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رشد).
(3) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 256.
(4) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/476.
(5) الهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: 3/744، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (رشد).
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (رشد).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/142.

بتَركِ عبادةِ الأصنام، وتَركِ بَخسِ النّاسِ، يَعْنونَ بذلك وصْفَه ﷺ بالسَّفَهِ والجَهلِ[1]!

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ الاستئناف البياني:

الاستئناف البياني في مفتتح الآية فَصْلٌ يُعبّر عنه بِشِبْهِ كَمالِ الاتِّصالِ ناشئٌ عن سؤالٍ مُقدَّرٍ، فكأنَّه قيلَ: ما قالوا بَعْدَ أنْ أمَرَهُم شُعيْب بِما أمَر ونَهاهُم عمّا نَهى؟ فقيل: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ﴾[2].

دلالَةُ نِدائِهِمْ لَهُ بـ ﴿يَٰشُعَيۡبُ﴾:

طَريقَةُ نِدائِهِمْ لِنَبيِّهِمْ دَليلُ جَفْوَتِهِمْ لَهُ

في نِدائِهِم له ﷺ بقولهم: ﴿يَٰشُعَيۡبُ﴾ دونَ مُناداتِه بوصْفِ النُّبوَّةِ أو الرِّسالة دلالةٌ على جَفْوتِهم وغِلْظَتِهم معه[3].

دلالَةُ الاسْتِفْهامِ في: ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾:

اسْتَفْهَموا ساخِرينَ

الاسْتِفهامُ هُنا مُخرَّج على السُّخريَة والاسْتهزاءِ[4] بِحَسب ما أمْلى عليهم الشّيطان.

سِرُّ اخْتيارِهِمْ لِلصَّلاةِ:

كانَ ﷺ كَثيرَ الصَّلاةِ ولِذا بالَغوا في السُّخريَةِ منْهُ منْ خِلالِها

في اختيارهم الصَّلاةَ دون غيرِها في قولهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾، دلالةٌ على أنّه ﷺ كان كثيرَ الصَّلاة[5] وعلى أنّه كان يأْمرُهم بها كتَرْجمةٍ لِلدَّعْوة إلى التّوْحيد، ومن ثَمّ سخِروا منه لأجْلِ هذا. ومثالُه: أنْ يُرى مَعْتوه "يُطالِع كُتبًا ثُمّ يَذْكر كلامًا فاسدًا، فيُقال له: هذا من مُطالَعة تلك الكُتُب على سبيل الهُزءِ والسُّخريَة"[6].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/544، 548، والواحديّ، التّفسير الوسيط: 2/586، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/344، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 387.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/356.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/356.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/419، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/197.

(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/419، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/387.

(6) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/387.

بَلاغَةُ المَجازِ العَقْليِّ في: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ﴾:

الإيغالُ في التَّهَكُّم

في إسْنادِهم الأمْرَ إلى الصّلاة مَجاز عَقليٌّ، علاقتُه السّببيَّة والمُسبّبيَّة، كما أُسْنِدَ إليها النّهْي أيضًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: 45] فصارت الصّلاةُ - بوصْفها رَمزًا للإيمان والتّقوى - هي الآمِرَة النّاهيَةَ، والآمرُ الحَقيقيُّ هو اللّه تعالى[1]. وغرضهم من إسْناد الأمْرِ إلى الصّلاة الإيغالُ في التّهكُّم به ﷺ[2] والتّهكُّم في أمثال هذا إنّما جاء من تسميَة الضِّدِّ بالضِّدِّ فيقال للجبان: ما أشجَعَه، ولِلقَبيحِ: ما أحسَنَه[3].

دلالَةُ تَعَدُّدِ القِراءاتِ في: ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾:

القِراءَةُ بِالإفْرادِ مُرادٌ بِها الجَمْعُ؛ إذْ هيَ في مَعْناهُ

قَرَأ حمزة والكسائي وحَفْص: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ﴾ بالإفْراد، وقَرَأ الباقون بالجَمْع: ﴿أَصَلَوَاتُكَ﴾[4]. والقراءة بالإفْراد مرادٌ بها الجَمْع فهي في مَعناه؛ لكَوْنه مَصْدرًا، والمَصْدر يَقع على الجَمْع والمُفْرد[5] على حدٍّ سَواء.

دلالَةُ كافِ الخِطابِ في: ﴿تَأۡمُرُكَ﴾:

إصْرارُهُمْ عَلى التَّهَكُّم بِشُعَيْبٍ عليه السلام

في تَوْجيه الكلام إليه بِكاف الخِطاب في قوله: ﴿تَأۡمُرُكَ﴾ إصْرارٌ منهم على التّهكُّم به عليه السلام والإغْلاظِ له بالقَول، ومواجَهَته بذلك دون أدْنى محاولَةٍ منهم لِلتّلطُّف معه في التّعبير.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿تَأۡمُرُكَ﴾:

كرّرَ الأمْرَ عَلَيْهِمْ مِرارًا

دلّ التّعبير بالمُضارِع على تكرار أمْرِه لهم بِتَرك عبادة الأصنام، وتَرْك أكل أموال النّاس بالباطل[6]، وذلِكُم دَيْدَن النَّبيّين: تَكْرار المحاولَة، وعدَمُ المَلالِ.

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/119.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/419.
(3) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/39.
(4) السّمين الحلبي، الدّرّ المصون: 6/117.
(5) الفارسيّ، الحجّة للقرّاء السّبعة: 4/214.
(6) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/119.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالمَصْدَرِ المُؤَوَّلِ ﴿أَن نَّتْرُكَ﴾:

الدّاعي إلى الله لا يَمَلُّ ولا يَيْأَسُ

في التَّعبير بالمَصدر المؤوَّل ﴿أَن نَّتْرُكَ﴾ دون المَصدر الصّريح، دلالةٌ على إبراز ما كان يَقومُ به ﷺ من مُحاولاتٍ مُتَكرِّرة لإثْنائِهم عن الشِّرْك وعن الظُّلْم.

أوْمَــــؤُوا إلى حَمْلِ الأمْرِ عَلى غَـيْرِ الـوجـوبِ، ورَكَّـــزوا عَـلى فِعْلِ التَّرْكِ دونَ كَيْفيّاتِهِ

والتّعبير بالمَصدر المُؤوَّل إيماءٌ منهم إلى نَفْي الوجوب في أَمْرِ شُعيبٍ إيّاهم بتَرك عبادة ما يَعْبدون؛ لأنّ "(أنْ) والفِعل قد تُفيد الإباحة، ولا تُفيد القَطْع بحُصول الفِعل، بخِلاف المَصدر الصّريح، فإنّه قد يُفيد القَطْع بحُصوله"[1]. فضلًا عمّا في المَصدر المُؤوَّل - ولا سيَّما مع (أنْ) - من دلالة على مُجرَّد مَعنى الحَدَث دون احْتمال زائدٍ عليه، ففيها [يَعني (أنْ)] تَحْصينٌ من الإشْكال، وتَخْليصٌ له من شوائبِ الإجْمال بتَحْديد هَيْئات التَّرك وكَيْفيّاته؛ فالسّؤال مُخَصّص عن التَّرك فَحَسب[2].

سِرُّ اخْتيارِ التَّعْبيرِ بِالتَّرْكِ:

التَّعْبيرُ بِالتَّرْكِ أدَلُّ عَلى المَطْلوبِ مِنَ التَّخَلّي عَنِ الشِّرْكِ

عبَّر بالتَّرك دون غيْرِه في قوله تعالى: ﴿أَن نَّتْرُكَ﴾؛ لكَونه أدلَّ على المَطلوب؛ إذ المَطلوبُ التّخَلّي مُطلَقًا عن عبادة غيرِ اللّه، وأيضًا عن ظُلْم النّاس وهَضْمهم حُقوقَهُم، وهو ما قام بتَأديَتِه كاملًا الفِعل ﴿نَّتْرُكَ﴾، فالتَّرْكُ التَّخْلِيَةُ عَنِ الشَّيْءِ[3]، وحقيقتُه مُفارَقة أحَدٍ شَيْئًا كان مُقارِنًا له[4] ويُطلَق مَجازًا على إهمال أحَدٍ شيْئًا وعدَم عنايته بأحواله وبِتَعَهُّدِهِ[5] وهكذا فإنّ لَفظ التَّرك في معْنَيَيه الحَقيقيِّ والمَجازيّ يُطلَق على مُطلَق التَّخلّي، ومُطلَق الاعْتناء والتَّعَهُّدِ، ومن ثَمّ فلا أنْسَبَ منه تعبيرًا عن المقصود هُنا.

---

(1) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/149.

(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/149.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ترك).

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/311.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/364.

وجهُ إيثارِ ﴿مَا﴾:

قَصَدوا عُمومَ المَعبودات

آثَرَ التّعبير بـ ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ دون (الّذي)؛ لأنّ التّعبير بها عادةً أجْمَعُ وأخْصَرُ، فحيْث لَم يُقصَد هُنا معبودٌ بعَيْنه لَم يُعبَّر بـ (الّذي) وإنّما عبّر بـ ﴿مَا﴾ فكانت "صادقةً على المعبودات، ومَعنى تَرْكها: تَرْك عبادتها كما يُؤْذِن به فِعل يَعْبُد"[1].

سِرُّ تَعْبيرِهِمْ عَنْ شِرْكِهِمْ بِالعِبادَةِ:

التَّلازُمُ بَيْنَ التَّوْحيدِ والعِبادَةِ قَويٌّ وشَديدٌ

أوثِر في التّعبير عن شِرْكهم أنْ يقولوا: ﴿مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾؛ لأنّه كالرَّدّ على قوله لَهُم: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ مُعبّرًا عن التّوْحيد بالعبادة؛ لأنَّ العبادة تَسْتلْزم التّوْحيد[2] فإنّه إذا كان ﵇ قد رأى الإيمان مُمَثَّلًا في التّوْحيد؛ فإنّهم قد رَأَوْها في الشّرْك.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ المُضارِعِ ﴿يَعۡبُدُ﴾:

اسْتِحضارُ ما هو قُدْوة في مَقام الاحْتِجاجِ أبْلَغُ

عبَّر بالفعل المُضارع ﴿يَعۡبُدُ﴾ دون الماضي (عبد) استحضارًا لِصورَة الفعل الماضية في مَقام الاحْتِجاجِ، وكأنّ تلك العبادة كانت تُمارَسُ ساعةَ قالوا هذا الكلام، واستحضار ما هو قُدْوة لهُم في مَقام الاحتجاج أبْلَغُ[3]، وللدّلالة على أنّ آباءهم كانوا حَريصينَ على عبادتها "على سبيل المواظَبَة"[4].

دلالَةُ اخْتيارِ لَفْظِ ﴿ءَابَآؤُنَآ﴾:

الاحْتِكامُ إلى عاداتِ الآباءِ شَأْنٌ مَعْروفٌ في النّاسِ

دَأَبَ المشركون على الاحْتكام إلى ما كان يَفْعلُه آباؤهم كأنّه القاعدة الّتي يجب أنْ يُدافِعوا عنها وأنْ يَنْطلِقوا منها في كلِّ شَيْء بما في ذلك الإيمان والعبادة، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾ [الزخرف: 23] وحتّى في فِعْل الفاحِشة يَعْتَذرون

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/142.

(2) الشّهاب الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/123.

(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/119.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/356.

بنَفْسِ الاعْتِذار، كما حَكى القرآن عنهم ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ [الأعراف: 28]

دلالَةُ الإضافَةِ في: ﴿ءَابَآؤُنَا﴾:

المَقْصودُ آباؤهُمْ نَسَبًا

الإضافة هُنا لِلعَهْد، والمقصود آباؤهم المُباشِرونَ الّذين يُنسَبون إليهم، وفيه تَبْريرٌ لاقْتِدائهم بهم، فإنهم آباؤهم الّذين لن يُورِّثوهم إلّا ما يُفيدهم، هكذا يَظُنّون.

سِرُّ التَّعْبيرِ بـ ﴿أَوْ﴾:

التَّعْبيرُ بـ (أو) دالٌّ عَلى التَّنَوُّع

عبّرَ بـ ﴿أَوْ﴾ دون الواو في قوله تعالى: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ﴾ للدّلالة على التّنوُّع على مَعنى: أوْ تأمرك صلاتُك مَرّةً بأنْ نترُك هذا، ومرّةً بأنْ نترُك هذا[1] وعلَّلهُ الشّهاب بقوله: واخْتيرَت ﴿أَوْ﴾ على (الواو) لِتَقابُلِ الفِعْلِ[2] أيْ: لِلتّقابُل بيْن ﴿نَّتْرُكَ﴾، و﴿نَّفْعَلَ﴾.

ومن دَواعي التّنويع بـ ﴿أَوْ﴾ كذلك، الإشارة إلى أنّ "منهم مَن لا يَتَّجِرُ فلا يُطَفِّف في الكَيل والميزان، فهو قِسْمٌ آخَر مُتميِّزٌ عن بقيَّة الأُمّة بأنّه مأمور بِتَرْك التَّطْفيف... وبهذا تَعْلَم أنْ لا داعيَ إلى جَعْل أو بمَعنى واو الجَمْع، كما دَرَجَ عليه كثير من المُفسِّرين"[3].

وجْهُ اخْتيارِ ﴿نَّفْعَلَ﴾، بصيغة المضارع:

الـغـالِـبُ في القُرْآنِ التَّعْبيرُ عَـنْ قَـبـيـحِ الأعْمالِ بِالفِعْلِ

يُلحَظ أنّ القرآن الكريم يُعبِّر عن ممارَسة دَنيءِ الأخلاق بلَفْظ الفعل، كما هو هُنا ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟﴾ وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً﴾ [الأعراف: 28] والسَّبب أنّ الفِعل يُطلق على ما يَمُرّ سريعًا ويَنْقضي ولا يَكون له أثَرٌ، أمّا العمل فيُقال لِما يَكون له أثَر[4] والعَمَل: الفِعلُ باليَدِ من زراعةٍ وتَلْقيح وسَقْي[5]؛ لأنّ ما يَعْمله

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/197.

(2) الخفاجيّ، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/125.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/142.

(4) أبو حيّان التّوحيديّ، المقايسات، ص: 280، والرّاغب، المفردات: (عمل).

(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عمل).

الإنسان بِكَدِّ يَدِه يعودُ عليه بالنفع ويَبْقى أثَرُه بَعد ذلك. فإذا نَظرْنا إلى التَّطْفيف في الكَيل والميزان وما يُشابهه من التّعامل بالرّبا فإنّه لا كدَّ فيه ولا تَعَب بل يَنْقضي بلا أثَر من تَعَبٍ ونَحْوه، وكذلك النّظر إلى مَن يَفعلون الفاحِشة فإنّها تَنْقضي سريعًا دون أنْ يُكدَّ لها بِتَحمّل مسؤوليّة ولا غيْرِها، وليس كما يَكون في حال الزَّواج مثلًا، فإنّ المسؤوليّة تكون قائمة مع ممارَسة نَفْس الشَّيْء.

دلالَـةُ التَّعْبيرِ بـالـمُـضـارِعِ الاسْتِمرارُ عَلى فِعْلِهِمْ

وأمّا في إيثار المُضارع في قوله: ﴿نَّفۡعَلَ﴾ فهو دلالة على كَونهم مُستمرّين على ما كانوا عليه قبْلَ وقت الخِطاب، ومُداوِمينَ[1] عليه وأنّ السّؤال لَم يَكن منهم إلّا سُخريَة منه عليه السلام وتهكُّمًا به.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بـِ نون الجماعة:

لَيْسَ فيهِمْ رَجُلٌ رَشيدٌ فَكُلُّهُمْ مُطْبِقونَ عَلى فِعْلِهِمُ القَبيح

يدلُّ التّعبير بنون الجماعة في الأفعال الثّلاثة: ﴿نَّتۡرُكَ﴾ - ﴿نَّفۡعَلَ﴾ - ﴿نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ على أنّهم جميعًا كانوا مُطْبقينَ على هذا الفعل القبيح، أيْ أنّه كان على مُستوى الجماعة، ولَم يَكُن على مُستوى الأفْراد. وأنّ هذه المواجَهَة مع شُعيب عليه السلام، لَم تَقَعْ من بعضهم، بل من جَميعهم. ولا يمْنَع أنْ يُصاحِبَ جَمْعَهم تَعْظيمٌ لأنْفُسِهم، فتَكون النّون لِلتّعظيم كذلك، ويُناسِبُه خِطابُ التّهكُّم والاستهزاءِ الّذي اسْتَطالوا به على نَبيِّ اللّه شُعيب عليه السلام.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالظَّرْفيَّةِ:

مِلْكيَّةُ الأشْياءِ لَيْسَتْ مُبَرِّرًا لِلحُرّيَّةِ المُطْلَقَةِ في التَّصَرُّفِ

التّعبير بالظَّرْفيَّة في قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا﴾ دون (بأموالنا) لدلالة الظَّرْفيَّة على تمكُّنِهم من هذه الأموال؛ لِكَونها ملْكَهم وفي حَوْزَتهم، ولِيَكون ذلك أدْعى إلى تَوْجيه اللَّوْم على شُعيب عليه السلام؛ لِكونه يَتَدخّل فيما يَمْلِكونَه ويَحوزونَهُ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالأمْوالِ:

كُلُّ ما يُمْلَكُ هو مالٌ

عبّر بلَفْظ الأموال؛ لِكَونه أعَمَّ من التّعبير بِغَيْرِه. فالمالُ في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/356.

الأصل: ما يُمْلَك من الذَّهب والفضَّة، ثُمّ أُطلِق على كلِّ ما يُقْتَنى ويُمْلَك من الأعْيان[1].

دلالَةُ الإضافَةِ في ﴿أَمۡوَٰلِنَا﴾:

القَصْدُ ما يَمْلِكونَ من أموالٍ

دلّت الإضافة في قوله تعالى: ﴿أَمۡوَٰلِنَا﴾ على أنّ مَقصودَهم الأموالُ الّتي يَمْلكونها، لِيَكون ذلك أدْعى إلى إخْراجِه.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿مَا﴾:

سَوَّغَ القومُ لِأنْفسِهم مُطْلَقَ الحُرِّيَّةِ في التَّصَرُّفِ بالمال

دلّ التّعبير بـ ﴿مَا﴾ المَوصولَة في قوله تَعالى: ﴿مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ على اعتقادهم بأنّ ملْكيَّتهم لِلمال تُسَوِّغ لهُم مُطلَقَ الحُرّيَّة في التَّصرُّف فيها على أيِّ وجْهٍ من الوجوه، ولذلك لَم يسْتَعْمل المُوصول (الّذي) الدّالّ على التّعْيين.

نُكْتَةُ اختيارِ المَشيئَةِ في: ﴿مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾:

المَشيئةُ يُعَبَّرُ بها عَمّا لا يَتَراخى وقْتُه، والإرادَةُ أعَمُّ، وتَكونُ لِما يَتَراخى وما لا يَتَراخى

نُكتة اختيار المشيئة دون الإرادة، التّعبير عن اسْتحقاقهم التَّصرُّفَ في أموالِهم وقْتَما يَشاؤون بلا تَراخٍ ولا مُهْلَة من استئذان، أو سؤالٍ عن حُكْم الشَّرْع فيما يَفْعَلون، أو غيْر ذلك؛ لأنّ المشيئة تكون لِما لا يَتَراخى وقْته، بخِلاف الإرادة فإنّها أعَمُّ، حيْث تَكون لِما يَتراخى وما لا يَتَراخى[2].

دلالَةُ حَذْفِ مُتَعَلّقِ ﴿نَشَٰٓؤُاْۖ﴾:

حَذْفُ المُتَعَلّقِ لِلدّلالَةِ عَلى العُموم

المَقصود من حذْف المُتَعلّق الدّلالة على العُموم، بحيْث لا يَتَقيّدون بِوجوهٍ دون غيْرِها في التَّصرُّف في أموالهم.

سِرُّ الجمعِ بَيْنَ عدمِ التركِ، وحريةِ التصرّف:

دَعْوةُ شُعَيْبٍ رَكَّزَتْ عَلى الإصْلاحِ الدّينيِّ والإصْلاحِ الماليِّ والاجْتِماعيِّ

في قوله تعالى: ﴿أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾ يَعود سِرُّ جَمْعهم بيْن عدَم تَرْك عبادة ما يَعْبده آباؤهم، وحرّيَّة التّصرُّف في أموالهم كما يشاؤون دون غيرهما، في ردِّهم

---

(1) ابن الأثير، النّهاية: (مول).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 124.

على شُعيب عليه السلام، إلى كَون شُعيب عليه السلام قد ركَّز في دعوته إيّاهم على هذَيْن الأمْرَين: إصلاح الاعتقاد، وإخلاص العبادة للّه، وكذلك على الإصلاح الماليّ والاجْتماعيّ بِدَعْوتهم إلى عدَم بخْس النّاس حُقوقَهم بالنّقْص في الكَيل والوزن وما سِواهما، فكان ردّهم عليه بما ذُكِر في الآية مُناسِبًا، لِجَمْعه بيْن ما كان عليه مَدارُ دَعْوته عليه السلام.

دلالَةُ فَصْلِ التذييل في الآية:

كَمالُ الاتِّصالِ في الجُمْلَةِ المَفْصولَةِ عَمّا قَبْلَها

وذلك أنّ جملة ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ إنْ حُملت على التّهكُّم والاستهزاء، فهيَ استئنافُ تَهكُّم آخَر[1] مؤكِّدٍ على مواصَلَة ما ابْتَدَؤوهُ معه من السّفاهة والتّهكُّم بشَخْصِه عليه السلام.

وإنْ حُملَت على الحَقيقة، أيْ على مَعْنى أنّهم كانوا يَرَوْنه كذلك، فتكون الجملة بمَثابَة الدّليل عليه والحُجّة القائمة على موقفه الّذي لَم يُمَيِّز - في ظنِّهم - بيْن ما قامَ به من دعوتِهم إلى تَرْك عبادة الآباء، وعدَم حُرّيَّة التّصرُّفِ في أموالِهم كما يشاؤون، على مَعنى أين ذهب عقلُك حينَ دَعَوْتَنا إلى هذا مع ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾.

بَلاغَةُ الخَتْم بـ: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾:

(التّمكين) أو (ائتِلاف الفاصلة)

وذلك أنّه لّما تَقدّم ذِكْر العبادةِ والتّصرُّف في الأموال كان ذلك تمهيدًا تامًّا لِذِكْر الحلْم والرُّشد؛ لأنّ الحلْم الّذي يَصحّ به التّكليف، والرُّشد يَصحّ به حُسْن التّصرُّف في الأموال، فكان آخِر الآية مُناسبًا لأوّلها مناسَبَة مَعنويَّةً[2]، وهو ما يُعْرَفُ بـ (التّمكين) أو (ائتِلاف الفاصلة)[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/142.
(2) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 1/80.
(3) ائتلاف الفاصلة هو الذي سمّاه بعضهم بالتّمكين وهو: أن يُمَهَّد قبل الفاصلة تمهيد تأتي به الفاصلة مُمَكَّنة في مكانها، مستقرّة في قرارها، مطمئنّة في موضعها، غير نافرة ولا قلقة، متعلّقًا معناها بمعنى الكلام كلّه تعلّقًا تامًّا، بحيث لو طرحت لاختلّ المعنى، واضطرب الفهم. ينظر: أحمد سعد الخطيب، مفاتيح التّفسير: 1/18.

قَصْرُ الصِّفَتَيْنِ عَلى سَبيلِ الإلْزام بِمُقْتَضاهُما

دلالَةُ تَعَدُّدِ المؤَكِّداتِ:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ جُملةٌ من المؤكِّدات، هي: البَدْء بـ (إنَّ) التَّوكيديَّة، واللّام الدّاخلة على ضمير الفَصْل (أنت) وهي اللّام الابْتدائيَّة، أو لام القَسَم كما يَرى ابن عاشور[1]، والإِتْيانُ بضَميرِ الفَصْل (أنت)، وتعريف الوَصْفَيْن ﴿ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾، والجُمْلة الاسْميَّةُ.

وفائدة ذلك قَصْر الصِّفَتَيْن عليه إمّا على سبيل الاسْتهزاءِ والتّهكُّم[2]؛ لأنّه لَم يَقُلْ أحَد منْ قَوْمه بمثْل مَقالَتِه[3]. أو أنّه على سبيل الحقيقة؛ لإلْزامه بِمُقْتضاهُما، ولكنْ على طريقتهم. وهو الأرْجح بِحَسب ما سَيأتي بَيانُه.

مِنْ سوءِ أخْلاقِ القَوْمِ إطْلاقُ الأوْصافِ الحَميدَةِ وإرادَةُ ضِدِّها بِقَصْدِ السُّخْرِيَةِ

عِلَّةُ الوصْفِ بـ ﴿ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾:

لدَيْنا تَعليلان لِسِرِّ اختيارِهم لهذَيْن الوصْفَيْن لِشُعَيْبٍ عليه السلام:

الأوَّل: ما ورَد عن ابنِ عبّاس رضي الله عنهما من قولِه: يُريدون بهما السّفيهَ الجاهِلَ، أيْ أنّهم كَنّوا بالحَليم الرّشيد عن السّفيهِ الجاهِلِ. ويَبدو هذا التّفسير مُشاكِلًا للُّغة؛ لأنّ العَرَبيَّ يَقول لمُخاطِبه إذا اسْتَحْمَقَه: يا عاقل مَن يَقول هذا غَيْرك؟ يُريد يا أحْمَق، ويقول لِمَن يَسْتَجْهله: يا حليم فَكِّر فيما تسْمع، يَعني يا جاهل[4].

الثّاني: أو أنّ العِلّة في اختيار الوصْفَيْن: أنّه عليه السلام كان مَشهورًا عندَهم بأنّه حليم رشيد، فلمّا أمَرَهم بمُفارَقة طريقتهم قالوا له: إنّك لأنت الحليم الرّشيد المَعروفُ الطّريقة في هذا الباب، فكيف تَنْهانا عن دينٍ ألْفَيْناهُ من آبائنا وأسلافنا، والمقصود استِبْعادُ مثل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/142.
(2) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 3/683.
(3) السّامرّائي، على طريق التّفسير البياني: 4/322.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 11/526.

هذا العمل ممَّن كان مَوْصوفًا بالحلْم والرّشد[1] والوجْه الثّاني الدّالُّ على أنّهم قاصِدون المَعنى الحَقيقيّ من الوصْفَيْن أرْجَحُ؛ بِدليل أنهم أكَّدوهُ بـ (إنَّ وباللّام، وضَمير الفَصْل: أنت)[2].

دلالَةُ التّقْديم:

تَقْديم وصْف ﴿ٱلۡحَلِيمُ﴾ على وصْف ﴿ٱلرَّشِيدُ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾؛ لأنّ وصْف الحلْم مَرْدودٌ على دَعْوته إياهم إلى التّوْحيد ونَبْذِ ما كانوا يَعبدونه من دونِ الله، وهذا ما بَدَأ به عليه السلام دَعْوتَه ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ﴾. ووصْف الرّشد - والمقصود به هُنا نَوْع منه هو حُسْن التّصرُّف في الأموال - مَرْدودٌ إلى نَهْيه إيّاهم عن النّقْص في المكيال والميزانِ وكذا الأمْر بضِدِّه وما تَلاهُ من مَعطوفات هي أعمّ في النّهْي: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ ٨٤ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ وهذا تالٍ في دَعْوته، فكان تَرْتيب الصِّفَتَيْن مُلائمًا لِتَرْتيب مَسارِ الدّعْوة.

تَرْتيبُ الصِّفتَيْنِ مُلائِمٌ لِتَرْتيبِ مَسارِ الدَّعْوةِ

فَنُّ التَّمْكين:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ فَنّ التّمكين[3]؛ إذ لمّا تَقدّم ذِكْر العِبادة وتَلاهُ ذِكْر التّصرُّف في الأمْوال، اقتَضى ذلك ذِكْر الحلْم والرّشد على التّرْتيب؛ لأنّ الحلْم: العَقْل الّذي يَصِحّ به تَكْليف العبادات، ويَحضُّ عليها، والرّشد حُسْن التّصرُّف في الأموال، أي أنّ الحلْم يُناسِب العِبادات والرّشد يُناسِب الأمْوال[4].

الحِلْمُ يُناسِبُ العِباداتِ والرُّشْدُ يُناسِبُ الأمْوالَ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/387.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/387، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3740.
(3) التّمكين: هو أن يمهّد المتكلّم لكلامه تمهيدًا تأتي به الفواصل متمكّنة في مكانها، مستقرّة في قرارها، مطمئنّة في موضوعها، غير نافرة ولا قلقة، متعلّقًا معناها بمعنى الكلام كلّه تعلّقًا تامًّا، بحيث لو طُرِحَتْ لاختلّ المعنى واضطرب الفهم، وبحيث لو سُكِتَ عنها كمّله السّامع بطبعه. يُنظر: السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 2/271.
(4) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 2/271.

بَيانُ مُتَشابِهِ النَّظْمِ في هذا المَشْهَدِ:

سِرُّ اخْتِلافِ التَّعْبِيرَيْنِ مُناسَبَةُ كُلِّ تَعْبِيرٍ مِنْهُما لِمَوْضِعِهِ سياقًا ومَقامًا

بيْن قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨٥﴾ [الأعراف: 85]، وقوله تعالى في سورة هود: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مَلْمحُ اخْتلاف مع تَشابه التَّعْبيرَيْن في جلّ الألْفاظ. فأمّا مَوْضع الأعْراف، فقد سَبَقَه قوله تعالى حكايَةً عن شُعيب عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 85] وهي جُملةٌ من الأوامر المُقْتَضى فِعْلها، والنّواهي المَطلوبِ تَرْكها، ثُمّ قال بَعدها مُشيرًا إليْها جميعًا: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨٥﴾ [الأعراف: 85].

وأمّا مَوْضع هود، فقد سَبَقَه ما يدلّ على امْتِعاضهم من اقْتِحام شُعيب عليه السلام حياتهم، وخصوصًا تَشْديده عليهم بتَرْك التّطْفيف والبَخْس لِحُقوق النّاس، والاعتماد على الحَلال، ولِشَرَهِهم الشّديد في مَحَبّة المال، وعدَم ثِقَتهم في الحَلال، وظنِّهم أنّ غِناهم فيما يُمارِسونه من الحرام، قال لهُم شُعيب عليه السلام ردًّا لِما توَهّموهُ في ذلك: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. فكان كلامه عليه السلام في كلِّ مَوْضع مناسِبًا تمامَ التّناسُبِ لِلسّياق ولِلمَقام.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(المَشيئَة) و(الإرادَة):

التَّداخُلُ بَيْنَ مَعْنَيَي المَشيئَةِ والإرادَةِ عِنْدَ عُلَماءِ اللُّغَةِ والمُتَكَلِّمينَ

من شدَّة التّقارب الدّلاليّ بَيْنَهما، ألْفَيْنا المُعْجَميّينَ يُعَرِّفون كلًّا منهما بما يُعَرَّفُ به الآخر، فمَثَلًا يَقول ابن منظور: المَشيئَةُ، مَهْموزَةً: الإرادَةُ[1] لكنّ العَسْكريَّ فرّق بَيْنهما، بأنّ الإرادَة تكون لِما يَتَراخى وقْتُه ولِما لا يَتَراخى، والمَشيئة لِما لَم يَتراخ. قال:

(1) ابن منظور، لسان العرب: (شيأ)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ريد).

والشّاهِد أنَّك تقول: فَعَلْتُ كَذا شاءَ زيدٌ أو أبى، فيُقابِل بها إباءَهُ، وذلِكَ يَكون عِنْد محاولة الفِعْل[1].

ونزيد: أنّ لَفْظ الإرادة يُطلَق على نُزوع النَّفْس إلى الشّيْء مع الحُكم فيه بأنه ينبغي أن يُفْعَل، أو لا يُفْعَل، ثُمّ إنّه يُستعمل مرّةً في المَبدَأ، وهو: نُزوع النَّفْس إلى الشّيْء، وتارَةً في المُنتَهى، وهو الحُكْم فيه بأنّه يَنْبغي أنْ يُفْعَل أو لا يُفْعَل، فإذا اسْتُعمل في اللّه فإنّه يُراد به المُنْتهى دون المَبدأ، فإنّه سبحانه يتعالى عن مَعنى النُّزوع، فمَتى قيل: أرادَ اللّه كذا، فمعْناهُ: حَكَم فيه أنّه كذا وليس بكذا، نَحْو: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةًۚ﴾ [الأحزاب: 17][2] وأمّا مع البَشَر، فإنّه يُسْتَعمل في أحَدِ المَعْنيَين المَبْدأ أو المُنْتَهى، أوْ في كِلَيْهما معًا.

والمَشيئَةُ عند أكثر المُتكلّمين كالإرادَة سَواء، وعِند بعضِهم: المَشيئَة في الأصْل: إيجادُ الشّيْء وإصابَتُه، وإنْ كان قد يُسْتَعمل في التّعارُف مَوْضع الإرادة، فالمَشيئَة من اللّه تعالى هي الإيجادُ، ومن النّاس هي الإصابَة[3].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 124.

(2) الرّاغب، المفردات: (رود)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 74.

(3) الرّاغب، المفردات: (شيأ).

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾ [هود: 88]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

دَرْءُ السَّيِّئَةِ بِالحَسَنَةِ والاسْتِعانَةُ بالله لِتَحْقيقِ الأهْدافِ الصّالِحَةِ المُصْلِحَةِ هو دَرْبُ الأنْبياءِ عليهم السلام

بعدَ أنْ حَكى اللّه تعالى في الآيَةِ السّابقَة إغلاظَهم في القوْل لنَبيِّ اللّه شُعيب عليه السلام، وما تَحملُه كلماتهم من سُخريَة به واستهزاءٍ، حَكى بَعد ذلك الرَّدَّ النَّبويَّ الحكيم على تصريحاتهم وتلْميحاتهم، وهو رَدٌّ مُسَجًّى بالتَّغاضي عن إساءاتِهم نَحْوه، وتَجاهل سفاهتهم في حقِّه، ورَدِّ السَّيِّئَ من القوْل بالحَسَن منه، فناداهم مُسْتعطِفًا بـ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ ثُمّ حاكَمَهم بَعد هذا الاسْتعطاف إلى عُقولِهم وضمائرهم، إنْ كان فيها ما قد بَقيَ لِيَفْقهوا كلامَهُ، ولِيَعلموا غايَتَه من الخَوف عَليهم، ومرادَه من الدّعْوة إلى ما يَنْفعهم ويُصْلِحُهم، مؤكِّدًا لهُم أنّ غايته الإصلاحُ، وأنّه مُسْتَمَدٌّ تَوْفيقه من اللّه في سبيل تَحْقيقِها، فقال سبحانه حِكايَة عنه عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ﴾ الآية.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾: أَصْلُ (رأى): يَدُلُّ عَلى نَظَرٍ وإبْصارٍ بِعَيْنٍ أوْ بَصيرَةٍ. فالرَّأْيُ: ما يَراهُ الإنسانُ في الأمْرِ، وجَمْعُهُ الآراءُ[1]. والرُّؤْيَةُ: إدْراكُ المَرْئيِّ، وذلِك أضْرُبٌ بِحَسبِ قِوى النَّفْسِ؛ فالأوَّلُ: بالحاسَّةِ وما يَجْري مَجْراها، نَحْو: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ٧﴾ [التكاثر: 6 - 7]. والثّاني: بالوهْم والتَّخيُّل، نَحو قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رأى).

﴿يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنفال: 50]. والثّالث: بالتَّفكُّر، نَحْو: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال: 48]. والرّابع: بالعَقْلِ، وعلى ذلك قوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ [النجم: 11]. والرَّأْيُ: اعْتِقادُ النَّفْسِ أحَدَ النَّقيضَيْن عن غَلَبَةِ الظَّنِّ، وعلى هذا قوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِۚ﴾ [آل عمران: 13]، والرُّؤْيا: ما يُرى في المَنامِ[1]. والرُّؤيَة قِسْمان: بَصَريَّة وعِلْميَّة، والرُّؤْيَةُ البَصَريّة بِالعَيْن تَتَعَدّى إلى مَفْعولٍ واحِدٍ، وبِمَعنى العِلْم تَتَعَدّى إلى مَفْعولَيْن. والرُّؤْيَةُ في الآيَةِ بِمَعْنى الاعْتِقادِ، آيِلًا الاسْتِفهامُ بها ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ إلى مَعْنى: أَخْبِروني[2].

2) ﴿بَيِّنَةٍ﴾: أَصْلُ الكَلِمةِ من البَيْنِ، وهو بُعْدُ الشَّيءِ وانْكِشافُهُ، فالبَيْنُ الفِراقُ؛ يُقالُ بانَ يَبِينُ بَيْنًا وبَيْنونَةً. والبَيونُ البِئْرُ البَعيدَةُ القَعْرِ[3]. والبَيِّنَةُ: الأَمْرُ الواضِحُ، ومنهُ قوله: ﴿إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ [الأنعام: 57]، أي: أنا على أمْرٍ واضحٍ ظاهرٍ. والبَيِّنة: الحُجَّة، ومنهُ: «البَيِّنَةُ على المدَّعي»؛ لأنَّ بها يَنْكَشِف الحقُّ ويتَّضِحُ. والبَيِّنَةُ: الدّلالة الواضِحةُ عَقْليَّةً كانت أو حِسّيَّةً[4]. والبَيان: التَّوْضيحُ والكَشْفُ، يُقالُ: بانَ الشَّيْءُ وأبانَ إذا اتَّضَحَ وانْكَشَفَ، وفُلانٌ أبْيَنُ منْ فُلانٍ؛ أيْ أوْضَحُ كَلامًا منْهُ[5]. والمَقْصودُ بالبَيِّنة في الآيَة: الحُجَّة الواضِحَةُ[6].

3) ﴿وَرَزَقَنِي﴾: أَصْلُ (رزق): يَدُلُّ على عَطاءٍ لِوقْتٍ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْهِ غَيْرُ المَوْقوتِ. فالرِّزْقُ: عَطاءُ اللهِ جَلَّ ثَناؤُهُ. ويُقالُ رَزَقَهُ اللّهُ رِزْقًا، والاسْمُ الرِّزْقُ[7]. والرّازِقُ يُقال لِخالِقِ الرِّزق، ومُعطيه، والمسبِّبِ لَه، وهو اللّه تعالى، ويُقالُ ذلك للإنْسانِ الَّذي يَصيرُ سَببًا في وصول الرِّزْقِ[8]. أيْ بِطَريق المَجاز. والرِّزْقُ أيضًا: كُلُّ ما يُنْتَفَعُ بِهِ منْ مالٍ ونَحْوِهِ، والجَمْعُ: أَرْزاقٌ[9]، والرَّزْقُ بِفَتْحِ الرّاءِ: ما رَزَقَه إيّاه، والجَمْعُ أرْزاق[10]، يُقالُ: رَزَق يَرْزُقُ

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (رأى).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/51.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(4) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (بين).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/51.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رزق).
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (رزق).
(9) الجوهريّ، الصّحاح: (رزق).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (رزق).

رِزْقًا، أيْ: أعْطَى ووهَبَ، وكُلُّ ما يَصِلُ إلى الجَوْفِ ويُتَغَذّى بِهِ فَهُو رِزْقٌ[1]. والمُرادُ بـ (الرِّزْق الحَسَن) في الآيَة: نِعْمَة النُّبوَّةِ[2] وفي قوْل أكثَرِ المُفسّرين: الرِّزْق الحَلال[3].

4) ﴿أُخَالِفَكُمْ﴾: أصْلُ (خلف) منَ الإخْلافِ، هو: مَجِيءُ شَيْءٍ بَعْدَ شَيْءٍ يَقومُ مَقامَهُ[4]، فالخَلَفُ: المُتَأخِّرُ، سَواء كان تَأخُّرُه في الزَّمَنِ، أو في الرُّتبَةِ[5]. وضِدُّ الخَلَف: السَّلَفُ، وهو: كُلُّ مَن سَبَقَكَ. والخَلَفُ أيضًا: ما اسْتَخْلَفْتَهُ من شَيْءٍ، وجمعُه: أخْلافٌ[6]. وأمّا قَوْلُهُم: اخْتَلَفَ النّاسُ في كَذا، والنّاسُ خِلْفَةٌ أيْ مُخْتَلِفونَ، فَمنَ هذا الباب؛ لأنَّ كُلَّ واحِدٍ منْهُمْ يُنَحّي قَوْلَ صاحِبِه، ويُقيمُ نَفْسَهُ مقامَ الَّذي نَحّاهُ[7]. والمَقْصودُ بالمُخالفَة في الآيَة: مُخالَفَةٌ تَدُلُّ على الاتِّصافِ بِضِدِّ حالِه، يُقالُ: خالَفَني فُلانٌ إلى كذا إذا قَصَدَهُ وأنتَ مُولٍّ عنه. والمَعنى: أنْ أفْعَلَ خِلافَ الأفْعالِ الَّتي نَهَيْتُكُم عنها بأنْ أصْرِفَكُم عنها وأنا أصيرُ إليها[8].

5) ﴿أَنْهَاكُمْ﴾: أصْلُ (نهي): يَدُلُّ على غايةٍ وبُلوغٍ. ومنه أنهَيتُ إليه الخَبَرَ: بَلَّغْتُهُ إيّاهُ. ونِهايَةُ كُلِّ شَيءٍ: غايَتُهُ. ومنه نَهَيْتُهُ عنه، وذلكَ لِأَمْرٍ يَفعَلُهُ. فإذا نَهَيْتَهُ فانتَهى عنكَ فَتِلكَ غايَةُ ما كانَ وآخِرُهُ[9]. والإنْهاءُ: الإيصالُ والإبلاغُ[10]، والنِّهايَة: غايَةُ كُلِّ شَيءٍ وآخِرُهُ[11]، والانْتِهاءُ: الاكْتِفاءُ والامْتِناعُ، يُقالُ: نَهِيَ فُلانٌ منَ اللَّحْم إذا اكْتَفى منه[12]. والنَّهْي: الكَفُّ عَنِ الشَّيءِ والمَنْعُ منه، تَقولُ: نَهاهُ إذا كَفَّهُ ومَنَعَهُ عَنْ شَيءٍ ما، ومنه النُّهْيَةُ وهي العَقْلُ؛ لأنَّهُ يَمْنَعُ صاحِبَهُ منَ القَبيحِ[13]. والمَقْصود بالنَّهي في الآيَة: طَلَبُ تَرْكِ الفِعْلِ بالقَوْلِ على وجْهِ الاسْتِعْلاءِ، أيْ ممّن هو أعْلى وأحَقّ بتَوْجيه الطَّلَب.

---

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/81.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/143.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/145، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/198، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/388، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/358، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/314.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(6) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خلف).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلف).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/143 - 144.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نهي).
(10) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نهي).
(11) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نهي).
(12) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (نهي).
(13) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نهي).

6) ﴿ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾: أَصْلُ (صلح): يَدُلُّ على خِلافِ الفَسادِ. يُقالُ: صَلُحَ الشَّيْءُ يَصْلُحُ صَلاحًا[1]، ورجل صالِحٌ في نَفْسِهِ ومُصلِحٌ في أعمالِهِ وأمورِهِ[2]. والصُّلْحُ: تَصالُحُ القَوْمِ بَيْنَهُم. وأصلَحْتُ إلى الدّابَّة: أَحْسَنْتُ إليها[3]. والإصْلاحُ جَعْلُ الشَّيْءِ صالِحًا، أي ذا صَلاحٍ، والصَّلاحُ ضِدُّ الفَسادِ يُقالُ: أَصْلَحَهُ، أَيْ: جَعَلَهُ صالِحًا، وأَصْلَح الشّيءَ بَعْدَ فَسادِهِ: أقامه[4]. والصَّلاحُ أيضًا: اسْتِقامَةُ الأَعْمالِ وطَهارَةُ النَّفْسِ، قالَ إبراهيمُ: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾ [الصّافات: 100]. والمَقْصود بالإصْلاحِ في الآيَة: تَغْيير حالِ الشَّيءِ إلى الاسْتِقامَة.

7) ﴿ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾: أَصْلُ (طوع): يَدُلُّ على الإصْحابِ والانْقِيادِ. يُقالُ: طاعَهُ يَطوعُهُ، إذا انْقادَ معهُ ومَضى لأَمْرِهِ. وأطاعَهُ بمعْنَى طاعَ له. ويُقالُ لِمَنْ وافقَ غَيْرَهُ: قَدْ طاوعَهُ[5]. والاستِطاعَةُ: القُدْرَةُ على الشَّيءِ[6]، وضِدُّها العَجْزُ، تَقُولُ: اسْتَطاعَ القِيامَ إذا قَدرَ عليه، فهو مُسْتَطيعٌ، وتَأْتي الاسْتِطاعَةُ بمعْنَى: الإمكانِ، كقَوْلِكَ: في اسْتِطاعَتِهِ كَذا، أي: في إمكانِهِ[7]. والمرادُ منَ الاسْتِطاعَةِ في الآيَةِ: القُدْرَةُ، والألفُ والسِّينُ والتّاءُ فيها للمُبالَغَةِ في طاعَ.

8) ﴿تَوۡفِيقِيٓ﴾: أَصْلُ (وفق): كَلِمَةٌ تَدُلُّ على مُلاءَمَةِ الشَّيْئَيْنِ. منه الوَفْقُ: المُوافَقَةُ. واتَّفَقَ الشَّيْئانِ: تَقارَبا وتَلاءَما، ووافَقْتُ فُلانًا: صادَقْتُهُ، كأَنَّهُما اجْتَمَعا مُتَوافِقَيْنِ[8]. والاتِّفاقُ: مُطابَقَةُ فِعْلِ الإنسان القَدَرَ، ويُقالُ ذلكَ في الخَيْرِ والشَّرِّ، يُقالُ: اتَّفَقَ لفلان خَيرٌ، واتَّفَقَ له شَرٌّ. والتَّوْفيقُ نَحْوه؛ لكنَّه يَختصُّ في التَّعارف بالخَير دُون الشَّرِّ[9]. والمَقْصود بالتَّوفيقِ في الآيَة: جَعْلُ الشَّيءِ وفْقًا لِآخَرَ، أي: طِبْقًا لَهُ[10].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلح).
(2) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (صلح).
(3) الخليل، العين: (صلح).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (صلح).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طوع).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (طوع).
(7) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (طوع).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفق).
(9) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (وفق).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/146.

9) ﴿أُنِيبُ﴾: أصلُ (نوب): تَدُلُّ على اعْتِيادِ مَكانٍ ورُجوعٍ إلَيْهِ[1].
نابَ نَوْبًا ونَوْبَة، وسمّيَ النّحل نَوْبًا لِرُجوعِها إلى مَقارِّها، ونابَتْهُ نائِبَة.
أيْ: حادِثَة من شَأْنِها أنْ تَنوب دائبًا، والإنابَةُ إلى اللّه تعالى: الرُّجوع
إلَيْه بالتَّوْبة وإخْلاصُ العَمل. قال تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ۩ ﴿٢٤﴾﴾
[ص: 24][2]، وفلانٌ يَنْتاب فلانًا. أي: يَقْصده مرّةً بَعد أُخْرى. والمُنيبُ
مَنْ أنابَ إذا رَجَعَ[3]، والمَقْصود بالإنابَةِ في الآيَة: الرُّجوعُ إلى اللّهِ
والتَّوْبةُ إلَيْه.

المَعْنى الإجْماليُّ:

ثَباتُ الأنْبياءِ عَلى المَبْدَأ وثِقَتُهُمْ بِاللهِ وتَفْويضُ أُمورِهِمْ إلَيْهِ ظاهِرَةٌ سَتَبْقى ماثِلَةً أمامَ الأعْيُنِ في كُلِّ جيلٍ

قال شُعَيبٌ عليه السلام: يا قوْمِ أخبِروني إن كنتُ على يقينٍ وعِلْمٍ من اللّه فيما أمَرَني أنْ أدعوكم إليه من تَوْحيدِه، وفيما أنْهاكُم عنه من ظُلم النّاس، وأعطاني اللّهُ من فَضلِه مالًا حلالًا طيِّبًا، أفَأتَّبِعُ الضَّلالَ، وأضِلُّ كما ضَلَلْتُم؟ وما أريدُ أنْ أخالِفَكم فأرتكِبَ أمرًا نهيتُكم عنه، وما أريدُ فيما آمُرُكم به وأنهاكم عنه إلّا إصلاحَكم قَدْرَ طاقَتي واستطاعَتي، وما توفيقي - في إصابةِ الحَقِّ، ومحاولةِ إصلاحِكم - إلّا باللّهِ، على اللّهِ اعتمَدتُ، وفوَّضتُ إليه جميعَ أُموري، وإليه وحْدَه أرجِعُ بالتَّوبةِ والطّاعةِ والدُّعاءِ[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالَةُ الفَصْلِ:

شِبْهُ كَمالِ الاتِّصالِ في الجُمْلَةِ المَفْصولَةِ عَمّا قَبْلَها

لمّا بالَغوا في السّفاهة والحُمْق معه عليه السلام، كأنّ سائلًا سأل: وماذا قال لهم شُعيب بعدَ ذلك، فجاء الجَوابُ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نوب).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (نوب).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (نوب).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 12/549، والواحديّ، التّفسير الوجيز، ص: 530، وابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 3/201، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/344، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 387.

﴿كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ وهذا الأسلوب يَكْثُر في القرآن الكريم في المحاورات، فلا تأتي معطوفةً على بعضها بأحد حُروفِ العَطْف في الغالب، وإنّما يكون سَبَب فَصلِها أنّها إجابةٌ عن سؤالٍ مُقدَّر: فماذا ردَّ عليه بَعد ذلك؟

دلالَةُ تَكْرارِ النِّداءِ بـ: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

مِـنْ رَحْـمَـةِ الأنْبياءِ الإشْفاقُ حتّى عَلى مَنْ يُؤْذونهُمْ

في تَكرار النِّداء من قِبَلِه ﷺ بـ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ - حال مخاطبتهم - دلالةٌ على حِرْصه وإشْفاقِه عليهم حَدَّ الاسْتعطاف، عَلَّهُم أَنْ يَسْتجيبوا لِندائه.

دلالَةُ الاسْتِفْهام في: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾:

تقرير المعارضين بالحقّ

الاستفهام في قوله: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ لِلتّقرير وإثارَةِ الانْتِباه الشّديد[1]، فهو يُخاطب عُقولهم - إنْ كان لديهم أثارَة منها - لِيُقرِّرَهم بنتيجة ما يسْتَفْهم عنه ظاهرًا، وهو مَعلوم الجوابِ.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالرُّؤْيَةِ في: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾:

اسْتِحْضارُ صورَةِ المُسْتَفْهَمِ عَنْهُ في الذِّهْنِ لِتَأْكيدِ المَعْنى المُقَرَّرِ وتَمْكينِهِ

الرّؤية هُنا هي العِلْمية، أيْ بمَعنى أعْلِموني أَوْ أَخْبِروني. وهو لا يُسْتَعمل إلا في طلب مَن حالُه حالُ مَن يَجْحَد الخبَرَ[2] وغرض هذا التّركيب الاستفهاميِّ، استحضار صورة المُسْتفهَمِ عنه في الذّهن، لِيَجريَ الحديث عنها وهي حاضرة، كَي يَتَمكّن المَعنى المراد في النّفْس[3].

بَلاغَةُ المَجازِ المُرْسَلِ في: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾:

الـرُّؤْيَـةُ بِمَعْنى الإخْبارِ

استعمال الرّؤية بمَعنى الإخبار مَجاز، فيَكون المَعنى أَخْبِروني، والعلاقة ما بَيْن العِلْم، والإخبار من السّببيَّة والمسبّبيَّة واللّازميَّة والمَلْزوميَّة، واستعمال الهمزة الّتي هي لطلب الإخبار مَجازٌ[4].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3741.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/51.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/118.
(4) محمد عفيف، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/60.

ففي هذا التّعبير مَجازٌ مُركَّب؛ حيْث عبّرَ عن العِلْم بِسَببه وهي الرّؤية؛ لأنّ الرُّؤيَة هي أقوى وسيلة في تحصيل العِلْم، ثمّ طلب الإخبار والإعلام عن هذه الرّؤية المُتيقَّنة من خِلال لازِمها، على مَعنى: أحَصلَ لديْكم العِلْم اليَقينيُّ بما رَأيْتم؟ فأخْبروني عِلْمًا يَقينيًّا بما تَحَصَّل لديكم.

دلالَةُ التَّعْبيرِ بـ ﴿إِن﴾:

مِنَ المَنْهَجِ الدَّعَويِّ إرْخاءُ العِنانِ لِلْمَدْعوِّ المُعانِدِ، وتَلْيينُ الخِطابِ مَعَهُ رَجاءَ اسْتِمالَتِهِ

يدلّ التّعبير بـ ﴿إِن﴾ الّتي تُفيد الشَّكّ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُ﴾ مع أنّه على يَقين من ذلك، على قَصْدِه ﷺ من إرخاء العِنان لَهُم، وتَلْيين الخِطاب معهم لاسْتِمالَتِهم(1). فالأصْل استعمال (إذا) الدّالّة على التّحقُّق، ولكنّه خَرَج عن الظّاهر دون مُقْتضى الحالِ فعبّرَ بـ (إنْ) المفيدة لِلتّشْكيك من باب مُجاراة الخَصْم وإرخاء العِنان له.

بَلاغَةُ عَرْضِ مُراجَعَةِ شُعَيْبٍ لِقَوْمِهِ في أمْرِ الدَّعْوَةِ:

مِنَ الأساليبِ الدَّعَوِيَّةِ والحِجاجيَّةِ ما يُعْرَفُ بـ (المُنْصِف مِن الكَلامِ) أو (الاسْتِدْراج)

إنّ ما سَلَكه ﷺ من التّعبير بـ ﴿إِن﴾ الّتي تُفيد الشّكّ قائلًا، كما حَكى سبحانه: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ لَهو من الأساليب الدّعَويَّة والحِجاجيَّة أيضًا، فهو يُرخي لهم العِنان، ويُلين لهم الخِطاب، ويَمدُّ لهم الحَبْل لِيَجرَّهم جرًّا إلى التّأمّل في حاله، اعتمادًا على ثِقته في عِلْمهم بكَريم خِصاله. ويُعرف هذا الأسلوبُ بـ (المُنْصِف من الكلام) أو (الاسْتِدْراج)(2).

دلالَةُ تاءِ الإخْبارِ في: ﴿كُنتُ﴾ في أمْرِ الدَّعْوَةِ:

في سَيْرورَةِ الدَّعْوةِ قَدْ يَحْتاجُ الدّاعي إلى إنْزالِ نَفْسِهِ مَنْزِلَةَ المُحاكَم

الدّاعي هُنا يُنَزِّل نَفْسَه مَنْزِلةَ المُحاكَم ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ﴾ ويدعو المُخاطَب إلى النّظر في حاله، وكأنّه مُتَّهم ومَطلوبٌ منه أنْ يُحاكِمَه، وذلك لِيَستدرجَه إلى النّظر، فقد يَصِل المخاطَبُ من حيْث لا يَقْصِد إلى حقيقة الأمْرِ.

---

(1) الطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 8/169، والمطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/118.
(2) الخطيب، مفاتيح التّفسير: 1/111.

وقد تَكرَّر هذا في السّورَة نفسِها مع نَبيَّي اللّه: (نوح، وصالح) عليهما السلام، في قوله تعالى حكايةً عن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾ [هود: 28] وقوله حكاية عن صالح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥ﴾ [هود: 63].

ويُشبه هذا التّعبير في الهدف والمَقْصد قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَعَلَيَّ إِجۡرَامِي وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُجۡرِمُونَ ٣٥﴾ [هود: 35] وقولُه: ﴿۞قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤ قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٥﴾ [سبأ: 24 - 25].

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ في: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾:

إيثارُ (على) الاسْتِعْلائيَّةِ لِلدّلالَةِ عَلى قوَّةِ حُجَّتِهِ وظُهورِ حالِهِ

في اختيار ﴿عَلَىٰ﴾ دون غيْرها في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٖ﴾: دلالةٌ على أنّه في قوَّة بُرهانه وظهور حالِه من الصِّدق في الإخبار عن اللّه، لَهو أعلى في ذلك من البَيِّنة نفْسِها. وعليه تَكون هُنا (اسْتعارَة تَبعيَّة) في الحَرْف ﴿عَلَىٰ﴾ كما هي كذلك في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 5]؛ إذ الأَصل: في هُدى.

وجْهُ اخْتيارِ ﴿بَيِّنَةٖ﴾:

أكْثَرُ مَوارِدِ (البيّنة) مُرادٌ فيه الحُجَّةُ الواضِحَةُ

البيّنة هي الدّلالة الواضِحة الظّاهرة، الّتي لا تَحتاج لِشدَّة وُضوحِها إلى إجالَةِ نَظَر، بخِلاف الحجَّة فإنّها لا تُعتَبر كذلك إلّا بَعد النَّظر[1] أمّا قبل ذلك، فلا. وأمّا الآيَةُ، فهي تُطلَق في القرآن على المُعجزة، والمُعْجزة قاطِعَةٌ في دلالة الصِّدق، فهي أعلى مُستوى في الدّلالة مِنَ البيّنة. والّذي يَظهرُ أنّه عليه السلام لَم يُحاكِمْهم هُنا إلى

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 69.

المُعجزة، وإنّما حاكَمَهم إلى مَعْرفتهم به وبأخلاقِه وبِسيرَتِه الحَسَنة، وأنّه ليس من أصْحاب الهَوى، ولا بالّذي يَبيع قوْمَهُ لِغَرض رَخيص، تَأْسيسًا على وصْفهم إيّاه بأنّه ﴿ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ ومن ثَمّ يَكون التّعبير بالبيّنة أدَقَّ وأنْسَب، ولَو حاكَمَهم إلى المُعجزة لكان التّعبير بالآيَة أنْسَبَ[1].

دلالَةُ التَّنْكيرِ في: ﴿بَيِّنَةٍ﴾:

التَّنْكيرُ لِلتَّفْخيم

التّنكير في ﴿بَيِّنَةٍ﴾ لِتَفخيم أمْرِها في الوضوح والظّهور، على مَعنى أنّها فيهما بحيْث لا يُمْكِن وصْفها ولا تَعْريفُها.

نُكْتَةُ التَّعْبيرِ بِالمُفْرَدِ ﴿بَيِّنَةٍ﴾:

بَيّنةٌ واحِدَةٌ صادِقَةٌ تَكْفي في إقامَةِ الحُجَّةِ

التّعبير بالمُفرَد ﴿بَيِّنَةٍ﴾ للدّلالة على أنّ بيّنة واحدة من ربِّه كافية في إظهار صِدْقه والتّدْليل عليه، أو أنّ المرادَ به جِنْسُ البيّنات، كما في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: 5].

دلالَةُ تَقْييدِ البَيِّنَةِ: ﴿مِّن رَّبِّي﴾:

القَصْدُ مِنَ الرِّسالَةِ البَيِّنَةُ

تقييد البيّنة بكَوْنها: ﴿مِّن رَّبِّي﴾؛ لأنه يُريد الرِّسالة في الأصْل، ولَو أنّه قد حاكَمَهم أوّلًا من باب التَّنَزُّل إلى ما يَعْرفونه من أخْلاقِه عليه السلام، الّتي عبَّروا عنها بأنّه ﴿ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ لِيَسْتدرجَهم إلى ما بعدَه.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالرُّبوبيَّةِ:

في مَقامِ الإنْعامِ والامْتِنانِ يُؤْثَرُ التَّعْبيرُ بِالرُّبوبيَّةِ

عُبّرَ بالرّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّي﴾ دون الأُلوهيَّة (من الله) لأنَّ المَقام مَقامُ إنعام وامْتنان؛ فإرسال الرُّسل من البَشر، هو نعمة من الله على خَلْقه تَسْتحقُّ الشُّكر، وقد عبِّرَ عنها بذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: 164].

---

(1) قال ابن عاشور في التّحرير والتّنوير: 9/40: "إنّ أكثر موارد (الآية) في القرآن مراد فيه المعجزة، وأكثر موارد (البيّنة) مراد فيه الحجّة"، أي الواضحة الظّاهرة.

دلالَةُ الإضافَةِ في: ﴿مِّن رَّبِّي﴾:

الإضافَةُ اعْتِزازٌ واعْتِرافٌ بِفَضْلِ اللهِ عَلَيْهِ

الإضافة في قوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّي﴾ هي إضافة تَشْريفٍ واعْتِزاز وإبْرازٍ لِنِعمة اللّه عليه، وهي النّعمة الّتي لَم يُدْرِكْها قوْمه، ولَم يَعتَرفوا بها، ولِذا لَم يَقُل: (من ربّكم).

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَرَزَقَنِي﴾:

﴿وَرَزَقَنِي﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾ الواو هُنا عاطِفَة، لِلجَمْع بيْن نِعْمتَين قد أنْعَمَ اللّه بهما عليه، وهما الرِّسالة المَدْلولُ عليها بقوْله: ﴿بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾، والرِّزْق الحَلال المُبارَك المَدْلولُ عليه بقوْله: ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾. وفي ذلك مَزيدُ فَضْلٍ وإحْسان.

دلالَةُ الرِّزْقِ في: ﴿رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾:

تَحْقيقُ القَوْلِ في المُرادِ بِالرِّزْقِ الحَسَنِ

فُسِّرَ الرِّزْق الحَسَنُ بالنُّبوَّة، في قوله سبحانه ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾، ووجْه كَوْنها رِزقًا حسَنًا، أنّ النّجاة في الآخِرَة مُتوقِّفة على مُتابعتها، فهي مَناطُ الحياة الأبَديَّة[1] وعندئذٍ يَكون التّعبير عن النُّبوَّة بالرِّزْق من قَبيل المُشاكَلَة لِقوْلهم: ﴿أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ﴾[2].

والأظْهر أنَ المُرادَ بالرّزْق الحَسَن: الرّزْق الحَلال الطّيّبُ، وهو قَول أكثَرِ المُفسّرين[3] وما يُرجِّحُه فَضلًا عن ذلك أُمورٌ:

منها: أنّ تفسيره بالنّبوَّة لا يُضيف جديدًا؛ لأنّ النّبوَّة مدلولٌ عليها بكلمة ﴿بَيِّنَةٖ﴾، أمّا تفسيره بالرِّزق الحسَن فهو تأسيس، فلَه على هذا حقّ التّقديم.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/233.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/143.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/145، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/198، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/388، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/358، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/314.

ومنها: أنّه القوْل الأنْسَب لِلمَقام والأوْفَق لِلسّياق، لِيَكون حجّة في مواجهة كَسْبِهم الخبيثِ الّذي جَمَعوه من ظُلْم النّاس والتّطْفيف في الكَيل والوزن، وفيه دَعْوة لهم لِيوازِنوا بيْن بَرَكة الحَلال ومَحْق الحَرام.

ومنها: أنّ الكلام عندَئذٍ يَكون مَحمولًا على حقيقته، لا على مَجازه، والحمْل على الحقيقة أوْلى ما لَم يَتعذّر الحمْل عليها، وهو هُنا غيْرُ مُتَعذّر، بل أنْسب لِلمَقام وأوْفق للسّياق.

دلالَةُ تعبير شعيب بقوله: ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾:

لَوْ كانوا راشِدينَ لَعَلِموا صِدْقَ دَعْوةِ نَبيِّهِمْ إيّاهم إلى الخَيْرِ

في قوله: ﴿وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾ دلالةٌ على أنّه عليه السلام كان غنيًّا كثيرَ المال[1] وأنّه كان مُبارَكا له فيه، الأمْرُ الّذي جعلَه يَسْتدرِجهم للنّظر في حال الغِنى مع البَرَكة، لِيَتَحقَّقوا من أنّ وصْفهم إيّاه بـ ﴿ٱلرَّشِيدُ﴾ هو في مَحلّه، ولِيَعلَموا أنّه ما دعاهم إلّا إلى خيْر مَدلول عليه بحالِه الّتي يَعيشها من الغِنى بالحَلالِ الطَّيّب المُبارَك.

سِرُّ التَّعْبيرِ بِالفِعْلِ الماضي ﴿وَرَزَقَنِي﴾:

الـرِّزْقُ فَضْلٌ مُتَحَقّقٌ عايَنوهُ

عبّر بالفِعل الماضي لِتَحقُّق وُقوعِ الرّزق الحسَن الحلالِ الطّيّب، ولا شكّ أنّهم قد عايّنوه، وشاهدوا أثرَهُ على شُعيب عليه السلام.

دلالَةُ ياءِ المُتَكَلِّمِ في ﴿وَرَزَقَنِي﴾:

إسْنادُ النِّعْمَةِ إلى المُنْعِمِ اعْتِرافٌ وشُكْرٌ

تدُلّ ياء التَّكلُّم الّتي هي مفعول (رزق) على إسنادِه أمْرَ الرّزق إلى ربّه، لا إلى ذكائه ولا مهارَته، ولا غَرْو فهو نَبيٌّ مُرْسَلٌ يَعرف كَيف يَؤولُ بِالنّعم إلى المُنعِم، وليس كما قال قارونُ اغْترارًا بما مَنَّ اللّه به عليه من الكنوز الكَثيرِ والكثير، قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: 78].

بَيانُ المُتشابِهِ اللَّفْظيِّ:

بَيْن قوْله تعالى على لسان شُعيب عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/388، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/358.

﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ﴾ وبَيّن قوْله تعالى على لسان صالِح عليه السلام ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ٦٣﴾ [هود: 63] الآية، وبَيّن قوْله تعالى على لسان نوحٍ عليه السلام ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾ [هود: 28].

دلالَةُ التَّقْديمِ والتَّأْخيرِ والاخْتِلافِ والاتِّفاقِ في هذا المَشْهَدِ:

أوَّلًا: الاتِّفاقُ في المَواضِعِ الثَّلاثَةِ ودلالَتُهُ.

اتَّفَقَت المواضع الثّلاثة في اسْتِهْلالها بنَفْس جُملة الشّرْط بَعد فِعل القوْل ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾؛ وهذا دليل على صِدق هؤلاء الأنبياء جميعًا، وأنّهم على تباعُدِ أزمانهم وأوْطانهم، هم جميعًا مُتَّفِقون في منهج الدّعْوة، القائم على الحجّة والبَيّنة.

ثانيًا: الاخْتِلافُ في المَواضِعِ الثَّلاثَةِ ودلالَتُهُ.

أ - الاختلاف في التّعبير بِكَلمة ﴿وَرَزَقَنِي﴾ في كلام شُعيب عليه السلام، و﴿وَءَاتَىٰنِي﴾ في كلام نوح وصالِح عليهما السلام. وتَوْجيه ذلك: أنّ قوْل شُعيب عليه السلام ﴿وَرَزَقَنِي﴾ قد وقع مَحْصورًا بَيْن سابِق ولاحِق جَعَلا من المُناسِب التّعبيرَ به دون التّعبير بـ ﴿وَءَاتَىٰنِي﴾ [هود: 28، 63] وذلك أنّه قد تقدَّمه ذِكرُ الأموال، وتأخّر عنه قوْلُه ﴿رِزْقًا حَسَنًاۚ﴾ فناسَبَ أنْ يقول: ﴿وَرَزَقَنِي﴾.

وأمّا في كلام نوح وصالِح عليهما السلام؛ فقد تَقَدَّمهما أمورٌ عامَّة، فناسَبَها قوْل: ﴿وَءَاتَىٰنِي﴾[1].

ب - الاختلاف في جواب الشَّرْط حَذفًا وذِكرًا:

وذلك أنّه في المَوضع الخاصّ بشُعيب عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ﴾ حُذِفَ جوابُ الشّرْط، ولَم يُحْذف في المَوضعَين الآخَرين. أمّا فيما جاء على لِسان نوح عليه السلام من قوله: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾ [هود: 28] فالجواب هو قوْله: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾، أيْ: أنُكْرِهُكُم على قَبولها وأنتم لا تَختارونها.

(1) الأنصاريّ، فتح الرّحمن، ص: 263.

وكذلك فيما جاء على لِسان صالِح عليه السلام من قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥ﴾ [هود: 63]، فالجواب مَذْكور وهو قوله: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي﴾، أيْ: أخْبِروني إنْ تَركت البَيّنة وتابَعْتُكم، فمَن يَمْنعني من عذاب اللّه؟

بَلاغَةُ حَذْفِ جوابِ الشَّرْطِ: ﴿إِن كُنتُ﴾:

في تَوْجيهِ حذْفِ جَوابِ الشَّرْطِ أكْثَرُ مِن احْتِمالٍ

منْهُ أنّه حذَفه لتَقدُّم ما يدلّ عليه في سياق الكلام، وهو ما تقدَّم في قِصَّتَي نوح وصالِح عليهما السلام. أمّا في قصّة نوح: فهو قوله: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ٢٨﴾ [هود: 28]، الجواب: ﴿أَنُلۡزِمُكُمُوهَا﴾ [هود: 28]، أي: أنُكْرِهكم على قَبولها وأنتم لا تختارونها.

وأمّا في قصّة صالِح: فهو ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥ﴾ [هود: 63]، الجواب: ﴿فَمَن يَنصُرُنِي﴾ [هود: 63]، أي: أخبروني إنْ تَركتُ البَيّنة وتابَعْتكم، فمَن يَمْنَعني من عذاب اللّه؟

ولمّا كانت الآيتان قَريبتَي العَهد؛ لكونهما في هذه السورة، صَلَحتا أنْ تكونا قَرينتَين للحَذْف، والمُقدَّر ها هُنا هو قوله: "أيَصحُّ لي أنْ لا آمُرَكم"، وهو اعتذار عمّا أنْكروا عليه من تَغيير المَألوفات[1] ومنه أنّ المَحْذوف يدلّ عليه قوله: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ والتّقدير: ماذا يَسَعُكم في تكذيبي، أو ماذا يُنجيكم من عاقبة تَكذيبي[2] ومنه أنّه حذَفه لتَذهب النّفس فيه كلَّ مذْهَب[3].

دلالَةُ تَقْديم الجارِّ والمَجْرور ﴿مِنۡهُ﴾:

التَّقْديمُ لإفادَةِ الاهْتِمامِ والاخْتِصاص

يُفيد تقديم الجارّ والمَجرورِ ﴿مِنۡهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَرَزَقَنِي

(1) الطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 8/170.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/143، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/198.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/358.

﴿مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾ الاهتمام والاختصاص. أمّا الاهتمام فهو بالرّازِق سبحانه اعترافًا بفضله، كما في قوله: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ [التحريم: 11] فقدّمَتِ الجارَ على الدّارِ أُنْسًا به واهْتمامًا في الجوارِ ورَغبة به، وأمّا الاختصاص، فإنّه لا رازِق سِواه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ٥٨﴾ [الذّاريات: 58]، و(من) هُنا ابتدائيّة على مَعنى: رِزقٌ يَبدأ من عند ربّي.

دلالَةُ الإضْمارِ في: ﴿مِنۡهُ﴾ دونَ الإظْهارِ:

لا رازِقَ إلّا الله تَعالى

أوثِر الإضمارُ هُنا على الإظهار في قوله: ﴿مِنۡهُ﴾ لِوُضوحه فالرّزْق لا يَكون إلّا من الله، وأيضًا لقُرب العَهد بذِكْره في قوله: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾.

سِرُّ التَّعْبيرِ بالمَصْدَرِ ﴿رِزۡقًا﴾:

التَّعْبيرُ بالمَصْدَرِ لِلتَّأْكيدِ

التّعبير بالمَصْدَر دالٌّ على الحَدَث وهو الرِّزْق مُجرَّدًا عن الزّمان، فالتّعبير به آكَدُ، ويَزيدُه تأكيدًا هُنا أنّه مؤكَّد بفِعْله ﴿وَرَزَقَنِي﴾... ﴿رِزۡقًا﴾.

دلالَةُ وصْفِ الرِّزْقِ بِالحَسَنِ:

كُلُّ طَيّبٍ حَسَنٌ، ولَيْسَ كُلُّ حَسَنٍ طَيّبًا

أوثِر الوصفُ بالحَسَن على الوصْف بالطّيّب في قوله تعالى: ﴿رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾؛ لأنّ الحسن عبارة عن كلّ مُبهج مرغوب فيه[1] فهو أعمُّ من الطّيّب، الّذي يُطلَق اصطلاحًا شرعيًّا على الحلال، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: 3] أي ما حلّ لكم من النّساء. وقوله: ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ﴾ [النساء: 2] أي: لا تتبدَّلوا الحرام بالحلال.

وعلى هذا فالمناسب هُنا الوصْف بالحسن لا الوصف بالطّيّب؛ لأنّ قوم شُعيب عليه السلام لَم يكونوا مشغولين بالحلال والحرام، ولكنَّهم

(1) الرّاغب، المفردات: (حسن).

مشغولون بكثرة الرّبح، فإذا كان الرّبح كثيرًا لا يهمّهُم أنْ يكون من حلال أو حرام، ولأنّه عليه السلام قد تمتّع بالرّزق الكثير الحلال كما أشرنا إلى ذلك سلفًا، فقد صدَّر لهم الوصْف الّذي يعجبهم مشمولًا فيه وصف الحلال، أيْ أنّ التّعبير بالحسَن أعمّ من التّعبير بالطّيّب، فكلّ طيّب حسن، وليس كلّ حسن طيّبًا.

تَوْجيهُ التَّنْكيرِ في: ﴿رِزۡقًا﴾:

التَّنْكيرُ لِلتَّفْخيم والتَّعْظيم

دلّ التّنكير في قوله: ﴿رِزۡقًا﴾ على تفخيم شأنه وتعظيم حالِه؛ أنْ كان من ربّه واهب النِّعم، وزاد تفخيمه وصْفُه بالحسن.

دلالَةُ الواوِ في: ﴿وَمَآ أُرِيدُ﴾:

سَبيلُ البَيّنَةِ مِنَ الله تَعالى يُنافي الإتْيانَ بِالمَنْهيِّ عَنْهُ

الواو عاطفَة لجملة ﴿وَمَآ أُرِيدُ﴾ وهي جملة لا محلَّ لها من الإعراب، على جملة ﴿أَرَءَيۡتُمۡ﴾ الاستئنافيَّة[1] ليُقرِّر أنّ سبيل البيّنة من ربّه ينافي الإتيان بالمنهيّ عنه.

بَلاغَةُ أُسْلوبِ النَّفْيِ:

أداةُ النَّفْيِ (ما) آكَدُ وأوْسَعُ مِنْ (ليس)

استَعملت جملةُ النّفْي في قوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ﴾ أداة النّفي ﴿وَمَآ﴾ وهي آكَد وأوسعُ من (ليس) فيما لو كان التّعبير (ولست أريد) والمراد بالنّفي هنا نفْيُ الحال والاستقبال؛ لأنّه ليس من شأنه عليه السلام أنْ يخالِف فيأتي ما ينهى عنه، أو يقصد مخالفتهم ليَنْفرد بما يتولَّون عنه دونهم[2]، لا في الحال ولا في الاستقبال، فهو نبيٌّ لا يتأتّى منه ذلك.

سِرُّ التّعْبيرِ بِالإرادَةِ:

نَفْيُ الإرادَةِ أبْلَغُ مِنْ نَفْيِ الفِعْلِ

عبّر بنفْي الإرادة دون نفي الفعل مَثلًا فقال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ﴾ بدل (وما أفعل) أو (وما أقصد)؛ لأنّ نفْيَ الإرادة أبلَغ من نفْي الفعل،

(1) الخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 6/153.
(2) الخفاجيّ، حاشية الشّهاب: 6/315، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/144.

فالإرادة تسبِق الفعل، فإذا نفاها كان نفيه للفعل من باب أوْلى.
وعلى هذا المعنى من المبالَغة في النّفي ورَد قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٨﴾ [آل عمران: 108].

بَلاغَةُ التَّضْمينِ في فِعْلِ الإرادَةِ:

ضمّن الفعل (أراد) في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ معنى (قصد)، أو (ابتغى) والمُتعدّي بـ ﴿إِلَىٰ﴾. والمعنى: وما أقصِد ولا أبتغي إلى ما نهيتكم عنه مخالفتَكم إلى البخْس في المكيال، والتَّطفيف في الميزان لأحقِّق لنفْسي نفعًا. والجمع بيْن دلالَتَي فِعلَين (أريد - أقصد، أبْتغي) أقوى من التّعبير بدلالة الفعل الواحد (أريد)[1].

ضمّنَ (أُريد) مَعْنى القَصْدِ والابْتِغاءِ

دلالة التّعبير بالمصْدَر المؤَوَّل:

اختيار المصْدر المؤوّل بدل الصّريح في قوله: ﴿أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ﴾؛ لأنّ الزّمن هنا مقصود، فهو نفْي لإرادة مخالفتهم إلى ما نَهاهم عنه حالًا واستقبالًا، أيْ بعد صدور نهْيه إيّاهم عمّا نَهاهم عنه. فضلًا عمّا في المصْدر المؤوّل ولا سيّما مع (أنْ) من دلالة على مجرَّد معنى الحدَث دون احتمال زائد عليه، ففي (أنْ) تخليص له من شوائب الإجمال بتحديد هيئات المخالَفة وكيفيّاتها؛ فالنّفي مخصِّص للمخالَفة فحسْب[2].

نَفَى إرادة مخالفتهم إلى ما نَهاهم عنه حالًا واستقبالًا

سرّ اختيار فعل ﴿أُخَالِفَكُمۡ﴾:

يُقال: خالفني فلان إلى كذا، إذا قصَده وأنت مولٍّ عنه، وخالفني عنه، إذا ولّى عنه وأنت قاصده. ويلقاك الرَّجل صادرًا عن الماء فتسألُه عن صاحبه، فيقول: خالَفني إلى الماء، يُريد أنّه قد ذهب إليه واردًا، وأنا ذاهب عنه صادرًا[3].

إيثار الفعل (أخالفكم) على غيره لكَونه أدلّ على قصْده

(1) محمد عفيف، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/61.
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 3/149.
(3) المنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 3/512.

وعلى هذا فالسّرّ في اختيار الفعل ﴿أُخَالِفَكُمۡ﴾ دون غيره؛ لأنّ التّعبير به يدلّ على نفْي القصْد إلى فعل ما يُنْهى عنه، مع تولّي الطّرف الآخر عن الفعل، كمَن يخادع النّاس فيَنْهاهم عن فعل شيء لكَونه يُريد الاستئثار بفعله والاستبداد به، فإذا أطاعوه وانْخَدَعوا له قصَد هو إلى الفعل فاستأثَرَ به دونهم. فيَقَع هذا في دائرة قوله تعالى: ﴿۞أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة: 44].

ومثال ذلك أنْ يحاول تاجِرٌ أنْ يصرِف غيرَه من التّجّار عن سِلعة معيّنة؛ لأنّه يريد احتكارَها لنفْسه، فيَعيبها ويذمّها أمامهم وكأنّه الحريص على مصلحتهم، فإذا انصاعوا لكلامه، خلصَتْ له دونهم، فيكون ذلك أبلغ في الذمّ. فإذا نَفَى عليه السلام عن نفسه ذلك ظهَر أنّه ما نهاهم عمّا نهاهم عنه إلّا خوفًا عليهم، وهو أوّل المُعْرِضين عنه.

بلاغة التّضمين في: ﴿إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ﴾:

الدلالة على انتهاء الغاية مقصود في الكلام

تعدّى الفعل ﴿أُخَالِفَكُمۡ﴾ إلى مفعوله وهو المَوصول ﴿مَآ﴾ بحرْف الجرّ ﴿إِلَىٰ﴾ وليس حرْف الجرّ اللّام؛ لأنّه متضمّن معنى القصْد والذَّهاب، وكلٌّ من (قصَد) و(ذَهَب) حال التّعدّي يتعدّيان بالحرْف (إلى) الدّالّة على انتهاء الغاية. فقولك: خالفت إلى كذا إذا ذهبت إليه بينما غيرك منصَرِف عنه، وفي التّضمين تجتمع قوّة الفعلَيْن، على معنى: لا أريد أنْ أخالفكم مخالفة أذهب معها إلى أنْ أنهاكم.

دلالة التّعبير بـ ﴿مَآ﴾:

التّعبير بـ (ما) أجمعُ وأخصرُ

التّعبير بـ ﴿مَآ﴾ الموصولة في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ﴾ مقصود به الجمع والاختصار، فما من شكٍّ في أنّها أجمَعُ وأخصَر بخلاف (الّذي) الّتي تُناسِب التّعيين والتّحديدَ.

سرّ اختيار الفعل ﴿أَنۡهَىٰكُمۡ﴾:

اختيرَ الفعل ﴿أَنۡهَىٰكُمۡ﴾ دون غيره؛ لتقدُّم عدد من جُمَل النّهْي، الّتي خاطب بها شعيب عليه السلام قومه على جِهة الطّلب فقال ناهيًا: ﴿وَلَا

﴿تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾ وقال: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾.

وجه التّعبير بالمضارع ﴿أَنۡهَىٰكُمۡ﴾:

طريق الدّعوة غير ممهّد ويحتاج إلى صبر وتكرار وتحمُّل

عبّر بالمضارع ﴿أَنۡهَىٰكُمۡ﴾ دون الماضي (نهيتكم)؛ لأنّه ﷺ كان يواصل نُصحهم بنشاط متجدّد دونما فتور أو توقُّف؛ لكَونه رسولًا مُكلَّفًا بدعوتهم والدّعوة لا تعرف اليأس ولا الملل، ولكونه حريصًا على إيمانهم وبُعدهم عمّا نهاهم عنه. والّذي دَعاهُ ﷺ إلى هذا القوْل: "إمّا لأنّه عرف من مَلامح تكذيبهم أنّهم تَوهَّموه ساعيًا إلى التّملُّك عليهم والتّجبُّر، وإمّا لأنّه أراد أنْ يَقلَع من نُفوسهم خواطر الشَّرّ قبْل أنْ تَهجس فيها"(1).

دلالة الفصْلِ في: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾:

شِبْه كمال الاتّصال في الجملة المفصولة

أوثِر الفَصْل في الجملة، للاستئناف البيانيِّ؛ إذ إنّها وقَعت مَوقع الجواب عن سؤال مقدَّر، فكأنّه لمّا قال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ قيل: وماذا تريد؟ فقال: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾(2).

دلالة أسلوب القصْر:

قصر الصِّفة على الموصوف لتأكيد إخلاصه لهم في النُّصح

قصَر في قوله: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾ صِفةً على موصوف؛ أمّا الصِّفة المقصورة، فهي إرادة شعيب ﷺ، وأمّا الموصوف المقصور عليه، فهو الإصلاح(3)، ووقَع القصْر هنا بالاستثناء بعد النّفي الّذي يؤتى به مع المنكِر، وقد أراد بأسلوب القصْر هذا أنْ يبيِّن لهم مؤكِّدًا، أنّه ليس له من مَصلحة خاصّة فيما يقوم به من دعوتهم إلى عبادة اللّه وتوحيده، وإلى عدَم ظُلم النّاس وبخْس حقوقهم، وإنّما الغاية

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/144.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/177.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/120.

هي مصلحتهم هُم، فهو لا يريد لهم إلّا الإصلاح. وقد أفادت صيغة القصْر تأكيد ذلك المعنى؛ لأنّ القصْر كان يُمكِن حصوله بمجرَّد الاقتصار على النَّفي والإثبات نَحو أنْ يقول: ما أريد أنْ أخالفكم أريد الإصلاح[1] وعندئذٍ لا تكون إرادته محصورة في الإصلاح بل قد تتجاوزه إلى غيره فتضمّه إليه.

سرّ إيثار النّفي بـ ﴿إِنْ﴾:

النَّفي بـ (إنْ) آكَد من النَّفي بـ (ما)

أوثِرَت ﴿إِنْ﴾ في النَّفي على (ما) في قوله: ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾؛ لأنّ النَّفي بها آكَد من النَّفي بـ (ما)[2] فضلًا عمّا في التّعبير بها من التّفنُّن؛ لأنّه سبَقها النَّفي بـ (ما) في قوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ﴾.

سرّ التّعبير بالإرادة في: ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾:

استئناف بيانيٌّ وبيان للمجمَل

قوله تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ﴾، مَردود إلى قوله السّابق: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ﴾ جوابًا عن سؤال مقدَّر أو بيانًا لمجمَلها:

فعَلى الأوَّل - وقد مرَّ بنا - كأنّهم قالوا: إذا لَم تُرِد المخالفة إلى ما تنهانا عنه، فماذا تريد؟ قال: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾. وعلى هذا ففي الجملة (شِبْه كمال اتِّصال).

وعلى الثّاني، فإنّ قوله: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ مجمَل، وبيانه في قوله: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ "لأنّ انتِفاء إرادة المخالفة إلى ما نهاهم عنه مجمَل فيما يريد إثباته من أضْداد المَنفيّ فبيَّنه بأنَّ الضِّدَّ المراد إثباته هو الإصلاح في جميع أوقات استطاعته، بتحصيل الإصلاح"[3] وعليه ففي الجملة (كمال اتّصال) لكونها وقعت بيانًا للجملة الأولى[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/145.
(2) السّامرّائيّ، على طريق التّفسير البيانيّ: 4/323.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/145.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/120.

علّة اختيار ﴿ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾:

الإصلاح يكون عقب الإفساد

اختيرَ ﴿ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾ دون غيره في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ﴾؛ لكَونه مقابِلًا للإفساد الّذي أحدَثوه في معاملة الخالق؛ بعدم التّوحيد والعبادة، والإفساد في معاملة الخَلْق؛ بالبَخْس والظّلم. فهما سبيلان متقابِلان، الثّاني منهما يعقب الأوّل في سبيل الأنبياء، أي: الإصلاح يعقب الإفساد، ويُعكَس الأمر في سبيل المفسدين الّذين يُفسدون ما كان صالحًا، ولذا قوبِلا كذلك في قوله تعالى حكاية لقول موسى لهارون عليهما السلام: ﴿وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢﴾ [الأعراف: 142].

دلالة عدم إضافة الإصلاح إلى ضمير المخاطَبينَ:

الإصلاح عند الأنبياء عامٌّ لجميع النّاس ولجميع ما يُفسد على النّاس دينهم وتماسكهم الاجتماعيَّ

لَم يُضِفِ الإصلاحَ إلى ضمير المخاطَبين بأنْ يقول: (إلا إصلاحكم)؛ لأنّه لو جاء كذلك لكان من باب إضافة المصْدر لمفعوله، فيُفيد أنّهم مخصوصون بهذا الإصلاح ومقصودون بالذّات دون غيرهم، وهذا وإنْ كان مُشعرًا لهم بالاهتمام، لكنَّ فيه تضييقًا وتقييدًا لطلاقة مفهوم الإصلاح عند الأنبياء. وعليه، فمَجيئه هكذا مُطلَقًا عن قيْد الإضافة أدلُّ وأوْفى، على أنْ يدْخلوا فيه دُخولًا أوَّليًّا.

وفضلًا عن هذا فإنّ إيراده مضافًا قد يُذْكي في نفوسهم ما قد وقَع فيها من ريبةٍ، بأنّه كان يتظاهر بالإصلاح، ليُخالفهم إلى ما ينهاهم عنه ويستبدَّ به دونهم، وهو ما نَفاهُ عليه السلام فيما مضى، ثمّ عاد ليؤكِّدهُ وليَقْتلع بذور الشّكِّ من نفوسهم، معلِنًا لهم بأنّ طريقه هو الإصلاح، وأنّ دعوته معتمدة عليه، سواء كان لهم أو لغيرهم.

سرّ التّعبير بالاستطاعة في: ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾:

الاستطاعة قيْدٌ للإصلاح

عبَّر بالاستطاعة هنا بوصْفِه قيْدًا لِما أطلقه من إرادة الإصلاح، فقد قيّده بالاستطاعة. وما يستطيعه في هذا هو القَدْرُ الَّذي يوفّقه اللّه إليه؛ لقوله بعد ذلك: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾. و﴿مَا﴾ في قوله:

﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ مصدريَّة، نائبة عن ظَرْف الزّمان واقعة مَوْقعه، ويقال لها: ما الظَّرفيَّة[1] أيْ: زمنَ استطاعتي، أو مدّةَ استطاعتي. وهذا كما تقول: آتيك خفوقَ النَّجم، أو صياحَ الدّيك[2] وهذا أظهر ما قيل في ﴿مَا﴾[3]، وفي التّعبير بالاستطاعة إيماءٌ إلى تواضعه عليه السلام؛ إذ قيّد الاستطاعة على الإصلاح بتوفيق الله تعالى؛ فالاستطاعة المُطلَقة للّه تعالى وليس لمخلوق مهْما علَت منزلته.

بلاغة الاحتراس في: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾:

دفع توهّم نسبة الفضل إلى غير الله تعالى

جاء بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ بعد الجملة السّابقة عليها ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾؛ وذلك أنّه لمّا بيّن لهم حقيقة عمله، وأنّه ما يريد إلّا الإصلاح، وكان في بيانه ما يَجرّ الثّناء على نفسه، أو قد يتوهّم ذلك بعضُ مَن يسمعه يَقوله، أعقبه بما يزيل ذلك التّوهّم، بإرجاع الفضل في ذلك إلى اللّه فقال: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾[4].

سرّ التّعبير بالتّوفيق عن الإصلاح:

التّوفيق سبب لحصول الإصلاح ونشاط المصلِح

ظاهرٌ أنّ السّرّ في تسمية الإصلاح توفيقًا في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾، راجعٌ إلى كونه السّبب فيه، فلا إصلاح ولا طاعة أصلًا، إلّا بتوفيق من اللّه. أيْ بإرادته وهَدْيه[5] وكذلك المصلِح فإنّه لا ينشط له إلّا بتوفيق من اللّه.

نكتة التعبير بالتّوفيق:

التّعبير بالتّوفيق أدلّ وأقوى من التّعبير بالنّجاح

السّبب في اختيار التّوفيق تعبيرًا في قوله: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ بدل النّجاح ونحوه؛ لأنّ التّعبير به أتمُّ؛ إذ التّوفيق يعني جعلَ الشّيء

(1) المراديّ، الجنى الداني، ص: 230.
(2) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/685، والمنتجب، الكتاب الفريد: 3/512.
(3) الخطيب وآخران، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 6/88.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/145.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/145.

وفقًا لآخَر، أيْ طِبقًا له وذلك بخَلْق قُدْرة وفْق الأمر من الطّاعة[1] وليس كذلك النّجاح؛ إذ لا يشترط فيه تمام المطابَقة، بل هو بلوغ المراد وقضاء الحاجة[2] وسيأتي في الفروق اللّغويّة مزيد بيان للفرْق بيْن التّوفيق والنّجاح.

دلالة أسلوب القصْر:

لا يُستمدّ التّوفيق إلّا من الله

القصْر في قوله: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ من باب قصْر صِفة - وهي التّوفيق -، على موصوف هو ﴿بِٱللَّهِۚ﴾[3]، أيْ أنّ الحال أنّه لا يكون توفيق أبدًا إلّا إذا كان بمَدد اللّه وعَونه وحولِه وقوّته.

دلالة الباء في: ﴿إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾:

لا استعانة إلّا بالله تعالى

الباء هنا هي باء الاستعانة، الّتي تدخل على المستعان به، والمستعان به هنا هو اللّه تعالى، فلا مُعين على الطّاعة سِواه. وبهذا يظهر لماذا كان التّعبير بالباء دون غيرها.

سرّ إسناد التّوفيق إلى لفظ الجلالة (الله):

في مَقام التهيّب والإجلال يؤثر التّعبير بِاسم الجلالة

في إسناد التّوفيق إلى لفظ الجلالة دون إسناده إلى اسم الرّبّ، مع كونه نعمة من اللّه وكان يناسبه الإضافة إليه أيضًا؛ لِما أنّ المَقام مقام تهيّب وإجلال، فكان التّعبير بلفظ الجلالة أوْفى بالمقام وأدلَّ على المَرام، وأوْلى لتحقيق غرض تربية المَهابة في قلوب المخاطَبين، وهو ما يحقّقه التّعبير بالاسم الجليل (اللّه).

دلالة الفصْل في: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾:

كمال الاتّصال في الجملة المفصولة

فُصلت جملة ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ عمّا قبْلها، لِما بينهما من كمال اتّصال؛ لأنّها مؤكِّدة لمعنى ما سبَقها[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/360، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/145.
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 201.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/120.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/120.

إفادة القصْر والاختصاص

دلالة تقديم الجارّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِ﴾:

دلَّ تقديم الجارّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِ﴾ على قوله ﴿تَوَكَّلۡتُ﴾ لإفادة القصْر، والاختصاص، فالمؤمن لا يتوكّل إلّا على اللّه، ولا يخصّ غير اللّه في توكّله. ولأجْل هذا شاع هذا التّقديم في مواضع وُروده في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ﴾ [التوبة: 129] وقوله: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧﴾ [يوسف: 67] وقوله: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ﴾ [الملك: 29].

التّوكُّل اعتماد كامل على الله مع تفويض مُطلَق له سبحانه

سرّ اختيار التّوكُّل، والتّعبير به ماضيًا:

في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ عبّر البيانُ القرآنيُّ بالتّوكّل دون غيره كالاعتماد مَثلًا مع كونه حقيقة فيه[1]؛ لكون التّوكّل اعتمادًا مع تفويض[2] كامل للّه ﷻ، مع الأخذ بالأسباب.

وعبَّر عن التّوكّل بالماضي، للدّلالة على كونه ملازِمًا له من قبْل لَم يفارقه، وأنّه لَم يستَحْدثه الآن - أي وقت الخطاب - بل هو مُداوم عليه.

دلالة الوصْل في: ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾:

وُصِلت الجملة بسابقتها عَطفًا بالواو؛ لاتِّفاقهما في الخبَريَّة لفظًا ومعنًى مع عدم المانع من العطْف، فبينهما على هذا (توسُّط بيْن الكمالَين)[3].

لا تكون الإنابةُ إلّا لله

دلالة تقديم الجارّ والمجرور في: ﴿وَإِلَيۡهِ﴾:

دلّ تقديم الجارّ والمجرور ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ على قوله ﴿أُنِيبُ﴾ على ما دلّ عليه تقديمه في قوله: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ وهو إفادة القصْر. فكَما أنّ التّوكُّل لا يكون إلّا على اللّه، فهكذا الإنابة، فإنّها لا تكون إلّا إليه.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/151.

(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 303.

(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/120.

وجه إيثار لفظ (الإنابة):

الإنابة تعني الرّجوع بالنّدم والتّوبة وليس مُطلَق الرّجوع

واختيرَ التّعبير بلفظ الإنابة دون الرّجوع في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾؛ لأنّ المقصود هو العودة إلى الله تعالى بالتّوبة والنّدم على المعاصي، وهو معنى الإنابة. قال ذلك ﷺ ترغيبًا لهم في التّوبة والنّدم على ما هم فيه، ولا يدلّ لفظ الرّجوع على نفس المعنى؛ لأنّ معناه المصير إلى الموضع الّذي قد كانَ فيهِ قبل[1]، ولا يعني الرّجوع بالتّوبة والنّدم، بل قد يعني الرّجوع إلى المعصية، وسيأتي في الفروق المعجميّة بيان الفرق بيّن لفظَي الإنابة والرّجوع.

ثمّ إنّ في هذا التّركيب ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ بُعدًا آخر، وهو أنّه ﷺ ينزِّل نفسه منزلة المذنب الّذي يحتاج دوْمًا إلى التّوبة والإنابة، وفيه إغراء لهم على الرّجوع إلى الله مُنيبين إليه.

نكتة التّعبير بالمضارِع ﴿أُنِيبُ﴾:

استخدام المضارع لإفادة التّجدُّد والاستمرار

دلّ التّعبير بالمضارع دون الماضي في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ على دوام إنابَته ﷺ لربّه، واستمراره عليها، وتجدّد إعلانها وإظهارها بالتّعبير في كلّ مَوقف يستدْعيها.

بلاغة عطْف المضارع على الماضي:

الإنابة مستمرّة متجدّدة

عطف المضارع على الماضي في قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ للدّلالة على استمراريّة الإنابة منه؛ لأنّ صيغة المضارع تفيد التّجدُّد والاستمرار، واستعمال الماضي ﴿تَوَكَّلۡتُ﴾ للدّلالة على الوقوع والتّحقّق، ويساعد في الدّلالة على الاستقبال ما في مادّة الفعل من الثّبوت المستمرّ على الصِّفة الّتي يفيدها الحدَث[2].

أثر التّعبير بصيغ الإفراد:

من منهج الأنبياء في الدّعوة التّواضع مع الله

أوثر التّعبير بصيغة الإفراد فيما ورَد في دعوة شعيب ﷺ في كلٍّ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 303.

(2) محمد عفيف، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/61.

من: ﴿أُرِيدُ﴾ و﴿ٱسْتَطَعْتُ﴾ و﴿تَوَكَّلْتُ﴾ و﴿أُنِيبُ﴾ إظهارًا لِلتّواضع لله أوّلًا، ثمّ لهم حتّى يدْرأ به توهّم التّعاظم عليهم في خطابه لهم.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرُّؤيةُ والعلمُ:

العـلـم أوسـع مدًى من الرّؤية لأنّها لا تكون إلّا للـموجود وهو يكون للموجود وغيره

تستعمل الرؤية في معنى العلم كثيرًا في القرآن الكريم وفي غيره، ويُطلَق عليها الرّؤية العِلْميّة في مقابِل الرّؤية البَصَريّة الّتي يكون معتمَدُها البَصَر؛ بأنْ يرى الشيء بالعين، ومن حيْث الأصلُ، فإنّه يفرَّق بينهما بأنّ الرُّؤيَة لا تكون إلّا لِلْمَوْجود، فالعيْن لا ترى إلّا موجودًا أمامها، وأمّا العِلْم فهو أوسع مدًى؛ لأنّه يتَناول المَوْجود والمعدوم.

وفي اللُّغة والاستعمال القرآنيّ تأتي الرّؤية على ثلاثَة أَوْجُه:

أحدها: العِلم: وهو حاصل بوفرة في خطابات القرآن الموجَّهة للرّسول ﷺ المستفْهَم عنها بالرّؤية في أمور لَم يشاهِدْها لِبُعدها الزّمنيّ عن عصْره، كقَوْله تَعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: 258] وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ [الفجر: 6] وقولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل: 1]. وهو المقصود في الآية.

وثانيها: أنْ تأتي بمعنى الظَّنِّ، كالّتي في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦﴾ [المعارج: 6] أي يظنّونه. وقوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران: 13] أي: يظنّونهم بحسب مقتضى مشاهدة العيْن مثلَيْهم.

وثالثها: الرّؤية بالبصَر، وهو المعنى الأصل في استعمال التّعبير بلفظ الرّؤية.

والوجهان الأوّل والثّاني من باب المَجاز، والثّالث من باب الحقيقة[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 94، والرّاغب، المفردات: (رأى).

البيّنةُ والآيةُ:

أكثر موارد الآية في القرآن مراد فيه المعجِزة، وأكثر موارد البيّنة مراد فيه الحُجّة

يستعمل القرآن الكريم كلًّا من (البيّنة) و(الآية) للدّلالة على المعجزة الّتي أيّد اللّه ﷻ بها أنبياءه، لتكون دليل صدقهم، وتطلَق (البيّنة) ويراد بها الحُجّة والبرهان العقليُّ، وأمّا عن المعنى الدّلاليّ والاستعماليّ لكلٍّ منهما، فالبيّنة هي الدّلالة الواضحة عقليَّة كانت أو محسوسَة. قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [هود: 17] وقال: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الأعراف: 101]. ومن هنا اصطُفيَت في سياق الآية لتُعبّر عن الدّلالة الواضحة الظّاهرة، الّتي لا تحتاج لشدَّة وضوحها إلى إجالة نظَرٍ.

و(الآية) لها في اللُّغة وفي استعمال القرآن معانٍ مفصَّلة في كُتب اللُّغة والمفردات[1] منها: العلامة والدّليل والعِبرة، وهذا كلُّه ملحوظ في لفظ الآية حالَ دلالتها على المعجزة الّتي يؤيّد اللّه تعالى بها رسُلَه، وتكون حُجّتهم أمام المدّعوّينَ. ومن استعمال القرآن الكريم لها في معنى المعجزة قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٥٠﴾ [العنكبوت: 50].

وقد بيّن ابن عاشور مسلك القرآن الكريم في استعمال المفرَدَتَين (الآية والبيّنة) بقوله: "إنّ أكثر موارد الآية في القرآن مراد فيه المعجزة، وأكثر موارد البيّنة مراد فيه الحُجّة، فالمراد بالبيّنة في قول موسى عليه السلام: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 105] الحُجّة على إثبات الإلهيَّة وعلى حَقّيَّة ما جاء به من إرشاد لقومه، فكان فرعون غير مقتنع ببُرهان العقل أو قاصرًا عن النَّظر فيه فانتقل إلى طلبِ خارق العادة[2] أي آية أو معجزة.

(1) الرّاغب، المفردات: (أي).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/40.

التّوفيقُ والنّجاحُ:

التّوفيق يكون في بلوغ ما هو حسن فهو أخصُّ والنّجاح أعمُّ

التّوفيق يكون بجعْل الشّيء وفْقًا لآخر، أيْ طِبقًا له وذلك بخلْق قُدرة وفْق الأمْر من الطّاعة[1] وليس كذلك النّجاح؛ إذ لا يشترط فيه تمام المُطابَقة، بل هو بلوغ المراد وقضاء الحاجة[2].

وبلوغ المراد وتحقيق المطلوب في النّجاح قد لا يكون حسنًا في ذاته. أمّا التّوفيق، فلا يكون إلّا لما حسُن من الأفعال. يُقال: وفِّق فلان للإنصاف. ولا يقال: وفِّق للظُّلم[3].

وعلى هذا فالنّجاح أعمُّ من التّوفيق، فكلُّ توفيق نجاح وليس كلُّ نجاح توفيقا، وفي هذا تعليل لاختيار لفظ ﴿تَوۡفِيقِيٓ﴾ على لسان شعيب ﷺ دون غيره؛ إذ لا يناسِب النَّبيَّ إلّا ما حسُن من الأفعال.

الإنابةُ والرُّجوعُ:

كلّ إنابة رجوع وليس كلّ رجوع إنابة

يشترك كلٌّ من الإنابة والرّجوع في معنى العودة، لكن يُفرّق بينهما بأنّ الإنابة تعني الرّجوع إلى الله تعالى بالتّوبة بَعد معصية أو مقارفة ذنب، فاللَّفظ خاصٌّ بالرُّجوع إلى الطّاعة، حيْث لا يُقال لِمَن رَجَع إلى مَعْصية: إنَّه أناب[4] أمّا الرّجوع، فهو المصير إلى المَوضع الَّذي قد كان فيه قبْلُ[5] فلا يفيد خصوصيّة المعنى الذي أفاده لفظ الإنابة.

وعلى هذا يكون بينهما عموم وخصوص مُطلَق، فكلُّ إنابة رجوع وليس كلُّ رجوع إنابةً.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/360، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/145.
(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 201.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 218.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 303.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 303.

﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾

[هود: 89]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَـيـسَ بـعـدَ النّـصحِ عـذرٌ، ولـيـسَ بـعـدَ الـشّـقـاقِ إلّا عذابٌ طباقٌ

لمّا بيّنَ شُعيبٌ عليه السلام لقومه أنَّ غايتَهُ الإصلاحُ بما أوتيَ من توفيقهِ سبحانهُ، وأنّهُ فوّضَ أمرَهُ إليهِ وحدَهُ، "أتبَعَهُ بما يدلُّهُم على أنَّ الحقَّ وضحَ لهم وضوحًا لمْ يبقَ معهُ إلّا المعاندةُ، فحذّرَهُم عواقبَها، وذكّرهُم أمرَ مَنِ ارتكبَها"[1]، تحذيرًا أنْ يصيبَهُم ما أصابَ الأقوام الّتي يعلمونَ من أمرِها ما يعلمونَ، والّتي أريناها من سوءِ عذابِنا، فاستأصلناها بالغرقِ، والرّيحِ، والرّجفةِ، والخسفِ بما هو عِبرةٌ للأممِ والقرونِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾: جذرُ الفعلِ مادّةُ: (جرم)، فالجيمُ والرّاءُ والميمُ أصلٌ واحِدٌ، يدلُّ على القطعِ، وإليه تَرجِعُ المعاني المأخوذة منه. ومعنى جَرَمَ؛ أي: كَسَبَ؛ لأنَّ الّذي يَحوزُهُ كأنّهُ اقتطَعَهُ، والكَسبُ اقتِطاعٌ. والمُجرِمُ: المُذنِبُ[2]، وهذه الاستعمالاتُ تعطي معنى الكسبِ والحملِ. فمعنى قوله تعالى: ﴿لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾: لا يَحملنَّكُم[3]، وكأنَّ كسبَهُ الشّقاقَ والعداءَ اقتطاعٌ من مَوجودٍ حملَهُ إلى استحقاقِ العذابِ.

2) ﴿شِقَاقِيٓ﴾: مادّتُه (شقق). و(الشِّقُّ) بالكسرِ: نصفُ الشّيءِ. وهذا شقيق هذا، إذا انشقّ الشّيءُ بنصفين، فكلُّ واحدٍ منهما شقيقُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/360.
(2) الخليل، العين: (جرم).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (جرم).

الآخرِ، ومنه قِيلَ: فلانٌ شقيقُ فلانٍ؛ أي: أخوه، تشبيهًا لهما بالقطعةِ الواحدةِ الّتي انقسمَت شقَّين، والشِّقاقُ: الخلافُ[1]، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ﴾ [البقرة: 137]؛ أي: مُخالَفة[2] والشّقاقُ: المعاداةُ والمغالظةُ[3] والشِّقاقُ بمعنى الخلافِ والعداوةِ، هو المعنى المرادُ في هذه الآيةِ الكريمةِ، فكأنَّ المُخالِفَ أخذَ شقًّا غيرَ الشّقِّ الّذي أخذَهُ مخالفُهُ.

3) ﴿يُصِيبَكُم﴾: أصلُ مادّتِهِ (صوب)، فالصّادُ والواوُ والباءُ أصلٌ صحيحٌ، يدلُّ على نُزولِ شَيءٍ واستِقرارِ قَرارِه. من ذلك الصَّوابُ في القَولِ والفِعلِ، كأنَّهُ أمرٌ نازِلٌ مُستَقِرٌّ قَرارُهُ. وهو خِلافُ الخطأ. ومنهُ الصَّوبُ، وهو نُزولُ المَطرِ[4] والإصابةُ: النّزولُ بالشّيءِ واللّحاقُ به، خيرًا كان النّازلُ أو شرًّا، كقوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النّساء: 79]، ثمّ كَثُرَ في الشّرِّ. وجاءَتِ المصيبةُ بمعنى النّازلةِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ﴾ [البقرة: 156]. ومن هنا يتبيَّنُ أنَّ معنى ﴿يُصِيبَكُم﴾: ينزل بكُم، والمقصودُ بالنّازلِ العذابُ لِما دلَّ عليه السِّياقُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

منهجُ الحقِّ يستنزلُ الرَّحماتِ، ولو مع مَن حشدَ العداواتِ

يخاطبُ شعيبٌ عليه السلام قومَه قائلًا: يا قوم لا يَحملَنَّكم خلافي وعداوتي على التّكذيبِ بما جئتُ به منَ التّوحيدِ ودينِ الحقِّ؛ خوفًا من أن يقعَ عليكُم منَ العذابِ مثلُ ما نالَ قومَ نوحٍ، أو قومَ هودٍ، أو قومَ صالحٍ، وليسَ قومُ لوطٍ منكُم ببعيدٍ، لا زمانًا ولا مكانًا، وقد علمتُم ما أصابَهم منَ العذابِ والهلاكِ بسببِ تكذيبِهم ومُخالفتِهمُ الحقَّ، فاعتبِروا[5].

(1) الخليل، العين: (شقّ)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (شقق).
(2) الرّاغب، المفردات: (شقَّ).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (شقق)، الجوهريّ، الصّحاح: (شقق).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صوب).
(5) جماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 232.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواوِ ودلالتُها:

مواصلةُ النَّصيحةِ دليلُ تمكُّنِ الأخلاقِ الصَّحيحةِ

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ﴾ عاطفةٌ على الجملة السّابقة[1]، فبعدَ أن كانَت نصائحُ شعيبٍ ﷺ لقومِهِ تترى في الآيةِ السّابقةِ، أتبعَها هنا بمثلِها، ثمَّ انتقلَ إلى تذكيرِهم بمصارعِ سابقيهم منَ الأقوام الّتي كذّبَت رسلَ اللّهِ، وتحذيرِهم من أن يكونَ مصيرهُم كمصيرِ أولئكَ الظّالمينَ[2].

دلالةُ تكرارِ النّداءِ:

لطفُ الخطابِ واستنزالُ المُنادى بمقتضَى المحبّةِ والشّفقةِ

في تَكرارِ النّداءِ تنبيهٌ على أهمّيَّةِ الكلامِ المُلقى بعدَه، وتشويقٌ للعنايةِ بمضمونِه، فقد تكرّرَ النّداءُ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾ غيرَ مرّةٍ قبلَ الآيةِ وبعدَها؛ فإنّ شعيبًا لمّا رأى منهُم العصبيّةَ والمراءَ بفراستِهِ وثاقبِ نظرِهِ، خاطبَهُم بمُقتضَى محبّتِهِم والشّفقةِ عليهِم وإرخاءِ العِنانِ[3] لهُم؛ فجاءَ بهذا النّداءِ تلطُّفًا، وفي تكرارِه من رقيقِ الاستدعاءِ ولطفِ المراجعةِ وحسنِ الاستنزالِ ما فيهِ من خطيبِ الأنبياءِ شعيبٍ ﷺ في أسلوبٍ منهُ لطيفٍ غريبِ المَغزَى، أرادَ أن يُتوصَّلَ بهِ إلى الغرضِ في استدراجِ المُخاطَبِ[4].

توجيهُ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾:

الجرمُ قطعُ الثّمرةِ، واستُعيرَ لكلِّ اكتسابٍ مكروهٍ

جاءَ التّعبيرُ بلفظِ ﴿لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾ دونَ غيرِهِ منَ الألفاظِ؛ لأنّ هذا اللَّفظَ مأخوذٌ منَ الجرمِ، وهو قطعُ الثّمرةِ عنِ الشّجرِ، أو جذُّ عراجينِ النّخلةِ، ثمّ استُعيرَ هذا اللّفظُ لكلِّ اكتسابٍ مكروهٍ[5] أو ما لا خيرَ فيهِ؛ فأصبحَ ﴿يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾؛ بمعنى: يكسبنَّكُم شائعًا عليهِ، وهو هنا

---

(1) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 13/234.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/261.
(3) الطّيبيّ، الفواتح الإلهيّة: 1/362.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/198.
(5) الطّباطبائيّ، الميزان: 10/373، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/86.

اكتسابهُم المصيبةَ؛ أي: لا تجعلوا عداوتَكُم لي سببًا لاكتسابِ العذابِ، وفيه بيانٌ عجيبٌ بتصويرِ اكتسابِ العذابِ النّازلِ منَ السّماءِ.

غرضُ النّهي وبلاغةُ مجازِه:

الانتهاء عن مشاقَّةِ شعيبٍ ﵇ انتهاءٌ عن إتيانِ أسبابِ العذابِ، ممّا يؤولُ إلى تركِهِ

في قولِه تعالى: ﴿لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ﴾ نهيٌ عن كسبِ العذابِ بحسبِ الظّاهرِ، إلّا أنّ حقيقتَهُ نهيٌ للمُخاطَبينَ عن مُشاقَّتهِ ﵇ بأسلوبٍ لطيفٍ بديعٍ[1]؛ لأنَّ الانتهاءَ عن مُشاقَّتِهِ انتهاءٌ عن إتيانِ أسبابِ العذابِ، ومن ثمَّ تركه.

والنّهيُ عنِ الشّقاقِ في الآيةِ جاءَ على طريقِ المجازِ أو الكنايةِ عن نهيهِم هُم عن شقاقِهم إيّاهُ ﵇؛ وذلك على جعلِ إضافةِ (شقاق) إلى ياءِ المتكلّمِ من إضافةِ المصدرِ إلى مفعولِهِ؛ أي: لا يكسبنَّكُم شِقاقُكم إيّايَ أن يُصيبَكُم مثلُ ما أصابَ قومَ نوحٍ منَ الغرقِ أو قومَ هودٍ منَ الرِّيحِ أو قومَ صالحٍ منَ الرّجفةِ والصّيحةِ؛ لأنّهُ يكونُ آنئذٍ أبلغُ منْ أنْ يوجّهَ النّهيَ إليهِم مباشرةً؛ فإنّهُ إذا نهى الشِّقاقَ، وهو فاقدُ العقلَ، عَلِمَ نَهيَ الّذينَ يُشاقّونَ بالطّريقِ الأَوْلى[2].

فالمقصود أنْ ينهاهُم أنْ يجعلوا الشِّقاقَ مدعاةً لأنْ يُعرِضوا عن النّظرِ في دعوتِهِ والإيمانِ بها؛ فإنْ لم يفعلوا أحلّوا أنفسَهُم محلًّا ليسَ لهُم إلّا أنْ يصيبَهُمُ العذابُ الّذي أخذَ غيرَهُم، وهُمْ يظنّونَ أنّهُم يمكُرونَ، وما يمكُرونَ إلّا بأنفسِهِم[3].

سرُّ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾:

تجدُّدُ الشِّقاقِ ملحوظٌ في منهجِ الصّادِّين عنِ الإيمانِ

أُوثِر التّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ: ﴿لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾ لدلالتِهِ على تصويرِ حرصِ المناوئينَ على اكتسابِ الشِّقاقِ، وللإيماءِ إلى أنَّ هذا الفعلَ مُتجدِّدٌ؛ فليسَ يخلو زمانٌ أو مكانٌ من أناسٍ أمثالِ قومِ شعيبٍ،

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/235.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/317.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/146 - 147.

يكذّبونَ دعوةَ اللّهِ تعالى، ويجعلونَ الشِّقاقَ سببًا للإعراضِ والصَّدِّ عن دينِ اللّهِ تعالى؛ فيمكُرونَ، وما يمكرونَ إلّا بأنفسِهم، وهو أمرٌ يجري حكمُهُ حتّى يرثَ اللّهُ الأرضَ، ومَن عليها.

دلالةُ التّأكيدِ:

إصرارُ المُشاقِّين يُقابلُهُ إصرارُ الدُّعاةِ على الحقِّ

أوردَ فعلَ الجرم مُؤكَّدًا بنونِ التّوكيدِ المثقّلةِ[1] في قولِه تعالى: ﴿لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ﴾، والتّوكيدُ هنا دالٌّ على إصرارِهِم على المشاقّةِ والعداوةِ[2]، وآيةُ ذلكَ أنَّ العذابَ قد أصابَهُم مثلَما أصابَ مكذِّبي الرّسلِ قبلَهُم بالخزي والاستئصالِ، كما أنَّه دالٌّ على إصرارِ شعيبٍ عليه السلام على نهيِهِم عن غيِّهِم.

معنى الإضافةِ ودلالتُها:

معاداةُ المُجرمين للمُؤمنينَ تجعلُهُم يُشاقُّون لأجلِ المُشاقَّةِ

أُضيفَ الشّقاقُ إلى ضميرِه عليه السلام في قولِه تعالى: ﴿لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ﴾، وهو من إضافةِ المصدرِ إلى مفعولِه[3]؛ فإنَّ الشّقاقَ واقعٌ منهُم على شعيبٍ عليه السلام؛ أي: لا تجعلوا شِقاقَكُمْ إيّايَ يَكسِبَنَّكُم العذابَ بأن يكونَ مصيرُكُم مصيرَ قومِ نوحٍ أو قومِ هودٍ أو قومِ صالحٍ الّذينَ جُوزوا سيِّئَ الجزاءِ لتكذيبِهِم الرُّسلَ، ودلالةُ الإضافةِ أنَّ الشِّقاقَ أصبحَ مُلتصِقًا بشعيبٍ عليه السلام، فكأنَّه له.

بلاغةُ التّعبيرِ بالإصابةِ:

الإصابةُ دالّةٌ على القصدِ وبلوغِ الهدفِ

في استعمالِ لفظِ الإصابةِ في قولِه تعالى: ﴿أَن يُصِيبَكُم﴾، والمرادُ: الإيصالُ والإلحاقُ قوّةً وبلاغةً، فإنَّ الأصلَ في معنى الإصابةِ النُّزولُ والاستقرارُ والانتهاءُ إلى الموضِعِ[4]؛ أي: إيصالُ عذابِ الدّنيا وإلحاقُهُ إلى الأقوامِ المذكورينَ، بإصابةٍ بالغةٍ ومقصودةٍ، وهو مُتنوِّعٌ بينَ الغرقِ والزّلزلةِ ونحوِهما[5].

---

(1) الخرّاط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 2/481.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/120.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/317.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صوب).

(5) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 10/180.

دلالةُ التّعبيرِ بالمصدرِ المؤوّلِ:

المُشاقّةُ علّةُ الإصابةِ بالعذابِ الأكيدِ

المصدرُ المُنسبكُ من (أنْ) والفعل في قولِهِ تعالى: ﴿لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم﴾ مفعولٌ ثانٍ لفعلِ ﴿يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾، والفاعلُ ضميرُ الشِّقاقِ، فجاءَ بالمصدرِ المؤوّلِ دونَ المصدرِ الصّريحِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم﴾؛ لأنّهُ أرادَ أن يكونَ الحرفُ المصدريُّ ﴿أَن﴾ تعليلًا وتوكيدًا[1]؛ فإنَّ في مشاقّتِهِ ﷺ علّةً لأنْ يصيبَهُمُ العذابُ المؤكّدُ الّذي لا مهربَ منهُ ولا مناصَ. وفي إيثارِ التَّعبيرِ بالمصدرِ المؤوّلِ دونَ الصّريحِ دلالةٌ على زمنِ الإصابةِ في الحالِ والاستقبالِ؛ لكونِ الفعلِ المنسبكِ مع (أنْ) مضارعًا، وهو ما لا يؤدّيهِ المصدرُ الصّريحُ؛ إذ ليسَ في صيغتِهِ ما يدلُّ على تحديدِ زمنٍ، فضلًا عن أنّ المصدرَ المؤوّلَ، ولا سيّما مع (أنْ) يدلُّ على مجرَّدِ معنى الحدثِ دونَ احتمالٍ زائدٍ عليه، ففي (أن) تحصينٌ منَ الإشكالِ، وتخليصٌ له من شوائبِ الإجمالِ[2]. فالتّشبيهُ بإصابةِ الأقوامِ السّابقةِ هي المرادةُ دون بيانِ هيآتِها، وكيفيّاتِها.

براعةُ استعمالِ المجازِ:

اللهُ تعالى هو الّذي يُعذِّبُ المكذّبينَ

أُسندَ فعلُ الإصابةِ إلى ﴿مِّثۡلُ﴾ على طريقِ المجازِ؛ لأنّهُ سببٌ؛ أي: أنَّ اللّهَ تعالى يصيبُكُم لعلّةِ الشِّقاقِ؛ لذلكَ جعلَ الإصابةَ مُسندةً إليه مجازًا[3]، وفي الأصلِ هو صفةٌ لفاعلٍ محذوفٍ تقديره: عذابٌ مثلُ[4]، وعلى جعلِ الفاعلِ ﴿مِّثۡلُ﴾، أو المُقدَّر فإنَّه إسنادٌ مجازيٌّ، والفاعلُ في الحقيقةِ اللّهُ تعالى، فإنَّه هو الّذي يُصيبُ المُكذِّبينَ بالعذابِ، فهو مجازٌ إسناديٌّ، ومجازٌ بالحذفِ.

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/84.
(2) السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/147 - 148.
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 10/180.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/418.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿مِّثۡلُ﴾ دونَ الكافِ:

المماثلةُ في مُطلَقِ الإهلاكِ لا في أنواعِهِ

في قولِهِ تعالى: ﴿مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ﴾، استُعمِلَ ﴿مِّثۡلُ﴾ دونَ الكافِ ونحوِهِ تشبيهًا بما أصابَ أقوامًا مختلفةً، فالمقرّرُ أنّهُ قد أصابَ الغرقُ قومَ نوحٍ، وأصابَتِ الرّيحُ قومَ هودٍ، وأصابَ قومَ صالحٍ الصّيحةُ، فهذهِ أنواعٌ متفاوتةٌ منَ العذابِ، وقد يُسألُ عن تباينِ العقوباتِ النّازلةِ على الأقوامِ السّابقةِ، فكيفَ يكونُ التّمثيلُ بها مُجتمعةً؟ والجوابُ: أنَّ المماثلةَ في القدرِ المشتركِ بينهُما، وهو مطلقُ الإهلاكِ[1]. ويؤدّي هذا المعنى ﴿مِّثۡلُ﴾ بوصفها نكرةً مُوغِلةً في الإبهامِ الّذي لا تنحصرُ فيها أوجهُ المغايرةِ والمشابهةِ؛ لإفادتها العمومَ. ويُظهرُ استعمالُها ههنا الإيغالَ في الشّبهِ من حيث تعدّدُ العقوباتِ، وتنوُّعُها[2].

دلالةُ استعمالِ ﴿مَآ﴾:

أنواعُ العذابِ النّازلِ على المكذِّبينَ، لا يعلمُ بحقيقتِها إلّا الله تعالى

﴿مَآ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ﴾ اسمٌ موصولٌ مضافٌ إليه ﴿مِّثۡلُ﴾[3]، وهو منَ الموصولاتِ الدّالّةِ على الإبهامِ والعمومِ[4] والشّمولِ لا على النّصِّ والتّعيينِ كالّذي والّتي ونحوِهما، واستعمالُها في هذا الموضعِ للدّلالةِ على تعدُّدِ أنواعِ العذابِ الّذي يعتري الأممَ الّتي تكذِّبُ برسلِها وكثرتِها، وأنّ الحقَّ سبحانَهُ قادرٌ على أن يصبَّ أنواعًا منَ العذابِ بما يفوقُ توقُّعَ الإنسانِ بما تقتضيهِ ﴿مَآ﴾ من دلالتِها على العمومِ والإبهامِ. وبلحاظ اقترانِها بـ ﴿مِّثۡلُ﴾ الدّالّةِ على العمومِ أيضًا.

سرُّ التّعبيرِ بالماضي ﴿أَصَابَ﴾:

التّهديدُ بما وقعَ وثبتَ أبلغُ، وأرسخُ ممّا سيقعُ

عبّرَ عمّا أصابَ الأممَ السّابقةَ بالفعلِ الماضي ﴿مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ﴾؛ للدّلالةِ على تأكيدِ حصولِ العذابِ على تلك الأقوامِ والأممِ؛ ممّا

(1) البسيليّ، نكت وتنبيهات: 1/187.
(2) السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/126.
(3) مجموعة مؤلفين، إعراب القرآن الكريم: 2/1035.
(4) الأزهريّ، شرح التّصريح: 1/317.

ارتكبوا منَ القبائحِ والموبقاتِ في الزّمنِ الماضي الدّالِّ على الثّبوتِ والتّحقُّقِ، وأنّه حاصلٌ لا مجالَ لإنكارِه؛ ففيهِ مزيدُ تحذيرٍ وتهديدٍ ووعيدٍ؛ لأنّهُ واقعٌ فعلًا، وهو أَوْقَعُ أثرًا لهؤلاءِ من التّخويفِ بأمرٍ مُستقبلٍ، ولمّا كانوا مُقلِّدينَ آباءهَم في عبادةِ الأوثانِ؛ فحاجَّهم بأنّكم تتّبعونَ آباءَكم في عبادةِ الأوثانِ، فاتّبعوهُم فيما بلّغوكُم بهِ من هلاكِ أولئكَ بتكذيبِهمُ الرّسلَ، فوقعَ عليهمُ العذابُ[1].

دلالةُ البدءِ بقومِ نوحٍ:

البدءُ بالمعلوم أثبتُ في العلوم

في ذكرِهِ مصابَ الأقوامِ السّابقةِ، استهلّ الكلامَ بذكرِ قومِ نوحٍ عليه السلام في قولهِ تعالى: ﴿مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ﴾، ودلالةُ ذلكَ أنّ المخاطَبينَ من قوم شعيبٍ لم يكنْ قد بلغَهُم منَ الأممِ الهالكةِ قبلَ قومِ نوحٍ فقدَّمَهُم[2]؛ ولأنّ نوحًا قد جاءَت رسلٌ على دينِه، منهم هود وصالح، وقد ذكرَهما القرآنُ غيرَ مرّةٍ عقبَ ذكرِ نوحٍ[3] عليه السلام.

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿أَوۡ﴾:

التّهكُّمُ بالمخاطَبين فالإنسانُ لا يختارُ عذابَه

استُعمل حرفُ التّخييرِ ﴿أَوۡ﴾[4] في تحذيرِ القوم ممّا أصابَ الأقوامَ البائدةَ قبلَهُم بقولِه: ﴿مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ﴾ على إرادةِ تخييرِهم المشوبِ بالتّحذيرِ والتّهديدِ، كأنَّه قال: اتّعِظوا بأيِّ عذابٍ اخترتُموه؛ بالغرقِ، أو الرّجفةِ، أو الصّيحةِ، فأيُّ نوعٍ منها هو أليمٌ شديدٌ، وغرضُ التَّخييرِ التّهكُّمُ بالمخاطَبينَ، فإنَّ الإنسانَ لا يختارُ عذابَه.

ففي التّعبيرِ بالحرفِ ﴿أَوۡ﴾ إشارةٌ إلى الاعتبارِ بما أصابَ الأقوامَ السّابقةَ، وهُم قومُ نوحٍ بالغرقِ، وقومُ هودٍ بالرّيحِ، وقومُ صالحٍ بالصّيحةِ، وقومُ لوطٍ بالقلبِ والرّجمِ؛ فلأنَّ مُخالفةَ

---

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/173.

(2) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 1/524.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/136.

(4) الزّجّاجيّ، حروف المعاني والصّفات: 13/48.

الرّسلِ وتكذيبَهُم مآلُهُ أحدُ هذهِ الأحوالِ والأمورِ المعطوفةِ بحرفِ التّخييرِ[1].

سرُّ الجمعِ بينَ قوم نوحٍ وقوم هودٍ وقوم صالحٍ:

الكفرُ ملّةٌ واحدةٌ مبدأً ومآلًا

جمعَ الحقُّ سبحانَهُ بينَ الأقوام الهالكةِ؛ قوم نوحٍ وقوم هودٍ وقوم صالحٍ؛ لأنَّهُم جمعوا بينَ أحوالِ الكفرِ والجحودِ على ما أوتوا من فضلٍ، لكنَّهُ لمْ يغنِ عنهُم شيئًا، ولم يشكروا نعمَهُ تعالى، فقد أوتيَ قومُ نوحٍ طولَ العمرِ وتنائيَ الأقطارِ، وأوتيَ قومُ هودٍ شدّةَ الأبدانِ وتماديَ الأمانِ، وأوتيَ قومُ صالحٍ نحتَ البيوتِ وتشييدَ عوالِي القصورِ[2]، فكفروا أنعُمَ ربِّهم؛ فأخذَهُم أخذًا وبيلًا؛ فالكفرُ ملَّةٌ واحدةٌ تفكيرًا وجحودًا ونكرانًا.

دلالةُ ترتيبِ ذكرِ الأقوامِ الهالكةِ:

البدءُ بالأبعدِ والأشملِ عقوبةً فالأقربِ لغةً فمكانًا

تناولتِ الآيةُ الحديثَ عنِ الأقوامِ الّتي أهلكَها اللهُ بمدعاةِ تكذيبِها الرّسلَ، رتّبَ هذهِ الأقوامَ بحسبِ ترتيبِها الزّمنيِّ؛ وهم قومُ نوحٍ، ثمَّ قومُ هودٍ، ثمَّ قومُ صالحٍ، ثمَّ قومُ لوطٍ، وهو ترتيبٌ ملحوظٌ فيه البعدُ الزّمانيُّ، إلّا أنَّ الغايةَ من هذا التّرتيبِ هو البدءُ بالأبعدِ زمانًا والأشملِ عقوبةً؛ وهم قومُ نوحٍ، ثمّ الأدنى قوميَّةً؛ وهم عادٌ وثمود، فهم يعرفونَ تفاصيلَ تلك الأقوامِ، ثمّ الأقربِ مكانًا؛ وهم قومُ لوطٍ.

معنى الواوِ ودلالتُها:

قومُ لوطٍ هُم أقربُ الهالكينَ زمانًا ومكانًا من قوم شعيبٍ

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ حاليّةٌ[3] من ضميرِ النّصبِ المتّصلِ بالفعلِ ﴿يُصِيبَكُم﴾، فالجملةُ بعدَها في موقعِ الحالِ، وفيهِ مناسبةٌ مؤكّدةٌ لمضمونِ الجملةِ على اعتبارِ قُربِ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/126.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/360.
(3) مجموعة مؤلفين، إعراب القرآن الكريم: 2/70.

زمانِهم منَ المخاطَبِينَ أمرًا يشبهُ حالةً من أحوالِ المُخاطَبينَ[1]، كأنَّه قالَ: ما وقعَ لقومِ لوطٍ ليس ببعيدٍ أن يقعَ عليكُم فيما تستحقّونَ به العذابَ منَ الكفرِ والمعاصي؛ فإنّهم أقربُ الهالكينَ منكُم زمانًا، أو المعنى: ما ديارُ قومِ لوطٍ منكُم ببعيدٍ بالمكانِ، فإنَّهُم كانوا جيرانَهُم[2].

دلالةُ اختلافِ التَّعبيرِ عن قومِ لوطٍ:

التَّلويحُ بقربِ نزولِ العذابِ

لمّا ذكرَ الأقوامَ الّتي أهلكَها من قومِ نوحٍ وقومِ هودٍ وقومِ صالحٍ عليهما السلام في مشاكلةِ مناسبةٍ بينَ هؤلاءِ: ﴿مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ﴾، عمدَ مع قومِ لوطٍ، فأثبتَ قربَهم بنفي بعدِهم، وتغيير الأسلوبِ معهم تعظيمًا للتّهويلِ والتّضخيم، فقالَ تعالى: ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾، أي: بسببِ قُبحِ أعمالِهم وسوءِ حالِهم ووبالِهم[3]، ففيه تلويحٌ بقربِ نزولِ العذابِ فيهم. وهو من بابِ ضربِ المثلِ بمصيرِهم؛ ولأنَّ قصّتَهُم أقربُ القصصِ عهدًا بقصّةِ قومِ شعيبٍ[4]؛ فهلّا اتّعظتُم واعتبرتُم بما آلَ إليه أمرُهُم منَ العذابِ والاستئصالِ.

وفي الجملةِ تغييرٌ لأسلوبِ التّحذيرِ بتلكَ الأقوامِ الهالكةِ، واكتفى بذكرِ قومِ لوطٍ، وهُم أقربُهُم؛ إيذانًا بأنَّ ذلكَ يُغني عن أن يذكرَ ما أصابَهُم لشهرتِهِ؛ ولأنّهُ منظومٌ في سِمطِ ما ذُكرَ ممّا أصابَ الأممَ السّابقةَ[5].

التَّعبيرُ عن قومِ لوطٍ بينَ المجازِ بالحذفِ والكنايةِ:

التَّحذيرُ منَ العذابِ القريبِ بالعذابِ القريبِ

ظاهرُ قولهِ تعالى: ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ أنّهُ نفى بعدَهُم عن قومِ لوطٍ، ففيه مجازٌ بالحذفِ؛ لأنَّ نفيَ البعدِ ليسَ مرادًا لذاتِه، ولا يتعلَّقُ بِهِ حكمٌ شرعيٌّ، وإنّما القصدُ تهديدُهُم ووعيدُهُم؛ فكأنَّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/147.
(2) المظهريّ، التّفسير المُظهريّ: 5/111.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/360 - 361.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/202.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/317.

قال: وما إيقاعُ عذابِنا بقوم لوطٍ، وهلاكهم[1] بسببِ عصيانِهم وارتكابِهِم الموبقاتِ ببعيدٍ، فلا تكونوا مثلَهُم، ونستطيعُ حملَهُ على الكنايةِ بقصدِ التَّهديدِ، فهو يُحذِّرُهم منَ العذابِ القريبِ الّذي سينزلُ عليهم بالعذابِ القريبِ الواقعِ على قوم لوطٍ.

معنى الباءِ ودلالتُها:

توكيدُ النّفي زيادةٌ في التّحذيرِ والتّخويفِ من سوءِ المصيرِ

الباءُ الدّاخلةُ على خبرِ ﴿وَمَا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ تفيدُ التّوكيدَ؛ توكيدَ النّفي، وهذا شأنُها ومعتادُها في لسانِ العربِ وكلامهم مع (ليسَ)[2]، ولَمّا كانَتْ (ما) مشبّهةً بـ (ليسَ) أُحكِمتْ بأحكامِها، وفي توكيدِ نفي بعدِهِم عن مآلِ قوم لوطٍ زيادةٌ في التّحذيرِ والتّخويفِ أنْ يصيبَكُم الهلاكُ مثل ما أصابَهُم، فإنْ نسيتُم أولئكَ فلا تنسَوا ما حلَّ بقوم لوطٍ، فهُم أقربُ إليكُم ممّن تقدَّمَهُم[3] زمانًا ومكانًا وعملًا.

نكتةُ التّعبيرِ ﴿بِبَعِيدٍ﴾:

قربُ الهلاكِ زمانًا ومكانًا طريقُ الاعتبارِ لأهلِ الأنظارِ

عبَّرَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ بلفظةِ ﴿بِبَعِيدٍ﴾ المنّفيةِ دونَ غيرِها منَ الألفاظِ؛ لأنّ هلاكَهُم كانَ بالأمسِ قريبًا منهُم؛ ولأنّ دورَهُم كانتْ قريبةً منهُم[4].

وفي نفيِ البعدِ بلفظةِ ﴿بِبَعِيدٍ﴾، وإنْ كانَت متعلّقةً بقربِ العهدِ من عهدِهم، وقربِ الدّيارِ من ديارِهم إلّا أنَّ العبرةَ أنّهم لا "يبعدونَ منكُم في الكفرِ والمساوئِ، وما يستحقُّ بهِ الهلاكُ"[5].

وفي القربِ في الزّمانِ والمكانِ فائدةٌ أخرى؛ وهيَ أن يتحصّلَ كمالُ الوقوفِ على تلك الأحوالِ، ومزيدُ المعرفةِ الموصلِ إلى الاعتبارِ

(1) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/167.
(2) ابن السّرّاج، الأصول في النّحو: 1/90.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/173.
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 2/26.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/422.

بأحوالِهِم، وما جرى لهُم، والحذرِ من مخالفةِ أوامرِهِ تعالى؛ كي لا ينزلَ بكُم ما نزلَ بهِم منَ العذابِ والعقابِ[1].

سرُّ العدولِ عن بعداء إلى بعيدٍ:

البعيدُ خبرُ العذابِ المحذوفِ لفظُه

أخبرَ عن قومِ لوطٍ بلفظةِ ﴿بِبَعِيدٖ﴾ بالإفرادِ، والمخبرُ عنهُ جمعٌ، فكانَ القياسُ أنْ يخبرَ عنهُ بأن يُقالَ: (بعداء) أو (بعيدين) أو نحوهما، ومُوجبُ ذلكَ جعلهُ على تقديرِ: (ما هُم بشيءٍ بعيدٍ) أو جوازِ التّسويةِ في القريبِ والبعيدِ، وبينَ المذكّرِ والمؤنّثِ؛ لأنّها جاءَت على زِنَةِ المصدرِ كالصّهيلِ والنّهيقِ[2]، وهو ممّا يستوي فيهِ المذكّرُ والمؤنّثُ، أو أن تُجعلَ على المجازِ بحذفِ المضافِ، وهو العذاب، والتَّقدير: وما عذابُ قومِ لوطٍ منكُم ببعيدٍ، وهذا أوضحُ مَسلكًا، وأرسخُ معنًى، وأليقُ سياقًا.

لم يكونوا بعيدينَ مكانًا، وطبيعة إهلاكٍ

وأفردَ لفظَ ﴿بِبَعِيدٖ﴾؛ لأنّ المرادَ: وما إهلاكُهُم، أو ما هُم بشيءٍ بعيدٍ، أو ما مكانُهُم ببعيدٍ[3].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشّقاقُ والعداوةُ والبغضاءُ:

المُشاقّةُ تباعدُ طرفينِ مع اشتمالِها للعداوةِ، والعداوةُ أعمُّ، والبغضاءُ خاصّةٌ بالباطنِ

ذكرَ الحقُّ سبحانهُ الشّقاقَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ﴾ تعبيرًا عن صدِّهِم عن دعوتِه، والأصلُ في الشّقاقِ من شقِّ الشّيءِ نِصفينِ فبعُدَ أحدُهُما عن الآخرِ، ومَنْ يشاقِق آخرَ فقد عاداهُ وباعدهُ، فكانَ الأصلُ فيهِ البعدَ، ويردُ في القرآنِ الكريمِ على أوجهٍ؛ منها: الضّلالُ والخلافُ والعداوةُ[4]؛ فعلى هذا الاعتبارِ يكونُ الشّقاقُ شاملًا الصّفاتِ الأخرى كالعداوةِ؛ لذلكَ عبّرَ في هذهِ الآيةِ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/389.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/422، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/235.
(3) المظهريّ، التّفسير المُظهريّ: 5/111.
(4) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 267.

بالشّقاقِ، ولمْ يُعبّرْ بالعداوةِ وقرينتِها البغضاءِ، فضلًا عن أنَّ المشاقّةَ مَعَ كونِها تتضمّنُ العداوةَ إلّا أنّها مُقترنةٌ بالعصيانِ والعنادِ[1].

المثَلُ والشَّبَهُ:

المثلُ أعمُّ وأشملُ منَ الشّبهِ، وهو هنا للقدرةِ، وسيقَ في الآيةِ للعِبرةِ

قولُهُ تعالى: ﴿أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ﴾ أوردَ مفردةَ المثلِ، ولمْ يستعملْ مرادفَهُ، وهو الشّبهُ؛ لأنّ الشّبهَ يُستعملُ فيما يشاهَدُ؛ فيُقالُ السّوادُ شبهُ السّوادِ، ولا يُقالُ: القدرةُ شبهُ القدرةِ؛ لأنَّها لا تُشاهَدُ، وإنّما يُقالُ مثلُها، وليسَ في الكلامِ شيءٌ يصلحُ في المماثلةِ إلّا الكافُ والمثلُ، فأمّا الشَّبهُ والنّظيرُ فهما من جنسِ المثلِ[2]، فهذهِ ثلاثةُ مرجّحاتٍ لاستعمالِ المثلِ وتركِ استعمالِ الشّبهِ، فأمّا الأوّلُ فإنَّ الشّبهَ يُرادُ لما كانَ حسّيًّا مُشاهَدًا، والموضعُ هنا ليسَ موضعَ تشبيهٍ حسّيٍّ، وإنْ كانَ في سياقِ العذابِ؛ لأنَّ العِبرةَ ليسَت بهيئةِ العذابِ وجنسِهِ، بل بما آلَ إليهِ أمرُ الأقوامِ الّتي تكذِّبُ رسلَها، وهو العذابُ، وتلكَ المهلكاتُ الّتي رمى الحقُّ سبحانَهُ بها أولئكَ المعاندينَ، وأمّا الثّاني فالمثلُ يُرادُ للقدرةِ، وهو مُتحقِّقٌ في الآيةِ في قدرتِهِ تعالى على إيقاعِ العذابِ بالأقوامِ الّتي تنكّبَت عنِ الصّراطِ المستقيمِ كالواردِ مع قومِ نوحٍ، وأمّا الثّالثُ فإنّهُ أرادَ التّمثيلَ بتلكَ الأقوامِ، والمثلُ أمرٌ كليٌّ يدخلُ تحتَهُ الشّبهُ، فهو أعمُّ وأشملُ.

(بعيدٌ) و(سحيقٌ):

البعيدُ خلافُ القريبِ مُطلَقًا، والسّحيقُ أبعدُ وأغورُ

لمّا أرادَ أنْ ينفيَ بعدَهُم عمّا أصابَ قومَ لوطٍ إنْ هُم أصرّوا على موقفِهِم من دعوتِهِ، قالَ: ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾، والبعدُ ضدُّ القربِ، أمّا السّحيقُ ففيهِ معنى البعدِ مع زيادةٍ؛ فقد استعملَهُ الحقُّ سبحانَهُ فيما تجاوزَ معنى البعدِ، كوصفهِ المُشركَ بقولِهِ: ﴿تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١﴾ [الحجّ: 31]، وهو في مقامِ الذّمِّ الّذي يقتضي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/284.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 294.

المبالغةَ في الوصفِ، فالسّحيقُ البعيدُ العمقِ، مع أنَّ الأصلَ في السّحيقِ منَ السّحقِ بمعنى تفتيتِ الشّيءِ[1]؛ فإيرادُ صفةِ البعيدِ أليقُ في هذا المقام؛ فإنَّ القومَ المُعتَبَرَ بهِم، وهم قومُ لوطٍ "ليسَ مكانُهُم ببعيدٍ من مكانِكُم، أو ليسَ زمانُهُم ببعيدٍ من زمانِكُم، أو ليسُوا ببعيدٍ منكُم في السَّببِ المُوجِبِ لِعقوبتهِم، وهو مُطلقُ الكُفرِ"[2].

(1) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (سحق).

(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/589.

﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ٩٠﴾

[هود: 90]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ما أجملَ التّرغيبَ بعدَ التَّرهيبِ! فالاستغفارُ يدفعُ العقابَ

لمّا كان من شأنِ شعيبٍ أنْ خاطبَهُم في الآيةِ السّابقةِ بطريقِ التّرهيبِ والتّخويفِ من عذابِه، وما أصابَ الأممَ السّابقةَ، "عقّبَهُ طمعًا في ارعوائِهم عمّا كانوا فيهِ يعمهونَ من طغيانِهم بالحملِ على الاستغفارِ والتّوبةِ"(1) وإلّا بادرَهُم العذابُ مُعلِّلًا إيّاهُ؛ بأنَّ لهُم ربًّا رحيمًّا ودودًا، يقبلُ توبةَ عبادِه، ويقيلُ عثراتِهم.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾: الغينُ والفاءُ والرّاءُ عُظمُ بابِه السَّترُ. فالغَفرُ: السَّترُ. يُقالُ: غَفَرَ اللّهُ ذَنبَهُ غَفرًا ومَغفِرَةً وغُفرانًا(2) وأصلُ الغفرِ: التّغطيةُ(3)، وغفرَ اللّهُ ذنوبَه؛ أي: سَترَها، ولم يَفضَحهُ بها على رُؤوسِ المَلأ. وكلُّ شَيءٍ سترتَه فقد غفرتَه(4)، والاستغفارُ: طلبُ المغفرةِ، وكلُّ ما جاءَ في القرآنِ من (غفر) وتركيباتِه، فهو من مغفرةِ الذّنوب(5)، فـ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ هنا فعلُ أمرٍ؛ بمعنى: اطلبوا المغفرةَ، وهو يقتضي الإيمانَ باللّه تعالى، فشرطُ الاستغفارِ الإيمانُ.

2) ﴿تُوبُوٓاْ﴾: أصلُ مادّتِه (توب)، فالتّاءُ والواوُ والباءُ كلمةٌ واحدةٌ تدلُّ على الرُّجوعِ. يُقالُ تابَ من ذَنبِهِ؛ أي: رَجَعَ عنهُ، يَتوبُ إلى اللّهِ توبَةً ومَتابًا، فهو تائِبٌ. قالَ اللّهُ تعالى: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/235.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غفر).

(3) الخليل، العين: (غفر).

(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (غفر).

(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غفر).

[غافر: 3](1)، والتّوبةُ: تركُ الذّنبِ على أجملِ الوجوهِ(2)، والرّجوعُ عنِ المعصيةِ(3)، فـ﴿تُوبُوٓاْ﴾ هنا فعلُ أمرٍ؛ بمعنى: اتركوا الذّنوبَ، وارجعوا عنِ المعصية.

3) ﴿وَدُودٌ﴾: أصلُ مادّتِه (ودّ)، فالواوُ والدّالُ كلمةٌ تدلُّ على مَحبَّةٍ. ودِدْتُه: أحبَبْتُه. ووددتُ أنَّ ذاكَ كانَ، إذا تَمَنَّيتَه، المضارعُ: أودُّ فيهما جَميعًا(4) والودودُ: المحبُّ شديدُ المحبَّة(5)، والودودُ من أسماءِ اللّهِ تعالى: المحبُّ لعبادِه(6)، يصِلُهم ويُمدُّهُم برحمتِه ونعمتِه(7).

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

التّوبةُ مُنجيةٌ منَ العذابِ جالبةٌ لرحمةِ الله تعالى وودِّهِ

لا يزالُ السّياقُ مُتّصلًا بمناقشةِ شعيبٍ عليه السلام قومَه، وإنذارِهم وتحذيرِهم، فأردفَ، عليه السلام، مخاطبًا قومَهُ، فقالَ: يا قومي، اطلبوا المغفرةَ من ربِّكُم، ثمّ توبوا إليه من ذنوبِكُم، إنَّ ربِّي رحيمٌ بالتّائبينَ، شديدُ المحبّةِ والتّودُّدِ لِمن تابَ منهم توبةً نصوحًا(8).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواوِ ودلالتُها:

عدمُ المبادرةِ بالمتابِ من شأنِها المناداة على العذابِ

جملةُ ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾ بالواوِ(9)، فقد عطفَ النّصحَ بالاستغفارِ والتّوبةِ على معنى الجملةِ السّابقةِ منَ التّلطُّفِ والتّودُّدِ والتّحذيرِ من جعلِ المشاقّةِ سببًا للعذابِ في الجملِ السّابقة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (توب).
(2) الرّاغب، المفردات: (توب).
(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (توب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ودَّ).
(5) ابن سيده، المخصّص: 5/226، (اشتقاق أسماء الله جل جلاله).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ودد).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ودد).
(8) مجموعة منَ العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 232.
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/147.

ولمّا كانت جملةُ ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ﴾ نهيًا مُؤذِنًا بالتّرهيبِ والتّخويفِ بتذكيرِهم بما حلَّ بالأمم المشركة؛ لاستكبارِها عنِ التّوحيدِ، عطفَ عليهِ جملةَ الأمرِ ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ في "سياقٍ مُؤذنٍ بأنّهم إنْ لم يبادِروا إلى المتابِ بادرَهُمُ العذابُ"[1].

غرضُ الأمرِ وغايتُهُ:

تحقيقُ الغايةِ مُتوقّفٌ على وجودِ الأصلِ

الأمرُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ دالٌّ على طلبِ المغفرةِ في ظاهرِه، إلّا أنَّ الأصلَ أن يطلبوا السّببَ المُوصلَ إلى حصولِ المغفرةِ، وهو التّوحيدُ[2]، وعبادتُهُ تعالى، وطاعةُ أوامرِه، فظاهرُ الأمرِ طلبُ الاستغفارِ، وحقيقتُهُ طلبُ الإيمان.

دلالةُ حذفِ النِّداءِ:

المسارعةُ في الاستغفارِ مَطلَبُ الأبرارِ

تكرّرَ لفظُ (يا قَوْمِ) الدّالّ على الاستعطافِ في مواضِعَ كثيرةٍ ممّا سبقَ، غيرَ أنّهُ لم يذكرْهُ هنا في إشارةٍ إلى انقضاءِ وقتِ الاستعطافِ؛ كأنّه قال: لا آمنُ عليكُم من وقوعِ العذابِ، ولعلَّ الأمرَ أعجلُ من ذلك؛ فاطلبوا مغفرتَهُ، واجعلوها غرضَكم، ثمَّ تَوصَّلوا إليها بالتّوبةِ[3].

فضلًا عن أنَّه جعلَ الأمرَ بالاستغفارِ تابعًا للنّداءِ المذكِّرِ بمصيرِ الأقوامِ السّابقين، فبنى الاستغفارَ على التَّحذيرِ ممّا وقَعَ من عذابِ السّابقينَ، وهذا أرسخُ للإسراعِ في الاستغفارِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالرّبوبيّةِ:

الرّبوبيّةُ تنادي على العطفِ والرّفقِ والإحسانِ

في اصطفاءِ الرّبوبيّةِ في جملةِ ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ دونَ الألوهيّةِ دلالةٌ، فإنّ مهمّةَ المُربّي الرّئيسةَ هي الهدايةُ، والاستغفار من مسالكِ العودةِ إليهِ سبحانَهُ؛ لِما في الاسم من صفاتِ العطفِ واللُّطفِ والرّفقِ والإحسانِ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/361.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/173.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/361.

دلالةُ الإضافةِ:

الرُّبوبيَّةُ تنبيهٌ على أسبابِ الاستغفارِ

في إضافةِ الرّبِّ إلى ضميرِ الجمعِ ﴿رَبَّكُمۡ﴾ الرّاجعِ إلى المخاطَبينَ العاصينَ دلالةٌ، وهي أنَّ الاستغفارَ إنّما هو لِمَن خلقَ ورزقَ وأرخى أسبابَ الحياةِ الكريمةِ؛ والمعنى: استغفروا الرّبَّ المحسنَ إليكم[1]، اللّطيفَ بكُم، أن يسترَ عليكُم عيوبَكم وذنوبَكم فلا يؤاخذُكُم بها.

سرُّ استعمالِ ﴿ثُمَّ﴾:

إذا صحَّ الاستغفارُ منَ العبادِ جاءت رتبةُ التّوبةِ متراخيةً عنهُ

جاءَ عطفُ الأمرِ بالتّوبةِ إلى اللّهِ تعالى على الأمرِ بالاستغفارِ بـ ﴿ثُمَّ﴾ الدّالّةِ على التّرتيبِ والتّراخي[2] في قولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾؛ فإنَّ التّوبةَ مُرتَّبةٌ على الاستغفارِ معَ المهلةِ، معَ اعتبارِ عِظمِ التّوبةِ وعلوِّ منزلتِها؛ ولأنَّ المغفرةَ ومحوَ الذّنبِ لا يحصلانِ بمحضِ الاستغفارِ إلّا باقترانِ التّوبةِ بهِ، لا سيّما الكبائرُ، فتكرارُ المعاصي يجبُ أن يقابلَهُ تكرارُ الطّاعاتِ الماحيةِ لتلكَ المعاصي[3].

وعطفَ التّوبةَ على الاستغفارِ بـ ﴿ثُمَّ﴾ الدّالّةِ على التّراخي؛ لأنَّ مرتبةَ التّوبةِ والإنابةِ مُتأخِّرةٌ عن مَرتبةِ الاستغفارِ، تأخُّرَ رتبةِ العملِ عن رتبةِ القولِ؛ فكم من مُستغفِرٍ ليسَ لهُ من استغفارِه شيءٌ؛ لإصرارِه على الذّنبِ[4].

نكتةُ مجيءِ التّوبةِ بعدَ الاستغفارِ:

التّوبةُ يُتَوصّلُ إليها بالاستغفارِ لِعظمِ التّلازمِ بينهُما

في قولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾؛ أمرَهُم بالاستغفارِ، ثمَّ عقَّبَهُ بالتّوبةِ؛ ذلكَ أنَّ التّوبةَ لا يتوصَّلُ إليها إلّا بالاستغفارِ، وهو ترتيبٌ حَسنٌ[5]، لِما بينَهُما من عِظمِ التّلازمِ وشدّةِ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/361.
(2) السّيوطيّ، همع الهوامع: 2/27.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/361 - 362.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/7.
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 11/532.

احتياجِ العبدِ إليهما؛ للوقايةِ من شرورِ الذّنوبِ وغوائِلها، فإنَّ الكافرَ ينيبُ أوّلًا، فيطلبُ المغفرةَ، فإذا تابَ وتجرَّدَ من كفرِهِ فقد دخلَ في تمامِ الإيمانِ[1].

هو من بابِ تأخيرِ المُتعلَّقِ على المُتحقَّقِ

لكونِ العبدِ إذا تحقَّقَ منه صدقُ الرّجوعِ، والنّدمُ على الذّنوبِ، مدَّ اللّهُ تعالى له بابَ التّوبةِ، وملازمةَ الخضوعِ[2].

بلاغةُ الإضمارِ:

الضّمائرُ تعوِّضُ من تكرارِ الأسماءِ الظّاهرة

عبّرَ بالاسمِ المضمرِ بعدَ الاسمِ الظّاهرِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾، وهو مقتضى الظّاهرِ والحالِ، على تقديرِ: ثمّ توبوا إلى ربِّكُم؛ لأنّ الضّمائرَ تعوِّضُ من تكرارِ الأسماءِ الظّاهرةِ[3]، وهو أفخمُ لغةً وبلاغةً من أن يكرّرَهُ ظاهرًا إلّا في مواضِعِ التّقريرِ والتّوكيدِ فيعيدُهُ.

سرُّ الفصلِ في جملةِ الفاصلةِ:

جملةٌ تعليليَّةٌ إقناعيَّةٌ للأمرِ بالاستغفارِ والتّوبة

قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ جملةٌ مفصولةٌ عمّا قبلَها؛ لأنّها جملةٌ تعليليّةٌ للأمرِ باستغفارِهِ سبحانَهُ والتّوبةِ إليه؛ لاقتضاءِ الأمرِ أن يعفو عنهُم إذا استغفروهُ، وأنابوا إليهِ[4]؛ فإنَّ ذلكَ من واسعِ رحمتِهِ وغامرِ محبّتِه، كأنَّه قال: استغفروا ربَّكُم ثمّ توبوا إليه، فإنَّه يغفرُ لكُم، ويتوبُ عليكُم؛ لأنَّه رحيمٌ بكُم ودودٌ.

دلالةُ التّأكيدِ بـ ﴿إِنَّ﴾:

تحقيقُ الرّحمةِ لِمَن أسرف، شأنُ الرَّحيمِ سبحانَه

أكّدَ الجملةَ بـ ﴿إِنَّ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾[5]؛ لأنّهم لَمّا أسرفوا على أنفسِهِم في مقارفةِ الذّنوبِ؛ نهاهُمُ الحقُّ سبحانَهُ عنِ اليأسِ والقنوطِ من رحمتِهِ؛ فإنّه الرّحيمُ الودودُ، ولأنَّ المقامَ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/149.
(2) محمّد عفيف، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/61.
(3) إبراهيم أنيس، من أسرار اللّغة، ص: 274.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/147.
(5) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/85.

دعوةٌ للاستغفارِ بعدَ الكفرِ، فكانَ تأكيدُ رفعِ الخطايا وقبولِ التّوبةِ مُناسبًا له.

سرُّ التّعبيرِ بالرُّبوبيّة:

الرُّبوبيَّةُ عنوانُ الرَّحمةِ، وملاذُ اللّاجئين

أضافَ لفظةَ الرَّبِّ إلى ضميرِه ﷺ بقولِه تعالى: ﴿رَبِّي﴾، من بابِ التّفنُّنِ بينَ هذا وذاكَ؛ تذكيرًا بربوبيَّتِه لهُم كيلا يَستمرُّوا في إعراضِهم عن دعوتِه، وتشرُّفًا بانتسابِه إلى أنّهُ مخلوقٌ للّهِ تعالى وعبدٌ له[1]، ولبيانِ أنَّ الرَّبَّ سبحانَه الّذي خلَقَهم يُريدُ لعبادِه الخيرَ والرَّحمةَ، فدعاهُم لِما فيهِ خيرُهُم، ولِما إليه مُنتهى برِّهِم.

دلالةُ إضافةِ الرُّبوبيَّةِ إلى ياءِ المتكلّم:

تحريضُ العبادِ للتَّوبةِ، ووعدُهُم في القبولِ

عدلَ عن إضافةِ لفظةِ الرّبِّ إلى ضميرِهِم بأن يقولَ: (ربّكم) كما سبقَ، وأضافَهُ إلى ضميرِه ﷺ بقولِه: ﴿رَبِّي﴾ تحريضًا لهم على أن يشاركوهُ في الانتسابِ إلى هذا الرّبِّ الجليلِ الرّحيمِ الودودِ الّذي أسبغَ عليهِم من فيضِ رحمتِه وودّه، أمّا إضافتُهُ إلى ضميرِهِم في مستهلِّ الآيةِ فهي إضافةٌ دالّةٌ على القهرِ والإلزامِ آمنوا أم لم يؤمنوا؛ لأنّهُ مطلوبٌ منهُم[2]، وفيه إيماءٌ إلى الوعدِ بالرَّحمةِ الّتي يتكفَّلُها العبادُ المقرَّبون، وهذا لونٌ منَ التَّأكيدِ والتَّحقيقِ.

الجمعُ بين وصْفَي ﴿رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾:

التّعبيرُ عن أوسعِ المعاني وأبلغِها بصفتي الرّحمةِ والودِّ

خُتمَتِ الآيةُ بصيغتي المبالغةِ في قولِه تعالى: ﴿رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾؛ لأنّه أرادَ التّعبيرَ بأوسعِ المعاني وأبلغِها، وهما المغفرةُ والرّحمةُ مع صفةِ المودّةِ، وهيَ منَ الودِّ، وهو الحبُّ الّذي يقتضي العطفَ والحدبَ على قدرِ حاجةِ المعطوفِ عليه[3]؛ فإنَّ ذكرَ الودودِ، وهو البالغُ المودّةَ بعدَ ذكرِ الرّحيمِ المتّصفِ بالرّحمةِ البالغةِ يقعُ موقعَ التّعليلِ، فهما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/147.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1191.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6626.

صنوانٍ؛ " لكأنّهُ قيلَ: بليغُ الرّحمةِ لَمِن تابَ؛ لأنّهُ بلغَ المودّةَ لَمِن يودّهُ، ومقتضى المودّةِ البالغةِ اللُّطفُ والرّحمةُ"[1].

توجيهُ تقديم الرّحيم على الودودِ:

صفةُ الودِّ سببُ الرَّحمةِ

قُدِّمَت صفةُ الرّحيم على صفةِ الودودِ في قولهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ تقديمَ العلّةِ على المعلولِ؛ فإنَّ الودودَ بمعنى المودود، كحلوبٍ بمعنى المحلوب، ولّما كانَ كذلكَ فإنّهُ تعالى يرحمُهُم فيَودّونَهُ[2]؛ فرحمتُهُ تعالى علّةٌ لودادِهِ منهم، أو أن تكونَ صفةُ الودِّ علَّةً للرَّحمة، فهو يرحمُ العبادَ؛ لأنَّه يودُّهم، وهذا مُقتضى ظاهرِ النَّظم، وحملُهُ على الظّاهرِ مُقدَّمٌ، فيكون من تقديم المعلولِ على العلَّة.

توجيهُ ذكرِ وصفِ الودودِ دونَ المُحبِّ:

الودُّ حبٌّ خاصٌّ لـــهُ تـبـعـاتُ الإحـــســـانِ والإنعام

(الودودُ) صفةُ مبالغةٍ، زنةُ (فَعُول) من (ودّ) إذا أحبَّ الشّيءَ وآثرَهُ؛ فإنّهُ سبحانهُ بأفعالهِ القديرةِ وألطافهِ الجليلةِ بعبادهِ لّما كانَت على الغايةِ من الإحسانِ الجميلِ إليهم، كانَت كمَن يتودَّدُ للمصنوعِ له[3]، والودُّ هو المحبّةُ؛ فيؤولُ المعنى أنّهُ تعالى شديدُ المحبّةِ لِمن يؤوبُ إليهِ تائبًا[4]. فهو المتودِّدُ إلى عبادِهِ بالمغفرةِ، وهو الّذي يفعلُ بمَن أرادَ فعلَ المُحبِّ الكثيرِ المحبّةِ؛ فيجيبُهُ إلى ما شاءَ، ويلقي على صاحبِ الذّنبِ الّذي محاهُ عنه محبّةً كبيرةً واسعةً، ويجعلُ له في قلوبِ الخلقِ رحمةً، فمادّةُ (ودّ) تدور على الاتّساعِ[5].

وفي معناه أيضًا وجهان: أحدُهما: أن يكونَ فَعولًا في محلِّ مفعولٍ، كما قيلَ: رَجلٌ هَيوبٌ، بمعنى مَهيب، وفرسٌ رَكوبٌ، بمعنى مَركوبٍ، فاللّهُ سبحانَه مَودودٌ في قلوبِ أوليائِهِ لِما يتعرَّفونَهُ من إحسانه

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 10/181.

(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/153.

(3) الثّعالبيّ، الجواهر الحسان: 3/298.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/148.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/446، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 8/381.

إليهم، وإنعامه إليهم. والآخرُ: أن يكونَ بمعنى الوادِّ؛ أي: أنّهُ يَودُّ عبادَهُ الصّالحينَ؛ بمعنى: أنّه يَرضى عنهم بِتَقَبُّلِ أعمالِهم، ويكونُ معناهُ: أن يُودِّدَهم إلى خلقِهِ، كقولِه ﷻ: ﴿سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ٩٦﴾ [مريم: 96][1].

دلالةُ تنكيرِ ﴿رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾:

تعظيمُ الرَّحمةِ والودِّ الواسعتين كلَّ شيءٍ

التّنكيرُ في صفتي الرّحيم الودودِ لهُ دلالةُ التّعظيم والكمالِ والتّمام فضلًا عن المبالغةِ؛ أي: إنَّ ربّي المتّصفُ بالرّحمةِ البالغةِ حتّى تسعَ العالَمين، وإنَّ مودّتَهُ تصلُ إلى الثّقلين، وفي ذلكَ بشارةٌ لِمَن غرِقَ في ذنوبِهِ ومعاصيهِ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التّوبةُ والإنابةُ:

التّوبةُ النّدمُ عمّا مضَى، والإنابةُ تركُ المعاصي في المستقبلِ

قولهُ تعالى: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾ ذكرَ فعلَ التّوبةِ هنا الّتي فسّرها الجمعُ الغفيرُ بأنّها الانتهاءُ عن أعمالِ المعاصي الّتي أنتُم عليها[2]؛ لأنّها مسبوقةٌ بالاستغفارِ، وفرّقَ أبو هلال العسكريّ بينَ التّوبةِ الدّالّةِ على النّدمِ عمّا مضى، والإنابةِ بتركِ المعاصي في المُستقبلِ[3]، وكلاهما دالٌّ على الرّجوعِ. ولما كانتِ التّوبةُ انتهاءً عنِ المعصيةِ مقرونةً بالنّدمِ كانَت أنسبَ لسياقِ الآيةِ؛ بوصفها طلبًا بالاستغفارِ والتّوبةِ من ذنبٍ عظيمٍ؛ فالكفرُ لا ينفعُ معه إلّا التّوبة.

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/397.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 4/177.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 146.

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ٩١﴾ [هود: 91]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن دعا شعيبٌ قومَه إلى الاستغفارِ، والتّوصُّلِ إليهِ بالتّوبةِ بما أغلقَ عليهِم أعذارَهُم، ولمّا أفحمَهُم، ولم يقدِروا على جوابِه، أقنطوهُ من رجوعِهِم إليهِ بأن ساووا أنفسَهم بالبهائم في الفهم مع وضوح كلامه[1]، وهدّدوهُ بالقتلِ بما لهُ من ضعفٍ، وما لهُم من قوَّةٍ، ولكنَّ رهطَهُ يقفُ حائلًا بينَه وبينَ ما يريدونَ، فالمناسبةُ بينَ الآياتِ بيانُ موقفِ المُعانِدين ممَّن أشفقَ عليهم، وأرادَ بهم رحمةً ونجاةً؛ كي لا يقعَ أحدٌ في غياهبِ رحمةِ الظّالمين.

رحمةُ الظّالمين ظلمٌ وخيمٌ لا يأتيه إلّا ذو قلبٍ لئيمٍ

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَفۡقَهُ﴾: أصلُ مادّتِه (فقه)، فالفاءُ والقافُ والهاءُ أصلٌ واحدٌ صحيحٌ، يدلُّ على إدراكِ الشَّيءِ والعِلم به. تقولُ: فقِهتُ الحَديثَ أفقهُهُ. وكل عِلمٍ بشيءٍ فهو فِقهٌ. ثمَّ اختُصَّ بذلك عِلمُ الشَّريعةِ، فقيلَ لكلِّ عالمٍ بالحلالِ والحرام: فَقيهٌ[2]. وفَقِهَ عنّي؛ أي: فَهِمَ عنّي[3]، والفِقهُ هو: الفَهمُ[4]، فمعنى ﴿نَفۡقَهُ﴾ هنا: نفهمُ.

2) ﴿ضَعِيفٗاۖ﴾: أصلُ مادّتِه (ضعف)، فالضّادُ والعينُ والفاءُ أصلانِ مُتَبايِنانِ، يدلُّ أحدُهُما على خلافِ القوَّةِ، ويدلُّ الآخرُ على أن يُزادَ الشَّيءُ مثلَهُ. فالضَّعفُ والضُّعفُ، وهو خِلافُ القُوَّةِ. يُقالُ: ضَعُفَ يَضعُفُ، ورَجُلٌ ضعيفٌ، وقومٌ ضُعفاءُ وضِعافٌ[5]،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/363.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فقه).
(3) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (فقه).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فقه).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضعف).

وكلُّ ما في القرآنِ منَ الفعلِ: (ضعُف) و(استضعف)، ومضارعُه للفاعلِ والمفعولِ، وكلمةُ (ضَعْف) بالفتح، والصّفةُ (ضعيف) وجمعُها (ضِعاف) و(ضُعفاء)، وكذلك صفةُ التّفضيل (أضعف)، واسمُ المفعولِ (مُستضعف)، كلُّ ذلك منَ الضّعف: عدم القوّةِ[1] فالضّعيفُ هنا: الّذي لا يقوى على شيءٍ، ولا يقدرُ عليه.

3) ﴿رَهۡطُكَ﴾: أصلُ مادّتِهِ (رهط)، فالرّاءُ والهاءُ والطّاءُ أصلٌ يدلُّ على تَجَمُّعٍ في النّاسِ وغَيرِهِم. فالرَّهطُ: العِصابَةُ من ثلاثةٍ إلى عَشَرَةٍ[2] والرَّهطُ جمعٌ لا واحد له من لفظِه[3]، ورَهطُ الرّجلِ: بَنو أبيهِ[4]، والرَّهطُ هنا جاءَ بهذا المعنى، فـ﴿رَهۡطُكَ﴾: قومُك وذوو قرابتِكَ الأدنَونَ.

4) ﴿لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾: أصلُ مادّتِهِ (رجم)، فالرّاءُ والجيمُ والميمُ أصلٌ واحدٌ يَرجِعُ إلى وجهٍ واحدٍ، وهو الرَّميُ بالحجارةِ. فيُقالُ: رُجِمَ فلانٌ: إذا ضُرِبَ بالحجارةِ[5] والرَّجمُ: القَتلُ، وقد جاءَ في غيرِ مَوضِعٍ من كتابِ اللّهِ، وإنّما قِيلَ للقَتلِ رَجمٌ؛ لأنّهم كانوا إذا قتلوا رجلًا رَمَوه بالحجارةِ حتَّى يَقتُلوهُ[6]، ومنه رجمُ الثَّيِّبَينِ إذا زَنَيا، والرَّجمُ: السَّبُّ والشَّتمُ، ومنه: قولُه تعالى حكايَةً عن أبي إبراهيمَ لابنِهِ إبراهيمَ، عليه السلام: ﴿لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ٤٦﴾ [مريم: 46]؛ أي: لأَسُبَّنَّكَ وأشتُمَنَّكَ، و﴿لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾ هنا بمعنى: قتلناك رميًا بالحجارةِ[7]، وهو المعنى المناسبُ للسّياق.

5) ﴿بِعَزِيزٖ﴾: أصلُ مادّتهِ (عزز)، فالعينُ والزّاي أصلٌ صحيحٌ واحدٌ، يدلُّ على شدَّةٍ وقوَّةٍ. والعِزَّةُ لِلّهِ جلَّ ثناؤُهُ، وهو منَ العزيزِ. وعزَّ الرّجلُ: بلغَ حدَّ العزَّة، واعتزَّ بفلان: تشرَّفَ به[8]. وعَزَّ يعزُ عِزَّةً وعزًّا: إذا صار عَزيزًا. وعزَّ يعزُّ عزًّا إذا قهر[9] والعِزُّ خلافُ الذُّلِّ[10]، والمرادُ بالعزيزِ هنا: القويُّ ذو الكرامةِ والمهابةِ والمكانةِ.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ضعف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رهط).
(3) الخليل، العين: (رهط).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (رطه).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجم).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رجم).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجم).
(8) الخليل، العين: (عزّ)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عزّ).
(9) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (عزز).
(10) الجوهريّ، الصّحاح: (عزز).

۞ المَعنى الإجْماليّ:

إكرامُ العشيرة على الحقِّ ملحقٌ بأهل العذابِ الحقِّ

لمّا تقدَّم نصحُ شعيبٍ عليه السلام لقومِه، وإخلاصُه في الحرصِ على هدايتِهم، أجابَه قومُه بنفي فقهِهم لما يقول، وأنَّهم يرونَه ضعيفًا لا حيلةَ له ولا قوَّة، عاجزًا عن فعل شيءٍ، ولولا نصرةُ العشيرةِ والقوم الأقربين لقتلوه رميًا بالحجارةِ، ثمّ أخبروهُ بأنّه ليسَ عليهم بكريم ولا قويٍّ ولا ذي مكانةٍ حتَّى يهابوا قتلَهُ، وإنَّما تركوا قتلَهُ احترامًا للقوم والعشيرةِ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

بعد إرخاءِ الكلام بالنّصيحة جاءَ التّهديدُ بالفظيعة

لمّا خاطبهُم بألطفِ الخطابِ وأحسنِه، ودعاهُم إلى الاستغفارِ مُرغِّبًا بأنَّ لهُم ربًّا رحيمًا ودودًا، فلعلَّ سائلًا يسألُ عن جوابِهم بعدَ حُسنِ دعائه عليه السلام؟ فكان قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ استئنافًا بيانيًّا تبيَّنَ أنّهم تنكّبوا عن طريقِ الحقِّ، والتزموا العنادَ منهجًا لهم، وأنزَلوا أنفسَهم مَنْزِلَةَ البهائم على وضوح كلامِه[2]. وفصلَت هذه الآيةُ عمّا قبلَها لما فيها منْ تحوّلِ قوم شعيبٍ عن محاجتِهِ ومجادلتِهِ بالحسنى إلى التّهديدِ والإهانةِ، وإنذارِهم إيّاهُ بالوعيدِ، ثمَّ نزولِ العذابِ الشّديدِ، ووقوعِهِ بالفعلِ العتيدِ[3].

دلالةُ النِّداءِ بالاسم المُجرَّد:

اقترانُ الغلظةِ بالكفرِ سمٌّ ناقعٌ

عندما أرادوا مخاطبتَهُ لإنكارِ فهمهم تكبُّرًا وعنادًا، نادوهُ عليه السلام باسمِهِ المُجرّدِ ﴿يَٰشُعَيۡبُ﴾ دونَ نبيِّ اللّهِ أو نحوه؛ إظهارًا لجفائِهم إيّاهُ، وغلظتِهم عليهِ[4]، وتسجيلًا لكفرِهم بنبوّتِه. فهُم

(1) جماعة منَ العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 232.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/362.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/121.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/362.

في كلّ مرّةٍ ينادونه باسمه مُجرَّدًا في جفاءٍ وغلظةٍ، على حين أنّه يناديهم أبدًا بـ ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾ مُتودِّدًا مُتلطِّفًا. وشتّانَ بينَ أدبِ النّبوّةِ، ومنطقِ السّفهاءِ[1].

دلالةُ النّفي بـ ﴿مَا﴾:

نفيٌ عامٌّ يشمَلُ كلَّ فقهٍ من شأنِه دعوتُهُم إلى الإيمان

حكى الحقُّ سبحانهُ على لسانهم قولَهُم: ﴿مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾، فنفوا الفهمَ والعقلَ، والمقصودُ عدمُ التّصديقِ لا الفقهُ بمعنى عدم فهمهم كلامَهُ أصلًا؛ فإنّ شعيبًا كانَ مقوالًا فَصيحًا مَوصوفًا بأنّه خطيبُ الأنبياءِ[2]، و﴿مَا﴾ هنا دالّةٌ على الحالِ؛ فإنّ عدمَ فقههم مُتوجِّهٌ إلى اللّحظةِ الّتي هُم عليها؛ يعني الآنَ[3]، واختيارُ ﴿مَا﴾ يُرادُ منه نفي الفقهِ المؤدّي إلى الإيمانِ، وكلُّ فقهٍ من شأنِه إعانةُ شعيبٍ عليه السلام عليهم، فمعنى العموم يعمُّ كلَّ فقهٍ من شأنِه دعوتُهُم للإيمانِ.

وجهُ النّفي الاستهزاءُ والحملُ على الجنون

ونفيهُم فقهَ كلامهِ عليه السلام يحتملُ أن يكونَ من بابِ الاستهزاءِ بهِ، ونسبته إلى الجنون، وهذهِ عادةُ القوم أنّهم إذا خابوا في جدالهم، وظهرتِ الحقيقةُ، نسبوا الرّسلَ إلى الجنونِ[4]، وهو ديدنُ المُفحَمينَ.

نكتةُ إسنادِ نفي الفقهِ للجميع:

تكاثرُ أهلِ الباطلِ على الكفرِ حربٌ نفسيَّةٌ قديمةٌ

عبّروا عن نفي فقهِهم كلامَهُ عليه السلام بقولِهم: ﴿مَا نَفۡقَهُ﴾ بنون الجمعِ من بابِ إلزامهِ الحجّةَ بحسبِ زعمهم، وهو أنَّ كلامَهُ غيرُ مفهومٍ لجميعهم قاطبةً، وهو حجّةٌ عليه، فليسَ عدمُ الفهم مُتعلِّقًا ببعضِهم دونَ بعضٍ، حتّى يُقالَ: إنَّ عدمَ الفهم مردُّهُ إلى اختلافهم في الفهم والعلم، وفي هذا تكالبُ الظّالمين على أصحابِ الحقِّ في ممارسة الحربِ النَّفسيَّةِ، وذلك بتعميم الباطلِ، وتكثيرِ أنصاره، وهذا دَيْدنُ أصحابِ الباطلِ في كلِّ زمانٍ.

---

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1192.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/148.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/362.
(4) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/174.

نكتةُ التّعبيرِ بلفظ: ﴿كَثِيرًا﴾:

لمْ ينفِ قومُ شعيبٍ عليه السلام عن أنفسِهم فقهَ كلامهِ، مع أنّهُ واضحٌ جليٌّ، وإنّما زادوا عليه صفةَ الكثرةِ ﴿كَثِيرًا﴾؛ لإرادةِ التّهاونِ بهِ؛ فإنّهُ إذا لم يُفهَمْ كثيرُ الكلام كان ذلك حائلًا عن فهم مقصودِهِ، وكانَ صاحبُهُ إلى الهذيانِ أقربَ، وأنَّ كلامَهُ فاقدٌ للنّظم، لا حاصلَ لهُ، مُمتنِعُ الوجودِ في الخارجِ[1]. وللفرارِ منَ المكابرةِ والعنادِ، والتّنكُّبِ عن طريقِ الحقِّ، ولا يرادُ بهِ الكلُّ والعمومُ؛ ولأنّ لفظَ ﴿كَثِيرًا﴾ يأبى أن يحملَ كلامَهُم على أنّهُ بمعنى عدم القَبولِ[2]، فهم يُريدون التَّعريضَ به، فإنَّ عدمَ فقهِ الكثيرِ يعني أنَّ هناك خللًا في القائلِ، إذ هُم يَفقهونَ الكلامَ، لكنَّهم لا يفقهونَ كثيرًا منه، وفيه منَ البذاءةِ والإصرارِ على الباطلِ ما يندُّ له جبينُ الكريم.

التَّعريضُ بشعيبٍ عليه السلام مع صيانةِ أنفسِهم من سوء الفهم

دلالةُ التّأكيدِ:

أكّدَ قومُ شعيبٍ عليه السلام رؤيتَهُم لهُ بحرفِ التّوكيدِ (إنَّ) ولام الابتداءِ[3] وبصيغة الجمع ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ﴾؛ مبالغةً في تنزيلهِ منْزِلَةَ الجاهلِ علمَهُم ذلكَ فيه، أو على سبيلِ مَنْ يُنكرُ ذلكَ، وإنّما فعلوا ذلكَ تعريضًا بغباوتهِ[4] في ظنّهم، حاشاهُ عليه السلام.

يُعلِمُ المكابرُ في لحنِ قولِه وفلتاتِ كلامِهِ

سرُّ التّعبيرِ بفعلِ الرّؤيةِ:

عبّرَ بفعلِ الرّؤيةِ في قولهِ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ﴾ دونَ غيرِها منَ التّعبيراتِ؛ لِما يحقّقُهُ فعلُ الرّؤيةِ منَ التّحقيقِ والتّعيين، فنزَّلوه مَنزِلةَ مَنْ يظنّونَ أنَّهُم لا يَرونَ ذلكَ بأبصارِهم، فصرَّحُوا بِفعلِ الرُّؤيَةِ[5]، وهذا الاحترازُ منهم يومئُ إلى خوفِهم من إيمانِ النّاسِ به، فإنَّ الواثقَ لا يُحكمُ كلامَه، ولا يكترثُ بكثرةِ الأدلَّةِ إلّا إذا كانَ

تحقيقُ الرّؤيةِ دليلُ الاحتياطِ بسببِ خوفِ الإيمانِ به

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/362.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/318.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/86.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/149.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/148.

مُنصِفًا باحثًا عنِ الحقِّ، وما سوى ذلك فخوفٌ منَ الحقِّ الأبلجِ، وهذا شأنُ الطُّغيانِ الباطشِ في مناصرة الفكرِ الفاحشِ لمواجهة الحقِّ والخيرِ.

الاحـــتراسُ من إرادةِ معنًى غيرِ مرادٍ

سرُّ التّعبيرِ بالظّرفِ ﴿فِينَا﴾:

التّعبيرُ بالظّرفِ ﴿فِينَا﴾ في قولهِ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ﴾ منْ بابِ الاحتراسِ؛ فإنّهُ يحتملُ أن يكونَ الضّعيفُ بمعنى الضّريرِ مثلَما وردَ عندَ بعضهِم، وهو لا يستقيمُ، يؤيّدُ ذلكَ التّقييد بالظّرفِ هذا؛ لأنَّ "فينا يصيرُ لغوًا؛ لأنَّ مَن كانَ أعمى يكونُ أعمى فيهم وفي غيرهِم، وإرادةُ لازمهِ وهو الضّعفُ بينَ مَن ينصرُهُ ويعاديهِ، ولا يخفى تكلُّفُهُ"[1]؛ فاحترسَ بالظّرفِ عن هذا المعنى غيرِ المرادِ.

شمولُ الضّعفِ للبدنِ والعقلِ والعشيرةِ

نكتةُ التّعبيرِ بوصفِ الضّعفِ:

في معرضِ مجادلتهم معهُ عليه السلام وصفوهُ بكونهِ ﴿ضَعِيفًاۖ﴾، ليشملَ البدنَ وغيرَه، وهذا أبلغُ في التّهديدِ، كأنَّهم يقولون: "لا تتعرَّضْ لسُخطِنا؛ فإنّكَ لا تَقدِرُ على الامتناعِ من مكروهٍ نَحُلُّه بكَ، بقوَّةِ عقلٍ ولا جسمٍ ولا عَشيرةٍ"[2]، وهذا تهديدٌ عامٌّ، يدلُّ على عكس ما أظهروهُ منَ الاعتقادِ فيه.

إشاراتُ التّهديدِ في إنهاءِ الحوارِ وحربِ الجوارِ

دلالةُ تقديمِ الجارّ والمجرورِ:

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ الثّاني في قولهِ تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ﴾؛ لإفادةِ التّهديدِ والوعيدِ؛ أي: أنت فينا ضعيفٌ لا في غيرِنا، فإذا كنتَ تعتقدُ قوّتَك في غيرِنا، ففينا أنت ضعيفٌ، ففيه إثباتُ القوَّةِ الفائقةِ لأنفسِهم على غيرِنا، وفيه تمزيقُ القبائلِ، فهم جعلوا أنفسَهم قبيلةً واحدةً، وجعلوا رهطَه في جهةٍ أخرى، كأنَّهم قالوا: إذا كنتَ تعتقد قوّتَك في رهطكَ وجماعتكَ،

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/318.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/363.

ففينا أنت ضعيفٌ، فتنبَّهْ ولا تتمادَ، وهذه إشاراتُ إنهاءِ الحوارِ، وسدِّ منافذِ الجوارِ.

معنى الواوِ ودلالتُها:

وجود الرّهطِ علّة الخلاص ومن دونهم فالحكمُ للرَّجم

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ﴾ دالّةٌ على العطفِ، فقد عطفَت هذهِ الجملةَ على سابقتِها قصدًا إلى ما مُهِّدَ إليه منَ المُقدِّماتِ، فالمعنى لا شيءَ يصدُّنا عن رجمكَ إلّا رهطُكَ فينا؛ فإنّكَ لّما طعنتَ في دينِنا فقد أوجبتَ علينا رَجمَكَ[1].

سرُّ التّعبيرِ بـ ﴿وَلَوۡلَا﴾:

المانع منَ الرّجم كرامة الرّهطِ المعدودينَ وقرابتهم

أداةُ ﴿وَلَوۡلَا﴾ في الجملةِ دالّةٌ على الامتناعِ لوجود؛ أي: امتنعَ رجمُهُم إيّاهُ بمدعاةِ قرابةِ رهطهِ منهم؛ فقد كانوا "من أهلِ ملَّتهم؛ فلذلكَ أظهروا الميلَ إليهِم والإكرامَ لهم"[2] مع أنَّ قرابتَهُ نفرٌ قليلٌ ليسَ يُخشى بأسُهُم ولا قوّتُهُم، وإنّما كانَ الإبقاءُ كرامةً لتلكَ القرابةِ؛ ولأنّهم منَ المخلِصينَ في دينِهم[3].

بلاغةُ حذفِ خبرِ ﴿وَلَوۡلَا﴾:

عقلُ النَّبيِّ وقوَّةُ إجابتهِ دليلُ البداهةِ والكرامةِ

الخبرُ بعدَ ﴿وَلَوۡلَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ﴾ محذوفٌ، وهذا شأنُهُ أبداً[4] إلّا ما استُثنيَ، وتقديرُهُ مرتبط بمعنى الكرامةِ والقرابةِ الحاصلةِ لرهطِه، وآيةُ ذلكَ قولُهُ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ وقولُهُ: ﴿أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إنَّ وجودَ رهطِه ليس وجودًا مُطلقًا بل هو وجودُ تكريمٍ وتوقيرٍ، فلولا رهطُكَ مُكرَّمونَ[5] مُوقَّرونَ عندَنا لنالكَ منّا ما تعلمُ، وفي ذلك إيماءٌ إلى سرعةِ بديهتِهِ عليه السلام، وقوّةِ إجابتِهِ لهم، وإنكارِهِ على قيلِهمُ البذيءِ المنطوي على خُبث.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/149.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/74.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/149.
(4) ابن بابشاذ، شرح المقدّمة المُحسِبَة: 1/253.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/149.

سرُّ التّعبيرِ بالرّهطِ دونَ القوم:

رهطُ شعيبٍ عليه السلام على ملّة قومهم في الكفرِ، ولذلك حموهُ من البطشِ على قلّتِهم

استعملَ النَّظمُ مفردةَ الرّهطِ دونَ القومِ في قولهِ تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ﴾ للدّلالةِ على قلّتهم؛ فإنَّ الرّهطَ إذا أُضيفَ إلى الرّجلِ أُريدَ بهِ قرابتُه الأدنونَ، فهم طائفةٌ قليلةٌ لهذا السّببِ؛ ولأنَّ قومَهُ قد نَبذوهُ، ولم يكونوا مُناصرينَ لهُ؛ ولأنَّ رهطَهُ من خاصّةِ قومِه؛ فكانَ مُسوّغًا لدفعِ الأذى عنهُ إكرامًا لقرابتهِم[1]، وفيه كشفٌ تاريخيٌّ لقرابةِ شعيبٍ عليه السلام، وهذا يدلُّ على أنَّ قومَه كانوا يُقيمون الكرامةَ لبعضِهم، ويظهرُ من هذا أنَّ رهطَه كانوا شديدي الكفرِ، وهم مُساندون لقومهم عامَّةً، ولو كانوا على خلافِ ذلك للقوا منَ الجماعةِ العظيمةِ اضطهادًا ومناكفةً، فاتَّفقَ الرَّهطُ مع القوم على الكفر، كما أنَّهم اتَّفقوا إكرامًا لهذا الاتِّفاقِ العامِّ الإبقاءَ على شعيبٍ عليه السلام دون قتلِه باتِّفاقٍ عامٍّ وظاهرٍ.

دلالةُ الإضافةِ:

التَّقليلُ من شأنِ الكبارِ همسُ الصِّغار

أشاروا إلى ضعفِ العشيرةِ والتّقليلِ من شأنِهم، والتّهوينِ من أمرِهم، وانحطاطِ اعتبارِهم بتعبيرِهم بـ (الرّهط) في قولِهم: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾؛ أي: قتلناكَ شرَّ قِتلَةٍ؛ فإنّ الرّهطَ من ثلاثةٍ إلى عَشَرَةٍ، وأكثرُ ما قِيلَ: إنّهُم أربعونَ[2].

دلالةُ اللّامِ:

لَمّا أرادوا التّعبيرَ بالرّجمِ في قولِه تعالى: ﴿لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾ جاؤوا باللّامِ الدّالّةِ على التّأكيدِ؛ أي: لو شئْنا لَرَجمناكَ، لولا رهطُكَ المُقرّبونَ القائمونَ على دينِنا؛ فيستفادُ منَ اللّامِ تأكيدُ التّهديدِ له عليه السلام.

سرُّ التّعبيرِ بلفظِ الرّجم:

أرادوا التَّحقيرَ اللّديغَ لا مُجرَّدَ التَّهديدِ البليغِ

عُبِّرَ بالرّجم؛ وهو القتلُ رَميًا بالحجرِ في قولِهِ تعالى: ﴿لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/149.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/570.

فإنّهُ وإنْ كانَ فيه دلالةٌ على أنّهُ حكمُ مَنْ يخلعُ دينَهُم، إلّا أنّهم أرادوا أن يكونَ مصيرُهُ قِتلةَ خزيٍّ وذلٍّ[1]، فاختيارُ الرَّجم لا لمجرَّدِ التَّهديدِ البليغِ، بل للتّحقيرِ الذَّليل، وهو اللّائقُ بهم حالًا ومآلًا.

نكتةُ إسنادِ الرَّجم للجميع:

الاجتماعُ على إيذاءِ الرِّجال يزيدُهم قوَّةً وثباتًا

في قولهِم: ﴿لَرَجَمۡنَٰكَ﴾ بالنّونِ مجموعًا دلالةٌ على أنّهم مُتمالِئونَ عليهِ، مُجتمعونَ على إيذائه؛ لإدخالِ الرّهبةِ والخوفِ في نفسهِ؛ فجميعُ القومِ على منهجٍ واحدٍ، وهو أدعى للرّجوعِ عن دعوتهِ بحسبِ زعمهِم، وفي مُنتهى ظنِّهم، ومبلغِ فقهِهم.

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي ﴿لَرَجَمۡنَٰكَ﴾:

إظهارُ الجدِّيَّةِ في العداوةِ تُؤكِّدُ عدالةَ تعذيبهِم

لقد كانَ المعارضون لشعيبٍ عليه السلام، الرّافضونَ لدعوتهِ على مستوًى منَ الجدِّيَّةِ واضحٍ في الشّروعِ بإيذائهِ ورجمهِ، وآيةُ ذلكَ تعبيرُهُم عن رغبتهِم برجمهِ بصيغةِ الماضي الدّالِّ على الثّباتِ والتّحقُّقِ، إلّا أنَّ ما منعَ ذلكَ رهطُهُ باتّصافِهم بصفةِ القرابةِ والدّينِ؛ أي: إنَّ الرّجمَ هو العقابُ الّذي تستحقُّه، ولولا وجودُ المانعِ لكنتَ منَ المرجومينَ.

دلالةُ إيلاءِ النّفي المسند إليه، ومجيءُ المُسندِ مُشتقًّا:

تخصيصُ العزَّة بالرَّهطِ دونَ شعيبٍ عليه السلام

إذا ولِيَ المسندُ إليهِ حرفَ النّفيِ كقولهِم: ما أنا قلتُ هذا؛ أي: إنّني لم أقلهُ معَ أنّ غيري قالهُ، ففائدتُهُ التّخصيصُ، ومنهُ خاتمةُ الآيةِ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾، أي: إنّ العزيزَ علينا رهطُكَ فحَسبُ لا أنتَ؛ لذلكَ استفهمَ في الآيةِ اللّاحقةِ عن عزّةِ رهطهِ على اللّهِ[2]، وهذا شاهدٌ من شواهدِ البيانيِّين الّذين انتصروا للزّمخشريِّ في صحَّةِ التَّخصيصِ بالمشتقّاتِ، وأنَّه لا يُشترطُ أن يكونَ المسندُ فعلًا، كما هو رأيُ السَّكّاكيّ وجمهور البيانيِّين خلافًا للمنسوبِ لعبدِ القاهر[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/150، والأيجيّ، جامع البيان في تفسير القرآن: 2/195.
(2) السّيوطيّ، معترك الأقران: 1/141.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/319.

دلالةُ التّعبيرِ بضميرِ الخطابِ:

نفيُ العزَّةِ عن شعيبٍ وإثباتُها للجميعِ

عبّروا عن نفيهِم العزّةَ عن شعيبٍ بمناداتهِ بضميرِ الخطابِ ﴿وَمَآ أَنتَ﴾؛ لإفادةِ الاهتمامِ والاختصاصِ؛ لأنَّ (ما) نافيةٌ للحالِ، وهيَ مُختصَّةٌ بالزّمانِ؛ فيكونُ مدخولُها فعلًا أو شِبهَهُ[1]، فلمّا باشرتِ الاسمَ أفادَ المعنى اهتمامًا وتخصيصًا؛ أي: ليسَ هناكَ أحدٌ ننفي عنهُ العزّةَ إلّا أنتَ.

غرضُ التّعبيرِ بحرفِ الاستعلاءِ:

تقويةُ معنى الشّدّةِ والغلبةِ والوقعِ على النّفسِ

جاءَ حرفُ الجرِّ (على) في قولهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ دونَ غيرهِ مع صفةِ العزيزِ الدّالّةِ على الغلبةِ والقهرِ والشّدّةِ، فعدّاهُ بحرفِ الاستعلاءِ لِما فيهِ من معنى الشّدّةِ ووقوعهِ على النّفسِ كقولهِ تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ﴾ [التّوبة: 128]، أي: شديدٌ على نفسهِ[2].

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

الحصرُ فعدمُ العزّةِ مقصورٌ عليكَ لا يتجاوزُكَ إلى رهطِكَ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَيۡنَا﴾ على مُتعلِّقهِ الخبرِ في قولهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾؛ لإفادةِ الحصرِ والاختصاصِ؛ اختصاصِ النّفيِّ؛ أي: إنَّ عدمَ العزّةِ مقصورٌ على شعيبٍ عليه السلام لا يتجاوزُهُ إلى رهطهِ، وليسَ بمعنى نفيِ الاختصاصِ[3]؛ فإنَّ "العزيزَ علينا - يا شعيبُ - رهطُكَ لا أنتَ؛ لكونهِم من أهلِ دينِنا"[4].

فائدةُ الباءِ:

تأكيدُ نفيِ عزّةِ شعيبٍ على قومهِ يفوحُ بعداوةٍ بليغةٍ

دخلتِ الباءُ على الخبرِ ﴿بِعَزِيزٖ﴾ لإفادةِ التّوكيدِ، وهذا شأنُها مع ليسَ وما شُبّهَ بها[5]؛ فإنّهم نفوا عنه العزّةَ المانعةَ من رجمهِ، وأكّدوا ذلكَ بالباءِ؛ كأنّهم قالوا: فإنّكَ لستَ بـ "كريمٍ مُكرَّمٍ مُعظَّمٍ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/363.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/150.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/319.
(4) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 232.
(5) ابن السّرّاج، الأصول في النّحو: 1/90.

حتّى نكفَّ عنكَ لأجلِ عزّتِكَ ومَنَعَتِكَ عندَنا، بل تركنا رجمَكَ لعزّةِ رهطِكَ علينا؛ لموافقتِهم لنا في الدّينِ لا لقوّةِ شوكتِهم"[1].

سرُّ اختيارِ وصفِ العزَّة:

اعتقادُ النّصرة بالكثرة لا يكونُ بالكفرِ الأجردِ والحقدِ الأسودِ

في اختيارِ وصفِ ﴿بِعَزِيزٖ﴾ دونَ غيرِهِ منَ الأوصافِ كالكريم؛ فلأنّهُ لا يعجزُهُم قتلُهُ، ولا يشتدُّ على نفوسِهِم؛ كأنَّهم يُخاطبونَه: ولأنّكَ هيّنٌ مُحتقَرٌ مُزدرًى عندَنا، ليسَ لكَ ناصرٌ منّا؛ ولأنَّ عزّةَ المرءِ على قبيلةٍ لا تكونُ في غلبةِ ذاتِهِ ونفسِه؛ فلا يغلبُ الواحدُ الجماعةَ؛ فالعزّةُ للكاثرِ؛ وإنّما عزّةُ المرءِ بقومِهِ وقبيلتِهِ[2]، وهذا ظنُّ الّذين كفروا أنَّ العزَّة بكثرتِهم واجتماعِهم، ولو على الكفرِ الأسودِ والفحشِ الأبغضِ.

دلالةُ تنكيرِ ﴿بِعَزِيزٖ﴾:

نفيُ الاتّصافِ بأدنى أنواعِ العزّة

جاءَ التّعبيرُ بـ ﴿بِعَزِيزٖ﴾ بصيغةِ التّنكيرِ؛ لإفادةِ الإبهامِ والشُّيوعِ؛ أي: لستَ بعزيزٍ علينا، ولا بأدنى نوعٍ من أنواعِ العزَّةِ، وهو ما يتلاءمُ مع السِّياق.

علَّةُ الوصلِ في جملةِ الفاصلةِ:

إفادةُ حكمٍ جديدٍ مُقدَّمٍ على التّوكيد

عُطفَت جملةُ: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ على ما سبقَ، فهيَ وإنْ كانت مُؤكِّدةً لمضمونِ ما قبلَها، وحقُّها الفصلُ لا العطفُ؛ فلأنّها قد أفادَت حكمًا يخصُّ المخاطَبَ؛ فكانَت جديرةً أن تُعطَفَ على الجملِ الّتي تفيدُ أحوالَهُ ، كاتّهامِهِ بأنّهم لا يفقهونَ أقوالَهُ، وما بعدَها من جملٍ[3]، وهذه تصلحُ أن تكونَ أصلًا في قاعدةِ التّأسيس، مقدَّمًا على التَّوكيد.

---

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 6/235.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/150.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/150.

بلاغةُ التَّذييلِ:

توكيدُ إثباتِ العِزَّةِ للقوم دونَه عليه السلام

ختمَ الآيةَ بقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ توكيدًا لمضمونِ قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾؛ لأنّهُ إنْ لم يكنْ قويًّا في نفوسِ قومِه، فإنّهم لم يكفّوا عن رجمِه، مع أنّهُ مُستحقٌّ لهذا الرّجم في اعتقادِهم إلّا كرامةً لرهطِه الباقينَ على دينِهم لا خوفًا منهم[1].

دلالةُ توالي المؤكِّداتِ في الفاصلةِ:

الاغترارُ بالقوّةِ وعظيم السَّطوةِ

ختمَ الآيةَ بقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾؛ مُضمّنًا إيّاها جملةً منَ المؤكِّداتِ لإرادةِ النّفي بأشدّه وأقواه؛ "فأكّدوهُ بالخطابِ وتكرارِه، وبالباءِ، وبتقديم ﴿عَلَيۡنَا﴾، وذلكَ اغترارٌ بقوّتِهم، وسطوتِهم، وتأكيدٌ بأنّه في قبضةِ أيديهِم"[2].

بلاغةُ الكنايةِ:

مَغزى كلامهم التّحذيرُ من مخالفةِ رهطِهِ

عبّرَ قومُ شعيبٍ عليه السلام عن ضعفِه وهوانِه عندَهُم بقولهِم: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾؛ لأنَّ المَغزى من كلامِهم هذا أن يكونَ تحذيرًا لهُ منَ الاستمرارِ على مخالفةِ رهطِه؛ فإنّهم إذ ذاكَ على وشكِ أنْ يَخلعوهُ ويَرجموهُ ويَنبذوهُ[3]، فهي كنايةٌ بليغةٌ عن وصفِهم له بما أرادوا، والكنايةُ أبلغُ منَ الوصفِ؛ لأنَّها تحملُ الدَّليلَ معها.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفقهُ والفهمُ:

الفقهُ الفهمُ العميقُ، والفهمُ أعمُّ، وفي اختيار الفقهِ تعريضٌ وتقبيحٌ

خاطبَ قومُ شعيبٍ شعيبًا بقولهِم: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا﴾، فنفَوا عنْ أنفسِهم الفقهَ بما يأتي بهِ عليه السلام، ويجوزُ أن يكونَ كلامُهُم على طريقةِ (لا نفهمُ) إلّا أنّهم آثروا استعمالَ هذهِ اللّفظةِ؛ لأنّها أدقُّ في وصفِهم؛ لأنَّ الفقهَ هو العلمُ والفهمُ بالشّيءِ على طولِ تأمُّلٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/150.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3744.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/150.

ونظرٍ[1]، فالفقهُ أعمقُ منَ الفهم، فهو الفهمُ الدّقيقُ العميقُ الّذي يؤثِّرُ في النّفسِ[2]، وكأنّهم في اختيارِهِمُ الفقهَ قد عرّضوا بشعيبٍ؛ أي: إنّنا تبحّرنا في محاولةِ معرفةِ غرضِ كلامكَ، لكنّنا لم نهتدِ؛ فالعلّةُ بكَ لا بنا، وفي ذلك افتراءٌ على شعيبٍ، وإنّما كانَ غرضُهُمُ الإعراضَ عن دعوتِهِ وكلامِهِ.

الرّهطُ والقومُ:

الـرّهـطُ مَـوصـوفـونَ بالقرابةِ، وهم علّةُ منعِ رجمِهِ، والقومُ جماعةٌ منَ النّاسِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾ جاءَ بلفظِ الرّهطِ، وهُم عشيرتُهُ الّتي يتقوّى بها، وهُم من ثلاثةٍ إلى عشرةٍ، ويكونونَ من أبٍ واحدٍ[3]، فعددُهُم يدلُّ على القلّةِ إلّا أنَّ كونَهم على دينِهم كانَ ذلكَ مانعًا من رجمِه، أمّا القومُ فهُم مجموعةُ الرّجالِ القائمينَ بشؤونِ بعضِهم بعضًا، وهو في أصلِه يدلُّ على الجماعةِ منَ النّاسِ[4]، ولمّا كانَ الرّهطُ ما لهُ صلةُ قرابةٍ منَ الرّجلِ كانَ التّعبيرُ به أولى منَ القومِ؛ لأنَّ المانعَ من رجمِهِ منَ الصّادّينَ عن دعوتِهِ هُمْ مَن تجمعُهُ وإيّاهم قرابةٌ، وهُم الرّهطُ، فلا يحسنُ التّعبيرُ بالقومِ لانتفاءِ علّةِ القرابةِ والعشيرةِ.

العزّةُ والمنعةُ:

العـزّةُ مُقترنةٌ بالقوّةِ السّابقةِ، والمنعةُ الحيلولةُ دونَ الإعطاءِ

كانَ من دلالاتِ ضعفِ شعيبٍ عندَهُم انتفاءُ العزّةِ عنهُ بقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾، فقد وصفَهُ بصفةِ العزيزِ، و"هو المُمتنعُ الّذي لا يُنالُ بالأذى"[5] فضلًا عن كونِهِ قويًّا، فلا يكونُ عزيزًا مَن لم يكنْ قويًّا؛ ذلكَ أنَّ القوّةَ تسبقُ العزّةَ، أمّا المنيعُ فهو أن يُحالَ بينَهُ وبينَ ما يُرادُ منهُ، وهو خلافُ الإعطاءِ[6]، وأكثرُ استعمالِهِ في

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 412.
(2) رضا، تفسير المنار: 12/122.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 548.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوم).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 357.
(6) ابن منظور، لسان العرب: (منع).

منعِ الإعطاءِ والمنحِ؛ فهو دونَ العزيزِ في القوّةِ والتّمكُّنِ، وتعبيرُ قومهِ النّاكبينَ عن طريقِ الهدى بصفةِ العزيزِ قصدًا منهُم إلى أنّهم مُتفضّلونَ عليهِ في عدم إيذائهِ، وإنْ كانَ على الغايةِ منَ القوّةِ بأنْ يكونَ عزيزًا.

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٩٢﴾ [هود: 92]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تقديمُ المخلوقِ على الخالقِ بريدُ العذابِ ونداءُ العقابِ

لمّا أعلنَ قومُ شعيبٍ عليه السلام موقفَهم من دعوتِه بوضوحٍ جليٍّ، وبيَّنوا نيَّتَهم بقتلِه، وأنَّ المانعَ من رجمِه وقتلِه رهطُه، ثمَّ ما كانَ من تخصيصِهم نفيُ العزّةِ عنهُ، أنكرَ عليهِم بطريقِ الاستفهامِ بما يُفهَمُ أنَّ رهطَهُ أعزُّ عليهِم منَ اللهِ وطاعتِه، بأن أعرضتُم عنهُ إعراضَ مَن يتركُ أمرًا خلفهُ ظهريًّا، ثمَّ هدّدهُم بأنَّ كلَّ ذلكَ لا يَخفى عليهِ سبحانهُ، فهو القادرُ المحيطُ بجليلِ أعمالِكُم وحقيرِها[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَرَآءَكُمۡ﴾: أصل مادّتِه (ورى)، فالواوُ والرّاءُ والحرفُ المُعتَلُّ: بِناءٌ على غيرِ قياسٍ. وقَولُهُم وراءَكَ، معناه: من خَلفٍ، وتركَهُ وراءَه؛ أي: خلَّفَه، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ﴾ [الأنعام: 94]؛ أي: خلَّفتُمُوهُ بعدَ موتِكُم[2]، ويأتي وراءَ بمعنى: غير[3]، و﴿وَرَآءَكُمۡ﴾ هنا بمعنى: خلفَكُم؛ أي: أهملتُمُوهُ، وأغفلتُمُوهُ، وكفرتُم به.

2) ﴿ظِهۡرِيًّاۖ﴾: أصلُ مادّتِه (ظهر)، فالظّاءُ والهاءُ والرّاءُ أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ. من ذلكَ: ظَهَرَ الشَّيءُ يَظهَرُ ظُهورًا فَهو ظاهِرٌ، إذا انكَشَفَ وبَرَزَ. والظِّهريُّ: كُلُّ شَيءٍ تَجعَلُهُ بِظَهرٍ؛ أي: تَنساهُ، كأنَّكَ قَد جَعَلتَهُ خلفَ ظَهرِكَ، إعراضًا عنهُ وتَركًا لَهُ. قالَ اللّهُ سُبحانه: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾[4]، واتَّخذَ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/364.

(2) الرّاغب، المفردات: (ورى).

(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ورى).

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظهر).

حاجتَهُ ظِهريًّا: استهان بها، كأنَّهُ نَسَبها إلى الظّهر على غير قياسٍ، وأظهَرَ بحاجتِه، واظَّهَر: جعلَها وراء ظَهره[1] وظهيرًا؛ أي: من ناحيةِ الظّهر، كنايةً عن الإعراضِ[2]، ومعنى ﴿ظِهۡرِيًّاۖ﴾ هنا: أعرضتُم عنه، وتركتُمُوهُ، ونسيتُمُوهُ.

3) ﴿مُحِيطٌ﴾: أصلُ مادّتِه: (حوط)، فالحاءُ والواوُ والطّاءُ كلمةٌ واحدةٌ، وهو الشَّيءُ يُطيفُ بالشَّيءِ. فالحَوْطُ من حاطَهُ حَوطًا[3]، والإحاطةُ بالشّيءِ، استُعملت كنايةً عن العلم بالشّيء من جميعِ جوانبِهِ، وعن حفظِه، وعنِ التّمكُّنِ منه والقدرةِ عليه وإهلاكِه. فمن معانيه قولُهم: (حاطه): حفظَهُ وتعهّدَهُ. وأحاطَ بالأمر: أحدقَ به من كلِّ جوانبِه، حفظًا أو علمًا أو تمكُّنًا وقدرةً، أحرزَه كلَّه، وبلغَ علمُه أقصاه[4]. فـ﴿مُحِيطٌ﴾ هنا بمعنى: عالمٌ بأمورِهم، مُطلِّعٌ عليها، قادرٌ على إهلاكِهم.

المَعْنى الإجْماليُّ:

العـــزَّةُ لـلـه وحدَهُ، وما دونَه فموضوعٌ باطلٌ

جاء جوابُ شعيبٍ عليه السلام قومَه، بعد اعتراضِهم عليه، وتهديدِهم له، مُضمّنًا الإنكارَ عليهم فيما قالوا، فكيف يكونُ الرَّهطُ أعزَّ من خالقِ الرَّهطِ؟! يا قوم، أرهطي أكرمُ عندكم وأعزُّ منَ اللّهِ ربِّكُم؟! وتركتُمُ اللّه وراءَكم مُتغافلينَ مُتناسينَ مُهملِينَ أحكامَهُ، حين لم تؤمنوا بنبيِّهِ الّذي بعثَه إليكم، إنَّ ربِّي بما تعملون محيطٌ وعالمٌ، لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالِكُم، وسيجازيكُم عليها في الدّنيا بالإهلاكِ، وفي الآخرةِ بالعذابِ، وهو القادرُ على ذلك، المُتمكِّنُ منه[5]، وفي هذه الآيةِ بيانُ أنَّ قولَ الحقِّ لا يمنعُ منه قرابة أو تهديد.

(1) ابن سيده، المحكم: (ظهر).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ظهر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حوط).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (حوط).
(5) جماعة منَ العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 232.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلَها:

من شأنِ المحاوراتِ الكلاميَّةِ الإجابةُ عنِ السُّؤالاتِ الضِّمنيّةِ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ عمّا سبقَه؛ لأنّه إجابةٌ لكلامِهم الّذي حذّروا فيه شعيبًا من مخالفةِ دينِهم، على طريقةِ المحاوراتِ الّتي تأتي مفصولةً عمّا سبقَها، جريًا لها على نهجِ الاستئنافِ البيانيِّ، فأكّدَ لهُم أنَّ تعويلَهُ لا على عزّةِ رهطِه، بل هو مُتوكِّلٌ على اللّهِ مولاهُ ذي العزّةِ والجبروتِ، فالقصدُ منَ الخبرِ لازمُهُ؛ فليسَ رهطي أغلبُ لكم منَ اللّهِ، فليسَ بي حاجةٌ بمعاملتِكُم الدّالّةِ على أنّي غيرُ عزيزٍ عليكُم، ولا من قلّةِ قرابتي وضعفهِم غيرِ المانعةِ من رجمي إذا شئتُم[1]. أو أنّ الفصلَ لما بينَ هذه الآيةِ وما قبلَها من شبهِ كمالِ الاتّصالِ؛ لأنّ السّامعَ لقولِ قومِ شعيبٍ يتطلَّعُ بنهمٍ إلى قولِه ﷺ على هذا السّفهِ والحماقةِ؛ فكانتِ الجملةُ إجابةً إلى ما يتطلَّعُ إليهِ السّامعُ من إجابةٍ، ويتوقُ إليهِ من ردٍّ[2].

فائدةُ تَكرارِ النّداءِ:

تنبيهُ المخاطَبين بالإلحاحِ لإفهامِ بعدَ الإحجامِ

أعادَ النَّظمُ ذكرَ النّداءِ في هذهِ الآيةِ بقولهِ تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ﴾ بعدَ أن كانَ التّعبيرُ بالنّداءِ من حصّتِهم في الآيةِ السّابقةِ، وفي إعادةِ النّداءِ تنبيهٌ لكلامِه، وأنّهُ مُتبصِّرٌ فيهِ[3] مُدرِكٌ أهمّيّتَهُ المُقتضيةَ الوعيَ والانتباهَ، ففي إعادةِ النِّداءِ إلحاحٌ في إفهامِ المنادى لعلَّهُ يرعوي عن غيِّه.

فائدةُ إضافةِ القومِ إلى النَّفسِ:

تلطُّفٌ مَشوبٌ بالتَّهكُّمِ

في إضافةِ القومِ إلى نفسِه في قولِه تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ فائدةٌ دالّةٌ على التّهكُّمِ مُخالِفًا ما مرَّ من ندائهِمُ الدّالِّ على التّلطُّفِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/151.

(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/121.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/151.

والاستعطافِ؛ ذلكَ أنّهُ قد قنطَ هنا من صلاحِهم تمامًا[1]، والتَّهكُّمُ مأخوذٌ منَ السِّياق، إذ شأنُ إضافةِ القوم إلى النَّفسِ التَّلطُّفُ بالمخاطَبين، لكنَّه هنا أُشرِبَ ذلك التَّلطُّفَ المعهودَ تهكُّمًا؛ باعتبارِه العتابَ الأخيرَ قبلَ مجيءِ الخبرِ النَّذيرِ.

غرضُ الاستفهام:

من اعتزَّ بغيرِ الله ذلَّ وشأنهُ قلَّ ولسانهُ زلَّ

قولُه تعالى: ﴿أَرَهۡطِيٓ﴾ استفهامٌ دالٌّ على الإنكارِ المشوبِ بالاستهجانِ من تصريحِهم الوقحِ؛ فاللهُ سبحانهُ أعزُّ عليهِ من رهطهِ؛ فهو مُعتزٌّ باللهِ لا برَهطه؛ فلا يُريبُهُ ألّا يكونَ رهطُهُ أعزّةً عليهم، وفي ذلك تهديدٌ لهُم بأنَّ مولاهُ تعالى ناصرُهُ ومعزُّهُ؛ فعزّتهُ بعزّةِ مُرسلِه سبحانهُ[2].

سرُّ التّعبيرِ بالرَّهط:

متابعةُ الخصم في غايتِه شرطُها تحقيقُ الحقِّ

في استعمالِ الرّهطِ في قولِه تعالى: ﴿أَرَهۡطِيٓ﴾ دونَ الأهلِ دلالةٌ وغايةٌ، وهو أنّهُم أرادوا ابتداءً تقليلَ قومِه[3] بقولِهم: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ﴾ وتوهينَهُم؛ فالرّهطُ غايتُهُ عشرةُ أنفارٍ، فقد تابعَهُم عليه السلام في قيلِهِم إقرارًا بأنَّهم قلَّةٌ قليلةٌ، فقَلَبَ عليهمُ الكلامَ مُتسائِلًا مُنكرًا صنيعَهُم: كيف تجعلونَهُم أعزَّ عليكُم منَ اللهِ تعالى.

دلالةُ الإضافةِ:

الانتصارُ لله وحدَهُ دونَ القوم والعشيرة

في إيرادِهِ الرّهطَ مُضافًا إلى ضميرِه عليه السلام بقولِه تعالى: ﴿أَرَهۡطِيٓ﴾ دلالةٌ على أنّ رهطَهُ هم الأقربونَ المُقرَّبونَ منهُم[4]، وفيه عدمُ الانتصارِ للقومِ أو العشيرةِ، بل الانتصارُ للهِ وحدَهُ.

فائدةُ التّعبيرِ بصيغةِ المفاضلةِ:

المقارنةُ بغرضِ بيانِ قبحِ صنيعِ مَن يُقدِّمُ المخلوقَ على الخالِقِ

أوردَ الكلامَ من بابِ التّفضيلِ[5] في قولِه تعالى: ﴿أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ

(1) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 1/362.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/151.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/423.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/364.
(5) جعل الاسم على صيغة (أفعل من) تفضيلًا لشيءٍ على شيءٍ آخر، كقولهم: (زيدٌ أفضلُ من عمرو)، وله عدّة أحكام مُفصلّة في كتب النّحو، يُنظر: السّيرافيّ، شرح كتاب سيبويه: 4/390.

﴿عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ والمعنى: أنّكم نظرتُم إلى رهطي لأجلِ القرابةِ الّتي تجمعُنا، ولم تنظروا إلى ما هو أجدرُ من ذلكَ، وهو الحقُّ سبحانهُ، فهو أقربُ منهُم لي؛ بما امتنَّ عليَّ، وبما أظهرَهُ لي منَ الكراماتِ والمعجزاتِ(1)؛ فالحريُّ بتفضيلِ العزّةِ أن يكونَ اللّه تعالى لا رهطِي، فاستعمالُ صيغةِ التَّفضيلِ يُرادُ منها الموازنةُ بغرضِ تبشيع تقديم المخلوقِ على الخالقِ، والضّعيفِ على القويِّ، والمرزوقِ على الرّازقِ، وهذا في ميزانِ العقلِ فسادٌ، وفي منطقِ الفطرةِ فحشٌ عريضٌ.

غرضُ التّعبيرِ بصيغةِ المفاضلةِ ﴿أَعَزُّ﴾:

التّهاونُ بالرّسولِ تهاونٌ بالمُرسِلِ

لّما كانَ قولُهُم: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ مُتعلِّقًا به عليه السلام وبرهطِه، وأنّهُم الأعزّةُ عليهِم دونَهُ؛ فيُسألُ عن كيفيّةِ مُخاطبتِهِم بقولِه تعالى: ﴿أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؟ والجوابُ عن ذلكَ: أنّ تهاونَهُم بهِ معَ أنّه النّبيُّ المُرسَلُ منَ اللهِ تعالى، فلمّا عزَّ رهطُهُ عليهِم دونَهُ كانَ رهطُهُ أعَزَّ عليهِم منَ اللهِ سبحانَهُ(2) بمدعاةِ جهلِهِم وكفرِهِم.

نكتةُ التّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾:

في مَواضِعِ التَّفخيمِ والتَّهويلِ يحسُنُ إدخالُ المهابةِ في النُّفوسِ

عبّرَ بالاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهِ﴾ مُؤثِرًا إيّاهُ على لفظِ الرّبوبيّةِ في قولهِ تعالى: ﴿أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ لِما يفيدهُ الاسمُ الجليلُ منَ الهيبةِ، وإدخالِ المهابةِ في نفوسِ السّامعينَ؛ فهو الاسمُ العَلَمُ الجامعُ للصّفاتِ الّذي يحيطُ بكلِّ شيءٍ علمًا واقتدارًا(3)؛ فالموضعُ مَوضِعُ قوّةٍ وتمكُّنٍ، وتفخيمٍ وتهويلٍ وتعجيبٍ.

بلاغةُ الحذفِ:

في قولهِ تعالى: ﴿أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مجازٌ بالحذفِ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/364.

(2) الرّازيّ، أنموذج جليل، ص: 206، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/201.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/364.

الجوابُ البليغُ هو الّـذي يُظهِرُ غاياتِ الكلامِ لا الاكتفاء بظاهرِه

على تقديرِ: أعزُّ عليكُم من نبيِّ اللّهِ؛ لأنَّ جوابَهُ ﷺ هذا لا يصحُّ ولا يطابقُ لو كانَ قولُهُم: ما عززتَ علينا[1]، فالكلامُ واقعٌ فيه ﷺ.

فقد دلَّ إيلاءُ ضميرِهِ حرفَ النَّفي على أنّ الكلامَ واقعٌ في الفاعل لا في الفعل، كأنَّه قِيلَ: وما أنتَ علينا بعزيزٍ، بل رهطُكَ هم الأعزّةُ علينا، ولذلك قالَ في جوابِهم: ﴿أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ولوقِيلَ: وما عززتَ علينا، لم يصحَّ هذا الجواب[2]، ففَهِمَ ﷺ مقصودَ الكلام، وهو أنَّهم يريدونَ بكلامِهِ الدَّعوةَ والإيمانَ باللّه تعالى، فكان جوابُه بليغًا في إظهارِ الغايةِ الّتي احتواها كلامُهُم، وتركِ ما أظهروه.

معنى الواوِ ودلالتُها:

يـــزدادُ قبحُ الكفرِ إذا اقترنَ بالوقاحةِ

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ﴾ دالّةٌ على الحالِ، والمعنى: أيكونُ رهطي أعزَّ عليكُم منَ اللّهِ سبحانهُ، وأنتُم على تلكَ الصّفةِ؟ وهو حالٌ داخلٌ في حيّزِ الاستفهام[3]؛ أي: إنَّ الإنكارَ مُشتملٌ على تقديم الرَّهطِ على اللّه تعالى، في حال اتّخاذِهِ ظهريًّا، وهو تشنيعٌ بعدَ تشنيعٍ.

نكتةُ التّعبيرِ بالاتّخاذِ:

كنايةٌ عن الدّوامِ عــلى ســوءِ الصّنيع

عبّرَ عن اعتناقِ غيرِ اللّهِ ربًّا بفعلِ الاتّخاذِ ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ﴾ كنايةً عنِ الاستمرارِ والدّوام على مرتكبهِم الشّنيعِ وإصرارِهم عليهِ؛ لأنّ الاتّخاذَ "أخذُ الشّيءِ لأمرٍ يستمرُّ في المُستأنَفِ كاتّخاذِ البيتِ"[4]. وإيثارُ التّعبيرِ عنه بصيغةِ الماضي دونَ المضارعِ تسجيلٌ عليهم بالبتّ والقطعِ في الرّضا بأمرٍ ما كان ينبغي أنْ يُفكِّرَ فيه العاقلُ[5].

---

(1) السّكّاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 232، والسّبكيّ، عروس الأفراح: 1/249.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/424.
(3) الباقوليّ، إعراب القرآن: 3/823.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/364.
(5) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/122.

دلالةُ التّعبيرِ بالإضمارِ دونَ الإظهارِ:

تعدُّدُ الاحتمالاتِ مَطلبٌ مقصودٌ في الكتابِ العزيز

جاءَ بالمفعولِ الأوّلِ لفعلِ الاتّخاذِ مُضمَرًا[1]، وهو الهاءُ في ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ﴾ دونَ إظهارِه بلفظِ الجلالةِ مثلًا، وسرُّ ذلكَ أنَّ المفعولَ الأوّلَ، وهو الضّميرُ، يحتملُ أن يعودَ عليه سبحانَهُ، ويحتملُ أن يكونَ على تقديرِ: أمرِ اللّهِ وشرعِه[2]، ويحتملُ أن يكونَ تقديرُهُ: ما جاءَ بهِ شعيبٌ؛ فأضمرَهُ ليقعَ على كلِّ مُحتمَلٍ، ولو عيّنَهُ لما كانَ مُحتَملًا.

بلاغةُ الكنايةِ:

تمثيلُ صورةِ المُعرضِ عن ربّهِ وخالقِهِ كمن يرمي شيئًا وراءَ ظهرِه

في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾ كنايةٌ عن نسيانِ دينِ اللّهِ، أو الإعراضِ عنه؛ لأنّ الوراءَ هنا صالحٌ للنّسيانِ، والإعراضِ[3]، أو النّبذِ وراءَ الظّهورِ؛ لتصويرِ هؤلاءِ المُعرضينَ عن ربِّهم، كمَن يرمي وراءَهُ شيئًا غيرَ آبهٍ به، معَ أنّهم خلقٌ من خلقِه[4].

بلاغةُ الاستعارةِ التّمثيليّة:

إذا جهلَ الإنسانُ شيئًا عاداه

ويحتملُ لفظُ الوراءِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾ الاستعارةَ التّمثيليّةَ بتشبيهِ صورةِ تركِهم لدينِ اللّهِ تعالى، وعدم الالتفاتِ إليه مع إقبالِهم على عبادةِ الأصنام بالهيّئةِ الحاصلةِ من صورةِ مَن جعلَ شيئًا خلفَ ظهرِه، وتلهَّى عنه بغيرِه[5]. فهي صورةٌ تمثيليَّةٌ حسّيّةٌ تتوافرُ على رونقٍ وبهاءٍ وتحريكٍ للخيالِ في تبشيع حالِ مَن يرمي شيئًا عزيزًا خلفَ ظهرِه، نسيانًا له، أو جهلًا به، أو ازدراءً واستهزاءً، فإنَّ الإنسانَ إذا جَهِل شيئًا عاداه. وأيًّا كانَ التّصويرُ البلاغيُّ في الجملةِ، فإنّ المُرادَ منها تسفيهُ أحلامِهم، وخيبةُ رجائِهم، والسّخريةُ منهُم، والتّشنيعُ عليهِم[6].

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/379.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/203.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/121.
(4) عبد السلام الرّاغب، وظيفة الصّورة الفنيّة في القرآن، ص: 111.
(5) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/121 - 122.
(6) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/122.

الحالُ تُؤكِّدُ إغراقَ الكافرِ في النّسيانِ والغفلةِ

فائدةُ الحالِ بعدَ الظّرف:

قولُه تعالى: ﴿وَرَآءَكُمۡ﴾ يجوزُ أن يقعَ حالًا من ﴿ظِهۡرِيًّاۖ﴾[1]، ويكونُ من بابِ الحالِ المؤكِّدةِ، ويكونُ المعنى: إنّكُم اتّخذتمُوهُ وراءَ ظهورِكُم إغراقًا وتحقيقًا لمعنى النّسيانِ؛ لاشتغالِكُم بالأصنام عن معرفتِهِ سبحانهُ، والميلِ عن تعرّفِ صفاتِه[2].

والتّعبيرُ بقولِه: ﴿ظِهۡرِيًّاۖ﴾ غِبَّ قولِه: ﴿وَرَآءَكُمۡ﴾ تحقيقٌ لهُ وتوكيدٌ؛ لتقاربِهما في المعنى فإنّكُم جعلتُمُوهُ كالشّيءِ الغائبِ المَنسيِّ، ولم تجعلوهُ نصبَ أعينكُم لنسبتي إليهِ عبدًا ورسولًا[3].

تنوُّعُ التَّوجيهاتِ البيانيَّةِ دليلُ الثَّراءِ والغناءِ اللَّفظيِّ

براعةُ التّعبيرِ المجازيّ في قولهِ تعالى: ﴿ظِهۡرِيًّاۖ﴾:

التّعبيرُ في قولهِ تعالى: ﴿ظِهۡرِيًّاۖ﴾ إمّا على حذفِ مضافٍ؛ أي: اتّخذتُم أمرَهُ ظهريًّا، ومعناهُ أن يكونَ مَتروكًا موهونًا منبوذًا، كمَن يلقي شيئًا خلفَ ظهرهِ، ولا يعبأُ بهِ، وهو منسوبٌ إلى الظّهرِ[4] كنايةً عن النّسيانِ والتّركِ، وإمّا أن يكونَ استعارةً؛ فمَنْ وضعَ شيئًا وراءَ ظهرهِ كانَ لنسيانهِ أحرى لِقلّةِ مُشاهدتِهِ ومعاينتِه[5]، فهو تشبيهُ النّاسي بمَن يضعُ شيئًا وراءَ ظهرِهِ، فهي استعارةٌ تمثيليَّةٌ، إذِ الرّؤيةُ طريقُ العلمِ والتّذكُّرِ، وإمّا أن يكونَ التّعبيرُ بالظّهريِّ من بابِ الكنايةِ عن صفةِ النّسيانِ، وهي توجيهاتٌ تلتقي في ذَمِّ أولئك الغافلينَ عن ذكرِ اللّهِ تعالى.

تعليلُ الكلامِ رونقُ الفكرِ وبهاءُ العقلِ

علّةُ الفصلِ:

فُصِلَت جملةُ ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنّها استئنافٌ، وهي تعليلٌ لمفهومِ الجملةِ السّابقةِ المستفهَمِ بها إنكارًا عن عزّةِ رهطِهِ عليهِم منَ اللّهِ الّذي يُتوكّلُ عليهِ ويُستنصَرُ بهِ[6].

(1) العكبريّ، التّبيان: 2/712.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/151.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/364.
(4) المنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 3/514.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/151.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/151.

دلالةُ التّأكيدِ بـ ﴿إِنَّ﴾:

تهديدٌ مؤكّدٌ لهؤلاءِ الكفرة النّاكبين عن طريقِ الحقِّ

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ توكيدُ المسندِ إليهِ بحرفِ التّوكيدِ ﴿إِنَّ﴾؛ لأنّ الجملةَ تتوافَرُ على تهديدٍ كبيرٍ لهؤلاءِ الكفرةِ النّاكبينَ عن طريقِ الحقِّ والهدى؛ وأنّه أحاطَ علمًا بأعمالِهم السّيّئةِ[1]، فلا يبقى شكٌّ في وقوعِ العذابِ عليهِم بعدَ هذا التّهديدِ المُؤكَّدِ، للمُبالغةِ فيهِ.

نكتةُ التّعبيرِ بالرّبوبيّةِ:

مَن نظرَ في المصالحِ هو القادرُ على تولّي الأولياءِ وقطعِ دابرِ الأعداءِ

التّعبيرُ بلفظِ الرّبوبيّةِ دونَ اسم الجلالةِ (اللّه) في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾؛ لأنَّ الرّبَّ هو النّاظرُ في مصالحِ شعيبٍ عليه السلام، ومدبّرُ أحوالِه ومُربّيهِ الّذي يربّيهِ فيوصلهُ إلى الكمالِ المطلوبِ؛ فيكونُ ذلكَ أطمعَ لهُ، وهذا من عميمِ فضلهِ وامتنانهِ على شعيبٍ عليه السلام.

قيلَ لابنِ عرفةَ: هلّا استبدلَ لفظَ الرّبوبيّةِ بلفظٍ دالٍّ على العظمةِ والقهرِ من مثلِ (مولاي) أو (اللّه) أو نحوِهِ؟ فقالَ: الّذي نصرَكَ وأيّدَكَ على عدوّكَ فقدْ نالتكَ رحمتُهُ، كما رحمَ شعيبًا[2].

نكتةُ الإضافةِ في قولِهِ تعالى: ﴿رَبِّي﴾:

الاعترافُ بالإحسانِ طريقُ النّجاةِ وسبيلُ الحماية

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ أضافَ لفظةَ الرّبِّ إلى ضميرِه عليه السلام، ولمْ يضفهُ إلى ضميرِهم بأنْ يقولَ: (ربّكم)، وذلك من بابِ الاعترافِ بفضلِه، وأنّه المُحسنُ إليهِ[3] بأنِ اختارَهُ وحباهُ بالرّسالةِ، وأنعمَ عليهِ من فضلِه، ونصرَهُ على أعدائهِ الظّالمينَ.

كما أنَّ فيه إشارةً إلى أنّه يحميهِ ويحفظهُ منهم؛ فهو الّذي أنشأهُ وربّاهُ، وهو المُتكفّلُ بحمايتِه وحراستِه[4].

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/321.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/367.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/364.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3744.

معنى الباءِ ودلالتُها:

إحاطتُهُ تعالى بالأعمال إحاطةُ ملازمةٍ وإرصادٍ

الباءُ الدّاخلةُ على (ما) في قولِه تعالى: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ دالّةٌ على الإلصاقِ(1) والملازمةِ، في إشارةٍ إلى أنّه تعالى محيطٌ بأيّ عملٍ تعملونهُ على الغايةِ والتّمكُّنِ منَ الإحاطةِ به كالشّيءِ الّذي يلاصقُ شيئًا ويلازمُهُ.

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

تجدُّدُ أعمالِ الباطلِ مُحاطةٌ بقدرةِ اللهِ تعالى

عبّرَ عن فعلِ العملِ بصيغةِ المضارعِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾، وقصَدَ من ذلكَ إفادةَ معنى دوامِ هذا الأمرِ وتجدُّدِه واستمرارِه، فهم مستمرُّون في أعمالِهم الباطلةِ، واللّهُ ﷻ محيطٌ بهم وبأعمالِهم المتجدِّدةِ، وفيها إشارةٌ إلى إمكانِ تجدُّدِ هذا المعنى وجريانِه في كلِّ زمانٍ لا يقتصرُ على زمنٍ مضى أو زمنٍ آتٍ؛ فالحقُّ سبحانهُ محيطٌ بما يعملُ الظّالمونَ إحاطةً مُتجدِّدةً بتجدُّدِ أعمالِهم ودوامِها.

قولُه تعالى: ﴿مُحِيطٞ﴾ بينَ المجازِ والاستعارةِ:

التّعريضُ بغرضِ التّهديدِ بالعقابِ الشّاملِ

عبّرَ بوصفِ المحيطِ، وهو الفاعلُ بما يعملونَ، والأصلُ في الإحاطةِ حصارُ شيءٍ شيئًا من جميعِ الجهاتِ، إلّا أنّهُ استُعملَ معَ العلمِ مجازًا، وهي من بابِ المجازِ المُرسَلِ؛ "لأنَّ الإحاطةَ حقيقةٌ في الأجسامِ كإحاطةِ الجدرانِ، فإحاطةُ اللّهِ بالأعمالِ مجازٌ عن علمِها، وإدراكِها بكمالِها"(2). أو من بابِ الاستعارةِ التّبعيّةِ شبّه فيها علمَ اللّهِ بكلِّ شيءٍ بإحاطةِ الظّرفِ بالمظروفِ(3).، فإحاطتُه تعالى هنا هي إحاطةُ علمِه بأعمالِ الكافرينَ، بحيث يشملُ علمُه جميعَ ما يعلمُ في غرضٍ ما، فالإحاطةُ بمعنى الشّمولِ، ويكونُ الوصفُ

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/87.
(2) الهرريّ، تفسير حدائق الرّوح والرّيحان: 13/245.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 2/122.

﴿مُحِيطٌ﴾ تعريضًا بهم بغرضِ التّهديدِ؛ فإنَّ مَن يعلمُ جميعَ الأعمالِ يوشكُ أن يعمَّ المُذّنبين بالعقابِ[1] الشّاملِ، فإنَّ ذكرَ الإحاطة يُناسبه التَّلميحُ إلى العقوبةِ الشّاملةِ.

بلاغةُ تقديم الجارّ والمجرورِ:

مبالغة في إحاطةِ علمهِ تعالى بأعمالِهم جليلِها وحقيرِها، إنفاذًا وإبطالًا

في قولهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ قدّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على الخبرِ ﴿مُحِيطٌ﴾؛ والأصلُ أن يكونَ الكلامُ: إنَّ ربِّي محيطٌ بما تعملونَ، وإنّما قدَّمَهُ لإرادةِ المبالغةِ في إحاطةِ علمهِ تعالى بأعمالِهم جليلِها وحقيرِها؛ فهو مُحيطٌ مُقتدِرٌ في أيِّ فعلٍ من أفعالِهم إنفاذًا وإبطالًا[2]، وفيه تنبيهٌ على أنَّ أعمالَهم مخصوصةٌ بالتَّهديدِ بالعقابِ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفعلُ والعملُ:

الفعلُ أعمُّ منَ العملِ، والعملُ هو الإحداثُ بقصدٍ وعلمٍ

الفعلُ لفظٌ عامٌّ يدُلُّ على إحداثِ شَيءٍ من عَمَلٍ وغيرِه[3]، فهو مُطلَقُ التَّأثيرِ من جهةِ مُؤَثِّرٍ[4] سواء كان عن سببٍ أو لا، ويُقالُ لما كانَ بإجادةٍ وبدونِها، ولِما كان بِعلمٍ أو غيرِ عِلمٍ، وقَصدٍ أو غيرِ قَصدٍ[5].

وأمّا العملُ فهو عبارةٌ عن إيجاد الأثرِ في الشَّيءِ مع امتداد زمانٍ، ولا يُقالُ إلّا لما كانَ بقصدٍ وعِلمٍ دون ما لم يكنْ عن قصدٍ وعلمٍ، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25] فعبَّرَ عن ذلك بالعملِ؛ لأنَّه لا يكون إلّا بقَصدٍ وامتدادِ زمانٍ. لذلكَ يُقالُ: إنّ فلانًا يعملُ الطّينَ خزفًا، ولا يُقالُ يفعلُ ذلكَ، فالعملُ يكونُ بمعنى الإحداثِ[6]، وأصلُ العملِ في اللّغةِ: الدّؤوبُ، وهو أخصُّ منَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/152.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/364.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فعل).
(4) الرّاغب، المفردات: (فعل).
(5) المناويّ، التَّوقيف على مُهمّات التَّعاريف، ص: 262.
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 135.

الفعلِ؛ لأنَّ الفعلَ قد يُنسبُ إلى الحيواناتِ الّتي يقعُ منها فعلٌ بغيرِ قصدٍ. ومن هنا كان اختيارُ لفظ العملِ مقصودًا في الآية؛ لدلالتِهِ على ما كان بعلمٍ وقصدٍ.

(محيطٌ) و(عليمٌ):

الإحاطةُ إطاقةٌ من جميعِ الجهاتِ علمًا وقدرةً، والعليمُ مُقيَّدٌ بالمعلوم

عبّرَ عن صفةٍ من صفاتهِ تعالى بقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، وهي صفةُ الإحاطةِ، ولمْ يقُلْ: إنّ ربّي بما تَعملونَ عليمٌ، فثمّةَ فرقٌ بينَ العالم بالشّيءِ والمحيطِ بهِ؛ فـ"أصلُ المحيطِ: المطيفُ بالشّيءِ من حولهِ بما هو كالسّورِ الدّائرِ عليهِ يمنعُ أن يخرجَ عنهُ ما هو منهُ، ويدخلَ فيهِ ما ليسَ فيهِ، ويكونُ من قبيلِ العلم، وقبيلِ القدرةِ مجازًا"[1]؛ فالإحاطةُ صفةٌ دالّةٌ على المبالغةِ؛ لأنّها من جميعِ الجهاتِ؛ ولأنّها دالَّةٌ على الإحكام، وفيها تخويفٌ عظيمٌ بالغلبةِ، أمّا العلمُ فتقييدُهُ بالمعلوم، فيُقالُ: عليمٌ فيكونُ من جهةٍ واحدةٍ، وهو فرقٌ واضحٌ، وأنّ المحيطَ دالٌّ على الشّمولِ في العلم؛ فلا يخفى عليهِ شيءٌ علمًا وقدرةً[2]. ولهذا اصطُفي في سياق الآية.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 94.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/203.

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ٩٣﴾ [هود: 93]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّصريحُ بالعذابِ بعدَ التَّلويحِ به

لَمّا ختمَ الآيةَ السّابقةَ بالإشارةِ إلى تهديدِهم بذكرِ إحاطةِ اللّهِ تعالى بأعمالِهم، أتبعَهُ هنا بما يصدِّقُ ذلكَ، ويؤكِّدُهُ بأنّهُ ماضٍ في عملِه، وليسَ بتاركٍ منهُ شيئًا ممّا أُمرَ به، وزادَهُم تهديدًا بأن خاطبَهُم أنِ اثبتوا على ما أنتمُ عليهِ من عملٍ؛ فسوفَ يأتيكُم وعدٌ لا خُلفَ فيهِ، يتبيّنُ فيهِ الصّادقُ منَ الكاذبِ، وإنْ تأخّرَ زمانُهُ فارتقبوهُ، وأنا معكُم رقيبٌ[1]، فالمناسبةُ بينَ الآيتينِ هو التَّصريحُ بالعذابِ بعدَ التَّلويحِ به، وتعيينُهُ بعدَ الإشارةِ إليه.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَكَانَتِكُمۡ﴾: أصلُ مادّتِه: (مكن)، فالميمُ والكافُ والنّونُ كلمةٌ واحدةٌ[2]، ويدورُ معناها حولَ رسوخِ الشّيءِ مُتجمّعًا في باطنٍ يلتئمُ عليه[3]، والمكانةُ: الحيالُ والنّاحيةُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾؛ أي: على حيالِكم وناحيتِكم. والمكانةُ: المنزِلةُ والموقِعةُ والمَحلّةُ[4] والمكانةُ: التّمكُّنُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾؛ أي: على تَمكُّنِكُم من أمرِكُم[5]، والمكانةُ هنا بمعنى: الطّريقةِ، وهو ما يؤيّدُهُ سياقُ الآيةِ الكريمةِ. واختُلف في ميم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/365 - 366.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مكن).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (مكن)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكن).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (مكن).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مكن).

(مكان ومكانة) فقيل: هي أصليةٌ وهما منْ مكن يمكن، وقيل: هما من الكون فالميم زائدة، فيكون المعنى على الأوّل: اعملوا على تَمكُّنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم، وعلى الثاني: اعملوا على جِهتكم وحالكم التي أنتم عليها[1].

2) ﴿يُخۡزِيهِ﴾: أصلُ مادّته (خزو)، فالخاءُ والزّايُ والحرفُ المُعتَلُّ أصلانِ: أحدُهُما السّياسَةُ، والآخرُ الإبعادُ. فأمّا الأوَّلُ فقوْلُهُم خَزَوتُهُ، إذا سُستَهُ. وأمّا الآخرُ فقولُهُم: أخزاهُ اللَّهُ؛ أي: أبعَدَهُ ومَقَتَهُ. والاسمُ الخِزيُ[2] والخزيُ: ذُلُّ الحيّ وطواعيتُه وانقيادُهُ لِما يُرادُ؛ لكسر حدّةِ استعصائِه أو رغبتِهِ. ومنه: خَزا نفسَه: مَلَكَها وكفَّها عن هواها. ومنَ الأصل: خَزيَ منه، كَرَضيَ، وخَزِيَه: استحيا؛ أي: انقبضَ وانكسرَت حِدَّتُه وشموخُه لقاهر، بوُقوع عذابٍ عليه يقهرُهُ، أو قبيحٍ منه يُعَيَّرُ به، أو عجزٍ عنِ المواجهة. وكلُّ ما في القرآنِ من هذا التّركيبِ فهو منَ الخِزي بالمعنى المذكورِ[3]، ومنه هذا المَوضِع.

3) ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ﴾: أصلُ مادّتِه: (رقب)، فالرّاءُ والقافُ والباءُ أصلٌ واحدٌ مُطَّرِدٌ، يدلُّ على انتِصابٍ لِمراعاةِ شيءٍ. من ذلكَ الرَّقيبُ، وهو الحافِظُ. يُقالُ: منهُ رَقَبتُ أرقَبُ رِقبَةً ورقِبانًا[4]. ورقبتُ الشّيءَ أرقبُه رِقبةً ورِقبانًا؛ أي: انتظرتُ. وقولُه تعالى: ﴿وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ٩٤﴾ [طه: 94]؛ أي: لم تنتظرْ. والعلاقةُ بين انتصاب الرّقبةِ وبين الانتظارِ تتّضحُ في أنَّ النّاظرَ لشيءٍ يرفعُ رقبتَهُ إليه[5]، والتّرقُّبُ هنا بمعنى الانتظار.

4) ﴿رَقِيبٌ﴾: الرَّقيبُ، هو الحافِظُ. يُقالُ: منهُ رَقَبْتُ أرقَبُ رِقبَةً ورِقبانًا[6]. والرَّقيبُ: الحارسُ يُشرِفُ على رِقبةٍ، يحرُسُ القومَ، والرَّقيبُ: الحافِظُ[7]، والرّقيبُ: النّاظرُ[8]. والرّقيبُ: المُنتظِرُ[9]، وهو المعنى المرادُ هنا.

(1) السّمين الحلبي، الدر المصون: 5/158.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خزو).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خزو - خزى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رقب).
(5) الرّاغب، المفردات: (رقب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رقب).
(7) الخليل، العين: (رقب).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رقب).
(9) الخليل، العين: (رقب).

❁ المَعنى الإجماليُّ:

بيانُ الفرقِ بينَ المتضادّين في المنالِ والمآلِ

تُبيِّن الآيةُ قوَّةَ شعيبٍ عليه السلام في إيمانِه باللّه تعالى، بإصراره على دعوتِه، وتهديد قومِه بشكلٍ مباشرٍ وواضحٍ، بعد التّلويحِ والتّلميحِ والنّصحِ والإرشادِ، ويُخبرُهم بأنَّه عاملٌ على طريقتِه الّتي يرتضيها، وينتظرُ منالَها ومآلَها، وهم سوف يعلمون مَنْ يأتيه عذابٌ يذلُّه عقابًا له، ومَنْ هو كاذبٌ فيما يدَّعيه، فلينتظروا ما يقضي به اللّهُ، إنّه معهم مُنتظِرٌ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواوِ، ودلالةُ تَكرارِ النّداءِ:

عطفُ النّداءِ على النّداءِ تأكيدٌ للتّنبيهِ والتّهديدِ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ عاطفةٌ، وهو من بابِ عطفِ النّداءِ على مثلِه؛ لأجلِ زيادةِ التّنبيهِ وتحقيقِه، والمقصودُ عطفُ الجملةِ الّتي تلي هذا النّداءَ على الجملةِ الّتي وليتِ النّداءَ الأوّلَ[2]، وكلتاهُما فيه إشارةٌ إلى التّهديدِ والوعيدِ، وفي ابتداءِ الخطابِ بالنّداءِ هنا مزيدُ اهتمامٍ بالمقولِ؛ فإنَّ النّداءَ فيهِ استرعاءُ أسماعِ المنادينَ[3].

نكتةُ نداءِ القومِ دونَ الرّهطِ:

رقّةُ الأنبياءِ ورحمتُهم أغلبُ من شدّتِهم وعنفِهم

في تكرارِ النّداءِ بعنوانِ القومِ دونَ الرّهطِ ونحوِه، يومئ إلى أنَّ شعيبًا عليه السلام قد رقَّ لحالِهم عندَما توعّدهُم؛ فإنَّ شأنَ النّبيِّ أن يحبَّ لقومِه ما يحبُّ لنفسِه[4]، وليسَ من حرصِ النّبيِّ والرّسولِ كحرصِه على هدايةِ قومِه بأيّةِ طريقةٍ وأيِّ خطابٍ، وهو نداءٌ لكلِّ قومِه لا لخصوصِ رهطِه، فإنَّ الرّحمةَ تعمُّ، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ رحمةَ الأنبياءِ والأولياءِ لا تخصُّ المقرَّبين نسبًا منَ العشيرةِ والقبيلةِ، بل تعمُّهُم وغيرَهُم.

---

(1) مجموعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 232.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/152.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/90.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/90.

غرضُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾:

إظهارُ التَّيئيسِ مـنَ الامـتـثـالِ للنّصحِ

غرضُ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ أفادَ أمرين:

الأوّل: "التّسويةُ والتّخليةُ لإظهارِ اليأسِ منِ امتثالِهم للنّصحِ بحيثُ يُغيِّرُ ناصِحُهُم نُصحَهُم إلى الإطلاقِ لهم فيما يُحبّونَ أن يَفعلُوا"[1]، وذلكَ غايةُ الخيبةِ والخسرانِ.

الآخر: التّهديدُ والتّخويفُ؛ أي: اعملوا على وجهِ التَّمكُّنِ من مكانتِكُم وحالِكُم الّتي أنتُم عليها؛ أي: لكُم الخيارُ في أن تعملُوا بي ما تُحبُّونَ[2]، وفي ذلكَ مزيدُ استحقاقٍ للعقوبةِ واقتراب منها للمأمورِ.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّهكّميّةِ:

تنزيلُ الميؤوسِ منه منزلةَ مَن تُرجى إجابتُه

التّعبيرُ بفعلِ الأمرِ ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ متأتٍّ على وجهِ الاستعارةِ؛ ففيه تشبيهُ المغضوبِ عليهِ الميؤوسِ من ارعوائِهم، بمَنْ يُؤمَرُ أن يفعلَ ما كانَ يُنْهَى عنهُ، وأن يصيرَ ذلكَ المنهيُّ واجبًا، وذلكَ غايةُ التّهكُّمِ والسّخريةِ[3].

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾:

تنزيلُ المُتعدّي منـزِلةَ الـلّازمِ؛ لـبـيـانِ أنَّ أعمالَهم المألوفةَ راسخةٌ في الكفر

يقتضِي فعلُ الأمرِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ مفعولًا، غير أنّه حذفهُ تنزيلًا للفعلِ المتعدّي منزِلةَ اللّازمِ إثباتًا للفاعلِ مُطلَقًا[4]، وتقويةً لهُ، فالمعنى: أنْ يا هؤلاءِ اعملُوا عملَكُم الّذي ألفتُمُوهُ، وهو دأبُكُم، وهو الإعراضُ عن دعوتِهِ والتّكذيبُ بدينِهِ[5]؛ أي: اعملوا أعمالَكم المعهودةَ منَ الكفرِ والعنادِ والتَّكذيبِ، على الغايةِ منَ التّمكُّنِ، وبكلِّ ما بوسعِكُم عَمَلُهُ، وبكلّ طاقتِكُم من إيصالِ الشّرِّ إليّ[6]؛ فليسَ ذلكَ بضائري، وهو تخييرٌ يشي بعاقبةِ السّوءِ بعدَهُ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/90.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 152/12.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/90.
(4) ناظر الجيش، تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد: 1764/4.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/90.
(6) ابن عادل، اللّباب: 554/10.

بلاغةُ الاستعارةِ في استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ:

مَن لازمَ عملًا، وتمكَّنَ منه، فهو حسابُه وجزاؤه

استُعمِلَ حرفُ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ دونَ اللّامِ؛ لأنّه مُقترِنٌ بالمكانةِ، وهي الحالةُ الّتي يتمكَّنُ منها صاحبُها من عملِهِ؛ أي: اعملوا على ما أنتُم عليهِ[1]، فالّذي يلائمُ التّمكُّنَ حرفُ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾، ولا يناسبُهُ حرفُ الغايةِ (إلى)؛ أي: اعملوا مُتمكِّنينَ مُلازمينَ على المكانةِ المعهودةِ الّتي ستورِدُكُمُ النّارَ.

واستعملَ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ للتَّمكُّنِ، وهو من بابِ الاستعارةِ التّبعيّةِ؛ لمناسبتِها لاستعارةِ المكانةِ؛ لأنَّ الاستعلاءَ مُناسِبٌ للمكانِ، فهي استعارةٌ مُرشّحةٌ لحصولِ التّلاؤمِ بينَ المشبّهِ والمشبّهِ بهِ، والمعنى: أنّه خاطبَهُم بأنْ يلزموا حالَهُم؛ لأنّه لا مَطمعَ لهُ في اتّباعِهِم[2].

التّعبيرُ بـ ﴿مَكَانَتِكُمۡ﴾ بينَ الاستعارةِ والكنايةِ:

المكانةُ استعارةٌ أو كنايةٌ لحالةِ المرءِ المحيطةِ بهِ، وفيها تظهرُ أحوالهُ

استعمالُ المكانةِ في قولِهِ تعالى: ﴿مَكَانَتِكُمۡ﴾ تعبيرٌ يدلُّ على المكانِ، وأنّثَهُ كتأنيثِ المقامةِ للمقامِ، والمكانةُ إمّا أن تكونَ مستعارةً لتلبُّسِ المرءِ بالحالةِ الّتي تحيطُهُ وتحويهِ، فهي من بابِ تشبيهِ المحسوسِ بالمعقولِ، فالحالُ الّتي هُم عليها مكانٌ ومَوضِعُ قرارِ عملِهِم، ومعناهُ: اثبتوا على ما أنتُم عليهِ منَ الكفرِ والعداوةِ[3]، فالتّعبيرُ بالمكانةِ عنِ المكانِ توصيفٌ للحالةِ؛ أي: اعملوا على حالاتِكُم الّتي أنتُم عليها، وهو استعمالٌ مَجازيٌّ كما يُقالُ: "مكانةُ فلانٍ في العلمِ فوقَ مكانةِ فلانٍ، يُستعارُ منَ البِقاعِ إلى المعاني"[4]، وإمّا أن تكونَ كنايةً عن أحوالِهِ؛ فأحوالُ المرءِ تَظهرُ في مقامهِ

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 11/538.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/91.

(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 5/113.

(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/203.

ومكانِهِ ومستقرِّهِ؛ لذلكَ يقالُ للمرءِ: أنِ اثبُتْ على مكانتِكَ، ولا تتحوّلْ عنها[1].

قراءةُ الإفرادِ دالَّةٌ على الكفرِ العامِّ، وقراءةُ الجمعِ على أنواعِ المفاسدِ

القراءاتُ القرآنيَّةُ:

قرأ الجمهورُ: ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ بالإفرادِ، فيما قرأ أبو بكرٍ عن عاصم: (مكاناتكم) جمع مكانةٍ[2]؛ فقد وجّهَ خطابَهُ لكلّ واحدٍ منهم؛ أي: ليعملَ كلُّ واحدٍ منكُم على مكانتهِ[3]، وفي ذلكَ مزيدُ تهديدٍ ووعيدٍ لكلِّ مُخاطَبٍ، فكأنّ العذابَ سيقعُ عليهِ وحدَهُ، أو على جَعلِ الإفرادِ لحالةِ الكفرِ العامَّةِ، وجهلِ المكاناتِ لأحوالِ الظّلمِ والكفرِ والفسقِ والفسادِ المُتعدِّدةِ.وقيل: مَنْ أفرد فلإرادة الجنس ومَن جمَع فليطابقَ ما بعدَها؛ فإنّ المخاطَبين جماعةٌ وقد أضيفت إليهم[4].

المرادُ بالمكانةِ الحالةُ الّتي يُلازمونها لا المكانُ

دلالةُ تأنيثِ ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾:

جاءَ لفظُ ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ بالتّأنيثِ فلم يقُلْ: (مكانكُمْ)؛ لأنّهُ أرادَ بالمكانةِ القدرةَ والحالةَ لا البقعةَ منَ الأرضِ ونحوها؛ والمعنى: أنْ يعملوا على حالِ كونِهم على الغايةِ منَ المكنةِ والقدرةِ، وكلِّ ما في وسعِهم وطاقتِهم في عملِ الشّرِّ، وهو أيضًا سيعملُ ما آتاهُ اللّهُ منَ القدرةِ، ثمَّ يتبيّنُ مَن هو الجاني على نفسِهِ[5].

تعليلُ الأعمالِ قوَّةٌ في سياقِ المضادَّةِ

علَّةُ الفصلِ:

فُصلَت جملةُ ﴿إِنِّي عَٰمِلٌۖ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنّها جملةٌ تعليليّةٌ لمفادِ التّسويةِ في فعلِ الأمرِ ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾؛ والمعنى: أنْ لا يضرّني تصميمُكُم وتمسّكُكُم على ما أنتُم ماضونَ فيهِ من ضلالِكُم[6]، وأنا مُوقِنٌ بحسنِ عاقبتي وسوءِ عاقبتِكُم.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/90 - 91.
(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/263.
(3) ابن خالويه، الحجّة في القراءات السّبع، ص: 150.
(4) السمين الحلبي، الدّر المصون، 5/158.
(5) زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/689.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/91.

سرُّ التّعبيرِ باسم الفاعلِ:

المؤمنُ ثابتٌ على الحقِّ مستمرٌّ فيه

عُبِّر باسم الفاعلِ، وهو الفعلُ الدّائمُ عندَ بعضِ النّحويّينَ، لا سيّما الكوفيّون[1]؛ فاسمُ الفاعلِ هنا ﴿عَٰمِلٞۖ﴾ مُرادٌ به الاستمرارُ على العملِ، دائبٌ عليه، غيرُ تاركٍ لهُ منَ الإيمانِ باللّهِ، والدّعاءِ إلى دينه[2]، فقد جمعَ بين الثّباتِ والاستمراريَّةِ والتَّجدُّد.

بلاغةُ الحذفِ في المتقابلات:

الإيماءُ بأنَّ عملَ الخيرِ قائمٌ في كلِّ حينٍ

حُذِفَ مُتعلِّقُ ﴿إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾ اختصارًا، وليعمَّ المتعلِّقاتِ جميعًا؛ فإنّ هذهِ الجملة في مقابلةِ قولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾، وفيه دلالةٌ على ثباتِهِ في نصحِهم، ودعوتِهِ لنجاتِهم، لكنّهُ حذفَهُ للإشعارِ بأنّهُ لا يقتصرُ على حالتِه تلكَ، بل هو ماضٍ في ذلك في الأحوالِ كلِّها لا يعتريهِ نقصٌ، ولا يثبِّطُهُ إعراضٌ[3].

المتشابهُ اللّفظيُّ:

الإفرادُ باعتبارِ الانفرادِ، والجمعُ باعتبارِ الكثرةِ

أُفردَ اسمُ الفاعلِ في قولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾، وجُمعَ في قولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنَّا عَٰمِلُونَ ١٢١﴾ [هود: 121]؛ لأنَّ الحوارَ في الآيةِ الأولى كانَ بينَ نوحٍ عليه السلام وحدَهُ وقومه فناسبَهُ الإفرادُ ﴿إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾، أمّا الآيةُ الثّانيةُ فقد سبقَها قولُهُ تعالى: ﴿وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ١٢٠﴾ [هود: 120]؛ للدّلالةِ على أنَّ للرّسولِ ﷺ منَ الأتباعِ الكثيرَ فناسبَهُ التّعبيرُ بالجمعِ ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ ١٢١﴾.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ:

ما وقعَ في النّفوسِ منَ التّهديدِ نطقَ به اللّسانُ بالوعيدِ

قولهُ تعالى: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن سؤالٍ مُقدَّرٍ بعدَ أن هدّدَهُم؛ فكأنّهم قالوا: فماذا سيكونُ الحالُ إذا عملنا

(1) ابن السّرّاج، الأصول في النّحو: 1/183.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/91.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/20.

نحنُ على مكانتِنا، وعملتَ أنتَ يا شعيبُ؟ فكان الجوابُ: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾[1]، وهو تهديدٌ ووعيدٌ صريحٌ لهم.

بلاغةُ الفصلِ والوصلِ في جملة ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾:

الفصلُ في الجملةِ ههنا أكملُ في باب الفظاعةِ والتّهويلِ

جملةُ ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ مفصولةٌ عمّا سبقَها ظاهرًا، موصولةٌ وصلًا خفيًّا بدلالةِ الاستئنافِ، وآيةُ ذلكَ أنّه لم يصلْها بالفاءِ كما في ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ [الأنعام: 135]؛ لأنّهُ أرادَ هنا أن يجعلَهُ جوابًا لسؤالٍ مُقدَّرٍ بعدَ صدرِ الآيةِ الدّالِّ على عملِهم وعملِه، أنْ ماذا بعدَ ذلكَ؟ فجاءَ الجوابُ من غيرِ الفاءِ؛ لتكونَ الجملةُ على الغايةِ منَ الكمالِ في الفظاعةِ والتّهويلِ[2].

المتشابهُ اللّفظيُّ:

لَمّا قويَ معنى الشّرطِ في الآيةِ الأولى أدخلَ الفاءَ، ولَمّا تعيّنَ الخبرُ في الثّانيةِ حذفَها

دخلَ حرفُ الفاءِ على حرفِ التّنفيسِ في قولِه تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ [الأنعام: 135]، بينما جاءت آيةُ هودٍ عُريًّا منه في قولِه تعالى: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾؛ فيُسأَلُ عن إثباتِه هناكَ، وحذفِه هنا معَ اتّفاقِ الآياتِ بالتّهديدِ والوعيدِ؟[3]. والجوابُ عن ذلكَ: أنّ آيةَ الأنعامِ فيها خطابٌ لكفّارِ العربِ من هذهِ الأمّةِ، وقد افتتحَ خطابَهُ بوعيدِهم فتقوّى في هذا الخطابِ تقديرُ الشّرطِ المنجرِّ تقديرُهُ في الأوامرِ كأمرِه بأنْ يقيموا الصّلاةَ، ثمّ أمرِه ﷺ ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾ [الأنعام: 135]، والفاءُ إنّما أُدخلَتْ لِمناسبتِها الشّرطَ، وهي الفاءُ الجوابيّةُ، أمّا آيةُ هودٍ ففيها إخبارٌ للرّسولِ ﷺ فعُرّيتِ الجملةُ عنِ الفاءِ[4].

وثمّةَ فرقٌ بينَ التّعبيرينِ، فآيةُ هودٍ المستأنفةُ العاريةُ منَ الفاءِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/424.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/392.
(3) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/171.
(4) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/171 - 172.

أبلغُ في الدّلالةِ؛ لِما في خطابِ شعيبٍ عليه السلام قومهُ منَ الشّدّةِ بقولِه: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾ ما ليسَ في خطابِ آيةِ الأنعامِ بقولِه: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١٣٥﴾ [الأنعام: 135] المأمورُ بِه الرّسولُ ﷺ[1]؛ فهو خطابٌ ليّنٌ هيّنٌ؛ فلم يستأنفْ هذهِ الجملةَ بل ألحقَها بما قبلَها بالفاءِ الرّابطةِ.

وثمّةَ فرقٌ آخر بينَ الجملتينِ؛ فإنَّ سياقَ آيةِ هودٍ تبليغٌ من شعيبٍ عليه السلام، وجملةُ ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ من كلامِه، وفيها تهديدٌ لهم، أمّا آيةُ الأنعامِ فالكلامُ لهُ تعالى؛ فجاءَ بالفاءِ ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: 135] المؤذنةِ بالمبالغةِ في التّهديدِ، فما كانَ تهديدُهُ أقلَّ عُرِّيَ منَ الفاءِ، وما كانَ تهديدُهُ أكبرَ اقترنَ بالفاءِ.

فائدةُ التّعبيرِ بحرفِ التّنفيسِ ﴿سَوۡفَ﴾:

تأكيدُ الوقوعِ في المستقبلِ، وهو صريحٌ في التّهديدِ

استُعملَ حرفُ التّنفيسِ في قولِه تعالى: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾؛ لإرادةِ توكيدِ الوقوعِ في المستقبلِ، وأنّ علمَهُم واقعٌ بعدَ حينٍ، وفيهِ تصريحٌ بتهديدِهم؛ لأنَّ في هذا الخبرِ علمًا بوقوعِهِ لا محالةَ[2].

سرُّ إيثارِ التّعبيرِ بالعلم:

العلمُ مُتعلِّقٌ بالصّفاتِ التّفصيليّةِ، والمعرفةُ مُتعلِّقةٌ بالذّواتِ

عبّرَ بالعلمِ في قولِه تعالى: ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ دونَ المعرفةِ (تعرفونَ)؛ لأنَّ العلمَ مُتعلِّقٌ بصفاتِ الذّواتِ وأقسامِها، والمعرفةَ مُتعلِّقةٌ بالذّواتِ، وبيانُ ذلك أنّك إذا قلتَ: (علمتُ زيدًا قائمًا) لم يكنِ المقصودُ أنّ العلمَ تناولَ نفسَ زيدٍ حسبُ، وإنّما المعنى أنّ العلمَ تناولَ كونَ زيدًا موصوفًا بهذه الصّفةِ. فالعلمُ يتعلّقُ بصفةِ الشّيءِ وحكمِه وبالكلّيّاتِ، والتّفصيلاتِ، أمّا تعلُّقُ المعرفةِ فبالجزئياتِ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/153.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8أ/92.
(3) أبو البركات الأنباريّ، منثور الفوائد، ص: 44، والخضريّ، حاشية الخضريّ: 1/153.

وحصولُ العلم لديهم بمنِ اتّصفَ بإتيان العذابِ والكذبِ أبلغُ من معرفةِ شخصِه، فهُم قد يعرفونَ ذاتَه وشخصَه.

سرُّ التّعبيرِ بالمضارع ﴿تَعۡلَمُونَ﴾:

تجدُّدُ العلم يُنبئُ عن تجدُّدِ الحسرة والنَّدامةِ

بعدَ أن هدَّدَهُم في أوّلِ الآيةِ بفعلِ الأمرِ أوردَ قولَه تعالى: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾، وهو تهديدٌ ووعيدٌ وتحذيرٌ دالّةٌ صيغتهُ المضارعة على المستقبل[1]؛ لأنّ نزولَ العذابِ سيكونُ بعدَ حينٍ، فهو إخبارٌ بالغيبِ عمّا سيكونُ من تجدُّدِ العلم المنبئَ عن تجدُّدِ الحسرة والنَّدامةِ.

سرُّ التّعبيرِ بلفظ ﴿مَن﴾:

احتمالُ (مَنْ) بين الموصوليَّةِ والاستفهام

استعملَ ﴿مَن﴾ دونَ (الّذي) في قولِه تعالى: ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾؛ لأنّها منَ الألفاظِ المشتركةِ الدّلالة؛ فقد تحتملُ الموصوليّةَ، وقد تحتملُ الاستفهامَ، وليسَ كذلكَ معَ الّذي، فهو لفظٌ معيّنُ الدّلالةِ لا ينفكُّ عن الموصوليّةِ، ولمّا كانَ اللّفظُ في الجملةِ يحتملُ الاثنينَ حَسُنَ التّعبيرُ بـ ﴿مَن﴾، فالمعنى على الموصوليّة: سوفَ تعلمونَ الشّقيَّ الّذي يصيبُهُ العذابُ المُخزِي، والّذي هو كاذبٌ، والمعنى على الاستفهام: سوفَ تعلمونَ أيُّنا يأتيهِ عذابٌ يُخزيهِ، وأيُّنا يكونُ كاذبًا[2]، مع دلالتها في الوجهين على العموم.

سرُّ تنكيرِ ﴿عَذَابٞ﴾:

تهويلُ العذابِ وتعظيمُ شأنِه

وردَ العذابُ مُنكَّرًا في قولِه تعالى: ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ﴾ لما فيه من الإشارةِ إلى أنّهُ نوعٌ مجهولُ الكمِّ والكيفِ؛ فيذهب فيهِ الذّهنُ كلَّ مَذهبٍ، فهو لغرضِ التّهويلِ والتّعظيم، ثمَّ وصفهُ بالإخزاءِ لدفعِ الإيهامِ بقلَّتِه، وتأكيدًا على بلوغِهِ مَبلغًا يستحقُّهُ المخاطَبونَ.

توجيهُ تخصيصِ وصفِ العذابِ بالخزي:

لمّا أوعدوهُ بالرَّجمِ لوَّحَ لهم بالخزي

لم يكتفِ بقولِه تعالى: ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ﴾ مع كونه تامّ المعنى

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وبيانه: 4/500.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/202.

وزادَ عليهِ لفظ ﴿يُخۡزِيهِ﴾ وصفًا للعذابِ؛ لأنّهُ وصفَ عذابَهم المستحقَّ بالإخزاءِ من بابِ التّعريضِ؛ فإنّهُم وعدوهُ عليه السلام بالرّجم؛ فجاءَ بهذهِ الصّفةِ الدّالّةِ على زيادةِ الخزيِ الظّاهرِ معَ كونهِ عذابًا، وذلكَ لا يكونُ إلّا عن جنايةٍ عظيمةٍ أوجبَها عليهمْ[1] بمدعاةِ كفرهِم وكذبِهِم وانطماسِ بصيرتِهِم.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعليّةِ ﴿يُخۡزِيهِ﴾:

إتيانُ العذابِ المُخزِي مُرتقَبٌ، وليس كذلك كذبُ الكاذبِ

جاء النَّظمُ بصيغة الفعل المضارع في قولهِ تعالى: ﴿يُخۡزِيهِ﴾ دونَ الاسميّةِ، كما فعلَ معَ ﴿كَٰذِبٞۖ﴾؛ وذلك لأنّ إتيانَ العذاب مُرتقَبٌ، وليسَ كذلكَ معَ الكذبِ، بل المُرتقَبُ ظهورُ الكذبِ السّابقِ المستمرِّ[2]، فكأنَّ الكذبَ صفةٌ ذاتيةٌ منهُم، وإتيان العذاب المُخزِي أمرٌ فعليٌّ يحدثُ جزاءَ أفعالِهم.

معنى الواوِ ودلالتُها:

الاكتفاءُ بذكرِ عاقبةِ الظّالمين رفعةٌ لشعيبٍ عليه السلام

الواوُ في قولهِ تعالى: ﴿وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ﴾ دالّةٌ على العطفِ؛ فقد عطفَ صفةَ الكذبِ على صفةِ الخزيِ الملحقةِ بهم؛ فتكونُ كلتا الصّفتينِ في الجملتينِ للكافرينَ من بابِ عطفِ الصّفةِ على الصّفةِ، والموصوفُ واحدٌ مثلَما يُقالُ للمُذنبِ: ستعلمُ منْ يهانُ ومنْ يعاقبُ، والكلامُ لهُ جميعًا، وفي ذلكَ دلالةٌ على ذكرِ عاقبةِ المحقِّ الصّادقِ على وجهِ التّعريضِ، وهو أبلغُ وأوقعُ منَ التّصريحِ؛ فاستغنى عن ذكرِ عاقبةِ شعيبٍ بذكرِ عاقبتِهم[3]. وقد مرَّ مثلُ ذلكَ في قولِه سبحانه: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣٩ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ٤٠﴾ [الزّمر: 39 - 40]؛ إذِ اكتفى بذلك عن أن يقولَ: ومَن هو على خلافِ ذلك، ونظيرُهُ ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ [الأنعام:

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/237.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/237.

(3) زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/690.

135]؛ إذ ذكرَ فيه إحدى العاقبتَين؛ لأنّ المرادَ بهذه العاقبةِ عاقبةُ الخير؛ لأنّها متى أُطلِقَت لا يَعني إلّا ذلكَ، نحو: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف: 128][1].

يـوم القيامة يُفضحُ المُدّعي كذبًا

وفي العطف تعريضٌ أيضًا بكذبِهم في ادّعائِهمُ القوّةَ والقُدرةَ على رجمه ﷺ، وفي نسبتِهِ إلى الضّعفِ والهَوانِ، وفي ادّعائِهمُ الإبقاءَ عليه لرعايةِ جانبِ الرّهطِ[2].

دلالةُ ذكرِ ضميرِ الفَصلِ:

الإيماء باختصاصِ أحدِ الفريقين بالكذبِ

دخلَ الضّميرُ المنفصلُ ﴿هُوَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ﴾؛ لأنَّ العربَ لا تقولُ: مَنْ قائمٌ، بل تقولُ: مَنْ قامَ؟ ومَنْ يقومُ؟ ومَنِ القائمُ؟، فلمّا فُقِدَ (فعلَ) و(يفعلُ) و(المعرفةُ) أتوا بالضّميرِ ليقومَ مقامَ ذلكَ[3]، مع ما فيه منَ القوّةِ اللّفظيّةِ والإشعارِ بالاختصاصِ، كأنّه قال: ومَن هو المستحقُّ بوصفِ الكذبِ فينا، فيختصُّ به دونَ الآخرِ، ويقتصرُ عليه؛ فضميرُ الفصلِ يُؤكِّدُ معنى الاختصاصِ، والقصرِ، وحصرِ المُسندِ على المُسندِ إليه، ويمنعُ المشاركةَ؛ فالمستحقّونَ هم الكاذبونَ وحدَهم، لا يشاركُهُم في ذلك أحدٌ، وفيه معنى بلوغِ الغايةِ، والكمالِ في الوصف.

توجيهُ تخصيص الكذبِ بالذّكر:

الواثقُ بالله تعالى يأتي بتُهم الخصوم لتعكيس كلامهم وقلبِ غاياتِهم

لَمّا صُدِّرَت الآيةُ بذكرِ عملِهم على مكانتِهم، وعملِه على مكانتِه، ثمّ أتبعهُ ذكرَ عاقبةِ العاملينَ منهُ ومنهُم، كانَ القياسُ أن يقولَ: مَن يأتيه عذابٌ يخزيه، وهذا جزاؤهمْ، ومَنْ هو صادقٌ؛ تعبيرًا عن نفسه، لكنّهُ عدلَ عن ذلكَ إلى قولِه تعالى: ﴿وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ﴾، فجاءَ بوصفِ الكاذبِ؛ لأنّهم لَمّا كانوا يَدعونهُ كاذبًا - وهو الجاري على ألسنتهم -

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/322.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/237.

(3) الفرّاء، معاني القرآن: 2/26.

جاءَ بهذا الوصفِ المزعوم المُدَّعى منهم من بابِ التّجهيلِ لهُم[1]، ومن بابِ تحدِّيهم، فإنَّ ثقةَ الصّادقِ تجعلُه يلقي كلامَ الخصم دونَ تردُّدٍ، وهو صادقٌ مَصدوقٌ، لكنّهُ عبَّرَ بهذهِ الصّفةِ "حسب زعم المُخاطَبينَ، أعني: المُشركينَ؛ إذْ إخراجُ الكلام على وفقِ اعتقادِ المخاطَبينَ اللّئام ممّا شاعَ في كلامِ البلغاءِ ومحاوراتِ الفصحاءِ"[2].

معنى الواوِ ودلالتُها:

الواوُ في جملةِ ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ﴾ للعطفِ، غيرَ أنّها عطفتْ هذهِ الجملةَ على جملةِ ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾[3] الدّالّةِ على التّهديدِ؛ فتكونُ جملةُ ﴿وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ﴾ مُعترِضةً بينهُما.

علَّةُ الفَصلِ:

فُصِلتِ الجملةُ الاسميّةُ ﴿إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنّها تعليلٌ للأمرِ الدّالِّ على فعلِ الارتقابِ، وهو من كلام شعيبٍ[4] عليه السلام، مع ما يشوبُ هذه الجملةَ منَ الثّقةِ التّامّةِ، والطّمأنينةِ الكاملةِ، والتَّحدِّي الصّارخِ، ما يجعلُ الأصدافَ تتفتَّحُ، والأحجارَ تتشقَّقُ.

تعليلُ المؤمنِ صادرٌ عن قلبٍ مُطمئنٍ وعقلٍ واعٍ

دلالةُ التّأكيدِ:

قولهُ تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾ تذييلٌ لرقابتهِ عليه السلام، وقد صدّرها بـ (إنّ) الدّالّةِ على التّوكيدِ؛ فإنّهم لَمّا كانوا يكذّبونَهُ، وينكرونَ أقوالَهُ، وما يعدُهُم بهِ أكّدَ ذلكَ بقولهِ: ﴿إِنِّي﴾[5]؛ فإنّه لا يفقهُ المواعظَ والتّذكيرَ إلّا أهلُ الإيمانِ والتّنويرِ.

لا يفقهُ المواعظَ والتّذكيرَ إلّا أهلُ الإيمانِ والتّنويرِ

سرُّ التّعبيرِ بالمعيّةِ:

لَمّا ذكرَ النَّظمُ رقابةَ شعيبٍ عليه السلام، وأكّدَها بإنَّ، أضاف لها قيدًا؛

لا يفارقُ المؤمنون مشاهدَ الدَّعوةِ بل ينتظرون الأمرَ من صاحبِ الأمر

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/424 - 425.

(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 10/188.

(3) الدّرّة، إعراب القرآن وبيانه: 4/501.

(4) الدّرّة، إعراب القرآن وبيانه: 4/501.

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/366.

وهو صفةُ المعيّةِ بقولهِ تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾، ففي هذا القيدِ "إظهارٌ منهُ عليه السلام لكمالِ الوثوقِ بأمرهِ"[1]؛ فلا يدخلُ الشّكُّ في نفوسهِم منْ أنّهُ سيتركُهُم، وما ذلكَ إلّا لثقتِهِ بسوءِ عاقبتهِم وحسنِ خاتمتِهِ، وهو شأنُ الثّابتين في صراط اللّهِ المهتدين، أنَّهم يبلِّغون رسالاتِ اللّه تعالى، ولا يفرُّون، بل ينتظرونَ مآلَ الأمرِ من صاحب الأمرِ.

سرُّ تقديم الظّرفِ ﴿مَعَكُمْ﴾ على المُسندِ ﴿رَقِيبٌ﴾:

إفادةُ الحصرِ للمبالغةِ، فكأنّه جعلَ نفسَهُ رقيبًا معهُم وحدَهم

قُدِّمَ الظّرفُ ﴿مَعَكُمْ﴾ على المسندِ ﴿رَقِيبٌ﴾ في قولهِ تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ لتحصيلِ فائدةِ القصرِ؛ لأجلِ المبالغةِ؛ فكأنّهُ جعلَ نفسَهُ رقيبًا معهُم لا غيرهُم على سبيلِ المبالغةِ لا الحقيقةِ؛ فإنَّ المعيّةَ ليستْ مقصورةً عليهِم حقيقةً، ولكنّهُ أرادَ الإيحاءَ بأنّهُ مسخِّرٌ نفسَهُ معهم، وفي هذا التّعبيرِ ما يوحِي بثقتهِ بالمصيرِ، وأنَّ صدقَه يجعلُه واثقًا منَ المآلِ.

سرُّ التّعبيرِ بقولهِ تعالى: ﴿رَقِيبٌ﴾، مفردةً وصيغةً:

الرَّقيبُ ذو منزلةٍ عاليةٍ ومكانةٍ رفيعةٍ

التّعبيرُ عن رقابتهِ عليه السلام بصيغةِ فعيل ﴿رَقِيبٌ﴾ لا باسم الفاعلِ "فلم يقُلْ: مُرتقِبٌ، إشارةً إلى أنَّ همَّهُ الاجتهادُ في العملِ بما أمرَهُ اللّهُ؛ لأنّهُ مُبالغٌ في ارتقابِ عاقبتِهِ معهُم استهانةً بهم"[2]، ولأنّهُ أرادَ أن يكونَ هذا الوزنُ محتملًا لمعانٍ عدّةٍ، فقد يكونُ بمعنى الرّاقبِ كالضّريبِ بمعنى الضّاربِ، وقد يكونُ بمعنى المُراقبِ، كالنّديم بمعنى المنادم، وقد يكونُ بمعنى المُرتَقِبِ كالفقيرِ بمعنى المُفتَقِرِ[3]، فهذهِ معانٍ مُتوقَّعةٌ مُحتمَلةٌ لما يعطيه هذا الوزنُ من تعدُّدٍ في المعنى.

واستعملَ مفردةَ ﴿رَقِيبٌ﴾ الدّالّةَ على العلوِّ؛ ليشيرَ إلى أنّهُ عليه السلام

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/237.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/366.

(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/392.

في مكانٍ عالٍ يشرفُ على هؤلاءِ القوم الكافرينَ، وهم دونَهُ يلقونَ العذابَ المهينَ؛ فهو في مَرقبٍ عالٍ كالقاضي يعلو منصّةَ القضاءِ[1].

فنُّ ردّ العجُزِ على الصّدر:

من أماراتِ النّبوّة اليقينُ بوعد الله

في قولهِ تعالى: ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾، ردَّ عجُزَ الجملةِ على صدرِها؛ إذ وافقَت كلمةُ ﴿رَقِيبٞ﴾، وهي آخر كلمةٍ في الكلام، أوّلَ كلمةٍ في صدرِه، ليُسهمَ في ترسيخِ معنى اشتراكه معهم في المراقبةِ يقينًا منه عليه السلام بتحقُّقِ وعدِ اللّهِ بعذابِهِم.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الارتقابُ والانتظارُ:

الانتظارُ طلبُ النّظر، والارتقابُ انتظارٌ من علٍ معَ الخوفِ

"الانتظارُ طلبُ ما يقدرُ النّظرُ إليهِ، ويكونُ في الخيرِ والشّرِّ، ويكونُ معَ شكٍّ ويقين"[2]، أمّا الارتقابُ فهو من مادّةِ (رقب) بمعنى الحفظِ والانتظارِ، إلّا أنّهُ يتوفّرُ على معنًى آخر يميّزُهُ من لفظِ الانتظارِ، وهو أنّهُ يكونُ مُشرفًا من مَوضعٍ عالٍ[3].

ولهُ مزيّةٌ أخرى ترجّحُ مواءمتَهُ لسياقِ الآيةِ وقصّتِها، وهو أنَّ الارتقابَ يدلُّ على الانتظارِ مع حصولِ الخوفِ، وأنّه أكثرُ ما يُستعملُ في المكروهِ[4]، وما كانَ ارتقابُهُم إلّا عن خوفٍ ووجلٍ، وما كانَ مآلُ الارتقابِ إلّا عاقبةَ العذابِ الّذي أوعدوهُ من شعيبٍ عليه السلام.

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 6/1193.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 75.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (رقب).
(4) العسكريّ، الوجوه والنّظائر، ص: 233.

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩٤ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ٩٥﴾ [هود: 94 - 95]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

الانتقالُ منَ الإخبارِ إلى الخبرِ، ومنَ الغيبِ إلى الشُّهودِ، ومنَ الوعيدِ إلى العقابِ

توعّدَ شعيبٌ ﵇ قومَه فيما سبقَ بالتَّرقُّبِ وانتظارِ ما يؤولُ إليهِ تكذيبُهُم، وها هو أمرُنا الصّادعُ بالعذابِ قد صبّحهُم بكرةً في وقتٍ لا يُتوقَّعُ فيهِ العذابُ، بعد أن أنجى اللّهُ نبيّهُ ومَنْ معهُ برحمتهِ ولطفهِ، فكانَ حالُ المُعذَّبينَ عدمًا كأنّهم لم يعيشوا أغنياءَ لاهينَ[1]، ولمْ يتنعّموا بحياةٍ قطُّ، مثلُهُم في ذلكَ مثلُ ثمودَ في البعدِ والهلاكِ، فالمناسبةُ بين الآياتِ، هو ذكرُ العذابِ المُتوعَّدِ، بعد ذكرِ الوعيد الصّادقِ، والانتقالُ منَ الإخبارِ إلى الخبر، ومنَ الغيبِ إلى المشاهَدة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾: أصلُ مادّتِهِ (صيح)، فالصّادُ والياءُ والحاءُ أصلٌ صحيحٌ، وهو الصّوتُ العالي. منهُ الصِّياحُ، والواحِدَةُ منه صَيحَةٌ[2]، والصّيحَة: العذابُ[3]. وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾؛ يعني به: العذاب[4].

2) ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾: أصلُ مادّتِهِ (صبح)، فالصّادُ والباءُ والحاءُ أصلٌ واحدٌ مُطَّرِدٌ. وهو لَونٌ منَ الألوانِ، أصلُهُ الحُمرَةُ، وسُمّيَ الصُّبحُ صُبحًا لِحُمرَتِهِ، كما سُمِّيَ المصباحُ مصباحًا لِحُمرَتِهِ[5]

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/367.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صيح).
(3) الخليل، العين: (صيح).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (صيح).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صبح).

وتقول: صَبَحَني فلانٌ: إذا أتاك صباحًا، وتقول في الحرب: صَبَّحناهُم، أي: غادَيناهم بالخيل فنادَوا: يا صَباحاه، إذا استَغاثوا[1] فمعنى (أصبحوا) هنا: طلعَ عليهمُ الصّباحُ، وهُم مَوتى.

3) ﴿دِيَٰرِهِمۡ﴾: أصلُ مادّتِهِ: (دور)، فالدّالُ والواوُ والرّاءُ أصلٌ واحدٌ يدلُّ على إحداقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ من حَوالَيه. يُقالُ دارَ يَدورُ دَورانًا، والدّارُ أصلُها الواوُ. والدّارُ: القَبيلَةُ[2] وكُلُّ قبيلةٍ اجتَمَعَت في مَحلَّةٍ سُمِّيَت تِلكَ المَحَلّةُ دارًا، فالدُّورُ جَمعُ دارٍ؛ وهي المنازلُ المسكونَةُ والمحالُّ، وتُجمَعُ أيضًا على دِيارٍ[3]. والدّنيا كما هي دارٌ، والدّارُ الدّنيا، والدّارُ الآخرةُ، إشارة إلى المَقَرَّين في النّشأةِ الأُولَى، والنّشأةِ الأُخرى. وقيلَ: دارُ الدّنيا، ودارُ الآخرة[4]، وجاءتِ الدّيارُ هنا بمعنى: المَنازل.

4) ﴿جَٰثِمِينَ﴾: أصلُ مادّتِهِ (جثم)، فالجيمُ والثّاءُ والميمُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيءِ. فالجُثمانُ: شَخصُ الإنسانِ[5]. وجَثَمَ يَجثِمُ جُثومًا؛ أي: لَزِمَ مكانًا لا يَبرَحُ[6]. وفي قول اللّه جلَّ وعزَّ: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٧٨﴾ [الأعراف: 78] أصابَهُمُ البلاءُ فبركوا فيها، والجاثِمُ: البارِكُ على رِجلَيه، كما يَجثِمُ الطَّير؛ أي: أصابَهُم العَذاب فماتوا جاثمين؛ أي: باركين[7]، وهو المعنى المرادُ هنا.

5) ﴿يَغۡنَوۡاْ﴾: أصلُ مادّتِهِ (غني)، فالغينُ والنّونُ والحرفُ المُعتَلُّ يدلُّ على الكِفايَةِ. فالغِنَى في المالِ. يُقالُ: غَنِيَ يَغْنَى غِنًى. والغَناءُ بفتحِ الغَينِ مَعَ المَدِّ: الكِفايَةُ. وغَنِيَ القَومُ في دارِهِم: أقاموا، كأَنَّهُمُ استَغنوا بها. ومَغانِيهِم: مَنازِلُهُم. ويُقالُ: غني في مكانٍ كذا: إذا طال مَقامُهُ مُستَغنيًا به عن غيرِهِ[8]، وقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ﴾؛ أي: كأنْ لم يقيموا في ديارِهِم.

(1) الخليل، العين: (صبح).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دور).
(3) ابن الأثير، النّهاية: (دور).
(4) الرّاغب، المفردات: (دار).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جثم).
(6) الخليل، العين: (جثم).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جثم).
(8) الرّاغب، المفردات: (غني)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).

6) ﴿بُعۡدٗا﴾: أصلُ مادّتِه (بعد)، فالباءُ والعينُ والدّالُ أصلُ يدلُّ على خِلاف القُربِ، والبَعَدُ: الهَلاكُ[1]، ومنه قَولُه تعالى: ﴿كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾؛ أي: هَلَكَتْ. والبُعدُ والبِعادُ أيضًا منَ اللّعنِ، وهذا من قولك: بُعْدًا وسحقًا، ونصبه على المصدريّةِ، ولم يجعلْه اسمًا[2]، و﴿بُعۡدٗا﴾ في الآية بمعنى: الطّرد واللّعن والهلاك.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

نتيجةُ المعاندةِ الوقوعُ في المباعدة، واستحقاقُ اللّعنِ بعد الطّعن

يُخبرُ اللّهُ تعالى عن قوم شعيبٍ عليه السلام، بعدما أصابَهُمُ العذابُ بالصّيحةِ، فماتوا جميعًا، وزالوا عن وجه الأرضِ، كأن لم يقيموا في ديارهم من قبلُ، ولم يتّخذوها منازلَ، ثمّ نبَّه اللّهُ تعالى المخاطَبين بأداة التّنبيهِ ﴿أَلَا﴾، فقال: ألا طُرِدت مَديَنُ من رحمة اللّهِ بحلول نقمتِه عليهم، كما طُرِدت منها ثمودُ من قبلُ، بإنزال اللّهِ تعالى سخطَه عليهم[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علّةُ الوصلِ:

ليسَ بعدَ الوعيدِ إلّا نزولُ العذابِ الشّديدِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا﴾ موصولٌ بما سبقَه بالعطفِ؛ لأنّهُ لّما أوعدهُم بأن سيأتيهمُ العذابُ المُخزِيُ، فإنّ وعيدَهُ آتٍ لا محالةَ لّما لم ينتفعوا بصادعِ وعيدِه؛ فجاءَ الأمرُ بالعذابِ والعقابِ بعدَ أن نجّى اللّهُ شعيبًا ومَن معهُ.

المتشابهِ اللّفظيِّ:

لم يتقدّمْ تخويفٌ بقربِ العذابِ فعطفَ بالواوِ، وكانَ التّخويفُ بالعذابِ قريبًا فعطفَ بالفاءِ

جاء قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ [هود: 58]، وقولُه تعالى هنا: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾، منسوقًا بالواو، فيما جاء قولُه تعالى:

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بعد).

(2) الخليل، العين: (بعد).

(3) جماعة منَ العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 232.

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ [هود: 66]، وقولُهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: 82] منسوقًا بالفاءِ، فيُسألُ عنِ الفرقِ بينَ اختلافِ حرفي العطفِ في كلِّ موضعٍ؟

وقبلَ الجوابِ عن ذلكَ لا بدّ من بيانِ الفرقِ بينَ الواوِ والفاءِ العاطفتينِ، وهو أنَّ عطفَ الجملةِ أو الصّفةِ بالفاءِ غالبًا ما يكونُ من بابِ السّببيّة[1]؛ فتكونُ الجملةُ الأولى سببًا للثّانيةِ أو كالسّببِ، وشدّةُ الاتّصالِ بينهُما أقوى منَ الواوِ، ثمَّ إنَّ الفاءَ دالّةٌ على التَّعقيب.

ففي سياقِ الآيتينِ الأُولَيَيْنِ ليسَ فيهِ ما يدلُّ على التّخويفِ بقربِ الوعيدِ الّذي أوعدوهُ ليدلَّ على اتّصالِ ما قبلَ (لَمّا) بما بعدَها اتّصالًا وثيقًا بما يشبهُ السّببَ والنّتيجةَ؛ فلمْ يَحسُنِ العطفُ بالفاءِ، بلْ عطفَ بالواوِ؛ لأنّه "لم يسبِقْهُ فيها ذِكرُ وعدٍ يجري مَجرى السّببِ المُقتضي لدخولِ الفاءِ في مَعلولِه"[2]، فمرادهُ الجمعُ بينَ الخبرينِ فحسب، أو من بابِ عطفِ القصّةِ على نظيرتِها[3]، وهذا القياسُ يشمَلُ قصّةَ هودٍ وقصّةَ شعيبٍ المنسوقتينِ بالواوِ، ومئنّةُ ذلكَ أنَّ التّخويفَ في قصّةِ شعيبٍ قد قارنَهُ التّسويفُ بقولهِ تعالى: ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾[4].

وخلافُ ذلكَ تمامًا في الآيتينِ الأُخْرَيَيْنِ؛ فقد أوعدهُم صالحُ أنْ يتمتّعوا ثلاثةَ أيّام، وبعدَها يحلُّ العذابُ، أمّا في قصّةِ لوطٍ فقد أوعدَهُم بأن يكونَ موعدُهُمُ الصّبحَ، والصّبحُ أقربُ الأوقاتِ بعدَ اللّيلِ؛ "فكانَ ذلكَ بعقبِهِ غيرَ مُتراخٍ؛ فاقتضى الفاءَ الّتي تدلُّ على التّعقيبِ، واتّصالِ ما بعدَها بما قبلَها من غيرِ مهلةٍ بينهُما"[5].

سرُّ التّعبيرِ بالمجيءِ:

جاء التَّعبيرُ بمجيءِ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ دونَ إتيانه؛ لأنّهُ أرادَ أن يُردِفَ الإصابةَ معَ المجيءِ؛ فإنَّ المجيءَ إتيانٌ معَ الإصابةِ، فيأتي أمرُنا وهو العذابُ، ويصيبُ منْ أُرسِلَ إليهم، وهمُ القومُ الّذينَ كذّبوا شعيبًا، وهو أفخمُ منَ التّعبيرِ بالإتيانِ.

(1) ابن مالك، شرح تسهيل الفوائد: 3/351.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/237.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/203.
(4) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/791.
(5) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/792.

المجيءُ إتيانٌ معَ إصابةٍ

لأنّ المجيءَ أعمُّ، فالإتيانُ مجيءٌ بسهولةٍ، والإتيانُ قد يُقال باعتبارِ القصدِ، وإنْ لم يكنْ منه الحصولُ، والمجيءُ يُقال اعتبارًا بالحصولِ(1)، ومجيءُ أمرِ اللّه بالعذاب حاصلٌ، مُحقَّقٌ ثقيلٌ وقعُهُ على المُعذَّبين، وصعبٌ تحمّلُهُ. ومن هنا اختارَ لفظَ المجيءِ دونَ الإتيان؛ لِما فيه من دلالتي: عدم السّهولة، واعتبارِ الحصولِ الفعليِّ لا قصده.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضِي:

التّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ له دلالةٌ دقيقةٌ ههنا، وهو أنّ المجيءَ بالأمرِ قد اقتربَ ودنا، وبدت بوادرُهُ؛ لأنّ إنجاءَ المؤمنينَ قد حصلَ قبلَ وقوعِ العذابِ(2).

براعةُ الاستعارة في لفظِ الأمرِ:

شبّه صدورَ الأمرِ وظهورَ بوادره بمجيئِهِ

لفظ (الأمرُ) في قولِه تعالى: ﴿جَآءَ أَمۡرُنَا﴾، ليسَ على حقيقةِ لفظِه، إنّما القصدُ منهُ أثرُ الأمرِ لا الأمرُ نفسُهُ، وهو ما أمرَ اللّهُ به أمرَ تكوينٍ (كنْ)، والمعنى: لّما اقتربَ مجيءُ أثرِ الأمرِ الإلهيِّ، وهو العذابُ(3)، أي: بوادرُ الأمرِ، وأُطلِقَ الأمرُ بقصدِ التَّهويلِ والتَّفخيم والتَّعظيم، فإنَّ عذابَ اللّه ﷻ في المكذّبين لا يكونُ إلّا عن أمرِه، كأنَّه قال: ولّما صدرَ أمرُنا، فهو على تقديرِ مجازيٍّ، بتشبيه صدورِ الأمرِ بمجيئه، فهو استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، أو على تقدير: ولّما جاءت بوادرُ أمرِنا، فهو على المجازِ بالحذف.

إظهارُ العذابِ في صورةِ شخصٍ يجيءُ ويذهبُ؛ زيادةٌ في التّخويفِ والتّهديدِ

أو نفسِّرُ الأمرَ بالعذابِ على طريقِ الاستعارةِ المكنيّةِ(4)؛ فقد شبَّهَ الأمرَ وهو العذابُ بشخصٍ، وحذفَ المشبّهَ بهِ، وأبقى لازمًا من

---

(1) الرّاغب، المفردات: (جاء).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/103.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/103.

(4) الاستعارةُ المكنيّةُ "أن يُذكر لفظُ المشبّه مُرادًا به حقيقته، ويدلّ على أنّ القصدَ تشبيهُه بغيره بذكر شيءٍ من لوازم ذلك الغير". يُنظر: السّبكيّ، عروس الأفراح: 2/197، كقول الشّاعر: وإذا المنيّةُ أنشبَت أظفارَها.

لوازمه وهو المجيءُ، وفائدتهُ إظهارُ العذاب في صورةِ شخصٍ يجيءُ ويذهبُ زيادةً في التّخويفِ والتّهديدِ للمخاطَبينَ المنكِرين نبوّتَهُ ودعوتَهُ عليه السلام.

بلاغةُ الإسنادِ المجازيّ:

إظهار اقتدار الله تعالى وبيانُ آثار قهرِه ومُوجبِ عذابِهِ

إسنادُ المجيءِ إلى الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ مجازٌ، الغرضُ منهُ تمثيلٌ لظهورِ اقتدارِه سبحانه وتعالى، وبيان آثارِ قهرِه تعالى ومُوجبِ عذابِه، فكأنّ العذابَ قد حضرَ بنفسه، وفي ذلكَ حصولُ آثارِ الهيبة ما لا يحصلُ في التّعبيرِ بالأمرِ على وجهِ الحقيقة.

دلالةُ الإضافةِ:

تعظيمُ الأمرِ لتعلُّقِهِ بالإرادةِ الرّبّانيّةِ ودلالتِه على العظمةِ الإلهيّةِ

جاءَ الأمرُ في قولِه تعالى: ﴿جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ مضافًا إلى الضّميرِ الدّالِّ عليه سبحانهُ (نا) لتعلُّقِهِ بالإرادةِ الرّبّانيّة، ودلالته على الجبروتِ والعظمةِ الإلهيّة[1]؛ فيقع الأمرُ موقعَ الهيبةِ والتّعظيم في نفوسِ المخاطَبينَ، وفيه تخويفٌ للأعداءِ، وطمأنةٌ للأولياء.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ ﴿نَجَّيۡنَا﴾:

المبالغةُ في التّنجيةِ، والإيماءُ إلى كثرةِ سُبُلِ النّجاة

جاءَ استعمالُ فعلِ ﴿نَجَّيۡنَا﴾ بصيغةِ (فَعّلَ) الثّلاثيّ المزيدِ بحرفٍ واحدٍ، وهو تضعيفُ عينِ الفعلِ، ومن معانيهِ المشهورة المبالغةُ والتّكثيرُ[2] كقولِه تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ [يوسف: 23]؛ فإنّه لم يكنْ بابًا واحدًا، والمرادُ في قصّةِ شعيبٍ عليه السلام الإشارةُ إلى المبالغةِ في إنجاءِ شعيبٍ ومَن معهُ منَ القوم الظّالمينَ.

وقد يُقالُ: إنَّ منْ مقتضياتِ الحدثِ الدّالِّ على التّكثيرِ والمبالغة أن يستغرقَ وقتًا أطولَ، وأنّه يفيدُ تلبُّثًا ومكثًا، ومن هُنا التّفريقُ في استعمالِ (نَجّى) و(أنْجَى) فإنّ القرآنَ الكريمَ كثيرًا ما يستعملُ الفعل (أنْجَى) للإسراعِ فيها، ويُؤثِرُ استعمالَ الفعلِ (نجّى) للتّلبُّثِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/367.

(2) سيبويه، الكتاب: 4/64، وابن عصفور، المتع في التّصريف، ص: 129.

والتّمهُّلِ في التّنجيةِ[1]، وهو مُتحقّقٌ في قصّةِ شعيبٍ؛ فقد كانَ تهديدُهُم مُتدرِّجًا؛ لأنّهُ خاطبهُم أوّلًا بأن يعملوا على مكانتِهم، وهو تهديدٌ بوقوعِ العذابِ إلّا أنَّ لهُ وقتًا مُؤجَّلًا، ثمَّ جاءَ بـ (سوفَ) الدّالّةِ على الزّمنِ المتمادِّ، ثمَّ دعاهُم للارتقابِ، وهو يقتضي زمنًا؛ فثبتَ أنَّ حلولَ العذابِ اقتضى زمنًا؛ فناسبَهُ الفعلُ ﴿نَجَّيْنَا﴾ الدّالّ على التّلبُّثِ والتّمهُّلِ، كما أنَّ هذا الفعلَ يومئُ إلى أنّه لم يجعلْ لشعيبٍ وقومه سبيلًا واحدًا منَ النَّجاةِ، بل جعل لهم سبلًا كثيرةً، وفي ذلكَ طمأنةٌ لأوليائه، وأنّه معهُم، ولن يتركَهُم.

فائدةُ إسنادِ الفعل لنونِ العظمةِ:

تعظيمُ التَّنجيةِ وتوقيرُ المُنَجَّى

جاءَ فعلُ ﴿نَجَّيْنَا﴾ مُسندًا للضّميرِ (نا) الدّالِّ على العظمةِ والإجلالِ؛ وأنّه نجّاهُ تنجيةً عظيمةً[2]، وفيه تشريفُ نبيِّ اللّهِ شعيبٍ ومن معهُ وتوقيرُهُم؛ فإنَّ التّعظيمَ والتّوقيرَ من أسبابِ نصرةِ الرّسلِ.

علّةُ البدءِ بذكرِ النَّجاةِ قبل العذابِ:

الاعتبارُ المعنويُّ في المسارعةِ في التّبشيرِ، والزّمانيُّ فهو الواقع

في قولهِ تعالى: ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ ذكرَ تنجيةَ شعيبٍ ﷺ ومَن معه منَ المؤمنين، وكانَ مقتضى الظّاهرِ أن يذكرَ وقوعَ العذابِ على الّذينَ أنكروا نبوَّتَه ودعوتَه، لكنّهُ عدلَ عن ذكرِ العذابِ إلى النّجاةِ؛ لأنَّ "الإخبارَ بتنجيةِ الأولياءِ لا سيّما عندَ الإنباءِ بحلولِ العذابِ أهمُّ، ذكرَها أوّلًا، ثمَّ أخبرَ بهلاكِ الأعداءِ"[3]، ولما فيه من تقديم الحدثِ الأوَّلِ؛ فإنَّ التَّنجيةَ هي الّتي وقعت، ثمَّ جاء العذابُ، ولا يُتصوَّر سوى هذا التَّرتيبِ الزَّمانيِّ، فعلَّةُ ذكرِ التَّنجيةِ أوَّلًا الاعتبارُ المعنويُّ، والاعتبارُ الزَّمانيُّ.

(1) السّامرائيّ، بلاغة الكلمة، ص: 62 - 70.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/367.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/223.

فائدةُ التّعبيرِ بالموصولِ:

الإشعارُ بعلّة الحكم، وبناؤه على التّشويق

في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ عبّرَ بالاسم الموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ معَ صلتِه ﴿ءَامَنُواْ﴾، وعطفهُ على ﴿شُعَيۡبٗا﴾، وعدلَ عنِ التّعبيرِ بالاسم الظّاهرِ فلم يقُلْ: (والمؤمنينَ) معَ وجازته اللّفظيّة؛ إيماءً إلى علّةِ بناءِ الخبرِ على الصّلةِ، وعلّةِ ترتُّبِ الحكم، والمعنى: أنَّ إيمانَهُم سببٌ لنجاتهم منَ العذابِ.

كما أنَّ فيه تحقيقًا لعنصرِ التّشويقِ والتّرقُّبِ؛ لأنّهُ يجيءُ على مرحلتينِ؛ الأُولى: الذّكرُ والإبهامُ، والأخرى الفهمُ والبيانُ من خلالِ جملةِ الصّلةِ الّتي تبيّنُ الموصولَ وتوضّحهُ، فجملةُ ﴿ءَامَنُواْ﴾ بيانٌ وتوضيحٌ للاسم الموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾.

سرُّ التّعبيرِ بالظّرفيّةِ ﴿مَعَهُۥ﴾:

بيانُ الإيمانِ الخالصِ بالله تعالى، وما رسلُه إلّا وسائطُ هدايةٍ

لَمّا ذكرَ فعلَ (الإيمانِ) أردفَهُ بظرفِ المعيّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾، وسرُّ ذلكَ الإيذانُ بأنّ إيمانَهم إنّما هو كائنٌ باللّهِ تعالى لا بشعيبٍ عليه السلام؛ لأنّ المعنى يحتملُه، وهو يشبهُ قولَهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [هود: 66]؛ فإنّ الإيمانَ بصالحٍ عليه السلام مُحتملٌ[1]، فلمّا قالَ: ﴿مَعَهُۥ﴾ تعيّنَ أن يكونَ الإيمانُ باللّهِ من صالحٍ وشعيبٍ، ومنَ الّذين معهُما في الآيتين، ومثله قوله تعالى على لسانِ ملكةِ سبأ: ﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٤﴾ [النّمل: 44]، وفيه بيانُ الإخلاصِ في الإيمانِ للّه وحدَه، وأنَّ أنبياءَ اللّه ورسلَه ما هم إلّا وسائطُ هدايةٍ، وسبلُ نجاةٍ.

معنى الباءِ ودلالتُها:

(الباءُ) في قولِه تعالى: ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ دالّةٌ على السّببيّةِ؛ فكانت رحمةُ الحقِّ سبحانهُ سببًا في نجاةِ شعيبٍ عليه السلام ومَن معهُ منَ القوم الظّالمينَ[2].

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم، ص: 311.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/104.

سرُّ تقديم النّاجين على سببِ التَّنجيةِ:

إظهارُ كمالِ العنايةِ، وتعجيلُ المسرّةِ للسّامعين

تقديمُ ذكرِ شعيب عليه السلام والّذينَ آمنوا معهُ على ذكرِ الرّحمةِ في قولِه تعالى: ﴿نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾ من بابِ تقديم ذكر النّاجينَ على ذكرِ سببِ تنجيتِهم؛ إظهارًا للعنايةِ الإلهيَّةِ الكاملةِ بشأنِ المُقدّم؛ ولأجلِ تعجيلِ مسرّةِ السّامعينَ وشوقِهم، وإيذانًا بأنَّ الرّحمةَ سابقةٌ منَ الرّبِّ سبحانهُ على العذابِ والغضبِ الّذي هو من مستتبعاتِ جرائم الظّالمينَ المجرمينَ(1).

بلاغةُ التّعبيرِ المجازيِّ بالرّحمةِ:

الرّحمةُ سببٌ والفضلُ مُسبَّبٌ عنها

جاء التّعبيرُ عن فضلِ اللّهِ بتنجيةِ المؤمنين بقولِه تعالى: ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾؛ أي: بفضلِ اللّهِ عليهم؛ لأنّهُ لو لم يرحمْهُمُ الحقُّ سبحانهُ لكانوا من جملةِ المُستأصَلينَ؛ فكانَ نقمةً للكافرينَ وبلوًى للمؤمنينَ(2)، وأطلقَ الرَّحمةَ لبيانِ أنَّ فضلَ اللّه تعالى على عبادِه إنَّما هو بسببِ رحمتِهِ بهم، فأطلقَ السَّببَ وأرادَ المُسبَّبَ مجازًا مُرسَلًا. فالمُرادُ بالرَّحمة الفضلُ الخاصُّ بالتَّنجية منَ العذاب، والفضلُ العامُّ وهو النّبوّةُ والإيمانُ، فتفضَّلَ عليهم أوّلًا بأن أرسلَ إليهم شعيبًا عليه السلام، ثم تفضَّلَ عليهم بتوفيقِهم للإيمان، ثمّ نجّاهُم من عذابِ القومِ الظّالمين.

دلالةُ تنكيرِ ﴿بِرَحۡمَةٖ﴾:

رحمةُ اللهِ تعالى لا يقدرُ على مثلِها غيرُه

نكَّر النَّظمُ لفظةَ ﴿بِرَحۡمَةٖ﴾؛ ليخلعَ عليها تفخيمًا وتعظيمًا، والمعنى: أنّ نجاتَهُم كانت برحمةٍ عظيمةٍ منّا(3) لا يقدرُ عليها غيرُنا، ولا يحيطُ بها سوانا.

سرُّ التّعبيرِ بقولِه تعالى: ﴿مِّنَّا﴾:

الإشعارُ بالعنايةِ والرِّعايةِ باعتبارِ ابتداءِ إنزالِ الرّحمةِ منه تعالى

أوردَ النَّظمُ حرفَ (من) في قولِه تعالى: ﴿بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا﴾، وقد باشرَت ضميرَ الجلالة المجموعِ؛ لبيانِ مبدأ الرَّحمةِ، وأنَّها نازلةٌ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/165.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/104.
(3) القنّوجيّ، فتح البيان: 6/208.

منه تعالى، فهيَ النّبوّةُ المسندةُ إلى شعيبٍ ﷺ، وهي الإيمانُ بالنِّسبة للمؤمنينَ، فذِكرُ أنَّ الرَّحمةَ بدأت نزولًا منَ اللّه تعالى، فيه إشعارٌ وإيماءٌ بالعنايةِ والرِّعايةِ والتّشريفِ، فهي رحمةٌ منَ اللّه تعالى.

معنى الواوِ ودلالتُها:

مجيءُ أمر الله تعالى عبارةٌ عن متضادّين؛ وهما تنجيةٌ وتعذيبٌ

لَمّا نجّى الحقُّ سبحانهُ نبيَّهُ شعيبًا ومن معهُ منَ المؤمنينَ لم يبقَ إلّا إيقاعُ العذابِ بمَن كفرَ وكذّبَ بدعوتهِ ﷺ، فقالَ: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾؛ فحسُنَ العطفُ بالواوِ؛ لأنَّه مجرَّدُ عطفِ حدثٍ على آخر، فإنَّ مجيءَ أمرِ اللّه تعالى، ترتَّبَ عليه أمران: الأوَّلُ التَّنجيةُ، والآخرُ التَّعذيبُ.

نكتةُ إسنادِ فعلِ الأخذِ للصَّيحة:

لمّا أخذَ الظّالمون من نعم الله دون شكرٍ حسُنَ أخذُهم دون نُكرٍ

الأخذُ هو الاستيلاءُ على الشّيءِ بما للمُستولي منَ القوّةِ والتّمكُّنِ؛ ففي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ المأخوذَ مكبَّلٌ لا يستطيعُ فكاكًا[1] ولا خلاصًا، مهما حاولَ، ومهما أُوتيَ منَ القوّةِ، وفي ذلكَ إظهارُ شدّةِ العذابِ.

والتّعبيرُ بفعلِ الأخذِ ﴿وَأَخَذَتِ﴾ في عذابِ الصّيحةِ من باب الإسنادِ المجازيّ؛ لأنَّ الصّيحةَ ليسَ من صفاتِها الأخذُ، بل هو صفةٌ للّهِ تعالى، وفي هذا التّعبيرِ معنى المجازاةِ؛ فإنّهم لّما أخذوا منَ النّعم، ولم يقابلوهُ بالشّكرِ قابلهُم بالأخذِ من جنسِ مرتكبِهم.

وهي أيضًا استعارةٌ؛ إذ إنّ الأخذَ إنّما تُوصفُ بها الأجسامُ في الحقيقةِ، والصّيحةُ عرضٌ منَ الأعراضِ؛ لأنّها بعضُ الأصواتِ، إلّا أنّها أقوى للأسماعِ قرعًا، وأبلغُ في القلوب روعًا[2].

المتشابهِ اللّفظيّ:

الصّيحةُ شديدةٌ، يبلغُ صوتُها الأرجاءَ، فيوقعُ من فيها منَ الأشدّاء

لّما كانَ الفاعلُ واحدًا في قوله تعالى في قصّةِ صالحٍ: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾ [هود: 67]، وفي

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/10077.
(2) محمّد عفيف، الشّامل في بلاغة القرآن: 2/63.

قولِه تعالى في قصّةِ شعيبٍ: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ وهو ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾، فللسّائلِ أن يسألَ عن سرِّ حذفِ تاءِ التّأنيثِ من فعل (أخذَ) في الموضعِ الأوّلِ؟

والجوابُ عن ذلكَ: أنّهُ لمّا كانَ الفاعلُ بمعنى المصدرِ (الصّياح) أو الصّوتِ، وهو مُذكَّرٌ، أوردَهُ مُجرَّدًا من علامةِ التّأنيثِ حملًا على المعنى[1]، أمّا الآيةُ الواردةُ في قصّةِ شعيبٍ فإنَّها وإنْ كانت طباقَ الأولى في المعنى إلّا أنّهُ تعالى أخبرَ عمّا أهلكَ بهِ قومَ شعيب، فذكرَ ثلاثةَ ألفاظٍ؛ وهيَ الرّجفةُ والصّيحةُ والظّلّةُ، وكلّها ألفاظٌ مُؤنَّثةٌ فغلبَ التّأنيثُ[2] وتلاءمَ أن يكونَ الفعلُ مُسندًا للتّاءِ، فجاء التَّذكيرُ في الموضعِ الأوَّل للإيماءِ للمعنى، وجاء التَّأنيثُ في الموضِع الآخر للإيماءِ للفظ، فهي صيحةٌ شديدةٌ، يبلغُ صوتُها الأرجاءَ، فيوقعُ من فيها منَ الأشدّاء.

سرُّ التّعبيرِ بالاسم الموصولِ:

وقـوعُ الظّـلم والعـنـاد عليه عـلّـةُ عـذابِ الظّالمين

عبّرَ عن قوم شعيبٍ بالاسم الموصولِ مع صلته في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾، ولم يأتِ بالاسم الظّاهرِ بأن يُقالَ: (الظّالمين) معَ أنّه مرادفٌ له في الدّلالةِ؛ وذلك لما في الاسم الموصولِ من علامةٍ تدلُّ على علّةِ ترتُّبِ الحكم؛ فإنّهم قد أخذوا بالصّيحةِ عذابًا مُستَحقًّا مُسَجّلًا عليهِم بالظّلم، وفيهِ إشعارٌ بأنّه إنّما أخذَهُم بالعذابِ بسببِ ظلمهِم[3]، وهو الإشراكُ باللّهِ والهزءُ بأنبيائه.

سرُّ اختيارِ وصفِ الظّلم:

الـشِّـركُ آفـةُ الاعـتـقـادِ، والـظُّـلـمُ آفـةُ الأخـلاقِ، وباجتماعِهما تنزلُ العقوباتُ

اختارَ النَّظمُ الكريمُ وصفَ الظّلم دونَ غيرِه ممّا يرادفهُ في المعنى كالكفرِ، أو الكذبِ وغيرِه ممّا هو واقعٌ منهم؛ لأنّهُ أرادَهُ أن يكونَ تعريضًا بمن نزلَ عليهم القرآنُ الكريمُ، ثمّ كذّبوهُ، وهمْ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/92.

(2) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/764 - 767، والأنصاريّ، فتح الرّحمن: 1/268 - 269.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/237، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3745.

مشركو مكّةَ؛ فإنّهم إنْ لم ينتهوا ويحذروا ألبسَهُم الحقُّ سبحانهُ سربالَ الذّلِّ والمهانةِ، وأصابهُم العذابُ مثلَما أصابَ قومَ شعيبٍ لتساويهِم في الظّلم والكفرانِ، ولما في الظُّلم من إرادةِ أعلاهُ، وهو الشِّرك، فإنَّ الشِّركَ ظلمٌ عظيمٌ، وظلمُ الشِّرك من أبشعِ ما يقعُ منَ العبادِ، وأشنعِهِ، فالظُّلمُ وحدَه آفةُ الأخلاق، والشِّركُ آفةُ الاعتقاد، وباجتماعِهما تتعاظمُ المصائبُ لتحلَّ العقوباتُ.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ الماضي:

جاءَ التَّعبيرُ عن ظلم هؤلاءِ بصيغةِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ لإبانتِه عن استحكام الظّلم فيهم؛ لما يدلُّ عليه الماضي من تحقُّقِ ظلمهِمْ وثباتِه؛ وليكونَ مصيرُهُم واقعًا لا محالةَ جزاءَ ظلمهِم، وهو استئصالُهُم بعذابِ الصّيحةِ.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيّ:

الصّيحةُ عذابٌ عامٌّ تحتهُ الرّجفةُ والظُّلَّةُ

أوردَ تعالى الرّجفةَ عذابًا لهم في قولِه تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩١﴾ [الأعراف: 91]، فيما أوردَ الصّيحةَ عذابًا لهم في قولِه تعالى: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾؛ فيُسألُ عنِ الفرقِ بينَ الموضعينِ، ولِمَ اختصَّ كلُّ موضِعٍ بما اختصَّ بهِ؟

والجوابُ عنْ ذلكَ: أنَّ الصّيحةَ عذابٌ عامٌّ تحتهُ الرّجفةُ، أمّا الرّجفةُ فهيَ عذابٌ خاصٌّ، وهي من نتائجَ الصَّيحةِ، وقد خصّصَ سورةَ هودٍ بما وقعَ فيها من مرتكباتِ قوم شعيبٍ، وسوءِ ردّهم وإساءتِهم واستهزائِهم ما ليسَ منهُ في الأعرافِ، ومعَ هذا ردَّ عليهم بألطفِ ردٍّ وأجملِهِ؛ فلهذا عمّمَ العذابَ بذكرِ الصّيحةِ، ولَمّا لم يُردْ في غيرِها مثلَ هذا في الدّعاءِ جاءَ باللّفظِ الأخصِّ؛ وهو الرّجفةُ رعيًا للنّظم الجليلِ[1].

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/200 - 201.

وثمّةَ جوابٌ ثانٍ، فإنَّ المرادَ من أخذهم بضروبٍ منَ العذابِ لقبيحِ مرتكَبِهم وسوءِ ردِّهم وتكذيبِ نبيِّهم؛ فذكرَ عذابَ الظّلّةِ، وهو غيمٌ تحتَهُ سمومٌ فهو غيرُ الرّجفةِ؛ لأنّها زلزلةٌ، فعلى هذا يكونونَ قد أخذوا بعذابِ الزّلزلةِ، أمّا عذابُ الصّيحةِ فهو مصحوبٌ بصوتٍ، فوردَ العذابُ مُتدرِّجًا مُتناسِبًا، ثمَّ إنّهُ أرادَ تنوُّعَ عذابِهم بالرّجفةِ والصّيحةِ والظّلّةِ، كما فعلَ معَ آلِ فرعونَ بالطّوفانِ والجرادِ والقُمّلِ والضّفادعِ والدّمِ وغيرِها[1].

والأوفقُ هو الجمعُ، فإنَّ الصَّيحةَ نشأت عنها الرَّجفةُ في الأرض لشدَّتِها، وصاحبَتها الظُّلَّةُ، فينشأ عن هذا ثلاثةُ مظاهرَ للعذابِ الواحدِ، والأوضحُ فيه هو الصَّيحةُ الّتي كانتِ الاسمَ الأشهرَ لعذاب قومِ شعيبٍ عليه السلام.

معنى الفاءِ ودلالتُها:

هلاكُ القومِ مسبَّبٌ عنِ الصَّيحةِ دون تراخٍ

بعدَ أن حلّ على قومِ شعيبٍ عليه السلام عذابُهُ تعالى بالصّيحةِ كانَ نتيجةُ ذلكَ: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾؛ فجاءتِ الجملةُ بالفاءِ الدّالّةِ على التّعقيبِ والتّسبيبِ، فالفاءُ دالّةٌ على السّببيّةِ[2]؛ فكانَ أخذُهم بالصّيحةِ سببًا في أن أصبحوا في ديارِهم هلكَى خامدينَ، دون إطالةِ مهلةٍ أو تراخٍ.

فائدةُ التّعبيرِ بالإصباحِ:

مزيدُ عذابٍ وتحسيرٍ، وللإشعارِ بأنَّ العذابَ أتاهم آخرَ اللّيلِ

اختارَ النَّظمُ الكريمُ لفظَ الإصباحِ في قولِه تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ دونَ غيرِه منَ الألفاظِ المرادفةِ تخويفًا وتأسيفًا؛ فإنَّ الصّباحَ يمثّلُ استهلالَ يومٍ جديدٍ بما يحملهُ من معنى الهمّةِ والنّشاطِ والفرحِ بعدَ الرّاحةِ والهدوءِ؛ ليكونَ المرءُ قادرًا على ما يبتغيهِ الإنسانُ منَ الحركاتِ، وما يشتهيهِ منَ التّصرّفاتِ[3]، فيفجأهُمُ العذابُ على

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 1/202.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/425.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/326 - 327.

خلافِ ما يظنّونَ، فيكون أكثرَ وقعًا عليهم، وأشدَّ أثرًا، فتحيطهُمُ الحسرةُ والنّدامةُ، فتوقيتُ الإصباحُ فيه مزيدُ عذابٍ نفسيٍّ بعدَ العذابِ الحسّيِّ، وللإشعارِ بأنَّ العذابَ أتاهُم آخرَ اللَّيل.

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي:

تحقّقَ مآلُهم بعذابِهم مع الإصباح

اختارَ النّظمُ لفظَ الإصباحِ بصيغةِ الماضي ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾؛ ليدلَّ على حتميَّةِ مآلِهم، وتحقُّقِ مصيرِهم وعذابِهم، وهو طلوعُ الشّمسِ عليهِم، وقد أصبحوا جثثًا هامدينِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالظّرفيّةِ:

العذابُ في المكانِ المأمونِ جانبُه أشدُّ وقعًا ممّا سواه

استعملَ النَّظمُ حرفَ الظّرفيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿فِي دِيَٰرِهِمۡ﴾؛ فجعلَ الدِّيارَ ظرفًا لعذابِهم بالصّيحةِ، فأصبحوا جاثمينَ، وفي ذلك إشارةٌ إلى تلكَ الأماكنِ الّتي كانوا "يعيشونَ فيها مُتنعّمينَ مُترفّهينَ إلى أن كثّرهُمُ اللّهُ، وأعمرَهُم أعمارًا طوالًا"[1]، وقد آمنوا من عذابه تعالى؛ فيكونُ حرفُ الظّرفيّةِ مشيرًا إلى بقائِهم في ديارِهِمُ الّتي عصوا اللّه تعالى فيها، وكفروا نعمَهُ فيها، وعاندوا وكابروا.

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيِّ في الجمعِ والإفرادِ:

الزّلزلةُ مُختصّةٌ بجزءٍ من الأرضِ، والصّيحةُ شأنُها الانتشارُ لتعمَّ الأماكنَ المتنائيةَ

جمعَ لفظةَ الدّيارِ في قصّةِ صالحٍ عليه السلام في قولِه تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾ [هود: 67]، وأفردَها في قصّةِ شعيبٍ عليه السلام في قولِه تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٩١﴾ [الأعراف: 91]؛ لأنَّ الرّجفةَ هيَ الزّلزلةُ، وتكونُ مختصّةً بجزءٍ منَ الأرضِ، فأفردَ بقولِه: ﴿دَارِهِمۡ﴾ [الأعراف: 91]، أمّا الصّيحةُ فتكونُ منَ السّماءِ، ويكونُ من شأنِها الانتشارُ لتعمَّ الأماكنَ المتنائيةَ، والدّيارَ البعيدةَ؛ فعبّرَ بقولِه: ﴿دِيَٰرِهِمۡ﴾ جمعًا[2].

وفي التّعبيرِ بالدّيارِ جمعًا في قولِه تعالى: ﴿فِي دِيَٰرِهِمۡ﴾ مُوجبٌ،

(1) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 1/256.

(2) الكرمانيّ، البرهان، ص: 146.

وهو أنّ تفرُّقَ القوم الموعودينَ بالعذابِ في ديارٍ كثيرةٍ، قصدَ التّجارةِ أو الزّيارةِ أو غيرِها، ليسَ مانعًا من إيقاعِ العذابِ عليهم[1].

سرُّ التّعبيرِ بلفظِ الجثوم:

الجثومُ سكونٌ خامدٌ وصمتٌ مُطبِقٌ بعدَ حركةٍ وحياة

التّعبيرُ بالجثوم في قولِه تعالى: ﴿جَٰثِمِينَ﴾ دونَ مرادفاته، جاء بمعنى السّكونِ، فالطّيرُ يبيتُ في وكرِه جثومًا؛ ويطلقُ على ما لا حركةَ لهُ، وهو الملازمُ لمكانِه لا يتحوَّلُ عنه؛ فكانَ هذا وصفًا لهؤلاءِ المُهلَكينَ بسكونِهم؛ فإنّه "لمّا صاحَ بهم تلكَ الصَّيحةَ زهَقَ روحُ كلِّ واحدٍ منهم، بحيثُ يقعُ في مكانِه مَيِّتًا"[2].

دلالةُ التّعبيرِ باسم الفاعلِ:

تصويرُ الصَّرعى بالجاثِمين لبيانِ موتِهم عن قوَّةٍ وحركةٍ

عبّرَ النَّظمُ عن حالةِ الجثوم بالصّيغةِ الاسميّةِ ﴿جَٰثِمِينَ﴾ المشوبةِ بروح الفعلِ؛ لدلالةِ هذهِ الصّيغةِ على الثّبوتِ والدّوام[3]؛ فمعنى الجثوم أن يكونوا "باركينَ على الرُّكَبِ.. وجثومُ الطّيرِ هو وقوعهُ لاطئًا بالأرضِ في حالِ نومهِ وسكونهِ باللّيلِ، والمعنى: أنّهم أصبحوا جاثمينَ على وجوههِم موتى لا يتحرّكونَ"[4]، وفي ذلكَ أكبرُ دليلٍ على أنّهم سكنوا سكونًا عظيمًا بعد حراكٍ وحياةٍ، لا بعد مرضٍ وهرمٍ، وثبتوا على أحوالِهم في ديارِهم "مَيِّتينَ لازمينَ لأماكنِهم لا بَراحَ لَهم منها"[5]، بعدَما نزلَ بهمُ العذابُ؛ فكانَ التّعبيرُ بالاسميّةِ ملائمًا أشدَّ الملائمة.

سرُّ استعمالِ ﴿كَأَن﴾:

تشبيه العذابِ بالاستئصالِ الماحقِ

استعملَ النَّظمُ الحرفَ ﴿كَأَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ﴾ تشبيهًا لحالتهِم، ونزولِ العذابِ، والاستئصالِ، ومحوِ آثارِهم، بحالِ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6642 - 6643.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/393.
(3) الرّضيّ، شرح على الكافية: 1/316، والزّركشيّ، البرهان: 4/72.
(4) الخازن، لباب التّأويل: 2/221.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/252.

مَن لم تكنْ لهُ حياةٌ أصلًا في ديارِهم، مُتصرِّفينَ مُتردِّدينَ[1]؛ فمحى العذابُ كلَّ ذلكَ العيشِ الرّغيدِ فلم يبقَ منهُ شيئًا إلّا الجثوم والهمود.

وجهُ التّعبيرِ بنفيِ الغنى:

التّنبيهُ على أعظمِ أسبابِ التّمسُّكِ بالدُّنيا وتركِ الآخرة

عبّرَ النَّظمُ عن زوالِهم بقولِهِ تعالى: ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ﴾، فلمْ يستعملْ مصطلحاتِ السّكنِ أو الإقامةِ؛ لأنَّ العذابَ قد محا آثارَهم، وأعظمُ آثارِهم التَّرفُ والحياةُ الرّغيدةُ، فأراد النَّظمُ التَّنبيهَ على أنَّ أعظمَ ما قد يوقعُ الإنسانَ في الكفرِ هو حرصُه على الدُّنيا، وتمسُّكُه فيها، أمّا السّاكنُ والمقيمُ فآثارُهُ باقيةٌ، وإنْ رحلَ عن مقامِه، لكنّهم هنا كأن لمْ يغنوا؛ أي: لم يقيموا بديارِهم مدّةً منَ الزّمنِ، وهو مأخوذٌ من غني بالمكانِ، إذا أقامَ بهِ، واستغنى به عن غيرِهِ[2].

دلالةُ التّعبيرِ بحرفِ الاستفتاح:

لفتُ الأذهانِ للمهمِّ منَ الأمورِ للتَّنبيهِ على استحقاقِ العذابِ

جاءتِ الجملةُ مصدّرةً بـ ﴿أَلَآ﴾ الاستفتاحيّةِ في قولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾ تنبيهًا لهم على استحقاقِهمُ العذابَ؛ فإنّ ﴿أَلَآ﴾ منَ الأدواتِ الاستفتاحيّةِ الّتي تُقالُ عندَ المهمِّ منَ الأمورِ، وهي لنفي الغفلةِ. وليلتفتَ السّامعُ وينتبهَ ويُنصتَ لما سيُلقَى إليه؛ فلا تنالُهُ الغفلةُ بنصيبٍ عن الأمرِ الصّادرِ منَ المتكلّمِ، وليستقبلَ الكلامَ على أفضلِ استقبالٍ وأفيدِهِ[3].

غرضُ الدّعاءِ بلفظِ الإبعاد:

بيانُ استحقاقِ العذابِ بعد الاستئصالِ

جاءَ الدُّعاءُ على مدينَ في قولِه تعالى: ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ﴾ للطَّردِ والإبعادِ من رحمتِه سبحانَهُ؛ ذلكَ أنهّم جحدوا باللهِ وآياتِه، وغرضُ الدّعاءِ عليهم إثرَ هلاكِهم وزوالِهم بيانُ استحقاقِهم عذابَ الاستئصالِ جرّاءَ مرتكباتِهمُ الشّنيعةِ.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/425.

(2) الخازن، لباب التّأويل: 2/501، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6645.

(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6646.

سرُّ العدولِ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ:

المبالغةُ في تفظيعِ كفرِ مدينَ لبيانِ استحقاقِهم عذابَهم

في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾ جاء ذكرُ قوم شعيبٍ إظهارًا، فلم يقُلْ: (ألا بعدًا لهم)، مع تقدُّم ذكرِهِم في الآيةِ السّابقة، وغرضُ هذا العدولِ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ الدّلالةُ على الطّغيانِ الّذي أوردَهُم هذهِ المرتبةَ، وللمبالغةِ في تفظيعِ حالِهم، وليناسبَ بمن شبّهَ هلاكَهم بهلاكِهم، وهُم ثمودُ، فكلاهما أُهلِكَ بالصّيحة[1].

بلاغةُ المجازِ بالحذفِ:

بيانُ الإحاطةِ الماحقةِ والعذابِ العامِّ

جاء التَّعبيرُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ﴾ بحذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليهِ مقامَهُ طلبًا للإيجازِ[2]، فإنّ المعنى: بعدًا لأهلِ مدينَ[3]؛ لأنّ الأماكنَ ليست محلًّا للعذابِ، بل أهلها؛ ولأنّ الحُكمَ واقعٌ على أهلِ مدينَ لا مَدينَ نفسها، لكن جاء ذكرُ مدينَ لبيانِ أنّ العذابَ قد أحاطَ بها كلّها، كأنَّ القريةَ كلَّها قد هلكت، وفيه تصويرٌ بليغٌ لأثرِ الإهلاكِ، وأنّه عامٌّ طامٌّ.

بلاغةُ التّشبيهِ بين المآلاتِ:

تشبيهُ انقراضِ مدينَ بانقراضِ ثمودَ بجامعِ العقابِ بالصّيحةِ

في قولِهِ تعالى: ﴿كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾ تشبيهٌ في البعدِ والهلاكِ، فقد شبّهَ مصيرَ أهلِ مدينَ بمصيرِ قومِ ثمودَ، وهو تشبيهٌ يرادُ منه التّعريضُ بعيبِ إنسانٍ بأنْ يذكرَ عيبَ غيرِهِ[4]، ففي ذكرِ مآلِ قومِ ثمودَ تعريضٌ بهم، وإنّكم لم تتعظوا بهم فإنّكُم وقتئذٍ شرٌّ منهُم. وفي جملة ﴿كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾ "تشبيهُ البعدِ الَّذي هو انقراضُ مدينَ بانقراضِ ثمودَ، ووجهُ الشّبهِ التّماثلُ في سببِ عقابِهِم بالاستئصالِ، وهو عذابُ الصّيحةِ"[5].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/38، والآلوسيّ، روح المعاني: 6/323.

(2) ابن سنان، سرّ الفصاحة، ص: 210.

(3) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/298.

(4) الزّركشيّ، البرهان: 3/300.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/154.

ويحتملُ القصدُ من تشبيههِ ذاكَ أن يكونَ قائمًا على الاستطرادِ[1] بذمِّ ثمودَ لجرأتِهم في مناوأةِ الرّسلِ، فلمّا كانَ المقامُ هنا مُهيّئًا لأن يختمَ الكلامَ بقصصِ الأمم البائدةِ، ناسبَ أن يذكرَ أشدَّها كفرًا؛ فشبّهَ هلاكَ مدينَ بهلاكِهم[2].

سرُّ تخصيصِ ثمودَ بالذّكرِ:

الإيماءُ إلى شدَّةِ غضب الله على ثمودَ

خُصِّص ذكرُ قوم ثمودَ دونَ غيرِهم في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ﴾؛ لأنّهُ قاسَ حالَ قوم شعيبٍ على حالِ قوم ثمودَ؛ لأنّهُ تعالى عذّبَهُم مثلَ عذابِ قوم ثمودَ؛ فكانتِ الصّيحةُ عذابًا للاثنين، فقد رويَ أنّهُ تعالى لم يُعذِّبْ أمّتينِ بعذابٍ واحدٍ إلّا قومَ شعيبٍ وقومَ صالحٍ عذّبهُما بالصّيحةِ[3]، ولِما في ذكرِ ثمودَ من مزيدِ غضبٍ عليها، بأن يُذكرَ عذابُها مع عذابِ قومٍ آخرين، فهو دالٌّ على الغضب الإلهيِّ المكينِ، وأنَّ عذابَها يومَ القيامةِ أليمٌ شديدٌ، وفيها مزيدُ تحذيرٍ من الأسبابِ الّتي وقعت فيها ثمودُ في المعاصي والكفرِ لِتُجتَنَبَ، وهذا شأنُ العقلاءِ أن يحذروا عذابَ اللّه تعالى بالحذرِ من أسبابِه، وشأنُ غيرِهم الانغماسُ في الأسبابِ السّابقةِ، ليُحشروا يومَ القيامةِ مع مَن أحبّوا وتابعوا.

بلاغةُ الإشارةِ التَّعريضِيَّةِ:

الانتماءُ للقبيلةِ لا يُغني مِنَ اللهِ شيئًا، إن لم يكونوا على النَّهجِ السَّديدِ

قد ذكرَ ثمودَ وهو اسمُ القبيلةِ[4] بدلالةِ التّعريفِ والتّأنيثِ المُوجبَين للمنعِ منَ الصّرفِ، دون أن يقولَ: (قوم صالح)، أو (أصحاب الحجر)، وفي هذا التّعريفِ إشارةٌ تعريضيَّةٌ بقريشٍ في أنَّ القبيلةَ لا يمكنُ أن تكونَ نفعًا لأهلِها إن هُم صدّوا عن سبيلِ اللّهِ، ولم يتّبعوا

(1) "نوعٌ من علم البلاغة دقيقُ المجرى، غزيرُ الفوائد، يستعملُه الفصحاءُ، ويعوّلُ عليه أكثرُ البلغاء.. ومعناه في مصطلح علماء البيانِ أن يشرعَ المتكلِّمُ في شيء من فنون الكلام، ثمّ يستمرُّ عليه فيخرج إلى غيرِهِ، ثمّ يرجع إلى ما كان عليه من قبلُ"، يُنظر: العلويّ، الطّراز لأسرار البلاغة: 3/8.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/154.

(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/392 - 393.

(4) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/160.

هداهُ؛ ومِنْهُ ذلكَ أنّهُ ﷺ خاطبَ عشيرتَهُ الأقربينَ بقوله: «يا مَعشَرَ قُرَيشٍ - أو كَلِمَة نَحوها - اشتَرُوا أنفُسَكُم، لا أُغني عَنكُم منَ اللّهِ شَيئًا، يا بَني عَبدِ مَنافٍ لا أُغنِي عَنكُم منَ اللّهِ شَيئًا، يا عَبّاسُ بنَ عَبدِ المُطَّلِبِ لا أُغني عَنكَ منَ اللّهِ شَيئًا، ويا صَفيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللّهِ لا أُغنِي عَنكِ منَ اللّهِ شَيئًا، ويا فاطِمَةُ بِنتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي ما شِئتِ من مالي، لا أُغنِي عَنكِ منَ اللّهِ شَيئًا»[1].

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الصّيحةُ والصّاعقةُ:

الصَّيحةُ الصّياحُ الشَّديدُ الّذي يأخذُ كلَّ سامعٍ له، والصّاعقةُ مُشتملةٌ على قطعةٍ منَ النّارِ

الصَّيحةُ مشتقّةٌ منَ الصّياحِ، وهو تشقيقُ الصّوتِ كما مرَّ، والصّيحةُ في الآيةِ هيَ صيحةُ جبريلَ عليه السلام بالعذابِ الّذي جاءهُم بصوتٍ هائلٍ عظيمٍ تنخلعُ له القلوبُ، وتنفطرُ له الأفئدةُ، و"هيَ صيحةٌ عظيمةٌ دونها كلُّ صوتٍ صاعقةٍ وكلُّ شيءٍ في الأرضِ"[2]؛ فقد قيّدها بأنّ دونها صوت كلِّ صاعقةٍ، ومعنى ذلكَ أنَّ الصّاعقة أقلُّ وقعًا من جهةِ كونِها للعذابِ من الصّيحةِ، الّتي هي: "الصّوتُ الشّديدُ من صوتِ الرّعدِ، يسقطُ معه قطعةٌ من نارٍ"[3]، ورأى الفخرُ الرّازيّ أنّ الصّاعقةَ تصاحبُ الصّيحةَ العظيمةَ، ومعها البرقُ الشّديدُ المحرقُ[4]، فهي تبعٌ للصّيحةِ؛ فثبتَ أنَّ الصّيحةَ أعظمُ وأبلغُ منَ الصّاعقةِ، وأنّها تباينُها من جهةِ كونِ الثّانيةِ مشتملةً على النّارِ، ثمَّ إنَّ الصّاعقةَ قد تكونُ محدَّدةً بموضعٍ معيَّنٍ، فيما تشملُ الصّيحةُ الدّيارَ جميعًا بمَن فيها.

الدّيارُ والبلادُ:

الدّارُ هي الموضِعُ الّذي يعيشُ فيهِ النّاسُ، وهو ما اشتملَ على

(1) رواه البخاريّ، الصحيح الجامع، الحديث رقم: (2602).
(2) ملّا حويش، بيان المعاني: 3/134.
(3) الخليل، العين: (صعق).
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/371.

البناءِ وما خلا منهُ، والأصلُ فيها إحاطتُهُ من حواليهِ؛ لدورانِها على أهلِها وإحاطتِهم بها[1]، والدّارُ تتّصفُ بالسَّعةِ والشُّمولِ؛ وهي مأوى الإنسانِ ليلًا ونهارًا، وفي جميعِ الأوقاتِ؛ فاختارهُ في الآيةِ؛ لأنّهُ أرادَ أن يكونَ الوصفُ شاملًا اللّيلَ والنّهارَ؛ فقد أُنزلَ عليهمُ العذابُ ليلاً فأصبحُوا في ديارهِمْ جاثمينَ هلكَى[2]، أمّا البلادُ فإطلاقُها يكونُ على كلِّ موضِعٍ منَ الأرضِ عامرًا كانَ أوْ خلاءً[3]؛ فاختيارُ لفظِ الدّيارِ مناسبٌ أشدَّ المناسبةِ من لفظِ البلادِ الّذي يحتملُ الأرضَ الخلاءَ، والحقُّ سبحانهُ إنّما أوقعَ العذابَ على الدّيارِ المأهولةِ بالقومِ الظّالمينَ.

الدّارُ المسكنُ الّذي يعيشُ فيهِ النّاسُ، والبلادُ الموضِعُ منَ الأرضِ عامرًا كانَ أو خلاءً

(1) الخليل، العين: (دور)، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (دور).

(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/480.

(3) الفيوميّ، المصباح المنير: (بلد).

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٩٦ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ٩٧﴾ [هود: 96 - 97]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبۡلَهُما:

الانتقالُ من ذكرِ فتنةِ المالِ إلى فتنةِ السُّلطانِ والجاهِ والمالِ

لَمّا كانَ شعيبٌ عليه السلام داعيًا قومًا ملأهُمُ التّرفُ والمالُ، وكان المانعُ الأكبرُ من إيمانِهم استحواذَ المالِ على قلوبِهم، انتقلَ إلى ذكر العبرةِ من قصّةِ موسى عليه السلام مع فرعونَ، فقومُ فرعونَ قد جمعوا المالَ والجاهَ والسّلطانَ، فأتوا على أسباب الكبرِ المحسوسةِ والمعنويّةِ، فكانَت ختامًا لذكرِ القَصصِ في هذه السّورةِ، وهي على قصرِها إلّا أنَّها تُمثِّلُ عمومَ البلاءِ الّذي وقعَ فيه الأقوامُ السّابقون، وما سيقعُ فيه مشركو قريش.

شَرۡحُ المُفۡرَداتِ:

1) ﴿وَسُلۡطَٰنٖ﴾: أصلُ مادّتِه (سلط)، فالسّينُ واللّامُ والطّاءُ أصلٌ واحِدٌ، وهو القوَّةُ والقَهرُ. من ذَلِكَ السَّلاطَةِ، منَ التَّسَلُّطِ وهو القَهرُ، ولذلكَ سُمّيَ السُّلطانُ سُلطانًا. والسُّلطانُ: الحُجَّةَ[1] والسُّلطانُ: قُدرةُ المَلِكِ، وقُدرةُ من جُعِلَ ذلك له وإنْ لم يكن مَلِكاً، كقولك: قد جَعَلْتُ له سُلطانًا على أخذِ حقّي من فلانٍ، والنّونُ في السّلطان زائدةٌ[2]. فالسّلطانُ هنا: الحجّةُ والبرهانُ والدّليلُ.

2) ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾: أصلُ مادّتِه (ملأ)؛ فالميمُ واللّامُ والحرفُ المُعتَلُّ كلمةٌ واحدةٌ هي الزّمنُ الطَّويلُ. وأقامَ مَليًّا؛ أي: دَهرًا طويلًا. وتَمَلَّيتُ الشَّيءَ، إذا أقامَ مَعَكَ زمانًا طويلًا، ومَلَأتُ الشَّيءَ أملَؤُهُ مَلْئًا. والملءُ: الاسمُ لِلمقدارِ الَّذي يُملأُ، وسُمّيَ لأنَّهُ مُساوٍ لِوعائِهِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلط).
(2) الخليل، العين: (سلط).

في قَدرِهِ. ويُقالُ: أعطِني ملاءَهُ وملأيهِ وثلاثةَ أملائِهِ. ومنهُ المَلَأُ: الأشرافُ منَ النّاسِ، لأنَّهم مُلِئوا كَرَمًا[1]، وملأُ فرعونَ: قومُه وجماعتُه الّذين يشاورُهم.

3) ﴿بِرَشِيدٍ﴾: أصلُ مادّتِه (رشد)، فالرّاءُ والشّينُ والدّالُ أصلٌ واحدٌ يدلُّ على استِقامَةِ الطَّريقِ. والرُّشْدُ والرَّشَدُ: خِلافُ الغَيِّ. وأصابَ فُلانٌ من أمرِهِ رُشْدًا ورَشَدًا ورِشْدَةً[2]، ورجلٌ رشيدٌ وراشِدٌ. والإرشادُ الهِدايَةُ والدّلالَةُ[3]، والرّأيُ الرّشيدُ: المستقيمُ الصّائبُ، وهو المعنى المرادُ هنا.

۞ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

تقديمُ الباطلِ على الحقِّ سلوكُ المترفين وسبيلُ التّافهين

يؤكِّدُ اللّهُ تعالى لنبيّه محمّدٍ ﷺ أنّه قد أرسلَ نبيَّه وكليمَه موسى عليه السلام، بالآياتِ الدّالّةِ على توحيدِ اللّهِ، وبالحججِ الواضحةِ الدّالَّةِ على صدقِ ما جاء به، إلى فرعونَ والأشرافِ من قومه، فاتّبعَ هؤلاءِ أمرَ فرعونَ لهم بالكفرِ باللّهِ ومخالفةِ موسى عليه السلام، مع أنَّ أمرَ فرعونَ ليس بأمرٍ ذي إصابةٍ للحقِّ حتَّى يُتَّبَعَ، ولا مستقيمٍ كي يُسمَعَ[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواوِ ودلالتُها:

إيرادُ المعطوفاتِ للاعتبارِ وتحقيقِ الاستبصارِ

الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ عطفتِ القصّةَ على نظيرتِها[5] الّتي سبقَت، والأحسنُ أن تكونَ معطوفةً على قولِهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ [هود: 69]، إذ "لا يصحُّ أنْ يُعطفَ على إرسالِ شعيبٍ إلى مدينَ؛ لأنّهُ لا يشاركُهُ في

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ملي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رشد).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (رشد).
(4) جماعة منَ العلماء، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 232.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/155.

نوعهِ المشتركِ مع إرسالِ صالحٍ وهودٍ"[1]، والصَّحيحُ أنَّها قصصٌ مُتعاطِفةٌ، معطوفٌ بعضُها على بعضٍ للاعتبارِ، ومردُّ المعطوفاتِ على المعطوفِ عليه الأوّلِ.

معنى اللّام ودلالتُها:

ما وقع للسّابقين سيقعُ في اللّاحقين، فالاعتبارُ سيِّدُ النُّظّار

اللّامُ في قولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾ لإفادةِ التّوكيدِ[2] والثّبوتِ والتَّحقيقِ، ويعدُّها بعضُهم بأنَّها واقعةٌ في جوابِ قسمٍ محذوفٍ؛ أي: واللهِ لقد أرسلنا. وافتتاحُ القصّةِ بهذا التَّأكيدِ فيه بيانُ أنَّ شأنَ المعاندين الكفرُ واتِّباعُ الباطلِ طلبًا للشَّهوةِ وتحقيقًا للمتعةِ، وأنَّ ما كان للسّابقين سيكون في المعاصرين، فلا يعجبنَّ أحدٌ ممّا سيقعُ منهم.

دلالةُ استعمالِ (قدْ):

دخلَت (قدْ) على الفعلِ في قولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾؛ لإفادةِ التّأكيدِ[3] وتحقيقِ إرسالِ موسَى عليه السلام بالآياتِ الظّاهرةِ والبراهينِ السّاطعةِ، الّتي هي مُوجِبةٌ للهدى والرّشادِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالفعلِ الماضي:

الإيذانُ بثبوتِ الإرسالِ واستحكامه

جاءَ فعلُ الإرسالِ ماضيًا في قولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾ إيذانًا بثبوتِ تحقُّقهِ واستحكامه، وأنّه قد قُضيَ فلا مردَّ له، وهو زمنٌ دالٌّ على التَّحقُّقِ والثّبوتِ، وأنّهُ حصلَ وانصرمَ، ولا مجالَ للتّنصُّلِ منهُ.

دلالةُ نونِ العظمةِ:

الإيماءُ إلى باهرِ المعجزاتِ

أُسنِدَ فعلُ الإرسالِ إلى النّونِ في قولهِ تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ مُبرزًا إيّاهُ في مظهرِ العظمةِ في إشارةٍ إلى معجزاتهِ الباهرةِ[4]؛ ليدلَّ على عظمةِ ربِّ العالَمين سبحانهُ، وأنَّ الرّسولَ مُؤيَّدٌ منَ اللهِ تعالى بقوّتهِ وجبروتهِ وملائكتهِ وجندهِ.

---

(1) رضا، تفسير المنار: 12/125.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/91.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/155.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/368.

سرّ تخصيصِ موسَى عليه السلام بالذّكرِ:

موسى صاحبُ الرِّسالةِ، وهارونُ مأمورٌ باتّباعِه

كثيرًا ما يقترنُ اسمُ موسى بأخيهِ هارونَ عليهما السلام، فهما مُرسَلانِ منَ اللّهِ تعالى، ومشاركانِ في الدّعوةِ إلى التّوحيدِ غيرَ أنّهُ خصّصَهُ بالذّكرِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ﴾؛ لأنّهُ صاحبُ شريعةٍ، وهارونُ مأمورٌ بأنْ يتّبعَهُ[1]، فكان ذكرُ موسى عليه السلام ذكرًا لأخيه، ولمّا كان هو مبدأ الرِّسالةِ، وهو القائمَ بها أصالةً، كان ذكرُه وحدَه هو الأصلَ.

دلالةُ الباءِ في قولِه تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

ظهورُ الآياتِ كانَ مصاحبًا لزمنِ الإرسالِ

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ تُشيرُ إلى المصاحبةِ والملابسةِ[2]؛ فهي في موضِعِ الحالِ من موسى عليه السلام؛ أي: أنّهُ تعالى أرسلَهُ مصحوبًا بآياتٍ منّا[3]، كانَ ظهورُها زمنَ إرسالِه إلى فرعونَ وملئِه.

سرُّ التّعبيرِ بالآياتِ دونَ المعجزاتِ:

الآياتُ اسمٌ جامعٌ للعلاماتِ الظّنيّةِ والمعجزاتِ اليقينيّةِ

عبّرَ بالآياتِ في قولِه تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ دونَ المعجزاتِ لما بينَهُما من تقاربٍ وتدانٍ في المعنى؛ ولأنَّ الآياتِ اسمٌ "للقدرِ المشتركِ بينَ العلاماتِ الّتي تفيدُ الظّنَّ، وبينَ الدّلائلِ الّتي تفيدُ اليقينَ"[4]؛ فتدخلُ المعجزاتُ كالعصا واليدِ والطّوفانِ وغيرِها في حيّزِ الآياتِ بمعناها الشّاملِ ولا عكس.

فائدةُ التّعبيرِ بالجمعِ:

معجزاتُ موسى كثيرةٌ يصدقُ عليها الجمعُ

جاءَ لفظُ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بصيغةِ الجمعِ لصدقِ هذا اللّفظِ على معناه الموضوعِ لهُ، فالآياتُ هي المعجزاتُ والبيّناتُ، وهي: "العصا واليدُ والطُّوفانُ والجرادُ والقُمَّلُ والضّفادعُ والدَّمُ ونقصٌ منَ الأموالِ

---

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 10/190.

(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 140.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/49، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/35.

(4) زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 4/692.

والأنفُسِ والثَّمراتِ، ومنهُم منْ أبدلَ النَّقصَ بإظلالِ الجبلِ"[1] فهذهِ آياتٌ كثيرةٌ يصدقُ عليها إطلاقُ لفظِ الجمع.

الآياتُ النّازلاتُ منَ الله تعالى مؤيِّداتٌ ومقوّياتٌ

دلالةُ إضافةِ الآياتِ إلى ضميرِ العظمةِ:

لَمّا كانتِ الآياتُ مُنزَلَةً منهُ تعالى أضافَها لنفسهِ في قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ على طريقِ (نا) المؤذنةِ بالعظمةِ والكبرياءِ والسّلطانِ؛ للدّلالةِ على عظمتِها[2]؛ أي: بآياتنا الّتي يحقُّ لها العظمةُ بإضافتها إلينا لتدلَّ على جلالِنا وقدرتِنا[3]؛، فسموّ النّازلِ من سموّ المُنزِلِ سبحانهُ، وللإشعارِ بأثرِ هذه الآياتِ في الدَّعوةِ والتَّأييدِ.

يتعيَّنُ معنى عطفِ السّلطانِ المبينِ على الآياتِ بحسبِ الاعتباراتِ

أوجهُ عطفِ السُّلطانِ على الآياتِ:

في قولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ وسّطَ الواو بينَ الآياتِ والسُّلطانِ المبينِ، ولهذا العطفِ أوجهٌ:

الأوّل: إمّا أن يكونَ باعتبارِ التّغايرِ الوصفيِّ، فقد أرسلَهُ الحقُّ سبحانهُ بالآياتِ والسّلطانِ الواضحِ في نفسِهِ أو الموضِّحِ إيّاها[4].

الثّاني: وإمّا أن يكونَ من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ فإنَّ السّلطانَ المبينَ يحتملُ أن يكونَ معناهُ العصا؛ لأنّها أكبرُ آياتهِ وأعظمُها وأبهرُها، فنصّ عليها كما نصّ على جبريلَ وميكائيلَ بعد ذكرِ الملائكةِ على سبيلِ التّشريفِ بالذّكرِ[5] ولقولهِ تعالى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَاۖ﴾ [الزّخرف: 48].

الثّالث: من بابِ عطفِ العامِّ (السّلطان) على الخاصِّ (الآيات)[6]، فلمّا كانَ معنى السّلطانِ المبينِ هو الحجّةَ الواضحةَ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/204.
(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/91.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/18 - 17/48.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/327، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/129.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/204، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/125.
(6) الطّباطبائيّ، الميزان: 10/380.

المُلزمةَ، والأمرَ القاهرَ العظيمَ جدًّا، الّتي لا حيلةَ لهُم في مُدافعةِ شيءٍ منهُ، والبرهانَ البالغَ المتسلّطَ على العقولِ والأفهام؛ فيعمُّ على هذا الاعتبارِ الآيةَ المعجزةَ والحجّةَ العقليّةَ[1]؛ أي: إنّه نفسُ الآياتِ، وعبَّر عنها بذلك على طريقةِ العطفِ تنبيهًا على جمعِها لعُنوانينِ جليلينِ، وتنزيلاً لتغايرِهما مَنزلةَ التَّغايرِ الذّاتيِّ[2].

الحجّةُ سلطانٌ؛ لأنّ صاحبَها يقهرُ غيرَهُ قهرَ السُّلطانِ رعيتَهُ

سرُّ التّعبيرِ بالسّلطانِ عنِ الحجّةِ:

جاء التَّعبيرُ بالحجّةِ القاهرةِ والبرهانِ المفحم بالسّلطانِ المبين في قولهِ تعالى: ﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾، وسرُّ ذلكَ أنَّ صاحبَ الحجّةِ يَقهرُ مَنْ ليسَ له حجّةٌ، مثلَما يَقهرُ السّلطانُ الحاكمُ غيرَهُ؛ فوُصِفتِ الحجّةُ بأنّها سلطانٌ[3].

وسُمِّيَ سلطانًا؛ لأنّهُ الحجّةُ الإلهيّةُ في أرضِه سبحانهُ، واشتقاقُ السّلطانِ منَ السّليطِ؛ وهو ما يضاءُ به، فيقالُ للزّيتِ سليطًا[4]؛ لأنّهُ يستضاءُ بهِ، وفي ذلكَ استعارةٌ فكما يستضاءُ بالسّليطِ والزّيتِ في الظّلام، فكذا الحجّةُ تنيرُ للإنسانِ طريقَ هداهُ. ويجوزُ أن يكونَ السّلطانُ مُشتقًّا منَ التّسليطِ؛ فالعلماءُ سلاطينُ العلم، والملوكُ سلاطينُ القدرةِ والتّمكينِ، وإنْ كانَت سلطنةُ العلم أكملَ وأقوى؛ لأنّها لا تقبلُ النّسخَ والعزلَ، ولأنّ سلطنةَ الملوكِ مُعرَّضةٌ للتّغييرِ والتّحويلِ، وسلطنةَ العلماءِ من جنسِ سلطنةِ الأنبياءِ، والأخرى من جنسِ سلطنةِ الفَراعنةِ[5].

البيّنُ بنفسهِ مُبيّنٌ لغيرِه، وليس بهِ حاجةٌ للإثباتِ

نكتةُ وصفِ السّلطانِ بالمبينِ دونَ البيِّنِ:

في قولهِ تعالى: ﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ وصفَ السّلطانَ بالمبينِ، ولم يصفهُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/565 - 9/249، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 3/573 - 5/202 - 6/505.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/136.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/393.
(4) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/76.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/393.

بالبيّن، "أيّ: بيّنٌ بنفسه، وهو في قوّةِ بيانه كأنّهُ مُبينٌ لغيرهِ ما فيه منَ الأسرارِ"[1]، فهو الظّاهرُ الجليُّ المتأكِّدُ بالحسِّ، وليستْ به حاجةٌ إلى الإثباتِ أو الدّليلِ، ولمّا كانتِ الآياتُ تعمُّ الأمارةَ والدّليلَ القاطعَ، والسّلطانُ يختصُّ بالقاطعِ، أمّا المبينُ فمختصٌّ بما فيهِ جلاءٌ ووضوحٌ بعدَ الخفاءِ، ولذلك كانَ التّعبيرُ بالسّلطانِ المبينِ هنا على بابهِ، وأنّهُ حينما بانَ الفرقُ بينَ الآيةِ والسّلطانِ أتبعَهُ بالوصفِ المبينِ[2].

توجيهُ إفرادِ السّلطانِ:

إظهارُ شرفِ السُّلطانِ باعتبارِهِ أبهرَ المعجزاتِ

لمّا أوردَ الآياتِ الّتي أرسلَ بها موسَى عليه السلام على صيغةِ الجمعِ في قولهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، وهي الآياتُ الباهرةُ، عطفَ عليها ﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ على صيغةِ الإفرادِ؛ لأنّهُ أُريدَ به العصا، وقد أفردَها بالذّكرِ إظهارًا لشرفِها كونها آيةً باهرةً عجيبةً[3] دالّةً على قدرتِهِ تعالى، وانتصارًا لرسولِهِ موسى عليه السلام.

فائدةُ تقديمِ ذكرِ فرعونَ على الملأ:

الملأُ تَبَعٌ للمصالحِ والشّهواتِ، وعنوانُها فرعون

قُدِّمَ ذكرُ فرعونَ على ملئِهِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ عقبَ ذكرِ إرسالِ موسى إليهم؛ "لأنَّ اتّباعَهُم أمرَ فرعونَ حصلَ بأثرِ الإرسالِ؛ ففُهِمَ منهُ أنّ فرعونَ أمرَهم بتكذيبِ تلكَ الرّسالةِ"[4]، وفرعونُ هو المقصودُ بالإرسالِ لعلمِ اللّهِ تعالى أنَّ الملأَ أتباعُهُ على الحقيقةِ، فذكرَهم باعتبارِهم مُحيطين به من كلِّ جانبٍ، لا يرعوونَ عن أمرِه، ولا يغيبونَ عن حكمِه، ولهذا التَّقديمِ فائدتانِ:

الأولى: كونُ الملأِ أهلَ الحلِّ والعقدِ والاستشارةِ والاتّباعِ إيرادًا وإصدارًا في مملكتِهِ الّذينَ يستشيرهُم في أمرِ موسى، ويعهدُ إليهم بتنفيذِ ما يقرّرُهُ عليهم في تدبيرِ الأمورِ المهمّةِ[5].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/368.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 10/192.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/238.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/155.
(5) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/125، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/238.

الأخرى: التَّعريضُ بعامّةِ النّاسِ الّذينَ يتّبعونَ هؤلاءِ الأشرافِ حذوَ القذّةِ بالقذّةِ من غيرِ حكمةٍ ولا تأنٍّ ولا رويّةٍ، ولا يرونَ من رأيهِم إلّا ما يراهُ لهم أولئكَ الملأ[1]، والملأُ تَبَعٌ لفرعونَ، فآلَ الأمرُ كلُّهُ له، فلا معنى للأمَّةِ الّتي ترى الأمورَ بعينِ شخصٍ واحدٍ.

دلالةُ إضافةِ الملأِ إلى الضَّمير:

لا معنى للملأِ إلّا باعتبارِهم ملأَ فرعونَ

عُبِّرَ عن حاشيةِ فرعونَ بقولِه تعالى: ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ بإضافتهم إلى الضّميرِ العائدِ عليه، وتخصيصِهم بالذّكرِ؛ لبيانِ أنَّ الملأَ لا وجودَ لهم إلّا باعتبارِهم تابعين لفرعونَ، فجاءتِ الإضافةُ بيانًا لهذا المعنى الّذي يكشفُ تفاهتَهُم وسخافةَ كيانِهم، وضعفَ شخصيّاتِهم.

سرُّ التّعبيرِ بالفاءِ:

السُّرعةُ في تعكيسِ الغايةِ الحميدةِ إلى الضّلالةِ الخبيثةِ

في قولِه تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ﴾ رتّبَ فعلَ الاتّباعِ بالفاءِ دونَ (ثمَّ) أو (الواوِ) في إشارةٍ إلى النّعيِ عليهم وتقبيحِ فعلِهم؛ فقد أرسلَ سبحانَهُ موسى بالآياتِ الظّاهرةِ والبراهينِ السّاطعةِ، وهو ممّا يقتضي الهدى والرّشادَ؛ فآثروا عليهِ متابعةَ مَن يوصلُهُم إلى مراكسِ الغيِّ والتّيهِ والضّلالِ في الدّنيا، ثمَّ يوردُهُم مواردَ النّارِ في الآخرةِ[2] بسرعةٍ فائقةٍ، فكأنَّه لا مكثَ بين الإرسالِ لطاعةِ اللّه تعالى، وتعكيسِ ذلك باتِّباعِ فرعونَ.

ولَمّا كانتِ الفاءُ دالّةً في لسانِ العربِ وكلامهم على التّرتيبِ بلا تراخٍ[3] جاءَ بها مُتعجِّبًا منَ الملأِ، مُشيرًا إلى سرعةِ تكذيبِهم بالدّلائلِ والبيّناتِ الباهراتِ، واتّباعِهم فيما ضلالُهُ لا يخفى على مَن لديهِ عقلٌ ورجحانٌ[4]؛ فحصلَ ذلكَ كلُّهُ من دونِ تراخٍ عنِ الإرسالِ والتّبليغِ.

(1) الطّباطبائيّ، الميزان: 10/380.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/187.
(3) المكوديّ، شرح المكوديّ على الألفيّة، ص: 225.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/368.

ويجوزُ في معنى قولهِ تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ﴾: استمرّوا على الاتِّباع؛ فتكونُ الفاءُ كقولِ القائلِ: وعظتُهُ فلمْ يتّعِظْ ونحوه منَ الجملِ؛ فإنَّ المجيءَ بالأمرِ بعدَما يقتضِي الإقلاع عنهُ، وإنْ كانَ تتابُعًا فيه، فإنّهُ بحسبِ العنوانِ يعدُّ فعلًا جديدًا وصنعًا حادِثًا[1].

دلالةُ ذكرِ لفظِ الاتِّباعِ:

المتبوعُ في الدُّنيا مَتبوعٌ في الآخرة

في قولهِ تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ﴾ ذكرُ قوم فرعونَ منَ الأشرافِ في مقام الاتّباعِ لهُ في الكفرِ والظّلم، وفي كلِّ ما قرّرهُ من صدِّ دعوةِ موسى، وجمعِ السّحرةِ، ثمَّ قتلِهم بعدَ إيمانِهم، ومنَ الطّغيانِ على بني إسرائيلَ، وغيرِ ذلكَ دونَ عذابِ الاستئصالِ[2]، إنّما هو من بابِ تقبيحِ أفعالِهم، وتشنيعِ صنيعِهم، وأنّهم إنمّا كانوا تبعًا لفرعونَ حقًّا وباطلًا، فهم مُتَّبِعون لا مُجبرون، وهو ما يُمهِّدُ لذكرِ اتِّباعِهم له في النّارِ في الآياتِ اللّاحقةِ.

سرُّ التّعبيرِ بلفظِ الأمرِ:

كلُّ ما يناوئُ الحقَّ فهو من أمرِ فرعونَ

المقصودُ بالأمرِ في قولهِ تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ﴾ أمرُهُ قومَهُ وملأهُ بأن يكفروا بموسى ومعجزاتِه فهم تبعٌ لهُ، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ من لفظِ الأمرِ الطّريقَ والشّأنَ[3]، أو كلَّ ما يَفهمونَ عنهُ أنّهُ يَهواهُ ويأمرُهُ به وتَبِعَهُمُ السَّفلةُ[4]؛ فهو لفظٌ يعمُّ ذلكَ؛ فيُلقى متابعةً منَ السّفلةِ الّذينَ اتّخذوهُ إلهًا وربًّا، واستُعملَ هذا اللَّفظُ للدّلالةِ على العمومِ، فهو شاملٌ لكلِّ ما يدخلُ تحتَه من معانٍ ودلالاتٍ.

نكتةُ استعمالِ مصطلحِ فرعونَ:

المجرمُ ينتهكُ كلَّ شريعةٍ؛ ليحافظَ على كلِّ مصلحةٍ قبيحةٍ

استُعملَ لفظُ ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ تعبيرًا عنِ الحاكمِ، وهو في حقيقتهِ لقبٌ لمَنْ يملكُ العمالقةَ في مصرَ في ذلكَ الزّمانِ كقيصرَ وكسرى عندَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/238 - 239.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/125.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/394.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 3/573.

غيرهِم منَ الأمم، لكنّهُ لَمّا رامَ الإشارةَ إلى أنَّ المحكومينَ كانوا تَبعًا خضَّعًا لَمَن يحكمُهُم، سواء أكانَ عدلًا أم ظلمًا، رشدًا أم ضلالًا؛ فهمَ أتباعٌ لا رأيَ لهم ولا استقلالَ؛ فلذلكَ آثرَ ذكرَ لفظِ فرعونَ[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا الاصطلاحَ يُستعملُ لغاياتٍ شخصيَّةٍ، فلم يحرصْ ذلك الفرعونُ على هدايةِ قومه؛ لمعرفتِهِ أنَّ هذه الهدايةَ ستُحدّدُ صلاحياتِه ومَن معه منَ الملأ، فلذلك ألغوا وجودَ النّاس، وواجهوا هم دعوةَ موسى عليه السلام بالكيدِ الباطلِ والأمرِ غيرِ الرَّشيد.

دلالةُ النّفي بـ (ما):

الرّشدُ كلُّه مَنفيٌّ عنِ المجرمين ثابتٌ للمُوقِنين

صُدِّرَتِ الجملةُ بما النّافيةِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾؛ فقد نفَى الرّشدَ، وهو الاتّصافُ بالصّوابِ عن أمرِ فرعونَ؛ لأنَّ الرّشدَ لا يتحقّقُ إلّا إنْ كانَ المرءُ صالحًا في دينِه، ولَمّا كانَ فرعونُ لا يُراعِي مصالحَ الدّينِ نفى عنهُ الرّشدَ[2]، وللدّلالةِ على نفيِ الرُّشدِ عن أمرِ فرعونَ كلِّه عمومًا مُطلقًا.

سرُّ تكرارِ لفظِ ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾:

تَكرارُ إظهارِ لفظِ فرعونَ تشهيرٌ بشناعتِه وتذكيرٌ ببشاعتِه

ذُكِرَ اسمُ فرعونَ في قولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾، فلمّا أرادَ ذكرَهُ ثانيةً أعادَهُ مُظهَرًا بقولِه: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ﴾، ثمّ أعادَهُ ثالثةً في قولِه: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ﴾ - وحقُّهُ الإضمارُ في ذينك الموضِعينِ -؛ تشهيرًا بِه، وإعلانًا بذمّهِ وقدحه بانتفاءِ الرّشدِ عنهُ[3]، ولمزيدِ تقبيحِ الّذينَ اتّبعوا فرعونَ؛ إذ هو عَلَمٌ في الكفرِ والضّلالِ والطّغيانِ، واتّباعُهُ فرطُ جهلٍ وسوءُ استبصارٍ[4]، وفي إعادته بالاسم الظّاهرِ تذكيرٌ لهذا المرتكسِ الشّنيعِ. وفي الإظهارِ في مَواطنِ الذّمِّ مزيدُ تشنيعٍ على المُظهَرِ، ومديدُ تقبيحٍ لفعلِه.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3747.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 9/498.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/155، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/268.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/239.

الرُّشدُ منفيٌّ عن أمرِ فرعونَ نفسِه

بلاغةُ المجازِ العقليِّ:

إجراءُ وصفِ الرّشيدِ على الأمرِ من بابِ المجازِ العقليِّ[1]، فكونُ الرّشيدِ أمرًا فيه مبالغةٌ في اشتمالِ الأمرِ على موجبِ انتفاءِ الرّشدِ، فكأنّهُ وصفَ الأمرَ نفسهُ[2]، ولمّا كانَ "فرعونُ دَهريًّا نافيًا للصّانعِ والمَعادِ، وكانَ يقولُ: لا إلهَ للعالَم، وإنَّما يجبُ على أهلِ كلِّ بلدٍ أنْ يَشتغلُوا بطاعةِ سلطانِهم، فلذلكَ كانَ أمرُهُ خاليًا عنِ الرُّشدِ بالكُلِّيَّةِ"[3]؛ فلذلكَ وصفَهُ بعدمِ الرُّشدِ، ولم ينعتْهُ بالسّفهِ.

الإيماءُ إلى أنَّ أمرَ موسى هو الرَّشيدُ، وشأنَه هو الحميدُ، ومآلَه هو المجيدُ

سرُّ نفي الرُّشدِ دونَ إثباتِ السَّفَهِ:

وفي قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ عدولٌ عن وصفِ فرعونَ بالسّفهِ إلى وصفِهِ بانتفاءِ الرّشدِ معَ أنّهُ مترادفٌ معهُ في المعنى، إلّا أنّهُ عدلَ عن ذاكَ الوصفِ تجهيلًا لِمَن اتّبعَ أمرَهُ؛ لأنَّ منْ شأنِ العقلاءِ أنْ يقتدوا بما فيهِ صلاحٌ، غيرَ أنّ هؤلاءِ قدِ اتّبعوا ما أوصلَهُم إلى التّيهِ والضّلالِ لا إلى السّدادِ والهدى[4].

ولِما في النَّفي من إثباتِ المنّفي في الجهةِ المقابلةِ، وهي جهة موسى عليه السلام، فإنَّ أمرَه هو الرَّشيدُ، وإنَّ شأنَه هو الحميدُ، وإنَّ مآلَه هو المجيدُ.

عند ذكرِ السُّلطانِ اقترنَ بذكرِ جملةِ أمرِهم وهلاكِهم، وعند حذفِه ذُكِر أمرُهم حالًا بعدَ حالٍ حتّى هلاكِهم

توجيهُ المتشابهِ اللّفظيِّ في الذّكرِ والحذفِ:

عبّرَ بلفظ: ﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ بعدَ الآياتِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٩٦ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ فِرۡعَوۡنَۖ وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾، وفي قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٢٣ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ

(1) "إسنادُ الفعل أو معناه إلى غير ما هو له عند المتكلّم في الظّاهر لعلاقة مع قرينةٍ صارفةٍ عن أن يكونَ الإسنادُ إلى ما هو له"، يُنظر: القزوينيّ، الإيضاح في علوم البلاغة: 1/83.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/155.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/205.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/156.

﴿٢٤﴾ [غافر: 23 - 24]، بينما خلا قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الزّخرف: 46] منهُ؛ لأنّ الرّسولَ يُبعثُ بالآياتِ والعلاماتِ الدّالّةِ على صدقِ دعواهُ، أمّا السّلطانُ المبينُ فهو الحججُ القاهرةُ كأنواعِ العذابِ النّازلِ على فرعونَ وقومه، فلمّا كانَ القصدُ منَ الآيتينِ الأُولَيَيْنِ ذكرَ ما كانَ من جملةِ أمرهِم إلى منتهى حالهِم وهلاكهِمُ الأكيدِ انطوتِ الجملةُ على جميعِ ما احتجَّ عليهم، ثمَّ نيلهم العذابَ الدّائمَ، ففي الآيتينِ كانَ مصيرُهُمُ النّارَ[1].

أمّا الآيةُ الثّالثةُ "فلمْ يكنِ القصدُ إلى ذكرِ جملةٍ ممّا عُوملوا بهِ في الدّنيا وانتهائهِ بهم إلى عذابِ الأخرى... فاقتصَّ ما عُوملوا بهِ حالًا بعدَ حالٍ إلى أن أُهلكُوا في الدّنيا"[2]، فلمْ يكنْ حالُهُم أن يقابَلوا بالسّلطانِ المبينِ والحجّةِ البالغةِ؛ لأنّهُ تعالى أمهلَهُم ومدّ لهم، لعلّهم يعودون عن غيّهِم.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإرسالُ والبعثُ:

الإرسالُ يقترنُ بوجودِ رسالةٍ، والبـعـثُ يكون لتحقيقِ غايةٍ

الإرسالُ يدلُّ على السّهولةِ واليسرِ، ويدلُّ أيضًا على الانبعاثِ، إلّا أنَّ هذا الانبعاثَ يقترنُ بالامتدادِ[3]، فيمكن أن يبعثَ الرّجلُ إلى نظيرهِ الحاجةَ بما يخصّهُ كأنْ تبعثَ الصّبيَّ إلى الكتّابِ، فيقالُ: بعثتُهُ ولا يقالُ: أرسلتهُ؛ لأنَّ الرّسولَ لا يكونُ إلّا برسالةٍ[4]، وهو ما كانَ من رسالةِ موسى عليه السلام، وهو من أصحابِ الشّرائعِ والكتبِ السّماويّةِ، أمّا البعثُ فهو يحتملُ الإرسالَ معَ شيءٍ، وغالبًا ما يكونُ

(1) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/779.
(2) الإسكافيّ، درّة التّنزيل: 2/780.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رسل).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 103.

فيما هو أشدُّ كبعثِ الموتى، وكقولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ۝٥﴾ [الإسراء: 5]، فالبعثُ هنا فيهِ قوّةٌ وقسوةٌ وعمل.

الآياتُ والمعجزاتُ:

كلُّ معجزةٍ آيةٌ، وليس كلُّ آيةٍ معجزةً

المعجزةُ مشتقّةٌ منَ العجزِ، وهو الضّعفُ؛ بأنْ تضعفَ عن طلبِ شيءٍ وإدراكِهِ[1]، ومعجزاتُ الأنبياءِ كذلكَ؛ فهي تُظهرُ عجزَ البشرِ عنِ الإتيانِ بمثلِها، وهيَ علامةٌ على رسالتِهم[2]، والفرقُ بينَ الآيةِ والمعجزةِ أنّ بينهما علاقةَ عمومٍ وخصوصٍ؛ فالآياتُ لفظٌ عامٌّ يشملُ الآياتِ القرآنيّةَ والعلاماتِ الربّانيّةَ والمعجزاتِ الإلهيّةَ، فيما تختصُّ المعجزةُ بما يأتي بهِ الرّسولُ، ولمّا كانَ ما أُرسِلَ بهِ موسى عليه السلام آياتٍ كثيرةً تصلُ إلى تسعِ آياتٍ[3] فصّلَ فيها المفسّرونَ، ويدخلُ تحتَها المعجزةُ كالعصا والطّوفانِ واليدِ ونحوها، عبّرَ عنِ الجميعِ بالآياتِ، ولو جاءَ بالمعجزاتِ لَما أعطى المعنى المرادَ، ولم يأتِ ذكرُ المعجزةِ في القرآنِ الكريمِ، وجاءَ لها مرادفاتٌ كالآيةِ والحجّةِ والبرهانِ والسّلطانِ، أمّا الآيةُ فهي عامّةٌ، يدخلُ فيه ما هو من قبيلِ المعجزةِ وما سواه.

السّلطانُ والحجّةُ:

الحجّةُ الاستقامةُ في النّظرِ، والسّلطانُ قوّةٌ قاهرةٌ في الاستدلال والاحتجاج

السّلطانُ: "قوّةُ اليدِ في القهرِ للجمهورِ الأعظمِ، وللجماعةِ اليسيرةِ أيضًا"[4]؛ فهو مُؤشرٌ على القوّةِ، فتأييدُ موسى بالآياتِ يصحبُهُ تأييدٌ بالسّلطانِ القاهرِ، وما ذلكَ إلّا لشدّةِ عنادِ المخاطبينَ الذين أُرسل إليهمْ، أمّا الحجّةُ فهيَ "الاستقامةُ في النّظرِ، والمضيُّ فيهِ على سَنَنٍ مستقيمٍ... مشتقةٌ من معنى الاستقامةِ في القصدِ؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عجز).
(2) النّحّاس، معاني القرآن: 6/213.
(3) مجاهد، تفسير مجاهد، ص: 410.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 282.

حجّ يحجُّ إذا استقامَ في قصدهِ"[1]، فالتّعبيرُ بالسّلطانِ أليقُ لما كانَ من قوم فرعونَ المستكبرينَ العالينَ، وشدّتهُم معَ موسى ودعوتِه، فكيفَ يروّضهُم بالحجّةِ، وكانَ من قولِهم لهُ ولهارونَ عليهما السلام: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ٤٧﴾ [المؤمنون: 47].

الاتّباعُ والطّاعةُ:

الاتّبـاعُ ملازمةُ المتبوعِ ملازمةً تامَّةً، والطّاعةُ تنفيذُ الأمرِ بسهولةٍ ويسرٍ

الاتّباعُ: السّيرُ خلفَ المتبوعِ[2] في إشارةٍ إلى الاتّباعِ التّامِّ، وهو ما كانَ مِن اتّباعِ قومِ فرعونَ من غيرِ حجّةٍ ولا دليلٍ إلّا لفرطِ جهلهِم، وبالغِ غباوتهِم وتعاميهِم عن طريقِ الهدى والتّقى[3]، أمّا معنى الطّاعةِ فهيَ الّتي توجبُ امتثالَ الأوامرِ واجتنابَ النواهي، ولا تكونُ الطّاعةُ طاعةً خالصةً إلّا معَ اجتنابِ المعاصي[4]، فاستعمالهُ الاتّباعَ لدلالتهِ على عمى وضلالِ قومِ فرعونَ وملئِه، أمّا الطّاعةُ فصفةُ العقلاءِ المُتسربلينَ سرابيلَ المهابةِ، الّذينَ تلفّعوا بأرديةِ التّذلُّلِ والانقيادِ، وضرعِ الاستسلامِ والاستكانةِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 233 - 234.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (تبع).
(3) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاويّ: 10/192.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (طوع).

﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ٩٨﴾ [هود: 98]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

أئمّةُ الضّلال في الدُّنيا أئمّةُ الضّالّين في الآخرة

لمّا كان فِرْعَوْنُ قُدْوةً لِقَوْمِه في الضَّلالِ في الدُّنْيا، فأدْخَلَهُم في البَحْرِ وأغْرَقَهُم فكَذلك يَتَقَدَّمُهُم يَوْمَ القيامَةِ فيُدْخِلُهُمُ النّارَ ويُحْرِقُهُم، فيكونُ المرادُ بقولِه: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ ٩٧﴾، أيْ: وما أمْرُهُ بصالِحٍ حَميدِ العاقِبَةِ، فتكونُ هذه الآيةُ: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ﴾ تَفْسيرًا لِذلك[1].

فلمّا كان المقصود من هذه القصص - في هذه السورة الكريمة - التثبيت في المكافحة بإبلاغ الإنذار - وإن اشتدت كراهيّة المبلِّغين وقلَّ المتّبع منهم - ذكر هنا تَقَدُّم فرعونَ قومَه، "أي: الذين كان لهم قوَّة المدافعة ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ ويكونون له تبعًا كما كانوا في الدُّنيا"[2]، فالمناسبةُ بين الآيتين، أنَّ الأولى فيها بيانُ اتِّباعِ أمرِ فرعون في الدُّنيا، والأُخرى فيها ذكرُ أمرِه مع قومه في الآخرةِ، فهي بيانٌ للعاقبةِ بعد ذكرِ سببِها.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَقۡدُمُ﴾: من الجذر (قدم)، القافُ والدّالُ والميمُ أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على سَبْقٍ ورَعْفٍ[3] ثُمَّ يُفَرَّعُ منْهُ ما يُقارِبُهُ: يَقولونَ: القِدَمُ: خِلافُ الحُدوثِ، ويُقالُ: شَيْءٌ قَديمٌ، إذا كانَ زَمانُهُ سالِفًا"[4]. ومعنى الفعل ﴿يَقۡدُمُ﴾ في الآيةِ: يتقدَّم قومَه إلى النّارِ كما كان يتقدَّمهم في الدُّنيا بإضلالهم عن الحقِّ والصَّواب.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/394.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/370.
(3) الرعف يعني السبق والتقدم، يُنظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (رعف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدم).

2) ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ﴾ - ﴿ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾: من الجذر (ورد)، "الواوُ والرّاءُ والدّالُ: أَصْلانِ، أَحَدُهُما الموافاةُ إلى الشَّيْءِ، والثّاني لَوْنٌ مِنَ الأَلْوانِ، فالأَوَّلُ الوِرْدُ: خِلافُ الصَّدرِ، ويُقالُ: ورَدَتِ الإبلُ الماءَ تَرِدُهُ وِرْدًا، والوِرْدُ: وِرْدُ الحُمَّى إذا أَخَذَتْ صاحِبَها لِوقْتٍ، والمَوارِدُ: الطُّرُقُ، وكَذلك المِياهُ المَوْرودَةُ والقُرَى، والأَصْلُ الآخَرُ الوَرْدُ: يُقالُ فَرَسٌ وَرْدٌ، وأَسَدٌ وَرْدٌ، إذا كانَ لَوْنُهُ لَوْنَ الوَرْدِ"[1].

فأصلُ الوُرودِ: "قصدُ الماء، ثمّ يستعمل في غيره، يقال: ورَدْتُّ الماءَ أَرِدُ وُروداً، فأنا وارِدٌ، والماءُ مَوْرودٌ، وقد أَوْرَدْتُ الإبلَ الماءَ، والوِرْدُ: الماءُ المرشّحُ للوُرودِ، والوِرْدُ: خلافُ الصّدر"[2].

ومعنى ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ﴾: أي فأدخلهم النّارَ، ومعنى ﴿ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾: أي بئس المكان الذي دخلوه، وهو النّارُ، فالورودُ الدخولُ وليس بورودِ الإشرافِ على الشَّيءِ[3].

المَعْنى الإجْماليّ:

قادةُ الكفرِ في الدُّنيا سيُجزون وفاقَ أعمالِهم في الآخرة

أخبر سبحانه - فيما سبق - عن إرسال نبيِّه موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه، وما كان منهم تُجاه دعوته، وأشارت الآيات إلى اتِّباع الملأ فرعونَ، مع ظهور فساد أمره، وأخبرت هذه الآية عن حال فرعون يوم القيامة، إذ يكون متبوعًا لقومه كما كان في الدُّنيا، ولكنَّه يتقدّمهم على النّار، وبئس المدخَل الذي يُدخَلونه.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّةُ فصلِ الجملةِ:

أسئلةُ العقلاءِ عن المآلِ بَيْنما اهتمام الحمقى بالحالِ

وقعت هذه الجملة ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ﴾ موقع الاستئناف البيانيّ لكونها جوابًا لمن سأل عن حال المتبوع والتّابع مآلًا، بمعنى: لِمَ لم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ورد).
(2) الراغب، المفردات: (ورد).
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/205.

يسر أمرُ فرعون إلى الرُّشد؟ أو هل سار أمر فرعون إلى الرُّشد؟ فكان هذا الجواب، ففصلت هذه الجملة عن سابقتها لشبه كمال الاتِّصال، وإمّا أن تكون في موضع الحال فتصير تفسيرًا وإيضاحًا لعدم صلاح عاقبته، والمعنى: كيف يرشد أمرُ مَن هذه عاقبته؟[1].

نكتةُ إيثارِ لفظ ﴿يَقۡدُمُ﴾:

قُدْوةٌ في الضَّلالِ سيِّئةٌ في المآل

يظهر الفرق بين استعمالِ لفظِ ﴿يَقۡدُمُ﴾ في الآيةِ دون "يسبق" من خلال:

أوّلًا: قوله تعالى: ﴿يَقۡدُمُ﴾ بمعنى: يسير قدّامه، أما مرادفه وهو "يسبق" يقتضي أنه يلحق قبله، فقوله تعالى: ﴿يَقۡدُمُ﴾ مراد الفعل أن فرعون يمشي على قدمه يقودهم إلى النار،

ثانيًا: لو قيل: يسبقهم، فإنَّه لا يؤدّي المعنى المراد من الفعل ﴿يَقۡدُمُ﴾، لأنّ يسبقهم يجوز أن يكون معناه: أنه يوجد قبلهم فيها[2]، والمرادُ أنَّه يقدمُهم وهم خلفَه تابعين له يُشاهدونه لا يغيبُ عن أنظارِهم كما كانوا في الدُّنيا، جزاءً وفاقًا، ولو قال: "يسبق"، لما تحقَّق هذا المعنى.

بلاغة التَّهكُّم في استعمال لفظِ ﴿يَقۡدُمُ﴾:

الإقــــدامُ في خــســائــسِ الأعمالِ مسلكُ الجبناءِ وطريقُ البلداء

استعمل النَّظمُ لفظَ ﴿يَقۡدُمُ﴾ وهو من التَّهكُّم البديعِ، إذِ الإقدام يكون في معالي الأمورِ ومحاسنِ الأعمال، ولا يكون فيما هو خسيسٌ، فلا يوصفُ الرِّجالُ بالإقدام إلّا إن أقدموا على شيءٍ فيه نجاةٌ وشرفٌ ورفعة، فاستعمال هذا اللَّفظِ في الإقدام على النّار، غايةٌ في التَّهكُّم بفرعون وبأتباعه، لأنَّه سيكون مغوارًا في ورودِ النّار وإيراد مَن معه، لا حاميًا عنهم لهم أن يقعوا فيما فيه عطبهم، وفي هذا اللَّفظِ إشارةٌ لأتباعِ كلِّ ظالمٍ وكافرٍ، أن ينتبهوا لمآلِهم، فيُسارعوا إلى النَّجاةِ قبل وقوعِ المحذورِ.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/134بتصرُّف.

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 124، بتصرف.

نكتةُ إيثار صيغة المضارع:

آثر النَّظمُ التَّعبيرَ بالفعل المضارع ﴿يَقۡدُمُ﴾ وذلك لإفادةِ تصوير مشهدِ قيادةِ الضَّلال، واتِّباع الضّالّين له، فتقدُّمُه إلى النّار بقومه أمرٌ متحقِّق لن يتخلَّف أبدًا تعذيبًا ومهانةً، وهذا أوقعُ وأرسخ في التَّرهيب والوعيدِ من مجرَّد الإخبارِ.

تصويرُ مشاهد الغيبِ أوقعُ في التَّرهيب والوعيد

سرُّ استعمالِ لفظِ ﴿قَوۡمَهُۥ﴾:

جاءَ اختيارُ لفظِ ﴿قَوۡمَهُۥ﴾ دون مرادفات هذا اللَّفظ لبيانِ أنَّ هؤلاءِ بهم قام أمرُ فرعون، فهم سندُه في الدنيا، وأتباعه الذين رفعوه ومجَّدوه وأعانوه وأقاموا أركانَ باطله، فكان لهذا الاختيارِ حظٌّ من الإشارةِ إلى العدل الإلهيِّ، في بيانِ أنَّه ليس كلُّ من كان تحت حكم فرعون في زمانه داخلًا في الوعيدِ، وإنَّما هو خاصٌّ بمن اتَّبعه وأطاع أمرَه بما يكون له قيامٌ وتمكُّنٌ في استعبادِ النّاس وإضلالِهم.

الباطلُ لا يقومُ إلّا بالأتباعِ الحريصين على إقامتِه

نكتةُ إضافةِ (قوم) إلى الضَّمير:

أُضيف لفظُ قوم إلى الضَّميرِ العائدِ على فرعون، وذلك لبيانِ أنَّ هؤلاءِ قومه إرادةً واختيارًا، لا قهرًا وإجبارًا، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ هؤلاءِ كما كان لهم خصوصيَّة عند فرعون في الدُّنيا، فإنَّه كذلك سيكون لهذه الخصوصيَّة شأنٌ عظيمٌ في الآخرة، بحيث توردهم العذابَ العظيمَ في النّارِ.

على قدرِ اتِّباعِ الظّالمين يكون الالتصاقُ بهم في الآخرة

دلالةُ ذكرِ يوم القيامةِ في الآية:

ورد التَّعبير بالظَّرفيَّة الزَّمانيّة في قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ لأمورٍ، وهي:

أوَّلًا: دفعُ توهّم أنّه خبرٌ في الدُّنيا، فقد يُحملُ على ذلك لضعفِ تصورّه في الآخرةِ.

ثانيًا: خصوصُ ذلك اليوم بوقوعِ التَّعذيبِ فيه،

القيامةُ موعد الفصلِ بين الحقِّ والباطلِ أتباعًا ومتبوعين

ثالثًا: الإيماءُ إلى المكذِّبين بيوم القيامةِ من المشركين، فإنَّ ذكرَ تفاصيل ما سيكون للأمم السّابقةِ في المستقبلِ ممّا لا يقوى على ذكرِه إلا منزل الكتاب.

رابعًا: الفصل فيه بين أهل الحقِّ وأهل الباطل، فأمّا الذين اتَّبعوه في الدُّنيا فسيتبعونه في الآخرةِ، وأمّا الذين ضعفوا وأُجبروا وأنكروا في قلوبِهم فهؤلاء بريئون منه ومن مصيرِه في ذلك اليوم الجلل.

سرُّ اصطفاء لفظ ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ بالذِّكر:

القيامةُ اسمٌ جامعٌ لمعاني يوم القيامةِ الأخرى

ورد التَّعبير بيوم القيامةِ عن بعث الخلائق للحساب، دون بقيَّة الأوصافِ وذلك باعتبارِ أنَّ القيامةَ هي الاسم العلمُ على ذلك الحدثِ الكونيِّ، فهو الأصل في الاستعمالِ، فالقيامةُ: "عبارةٌ عن قيام السّاعة، والقيامَةُ أصلها ما يكون من الإنسان من القيام دَفْعَةً واحدة، أدخل فيها الهاء تنبيهًا على وقوعِها دَفْعَةً"(1).

فأرادت الآيةُ الإخبارَ عمّا يكون لفرعون وأتباعِه، بقطعِ النَّظرِ عن تخصيصِ بقيَّةِ الأوصافِ بالذِّكر، وقد وردتْ أوصافٌ أخرى من مثل وصفِ اليوم بعسير كما في قولِه تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ٩﴾ [المدثر: 9]، فالعسر صفةٌ للأهوالِ الواقعة في ذلك اليوم، والمراد هنا عمومُ ذلك اليوم بما فيه من أهوالٍ، ووصفه بعظيم وهو صفة للعذاب الواقع فيه، كما في قوله تعالى: ﴿فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥٦﴾ [الشعراء: 156]، ووصفه بعصيب وهو صفة للشَّرِّ الذي يقع فيه، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧﴾ [هود: 77](2)، فهذه الأوصاف قد لفَّها السّياق عند ذكر القيامةِ لأنَّها كالعَلَم الحاوي لها جميعِها، وهذا أقوى في الدّلالةِ، وأبلغ في التَّرغيب، وأرسخ في التَّحذير.

---

(1) الراغب الأصفهاني، المفردات: (قوم).

(2) ابن النقيب، مقدمة تفسير ابن النّقيب، ص: 66.

معنى الفاء ودلالتها:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ﴾ عاطفةٌ، وهي من عطفِ الجمل على الجمل، لاشتراك الجملتين في الخبريَّة لبيان ترتيب إيرادِهم النّار على تقدّمه إليها ومتابعة قومه إيّاه في الورود، وفيها إيماءٌ لمعنى المفاجأة، إذ إنَّ الإقدامَ لا يكون إلّا في الأمور المحمودةِ، فذكر إيرادِ النّار بعد الإقدام يخالف ما يتوقَّعه الغافل، وإن كان السّياق قد نبَّه على أنَّ أمرَ فرعون ليس برشيدٍ، فالمفاجأة أتتْ من عنصرِ السُّرعة، أي: إقدامٌ فإيرادٌ في النّار.

القائدُ الضّالُّ حريصٌ على إيرادِ أتباعِه النّارَ بإسراعٍ وإقدامٍ

إيثارُ التَّعبير بفعل الإيرادِ:

جاء التَّعبير بفعل ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ﴾ وهو من الإيراد، والمراد به: جعل الشيء واردًا في المكان وداخلًا فيه، فالهمزةُ "في ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ﴾ لِلتَّعْدِيَةِ، ورَدَ يَتَعَدَّى إلى واحِدٍ، فلَمّا أُدْخِلَتِ الهَمْزَةُ تَعَدَّى إلى اثْنَيْنِ، فتَضَمَّنَ وارِدًا ومَوْرودًا، ويُطْلَقُ الوِرْدُ على الوارِدِ، فالوِرْدُ لا يَكونُ المَوْرودَ، فاحْتيجَ إلى حَذْفٍ لِيُطابِقَ فاعِلَ بِئْسَ المَخْصوصَ بالذَّمِّ، فالتَّقْديرُ: وبِئْسَ مَكانُ الوِرْدِ المَوْرود، ويَعْني بِهِ النّار"[1].

ورودٌ ولا ريٌّ، وغضبٌ من الله العليّ

دلالةُ استعمالِ صيغة الماضي:

ورد التَّعبير بـ ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ﴾ بلفظ الماضي، لإظهارِ عنصر المفاجأةِ، فإنَّ السّامع ينتظر بعد سماعِ ﴿يَقۡدُمُ﴾ حدثًا مرتبطًا بزمنٍ حاضرٍ أو قادمٍ، لكنَّ النَّظم أتى بالفعل الماضي ليفاجئَ السّامع بسرعةِ النَّتيجة، فإنَّ الأمر يوم القيامةِ لن يكون كالدُّنيا، وفي التَّعبير بالماضي قطعٌ لأيِّ تعلُّقٍ بالنَّجاةِ، فهو تحقيقٌ للإيرادِ في النّارِ.

خسارة مضمونة وعاقبة غير ميمونة

بلاغة الاستعارة التَّهكميَّة:

استعيرَ لفظُ الإيرادِ في قوله تعالى: ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾، فلم

العَطَبُ من حيث تُظَنُّ الحياةُ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 5/259.

يقل: (فأدخلهم)، بقصدِ التَّهكُم، "لِأنَّ الإيرادَ يَكونُ لِأَجْلِ الانْتِفاعِ بالسَّقْيِ، وأمّا التَّقَدُّمُ بقَوْمِهِ إلى النّارِ فهو ضِدُّ ذلك"[1].

فالاستعارة مكنيَّة تهكُّميَّة للضِّدِّ وهو الماء ثم حذف الماء ودلَّ عليه بلازمه، وهو الورود الذي يكون له وإثبات الورود للنّار تخييل وهو قرينة المكنيَّة[2].

والاستعارة هنا بيَّنت مدى الإهانة التي حاقت بهؤلاء، لأنَّ الورود في الأصل يكون للمرور للاستسقاء منه، فشُبِّهت النّار بماء مورود، وشبِّه فرعون في تقدُّمه أمام قومه بمنزلة مَن يتقدَّم على الواردين إلى الماء، لكسر حدَّة العطش وتبريد الأكباد، والنّار ضدُّ ذلك تمامًا.

معنى الواو ودلالتها:

مَنْ قَلَبَ موازينَ الحقِّ في الدُّنيا قُلِبت عليه موازينُ النَّجاةِ في الآخرة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ حاليَّةٌ، والجملة كلُّها في موضع الحال، جاءت وصفًا ونعتًا للورود المذكور في الفعل "فأورَدَهُمُ"، أي: حالة كون النّار وردهم الذي يردونه، ومورودهم الذي يستقون منه، فإنَّه مذمومٌ مرذولٌ، وهي حالةٌ عجيبةٌ، لا تكون في الدُّنيا، فإنَّ الورود محمودٌ ممدوحٌ، لكن لمّا كان أولئك صادّين عن دين اللّه تعالى، قلبوا بذلك موازين الحقِّ والباطل، فإنَّهم مستحقّون لأن يُعاملوا بالمعاملةِ نفسِها، من جعل مورد الماءِ مهلكَ النّفوس.

بلاغةُ التَّذييلِ:

ذمُّ الـورد بيانٌ لنفي الرُّشدِ

جاءت هذه الجملةُ ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ تذييلًا مبيِّنًا ومؤكِّدًا لهذا الإيرادِ الذي ورده فرعون وقومه، فالآية كالدَّليل على قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٍ﴾ فإنَّ مَنْ هذه عاقبته لم يكن في أمره رشيدًا[3]، ولم يكن في مآله حميدًا، فكان ذمُّ الوردِ كالبيانِ لنفي الرّشدِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/156.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/134، والجمل، الفتوحات الإلهية: 2/486 بتصرف.

(3) الزحيلي، التفسير المنير: 12/138، والبقاعي، نظم الدّرر9/369.

توجيه حذف المخصوص بالذَّم:

المخصوص بالذَّم محذوف وهو النّار، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، أي: بئس مكان الورود المورود النّار، ومنهم من يجعل ﴿ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ هو المخصوص بالذَّم، والمراد به النّار، ويقدّر المضاف أي: بئس مكان الورد النّار، ومن يجعل الوردَ فاعلَ ﴿بِئۡسَ﴾ ويفسِّره بالجمع الوارد، و﴿ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ صفة لهم، والمخصوص بالذَّم ضميرهم المحذوف، أي: بئس القوم المورود بهم هم، فيكون ذمًّا للواردين لا لموضع الورود[1].

النّـارُ موردُ الظّالمين ومثوى المجرمين

بديعُ جناسِ الاشتقاق:

ورد جناس الاشتقاق في الآية بين لفظِ ﴿فَأَوۡرَدَهُمُ﴾، و﴿ٱلۡوِرۡدُ﴾ و﴿ٱلۡمَوۡرُودُ﴾، ومعناه: توافق الكلمات في الحروف الأصول مع الاتفاق في أصل المعنى[2].

بليغُ الكلام هو الذي يوافق فيه اللّفظُ المعنى دون كُلفةٍ أو تكرار

أمّا بلاغته هنا فتكمن في أنَّ استعمالَه غير متكلَّف، وطلبه المعنى واستدعاؤه، والمقام الذي ورد فيه يتطلّبه كما أنَّه أضفى على الأسلوب رونقًا أبان عن الورد الذي وردوه وما أشقاه من مورود وأبأسه، فاتَّفق فعلُ الإيرادِ الصّادرِ عن فرعون، مع وصف المكان الذي سيدخلوه، بأن اجتمع في هذه الألفاظِ التَّهكُّمُ بالقائدِ المغوار والأتباع المغاوير.

بلاغةُ الفاصلةِ:

وردت الفاصلة ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ من النَّوع المتقارب الذي يرد طوعًا سهلًا تابعًا لمعناه، وهو محمود بليغ معبِّرٌ عن المعنى المراد منه مؤكِّد لمضمونه لا يثْقُل على المتكلِّم والمتلَفِّظ به.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/134.
(2) القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 6/98.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

يقدُم ويسبق:

يقـدمُ يمشي أمام التّابعين بطواعيةٍ، والسبق يكون عن جدارةٍ

يَدُلُّ لفظُ الإقدام على سَبْقٍ ورَعْفٍ، ومنه قادمة الرجل وقدمه أي: تقدّمه.

والسَّبْق: القُدْمةُ في الجَرْي وفي كُلِّ شَيْءٍ، واسْتَبَقَ القومُ وتَسابَقوا: تَخاطَروا(1).

"والفرق بين قولك: يقدمه، وقولك: يسبقه: أن معنى قولك: يقدمه: يسير قدّامه، ويسبقه يقتضي أنّه يلحق قبله، وقال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، قيل: إنّه أراد يمشي على قدمه يقودهم إلى النّار، وليس كذلك يسبقهم، لأنَّ يسبقهم يجوز أن يكون معناه أنَّه يوجد قبلهم فيها"(2).

فالفرق في كون يقدمُ يمشي أمامَهم دون أن يتخطَّوه، ويسبق في سبقِه لهم عن جدارةٍ واقتدارٍ وتسابق.

الوِرْدُ والمدخل:

الـورد يُقابله الصّدر ويكون لتحصيل المنفعةِ، والدّخول ليس كذلك ويُقابله الخروج

الوِرْدُ: خِلافُ الصَّدرِ، ويُقالُ: ورَدَتِ الإبلُ الماءَ تَرِدُهُ وِرْدًا، وكَذلك المياهُ المَوْرودَةُ والقُرَى(3)، فالواردُ الذي يتقدَّمُ القوم فيسقي لهم، ويكون لغايةِ الإرواءِ وتحصيل المنفعة،

أمّا الدُّخول: فهو نَقيضُ الخُروجِ(4)، ويستعمل في المكان والزَّمان والأعمال، وليس بالضّرورةِ تحصيل منفعةٍ أو كسب مصلحةٍ.

فاستعمال لفظ (الوِرْد) هو الأنسب، لما يحمله من دقَّة دلاليّة، ولمسات بلاغية، وتهكّمٍ بالمذكورين.

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سبق).

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 124.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ورد).

(4) ابن منظور، لسان العرب: (دخل).

﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ ٩٩﴾

[هود: 99]

الفجّارُ مطرودون من النّار بمباركةِ الأبرارِ

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا ذَكَرَ في الآيةِ السّابقةِ أحوالَ المجرمين في الآخرة، أتبعه بذكرِ أحوالِهم بعد مماتِهم في الدُّنيا فقالَ: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ﴾، فالمناسبةُ بين الآيتين أنَّ السّابقة حديثٌ عن مآلهم الثّابت في النّار، واللّاحقة حديثٌ عن حالِهم الثّابت على ألسن الأبرار، ثم ذكرَ حالَهم في الآخرةِ ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾، فهم يُلعنون في الدُّنيا، وفي الآخرة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأُتۡبِعُواْ﴾: التّاءُ والباءُ والعَيْنُ أصلٌ واحِدٌ لا يَشِذُّ عَنْهُ مِنَ البابِ شَيْءٌ، وهو التُّلوُّ والقَفْوُ، يُقالُ تَبِعْتُ فُلانًا إذا تَلَوْتُه واتَّبَعْتُه، وأَتْبَعْتُه إذا لحِقْتَهُ[1]، وتَبِعَ الشيءَ تَبَعًا وتِباعًا في الأفعال وتَبِعْتُ الشيءَ تُبوعًا: سِرْت في إِثْرِه، واتَّبَعَه وأَتْبَعَه وتَتَبَّعه قَفاه وتَطلَّبه مُتَّبِعًا لهُ وكَذلك تَتَبَّعه وتَتَبَّعْته تَتَبُّعًا، وقالَ الفَرّاءُ: أَتْبَعَ أحسن مِن اتَّبَع، لأن الاتِّباع أن يَسير الرَّجُلُ وأنت تَسيرُ وراءَه، فإذا قُلْتَ أَتْبَعْتُه فكأنك قَفَوْته[2].

والمعنى المقصودُ في الآيةِ: أنَّ الأبرارَ كلَّما ذكروهم وذكروا أمثالَهم ألحقوهم لعنةً، ودعوْا عليهم بالطَّردِ من رحمةِ الله تعالى، لعظيم جرائمهم، وكبير آثامهم، وكثير أتباعِهم ممَّن يقتفون آثارهم.

2) ﴿ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾: الرّاءُ والفاءُ والدّالُ أصلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (تبع).

مُنْقاسٌ، وهو المُعاونَةُ والمُظاهَرَةُ بالعَطاءِ وغَيْرِه، فالرَّفْدُ مَصْدَرُ رَفَدَهُ يَرْفِدُهُ، إذا أعْطاهُ[1]، ورَفَدَه وأرْفَده: أعانه، والاسْمُ الرِّفْدُ بالكسر وهو العَطاءُ والصِّلَةُ، وتَرافَدوا: أعان بَعْضُهُم بَعْضًا. والمَرْفَدُ والمُرْفَدُ: المَعونَةُ. والرَّفْد: النَّصيبُ، وقالَ أبو عُبَيْدَةَ في قولِه تعالى: ﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾، قالَ: مجازُه مجازُ العَوْنِ المُجازِ، يُقالُ: رَفَدْتُه عِنْدَ الأمير أي: أعنته، قالَ: وهو مَكْسورُ الأوّل فإذا فتحتَ أوَّله فهو الرَّفد[2].

والمراد به هنا: التَّبَعُ المتبوع والعون المعان والعطاء المعطى لهم، وهي اللَّعنة في الدّارين أعاذنا اللّه منها.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لعنةُ المجرمين يرفدُ بعضُها بعضًا في الدُّنيا والآخرة

صرَّح سبحانه بلعنِ فرعون وقومه في الدّارين فقال: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾، أي: أنَّ اللّعنةَ والفضيحةَ لحِقَت بهم واتّبعتهم في الدُّنيا وفي الأخرى، والرِّفد: العطاء والعون، يُقال: رفد فلانٌ فلانًا يرفدُه رفدًا، أي: أعطاه وأعانه على قضاء مصالحه، أي: بئس العطاءُ المعطى لهم تلك اللَّعنة المضاعفة التي لابستهم في الدُّنيا والآخرة[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو:

لعنةُ فرعون وأتباعه مستمرَّةٌ إلى دخولِ النّارِ

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ﴾ استئنافيّة، فهي تُنشئُ معنًى يُبيِّن حالَ هؤلاء المجرمين بعد موتهم في الدُّنيا، ويصحُّ أن تكون عاطفة على جملة ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ﴾، وهي من باب عطف الجمل الخبريَّة على بعضِها، لاتِّفاقها في الإخبار عن مصير هذا الطّاغية ومتّبعيه، مع وجودِ جامعٍ رابطٍ يدعو إلى الوصل بينهما.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رفد).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (رفد).
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط للقرآن الكريم: 7/268.

سرُّ استعمالِ لفظِ الإتباعِ ودلالته:

ملاحقةُ اللّعناتِ مصيدةُ المنكرات

الإتّباع هو الإلحاق، والمراد أن اللَّعنة والفضيحة لحقت بهم واتّبعتهم في الدُّنيا والآخرة، وأنَّ الله تعالى ألحق بهم زيادة على عذاب النّار لعنة عظيمة في الدُّنيا فيمن يأتي بعدهم من الأمم، ثمَّ تنالهم اللَّعنة يوم القيامة بأنْ يلعنهم أهل الموقف جميعًا، وهم أيضًا من المقبوحين فاجتمع عليهم لعنتان في الدُّنيا والآخرة، مع مزيد العذاب والهوان والطَّرد من رحمته سبحانه وتعالى.

دلالة صيغة الماضي المبنيّ للمفعول:

اللّعنةُ صادرةٌ عن الله تعالى والملائكة والنَّبيّين

التَّعبير بالفعل الماضي دالٌّ على تحقُّق وقوع الفعل وحصوله لا محالة، وحُذِف الفاعل للعلم به بدلالة قوله تعالى: ﴿وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ٤٢﴾ [القصص: 42]، والتَّعبير عنهم بالفعل المبنيِّ للمفعول للعموم، فإنَّه يدخل فيهم الملائكةُ والنَّبيّون[1].

نكتةُ التَّعبير عن الدُّنيا بالجارِّ والمجرور:

الدُّنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلّا ما اتّصل بالله تعالى

ورد هذا التَّعبير ﴿فِي هَٰذِهِۦ﴾ لتقييد لعن فرعون وقومه في الحياة الدُّنيا، حيث تصيبهم لعنةٌ من المؤمنين، فهم يُلعنون فيها من كلِّ لاعنٍ من المسلمين وغيرهم من أهل الملل، والتَّعبير بالجارِّ والمجرور لتحقيرِ المشار إليها عندما تكون مصدرًا للّعنات، بدل أن تكون مصدرًا للرَّحمات، فالإشارةُ إلى الدُّنيا باسم الإشارةِ القريبِ يومئ إلى تفاهتِها، وأنَّها حريٌّ بها أن تكون ملعونةً إذا كانت موقعًا للظلم والكفر، وكما قال صلى الله عليه وسلم: «ألا إنَّ الدُّنيا مَلْعونَةٌ مَلْعونٌ ما فيها إلّا ذِكْرُ اللّه وما والاهُ وعالِمٌ أو مُتَعَلِّمٌ»[2].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/394.

(2) الترمذي، سنن الترمذي: 4/561.

سرُّ التَّعبير باسم الإشارة القريب:

الدُّنيا لا تعدلُ عند الله جناحَ بعوضة

يرد التَّعبير بهذا الاسم إمّا للقرب، وإمّا للبعد حسب المقام الذي يرد فيه، وهو هنا مرادٌ به التَّحقير لأمر هذه الدُّنيا التي يعيش عليها هذا الطّاغية وتابعوه، ويفيد التَّعبير باسم الإشارة القريب هنا قرب أمر النّاس الذين يلعنونهم فيها لحقارة شأنهم وما ارتكبوه في دنياهم تلك.

توجيه المتشابه اللفظي:

الحذفُ والذِّكرُ قـائـمٌ علـى ملامحِ السّياقِ وإشاراتِ النَّظم

ذُكر لفظُ الدُّنيا في قصَّة نبيّ اللّه هود عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ۝٦٠﴾ [هود: 60]، وخلت هذه الآية من ذكرِ هذا اللفظ، فيُسأل عن ذلك؟ والجواب من وجوهٍ:

الأول: أنَّه لمّا كان في القصَّة تفصيلٌ كثير عرض لجميع ما حدث معه عليه السلام من قوم عاد جميعهم بلا استثناء، وورد ذكر ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ باعتبار الجزء الذي جوزي به هؤلاء القوم ولا يكتفي بالإشارة إليها فقط، بل جاء ذكرُها صريحًا مشارًا إليها باسم الإشارة القريب مع كونها أوّل بيانٍ لهذا الجزاء، والمعنى على ذلك: طلب الإبعادِ "عن الرحمة وعن كلِّ خير، أي: جعلت اللَّعنة لازمة لهم، وعُبِّر عن ذلك بالتَّبعيَّة للمبالغة، فكأنَّها لا تفارقهم وإن ذهبوا كلَّ مذهب، بل تدور معهم حسبما داروا، أو لوقوعه في صحبة اتِّباعهم"(1).

الثاني: وفي هذه الآيةِ ورد الحديثُ عن فرعون وقومه مقتضبًا دون تفصيل، فأغنت الإشارة بـ ﴿هَٰذِهِۦ﴾ عن ذكر الدُّنيا إيجازًا واختصارًا بحذف المضاف، وانصراف الذِّهن إلى العلم بها مباشرةً لوضوح المراد باسم الإشارة وضوحًا بيِّنًا.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/87.

الثّالث: أنَّه لمّا تقدَّم ذكر الشَّبيه في هذه السورة، وهي آية هودٍ، فكانت الآيةُ الأولى كالتفسير للثّانية، وكالتعيين للمراد باسم الإشارةِ، فحسن الاكتفاء بالمتقدِّم عن المتأخِّر، مع ما تقدّم من الأسباب.

فائدةُ إيثار لفظ ﴿لَعۡنَةٗ﴾:

اللّعن شاملٌ لمعنى الطَّرد والإبعاد والخزي

آثر النَّظم ذكر لفظِ اللَّعن لاشتماله على معنى الطّرد والإبعاد على سبيل السُّخط، وذلك من اللّه تعالى في الآخرة عقوبة، وفي الدّنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه، ومن الإنسان دعاء على غيره[1]، ولما يحويه هذا اللّفظُ من الإيماءِ الشَّرعيِّ للطَّردِ من رحمةٍ مخصوصةٍ، لاسيَّما إذا اقترن الملعون بكفرٍ ذريعٍ، وجرمٍ فظيعٍ.

غرضُ تنكيرِ ﴿لَعۡنَةٗ﴾:

تهويلُ اللّعنةِ وتفظيعُ شأنِها

تنكيرُ لفظِ اللَّعنِ، لتعظيم أمر هذه اللّعنة وشدَّتها، والمراد: لعنةٌ عظيمةٌ تلحقهم في الدُّنيا والآخرة، فهم يُلعنون من كلِّ لاعنٍ من المسلمين وغيرهم من أهل الملل كما قال اللّه تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ٧٨﴾ [طه: 78]، أي: هول عظيم" والدُّعاء عليهم تهويلٌ لأمرهم وتفظيع له وبعث على الاعتبار بهم والحذر من مثل حالهم"[2].

معنى الواوِ ودلالتها:

لعنةُ الدُّنيا من ورائها لعناتُ الآخرةِ وهي أطمُّ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ عاطفة لهذه الجملة على موضع في ﴿هَٰذِهِۦ﴾، والمعنى: أنَّهم ألحقوا لعنة في الدُّنيا وفي الآخرة[3]، "﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ مُتَعَلّق بـ ﴿وَأُتۡبِعُواْ﴾، فعُلِمَ أنَّهُم أُتْبِعوا لَعْنَةً يَوْمَ القيامَة، لِأنَّ اللَّعْنَةَ الأولَى قُيِّدَتْ بِالمَجْرورِ بِحَرْفِ في الظَّرْفيَّة، فتَعَيَّنَ أنَّ الإتْباعَ في يَوْم القيامَةِ بلَعْنَةٍ أُخْرَى"[4].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (لعن).

(2) الزمخشري، الكشاف: 2//277.

(3) الجمل، الفتوحات الإلهية: 2/487، ودرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 4/427.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/157.

قطعُ التّعلّقات مـزيـدُ عـذابٍ ورفدُ عقاب

موقع جملة الاستئنافِ ودلالتها:

وقعت هذه الجملةُ ﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ مُسْتَأْنَفَةً لإِنْشاءِ ذَمِّ اللَّعْنَةِ، وهذا الذَّمُّ يُفصح عن معنًى فظيعٍ للعناتِ الآخرةِ، وهي وإن كانت معلومةً إلّا أنَّ التَّصريحَ بها في هذه الآيةِ يكشفُ عن أثر اللَّعنةِ رفدًا مستمرًّا في عذابِ الآخرةِ، عن حجم العذابِ المستمرِّ، والغضبِ المتواصل، والطَّرد الذي لا رجوع عنه، فهو فقدٌ لكلِّ أملٍ، وافتقادٌ لكلِّ مطمع.

اللـعـنـةُ عـونُ الظّالمين وعطاءُ المجرمين

توجيه المجاز بالحذفِ:

ورد الإيجاز في قولِه تعالى: ﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ بحَذْفِ المَخْصوصِ بالمَدْحِ، ليَكونَ الذَّمُّ مُتَوجِّهًا لإِحْدَى اللَّعْنَتَيْنِ لا على التَّعْيينِ لِأَنَّ كِلْتَيْهِما بَئِيسٌ[1]، والمحذوف هو رفدهم وهو اللَّعنة في الدّارين، دَلَّ عَلَيْهِ ذِكْرُ اللَّعْنَةِ، أَيْ: بِئْسَ الرِّفْدُ هيَ أي: اللعنة، لأنَّها سببُ العذابِ، فلولا اللَّعنة الدّالة على كفرهم وإجرامهم العظيم لما دخلوا النّار، والرِّفْدُ - بكَسْرِ الرّاءِ - هو العطاء، أيْ ما يُرْفَدُ به، أيْ: يُعْطَى. يُقالُ: رَفَدَهُ إذا أعْطاهُ ما يُعينُهُ بِهِ مِنْ مالٍ ونَحْوِهِ[2].

الـلَّـعـنـاتُ المتلاحقةُ تراصٌّ في الـعـذابِ وتـراكُـمٌ في العقابِ

بديعُ جناسِ الاشتقاقِ:

الأصل اللُّغويّ لـ﴿ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ واحد وهو الفعل "رفد"، وقد جانست الآية بين المصدر ﴿ٱلرِّفۡدُ﴾ وبين اسم المفعول ﴿ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ فقد وقعتا موقعًا حميدًا مقبولًا، ولا تباعد بينهما ألبتَّة، وذلك أنَّ المعنى المراد من هذه الإهانة لفرعون ومتَّبعيه أن يكون هذا العطاء مناسبًا لهم، فبئس العون المعان، والعطاء المعطى لهم لعنة الدُّنيا ولعنة الآخرة والعياذ بالله، وقد "سَأَلَ نافِعُ بْنُ الأَزْرَقِ ابْنَ عَبّاسٍ رضي الله عنهما عَنْ قولهِ: ﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ قالَ: هو اللَّعْنَةُ بَعْدَ اللَّعْنَةِ، قالَ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/157.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/157.

قَتادَةُ: تَرادَفَتْ عَلَيْهِم لَعْنَتانِ منَ الله تعالى لَعْنَةٌ في الدُّنْيا ولَعْنَةٌ في الآخِرَةِ، وكُلُّ شَيْءٍ جَعَلْتَهُ عونًا لشيء فقد رفدته به"[1].

بلاغة الاستعارة التَّصريحيَّة:

التَّصريح بالمشبَّه به إطماعٌ ظاهرٌ وعذابٌ باطن

استعير الرِّفد وهو بمعنى العطيّة والعونِ للَّعنة، فهو تشبيهُ اللَّعنةِ بالرِّفد، وحذف المشبَّه وصرَّح بالمشبَّه به على سبيلِ الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة، والمراد بالرفد هنا اللَّعنة الأولى فأرفدت اللعنةُ الأولى باللَّعنة الثّانية وهي ﴿ٱلْمَرْفُودُ﴾.

بلاغة الاستعارة التَّهكّميَّة:

التَّعكيس في الاستعمالِ تهكُّمٌ بديعٌ

وفي التَّعبير بالرِّفد المرفودِ عن اللَّعنةِ هو من بابِ التَّهكُّم بهم، وإلّا فاللَّعنة إذلالٌ لهم وإنزال بهم إلى الحضيض الأسفل[2]، فقد سمّيت اللَّعنةُ رفدًا، لأنَّها إذا تبعتهم في الدُّنيا أبعدتهم عن رحمة الله ورفدتهم على ما هم فيه من الضَّلال، على التهكُّم[3].

فإطلاقُ الرِّفد على اللعنةِ تعكيسٌ في الاستعمالِ بديعٌ، إذِ المراد رفدُهم بالعذابِ النَّاشئ عن لعنتِهم من الرَّحمة والعفو، فإطْلاقُ "الرِّفْدِ على اللَّعْنَةِ اسْتِعارَةٌ تَهَكُّمِيَّةٌ، كَقَوْلِ عَمْرِو بْنِ مَعْدِ يكَرِبَ: تَحِيَّةُ بَيْنِهِم ضَرْبٌ وجيعُ"[4].

بلاغةُ الوصفِ والتَّذكير بلفظِ ﴿ٱلْمَرْفُودُ﴾:

إذا تعاضدتِ اللَّعنات تكاثرتِ العقوبات

وُصف ﴿ٱلرِّفْدُ﴾ بقوله تعالى: ﴿ٱلْمَرْفُودُ﴾ وحقيقةُ ﴿ٱلْمَرْفُودُ﴾: المُعْطَى شَيْئًا، "لِأنَّ كِلْتا اللَّعْنَتَيْنِ مَعْضودَةٌ بالأُخْرَى، فشُبِّهَتْ كُلُّ واحِدَةٍ بمَنْ أُعْطِيَ عَطاءً فهيَ مَرْفودَةٌ، وإنَّما أُجْرِيَ المَرْفودُ على التَّذْكيرِ باعْتِبارِ أنَّهُ أُطْلِقَ عَلَيْهِ رفد"[5]، أي: لم يقل: المرفودة، باعتبارِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 9/56.
(2) الجمل، الفتوحات الإلهية: 2/487.
(3) الجمل، الفتوحات الإلهية: 2/487.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/157.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 12/157.

عودتها على معنى لفظٍ مؤنَّثٍ وهو اللَّعنة، وهو الأنسبُ في الاستعمال اللَّفظيِّ الظّاهر، فإنَّ شأنَ الأوصافِ مطابقةُ الموصوفات.

براعةُ مراعاة النَّظير:

بين قوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ﴾، وقوله تعالى: ﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ ما يسمَّى عند البلاغيين مراعاةَ النَّظير[1]، فقد تمّت المناسبة بين كلِّ جزء في الآيتين من حيث المعنى والصيغة:

وردٌ بلا ماءٍ، ورفدٌ بلا عطاءٍ، خصّيصى للكبارِ من الفجّار

أمّا المعنى فقد ناسب الورودُ الرفدَ، والوِرْدُ هو ورود الماء فيعطَى فيه الوارد حظَّه من الرّيِّ، والرِّفد هو العطيَّة ينالها المعطَى فيبرد جوفه، ويستريح قلبه بما أعطي، وجاءت الجملتان على وزن واحد متناسب يؤدّي الغرض المقصود منه.

وأمّا الصيغة فقد جاء في الأولى ﴿ٱلۡمَوۡرُودُ﴾ اسمَ مفعولٍ، وهو مكان الورود، لينال منه الوارد حظَّه فيطفئَ عطشه ويبرد كبده، وورد في الثّانية ﴿ٱلۡمَرۡفُودُ﴾، وهو المعان الذي يُعين ﴿ٱلرِّفۡدُ﴾، فصار عونًا معانًا، وعطيَّة معطاة على زنة اسم المفعول أيضًا، فتناسب الوزن مع الفاصلة في الآيتين، فما أعظم نظم الكلام مقصده ومغزاه الذي جاء تصويرًا دقيقًا لحالتي العذاب واللَّعن لفرعون ومن معه.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرِّفد والإعطاء:

الرِّفْد بالكَسْر: العَطاءُ والصِّلَةُ، ومعنى تَرافَدوا: أعان بَعْضُهُم بَعْضًا، والمَرْفَدُ والمُرْفَدُ: المَعونَةُ، والرَّفْد: النَّصيبُ[2].

الرِّفد عطاء فيه صلة وتعاون فهو أخصّ من العطاء

والإعطاء: عطا يعطي عطاءً، والعطو: التناول، والمعاطاة: المناولة، والإعطاء: الإنالة، واختصَّ العطيَّة والعطاء بالصِّلة يعطي من يشاء[3].

(1) وهو أن يجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتَّضاد، أي يجمع بين أمرين متناسبين أو أمور متناسبة، يُنظر: القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 6/19.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (رفد).
(3) الرّاغب، المفردات: (عطا).

فالإعطاء هو اتِّصال الشَّيء إلى الآخذ له، ألا ترى أنَّك تعطي زيدًا المالَ ليردَّه إلى عمرو، وتعطيه ليتَّجر لك به، والهبة تقتضي التمليك فإذا وهبته له فقد ملّكته إيّاه، ثم كثر استعمال الإعطاء حتَّى صار لا يطلق إلا على التَّمليك، فيُقال: أعطاه مالًا إذا ملَّكه إيّاه، والإعطاء لا يقتضي إخراج المعطى من الملك"[1].

ولذلك كان لفظ (الرّفد) أنسب في الاستعمال، حيث إنّه يدلّ على الصّلة ورفادة المُعطَى في الأصل.

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 75، 176.

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيۡكَۖ مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ ١٠٠﴾

[هود: 100]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

القصص السّابقةُ دليلُ صدق وأمارة نبوّة

لمّا ذكر تعالى بعض قصص المرسلين، وما حلَّ بأممهم من النَّكال، ذكر هنا العبرة من سرد هذه القصص، لتكون شاهدًا على تعجيل العقوبة للمكذِّبين، وبرهانًا على تأييد اللّه ونصرته لأوليائه وأنبيائه.

وهي دليل على صدق نبوّة محمَّد ﷺ لإخباره عن تلك القصص من غير مطالعة كتب، ولا مدارسة معلِّم ولا تلمذةٍ لأحد، فهي معجزة عظيمة تدلّ على النُّبوّة الصّادقة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَقُصُّهُۥ﴾: القافُ والصّادُ أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على تَتَبُّعِ الشَّيْءِ، مِنْ ذلك قَوْلُهُمْ: اقْتَصَصْتُ الأَثَرَ، إذا تَتَبَّعْتَهُ، ومِنْ ذلك اشْتِقاقُ القِصاصِ في الجِراحِ، وذلك أَنَّهُ يُفْعَلُ بِهِ مِثْلُ فِعْلِهِ بالأَوَّلِ، فكَأَنَّهُ اقْتَصَّ أَثَرَهُ[1]، والقَصَصُ: الأخبار المتتبّعة[2]، وقال أبو هلال: "القصص ما كان طويلًا من الأحاديث متحدَّثًا به عن سلف، وسمّي الخبر الطويل قصصًا، لأنَّ بعضه يتبع بعضًا حتَّى يطول، وأصل القصص في العربية: اتِّباع الشيء بالشيء"[3].

والمعنى المراد في الآيةِ: ننزله عليك تباعًا بطريق الوحي.

2) ﴿قَآئِمٞ﴾: القافُ والواوُ والميمُ أَصْلانِ صَحيحانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُما على جَماعَةِ ناسٍ، ورُبَّما اسْتُعيرَ في غَيْرِهِم، والآخَرُ على انْتِصابٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قصّ).
(2) الرّاغب، المفردات: (قصّ).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 38.

أو عَزْمٍ[1]، وهو المراد هنا، فمعنى (أقامَ) بالمَكانِ لبث فيهِ واتّخذه وطنًا، والقائم من البناء: المرتفع الثابت، وأقام البناء: عدَّله وأزال عوجه[2]، والمراد من اسم الفاعل ﴿قَآيِمٌ﴾ في الآيةِ، أي: من القرى ما هو عامر باقٍ بنيانه، وقد هلك أهله، فيُرى للاعتبارِ به.

3) ﴿وَحَصِيدٌ﴾: دلَّ الأصل الثُّلاثيُّ (حصد) على معنى قطعِ الشَّيءِ[3]، والحَصْدُ: جَزُّكَ البُرَّ ونَحْوَهُ منَ النَّباتِ، حَصَدَ الزَّرْعَ وغَيْرَهُ منَ النَّباتِ يَحْصِدُه ويَحْصُدُه حَصْدًا وحَصادًا وحِصادًا، والزَّرْعُ مَحْصودٌ وحَصيدٌ وحَصيدَةٌ وحَصَدٌ، بالتَّحْريك، والحَصيد: أسافل الزَّرْعِ التي تَبْقَى لا يَتَمَكَّنُ منْها المِنْجل، والحَصيد: المَزْرَعَة لأنها تُحْصَد، والحصيدُ: الذي حَصَدَتْه الأيدي"[4].

والمراد هنا اسمُ المفعول محصود، أي: خراب قد اندثر أهله فلم يبق له أثر كالزرع المحصود.

۞ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

قصصُ القرآنِ خـبرٌ صـادقٌ ومقصد فائقٌ

بعد الانتهاءِ من ذكرِ مجموعةٍ من قصص الأقوام السّابقة، وما كان لهم من جزاءٍ وعقاب، أخبرتِ الآيةُ النَّبيَّ ﷺ عن طريقِ خطابه بقصد الاعتبارِ وإنذارِ قومه، للنَّظر وتأمّل التّاريخ البشريِّ، وأنَّ ما كان للسّابقين سيكون للّاحقين، فإن لم يتدارك النّاسُ أنفسَهم فسيكونون حدثًا يروى، أو خبرًا يُطوى، وقد جعلت الآية السّابقين على قسمين، منها القائم بالبناءِ من مثل مدائن صالح عليه السلام، فهي آية قائمة للاعتبارِ، لا للغفلة والاغترار، ومنها المحصود الذي لا يُعرف أثره ولا رسمه كعاد، فمن رأى آثارَ قومٍ فليعتبر بهم وليجعلهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(2) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط: (قام) بتصرف.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حصد).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (حصد).

قياسًا على الحصيد، والآية من أدلّةِ صدقِ رسول اللّه ﷺ، حيث إنَّ الأخبار الغيبية المتعلّقة بالأمم من آيات الإعجاز الغيبيِّ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستئناف:

العبرةُ مطلبُ النِّهايات والعظةُ تظهر في الغايات

جاء قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ استئنافًا بيانيًّا، "لِلتَّنْويهِ بشَأْنِ الأنْباءِ التي مَرَّ ذِكْرُها"(1)، فإنَّ الانتهاءَ من سردِ أحداثٍ فيها عبرة وعظة، أن يدعو ذلك للاعتبارِ والاتِّعاظ والقيام بالصَّوابِ.

غرضُ استعمالِ اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

العبرُ البليغةُ والمعاني العالية والعظات السامية يُشار إليها بالبعيد

آثر النَّظم استعمال اسم الإشارةِ البعيدِ، وهو يريد: القِصَص التي تَقَدَّمَتْ في السّورة، "إشارة إلى ما قُصَّ من أنباء الأمم وبعده باعتبار تقضّيه أو باعتبار ما قيل في غير موضع، والخطاب لرسول اللّه ﷺ"(2).

وغرض الإشارةِ بالبعيدِ أنَّه "لمّا كانت هذه الأخبار على غاية من التَّحذير، لا يعرفه إلا بالغ في العلم، كان من المعلوم قطعًا أنَّه ﷺ لم يأتِ بها إلا من عند اللّه للعلم المشاهد بأنَّه لم يعانِ علمًا ولا ألَمَّ بعالم يومًا، هذا مع ما اشتملت عليه من أنواع البلاغة، وتضمّنته من أنحاء الفصاحة، وأومأت إليه بحسن سياقاتها من صروف الحكم وإفادة تفصيلها من فنون المعارف، فلذلك استحقّت أن يشار إليها بأداة البُعد إيماءً إلى بُعد المرتبة وعلو الأمر"(3).

سرُّ استعمالِ لفظ النَّبأ:

يختصُّ النَّبأ بالخبرِ الصادقِ ذي الشَّأنِ العظيم

النَّبأ هو الخبر إلّا أنَّه يوصف بعظمته وعلوِّه كما ورد عنه التَّعبير

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/157.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/135.
(3) البقاعي، نظم الدّرر: 9/370.

في القرآن كلِّه، بل هو أكثر استعمالًا، ولمّا كانت قصص الأمم السّابقة من الخطورة بمكان، والحديث عنها يتطلَّب أن يخبر بها صادق لا يجرَّب عليه كذبٌ أو افتراءٌ، استعمل لفظ الأنباء دون الأخبار، والمراد بالنَّبأ هنا الخبر العظيم والخطب الجسيم، وجاء التَّعبير بلفظ النَّبأ، لأنَّ الخبر فيه عظيم الشَّأن، ومن هنا جاء اشتقاق لفظ النَّبيِّ، والنَّبأ: هو الخبر المقطوع بصحَّته وقوَّته، أمّا الخبر فهو قول يحتمل الصِّدق والكذب لذاته، ومن هنا عبّر القرآن الكريم عن جميع الأمور والأخبار المقطوع بصحّتها بالنَّبأ.

معنى الإضافة:

بعضُ الأنباءِ يُغني عن كثيرِها

أُضيفت الأنباءُ إلى القرى في قوله تعالى: ﴿أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ﴾، ومعنى الإضافة التبعيض، أي: أنباءٌ بالغةٌ إليك ولغيرك من القرى المقصوص عليك أنباؤها.

بلاغةُ المجازِ في لفظِ القرى:

المرادُ بالقرى الأحداثُ الحالَّةُ فيها لا جميع أهلها

في لفظِ ﴿ٱلۡقُرَىٰ﴾ مجازٌ بحذفِ المضافِ وإقامةِ المضافِ إليه مقامَه، وإطلاقُ القرى دون أن يقولَ أهل القرى، لإفادةِ أنَّ المراد ما يخصُّ الاعتبار منها، وأما أهلها فهم أعمُّ من ذلك، إذ يدخل المؤمن والصالح،

أو أن يكون اللَّفظُ مجازًا مرسلًا علاقته المحليَّة، حيث أطلق القُرَى، وأراد أهلَها المهلَكون، لأنَّهم هم المخصوصون بالهلاك، وهم الذين تصل إلينا أخبارهم وأنباؤهم في كونهم مصبَّ الحديث، وأنباؤهم هي محطُّ الاعتبارِ ومدرج الاتّعاظ من هلاكهم وتعذيبهم، مع ما أفادته هذه الإضافة من الإيجاز والاختصار.

بلاغةُ الإعرابِ في توضيحِ الدّلالات:

اختصاصُ النبي ﷺ بالخطابِ ليكون قدوةَ المؤمنين

وقعت هذه الجملة ﴿نَقُصُّهُۥ﴾ خبرًا ثانيًا لاسم الإشارةِ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡقُرَىٰ﴾، والجارّ والمجرور ﴿عَلَيۡكَۖ﴾ متعلّقان

بالفعل ﴿نَقُصُّهُۥ﴾، لتخصيص القصص به ﷺ، تطمينًا لقلبه وتسلية له في تكذيب قومه له، والمراد: ذلك القصص من أخبار القرى التي أهلكنا أهلها بكفرهم وتكذيبهم الرُّسل، نقصُّه عليك يا محمد ونخبرك عنها بطريق الوحي.

سرُّ التَّعبير بصيغة المضارع:

تجدُّدُ الاعتبارِ قائمٌ وإن اكتملَ نزولُ القرآنِ

جاء التَّعبير بالفعل المضارع ﴿نَقُصُّهُۥ﴾، وإن كان القصُّ قد تمَّ وانتهى، إلّا أنَّه عبَّر بالمضارع الدّالّ على التَّجدُّد والاستمرار لكون الاعتبارِ من القصص لديه ﷺ ولدى أمَّته متجددًا لا ينقطع، ولاستحضار صورة هذا القصِّ البليغ الذي يتضمَّن العبرة والعظة من أحوال الرسل عليهم السلام، وما وقع من تكذيب أممهم لهم ومعاقبته سبحانه وتعالى على أفعالهم الشَّنيعة وطبائعهم الرذيلة.

نكتةُ تذكير الضّمير:

العبرةُ كامنةٌ في مجموع القصصِ

آثر النَّظم تذكيرَ الضَّمير في قوله تعالى: ﴿نَقُصُّهُۥ﴾ دون أن يقول: (نقصُّها)، ليرجع إلى اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾، لا إلى ﴿أَنۢبَآءِ﴾، فجمع النَّظم جميعَ القصص السّابق ذكرها في اسم الإشارةِ، ثم قال: ﴿نَقُصُّهُۥ﴾، أي: نقصّ ذلك المذكور عليك، ونكتةُ ذلك، أنَّ القصص السّابق غايتها واحدةٌ، وهي عبادة اللّه تعالى وحدَه، فعوملت معاملة النَّبأ الواحد، ليحصل الاعتبار من مجموعِها جميعِها.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ:

آثارُ الغابرين عبرةٌ لأولي الأبصار لا غفلةٌ لأهلِ الاغترار

وقعت هذه الجملة ﴿مِنۡهَا قَآئِمٞ وَحَصِيدٞ﴾ مفصولة عن سابقتها لشبه كمال الاتِّصال، فهي مستأنفة استئنافًا بيانيًّا، لأنَّه لمّا ذكر سبحانه وتعالى أنباء القرى كأنَّ سائلًا سأل: ما حال هذه القرى الآن؟ أباقيةٌ آثارُها أم عفتْ واندثرت؟ فجاء هذا الجواب لبيان حالها، أي: بعضُها باقٍ وبعضها عفا أثره فصار كالزَّرع القائم على سوقه الذي حُصِدَ.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة:

في قوله تعالى: ﴿قَآيِمُ وَحَصِيدُ﴾ شُبِّه ما بقي من آثار القرى وجدرانها بالزَّرع القائم على سوقه، وشُبِّه ما هلك مع أهله ولم يبقَ له أثر بالزَّرع المحصود بالمناجل، في دقَّة تصوير وبراعة نسجٍ، فحذف في اللَّفظين المشبَّه وصرَّح بالمشبَّه به على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، وحسُنت الاستعارةُ بالمقابلةِ.

الاعتبارُ بالآثار الدّارِسَة مسلكُ النُّظّار

توجيه نكتةِ التَّقديم والتَّأخير:

قُدِّم ذكرُ ﴿قَآيِمُ﴾ على ﴿وَحَصِيدُ﴾ من باب تقديم الأصل على الفرع، فلا يقع حصاد إلّا بعد وجود الزَّرع القائم، ولا يقع خراب إلّا بوجود عامر يسقط عليه هذا الخراب، ولا يذكر المفقود إلّا بعد ذكر الموجود، وإلّا كيف تكون العبرة؟ ولا يقع العقاب إلّا على ما يتندَّمُ عليه، وهو من باب التَّرقّي من الأعلى إلى الأدنى، ومن الموجودِ إلى المفقود، ومن الظّاهر إلى الباطن، ومن الحاضر إلى الغائب.

الاعتبارُ بالموجودِ لا بالمفقودِ

سرُّ اختلافِ التَّعبير بين اسم الفاعل والفعيل:

جاء التَّعبيرُ باسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿قَآيِمُ﴾، وذلك باعتبارِ أنَّ الآثارَ ما زالت قائمةً تُرى، فكأنَّها قائمةٌ ليراها النّاس للاعتبارِ، بينما جاء التَّعبيرُ بصيغةِ فعيل دون مفعول في قوله تعالى: ﴿وَحَصِيدُ﴾، وهو مجاز عقلي لعلاقة المفعوليَّة، لأنَّ فعيل بمعنى مفعول، والمراد به الزَّرع المحصود، وهو أبلغ في التَّعبير من أن يقول: محصود، لما فيه من الدَّلالة على قطع الأثر وعدم بقائه أبدًا.

الأثر الباقي قائمٌ للاعتبارِ والمندرسُ فقدُه أعظم اعتبار

۞ الفروقُ المُعجَميَّةُ:

النَّبأ والخَبَر:

الخبر هو القول الذي يصحّ وصفه بالصدق والكذب، ويكون الإخبار به عن نفسك وعن غيرك[1]، أمّا النَّبأ فلا يكون إلا للإخبار

الخبر قول يحتمل الصّدق والكذب لذاته، والنبأ يُطلق على ما هو عَظيم الشَّأن

(1) العسكريّ، الفروق اللغويّة، ص: 210.

بما لا يعلمه المخبر، ويجوز أن يكون الخَبَر بما يعلمه وبِما لا يعلمه، ولِهذا يُقال: تُخبرني عن نفسي، ولا يُقال: تنبئني عَن نَفسي، وكَذلك تقول: تُخبرني عَمّا عِنْدي، ولا تَقول: تنبئني عَمّا عِنْدي، وفي القُرْآن ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾ [الشعراء: 6] وإنَّما استهزؤوا بِهِ لأَنَّهم لم يعلموا حَقيقَته، ولو علموا ذَلِك لتوقّوه، يَعْني: العَذاب، وقالوا في النَّبأ معناه: عَظيم الشَّأْن، ولِهذا يُقال: سَيكون لفُلان نبأٌ، ولا يُقال: خبر بهذا المَعْنى"[1].

القرية والمدينة:

القرية تدلّ على التجمّع، والمدينة تدلّ المصْر الجامع المحصَّن

القَرْيَةُ، سُمّيَتْ قَرْيَةً لِاجْتِماعِ النّاسِ فيها، والقرية هي المصر الجامع الذي اتَّصلت به الأبنية، وهي اسم للموضع الذي يجتمع فيه النّاس، وللنّاس جميعًا، ويستعمل في كلّ واحد منهما، مأخوذة من القَرْي وهو إطعام الطَّعام[2].

والمدينة المصْر الجامع المحصَّن، وتعريف المدينة بالحصن يذكّرنا باتخاذ القدماء قِلاعًا ونحوها مبالغةً في الامتناع والتحصّن من الأعداء، وفيه الفرق بينها وبين القرية التي هي تجمُّع لبيوت لم يُلحظ فيه التحصّن[3]، والأخذ بأسباب الحضارة والمدنيَّة.

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 38، 37.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (قرى).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (مدن).

﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ١٠١﴾ [هود: 101]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إهلاك القرى عدل لا ظلمَ فيه، والشِّرك ظلمٌ لا عدلَ فيه

"لمّا كان فيما تقدَّم في هذه السَّورة من القصص أشدّ تهديد وأعظم وعيد لمن له تبصرة، صرَّح لغليظي الأكباد بأنَّ الموجب للإيقاع بهم إنَّما هو الظُّلم، فقال تعالى عاطفًا على نحو أن يقال: فعلنا بهم وأنبأناك به: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾ في شيء منه ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ﴾ واعتمدوا على أندادهم معرضين عنّا، آمنين من عذابنا، فأخذناهم بالعذاب"(1)، فالمناسبة بين الآية والسّابقة هو نفيُ أن يكون ما وقع للأمم الغابرة ظلمًا، بل هو محض العدل والإنصاف، وذلك أنَّ النّاس إنَّما يحكمون على ما يُشاهدون دون ما يسمعون، لضعفِ أفهامهم، وقلَّة تأمُّلِهم، وهشاشة تدبّرِهم، فقد يُسابق شيطانُ أحدهم لأن يوسوس بأنَّ ما وقع لأولئك ظلمٌ، فجاء النَّفي لدفعِ أيِّ توهّمٍ من قاصرِ العقل، ومعوَّج التَّفكير، ومشوّش الفهم، فباتت المناسبة دفع الأوهام عن آياتِ القرآن.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَغۡنَتۡ﴾: الغَيْنُ والنّونُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ أَصْلٌ صَحيحٌ، يَدُلُّ على الكِفايَةِ(2)، "والغنى يكون بالمالِ وغيره من القوَّة والمعونة وكل ما يُنافي الحاجة، ثمَّ كثر حتَّى اسْتعْمل بمَعْنى غَني"(3)، وقال الرّاغب:

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/370.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغوية، ص: 185.

"يقال: غَنَيْتُ بكذا غِنْيانًا وغِناءً، واسْتَغْنَيْتُ وتَغَنَّيْتُ، وتَغانَيْتُ، ويقال: أغْناني كذا، وأغْنَى عنه كذا: إذا كفاه"، ومعنى ﴿فَمَآ أَغْنَتْ﴾ في الآية: فما دفعت عنهم آلهتهم التي يدعونها من دون الله، ويدعونها أربابًا من عقاب الله وعذابه إذا أحلَّه بهم ربُّهم من شيءٍ، ولا ردَّت عنهم شيئًا منه[1].

2) ﴿تَتْبِيبٍ﴾: تبب: التَّبُّ: الخَسارُ، والتَّبابُ: الخُسْرانُ والهَلاكُ، وتَبًّا لهُ، على الدُّعاءِ، نُصِبَ لأنَّه مَصْدَرٌ مَحْمولٌ على فِعْلِه وتَبًّا تَبيبًا، على المُبالَغَةِ والتَّتْبيبُ: النَّقْصُ، والخَسارُ[2]. ومعنى ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾: غير تخسيرٍ وتدميرٍ وإهلاك[3].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

سببُ إهلاك الظالمين ظلمُهم لأنْفُسهم وعنادُهم لأنفُسِهم

بعد سرد مجموعةٍ من القصص الهادفة في هذه السّورة العظيمة، شرعت الآيات في بيانِ الموقف الحقِّ من تلك الأمم، فذكرتِ الآيات أنَّ الله ﷻ لم يعاقب أهل تلك القرى، التي قصَّ أنباءها على رسولِه ﷺ بغير استحقاق، بل جاءتِ العقوبةُ لأنَّهم ظلموا أنفسهم فأشركوا مع الله تعالى، ولم يتَّعظوا ولم يُقبلوا على طلب النَّجاةِ، بل أصرّوا وعاندوا، وحين نزول العقابِ لم تدفع عنهم آلهتهم التي يدعونها من دون الله شيئًا، عندما وقع المحذورُ، ونزل بساحتهم العذاب، بل زادوهم خسارةً وهلاكًا لا نجاةً ونصرةً.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواوِ ودلالتها:

عطفُ الجملِ تتميمٌ للمعنى وتكميلٌ للمقصدِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ واوُ العطفِ، وهي عاطفةٌ لهذه الجملةِ على الجملة السّابقة من باب عطف الجمل، مرتّبة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/472.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (تبب).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 15/472.

حكم اللّه تعالى على هذه القرى، وجاءت بيانًا لمظاهر عدله ﷻ في قضائه وأحكامه، والتَّرتيب هنا تفسيرٌ وبيان لما ارتكبه هؤلاء في حقِّ أنفسهم، فكان سببًا رئيسًا في خسرانهم وبوار أعمالِهم.

بلاغةُ الاحتراس:

دفعُ منكرات الأفهام في إرادةِ المحظورِ من الأوهام

جاء قولُه تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ احتراسًا بنفي وقوع الظُّلم منه ﷻ على الأمم السّابقة، والمراد من الاحتراس المحافظة على المعنى من كلِّ ما يفسده ويغيِّره، فقد يقع في وهم السّامعين أن اللّه تعالى عاقب المتقدِّمين بلا ذنب ارتكبوه، فجاءت الجملة المنفيَّة هنا مبيِّنة أنَّه تعالى لا يظلم أحدًا، وأنَّ العقوبةَ تقع بسببِ ظلم النّاس أنفسَهم، والاحتراس تكميل للمعنى وأوفى في تأدية المراد منه.

نكتةُ بناءِ الفعلِ للفاعل:

الإيماءُ إلى عظيم الظُّلم بأن يتولَّى الله نفيَه عن نفسِه

جاء التَّعبير بضمير المتكلم مسندًا إلى فاعله في قولِه تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ﴾، لنفي الظلم عنه سبحانه، دون أن يقول: (وما ظُلموا)، وذلك للمبالغةِ في النَّفي، ولبيان عظيم شأن المجترئ على اللّه تعالى بعد ذلك في إسنادِ الظُّلم له، فاللّه ﷻ هو الذي ينفي عن نفسِه العليَّة الظُّلمَ، ففيه تنويهٌ عظيم بشأنِ العدل، وأنَّ الظُّلم جريرةٌ لا يقبله اللّه من أحدٍ.

دلالة الاستدراك:

كلُّ ظالمٍ سيتجرَّع ظلمَه ولو بعد حين

ورد الاستدراك في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ﴾ بحرف العطف ﴿وَلَٰكِن﴾، لقصر المعذَّبين على كونهم موصوفين بالظُّلم، وهو قصر موصوف على صفة قصرًا إضافيًّا، ونوعه قصرُ قلب، لأنَّه قلبَ ما قد يقع في أوهام بعض الأفهام أنَّ اللّه تعالى قد ظلمهم، فقلب ذلك الاعتقادَ وأثبت المعنى الصَّحيح، فلمّا نُفي الظُّلم عنه ﷻ، رجع به إلى إثباته لهم لكونه واقعًا منهم على أنفسهم.

بديع الطِّباق:

بين نفي الظُّلم أوّلًا ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ﴾، وإثباته ثانيًا ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ﴾ طباقُ سلبٍ.

معنى الفاءِ ودلالتها:

العواقب مربوطة بالمقدّمات

الفاء في قولِه تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ﴾ للتَّفريع، حيث "فرَّعَ على ظُلْمِهِم أَنْفُسَهُم انْتِفاءَ إِغْناءِ آلِهَتِهِم عَنْهُم شَيْئًا، ووجْهُ ذلك التَّرتُّبُ والتَّفْريعُ أنَّ ظُلْمَهُم أَنْفُسَهُم مَظْهَرُهُ في عِبادَتِهِمُ الأَصْنامَ، وهُم لمّا عَبَدوها كانوا يَعْبُدونَها لِلْخَلاصِ مِنْ طَوارِقِ الحَدَثانِ، ولِتَكونَ لهُم شُفَعاءَ عِنْدَ اللّه، وكانوا في أَمْنٍ مِنْ أَنْ يَنالَهُم بَأْسٌ في الدُّنْيا اعْتِمادًا على دَفْعِ أَصْنامِهِم عَنْهُم، فلَمّا جاءَ أَمْرُهُم بضِدِّ ذلك كانَ ذلك الضِّدُّ مُضادًّا لِتَأْميلِهِم وتَقْديرِهِمْ"[1].

فائدةُ استعمال مفردةِ الإغناء:

كثرةُ المعاني دليلُ كثرة المظانّ في إغناءِ الآلهة للأمم السّابقة

أوثر التَّعبير بالفعل ﴿أَغۡنَتۡ﴾ كنايةً عن الكفاية والمعونة والدَّفع، فهو أشمل الأفعال لجمعه أكثر من معنى، فما استطاعت الآلهة التي كانوا يعبدونها من دونِ اللّه تعالى أن تغنيَهم بالعطاء، أو بردِّ غوائل الزَّمان عنهم، أو أن تدفع عنهم عذاب اللّه تعالى وإهلاكه لهم، أو استئصال شأفتهم فلا سبيل لها إلى ذلك أبدًا، وهذا الثَّراءُ دليلُ بلاغةِ المفردةِ القرآنيّة وتميّز اختيارِها في الكشفِ عن كثرة أوهام الأمم السّابقة فيما يعتقدونه في آلهتهم المزعومةِ.

سرُّ تقديم الجارِّ والمجرور:

كلُّ مبطلٍ يجني جريرة يديه

ورد تقديم الجارِّ والمجرور ﴿عَنۡهُمۡ﴾ على المسند إليه ﴿ءَالِهَتُهُمُ﴾، لقصره عليهم وتخصيصه بهم دون سواهم، إذ هم من كان يعتقد ذلك، فكلُّ أمَّةٍ تعتقد في آلهتها مجموعةً من الاعتقادات الباطلةِ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/158.

فكان مقصودُ التَّخصيص لا إثبات قدرةِ الإغناءِ لغيرِهم، بل للمبالغةِ في التَّهكُّم في حال من كان يعتقد الخيرَ في شيءٍ فوجدَ ضدَّه.

فائدة الوصفِ بالاسم الموصول:

انتظار النَّفع من غير بابه ضلال مبين

جاء وصفُ المسند إليه ﴿ءَالِهَتُهُمُ﴾ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ زيادة في تقرير الغرض المسوق له الكلام، وهو عدم غناء هذه الآلهة المزعومة المدعوَّة من دون اللّه تعالى، لكونها لا تملكُ من أمرها شيئًا، ولا تستطيع لنفسها ضرًّا ولا نفعًا، فكيف بمَن التجأ إليها واتَّخذها وسيلة يظن بها طرق النَّجاة ولاتَ حين مناص، وفيه أيضًا تنبيه على خطأ هؤلاء العابدين الذين ظنّوا النَّفع من غير بابه فضلّوا.

دلالة صيغة المضارعة:

الإقامة على الضلال لا تغني غناءً ولا تردّ غائلة

ورد التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَدۡعُونَ﴾ الدّالّ على التَّجدُّد والاستمرار لعبادتهم هذه الأصنام لأجلِ حكاية الحالة الماضية وتصويرها التي كانوا عليها في الدُّنيا، اعتقادًا منهم أنَّها تعين على تحصيل المنافع ودفع المضارِّ، فإذا هي هباءٌ منثور لا يغني غناءً ولا يردّ غائلة.

بلاغةُ العموم:

العجزُ التّامّ سمةُ كلِّ مزعومٍ

دخل حرف ﴿مِن﴾ على النكرة ﴿شَيۡءٖ﴾، لبيانِ "عموم انتفاء النَّفع والإغناء، أي: لم تغنِ عنهم شيئًا، ولو قليلًا من الإغناء، ولم تنفعهم لا في قليل ولا كثير"(1)، ويدخل ذلك الحسّيّات والمعنويّات، وإغناء الجلبِ وإغناء الدَّفع، فكلُّ ما يصدق دخولُه تحت لفظ ﴿شَيۡءٖ﴾ فلا تُغني عنه.

معنى ﴿لَّمَّا﴾ وفائدتها:

معنى ﴿لَّمَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ الظَّرفيَّة

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/271.

تمام الحسرة والنَّدامةِ عند تلاشي الآمال الزّائفة ووقوعِ الآلام الرّائجة

الحينيَّة، وهي متعلّقة بالفعل ﴿أَغۡنَتۡ﴾، أو هي رابطة هلاك هؤلاء بمجيء أمر ربك، والمراد: عذابه تعالى ونقمته بهؤلاء المكذِّبين، وهي "تَخْتَصّ بالماضي، فتقتضي جملتين وُجدت ثانيتهما عِنْد وجود أولاهما، نَحْو: لما جاءَني أكرمته، ويُقال فيها: حرف وجود لوُجود"[1]، فأفاد استعمالُ ﴿لَّمَّا﴾ تصوير الحسرةِ عند مجيءِ العذابِ، لأنَّهم إنَّما ينتظرون ويتأمّلون نصرة الآلهة عند مجيءِ العذاب، فلما جاء أمر اللّه تعالى ولم تُغنِ شيئًا كان المشهدُ مشهدَ حسرةٍ وندامة، وهذا فائدة استعمالِها في هذا السّياق.

بلاغة الاستعارةِ:

عدل الله قادم يراه المعذَّبون ويتخيَّله السّامعون

أُسند المجيءُ للأمر في قوله تعالى: ﴿لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ والأمر لا يجيءُ، وإنَّما الذي يجيء هو الكائن الحيُّ، فشبَّه الأمر بكائنٍ حيٍّ وحذف المشبَّه به وذكر المشبَّه مع ذكرِ لازمٍ من لوازمه، على سبيل الاستعارةِ المكنيَّة الأصليّة، تشخيصًا للعذابِ القادم، وتهويلًا من مآله، وقد يكون من قبيل الاستعارة التَّصريحيّة التَّبعيّة، وذلك بأن يشبّه وقوع العذاب بالمجيءِ، وبلاغة هذا الإسناد كامنة في تصوير المعنوي المعقول بصورة المحسوس دلالة على مجيئه ووقوعه لا محالة إلى جانب ما أفاده التَّعبير بالاستعارة من المبالغة في وصف جرم ما ارتكبه هؤلاء الذين اتَّخذوا آلهة من دون اللّه تعالى، لدرجة أن العذاب هو من جاءهم تنكيلًا بهم وعقوبة لهم على كثرة جرمهم.

معنى الواو ودلالتها:

نتيجة حاسمة ومتوقَّعة ورادعةٌ لمن ظنَّ خلافَ الواقع والحقِّ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ عاطفة لهذه الجملة المنفيَّة على الجملة المنفيَّة السّابقة: ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ﴾، وهي من عطف الجمل على بعضها لتشريكها في حكم

(1) ابن هشام، مغني اللبيب: 1/219.

واحد، فلمّا نفى عنهم أوّلًا عدم نفع الآلهة لهم، عاد ليبيِّن لهم النَّتيجة الحاسمة في أنَّ هذه الآلهة ما زادت هؤلاء العابدين إلّا الخسران والبوار.

نكتةُ تنزيلِ غيرِ العقلاءِ منزلةَ العقلاء:

التَّهكُّمُ المليحُ مناسبٌ للتَّبابِ القبيح

جاء التَّعبير في قوله تعالى: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ﴾ بواو الجمع الدّالّة على العقلاء، لكونهم نزَّلوا هذه الآلهة منزلة العقلاء وأعطوها حكمها، فعامل النَّظم الآلهةَ المزعومة معاملة العقلاءِ، زيادةً في التَّهكُّم بمن اعتقد قدرتها على النَّفعِ والدفع، فكان هذا من زيادةِ التَّهكُّم المليح المناسب لزيادةِ التبابِ القبيحِ.

فائدةُ استعمالِ ﴿غَيۡرَ﴾:

عبادةُ غير الله خسارةٌ دائمةٌ لا ربح فيها

أفاد التَّعبيرُ بـ ﴿غَيۡرَ﴾ الزيادةَ في التَّبكيت والخسران والبوار وعدم النَّفع، وكل هذا صار ملازمًا لهم لا ينفكّ عنهم أبدًا، وجُمْلَةُ ﴿وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ علاوةً وارْتِقاءً على عَدَمِ نَفْعِهِم عِنْدَ الحاجَةِ بِأنَّهُم لم يَكُنْ شَأْنُهُم عَدَمَ الإغْناءِ عَنْهُم فحَسْبُ، ولَكِنَّهُم زادَتْهُم تَتْبِيبًا وخُسْرانًا، أيْ زادَتْهُم أسْبابَ الخُسْرانِ[1].

توجيه استعمالِ ﴿تَتۡبِيبٖ﴾ في سياقِها:

الإصـرار على طلب النفع من العجزة عجز وخيم

ظاهِرُ هذا أنَّ أصْنامَهُم زادَتْهُم تَتْبِيبًا لَمّا جاءَ أمْرُ اللّه، لِأنَّهُ عُطِفَ على الفِعْلِ المقيّد بـ "لَمّا" التَّوْقِيتِيَّةِ المُفِيدَةِ أنَّ ذلك كانَ في وقْتِ مَجيءِ أمْرِ اللّه، وهو حُلولُ العَذابِ بهِمْ، ووجْهُ زِيادَتِهِم إيّاهُم تَتْبِيبًا حِينَئِذٍ أنَّ تَصْمِيمَهُم على الطَّمَعِ في إنْقاذِهِم إيّاهُم مِنَ المَصائِبِ حالَتْ دونَهُم ودونَ التَّوْبَةِ عِنْدَ سَماعِ الوعيدِ بالعَذابِ"[2].

توجيه المتشابه اللَّفظي:

التَّبابُ يغلبُ استعمالُه فيما يعلمه المخاطَب بخلاف الخسارة

ورد التَّعبير مع لفظ التَّتبيب بأداة الاستثناء "غير" الدّالة على

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/158.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/158.

الاسميّة والثَّبات والدَّوام، أمّا الآيات الثّلاث التي ورد التَّعبير فيها بلفظ "الخسار" فناسبها مجيء الاستثناء بـ (ما) و(إلّا)، وهذا الاستثناء يستعمل في الشَّيء الذي يجهله المخاطب وينكره، وهاك بيانها حسب ورودها في القرآن الكريم:

أوّلًا: قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء: 82].

لمّا قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ فإنَّ المخاطب هنا علم فائدة نزول القرآن بكونه شفاءً ورحمةً للمؤمنين، وكان يقع في خلده ألّا يكون تذييل الآية على ما ورد فإذا به يرى حكمًا لم يكن يتصوَّره المخاطب فقال: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ فهذا الختام جعل المخاطب في حكم الجاهل به بل ينكره لظنِّه ألّا يكون كذلك الحكم، والمراد بـ " الظّالمين" هنا الكافرون المكذِّبون الواضعون للأشياء في غير موضعها مع كونه في نفسه شفاءً لما في الصُّدور من أدواء الرَّيب وأسقام الأوهام، وقوله: ﴿إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ أي: هلاكًا بكفرهم وتكذيبهم وزيادتهم من حيث إنَّهم كلَّما جدَّدوا الكفر والتَّكذيب بالآيات النّازلة تدريجًا ازدادوا بذلك هلاكًا، وفيه "إيماءٌ إلى أن ما بالمؤمنين من الشُّبه والشكوك المعترية لهم في أثناء الاهتداء والاسترشاد بمنزلة الأمراض، وما بالكفرة من الجهل والعناد بمنزلة الموت والهلاك، وإسناد الزّيادة المذكورة إلى القرآن مع أنَّهم المزدادون في ذلك لسوء صنيعهم باعتبار كونه سببا لذلك، وفيه تعجيب من أمره من حيث كونه مدارًا للشِّفاء والهلاك"[1]. ومن هنا ناسب مجيء الخسار مع أداة الاستثناء (إلّا) الحرفيَّة.

ثانيًا: قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾ [فاطر: 39]

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾ في الآخرة، وجملة ﴿وَلَا يَزِيدُ﴾ بيان وتفسير لقوله سبحانه: ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ﴾ ولزيادة تفصيله نُزِّل منزلة المغاير

(1) الآلوسي، روح المعاني: 15/46.

له، ولولا ذلك لفصِلَ عنه، والتَّكرير لزيادة التَّقرير والتَّنبيه على أن اقتضاء الكفر لكلِّ واحدٍ واحدٌ من الأمرين المقت والخسارة مستقِلٌّ باقتضاء قبحه، ووجوب التَّجنُّب عنه بمعنى أنَّه لو لم يكن الكفر مستوجبًا لشيء سوى مقت الله تعالى الكفر ذلك في قبحه وكذا لم يستوجب شيئًا سوى الخسار لكفى"(1).

وورود التَّعبير في الآية بأداة الاستثناء "إلّا" مقترنًا بالخسار الدّالَّة على الحرفيَّة هو الأنسب بسياق النَّظم خفَّة نطق وبراعة أداء.

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ٢١﴾ [نوح: 21].

ورد هنا التَّعبير أيضًا بأداة الاستثناء "إلّا" في أمر يجهله المخاطب وينكره ﴿قَالَ نُوحٌ﴾ حيث أعيدَ لفظُ الحكايةِ لطولِ العهدِ بحكايةِ مناجاتِهِ لربِّهِ، أي: قالَ مناجياً لهُ تعالَى: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ أيْ: تموّا على عصياني فيما أمرتُهُم بِهِ مع ما بالغتُ في إرشادِهِم بالعظةِ والتَّذكيرِ ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ٢١﴾ أيْ: واستمرّوا على اتِّباعِ رؤسائِهِم الذينَ أبطرَتْهُم أموالُهُم، وغرّتْهُم أولادُهُم وصارَ ذلكَ سببًا لزيادةِ خسارِهِم في الآخرةِ فصاروا أسوةً لهم في الخسارِ وفي وصفِهِم بذلكَ إشعارٌ بأنَّهُم إنَّما اتَّبعوهم لوجاهتهم الحاصلةِ لهم بسببِ الأموالِ والأولاد لا لما شاهدوا فيهم من شُبهةٍ مُصحّحةٍ للاتباعِ في الجملة"(2).

وهنا ورد التَّعبير بأداة الاستثناء "إلّا" الحرفيَّة في أمر يجهله المخاطب وينكره مع أنَّ المعتقد أنَّ العطاء من المال والولد هو محطَّ الزّيادة، إلّا أنَّ الزّيادة هنا خسران وبوار يتناسب مع "إلّا" وما تضفيه على الأسلوب من دقَّة الأداء.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التباب والخسار:

التَبُّ والتَّبابُ: الاستمرار في الخسران، يقال: تَبًّا له وتَبٌّ له، وتَبَّبْتُهُ: إذا قلت له ذلك،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/202 بتصرف.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/40.

التَّباب الخسارُ الكلِّيُّ والخسار ما كان دونه

ولتضمّن الاستمرار قيل: اسْتَتَبَّ لفلان كذا، أي: استمرّ نحو: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾، أي: تخسير"[1]. وهو" مَصْدَرٌ مَحْمولٌ على فِعْلِه من التَّبِّ: أي الخَسارِ. والتَّبابُ: الخُسْرانُ والهَلاكُ، والتَّتْبيبُ: النَّقْصُ والخَسارُ"[2].

الخَسار والخَسارة: الضَّلالُ والهَلاكُ، والخاسِرُ الذي ذَهَبَ مالُهُ وعَقْلُهُ أي: خَسِرَهُما، والخاسِرُ الذي وُضِعَ في تِجارَتِهِ، ومَصْدَرُهُ الخَسارَةُ والخَسْرُ، ويُقالُ: خَسِرَتْ تِجارَتُهُ، أي: خَسِرَ فيها[3].

قال الرّاغب: "الخُسْرُ والخُسْران: انتقاص رأس المال، وينسب ذلك إلى الإنسان، فيقال: خَسِرَ فلان، وإلى الفعل فيقال: خسرت تجارته، قال تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢﴾ [النازعات: 12]، ويستعمل ذلك في المقتنيات الخارجة كالمال والجاه في الدُّنيا، وهو الأكثر، وفي المقتنيات النّفسيّة كالصّحّة والسّلامة، والعقل والإيمان، والثّواب، وهو الذي جعله اللّه تعالى الخسران المبين، ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى تعاطي ما لا يكون به ميزانه في القيامة خاسرًا، وكلا المعنيين يتلازمان، وكلُّ خسران ذكره اللّه تعالى في القرآن فهو على هذا المعنى الأخير، دون الخسران المتعلِّق بالمقتنيات الدّنيويّة والتّجارات البشريَّة"[4].

(1) الراغب الأصفهاني، المفردات: (تبَّ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (تبَّ).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (خسر).
(4) الرّاغب، المفردات: (خسر).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢﴾ [هود: 102]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من الإخبارِ عن الماضي إلى التَّحذير من المستقبل

"لَمّا أَخْبَرَ الرَّسولَ ﷺ في كِتابِهِ بما فعَلَ بأُمَمِ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الأَنْبياءِ لَمّا خالَفوا الرُّسُلَ وردّوا عَلَيْهِم منْ عَذابِ الاِسْتِئْصالِ، وبَيَّنَ أَنَّهُم ظَلَموا أَنْفُسَهُم فحَلَّ بِهِمُ العَذابُ في الدُّنْيا، قالَ بَعْدَهُ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ﴾ فبَيَّنَ أَنَّ عَذابَهُ لَيْسَ بمُقْتَصِرٍ على مَنْ تَقَدَّمَ، بَلِ الحالُ في أَخْذِ كُلِّ الظّالِمِينَ يَكونُ كَذلك"(1)، فالمناسبة بين الآيةِ والسّابقة أنَّ السّابقة بيانٌ لما كان، وهذه الآية تنبيهٌ لما سيكون ممَّن يقتفي أثرَ السّابقين، فهي سنَّة مستمرَّة لا تتبدَّل ولا تتغيَّر ولا تتحوَّل، فمن ظنّ خلافَ ذلك فقد خالف العقل والاعتقاد والحقَّ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَخۡذُ﴾: الهَمْزَةُ والخاءُ والذّالُ أَصْلٌ واحِدٌ تَتَفَرَّعُ مِنْهُ فُروعٌ مُتَقارِبَةٌ في المَعْنَى(2)، والأَخْذُ: حوز الشيء وتحصيله، وذلك تارةً بالتَّناول وتارةً بالقهر ويقال: أخذته الحُمّى، ويعبّر عن الأسير بالأخيذ والمأخوذ، والاتّخاذ افتعال منه، ويتعدَّى إلى مفعولين، ويجري مجرى الجعل فتخصيص لفظ المؤاخذة تنبيه على معنى المجازاة والمقابلة لما أخذوه من النِّعم فلم يقابلوه بالشكر، ويقال: فلان مأخوذ، وبه أَخْذَةٌ من الجن(3)، ومعنى الأخذ في الآية: إنزال العقوبة بالظّالمين.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/59.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).
(3) الرّاغب، المفردات: (أخذ).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تُبيِّن الآيةُ أنَّ ما كان للسّابقين هو سنَّةٌ إلهيَّة، أي: ومثل ذلك الأخذ بالعذاب، وكما أهلكنا أولئك القرون الظّالمة المكذِّبة لرسلنا، كذلك نفعل بأشباههم، فنأخذ القرى ونهلكها وهي في حالة الظُّلم الشَّديد، إنّ أخذه وجيعٌ شديد لا يرجى منه الخلاص، وهو إنذار وتحذير من سوء عاقبة الظُّلم ومعنى: إنَّ أخذه أليم شديد، أي: عقوبته لأهل الشِّرك موجعة غليظة.

سنَّةُ الله تعالى في الظّالمين لا تتبدَّل ولا تتحوَّل

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الواو ودلالتها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ عاطفة لهذه الجملة الخبريّة على الجملة الخبريّة في قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾، لتشريكهما في حكم إعرابيٍّ واحد واتّفاقهما في أداء المعنى المراد وهو بيان عاقبة الظّالمين ومآلهم وسوء مصيرهم.

عاقبةُ الظّالمين واحدةٌ

غرضُ التَّشبيه في الآية:

معنى التشبيه في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، أي: ومثل ذلك الأخذ والإهلاك للظّالمين السّابقين يكون أخذ ربِّك وعقابه لكل ظالم يأتي من بعدهم، وينهج نهجهم، "والتَّشْبيهُ في الكَيْفيَّةِ والعاقِبَةِ"[1]، أي: كيفية أخذ الظّالمين، وعاقبةُ ذلك في الدُّنيا والآخرةِ، والغرض من ذلك ارتداعُ المخاطَبين عن الظُّلم والكفر، واتِّقاء عقابِ اللّه وعذابِه.

ردْعُ الظّالمين الكافرين عن الاستمرارِ في غيِّهم

دلالة اسم الإشارة:

جاء التَّعبيرُ باسم الإشارةِ للبعيدِ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ "للإشارَةِ إلى المَذْكور مِنِ اسْتِئْصالِ تِلْكَ القُرَى، وهو ما يَدُلُّ عَلَيْهِ

شـدَّةُ البطش سنَّةُ الله تعالى مع الأمم الظّالمة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/160.

قَوْلُه: ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾، والتَّقْديرُ: وكَذلك الأَخْذُ الذي أَخَذْنا بهِ تِلْكَ القُرَى أَخْذُ رَبِّكَ إذا أَخَذَ القُرَى"(1).

نكتةُ استعمال لفظ الأخذ:

مباغتةُ الظّالمين لونُ عذابٍ

التَّعبير بالأخذ في قوله تعالى: ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾ يومئُ إلى العقاب المباغت السَّريع، ومن هنا يقال: أخذ فلانًا الموتُ إذا نزل به بسرعة وقوّة، فلهذا التَّعبيرِ إيحاءٌ بسرعةِ العقابِ، ومفاجأته للمعاقَبين، فبينما هم غارقون في ضلالهم ومتلبّسون في ظلمهم إذ بهذا العذاب يغشاهم ويستأصلهم إلى جانب ما لهم من العذاب يوم القيامة.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ الأخذ:

الاستعارةُ أبلغ لما فيها من الإحاطةِ والتَّمكُّن

استعير لفظُ الأخذ في قوله تعالى: ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾ للهلاك والعقاب، فصرَّح بالمشبَّه به وهو الأخذ، وحذف المشبّه على سبيل الاستعارة التصريحيّة الأصليّة، وهو أبلغ من الحقيقة، لما فيه من الإحاطة والتَّمكُّن والمباغتة.

معنى الإضافة:

عقابُ الرَّبِّ عنايةٌ بالعباد المظلومين

أُضيف لفظ الأخذ إلى لفظ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾، للإخبار عمّا جرت به سنَّةُ الله تعالى في إهلاك مَنْ تقدَّم من الأمم، ومعنى الإضافة هو حرف (من)، أي: أخذٌ من ربِّك كائنٌ.

وإضافة الرَّب إلى ضميره ﷺ تكريمٌ وتعظيمٌ وتذكير له "بوصف الإحسان ما له إليه من البرِّ، لئلا يخاف على قومه من مثل هذا الأخذ"(2).

نكتةُ اختيارِ لفظِ الرُّبوبيَّة:

الرُّبوبيَّة تقتضي عقاب الظّالم وتربية المحسن

اختير لفظ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿أَخْذُ رَبِّكَ﴾ دون استعمال الأسماء الدّالّةِ على القهر والجبروت وهي في الظّاهر أليق، للإشارةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/160.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 9/378.

"إلى أنَّه سبحانه يربّيك أحسن تربية في إظهارك على الدّين كلّه وانقياد العظماء لأمرك، وذلِّ الأعزّة لسطوتك، وخفض الرؤوس لعلوّ شأنك، فلا تتكلّف أنت شيئًا من قصد إجابتهم إلى إنزال آية أو ترك ما يغيظ من إنذار ونحو ذلك"[1]. والتعبير بالرَّب يعكس ما كانوا عليه من ظلم حتى أغضبوا الرحمن، وفيه تحذير من الغرور في سعة رحمة الله تعالى فالله تعالى قال: ﴿۞نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [الحجر: 49 - 50].

دلالة إذا الظَّرفيَّة:

الاعتبارُ بالأخذِ عند تحقُّقِه

(إذا) في قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ "ظَرْفٌ لِما مَضَى، وهو إخْبارٌ عَمّا جَرَتْ بِهِ عادَةُ اللهِ في إهْلاكِ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الأُمَمِ"[2]، فالظَّرفُ يُعيِّن وقت الاعتبارِ وهو وقت تحقُّقِ الأخذِ بالعقابِ الجازم، والعذابِ الهالكِ.

توجيهُ المجازِ في لفظِ القرى:

المجاز إمّا أن يكونَ حذفًا أو مرسلًا

المراد بالقرى في قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ أهلها، فهي على المجازِ بحذفِ المضاف وإقامةِ المضاف إليه، والتَّعبير بالقرى أبلغُ من ذكر الأهل، وذلك لدلالتِها على العموم والشُّمولِ، فيدخل فيها البنيان والأشجار وكل ما تعلَّق به أهلُها.

أو نجعلها على سبيل المجاز المرسل لعلاقة المحلّية، حيث أطلق المحلّ وأريد الحالُّ فيها.

فائدةُ الجملةِ الحاليَّة:

الظُّلمُ علَّةٌ كلِّ عقوبةٍ وعذاب

جملة ﴿وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ﴾ حاليَّةٌ من ﴿ٱلۡقُرَىٰ﴾، والواو فيها واو الحال، "وفائدة هذه الحال، الإشعار بأنَّ عقابهم كان بسبب ظلمهم، وفي ذلك ما فيه من التَّحذير لكل ظالم لا يبادر بالإقلاع عن ظلمه قبل

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/378.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/261.

فوات الأوان، والمراد بالظُّلم ما يشمل الكفر وغيره من الجرائم والمعاصي التي نهى الله عنها، كالكذب وشهادة الزّور، وأكل أموال النّاس بالباطل"[1].

بلاغة الفصل:

بيانُ الجملِ تحذير شديد اللهجة لكل مقيم على الظُّلم

فُصِلَت جملةُ ﴿إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ عن السّابقةِ لكمال الاتِّصال لكونها بيانًا وتفسيرًا لمضمون الجملة السّابقة، فالجملة بيَّنت أنَّ أخذ الله تعالى موجعٌ وشديد ولا خلاصَ منه، وهو إنذارٌ من سوء عاقبة الظُّلم، وفيها إشارة إلى وجه الشَّبه في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾، إذ فيها معنى التَّعليل، أي: مثل ذلك الأخذ العظيم أخذ ربك عند أخذه القرى، لأنَّه إذا أخذها فأخذه أليم شديد.

توجيه المجاز:

مجازٌ عقليٌّ لعلاقةِ المفعوليَّة

في قوله تعالى: ﴿أَلِيمٞ﴾ مجازٌ عقليٌّ لعلاقة المفعوليَّة، والمعنى: مؤلم قاطع للآمال مالئ البدن والرُّوح بالنَّكال والهوان، وعبَّر بأليم دون مُؤلِم لأنَّ المبالغة حاضرةٌ في السّياق، فهو مؤلمٌ للمعذَّبين لأنَّه أليم.

نكتة الجمع بين صفتي الألم والشِّدة:

اجتماعُ الألم والشِّدَّةِ إهلاكٌ بليغٌ وعذابٌ لديغٌ

الجمع بين هاتين الصِّفتين ﴿أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ فيه من المبالغة في التَّهديد والتَّحذير ما فيه، ودلَّ على أنَّ هذا العذاب بلغ الغاية في الألم والشِّدة، ومن تفكّر في هذا ولم يعمل له حسابًا تعكَّرت حياته وفارقته لذّاته، قال الإمام الفخر الرازي: "فوصَفَ ذلك العَذابَ بالإيلامِ وبالشِّدَّةِ، ولا مُنَغِّصَةَ في الدُّنْيا إلّا الألَمَ، ولا تَشْديدَ في الدُّنْيا وفي الآخِرَةِ، وفي الوَهْمِ والعَقْلِ إلّا تَشْديدَ الألَمِ"[2]، فبين الصِّفتين تعاضدٌ وتناصرٌ في إظهار معنى هذا العذاب، فليس كلُّ أليم شديدًا، ولا كلُّ شديدٍ أليمًا، فإذا اجتمعتا في شيءٍ واحدٍ أهلكتْه إهلاكًا بالغًا.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/272.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 9/59.

بلاغةُ التَّذييل:

التَّـعـريـضُ بالمخاطَبين إلى يوم القيامةِ

المَقْصودُ من التَّذْييلِ ﴿إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ التَّعْريضُ بتَهْديدِ مُشْرِكي العَرَبِ منْ أَهْلِ مَكَّةَ وغَيْرِها، وفيه من إنذار الظّالم ما لا يخفى كما ورد في الصحيحين عنه ﷺ: «إنَّ اللّه ليُمْلي لِلظّالم حَتَّى إذا أخَذَهُ لم يُفْلِتْهُ» قالَ: ثُمَّ قَرَأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأخذ والانتقام:

الأخذ فعلٌ عامٌّ أمّا الانتقام فهو ردٌّ على ظلمٍ سابقٍ متوعَّدٍ

الأَخْذُ: حوز الشيء وتحصيله، وذلك تارةً بالتَّناول وتارةً بالقهر، ويقال: أخذته الحمَّى، ويعبّر عن الأسير بالأخيذِ والمأخوذ، والاتِّخاذ افتعال منه، ويعدَّى إلى مفعولين، ويجري مجرى الجعل فتخصيص لفظ المؤاخذة تنبيه على معنى المجازاة والمقابلة لما أخذوه من النِّعم فلم يقابلوه بالشُّكر[2].

والأخذ مصدر أخذت بيدي، ويستعار فيقال: أخذه بلسانه إذا تكلَّم فيه بمكروه[3].

الانتقام من نقم: نقمت الشَّيء ونقمته إذا نكرته إمّا باللِّسان وإمّا بالعقوبة، والنِّقمة: العقوبة[4]، والانتقام سلب النِّعمة بالعذاب، والانتقام نقيض الإنعام، والنِّقمة لا تكون إلّا جزاء وعقوبة، وأصلها شدَّة الإنكار تقول: نقمت عليه الأمر إذا أنكرته عليه وقد تسمّى النِّقمة بلاء[5].

الأليم والشديد:

الأَلَمُ: الوجَعُ، والأليمُ: المُؤلِم الموجِعُ، والعَذاب الأليمُ: الذي يَبْلغ

(1) البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب التفسير، بابُ قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ﴾ [هود: 102].
(2) الرّاغب، المفردات: (أخذ).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 144.
(4) الرّاغب، المفردات: (نقم).
(5) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 254 بتصرف.

إيجاعُهُ غايَةَ البُلوغِ، وإذا قُلْتَ عَذاب أليمٌ فهو بمَعْنَى مُؤلِم، والتَّألُّم: التَّوجُّع، والإيلامُ: الإيجاعُ"[1].

والشَّدُّ: العقد القوي، يقال: شَدَدْتُ الشّيء: قوّيت عقده، والشِّدَّةُ تستعمل في العقد، وفي البدن، وفي قوى النّفس، وفي العذاب، والشَّديدُ والمُتَشَدِّدُ: البخيل فالشَّديدُ يجوز أن يكون بمعنى مفعول، كأنَّه شدّ، كما يقال: غلّ عن الأفضال ويجوز أن يكون بمعنى فاعل، فالمُتَشَدِّدُ كأنه شدّ صرّته وشَدَّ فلان واشْتَدَّ: إذا أسرع"[2].

الأليم العذابُ البالغُ راحة الأبدانِ فمنغِّصها، والشديد المستحكم من المعذَّب

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 254 بتصرف.
(2) الرّاغب، المفردات: (شدَّ).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ
النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾

[هود: 103 - 104]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

عـذابُ الدُّنيا لحفظِ المؤمنين لا لمـجـازاة الظّالمين

هاتان الآيتان متّصلتان بما قبلهما "من أجل بيان العبرة من قصص الأمم الظّالمة، فبعد أن ذكر اللّه تعالى العبرة من إهلاك الأمم الظّالمة في الدُّنيا، ذكر هنا العبرة بجزاء الآخرة لكل من الأشقياء والسُّعداء، وهي إقامة الدَّليل على صدق الأنبياء وصدق وعد اللّه في الآخرة، والتَّرهيب من عصيان اللّه والكفر به"(1)، فالمناسبة بين هاتين الآيتين والسّابق هو إردافُ الحديثِ عن عذابِ الآخرةِ بعد الحديثِ عن عذاب الدُّنيا، وفيه دفع توهّم أنَّ العذابَ النّازلَ بالنّاس في الدُّنيا هو جزاؤهم، بل هو بدايتهم، ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّشْهُودٌ﴾: "الشّينُ والهاءُ والدّالُ أصْلٌ يَدُلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإعْلامٍ"(2)، والشهيد: هو الذي لا يَغيبُ عَنْ عِلْمه شيءٌ، والشَّهادَة خَبرٌ قاطعٌ وقَوْلُهُ تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾، أي: مَحْضورٌ يَحضُره أهل السماءِ والأرض، ومثْلُه: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء: 78]"(3).

2) ﴿لِأَجَلٍ﴾: الأجل الوقت المضروب لانقضاء الشَّيء، ولا يكون

(1) الزحيلي، التفسير المنير: 12/147.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (شهد).

أجلًا بجعل جاعل، وما علم أنه يكون في وقت فلا أجل له إلا أن يحكم بأنَّه يكون فيه، وأجلُ الإنسانِ هو الوقت لانقضاء عمره، وأجل الدَّين محله وذلك لانقضاء مدة الدَّين، وأجل الموت وقت حلوله، وذلك لانقضاء مدَّة الحياة قبله، فأجل الآخرة: الوقت لانقضاء ما تقدَّم قبلها قبل ابتدائها[1].

3) ﴿مَّعۡدُودٖ﴾: من عَدَّ "والعَدَدُ: آحاد مركّبة، وقيل: تركيب الآحاد، وهما واحد فذِكْرُهُ للعَدَدِ تنبيه على كثرتها، والعَدُّ ضمُّ الأعْدادِ بعضها إلى بعض، ويتجوّز بالعَدِّ على أوجه، يقال: شيءٌ مَعْدودٌ ومحصور، للقليل مقابلة لما لا يحصى كثرة، وعلى ذلك: ﴿إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ﴾ [البقرة: 80]، أي: قليلة، لأنّهم قالوا: نعذّب الأيّام التي فيها عبدنا العجل، ويقال على الضِّدِّ من ذلك، نحو: جيشٌ عَديدٌ: كثيرٌ، وإنهم لذو عَدَدٍ، أي: هم بحيث يجب أن يُعَدّوا كثرةً، فيقال في القليل: هو شيء غير مَعْدودٍ، والعِدَّةُ: هي الشَّيء المَعْدودُ" والمعنى: أجل محدود منتهٍ[2].

۞ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

العبرةُ العظمى والآيـــةُ الـكبرى خـــوفُ الآخـــرة ورجاءُ الجنَّة

"إنَّ في ذلك القصص المتقدِّم المتضمِّن إهلاك الكافرين وإنجاء المؤمنين لدليلًا واضحًا وحجَّة قويَّة على صدق وعد الله في الآخرة، لمن يؤمن بها ويخاف عذابها، فيتَّقي الكفر والظُّلم والعصيان في الدُّنيا لأنَّه يعلم أنَّ ما أخبر به الأنبياء من البعث والجزاء صدق لا شكَّ فيه، وأنَّ من عذَّب الظّالمين في الدُّنيا قادر أن يعذّبهم في الآخرة، وأنَّ ما أصاب المجرمين في الدُّنيا ما هو إلا أنموذج لعذاب الآخرة"[3].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويَّة، ص: 289.
(2) الرّاغب، المفردات: (عدَّ).
(3) الزحيلي، التفسير المنير: 12/147.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغَةُ الاستئنافِ:

مقصودُ المتقدِّم الاعتبارُ للقادم

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِۚ﴾ استئنافٌ، فالله تعالى أخبر في هذه عن الحشر وما يكون فيه، إشارةً "إلى تحقّق أمر الآخرة، وأنّه مما ينبغي الاهتمام به ردًّا للمقطع على المطلع، وإعلامًا بأنه لا فرق بينه وبين ما تحقّق إيقاعه من عذاب هذه الأمم في القدرة عليه"[1].

غرضُ التأكيدِ:

تنبيهُ المخاطَبين على الحقيقِ بالاعتبارِ

لمّا كان النَّبأ العظيم والقصص والمواعظ التي مرَّت حكاية عن أحوال المتقدِّمين من الأمم وما وقع لهم من عذاب الدُّنيا علامة عظيمة ودلالة قاطعة، وكان وجود الشَّيء عدمًا بالنِّسبة إلى ما نفع له به، نُزِّل غير المنكر منزلة المنكر، فجاء توكيد الخبر لهم بحرفِ ﴿إِنَّ﴾ واللّام، لردِّ هذا الإنكار، فجعل الله تعالى عذاب الدُّنيا علامةً دالَّةً على عذاب الآخرة.

بلاغةُ استعمال اسم الإشارة:

الاعتبارُ في منزلةٍ عاليةٍ لا يبلغُها إلا المؤمنون

أوثر التَّعبير بـ (ذا) مقترنًا بلام البُعد وكاف الخطاب، إشارةً إلى الأَخْذِ المُتَقدِّم، من تعذيبِ الأمم السّابقةِ، وإيثارُ البعيد لبيانِ أنَّه في منزلةٍ بعيدةٍ وعظةٍ وعبرةٍ تحتاج إلى نظرٍ وإجلال.

نكتةُ اختيارِ ﴿لَآيَةً﴾:

شأنُ الآيةِ التَّنبيه على مواضع الاعتبار

اختار النَّظمُ لفظَ ﴿لَآيَةً﴾ إيماءً إلى أنَّ التَّعبير بالآية دومًا يُلقي في النَّفس العبرة المترتِّبة على أمرٍ قد سبق، وما سبق هنا إهلاك القرى الظّالمة.

غرضُ تنكير ﴿لَآيَةً﴾:

نُكِّرَ لفظُ ﴿لَآيَةً﴾ للدّلالةِ على التَّعظيم، أي: آية عظيمة، ودلالة

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/372.

آيةٌ عظيمةٌ لعموم نفعِها

بيِّنة، وإنَّما كان آية له لأنَّه إذا نظر إلى إهلاكه للظّالمين إهلاكًا عامًّا بسبب ظلمهم وإنجائه للمؤمنين، علم أنَّه قادر على ما يريد، وأنَّه لا بُدَّ أن يجازي كلًّا بما فعل(1).

بلاغة التخلُّص في المطلع:

المؤمنون هم المعتبِرون بنزولِ العذابِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ تَخلُّصٌ إلى مَوْعِظَةِ المُسْلِمينَ والتَّعْريضِ بمَدْحِهم بأنَّ مثْلَهُم مَنْ يَنْتَفِعُ بالآياتِ ويَعْتَبِرُ بالعِبَرِ، كَقوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [العنكبوت: 43](2)، وقد جاء التَّعريض في قوله تعالى: ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ قال الزمخشري - رحمه الله -: لعبرة له، لأنَّه ينظر إلى ما أحلّ الله بالمجرمين في الدُّنيا، وما هو إلا أنموذج ممّا أعدَّ لهم في الآخرة، فإذا رأى عظمه وشدّته اعتبر به عظم العذاب الموعود، فيكون له عبرة وعظة ولطفًا في زيادة التَّقوى والخشية من الله تعالى. ونحوه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ۝٢٦﴾ [النازعات: 26](3).

فكأنَّه في هذه الآية يُعرِّضُ بمدح الخائفين الوجلين حين يطرق آذانهم هلاك الأمم السّابقة فينزجرون وترعوي أنفسهم وقلوبهم وجلًا وخشية من لحوق هذا العذاب بهم.

سرُّ إيثار لفظِ الخوف:

مَن خاف أدلج

آثر النَّظم ذكرَ الخوفِ في قولِه تعالى: ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾، والمقصود التَّصديق بعذابِ الآخرة، "لما بينهما من اللُّزوم، ولأنَّ الاعتبار إنَّما ينشأ من الخوف، وذكر هذا القيد لأنَّ مَن أنكر الآخرة وأحال فناء هذا العالم أسند الحوادث إلى أسباب فلكيّة وأوضاع مخصوصة، فلم يعتبر بذلك أصلًا، ولم ينزجر عن

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/372.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/160.
(3) الزمخشري، الكشاف: 2/292.

الضَّلالة قطعا، وقال: إنَّ ما وقع إنَّما وقع لهاتيك الأسباب والأوضاع لا للمعاصي التي اقترفتها الأمم المهلَكة"[1].

فائدة الاعتراض:

التَّنويه بيوم القيامةِ

جاءت هذه الجملة ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ معترضةً للتَّنويه بشأن هذا اليوم، حتَّى إن المتكلِّم يبتدئ كلامًا لأجل وصفه، وهذه الجملة خبر عن حشر الخلائق يوم القيامة.

بلاغةُ تذكير اسم الإشارةِ وتَكراره:

تعظيمُ زمانِ القيامةِ وتهويلُه

"الإشارَة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الآخِرَة لأنَّ ماصدقها يَوْمُ القيامَة، فتَذْكيرُ اسْم الإشارَةِ مُراعاةٌ لِمَعْنَى الآخِرَةِ"[2]، قال البقاعي: "وزاد في الإشارة إلى تهويله بإعادة اسم الإشارة في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي اليوم العظيم الذي يكون فيه عذاب الآخرة"[3].

بلاغةُ استعمالِ الاسميَّةِ:

ثبوتُ الجمعِ يومَ القيامةِ لا فرارَ منه

دلَّ اسمُ المجموعِ في قوله تعالى: ﴿مَّجۡمُوعٞ لَّهُ﴾ على الثّبوت والاستمرار، فدلّ ذلك على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنَّه لا بُدَّ أنْ يكون ميعادًا مضروبًا لجمع الناس، قال الطّاهر بن عاشور: "ومَجيءُ الخَبَرِ جُمْلَةً اسْميَّةً في الإخْبارِ عَنِ اليَوْم يَدُلُّ على مَعْنَى الثَّباتِ، أيْ: ثابِتٌ جَمْعُ اللّه النّاسَ لِأجلِ ذلك اليَوْم، فيَدُلُّ على تَمَكُّنِ تَعَلُّقِ الجَمْعِ بالنّاسِ، وتَمَكُّنِ كَوْنِ ذلك الجَمْعِ لِأجْلِ اليَوْم حَتَّى لُقِّبَ ذلك اليَوْمُ (يوم الجمع) في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ﴾ [التغابن: 9]"[4].

وقال الآلوسي: "عدل عن الفعل - وكان الظّاهر - ليدلّ الكلام على ثبوت معنى الجمع، وتحقُّق وقوعه لا محالة وأنَّ النّاس لا ينفكّون عنه فهو أبلغ من قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ﴾ [التغابن: 9]

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/138.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 12/159.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/381.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/159، 160.

وإيضاحه أنَّ في هذا دلالة على لزوم الوصف ولزوم الإسناد، وفي ذلك على حدوث تعلُّق الجمع بالمخاطبين واختصاصه باليوم ولهذا استدركه بقوله: الجمع فأضاف اليوم إليه ليدلّ على لزومه له وإنَّما الحادث جمع الأوّلين والآخرين دفعة"[1].

فائدة تقديم الجارِّ والمجرور:

علَّةُ جمعِ النّاس الحساب

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَّهُ﴾ لامُ التَّعليل، والمعنى: مجموع النّاس لأجله، ويقدّم المسند على المسند إليه لتخصيصه به وقصره عليه، فالجمع لهذا اليوم لخصوصيّته، إذ هو مجمعُ الخلائق يُجمَعون فيه لأجل محاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم.

فائدة عطف جملة ﴿وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾:

وغـدًا تنكشف الحقائق وتُشْهَدُ الخفايا

"عَطْفُ جملة ﴿وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ على جملة ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾، لِزيادَةِ التَّهْويلِ لِلْيَوْمِ بأنَّهُ يُشْهَدُ، وطويَ ذِكْرُ الفاعِلِ إذِ المُرادُ يَشْهَدُهُ الشّاهِدونَ، إذْ لَيْسَ القَصْدُ إلى شاهِدينَ مُعَيَّنينَ، والإخْبارُ عَنْهُ بهذا يُؤْذِنُ بأنَّهُم يَشْهَدونَهُ شُهودًا خاصًّا وهو شُهودُ الشَّيْءِ المَهولِ، إذْ منَ المَعْلوم أنْ لا يَقْصِدَ الإخْبارَ عَنْهُ بمُجَرَّدِ كَوْنِه مَرْئِيًّا لكِنَّ المُرادَ كَوْنُهُ مَرْئِيًّا رُؤْيَةً خاصَّةً، ويَجوزُ أنْ يَكونَ المَشْهودُ بمَعْنَى المُحَقَّقِ أيْ مَشْهودٌ بوُقوعِه، كَما يُقالُ: حَقٌّ مَشْهودٌ، أيْ عَلَيْهِ شُهودٌ لا يُسْتَطاعُ إنْكارُهُ، واضِحٌ لِلْعِيانِ ويَجوزُ أنْ يَكونَ المَشْهودُ بمَعْنَى كَثيرِ الشّاهِدينَ إيّاهُ لِشُهْرَتِهِ، كَقولِهِمْ: لِفُلانٍ مَجْلِسٌ مَشْهودٌ"[2].

نكتةُ إيثار لفظ الشّهادة:

الشّهادة تقتضي العلم بالمشهود فـتـقـتـضي الحضور

من الإمكان أن يقال في غير القرآن: يوم معروف أو مشهور، أو معلوم أو محضور، أمّا المعروف فهو معروف وإنْ عرفه واحد، والمشهور هو المعروف عند الجماعة الكثيرة، ومن هنا يقال: هذا معروف عند

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/138.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/160.

زيد، ولا يقال: مشهور عنده، ولكن مشهور عند القوم، أمّا المعلوم فالمشهور أخصُّ منه، وذلك أنَّ الشّهادة علم بوجود الأشياء لا من قبل غيرها، والشّاهد نقيض الغائب في المعنى، فالشّهادة علم يتناول الموجود، والعلم يتناول الموجود المعدوم. وأمّا المحضور فإنَّ الحضور لا يقتضي العلم بالمحضور ألا ترى أنَّه يقال: حضره الموت ولا يقال شهده الموت إذ لا يصحّ وصف الموت بالعلم، وأمّا الإحضار فإنَّه يدلّ على سخط وغضب، والشّاهد للشَّيء يقتضي أنَّه عالم به، ولهذا قيل: الشّهادة على الحقوق لأنَّها لا تصحّ إلا مع العلم بها وذلك أنَّ أصل الشّهادة الرؤية وقد شاهدتّ الشَّيء رأيته، والشَّهد: العسل على ما شوهد في موضعه، وقال بعضهم: الشّهادة في الأصل إدراك الشَّيء من جهة سمع أو رؤية فالشّهادة تقتضي العلم بالمشهود[1].

دلالةُ استعمالِ صيغةِ المفعولِ:

تهـويـلُ يـوم القيامةِ بكثرة الـشُّـهـود استـقـصاءً لا غلبةً

استعمال صيغةِ المفعول في قوله تعالى: ﴿مَّشۡهُودٌ﴾ لما فيه من الدّلالة على ثبوت معنى الشّهادة لليوم، والمراد بالمشهود: الذي كثُر شاهدوه، والغرض من ذلك، وصف هذا اليوم بالهول والعظم وتميّزه من بين الأيّام، بأنَّه اليوم الذي يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد[2].

قال الزَّمخشري: "فإن قلت: لأيّ فائدة أوثر اسم المفعول على فعله؟ قلت: لما في اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنَّه يوم لا بدّ من أن يكون ميعادًا مضروبًا لجمع النّاس له، وأنَّه الموصوف بذلك صفة لازمة، وهو أثبت أيضًا لإسناد الجمع إلى النّاس، وأنَّهم لا ينفكّون منه يَوۡمٌ مَشۡهُودٌ أي: مشهود فيه، فاتّسع في الظَّرف بإجرائه مجرى المفعول به.

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 97، 98 بتصرف.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/273.

فإن قلت: فما منعك أن تجعل اليوم مشهودًا في نفسه دون أن تجعله مشهودًا فيه، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ [البقرة: 185]؟ قلت: الغرض وصف ذلك اليوم بالهول والعظم وتميّزه من بين الأيام، فإن جعلته مشهودًا في نفسه فسائر الأيّام كذلك مشهودات كلّها، ولكن يجعل مشهودًا فيه حتّى يحصل التّميّز كما تميّز يوم الجمعة عن أيّام الأسبوع بكونه مشهودًا فيه دونها، ولم يجز أن يكون مشهودًا في نفسه، لأنَّ سائر أيّام الأسبوع مثله يشهدها كلُّ مَن يشهده"(1).

موقع جملة الاعتراضِ في النَّظم:

بيانُ سببِ تأخيرِ البعثِ للحسابِ لا للنِّسيان

وقعت هذه الجملةُ ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ﴾ "مُعْتَرِضَةً بين جملة ذلك ﴿يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ وبين جملة ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ﴾. والمَقْصودُ: الرَّدُّ على المُنْكِرينَ لِلْبَعْثِ مُسْتَدِلّينَ بتَأْخيرِ وُقوعِهِ في حينِ تَكْذيبِهِم بِهِ يَحْسَبونَ أَنَّ تَكْذيبَهُم بِهِ يَغيظُ اللّه تعالَى، فيُعَجِّلُهُ لهُم جَهْلًا منْهُم بمَقامِ الإلَهيَّةِ، فبَيَّنَ اللّه لهُم أَنَّ تَأْخيرَهُ إلى أجَلٍ حَدَّدَهُ اللّه لهُ منْ يَوْمِ خَلْقِ العالَم كَما حَدَّدَ آجالَ الأَحْياءِ، فيَكونُ هذا كَقولهِ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٢٩ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ ۝٣٠﴾ [سبأ: 29 - 30]"(2).

سرُّ استعمال صيغة المضارع:

تجديدُ مفهوم التّأخيرِ في أذهانِ المخاطَبين

يأتي التَّعبير بالفعل المضارع ﴿نُؤَخِّرُهُۥٓ﴾ في موضع الماضي للدّلالة على التَّجدُّد والاستمرار في أذهانِ المخاطَبين، مع استحضار الصّورة الماضية لهذا المؤخَّر، ومجيء الفعل بالنون للتعظيم والتَّشريف.

(1) الزَّمخشري، الكشاف: 2/293، 292.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/160.

انتظارُ الأجلِ لأجلٍ عندَ الله معلوم

معنى اللّام ودلالتها:

"الأَجَلُ غايَةُ الوقْتِ في مَحَلِّ الدَّيْنِ وغَيْرِهِ"(1)، وهو الوقت المضروب لانتهاء مدَّة معيَّنة، فأجل الإنسان: هو الوقت المحدَّد لانقضاء عمره(2). واللّام في قوله تعالى: ﴿لِأَجَلٍ﴾، إمّا أن تكون للتَّوقيتِ، وقيل: تدل على الغرض وأنَّ الحكمة اقتضت التَّأخير ولذا عدل عن إلى إليها(3).

نكتةُ إيثارِ لفظِ ﴿مَّعۡدُودٍ﴾:

المعدود المضروب لانتهاء مدّة لا زيادة فيها ولا نقصان

المراد بالمعدود، المعلوم عند الله تعالى، فهو على حذف مضاف ومعناه: إلّا لانتهاء مدَّة معدودة، والعَدَدُ: آحاد مركّبة، وقيل: تركيب الآحاد، وهما واحد، فذِكْرُهُ للعَدَدِ تنبيهٌ على كثرتها، والعَدُّ ضمُّ الأَعْدادِ بعضها إلى بعض، ويتجوّز بالعَدِّ على أوجه، يقال: شيءٌ مَعْدودٌ ومحصور، للقليل مقابلة لما لا يحصى كثرة، ويقال على الضّدّ من ذلك، نحو: جيشٌ عَديدٌ: كثيرٌ، وإنَّهم لذو عَدَدٍ، أي: هم بحيث يجب أن يُعَدّوا كثرةً، فيقال في القليل: هو شيء غير مَعْدودٍ"(4)، فلمّا قال معدود، فُهِم أنَّ المراد هو عدُّ الأيّام بدقَّةٍ.

قال ابن منظور: "وإنَّما سُمّي الحِسابُ في المُعامَلاتِ حِسابًا، لأنَّهُ يُعلم بهِ ما فيهِ كِفايةٌ ليْسَ فيهِ زيادةٌ على المِقْدار ولا نُقْصان والمَعْدود مَحْسوبٌ وحَسَبٌ أيضًا، وهو فعَلٌ بمَعْنَى مَفْعولٍ، مثْلُ نَفَضٍ بمَعْنَى مَنْفوضٍ، ومنْهُ قَوْلُهم ليَكُنْ عَمَلُكَ بحَسَبِ ذلك، أي على قَدْرِه وعَدَدِه"(5). فاستعمال المعدود هنا أبلغ لكونه مقيّدًا بمدَّة منتهية معيَّنة لا زيادة فيها ولا نقصان.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أجل).
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/274.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/139، 138.
(4) الرّاغب، المفردات: (عدَّ).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (حسب).

الكناية في قوله: ﴿مَّعۡدُودٖ﴾:

أُطْلِقَ التَّعبير هُنا بلفظ الأجل المعدود كِنايَةً عَن المُعَيَّن المَضبوط بحَيْثُ لا يَتأَخَّرُ ولا يَتَقَدَّمُ لِأَنَّ المَعدودَ يَلْزَمُهُ التَّعَيُّنُ، أو كِنايَةً عَن القرب[1]، "فالعَدُّ كناية عن القلة، وقد يجعل كناية عن التَّناهي، والأجل عبارة عن جميع المدَّة المعيَّنة للشَّيء، وقد يطلق على نهايتها"[2].

كُـلُّ مـعـدودٍ قـريـبٌ بشرى للمظلومين

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشُّهود والحضور والتَّحقُّق:

الشُّهودُ حضورٌ مرتبطٌ بالعلم، والحضورُ لا يُشترط فيه العلم، والتَّحقق إثباتُ المشهود به

الشُّهود: الشهيد هو الذي لا يَغيبُ عَنْ عِلْمه شيءٌ، والشَّهادَة خَبَرٌ قاطعٌ[3]، والحُضورُ: نَقيضُ المَغيب والغَيْبَة[4].

فالمشهود يقتضي حضورًا قويًّا بعلم، وذلك أن أصل الشَّهادة إدراك الشيء بالرؤية أو السّماع، فالشهادة تقتضي العلم بالمشهود، والحضور لا يقتضي العلم بالمحضور، ألا ترى أنَّه يقال: حضره الموت، ولا يقال: شهده الموت، إذ لا يصحّ وصف الموت بالعلم، وأمّا الإحضار فإنَّه يدلّ على سخط وغضب، والشاهد قوله تعالى: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٦١﴾ [القصص: 61].

أمّا التَّحقّق: فأصل الحَقّ: المطابقة والموافقة، والحقيقة تستعمل تارة في الشَّيء الذي له ثبات ووجود، وتارة تستعمل في الاعتقاد كما تقدّم، وتارة في العمل وفي القول[5].

وممّا سبق يتبين دقّة البلاغة القرآنية في اصطفاء لفظ ﴿مَّشۡهُودٞ﴾ للدّلالة على الحضور الجماعيّ، والإدراك الحقيقي، واليقظة التامّة.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/160.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/139، 138 بتصرف.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (شهد).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (حضر).
(5) الرّاغب، المفردات: (حقّ) بتصرف.

المــعــدود: هو الأجـل المعلوم المـحـدَّد جملةً وتـفـصـيـلًا والمـحـسـوب: جمع لما تحصّل

المعدود والمحسوب:

المعدود هو الأجل المعلوم المحدَّد بمدَّة معيَّنة فلا يزيد عليها ولا ينقص عنها ولا يتأخّر، ويقال: شيء معدود ومحصور للقليل مقابلة لما لا يُحصَى كثرة(1).

والمحسوب: من الحساب، وإنَّما سُمّي الحِسابُ في المُعامَلاتِ حِسابًا، لأنَّهُ يُعلم بِهِ ما فيهِ كِفايةٌ لَيْسَ فيهِ زيادةٌ على المِقْدار ولا نُقْصان، والمَعْدود مَحْسوبٌ وحَسَبٌ أيضًا، وهو فعَلٌ بمَعْنَى مَفْعولٍ، مِثْلُ نَفَضٍ بمَعْنَى مَنْفوضٍ، ومنْهُ قَوْلُهُمْ: لِيَكُنْ عَمَلُكَ بحَسَبِ ذلك، أي على قَدْرِه وعَدَدِه"(2). فالمعنى المحوريّ لحسب هو جمع ما هو منتشر في حيّز يضمّه حتى يمتلئ به(3).

كما أنَّ المعنى المحوريّ لعدَّ هو توالي جنس الشيء متّصلًا منضبطًا فيكثر، ومنه عَدّ الشيء يَعُدّه أحصاه؛ أي: بيَّنَ وضبط كثرة أفراده واتّصال طولها، إذ العدّ يتمّ بسَردها واحدًا واحدًا ﴿فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ٨٤﴾ [مريم: 84] يعني أنَّ الأنفاس تُحْصَى إحصاءً ولها عدد معلوم ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: 34]، وفي الإحصاء حَصْرُ الشيء عَدًّا ببلوغ آخر ما هو منه، في حين أنَّ العدّ سَرْدُ بعض الأشياء تِلْو بعضها (الموجود منها) ولا يستلزم بلوغ آخر جنسها(4).

فالملاحظ أنّ المعدود والمحسوب لفظان متقاربان في المعنى، غير أنّ للسّياق القرآنيّ مرآته الصافية في استخلاص الفروق الدقيقة بين الألفاظ، فالمعدود فيه معنى المقدَّر جملةً وتفصيلًا، والمحسوب هو المجموع.

(1) الرّاغب، المفردات: (عدَّ) بتصرف.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (حسب).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (حسب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عدَّ).

﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ١٠٥﴾

[هود: 105]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد ذكرِ الموعدِ يتجلَّى ذكرُ ما فيه

اتَّصلت هذه الآية "بما قبلها من أجل بيان العبرة من قصص الأمم الظّالمة، فبعد أن ذكر اللّه تعالى العبرة من إهلاك الأمم الظّالمة في الدُّنيا، ذكر هنا العبرة بجزاء الآخرة لكل من الأشقياء والسُّعداء، وهي إقامة الدليل على صدق الأنبياء وصدق وعد اللّه في الآخرة، والتَّرهيب من عصيان اللّه والكفر به"(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَكَلَّمُ﴾: "الكافُ واللّامُ والميمُ أصْلانِ: أحَدُهُما يَدُلُّ على نُطْقٍ مُفْهِمٍ، والآخَرُ على جِراحٍ"(2)، أي: تتكلَّم من الكلام، وهو النُّطق بما يجولُ في النَّفس وما تضمره القلوب، قال الرّاغب: الكلْمُ: التأثير المدرك بإحدى الحاسّتين، فالكَلامُ: مدرك بحاسّة السّمع، والكَلْمُ: بحاسّة البصر فالكَلامُ يقع على الألفاظ المنظومة، وعلى المعاني التي تحتها مجموعة(3)، والمقصود في الآيةِ هو الكلام المنطوق، أي: لا تتكلّمُ نفسٌ بشيءٍ إلا بإذن اللّه تعالى.

2) ﴿شَقِيٌّ﴾: "الشّينُ والقافُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ أصْلٌ يَدُلُّ على المُعاناةِ وخِلافِ السُّهولَةِ والسَّعادَةِ"(4) شقا: الشَّقاءُ والشَّقاوةُ، بالفَتْحِ: ضدُّ السَّعادَةِ، "(5)، والشقيّ هو الذي دخل النّار خالدًا فيها.

(1) الزحيلي، التفسير المنير: 12/146.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كلم).
(3) الرّاغب، المفردات: (كلم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شقو).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (شقا).

3) ﴿وَسَعِيدٞ﴾: "السّينُ والعَيْنُ والدّالُ أَصْلٌ يَدُلُّ على خَيْرٍ وسُرورٍ"[1]، والسَّعيد هو الشَّخص الذي لازمته السَّعادة فصار متلبِّسًا بها، ولازمته الأحوال الحسنة الكريمة وذلك بسبب إيمانه وما يفعله من الصّالحات، قال الرّاغب: "السَّعْدُ والسَّعادَةُ: معاونة الأمور الإلهيّة للإنسان على نيل الخير، ويضادّه الشّقاوة، يقال: سَعِدَ وأَسْعَدَهُ اللّه، ورجل سَعيدٌ، وقوم سُعَداءُ، وأعظم السّعادات الجنّة"[2]، والسعيد هو الذي دخلت في قلبه السَّعادة الأبديَّة في جنّة اللّه الخالدة.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يوم القيامة تخرسُ الألسنُ وينقسمُ النّاسُ أشقياءَ وسعداء

يوم يأتي يوم القيامة، لا يتكلّم أحدٌ إلا بإذن اللّه تعالى، فهو صاحب الأمر والنَّهي، ولا يملك أحدٌ فيه قولًا ولا فعلًا إلا بإذنه، فمن أهل الجمع من النّاس في ذلك اليوم شقيٌّ معذَّبٌ لكفره وعصيانه، ومنهم سعيدٌ منعَّمٌ في الجنانِ لإيمانه واستقامته، أخبر تعالى: ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧﴾ [الشورى: 7]، فمن أريد له الشَّرُّ فعملَ الشَّرَّ فهو من أهل الشَّقاوة، ومن أريد له الخيرُ فعملَ الخيرَ، فهو من أهل السَّعادة، وكلٌّ ميسّرٌ لما خُلق له[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

علَّةُ الفصل:

بيانُ الآخرةِ بأنَّها سعدٌ للمؤمنين وشقاءٌ للكافرين

فُصِلَت هذه الآيةُ ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ﴾ عن سابقتِها لكمالِ الاتِّصال، لكونها بيانًا وتفسيرًا لها، فجاءت "تَفْصيلًا لِمَدْلولِ جملة ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾، وبيَّنَتْ عَظَمَةَ ذلك اليَوْم في الشَّرِّ والخَيْرِ تَبَعًا لذَلِك التَّفْصيل، فالقصد الأوَّلُ منْ هذه الجملة هو قَوْلُهُ: ﴿فَمِنۡهُمۡ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سعد).
(2) الرّاغب، المفردات: (سعد).
(3) الزحيلي، التفسير المنير: 12/148.

﴿شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ وما بَعْدَهُ، وأمّا ما قَبْلَهُ فتَمْهيدٌ له أفْصَحَ عَنْ عَظَمَةِ ذلك اليَوْمِ"(1).

معنى ﴿يَوْمَ﴾ ودلالةُ استعمالِها:

اليوم بمعنى الحين وهو حينٌ مهولٌ عظيم

معنى ﴿يَوْمَ﴾ منْ قَوْلِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ مُسْتَعْمَلٌ في مَعْنَى (حينَ) أو (ساعَةَ)، وهو اسْتِعْمالٌ شائعٌ في الكَلامِ العَرَبيِّ في لفظ (يَوْم) و(لَيْلَة) تَوسُّعًا بإطْلاقِهما على جُزْءٍ منْ زَمانِهما، إذْ لا يَخْلو الزَّمانُ منْ أنْ يَقَعَ في نَهارٍ أو في ليْلٍ، فذلك يَوْمٌ أو ليْلَةٌ فإذا أطلقها هذا الإطْلاقَ لم يُسْتَفَدْ منْهُما إلّا مَعْنَى (حينَ) دونَ تَقْديرٍ بمُدَّةٍ ولا بنَهارٍ ولا ليْلٍ، فقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ مَعْناهُ: حينَ يَأْتي، وضَميرُ (يَأْتي) عائِدٌ إلى ﴿يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾، وهو يَوْمُ القيامَةِ، والمُرادُ بإتْيانِه وُقوعُهُ وحُلولُهُ"(2).

غرض تقديم الظَّرف على عامله:

من وسائل النَّجاة أن تحسنَ قَدْرَ الشيءِ حقَّ قدره

قُدِّم الظَّرف: ﴿يَوْمَ﴾ على عامله للاهتمام به، ولفت النَّظر إليه، والمقام يستدعي تقديمه إذ هو مقام تفخيم شأن هذا اليوم وتعظيم أمره ليحذره النّاس ويقدروا له قدره.

توجيه قراءتي ﴿يَأْتِ﴾، (يأتي):

يومٌ جمع بين المختلفاتِ خفَّةً وثقلًا، كلٌ بحسبه

قرأ أبو عمرو وعاصم وحمزة ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ "بغير ياء، ونحوه قولهم: لا أدر، حكاه الخليل وسيبويه، وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل"(3).

قال الآلوسي: "ووجه حذفها في الوقت التشبيه بالفواصل، ووصلًا ووقفًا التخفيف"(4). وكأنّي أرى أنَّ حذفها جاء تخفيفًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/161.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/161.
(3) الزمخشري، الكشاف: 2/293.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 12/140.

وتسريعًا لعرض موقف القيامة وما فيه من أهوال فهو يمرُّ سريعًا على السُّعداء بطيئًا ثقيلًا على الأشقياء.

وأمّا مَن قرأها بإثبات الياء فإنَّما نظر إلى إشباع الفعل بإثبات يائه مع كسره تصويرًا لهول الموقف وطوله، وما يعتريه من الحساب والجزاء وإثبات الأعمال ونفيها والإشهاد على ذلك أمامه ﷻ فناسب ذكر الياء واختلف في مرجع ضمير الإتيان فقيل: للجزاء، وقيل يعود عليه ﷻ، وفيه من تفخيم هذا اليوم وتعظيمه ما فيه، فمَن قرأها مثبتة فلمجيئها على أصل الفعل فلا ناصب ولا جازم هنا.

فائدة الاستئناف في قوله: ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾:

قطعُ الأنفاسِ واكتفاءٌ بالأهماس

وردت هذه الجملة ابتدائيَّة مستأنفة استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن سؤال في الجملة السّابقة ماذا يحدث من إتيان هذا اليوم؟ فجاء الجواب: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾، ليُزيلَ هذا الإبهام ويجيب عن هذا السُّؤال، والمعنى: لا تتكلَّم نفس حين يأتي هذا اليوم المشهود الذي جمع اللّه فيه الخلائق للعرض والحساب، وهو اليوم الذي أخَّره اللّه وضربه فانقضى أجله كما اقتضته الحكمة الإلهيَّة لبدء الفصل والجزاء.

دلالة حذف التّاء:

الإشـارةُ إلى حذفِ الكلام عند إتيانِ الحساب

حُذفت إحدى التاءين في الفعل (تتكلَّم) تخفيفًا، و"إشارة إلى أنَّ شدَّة هوله تمنع أهل الموقف الكلام أصلًا في مقدار ثلثيه، ثم يؤذن لهم في الكلام في الثُّلث الآخر بدلالة المحذوف وقرينة الاستثناء، فإنَّ العادة أن يكون المستثنى أقلّ من المستثنى منه ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾ ولو أقلَّ كلام بدلالة حذف التّاء"[1]، وهذا من باب الإشارةِ التي تُستملح ولا يُطلبُ لها الدَّليل القاطع.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/275، 274.

توجيه قراءة ﴿لَا تَكَلَّمُ﴾ بتشديد التاء في الوصل بالمد المشبع:

شَدَّةٌ تصوِّرُ شِدَّةً

قرأ البزّيُّ بمدّ (لا) وإشباعها مع تشديد التّاء من الفعل ﴿تَكَلَّمُ﴾ تصويرًا لهول هذا اليوم وتفخيمًا لأمره، وكأنَّه يعرض للسّامع هذا العرض مع لفت ذهنه إلى ما يلي هذا المدَّ، ثم يوقع هذا الذِّهن على أمر مهمٍّ هو عدمُ التَّكلُّم والتعرُّض إلّا بإذنه تعالى، وهذا توجيهٌ مبنيٌّ على الإشارةِ المليحةِ.

سرُّ تنكير ﴿نَفْسٌ﴾:

صمتٌ يعمُّ الجميع

أفاد تنكيرُ لفظِ ﴿نَفْسٌ﴾ العمومَ، حيث "يَعُمُّ جَميعَ النُّفوسِ لِوُقوعِهِ في سياقِ النَّفْي، فشَملَ النُّفوسَ البَرَّةَ والفاجِرَةَ، وشَملَ كَلامَ الشّافِعِ وكَلامَ المُجادِلِ عَنْ نَفْسِهِ، وفُصِّلَ عُمومُ النُّفوسِ باخْتِلافِ أحْوالِها، ولَكِنَّهُ جاءَ على هذا النَّسْجِ لِأجْلِ ما تَخَلَّلَ ذلك مِنْ شِبْهِ الِاعْتِراضِ بقولِه: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ﴾ إلى قولِه: ﴿بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ وذلك نَسيجٌ بَديعٌ"[1].

توجيه الاستثناء:

الكلام ممنوعٌ كلُّه يوم القيامةِ بقطعِ النَّظر عن سببِه

قيل إنَّ الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ "من أعمّ الأسباب، أي: لا تكلّم نفس بسبب من الأسباب إلا بسبب إذنه تعالى وهو متَّصل، وجُوّز أن يكون منقطعًا، ويقدّر ما لا يتناول المستثنى، أي: لا تكلّم نفس باقتدارٍ من عندها إلا بإذنه تعالى، ولا يخفى أنَّ هذا استثناء مفرغ"[2].

توجيه استشكالٍ:

هنا وقفة: "فإن قيل: كيف نجمع بين هذه الآية التي تنفي الكلام عن كلِّ نفسٍ إلّا بإذن الله تعالى وبين قوله تعالى: ﴿۞يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا﴾ [النَّحل: 111]؟

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/161.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/140.

فالجواب: أنّ في يوم القيامة مواقف متعدِّدة، ففي بعضها يجادل النّاس عن أنفسهم، وفي بعضها يكفّون عن الكلام إلّا بإذن اللّه، وفي بعضها يُختم على أفواههم وتتكلَّم أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون، وفي هذه الآية الكريمة إبطال لما زعمه المشركون من أنَّ أصنامهم ستدافع عنهم، وستشفع لهم يوم القيامة"[1].

قال الزمخشري: "فإن قلت: كيف يوفّق بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿۞يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: 111]، وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦﴾ [المرسلات: 35- 36]، قلت: ذلك يوم طويل له مواقف ومواطن، ففي بعضها يجادلون عن أنفسهم، وفي بعضها يكفّون عن الكلام فلا يُؤذن لهم، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلّمون، وفي بعضها: يختم على أفواههم وتتكلَّم أيديهم وتشهد أرجلهم"[2].

معنى الفاء:

تفريعُ المعاني على المعاني

الفاء في قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ للتَّفريع، أي: تفريع أهل الشَّقاوة وأهل السَّعادة على النَّفس التي لا تتكلّم، فلا أحد يتكلَّم إلا بإذن اللّه تعالى، فتُحاسب النُّفوس المحاسبة العادلة، بين شقيٍّ وسعيد.

فائدة تقديم المسند:

النّاسُ في الآخرةِ قسمانِ لا ثالثَ لهما

قُدِّم المسند ﴿فَمِنْهُمْ﴾ على المسند إليه في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، لتخصيص أنواع النّاس يوم القيامة بأنَّ منهم الشَّقيَّ والسَّعيد، وفيه ردٌّ على المعتزلة بأصلهم في المنزلة بين المنزلتين، فمآل الناس إما لشقيٍّ خالدٍ في النّار، وإمّا سعيد خالدٌ في الجنَّة.

بديعُ الاكتفاء:

استُغني عن إعادة كلمة (منهم) في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ

(1) طنطاوي التفسير الوسيط: 7/274.
(2) الزَّمخشري، الكشاف: 2/293.

﴿وَسَعِيدٞ﴾ فلم يقل: (ومنهم سعيد)، لدلالة الأولى عليها، من باب الاكتفاء بلفظٍ عن آخر.

فائدةُ التَّفصيل:

تَفْصيلٌ مُفيدٌ لعقلٍ رشيدٍ

جاء قوله تعالى: ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾ تفصيلًا مفيدًا، لتَفْصيلِ النّاس في قولِه: ﴿مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾، ولَكِنَّهُ جاءَ على هذا النَّسْجِ لِأَجْلِ ما تَخَلَّلَ ذلك مِنْ شِبْهِ الِاعْتِراضِ بقولِه: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ﴾ إلى قولِه: ﴿بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ وذلك نَسيجٌ بَديعٌ"[1].

بديعُ الجامعِ مع التَّفريق:

خطابُ العقولِ فيه رسوخُ القبول

بين قوله تعالى: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾ ما يسَّمى بالجمع مع التَّفريق، والجمع هو" أن يجمع بين شيئين أو أشياء في حكم واحد، والتَّفريق هو: إيقاع تباين بين أمرين من نوع في المدح أو غيره"[2]، فجمع أوَّلًا الفريقين في لفظ النفس، ثم فرَّق بينهما.

بديعُ الطِّباق:

التَّقابل بين المختلفين يُرسِّخ غورَ الخسارة في مقابلةِ علوِّ السَّعادة

ورد الطِّباق في قوله تعالى: ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾ بين اسمين، كل واحد منهما يدلّ على الثُّبوت والدَّوام، "والشَّقيُّ: فعيلٌ صِفَةٌ مُشَبَّهَةٌ مِنْ شَقيَ، إذا تَلَبَّسَ بالشَّقاءِ والشَّقاوةِ، أيْ سوءِ الحالَةِ وشَرِّها وما يُنافِرُ طَبْعَ المُتَّصِفِ بها، والسَّعيدُ: ضِدُّ الشَّقيِّ، وهو المُتَلَبِّسُ بالسَّعادَةِ التي هيَ الأحْوالُ الحَسَنَةُ الخَيِّرَةُ المُلائِمَةُ لِلْمُتَّصِفِ بها، والمَعْنَى: فمنْهُم يَوْمَئِذٍ مَنْ هو في عَذابٍ وشِدَّةٍ ومِنْهُم مَنْ هو في نِعْمَةٍ ورَخاءٍ"[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/161.

(2) الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة: 6/46، 45.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/161.

نكتةُ التَّقديم:

السَّـعـادةُ أمـرٌ نفيسٌ تحصيلُه

وتقديم الشَّقيّ على السَّعيد في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾، لأنَّ المقام مقام إنذار وتحذير، ولأنَّ أكثر النّاس في فريقِ الشَّقاوةِ، ولأنَّ تأخير السَّعادة يبرهن على نفاسةِ تحصيلِها.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

نفسٌ وأحدٌ:

النّفس: الرّوح، وأحـد بمعنى واحد

النَّفْس والجمع أَنْفُسٌ ونُفوس والمَنْفوس والمُتَنفِّس ذو النَّفْس(1)، ويطلق لفظ النَّفس في اللغة على روح الإنسان، وعلى ذاته وعلى الدم، قال في المصباح المنير: والنَّفس أنثى إن أُريد بها الروح، قال تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [النساء: 1]، وإن أُريد الشخص فمذكّر(2)، والنَّفس هي لطيفة ربانيّة روحانيّة، لها بهذا القلب الجِسمانيّ تعلُّق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان وهو المدرك العالم العارف من الإنسان، وهو المخاطب والمطالب والمعاتب(3).

وأما (أحد) فيطلق على الشخص الواحد، واختيار النَّفس هنا أبلغ لتعلّقها بنفي التكلّم إلا بإذن الله، كأنّه قال: لا تتنفّس إلا بإذنه.

(1) ابن جني، المخصص، ص: 179.
(2) الفيومي، المصباح المنير: (نفس).
(3) السياغي، تحفة المشتاق، ص: 14.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧﴾ [هود: 106 - 107]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

التَّفصيلُ بعد الإجمالِ برهانٌ يدلُّ على الاكتمال

بعد أن بيَّنتِ الآيةُ السّابقة انقسام النّاس ما بين شقيٍّ وسعيد، شرعت هذه الآيات ببيانِ تفصيل ذلك الإجمال، فذكر العبرة بجزاء الآخرة لكلٍّ من الأشقياء والسُّعداء بإقامة الدَّلائل والحُجج على صدق الأنبياء ﷷ وصِدق وعده ﷻ في الآخرة، والتَّحذير من عصيانه ﷻ حتَّى لا يقع الإنسان في دائرة الشَّقاء فيَصْلَى سعيرًا، والحثّ على الإيمان باللّه والتزام طاعته حتَّى يسعد وينعم بحسن مصيره وهو في الجنَّة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿زَفِيرٌ﴾: الزّاءُ والفاءُ والرّاءُ يَدُلُّ على صَوْتٍ منَ الأصْواتِ[1]، وهو تردّد النَّفَسِ حتَّى تنتفخ الضّلوع منه، وازْدَفَرَ فلان كذا: إذا تحمّله بمشقّة، فتردّد فيه نفسه[2]، "الزَّفْرُ والزَّفيرُ: أن يملأ الرَّجُلُ صَدْرَهُ غَمًّا ثُمَّ هو يَزْفِرُ به، وزَفَرَ يَزْفِرُ زَفْرًا وزَفيرًا أخرج نَفَسَه بَعْدَ مَدِّه"[3]، والمقصودُ في الآيةِ شدَّة النَّفس الذي يخرج من أهل النّار.

2) ﴿وَشَهِيقٌ﴾: الشّينُ والهاءُ والقافُ أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على عُلوٍّ[4]، والشَّهيقُ: طول الزّفير، وهو ردّ النّفس[5]، والزَّفيرُ إخراجُهُ[6]، فكأنَّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زفر).
(2) الرّاغب، المفردات: (زفر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (زفر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهق).
(5) الرّاغب، المفردات: (شهق).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (شهق).

الشَّهيق يرفع به الإنسانُ صدرَه، فيعلو، وهو حبس النَّفَس قبل إخراجِه بالزَّفير.

3) ﴿مَا دَامَتِ﴾: "الدّالُ والواوُ والميمُ أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على السُّكونِ واللُّزوم"[1]، "والدوام هو استمرار البقاء في جميع الأوقات، ولا يقتضي أن يكون في وقت دون وقت"[2]، وهي من كانَ وأخواتها، ومعناها فما وقتٌ، تَقولُ: قُم ما دامَ زيدٌ قائِمًا، تُريدُ قُم مُدَّةَ قيامِهِ[3]، أي: أنَّ أهل النّار خالدين فيها مدَّة بقاءِ السَّماواتِ والأرض.

4) ﴿فَعَّالُ﴾: فعَلَ يَفْعَلُ فعلًا وفِعالًا ومُفاعَلة، والفِعْلُ: التأثير من جهة مؤثّر[4]، وفَعّال هنا صيغة مبالغة في الفعل تعظيمًا وتفخيمًا لشأنه ﷻ، وأنَّ فعله ثابتٌ ومستمرٌّ لا ينقطع.

المَعنى الإجْماليُّ:

حالُ الأشقياءِ عذابٌ خالد، والسُّعداء نعيمٌ أبديٌّ

بيّنت الآيةُ حالَ الأشقياء والسُّعداء فقال عن الفريق الأول: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ أي: فأمّا الأشقياء فهم في جهنّم مستقرّهم ومثواهم، بسبب اعتقادهم الفاسد وعملهم السَّيئ، لهم من الهَمِّ والكرب وضيق الصَّدر زفير وشهيق، لما هم فيه من العذاب خالِدينَ فيها، أي: ماكثين فيها على الدَّوام، مدَّة بقاء السَّموات والأرض، والمراد التأبيد ونفي الانقطاع، على سبيل التَّمثيل، ويجوز أن يكون المراد سماء الآخرة وأرضها، وهي دائمة مخلوقة للأبد، والمراد بذلك كلِّه تقييد الأحكام بمشيئة اللّه تعالى فقط، لا لإفادة عدم عمومها[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دوم).
(2) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 121.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (دوم).
(4) الرّاغب، المفردات: (فعل).
(5) الزحيلي، التفسير المنير: 12/147.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاءِ ودلالتها:

الـفـاءُ الأولى تفريعيّة والثّانية رابطة

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ للتَّفريع و(أمّا) حرف شرط وتفصيل، فهي تفريعٌ وبيانٌ لما تقدَّم إجماله في تقسيم النّاس يوم القيامة إلى شقيٍّ وسعيد، وأمّا الفاء في قوله تعالى: ﴿فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ فهي رابطة للجزاء الذي استحقَّه هؤلاء الأشقياء.

بديعُ التَّقسيم:

تقسيمٌ تفصيليٌّ بعد تقسيمٍ إجماليٍّ

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ وما بعده من ذكر أهل السَّعادة داخل في بديع التَّقسيم، فقد قسَّمتِ الآيةُ السّابقة النّاسَ إلى شقيٍّ وسعيد، وهنا شرع في تفصيلِ أحوالِهم، فهو تقسيم تفصيليٌّ بعد تقسيم إجماليٍّ،

بديعُ اللَّف والنَّشر:

نشرٌ مرتَّبٌ للفٍّ مهذَّب

لمّا قال سبحانه: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أعاد التَّفصيلَ على سبيل اللَّف والنَّشر المرتَّب تفصيل أحوال النَّوعين من أهل الشَّقاء وبيان مصيرهم، وأهل السَّعادة وبيان منزلتهم، فجاءت الآية تفصيلًا لما أُجمل في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ لبيان أُصولهم ومصيرهم.

سرُّ تقديم أهل الشَّقاوة على أهل السَّعادة:

تهديدٌ رادع لمَن اعتبر

"لمّا كان أكثر الخلق هالكًا مع أن المقام مقام تهديد وتهويل، بدأ تعالى بالأشقياء ترتيبًا للنَّشر على ترتيب اللَّف فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ أي: أدركهم العسر والشِّدَّة"[1].

نكتةُ التَّعبير بالاسم الموصول:

أهل الشَّقاوة يُعرفون حقيقةً يومَ القيامة

الاسم الموصول من الأسماء المبهمة، وهو يحتاج إلى الصِّلة لإزالة إبهامه، وجاءَ التَّعبيرُ به ﴿ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ دون التَّعبير بالاسم

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 9/375.

الظّاهر (الأشقياء)، لزيادة بيانِ الغرض المسوق له الكلام، وهو بيان مصيرِ هؤلاء الأشقياء وجزائهم، والإيماء إلى اختصاصهم بهذا الوصف، فهم الأشقياءُ حقًّا لا سِواهم ممَّن اتُّهموا بذلك، إلى جانب ما فيه من استهجانٍ بذكر صفتِهم صراحةً، لذا كان التَّعبير بالاسم الموصول الذي أدَّى دورَه على أتمِّ وجهٍ وأكمله هو الأنسب.

إيثار صيغة الماضي ﴿شَقُواْ﴾:

الإعـــراض عن طريق السُّعداء سبب في الهلاك

جاء التَّعبير بالفعل الماضي ﴿شَقُواْ﴾، لإفادة تحقُّق الشَّقاوة منهم ووقوعها لهم، فهم كانوا غارقين في الشَّقاوة عاكفين عليها حتَّى صارت صفةً لازمة لهم في الدُّنيا، وسببًا للهلاك في الآخرة، والمعنى: سبقت لهم الشَّقاوة في الدُّنيا، وعُلمت وتعيَّنت وحُكِم عليهم بها في الآخرة.

سرُّ التَّعبير بحرفِ الظَّرفيَّة:

للظالم قـرارٌ في قاع النّار

التَّعبيرُ بحرفِ الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فَفِي ٱلنَّارِ﴾ دالٌّ على تمكُّن النّار من هؤلاء الأشقياء واستقرارهم فيها لا ينفكّون عنها، ولا يفارقهم زقّومها وسعيرها ولظاها، فالنّار ظرفٌ لهم تمكَّنوا فيها استقرارًا وثباتًا.

سرُّ تكرار حرفِ الظَّرفيَّة:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ في الجوابِ عن كيفيَّة التَّنفّس في النّار

جاء تَكرار ذكرِ حرف (في) في قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ فِيهَا﴾ بعد قوله تعالى: ﴿فَفِي ٱلنَّارِ﴾ تأكيدًا وتخصيصًا لاستقرارهم في النّار لا في غيرها، أي: للأشقياءِ في النّار زفيرٌ وشهيق، فصارت حياتُهم فيها متَّصلةً لا يغادرونها ولا تغادرهم، وقوله تعالى: ﴿لَهُمۡ فِيهَا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، كأن قائلًا قال: فما حالهم فيها؟ فقيل له: لهم فيها كذا وكذا، وهذا سؤالٌ ينشأ عن أهل الدُّنيا، فإنَّهم لا يتصوّرون الحياة في النّار، إذ كيف يتنفّس الأشقياءُ في النّار؟ فكان الجواب باستعمال حرفِ الظَّرفيَّة بديعًا في الإبانةِ عن هذا السُّؤال، أي: فيها النَّفَس لا في غيرِها.

توجيه تخصيص الزَّفير والشَّهيق بالذِّكر:

دفعُ توهّم انعدام الأنفاسِ في النّارِ

خصَّتِ الآيةُ الزَّفيرَ والشَّهيق بالذِّكرِ دون أحوالِ أهل النّار الأخرى، وذلك "لِما في ذِكْرِ هاتَيْنِ الحالَتَيْنِ مِنَ التَّشْويهِ بِهِم وذلك أَخْوفُ لهُم منَ الألَمِ"[1]، و"تنفيرًا من الأسباب التي توصل إلى النّار، وتبشيعًا لتلك الحالة التي فيها ما فيها من سوء المنظر، وتعاسة الحال"[2].

ولما في هاتين الحالتين من التَّوطئة للحياةِ الخالدةِ في النّار، فإنَّ مظنَّة الموت آتية من جهة النّار، ومن جهةِ حصولِ انعدام النَّفَس في النّار، فأخبرتِ الآيةُ أنَّ الحياةَ مستمرَّةٌ بالنُّفوسِ والأنفاسِ.

سِرُّ جمعِ الزَّفيرِ والشَّهيقِ وإفرادهما في الأنبياءِ والملك:

للظّالمين في النار شهيق وزفير رؤيةَ حالٍ وعِبرَةَ مَآل

جُمع الزَّفير والشهيق في هذه الآيةِ، لِلدّلالَةِ على كَربِهِم وغَمِّهِم وتَشبيهِ حالِهِم بحالِ مَن استَولَتْ على قَلبِه الحَرارَةُ وانحَصَرَ فيهِ روحهُ، بينما اكتفى بذكرِ الزَّفير في سورةِ الأنبياء في قَولِهِ تعالى: ﴿لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَهُمۡ فِيهَا لَا يَسۡمَعُونَ ١٠٠﴾ [الأنبياء: 100]، واكتفى بذكر الشَّهيقِ في سورة الملك فقال تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ٧﴾ [الملك: 7].

والظّاهِرُ أنَّ ضَميرَ ﴿لَهُمۡ﴾ في سورةِ الأنبياءِ راجعٌ للمشركين وأصنامهم، ففيهِ تَغليبُ العُقَلاءِ على غَيرِهِم من الأصنام حَيثُ جيء بضَميرِ العُقَلاء راجِعًا إلى الكُلِّ، وغُلِّبَ مَن يَتَأتّى منهُ الزَّفيرُ ممَّن فيهِ حَياةٌ على غَيرِهِ من الأصنام أيضًا حَيثُ نُسِبَ الزَّفيرُ لِلجَميع[3]، فناسب إفراد الزَّفير بالذِّكر باعتبارِ أنَّ الزَّفيرَ إخراجُ الأنفاس بدفع وشدَّة بسبب ضغط في التَّنفُّس، فلا يكون إلّا بعد الشَّهيق.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/165.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/275.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/97، 96.

أمّا في سورة الملك فذُكر فيها الشَّهيق وهو للنّار، وهو حسيسها المنكر الفظيع، وجُوّز أن يكون الشَّهيق لأهلها ممن تقدَّم طرحهم فيها ومن أنفسهم كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ والكلام على حذف مضاف حينئذ[1]، وقد ناسب ذكرُ الشَّهيقِ باعتبارِه الجالبَ للهواءِ، والنّار تجلبُ أهلها من أهل الشّقاوة، فكما أنَّ الشَّهيق يستجلبُ الهواء للداخل، وكذلك النّار تستجلب أهلها في داخلِها.

فائدةُ ذكرِ الخُلودِ وذكرِ ﴿فِيهَا﴾:

عذابٌ دائمٌ وألمٌ جاثمٌ

وردت ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حاليَّة مبيِّنة حال هؤلاء الأشقياء ومآلهم الأبديّ ومكثهم وبقائهم في النّار ودوامهم بلا انقطاع، وهو خلودٌ ومكثٌ وبقاءٌ لا انفكاك منه ولا براح، والمراد به: التَّأبيد ونفي الانقطاع عنها، وإعادة الجارِّ والمجرور ﴿فِيهَا﴾ بعد التَّعبير بقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ﴾، للتَّخصيصِ بكونِ الخُلدِ في النّار لا في غَيرِها فهيَ خاصَّةٌ بهم معَدَّة لهُم، وفي إعادتِها تأكيدٌ على استقرارِهِم في النّار وعَدَم انفكاكِهِم عَنها أبدًا.

بلاغةُ الكنايةِ:

مكثٌ مؤبَّد لا انقطاع فيه، ولا خروج منه

جاءَ التَّعبيرُ في قولِه تعالى: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ تأكيدًا على أنَّ الأشقياءَ لهم في النّار العذابُ الأليمُ، وهم ماكثونَ فيها مُكثَ بقاءٍ وخلودٍ لا يبرحونَها مدَّة دوام السَّموات التي تُظِلُّهم، والأرضِ التي تُقِلُّهم، فهو كنايةٌ عن "التَّأبيد ونفي الانقطاعِ على منهاجِ قولِ العربِ: لا أفعلُ كذا ما لاح كوكبٌ وما أضاءَ الفجرُ وما اختلفَ اللَّيلُ والنَّهارُ وما بَلَّ بحرٌ صوفة، وما تَغَنَّت حمامة إلى غيرِ ذلك من كَلماتِ التَّأبيد عِندَهَم لا تَعليقَ قَرارِهم فيها بدَوام هذِه السَّماواتِ والأرض، فإنَّ النُّصوصَ القاطِعَةَ دالَّةٌ على تَأبيدِ قرارِهم فيها وانقطاعِ دَوامِهِما، وروي هذا عن ابن جرير، وجوّز أن يُحمل ذلك

(1) الآلوسي، روح المعاني: 29/10.

على التَّعليق، والمرادُ بالسَّموات والأرض سماوات الآخرة وأرضها، وهي دائمةٌ للأبد"[1].

معنى الاستثناء:

لا خلودَ في النّار لأهل المعاصي من الموحّدين

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مِنَ الأَزْمانِ التي عَمَّها الظَّرْفُ في قولِه تعالى: ﴿مَا دَامَتِ﴾ أيْ: إلّا الأَزْمانُ التي شاءَ اللّه فيها عَدَمَ خُلودِهِم، ويَسْتَتْبِعُ ذلك اسْتِثْنَاءَ بَعْضِ الخالِدينَ تَبَعًا لِلْأَزْمانِ، وهذا بناءً على غالِبِ إطْلاقِ ما المَوْصولَةِ أنَّها لِغَيْرِ العاقِلِ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ اسْتِثْنَاءً مِنْ ضَميرِ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ لِأنَّ (ما) تُطْلَقُ على العاقِلِ كَثيرًا، وقَدْ تَكَرَّرَ هذا الاِسْتِثْنَاءُ في الآيَةِ مَرَّتَيْنِ، فأمّا الأوَّلُ مِنْهُما فالمَقْصودُ أنَّ أهْلَ النّارِ مَراتِبُ في طولِ المُدَّةِ فمِنْهُم مَنْ يُعَذَّبُ ثُمَّ يُعْفَى عَنْهُ، مثْلَ أهْلِ المَعاصي مِنَ الموحِّدينَ"[2].

إيثار لفظ الرَّب وإضافته إلى ضمير المخاطب:

إيناس وتسلية للنبيّ الأكرم ﷺ

جاء التَّعبير بلفظِ الرُّبوبيَّة المضاف إلى كافِ الخطاب في قوله تعالى: ﴿رَبُّكَۚ﴾ إشارةً إلى أنَّ اللّه تعالى يُحسن إلى نبيِّه بكلِّ ما يسرُّ قلبه ويشرح صدره، وإضافة الرَّب إلى ضمير المخاطب فيه طمأنةٌ للنَّبيِّ الكريم، ولفتٌ لنظره حين ينظر إلى مزيد نعم اللّه عليه، فربُّه الذي أولاه بصنوف النِّعم هو الذي يجازيهم على فعالهم، ولا يخذل رسله أبدًا.

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيّ:

إرادةُ الله تعالى عدلٌ وقسطٌ

جاءتْ هذه الجُملةُ ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ مفصولةً عَن سابقتِها لشبهِ كَمالِ الاتِّصالِ لوقوعها استئنافًا بيانيًّا، فكأنَّ سائلًا سأل عن سِرِّ بقائِهم خالدينَ في النّار فقيلَ لهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، وهذا مبنيٌّ على العدلِ الإلهيِّ، أي أنَّ اللّه أراد ذلك لما اقترفوه من الكفر والإجرام في الدُّنيا.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/141.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/165، 166.

تكرارُ الرُّبوبيَّة لفتٌ للأنظار وتنبيهٌ للأبصارِ

إظهارُ ما حقُّه الإضمار:

جاء لفظ ﴿رَبُّكَ﴾ مكرّرًا في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، وذلك بوضعِ المظهَر موضعَ المُضمَر، "لتربيةِ المهابَةِ وزيادةِ التقرير". فالضمير وإن كان يعطي إشارة ذهنيَّة إلى العائد عليه، إلّا أنَّ أثر الاسم الظّاهر أعظم أثرًا، لأنَّها تتولَّد حين يقرع اللَّفظ السَّمع بجرسه وارتباطاته المختلفة جدّ الاختلاف والتي اكتسبها في قصَّته الطَّويلة مع الكلمات والأحداث والمواقف[1].

تمام قدرة الله تعالى وكمالُ إرادته

دلالة صيغة ﴿فَعَّالٌ﴾:

جاء التَّعبيرُ بصيغةِ المبالغة ﴿فَعَّالٌ﴾، للدّلالة على تمام قدرته تعالى، وللإشارةِ إلى أنَّه سبحانَه لا يَتَعاصَى عَلَيه فعلٌ من الأفعالِ بأيّ وجهٍ من الوجوه، والمعنى: يفعلُ ما يشاءُ على وفقِ علمهِ ومقتضَى حكمتِه، فهو يفعلُ بأهلِ النّار ما يُريدُ من العَذابِ كَما يُعطي أهلَ الجَنَّةِ عَطاءهُ الذي لا انقطاعَ لهُ.

كل شيء تحت قبضته سبحانه

معنى اللام ودلالتها:

وردت اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِّمَا يُرِيدُ﴾ للتَّقوية، أي: فعّال لما يريده سبحانه لا يتعاصى عليه شيءٌ بوجه من الوجوه، وورود التَّقويةِ هنا لتفخيم الأمر وتهويلِه في كونه سبحانه يفعلُ في ملكه ما أراده بحكمتِه وأمره.

إرادةُ الله تعالى مطلقةٌ لا قيدَ فيها ولا تضييق

بَلاغَةُ حذفِ المفعولِ:

يُحذَفُ المفعولُ إيجازًا، ولِسَبقِ ما يَدُلُّ عَلَيه، وحُذِفَ المفعول في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ﴾ لما فيه من تصويرٍ لطلاقة قدرةِ اللّه الباهرة، والمَعنَى: "لا يَجوزُ عَلَيهِ البَدءُ بالرُّجوعِ عَمّا أرادَ، ولا المَنعُ عَن مُرادِهِ ولا يَتَعَذَّرُ عَلَيهِ شَيءٌ مِنْهُ مَعَ كَثرَةِ المُرادات، فلا اعتِراضَ عَلَيهِ ولا يَلْزَمُهُ لأحدٍ شيء، بَل لهُ أنْ يُخَلِّدَ العاصينَ في الجَنَّةِ ويُخَلِّدَ الطّائِعينَ في النّارِ"[2].

(1) محمد أبو موسى، خصائص التَّراكيب دراسة تحليليَّة لمسائل علم المعاني، ص: 284.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/376.

﴿۞وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ١٠٨﴾ [هود: 108]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تتمَّةٌ للتَّقسيم واكتمالٌ للتَّفصيل

هذه الآيةُ متَّصلةٌ بسابِقَتِها التي ذَكَرَتْ أهلَ الشَّقاءِ وما آلَ إليَه مَصيرُهُم وبَيَّنَتْ حالَهُم، والتَّرغيبَ بالإيمانِ وطاعَةِ اللهِ ليَصيرَ المُؤمنُ الطّائعُ مَعَ السُّعَداءِ الذينَ يَتَمَتَّعونَ بالجَنَّةِ فتكون مُستقرَّهم ومُقامَهُم، فهي تتمَّةٌ للتَّقسيم، واكتمالٌ للتفصيل.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَجۡذُوذٖ﴾: "الجيمُ والذّالُ أصْلٌ واحِدٌ، إمّا كَسْرٌ وإمّا قَطْعٌ، يُقالُ جَذَذْتُ الشَّيْءَ كَسَرْتُهُ"[1] و﴿غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾: غير منقطع، وهو تصريح بأنَّ الثواب لا ينقطع، قال الرّاغب: "الجَذُّ: كسر الشيء وتفتيته، ويقال لحجارة الذهب المكسورة ولفتات الذهب: جذاذ"[2]، فالمجذوذُ: المقطوعُ، والجذمُ: جذمُ الشَّجرةِ حيثُ تُقطَعُ من أصلِها، وأصلُه من الجَذم وهو القَطعُ فلا يُستعملُ الجَذم فيما لا يَصلُحُ قَطْعُه، فإنِ استُعملَ في بعضِ المَواضِعِ مَكانَ الأصلِ فعلى التَشبيهِ، والقَطعُ يكونُ ظاهِرًا وخافِيًا كالقَطعِ في الشَّيءِ الملزق المموّه، ويُقالُ: قَطَعَهُ في المُناظَرَةِ لأنَّه قَد يَكونُ ذلِكَ من غَيرِ أنْ يَظهَرَ ومن غَيرِ أنْ يقطعَ شغبه وخُصومتَه[3]. ومراد المفردة في الآيةِ أن النَّعيم متصلٌ لا ينقطع.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جذَّ).
(2) الرّاغب، المفردات: (جذَّ).
(3) العسكريّ، الفروق اللُّغويَّة، ص: 158، 170.

المَعنى الإجْماليُّ:

حال السعداء وخلودهم في عطاءٍ متَّصل

بيَّنَ ﷻ في هَذِه الآيةِ حُسنَ عاقِبَةِ السُّعداء فقالَ ﷻ: ﴿۞وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾ أي: في الآخرةِ بسببِ إيمانِهم وتَقواهُم في الدُّنيا، ﴿فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ أي: عَطاءً لهؤلاءِ السُّعداء غيرَ مقطوعٍ عَنهُم، وعلى هذا يَستَبينُ لنا تَفصيلُه ﷻ لِأحوالِ هَذَين النَّوعين من النّاسِ السَّعيد منهُم والشَّقيّ تفصيلًا بيِّنًا يدعو كُلَّ ذي لُبٍّ إلى نَهَجِ مَناهِجِ السُّعداءِ، ومُجانَبَةِ المعوَّجِ من منهَجِ الأشقياءِ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّة الفصلِ:

باكتمال التَّقسيم تنشرحُ الصُّدورُ

عُطِفَتْ هَذِه الجُملَةُ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾ من الآيَةِ الكَريمَةِ على قَولِهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ فجاءتْ بَيانًا لِحالِ الفَريقِ الثاني وهُم أهلُ السَّعادَةِ، وما أعَدَّه اللّه تعالى لهُم من النَّعيم الدّائم، وعُطِفَت على سابِقَتِها لِمُشارَكَتِها لها في الخَبَريَّة والحُكْم الإعرابيّ ووجودِ الجِهَةِ الجامعَةِ بَينَهُما.

توجيه القراءات القرآنية:

السَّعيد مَن أسعده مولاه بتوفيقِه للخير

"قرأ حفصٌ وحمزة والكسائي وخَلَفٌ بضَمِّ السّينِ بالبِناءِ لِلمَفعولِ من سَعده اللّه بمَعنَى أسعَدَهُ، وافقَهُم الأعمَشُ، والباقونَ مبنيًّا لِلفاعِلِ من اللازِم"[(1)].

قال الطّاهر بن عاشور: من قرأ "بِضَمِّ السّينِ على أنَّهُ مَبْنيٌّ لِلنّائِبِ، وإنْ كانَ أصْلُ فِعْلِهِ قاصِرًا لا مَفْعولَ لهُ لكِنَّهُ على مُعامَلَةِ القاصِرِ مُعامَلَةَ المُتَعَدّي في مَعْنَى فُعِلَ بِهِ ما صَيَّرَهُ صاحِبَ ذلك الفِعْلِ، كَقولِهِمْ: جُنَّ فُلانٌ، إذا فُعِلَ بِهِ ما صارَ بِه ذا جُنونٍ ف

(1) البنّا، إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، ص: 311.

﴿سُعِدُواْ﴾ بمَعْنَى أُسْعِدوا، وقيلَ: سَعِدَ مُتَعَدٍّ في لُغَةِ هُذَيْلٍ وتَميم، يَقولونَ: سَعِدَهُ اللّه بمَعْنَى أسْعَدَهُ، وخَرَجَ أيْضًا على أنَّ أصْلَهُ أُسْعِدوا، فحُذِفَ هَمْزُ الزّيادَةِ كَما قالوا مَجْنوبٌ (بِموحَّدَةٍ في آخِرِهِ)، ومِنْهُ قَوْلُهُمْ: رجل مَسْعود"[1].

بلاغةُ الكنايةِ:

قــرار في دار النَّعيم، أنْعِم به من قرار

التَّعبيرُ بحرف الظَّرفيَّة في قَولِه: ﴿فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ مُقترِنًا بالفاءِ الدّاخِلَةِ عَلَيه أكَّدتِ استِقرارَ هَؤلاءِ السُّعَداءِ في الجَنَّة التي صارَت مَحَلًّا مَعْلومًا لهُم لا يُفارِقونَها ولا تُفارِقُهُم حَتَّى صارَت أمرًا مَقطوعًا بِهِ مَعلومًا من الدّينِ بالضَرورَةِ، والأسلوبُ كِنايَةٌ عَن صِفَةِ الاستقرارِ مَعَ عِظَم المُستقرّينَ فيها، والتَّعبيرُ باسم الفاعِلِ لِلدَّلالَةِ على الثُّبوتِ والاستمرارِ في الجَنَّة من بابِ المُلازَمَةِ الفِعليِّة، والتَّعبيرُ بالجارِّ والمَجرورِ مُكرَّرًا ﴿فِيهَا﴾ مُبالَغَة في الاستقرارِ والتَّمكُّنِ فيها تَمَكُّن الظَّرفِ من المظروفِ، فهُم مُستَقرّونَ في الجَنَّة مُنَعَّمونَ فيها لا في غَيرِها، فأنْعِم بها من مُستَقرٍّ ونُزُلٍ ومُقامٍ.

نكتةُ التَّكرارِ:

نعيمُ الجنَّةِ لا يحول وسعادةٌ لا تزولُ

أُعيدتْ هذِهِ العِبارَةُ ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ مَعَ خُلودِ أهلِ الجَنَّة فيها، وجاءَ التَّعبيرُ بدَوام السَّماواتِ والأرضِ على ما جَرَت بِهِ عادَةُ العَرَبِ في إرادَةِ التَّأبيدِ بلا آخر بمثلِ هذا، وإذا كانَ أهلُ النّارِ خالِدينَ في عَذابِها دائمينَ في سَمومِها وزَقّومِها مَعَ دَوام السَّماواتِ والأرضِ ففي المُقابِلِ يُنَعَّمُ أهْلُ الجَنَّة دَوامًا سَرمَديًّا في نَعيم لا يَزولُ ولا يَحولُ بدَوام السَّماواتِ والأرضِ، وهي كِنايَةٌ عَنْ صِفَةِ الدَّوامِ والاستقرارِ الذي لا يَنقَطِعُ، وقيلَ: المُرادُ ما دامَتْ سَمَواتُ الجَنَّة وأرضُها حَسبَ مشيئَتِهِ تعالى وقَد شاءَ لهُم الخُلودَ والدَّوامَ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/166.

بلاغةُ الاستثناء:

التَّحذير من الاغترار بالطّاعة

وأمّا الاستثناءُ الثّاني ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ﴾ الواقِعُ في جانِبِ الذين سُعِدوا فيَحتَملُ مَعنَيَيْن: أحَدُهُما أنْ يُرادَ: إلّا ما شاءَ رَبُّكَ في أوَّلِ أزْمنَةِ القيامَةِ، وهيَ المُدَّةُ التي يَدْخُلُ فيها عُصاةُ المُؤمنينَ غيْرُ التّائِبينَ في العَذابِ إلى أنْ يَعْفو اللّه عَنْهُم بفَضْلِه بدونِ شَفاعَةٍ، أو بشَفاعَةٍ، ويُحتَمَلُ أنْ يُقْصَدَ منْهُ التَّحْذيرُ منْ تَوهُّم اسْتِحْقاقِ أحَدٍ ذلك النَّعيمَ حَقًّا على اللّهِ، بَلْ هو مَظْهَرٌ منْ مَظاهِرِ الفَضْلِ والرَّحْمَةِ، ولَيْسَ يَلْزَمُ منَ الاسْتِثْناءِ المُعَلَّقِ على المَشيئَةِ وُقوعُ المَشيئَةِ بَلْ إنَّما يَقْتَضي أنَّها لوْ تَعلَّقَتِ المَشيئَةُ لوقعَ المُسْتَثْنى، وقدْ دَلَّتِ الوُعودُ الإلَهيَّةُ على أنَّ اللّه لا يَشاءُ إخْراجَ أهْلِ الجَنَّةِ منْها، وأيًّا ما كانَ فهُم إذا أُدْخِلوا الجَنَّةَ كانوا خالِدينَ فيها فلا يَنْقَطِعُ عَنْهُم نَعيمُها[1].

سرُّ تنكيرِ ﴿عَطَآءً﴾:

عطاءُ الله تعالى لا يُدرِكُ كُنهَهُ وقَدْرَهُ إلّا هو سبحانه

وردتْ كلمةُ ﴿عَطَآءً﴾ منصوبةً على المصدرِ المؤكَّدِ من مَعنَى الجُملةِ قَبلَه، لأنَّ قولَه تعالى: ﴿فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يَقتَضي إعطاءً وإنعامًا و﴿غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ صفة لعطاء، أو ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ يعطون أو يُمنحون عطاءً غير مقطوع، ومجيء ﴿عَطَآءً﴾ نكرة لتعظيم أمرِ هذا العَطاءِ وتفخيم شَأنِهِ، والمرادُ: عطاء لا يُدرِكُ كُنهَهُ وقَدْرَهُ إلّا اللّه تعالى يتناسبُ مَعَ من يُعطوه، وهم أهلُ الجنَّةِ الجديرونَ المستحقّونَ لهُ.

نكتةُ التَّعبير بالنَّفي دون الإثبات:

عطاءُ الله مُمتدٌّ إلى ما لا نِهايَة

التَّعبيرُ باسم المفعولِ المقترنِ بأداةِ الاستثناءِ الدّالّة على النَّفي ﴿غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ يَدُلُّ على الثُّبوتِ والدَّوام، والمرادُ: غير مقطوعٍ، فهو مُمتدٌّ إلى ما لا نِهايَة وهذا أبلَغُ في الدِّلالَةِ من أن يُقال: (عطاءً متّصلًا)، إذ إنّ اتصال العطاء لا يمنع انقطاعه وقتًا ما، ووصفه بنفي الانقطاع صريح في عدم انقطاعه ولو يسيرًا.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 12/165.

إيثار لفظ ﴿مَجۡذُوذٖ﴾ دون لفظ مقطوع:

طـمـأنـةُ أهـلِ الـجـنَّـة زيـادةُ نـعـيـمٍ فـوق نعيمهم

التَّعبيرُ بقولِه تعالى: ﴿غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ أبلغُ من قَولنا: (مَقطوع) إذ المُرادُ منهُ: "لا مقطوعٌ ولا مكسورٌ ولا مفصولٌ لِعطاءٍ من الأعطيةِ ولا مفرق ولا مستهانٌ بِهِ: لأنَّهُم لو انفكّوا من النَّعيم حقيقةً أو مَعنى ولَو لحظَة لكانَ مقطوعًا أو منقوصًا، وفي الخَتم بذَلِك من الجَزم بالدَّوام طمأنينةٌ لأهلِ الجنَّة زيادَة في نعيمهم عَكس ما كانَ لأهلِ النّار"(1).

براعةُ التَّقابلِ:

كـثرةُ اللَّـطائف البلاغيَّة ارتكازٌ في الـنَّـفـس البشريةِ

بَينَ قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ﴾ وبين قوله: ﴿۞وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ ألوانٌ من البديع، سبق تفصيلها، وهي موجزةٌ هنا، ففيها لفٌّ ونشرٌ مُرتَّب يُناسِبُ ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾، وبين الآيتين جَمْعٌ وتَقسيمٌ، أمّا الجمعُ ففي قَولِه: ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾ وأمّا التقسيمُ ففي قَولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ﴾ وقوله: ﴿۞وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ﴾، والمراد بالجمع: أنْ يجمعَ بين متعدِّدٍ في حكمٍ واحدٍ، والتقسيمُ: أن يُذكرَ متعدِّدٌ ثم يضاف إلى كلٍّ منها ما هو له، وبين الآيتين مقابلة لطيفة حيث قوبل بين ﴿شَقُواْ﴾ و﴿سُعِدُواْ﴾، وبين ﴿ٱلنَّارِ﴾ و﴿ٱلۡجَنَّةِ﴾، والمقابلةُ من الأمورِ الفطريَّة المركوزة في الطِّباع وهي قادرةٌ على جَعْلِ كِلا الأمرَين ماثلَينِ أمامَ السّامع فبيَّنت طريقَ الشَّقاءِ ومَآله وطَريقَ السَّعادَةِ ومآلَهُ من النَّعيم؛ فيَعقِدُ المَرءُ مُقارَنَةً بينَ الطَّريقين ويختارُ أصوبَهُما، وهذا فِعْلُ المقابلةِ إلى جانِبِ ما تُضفيهِ على النَّظم من قوَّةٍ ودِقَّةٍ في التَّصويرِ والإبانَةِ عَن المُرادِ منها.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/385.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المجذوذ والمقطوع:

المجذوذ أخص من المقطوع

المجذوذ من (جذّ) بمعنى كَسَر الصُلْب أو قَطع الشديد الغليظ[1]، والمقطوع من القَطْعِ: فصل الشيء مدركًا بالبصر كالأجسام، أو مدركًا بالبصيرة كالأشياء المعقولة، فمن ذلك قَطْعُ الأعضاء، وقَطْعُ الثّوب، ومنه قَطْعُ الطَّريقِ السّير والسّلوك وإمّا لغَصْب المارَّة والسّالكين فيه، وقطع الوصل هو هجرانه، ومنه قطع الرَّحم بهجرها ومنع برِّها ومقاطع الأودية مآخيرها"[2].

فاصطفاء عبارة ﴿غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ تشير إلى امتداد العطاء امتدادًا قويًّا، غير متناهٍ، لا يُعرف له نظير، ولم يُر له مثيل.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جذذ).
(2) الرّاغب، المفردات: (قطع).

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ ١٠٩﴾ [هود: 109]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تسليةُ الرَّسولِ الأكرمِ ﷺ، بِبطلانِ ما عَلَيْهِ عَبَدَةُ الأصْنامِ، وبِخَيْبَةِ ما أمَّلوهُ

لمّا فرغ اللّه سُبحانهُ من قِصصِ الكفرةِ، وبيانِ حالِ السُّعداءِ والأشقياءِ، سلّى رسولهُ صلّى اللّه عليهِ وآلِهِ وسلّم بِشرحِ أحوالِ الكفرةِ من قومِه، في ضِمنِ النّهيِ لهُ عنِ الامتراءِ في أنّ ما يعبُدونهُ غيرُ نافِعٍ ولا ضارّ، ولا تأثيرَ لهُ في شيء[1]. كما بيَّنتِ الآيةُ الكريمةُ للنّبيّ ﷺ أنَّ دأبَ قومه في هذا الكُفر والتَّكذيب دأبُ مَن سبقوهم منَ الكفّار، وأنَّ دأبَه دأبُ إخوانِه منَ الأنبياء الذين سبقوه، فقد كذَّبَتْهم أقوامُهم؛ كما كذَّبه قومُه؛ ليكون له في ذلك تثبيتٌ على ما هو عليه من إصرار على البلاغ، وسَلْوةٌ عمّا هم عليه من تكذيبٍ ونُكران.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِرۡيَةٖ﴾: المِرْيَةُ - بِكَسرِ الميم وضَمِّها -: الشَّكُّ، والجَدَلُ[2]؛ وقَدْ جاءَ فِعْلُها عَلى وزْنِ فاعَلَ أو تَفاعَلَ وافْتَعَلَ، هكذا: (مارَى، وتَمارَى، وامْتَرى)، ولَم يَجِئْ على وزْنِ مُجَرَّدٍ؛ لِأَنَّ أصْلَ المِراءِ المُجادَلَةُ والمُدافَعَةُ، مُسْتَعارًا من مَرَيْتُ الشّاةَ إذا اسْتَخْرَجْتَ لَبَنَها. ومنهُ قَوْلُهم: لا يُجارى ولا يُمارى[3]. ومنه كذلك: مريَةُ الفَرَسِ؛ وهي أن تَمْرِيَه بساقٍ أو زَجرٍ أو سَوطٍ[4]. وقُرِئَ بكسر الميم وضَمِّها قَوْلُهُ تعالَى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ﴾ [هود: 17] - هكذا: (مِرْيَةٍ،

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/599.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (مرا).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/167.
(4) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/299.

مُرْيَةٍ) -، والامْتِراءُ في الشَّيءِ: الشَّكُّ فيهِ، وكَذا (التَّماري)[1]. قالَ ثَعْلَبٌ: "هُما - أي: قراءةُ الكسرِ والضَّمّ - لُغَتانِ، قال: وأمّا مرْيَةُ النّاقةِ فلَيْسَ فيهِ إلّا الكَسْرُ، والضَّمُّ غَلَطٌ. قال ابْنُ برّيٍّ: يَعْني مَسْحَ الضَّرْعِ لِتَدُرَّ النّاقةُ، قالَ: وقالَ ابْنُ دُرَيْدٍ مُرْيَة الناقةِ، بِالضَّمِّ، وهيَ اللُّغَةُ العاليَةُ"؛ وأنشد[2]:

شامذًا تَتَّقي الـمُبِسَّ عَلَى الـمُرْيَةِ *** كَرْهًا، بالصِّرْفِ ذي الطُّلّاء

ومعنى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ أي: في شك.

2) ﴿لَمُوَفُّوهُمْ﴾: يُقالُ وفى وأوْفى، فَمَنْ قالَ: وفى فإنَّهُ يَقولُ تَمَّ؛ كقولك: وفى لَنا فلانٌ، أي تَمَّ لَنا قَوْلُه ولَم يَغْدِر. ووفى هَذا الطعامُ قَفيزًا؛ قالَ الحُطَيْئَةُ[3]:

.... *** وفى كَيْلُ، لا نيبٍ ولا بَكَرات

أي: تَمَّ. ومَنْ قالَ أوْفى؛ فَمَعْناهُ: أوْفاني حقَّه، أي: أتَمَّه ولَم يَنْقُصْ منْهُ شَيْئًا، وكَذَلكَ أوْفى الكيلَ، أي: أتمّه ولَم يَنْقُصْ منْهُ شَيْئًا. ويُقالُ: أوْفَيْتُ بالعَهْدِ ووفَيْتُ بالعَهْدِ. وكلُّ شَيْءٍ في كِتابِ اللّه تعالى منْ هَذا فَهو بالألف، قالَ اللّه تعالى: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ﴾ [المائدة: 1]، ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ﴾ [البقرة: 40]. يقال: وفى الكيلُ ووفى الشَّيءُ، أي: تَمَّ، وأوْفَيْتُه أنا: أتممْته، قالَ اللّه تعالَى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ﴾ [الأنعام: 152][4]، فالتَّوْفيَةُ: إكْمالُ الشَّيْءِ غَيْرَ مَنقوصٍ[5]. وتوفّاه واسْتَوْفاه: لَم يَدَعْ منْهُ شَيْئًا. ويُقالُ: أوْفَيْته حَقَّه ووفَّيته أجْره. ووفّى الكيلَ وأوفاه: أتَمَّه[6]. والوافي: الذي بلغ التَّمام. يقال: درهمٌ وافٍ، وكيلٌ وافٍ، وأوفيتُ الكيلَ والوزنَ[7]. وتوفية الشّيء: بَذْلُه وافيًا، واستيفاؤه: تناولُه وافيًا[8].

3) ﴿نَصِيبَهُمْ﴾: (النُّونُ والصّادُ والباءُ) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على إقامَةِ شَيءٍ، وإهْدافٍ في

(1) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (مرا).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (مرا).
(3) شطر البيت الأول في ديوان الحطيئة: إذا أنْقَدَ المِيّارُ ما في وعائِهِ ... ومراده: أنّها - أي: الإبل - أفتاء لا مُسنّات ذات أنياب، ولا بكرات صغار. يُنظر: ديوان الحطيئة بشرح ابن السكّيت والسّكريّ والسّجستانيّ، ص: 339.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (وفى).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/169.
(6) ابن منظور، لسان العرب: (وفى).
(7) الرّاغب، المفردات: (وفى).
(8) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وفى).

اسْتِواءٍ[1]. ونَصَبَ الشَّيءَ: وضعَهُ وضعًا ناتئًا؛ كنصب الرُّمح والبناء والحجر، والنَّصيبُ: الحِجارة تُنْصَبُ على الشّيءِ، وجمْعُه: نَصائِبُ ونُصُبٌ. وكان للعرب حجارة تعبدها وتذبح عليها[2]. والنَّصيبُ: الحَظُّ مِنَ الشَّيْءِ، يُقالُ: هَذا نَصيبي، أي: حَظِّي[3]. والمعنى في الآية: لَموفّوهُم حظَّهم ممّا وعدتُهم أن أوفّيَهموه من خير أو شَرٍّ[4].

4) ﴿مَنقُوصٍ﴾: (النُّونُ والقافُ والصّادُ) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، هيَ النَّقْصُ: ونَقَصَ الشَّيْءُ، ونَقَصْتُهُ أنا، وهو مَنْقوصٌ، ومَرْجِعُ البابِ كُلِّهِ إلى: الخُسْرانِ في الحَظِّ، وخِلافِ الزِّيادَةِ[5]. والنَّقيصَةُ: العَيْبُ؛ يُقالُ: ما بِهِ نَقيصَة، أي: شَيْءٌ يَنْقُصُ[6]. والنُّقْصانُ أيضًا: اسْمٌ للقَدْرِ الذّاهِبِ مِنَ المَنْقوصِ[7]. والمَنقوصُ: المِقْدارُ المَأْخوذُ جُزْءٌ منهُ؛ والنَّقْصُ: أَخْذُ جُزْءٍ مِنَ المِقْدارِ[8]. والنَّقيصَةُ: الوقيعةُ في النّاسِ، والخَصْلَةُ الدَّنيئَةُ، أو الضَّعيفَةُ. ونَقُصَ الماءُ، ككَرُمَ؛ فهو نَقيصٌ: عَذْبٌ، وكُلُّ طيب إذا طابَتْ رائِحَتُهُ، فنَقيصٌ. وأَنْقَصَهُ وانْتَقَصَهُ ونَقَّصَهُ: نَقَصَهُ فانْتَقَص، وهو يتَنَقَّصُهُ: يَقَعُ فيه، ويَذُمُّهُ. واسْتَنْقَصَ الثَّمَنَ: اسْتَحَطَّهُ[9]. والمعنى في الآية: لموفوهم نصيبَهم كاملًا لم يَنْقُص منه شيء.

۞ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

بيان أحوال المشركين في اقتفاء شرك آبائهم، والوعدُ بتوفيتِهم جزاءَهم

وإذا كان أمر الأمم المشركة الظّالمة في الدّنيا ثمّ في الآخرة، هو ما قصصنا عليك - أيّها النَّبِيُّ - فلا يكن عندك أدنى شَكٍّ في

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصب).
(2) الرّاغب، المفردات: (نصب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصب).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/492.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نقص).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نقص).
(7) الفِيروزاباديّ، القاموس المحيط: (النقص).
(8) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/387.
(9) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/387.

مصير عُبّاد الأوثان من قومك، إنِ استمرّوا على ضلالهم، لأنّهم كالسّابقين من آبائهم، الذين قصصنا عليك قصصَهم من قبلُ، فكُلُّهم مشركون، وقومُكَ هم لهم مقلّدون، إذ ليس لهم من مستند في عبادة الأصنام سوى هذا التّقليد الأعمى لهم، وإنّا لموفّونَ هؤلاء الكفرة جميعًا استحقاقَهم منَ العذاب كاملًا على قَدْر جرائِمهم، لا يُنقَصون منه شيئًا[1].

والحاصل: أنَّهُ لّمّا أَخْبَرَ اللّه تَعالى رسولَه ﷺ بِقَصَصِ عَبَدَةِ الأوْثانِ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ بِأحْوالِ الأشْقياءِ وأحْوالِ السُّعَداءِ، فصَّلَ له أحْوالَ الكُفّارِ من قَوْمِه[2]، على مَنهَجِ تَفصيلِ المُجْمَلاتِ في بَيانِ المُرادِ الأصليّ والتَّثْنية بالمقاصد التّابعة.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الفاء على التَّفريع:

ثُنائيةُ التَّثبيتِ والتَّقريعِ، بِدَلالَةِ فاءِ التَّفريع

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ﴾ للتَفْريع، وترتيبِ النَّهي على ما قُصّ منَ القصص، وبُيّن في تضاعيفها منَ العواقب الدّنيويّة والأُخرويَّة الماضيَة، ممّا يُكسِبُ سامعَها يَقينًا بِباطِلِ ما عليه عَبَدَةُ الأصْنام، وبِخَيْبَةِ ما أمَّلوهُ فيهم منَ الشَّفاعَةِ في الدُّنْيا، وإنَّ سابقَ شَقائِهِم في الدُّنْيا بِعَذابِ الِاسْتِئْصالِ، يُؤْذِنُ بِسوءِ حالِهِم في الآخِرَةِ، فَفَرَّعَ على ذَلِكَ نَهْيَ السّامعِ أنْ يَشُكَّ في سوءِ الشِّرْكِ وفَسادِهِ[3].

وقيل: الفاء للإفصاح عن شرطٍ مُقَدّر، مُؤدّاه: إذا كان ما علمتَ من قصصٍ لعبدة الأوثان وأنبيائهم، وما نزل بالمشركين[4]؛ على وجه يتفرّع عنه اليقينُ بسوء المنقلَب.

(1) المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر، تفسير المنتخب، ص: 326.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/404.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/243، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/167.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3756.

توجيه الاستئناف التّعليليّ:

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾، أي: فلا تشكَّ بعدَ ما أُنزل عليكَ من هذه القصص في سوء عاقبة عبادتهم، لما أصاب أمثالَهم قبلَهم؛ تسليةً لرسول الله ﷺ، وعِدةً بالانتقام منهم، ووعيدًا لهم. ثمّ قال: ﴿مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم﴾، يريد أنَّ حالهم في الشّرك مثلُ حالِ آبائهم، من غير تفاوت بينَ الحالين، وقد بلغكَ ما نزل بآبائهم، فسيَنْزِلَنّ بهم مثلُه، وهو استئنافٌ، معناه: تعليلُ النّهي عنِ المريَة[1].

التّماثلُ في الأداء، يؤذنُ بعليّةِ التّساوي في الجزاء

توجيه النَّهي بـ (لا):

لم يقع منَ النَّبيِّ ﷺ شكٌّ حتَّى يُنْهَى عنه، ولا من أحدٍ من أصحابه رضي الله عنهم، حيثُ الخطابُ بالنّهي له ﷺ مُرادًا به أُمَّتُه، ولكن من فصاحة القول في بيان ضلالة الكَفَرة إخراجُه في هذه العبارة، أي: حالُهم أوضحُ من أن يُمْتَرى فيها[2].

ترقية النَّهي عنِ المريةِ إلى منصَّة البيان؛ إنذارًا وتسليةً

فالنَّهْيُ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ﴾ تَسْليَةٌ لَهُ ﷺ، وإنْذارٌ لِقَوْمِه[3].

ويجوز أن يكون توجيهُ النَّهي لا إلى مخاطَبٍ بعينه، بل "يُقْصَد به أيُّ سامعٍ، لا سامعٍ معيّن، سواء كان ممّن يُظَنّ به أن يشكّ في ذلك أم لا، إذ ليس المقصودُ معينًا"[4].

فائدة النَّهي عنِ الامتراء:

وللنَّهي في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ﴾ فائدتان أيضًا[5]:

عاقبة الشِّرك تجتثُّ الأُمَم، وتنتهي بها للنَّدم

الفائدة الأولى: أنّه نهيٌ لـمَن يقرؤون القرآنَ، فهو نهيٌ في ظاهره

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/431.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/209.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/134.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/167.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3757.

للنّبي ﷺ، وفي حقيقته لكلّ أتباعِه، وكلّ مَن يُخاطَبون بالقرآن، وهو اقتلاعٌ لجذور الشّكِّ منَ النّفس. أو أنَّ النَّهي لكلِّ مَن يتأتَّى منه الخطابُ بلا تعيين - كما مضى بيانُه - فيكون نهيًا عامًّا.

الفائدة الثّانية: أنّ النّهيَ لإفادة البُطلان بدليله، فإنّ ما سبق ذِكْرُه منَ القصص الماضية، فيه أدلّةٌ بُطلان الشّرك، وأنّه معاقبٌ عليه، وأنّ عاقبته العقاب الصّارم الّذي يجتثّ الأممَ، وهم ليسوا بعيدين عن أن ينالوا نفسَ العقاب.

نُكْتَةُ التّعريض في جملة النّهي:

تنبيهُ الوالِهِ إلى دفع الامتراء، بـ"إيّاك واسمعي" تعريضًا

هذا النّهيُ له ﷺ هو تَعريضٌ لِغَيْرِه، ممَّنْ يُداخِلُهُ شَيْءٌ منَ الشَّكّ، فإنّه ﷺ لا يَشُكُّ في ذَلِكَ أبَدًا[1]، وإن كان للنّبيّ ﷺ فهو بيانٌ؛ لأنّه ليس مَحَلًّا للرَّيب، تعريضًا بِمَنِ ارتاب فيه، ولا يَلْزَم من نهيه عنه وقوعُه، ولا توقُّعُه منه[2].

إيثار فعل الكينونة في ﴿فَلَا تَكُ﴾:

إيثارُ البيان في نفي الكينونة بالمجزوم، والإسراعُ لملامسة المراد المرقوم

ولَمّا كانَ ما تَضَمَّنَهُ هَذا التَّقْسيمُ أمْرًا عَظيمًا، وخَطْبًا جَسيمًا، اقْتَضى عَظيمَ تَشَوُّفِ النَّفْسِ، وشَديدَ شَوْقِها؛ لِعِلْمِ ما سُبِّبَ عنهُ، فاقْتَضى ذَلِكَ حَذْفَ النّونِ من (كانَ)؛ إيجازًا في الكَلامِ، لِلْإسْراعِ بالإيقافِ عَلى المُرادِ، والإبْلاغِ في نَفْيِ الكَوْنِ عَلى أعْلى الوُجوهِ؛ فَقالَ: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾، والمَعْنَى: (فلا تَكُنْ)، إلّا أنَّهُ حَذَفَ النُّونَ لِكَثْرَةِ الاسْتِعْمالِ، ولِأنَّ النُّونَ إذا وقَعَ على طَرَفِ الكَلامِ، لَم يَبْقَ عِنْدَ التَّلَفُّظِ بِهِ إلّا مُجَرَّدُ الغُنَّةِ، فَلا جَرَمَ أسْقَطوه[3].

وفي تَسَلُّط النَّهي على فعل الكينونة المجزوم ﴿تَكُ﴾، دونَ تسلُّطه على فِعْلِ الامتراء مباشرةً، فلم يقل: (فلا تمترِ)، مبالغةٌ في النَّهي عنه.

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 2/599.
(2) الشّهاب، عِناية القاضي: 5/85.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/404.

بيان المتشابه اللّفظيّ:

قال تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ﴾ [هود: 17]، وقال: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦۖ﴾ [السّجدة: 23]. ففي الأولى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ﴾ [هود: 17]، وفي الثّانية: ﴿فَلَا تَكُن﴾ [السّجدة: 23] بحذف النّون في الأولى وإثباتها في الثّانية، ومَرجِعُ هذا إلى السّياق في كلٍّ منهما؛ فأنتَ ترى أنّ السّياق مختلفٌ في الآيتين، فالأولى تثبيتٌ للرّسول بقوّة، ونهيٌ عنِ الرَّيب والمِرْية، فقد بدأ الكلام بقوله: إنّه كان على بيّنة من ربّه، ثمّ يتلوه شاهد منه، ثمّ قبلَه كتابُ موسى، وخَتَمَه بقوله: ﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [هود: 17]؛ فناسبَ ذلك أن يقال: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُۚ﴾ [هود: 17]، بخلاف الآية الأُخرى فإنّها ليس فيها مثلُ هذه الدّواعي، كما هو ظاهر[1].

للمُتشابِه توجيه بحَسَبِ ما تقتضيه دواعيه

حاصل الحكمة من حذف النون في ﴿تَكُ﴾:

ناسب الحذفُ منَ الآية الأولى، وهي آية هود ﴿فَلَا تَكُ﴾، دون الثّانية وهي آية السّجدة ﴿فَلَا تَكُن﴾ [السجدة: 23]، أمّا إيثارُه الحذفَ في الأولى: فتثبيتًا للرّسول، ونهيًا له عنِ الرّيبة فيه، وذلك أنّه طُلِب منه ألّا يكون في شيء منَ المرية أصلًا، فلمّا كان الكلام في القرآن وفي قومه، ناسب الحذفُ ها هنا دونَ الثّانية[2].

الحذف والتّثبيت يتناسب معَ النّهي له عنِ الرّيبة فيه، أو عدمها

دلالة الحرف ﴿فِي﴾:

﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ﴾، مفيدةٌ لِلظَّرْفيَّةِ المَجازيَّة[3]، وهي المُلابَسَةُ الشّديدَةُ كمُلابَسَةِ الظّرْفِ لِلْمَظْروفِ[4]، أيْ: لا تَفْعَلْ فِعْلَ مَن هو في مِرْيَة؛ بِأنْ تَضْطَرِبَ من أجْلِ ما يَعْبُدونَ، مواظِبينَ عَلى عِبادَتِهِم، مُجَدِّدينَ ذَلِكَ في كُلِّ حَيٍّ،

ملابسةُ المعاني تَجَوُّزًا، قصدَ تأكيدها

(1) فاضل السّامرائيّ، معاني النّحو: 1/233.
(2) فاضل السّامرائيّ، أسرار البيان في التّعبير القرآنيّ، مبحث الذّكْر والحَذف. (الشاملة، الكتروني).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/167.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/42.

فَتُنْجِعَ نَفْسَكَ في إرادَةِ مُبادَرَتِهِم إلى امْتِثالِ الأوامرِ في النُّزوعِ عن ذَلِكَ، بِالكَفِّ عن مُكاشَفَتِهِم بِغائِظِ الإِنْذارِ، والطَّلَبِ لإِجابَةِ مُقْتَرَحاتِهِم رَجاءَ الازْدِجارِ[1].

إيثار لفظ (المرية) دون غيرها:

يُــتَـخـيَّرُ بـينَ المترادفات جلبًا للخصوصيّة

المريةُ: التَّردُّدُ في الأمرِ، فيكون معناه أخصَّ منَ الشّكِّ؛ لذلك كان إيثارُ هذا اللّفظِ أوْلى من غيره، لأنّه يُستَدَلُّ بنفي الأدنى على تمام نفي الأعلى بالدَّلالةِ الأحرويَّة، أي: دلالة الأوْلى.

سِرُّ تنكير لفظ ﴿مِرۡيَةٖ﴾:

سوقُ التّنكير، قصدًا للتّعميم

السِّرُّ في تنكير كلمة ﴿مِرۡيَةٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ﴾ سببُه قَصْدُ التَّعميم؛ ليشمل كلَّ ما يُسَمّى ﴿مِرۡيَةٖ﴾، قليلًا كان أو كثيرًا.

بلاغة الاستعارة، في لفظ الامتراء:

دلالة المفاعلة، في المرية أو الامتراء، بعد استعارته لمعنى الشّكِّ

في قوله: ﴿مِرۡيَةٖ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ، حيثُ استُعير لفظُ (المرية) للشّكّ، وقد جاءَ فِعْلُ المريَةِ عَلى وزْنِ فاعَلَ أوْ تَفاعَلَ وافْتَعَلَ، ولَم يَجِئْ عَلى وزْنٍ مُجَرَّدٍ؛ لأنّ أصل المِراءِ المُجادَلَةُ والمُدافَعَةُ، مُسْتَعارًا من مَرَيْتُ الشّاةَ، إذا اسْتَخْرَجْتُ لَبَنَها، ومنْهُ قَوْلُهُمْ: (لا يُجارَى ولا يُمارَى)[2].

دلالة (من)، من شبه الجملة (مِّمّا):

دفع الامتراء منها وفيها، ودلالة ذلك في المعنى

(من) في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ ابْتدائيَّةٌ، أي: فلا تكُ في مرية من عِبادَةِ هَؤُلاءِ المُشْرِكينَ، في أنّها ضَلالٌ مُؤَدٍّ إلى مثْلِ ما حَلَّ بِمَن قَبْلَهم، ممَّنْ قَصَصْتُ عَلَيْكَ سوءَ عاقِبَةِ عِبادَتِهِم. وجوِّزَ أنْ تَكونَ بِمَعْنى (في)[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/385.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/67.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/341.

توجيه (ما) بين الموصولة، والمصدريّة:

دَفـعُ الامـتراء عـن مثل عبادة الكفّار أو منها

(ما) في: ﴿مِّمَّا يَعۡبُدُ﴾ و﴿كَمَا يَعۡبُدُ﴾، يجوز أن تكون مصدريّة أو موصولة، أي: من عبادتهم، وكعبادتهم. أو ﴿مِّمَّا﴾ منَ الذي يعبدون من الأوثان، ومثل ما - الذي - يعبدون منها(1).

وقال الطِّيبِيُّ تعليقًا على قول الزّمخشريّ: "أي: من عبادتهم وكعبادتهم": فيه نشرٌ، يعني: على تقدير أن تكون (ما) في الصّورتين مصدريّة: معناه هذا، وعلى تقدير أن تكون موصولة: معناه: ممّا - أي - منَ الذي يعبدون منَ الأوثان، ومثلَ ما يعبدون منها(2).

علّة مجيء فعل العبادة مضارعًا:

سَـوْقُ المُضارع لـلـدَّلالـةِ على الدَّوام

عَبَّرَ عن عِبادَةِ الآباءِ في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ﴾ بالمُضارعِ؛ لِلدَّلالَةِ عَلَى اسْتِمْرارِهِم على تلك العِبادَةِ، أي: إلّا كما اعْتادَ آباؤُهُم عِبادَتَهُم(3).

نكتة التَّعبير بِاسم الإشارة:

الإشـــــارة بـ (هــــؤلاء) إلى مُشاهَد موجودٍ، أو مُنَزَّلٍ مَنزلَتَه

قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ إشارَةٌ إلى الّذينَ دَعاهُمُ النَّبيُّ ﷺ؛ لِحُضورِهِم في ذِهْنِ السّامعِ عِنْدَ سَماعِهِ اسْمَ الإشارَةِ، وأصلُ الإشارَةِ يكون إلى مُشاهَدٍ في الوُجودِ، أو مُنَزَّلٍ مَنْزِلَتَهُ، وقَدِ اصْطَلَحَ القُرْآنُ عَلَى إطْلاقِ إشارَةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مُرادًا بها المُشْرِكونَ، وهَذا مَعْنًى أَلْهَمَنا إلَيْهِ - والكلام لابن عاشور - استقريناه فكانَ مُطابِقًا؛ لِأَنَّ تَقَدُّمَ ذِكْرِهِم يَجْعَلُهُم كالحاضِرينَ فَيُشارُ إليهم؛ لِأَنَّهُم لِكَثْرَةِ تَوْبيخِهِم ومُجادَلَتِهِم صاروا كالمُعَيَّنينَ عند المُسْلِمينَ(4).

بلاغة الفَذْلَكَة:

الإرشـــــاد إلى مقصد الاِعْتِبار بِـالـعـواقـب في السّياق

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾، فَذْلَكَةُ ما تَقَدَّمَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/431.

(2) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 8/209.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/168.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 5/57.

منَ الإرْشادِ إلَى الاعْتبارِ بما حَلَّ بالأُمَمِ المُهْلَكَةِ، وإنْذارُ أعْداءِ النَّبيِّ ﷺ بِه، يَقولُ: فإذا كانَ أمْرُ الأُمَمِ المُشْرِكَةِ الظّالِمَةِ في الدُّنْيا ثُمَّ في الآخِرَةِ، كَما قَصَصْناهُ عَلَيْكَ أيُّها الرَّسولُ، فَلا تَكُنْ في أدْنَى شَكٍّ وامْتِراءٍ ممّا يَعْبُدُ قَوْمُكَ هَؤُلاءِ، في عاقِبَتِهِ بِمُقْتَضَى تِلْكَ السُّنَّةِ الَّتي لا تَبْديلَ لَها[1].

بلاغة النَّفي بـ (ما):

إيثار (ما) للدّلالة على نفي الحال، ولكون النّفي بها أقوى وآكَد

في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾، مُضافٌ مَحْذوفٌ؛ أي: من حالِ ما يَعْبُدونَهُ من أنَّهُ لا يَضُرُّ ولا يَنْفَعُ؛ إذ لا معنى لِلْمِرْيَةِ في أنْفُسِهِم، أي: لا تَكُ في شَكٍّ من عِبادَةِ هَؤُلاءِ، والإشارَةُ بِهَؤُلاءِ إلى مُشْرِكي قُرَيْشٍ. والأنسب للنَّفي في قوله تعالى: ﴿مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ﴾ توقيتُ ﴿مَا﴾؛ لأنَّها إذا دخلت على المضارع كانت لنفي الحال، أي: لنفيه في الزّمن الحاضر، أمّا (لا) فتنفي الفعلَ المضارعَ في المستقبل[2]. فضلًا عن كون (ما) أقوى في النّفي وآكَد، وهو يناسب شِدَّة نفي العبادة عنهم، تشبيهًا بعبادة الآباء.

سِرُّ جمعِ فعلِ العبادةِ بعدَ إفراده:

تعميم الأحكام مَقْصِدُ العُدولِ مِنَ الإفراد إلى الجمع

العدولُ منَ الإفراد إلى الجمع لتعميم التّسوية بينَ معبودات الكفار، وبيانِ تمالُئِهم على عبادتهم، واجتماعِهم عليها مُصِرّين.

بلاغة الحصر بالنّفي والاستثناء:

تقريرُ المماثلة في الجزاء، للمماثلة في الأفعال، وتأكيده بأقوى أنواعِ الحصر

الحصر بالنّفي ثمّ الاستثناء في قوله تعالى: ﴿مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ﴾، هو من أقوى أنواع الحَصْر، وهو حَصْرُ موصوفٍ على صفة، وبلاغةُ الاسْتِثْناءِ في كونه واردًا على عُموم المَصادِرِ، وكافُ التَّشْبيهِ نائِبَةٌ عَن مَصْدَرٍ مَحْذوفٍ. والتَّقْديرُ: إلّا

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/133 - 134.

(2) المبّرد، المقتضب: 1/47.

عِبادَةً كَما يَعْبُدُ آباؤُهم[1]. وتحرير ذلك: أنَّ الِاسْتِثْناءَ إمّا من مَصْدَرٍ مُقَدَّرٍ، أَوْ مَفْعولٍ مَحْذوفٍ، أي: هم وآباؤُهم سَواءٌ في الشِّرْكِ، ما يَعْبُدونَ عِبادَةً إلّا كَعِبادَةِ آبائِهِم، أَوْ ما يَعْبُدونَ شَيْئًا إلّا مِثْلَ الَّذي عَبَدوهُ منَ الأَوْثانِ[2].

نكتةُ الاسْتِثْناءِ لِلنَّهْيِ عَنِ الشَّكِّ:

بيان كونهم سَواءً في الشِّرْكِ بِالله، وعِبادَةِ غَيْرِهِ

في الاستثناء دفعُ الرَّيب باستصحاب ما كان عليه الآباء من زيغ؛ على معنى: أنَّ الله تعالى بَيَّنَ للنَّبي ﷺ أنَّ مَعْبوداتِ هَؤُلاءِ كَمَعْبوداتِ آبائِهِم، أو أنَّ عِبادَتَهُم كَعِبادَةِ آبائِهِم من قَبْلُ، وفيه اسْتِثْناءُ تَعْليلٍ لِلنَّهْيِ عَنِ الشَّكِّ، والمعنى: أنَّهُم سَواءٌ في الشِّرْكِ بِالله وعِبادَةِ غَيْرِهِ، فَلا يَكُنْ في صَدْرِكَ حَرَجٌ ممّا تَراهُ منْ قَوْمِكَ، فَهُم كَمَنْ قَبْلَهُم من طَوائِفِ الشِّرْكِ[3].

بلاغة أداة التَّشبيه:

التّماثل في الأسباب، يقتضي التّماثل في المسبَّبات

قولُه ﷻ: ﴿مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ﴾، بمعنى: هم وآباؤهم سواء في الشِّرك، أي: ما يعبدون عبادة إلّا كعبادة آبائهم، أو ما يعبدون شيئًا إلّا مثل ما عبدوه منَ الأوثان، فمَعْنى: ﴿كَمَا يَعۡبُدُ﴾ كما كانَ عَبَدَ، فَحُذِفَ لِدَلالَةِ ﴿قَبۡلُۚ﴾ عليه، وكَأَنَّ اخْتيارَ هَذا التّشبيه لِلْإشارَةِ إلى أنَّ ذَلِكَ كانَ عادَةً مُسْتَمِرَّةً لَهم، فحالُهم في الشّرك مثلُ حالِ آبائهم، من غير تفاوت بينَ الحالين، وقد بَلَّغَ النَّبيُّ ﷺ ما نَزلَ بآبائهم، فسينزلَنّ بهم مثلُه؛ لأنَّ التّماثل في الأسباب يقتضي التّماثلَ في المسبَّبات، وهو استئناف معناه تعليل النّهي عنِ المرية[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/68.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/341.

(3) الشّوكاني، فتح القدير: 2/599.

(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/431، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/150.

سرُّ تكرار (ما) الموصولة، أو المصدريَّة:

تكرّرت (ما)؛ لبيان أنَّ المشركين لا يُفكّرون، وهم مؤاخذون لكفرهم، ولإهمال الآيات الدّالّة على الوحدانيّة، وللمعجزة الدّالّة على رسالة محمّد ﷺ، وهي معجزة القرآن الكريم[1]، وفي ذلك تهكُّم بهم، وزجرٌ لسوء تقليدِهم لآبائهم في الشّرك.

تكرار (ما) مع ما يَعْبُدونَهُ؛ لزجرهم وبيانِ أنَّ معبودهم لا يَضُرُّ ولا يَنْفَعُ

سرُّ التَّعبير بالمضارع:

العدولُ إلى صيغة المضارعِ لحكايةِ الحالِ الماضيةِ من عبادة الآباء؛ لاستحضار صورتها أو مثلِ ما كانوا يعبدونه، والقَصْدِ إلى بيانِ استحقاقِ العقوبةِ كلّما تجدَّد الفعلُ؛ فالجزاءُ من جنس العمل على الدَّوام[2].

إفهام الأنام بأنَّ الجزاء من جنس العمل على الدّوام

إيثار لفظ (الآباء)، وأثره:

أُطْلِقَ الآباءُ على الأسْلافِ، وهم عادٌ وثمودُ، وذلِكَ أنَّ العَرَبَ العَدْنانيِّينَ كانت أُمُّهُم جُرْهُمِيَّةً، وهي امْرَأةُ إسْماعيلَ، وجُرْهُم من إخوة ثَمودَ، وثَمودُ إخْوَةٌ لِعادٍ، ولأنَّ قُرَيْشًا كانت أُمُّهُم خُزاعِيَّةً، وهي زَوْجُ قُصَيٍّ. وعِبادَةُ الأصْنام في العربِ أتاهُم بها عَمْرو بنُ لُحيّ، وهو جَدُّ خُزاعَةَ[3]، فهذا وجه الانتساب على الحقيقة.

لا تُنزَّلُ الأقوالُ والأفعالُ مقامَ الحُجَجِ في الاستدلال

وإيثار لفظِ الآباء في إنكار عبادات المُشركين خَلَفًا عن سَلَف؛ لبيان أنَّهم لَم يَفْعَلوا ذلك لِشُبْهَةٍ إذا كُشِفَ عنها القِناعُ رَجَعوا، بل لِمَحْضِ تَقْليدِ الآباءِ، مَعَ اسْتِحْضارِهِم لِتَلَبُّسِهِم بالعِبادَةِ، كأنَّهم حاضِرونَ لَدَيْهِم يُشاهِدونَهم، مع العَمى عَنِ النَّظَرِ في الدَّلائِلِ والحُجَجِ، كَما كانَ مَن قَصَصْنا عليك أخْبارَهم منَ الأُمَمِ، في تَقْليدِ الآباءِ سَواءً بِسَواءٍ، مع عَظيم شَكيمَتِهِم، وشِدَّةِ عَصَبَتِهِم لِلْأجانِبِ، فَكَيْفَ بِالأقارِبِ؟ فَكَيْفَ بِالآباءِ[4]؟

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3757.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/243.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/168.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/387.

وجه نسبة (الآباء) إلى ضميرهم:

سيقتِ النّسبةُ في قوله ﷻ: ﴿مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم﴾ للتَّنصيصِ على أنَّهم سَلَفُهُم في هذا الضَّلالِ، وعَلَى أنَّهُمُ اقْتَدَوا بِهِم[1]، بوصفهم منسوبين إليهم، وأنّهم على آثارهم سائرون.

الضَّلال شنشَنةٌ عُرِفت من أخزم

معنى ﴿مِّن﴾ في الآية:

لـمّا كانت عبادتُهم في قليل منَ الزّمن الماضي، أدْخَل الجارَّ فقال: ﴿مِّن قَبۡلُۚ﴾، أي: أنّهم لم يفعلوا ذلك لشبهةٍ إذا كُشِفَ عنها القناعُ رجعوا، بل لمحض تقليدِ الآباء، معَ استحضارهم لتلبُّسِهم بالعبادة، كأنّهم حاضرون لديهم يشاهدونهم، معَ العمى عنِ النَّظر في الدّلائل والحُجَج، كما كان مَن قصصنا عليكَ أخبارَهم منَ الأمم، في تقليد الآباء سواءً بسواء[2].

الـكـفـرُ حديثُ عهد بمن سبق

بلاغة الإطناب:

أوثر الإسهابُ في تَوصيفِ ما عليه أبناءُ المشركين أُسوةً بأسلافهم؛ لتعليل النَّهي عنِ الشَّك في عبادتهم، ومن ذلك الإسهابِ قولُه: ﴿مِّن قَبۡلُۚ﴾، مع أنّه قد يُظَن أنّه غيرُ محتاجٍ إليه؛ لإغناء قوله: ﴿ءَابَآؤُهُم﴾ عنه، فحتمًا أنّ آباءهم كانوا قبلهم، فلِمَ النّص عليه؟

والجواب: لعلَّ القصد منه الدّلالة على أن يتمَكَّنَ المعنى المقصودُ في النَّفس أفضلَ تمكُّنٍ، ويكونَ الشُّعورُ به أتَمّ، وإلى زيادةِ التَّنبيهِ على دَفْعِ الشّكّ بالقواطع؛ ليحْصُلَ قبولُ المتلقّي لما يقال له، أو يخاطَب به.

الإسـهـاب في سَـوْقِ المعاني، يومئ إلى تثبيتها

علَّة حذفِ المضاف إليه في ﴿قَبۡلُۚ﴾:

المُضافُ إلى ﴿قَبۡلُۚ﴾ مَحْذوفٌ تَقْديرُهُ: (من قَبْلِهِم)، تَنْصيصًا على أنَّهُم سَلَفُهُم في هذا الضَّلالِ، وأنَّهُمُ على آثارهم مقتدون[3]، وقد حُذِف المضافُ إليه للعِلْم بتقديره.

مـن مـقـاصـد البيان، إضمار ما عُلِمَ تقديره

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 12/169.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/387.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/169.

توجيه الاستئناف التَّعليليِّ:

ربط العلل بالمحكمات لتقرير قطعيّة الإدانات

الاستئناف في قوله تعالى: ﴿مَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبۡلُۚ﴾؛ جيء به لتعليل النّهي عنِ المرية، أي: هم وآباؤهم سواءٌ في الشّرك، أي: ما يعبدون عبادةً إلّا كعبادة آبائهم، أو ما يعبدون شيئًا إلّا مثل ما عبدوه منَ الأوثان، وقد بلغك ما لَحِق آباءَهم من ذلك، فسيلحَقُهم مثلُه[1].

والحاصل: أنّه استئنافٌ قُصِدَ به التَّعليلُ[2]، الذي يتوكَّأ على حِكْمَةٍ تَقْتَضي المُساواةَ في الجَزاءِ عَلَى الأَعْمالِ المُتَماثِلَةِ[3].

دلالة الواو في: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ﴾:

القصد إلى التّنبيه، على ملازمة العلل لمعلولاتها

الواو عاطفة للدّلالة على أنّ جُمْلَةَ: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ﴾ معطوفةٌ عَلى جُمْلَةِ التَّعْليلِ، والمَعْطوفُ هو المَعْلولُ[4]؛ لبيان أنَّ الجزاء من جنس العمل.

بلاغة حشدِ المؤكّدات في الآية:

تظاهُرُ المؤكّدات على قدرٍ مشترك؛ رعيًا للمُهِمّات

حُشِد لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ﴾ المؤكِّداتُ: (إنّ)، و(نا)، و(اللّام)، و(الجملة الاسميّة)؛ لتمام التَّوْفيَةِ لحَظِّهمُ المُعَيَّن لَهم، حَسَبَ جَرائِمهم وجَرائِرِهِم منَ العَذابِ عاجِلًا وآجِلًا، كَما وفَّيْنا آباءَهم أنْصِباءَهُمُ المُقَدَّرَةَ لَهُم، أو منَ الرِّزْقِ المَقْسوم لَهُم، فَيَكونُ بَيانًا لِوجْهِ تَأَخُّرِ العَذابِ عنهم، مَعَ تَحَقُّقِ ما يوجِبُهُ[5].

سرُّ العدول في ﴿لَمُوَفُّوهُمۡ﴾:

المراوحةُ بين الصّيغ والمباني؛ لتأكيد المعاني، من بلاغة النّسق والبيان

عَبَّر عنِ الإيفاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ﴾ باسم الفاعل، وهو من (وفّى) الرُّباعيّ، وصيغةُ اسم الفاعل عُدِلَ به عن

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/150.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/208.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/168.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/169.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/243.

المضارع؛ لإثبات معنى الإيفاء وتأكيدِ حدوثه وفاعله[1]، بما لا يتطرّق إليه الشّكُّ والاحتمال.

دلالة لفظ (النَّصيب):

جَلْبُ ما يحقّق وفرةً في المعاني، بإيراد المباني

النّصيب: القِسْمُ المجعولُ لصاحبه، كالحَظّ[2]، وهو عند الرّازيّ على أربعة أوجه؛ يحتملُ أن يكون المُرادُ: إنّا موفّوهُم نصيبهُم، أي: ما يخُصُّهُم من العذابِ. ويحتملُ أن يكون المُرادُ أنّهُم وإن كفروا وأعرضوا عنِ الحقِّ، فإنّا موفُّوهُم نصيبهُم من الرِّزقِ والخيراتِ الدُّنيويّةِ. ويحتملُ أيضًا أن يكون المُرادُ إنّا موفُّوهُم نصيبهُم من إزالةِ العُذرِ وإزاحةِ العِللِ وإظهارِ الدّلائلِ وإرسالِ الرُّسُلِ وإنزالِ الكُتُبِ. ويحتملُ أيضًا أن يكون الكلُّ مرادًا[3].

سرُّ الإضافة في (التَّوفية) و(النَّصيب):

لا يمنع الإعراضُ، عن توفية ما قُدِّر للعباد

في إضافة التَّوفية والنّصيب إلى الضّمير (هم) ما لا يخفى، من أنَّ القِسْمَ المَجْعولَ لهم كالحَظِّ منَ الخَيْرِ والشَّرِّ، منَ الآجالِ وغَيْرِها، وما هو ثابتٌ ثَباتًا لا يُفارَقُ أصْلًا، فَإنّ اللّه موفّيهم نَصيبَهم منه؛ منَ الرِّزْقِ والخَيْراتِ الدُّنْيَوِيَّةِ، أو نَصيبَهم من إزالَةِ العُذْرِ، وإزاحَةِ العِلَلِ، وإظْهارِ الدَّلائِلِ، وإرْسالِ الرُّسُلِ، وإنْزالِ الكُتُبِ[4]. وفي هذا منَ الإشارَةِ إلى مَزيدِ فَضْلِ اللّه تَعالى وكَرَمِه ما لا يَخْفى، حَيْثُ لَم يَقْطَعْ رِزْقَهم مَعَ ما هم عَلَيْهِ من عِبادَةِ غَيْرِه[5].

أسلوب التَّهكُّم:

تأكيد العطيّات من تمام فقه المروءات

اسْتَعْمَلَ البيانُ القرآنيّ ﴿لَمُوَفُّوهُمْ﴾ و﴿نَصِيبَهُمْ﴾ هُنا اسْتِعْمالًا تَهَكُّميًّا، كأنَّ لهم عَطاءً يَسْألونَهُ فَوُفُّوهُ، فوقَعَ قَوْلُهُ تعالى: ﴿غَيْرَ

---

(1) الأزهريّ، شرح التصريح على التوضيح: 2/11.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/387.
(3) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 18/404.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/404.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/341.

﴿مَنقُوصِ﴾ حالًا مُؤَكِّدَةً لِتَحْقيقِ التَّوْفيَةِ زيادَةً في التَّهَكُّم؛ لِأَنَّ مِنْ إكْرام المَوْعودِ بالعطاءِ أَنْ يُؤَكَّدَ لَهُ الوعدُ، ويُسَمَّى ذلك بِالبشارة[1].

وجه التَّعبير بـ (غير):

التَّأكيد على تمام الحقِّ، بنفي الاحتمالات بلفظة (غير)

يحمل قولُه تعالى: ﴿لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ﴾ على توفية الأجر من الخير والشّرّ منَ الآجال وغيرها، وما هو ثابت ثباتًا لا يفارق أصلًا؛ ولما كانتِ التّوفية قد تطلق على مجرّد الإعطاء، وقد يكون ذلك على التّقريب، نفى هذا الاحتمالَ بقوله: ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾[2]، وجيءَ بـ (غير) لشِدّة إبهامها أو عمومها في كلّ مُغايرٍ للمذكور، فلا يحصل بها تعيين، ولهذا تجري صفةً على النّكرة[3]؛ لِتُعَبّر على شِدّة المبالغة في الدّلالة على نفي النّقص في توفية نصيبهم.

علّة التّعبير في ﴿مَنقُوصٍ﴾:

دَفْعُ توهُّم التَّجوُّز، بدلالة اسم المفعول

علَّةُ التَّعبير باسم المفعول ﴿مَنقُوصٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾؛ لِدَفْعِ احْتِمالِ كَوْنِه مَنقوصًا؛ لإفادة أنَّ النّصيب أصبح ثابتَ المقدار على وجهٍ يدَفْعُ توهُّمَ التَّجَوُّزِ[4].

توجيهُ إعراب ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾:

تأكيد المعاني بالأحوال، لدَفْعِ الأوهام

الأَوْجَهُ أن يقال في توجيه ما قيل: استُعْملت التَّوفيةُ بمعنى الإعطاء، كما استُعمل التَّوفّي بمعنى الأخذ. ومَن قال: أعطيتُ فلانًا حَقّه، كان جديرًا أن يُؤَكِّدَه بقوله: ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾[5]. فـ ﴿غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ حالٌ مِنَ النَّصيب لتقييد التَّوفيَة؛ فإنَّك تقول: وفَّيْتُه حَقَّه، وتريد به وفاءَ بعضِه ولو مجازًا[6]؛ لأنَّ التَّوفيَةَ تقتضي عدمَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/169.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/387.
(3) ابن القيّم، التّفسير القيّم: 1/123.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/243.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/432.
(6) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/150.

نقصانِ الموفَّى، كُلًّا كان أو بعضًا، فوفاءُ النِّصفِ يَلزم منه عدمُ نقصان النِّصف[1]. والحكمةُ أن يقال: ﴿غَيۡرَ مَنقُوصٖ﴾ حالٌ مُؤكّدة منَ النَّصيب؛ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ٢٥﴾ [التوبة: 25]، وفائدتُه دفعُ توهّم التَّجوّزِ، وجعلُها مُقيّدةً له؛ لِدَفْعِ احتمالِ كونِه منقوصًا في حَدّ نفسِه، مبنيٌّ على الذهول عن كون العاملِ هو التوفيةَ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشّكُّ، والرّيبةُ، والمِرْيَةُ:

الفرق بينَ المرية والشّكّ، كالفرق بينَ المتعادلين، وجاء الأخصّ لنفي التَّردُّد في أمر العبادة

الشَّك: هو وقوف النّفسِ بينَ الشّيئين المتقابلَين، أو المتناقِضَين، بحيث لا يترجّح أحدُهما على الآخَر بأمارة عند الشّاك.

والرّيبُ: شكّ فيه خوفٌ، وهو أخصّ منَ الشّك، فكلُّ ريبٍ شكّ، وليس كلُّ شكّ ريبًا[3].

والمريَةُ: هي التَّردُّد في الأمر، وهو أخصّ منَ الشَّكّ[4].

واستُعمل الأخصّ في الآية؛ لأنّه نفى التَّردُّد في أمر عبادتهم، ولم يكن نفيًا لشِكٍّ بينَ أمرين، ولا لشكٍّ فيه خوفٌ فيكون ريبًا.

التَّوفية، والتَّأدية:

النّسبة بينَ التّوفية والتّأديَة، نسبةُ العموم والخصوص المطلَق

التّوفّي: أَخْذُ الشّيء وافيًا؛ أي: تامًّا كاملًا، ويقابلُه التّوفيَة، وهو إعطاء الشّيء تامًّا كاملًا، ويقال: وفّاه حَقّه فتوفّاه منه[5]، فالمراد بالتَّوفية: مطلقُ التَّأدية[6].

والتّأديَة: أدّى دَيْنَه تأْديَةً، أي: قضاه؛ وهي إتيانُ عينِ الواجبِ في الوقت المحدّد. والفرق فيما ظَهَرَ: أنّ كلّ تأديَة توفيَةٌ، وليس كلُّ توفية

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/209.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/243.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 1/107.
(4) الرّاغب، المفردات: (مرى).
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 8/404.
(6) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 10/575.

تأديَةً. وبذلك فالتّوفيَةُ أنسبُ للسّياق من حيث إنّ نصيبَهم سيوفّى على وجهه الأتمّ الأكمل.

نصيب الّذين سُعِدوا، زيادةٌ مع التّمام، وجزاءُ المشركين تمامٌ دونَ زيادة

(منقوص)، و(مجذوذ):

الجَذّ: الكَسْر، والقَطْع، والعطاء غيرُ المجذوذ: هو عطاءٌ للّذين سُعِدوا، عطاءٌ دائمٌ لا ينقطع، ولا يتوقّف، عطاءٌ فيه تملُّكٌ، فلا يُستَردُّ، فالعطاءُ: هو الجزاءُ إضافةً إلى الزّيادة الّتي هي منَ الفضل[1]. والزّيادةُ التّامّةُ تُناسبُ العطاءَ المقتضي عدمَ القطعِ تفضّلًا وتكرُّمًا، أمّا غيرُ المنقوص: فهو الجزاءُ التّامّ للمشركين لا زيادةَ فيه[2]. ولا نقصان ليناسب توفيَةَ النَّصيب على مقتضى عدلِه جلّ في علاه، وِفاقَ ما قدَّموا من عمل.

(1) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/104.
(2) محمد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/104.

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١١٠﴾ [هود: 110]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تسلية الأنام، بمنهج ضرب الأمثال، بربط معاناة الأنبياء، مع التّكذيب العلنّ

ضُربتُ الأمثالُ بِسُنَّةِ الله تعالى في الأُمَم وأقْوام الأنْبياءِ ﷺ تسليةً وتخفيفًا، وبما عمّت به البلوى؛ والقصدُ: أنّه تعالى لمّا بيّن إصرارَ كُفّارِ مكّة على إنكار التّوحيد، وتقليدِهم آباءَهم في عبادة الشُّركاء من دون الله، بيّن هنا أيضا إصرارَهم على إنكار نبوّته ﷺ، وتكذيبِهم بكتابه، وأنَّ هَؤُلاءِ الكُفّارَ كانوا على هذه السّيرَةِ الفاسِدَةِ مع كُلِّ الأنْبياءِ ﷺ، وأنَّهُ سُبْحانَهُ لَمّا أنْزَلَ التَّوْراةَ عَلى موسى ﷺ اخْتَلَفوا فيه، فَقَبِلَهُ بَعْضُهم وأنْكَرَهُ آخَرونَ، وذَلِكَ يَدُلُّ عَلى أنَّ عادَةَ الخَلْقِ هَكَذا[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَلِمَةٞ﴾: (الكافُ واللّامُ والميمُ) أصل يَدُلُّ على نُطْقٍ مُفْهِمٍ، ومنه الكلام؛ تَقولُ: كَلَّمْتُه أُكَلِّمُهُ تَكْليمًا، وهو كَليمي؛ إذا كَلَّمَكَ أو كَلَّمْتَهُ. ثُمَّ يَتَّسِعونَ، فَيُسَمُّونَ اللَّفْظَةَ الواحِدَةَ المُفْهِمَةَ كَلِمَةً، والقِصَّةَ كَلِمَةً، والقَصيدَةَ بطولِها كَلِمَةً. ويَجْمَعونَ الكَلِمَةَ على كَلِماتٍ وكَلِم، قالَ اللهُ تَعالَى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: 46][2]. وكلِمَةُ اللهِ: شريعتُه وحُكْمُه وإرادته، "قال تعالى: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ﴾ [التوبة: 40]، ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ﴾ [يونس: 33]، ﴿يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الأعراف: 158] أي: شرائعه"[3].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب، 18/405.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 5/131.
(3) أحمد مختار، معجم اللّغة العربية المعاصرة: 3/1954.

2) ﴿سَبَقَتْ﴾: (السِّينُ والباءُ والقافُ) أَصْلٌ واحِدٌ صَحيحٌ، يَدُلُّ عَلَى التَّقْديم[1]. وسبَقَ الشَّيءُ: مضى وتقدَّم، كقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَۚ﴾ [طه: 99][2].

3) ﴿مُرِيبٍ﴾: (الرّاءُ والياءُ والباءُ) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى شَكٍّ، أو شَكٍّ وخَوْفٍ، فالرَّيْبُ: الشَّكُّ. قالَ اللهُ جَلَّ ثَناؤُهُ: ﴿الٓمٓ ① ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: 1]، أيْ: لا شَكَّ[3]. ورابَكَ الأَمْرُ: إذا أَدْخَلَ عَلَيْكَ شَكًّا وخَوْفًا[4]، والرَّيب: صَرْف الدّهر[5]، والشّكُّ المريب: هو الذي تصحبُه شبهةٌ تزيد الإلباس[6].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

بيــــان أنّ الاختلاف فيما أنـزل اللـه، هو سُنّة المدعوّين مـع رسلـهـم، وهو واقع الأمم قديمًا

ذكَّرَ اللّه في هذه الآية بقوم موسى الّذين آتاهم الكتابُ، أي: التّوراة. فاختُلِف في شأنه وتفاصيل أحكامه، فآمن به قومٌ، وكفر به آخرون، وعَملَ بأحكامه قومٌ، وترك العمل ببعضها آخرون، فلا يَضِقْ صدرُك - يا محمّد ﷺ - بما وقع من هؤلاء في القرآن، ولولا أنّ اللّه سبحانَه قد حَكَم بتأخير عذابِهم إلى يوم القيامة، لِما عَلِمَ في ذلك منَ الصّلاح؛ لقضى عليهم عاجلًا، لكنّه سبحانه سيقضي بين قومك، أو بين قوم موسى فيما كانوا فيه مختلفين، فيُثابُ المحقُّ ويُعذّبُ المُبطل، فإنَّ قومَك لفي شَكٍّ منَ القرآن مُريب، إن حُملَ على قوم محمّد ﷺ، أو منَ التوراة إن حُملَ على قوم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 3/129.
(2) أحمد مختار، معجم اللّغة العربية المعاصرة: 2/1028.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 2/464.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 2/464.
(5) ابن منظور، لسان العرب: 1/442.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: 2/742.
(7) الشّوكاني، فتح القدير: 2/599.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الوصل بالعطف:

اختلاف أهلِ الكتاب على أنبيائهم، أعظمُ مِن اختلاف أهل الشّرك

الجملة اعْتِراضٌ لتثبيت النَّبي ﷺ وتَسْليَتِهِ؛ بإعلامه أنَّ أَهْلَ الكِتابِ - وهُم أحْسَنُ حالًا منْ أَهْلِ الشِّرْكِ - قَدْ أوتوا الكِتابَ فاخْتَلَفوا فيهِ، وهم أَهْلُ ملَّةٍ واحِدَةٍ، فلا تَأْسَ منِ اخْتِلافِ قَوْمِكَ عَلَيْكَ، فالجُمْلَةُ عَطْفٌ عَلَى جُمْلَةِ: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾[1]، وسِرّ العطف: التَّشريكُ بين الفريقين في التّمرّد على الرّسولَين الكريمين عليهما الصّلاة والسّلام.

وجه التَّوكيد باللّام و(قد):

المبالغةُ في التَّأكيد، للعبرة والتَّثبيت

أكَّد اللّه نزولَ الكتاب على موسى بـ (اللّام) و(قد)؛ ليُبيِّن لهم سوءَ صنيعهم بالاختلاف فيه، ويُعَرِّضَ بذمّهم، لكون الاختلافِ في مواطن اليقين وقوّةِ الدّليل جحودًا، وفي ذلك مزيدُ اعتبارٍ للمُعتَبر، وتثبيتٌ للمُتَيقّن، فإنْ كانوا قدِ اختلفوا في شأن ما أوتيَ موسى عليه السلام، ما بين مُذْعِنٍ ومُؤوّلٍ ومخالفٍ، فكيف تنتظر - يا محمّد ﷺ - من قوم أُمّيّين أنْ يُذعِنوا بمجرّد النّزول؛ فالقَصْدُ منَ الإحالة إلى تسليَة الرَّسول ﷺ[2].

إيثار لفظ الإتيان دون غيره:

الإتيان يُقال فيمَن كان منه قبول

الإتيان: مجيء بسهولة، ويُقال للمَجيء بالذّات وبالأمر وبالتّدبير، ويقال في الخير وفي الشَّرّ، وفي الأعيان والأعراض، وكلُّ موضع ذُكِرَ في وصْف الكتاب ﴿ءَاتَيۡنَا﴾ فهو أبلغ؛ لأنّه يُقال فيمن كان منه قبول[3]؛ لكون هذا الفعلِ قد استلزم صفاتٍ متكاملةً، علمًا، وحكمًا، وقُدْرةً، وعفوًا، وجبروتًا، وقهرًا، فهناك أشياءُ كثيرةٌ تتكاتف لتحقيق هذا الإتيان[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/169.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3758 - 3759.

(3) الرّاغب، المفردات: (أتى).

(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6697.

إضافة الإتيان إليه تعالى بضمير التَّعظيم:

القصدُ إلى التّشريف والتّعزير بالإتيان يستصحب تنزية الرّحمن

أُضيفُ الإتيانُ إلى اللّه تَعالى بضَميرِ العَظَمَة تشريفًا وتعزيرًا؛ لأنَّه أمرٌ يتعلّق بفعل الحقّ سبحانّه، وهو مُنزَّهٌ في ذاته عن أيّ تشبيه، فـ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشّورى: 11]؛ فإذا تكلّم الحَقّ سبحانَه على الفعل، فَخُذْ كلّ فعلٍ صدر عنه، بقوّته سبحانَه غيرِ النّهائية[1].

وجه إظهار اسم ﴿مُوسَى﴾ عليه السلام:

التّسلية والتّشريف بذكر أسماء الأنبياء السّابقين، وأحوالِ أقوامهم معهم؛ لأنّ المصائب إذا عمّت هانت

لـمّا ذكر اللّه تعالى في الآية السّابقة إعراضَ المشركين عنِ اتّباع ما أتى به النّبيُّ ﷺ منَ المعجزات، وأنزل عليه منَ الكتاب، سلّاهُ بأخيه عليه السلام؛ لأنّ الحال إذا عمَّ خَفَّ، وابْتَدَأ ذِكْرَهُ بِحَرْفِ التَّوقُّعِ بِما دَعا إلى تَوقُّعِهِ من قُرْبِ ذِكْرِهِ مَعَ فِرْعَوْنَ، مَعَ ذِكْرِ كِتابِهِ أوَّلَ السّورَةِ، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا﴾، أيْ: بِما لَنا مِنَ العَظَمَةِ، ﴿مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾، أيِ: التَّوراةَ الجامعَةَ للخيرِ[2].

نُكْتَة تعريف لفظِ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

الدّلالة على ما يَدلّ على الأعيان والذّوات

جاءت لفظة ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ معرّفة؛ لتدلَّ على شيء بعينه، وهو التّوراة[3]، فاللّام فيها عهديّة.

دلالة الفاء في السّياق الحكيم:

علّة التّخلُّفِ عن المنهج، فسادُ العقول والمُهَج

(الفاء) في قوله: ﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ﴾ للعطف والتّرتيب من غير تَراخٍ، وكأنَّه ترتَّب على إيتاء اللّه تعالى موسى الكتابَ المسارعةُ إلى الاختلاف، وهذا يدلُّ على أنّ الاختلاف ليس ناشئًا من ذلك الكتاب، بل هو ناشئٌ من فساد النّفوس، وإذا فَسَدتِ النُّفوس لا يقنِعُها الدّليل، ولا يهديها البرهانُ، مهما يكن حاسمًا[4].

---

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6697.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/387.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/169.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3759.

نكتة التَّعبير بصيغة ﴿فَٱخۡتُلِفَ﴾:

التَّنبيهُ على أولويّة اللَّوازم المقصودة أصالةً، لازمٌ في الإبانة عنِ المراد

لـمّا كان الضّارَّ والمسلّيَ الاختلافُ نفسُهُ، جاء الفعل ﴿فَٱخۡتُلِفَ﴾ بصيغة المبنيِّ للمجهول؛ لأنَّ ذكرَ فاعِل الاختلاف لا يتعلّق به غَرَضٌ، وإنَّما الذي يتعلَّق به الغَرَضُ هو ما نَجَم عن هذا الاختلافِ من كُفْر وضلال[1].

دلالة (في) على الظّرفية:

صلاحيّةُ ترديدِ (في) بما يدلّ على مُلابسة الاختلاف، أو سَببيّتِه، أو تعليقِه

(في) على بابها منَ الظّرفيَّة، وهو هنا مجازٌ، أي: في شأنه. وقيل: هي سببيّةٌ، أي: هو سببُ اختلافهم، كقوله تعالى: ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ﴾ [الشّورى: 11]، أي: يُكَثِّركم بسببه. وقيل: هي بمعنى على، ويكون الضّمير لموسى ﵇، أي: فاخْتُلِف عليه[2].

عودُ الضَّمير في شبه الجملة ﴿فِيهِۚ﴾:

صلاحيّةُ عَوْدِ الضَّمير على القريب والبعيد

الظّاهِرُ عَوْدُ ضميرِ ﴿فِيهِۚ﴾ على الكِتابِ لِقُرْبِهِ، ويَجوزُ أنْ يَعودَ عَلَى موسَى ﵇، ويَلْزَمُ منَ الاخْتِلافِ في أَحدِهما الاخْتِلافُ في الآخَرِ[3]. والحاصل: أنّه إذا تقدَّم أمران على ضمير الغَيْبَةِ؛ فيَصِحُّ أن يعود الضّميرُ إلى كلّ أمرٍ منهما[4].

فائدة التَّعبير بـ ﴿وَلَوۡلَا﴾:

لَوْلا نَظِرَةٌ لَهم إلى يَوْمِ الدّينِ، لَقُضيَ بَيْنَهم في الدُّنْيا

(لَوْلا) حرفُ امتناعٍ لوجود، أي: امتنعَ قضاءُ اللّه، أي: حُكْمُه فيما بينَهم ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ﴾، وكلمةُ اللّه السّابقة: هي التّأجيل ليوم الحساب، وتَركُهم في الدّنيا - دارِ البلاء والاختبار - ليَصِلَ كُلٌّ إلى أقصى ما تتأدّى به نزوعه، فيكون حُكْمُه بعدَ الأعمال كلّها[5].

فلولا حِكْمة التَّأخير، لوقعَ العذابُ بينَهم أو فيهم.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/170، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/387، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/282.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/396.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/216.

(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6696.

(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3540.

دلالة لفظ ﴿كَلِمَةٌ﴾ في الآية:

دلالة الكلمة على لازم الحُكم والقضاء

الكلمة: هيَ إرادَةُ اللّه الأزَليَّةُ، وسُنَّتُهُ في خَلْقِه[1]، وهي عبارةٌ عنِ الحُكم والقضاء. والمعنى: لَقُضيَ بَيْنَهُم - أي: لفُصِل بينَ المؤمن والكافر - بنعيم هذا وعذاب هذا[2].

بلاغة الكناية في لفظة الكلمة:

إخراج المعنى من عموم الكلام إلى خصوص القضاء

الكلمة هنا كنايةٌ عنِ القضاء والقَدَر[3]، وفيه إخراجُ المعنى من عموم الكلام وحقيقتِه، إلى خصوص القضاء والقدر، وواسعِ فضاءِ معناهما.

نُكْتَةُ وصْفِ (الكلمة) بـ (سَبَقَتْ):

تعليق المُقدَّرِ بالمعلوم الأزليّ

وصفَ اللّه تعالى الكلمةَ بالسَّبْقِ لِأَنَّها أزَليَّةٌ، باعْتِبارِ تَعَلُّقِ العِلْمِ بِوُقوعِها، وبِأنَّها تَرْجِعُ إلَى سُنَّةٍ كُلِّيَّةٍ، تَقَرَّرَتْ من قَبْلُ[4].

دلالة حرف الجرّ ﴿مِن﴾:

التّذكير برحمة الله وحِكمته، تأكيدٌ لعوارف الإيمان به

قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلّقان بـ ﴿سَبَقَتْ﴾، ولحَرْفِ الجَرِّ ﴿مِن﴾ دلالةٌ بلاغيّةٌ تُحيلُ على المُحْسِنِ إلَيْكَ وإليهم، بإرْسالِكَ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ، وأنّ الذي أخَّرَ العذابَ لن يُخْلِفَ إيقاعَه. فالقَصْدُ التّذكيرُ برحمة اللّه وحِكْمته.

إيثار لفظ الرُّبوبيَّة:

سَوْقُ ما يَدُلُّ على لازم الرَّأفة والنُّصرة

التَّعْبيرُ عَنِ الجَلالَةِ بِلَفْظ: ﴿رَبِّكَ﴾ لِما في مَعْنَى الرَّبِّ مِنَ الرَّأْفَةِ بِهِ، والِانْتِصارِ لَه، وتوفية حقّه. ولِما في الإضافَةِ إلى ضمير الرَّسول ﷺ مِنَ التَّشْريفِ، وكِلا الأمْرَيْنِ تَعْزيزٌ لِلتَّسْلِيَةِ[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/171.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/210.
(3) الزّحيلي، التّفسير المنير: 12/161.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/171.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/318.

بلاغة الالتفات في الآية الكريمة:

تدليل المتلقّي بالالتفات حالَ التّلقّي

في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَا﴾، وقوله: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ التفاتٌ، وقد سيق الالتفاتُ لحَثِّ السّامعِ وبَعْثِهِ على الاِسْتِماعِ حَيْثُ أقْبَلَ المُتَكَلِّمُ عَلَيْهِ، وأنَّهُ أعْطاهُ فضلَ عناية وتخصيصًا بالمواجَهَةِ[1]، كما أنّه لا يخفى ما فيه من تشريف المخاطَب بكاف الخطاب.

دلالة اللّام في قوله: ﴿لَقُضِيَ﴾:

تُـرِكَ العذابُ لكلمةٍ (سبقت)، لا بسبب قُـدرة الخصوم على دَفْعِه

اللّام واقعةٌ في جواب ﴿وَلَوۡلَا﴾؛ والمعنى: لَعُذِّبوا في الحالِ، وفُرِغَ من عَذابِهِم وإهْلاكِهِم من زمان؛ بدلالة الفعل الماضي المبني للمجهول، ومفهومُهُ: أنَّ تَرْكَ عَذابِ مَن يَستحِقُّه بسبب كلمةٍ ﴿سَبَقَتۡ﴾، لا بسبب قُدرتهم على دَفْعِه[2].

سرُّ التَّعبير عنِ القضاء بالبناء للمفعول:

سَوْقُ المبنيّ للمفعول، للاهتمام بالوقوع

سيق القضاءُ بالبناء للمفعول في قوله تعالى: ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾؛ للدَّلالةِ على إمكانِ تعجيلِ وُقوعِ القَضاءِ ﴿بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أيْ: بَيْنَ مَن اخْتَلَفَ في كِتابِ موسى عاجِلًا، ولَكِن سَبَقَتِ الكَلِمَةُ أنَّ القَضاءَ الكامِلَ إنَّما يَكونُ يَوْمَ القيامَةِ، فَيكونُ ﴿بَيۡنَهُمۡۚ﴾ نائِبُ فاعِلِ ﴿لَقُضِيَ﴾. والتَّقْديرُ: لَوقَعَ العَذابُ بَيْنَهم، أيْ: فيهِمْ[3].

بيانُ عود الضّمير في ﴿بَيۡنَهُمۡۚ﴾:

تكثيرُ متعلّقاتِ الضَّمائر، لاستيعاب المعاني، بتحقيق مقتضياته

إنَّ ضَميرَ ﴿بَيۡنَهُمۡۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ قد يكون عائِدًا على اسْمِ الإشارَةِ، من قوله: ﴿مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾؛ ليصبح المعنى: ولَوْلا ما سَبَقَ من حِكْمَةِ اللَّه أنْ يُؤَخِّرَ عنهُمُ العَذابَ لَقُضيَ بَيْنَهم، أي: لَقَضى اللّه بَيْنَهم، فَأهْلَكَ المُشْرِكينَ والمُخالِفينَ ونَصَرَ المُؤْمنينَ[4]. وقد يكون الضَّميرُ في ﴿بَيۡنَهُمۡۚ﴾ عائِدًا إلى ما يُفْهَمُ من

---

(1) الزّركشيّ، البرهان: 3/315.

(2) البغويّ، معالم التنّزيل: 4/202.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/170.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/170.

قوله: ﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ﴾؛ لِأَنَّهُ يَقْتَضِي جَماعَةً مُخْتَلِفِينَ في أَحْكام الكِتابِ، ويكونُ ﴿بَيۡنَهُمۡۚ﴾ مُتَعَلِّقًا بـ ﴿لَقُضِيَ﴾، أي: لِحُكْم بَيْنَهم بإظْهارِ المُصيبِ منَ المُخْطِئِ في أحْكامِ الكِتابِ، فَيَكونُ تَحْذيرًا مِنَ الاِخْتِلافِ، أي: أَنَّهُ إنْ وقَعَ أَمْهَلَ اللهُ المُخْتَلِفينَ فَتَرَكَهم في شَكٍّ، والقَرِينَةُ واضِحَةٌ[1]. وقوله: ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ أي: بينَ قوم موسى أو قومك. وهذه من جملة التَّسليَةِ أيضًا[2]، وضَميرُ ﴿بَيۡنَهُمۡۚ﴾ يَعودُ إلَى المُخْتَلِفينَ المُفادُ من قَوْلِه: ﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ﴾ والقَرينَةُ واضِحَةٌ[3].

دلالة جملة ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ﴾:

توقيع تأخيرِ العذاب، لتقدّم القضاء المذكور في الآية

جملةُ ﴿وَلَوۡلَا﴾ تعليليّة؛ لتوقّفِ التّالي على المُتقدم؛ فَسَبْقُ الكلمةِ منَ اللّه تعالى، بتأجيل الجزاء هو العِلّة في عدم القضاء بينَهم في الدّنيا؛ ليكون المُرادُ: ولَوْلا ما تَقَدَّمَ من حُكْم اللّه تَعالى بِتَأْخيرِ عَذابِ هَذِهِ الأُمَّةِ إلى يَوْمِ القيامَةِ، لَكانَ الَّذي يَسْتَحِقُّهُ هَؤُلاءِ الكُفّارُ عِنْدَ عَظيمِ كُفْرِهِم إنْزالَ عَذابِ الاِسْتِئْصالِ عَلَيْهِم، لَكِنَّ المُتَقَدِّمَ من قَضائِهِ أَخَّرَ ذَلِكَ عنهم في دُنْياهم[4].

بيان المتشابه اللّفظيّ:

قضاء الله كلمة ملزمة للسّابق أو اللّاحق

ممّا تضمَّنَه الكتابُ من كلمات ربِّنا قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾. ومَن تأمّل حرفَ سورة هود، فقه أنَّ كلمةً قد سبقت من ربِّنا أن يُؤَخّر القضاءَ بينَ المختلفين، بعدَ إيتاء موسى التّوراة إلى أجل مسمّى، ولم تتضمّن هذه الأحرفُ تفصيلَ الكلمةِ التي سبقت من ربِّنا.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/170.

(2) الطّيبّي، فتوح الغيب: 8/209.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/171.

(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/405.

وأمّا قولُه ﷻ: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى ١٢٩﴾ [طه: 129] وإنِ اشتركت معَ سابقتها في المباني، فإنّ سياق الكلمةِ يُرجِّح أنَّ المراد بها: ما عَلِمَهُ اللّه من تَأْجيلِ حُلولِ العَذابِ بقريش، فاللّه تَعالى بِحِكْمَتِهِ أَنْظَرَ قُرَيْشًا، فَلَم يُعَجِّلۡ لَهُمُ العَذابَ؛ لِأَنَّهُ أرادَ أنْ يُنْشَرَ الإسْلامُ بِمَن يُؤْمِنُ منهم وبِذُرِّيّاتِهِم، وفي ذَلِكَ كَرامَةٌ لِلنَّبي مُحَمَّدٍ ﷺ بِتَيْسيرِ أَسْبابِ بَقاءِ شَرْعِهِ وانْتِشارِهِ؛ لِأَنَّهُ الشَّريعَةُ الخاتِمَةُ، وخَصَّ اللّه منهم بِعَذابِ السَّيْفِ والأَسْرِ مَن كانوا أَشِدّاءَ في التَّكْذيبِ والإعْراضِ؛ حِكْمَةً منهُ تَعالى(1).

توجيه عطف جملة الفاصلة في السّياق:

المـُشْـرِكـونَ في شَكٍّ مِنْ تَوْفيَةِ نَصيبِهِم، لعدم إيمانهم بالبعث

قولُ الحقّ سبحانَه: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾، يَجوزُ أن يَكونَ عَطْفًا عَلَى جُمْلَةِ: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ غَيۡرَ مَنقُوصٖ﴾، فَيَكونَ ضَميرُ ﴿وَإِنَّهُمۡ﴾ عائدًا إلى ما عاد إليه ضَميرُ: ﴿مَا يَعۡبُدُونَ﴾ الآيَةَ، أي: إنَّ الـمُشْرِكينَ لَفي شَكٍّ مِنْ تَوْفيَةِ نَصيبِهِمۡ؛ لِأَنَّهُم لا يُؤْمِنونَ بِالبَعْثِ. ويَلْتَئِمُ مع قوله: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ على أَوَّلِ الوجْهَيْنِ وأَوْلاهُما، فَضَميرُ ﴿مِّنۡهُ﴾ عائِدٌ إلى ﴿يَوۡمَ﴾ من قَوْلِه: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ﴾ [هود: 105]... الآية.

ويَجوزُ أن تَكونَ عَطفًا عَلَى جُمْلَةِ: ﴿فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۗ﴾، أي: فاخْتَلَفَ فيهِ أَهْلُهُ، أي: أَهْلُ الكِتابِ؛ فَضَميرُ ﴿وَإِنَّهُمۡ﴾ عائِدٌ إلى ما عاد إليه ضَميرُ ﴿بَيۡنَهُمۡۚ﴾ على ثاني الوجْهَيْنِ، أي: اخْتَلَفَ أَهْلُ الكِتابِ في كِتابِهِم، وإنَّهُم لَفي شَكٍّ(2).

بلاغة حَشْدِ المؤكِّدات في الآية الكريمة:

تكثير المؤكِّدات، يـدلّ على شِـدّة الإنكار

اجتمعت في الآية المؤكّدات: (إنّ، واللّام، المصدر المجّرد، والجملة الاسميّة)؛ لأنّ وصفَ الشَّكِّ بكثرة الدّلالات تأْكيدٌ، كقولهِمۡ:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/171، 16/336.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/172.

لَيْلٌ أَلْيَلُ، وشِعْرٌ شاعِرٌ؛ لهذا جاء الحقّ مُؤَكّدًا؛ لِأَنَّ كُلَّ طائِفَةٍ من اليَهودِ تُنْكِرُ شَكَّها فيهِ، وفِعْلُها فِعْلُ الشّاكِّ[1].

عود ضمير ﴿وَإِنَّهُمۡ﴾:

جاء سوق الضّمير هنا لِدَفْعِ تَوهُّمِ العموم

أُريدَ بالضَّميرِ في ﴿وَإِنَّهُمۡ﴾ بَعْضُ مَن رَجَعَ إليهم ضَميرُ ﴿بَيۡنَهُمۡۚ﴾؛ لِلْأَمْنِ منَ الإِلْباسِ[2]؛ لأَنَّ المختلِفين منهم مَن أصاب فلم يشملْهُ هذا الحُكْم.

دلالة (في) على الاستعارة التَّبعيَّة:

الدّلالة على ملابسة الاختلاف بالظّرف المجازيّ (في)

حرف (في) دالٌّ على الظّرفيّة المجازيّة، وذلك أنّه شَبّه تمكّنَ الشّكِّ في نفوسهم بإحاطة الظّرف بالمظروف، أي: فاخْتُلِفَ اخْتِلافًا يُلابِسُهُ، أي: يُلابِسُ الكِتابَ[3].

فائدة التَّعبير بالمصدر الصَّريح:

القصدُ إلى بيان تمكُّن الشَّكِّ إلى النُّفوس

إيثار التَّعبير بالمصدر الصّريح في قوله: ﴿لَفِي شَكّٖ﴾؛ لكونه يحتوي على دلالة مباشرة، من تمكُّن الشَّك من نفوسهم ووضوحِه، دونَ حاجةٍ إلى تأويل.

تسوية (الشّك) في الاعتقاد بالإنكار:

المراد بالشَّك ما هو عامٌّ؛ ليشمل الإنكار الجازم لأيِّ لون منه

قوله: ﴿لَفِي شَكّٖ﴾، المراد به ما هو العامّ للإنكار الجازم، والتَّعبير بالشّكّ للتَّنبيه، على أنَّ الشّكّ في باب الاعتقاد كالإنكار[4].

دلالة (من) وعود الضَّمير فيه:

إحالة ما وقع للكتب أو القضاء، تنبيهًا وتسليَةً

قوله: ﴿مِّنۡهُ﴾، أي: منَ القرآن، وإن لم يجْرِ له ذِكْر، فإنَّ ذِكْرَ إيتاءِ كتابِ موسى ووقوعِ الاختلافِ فيه، لا سيّما بصدد التّسلية، يُنادي به نداءً غيرَ خفيٍّ[5]. ويجوز في: ﴿مِّنۡهُ﴾ أي: منَ القَضاءِ أو الكِتابِ[6].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/389

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/244، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3759.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/59.

(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/220.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/244.

(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/389.

سَوْقُ اسم الفاعل للدّلالة على الزّيادة في الإيقاع

نُكْتَةُ التَّعبير بصيغة ﴿مُرِيبٖ﴾:

﴿مُرِيبٖ﴾ من أراب، إذا حَصَلَ الرَّيْب لغيره؛ ومعنى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ﴾ أي: عَظيم مُحيطٍ بِهِم، ﴿مِّنۡهُ﴾ أي: منَ القَضاءِ أوِ الكِتابِ، ﴿مُرِيبٖ﴾ موقِعٍ في الرَّيْبِ والتُّهَمَةِ والاضْطِرابِ، أو صار هو في نفسه ذا رَيْب[1].

توصيف الشَّك بالمريب بما يحقّق قصدَ المبالغة

بيان وصْفِ الشَّكِّ بالمريب:

وصْفُ الشَّكِّ بالمريب للتّأكيد، كقولهم: لَيْلٌ ألْيَلُ، وشعر شاعِر[2]. والإسناد في قوله: ﴿مُرِيبٖ﴾ مجازيّ؛ لما فيه منَ الإسناد إلى الشّيء ما لصاحبه؛ لأنّ الرَّيب صفةٌ للشّاكِّ، فأُسْنِد إلى الشّكّ إسنادًا مجازيًّا؛ لقصد المبالغة[3].

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

التّفريق بين تمام الفصل في الأمور، وبينَ الحُكم بما يقتضي منعَ الخصوم

القضاء والحُكم:

يقتضي القضاءُ فصلَ الأمر على التَّمام، من قولك: قضاه إذا أتمَّه وقطع عملَه، ومنه قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلٗاۖ﴾ [الأنعام: 2]، أي: فصل الحُكم به، وقوله: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الإسراء: 4]، أي: فصلنا الإعلامَ به، وقوله: ﴿قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ﴾ [سبأ: 14]، أي: فصلنا أمرَ موته، وقوله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: 12]، أي: فصل الأمرَ به.

أمّا الحُكْمُ، فيقتضي المنعَ عنِ الخصومة، من قولك: أحْكَمْتُه، إذا منعْتُه، قال الشّاعر:

أبني حنيفة أحْكِموا سفهاءَكُم *** إنّي أخافُ عليكمُ أن أغْضَبا

ويجوز أن يقال: الحُكْمُ: فصل الأمرِ على الأحكام بما يقتضيه

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/396.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/172.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 23/331.

العقلُ والشَّرعُ؛ فإذا قيل: حكم بالباطل، فمعناه: أنّه جعل الباطلَ موضعَ الحقِّ. ويُستعمَل الحُكمُ في مواضعَ لا يُستعمَل فيها القضاءُ؛ كقولك: حُكْمُ هذا كحُكْم هذا، أي: هما متماثلان في السَّبب أو العِلّة، أو نحوِ ذلك[1]. ومن هنا: فلفظ ﴿لَقُضِيَ﴾ أنسبُ لسياق الآية، من حيث إنّه تلويح بفصل أمر المختلفين في شأن ما أُنزِل على موسى عليه السلام، على وجهه الأتمّ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 432.

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١١﴾

[هود: 111]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

رَبْطُ اختلافِ قومِ موسى وأمثالِهم في كتابِهم، بِقانون أنَّه لا يفلت أحد من حساب الله تعالى

سيقت الآيةُ تذييلًا للأخبار السّابقة، أي: إنَّ كُلَّ المَذْكورينَ آنِفًا من أهْلِ القُرى، ومنَ المُشْرِكينَ المُعَرَّضِ بِهِم، ومنَ المُخْتَلِفينَ في الكِتابِ من أتْباعِ موسى عليه السلام؛ لَلاقونَ جَزاءَ أعْمالِهِم، لا يُفْلِتُ منهم أحَدٌ، وإنَّ تَوْفيَةَ الله إيّاهم أعْمالَهم حَقَّقَهُ الله ولَم يُسامِحْ فيه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ﴾: وفَّى يوفِّي، وفِّ، تَوْفيةً، فهو موفٍّ، والمفعول موفًّا. ووفَّى الشَّخصُ بالوعْد: حافظ عليه وعمل به، وأتمّه وأنجزه[2]. ووفَّى الشّخصَ حقَّه: أوفاه؛ أي: أعطاه إيّاه تامًّا، وأتمَّ ما وعدَه به، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ﴾ [النساء: 173][3].

2) ﴿خَبِيرٞ﴾: (الخاءُ والباءُ والرّاءُ) أصْلانِ؛ فالأوَّلُ: العِلْمُ، والثّاني: يَدُلُّ على لينٍ ورَخاوةٍ وغُزْرٍ، فالأوَّلُ: الخُبْرُ: العِلْمُ بالشَّيْءِ، تَقولُ: لي بِفُلانٍ خِبْرَةٌ وخُبْرٌ. والله تعالى الخَبيرُ، أي: العالِمُ بِكُلِّ شَيْءٍ. وقالَ الله تَعالَى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤﴾ [فاطر: 14]. والأَصْلُ الثّاني: الخَبْراءُ، وهيَ الأَرْضُ اللَّيِّنَةُ[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الله تعالى مُطّلعٌ على كلّ عمل، ويُجازي كلَّ أحدٍ وِفاقَه

المعنى: أنّ مَن عُجّلت عقوبتُه ومَن أخِّرت، ومَن صدّق الرُّسلَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/173 - 174.
(2) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: 3/2475.
(3) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: 3/2476.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خبر).

ومَن كذّب؛ فحالُهم سواءٌ في أنّه تعالى يوفّيهم جزاءَ أعمالهم في الآخِرة، فجَمَعتِ الآيةُ الوعدَ والوعيدَ، فإنَّ توفيَةَ جزاءِ الطّاعات وعْدٌ عظيم، وتوفيَةَ جزاءِ المعاصي وعيدٌ عظيم، و﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ توكيدُ الوعدِ والوعيد، فإنّه لمّا كان عالمًا بجميع المعلومات، كان عالمًا بمقادير الطّاعات والمعاصي، فكان عالمًا بالقَدْر اللّائق بكلّ عملٍ منَ الجزاء، فحيْنَئِذٍ لا يَضيعُ شيءٌ منَ الحقوق والأجْزيَة، وذلك نهاية البيان[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة العطف بالواو:

تقويَةُ الكلام وتحسينه، بالواو الاعتراضيّة

الآيةُ تَذْييلٌ لِلْأَخْبارِ السّابِقَةِ، والواوُ اعْتراضيَّةٌ[2]، والغرضُ منَ الجملة الاعتراضيّة، هو التَّوكيدُ وتقويّةُ الكلام وتحسينُه.

بلاغة اجتماع المؤكّدات:

تثبيت قلوب المؤمنين، ورفعُ احتمالِ الشَّكِّ في نزول العذاب بالمشركين

نقلَ الإمام الرّازيّ عن بَعْضِ الأفاضِلِ قال: "إنَّهُ تَعالى لَمّا أخْبَرَ عن تَوْفيَةِ الأجْزيَةِ عَلى المُسْتَحِقّينَ في هَذِهِ الآيَةِ، ذَكَرَ فيها سَبْعَةَ أنْواعٍ منَ التَّوْكيدات:

أوَّلُها: كَلِمَةُ (إنَّ). وثانيها: كَلِمَةُ (كُلٍّ). وثالِثُها: اللّامُ الدّاخِلَةُ عَلى خَبَرِ (إنَّ). ورابِعُها: حَرْفُ (ما) إذا جُعِلت مَوْصولًا. وخامسُها: القَسَمُ المُضْمَرُ، فَإنَّ تَقْديرَ الكَلام: وإنَّ جَميعَهم واللّه لَيوفّيَنَّهم. وسادِسُها: اللّامُ الثّانيَةُ الدّاخِلَةُ على جَوابِ القَسَم. وسابِعُها: النّونُ المُؤَكِّدَةُ في قوله: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ﴾، فَجَميعُ هَذِهِ الألْفاظِ السَّبْعَةِ، الدّالَّةِ عَلى التَّوْكيدِ في هَذِهِ الكَلِمَةِ الواحِدَةِ، تَدَلُّ عَلى أنَّ أمْرَ الرُّبوبيَّةِ والعُبوديَّةِ، لا يَتِمُّ إلّا بِالبَعْثِ والقيامَةِ، وأمْرِ الحَشْرِ والنَّشْرِ، ثُمَّ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/405.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/173.

أَرْدَفَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وهو من أعظم المُؤَكِّدات"[1].

و"حتّى لا يُشَكَّ في نزول العذاب بالظّالمين مهما تأجّل، وحتّى لا يَشُكَّ أحدٌ أيضا في أنّ ما عليه المشركون هو الباطل الّذي لا يعرفُه الحقّ، وأنّه الكفرُ الّذي تلقّاه الخَلَف عنِ السَّلَف. وكان مقتضى حال الدّعوة الإسلاميّة في تلك الفترة الّتي نزلت فيها هذه السّورةُ - وهي فترة ما بعدَ حادثِ الإسراء والمعراج وقبلَ الهجرة - تستلزم هذه التّأكيدات تثبيتًا لقلوب المؤمنين، وتوهينًا للشّرك والمشركين"[2].

سرُّ التَّنوين في ﴿كُلًّا﴾:

يُستغنى بالتَّنوين عن الجُمَل، إيجازًا وإعجازًا

قد يُغْني التَّنوين عن جملةٍ كاملة، إذا ما كان عوضًا عنِ المضاف إليه، كالتَّنوين الذي لحق كلمةَ ﴿كُلًّا﴾ في هذه الآية الكريمة، ومثل ما في قول الحقِّ سبحانَه: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝٨٤﴾ [الواقعة: 83-84]، و﴿كُلًّا﴾ في الآية، توجز بأنَّ كُلًّا منَ الطّائع المؤمن، والعاصي الكافر، سوف يلقى جزاءَه؛ ثوابًا أو عقابًا[3].

توجيه القراءات:

إيراد (ما) الزّائدة للفصل بين لام التّأكيد، بما تقتضيه (إنَّ)، وبين لام القسم

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا﴾، قَرَأ أبو عَمْرٍو والكِسائيُّ ﴿وَإِنَّ﴾ مُشَدَّدَةَ النُّونِ، (لَمَا) مخففة.

قالَ أبو عَليٍّ الفارسيّ: اللّامُ في (لَمَا) هيَ الّتي تَقْتَضيه (إنَّ)؛ وذَلكَ لِأنَّ حَرْفَ (إنَّ) يَقْتَضي أن يَدْخُلَ على خَبَرِها أو اسْمِها لامٌ، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٨﴾ [النَّحل: 18]، وقَولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً﴾ [الحجر: 77]، واللّامُ الثّانِيَةُ هيَ الّتي تَجيءُ بعد القَسَم؛ كقولك: واللهِ لَتَفْعَلَنَّ. ولَمّا اجْتَمَعَ لامانِ دَخَلَتْ (ما) لِتَفْصِلَ بَيْنَهُما، فَكَلِمَةُ (ما) على هَذا التَّقْديرِ زائِدَةٌ، لأجل الفصل بينَ اللّامين. وقالَ الفَرّاءُ:

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/405 - 406.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/284.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6703 - 6704.

(ما) مَوصولَةٌ بِمَعْنَى (مَنْ)، وبَقِيَّةُ التَّقْرِيرِ كَما في: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ [النِّساء: 72][1].

تخفيف (إنْ، ولَما)، فكما يَجوزُ إعمالُ الفِعْلِ تامًّا ومَحْذوفًا، فكذلك: (إنَّ وإنْ)

والقِراءَةُ الثّانِيَةُ: في هَذِهِ الآيَةِ، قَرَأَ ابْنُ كَثيرٍ ونافِعٌ: ﴿وَإِن كُلًّا لَمَا﴾ مُخَفَّفتانِ؛ والسَّبَبُ فيهِ أَنَّهُم أَعْمَلوا (إنْ) مُخَفَّفَةً كَما تَعْمَلُ مُشَدَّدَةً؛ لِأَنَّ كَلِمَةَ (إنْ) تُشْبِهُ الفِعْلَ، فَكَما يَجوزُ إعْمالُ الفِعْلِ تامًّا ومَحْذوفًا في قَوْلِكَ: (لَم يَكُنْ زَيْدٌ قائِمًا، ولَم يَكُ زَيْدٌ قائِمًا)، فَكَذَلِكَ (إنَّ وإنْ)[2].

المبالغة في التّأكيد بقراءة التَّشديد في كلٍّ من: (إنَّ، ولَمّا)

والقِراءَةُ الثّالِثَةُ: قَرَأَ حَمْزَةُ وابْنُ عامِرٍ وحَفْصٌ: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا﴾ مُشَدَّدَتانِ، قالوا: وأَحْسَنُ ما قيلَ فيهِ: إنَّ أصل (لَمّا) بِالتَّنْوينِ، كقوله: ﴿أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩﴾ [الفجر: 19]؛ والمعنى: أَنَّ كُلًّا مَلْمومينَ، أي: مَجْموعينَ، كَأَنَّهُ قيلَ: (وإنَّ كُلًّا جَميعًا)[3]، هذا في المتواتر.

توجيه الشّاذِّ في ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا﴾:

وأمّا في الشّاذّ، فقد قرئَ أربعُ قراءاتٍ أُخَر، إحداها: قراءة أُبَيّ والحسن وأبان بن تغلب (وإنْ كلٌّ لَـمّا) بتخفيف (إنْ)، ورفع (كلٌّ)، وتشديد (لَمّا). الثانية: قراءة اليزيديّ وسليمان بن أرقم: (لـمًّا) مُشدّدةً مُنوَّنَةً، ولم يتعرَّضوا لتخفيف (إنَّ) ولا لتشديدها. الثّالثة: قراءة الأعمش، وهي في حرف ابن مسعود كذلك: (وإنْ كلٌّ إلّا): بتخفيفِ (إنْ)، ورفع (كلٌّ). والرّابعة: قال أبو حاتم: الذي في مُصْحف أُبَيّ (وإنْ منْ كُلٍّ إلّا لَيوفّيَنَّهم)[4].

فائدة التَّعبير بـ الأداة (لمّا):

سَـوْقُ (لَمّا) لتحقيق مقصد التّأجيل في (لولا)

تُستعمَل (لـمّا) في اللّغة بمعنى (الحين) و(الزّمان)، مثل قول

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 2/28، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 18/405، وأبو شامة، إبراز المعاني من حرز الأماني، ص: 585.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/405، وأبو شامة، إبراز المعاني من حرز الأماني، ص: 587.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/405.
(4) أبو شامة، إبراز المعاني من حرز الأماني، ص: 586، والسّمين الحلبيّ، الدرّ المصون: 6/398.

الحقّ سبحانَه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: 143]، وتأتي (لـمّا) أيضًا للنّفي، مثلِ قولِه سبحانَه: ﴿۞قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: 14]، أي: أنَّ الإيمان لم يدخل قلوبَهم بعدُ، وتَحمل كلمةُ (لـمّا) الإذنَ بأنّ الإيمان سوف يدخل قلوبَهم بعدَ ذلك.

وعلى هذا التّقرير يوجَّه قولُ الحقّ سبحانَه: ﴿وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾، أي: إنّ كلًّا منَ الطّائع والعاصي سَيوفَّى حسابَه وجزاءَه، ثوابًا أو عقابًا، حين يأتي أجلُ التَّوفية، وهو يوم القيامة، وقد جاءت ﴿لَّمَّا﴾ لتخدمَ فكرةَ العقوبةِ التي كانت تأتي في الدّنيا، وشاء الله سبحانَه أن يؤجّل العقوبةَ للكافرين إلى الآخرة، وأنسب حرف للتّعبير عن ذلك هو ﴿لَّمَّا﴾[1].

معاني اللّامات ووجوهها:

صِـدْقُ تحقُّق التّوفية مَناطُ القَسَم والتّوكيد

في قوله تعالى: ﴿لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ﴾، قيل: اللّام الأولى موطِّئَةٌ للقَسَم، هذا منقول عنِ الفارسيّ، وتَبِعَهُ الزّمخشريُّ، وهو مخالفٌ لما اشتُهِر عنِ النُّحاة من أنّها الدّاخلة على شرط مُقَدّم على جواب قسم تقدّم لفظًا أو تقديرًا؛ لِتُؤْذِنَ بأنّ الجواب له نحو: والله لئن أكرمتني لَأُكْرِمَنَّكَ، وليس ما دخلت عليه جوابَ القَسَم، بل ما يأتي بعدَها. وليس هذا بمتَّفقٍ عليه، فإنَّ أبا عليّ في (الحُجّة) جعلَها هنا موطِّئَةً، فاللّام الموطِّئَةُ لا يجب دخولُها على الشّرط، وهي إنّما دَلّت على أنّ ما بعدَها صالحٌ لأن يكون جوابًا للقَسَم مطلقًا، وقال الأزهريُّ: إنّه مذهبُ الأخفش، كما في الكَشْف. قالَهُ بعضُ المُحَشّين. وقيل: ولا يَلزم أن يكون مدخولُها حروفَ الشّرط، كما يُفهَم من ظاهر المُفصّل[2]. واللّام الثّانية للتّأكيد، أي: لامُ جوابِ القَسَم؛ والقرينة

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6704 - 6705.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/220.

كَوْنُ اللّام الأولى موطّئةً للقَسَم، فلا جَرَم أنَّه لا بدَّ من جواب القَسَم واللّام معه، ولا جوابَ سوى ذلك، وإنّما قيل للتَّأكيد؛ لدلالتها على التَّأكيد وإفادته. وأيًّا كان التّوجيه فإنّ لزوم توفيَةِ الأعمال هو مناطُ القَسَم، والتَّوكيد بوصْفِه جزاءً مستحقًّا.

سِرُّ التَّعبير بالمضارع المؤكَّد بالنّون:

تأكيد التَّوفِيَةِ، بتكثيرِ ما يدلُّ عليها

عبّر بالمضارع عن فعل الإيفاء في قوله تعالى: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾؛ للدلالة عن تحقُّقه مستقبلًا، وفيه توكيدٌ للوفاء، وهو القَسَم، فتأكَّدَ الكلامُ باللّامين، وبالقَسَم، وبنون التَّوكيد الثَّقيلة[1].

توجيه إيثارِ لفظِ الرُّبوبيّة وإضافته:

التَّشَوُّفُ إلى مقصد التَّوفية، بما يدلُّ على الرُّبوبيَّة

في قوله تعالى: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ﴾، أكَّد الوفاءَ بالتَّعبير بـ لفظ الرّبوبيّة مضافًا ﴿رَبُّكَ﴾، أي: الّذي خلقكَ وخلقهم، وتولّى شؤونهم، وقام على هذا الوجود، وإذا كان هذا الخالقُ الحيُّ القيّومُ هو الّذي يَعِدُ بالتّوفية، فإنَّها واقعةٌ لا محالةَ[2]. وفي الإضافة إلى ضمير الخطاب العائد إليه ﷺ تشريفٌ، يناسبُ مقامَه عند الله تعالى.

نُكْتَةُ تعريفِ الأعمال بالإضافة:

التَّشوُّف إلى مقصد التَّعميم، والتّأكيد بالإضافة

نُكْتَةُ تعريفِ الأعمال بالإضافة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلّٗا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ﴾؛ أنَّه ﷻ لا يَدَعُ منها شَيْئًا؛ لِأَنَّهُ لا يَخْفى عليه منها شَيْءٌ[3]. ثمّ إنّه عملُهم الذي قدّموه، وفعلُهم الّذي مارسوه، ومقتضى العدلِ أنْ يُجازَوا وِفاقَ ما قدّمت أيديهم، ولن يظلمَ اللّه تعالى أحدًا.

بلاغة توكيد جملة الفاصلة:

سوقُ (إنَّ) لتوكيد مقامي الوعد والوعيد

التَّوكيد بـ (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾، توكيدٌ

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3761.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3761.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/390.

للوعْدِ والوعيد، فإنَّه لـمّا كان عالـمًا بجميع المعلومات، كان عالـمًا بمقادير الطّاعات والمعاصي، عالـمًا بالقدر اللّائق بكلّ عملٍ منَ الجزاءِ، فحينَئِذٍ لا يضيع شيءٌ منَ الحقوق[1].

مطلق علم الله تعالى وعدلِه، يستلزمان الوفاءَ بالجزاء

وجه الخطاب بالمضمَرات دونَ التَّصريح:

مضمر الكافِ في قوله تعالى: ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمۡ رَبُّكَ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ﴾، أبلغُ في هذا السّياق وأليقُ، على اعتبار رَبطِ النّصيب الأوفى بالعِنديَّة دونَ فَصْل.

يقدّمُ الظَّرْفُ، لِتَأْكيدِ الخَبَرِ، في سياق الآية المباركة

بلاغة الإضمار وتقديم الظرف في الآية:

أمّا مُضمَر الهاء، فإنّه لـمّا كان الله مُطَّلِعًا على كُلِّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ النّاس؛ كان التّعبير بالمضمَرات أبلغَ في تحقُّق مُسَمَّى العِلْم، وأشوفَ في تقرير المعاني المقصودة؛ إذ لا يلزم من عدم الظّهور نفيُ العِلْم. وقُدِّمَ الظَّرْفُ لِتَأْكيدِ الخَبَرِ.

معنى الباء في الآية الكريمة:

تعليل تَوْفِيَة الأجزيّة على مقتضى الحكمة

الباء في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾؛ للإلصاق والتّعليل[2]، للدّلالة على تعليل ما سبق من تَوْفِيَة أجزيةِ أعمالِهم، فإنّ الإحاطةَ بتفاصيل أعمالِ الفريقين، وما يستوجبه كلُّ عمل بمقتضى الحكمةِ منَ الجزاء المخصوصِ، توجب توفيَةَ كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فَشَرٌّ[3].

توجيه دلالة (ما) بين الموصوليّة والمصدريّة:

كمال وصف الخبرة الأزليّة وصلًا أو مصدرًا

تحتمل (ما) في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ المصدريَّة، بمعنى: إنّه بأعمالهم خبير، والتّعبيرُ بالمصدر المؤوّل يوحي بدلالة اقتصار الحديث في الآية عن توفيَة الأعمال، بإطلاقها دونَ التَّطرّق في طبيعتها وماهيّتها. أمّا دلالة الموصوليّة بـ (ما)؛ فتعني: إنّه

(1) ابن عادل، اللّباب: 10/587.

(2) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/106.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/244.

بعموم ما يعملونه خبير، ليشملَ كُلَّ صغيرةٍ وكبيرة مارسوها، أي: أعمالهم كاملة.

التَّعبير عن عملهم بالمضارع المجموع:

تأكيدُ تَوْفِيَة جَزاءِ الطّاعاتِ والمَعاصي، وعْدًا ووعيدًا، دوامًا وتَجَدُّدًا

سيق المضارعُ المجموعُ للدّلالة على الإحاطَةِ بِتفاصيلِ أعْمالِ الفَريقَيْن؛ لكونه ﷻ عَليمًا بِأعْمالِهم جميعِها، جَليِّها وخفيِّها، جَليلِها وحَقيرِها، صَغيرِها وكَبيرِها؛ ماضيها وحاضِرِها؛ لتَتَأتّى تَوْفِيَةُ كُلِّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ، إنْ خيرًا فَخَيرٌ، وإنْ شَرًّا فَشَرٌّ، وذلِك نِهايَةُ البَيانِ، باعتبار أنَّ الجَزاء طابقَ العملَ تَمامَ المُطابَقَةِ؛ وذلِكَ مُحقَّقُ التَّوْفِيَةِ[1].

إيثارُ وصْفِ ﴿خَبِيرٌ﴾:

إحالة الظّواهر والمُخَبَّآتِ، على الخبير العليم بما مضى، وما هو آت

وإيثارُ وصْفِ ﴿خَبِيرٌ﴾ دونَ عَليم؛ لِما تُؤْذِنُ بِهِ مادَّةُ خَبير مِنَ العِلْمِ بِالأُمورِ الخَفِيَّةِ، لِيُفيدَ أنَّهُ تعالَى عَليمٌ بِما ظَهَرَ مِنَ الأعمالِ وما بَطَنَ، مثْلِ أعْمالِ القَلْبِ الَّتي هي العَزائِمُ والنِّيّاتُ[2].

دلالة صَوْغِ ﴿خَبِيرٌ﴾، على زنة (فَعيل):

العدول من الفاعل إلى فعيل، بقصد المبالغة

أصل الكلمة (فاعل) صُرِفت إلى (فعيل) بقصد المُبالغةِ، فوصْفُ (فعيل) مبالغةٌ في ثُبوت الفعلِ في الفاعل؛ لكثرة ظهورِه منه سبحانَه. ويمكن أن يكون صفةً مُشَبَّهةً؛ كطويل، وجميل. فـ﴿خَبِيرٌ﴾ بمعنى: عالم بدقائق الأمور وخفاياها، وهذا وصْفٌ ثابت له سبحانه.

سرُّ تقديم شبه الجملة على الخبر:

تقديم يعملون على خبير؛ لأنّ سياق الآيات في العمل

قُدِّم الجارُّ والمجرور على الخبر في قوله: ﴿بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾؛ للاهتمام بالعمل بوصفه مادّةَ الحساب، ومعتمدَ العقاب، وهو سبيل الهاوية أو النجاة، ولتأكيدِ الخبر ﴿خَبِيرٌ﴾، ولأنَّ التَّقديم والتَّأخير يأتي لسبب؛ والسّياق قد يكون الحاكِمَ والموْضِحَ للأمور؛ فإذا كان

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/244.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 28/256.

سياقُ الكلام أو الآية في العمل، يُقَدَّم العملُ، وإذا لم يكن كذلك، قَدّمَ الخِبْرة على العمل، كقوله ﷻ: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ٨٨﴾ [النمل: 88][1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإيفاء والإجزاء:

الإيفاء على مقتضى العدل، ومُقابلُه بخلافه

يكون الإيفاء على وجه العدل والتّسوية، من غير زيادةٍ ولا نقصان[2]. ووفّى بعهده: إذا تمَّمَه على وجهه ولم يُنقصه، أو ينقض حِفظَه، ووفّى الأمرَ: بذل المجهودَ في جميع ما طولِب به. أمّا الجَزاء: فهو الغَناء والكفاية، وقال تعالى: ﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ﴾ [لقمان: 33]، فالجَزاء: ما فيه الكفايَةُ منَ المقابلة، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شَرًّا فَشَرٌّ[3]. ومن هنا: فالوفاء أنسبُ لسياق العدالة في الحساب.

(1) فاضل السّامرّائيّ، لمسات بيانية، ص: 154.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/160.
(3) الرّاغب، المفردات: (وفى)، و(جزى).

﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١١٢﴾ [هود: 112]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا أعلمَ اللّه سبحانَه رسولَه ﷺ، بأنَّ شَأنَه في أُمَّتِه شَأنُ الرُّسُلِ في أُمَمِهم، وأنَّهُ لا بُدَّ مِنَ الاخْتِلافِ في شَأنِ الرَّسولِ والكِتابِ، كَما جَرَتْ بِذَلِكَ السُّنَّةُ الإلَهيَّةُ، وأنَّ الجَزاءَ بِالأعْمالِ كُلِّها لا بُدَّ منهُ[1]، رُتِّبَ "عَنِ التَّسْليَةِ الَّتي تَضمَّنَها قَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ﴾ وعَنِ التَّثْبيتِ المُفادِ بقوله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرۡيَةٖ مِّمَّا يَعۡبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾، الحَضُّ على الدَّوامِ على التَّمَسُّكِ بِالإسْلامِ عَلى وجْهٍ قَويمٍ، وعَبَّرَ عَن ذَلِكَ بِالاسْتِقامَةِ؛ لإفادَةِ الدَّوامِ عَلى العَمَلِ بِتَعاليمِ الإسْلامِ، دَوامًا جِماعُهُ الاسْتِقامَةُ عليه، والحَذَرُ من تَغْييرِهِ"[2].

القصد إلى الاستقامة والأمر بها؛ لإفادة الدَّوام على العمل، استصحابًا وترجمةً

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱسۡتَقِمۡ﴾: (قوم) أصلٌ يدلُّ على اعْتِدال الشَّيءِ واستوائه، يُقال: قامَ الشَّيءُ واسْتَقامَ: اعْتَدَل واسْتَوى[3]، والاستقامةُ: ضِدُّ الاعوجاجِ، وهي مُستعملةٌ كثيرًا في معنى الثَّبات على الحقِّ والرُّشدِ؛ لأنَّهُ شاعَ تَشبيهُ الضَّلالِ والفَسادِ بِالاعوجاجِ والالتِواءِ[4]، واستقامَ العودُ: استوى، و"استقام على الطريق: اهتدى، قال تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: 6]. واستقام ميزانُ النَّهار: انتصف[5]، واستقام الإنسانُ: اعتدل في سلوكه، وكانت أخلاقُه فاضلةً، كقوله

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/390.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/175.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قوم).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/273، و30/166.
(5) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: 3/1875.

تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ [فصلت: 30]، وقولِه: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا فَٱسۡتَقِيمَا﴾ [يونس: 89]: امضيا واستمرّا[1].

2) ﴿تَطۡغَوۡاْ﴾: (الطّاءُ والغَيْنُ والحَرْفُ المُعْتَلُّ) أَصْلٌ صَحيحٌ مُنْقاسٌ، وهو مُجاوَزَةُ الحَدِّ في العِصْيانِ. يُقالُ: هو طاغ. وطَغَى السَّيْلُ: إذا جاءَ بِماءٍ كَثيرٍ. قالَ اللّه تَعالَى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾ [الحاقة: 11]، يُريدُ - واللّه أَعْلَمُ - خُروجَهُ عَنِ المِقْدارِ، وطَغَى البَحْرُ: هاجَتْ أَمْواجُهُ، وطَغَى الدَّمُ: تَبَيَّغَ. قالَ الخَليلُ: الطُّغْيانُ، والطُّغْوانُ لُغَةٌ: والفِعْلُ منه: طَغَيْتُ وطَغَوْتُ"[2].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

الأمــر بالاستقامة، وتجنّب المنهيّ عنه، دون طغيان ولا عتوّ

بعد أن بيّن أمرَ المختلفين في التّوحيد والنّبوّة، وأطنب في وعدِهم ووعيدِهم، أمرَ رسولَه ﷺ ومَن تاب معه بالاستقامة، وهي كلمةٌ جامعة لكُلّ ما يتعلّق بالعِلم والعمل والأخلاق الفاضلة[3]. يقول تعالى ذِكْرُه لنَبيِّه محمَّد ﷺ: فاستقم على أمر ربِّك، والدّين الذي ابتَعَثك به، والدّعاء إليه كما أمرك ربُّك، ومَن رجع معكَ إلى طاعة اللّه والعملِ بما أمرَه به ربُّه من بعد كُفْرِه، ولا تَعْدوا أمرَهُ إلى ما نهاكم عنه، فإنَّ ربَّكم - أيُّها النّاسُ - ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ منَ الأعمال كلِّها، طاعتِها ومعصيتِها، ﴿بَصِيرٞ﴾ ذو عِلْمٍ بها، لا يخفى عليه منها شيءٌ، وهو لجميعها مُبصِرٌ[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الفاء على التَّفريع:

تفريع الأمر بالاستقامة على الطّريق على ما سبق منَ الأوامر والنَّواهي للالتزام بها

الفاء للتّفريع على ما تقدّم منَ الأوامر والنَّواهي[5]، والمعنى: أنَّهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/273، و30/166.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طغى).
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/90.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 15/499.
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/284.

ﷻ لَمّا أَطْنَبَ في شَرْحِ الوعْدِ والوعيدِ قالَ لِرَسولِه: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾(1)، ولمّا كان طَلَبُ الاستقامةِ شأنًا محمودًا يُسعَى إليه، ويُحَثُّ عليه، أوثِرَ حرفُ الفاءِ الدّالِّ على انتفاء المُهْلَةِ والتَّراخي في الأمر.

دلالة الأمر:

طَلَبُ الإقامةِ على الدّين، يستدعي الانقيادَ لله تعالى بتمام العمل، ودقّة أدائه

قولُه: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ﴾ أمرٌ، السّين والتّاء فيه للطّلب، وفي الأمر بالاستقامة إيجازٌ جامعٌ، وهو أمرٌ بدقّةِ الأداء المطلوب للّه أمرًا ونهيًا، وهي كَلِمَةٌ حاويةٌ لِكُلِّ ما يَتَعَلَّقُ بالعِلْمِ والعَمَلِ وسائِرِ الأَخْلاقِ، فَتَشْمَلُ العَقائِدَ، والأَعْمالَ المُشْتَرَكَةَ بَيْنَهُ ﷺ وبَيْنَ سائِرِ المُؤْمنينَ، والأُمورَ الخاصَّةَ بِهِ ﷺ(2). والشّاهد: دلالةُ الأمرِ بالفعل، وتجنُّب النّهي، أي، فاسْتَقِم كَما أُمِرْتَ استقامةً مِثْلَ الاستقامةِ التي أُمِرْتَ بها على جادّة الحَقّ(3). وهذا إيذان بألّا ييأس رسولُ اللّه ﷺ من وقوف صناديد قريش أمامَ دعوته ﷺ ؛ لأنّهم سيتساقطون يومًا بعدَ يوم(4). فقولُه: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ﴾ أيْ: أَوْجِدِ القَوْمَ بغايَةِ جُهْدِكَ، بِسَبَبِ أنَّكَ ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾ [النساء: 84]، وأنَّ الَّذي أَرْسَلَكَ لا يَغْفُلُ عَن شَيْءٍ، ومَنِ اسْتَقامَ اسْتُقيمَ لَهُ(5).

دلالة السّين في ﴿فَٱسۡتَقِمۡ﴾:

دلالةُ الإقامةِ بالسّين له أو عليه

يحتمل أن تكون السّين في الاستقامة سينَ الطّلبِ، أي: سَلْ من اللّه الإقامةَ لكَ على الحقّ، ويَحتمل أن تكون الإقامةُ في الأمر بمعنى: أقم عليه(6).

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب، 18/406.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/345.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/432.
(4) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 11/6710.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/370.
(6) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/160.

سرُّ العدول من (استقيموا) إلى ﴿فَٱسۡتَقِمۡ﴾:

العـــدول من الـجـمـع إلى الإفراد، تشريفًا للمعدول إليه

وُجِّهَ الأمرُ إلى النّبيّ ﷺ تنويهًا بشأْنِه؛ ليُبْنَى عليه قولُه: ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ فَيُشيرُ إلى أنَّهُ المُتَلَقِّي لِلْأوامرِ الشَّرْعيَّة ابْتِداءً، وهَذا تَنْويهٌ لَهُ بِمَقامِ رِسالَتِه، ثُمَّ أعْلَمَ بِخِطابِ أُمَّتِه بِذَلِك، بِقَوْلُهُ: ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾[1].

بلاغة التَّشبيه بالكاف:

الأمـر بالثَّبات على الاستقامة، تَشْبيهًا لِلْمُجْمَلِ بِالْمُفَصَّلِ في تَفْصيلِهِ

كافُ التَّشْبيهِ في قَوْلِه: ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾، في مَوْضِعِ الحالِ، مِنَ الاسْتِقامَةِ المَأْخوذَةِ مِن (اسْتَقِمْ)، ومَعْنَى تَشْبيهِ الاسْتِقامَةِ المَأْمورِ بِها بِما أُمِرَ بِهِ النَّبيُّ ﷺ، لِكَوْنِ الاسْتِقامَةِ مُماثِلَةً لِسائِرِ ما أُمِرَ بِه، وهو تَشْبيهُ المُجْمَلِ بالمُفَصَّلِ في تَفْصيلِه، بِأن يكونَ طِبْقَهُ. ويَؤولُ هذا المعنى إلى أن تكونَ الكافُ في معنى (على)، كما يُقالُ: (كُنْ كما أَنْتَ)[2].

نُكْتَةُ التَّعبير بـ (ما):

تـعـلـيـل الأمـر بـالاسـتـقـامـة، والـنّـهـيُ عـنِ الطّغيان

التّعبير بـ (ما) في قوله: ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ تعليلٌ للأمر والنّهي السّابِقَين، كأنّه قيل: استقيموا ولا تطغَوا؛ لأنّ اللّه تعالى ناظرٌ لأعمالكم فيجازيكم عليها. وقيل: إنّه تتميم للأمر بالاستقامة. والأوَّل أحسنُ وأتمّ فائدة[3].

نُكْتَةُ التَّعبير بالمبني للمفعول:

الإحالة على مَن لَـهُ الأمْـرُ كُـلُّـهُ، بصيغة المبنيّ للمفعول

لَمّا كانَ مِنَ المَقْطوعِ بِهِ أنَّ الآمرَ لَهُ ﷺ مَن لَهُ الأمْرُ كُلُّهُ، بَنى لِلْمَفْعولِ قَوْلَهُ: ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾، أي: كَما اسْتَقامَ إخْوانُكَ مِنَ الأنْبياءِ في جَميعِ الأُصولِ والفُروعِ، سَواءٌ كانَ في نَفْسِكَ أو في تَبْليغِ غَيْرِكَ، مُعْتَدِلًا بَيْنَ الإفْراطِ والتَّفْريطِ، ولا يَضِقْ صَدْرُكَ مِنِ اسْتِهْزائِهِم وتَعَنُّتِهِم واقْتِراحِهِم لِلْآياتِ، وإرادَتِهِم أنْ تَتْرُكَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/176.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/176.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/347.

بَعْضَ ما يوحى إليك، منَ التَّشْنيع عَلَيْهِم والعَيْبِ لِدينِهِم، بَلْ صارِحْهم بالأمْرِ واتْرُكْهم وأهْواءَهُم، نَحْنُ نُدَبِّرُ الأمْرَ كَما نُريدُ، على حَسَبِ ما نَعْلَمُ[1].

توجيه العطف بالواو:

الـدّوام على الاستقامة، استصحابًا لمن فُطر على الإنابة، وتثبيتًا لمن تاب

قوله تعالى: ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ الواو للعطف، فـ ﴿وَمَن تَابَ﴾ عُطِفَ على الضَّميرِ المُتَّصِلِ في ﴿أُمِرْتَ﴾، ومُصَحِّحُ العَطْفِ مَوْجودٌ، وهو الفَصْلُ بالجارِّ والمَجْرورِ[2]، والفَصْلُ بين المَعْطوفِ والضَّميرِ المَرْفوعِ المَعْطوفِ عَلَيْهِ يَقومُ مَقامَ التَّأْكيدِ[3]، أي: وليستقم أيضًا مَن ﴿تَابَ﴾ عنِ الكفر مؤمنًا معك؛ لأنَّ الإيمانَ تَوْبَةٌ منَ الشِّرْك[4]، ﴿وَمَن تَابَ﴾: مَعْطوفٌ على الضَّميرِ الـمُسْتَكِنِّ في ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾، وأغْنى الفاصِلُ عَنِ التَّوْكيدِ[5].

توجيه الموصول ﴿وَمَن﴾:

الاشتراك في الاستقامة، مصاحبةً أو مماثلةً

في ﴿وَمَن﴾ وجهان؛ أحدهُما: أنَّه منصوبٌ على المفعول معه، كذا ذكره أبو البقاء، ويصير المعنى: استقم مصاحبًا لـمَنْ تاب مصاحبًا لك، وفي هذا المعنى نُبُوٌّ عن ظاهرِ اللّفظ. الثّاني: أنّه مرفوعٌ، فإنّه عُطِفَ على الضّمير المستتر في ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾، وأغنى الفصلُ بالجارِّ عن تأكيده بضميرٍ منفصل في صِحّةِ العطف. والصّحيح: أنّه من عطفِ الجُمَل لا من عطف المفردات، ولذلك قَدَّره الزَّمخشريُّ: بـ (فاستقم أنتَ وليستَقِم مَنْ تاب)؛ فقدَّر الرّافعَ له فعلًا لائقًا برفعه الظّاهرَ[6].

ووجّه الواحديُّ: رفع ﴿وَمَن﴾ من وُجوهٍ؛ الأوَّلُ: أن يَكونَ عَطْفًا على الضَّميرِ الـمُسْتَتِرِ في قولِه: ﴿فَٱسْتَقِمْ﴾، وأغْنى الوصْلُ بالجارِّ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/390.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/176.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/600.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/391.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/220.
(6) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/417.

عن تَأْكيدِهِ بِضَميرِ المُتَّصِلِ في صِحَّةِ العَطْفِ، أي: (فاسْتَقِم أَنْتَ وهم). الثّاني: أن يَكونَ عَطْفًا على الضَّميرِ في ﴿أُمِرْتَ﴾. والثّالِثُ: أَنْ يَكونَ ابْتِداءً عَلى تَقْديرِ: (ومَن تابَ مَعَكَ فَلْيَسْتَقِمْ)[1].

ولما كانت ﴿وَمَن﴾ الموصولة ممحَّضة للدّلالة على العاقل، فكأنّها قَصَدت هذه الدّلالة في حقّ مَن تاب معه، فكأنّهم همُ العقلاء الجديرون بهذا النّعت.

علَّة التَّعبير عنِ التَّوبة بالماضي:

كُلُّ ما ثبتَ أصلُه، يُستصحَبُ وُجودُه

وعبَّرَ بصيغة الماضي للدّلالة على تَحقُّق التّوبة، وللإشارة إلى أنّ إسلامهم لا يكون كاملًا إلّا إذا كانوا مع الله تعالى[2].

فائدة شبه الجملة ﴿مَعَكَ﴾ والإضافة فيها:

المعية تقتضي الاشتراكَ، في الدّوام على الأصل، بعد تحقّقه فطرةً أو التزامًا

والمعنى: استقم مصاحبًا لمَن تاب، و﴿مَعَكَ﴾ حالٌ من ﴿تَابَ﴾، وليس متعلقًا بـ ﴿تَابَ﴾؛ لأنَّ النَّبيّ ﷺ لم يكن منَ المشركين، ولمّا كان الفاصل بينَ المعطوف والمعطوف عليه يقوم مقامَ تأكيدِ الضَّمير المستَتِر، عَطفَ عليه قولَه: ﴿وَمَن﴾، أي: وليستقم أيضًا مَن ﴿تَابَ﴾ عن الكفر، مؤمنًا ﴿مَعَكَ﴾ على ما أُمروا، تاركينَ القَلَقَ مِن استبطائِهم للنُّصْرة[3].

بلاغة إيجاز القصر:

تضمين الاستقامة محاسنَ العادات، ومكارمَ الأخلاق قاطبةً

في الآية تضمينُ العباراتِ القصيرة معانيَ كثيرةً من غير حَذْفِ ذلك؛ وبيانه: أنَّ الاستقامة هي الاستمرارُ في جهة واحدة من غير العدول يمينًا أو شمالًا، ومعروف أنّ الخطّ المستقيم هو أقصرُ بُعْدٍ بينَ نُقطتين، فأقلّ انحرافٍ يخُرجُه عنِ استقامته؛ وإذًا فقدِ انتظم في كلمة الاستقامة جميعُ مكارم الأخلاق، ومحاسنُ الأحكام الأصليَّة والفرعيَّة[4].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/406.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3762.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/391.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/473.

توجيه عطفِ النَّهي على الأمر:

تأكيد الاستقامة بالجمع بينَ تَركِ المحظور، وما يقتضي فعلَ ضِدّه

نُكْتَةُ عَطْفِ النَّهْيِ على الأَمْرِ بِالضِّدِّ في الآيَةِ؛ هي أَنَّ الأَمْرَ لا يَقْتَضي التَّكْرارَ، بِخِلافِ النَّهْيِ، وهَذِهِ التَّفْرِقَةُ بينَ الأمْرِ والنَّهْيِ غَيْرُ مُسَلَّمَةٍ، وفيها نِزاعٌ في عِلْمِ الأُصولِ، ولَكِنَّهُ بَناها على أَنَّ الفَرْقَ بينَ الأمْرِ والنَّهْيِ هو مُقْتَضَى اللُّغَةِ[1]، والقَصْدُ إلى تأكيد الاستقامة على الوجه الأتمِّ، من حيثُ الوجودُ بفعل ما به قيامُها، وتركِ ما يؤدّي إلى انعدامها.

بلاغة جملة النَّهي:

لا تُغني المأموراتُ المنطوقة، عنِ المفهومات المَنهيِّ عنها

لـمّا أمر اللّه تعالى بالاستقامة على جادّة الحقّ، نهى عنِ الانحراف عنها، فقال: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ﴾، قال ابن عبّاس: "يريد: تواضعوا للحَقّ، ولا تتكبَّروا على الخَلْق"[2]، ومَعْناهُ: ولا تَتَجاوزوا حُدودَ اللّه تَعالى، فَكانَ النَّهْيُ عنِ الطّغيان جامعًا لِأَحْوالِ مَصادِرِ الفَسادِ منْ نَفْسِ المُفْسِدِ، وبَقِيَ ما يُخْشَى عليه من عَدْوى فَسادِ خَليطِهِ[3].

إيثار لفظ الطُّغيان دون غيره:

إيثارُ ما يجمع أصولَ الفساد وضعًا

شَمِلَ الطُّغْيانُ أُصولَ المَفاسِدِ، فَكانَتِ الآيَةُ جامِعَةً لِإقامَةِ المَصالِحِ ودَرْءِ المَفاسِدِ، وإنما سُمّي ذلك طغيانًا، وهو تجاوزُ الحدِّ، تغليظًا أو تغليبًا لحال سائرِ المؤمنين على حاله ﷺ[4]. فالطُّغْيانُ: تَجاوُزُ الحَدِّ، ومنهُ قَوْلُهُ: ﴿طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾ [الحاقة: 11]، وقَوْلُهُ في فِرْعَوْنَ: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: 24، 43؛ النازعات: 17]، وقيلَ في هَذِهِ: مَعْناهُ: ولا تُطْغيَنَّكُمُ النِّعَمُ، ولا تَنْحَرِفوا عَمّا حُدَّ لَكم بِإفْراطٍ أَوْ تَفْريطٍ، فَإنَّ كِلا طَرَفَيْ قَصْدِ الأُمورِ ذَميمٌ، وإنَّما سُمّي ذَلِكَ طُغْيانًا - وهو تَجاوُزُ الحَدِّ - تَغْليظًا، أَوْ تَغْليبًا لِحالِ سائِرِ المُؤْمِنينَ على حالِهِ ﷺ[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/423.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/55.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/245.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/245.
(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/245.

التّعبير عن فعل الطّغيان مضارعًا مجموعًا:

تنزيه مقام النّبوة، إفرادًا وتحييدًا

ومن إجلال النّبيّ ﷺ إفرادُه بالخطاب في الأمر بأفعال الخير، والإتيان بضمير الجمع في النّهي عن أفعال الشّرّ[1]. ومن هنا ففي جمع الطّغيان حَيْدَةٌ عن نسبته المباشرة إلى المصطفى ﷺ تنزيهًا.

فائدة توكيد جملة الفاصلة:

لا يخفى على الله تعالى، من أعمال المكلَّف شيءٌ

التَّعبير بجماع المؤكِّدات (إنّ، والجملة الاسميّة، وصيغة المبالغة)؛ للدّلالة على أنّه لا يَخْفَى على اللّه من أعمالِكُم شَيْءٌ ممّا يورّث تحذيرًا واحتياطًا منَ المكلف، واستقامةً كما أمر[2]. قالَ ابْنُ عَبّاسٍ رضي الله عنهما: ما نَزَلَتْ على رَسولِ اللّه ﷺ آيَةٌ هيَ أشَدُّ عليه من هذه الآية، ولِذَلِكَ قالَ: «شَيَّبَتْني هودٌ وأخَواتُها»[3].

إيثار الإضمار على الإظهار:

التّشوّف إلى التّعظيم ببساط الإضمار

الضَّميرُ يعود على اللّه تعالى، أي: إنَّه تعالى عليم بما يعملون، عِلْمَ مَن يُبصِر ويرى[4]. وآثرَ في الخطابُ الإضمارَ على الإظهارِ لإرادة التَّعظيم والتَّفخيم.

والكلام على (الباء، وما، والفعل تعملون، وتقديم شبه الجملة) هو نفسه الذي مضى ذكره في الآية السابقة مع اختلاف المعنى.

بلاغة جملة الفاصلة:

أبلغ الكلام التّعبير بالثّابت، مع نفي النّقيض

(ما) مُؤكّدة بنفي نقيضِ ما أثبتَه الكلامُ؛ ليكون ثبوتُه مع نفي نقيضه على أبلغ وجه، وقُدّم الظّرف لما تقدّم من تأكيد الإبصار ﴿بَصِيرٌ﴾، وقُدّم الجارُّ والمجرور ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على ﴿بَصِيرٌ﴾

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/394.

(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 12/92.

(3) أخرجه التّرمذيّ في سننه، برقم: (3297) وقال: حديث حسن غريب، والحاكم في المستدرك، برقم: (3314) ولفظه: «شيبتني هود، والواقعة، وعمّ يتساءلون، وإذا الشّمس كورت» وقال: صحيح على شرط البخاريّ، ووافقه الذّهبيّ، وذكره الهيثميّ في مجمع الزّوائد، برقم: (11073) وقال: رواه الطّبرانيّ، ورجاله رجال الصّحيح.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3763.

للاهتمام بالعمل، وإنّه مناظر الجزاء، إن خيرًا فخيرٌ، وإن شَرًّا فَشَرٌّ، وإنّ الاستقامة هي أقصى درجات الإحسان[1].

وجه العدول من (خبير)، إلى ﴿بَصِيرٌ﴾:

إنَّ الطّغيان - وهو مجاوزةُ الحَدّ - مُشاهَدٌ في الأصل، وغيرُ مشاهد؛ بل فيه جانبان في أمر الاعتقاد، ﴿وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١٠﴾ [الأنعام: 110]، ولمّا كان البصرُ بصرًا وبصيرةً؛ ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ ١٤﴾ [القيامة: 14]، ناسبَ اختيارُ بصير؛ فقال اللّه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾؛ لِتَحْذِيرِ مَن أَخْفَى الطُّغْيانَ، بِأنَّ اللّه مُطَّلِعٌ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ يَعْمَلُهُ المُسْلِمونَ، ولِذَلِكَ اخْتِيرَ وصْفُ بَصير من بين بَقيَّةِ الأَسْماءِ الحُسْنَى؛ لدلالَةِ مادَّتِه عَلَى العِلْمِ البَيِّنِ، ودلالَةِ صيغَتِه على قوَّته[2].

حذّر مَنْ أخْفى طُغيانَهُ، بأنّ الله مُطّلعٌ على دِقّ عمِله وجلِّه، ظاهره وخَفيّه

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

طغى، وجار، وعتا، وقهر، واستبدَّ، وتعدّى، وتجاوز:

إنّ الطّغيان يعني: مجاوزة الحدّ في المكروه، مع غلبة وقهر، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾ [الحاقة: 11]، يقال: طغى الماء: إذا جاوز الحَدّ.

لفظ الطُّغيانُ شاملٌ لأُصول المَفاسِدِ، ولذلك أوثر في هذه الآية الكريمة

والعُتُوّ: المبالغة في المكروه، فهو دونَ الطّغيان، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨﴾ [مريم: 8]. قالوا: كلّ مُبالِغٍ في كِبَرٍ أو كُفْرٍ أو فَسادٍ فقد عَتا فيه، ومنه قولُه تعالى: ﴿بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ٦﴾ [الحاقة: 6]، أي: مبالِغَة في الشِّدَّة، ويقال: جبّارٌ عاتٍ، أي: مبالغ في الجبريَّة، ومنه قوله تعالى: ﴿عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا﴾ [الطلاق: 8]، يعني: أنَّ أهلَها تكبَّروا على ربِّهم فلم يطيعوه[3].

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3763.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/177.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 337.

والجَوْر: العدول عن الحَقّ، من قولنا: جار عنِ الطّريق: إذا عدل عنه[1]، من غير قيد الغلبة كما في الطّغيان.

والقَهْر: غلبةٌ وتذليلٌ معًا، ويستَعمل في كلّ واحد منهما.

والتَّعدّي: تجاوز الحَدّ المأذون فيه شرعًا.

والتَّجاوز: خروجٌ عنِ اللّائق، وتخطّي الحدِّ المباح.

والاستبداد: فرضُ الإرادة من دون مبرّرٍ، بحسب الرَّغبة والأهواء.

ولما كان المرادُ مجاوزة الحدّ في الظُّلم بالقَهْر، والإكراه، ناسبه لفظُ الطُّغْيانُ؛ بوصفه شاملًا أُصولَ المَفاسِدِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 172.

﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣﴾ [هود: 113]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

توسُّط طرفي الإفراطِ في الدّين، والتّفريطِ في التّقصير فيه

لَمّا نَهى عَنِ الإفراطِ في الدّينِ في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾، أتْبَعَهُ النَّهْيَ عَنِ التَّفْريطِ بالتَّقْصيرِ فيه، بِسُفولِ الهِمَمِ على وجْهٍ عامٍّ، وكان الحُبُّ في اللّه والبُغْضُ فيه أوْثَقَ عُرى الإيمانِ، إشارَةً إلى ضِدِّهِ الَّذي هو أوْثَقُ عُرى الشَّيْطانِ. وحاصِلُ الآيَتَيْنِ: لا تَظْلِموا بِأنْفُسِكم، ولا تَسْتَحْسِنوا أفْعالَ الظّالِمينَ[1]. والسّياقُ في الآيتين جارٍ على المَنْعِ من تجاوزِ الحدِّ، طغيانًا أو ظُلمًا أو ارتكانًا.

وتحريرُ المناسبة في كونهم أُمروا بألّا يَنْحَرِفوا عَمّا حُدَّ لَهم بإفْراطٍ أوْ تَفْريطٍ؛ لأنَّ كِلا طَرَفَيْ قَصْدِ الأُمورِ ذَميمٌ، وانتُخِبَ لذَلِكَ مصطلحُ الطُّغْيان، وهو مُجاوزَةُ الحَدِّ، تَغْليظًا أوْ تَغْليبًا لِحالِ سائِرِ المُؤْمنينَ على حالِهِ صَلّى اللّه تَعالى عَلَيْهِ وسَلَّمَ، وفي كونه ﷺ أورد تَعْليل الأمْرِ والنَّهْيِ السّابِقَيْنِ بأنِ اسْتَقيموا ولا تَطْغَوْا[2]؛ لِأنَّه تَعالى ناظِرٌ لِأعْمالِكم فَيُجازيكم عليها؛ فناسب أن ينهاهم عنِ الرُّكونِ أو الميلِ إلى مَن وُجِدَ منهُمُ الظُّلْمُ، وذلك بالمَيْلِ إليهم بأنْ تَثاقَلَ أنْفُسُكم نَحْوهم، لِلْمَيْلِ إلى أعْمالِهِم، ولَوْ بِالرِّضى بِهِ، والتَّشَبُّهِ بِهِم والتَّزَيّي بِزِيِّهِمْ[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَرۡكَنُوٓاْ﴾: (الرّاءُ والكافُ والنُّونُ) أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/393.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/347.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/393.

قوَّةٍ، فَرُكْنُ الشَّيْءِ: جانِبُهُ الأَقْوى. وهو يَأْوي إلى رُكْنٍ شَديدٍ، أي: عِزٍّ ومَنْعَةٍ[1]. ورَكِنَ إلى الشّيءِ، أي: مالَ إلَيْهِ وسَكَنَ، ورَكِنَ إلى الدُّنْيا إذا مالَ إلَيْها[2]. وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: 74] أي: تطمئنّ وتسكن، وشخص لا يُرْكَن إليه: ضعيف، لا يُعْتَمَد عليه، لا يتحمّل المسؤوليَّة[3]. ومعنى الرُّكونُ في الآية: المَيْلُ والموافَقَةُ[4].

2) ﴿فَتَمَسَّكُمُ﴾: (الميمُ والسِّينُ) أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى جَسِّ الشَّيْءِ بِاليَدِ، ومَسِسْتُهُ أَمَسُّهُ، ورُبَّما قالوا: مَسَسْتُ أَمُسُّ. والمَمْسوسُ: الَّذي بِهِ مَسٌّ، كَأَنَّ الجِنَّ مَسَّتْهُ. والمَسوسُ منَ الماءِ: ما نالَتْهُ الأَيْدي[5]. والمَسُّ كاللَّمْسِ، ولَكِنّ المَسَّ يُقال لِطَلَبِ الشَّيْءِ وإن لم يوجَدْ، واللَّمْسُ يُقالُ فيما يكونُ مَعَه إدْراكٌ بحاسَّةِ اللَّمْسِ[6]. ومنَ المَجازِ: قولُه تعالى: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨﴾ [القمر: 48] أي: أوّلَ ما يَنالُكُم منها، قالَ الأَخْفَشُ: جَعلَ المَسَّ مَذاقًا، كَما يُقال: كيفَ وجَدْتَ طَعْمَ الضَّرْبِ، وكقَوْلِكَ: وجَدَ فُلانٌ مَسَّ الحُمَّى، أي: أوّلَ ما نالَهُ منْها[7].

3) ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: (الواوُ واللّامُ والياءُ) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى قُرْبٍ، منْ ذَلِكَ الوَلْيُ: القُرْبُ. يُقالُ: تَباعَدَ بعد ولْيٍ، أيْ قُرْبٍ. وجَلَسَ ممّا يَليني، أَيْ: يُقارِبُني. والوليُّ: المَطَرُ يَجيءُ بعد الوَسْميِّ، سُمِّيَ بِذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ يَلي الوَسْميَّ، ومنَ البابِ المَوْلَى: المُعْتِقُ والمُعْتَقُ، والصّاحِبُ، والحَليفُ، وابْنُ العَمِّ، والنّاصِرُ، والجارُ؛ كُلُّ هَؤُلاءِ منَ الوَلْيِ، وهو القُرْبُ. وكُلُّ مَن ولِيَ أَمْرَ آخَرَ فهو وليُّهُ. وفُلانٌ أَوْلَى بِكَذا، أي: أَحْرَى بِهِ وأَجْدَرُ[8].

4) ﴿تُنصَرُونَ﴾: (النُّونُ والصّادُ والرّاءُ) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى إِتْيانِ خَيْرٍ وإيتائِه، ونَصَرَ اللّه المُسْلِمينَ: آتاهُمُ الظَّفَرَ عَلَى عَدوِّهِم، يَنْصُرُهُم نَصْرًا. وانْتَصَرَ: انْتَقَمَ، وهو منْهُ[9]. والنَّصير: النّاصِر؛ قال اللّه تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ۝٤٠﴾ [الأنفال: 40]، والجمْعُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ركن).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ركن).
(3) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 2/939.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/178.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مسَّ).
(6) الزَّبيديَ، تاج العروس: (مسَّ).
(7) الزّبيديّ، تاج العروس: (مسَّ).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر).

أنْصار، مثْلُ شَريف وأشرافٍ[1]. وتناصر القومُ: أيَّد بعضُهم بعضًا، وتعاونوا على النّصر[2].

المَعْنى الإجْماليّ:

الرّكون إلى غير الله تعالى خسران مبين؛ إذ لا حامي، ولا مانع سواه

في الآية نهيٌ عن تَجاوزِ ما حدَّه الله؛ وأنَّه بما تعملونَ منَ الأعمالِ كلِّها بصيرٌ، لا يخفى عليه شيءٌ منها، وسيُجازيكم عليها، ولا تَميلوا إلى هؤلاء الظَّلَمةِ فتُصيبَكم النّارُ، وما لكم من دونِ الله من ناصرٍ ينصُرُكم، ويتولَّى أمورَكم[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الوصل بالعطف:

وصلٌ بعَطْفِ الخاصِّ على العامِّ

لَمّا نَهى عَنِ الإفراطِ في الدّينِ في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ﴾، أتْبَعَهُ النَّهْيَ عَنِ التَّفْريطِ بالتَّقْصيرِ فيه، بِسُفولِ الهِمَمِ على وجْهٍ عامٍّ، وكانَ الحُبُّ في اللهِ والبُغْضُ فيه أوْثَقَ عُرى الإيمانِ، إشارَةً إلى ضِدِّهِ الَّذي هو أوْثَقُ عُرى الشَّيْطانِ، فقالَ: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ﴾ أي: شَيْئًا من رُكونٍ، وقالَ: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أي: وُجِدَ منهُمُ الظُّلْمُ، ولَم يَقُلِ: (الظّالِمينَ)، أي: بالمَيْلِ إليهم؛ بأنْ تَثاقَلَ أنْفُسُكم نَحْوهم، لِلْمَيْلِ إلى أعْمالِهم، ولَوْ بالرِّضى بِهِ، والتَّشَبُّهِ بِهِم، والتَّزَيّي بِزِيِّهِم، وحاصِلُ الآيَتَيْنِ: لا تَظْلِموا بِأنْفُسِكم ولا تَسْتَحْسِنوا أفْعالَ الظّالِمينَ، وفَسَّرَ الزَّمَخْشَرِيُّ الرُّكونَ بالمَيْلِ اليَسيرِ، وهو حَسَنٌ من جِهَةِ المَعْنى، وقالَ الرُّمّانيُّ: الرُّكونُ: السُّكونُ إلى الشَّيْءِ بالمَحَبَّةِ والانْصِبابُ إلَيْهِ، ونَقيضُهُ النُّفورُ عنهُ، وهو عَلى التَّفْسيرِ الثّاني في ﴿تَطۡغَوۡاْۚ﴾ من عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ[4].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (نصر).

(2) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 3/2220.

(3) مجموعة من المؤلفين، التّفسير الميسر: 1/234.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/393.

جوامع أصول الدّين في الآية الكريمة:

الإيمان والعمل الصّالح، هما جوهر النّجاة في الحياة وبعد الممات

جَمَعَ قَوْلُه تعالى: ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ﴾، وقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أصْلَيِ الدِّينِ، وهُما: الإيمانُ والعَمَلُ الصّالِحُ، فعنِ الحَسَنِ (البصري) رحمه اللّه: "جَعَلَ اللّه الدَّين بَينَ لائين، ﴿وَلَا تَطۡغَوۡاْۚ﴾، ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ﴾"[1].

بلاغة النَّهي بـ (لا):

تلخيص النّهي عن أجناس الظّلم وأنواعِه بالأداة (لا) مرّتين

سيقت (لا) على أبلغ ما يُتَصوّر في النّهي عنِ الظُّلم والتّهديدِ عليه، وجاء النّهي عنِ الرّكون إلى الذين ظلموا في خواتيم سورة هود، بعد استعراض كافّة مشاهد الظُّلْم والطُّغيان في السّورة، باختلاف أنواعه المندرجة تحتَ الاستبداد، المتعلِّقة بكلّ قوم، وهذا النّهي الوارد على النَّهي السّابق[2]، خطابٌ للنَّبيّ ﷺ ومَن معَه منَ المؤمنين، بهذَين النَّهيين بعدَ الأمر بالاستقامة؛ للتَّثبيت عليها، وقد تُجْعَل تأكيدًا لذلك، إذا كان المراد به الدَّوامَ والثَّبات[3].

إيثار لفظ (الرّكون):

إيثار النّهي عنِ الظّلم، بدلالة الأدنى على الأحرى

الرّكونُ - وهو في الغالب - أيسرُ رَدّةِ فعلٍ سلبيَّةٍ على الظُّلْم؛ سواءٌ بالشُّعور أو بالفعل، من خلال عدم الإقدام على أيِّ فعلٍ يُحَرِّضُ على النّفور منَ الذين ظَلموا، إلّا أنّ مجرَّد السُّكون إلى الذين ظلموا منهيٌّ عنه. وقد تقدّم أنّ الرُّكونَ يكون بالمَيْلِ اليَسير، أوالسُّكونِ إلى الشَّيْءِ بالمَحَبَّةِ والانْصِبابِ إليه؛ لأنَّ الرُّكون المَنْهيَّ عنه هو الرِّضا بما عَلَيْهِ الظَّلَمَةُ منَ الظُّلْم، وتَحْسينُ تلك الطَّريقَةِ وتَزْيينُها عندَهم وعند غَيْرِهم، ومُشارَكَتُهُم في شَيءٍ من تلك الأبْوابِ، فَأمّا مُداخَلَتُهُم لِدَفْعِ ضَرَرٍ، أوِ اجْتِلابِ مَنْفَعَةٍ عاجِلَةٍ، فَغَيْرُ داخِلٍ في الرُّكونِ[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/178.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3763.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/348.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/407.

النّهي يقتضي التّكرار، بدلالة الصّيغة

التّعبير عنِ الرّكون بالمضارع:

عُبِّر عنِ الرّكون بصيغة المضارع للدّلالة على الدّوام والاستمراريَّة، فالنَّهي عن فعل الرّكون مستَتْبِعٌ الاستمراريَّةَ عليه، وهو سلوكٌ مذمومٌ، والدّوامُ عليه فعلٌ رديّ.

تمثيل الغائب بالشّاهد، لِتَجْليَة مسمّى الأمر بالتّقوى، والنّهي عن الطّغوى

بلاغة الاستعارة في لفظ الرّكون:

"الرُّكونُ: المَيْلُ والموافَقَةُ، وفِعْلُهُ كَعَلِمَ، ولَعَلَّهُ مُشْتَقٌّ منَ الرُّكْنِ - بِضَمٍّ فَسُكونٍ - وهو الجَنْبُ، لأنَّ المائل يُدْني جَنْبَهُ إلى الشَّيءِ المُمالِ إليه، وهو هُنا مُسْتَعارٌ لِلْموافِق، فَبعد أن نَهاهُم عَنِ الطُّغْيانِ، نَهاهُم عَنِ التَّقارُبِ منَ المُشْرِكينَ؛ لِئَلّا يُضِلُّوهُم ويُزِلُّوهُم عنِ الإسلام"[1].

تنزيهُ مقام النبيّ عنِ المحظورات، في سياق الآية الكريمة

علَّة توحيد الاستقامة وجمع الرّكون:

جاء الخطاب في الأمر ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ في الآية السّابقة، موحَّدًا في الظّاهر، وإن كان المأمور به من حيثُ المعنى عامًّا، وجاء الخطابُ في النّهي: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ﴾ مُوجَّهًا إلى غير الرّسول ﷺ، مخاطَبًا به أُمّته، فحيثُ كان الأمر بأفعال الخير توجَّه الخطابُ إلى النَّبيِّ ﷺ إجلالًا، وحيثُ كان النَّهي عنِ المحظورات عَدلَ عنِ الخطاب عنه إلى غيره من أُمّته، وأتى بضمير الجمع في النَّهْيِ عن أفْعالِ الشَّرِّ، وهذا من جليل الفصاحة[2].

ولا يتصوَّر منَ النَّبيّ ﷺ وقوعُ منهيّ عنه، فمن المعلوم أنّه لا نهي إلّا حيث يُتَصَوّر وقوعُ النّهي عنه، ولا يمكن أن يُتصوّر منَ النّبيّ ﷺ طغيانٌ، أو ركونٌ إلى الظّالمين[3]، وأنّه لما كانَ مَدارُ النَّهْيِ هو الظُّلْمُ، والجَمْعُ باعْتِبارِ جَمْعيَّةِ المُخاطَبينَ، قيلَ: إنَّ ذَلِكَ لِلْمُبالَغَةِ في النَّهْيِ من حَيْثُ إنَّ كَوْنَهم جَماعَةً مَظِنَّةُ الرُّخْصَةِ في مُداهَنَتِهِمْ. وإن كان

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/178.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/222، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/393.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3769.

هذا القيل إنَّما يَتِمُّ أن لو كانَ المُرادُ النَّهْيَ عَنِ الرُّكونِ إليهم، من حَيْثُ إنَّهم جَماعَةٌ ولَيْسَ كَذٰلِكَ[1].

دلالة ﴿إِلَى﴾ في سياق الآية:

التّشوّف إلى دَفْع مفسدةِ الطّغيان، بماهيّة أقلّ ما قيل

الرُّكونُ حَقيقَتُهُ الِاسْتِنادُ والِاعْتِمادُ والسُّكونُ إلى الشَّيْءِ والرِّضا بِهِ. فالرُّكْن إذا تَعَدَّى بـ (إلى) كان بمعنى الميل، ومنه الرُّكن المستند إليه غيرُه؛ لكنّه ليس مطلقَ الميل، بل الميل اليسير، وأدنى الميلِ مُفسّر بما ذكره.

نُكْتَةُ العدولِ في ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

النّهي عنِ المساندة، أو مَن كان له الظُّلم عادةً

قال: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، أي: وُجِدَ منهم الظُّلم، ولم يقل: (الظّالمين)، أي: بالميل إليهم بأن تثاقَلَ أنفسُكم نحوهم للميل إلى أعمالهم، ولو بالرِّضى به، والتَّشبُّه بهم، والتَّزيّي بزيِّهم[2]، وإذا كان النَّهيُ عن مساندة الذين وقع منهم ظُلْمٌ، فأولى بالنَّهي مَن يكون الظُّلْمُ عادةً وسياسةً مستمرَّةً لهم، ويلاحظ أنَّ التَّعبير بالموصول فيه بيانٌ لسبب النَّهي، وهو وقوع الظُّلم منهم، أي: من وقوع الظُّلم على سبيل النُّدور ليُلائمَ المعنى[3].

إيثار التَّعبير عنِ الظُّلم بالماضي المجموع:

القصد إلى دلالة الحدوث، دون الثّبوت

آثر البيانُ القرآنيُّ التّعبيرَ عنِ الظّلم بالماضي المجموع؛ للتّنبيه على أنّ العدول عنِ (الظّالمين) - مع أنه أخصر - إلى ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ لدلالة الفعل على الحدوث دونَ الثُّبوت الدّالّ عليه الوصفُ باعتبار وضْعِه، فإن دَلّ الفعلُ على الحدوث دونَ التّقرّر والثُّبوت، فهذا القول لم يتناول مَن تَقرّر فيه الظُّلم، وكان موسومًا معلومًا بالظُّلم، فكان هذا مَنْشَأَ الأبلغيَّةِ، لكن هذا ليس كليًّا مُطّردًا، مثل:

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/245.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/393.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3763.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ [الأنعام: 31]، ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ﴾ [هود: 21]، ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ [هود: 11]؛ إذِ الظّاهر فيها الثُّبوتُ دونَ الحدوثِ[1].

دلالة (الفاء) في سياق الآية:

أفادتِ (الفاءُ) التَّسَبُّبَ عنِ المنهيِّ عنه

الفاءُ واقعةٌ في جواب النّهي؛ لأنَّها تُفيد تَسَبُّبَه عنِ المنهيِّ عنه[2]، والجمعُ بينَ السَّبب والجزاءِ لتأكيد النّهي عنِ الأعلى بدلالة الأدنى.

إيثار لفظِ (المسّ) وبلاغة المجاز فيه:

إيثار (المسّ) إخبارٌ أنّ العقاب على الميل، دونَ العقابِ على الظّلْم

قال ابن أبي الإصبع في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ "إنَّه سبحانَه لمّا نهى عنِ الرّكون للظّالمين، وهو الميلُ إليهم، والاعتمادُ عليهم، كان ذلك دونَ مشاركتِهم في الظّلْم، أخبر أنَّ العقاب على ذلك دونَ العقاب على الظُّلْم، وهو مَسُّ النّار، دونَ الإحراق والاصطلاء، وإن كان (المسُّ) قد يُطْلَق ويُراد به الاستئصالُ بالعذاب، وشمولُ الثّوابِ أكبرُ مجازًا، ولمّا كان المسُّ أوّلَ ألمٍ أو لَذّةٍ يباشِرُها الممسوسُ، جاز أن يُطْلَق على ما يَدلُّ عليه استصحابُ تلك الحال مجازًا، والحقيقةُ ما ذكرناه، وهو في هذه الآية الكريمة على حقيقته"[3]. وعلى هذا، فالمَسُّ مَجازٌ في الإصابَةِ، فَهو دالٌّ عَلَى مُطْلَقِ الإصابَةِ مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ بِشِدَّةٍ أو ضَعْفٍ، وإنَّما يُرْجَعُ في الشِّدَّةِ أوِ الضَّعْفِ إلَى القَرِينَةِ[4].

إيثار لفظ ﴿ٱلنَّارُ﴾ في الآية الكريمة:

دلالة الأدنى على الأحرى، والقصد إلى تعميم العقوبة

ذُكِرَ لفظُ ﴿ٱلنَّارُ﴾ في القرآن الكريم مئةً وسبعًا وثلاثين مَرّةً، وهذا اللّفظ لا يُعبّر بمجموعه عن نار الآخرة المعدَّة لعذاب الآثمين، وإنّما ورد اسمُ النّار في سياق الانتفاع منها في دار الدّنيا للأغراض

---

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/226.

(2) الشّهاب، عناية القاضي: 5/143.

(3) ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر، ص: 196.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/284.

المتنوّعة، في حين اختُصّ لفظُ (جهنم) للتّعبير عن عذاب الآخرة حصرًا، فلم تُستَخْدَم - ولو مجازًا - في التّعبير عن أيّ غرض من أغراض الدّنيا، كما هو الحال في لفظ ﴿ٱلنَّارُ﴾، وكما أنَّ الموضوعات التي ورد لفظُ ﴿ٱلنَّارُ﴾ في سياقها أكثرُ منَ الموضوعات التي ورد لفظُ (جهنّم) في سياقها؛ لكونها - النّار - عقابًا لأصغر الذّنوب، بخلاف (جهنّم) التي لا يُعذّب فيها ولا يَخْلُد إلّا المشركون[1]. ومن هنا كانت ﴿ٱلنَّارُ﴾ أولى بمصطلح (المسّ) من جهنّم؛ وذلك للدّلالة بالأدنى على الأحرى، وبتعميم العذاب في الدُّنيا والآخرة.

فن ائتلاف اللّفظ مع المعنى، والإدماج، والتّعليق، والافتنان:

اجتمع في قوله: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ جملةٌ منَ اللّطائف البلاغيّة[2] يحدّها:

أوجب العدلُ أن يكون المسُّ عقابَ الرّاكنِ إلى الظّالم

ائتلاف اللّفظ مع المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ إذ لـمّا كان الرّكونُ إلى الذين ظلموا دونَ فعلِ الظّالمين، وجبَ أن يكون العقابُ عليه دونَ عقابِ الظّالمين، ومَسُّ النّارِ في الحقيقة دونَ الإحراق، ولـمّا كان الإحراقُ عقابًا للظّالم، أوجب العَدلُ أن يكون المسُّ عقابَ الرّاكنِ إلى الظّالم.

التّأديبُ والموعظةُ مقصدان للآية الكريمة

ظاهر الآية التّأديبُ، ومن أجله جاءت في هذا الباب الموعظةُ، ووُصِفَ الحقُّ ﷻ بالعدل، وهذا ما يُسَمَّى بالإدماج، فقد أدمج اللّه سبحانَه وصْفه بالعدل، فتعلّق فنُّ الفخرِ بفَنِ الأدب.

العدول عن الوصف، يلائم وقوعَ الظّلم على سبيل النّدور

البَسْطُ: فلم يقل الحقُّ سبحانَه: (الظّالمين)، وعدلَ عن ذلك إلى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، لما يحتمل الأوّل مِن استمرار الظُّلم الذي لا يلائم المساسَ، ولا تحصل به المبالغةُ التي تحصُل منَ اللّفظ الثّاني،

(1) الموسويّ، مفردات قرآنية، النّار وجهنّم في القرآن الكريم، دراسة أسلوبيّة، مجلة كلية التربية - جامعة واسط، العدد الثامن والعشرون، ص: 141.

(2) ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، ص: 418، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/443.

من وقوع الظّلْم على سبيل النّدور؛ ليلائمَ المعنى لفظَ الرّكونِ ولفظَ المساسِ، وتحصُلَ المبالغةُ الحقَّةُ، لأنَّه إذ نهى عنِ الرّكون إلى مَن وقع منه الظّلْمُ في وقت دونَ وقت، كان النَّهيُ عنِ الرُّكون لمَن استمرّ منه الظّلم بطريق أولى.

نفي النّصير سوى الله، ودلالتُه

بلاغة النَّفي بـ (ما):

لَمّا كانَ كُلُّ مَوْجودٍ سِوى اللّه في قَهْرِه وتَحْتَ أمْرِه، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُم﴾؛ والمُرادُ نَفْيُ أن يَكونَ لِكُلٍّ نَصيرٌ سوى اللّه، بالأداة (ما) الدّالَّة على المبالغة في النّفي، والمَقامُ قَرينَةٌ عَلى ذَلِكَ[1].

تقرير الجزاء، بحال انتفاء النّصرة

دلالة شبه الجملة (لكم):

جملةُ: ﴿وَمَا لَكُم﴾ يجوز أن تكونَ حاليَّةً، أي: فتَمَسَّكم النّار حالَ انتفاءِ ناصرِكم، ويجوز أن تكون مستأنفة[2]. وكون جملة النّفي حاليّةً أدلُّ على عجزهم وافتقارهم إليه تعالى، فلا وليّ غيرُه، ولا ناصرَ سِواه.

القصد إلى تقرير الجزاء بتأكيد النّفي

دلالة ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

﴿مِّن﴾ هنا لاستغراق النّفي[3]؛ والقصدُ إلى المبالغة في تقرير الجزاء.

نفي وجود النّاصر المخلّص من عذاب الله

إيثار التّعبير بـ المركّب الإضافيّ:

آثر البيانُ القرآنيُّ التّعبيرَ بـ ﴿دُونِ ٱللَّهِ﴾، لما تقرّر أنّ ﴿دُونِ﴾ من الأدْون، وهو الأقرب إلى جهة السُّفْل؛ والمراد: لَيْسَ لكم أوْلياءُ يُخَلِّصونَكم من عَذابِ اللّه[4].

إيثار إظهارِ الاسم الأعظم، تشوّفٌ إلى عظمته

عِلّة إظهارِ اسمه الأعظم:

لَمّا كانَ دونَ رُتْبَتِهِ ﷻ منَ الرُّتَبِ والذَّواتِ ما لا يُحْصيهِ غَيْرُهُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/394.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/419.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3765.

(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 18/407.

سبحانَه، أَدْخَلَ الجارَّ تَبْعيضًا، فَقالَ: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: المَلِكِ الأَعْظَم؛ إظهارًا لتَفَرُّدِه وعظيم رُتبته، تعالى عن ذلك عُلوًّا كبيرًا[1].

دلالة حرف الجرّ في ﴿مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾:

نفيُ النُّصرة بما يفيد العموم

سيق حرف الجرّ للدّلالة على الإغراقِ في النَّفْي، فقال: ﴿مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾[2]، ويناسبُ ذلك صَغارُ كُلّ وليٍّ دونَ اللّه تعالى، ودوْنيَّةُ كُلِّ ناصرٍ سوى اللّه جلَّ في عُلاه، بل انعدامُهما أمامَ سلطانِه سبحانه.

سرّا التنكير والجمع في ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾:

التّأكيدُ على نفي عموم النُّصرة والولاية في الآخرة

جاءت لفظةُ ﴿أَوۡلِيَآءَ﴾ نَكِرةً في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ لتشملَ كلَّ الأولياء، فهي نكرةٌ في سياق النّفي، فدلّت على العموم. ولم يقل: (ما لكم من وليٍّ ولا نصير) بصيغة المفرد؛ لأنّ هذه تَرِد في سياق الآخرة، وإذا أراد السّياق في الدّنيا يقول سبحانه: (من دون اللّه من ولي ولا نصير)[3].

بيانُ العطف بـ ﴿ثُمَّ﴾:

ترديد نفي النّصرة بـ (ثمّ) الاستبعاديّة أو المتراخيَة، أو ما يُنَزَّلُ منزلة فاء السّببيّة

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: من جِهَتِه تعالى؛ إذْ قَدْ سَبَقَ في حُكْمِه أن يُعَذِّبَكم بِرُكونِكم إليهم، ولا يُبْقيَ عَلَيْكُم، و﴿ثُمَّ﴾ لِاسْتِبْعادِ نَصْرِهِ سُبْحانَهُ إيّاهم، وقَدْ أوْعَدَهُمُ العَذابَ على ذَلِكَ، وأوْجَبَهُ لَهُمْ. وتُعُقِّبَ بِأنَّ أثَرَ الحَرْفِ إنَّما هو مَدْخولُهُ، ومَدْخولُ ﴿ثُمَّ﴾ عَدَمُ النُّصْرَةِ ولَيْسَ بِمُسْتَبْعَدٍ، وإنَّما المُسْتَبْعَدُ نَصْرُ اللّه تَعالى لَهُمْ، والظّاهِرُ أنَّها لِلتَّراخي في الرُّتْبَةِ؛ لِأنَّ عَدَمَ نَصْرِ اللّه تَعالى أشَدُّ وأفْظَعُ من عَدَم نُصْرَةِ غَيْرِه. وأُجيبَ بِما لا يَخْلو عن تَكَلُّفٍ، وأيًّا ما كانَ، فالمَقامُ مَقامُ الواوِ، إلّا أنَّهُ عَدَلَ عنها لِما ذُكِرَ[4].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/394.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/394.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 12/108.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/349.

وجَوَّزَوا أنْ تَكونَ ﴿ثُمَّ﴾ مُنَزَّلَةً مَنزِلَةَ الفاءِ، بِمَعْنى الاسْتِبْعادِ، فَإنَّهُ سُبْحانَهُ لَمّا بَيَّنَ أنَّهُ مُعَذِّبُهم، وأنَّ أحَدًا لا يَقْدِرُ عَلى نَصْرِهِم، أنْتَجَ ذَلِكَ أنَّهم لا يُنْصَرونَ أصْلًا. ووجْهُ ذَلِكَ: بِأنَّهُ كانَ الظّاهِرُ أن يُؤْتى بِالفاءِ التَّفْريعيَّةِ المُقارِنَةِ لِلنَّتائِجِ، إذِ المَعْنى: أنَّ اللّٰه تَعالى أوجب عليكم عِقابَهُ، ولا مانِعَ لَكم منهُ، فَإذَنْ أنتم لا تُنْصَرونَ، فَعَدَلَ عنهُ إلى العَطْفِ بـ ﴿ثُمَّ﴾ الاسْتِبْعاديَّةِ إلى الوجْهِ الَّذي ذَكَرَهُ، واسْتِبْعادُ الوُقوعِ يَقْتَضي النَّفْيَ[1].

بلاغة النّفي بالحرف ﴿لَا﴾:

دلالة نفي النُّصرة بالحرف (لا) منه سبحانه أو من دونه

لمّا نفى النّصرةَ عن غيره تعالى في قوله: ﴿لَا تُنصَرُونَ﴾، حمل النُّصرة المنفيّة على نُصرته تعالى، فعلى هذه الجملة تكون للتّكميل والاحتراس، إذ نفيُ النّصرةِ من دون اللّه تعالى ربما يوهم النُّصرة منه تعالى، فقوله: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ لِدَفع هذا الوهم، والتّأخير لرعاية الفواصل[2].

نكتة التّعبير عن فعل النّصر، بصيغة المضارع:

بيان القصد إلى نفي النُّصرة، بما يفيد الدّوام

ورد فعل النّصر بصيغةِ المضارع لإفادة الاستمرار؛ أي: إنَّ نُصْرة اللّه مستبعدةٌ مع استيجابهم العذابَ، واقتضاءِ حِكمته له[3].

علّة بناء الفعل للمفعول:

استحالة نصرِ مَن شاء الله خِذْلانه

أشارَ البيان القرآنيُّ إلى أنَّ نَصْرَ مَن لم ينصره اللّه مُحالٌ، وذلك بأداةِ البُعْدِ والبناءِ لِلْمَفْعول، فقالَ: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: ثُمَّ إذا فاتَكم هَذا وذاكَ، فما أبْعَدَكم منَ النُّصْرَةِ من غير اللّه تعالى.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/349.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ ومعه حاشية ابن التّمجيد: 10/227.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/221.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

تركنوا، وتجنحوا، وتميلوا:

نفى الميلَ إلى الظّالمين رغبةً، ومحبّةً، قلبًا وفعلًا

الرُّكونُ: السُّكونُ إلى الشَّيْءِ بِالمَحَبَّةِ، والانْصِبابُ إلَيْهِ، ونَقيضُهُ: النُّفورُ عنهُ.

والمَيْلُ: قد يكون كثيرًا وقليلًا.

أمّا الجُنوح: فمَيلُ القاصِدِ إلى السَّلْم أو غيرِه، كَما يَميلُ الطّائِرُ الجانِحُ.

والحاصل: أنّ القدر المشترك بينَ المذكورات وجودُ مسمّى الميل في كلٍّ، والخُلف على اعتبارات؛ أذكر منها:

الاعتبار الأوّل: قد يكون الجنوحُ ميلًا مشروعًا، إذا عُلِمَ حالُ الرّاغب، أو كان ميلًا غيرَ مقدور عليه.

الاعتبار الثّاني: يكون الجنوحُ فعلًا لا قلبًا، والميلُ قلبًا لا فعلًا، والرّكون فعلًا وقلبًا.

ومن هنا اختير في الآية: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ﴾ دلالة على نفي الميل إلى الظالمين، رغبةً ومحبّةً، قلبًا وفعلًا؛ لكون اجتماعهما أدلّ على الانقياد، والطّاعة، والتّسليم.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ١١٤﴾ [هود: 114]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تحقيق مناطاتِ الاستقامة، وأصولِ الدّيانة، بتقرير المكفِّرات، جبرًا للتقصير

لَمّا أمَرَ ﷻ نبيّه ﷺ بِالاسْتِقامَة، أَرْدَفَهُ بالأمْرِ بالصَّلاة، وذلك يَدُلُّ على أنَّ أعْظَمَ العِباداتِ بعد الإيمانِ باللّه هو الصَّلاةُ[1]، فانْتَقَلَ من خِطابِ المُؤمنينَ إلى خِطابِ النَّبيِّ ﷺ ، وهذا الخِطابُ يتناولُ جميعَ الأُمَّةِ بقرينةِ أنَّ المَأمورَ به منَ الواجباتِ على جَميعِ المُسْلمينَ، لا سيَّما وقد ذُكِرَ معه ما يُناسِبُ الأوْقاتَ المُعَيَّنَةَ لِلصَّلَواتِ الخَمْسِ[2]. وأنَّه لَمّا كانَ العِلْمُ حاصِلًا بما سَبَقَ مِنَ الحُكْمِ من أنَّ الآدَميَّ مَحَلُّ العَجْزِ والتَّقْصيرِ، أتبعَ ذلك بأعلى مُكَفِّرٍ لِما يوجِبُهُ العَجْزُ ويَقْضي به الفُتورُ والوهْنُ مِنَ الصَّغائرِ، وأعَمِّهِ وأجْلَبِهِ لِلاسْتِقامَةِ، فقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طَرَفَيِ﴾: طَرَفُ الشّيءِ: جانِبُهُ، ويُستَعمل في الأجسام والأوقات وغيرهما. والطَّرَفُ: النّاحيَةُ والطّائِفَةُ مِنَ الشَّيْءِ، وفُلانٌ كَريمُ الطَّرَفَيْنِ؛ يُرادُ بِهِ نَسَبُ أبيهِ وأُمِّه. قالَ الزَّجّاجُ: أطْرافُ النَّهارِ الظُّهْرُ والعَصْرُ، وقالَ ابْنُ الكَلْبيِّ: أطْرافُ النَّهارِ ساعاتُهُ. وقالَ أبو العَبّاسِ: أراد طَرَفَيْهِ فَجَمَعَ[4].

2) ﴿وَزُلَفًا﴾: (الزّاءُ واللّامُ والفاءُ) يَدُلُّ على انْدِفاعٍ وتَقَدُّمٍ في قُرْبٍ إلى شَيْءٍ. يُقالُ مِنْ ذَلِكَ: ازْدَلَفَ الرَّجُلُ: تَقَدَّمَ. وسُمِّيَتْ

(1) ابن عادل، اللّباب: 10/591.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/178 - 179.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/394.
(4) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (طرف).

مُزْدَلِفَةَ بِمَكَّةَ، لِاقْتِرابِ النّاسِ إلى منًى بعد الإفاضَةِ من عَرَفاتٍ. ويُقالُ: لِفُلانٍ عِنْدَ فُلانٍ زُلْفَى، أي: قُرْبَى. قال الله جَلَّ وعَزَّ: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ [ص: 25]. والزَّلَفُ والزُّلْفَةُ: الدَّرَجَةُ والمَنْزِلَةُ. وأَزْلَفْتُ الرَّجُلَ إلى كذا: أَدْنَيْتُهُ[1]. والزُّلْفَة: طائفةٌ من أوّل اللّيل، وهي السّاعات التي يلتقي بها اللّيلُ والنَّهار: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾[2].

3) ﴿ذِكۡرَىٰ﴾: الذِّكْرَى والذُّكْرَةُ: ضِدُّ النِّسْيانِ، تَقولُ: ذَكَرْتُهُ ذِكْرَى غَيْرَ مُجْراةٍ، واجْعَلْهُ منْكَ على ذُكْرٍ وذِكْرٍ - بِضَمِّ الذّالِ وكَسْرِها - بِمَعْنًى. والذِّكْرُ: الصِّيتُ والثَّناءُ. قالَ الله تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾ [ص: 1] أي: ذي الشَّرَفِ. وذَكَرَهُ بعد النِّسْيانِ، وذَكَرَهُ بِلِسانِهِ وبِقَلْبِهِ، يَذْكُرُهُ ذِكْرًا وذُكْرَةً وذِكْرَى أيْضًا، وتَذَكَّرَ الشَّيْءَ وأَذْكَرَهُ غَيْرُهُ وذَكَّرَهُ: بِمَعْنًى[3]. وذِكْرى مصدر ذكَرَ، وهي العبرة، والعِظة، والتَّوبة، كقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ١٣﴾ [الدخان: 13][4]، وجاءت بمعنى التّذكّر، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٦٨﴾ [الأنعام: 68][5]. وجاءت بمعنى التَّسبيح والطّاعة كقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢﴾ [الأعراف: 2][6]. وجاءت بمعنى الدّليل والحُجّة كقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ ٣١﴾ [المدثر 31][7]، ومعناها في الآية: العِظَة[8]، أو التَّوبة[9]، مع احتمالها كثيرًا منَ المعاني المذكورة.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يأمر الله تعالى بإقامة الصّلاة كاملة في أوّل النّهار وآخِره، لكون هذه الصّلوات الخمس، وما أُلحقَ بها منَ التّطوّعات من أكبر الحسنات، التي تُقَرّب إلى الله، وتوجِب الثّواب، وتُذْهِب السّيّئات وتمحوها، وفي لزوم الاستقامة على الصّراط المستقيم، وعدم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زلف).
(2) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (زلف).
(3) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (ذكر).
(4) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 1/816.
(5) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 1/816.
(6) أحمد مختار، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: 1/816.
(7) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: 1/816.
(8) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/223.
(9) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/407.

مجاوزته وتَعَدّيه، وعدم الرّكون إلى الذين ظلموا. والأمرُ بإقامة الصّلاة ﴿ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾، الذين يفهمون بها ما أمَرَهم اللّٰه به، ونهاهم عنه، ويمتثلون لتلك الأوامر الحسنة المثمرة للخيرات، الدّافعة للشّرور والسّيّئات[1].

الصّلاة عمود الدّين، وسبيل القُربة، وتحصيلُ الحسنات

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الوصل بالعطف:

الاشتراك في الأحكام، فرعٌ عنِ الاشتراك في العطف

قول اللّٰه تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ معطوفٌ على الأوامر والمنهِيّات قبلَه[2]، والقَصْدُ إلى تشريك المعطوف لما قبلَه في الحُكم.

دلالة الأمر:

إقامة الصّلاة عَمَلٌ واجِبٌ، على ما أمر اللّٰه به وارتضاه

في قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، الأمْرُ بالإقامَةِ يُؤْذِنُ بأنَّهُ عَمَلٌ واجِبٌ، لأنَّ الإقامَةَ إيقاعُ العَمَلِ على ما يَسْتَحِقُّهُ[3]. ومَعْنى إقامَتِها: أداؤُها على تَمامها، وقيل: المُداومَةُ عليها، وقيل: فِعْلُها في أوَّلِ وقْتِها[4].

وجه تعريف الصّلاة:

سوق الجِنس؛ للدّلالة على عدم التّحديد

وجه تعريف الصّلاة في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ إرادة الجِنس؛ لأنَّه لا يُراد به واحدٌ بعينه، بل هو لعموم الجِنس[5]؛ للدّلالة على كونها شاملةً لأوقات الصّلاة المفروضة، دونَ تحديدِ عددها[6].

سِرّ تخصيص الصّلاة في الآية الكريمة:

إعلاء شأن الصّلاة، بتخصيص ذِكرِها

خَصّ اللّٰه تعالى الصّلاةَ بالأمر، بعد أمره بالاستقامة؛ لأنّها أُمّ العبادات، وجامعةٌ لجميع المَبرّات، فَلِلتَّنبيه على إنافتها، خُصّت

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 391.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3766.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/179.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/349.
(5) السّامرائيّ، معاني النّحو: 3/124.
(6) القطان، تيسير التفسير: 2/241.

بالذِّكر من بينَ الطّاعات(1). فهي عَمود الدّين، ورُكنه المتين، وأوّل ما يُسأل عنه العبد يومَ الدّين.

سرّ تخصيص الرسول بالصّلاة:

إعلاء مقام النُّبوّة، وتشريفُه بأُمِّ العبادات

خُصَّ النَّبيُّ ﷺ بالأمرِ بالصَّلاة؛ لأنَّه إمامُ أُمَّته، ولا يسعُ العمومَ إلّا أن يتّبعوه(2)، فكان الأمرُ في ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ موحَّدًا في الظّاهِرِ، وإنْ كانَ المَأمورُ بِهِ من حَيْثُ المَعْنى عامًّا(3).

فائدة التّعبير بالطّرف، وتثنيته:

القصدُ إلى توقيت أُمّ العبادات، وحصرِها أزمنةً بمشترك مُعجز

طَرَفُ الشَّيءِ في قوله تعالى: ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ مُنْتَهاهُ، من أوَّلِهِ أو من آخِرِه، فالتَّثْنِيَةُ صَريحَةٌ في أنَّ المُرادَ أوَّلُ النَّهارِ وآخِرُهُ، نهايتُه من ناحية، ونهايتُه منَ النّاحية الأُخرى؛ لأنّ طرف الشّيء هو نهايتُه(4)، وانْتَصَبَ طَرَفَي النَّهارِ للدّلالة على الظَّرْفيّة واسْتِغْراقِ الأوْقاتِ بِالعِبادَةِ(5)؛ والطّرَف وإن لم يكن ظرفًا، لكنّه لـمّا أُضيف إلى الظّرف أُعْرب إعرابَه، وهو كقولك: (أتيتُه أوّلَ النّهار وآخِرَه ونصفَ اللّيل)، بنصْبِ هذه كلِّها على الظّرفِ لـمّا أُضيفَتْ إليه، وإن كانت ليسَتْ موضوعةً للظّرفيّة(6).

إيثار لفظِ النّهار دونَ غيره:

ترجيح حرفِ النّهار، لمعنى البُروز والظُّهور الّذي يُثيره باكرًا

أوثِرَ لفظُ ﴿ٱلنَّهَارِ﴾ في قوله تعالى: ﴿طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ دون غيره كـ (الصباح) و(الغَداة)؛ لأنّه يتناول ما بين مطلع الفجر إلى غروب الشّمس، وسُمّي بذلك لأنّ الضّياء يَنْهَر فيه، أي: يبرز كما يبرز النّهر(7).

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/114.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/114.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/222.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 11/6717.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 9/109.
(6) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/420.
(7) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/287.

دلالة العطف بالواو:

القصد إلى الجمع بين الوقتين، بدلالة العطف

حَقُّ الواو في قوله تعالى: ﴿وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ أن تَعْطِفَ على الصّلاة، أي: أَقِمِ الصّلاة طرفي النّهار، وأقِمْها زُلفًا منَ اللّيل[1].

أي: جاءت الواو للجمع بينَ الوقتين.

إيثارُ لفظِ (الزّلَف) في السّياق:

القَصدُ إلى مدارك ما أوجب، بطريق الإجمال، تشوُّقًا إلى مدارج التّفصيل

الزُّلَف في قوله تعالى: ﴿وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾، مُطْلَق ساعاتِ اللّيل، وأصل معناه: القُرْب. يقال: ازدلف، أي: اقترب[2]، وهي جَمْعُ زُلْفَةٍ، مثْلُ: غُرْفَةٍ وغُرَفٍ، وهيَ السّاعَةُ القَرِيبَةُ من أُخْتِها، فَعُلِمَ أنَّ المأمورَ إيقاعُ الصَّلاةِ في زُلَفٍ منَ اللَّيلِ، ولمّا لَم تُعَيَّنِ الصَّلَواتُ المأمورُ بإقامَتِها في هذه المدَّةِ منَ الزَّمانِ، كان ذلك مُجْمَلًا، فَبَيَّنَتْهُ السُّنَّةُ والعَمَلُ المُتَواتِرُ بِخَمْسِ صَلَواتٍ؛ هي الصُّبْحُ والظُّهْرُ والعَصْرُ والمَغْرِبُ والعِشاءُ[3].

سرّ تنكيرِ (الزّلَف)، وجمعِه:

تعيين الصَّلَوات المَأْمور بها، والتّلويح بأقلّ الجمع، إقامةً للصّلاة

ورد التّنكيرُ لمّا لَم تُعيَّنِ الصَّلَواتُ المَأْمورُ بإقامَتِها في هَذِهِ المُدَّةِ منَ الزَّمانِ؛ فكانَ ذَلِكَ مُجْمَلًا[4]؛ ليناسبَ امتدادَه، وسكونَه، وصفاءَه. ومناسبتُه للخَلْوة مع الباري سبحانه؛ ليتخيّر العبدُ منها بعدَ أوقات الفروض السُّنَنَ تهجّدًا.

معنى ﴿مِّنَ﴾ التّبعيضيّة:

سيقت (من) للدّلالة على الإيقاع في بعض الأزمنة

﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾ تبعيضيّة[5]، سيقت بهذه الصّيغة للدّلالة على طائفة منَ اللّيل، وذلكم من رحمة الله تعالى، فلو لم يبعّض لاسْتَغْرَقَ اللّيلَ كلّه، وفي ذلك مشقّةٌ لا يُطيقها بشرٌ.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/435.

(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/136.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/179.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/179.

(5) الشّهاب، عناية القاضي: 5/144.

نُكْتَةُ التعريف:

إيثارُ تعريف ﴿ٱلَّيۡلِۚ﴾ للدّلالة على معهود؛ ويمكن أن يَكونَ المُرادُ بِهِ التَّهَجُّدَ، فَقَدْ كانَ مَفْروضًا في أوّلِ الإسلام، ويُمْكِنُ أن يُرادَ المَغْرِبُ والعِشاءُ مَعَ الوِتْرِ أو التَّهَجُّدِ[1].

التّعريف للدّلالة على المعهود

بلاغة التَّوكيد بـ ﴿إِنَّ﴾:

تَأْكيدُ الجُمْلَةِ بِحَرْفِ ﴿إِنَّ﴾ لِلاهْتِمام وتَحْقيقِ الخَبَرِ. و﴿إِنَّ﴾ فيه مُفيدَةٌ معنى التَّعْليلِ والتَّفْريع، وهذا التَّعْليلُ مُؤْذِنٌ بأنَّ اللهَ جَعَلَ الحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ، والتَّعْليلُ مُشْعِرٌ بِعُمومِ أَصْحابِ الحَسَناتِ؛ لِأنَّ الشَّأْنَ أنْ تَكونَ العِلَّةُ أعَمَّ منَ المَعْلولِ، مع ما يَقْتَضيهِ تَعْريفُ الجَمْعِ باللّامِ منَ العُمومِ[2].

التّشوُّفُ إلى الاهتمام وتحقيق الخبر

وجه تعريف ﴿ٱلۡحَسَنَٰتِ﴾ و﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ وجمعِهما:

وجهُ مقابلةِ الجمع بالجمع، أنَّ الظّاهرَ عمومُ الحسنات، وتدخل الصّلواتُ المأمورُ بها دخولًا أوّليًّا[3]، وهذا التَّعْليلُ مُؤْذِنٌ بأنَّ اللهَ جَعَلَ الحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ، ومُشْعِرٌ بِعُمومِ أَصْحابِ الحَسَناتِ؛ لِأنَّ الشَّأْنَ أن تَكونَ العِلَّةُ أعَمَّ منَ المَعْلولِ، مع ما يَقْتَضيهِ تَعْريفُ الجَمْعِ بِاللّامِ مِنَ العُموم، وقد جيء بها مجموعةً جَمعَ المُؤَنَّث السّالم؛ للإشارة إلى أنَّ كلَّ صلاة مِنَ الصّلوات التي تُؤَدَّى في وقتها تمثل حسنةً تمحو السّيّئات[4].

دلالة التَّعْليل، مُؤْذِنَةٌ بمقابلة العموم بالتّعميم

نُكْتَةُ ورودِ اللّام في: ﴿ٱلۡحَسَنَٰتِ﴾:

اللّام في الحسنات للعهد؛ للدّلالة على معلوم، وعيدًا وتأنيسًا.

الإحالة على المعهود، دركًا ووعيدًا وتأنيسًا

بلاغة الطباق:

يجمع الانسجامُ والتّآلفُ الدّلاليُّ بينَ الطّباق القرآنيّ الزّمنيّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/395.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/395.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/114.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/180.

توافق المتضادات في دلالتها على القدر المشترك

والطّباقِ الخَلقيّ، في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، ذلك أنّ صلاة الفجر هي أوّل أعمالِ المسلم إذا أصبح، وأنّ صلاة العشاء آخِرُ أعمالِه إذا أمسى، لذلك كان هذا الفرضُ الدّيني يمحو السّيّئات التي اقترفها المرءُ أثناء اليوم، بتأديته للْحَسَناتِ التي تمحو السَّيِّئاتِ، ومن هنا تتوافق المتضادّات في دلالاتها الدّينيّة.

سِرُّ التَّعبير بقوله: ﴿يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾:

دلالةُ التّعبير بالإذهاب على انسياق النّفسِ إلى ترك السّيئات

إذْهابُ السَّيِّئاتِ يَشْمَلُ إذْهابَ وُقوعِها، بِأنْ يَصيرَ انْسياقُ النَّفْسِ إلى تَرْكِ السَّيِّئاتِ سَهْلًا وهَيِّنًا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: 45]، ويكونُ هذا من خَصائِصِ الحَسَناتِ كُلِّها. ويَشْمَلُ أيضا مَحْوَ إثْمِها إذا وقَعَتْ، ويَكونُ هذا مِنْ خَصائِصِ الحَسَناتِ كُلِّها، فَضْلًا مِنَ اللّهِ على عِبادِهِ الصّالِحينَ[1].

بلاغة المجاز في لفظ (الإذهاب):

التّجوّزُ إلى تنزيل المُسَبَّب منزلةَ السّبب

يَعُدُّ إذهابَ السَّيئاتِ تركُ المؤاخذة عليها، والإسنادُ على ذلك مجازيٌّ؛ لأنّها سبب لتكفيرها[2].

سرُّ التَّعبير باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

دلالة الإشارة على علوّ منزلة الكتاب، بفرائضه ونواهيه

في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ إشارةٌ إلى القيام بالفرائض الخمس، وقال المفسّرون: إنّه إشارة إلى القرآن، وكانت الإشارةُ إلى البعيد لعلوّ منزلتِه، ورِفعةِ مكانته، وبُعْدِ شأْوِه[3]، فـ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمرُ العالي الرُّتبة الذي تقدّم مِنَ التَّرغيب والتَّرهيب، والتَّسليَة، وتعليم الدّاء والدّواء للخلاص منَ الشّقاء[4]. ويَحْتَملُ أنْ يَكونَ اسمُ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ "إشارَةً إلى الإخْبارِ بِأنَّ

(1) القونويّ، حاشية القونويّ: 10/114.
(2) االقونويّ، حاشية القونويّ: 10/114.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3768.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/396.

الحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَيِّئاتِ، فَتَكونُ هَذِهِ الذِكْرى تَحُضُّ على الحَسَناتِ، ويَحْتَمِلُ أنْ تَكونَ الإشارَةُ إلى جَميعِ ما تَقَدَّمَ منَ الأوامرِ والنَواهي في هَذِهِ السورَة[1].

نُكْتَةُ التَّعبير عنِ الذِّكرى مصدرًا مُنَكَّرًا:

المعاودة للأنام تذكيرًا، تحملها المصادرُ تنكيرًا

الوصف بـ ﴿ذِكۡرَىٰ﴾ أي: هي سَبَبُ ذِكْرٍ، ومَوْضِعُ ذِكْرى[2]؛ فتحملُ الذِّكْرى التَّذكّرَ الدّائمَ الباقي المستمرَّ، ولا شكَّ أنَّ أداء الصّلواتِ الخمس في مواقيتها على الوجه الكامل، يجعل نفسَ المؤمنِ في ذِكْرٍ دائمٍ للّه[3].

دلالة اللّام في الآية:

المقصود من هو أهل للذّكر، قلبًا وقالبًا

اللّام في قوله: ﴿لِلذَّٰكِرِينَ﴾ للاختصاص والاستحقاق، أي: لمن فيه أهليّةُ الذِّكر والانتباه به، بحضور القَلْب، وصفاءِ الفكر، ونفوذِ الفَهْم[4].

سرُّ التَّعبير باسم الفاعل المجموع:

شأن الذّاكرين الرّاسخين على الذّكر، الدّوامُ عليه

آثر البيان القرآنيُّ اسمَ الفاعل: ﴿لِلذَّٰكِرِينَ﴾، للدّلالة على ثبوت المصدر في الفاعل ورسوخه فيه، والذّاكرون همُ المُتَّعِظون، وخَصّهم لأنّهم المنتفعون بخيرَي الدّاريْن، وجمع ﴿لِلذَّٰكِرِينَ﴾ تلميحًا على كَثْرتهم، وحثًّا على الانضمام إلى زمرتهم، والانتظام في سِلْكِهم، وفيه دعوةٌ إلى الإكثار منَ الذّكر، والازدياد منه[5].

بلاغة الجناس الاشتقاقيّ:

نهاية الإيجاز المعجز، اختصارًا وجناسًا اشتقاقيًّا

قوله: ﴿ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾، فيه غايةُ الاختصار، ونهايةُ الإيجاز والبلاغة، وجمعُ المعاني مع ما فيه منَ الجناس الاشتقاقيّ، بحيث

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/213.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/213.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3768.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/396.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/181.

يرجع اللّفظان في الاشتقاق إلى أصلٍ واحد[1]، يترسّخ بتنوّع التّعبير عنه، تعدّدُ معانيه، وتنوّعُ محتملاته.

بلاغة الفَذْلَكةِ:

تعليل التَّذييل والمذيَّل، ترغيبًا وتحريضًا وتعميمًا للأعمّ

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ جاء تذييلًا لمجموع قوله: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ﴾ إلى قوله: ﴿يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾، وهو فَذْلَكَة له ونتيجة، على منوال قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۚ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٣٤﴾ [النّمل: 34]، ثمَّ علّل كُلًّا منَ التّذييل والمُذَيَّل بقوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ترغيبًا وتحريضًا، وجاء بما هو أعمُّ العامّ؛ لأنّ المُحْسِنَ مَن لم يُخِلَّ بما يدخلُ تحتَ مسمّى الإحسان، فيدخلُ فيه دخولًا أوّليًّا[2].

(1) عبد الكريم الخضير، شرح التّجريد الصّريح لأحاديث الجامع الصحيح: 5/20.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 8/225.

المحتويات